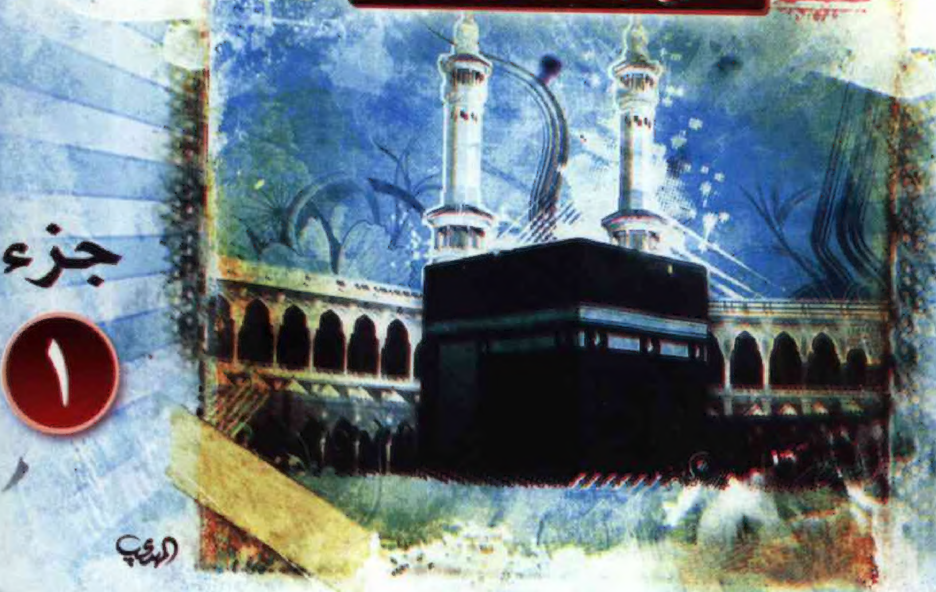


الموسوعة الجلية في شروح

العقيدة الواسطية

:: لشيخ الإسلام / ابن تيمية ::



جزء ١

:: لأصحاب الفضيلة ::

محمد بن صالح بن عثيمين
صالح بن فوزان الفوزان
فيصل بن عبد العزيز آل مبارك
عبد العزيز بن محمد بن مانع
محمد بن إبراهيم آل الشيخ
عبد العزيز بن ناصر الرشيد
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
عبد العزيز بن عبد الله بن باز
زيد بن عبد العزيز آل الفياض
عبد الرحمن بن ناصر البراك
محمد خليل هراس

وبهامشه تعليقات
الشيخ / إسماعيل الأنصاري

ومعه أسئلة وأجوبة
للشيخ / عبد العزيز بن محمد السلماني

دار ابن الجوزي
القاهرة

:: هذه الطبعة تعتمد في تصحيحات وتضعيفات أحاديثها على أحكام الشيخ الألباني ::

منتدى اقرأ الثقافي

www.iqra.ahlamontada.com

الموسوعة الجلية في شروح العقيدة الواسطية

لشيخ الإسلام ابن تيمية

لأصحاب الفضيلة

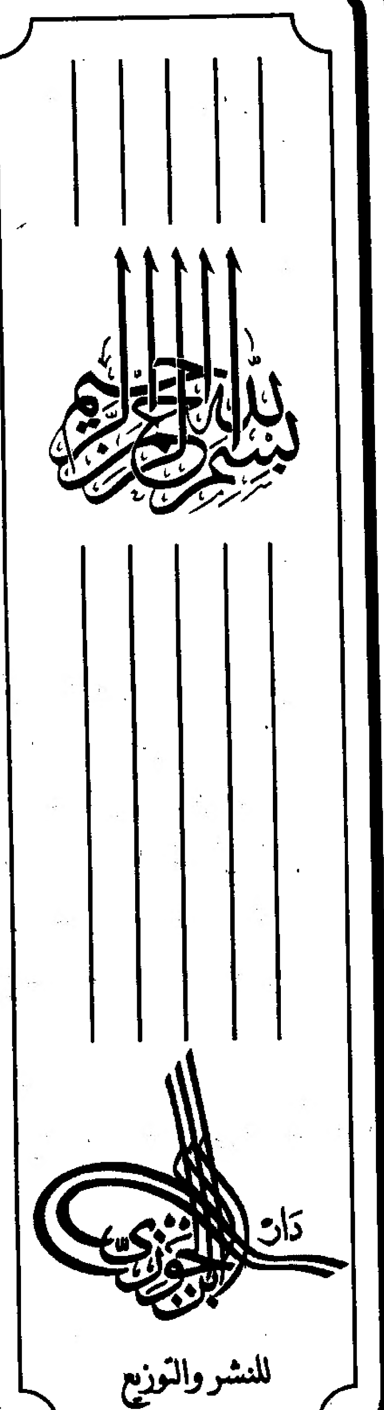
* فيصل بن عبد العزيز آل مبارك
* عبد الرحمن بن ناصر السعدي
* عبد العزيز بن محمد بن مانع
* محمد خليل هراس
* محمد بن إبراهيم آل الشيخ
* زيد بن عبد العزيز آل فياض
* عبد العزيز بن ناصر الرشيد
* عبد العزيز بن عبد الله بن باز
* محمد بن صالح بن عثيمين
* عبد الرحمن بن ناصر البراك
* صالح بن فوزان الفوزان
* صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

وبهامشه تعليقات
الشيخ إسماعيل الأنصاري

ومعه أسئلة وأجوبة
للشيخ عبد العزيز بن محمد السلماني

هذه الطبعة تعتمد في تصحيحات وتضعيفات أحاديثها
على أحكام الشيخ الألباني

الجزء الأول



الطبعة الأولى

٢٠١٢م

١٤٣٣هـ / ٢٠١٢
رقم الإيداع: ٢٠٠٥/٥١٨٢

دار ابن الجوزي

جمهورية مصر العربية – القاهرة

٥ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر

ت: ٠٠٢٠٢٢٥٠٦١٩٠٣

ت: ٠٠٢٠٢٢٥٠٦١٦٢١

تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٥٠٦١٦٢٠

E-mail: dar_ebnelgawzy@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

إن الحمدَ للهِ نَحمَدُه ونَستَعِينُه ونَستَغفِرُه ، ونَعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا ، ومِن سيئاتِ أعمالِنا ، مَن يَهدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له ، ومَن يُضلِلْ فلا هاديَ له .

وأشهَدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شَريكَ له ، وأشهَدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٠ - ٧١] .

أما بعدُ :

فقد اتسمت « العقيدة الواسطية » على اختصارها بأنها عقيدة مستندة إلى الكتاب والسنة وإجماع أهل العلم ، وقد قال في ذلك شيخ الإسلام : « إنه ما من لفظ في هذه العقيدة إلا وله دليل من الكتاب أو السنة أو إجماع السلف » .

وتميزت هذه العقيدة أيضًا بأنها قد استقرأت أقوال السلف وما قاله الأئمة من الصحابة ومَن بعدهم مِن القرون المفضلة ، فأجملت ذلك واختصرته بعبارة واضحة .

وقد تميزت أيضًا بتحرير ألفاظها تحريرًا بالغًا دقيقًا ، وقد أمهل الشيخ خصومه ثلاث سنين ليأتوا بشيء في هذه العقيدة يخالف ما عليه السلف ، فلم يجدوا ، فرجعوا خاسئين .

وقد تميزت أيضًا هذه العقيدة بأنها شاملة لأصول الدين ، وقد قال الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ - حفظه الله - في ذلك :

« وقد ذكر الشيخ في شرحه أن هذه العقيدة قد اشتملت على مباحث متنوعة منها مباحث أصلية في شرح أركان الإيمان الستة ، ومنها متممات لذلك ، ومنها الكلام على منهج التلقي والاحتجاج ، والكلام على النصوص والتسليم لها والإجماع ، وحجية ذلك ، وما ينضبط به الأمر والنهي وما يتصل بهذه المسائل » .

اهتمام العلماء بـ « العقيدة الواسطية » :

حظيت هذه العقيدة باهتمام العلماء قديمًا وحديثًا ، ونالت ثناءهم ، فكثر الحافظون لها والدارسون والمدرسون لها ، وكثر شارحوها ، فشرحها الكثير من العلماء ، ونظمها بعضهم شعرًا .

وكان كتاب « العقيدة الواسطية » لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كتابًا جامعًا لمنهج أهل السنة والجماعة ، وهو مما لا غناء لمسلم عنه ، خاصة وأن العقيدة هي أصل هذا الدين وركنه المتين ؛ فقمنا بحمد الله وتوفيقه بإخراج هذا العمل الضخم لـ « شرح العقيدة الواسطية » في ثوبٍ جديد ، جمعنا فيه شروحًا لعلماء أجلاء وهم :

* الشيخ فيصل بن عبد العزيز آل مبارك
* الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي
* الشيخ عبد العزيز بن محمد بن مانع
* الشيخ محمد خليل هراس
* الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ
* الشيخ زيد بن عبد العزيز آل فياض
* الشيخ عبد العزيز بن ناصر الرشيد
* الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز
* الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين
* الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك
* الشيخ صالح بن فوزان الفوزان
* الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
* وبهامشه تعليقات الشيخ إسماعيل الأنصاري .
* ثم أسئلة وأجوبة للشيخ عبد العزيز بن محمد السلماني .
* وقام بتبويب « متن الواسطية » الشيخ صالح بن فوزان الفوزان .

وكان عملنا في هذا الكتاب (بإيجاز) على النحو التالي :

* تخريج الآيات القرآنية ، مع رسمها بالخط العثماني .
* تخريج الأحاديث النبوية ، مع ذكر أحكام العلامة الألباني رحمه الله عليها ، وهو تخريج مختصر يبين أصل ورود الحديث دون إطالة أو تقصير .
* إقامة النص وتصحيحه تصحيحًا لغويًا ، مع ضبط الألفاظ التي تُشكِل على القارئ ، وقمنا بإضافة بعض الكلمات التي لا يستقيم السياق إلا بها ، ووضعناها بين معكوفين [ ] .

وفي النهاية نتقدم بخالص الشكر لكل من شارك في إخراج هذا العمل ، ونخص بالذكر : الأستاذ / محمد سامح عمر ، والأستاذ / إبراهيم عبد الستار ، والأستاذ / نادي محمد ، فجزاهم الله خير الجزاء ، ونفع بهم ، ونسأل الله تعالى أن يرزقنا العلم النافع ، والفقه في دينه ، وأن يكون هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم .

والحمد لله رب العالمين .

ترجمة المصنِّف شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية رحمه الله

١- نسبه :

هو شيخ الإسلام الإمام : أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن محمد بن الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله بن تيمية ، الحراني ، ثم الدمشقي ، كنيته : أبو العباس .

٢- مولده ونشأته :

وُلد يوم الاثنين العاشر من ربيع الأول بـ « حران » سنة (٦٦١هـ) ، ولما بلغ من العمر سبع سنين انتقل مع والده إلى دمشق هربًا من وجه الغُزاة التتار ، وقد نشأ في بيت علمٍ وفقهٍ ودين ، فأبوه وأجداده وإخوته وكثير من أعمامه كانوا من العلماء المشاهير ، منهم : جده الأعلى (الرابع) محمد بن الخضر ، ومنهم : عبد الحليم بن محمد بن تيمية ، وعبد الغني بن محمد بن تيمية ، وجده الأدنى عبد السلام بن عبد الله بن تيمية مجد الدين أبو البركات صاحب التصانيف التي منها : « المُنتقى من أحاديث الأحكام » ، و« المحرر في الفقه » ، و« المُسَوَّدة في الأصول » وغيرها ، وكذلك أبوه عبد الحليم بن عبد السلام الحراني ، وأخوه عبد الرحمن ، وغيرهم .

ففي هذه البيئة العلمية الصالحة كانت نشأة ابن تيمية ، وقد بدأ بطلب العلم أولًا على أبيه وعلماء « دمشق » ، فحفظ القرآن وهو صغير ، ودرس الحديث والفقه والأصول والتفسير ، وعُرف بالذكاء وقوة الحفظ والنجابة منذ صغره ، ثم توسع في دراسة العلوم وتبحر فيها ، واجتمعت فيه صفات المُجتهد منذ شبابه ، فلم يلبث أن صار إمامًا يعترف له الجهابذة بالعلم والفضل والإمامة ، قبل بلوغ الثلاثين من عمره .

٣- إنتاجه العلمي :

وفي مجال التأليف والإنتاج العلمي ، فقد ترك الشيخ للأمة تراثًا ضخمًا ثمينًا ، لا يزال العلماء والباحثون ينهلون منه معينًا صافيًا ، توفرت منه الآن المجلدات الكثيرة ، من المؤلفات والرسائل والفتاوى والمسائل وغيرها ، هذا من المطبوع ، وما بقي مجهولًا أو مكنوزًا في عالم المخطوطات كثير .

ولم يترك الشيخ مجالًا من مجالات العلم والمعرفة التي تنفع الأمة ، وتخدم الإسلام إلا كتب فيه ، وأسهم بجدارة وإتقان ، وتلك خصلة قلما توجد إلا عند العباقرة النوادر في التاريخ .

فلقد شهد له أقرانه وأساتذته وتلاميذه وخصومه بسعة الاطلاع ، وغزارة العلم ، فإذا تكلم في علمٍ من العلوم أو فنٍّ من الفنون ظن السامع أنه لا يُتقن غيره ؛ وذلك لإحكامه له وتبحره فيه ، وإن المطلع

على مؤلفاته وإنتاجه ، والعارف بما كان يعلمه في حياته من الجهاد باليد واللسان ، والذّب عن الدين ، والعبادة والذكر ، ليعجب كل العجب من بركة وقته ، وقوة تحمله وجلده ، فسبحان من منحه تلك المواهب .

٤- جهاده ودفاعه عن الإسلام :

الكثير من الناس يجهل الجوانب العملية من حياة الشيخ ، فإنهم عرفوه عالِمًا ومؤلفًا ومُفتيًا ، من خلال مؤلفاته المنتشرة ، مع أن له مواقف مشهودة في مجالات أخرى عديدة أسهم فيها إسهامًا قويًا في نُصرة الإسلام وعزة المسلمين ؛ فمن ذلك : جهاده بالسيف وتحريضه المسلمين على القتال ، بالقول والعمل ، فقد كان يجول بسيفه في ساحات الوغى مع أعظم الفرسان الشجعان ، والذين شاهدوه في القتال أثناء فتح عكّا عجبوا من شجاعته وفتكه بالعدو .

أما جهاده بالقلم واللسان ؛ فإنه رحمه الله وقف أمام أعداء الإسلام من أصحاب الملل والنحل والفرق والمذاهب الباطلة والبدع كالطود الشامخ ، بالمناظرات حينًا ، وبالردود أحيانًا ، حتى فنّد شُبهاتهم ، ورد الكثير من كيدهم بحمد الله ، فقد تصدى للفلاسفة ، والباطنية ، من صوفية ، وإسماعيلية ، ونصيرية ، وسواهم ، كما تصدى للروافض والملاحدة ، وفند شُبهات أهل البدع التي تُقام حول المشاهد والقبور ونحوها ، كما تصدى للجهمية والمعتزلة ، وناقش المتكلمين والأشاعرة .

والمطلع على هذا الجانب من حياة الشيخ يكاد يجزم بأنه لم يبق له من وقته فضلة ، فقد حورب ، وطورد ، وأُوذي ، وسُجن مرات في سبيل الله ، وقد وافته منيته مسجونًا في سجن القلعة بدمشق .

ولا تزال - بحمد الله - ردود الشيخ سلاحًا فعالًا ضد أعداء الحق والمبطلين ؛ لأنها إنما تستند إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وهدي السلف الصالح ، مع قوة الاستنباط ، وقوة الاستدلال والاحتجاج الشرعي والعقلي ، وسعة العلم التي وهبها الله له .

وأكثر المذاهب الهدامة التي راجت اليوم بين المسلمين هي امتداد لتلك الفرق والمذاهب التي تصدى لها الشيخ وأمثاله من سلفنا الصالح ، لذلك ينبغي للدُّعاة المُصلحين ألا يغفلوا هذه الناحية ، ليستفيدوا مما سبقهم به سلفنا الصالح .

ولست مُبالغًا حينما أقول : إنه لا تزال كُتب الشيخ وردوده هي أقوى سلاح للتصدي لهذه الفرق الضالة والمذاهب الهدامة التي راجت وبدأت تخرج أعناقها اليوم من جديد ، والتي هي امتداد للماضي ، لكن منها تلك التي تزيّت بأزياء العصر ، وغيّرت أسماءها فقط ، مثل البعثية ، والاشتراكية ، والقومية ، والقاديانية ، والبهائية ، وسواها من الفرق والمذاهب ، ومنها ما بقي على شعاره القديم كالشيعة ، والرافضة ، والنصيرية ، والإسماعيلية ، والخوارج ، ونحو ذلك .

٥- خصاله :

بالإضافة إلى ما اشتهر به هذا الإمام من العلم والفقه في الدين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قد وهبه اللّه خصالًا حميدة ، اشتهر بها وشهد له بها الناس ، فكان سخيًّا كريمًا ، يؤثر المحتاجين على نفسه في الطعام واللباس وغيرهما ، وكان كثير العبادة والذكر وقراءة القرآن ، وكان ورعًا زاهدًا لا يكاد يملك شيئًا من متاع الدنيا سوى الضروريات ، وهذا مشهور عند أهل زمانه حتى بين عامة الناس ، وكان متواضعًا في هيئته ولباسه ومعاملته مع الآخرين ، فما كان يلبس الفاخر ولا الرديء من اللباس ، ولا يتكلف لأحد يلقاه ، واشتهر أيضًا بالمهابة والقوة في الحق ، فكانت له هيبة عظيمة عند السلاطين والعلماء وعامة الناس ، فكل من رآه أحبه وهابه واحترمه ، إلا من سيطر عليهم الحسد من أصحاب الأهواء ونحوهم .

كما عرف بالصبر وقوة الاحتمال في سبيل اللّه ، وكان ذا فراسة ، وكان مُستجاب الدعوة ، وله كرامات مشهودة ، رحمة اللّه رحمةً واسعة ، وأسكنه فسيح جناته .

٦- عصره :

لقد عاش المؤلف ﷺ في عصر كثرت فيه البدع والضلالات ، وسادت كثير من المذاهب الباطلة ، واستفحلت الشُبهات ، وانتشر الجهل والتعصب والتقليد الأعمى ، وغُزيت بلاد المسلمين من قِبل التتار والصليبيين (الإفرنج) .

ونجد صورة عصره جلية واضحة من خلال مؤلفاته التي بين أيدينا ؛ لأنه اهتم بأجلّ أمور المسلمين وأخطرها ، وساهم في علاجها بقلمه ولسانه ويده ، فالمتأمل في مؤلفات الشيخ يجد الصورة التالية لعصره :

- كثرة البدع والشركيات ، خاصةً حول القبور والمشاهد والمزارات المزعومة ، والاعتقادات الباطلة في الأحياء والموتى ، وأنهم ينفعون ويضرون ، ويُدعون من دون اللّه .

- انتشار الفلسفات والإلحاد والجدل .

- هيمنة التصوف والطرق الصوفية الضالة على العامة من الناس ، ومن ثم انتشار المذاهب والآراء الباطلة .

- توغل الروافض في أمور المسلمين ، ونشرهم للبدع والشركيات ، وتثبيطهم للناس عن الجهاد ، ومساعدتهم للتتار أعداء المسلمين .

- وأخيرًا ؛ نُلاحظ تَقَوّي أهل السنة والجماعة بالشيخ وحفزه لعزائمهم ، مما كان له الأثر الحميد على المسلمين إلى اليوم ، في التصدي للبدع والمُنكرات ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،

والنصح لأئمة المسلمين وعامتهم .

وقد وقف الشيخ رحمه الله في عصره إزاء هذه الانحرافات موقفًا مشهودًا ، آمرًا وناهيًا ، وناصحًا ، ومبينًا ، حتى أصلح الله على يديه الكثير من أوضاع المسلمين ، ونصر به السنة وأهلها ، والحمد لله .

٧- وفاته :

إن من علامات الخير للرجل الصالح ، وقبوله لدى المسلمين : إحساسهم بفقده حين يموت ، لذلك كان السلف يعدون كثرة المصلين على جنازة الرجل من علامات الخير والقبو له ، لذلك قال الإمام أحمد : « وقولوا لأهل البدع : بيننا وبينكم يوم الجنائز » . أي : أن أئمة السُّنَّة يفقدهم الناس إذا ماتوا ويكونون أكثر مُشيعين يوم يموتون ، ولقد شهد الواقع بذلك ، فما سمع الناس بمثل جنازتي الإمامين : أحمد بن حنبل ، وأحمد بن تيمية ، حين ماتا ، من كثرة من شيعهما وخرج مع جنازة كل منهما ، وصلى عليهما ، فالمسلمون هم شُهداء الله في أرضه .

وقد توفي الشيخ رحمه الله وهو مسجون بسجن القلعة بدمشق ليلة الاثنين ٢٠ من شهر ذي القعدة سنة (٧٢٨هـ) ، فهب كل أهل دمشق ومن حولها للصلاة عليه ، وتشييع جنازته ، وقد أجمعت المصادر التي ذكرت وفاته أنه حضر جنازته جمهور كبير جدًّا يفوق الوصف .

رحمه الله ، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

❁ ❁ ❁

ترجمة الشيخ فيصل بن عبد العزيز آل مبارك رحمه الله

هو الشيخ فيصل بن عبد العزيز بن فيصل بن حمد المبارك، المحدث، الفقيه، الأصولي، المفسر، النحوي، الفرضي، العالم، العامل، الزاهد، الورع، ولد رحمه الله في «حريملاء» عام (١٣١٣هـ)، وطلب العلم على علماء «حريملاء» في وقته، ومنهم جده لأمه الشيخ العالم ناصر ابن محمد الراشد، وعمه العلامة الشيخ محمد بن فيصل المبارك.

ثم طلب العلم على علماء «الرياض»، فأخذ عن الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف مفتي بن فارس، وعلم الفرائض عن العلامة الديار النجدية، والعلامة سعد بن حمد بن عتيق محدث الديار النجدية، وأجازه الشيخ سعد في التفسير، وكذلك أجازه في تدريس أمهات كتب الحديث ومذهب الإمام أحمد رحمه الله وأجازه الشيخ عبد الله العنقري بجميع مروياته، وأجازه الشيخ عبد العزيز النمر إجازة الفتوى عام (١٣٣٣ هـ) وهو في العشرين من عمره، وأخذ علم النحو عن العلامة الشيخ حمد الشيخ عبد الله بن راشد الجلعود، وغيرهم من أفذاذ العلماء- رحمهم الله أجمعين- .

* جهود الشيخ رحمه الله في نشر العقيدة الصحيحة :

كان الشيخ رحمه الله يهتم بتقرير العقيدة السلفية الصحيحة لطلبة العلم، فكان طلبة العلم يبتدئون القراءة عليه في علوم العقيدة بـ «الأصول الثلاثة»، ثم «كشف الشبهات»، ثم «كتاب التوحيد» وجميعها لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، ثم يقرئون بعد ذلك «العقيدة الواسطية» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وغيرها من كتب العقيدة المهمة، وقد أوصى الشيخ فيصل رحمه الله في وصيته لطلبة العلم بالابتداء بهذه الكتب التي تقدم ذكرها.

* جهود الشيخ رحمه الله في التأليف :

ترك الشيخ رحمه الله العديد من المؤلفات في جميع العلوم الشرعية تصل إلى ثلاثين مؤلفًا هي :

١- «أقوال العلماء الأعلام على أحاديث عمدة الأحكام» مخطوط في مجلدين ضخمين- في سبعة ملازم- بدارة الملك عبد العزيز/ مكتبة الشيخ عبد المحسن أبا بطين، وهو مختصر عن شرح الشيخ الكبير على «عمدة الأحكام»، وسيأتي ذكره.

ومنه أيضًا نسخة أخرى وصل فيها المؤلف إلى منتصف الجزء الأول، وهي بدارة الملك عبد العزيز/ مكتبة الشيخ عبد المحسن أبا بطين.

٢- «بستان الأحبار باختصار نيل الأوطار» للشوكاني، في مجلدين، وقد طبع مرتين، أولاهما في حياة الشيخ عام (١٣٧٤ هـ)، وآخرهما عن دار إشبيلية عام (١٤١٩ هـ).

٣- « تجارة المؤمنين في المرابحة مع رب العالمين » مجلد في (٢٧١) صفحة ، طبع مرتين بـ « دمشق » ، أولاهما على نفقة الأمير عبد الرحمن السديري عام (١٣٧٢ هـ) ، وآخرهما على نفقة تلميذه الشيخ عبد الرحمن بن عطا الشايع عام (١٤٠٤ هـ) والطبعة الأولى هي الأتقن .

٤- « تطريز رياض الصالحين » ، وقد طبع الكتاب مؤخرًا في عام (١٤٢٣هـ) عن دار العاصمة ، بتحقيق الشيخ الدكتور عبد العزيز الزير .

٥- « التعليقات السنية على العقيدة الواسطية » .

٦- « توفيق الرحمن في دروس القرآن » في أربعة أجزاء ، وقد طبع مرتين ، أولاهما : عام (١٣٧٦هـ) ، وآخرهما عام (١٤١٦ هـ) عن دار العاصمة بالرياض ، بعناية الشيخ الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الزير ، في أربعة مجلدات .

٧- « تعليم الأحب أحاديث النووي وابن رجب » ، وقد طبع قديمًا ضمن « المختصرات النافعة » .

٨- « الحجج القاطعة في المواريث الواقعة » .

وهذه الرسالة قد طبعت ثلاث مرات - تحت اسم « الدلائل القاطعة »- ضمن مجموعة « المختصرات النافعة » ، وقد انتهى الشيخ محمد بن حسن المبارك من تحقيقه على نسخة خطية ، وقد طبع مؤخرًا .

٩- « خلاصة الكلام شرح عمدة الأحكام » ، مجلد في أربعمائة صفحة ، وهو اختصار لشرحيه على « العمدة الكبير » و« المتوسط » ، وقد طبع أربع طبعات :

- أولها عام (١٣٨٠ هـ) ، بمكتبة التوفيق بالرياض .

- وثانيها عام (١٣٨٠ هـ) ، في مكتبة البابي الحلبي بمصر ، في ثلاث سنوات متتاليات ، لما كان شرح الشيخ مقررًا على طلبة المعهد العلمي .

- وآخرها عام (١٤١٢ هـ) ، بمكتبة الرشد بالرياض .

١٠- « زُبدة المراد فهرس مجمع الجواد » مخطوط ، والموجود منه فهرست الجزء الأول من « مجمع الجواد » في تسع وعشرين ورقة- بخط الشيخ : إسماعيل البلال ، أحد تلامذة الشيخ ، وكان المخطوط لديه ﷺ ، يقول المصنف ﷺ في آخرها : « تم فهرس الجزء الأول من « مجمع الجواد » بحمد الله تعالى » .

وعنه مصورة بدارة الملك عبد العزيز ، « مجموعة الشيخ فيصل بن عبد العزيز المبارك » .

١١- « السبيكة الذهبية على متن الرحبية » .

- صدرت هذه الرسالة في عام (١٣٧٩ هـ) عن المكتبة الأهلية، وقد تم طبعها آنذاك في مصر في مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

- وفي عام (١٤٠٦ هـ) قامت دار العليان بالقصيم بطباعتها بمطابع السلمان مرة أخرى.

- ثم في عام (١٤١٩ هـ) قامت دار الأرقم بطباعتها، بعناية وتحقيق الأستاذ عبد الله الزاحم- أثابه الله-.

- كما أن الرسالة قد طبعت قديمًا ضمن مجموعة الرسائل الكمالية.

وفي الطبعات الأخيرة اعتمد الناشرون على طبعة المكتبة الأهلية. وقد حققه الشيخ محمد بن حسن المبارك.

١٢- «صلة الأحباب شرح ملحة الإعراب»، وهو - فيما يظهر لي- مفقود.

١٣- «غذاء القلوب ومفرج الكروب»، طبع قديمًا ضمن مجموع «المختصرات النافعة».

١٤- «الغرر النقية شرح الدرر البهية»، طبع بتحقيق أخينا الشيخ محمد بن حسن المبارك- حفظه الله- عن دار إشبيلية بتاريخ (١٤٢٦ هـ).

١٥- «القصد السديد شرح كتاب التوحيد» في مجلد، طبع عام (١٤٢٦ هـ) عن دار الصُميعي بتحقيقي.

١٦- «القول الصائب في حكم بيع اللحم بالتمر الغائب»، رسالة وجيزة مخطوطة في مكتبة الملك فهد بدون تصنيف، وعنه مصورة بدارة الملك عبد العزيز/ «مجموعة الشيخ فيصل بن عبد العزيز المبارك».

١٧- «القول في الكرة الجسيمة الموافق للفطرة السليمة»، ومنه مخطوطة في مكتبة الملك فهد في مجلد- تصنيف رقم (٢٦١/٣)- وعنها مصورة بدارة الملك عبد العزيز/ مكتبة الشيخ فيصل بن عبد العزيز المبارك.

١٨- «كلمات السداد على متن زاد المستنقع» للحجاوي، وهو شرح لطيف في مجلد، طبع مرتين آخرهما عام (١٤٠٥ هـ) عن مكتبة النهضة.

١٩- «لباب الإعراب في تيسير علم النحو لعامة الطلاب» وهذه الرسالة عبارة عن متن مختصر في عدة أوراق في علم النحو، وقد حققها الشيخ محمد بن حسن المبارك وطبعت في عام (١٤٢٥هـ).

٢٠- «لذة القاري مختصر فتح الباري» في ثمانية مجلدات، ذكر الشيخ عبد المحسن أبا بطين أنه تحت الطبع، والشيخ عبد المحسن من أعرف الناس بكتب الشيخ فيصل؛ لأنه طبع أكثرها في

مكتبته الأهلية ، وبعضها طبعت بواسطته في غيرها من المكتبات مثل مكتبة مصطفى البابي بمصر ، وقال الزركلي : « شرع بعض الفضلاء بطبعه » . إلا أن هذا الكتاب- وللأسف الشديد- في حكم المفقود .

٢١- « مجمع الجواد حاشية شرح الزاد » مخطوط ، وهو شرح كبير مطول على « الروض المربع » ، وذلك أن الشيخ ﷺ في الشرحين التالين على « الروض »- كما سيأتي- انتقى مسائل خلافية معينة فشرحها ، أما في هذا المطول فقد وجه عنايته إلى غالب المسائل الخلافية في الروض .

إلا أن الشيخ رحمه لم يكمله ، إذ ابتدأ بتأليفه وقد ألم به المرض ، ولذلك يقول في كتاب البيوع منه : « لم نكتب من « مجمع الجواد » إلا هذا القليل من كتاب البيع إلى هنا ، فعسى الله أن ييسر تمامه في حياتنا أو بعد موتنا ، على كل شيء قدير . فيصل بن عبد العزيز آل مبارك » .

إلا أن الشيخ بعد ذلك أحسن من نفسه نشاطًا فكتب منه فصولًا ، وتوفي ﷺ وقد انتهى إلى (باب القرض) .

ولو تم هذا الشرح لكان كتابا ضخمًا جدًا ؛ إذ أن فهرس الجزء الأول منه بخط مؤلفه يقع في تسع وعشرين صفحة ، أما « كتاب البيوع » منه- وهو الجزء الثالث من الشرح- فيقع في مجلد كبير ، وهذا القدر من الكتاب هو الموجود منه ، والباقي مفقود .

ومن الجزء الثالث نسخة مخطوطة في مكتبة الملك فهد تحتوي على كتاب البيوع فقط في مجلد ، وكذلك في خمسة ملازم صغيرة ، تصنيف رقم (٣/٢٦٤) (٣/٢٦٥) (٣/٢٦٦) (٢٦٧/ ٣) تحت اسم : حاشية على بعض عبارات الزاد وشرحه ، وعنها مصورة بدارة الملك عبد العزيز/ مجموعة الشيخ فيصل بن عبد العزيز المبارك .

٢٢- « محاسن الدين بشرح الأربعين النووية » طبع ضمن المجموعة الجليلة ، ثم طبع مفردًا عن دار الرشيد عام (١٤١٤ هـ) ، ثم عن دار إشبيلية بالرياض عام (١٤٢٠ هـ) .

٢٣- « مختصر الكلام شرح بلوغ المرام » لابن حجر ، طبع ضمن (المجموعة الجليلة) ، ثم طبع مفردًا عن المجموعة في الرياض عن دار إشبيلية عام (١٤١٩ هـ) .

٢٤- « مختصر المرتع المشبع » مخطوط في مجلد ، منه نسخة في مكتبة الملك فهد ، تصنيف رقم (٣/٢٥٠) ، وصل فيه إلى كتاب الجنائز ، وعنها مصورة بدارة الملك عبد العزيز/ مجموعة الشيخ فيصل بن عبد العزيز المبارك .

٢٥- « المرتع المشبع شرح مواضع من الروض المربع » مخطوط في أربعة أجزاء وستة مجلدات كبيرة ، في مكتبة الملك فهد ، تصنيف رقم (٣/٢٢٣) (٣/٢٢٥) ، (٣/٢٢٦) ، وعنها مصورة

بدارة الملك عبد العزيز/ مجموعة الشيخ فيصل بن عبد العزيز المبارك .

٢٦- « مفاتيح العربية على متن الآجرومية » ، وهو شرح ممتع متوسط على متن « الآجرومية » ، وقد طبع قديمًا ضمن مجموعة الشيخ المسماة « المختصرات الأربع النافعة » ، تحت اسم « مفتاح العربية على متن الآجرومية » .

وقد انتهى الأخ الشيخ : عبد العزيز بن سعد الدغيثر من تحقيق الكتاب ومقابلته على النسخة الخطية المذكورة وهو قيد الطبع عند دار الصميعي بالرياض .

٢٧ -« مقام الرشاد بين التقليد والاجتهاد » ، طبع ضمن « المجموعة الجليلة » ، ثم طبع مفردًا عام (١٤١٣ هـ) عن دار السلف ، بتحقيق الباحث الفاضل الشيخ : راشد بن عامر الغفيلي .

٢٨- « نصيحة المسلمين » وهي رسالة لطيفة طبعت في مكة المكرمة ، في عام (١٣٥٤ هـ) تقريبًا ، ثم طبعت في الكويت في أواخر حياة الشيخ تحت اسم : « نصيحة دينية » ، على نفقة الشيخ عطا الشايع الكريع الجوفي ، رحمهما الله .

٢٩- « نقع الأوام بشرح أحاديث عمدة الأحكام » ، وهو « الشرح الكبير على عمدة الأحكام » ، خمسة أجزاء كبار ، في إحدى عشرة مجلد .

ومنه مخطوطة كاملة ، بخط الشيخ فيصل رحمه الله في مكتبة الملك فهد/ تصنيف مكتبة حريملاء ، تحت الأرقام : (٣/٢٢٨) (٣/٣٤٧) (٣/٢٥١) (٣/٢٣١) (٣/٢٥٦) (٣/٢٥٥) (٣/٢٤١) (٣/٢٣٠) (٣/٢٦٠) (٣/٢٣٩) (٣/٢٣٨) .

٣٠ -« وصية لطلبة العلم » رسالة لطيفة ، في آخرها كتب الشيخ رحمه الله (وقع الفراغ منه في شهر جمادى الأولى سنة ١٣٥٤ هـ) .

وقد قام بتحقيق هذه الرسالة مع « نصيحة المسلمين » الدكتور : عبد العزيز الزير عام (١٤٢٤هـ) .

* وفاته :

توفي رحمه الله في منطقة « الجوف » عام (١٣٧٦ هـ) عن ثلاث وستين عامًا ، قضاها في الجهاد والتعليم والتصنيف .

* أهمية الكتاب :

لعل هذا الكتاب- كما يظهر لي- هو أول تعليق على « العقيدة الواسطية » وهناك شرح للواسطية لعالم معاصر للشيخ فيصل ومتوفٍ في نفس العام الذي توفي فيه الشيخ فيصل ، ألا وهو العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله ، وشرحه هو المعروف بـ « التعليقات المنيفة على ما في الواسطية

من المباحث الشريفة »، وقد ألفه الشيخ السعدي عام (١٣٧٢ هـ).

إلا أن كتابنا هذا فيما يظهر ألف قبل عام (١٣٧٢ هـ)، إذ أن الشيخ فيصل ﷺ، وهو المتوفى عام (١٣٧٦ هـ) قد اهتم في آخر حياته بـ « الروض المربع » فشرحه في كتابه « المرتع المشبع » في أربعة مجلدات ضخمة، وكان تأليفه لهذا الكتاب قبل عام (١٣٧١ هـ)، كما يدل على ذلك رسالة مت الشيخ عبد الرحمن بن سعدي إلى الشيخ فيصل- رحمهما الله- بتاريخ الأول من رجب من عام (١٣٧١ هـ).

ثم شرحه الشيخ فيصل « المرتع المشبع » بكتابه « مجموع الجواد »، وهو كتاب ضخم وصلنا منه شرح كتاب البيوع في مجلد كبير، مما يدل على تقدم تأليف الشيخ فيصل لشرح « الواسطية »، لا سيما إذا علمنا أن الشيخ فيصل أدرج شرحه على « الواسطية » في موسوعته المسماة بـ « زبدة الكلام في الأصول والآداب والأحكام »، وفيه عدة مؤلفات له، وجلها من أقدم مؤلفاته، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

ترجمةُ الشيخ عبد الرَّحمن بن ناصر السَّعدي رحمه الله

هو العلَّامة أبو عبد الله عبد الرَّحمن بن ناصر السَّعدي ، من قبيلة تميم .

* مولده ونشأته :

ولِدَ في بلدة « عُنيزة » في « القصيم » ، بتاريخ ١٢ المُحرَّم عام ألف وثلاثمائة وسبع من الهجرة .

وتوفيت أمُّه وله أربع سنين ، ولحق بها أبوه وهو ابن سبع سنين فنشأ رحمه الله يتيمًا ، وكفلته زوجة أبيه ، وآثرته بالرِّعاية أكثر من أبنائها ، فنشأ رحمه الله نشأةً صالحةً كريمةً ، وعُرف مُنذ حداثته بالحرص على الصَّلوات في الجماعة والاجتهاد البالغ في طلب العلم ، وكان مُتوقِّد الذَّكاء ، قويِ الحفظ ، فقد أتمَّ حفظ القُرآن وهو ابن أحد عشر سنَة .

* طلبه للعلم :

اشتغل في التَّعلم على علماء بلده ، وعلى من قدم بلده من العلماء ، فاجتهد وجَدَّ حتى نال الحظَّ الأوفر من كل فنٍّ من فنون العلم ، ولمَّا بلغ من العمر ثلاثًا وعشرين سنة جلس للتدريس فكان يتعلم ويُعلِّم ، ويقضي جميع أوقاته في ذلك .

* شيـــوخـــه :

١- الشَّيخ إبراهيم بن حمد بن جاسر : وكان الشَّيخ السَّعدي يصفه بحفظه للحديث .

٢- الشَّيخ مُحمَّد بن عبد الكريم الشِّبل : قرأ الشَّيخ عليه : الفقه ، وعلوم العربية وغيرها .

٣- الشَّيخ صالح بن عُثمان ، قرأ الشيخ عليه في : التَّوحيد ، والتَّفسير ، والفقه وأصوله وفروعه ، وعلوم العربية .

٤- الشَّيخ على النَّاصر أبو واداي : قرأ عليه في : الحديث ، وأخذ عنه الأمَّهات السِّت ، وأجازه في ذلك .

٥- الشَّيخ محمد ابن الشَّيخ عبد العزيز بن المُحمد المانع : مُدير المعارف في المملكة السُّعودية . وقد قرأ عليه الشَّيخ في عُنيزة .

٦- الشَّيخ مُحمَّد الأمين المُختار الشِّنقيطي : قرأ عليه في : التَّفسير ، والحديث ومُصطلحه ، وعُلوم العربية كالنَّحو والصَّرف .

٧- الشَّيخ عبد الله بن عايض .

٨- الشَّيخ صعب التُّويجري .

٩- الشَّيخ علي السناني .

* تلاميذه :

١ - العلّامة محمد بن صالح العُثيمين ، الذي خلف الشّيخ في إمامة الجامع الكبير بـ :« عُنيزة » ، وفي التّدريس والوعظ والخطابة .

٢ - الشّيخ عبد العزيز بن مُحمّد السّلمان .

٣ - الشّيخ عبد اللّه بن عبد الرحمن البسّام .

٤ - الشّيخ سُليمان بن إبراهيم البسّام .

٥ - الشّيخ محمد بن عبد العزيز المطوع .

٦ - الشّيخ محمد المنصور الزّامِل .

٧ - الشّيخ علي بن محمد الزّامل .

٨ - الشّيخ عبد اللّه بن عبد العزيز بن عقيل .

٩ - الشّيخ عبد اللّه المُحمد الفُوهلي .

١٠ - الشّيخ عبد اللّه بن حسن آل بريكان .

* أهم مؤلفاته :

للشّيخ مؤلفاتٌ عديدة في كافة علوم الشّرع ، كُلها نافعة لا يستغني عنها طالب علم ، منها :

* القرآن وعلومه :

- « تيسير الكريم الرّحمن » : وهو من أعظم كُتب الشّيخ وأكثرها فائدة ، وقد كتبه الشّيخ وعمره (٣٤) عامًا .

- « تيسير اللطيف المنّان خُلاصة تفسير القرآن » .

- « القواعد الحسان لتفسير القُرآن » .

* العقيدة :

- « فتح الرّبِّ الحميد في أصول العقائد والتّوحيد » .

- « القول السّديد في مقاصد التوحيد » .

- « الأدلة والقواطع والبراهين في إبطال أصول المُلحدين » .

- « التّوضيح والبيان لشجرة الإيمان » .

- « التّنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة » .

- « توضيح الكافية الشّافية » .

- « الحقُّ الواضح المُبين في شرح توحيد الأنبياء والمُرسلين » .

- « سؤال وجواب في أهم المُهمات ، تعليم أصول الإيمان ، وبيان موانع الإيمان » .
- « حوار مع علماني مُلحد » .
- « الدرة البهيَّة شرح القصيدة التَّائيَّة في حل المُشكلة القدريَّة » .

* الفقه وأصوله وقواعده :

- « القواعد والأصول الجامعة والفروق والتَّقاسيم البديعة النَّافعة » .
- « تُحفة أهل الطَّلب في تجريد أصول قواعد ابن رجب » .
- « حاشية على الفقه » .
- « منهج السَّالكين وتوضيح الفقه في الدِّين » .
- « إرشاد أولي البصائر والألباب لنيل الفقه بأقرب الطُّرق وأيسر الأسباب » .
- « نور البصائر والألباب في أحكام العبادات والمُعاملات والحقوق والآداب » .
- « حُكم شرب الدُّخان » .
- « المُناظرات الفقهيَّة » .
- « المُختارات الجليَّة من المسائل الفقهيَّة » .
- « منظومة في القواعد الفقهية » ، وله شرح لطيف عليها .
- « مُختصر في أصول الفقه » . ويُطلق عليه : « تيسير أصول الفقه » .

* الحديث ، والسِّير :

- « بهجة عيون الأبرار ، وقرة عيون الأخيار ، شرح جوامع الأخبار » .
- « قصص الأنبياء » .

* كتب جوامع :

- « فتح الرَّحيم الملك العلَّام في علم العقائد والتَّوحيد والأخلاق والأحكام المُستنبطة من القُرآن » .
- « نور البصائر والألباب في أحكام العبادات والمُعاملات والحقوق والآداب » .

* كتب مُتنوعة :

- « يأجوج ومأجوج وفتنة الدجال » .
- « السِّياسة الشَّرعيَّة » .
- « فوائد مُستنبطة من قصَّة يوسف عليه السلام » .
- « محاسن الإسلام » . المُسمَّى : « الدُّرَّة المُختصرة في محاسن الإسلام » .

- « الدِّين الصَّحيح يحُل جميع المشاكل » .
- « الطَّريق إلى اللَّه والدَّار الآخرة » .
- « وجوب التَّعاون بين المُسلمين وموضوع الجهاد الدِّيني » .
- « الخُطبُ المنبريَّة على المُناسبات » .
- « الفواكه الشَّهيَّة في الخُطب المنبريَّة » .
- « تنزيه الدِّين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله » .

* كُتب القواعد والأصول المتنوعة :

- « طريق الوصول إلى العلم المأمول ، بمعرفة القواعد والضوابط ، والأصول » .
- « مجموع الفوائد واقتناص الأوابد » .

وله غير ذلك الكثير من المؤلفات القيِّمة التي يُنصح بقراءتها .

* وفـاتــه :

توفي كَلَلهُ في سنة ١٣٧٦هـ ، بعد عمر دام قُرابة ٦٩ عامًا في مدينة « عُنيزة » ، من بلاد « القصيم » .

❁ ❁ ❁

ترجمة الشيخ عبد العزيز بن محمد بن مانع رحمه الله

* هو : محمد عبد العزيز بن محمد بن مانع بن شبرمة الوهيبي التميمي .

* ولد بـ « عنيزة » سنة (١٣٠٠ هـ) ورحل في طلب العلم إلى « بريدة » فـ « البصرة » ، فـ « بغداد » ثم استقر بـ « الأزهر » .

* طلب العلم على عدد وفير من المشايخ مثل :

١- الشيخ محمد الذهبي ، أحد المدرسين برواق الحنابلة بالأزهر ؛ حيث قرأ النحو والعلوم السائدة في الأزهر آنذاك ، والشيخ جمال الدين القاسمي ، سمع عليه « صحيح البخاري » ، والشيخ محمود شكري الألوسي ، وأكثر من ملازمته والأخذ عنه ، وقرأ عليه كثير من مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية .

رجع إلى بلدته « عنيزة » سنة (١٣٢٩ هـ) ،ودعي للتدريس في « البحرين » بدعوة من أعيانها لمكافحة التبشير ، فأقام هناك أربع سنين قام فيها بشرح « العقيدة السفارينية » ثم دعي إلى « قطر » ، حيث تولى القضاء والخطابة والتدريس مدة أربع وعشرين سنة ، ودعاه الملك عبد العزيز آل سعود في سنة (١٣٥٨ هـ) للتدريس ، فدرس في الحرم المكي ثم عين مديرًا للمعارف في « مكة » ، وولي رئاسة هيئة تمييز القضاء الشرعي .

* كانت له اليد الطولى في الحث على نشر العلوم الشرعية ، والكتب النافعة ، وتحريض أهل الخير على طباعتها . كما ترك رحمه الله عدد من المؤلفات النافعة طبع منها :

١- « إرشاد الطلاب إلى فضيلة العلم والعمل والآداب » .

٢- و« إقامة البرهان في تحريم أخذ الأجرة على تلاوة القرآن » .

٣- « حاشية على دليل الطالب » في الفقه الحنبلي .

٤- « الكواكب الدرية لشرح الدرة المضية » طبع بتحقيقنا بمكتبة أضواء السلف .

سافر إلى « بيروت » طلبًا للعلاج فتوفي فيها سنة (١٣٩٤هـ) ، ودفن بالدوحة رحمه الله تعالى .

❁ ❁ ❁

ترجمة الشيخ محمد خليل هراس رحمه الله

* مولده :

ولد عام ١٩١٥م في بلدة الشين ، مركز قطور ، محافظة الغربية .

* تعليمه :

بدأ تعليمه في المدارس الأزهرية عام ١٩٢٦م .

تخرج من كلية أصول الدين جامعة الأزهر عام ١٩٤٠م .

حصل على درجة الدكتوراه عام ١٩٤٥م ، وكان موضوع الرسالة : « ابن تيمية السلفي ورده على مذاهب المتكلمين » .

* الوظائف التي شغلها :

- شغل وظيفة أستاذ بكلية أصول الدين بالأزهر .

- ورئيس قسم العقيدة بالدراسات العليا بجامعة أم القرى « بمكة المكرمة » ، وقد أُنشئ هذا القسم من أجل أن يشغله رحمه الله .

* وفاته :

توفي في سبتمبر عام ١٩٧٥م بعد حياة علمية حافلة ، إذ التقى خلالها بعلماء أجلاء من أمثال الشيخ محمد حامد الفقي ، مؤسس أنصار السنة المحمدية ، وكان له نشاط ملحوظ في العام الذي توفي فيه ، حيث ألقى عدة محاضرات في « طنطا » ، و« المحلة الكبرى » ، والمركز العام لجماعة أنصار السنة المحمدية .

* إنتاجه العلمي :

١- دعوة التوحيد .

٢- ابن تيمية السلفي ، درجة الأستاذية .

٣- شرح العقيدة الواسطية ، لابن تيمية .

٤- شرح القصيدة النونية ، لابن القيم ، الثمار الشهية في شرح النونية .

٥- رفع عيسى عليه السلام « فصل المقال في نزول عيسى حيًا وقتله الدجال » .

٦- الصفات الإلهية عند ابن تيمية .

٧- ادفع بالتي هي أحسن .

٨- شرحه على الترغيب والترهيب .

٩- شرحه لابن هشام السيرة .

١٠- الخصائص الكبرى للسيوطي ، تحقيق .

١١- الأموال ، تحقيق .

١٢- التوحيد لابن خزيمة ، تحقيق .

١٣- مجموعة رسائل ، منها : الإلحاد ، سرطان خبيث ، أنماط من الجدل القرآني ، الإسراء والمعراج .

١٤- سُبل السلام شرح بلوغ المرام ، للصنعاني ، تحقيق .

١٥- مجموعة مقالات في الهدي النبوي ، تحت عنوان : «عقيدة القرآن والسنة»

١٦- مجموعة مقالات في الهدي النبوي ، تحت عنوان : ركن السنة .

١٧- مجموعة حوارات في الهدي النبوي ، تحت عنوان : اللّٰه مستوٍ على عرشه ولو كره المعطلون .

فجزى اللّٰه الشيخ خير الجزاء ، وجعل مثواه الجنة .

ترجمة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ رحمه الله

* نسبه ومولده :

هو : العلامة الجليل الشيخ محمد ابن الشيخ إبراهيم ابن الشيخ عبد اللطيف ابن الشيخ عبد الرحمن ابن الشيخ حسن ابن إمام الدعوة محيي السنة مميت البدعة الشيخ (محمد بن عبد الوهاب) ابن الشيخ سليمان بن عليّ بن محمد بن أحمد بن راشد بن بريد بن محمد بن بريد بن مشرف بن عمر بن معضاد بن ريس بن زاخر بن محمد بن علوي بن وهيب بن قاسم بن موسى بن مسعود بن عقبة بن سنيع بن نهشل بن شداد بن زهير بن شهاب بن ربيعة بن أبي سود بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد بن مناة بن تميم . ثم إلى نزار بن معد بن عدنان .

ولد في مدينة « الرياض » في (حي دخنة) في ١٧ من محرم عام ١٣١١ هـ .

بدأ رحمه الله من صغره في الأخذ بأسباب العلم والمعرفة ، فتلقى القرآن الكريم وهو بين الثامنة والعاشرة من عمره ، نظرًا على معلمه عبد الرحمن بن مفيريج . وفي السادسة عشرة من عمره أصيب بالرمد في عينيه فكف بصره . وكانت مدة مرضه سنة . وعلى أثر ذلك حفظ القرآن علي عبد الرحمن بن مفيريج عن ظهر قلب . وقد درس فن التجويد فيما بعد .

ثم أخذ في طلب العلم بمختلف فنونه ، فأخذ علم « الفرائض » عن والده الشيخ إبراهيم رحمه الله أولًا ، ثم عن الشيخ عبد الله بن راشد ، ومما قرأ عليه في ذلك « ألفية الفرائض » .

وتلقى علم « العقائد » عن عمه الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف رحمهما الله تعالى . ومنها في العقائد كتاب « التوحيد » ، و« أصول الإيمان » ، و« فضائل الإسلام » للشيخ محمد بن عبد الوهاب ، و« الدلائل » (حكم موالات أهل الشرك) للشيخ سليمان بن عبد الله ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، و« العقيدة الواسطية » ، و« العقيدة الحموية » ، وكلاهما لشيخ الإسلام ابن تيمية .

وأخذ « الفقه » عن الشيخ حمد بن فارس أولًا ثم على الشيخين سعد بن حمد بن عتيق ومحمد بن محمود المتوفى عام (١٣٣٣ هـ) ، ومن كتبه (زاد المستنقع) .

وأخذ علم « العربية » عن الشيخ حمد بن فارس ، المذكور آنفًا ، ومما قرأ عليه في هذا الفن « الآجرومية » ، و« الملحة » ، و« القطر » ، و« الألفية » .

وفي « الحديث وعلومه » قرأ « بلوغ المرام » ، وثلث « المنتقى » على عمه الشيخ عبد الله ، ثم أعاد « بلوغ المرام » على الشيخ سعد بن عتيق . وعليه قرأ أيضًا « ألفية العراقي » في مصطلح الحديث .

هذا ؛ ومن المستفيض أن الشيخ رحمه الله كان كثير الدأب على المطالعة في مختلف الكتب

وتدريسها ، فكان هذا مصدرًا ثانيًا غنيًا بتنمية حصيلته العلمية وتوسيع أفقه ، أعانه على ذلك ما عرف عنه من حدة الذكاء ورجاحة العقل .

* اشتغاله بالتدريس :

لمس فيه مشايخه الألمعية النادرة المبكرة والنجابة الظاهرة ، فأدركوا أنه الخليفة لهم الذي يمكن أن يطمئن إليه في مجالس العلم ، فأوصى عمه الشيخ عبد الله الملك عبد العزيز رحمه الله بابن أخيه خيرًا ، وذكر له ما يتمتع به من المزايا الفذة التي لا تكاد تتوافر إلا في قليل من الرجال الذين وهبهم الله ذكاءً وفطنة وجلدًا وإخلاصًا . وحين توفى الشيخ عبد الله عام (١٣٣٩ هـ) أخذ ابن أخيه مجلسه ، فبدأ التدريس إلى جانب مشايخه الذين ما زالوا على قيد الحياة . ولما توفي شيخه سعد بن حمد بن عتيق عام (١٣٤٩ هـ) ، وتوفي قبله الشيخ حمد بن فارس عام (١٣٤٥ هـ) توسع في مجال التدريس ، واستقل بأكثرها إلى جانب أعمامه رحمهم الله ، وغيرهم من أفاضل العلماء الذين كانوا يقومون بالتدريس على فترات متعاقبة في بعض العلوم .

ولكن ينبغي أن نؤكد أن الشيخ محمد رحمه الله له النصيب الأوفر في كثرة المجالس وكثرة القاصدين له من طلبة العلم وغزارة العلم وعموم النفع ، فقد كان يعمر أكثر نهاره بالتدريس ، حيث كان يجلس ثلاث جلسات منتظمة . فالأولى بعد صلاة الفجر إلى شروق الشمس ، والثانية بعد ارتفاع الشمس مدة تتراوح ما بين ساعتين وأربع ساعات ، والثالثة من بعد صلاة العصر ، وهناك جلسة رابعة لكنها ليست مستمرة وهي بعد صلاة الظهر .

وكل هذه الجلسات كانت تتم في جامع الشيخ عبد الله ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، المعروف الآن في (حي دخنه شمال الميدان) ، ما عدا جلسة الضحى ، فقد كانت في أول الأمر في هذا الجامع ، ثم نقلها إلى بيته .

وكان رحمه الله ينقطع بعد المغرب لمطالعة دروس الغد في الكتب التي كانت تدرس بعد الفجر ومنها « الروض المربع » ، و« سبل السلام » ، و« شرح ابن عقيل » على « ألفية ابن مالك » وما يعين عليها من المراجع .

وفيما يلي عرض للكتب التي كان يقوم رحمه الله بتدريسها :

١- أولًا : بعد صلاة الفجر : « ألفية ابن مالك » مع « شرح ابن عقيل » ، و« زاد المستنقع » مع شرحه « الروض المربع » ، و« بلوغ المرام » ، و« الآجرومية » ، و« الملحة » ، و« قطر الندى » ، و« عمدة الأحكام » ، و« أصول الأحكام » ، و« الحموية » ، و« التدمرية » ، و« نخبة الفكر » . الثلاثة الأول مستمرة ، وكان يقوم بتدريسها على ترتيبها المذكور . أما باقي الكتب فبالتعاقب على فترات

مختلفة طيلة أيام تدريسه .

٢- بعد شروق الشمس : يدرس في العقائد « كتاب التوحيد » ، « كشف الشبهات » ، « ثلاثة الأصول » ، « العقيدة الواسطية » باستمرار ، « مسائل التوحيد » ، « مسائل الجاهلية » ، « لمعة الاعتقاد » ، « أصول الإيمان » على فترات ، وفي الحديث : « الأربعين النووية » ، « عمدة الأحكام » باستمرار . وفي الفقه « آداب المشي إلى الصلاة » ، وقد يدرس غيرها ، لكنه نادر .

وبعد الانتهاء من هذه المختصرات تقرأ المطولات ، ومنها : « فتح المجيد » ، « شرح الطحاوية » ، « شرح الأربعين النووية » ، « صحيح البخاري » ، « صحيح مسلم » ، « السنن الأربعة » ، مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن القيم ، وابن كثير ، بدون استثناء ، وكل ما جد من كتب السلف والمحققين من العلماء ، ولكنها على فترات يتراوح ما يقرأ منها في اليوم ما بين خمسة وعشرة غالبًا .

٣- بعد صلاة الظهر ويدرس فيه : « زاد المستنقع » بشرحه « الروض المربع » ، « بلوغ المرام » .

٤- بعد صلاة العصر : ويدرس فيه « كتاب التوحيد » وشرحه ، وقد يقرأ في « مسند الإمام أحمد » ، أو « مسند ابن أبي شيبة » ، و« الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » أو نحوها .

وقد استمر يزاول التدريس بنشاط لا يفتر ، وهمة لا تكل إحدى وأربعين عامًا من عام (١٣٣٩ هـ- ١٣٨٠ هـ) .

* طريقته في التدريس :

كان ﷺ يعطي مجالس العلم حقها من الاحترام والتقدير ، ويحرص على إيصال الفائدة إلى قرارة قلوب الطلاب معنيًا بتثبيتها ، حتى إنه ليكاد يغني بشرحه عن مطالعة . وكان ﷺ إذا هم بالجلوس للتدريس توضأ إن لم يكون على وضوء بعد صلاة ، واستقبل القبلة إذا كانت الجلسة في المسجد ويبدأ شرحه باسم الله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه .

ويمكن تلخيص السمات الظاهرة لطريقته في التدريس في النقاط التالية :

١- يطلب من بعض الطلاب أن يبدأ بالبسملة ، والصلاة والسلام على رسول الله ، والترحم على المؤلف ، ثم يتلو حفظًا موضوع الدرس إذا كان الكتاب متنًا ، ويحرص جدًا على أن يحفظ جميع الطلاب المنتظمين المتون ولا يرضى بنصف حفظ ، ولا ينتقل الطالب من متن إلى متن أطول منه إلا بعد حفظ الأول وفهمه ، ولذا كان الطالب المجد منهم يتخرج في سبع سنوات .

٢- قبل أن يبدأ بالشرح يقرأ هو ما قرأ الطلاب .

٣- يشرع في شرح عبارات المتن بدقة ووضوح .

٤- يعرض بعض المسائل ويتكلم عليها .

٥- إذا عرض لمسألة خلاف ذكر رأي المؤلف أولًا وأدلته ، ثم ذكر رأي المخالفين كلًّا على حدة ، مع دليله .

وكان في ذلك كله يحترم كل ذي رأي من العلماء ولا يذكره بما يسوء ، وكان يرجح ما يراه معتمدًا في ذلك على الدليل وأقوال المحققين ، ولم يكن يعرض من الخلاف إلا ما كان ذا جدوى . وقد يصحح أحد القولين بدون سرد الأدلة ، لقصر الوقت ، أو نظرًا لحالة الطالب .

٦- كان يلتزم بالموضوع ، ولا يستطرد إلى مسائل خارجة عنه .

٧- كان إذا فرغ من الدرس تلقى أسئلة الطلاب وأجاب . وقد يثير هو بعض الإشكالات ليقدح أذهان الطلاب .

٨- يختبر الطلاب فيما شرح لهم في بعض الأحيان بإلقاء الأسئلة عليهم ويعربون متن الألفية وشواهدها .

٩- فيما يتعلق بالعقائد لم يكن يحرص على ذكر آراء أهل البدع والإشراك ، فإذا وجد ضرورة لذلك أو كان المؤلف ذكرها فإنه يتكلم عليها بتوسع ، ويشتد في الرد عليها دون إفراط .

١٠- وبالنسبة لقراءة المطولات لم يكن يشرحها عبارة عبارة ، وإنما كان يقف عند المهم منها أو ما يسأل عنه أحد الحاضرين .

١١- يلزم اللغة العربية في جميع مجالسه العامة .

١٢- يلتزم الهدوء أثناء شرحه للمتون أو تعليقه على المطولات ، فلا تراه يلتفت أو يشير بيد أو يعبث بشيء .

١٣- لم يكن يسمح بإثارة الأسئلة التافهة أو الدخول في مناقشات عقيمة .

* أخلاقه :

لم يصل ﷺ إلى ما وصل إليه من مكانة في قلوب الناس بمجرد المصادفة ، ولكن مرد ذلك إلى توفيق الله ﷻ أولًا ، ثم إلى ما كان يتحلى به من أخلاق فذة التزم بها وحافظ عليها طوال أيامه . ولا بأس من الإشارة إلى بعض ما نعرفه عنه من الأخلاق الحميدة ، فمن ذلك :

١- الحافظة النادرة التي كانت أقوى سبب في تحصيل ثروة علمية واسعة بنيت على محفوظاته التي علقت بذاكرته أثناء تعلمه ومطالعاته أثناء تدريسه ، فكانت الأساس القوي لمقدرته على استنباط الأحكام ومعرفة الأدلة التي تبنى عليها . وقد مر بنا أنه حفظ « بلوغ المرام » ، و« زاد المستنقع » ، وغيرهما مما مر ذكره في فصلي شيوخه واشتغاله بالتدريس . ونزيد هنا أنه كان يحفظ كثيرًا من القصائد المطولة ، وكان يصف وهو في أخريات أيامه مشاهداته قبل أن يكف بصره وأنت على علم أنه

فقد بصره في السادسة عشرة من عمره، وكان يحفظ المتن للقراءة الثالثة وربما الثانية، وكانت المعاملة الطويلة التي تبلغ ثلاثمائة صفحة تقرأ عليه، ثم يملي ما يرى مستحضرًا كل ما مر فيها من الجزئيات، ولم يكن غريبًا منه أن يدل القارئين على مواضع الأبحاث في كتبها ذاكرًا رقم الصفحة أحيانًا، ومثل ذلك لا يكون إلا لمن أتاه الله ذاكرة واعية.

٢- وقد رزق من الذكاء ما مكنه من إدراك محفوظاته العلمية عن فهم وبصيرة، وكان يدرك حقيقة ما يعرض عليه من المشكلات، فيكشف ما وراءها من الدوافع ببصيرته الفذة، ولم يكن ينطلي عليه كيد أو احتيال. وحياته كلها أمثلة من هذا النوع، لسنا في حاجة إلى الدخول في ضرب الأمثال لها، فأكثر العارفين به يدركون ذلك، ولكن الذي لا يعرفه كثير من الناس أنه ﷺ كان يدرك تقدير الوقت بالساعة لا يكاد يخطئ الحقيقة في بضع دقائق مع العلم بأنه لم يستعمل الساعة في حياته.

٣- وكان يطيل التأمل والتعمق ويبعد النظر فيما يعرض عليه من القضايا التي تجد تباعًا، ولم يكن يتعجل الأمر حتى يمعن في الدرس والتأمل والنظر في عواقب الأمور، فكان يصل بعد ذلك إلى الاستنتاج الدقيق الذي لا يكاد يختلف ولا يخالفه فيه ذو نصف، والأمثلة في هذا المقام كثيرة، لكن أسوق منها مثالين:

أحدهما: أنه سئل عن افتتاح حمام فني؟

فكتب ما نصه: «لا أرى فتح مثل هذا الحمام في هذا البلد؛ لأن الضرر سيكون أكبر من النفع، ومثل هذه الأشياء تكون عادة وسيلة لفساد لم يخطر على بال الذي أسسها، ومهما حرصت الآن على مراعاة الآداب الشرعية والأخلاقية فإنك لن تستطيع ذلك في المستقبل بعد فتح هذا الباب».

ثانيهما: أنه سئل عن إنشاء صندوق لسائقي السيارات؟

فقال في الجواب ما نصه: «إن اقتراح الذين اقترحوا جعل الصندوق مشروعًا خيريًّا يحتاج إلى تقييد؛ لأنه وإن كان طرق الخير مفتوحة أمام الراغبين إلا أنه ينبغي معرفة ما وراء ذلك؛ لئلا تكون وسيلة إلى استباحة أشياء لا تجوز تحت اسم الشيء المسموح».

٤- ومن أخلاقه البارزة الإخلاص في العمل، فلم يكن يومًا طالب شهرة ولا باحثًا عن سمعة، بل كان عمله كله لله يبتغي ما عنده يجتهد في تحرق الحق ويجتهد في الدفاع عن الحق لا يأخذه في ذلك ضعف ولا يعتريه طمع، ولم يعرف عنه أنه تحدث عن أعماله على جلالتها وكثرتها.

٥- طهارة قلبه؛ فكان لا يحمل ضغينة على من أساء إليه، ولا ينتقم من أحد ناله بأذى، بل كان ديدنه الصفح والتجاوز، بل المحافظة عليهم والدفاع عنهم أن ينالهم أحد بما يعرف أنه باطل.

٦- وكان ﷺ على حظ وافر من الشجاعة وقوة الشكيمة، لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يتردد

في إعلان الحق أيا كان المخاطب به ، ودافعه في ذلك مخافة الله وحرصه على أن يخلص ذمته مما علق به ، فمكانته ومسئوليته تحتم عليه نبذ التخاذل ، وكان يكره المتملقين ، وله في ذلك مواقف حفظها التاريخ .

٧- ومن السمات البارزة التي كانت تميزه ما أتاه الله من هيبة في نفوس الناس ، وهو أمر لا يرجع إلى مخافة منه ، ولكن إلى محبته وإجلاله ومعرفتهم عنه صرامته في الحق يحسب محدثه الحساب الدقيق ، حتى يزل في كلمة ، أو يخطئ في فكر ، ومع ذلك فقد كان أنيسًا عند مخالطته ، ألوفًا لمعاشريه ، لا يتصف بشيء من الغلظة أو الغضاضة ، وكان يحسن الفرق بين مجالس الجد والعمل ومجالس الراحة ، حيث يكون في سفر أو نزاهة .

٨- وكان يتنزه عن الغيبة والحديث في الآخرين بما يكرهون ، وعرف بذلك منذ حداثة سنه حتى فارق الدنيا ، ولم يكن يسمح لأحد أن يتحدث في مجالسه بمثالب الآخرين أو تنقصهم ، بل كان يقف دون ذلك ويزجر من حاوله .

٩- ومما لا يعرفه الكثيرون عنه ما يتصف به ﷺ من العفة والتورع عن أخذ ما ليس له أو ما يرى فيه شبهة ، فكان حريصًا على ألَّا يدخل نفسه في مداخل مشتبهة ، ولم يعرف أنه اشتغل بالبيع أو الشراء ، لا بالاستقلال ، ولا بالمشاركة ، بل كان مقتصرًا على ما يتقاضاه مقابل عمله ، بل إنه كان يشغل عدة أعمال كما هو معروف لا يتقاضى إلا ما كان يأخذه قبل إحداث هذه الأعمال ، ولم يكن يأخذ انتدابًا مقابل انتقاله إلى مدينة الطائف صيفًا ولم أعرف عنه أنه طلب من المسئولين شيئًا يخصه .

١٠- ومما لا ينكر من أخلاقه الظاهرة للعيان كراهيته الشديدة للمديح والثناء عليه ، فما كان يرضى من أحد أن يثني عليه أو يبالغ في مدحه ، سواء كان ذلك مشافهة أم كتابة . ومن الأمثلة التي تذكر في هذا المقام ما كتب به إلى أحد الناس ونصه : « ملحوظة : كثيرًا ما تكتب في خطاباتك ألقابًا لا يسوغ ذكرها ، كقولك شيخ الإسلام ، ومفتي الأنام . وهذا شيء لا نرضاه » .

وكتب في مناسبة أخرى ما نصه : « وما ذكرتم في خطابكم من الثناء نود ألَّا نسمعه ، فنحن نستغفر الله ونتوب إليه من تقصيرنا وضعفنا ، نسأله تعالى أن يوفق الجميع لما يحبه ويرضاه » وكتب لآخر ما نصه : « نفيدكم أنه جاء في خطابكم بعض العبارات ، مثل قولكم : عالم الوجود ، تلك العبارة التي لا يصدر مثلها إلا عن جاهل » .

١١- وكان ﷺ معروفًا بالبذل والسخاء في الحدود التي لا تصل إلى المبالغة المكروهة شرعًا والمؤدية إلى الإسراف وإضاعة الوقت ، وبالأخص ما يتعلق بإكرام العلماء والقضاة وطلاب العلم وذوي رحمه . وكان لا يترك مناسبة مهمة إلا أقام لها الوليمة الكبيرة ودعاهم .

١٢- خشيته لله ، كان رحمه الله من أكثر الناس استحضارًا لعظمة الله كثيرًا ما تسمعه يلهج بذكر الله والاستغفار وتغرورق عيناه بالدموع حينما يكون في موقف نجاة الله أو يسمع بعض ما يحرك القلوب ، ولقد كان ذلك يتجلى كثيرًا فيما يحييه من الليل بالصلاة التي كان يواظب عليها في إقامته وسفره ، وقد لا يعرف هذا كثير من الناس الذين لم يتصلوا به ، وقد صحبته زمنًا طويلًا وهو يقوم ما يقرب من ساعة ونصف آخر الليل ، لا يترك ذلك .

ولا غرو ، فقد كان رحمه الله يتحرى في جميع تصرفاته وأخلاقه الظاهرة والباطنة التأسي بالنبي ﷺ وصحابته ، وسلف هذه الأمة ، رضوان الله عليهم .

* **الأعمال التي قام بها :**

عرفنا في مناسبات كثيرة مما مضى في هذه الترجمة أنه رحمه الله باشر العمل منذ وفاة عمه عبد الله رحمه الله ، وقد كان العمل الرئيسي الذي شمل أكثر أيام حياته هو (التدريس) ، وقد تحدثنا عنه في فصل خاص لما له من الأهمية .

على أنه صاحب التدريس مهمة أخرى بدأت دون تنظيم رسمي وهي (الفتوى) ، فقد كان يشارك فيها حتى توفي الشيخ سعد بن عتيق ، ثم استقل بها حتى تحولت بآخرة إلى عمل منظم في دار الإفتاء ، حيث أنشئت في عام (١٣٧٤ هـ) .

وظل رحمه الله يقوم بالفتوى من خلال هذه الدار ، حتى وافته المنية إلى جانب ما كان يكتبه في هذا الميدان في بيته من فتاوى وردود على بعض الكاتبين في قضايا يرى بثاقب بصيرته أن السكوت عليها مسئولية أمام الله .

وإلى جانب هذين الأمرين هناك أمر ثالث لا يقل خطرًا عنهما ؛ وهو : (القضاء) ، فقد كان رحمه الله يقوم بتمييز الأحكام التي تحتاج إلى نظره ، وينظر فيما أحيل إليه من القضايا بأمر من ولاة الأمور .

ولما حول القضاء نظرًا لاتساعه إلى رئاسة أسندت إليه رئاسته في المنطقتين الوسطى والشرقية في عام (١٣٧٦ هـ) ، ثم ضمت إليه المنطقة الغربية بعد وفاة الشيخ عبد الله بن حسن رحمه الله في عام (١٣٧٨ هـ) ، وقد نصت المادة الحادية عشرة من نظام هيئة التمييز أن له رحمه الله حق النظر والبت فيما يختلف فيه القاضي وهيئة التمييز .

وإلى جانب ذلك كله ورغم ما كان يحمله إياه من أعباء فقد تولى (رئاسة المعاهد العلمية والكليات) منذ إنشائها عام (١٣٧٠ هـ) .

ووكل إليه الإشراف على (مدارس البنات) منذ افتتاحها في عام (١٣٧٩ هـ) .

وكلف برئاسة (الجامعة الإسلامية) في المدينة المنورة عام (١٣٨١ هـ) .

وتولى رئاسة «مجلس القضاء» الذي شكل في عام (١٣٨٨ هـ) وعقد في حياته مرتين.

وولي رئاسة (رابطة العالم الإسلامي) منذ إنشائها في عام (١٣٧٩ هـ).

وإمامة جامع «حي دخنه» وخطابة المسجد «الجامع الكبير» المعروف الآن (في ساحة العدل بالرياض).

وشكل هيئة تضم كبار العلماء؛ لتكون مرجعًا لبحث ما يحصل من المشاكل العلمية العويصة، وتقرير ما يلزم حيالها، وللمذاكرة فيما بينهم، والتصدي لنشر الدعوة الإسلامية، والذود عنها، ومحاربة التيارات الجارفة والمبادئ الهدامة. وبعبارة عامة؛ فقد كان له رحمه الله الإشراف التام على جميع الشئون الإسلامية داخل المملكة وخارجها مما يتصل بالمملكة العربية السعودية وتعنى بتوجيهه.

ومثل هذا لا يقوم به العالم العادي، ولكن من آتاه الله القوة والجلد، وإن ذلك ليدل على ثقة الناس، وبخاصة أولياء الأمور في حصافة عقله وسعة علمه ومقدرته الفذة، وحاجتهم إليه في كل ما يعرض لهم من المشكلات.

* تلاميذه:

لا أظن أن من يعرفه رحمه الله يخفى عليه أمر الذين أخذوا عنه العلم واستفادوا منه الفائدة الكبرى. ولا أظن أن ذلك يخفى على من عرف المدة الطويلة التي قضاها مشتغلًا بالتدريس، فقد مر به أفواج بعد أفواج ينهلون من علمه ويستنيرون بثاقب نظره، وقد انتشروا في أنحاء المملكة السعودية بين عالم، وقاض، ومدرس، وواعظ، وخطيب مسجد، ومتفرغ من الأعمال، ولا أظن أن الحصر قادر على أن يأتي على جميع أسمائهم، لذلك فإني أكتفي بعرض أسماء طائفة منهم وهم:

- الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد - رئيس المجلس الأعلى للقضاء حاليًا.
- الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز - رئيس إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.
- الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم - صاحب المؤلفات المشهورة.
- الشيخ: عبد العزيز بن ناصر بن رشيد - رئيس محكمة هيئة التمييز حاليًا.
- الشيخ سعود بن رشود - قاضي الرياض سابقًا.
- الشيخ صالح بن غصون - عضو هيئة التمييز حاليًا.
- الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم - شقيق المترجم الفرضي المشهور.
- الشيخ عبد الملك بن إبراهيم - شقيقه رئيس هيئات الأمر بالمعروف في المنطقة الغربية.
- الشيخ عبد العزيز بن الشيخ محمد - نجل سماحته رئيس هيئات الأمر بالمعروف حاليًا.
- الشيخ إبراهيم بن الشيخ محمد - نجل سماحته وزير العدل حاليًا.

- الشيخ عبد الرحمن بن فارس- قاضي بمحكمة الرياض حاليًا .
- الشيخ محمد بن مهيزع- قاضي بمحكمة الرياض سابقًا .
- الشيخ عبد الرحمن بن هويمل- قاضي بمحكمة الرياض سابقًا .
- الشيخ عبد العزيز بن زاحم- قاضي بمحكمة الرياض .
- الشيخ عبد الرحمن بن سحمان- قاضي بمحكمة الدلم .
- الشيخ عبد العزيز بن صالح بن مرشد .
- الأمير محمد بن عبد العزيز بن سعود آل سعود .
- الشيخ عبد اللّه بن عقيل- عضو المجلس الأعلى للقضاء .
- الشيخ عبد اللّه بن غديان- عضو الهيئة الدائمة للإفتاء .
- الشيخ عبد اللّه بن عبد الرحمن بن جبرين- مدرس بكلية الشريعة .
- الشيخ فهد بن حمين- مدرس بكلية أصول الدين .
- الشيخ حمود بن عقلاء- مدرس بكلية الشريعة .
- الشيخ عبد الرحمن بن فريان .
- الشيخ زيد بن عبد العزيز بن فياض .

* آثاره :

لم تكن في حياته رحمه الله فرصة يتفرغ فيها للتأليف ، فقد كان انشغاله بما علمت من الأعمال التي وصفناها قبل لا تدع فرصة للراحة ؛ إذ كان عمله يستمر أحيانًا إلى الساعة الخامسة ليلًا (بالتوقيت الغروبي) ، فضلًا عن أن تدع له فرصة يفرغ فيها ذهنه ويرجع إلى المراجع فيكتب وينشر ، كما نراه لكثير من أهل العصر ، ولأنه رحمه الله لم يكن بالشخص الذي يكتب كل ما عن له ، بل كان كما وصفناه طويل التأمل شديد المحاسبة لنفسه ، ومسئوليته تحتم عليه ألَّا يكتب إلا بعد تحر طويل ؛ لأن كلمة منه تعد حجة يتعلق بها العامة والخاصة ، ومع ذلك فإن حياته لم تخل من كثير من الرسائل والفتاوى التي كتبها في مناسبات مختلفة .

على أن أجل أثر من آثاره هذا الأثر الكبير الذي نقدمه هذا اليوم والمتمثل في فتاويه التي بلغت (عشرة أجزاء) لو لم يكن له أثر سواها لكفى به فخرًا لم يصل إليه غيره من أهل عصره .

ومما ينبغي التنويه عنه من آثاره أنه اختار ألف حديث في أبواب مختلفة .

* مرضه الأخير ووفاته :

في عام (١٣٨٩هـ) نزل به رحمه الله مرض ، سافر من أجله إلى لندن للعلاج ، فأقام بها أيامًا ، ثم عاد

دون أن يُكتب له شفاء ، فلزم البيت وأخذ المرض يشتد يومًا بعد يوم ، ولم يثمر ما بذل له من عناية طبية حتى دخل في غيبوبة تامة انتهت به إلى الوفاة في (١٤/٩/١٣٩٨هـ) .

وكان طيلة مرضه يكثر من ذكر الله والاستغفار حتى أخذته الغيبوبة . وقد صُلِّي عليه في المسجد «الجامع الكبير» مع صلاة الظهر ، أَمَّ الناس في الصلاة فضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله .

تغمد الله شيخنا برحمته ، وسدد خطى خلفائه ، ونفع بعلومه ، إنه سميع قريب مجيب .

❁ ❁ ❁

ترجمة الشيخ زيد بن عبد العزيز آل فياض رحمه الله

* مولده ونسبه :

هو الشيخ زيد بن عبد العزيز بن زيد بن عبد العزيز بن عبد الوهاب بن محمد بن ناصر بن فياض بن فارس بن محمد بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد بن بريد بن محمد بن بريد بن مشرف بن عمر بن معضاد بن ريس بن زاخر بن محمد بن علوي بن وهيب ، فهو تميمي وهيبي ، من المعاضيد من المشارفة ، فالمترجم يجتمع بالشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمهما الله تعالى - بالشيخ (سليمان بن علي) ، فجد المترجم (محمد بن سليمان) هو عم الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمهم الله جميعًا - ونسبته إلى (الفياض) إلى جده السادس .

* مولده :

ولد في « روضة سدير » عام (١٣٥٠ هـ) ، وفي عام (١٣٦٢ هـ) ، أرسله والده إلى « الرياض » لطلب العلم .

* تعليمه ودراسته :

قرأ القرآن في سن مبكرة عند خاله عبد الله بن فوزان بن هديب القديري ، حتى حفظ القرآن وهو ابن عشر سنين ، ثم أرسله والده إلى الرياض لطلب العلم ، فالتحق بمدرسة تحفيظ القرآن الكريم لدى علي بن عبد الله بن شاكر ، ومحمد بن أحمد بن سنان ، فقرأ القرآن بطريقة مجودة .

ودرس على عدد من العلماء والمشايخ ، منهم : سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ، وأخوه الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم آل الشيخ ، والشيخ : سعود بن رشود ، والشيخ إبراهيم بن سليمان ، والشيخ عبد الرحمن بن قاسم .

وقد أجرى امتحان لراغبي الالتحاق بالمعهد العلمي الذي افتتح عام (١٣٧١ هـ) فتفوق فيه .

وفي عام (١٣٧٢ هـ) تخرج من القسم الثانوي بالمعهد ، وكان ترتيبه الأول .

وفي عام (١٣٧٦ هـ) تخرج من كلية العلوم الشرعية (الشريعة حاليًا) بالرياض ، وكان ترتيبه الأول أيضًا ، وكان متقدمًا في دراسته باستمرار .

وفي المعهد والكلية درس على عدد من العلماء ، منهم : الشيخ محمد الأمين الشنقيطي صاحب « أضواء البيان » في علوم التفسير والتاريخ واللغة ، وسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ، والشيخ عبد العزيز بن ناصر الرشيد ، والأساتذة : يوسف عمر ، وعبد اللطيف سرحان ، ويوسف الضبع ،

وعبد الرازق عفيفي ، ومحمد عبد الرحيم ، والخمسة من مصر ، وغير هؤلاء .

وكان يكتب في بعض الصحف في مواضيع متعددة قبل أن يتخرج من الكلية ، كما كان مشتغلًا بتأليف وتنقيح كتابه « الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية » الذي طبع بعد تخرجه .

* مؤلفاته :

« الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية » ، وهو من أحسن شروحها ، وقد طبعه ، وحصلت الفائدة الكبيرة منها ، (وهو أول شرح مطبوع ، طبع في (١٣٣٧ هـ) ، (ولاقى استحسان سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم ، وسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ، وطبع ثلاث مرات في حياته ﷺ) ، « نظرات في الشريعة » ، « واجب المسلمين في نشر الإسلام » ، « من كل صوب » ، « الوحدة الإسلامية » ، « قضية فلسطين » ، « حكم اللَّه أولى » ، « صور من الجهاد » ، « في سبيل الإسلام » ، « الدين والعلم » ، « بحوث ومناقشات » ، « فصول في الدين والأدب والاجتماع » .

وللشيخ ﷺ كتب لم تطبع في حياته ، وقد وفق اللَّه- تعالى- لطبعها ، وبعضها تحت الطبع ، إضافة إلى إعادة طبع ما سبق طبعه ، ومنها :

١- « تاريخ الوليد بن عبد الملك » ، « حقيقة الدروز » ، « كشف الحجاب ، نقد لكتاب الرسول القائد » ، « دفاع عن معاوية » ، « إقليم سدير في التاريخ » ، « قاهر الصليبيين صلاح الدين الأيوبي » ، « العلم والعلماء » ، « نصائح العلماء للسلاطين والأمراء » ، « رسالة في أصول الفقه » (مفقود) ، « أعلام بني تميم » ، « اليهود وفلسطين » (مفقود) ، « المنتخب من المقالات » ، مطبوع مع كتاب « نظرات في الشريعة » ، « اليهود والحركات السرية » ، « الرافضة » ، « الخميني » .

* تلاميذه :

١- سماحة الشيخ عبد اللَّه بن عبد العزيز آل الشيخ ، مفتي عام المملكة .

٢- معالي الدكتور عبد اللَّه بن عبد المحسن التركي ، الرئيس العام لرابطة العالم الإسلامي .

٣- الدكتور محمد العجلان ، عضو مجلس الشورى ، ومدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سابقًا .

٤- الشيخ عمر بن سليمان الأشقر .

٥- د . صالح السدلان ، الأستاذ بكلية الشريعة ، وعضو هيئة كبار العلماء .

٦- الشيخ فالح بن مهدي ﷺ صاحب كتاب « التحفة المهدية شرح العقيدة التدمرية » ، وكان الشيخ زيد- يرحمه اللَّه - كتب مقدمة الشرح .

٧- الشيخ سليمان الرشودي ، المحامي المعروف .

٨- معالي الشيخ محمد المهوس ، رئيس هيئة التحقيق والادعاء العام .

٩- الشيخ د . سعود الشريم ، إمام الحرم المكي .

* صفاته :

كان رحمه الله زاهدًا في الدنيا ، فلم تشغله ، وكان متواضعًا جم الأدب ، رحيمًا مع الآخرين ، يتعامل معهم بعطف ومحبة .

وكان حريصًا على الدعوة إلى الله ، وهداية الناس إلى دين الله القويم ، وله مناقشات مع كثير من المسلمين أصحاب الانحرافات في العقيدة ، ومع غير المسلمين من نصارى عرب وأجانب ، وقد أسلم نصراني أمريكي بعد مناقشة في منزل الشيخ ، وقد أسلم الأمريكي بعد سفره من المملكة ، وأرسل رسالة يشكره فيها .

* وفاته رحمه الله :

وقد توفي رحمه الله ليلة الثلاثاء (٢١/١١/١٤١٦هـ) ، وصلي عليه من الغد ، وصلى عليه جمع غفير ، وشيعوا جنازته ، حيث اكتظت أرجاء المسجد ، وكان الزحام شديدًا ، وقد صلى عليه جماعة من العلماء وطلبة العلم ، وأمهم في الصلاة الشيخ العلامة عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين .

وكان يردد قبل وفاته : « الحمد لله » .

نسأل الله أن يتغمده برحمته ، وأن يغفر له ويرحمه ، وأن يوسع مدخله ، وأن يتقبله في الصالحين ، إنه سميع مجيب .

❁ ❁ ❁

ترجمة العلامة عبد العزيز الناصر الرشيد رَحِمَهُ اللَّهُ

هو أحد الذين حملوا مشعل العلم والمعرفة، وخدموا الدولة في عدد من المناصب القضائية والعلمية، وشاركوا في التأليف.

* فضيلة الشيخ عبد العزيز بن ناصر بن عبد الله الرشيد رَحِمَهُ اللَّهُ ينتمي إلى قبيلة آل محفوظ من العجمان، ومسقط رأسه بلدة «الرس» - إحدى كبريات بلاد «القصيم» - وكانت ولادته في سنة (١٣٣٣هـ).

* كان منذ ولادته وهو متجه إلى العلم والمعرفة، حيث درس القرآن الكريم ومبادئ القراءة والكتابة في الكتاتيب المتواجدة في بلدة «الرس»؛ حيث درس على عمه محمد الناصر الرشيد، ثم درس على فضيلة قاضي «الرس» عمه الشيخ محمد العبد العزيز الرشيد، ثم توجه عام (١٣٥٥ هـ) إلى الرياض للتروي من ينابيع العلم والمعرفة، حيث درس العلم على عدد من العلماء الأعلام، أشهرهم:

١- الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ، حيث درس عليه في الفقه، والحديث، والتفسير، وأصولها.

٢- الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ، حيث درس عليه الفرائض.

٣- الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ قاضي الرياض.

حتى شهد له مشايخه وأقرانه بالنبوغ والمعرفة.

توجه إلى مكة المكرمة في أواخر عام (١٣٥٨هـ) ضمن مجموعة من العلماء وطلبة العلم الذين كانوا يدرسون على الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، حيث تقلد أول عمل له، وهو الوعظ والإرشاد والتدريس في الحرم المكي، ثم أضيف إليه عمل هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر برئاسة العلامة الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع وانتدب للتدريس في المعهد السعودي بمكة المكرمة.

* في عام (١٣٦١هـ) شكلت هيئة التمييز للنظر في قضايا الشكايات برئاسة العلامة الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع، وصار عضوًا في هذه الهيئة مع مجموعة من علماء مكة المكرمة الأجلاء وبإشراف رئيس القضاة آنذاك سماحة الشيخ عبد الله بن حسن، وكان أيضًا يواصل طلب العلم على بعض علماء المسجد الحرام. ثم انتهت أعمال هذه الهيئة.

* تولى رَحِمَهُ اللَّهُ العديد من المناصب القضائية، وهي:

أ- قضاء «غامد وزهران» - والتي كان مركزها في ذلك العهد بلدة «الظفير» - حيث مارس

عملها في (٢٤/٤/١٣٦٣ هـ)، وله من العمر ثلاثون عامًا.

ب- قضاء «تربه» - جنوب «الطائف» - وقد باشر العمل بها في (١٣/٧/١٣٦٤ هـ)، واستمر قاضيًا بها أربع سنوات.

ج- حوطة بني تميم- جنوب «الرياض» - حيث باشر العمل بها في (١/٤/١٣٦٩ هـ)، واستمر بها قاضيًا إلى أواخر عام (١٣٧٠ هـ)، وكان بالإضافة إلى الأعمال القضائية يقوم بأعمال الحسبة والإمامة والخطابة في المسجد الجامع الكبير في كل بلد تولى القضاء به، بالإضافة إلى أعمال التعليم والتدريس، حيث درس عليه كثير من طلبة العلم في المناطق التي تولى القضاء بها.

في بداية عام (١٣٧١هـ) أمر المغفور له الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود بافتتاح المعهد العلمي في مدينة الرياض، وعهد بالإشراف عليه للشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، وصار مديره الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم آل الشيخ، وانتدب للتدريس فيه نخبة من العلماء، من بينهم فضيلته، واستمر في التدريس فيه حتى افتتحت كلية الشريعة في عام (١٣٧٣هـ) حيث تولى التدريس فيها.

* وفي بداية عام (١٣٧٧هـ) اقتضت المصلحة العامة تشكيل دار الإفتاء في المملكة برئاسة سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، وعين فضيلته عضوًا في دار الإفتاء، بالإضافة إلى التدريس في كلية الشريعة بالرياض، واستمر في ذلك حتى نهاية عام (١٣٧٩هـ).

* وفي بداية عام (١٣٨٠هـ) صدر أمر المغفور له الملك سعود بافتتاح مدارس البنات، وعين فضيلته رئيسًا عامًّا لها، واستمر في هذا المنصب حتى (١/٥/١٣٨١هـ).

* عين رئيسًا لهيئة التمييز سنة (١٣٨١هـ)، ولما افتتح المعهد العالي للقضاء انتدب للتدريس فيه مضافًا إلى عمله في هيئة التمييز، وانتهى عمله منه لما تخرج أول فوج من الكلية عام (١٣٨٦ هـ)، كما أنه أصبح عضوًا في مجلس القضاء الأعلى في بداية تشكيله، واستمر في عمله بالهيئة والمجلس في عفة وأمانة، حتى مرض رحمه الله، فطلب الإحالة على التقاعد، حيث وردت الموافقة السامية على طلبه، وذلك اعتبارًا من (١/١/١٤٠٥هـ).

* بالإضافة إلى أعماله التعليمية والقضائية، اتجه إلى التأليف، حيث ألف عددًا من الكتب الحديثة، أهمها:

١ - «عدة الباحث في أحكام التوارث»، حيث طلب منه طلابه في المعهد العلمي بالرياض إعداد مذكرة مختصرة في درس الفرائض، فأملى عليه هذه المذكرة، ثم نقحها ونشرها في كتاب طبع ما يقارب العشر طبعات.

٢- « التنبيهات السنية في شرح العقيدة الواسطية » ، وهو كتاب ألفه لشرح « العقيدة الواسطية » لشيخ الإسلام ابن تيمية ، والتي كانت تدرس في المعهد العلمي بـ « الرياض » . فقد طلب منه تلامذته إعداد شرح لهذا الكتاب ، وقد طبع ما يقارب العشر مرات .

٣- « إفادة السائل إلى أهم الفتاوى والمسائل » ، حيث طلبت منه إذاعة القرآن الكريم من الرياض عددًا من المقالات التي أجاب بها على الكثير من الاستفسارات ، ثم جمعت هذه المقالات على شكل كتاب طبع الجزء الأول منه مرتين ، وبدأ يواصل نشر مقالاته بواسطة الإذاعة ، مما استلزم أن يعاد النظر فيه ، ويرتب على أبواب الفقه ، ويعاد طباعته من جديد . وهو في انتظار الطباعة .

٤- « القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى » ، وهو في انتظار الطباعة .

٥- « تفسير آيات الأحكام » ، وهو قيد التحقيق ثم الطباعة .

٦- ثم له العديد من الرسائل والبحوث والاهتمامات العلمية التي تنتظر دورها في التحقيق .

ثم اشتد عليه المرض ، حيث نقل إلى المستشفى العسكري ، وتوفي فيه في تمام الساعة الرابعة من يوم الاثنين (٤/٣/١٤٠٨ هـ) ، وصُلِّي عليه ظهر يوم الثلاثاء في المسجد « الجامع الكبير » ، وحضر جنازته سمو الأمير سلمان بن عبد العزيز ، وعدد من أصحاب السمو الملكي الأمراء والعلماء ، وصلى عليه سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز صلاة الجنازة ، ثم نقل إلى مقبرة العود .

رحمه الله رحمة واسعة ، وغفر له ، وأسكنه فسيح جناته ، وأنزله منازل الصديقين والشهداء . وجعل ما قدم من عمل ، وألف من علم ؛ في ميزان أعماله يوم القيامة . إنه سميعٌ مجيب .

❁ ❁ ❁

ترجمة الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان رحمه الله

* مولده ونشأته :

هو : الشيخ الفقيه المدقق الزاهد عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن السلمان ولد سنة (١٣٣٧هـ) أو (١٣٣٩ هـ) على ما ذكره ابنه عبد الحميد نقلًا عن أبيه بخطه ، ولقد نشأ في بيت علم وصلاح وخير ، ونشأ بين أبوين كريمين ، ولكن أباه قد توفي وهو صغير فكفلته أمه واعتنت به أيما عناية ، وأدخلته مدرسة المعلم محمد بن عبد العزيز الدامغ لتحفيظ القرآن الكريم ، ومكث في هذه المدرسة ثلاث سنوات حفظ فيها القرآن الكريم ، بعد ذلك دخل مدرسة الأستاذ صالح بن ناصر بن صالح رحمه الله ، وتعلم في هذه المدرسة الكتابة والقراءة والخط والحساب وتخرج منها ، وقد انشغل في بداية شبابه بالتجارة وفتح محلًا يقوم فيه بالبيع والشراء ، ثم لما حصل الكساد أثناء الحرب العالمية الثانية على العالم كله وخصوصًا الجزيرة العربية أصبحت التجارة ليس لها مردود جيد فترك الشيخ عبد العزيز مزاولة التجارة ، واتجه إلى طلب العلم .

* طلبه للعلم :

كانت الخطوة الأولى للشيخ رحمه الله إلى عالم العلم والعلماء هي مدرسة العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي (١٣٧٦ هـ) رحمه الله ؛ التي كانت في الحقيقة منارة العلم والمعرفة ، انضم الشيخ عبد العزيز إلى هذه المدرسة التي كانت تعقد غالبًا في جامع عنيزة الكبير كان ذلك سنة (١٣٥٣هـ) ، وكانت حلقة الشيخ عبد الرحمن السعدي أشبه بخلية نحل يتوافد عليها الطلبة من كل حدب وصوب ينهلون من علم الشيخ ابن سعدي رحمه الله ، حيث لازمه ستة عشر عامًا إلى سنة (١٣٦٩هـ) ، وقد قرأ على الشيخ مع زملائه علوم العقيدة ، والفقه ، والحديث ، واللغة العربية ، وقد عرف الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله بحرصه الشديد على تعهد تلاميذه بطريقته الفذة التي تميز بها عن بقية العلماء في طريقة التدريس ، وتوصيل المعلومات إلى ذهن التلميذ ، وجعل الاختيار له في الكتاب الذي يريده ، وأسلوب النقاش الذي يفتح لطالب العلم الكثير من أبواب العلم وفهم المسائل بشكل جيد .

ولقد تأثر شيخنا عبد العزيز رحمه الله بشيخه السعدي كثيرًا ، لا في طريقة تدريسه وتعامله مع التلاميذ والعطف عليهم والسؤال عن حالهم فحسب ، بل في التقلل من حطام الدنيا والعيش بالكفاف والقناعة وعدم الخوض في أعراض الناس ، وتركه ما لا يعنيه رحمه الله مع الانكباب على العلم وطلب المعرفة التي كانت شغله الشاغل ، لا من ناحية التدريس في معهد الرياض العالي أو التأليف الذي كان يفرغ له جل وقته عندما أحيل إلى التقاعد ، ولقد تعين رحمه الله في المعهد العلمي بالرياض إبان إنشائه سنة

(١٣٧٠هـ) ، رشحه الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ (١٣٨٩ هـ) رحمه الله ، وهذا دليل على كفاءته العلمية وقدرته المعرفية ، فلقد جاء إلى الرياض وهو قد ارتوى من العلم والمعرفة من حلقة شيخه عبد الرحمن رحمه الله ، الذي كان دائمًا يلهج بالثناء عليه والدعاء له ، وهذا دليل وفائه رحمه الله ، وهكذا كان دأب سلفنا الصالح مع شيوخهم وعلمائهم .

استمر الشيخ عبد العزيز مدرسًا في معهد إمام الدعوة حتى سنة (١٤٠٤ هـ) .

* ما قاله عنه تلاميذه ومحبوه :

قال عنه العلامة الشيخ صالح بن سعد اللحيدان المستشار القضائي بوزارة العدل أنه : (رجل تعلوه السكينة والبساطة ، جم الأخلاق ، واسع البال ، كان يشرح درسه مرتين بأسلوب شيق ، وكان يمازح تلامذته بمداعبة جادة وموزونة . وكان رحمه الله جادًّا ، صبورًا ، واسع النظر ، وربما يذكرك بمن سلف من السلف ، وكان ذا طول في التأني والتحمل وحسن الأداء ، وتعلمنا منه النقاش والشعور بالمسئولية واستنطاق حال النص بشجاعة علمية وأدبية) .

وكما قال أيضًا الشيخ عبد المحسن بن محمد العجمي ، وهو أحد تلامذة الشيخ قائلًا : .. كنا نزوره رحمه الله في بيته القديم بحي الديرة شارع السويلم ، ونصلى معه في مسجده القديم ، فيستقبلنا بحفاوة ، ونحن بعد لم نناهز الحلم ، ويتحدث معنا ، وكأنه أب لنا ، يحرص ويهمه أن نسير على منهج الحق ونقتفي أثر السلف ، ثم يدخلنا في بيته ويزودنا بالكتب والمؤلفات القيمة له ولغيره ، لا سيما كتابه الزاخر بالعلم والأدب والأخلاق والمواعظ «موارد الظمآن» ، ثم يقوم رحمه الله بحثنا على طلب العلم والحرص في تحصيله ، والجد في تعلمه وحفظ أوقاتنا بما ينفعنا ، وكان يوصينا كثيرًا بقراءة كتب السلف مثل كتب شيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه الإمام ابن القيم ، وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ، وأئمة الدعوة السلفية رحمهم الله ، كل ذلك بتوجيه حكيم ومنطق رزين وشفقة وحب ، ومما ذكره الشيخ عبد الرحمن الرحمة عن الشيخ السلمان قائلًا : «فلقد رزئت الأمة الإسلامية بوفاة عالم من علمائها المخلصين ، ومجاهد من مجاهديها الصادقين ، نذر وقته ونفسه لنشر العلم الصافي وبيان أحكام الدين ؛ وذلك عن طريق التأليف والتصنيف» .

* مؤلفاته وآثاره العلمية :

الشيخ عبد العزيز السلمان من المكثرين في التأليف ، وأول كتاب ألفه هو «الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطة» ، سنة (١٣٨٢) ، وكتبه الوعظية لها قبول لدى الناس ، ويحرص عليها أئمة المساجد يقرءونها بعد صلاة العصر على المصلين وقبل صلاة العشاء ، وخصوصًا في ليالي شهر رمضان من كتاب «موارد الظمآن» وهو اسم على مسمى ، ففيه من المواعظ والرقائق ما يروي

الظمآن ، ووضع الشيخ السلمان ثقله العلمي كله في هذا الكتاب وصدر هذا الكتاب في ستة مجلدات كبار ضخام ، وبقية مؤلفاته كلها معروفة لدى الناس فلا حاجة لذكرها ، وقد تجاوزت طباعة بعض كتبه إلى ما يقارب (٣٦) طبعة ، وهو « كتاب محاسن الدين الإسلامي » ، والطبعة (٣٧) فسوف تصدر بعد فترة وجيزة ، وقد ترجمت جميع كتبه إلى اللغة الأوردية ، وحصل لها فتح عظيم وتأثير كبير عند الشعوب التي تتكلم بهذه اللغة ، والجدير بالذكر أن كثيرًا من دور النشر كانت تلح على الشيخ أن تطبع كتبه وعرضها للبيع ، فرفض رفضًا باتًّا وقال : « هي وقف لله تعالى ، ولا أريد إلا الثواب من الله ﷻ في هذه الكتب » . ومع ذلك قامت بعض دور النشر بطبع كتبه بدون إذنه وعرضتها للبيع ، والكتاب الذي طبعته هو كتابه من « معجزات النبي ﷺ » .

* اللحظات الأخيرة للشيخ السلمان :

يقول ابنه عبد الحميد عن اللحظات الأخيرة قبل أن يتوفى والده بساعات : « كان الوالد رحمه الله في حياته لا يعاني من أمراض مستعصية سوى داء الركبتين ، حيث إنه في المدة الأخيرة أصبح لا يستطيع المشي إلا بصعوبة ، وكان يستعمل العكازين ، وكان يخدم نفسه بنفسه في داخل البيت ، وكان يستمتع بكامل قواه » . ويضيف ابنه قائلًا : « إن أبي عندما ألف كتابه الأخير « مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار » قال لي : يا عبد الحميد ، أريد أن أتأهب بهذا الكتاب- إن شاء الله ﷻ- لدخول دار القرار ، ولم يؤلف الشيخ بعد هذا الكتاب أي كتاب » .

ويقول ابنه عبد الحميد : « كان من عادة الوالد قبل أن ينام أن أجلس معه قليلًا وأسأله : هل يريد شيئًا أقضيه له ، وفي يوم وفاته في الساعة الثانية عشر ليلًا يوم الأحد التاسع عشر من شهر صفر لعام (١٤٢٢ هـ) وكالعادة ذهبت إليه وكان بجانبه شريط به تسجيل لأحد قراء القرآن الكريم يستمع إليه ، وكان هذا دأبه إما قارئًا للقرآن الكريم أو مستمعًا . وقلت له : هل تريد شيئًا يا أبي ؟ قال : لا ، وإذا أردت شيئًا سأطلبك ، ولمست يده ، فإذا هي مرتفعة الحرارة ، وذهبت إلى غرفتي وأنا غير مطمئن ، ورجعت له مرة ثانية ولمست يده فإذا هي أكثر حرارة ، وبلغ منه الجهد والإعياء وأصبح واضحًا ، فقلت له : سوف نحملك إلى المستشفى ، فرفض وقال : أعاني من ألم شديد « وهو يشير إلى صدره » لا يعلم مداه إلا الله ﷻ ، ولو كان الموت يشترى لاشتريته ولكن لا يجوز تمني الموت . ولعل ذلك مرض الموت وذكرت له أول الحديث عن رسول الله ﷺ : أريد معرفة ذاكرته ، وأكمل لي الحديث ، نصف الحديث بأكمله رحمه الله ، وأتت الوالدة – حفظها الله – وأسقته من ماء زمزم ، فشرب منه ، ثم استقبل القبلة رحمه الله وتشهد الشهادة كلمة التوحيد ، وفاضت روحه الطاهرة في الساعة الثالثة ليلًا في وقت تستجاب فيه الدعوات » .

ترجمة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله

* اسمه ونسبه :

هو الإمام العالم العلامة الصالح الورع الزاهد، أحد الثلة المتقدمين بالعلم الشرعي، انتفع به المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها في الفتوى والعلم، ناصر السنة وقامع البدعة، أبو عبد الله عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله آل باز- وآل باز- أُسرة عريقة في العلم إلى جانب التجارة والزراعة، معروفة بالفضل والأخلاق.

ومن أعيان هذه الأُسرة: الشيخ عبد المحسن بن أحمد آل باز المتوفى سنة ١٣٤٢هـ الذي تولى القضاء بالحوطة ثم الإرشاد في هجرة الأرطاوية. والشيخ مبارك بن عبد المحسن بن باز، والشيخ حسين بن عثمان بن باز، وقد تولوا القضاء في عدد من مناطق المملكة.

أمَّا أصلهم فمن المدينة المنورة، وقد انتقل أحد أجدادهم منها إلى الدرعية ثم انتقلوا بعد ذلك إلى حوطة بني تميم.

* يقول الشيخ عبد العزيز بن باز عن عائلته: إن أصلهم من الرياض، وطائفة منهم في الحوطة، وطائفة في الأحساء، وطائفة في الحجاز، وكلهم يرجعون لنفس العائلة، وهناك أُناس يقال لهم: آل باز في الأردن، ومصر وفي بلاد العجم ولا نعرف عنهم شيئًا، ولكن بعضهم يدَّعي أنه من آل البيت وهم الموجودون في الأردن.

* مولده:

ولد الشيخ في مدينة الرياض في ذي الحجة سنة ١٣٣٠هـ، وترعرع فيها وشب وكبر فيها.

* نشأته:

نشأ ابن باز في أسرة يغلب على الكثير من فضلائها طلب العلم وعلى بعضها عمل التجارة، والبعض العناية بالزراعة، ونشأ يتيمًا في حضانة والدته: هيا بنت عثمان بن عبد الله الخزيم، فوالده توفي في ذي القعدة من عام ١٣٣٣هـ وعمره ثلاث سنوات، وقد اعتنت به والدته، وخاصة في توجيهه إلى طلب العلم الشرعي منذ نشأته، وكانت البيئة التعليمية في ذلك الوقت عامرة بالعلم الشرعي عن طريق التعليم في المساجد والكتاتيب، فبدأ الشيخ تعليمه بحفظ القرآن الكريم كما هي عادة السلف الصالح، إذ يجعلون القرآن الكريم أول المصادر العلمية، فيحفظونه ويتدبرونه، ويعون أحكامه وتفاسيره، ومن ثم ينطلقون إلى بقية العلوم الشرعية، وقد كان الشيخ مبصرًا في أول حياته، ثم أصابه المرض في عينيه عام ١٣٤٦هـ ثم ذهب بصره بالكلية في عام ١٣٥٠هـ وهو ابن عشرين عامًا تقريبًا، ومع ذلك كله استمر

في طلب العلم، ثم فُجع بوفاة والدته عام ١٣٥٦ هـ ومع ذلك صبر الشيخ في طلب العلم والتزود من العلوم والمعارف.

* عبادته وزهده :

العبادة شأنها عظيم، فمن عباد الله من هو ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله. أما الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ فكان كثير التعبد والتنفل، وكان مثالًا يحتذى بــه في حرصه على العبادة، وفي تبكيره إلى المسجد، وفي محافظته على السنن والرواتب وعلى الأذكار في كل الأحوال.

فالشيخ: ولي صالح وعبد صادق، رقيق القلب كثير الذكر، سريع الدمعة يقول عنه الشيخ عبد الله المجلي أحد أبرز الملازمين له: «إن الشيخ ابن باز عابد زاهد ورع صوَّام قوّام، كثير العبادة والاستغفار، شديد الخوف من الله لا يترك باب طاعة إلا ويسلكه، ولا عمل خير إلا ويسير فيه، متمسك بالسنة مطبق لها في كل جوانب حياته، فهو بحق يمثل الإسلام كله في حياته.. فهو يداوم على قيام الليل، والسنن والرواتب، وسنة الضحى وغيرها وجميع الأذكار، حج اثنتين وخمسين حجة، وكان يزور المرضى ويشيع الجنائز ويصوم الاثنين والخميس من كل أسبوع، ويختم القرآن كل ثلاث أو أربع ليال على الرغم من كثرة مشاغله وأعبائه العلمية».

ومن حرصه على وقته أنه لا يجعله يذهب إلّا وهو في عبادة تقربه من الله ﷻ سواء كان في السيارة، أو في العمل، أو في بيته.

* يقول الدكتور ناصر الزهراني إمام جامع الشيخ ابن باز في مكة المكرمة: «الشيخ ابن باز لا يفتر لسانه من ذكر الله أبدًا، بل لقد كنت أرقبه وهو يرد على المتصلين، فأراه في أثناء إنصاته لحديث المتصل يلهج بالذكر وبعد الصلوات لا يقوم من مصلاه إلا وقد أتى بالأذكار كلها، فلقد كانت محبة الله وعظمته والتعلق به ظاهرة جلية ينطق بها لسانه، ويخفق بها جنانه ويسطرها بنانه وهـذا سرٌّ من أسرار التوفيق في حياته، والبركة في عمره وعلمه».

عاش الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ زاهدًا معرضًا عن الدنيا، وزخارفها وزينتها ومتاعها.

* يقول أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري: «إن الشيخ لم يطمع لزينة الدنيا ومتاعها، عَرَض عليه أحد أمراء القرى في مناسبة زواج، أن يمنحه أرضًا كبيرة في تلك القرية، وكرر عليه ذلك كثيرًا، فصرفه الشيخ عن الحديث بلطف ودعا له وشكره».

* ومن زهده أيضًا: تبرعه بجائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام لدار الحديث الخيرية بمكة المكرمة. وقد نال الشيخ الجائزة عام ١٤٠٢هـ وذلك بقرار لجنة الجائزة رقم ١١/٦٨/٩٨ وتاريخ ١٣٩٨/٨/١٠ . وقد ذكرت لجنة أسباب نيل الجائزة وذلك لخدماته الجليلة المتمثلة

في خدمة الإسلام والمسلمين.

* وذكر عنه مدير مكتب منزله الشيخ محمد بن موسى فقال: «لا يكاد يُعرف في زماننا أزهد من سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، مع أن الدنيا تُقبل عليه وتتزين له إلا أنه زاهد فيها، مُشيح بوجهه عنها، فلا أذكر يومًا من الأيام أنه سأل عن راتبه، ولا عن مقداره، ولا عن زيادته، ولا عن وقت مجيئه، ولا أذكر أنه سأل عن انتدابه أو عن رصيده أو حسابه ولا أذكر أنه تكلم ببيع ولا شراء، أو أمر من أمور الدنيا، بل كان كثير الوصية بالتحذير من الاغترار بالدنيا وسماحته كان يعيش عيشة القناعة والزهد والكفاف، فلم يكن يتطلع إلى مال أو جاه أو منصب، بل كان ينفق إنفاق من لا يخشى الفقر، وكان زاهدًا بالجاه والمراتب والمديح وحب الذكر، وكان يكره الحديث في تغيير أثاث منزله أو سيارته، ومما يدل على زهده كثرة إنفاقه وإسقاط الدين عمن اقترض منه ولو كان كثيرًا، ومن صور زهده، زهده في المديح والإطراء فإذا قرأنا عليه الرسالة التي تفيض بالحب والدعاء والثناء على سماحته قال لنا: اتركوا المقدمة اقرءوا المقصود، وماذا يريد صاحبها؟ أنا لا أحب أن أسمع مثل هـذا الكلام وإذا مُدح تغير وجهه وقال: الله المستعان، الله يتوب على الجميع، الله يستعملنا وإياكم فيما يرضيه.

* ولهذا قيل عنه:

وزهده في الدنيا لو أن ابن أدهم ... رآه ارتأى فيه المشقة والعسرا
وكم رامت الدنيا تحل فؤاده ... فأبدى لها نكرًا وأوسعها هجرا

* أخلاقــه وأعمـاله :

كان الشيخ على قدرٍ عظيم من حُسن الخلق، حتى أصبح من سجيته يتعامل به دون أي تكلف أو تصنع، فأخلاقه ربانية لا تهدف إلى مقاصد مادية بل هي موافقة للشرع المطهر، اتخذ من محمد ﷺ أُسوة وقدوة تمثلت في تطبيقه للسنة النبوية علمًا وعملاً، فقد تميز رَحِمَهُ اللهُ برحابة الصدر وسعة البال .

فكان يستقبل الناس صغيرهم وكبيرهم، جاهلهم وعالمهم، حاكمهم ومحكومهم بتواضع جم وأدب رفيع، فهو لا يغضب عند كثرة الأسئلة أو الاستفسارات ويتعامل مع الضعفاء والجهال بكل حلم، كما أنه يصبر على الزحام وعلى مضايقات بعض النفوسَ الضعيفة وعلى كثرة إلحاحهم، لأنه يحمل قلبًا رحيمًا عطوفًا على الجميع، لا فظًا ولا غليظًا، هين لين، خالقَ الناس بخلق حسن فالخلق صورة الإنسان الباطنية، وهو أساس الفضائل وينبوع المكارم وعين الكمال، ضبط الشيخ أخلاقه بضابط الشرع، ووزنها بميزان الدين.

* ومن أشهر مزاياه الأخلاقية :

إحسانه إلى الناس، وبذل المعروف، والصدق والوضوح، والصراحة مهما كان الأمر، وقد اشتهر

بالأمانة على دين الله، فإذا قال ابن باز قولًا اطمأنت النفوس وهدأت الجوانح إلى قوله، واشتهر بالأمانة على أموال الناس فكانت تدفع له الصدقات والتبرعات وغيرها ليصرفها لمستحقيها، وما ذلك إلا لثقتهم به، واشتهر أيضًا بالحلم فقد كان حليمًا صابرًا متجلدًا، يحبس نفسه ويكظم غيظه، ويضبط حنقه بالذكر والدعاء حتى ينطفي ما وقع له.

وبالجملة فقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ حريصًا على السنة ملازمًا للأدب، رحب الصدر، طويل الحلم، أريحي النفس، حسن الظن عظيم الرجاء واسع الفأل متوكلًا على الله، مجتهدًا في الأسباب، غيورًا على الحرمات رحيمًا بالناس رفيقًا بهم، لطيفًا معهم، عطوفًا عليهم، راغبًا في قضاء حوائجهم، ناصحًا لهم مكرمًا إياهم، محسنًا إليهم، حريصًا على هدايتهم مشتغلًا بنفعهم، فهو أنفع الناس للناس.

فهذه الأخلاق التي تجلت في شخص ابن باز مدارها على القرآن والسنة وسيرة السلف الصالح، حيث نشأ عليها متعلمًا وعاملًا ومعلمًا، فسارت في حياته كما يسير الدم في جسمه، وكيف لا! وسميره كتاب الله، ومبيته مناجاة لله، ونهاره دعوة إلى الله، فرحمه الله رحمة واسعة.

* **أعماله :**

كان للشيخ إسهامات عظيمة في كل أعماله التي تولاها، وبصمات واضحة منذ توليه القضاء حتى الإفتاء، وقد تدرجت مسيرته مع العلم والعطاء خلال عدة محطات رئيسة، قدَّم فيها القدوة والمثال، واكتسب كثيرًا من الخبرات التي أضافت لشخصيته أبعادًا أكثر شمولية، فأول عمل تولاه:

١ - القضاء في الدّلم عام ١٣٥٧ هـ في جمادى الآخرة واستمر فيه حتى عام ١٣٧١ هـ وكان طيلة تلك المدة بالإضافة إلى القضاء يقوم بإمامة الناس والإصلاح بينهم وتفقد أحوالهم وتدريس الطلبة، فتخرَّج على يديه الكثير من طلبة العلم الذين تبوأوا مناصب مهمة بعد ذلك.

٢ - بعد افتتاح المعاهد العلمية بالرياض، انتقل للعمل مدرسًا فيها وذلك عام ١٣٧٢ هـ ولمدة سنة واحدة، وبعدها انتقل للتدريس في كلية الشريعة في الرياض عام ١٣٧٣ هـ ليمضي بها سبع سنوات، وكان في تلك الفترة يؤم المصلين في جامع الإمام تركي بن عبد الله، ويقوم بإلقاء الدروس في المسجد وفي بيته، ويلقي المحاضرات والكلمات المتنوعة في المناسبات وغيرها.

٣ - في عام ١٣٨١ هـ انتقل إلى المدينة النبوية عند افتتاح الجامعة الإسلامية وذلك بأمر من شيخه محمد بن إبراهيم مفتي الديار السعودية آنذاك، ليكون نائبًا له في إدارة الجامعة، ثم تولى إدارة الجامعة نفسها في عام ١٣٩٠ هـ بعد وفاة رئيسها الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حتى عام ١٣٩٥ هـ وكان خلال وجوده بالمدينة النبوية يلقي الدروس في المسجد النبوي بالإضافة إلى المحاضرات والكلمات والندوات ويشارك في الكـ[illegible] من خلال الصحف والمجلات.

٤- وفي عام ١٣٩٥ هـ في شوال صدر الأمر الملكي بتعينه رئيسًا لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بمرتبة وزير، فرجع إلى الرياض وتولى إمامة جامع الإمام تركي، وكان في الوقت نفسه رئيسًا للمجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، ومجلس المجمع الفقهي، والمجلس الأعلى العالمي للمساجد.

٥- وفي عام ١٤١٣ هـ صدر الأمر السامي بتعينه مفتيًا عامًّا للمملكة العربية السعودية، ورئيسًا لهيئة كبار العلماء، ورئيسًا للجنة الدائمة للبحوث العلمية ورئيسًا لرابطة العالم الإسلامي، بالإضافة إلى ترؤسه لدار الحديث الخيرية بمكة المكرمة.

هذه بعض أعماله الرسمية ، أما أعماله الخيرية التطوعية فله جهود دعوية كثيرة لجميع المؤسسات والمراكز الإسلامية المنتشرة في كافة أنحاء العالم، كما أن له دعمه الملموس للجهاد الإسلامي، واهتمامات بجمعيات تحفيظ القرآن الكريم الخيرية ودعم الدعاة ومساعدتهم وكفالتهم، كما أن له اهتمامًا بهيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمساهمة في بناء المساجد وغير ذلك.

كما تولى رَحِمَهُ اللَّهُ رئاسة العديد من المؤتمرات العالمية التي عُقدت بالمملكة العربية السعودية، والتي مهدت له ويسرت أمامه سُبل الاتصال بالكثير من الدعاة ورجال العلم، وزعماء التجمعات الإسلامية، والشخصيات البارزة في حقل الدعوة الإسلامية، ومعرفة قضايا المسلمين في كل أنحاء العالم.

* مرضه ووفاته:

من طبيعة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أنه كان جلدًا صبورًا لا يشتكي ولا يتأوه مع ما مرَّ به من أمراض شديدة في أوقات مراحل عمره، ومع ذلك لم تثنه عما هو فيه من الجد والاجتهاد ومن الدعوة إلى الله والمثابرة على ذلك حتى إنه في مرضه الشديد أنجز كثيرًا من الأعمال الموكلة به.

فمرض وفاته رَحِمَهُ اللَّهُ بدأ منذ عام ١٤١٩ هـ في شهر رمضان حيث كان يشعر بألم في البطن، فاشتد به المرض، فشُكلت لجنة طبية بأمر خادم الحرمين الشريفين للنظر في حالته، وعُرض عليه السفر للعلاج في الخارج فرفض فأُحضر له أطباء من أمريكا وبلجيكا، فلما حضروا أوصوا بكيِّ المري، فخف الألم قليلًا، ثم عاوده بعد شهرين وهو في الرياض، فدخل المستشفي ثم خرج منه بعد فترة لاستقرار حالته، ثم أصبحت حالته تتدنى حتى شهر ذي القعدة فنصحه الأطباء بالبقاء في المستشفي ولكن كان قلبه معلقًا بالحج.

وبعد إلحاح شديد من ولي العهد الأمير عبد الله بن عبد العزيز، ترك الحج ووكل نائبه الشيخ عبد العزيز آل الشيخ ليقوم مقامه بالحج، ثم قام في تأريخ ١٤١٩/١٢/٢٢هـ بأداء العمرة وبقي في

مكة حتى نهاية ذي الحجة، ثم انتقل إلى مقره الصيفي بالطائف، فبدأت صحته بالتدني، ومع ذلك كانت همته وعزيمته ونشاطه وعمله، ومزاجه وتفكيره، وذاكرته ودروسه ومواعظه على ما هي عليه قبل مرضه.

وفي يوم الخميس ٢٠/١/١٤٢٠هـ اشتد به المرض فنقل إلى المستشفى العسكري بالهداء في محافظة الطائف، ومع هذا كانت المعامِلات تُقرأ عليه والمُستفتون والزوار يتوافدون عليه من كل مكان، وهو يستقبلهم بتهلل وفرح وسعة بال، واستمر على هذه الحال إلى يوم الثلاثاء ٢٥/١/١٤٢٠هـ فخرج من المستشفى فاستقبل الناس في بيته وجلس لهم بعد المغرب ليلة وفاته فقُرئت عليه المعاملات، وردّ على الفتاوى المباشرة والهاتفية وقبل الفجر من يوم الخميس الموافق ٢٧/١/١٤٢٠ هـ يقول ابنه أحمد: صلى الشيخ ما شاء أن يصلي في تلك الليلة، فاضطجع ونام، وبعد ساعة جلس في فراشه، فالتفت يمينًا وشمالًا؛ فتبسم ثم اضطجع، وبعد ذلك ارتفعت نفسه وحشرجت، فنقلناه إلى مستشفى الملك فيصل بالطائف وهو يردد: سبحان الله والحمد الله ولا إله إلا الله والله أكبر.

* وفــاته:

في صباح الخميس الموافق ٢٧/١/١٤٢٠هـ لفظ أنفاسه وهو في طريقه إلى مستشفى الملك فيصل بالطائف، ثم نقل إلى ثلاجة القوات المسلحة في الهداء حتى جاء وقت تغسيله وذلك في صباح يوم الجمعة، فنُقل جثمانه إلى منزله بمكة المكرمة فغُسِّل، وصلى عليه أهل بيته يتقدمهم فضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ مفتي عام المملكة العربية السعودية، ثم صُلِّي عليه في المسجد الحرام بعد صلاة الجمعة وذلك بأمر من خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود.

وقد أعلن الديوان الملكي خبر وفاته يوم الخميس الذي مات فيه ومكان الصلاة عليه ووقتها، مع أمر جميع المسلمين في مساجد المملكة بإقامة صلاة الغائب على الشيخ يوم الجمعة الموافق ٢٨/ ١/ ١٤٢٠ هـ فتوافدت الجموع الحاشدة إلى مكة المكرمة لحضور الصلاة عليه، يتقدمهم ملك المملكة العربية السعودية الملك فهد بن عبد العزيز وولي عهده الأمير عبد الله بن عبد العزيز، والنائب الثاني الأمير سلطان بن عبد العزيز ووزير الداخلية الأمير نايف بن عبد العزيز، وأمير الرياض الأمير سلمان بن عبد العزيز، وجمعٌ كبير من الأُمراء والوزراء وأصحاب الفضيلة المشايخ وكبار المسئولين في الدولة، مع أعداد غفيرة من المواطنين والمحبين للشيخ وكل هذه الجموع حضرت لأن المصاب عظيم والفاجعة بموته كبيرة، والرزية به عظيمة، وأَمَّ المصلين إمام المسجد الحرام فضيلة الشيخ محمد بن عبد الله السبيل، حيث تحدث في خطبته عن فضل العلم والعلماء وذكر بعض مآثر الفقيد، وعزى الأمة به، وصبَّر الناس، وبعد صلاة الجمعة قُدِّمت الجنازة فعلا النحيب والبكاء والدعاء للشيخ، فما كادت

الجنازة تصل إلى المكان الذي هو أقرب للإمام إلا بشق الأنفس لكثرة الزحام ولقد شهدها آلاف مؤلفة من المسلمين حيث سارت في موكب مُهيب وسط الجموع الغفيرة إلى مقبرة العدل بمكة المكرمة يتقدمهم فضيلة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ وكان ذلك اليوم يومًا مشهودًا للجميع فرحم الله الشيخ رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته، وجعله في الفردوس الأعلى، وحشره في زمرة الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين.



ترجمة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله

* نسبه ومولده :

هو: صاحب الفضيلة الشيخ العالِم المُحقق ، الفقه المُفسر ، الورع الزاهد : أبو عبد اللَّه محمد بن صالح بن عثيمين الوهيبي التميمي.

ولد في مدينة عُنيزة في السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك عام (١٣٤٧).

* نشأته العلمية :

قرأ القرآن الكريم على جده من جهة أمه عبد الرحمن بن سليمان آل دامغ رحمه الله فحفظه، ثم اتجه إلى طلب العلم فتعلم الخط والحساب وبعض فنون الآداب، وكان الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله قد أقام اثنين من طلبة العلم عنده ليدرِّسا للطلبة الصغار أحدهما الشيخ علي الصالحي، والثاني الشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع رحمه الله، قرأ عليه « مختصر العقيدة الواسطية » للشيخ عبد الرحمن السعدي، و« منهاج السالكين » في الفقه للشيخ عبد الرحمن أيضًا، والآجُرُّوميَّة والأَلْفِيَّة.

وقرأ على الشيخ عبد الرحمن بن علي بن عودان في الفرائض والفقه.

وقرأ على الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي الذي يعتبر شيخه الأول حيث لازمه وقرأ عليه التوحيد والتفسير والحديث والفقه وأصول الفقه والفرائض ومصطلح الحديث والنحو والصرف.

وكانت لفضيلة الشيخ منزلة عظيمة عند شيخه رحمه الله فعندما انتقل والد الشيخ محمد رحمه الله إلى الرياض رغب في أن ينتقل معه ولده الشيخ رحمه الله، فكتب له الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: « إن هذا لا يمكن نريد محمدًا يمكث هنا حتى يستفيد ».

يقول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: « إنني تأثرت به كثيرًا في طريقة التدريس وعرض العلم وتقريبه للطلبة بالأمثلة والمعاني، وكذلك أيضًا تأثرت به من ناحية الأخلاق ؛ لأن الشيخ عبد الرحمن رحمه الله كان على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة، وكان رحمه الله على قدر كبير في العلم والعبادة، وكان يمازح الصغير، ويضحك إلى الكبير، وهو من أحسن من رأيتُ أخلاقًا ».

قرأ على سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز حيث يعتبر شيخه الثاني، فابتدأ عليه قراءة « صحيح البخاري »، وبعض رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية وبعض الكتب الفقهية.

يقول الشيخ: « تأثرت بالشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله من جهة العناية بالحديث، وتأثرت به من جهة الأخلاق أيضًا وبسط نفسه للناس ».

وفي عام (١٣٧١) جلس للتدريس في الجامع، ولما فتحت المعاهد العلمية في الرياض التحق بها عام (١٣٧٢).

يقول الشيخ رحمه الله: «دخلت المعهد العالمي من السنة الثانية، والتحقت به بمشورة من الشيخ علي الصالحي، وبعد أن استأذنت من الشيخ عبد الرحمن السعدي عليه رحمة الله، وكان المعهد العلمي في ذلك الوقت ينقسم إلى قسمين خاصّ وعام، فكنت في القسم الخاص، وكان في ذلك الوقت أيضًا من شاء أن يقفز - كما يعبرون - بمعنى أنه يدرس السنة المستقبلة له في أثناء الإجازة ثم يختبرها في أول العام الثاني، فإذا نجح انتقل إلى السنة التي بعدها وبهذا اختصرتُ الزمن» ا.

وبعد سنتين تخرج وعُيِّن مدرسًا في معهد عنيزة العلمي مع مواصلة الدراسة انتسابًا في كلية الشريعة ومواصلة طلب العلم على يد الشيخ عبد الرحمن السعدي.

ولما توفي فضيلة الشيخ عبد الرحمن رحمه الله تولى إمامة الجامع الكبير بعنيزة والتدريس في مكتبة عنيزة الوطنية بالإضافة إلى التدريس في المعهد العلمي ثم انتقل إلى التدريس في كليتي الشريعة وأصول الدين بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم حتى الآن، بالإضافة إلى عضوية هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية، ولفضيلة الشيخ رحمه الله نشاط كبير في الدعوة إلى الله عز وجل وتبصير الدعاة في كل مكان وله جهود مشكورة في هذا المجال.

والجدير بالذكر أن سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله قد عرض بل ألحَّ على فضيلة الشيخ في تولي القضاء، بل أصدر قراره بتعيينه رحمه الله تعالى رئيسًا للمحكمة الشرعيّة بالإحساء، فطلب منه الإعفاء، وبعد مراجعات واتصال شخصي من فضيلة الشيخ سمح رحمه الله تعالى بإعفائه من منصب القضاء.

*** مؤلفاته:**

له - رحمه الله تعالى - مؤلفات كثيرة تبلغ (٤٠) ما بين كتاب ورسالة.

فمن هذه المؤلفات:

١- «فتح رب البرية بتلخيص الحموية»، وهو أول كتابٍ للشيخ، كتبه عام (١٣٨٠).

٢- «مجالس شهر رمضان».

٣- «المنهج لمريد العمرة والحج».

٤- «تسهيل الفرائض».

٥- «شرح لمعة الاعتقاد».

٦- «شرح العقيدة الواسطية».

٧- «أقسام المداينة».

٨- «الضياء اللامع من الخطب الجوامع».

٩- «المجموع الثمين من فتاوى ابن عثيمين».

١٠- «أصول التفسير».

١١- «إزالة الستار عن الجواب المختار».

١٢- «رياض الصالحين».

١٣- «الشرح الممتع».

١٤- «القول المفيد شرح كتاب التوحيد».

١٥- «التعليقات على كشف الشبهات».

* وفاته:

تُوفي الشيخ رحمه الله يوم الأربعاء (١٥) شوال (١٤٢١)، وكانت وفاته في الساعة السادسة مساء بمستشفى الملك فيصل التخصصي بجدة إثر إصابته بسرطان القولون الذي ظل يعاني منه لفترة طويلة، ولم يكتشف إلا في شهر صفر من العام الحالي إثر مراجعة الشيخ لمستشفى الملك فهد في الحرس الوطني بالرياض.

وقد ظل الشيخ رحمه الله صابرًا محتسبًا رافضًا للعلاج الكيماوي، ونزوُلا عند رغبة ولاة الأمر بالإلحاح عليه بالعلاج، ثم سافر إلى أمريكا للعلاج، ولكنه عاد سريعًا ليواصل مهامه ووظائفه العلمية بالتدريس والإفتاء في مدينة عنيزة وفي المسجد الحرام بمكة المكرمة، ثم توفاه الله عز وجل .

❁ ❁ ❁

ترجمة العلامة عبد الرحمن بن ناصر البراك حفظه اللَّه

* اسمه ونسبه :

هو : عبد الرحمن بن ناصر بن براك بن إبراهيم البراك ، ينحدر نسبه من بطن العرينات من قبيلة سبيع .

* مولده ونشأته :

ولد الشيخ في بلدة البكيرية من منطقة القصيم في شهر ذي القعدة سنة (١٣٥٢ هـ) .

وتوفي والده وعمره سنة ، فنشأ في طفولته في بيت أخواله مع أمه ، فتربى خير تربية .

ولما بلغ الخامسة من عمره سافر مع أمه إلى مكة ، وكان في كفالة زوج أمه محمد بن حمود البراك .

وفي مكة التحق الشيخ بالمدرسة الرحمانية ، وفي السنة الثانية الابتدائية قدر اللَّه أن يصاب الشيخ بمرض في عينيه تسبب في ذهاب بصره ، وهو في التاسعة من عمره .

* طلبه للعلم ومشايخه :

عاد من مكة إلى البكيرية مع أسرته ، فحفظ القرآن وعمره عشر سنين تقريبًا على عمه عبد اللَّه بن منصور البراك ، ثم قرأ على مقرئ البلد عبد الرحمن بن سالم الكريديس رحمهم اللَّه .

وفي عام (١٣٦٥ هـ) تقريبًا بدأ الشيخ في القراءة على العلماء ، فقرأ على الشيخ عبد العزيز بن عبد اللَّه السبيل جملة من « كتاب التوحيد » ، و« الآجرومية » ، وقرأ على الشيخ محمد بن مقبل « الثلاثة الأصول » .

ثم قدر له السفر إلى مكة مرة أخرى في عام (١٣٦٦ هـ) تقريبًا ، ومكث بها ثلاث سنين ، فقرأ في مكة على الشيخ عبد اللَّه بن محمد الخليفي إمام المسجد الحرام في « الآجرومية » ، وهناك التقى بعالم فاضل من كبار تلاميذ العلامة محمد بن إبراهيم ، وهو الشيخ صالح بن حسين العلي العراقي رحمه الله ، وكان من أصدقاء الإمام عبد العزيز بن باز رحمه الله فجالسه واستفاد منه ، ولما عين الشيخ صالح العلي العراقي مديرًا للمدرسة العزيزة في بلدة الدلم رغب أن يرافقه الشيخ عبد الرحمن البراك لطلب العلم على الشيخ ابن باز حين كان قاضيًا في بلدة الدلم ، فرحل معه في ربيع الأول من عام (١٣٦٩ هـ) ، والتحق بالمدرسة العزيزة بالصف الرابع ، وكان من أهم ما استفاده في تلك السنة الإلمام بقواعد التجويد الأساسية .

وفي نفس السنة سافر مع جمع من الطلاب مع الشيخ ابن باز إلى الحج ، وبعد عودته ترك الدراسة

في المدرسة العزيزة ، وآثر حفظ المتون مع طلاب الشيخ عبد العزيز بن باز ، ولازم دروس الشيخ ابن باز المتنوعة ، فقد كان يقرأ عليه في « كتاب التوحيد » ، و« الأصول الثلاثة » ، و« عمدة الأحكام » ، و« بلوغ المرام » ، و« مسند أحمد » ، و« تفسير ابن كثير » ، و« الرحبية » ، و« الآجرومية » .

ومكث في الدلم في رعاية الشيخ صالح العراقي ، فقد كان مقيمًا في بيته ، ودرس عليه علم العروض .

وحفظ في بلدة الدلم « كتاب التوحيد » ، و« الأصول الثلاثة » ، و« الآجرومية » ، و« قطر الندى » ، و« نظم الرحبية » ، وقدرًا من « ألفية ابن مالك » في النحو ، ومن « ألفية العراقي » في علوم الحديث .

وكانت مدة إقامته لها أثر كبير في حياته العلمية .

ثم التحق الشيخ بالمعهد العلمي في « الرياض » حين افتتاحه في محرم (١٣٧١ هـ) ، ثم تخرج فيه عام (١٣٧٤ هـ) ، والتحق بكلية الشريعة ، وتخرج فيها سنة (١٣٧٨ هـ) .

وتتلمذ في المعهد ، والكلية على مشايخ كثيرين من أبرزهم :

العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله ، ودرسهم في المعهد في التفسير ، وأصول الفقه ، والعلامة عبد الرزاق عفيفي رحمه الله ودرسهم في التوحيد ، والنحو ، وأصول الفقه ، والشيخ محمد عبد الرزاق حمزة ، والشيخ عبد العزيز بن ناصر الرشيد ، وغيرهم ، رحمهم اللّٰه جميعًا .

وكان في تلك المدة يحضر بعض دروس العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ في المسجد .

وأكبر مشايخه عنده ، وأعظمهم أثرًا في نفسه الإمام العلامة عبد العزيز بن باز رحمه الله الذي أفاد منه أكثر من خمسين عامًا بدءًا من عام (١٣٦٩ هـ) حين كان الإمام ابن باز في بلدة الدلم إلى وفاته في عام (١٤٢٠ هـ) ، ثم شيخه العراقي الذي استفاد منه حب الدليل ، ونبذ التقليد ، والتدقيق في علوم اللغة ، والنحو ، والصرف ، والعروض .

*** الأعمال التي تولاها :**

عمل الشيخ مدرسًا في المعهد العلمي في مدينة الرياض ثلاثة أعوام من سنة (١٣٧٩ هـ) ، ثم انتقل بعدها إلى تدريس العلوم الشرعية في كلية الشريعة بالرياض ، ولما افتتحت كلية أصول الدين عام (١٣٩٦ هـ) نقل إليها في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة ، وعمل مدرسًا فيهما إلى أن تقاعد عام (١٤٢٠ هـ) ، وأشرف خلالها على العشرات من الرسائل العلمية .

وبعد التقاعد رغبت الكلية التعاقد معه فأبى ، كما طلب منه سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله أن يتولى العمل في الإفتاء مرارًا فتمنع ، ورضي منه شيخه أن ينيبه على الإفتاء في دار الإفتاء في الرياض في فصل الصيف حين ينتقل المفتون إلى مدينة الطائف ، فأجاب الشيخ حياءً ؛ إذ تولى العمل في فترتين ثم تركه .

وبعد وفاة الشيخ ابن باز رحمه الله طلب منه سماحة المفتي الشيخ عبد العزيز آل الشيخ أن يكون عضو إفتاء، وألح عليه في ذلك فامتنع، وآثر الانقطاع للتدريس في المساجد.

* **جهوده في نشر العلم:**

جلس الشيخ للتعليم في مسجده الذي يتولى إمامته- مسجد الخليفي بحي الفاروق-، ومعظم دروسه فيه، وكذلك التدريس في بيته مع بعض خاصة طلابه، وله دروس في مساجد أخرى، وله مشاركات متعددة في الدورات العلمية المكثفة التي تقام في الصيف، إضافة لإلقائه كثيرًا من المحاضرات، كما تعرض على الشيخ بعض الأسئلة من عدد من أشهر المواقع الإسلامية في الشبكة العنكبوتية.

* **طلابه:**

طلاب الشيخ كثر يتعذر على العاد حصرهم، وكثير من أساتذة الجامعات، والدعاة المعروفين، قد تتلمذوا عليه، وغيرهم من طلاب العلم.

* **احتسابه:**

للشيخ جهود كبيرة في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومناصحة المسئولين، والكتابة لهم، وتحذير الناس من البدع، وسائر الانحرافات، والمخالفات.. وله في ذلك فتاوى كثيرة، وله مشاركة مع بعض المشايخ في عدد من البيانات والنصائح لعموم المسلمين.

* **اهتمامه بأمور المسلمين:**

للشيخ- حفظه الله- اهتمام بالغ بأمور المسلمين في جميع أنحاء العالم، فهو كثير الحزن والتألم لما يحدث لهم في كثير من البلاد، وهو متابع لأخبارهم، وفي أوقات الأزمات يبادر بالدعاء لهم والدعاء على أعدائهم، ويبذل النصح والتوجيه لهم وللمسلمين فيما يجب نحوهم.

* **إنتاجه العلمي:**

الشيخ باذل معظم وقته لتعليم العلم، والإجابة على الأسئلة، وقد قرئت عليه عشرات الكتب في مختلف الفنون، وقد سجل بعضها، وما لم يسجل أكثر.

وقد صدر للشيخ من المطبوعات «شرح الرسالة التدمرية»، و«جواب في الإيمان ونواقضه»، و«موقف المسلم من الخلاف»، و«التعليقات على المخالفات العقدية في فتح الباري» طبع مع «فتح الباري» في دار طيبة.

وفي حياة الشيخ جوانب كثيرة مشرقة، أعلم أنه يكره ذكرها، أسأل الله أن يبارك في عمره، ويمد فيه على الطاعة، وينفع المسلمين بعلمه.

ترجمة الشيخ صالح بن فوزان الفوزان حفظه الله

* اسمه ، ونسبه :

هو : صالح بن فوزان بن عبد الله آل فوزان ، من أهل الشماسية ، من قبيلة الدواسر .

* مولده ونشأته زمانًا ومكانًا :

وُلد الشيخ - حفظه الله تعالى - عام (١٣٥٤هـ) في مدينة الشماسية في منطقة القصيم ، في المملكة العربية السعودية .

وتوفي والده وهو صغير ، فتربى في أسرته .

تعلم القرآن الكريم ومبادئ القراءة والكتابة على يد الشيخ حمود بن سليمان التلال رحمه الله ، وهو إمام مسجد البلدة ، وكان قارئًا مُتقنًا ، وتولى القضاء في بلدة ضرية في منطقة القصيم .

وقد درس الشيخ الدراسة الأولية (الابتدائية) في بلدة بمدرسة الحكومة حين افتتاحها في الشماسية ، عام (١٣٦٩هـ) ، ثم أكمل دراسته الابتدائية في المدرسة الفيصلية ببريدة عام ١٣٧١هـ .

ثم التحق الشيخ بالمعهد العلمي ببريدة عند افتتاحها عام ١٣٧٣هـ ، وتخرج منه عام ١٣٧٧هـ ، ثم التحق بكلية الشريعة في الرياض ، وتخرج منها عام ١٣٨١هـ .

ثم نال شهادة الماجستير في الفقه عام ١٣٩٧هـ بأطروحته التي كانت بعنوان : « أهم المسائل الخلافية في المباحث القرضية » ، من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، كلية الشريعة ، وقد طُبع الكتاب باسم : « التحقيقات المُرضية في المباحث الفرضية » ، وكان المشرف عليه شيخه الشيخ العلّامة : عبد الرزاق عفيفي ، رحمه الله تعالى .

ثم حصل على درجة الدكتوراه عام ١٣٩٩هـ من نفس الكلية ، في موضوع : « أحكام الأطعمة : حِلًّا وحُرمةً ، واستدلالًا وترجيحًا » ، وقد طُبع باسم : « أحكام الأطعمة في الشريعة الإسلامية » .

* مشايخه :

تلقى العلم على يد جماعة من أنبل علماء العصر ، ومنهم :

١- الشيخ العلامة المفتي والقاضي : عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن حميد (ت : ١٤٠٢هـ) ، وكان يحضر دروسه في جامع بُريدة .

٢- الشيخ عبد العلامة : عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن باز ، مفتي الديار السعودية حينئذٍ (ت : ١٤٢٠هـ) .

٣- الشيخ العلامة : محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ، صاحب « أضواء البيان في

إيضاح القرآن بالقرآن » (ت : ١٣٩٣هـ) .

٤- الشيخ عبد الرزاق عفيفي (ت : ١٤١٥هـ) .

٥- الشيخ صالح بن عبد الرحمن بن إبراهيم السكيتي (ت : ١٤٠٤هـ) .

٦- الشيخ صالح بن إبراهيم بن محمد البليهي (ت : ١٤١٠هـ) .

٧- الشيخ عبد اللّٰه بن صالح بن عبد الرحمن الخُليفي (ت : ١٣٨١هـ) .

٨- الشيخ إبراهيم بن عبيد بن عبد المحسن (ت : ١٤٢٦هـ) .

٩- الشيخ حمود العقلا (ت : ١٤٢٢هـ) .

١٠- الشيخ صالح بن علي بن سليمان الناصر (ت : ١٤٠٦هـ) . رحمهم اللّٰه جميعًا .

كما تتلمذ الشيخ وأخذ العلم على عدد من شيوخ الأزهر الوافدين للتدريس في كلية الشريعة في جامعة الإمام .

* تلامذته :

تلقى عنه العلم جماعةٌ من أنبل وأشهر العلماء وطلاب العلم في العصر الحاضر ، منهم أساتذة في الجامعة وقُضاة وأئمة مساجد منتشرون هنا وهناك لنشر العلم والدعوة إلى اللّٰه تعالى .

* مكانته العلمية والاجتماعية :

- عمل مدرسًا في بلدته الشماسية .

- ثم مدرسًا في المعهد العلمي ببريدة .

- ثم مدرسًا في كلية الشريعة بالرياض .

- ثم مدرسًا في كلية أصول الدين .

- ثم مديرًا للمعهد العالي للقضاء وأستاذًا فيه .

- ثم عضوًا في اللجنة الدائمة للإفتاء ، وعضوًا في هيئة كبار العلماء ، وما يزال في المنصبين .

* مؤلفاته وآثاره العلمية :

شرحُ العقيدةِ الواسطيةِ ، والـمُلَخَّصُ الفِقْهِيُّ ١/ ٢، وكتابٌ في المباحثِ الفَرَضيةِ ، وتنبيهاتٌ على أحكامٍ تَخْتَصُّ بالـمُؤْمِناتِ ، وتَعْقِيباتٌ على كتابِ السَّلَفيةِ ليست مذهبًا للبوطيِّ ، ومِن مشاهيرِ الـمُجَدِّدين في الإسلامِ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية وشيخُ الإسلامِ محمدُ بنُ عبدِ الوَهَّابِ ، والـمُنْتَقَى مِن فتاوَى الشيخِ صالحِ بنِ فَوْزانَ ١/٣، كما أنه دائمُ الإجابةِ على أسئلةِ الـمُستَمِعِين في البَرْنَامَجِ الشَّهيرِ نورٌ على الدَّرْبِ .

جَزاه اللّٰهُ خيرًا عما يُقَدِّمُه للإسلامِ والمسلمين . آمِينَ .

ترجمة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ حفظه اللَّه

*** اسمه ونسبه :**

هو فضيلة الشيخ الإمام العالِم صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف ابن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب ، رحمهم اللَّه جميعًا ، وحفظ اللَّه الشيخ ورعاه ، والشيخ يرجع نسبه إلى قبيلة بني تميم المشهورة .

*** نشأته :**

نشأ الشيخ في دار علم وديانة - ولا نزكي على اللَّه أحدًا - .

*** مولده ، وتعليمه :**

ولد في مدينة الرياض سنة ١٣٧٨هـ ، وأكمل تعليمه الثانوي في الرياض ، ولحرصه - حفظه اللَّه - على أن يكون تعليمه الجامعي شرعيًا فقد التحق بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ممثلة في كلية أصول الدين بقسم القرآن وعلومه ، وبعد تخرجه فيها عمل ضمن هيئة التدريس فيها منذ ذلك الحين إلى عام ١٤١٦هـ ، حيث عُين نائبًا لوزير الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد .

وفي عام ١٤٢٠هـ صدر الأمر بتعيينه وزيرًا للشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ، إلى جانب إشرافه على المؤسسات الخيرية كمؤسسة الحرمين الخيرية ، وهيئة الإغاثة الإسلامية العالمية ، والندوة العالمية للشباب الإسلامي .

والشيخ حفظه اللَّه منصرف إلى طلب العلم وتحقيق المسائل على نحو ما كان عليه علماء الدعوة السلفية وكبار العلماء ، منذ نعومة أظفاره ، ودأب على نشر ذلك وتعليمه في دروسه ومحاضراته وتوجيهاته التي يلقيها في المساجد وفي غيرها .

والشيخ قارئ وباحث في فتاوى جده سماحة الشيخ العلَّامة محمد بن إبراهيم ، رحمه اللَّه تعالى ، حيث تفرغ لدراستها وفهم مقاصدها ، واصطلاحاتها الفقهية والعلمية ، ومقاصدها التي انفردت بها بحكم الزمان والمكان . وكان يستعين بعد اللَّه تعالى بكبار العلماء في ذلك ؛ كسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ، رحمه الله ، وسماحة والده الشيخ عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم ، حفظه اللَّه ، وسماحة الشيخ عبد العزيز آل الشيخ ، مفتي عام المملكة - حفظه اللَّه - وفضيلة الشيخ عبد اللَّه بن عقيل ، رئيس الهيئة الدائمة بمجلس القضاء الأعلى سابقًا ، حفظه اللَّه .

وقد تلقى الشيخ صالح - حفظه اللَّه - العلم على عدد من العلماء وهم :

١- سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله .

٢- والده سماحة الشيخ عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم ، حفظه اللَّه .

٣- فضيلة الشيخ عبد اللَّه بن عبد العزيز بن عقيل ، حفظه اللَّه .

٤- فضيلة الشيخ عبد اللَّه بن غديان ، عضو هيئة كبار العلماء ، حفظه اللَّه .

٥- فضيلة الشيخ عبد العزيز بن مرشد ، رحمه الله .

٦- فضيلة الشيخ أحمد المرابط الشنقيطي ، حفظه اللَّه ، نائب مفتي الديار الموريتانية ، درس عليه في علوم اللغة .

٧- الشيخ محمد بن سعد الدبل ، حفظه اللَّه ، درس عليه في النحو .

٨- وكان له جلسات ومباحثات علمية متكررة مع فضيلة المحدث حماد الأنصاري رحمه الله .

وقد حرص - رعاه اللَّه - على جمع الإجازات العلمية من شتى أنحاء الأرض ، حيث حصل على إجازات عدة من بعض علماء المملكة ، ورحل إلى تونس والمغرب وباكستان والهند وغيرها في سبيل ذلك .

وله من المؤلفات والتحقيقات التي يحرص على اقتنائها طلبة العلم ؛ لما فيها من الشمولية والتدقيق العلمي ما يقارب سبعة عشر عملًا علميًا .

وشارك في عدد من المؤتمرات في داخل المملكة وفي أمريكا وأوربا ومصر وغيرها ، حفظ اللَّه الشيخ ، وسَدَّد على درب الخير خطاه . آمين .

* ثناء أهل العلم عليه :

أثنى عليه جملة من أهل العلم ، منهم : فضيلة الشيخ زيد بن هادي بن محمد المدخلي ، وفضيلة الشيخ محمد بن هادي المدخلي ، وفضيلة الشيخ ناصر الدين الألباني ، وفضيلة الشيخ مقبل بن هادي الوادعي .

□ وللشيخ صالح - حفظه اللَّه - من الكتب :

« التكميل لما فات تخريجه من إرواء الغليل » ، « موسوعة الكتب الستة » ، « التمهيد في شرح كتاب التوحيد » ، وغير ذلك .

* شروحاته :

نذكر منها : شرحه لـ : « كتاب الفرقان » ، « العقيدة الطحاوية » ، « نظم الورقات » ، « الأصول الثلاثة » ، « الأربعين النووية » ، « كتاب التوحيد » ، « كتاب الطهارة من بلوغ المرام » ، « كشف الشبهات » ، « كتاب فضل الإسلام » ، « مسائل الجاهلية » ، « لمعة الاعتقاد » ، « الفتوى الحموية الكبرى » ، وغيرها كثير .

مقدمـات العلمـاء

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله

الحمد لله الموصوف بصفات العظمة ، والكبرياء ، والكمال ، المنزه عن الشريك والنقص ، والشبه ، والمثال .

وأشهد أنه المتفرد بالوحدانية المستحق لإفراده بالعبودية في كل الأحوال .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم في العقائد والأخلاق والأقوال والأفعال .

أما بعدُ :

فهذا تعليق لطيف على عقيدة شيخ الإسلام ابن تيمية المسماة بـ « الواسطية » التي جمعت- على اختصارها ووضوحها- جميع ما يجب اعتقاده من أصول الإيمان ، وعقائده الصحيحة ؛ وهي- وإن كانت واضحة المعاني محكمة المباني- تحتاج إلى تعليق يزيد في توضيح بعض ما فيها من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وتبين وجه دلالتها على المقصود .

وبيان وجه ارتباط بعض المسائل ببعض ، وجمع ما يحتاج إلى جمعه في موضع واحد ، والإشارة إلى بعض آثارها وفوائدها في القلوب والأخلاق ، والتنبيه لكل ما يحتاج إلى التنبيه عليه .

وأرجو الله أن يكون هذا التعليق على هذا الوصف ، وأن يكون خالصًا لوجهه الكريم مقربًا إليه نافعًا ، سهلًا في ألفاظه ومعانيه . آمين .

❁ ❁ ❁

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة العلامة محمد بن عبد العزيز بن محمد بن مانع رحمه الله

الحمد لله الذي خلق الخلق لعبادته، ووفق من أراد سعادته لطاعته، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحابته.

أما بعدُ:

فإن «العقيدة الواسطية» تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية، التي ألفها إجابة لطلب القاضي رضي الدين الواسطي، من أحسن ما ألفه الأئمة في بيان معتقد أهل السنة، فليس في يد الطلبة اليوم أحسن منها ولا مثلها.

فإنه رحمه الله بين فيها: القول الحق في مسألة القرآن، وأنه كلام الله منزل غير مخلوق، وأن ألفاظه وحروفه ومعانيه عين كلام الله، وأن الله يتكلم بمشيئته وإرادته.

كما أنه رحمه الله بين القول الصحيح في وجوب إثبات الصفات الإلهية؛ كاستواء الله على عرشه، وعلوه على خلقه، ونزوله إلى السماء الدنيا كل ليلة، ومجيئه يوم القيامة، ونظر المؤمنين إليه سبحانه في عرصات القيامة وبعد دخولهم الجنة.

ووضح: معنى قرب الله من عباده، ومعنى كونه معهم أين ما كانوا.

وبين: أن ذلك كله حق ثابت على ما يليق بعظمة الله تعالى.

وذكر: قول أهل الحق في الإيمان بالقدر، ورد قول المعتزلة والجبرية.

وبين: أصول أهل السنة التي بنوا عليها عقائدهم وأعمالهم.

إلى غير ذلك من قواعد العقائد، المؤيدة بنصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، فهي جديرة بالاعتناء بها تحفظًا ودرسًا ومطالعة.

فلهذا علقت عليها حواش، تفصل مجملها، وتوضح مشكلها، وتسهل فهمها لقرائها.

وقد امتازت هذه الطبعة الأخيرة بزيادات لم توجد في الطبعات التي قبلها سيما ما ذكرناه من نظم عبد العزيز بن عدوان النجدي أحد علماء الوشم رحمه الله؛ فإنه نظم هذه العقيدة من الطويل، جزاه الله خيرًا وأثابه الجنة بمنه تعالى وكرمه.

وسمت همة الفاضل النجيب الشيخ عمر عبد الجبار لطبعها فجزاه الله خيرًا ووفقه لنشر أمثالها من مؤلفات أهل السنة والجماعة؛ الذين هم الفرقة الناجية الذين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة؛ كما أخبر به النبي الصادق المصدوق ﷺ تسليمًا كثيرًا.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الشيخ محمد خليل هراس رحمه الله

رب يسّر وأَعِنْ

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرَحيم ، مالك يوم الدين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، نبينا محمد ، عبد الله ورسوله وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

فلما كانت « العقيدة الواسطية » لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله من أجمع ما كتب فى عقيدة أهل السنة والجماعة مع اختصار فى اللفظة ودقة فى العبارة ، وكانت تحتاج فى كثير من مواضعها إلى شرح يجلى غوامضها ويزيح السّتار عن مكنون جواهرها ، ويكون مع ذلك شرحًا بعيدًا عن الإسهاب والتطويل والإملال بكثرة النقول حتى يلائم مدارك الناشئين ويعطيهم زبدة الموضوع فى سهولة ويسر .

فقد استخرت الله تبارك وتعالى ، وأقدمت على هذا العمل؛ رغم كثرة الشواغل وزحمة الصوارف ، سائلًا الله عزَّ وجلَّ أن ينفع به كل من قرأه وأن يجعله خالصًا لوجهه إنه قريب مجيب .

محمد خليل هراس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الشيخ زيد بن عبد العزيز آل فياض رحمه الله

الحمد لله الذي هو كما وصف به نفسه وفوق ما يصفه به خلقه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ربوبيته ولا في إلهيته ولا في أسمائه وصفاته تعالى عن مماثلة المخلوقات ، وتقدس عن النقائص والعيوب .

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله بعثه الله على حين فترة من الرسل ، ففتح به أعينًا عميًا ، وآذانًا صمًا ، وقلوبًا غلفًا ، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده ، حتى أتم الله به الدين وأكمل به النعمة ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ وحتى وقف في حجة الوداع يخاطب الحاضرين قائلًا : « هل بلغت ؟ » فيقولون : نعم ، فيرفع أصبعه الكريمة إلى السماء ويقول : « اللهم اشهد » . صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين حملوا مشعل الهداية ، وأناروا الطريق للسالكين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعدُ :

فإن رسالة « العقيدة الواسطية » لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، كانت على صغر حجمها وإيجازها ، عظيمة النفع جليلة الفائدة ، فقد ذكر فيها مذهب السلف الصالح في العقيدة ، سليمة من شوائب البدع وآراء أهل الكلام المضلة .

وقد لقيت هذه الرسالة قبولًا حسنًا ، وذيوعًا من حين ألفها مؤلفها ، تغمده الله برحمته ، إلى يومنا هذا ، وكانت بحاجة إلى شرح يوضح مقاصدها ، ويبسط موجزها ، من غير إسهاب ممل ، أو اختصار مخل ، وحيث لم أر من قام بذلك ، استعنت بالله ، وسعيت لتأليف شرح جمعت فيه طائفة من النقول عن علماء السنة الأعلام ، وأفاضل العلماء ، ولا سيما شيخ الإسلام (المؤلف) وتلميذه العلامة ابن القيم وشارح الطحاوية رحمهم الله ، وها أنذا أقدمه لك ، سائلًا المولى جل وعلا أن ينفع به ، وأن يوفقنا جميعًا ، ويهدينا سواء السبيل .

المؤلف

❁ ❁ ❁

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة العلامة عبد العزيز الناصر الرشيد رَحِمَهُ اللَّهُ

الحمد للَّه العلي الكبير ، المتعالي عن التشبيه والنظير ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، أحمده سبحانه على فضله الغزير ، وأشكره وشاكره بالمزيد جدير ، وأصلي وأسلم على عبده ورسوله محمد البشير النذير ، أعرف الخلق بربه وأنصحهم لأمته وأقدرهم على الإيضاح والتفسير ، وعلى آله وأصحابه الذين اقتفوا آثاره واستضاؤوا بأنوراه وسلكوا السبيل المستنير ، وعضوا على سنته بالنواجذ وحكموها في القليل والكثير ، وعلى أتباعهم الذين ورثوا علمهم واقتفوا أثرهم بدون غلو ولا تقصير .

أما بعدُ :

فقد طلب مني بعض أبنائنا طلبة المعهد العلمي التعليق على « العقيدة الواسطية » لشيخ الإسلام ابن تيمية ، فاعتذرت بقصر الباع ، وقلة الاطلاع ، فلم يفد فيهم معذرة ولا إقناع .

فإسعافًا لطلبتهم ، ونزولًا على رغبتهم ، أقدمت على التعليق ، ملتقطًا ما نقلته من كتب أهل الإتقان والتحقيق ، وكان غالب استمدادي من كتب الشيخين : شيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن قيم الجوزية رحمهما اللَّه تعالى ، وسميت هذا التعليق « التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية » ، واللَّه أسأل أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم ، موجبًا للفوز لديه في جنات النعيم .

المؤلف

❁ ❁ ❁

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله

إن الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل ، فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا .

أما بعد ..

فقد مَنَّ الله تعالى علينا بشرح « العقيدة الواسطية » التى ألَّفها شيخ الإسلام ابن تيمية فى عقيدة أهل السنة والجماعة تقريرًا على الطلبة الذين درسوها علينا فى المسجد ، ومن أجل حرصهم على حفظ التقرير ، قاموا بتسجيله ثم تفريغه كتابة من أَشْرِطَةِ التسجيل .

ومن المعلوم أن الشرح المتلقى من التقرير ليس كالشرح المكتوب بالتحرير ؛ لأن الأول يعتريه من النقص والزيادة ما لا يعترى الثانى .

وقد تقدمت عدة مكاتب نشر بطلب طباعته .

ولكن ؛ لما كان الشرح المتلقى من التقرير ليس كالشرح المكتوب بالتحرير ، لذا رأيت من المهم أن أقرأ الشرح بتمهل من أجل إخراج الشرح على الوجه المرضى ، ففعلت ذلك ولله الحمد وحذفت ما لا يحتاج إليه ، وزدت ما يحتاج إليه .

وأسأل الله تعالى أن ينفع به كما نفع بأصله ، وأن يجعلنا من دعاة الحق وأنصاره ؛ إنه قريب مجيب .

محمد بن صالح بن عثيمين
١٤١٥/٣/٢٧هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الشيخ صالح بن فوزان الفوزان حفظه الله

الحمد للّٰه رب العالـمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمدٍ ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعـدُ :

فهذا شرح مختصر على « العقيدة الواسطية » لشيخ الإسلام ابن تيمية ، جمعته من المصادر التالية :

١ – الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية ، للشيخ زيد بن عبد العزيز بن فياضٍ .

٢ – التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية ، للشيخ عبد العزيز بن ناصرٍ الرشيد .

٣ – التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث الـمنيفة ، للشيخ عبد الرحمن بن ناصرٍ السعدى .

٤ – نقلت من فوائد علقتها على نسختى وقت الطلب .

٥ – وفيما يتعلق بتفسير الآيات نقلت من كتب التفسير ، كـ « فتح القدير » للإمام محمد بن عليّ الشوكانى ، و« تفسير القرآن العظيم » ، للشيخ إسماعيل بن كثيرٍ .

وكانت جامعة الإمام محمد بن سعودٍ الإسلامية قد طبعته عدة مراتٍ ، ووزعته على طلبة المرحلة الثانوية ، فشكر اللّٰه للقائمين عليها ، وزادهم من الخير والتوفيق لما فيه صلاح المسلمين .

كما أنى أسأل اللّٰه أن ينفع به ، ويجعله مؤديًا للمطلوب من توضيح هذه العقيدة العظيمة ، وأن يغفر لى ما وقع منى من أخطاء ، ويثيبنى على ما فيه من صوابٍ ، إنه سميع مجيب ، وصلى اللّٰه على نبينا محمدٍ وآله وصحبه وسلّم ، والحمد للّٰه رب العالـمين .

صالح بن فوزان الفوزان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ حفظه الله

إن الحمدَ للّهِ نَحْمَدُه ، ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه ، ونَعوذُ باللّهِ من شرورِ أنفسِنا ، ومِن سيئاتِ أعمالِنا ، مَن يَهْدِهِ اللّهُ فلا مُضِلَّ له ، ومَن يُضْلِلْ فلا هاديَ له ، وأَشْهَدُ أن لا إلهَ إلا اللّهُ وحدَه لا شَريكَ له ، وأشْهَدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه ، وصفيه وخليله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين .

أما بعدُ : فأسأل اللّه ﷻ لي ولكم العلم النافع والعمل الصالح ، وأن ينور بصائرنا بالعلم والهدى ، وأسأله أن يقيم أعمالنا بدين الحق الذي أرسل به رسوله ﷺ .

فهذا شرح « العقيدة الواسطية » التي كتبها شيخ الإسلام والمسلمين علم الدين وتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني ثم الدمشقي الإمام المعروف المتوفى سنة ٧٢٨ رحمه اللّه تعالى وأجزل له المثوبة .

كتب هذه العقيدة إلى أهل « واسط » يبين لهم فيها اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة أهل السنة والجماعة من سلف هذه الأمة ومن تبعهم على هذا الاعتقاد إلى وقته رحمه اللّه تعالى .

وهذه الرسالة على وجازتها واختصارها قد اعتنى بها العلماء بعد شيخ الإسلام ﷺ لأنها قد شملت من أصول عقائد أهل السنة والجماعة على الخلاصة الوافية ، فقد ذكر فيها رحمه اللّه ؛ أصول الاعتقاد ، ذكر فيها شرح أركان الإيمان الستة ، وذكر فيها ما يجب للّه تعالى من صفات الكمال ، وما يوصف اللّه ﷻ به ، والأصل في ذلك مخالفة المبتدعين والضالين في باب الأسماء والصفات ، وذكر ما يتصل بذلك من الإيمان بالأمور الغيبية ، والإيمان بالكتب والرسل وبالقدر خيره وشره .

وبيّن فيها أن من أصول أهل السنة والجماعة الأحكام المتعلقة بالإمامة العظمى ، وكذلك ما يجب لولاة الأمر من حق السمع والطاعة مخالفة للخوارج وأشباههم ممن خالفوا أهل السنة والجماعة في ذلك .

وذكر اعتقاد السلف الصالح في صحابة رسول اللّه ﷺ ، وأن ذلك من الواجبات الشرعية الاعتقادية ؛ لأن فيه مخالفةً لأهل البدع من الروافض ومن شابههم ، الذين لا يتولون جميع أصحاب رسول اللّه ﷺ .

وذكر أحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وذكر أصول الأخلاق عند أهل السنة والجماعة .

وبهذا الذي ذكره في هذه الرسالة العظيمة المختصرة يتبين أن اعتقاد أهل السنة والجماعة يشمل ثلاثة أصول :

الأول : العقيدة العامة في اللّٰه جل جلاله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره .

الثاني : مسائل الإمامة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والكلام فيما يتصل بذلك من الكلام في الصحابة رضوان اللّٰه عليهم .

الثالث : الكلام في أخلاق أهل السنة والجماعة .

وهذه هي الأمور الثلاثة التي فصَّلَ فيها شيخ الإسلام رحمه الله في هذه الرسالة العظيمة ، وهذه الرسالة وجيزة الألفاظ ، لكنها مدرسة للعلم بمنهج واعتقاد أهل السنة والجماعة .

وذلك الاعتقاد وتفصيله في كتب شيخ الإسلام رحمه الله ، فكتب شيخ الإسلام تُعد شرحًا لهذه العقيدة الواسطية ، فأحسن شرح لهذه العقيدة ما نثره شيخ الإسلام رحمه الله في كتبه وفصَّله وبيَّنه من أصول هذا الاعتقاد .

كذلك تلميذه العلامة ابن القيم رحمه الله ، إذ لا أحسن في فهم كلام شيخ الإسلام من شرحه هو نفسه في مصنفاته الأخرى ، وكذلك في فهم تلميذه ابن القيم رحمه الله .

هذه العقيدة المباركة لها شروحٌ كثيرة ، ومن أعظمها نفعًا وأدقها لفظًا الشرح المسمى بـ « التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية » للشيخ العلامة عبد العزيز بن رشيد رحمه الله ، فإن هذا الشرح من أنفس شروح هذه العقيدة الواسطية ، فقد بين من مسائل هذه العقيدة ومن ألفاظها ما يكفي طالب العلم في هذا الباب ، أعني باب الاعتقاد ، لأنه ذكر فيها من العلم الواسع الغزير ما لو اكتفى به طالب علم في بيان عقيدة أهل السنة والجماعة لكفاه .

ولهذا أحض من أراد شرحًا لهذه العقيدة على هذا الكتاب ، ألا وهو « التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية » للشيخ ابن رشيد ، رحمه الله .

من المقدمات المهمة قبل الشروع في شرح هذه العقيدة أن نبين أن هذه العقيدة المباركة ، وكذلك سائر كتب شيخ الإسلام ابن تيمية ، بيَّن فيها عقيدة السلف ، وفصَّل فيها ما ذكره السلف في كتبهم من الاعتقاد ، وكتب شيخ الإسلام تتميز على كتب السلف ، يعني من كتب أصحاب الإمام أحمد ، ومن تبعهم ومن تلاهم زمنًا ، تتميز هذه العقيدة وسائر كتب شيخ الإسلام ابن تيمية عن تلكم الكتب الكثيرة في الاعتقاد بمزايا منها :

أولًا : أن شيخ الإسلام رحمه الله قد فهم ما قاله الأئمة من قبل ، فصاغه بصياغةٍ تجمع أقوالهم بأدلتها

وبيان معانيها ، فهو خيرُ مَنْ فهم كلام الأئمة من قبل .

ثانيًا : أنه ﷺ قد بلغ في فهم نصوص الكتاب والسنة المبلغ والدرجة التي شهد له بها أهل عصره ومن تلاهم ، ومن المعلوم أن أدلة الاعتقاد هي نصوص الكتاب والسنة ، ثم هو مع هذا اطلع على كلام الصحابة وكلام التابعين ومن تبعهم في تفسير معاني نصوص الكتاب والسنة ؛ ولهذا فإن كلام شيخ الإسلام في بيان معاني الكتاب والسنة يُعد أحسن كلامٍ للعلماء المتأخرين ، يعني بعد الأئمة المشهورين .

ثالثًا : أن شيخ الإسلام استحضر حين كتابتها أقوال أهل البدع والمخالفين وحججهم ، وهو يذكر ما يذكر من الاحتجاجات مستحضرًا تلك الأقوال وتلك الاعتراضات من أهل البدع ، أو تلكم الأقوال المنحرفة من أهل البدع على اختلاف أنواعهم . ومعلومٌ أن حال الكاتب أو المؤلف الذي يؤلف وهو على هذه الدرجة العظيمة من الاستحضار ، أنه يقول منبئًا عما يكون فصلًا في هذه المسائل .

رابعًا : أن شيخ الإسلام أوضح في هذه العقيدة كثيرًا من المجملات التي ربما كانت في كلام السلف ، فقد تجد في كلام المتقدمين من أهل القرون المفضلة كلامًا في الاعتقاد ، وربما أُجْمِلَ في مواضع وَفُصِّلَ في مواضع ، وشيخ الإسلام يستحضر هذا وذاك ، ويذكر الكلام المجمل والمفصَّل كُلٌّ في مكانه ، ويوضح ذلك ، بحيث إن من فهم كلام شيخ الإسلام وفهم كتبه ﷺ ، ثم بعد فهمه لذلك وبراعته فيه رجع إلى كتب السلف فإنه يفهمها فهمًا مصيبًا على ما ينبغي .

وأما من ترك التفقه في كتب شيخ الإسلام ﷺ فربما زلَّ في فهمه لبعض كلام السلف وكلام الأئمة ؛ لأن بعضهم ربما وقع في كلامه إجمال ، أو وقع في كلامه رعاية لحال السائل ، أو نحو ذلك من الأسباب التي لا يمكن المجيب معها أن يفصِّل التفصيل المطلوب .

لهذا نقول : إن العناية بهذه العقيدة مما حث عليه العلماء قديمًا وحديثًا ، فلا غرو أن يُوصَى طلبة العلم بهذه العقيدة ، وبفهم ألفاظها ومعاني تلك الألفاظ ، ومعاني ما فيها من الأدلة والاستدلال والحجج ؛ لأن فيها خيرًا عظيمًا .

❁ ❁ ❁

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة العلامة عبد العزيز المحمد السلمان رحمه الله

الحمد لله الذي تفرد بالجلال والعظمة والكبرياء والجمال ، وأشكره شكر عبد معترف بالتقصير عن شكر بعض ما أوليه من الإنعام والإفضال ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعدُ : فبما إن « الأسئلة والأجوبة الأصولية » مبسطة جامعة لأصول كثيرة ، وقد طلب مني بعض الإخوان اختصارها ، ونظرًا إلى ضعف الهمم ، وتزاحم الدروس على الطلاب- وقد كان عندنا الأساس الأول مختصرًا- فعزمت على التسبب في طبعه راجيًا من الله الحي القيوم العلي العظيم ، بديع السماوات والأرض أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم ، وأن ينفع به من قرأه ، ومن سمعه ، وأن يأجر من تسبب في نشره وبثه إنه جواد كريم ، رءوف رحيم ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

عبد العزيز المحمد السلمان

المدرس في معهد إمام الدعوة

بالرياض

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة في العقيدة للعلامة ابن عثيمين رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

أما بعدُ :

فإن هذا الكتاب الذي يسمى « العقيدة الواسطية » ألفه حبر الأمة في زمانه : أبو العباس شيخ الإسلام ، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني رحمه الله ، المتوفى سنة ٧٢٨هـ .

ولهذا الرجل من المقامات – التي يشكر عليها ، والتي نرجو من الله له المثوبة عليها – في الدفاع عن الحق ومهاجمة أهل الباطل ما يعلمه كل من تتبع كتبه وسبرها ، والحقيقة أنه مِن نعم الله على هذه الأمة ؛ لأن الله سبحانه وتعالى كفَّ به أمورًا عظيمة خطيرة على العقيدة الإسلامية .

وهذا الكتاب مختصر ، يسمى « العقيدة الواسطية » ، ألفه شيخ الإسلام ؛ لأنه حضر إليه رجل من قضاة واسط ، شكا إليه ما كان الناس يعانون من المذاهب المنحرفة فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته ، فكتب هذه العقيدة التي تعدُّ زبدة لعقيدة أهل السنة والجماعة فيما يتعلق بالأمور التي خاض الناس فيها بالبدع ، وكثر فيها الكلام والقيل والقال .

وقبل أن نبدأ الكلام على هذه الرسالة نحب أن نبين أن جميع رسالات الرسل ، من أولهم نوح ، عليه الصلاة والسلام ، إلى آخرهم محمد ﷺ ، كلها تدعو إلى التوحيد .

قال الله تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] .

وذلك أن الخلق خلقوا لواحد وهو الله ﷻ ، خلقوا لعبادته ؛ لتتعلق قلوبهم به ، تألهًا وتعظيمًا ، وخوفًا ورجاء وتوكلاً ، ورغبة ورهبة ؛ حتى ينسلخوا عن كل شيء من الدنيا لا يكون معينًا لهم على توحيد الله ﷻ في هذه الأمور ، لأنك أنت مخلوق ، لا بد أن تكون لخالقك ؛ قلبًا وقالبًا في كل شيء .

ولهذا كانت دعوة الرسل – عليهم الصلاة والسلام – إلى هذا الأمر المهم العظيم ؛ عبادة الله وحده لا شريك له .

ولم يكن الرسل الذين أرسلهم الله ﷻ إلى البشر يدعون إلى توحيد الربوبية كدعوتهم إلى توحيد الألوهية ، ذلك أن منكري توحيد الربوبية قليلون جدًّا ، وحتى الذين ينكرونه هم في قرارة نفوسهم لا يستطيعون أن ينكروه ، اللهم إلا أن يكونوا قد سلبوا العقول المدركة أدنى إدراك ،

فإنهم قد ينكرون هذا من باب المكابرة .

وقد قسّم العلماء رحمهم اللّه التوحيد إلى ثلاثة أقسام :

أحدها : توحيد الربوبية :

وهو « إفراد اللّه سبحانه وتعالى في أمور ثلاثة ؛ في الخلق ، والمُلك ، والتدبير » .

دليل ذلك قوله تعالى : ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف : ٥٤] . ووجه الدلالة من الآية : أنه قدَّم فيها الخبر الذي من حقه التأخير ، والقاعدة البلاغية : أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر ، ثم تأمل افتتاح هذه الآية بـ « ألا » الدالة على التنبيه والتوكيد : ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ لا لغيره ، فالخلق هذا هو ، والأمر هو التدبير .

أما الملك ، فدليله مثل قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران : ١٨٩] ، فإن هذا يدل على انفراده سبحانه وتعالى بالمُلك ، ووجه الدلالة من هذه الآية - كما سبق - تقديم ما حقه التأخير ، إذن فالرب ﷻ منفرد بالخلق والملك والتدبير .

فإن قلت : كيف تجمع بين ما قررت وبين إثبات الخلق لغير اللّه ، مثل قوله تعالى : ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون : ١٤] ، ومثل قوله ﷺ في المصورين : « يُقال لهم: أحيوا ما خلقتم »[١] ، ومثل قوله في الحديث القدسي : « ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي »[٢] ، فكيف تجمع بين قولك : إن اللّه منفرد بالخلق ، وبين هذه النصوص ؟

فالجواب أن يُقال : إن الخلق هو الإيجاد ، وهذا خاص باللّه تعالى ، أما تحويل الشيء من صورة إلى أخرى ، فإنه ليس بخلق حقيقة ، وإن سمي خلقًا باعتبار التكوين ، لكنه في الواقع ليس بخلق تام ، فمثلًا : هذا النجار صنع من الخشب بابًا ، فيُقال : خلق بابًا ، لكن مادة هذه الصناعة الذي خلقها هو اللّه ﷻ لا يستطيع الناس كلهم مهما بلغوا في القدرة أن يخلقوا عود أراك أبدًا ، ولا أن يخلقوا ذرة ، ولا أن يخلقوا ذبابًا .

واستمع إلى قول اللّه ﷻ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج : ٧٣] .

« ٱلَّذِينَ » : اسم موصول يشمل كل ما يدعى من دون اللّه من شجر وبشر وملك وغيره ، كل الذين يدعون من دون اللّه ، ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ [الحج : ٧٣] ، ولو انفرد كل واحد

---

(١) البخاري (٢١٠٥) ، ومسلم (٢١٠٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) البخاري (٥٩٥٣) ، ومسلم (٢١١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

بذلك، لكان عجزه من باب أولى، ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: ٧٣]، حتى الذين يدعون من دون الله لو سلبهم الذباب شيئًا، ما استطاعوا أن يستنقذوه من هذا الذباب الضعيف، ولو وقع الذباب على أقوى مَلِكٍ في الأرض، ومصَّ من طيبه، لا يستطيع هذا الملك أن يستخرج الطيب من هذا الذباب، وكذلك لو وقع على طعامه، فإذن الله ﷻ هو الخالق وحده.

فإن قلت: كيف تجمع بين قولك: إن الله منفرد بالملك، وبين إثبات الملك للمخلوقين، مثل قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النور: ٦١]، ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦]؟

فالجواب: أن الجمع بينهما من وجهين:

الأول: أن مُلك الإنسان ليس عامًا شاملًا؛ لأنني أملك ما تحت يدي، ولا أملك ما تحت يدك، والملك ملك الله ﷻ، فمن حيث الشمول: ملك الله ﷻ أشمل وأوسع، وهو ملك تام.

الثاني: أن ملكي لهذا الشيء ليس ملكًا حقيقيًا أتصرف فيه كما أشاء، وإنما أتصرف فيه كما أمرع الشرع، وكما أن المالك الحقيقي هو الله ﷻ، ولو بعت درهمًا بدرهمين، لم أملك ذلك، ولا يحل لي ذلك، فإذن ملكي قاصر، وأيضًا لا أملك فيه شيئًا من الناحية القدرية؛ لأن التصرف لله، فلا أستطيع أن أقول لعبدي المريض: ابرأ فيبرأ، ولا أستطيع أن أقول لعبدي الصحيح الشحيح: امرض فيمرض، لكن التصرف الحقيقي لله ﷻ، فلو قال له: ابرأ، برأ، ولو قال: امرض، مرض، فإذن لا أملك التصرف المطلق شرعًا ولا قدرًا، فملكي هنا قاصر من حيث التصرف، وقاصر من حيث الشمول والعموم، وبذلك يتبين لنا كيف كان انفراد الله ﷻ بالملك.

وأما التدبير، فللإنسان تدبير، ولكن نقول: هذا التدبير قاصر، كالوجهين السابقين في الملك، ليس له شيء يملك تدبيره إلا على وفق الشرع الذي أباح له هذا التدبير.

وحينئذٍ يتبين أن قولنا: «إن الله ﷻ منفرد بالخلق والملك والتدبير»: كلية عامة مطلقة، لا يستثنى منها شيء؛ لأن كل ما أوردناه لا يعارض ما ثبت لله ﷻ من ذلك.

القسم الثاني: توحيد الألوهية:

وهو إفراد الله ﷻ بالعبادة، بألا تكون عبدًا لغير الله، لا تعبد ملكًا، ولا نبيًا، ولا وليًا، ولا شيخًا، ولا أمًا، ولا أبًا، ولا تعبد إلا الله وحده، فتفرد الله ﷻ وحده بالتأله والتعبد، ولهذا يسمى: توحيد الألوهية، ويسمى: توحيد العبادة، فباعتبار إضافته إلى الله هو توحيد ألوهية، وباعتبار إضافته إلى العابد هو توحيد عبادة.

والعبادة مبنية على أمرين عظيمين؛ هما المحبة، والتعظيم، الناتج عنهما: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا

يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فبالمحبة تكون الرغبة، وبالتعظيم تكون الرهبة والخوف.

ولهذا كانت العبادة أوامر ونواهي: أوامر مبنية على الرغبة، وطلب الوصول إلى الأمر، ونواهي مبنية على التعظيم والرهبة من هذا العظيم.

فإذا أحببت الله ﷻ رغبت فيما عنده، ورغبت في الوصول إليه، وطلبت الطريق الموصل إليه، وقمت بطاعته على الوجه الأكمل، وإذا عظمته خفت منه، كلما هممت بمعصية؛ استشعرت عظمة الخالق ﷻ، فنفرت، ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾ [يوسف: ٢٤]، فهذه من نعمة الله عليك، إذا هممت بمعصية، وجدت الله أمامك، فهبت وخفت وتباعدت عن المعصية؛ لأنك تعبد الله رغبة ورهبة.

فما معنى العبادة؟

العبادة: تطلق على أمرين؛ على الفعل، والمفعول.

تطلق على الفعل الذي هو التعبد، فيقال: عبد الرجل ربه عبادة وتعبدًا، وإطلاقها على التعبد من باب إطلاق اسم المصدر، ونعرفها باعتبار إطلاقها على الفعل بأنها: «التذلل لله ﷻ حبًا وتعظيمًا، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه»؛ وكل من ذل لله عز بالله، ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ [المنافقون: ٨].

وتطلق على المفعول، أي: المتعبد به؛ وهي بهذا المعنى تعرّف بما عرفها به شيخ الإسلام ابن تيمية، حيث قال ؒ: «العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة». هذا الشيء الذي تعبّدنا الله به يجب توحيد الله به، لا يصرف لغيره، كالصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، والدعاء، والنذر، والخشية، والتوكل.. إلى غير ذلك من العبادات.

فإن قلت: ما الدليل على أن الله منفرد بالألوهية؟

فالجواب:

هناك أدلة كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦].

وأيضًا قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، لو لم يكن من فضل العلم إلا هذه المنقبة؛ حيث إن الله ما أخبر أن أحدًا شهد بألوهيته إلا أولو العلم، نسأل الله أن يجعلنا منهم: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾

[آل عمران : ١٨] ، بالعدل ، ثم قرر هذه الشهادة بقوله : ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران : ٦] ، فهذا دليل واضح على أنه لا إله إلا الله ﷻ ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنتم تشهدون أن لا إله إلا الله ، هذه الشهادة الحق .

إذا قال قائل : كيف تقرؤونها مع أن الله تعالى يثبت ألوهية غيره ، مثل قوله تعالى : ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص : ٨٨] ، ومثل قوله : ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [المؤمنون : ١١٧] ، ومثل قوله : ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود : ١٠١] ، ومثل قول إبراهيم : ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات : ٨٦] ، إلى غير ذلك من الآيات ، كيف تجمع بين هذا وبين الشهادة بأن لا إله إلا الله ؟

فالجواب :أن ألوهية ما سوى الله ألوهية باطلة ، مجرد تسمية ، ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم : ٢٣] ، فألوهيتها باطلة ، وهي وإن عُبدت وتألَّه إليها من ضل ، فإنها ليست أهلًا لأنْ تعبد ، فهي آلهة معبودة ، لكنها آلهة باطلة ، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج : ٦٢] .

وهذان النوعان من أنواع التوحيد لا يجحدهما ولا ينكرهما أحد من أهل القبلة المنتسبين إلى الإسلام ؛ لأن الله تعالى موحَّد بالربوبية والألوهية ، لكن حصل فيما بعد أن من الناس من ادعى ألوهية أحد من البشر ، كغلاة الرافضة مثلاً ، الذين يقولون : إن عليًا إله ، كما صنع زعيمهم عبد الله بن سبأ ؛ حيث جاء إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقال له : أنت الله حقًّا ، لكن عبد الله بن سبأ أصله يهودي ، دخل في دين الإسلام بدعوى التشيع لآل البيت ؛ ليفسد على أهل الإسلام دينهم ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، وقال : « إن هذا صنع كما صنع بولس حين دخل في دين النصارى ليفسد دين النصارى » .

هذا الرجل عبد الله بن سبأ قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : أنت الله حقًّا . وعلي بن أبي طالب لا يرضى أن أحدًا ينزله فوق منزله ؛ حتى إنه رضي الله عنه من إنصافه وعدله وعلمه وخبرته كان يقول على منبر الكوفة : « خير هذه الأمة بعد نبيها : أبو بكر ، ثم عمر »[١] .

يعلن ذلك في الخطبة ، وقد تواتر النقل عنه بذلك رضي الله عنه ، والذي يقول هكذا ويقر بالفضل لأهله من البشر ، كيف يرضى أن يقول له قائل : إنك أنت الله ؟ ولهذا عزرهم أبشع تعزير ، أمر بالأخاديد فخُدَّت ، ثم مُلئت حطبًا وأوقدت ، ثم أتى بهؤلاء فقذفهم في النار وأحرقهم بها ؛ لأن فريتهم عظيمة –

---

(١) البخاري (٣٦٧١) عن محمد ابن الحنفية قال : « قلت لأبي : أي الناس خير بعد رسول الله ﷺ ؟ قال : أبو بكر ، قال : قلت : ثم مَن ؟ قال : ثم عمر ...» .

والعياذ بالله – وليست هينة .

ويقال : إن عبد الله بن سبأ هرب ولم يمسكوه ؛ المهم أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أحرق السبئية بالنار ؛ لأنهم ادعوا فيه الألوهية .

فنقول : كل مَن كان مِن أهل القبلة لا ينكرون هذين النوعين من التوحيد ، وهما : توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وإن كان يوجد في بعضَ أهل البدع من يولِّه أحدًا من البشر .

لكن الذي كثر فيه النزاع بين أهل القبلة هو :

القسم الثالث : وهو توحيد الأسماء والصفات :

هذا هو الذي كثر فيه الخوض ، فانقسم الناس فيه إلى ثلاثة أقسام ، وهم : ممثِّل ، ومعطِّل ، ومعتدل ، والمعطل : إما مكذب ، أو محرِّف .

وأول بدعة حدثت في هذه الأمة هي بدعة الخوارج ؛ لأن زعيمهم خرج على النبي ﷺ وهو ذو الخويصرة من بني تميم ، حين قسم النبي ﷺ ذهبية جاءت فقسمها بين الناس ، فقال له هذا الرجل : يا محمد ، اعدل[1] ، فكان هذا أول خروج خرج به على الشريعة الإسلامية ، ثم عظمت فتنتهم في أواخر خلافة عثمان ، وفي الفتنة بين علي ومعاوية ، فكفروا المسلمين واستحلوا دماءهم .

ثم حدثت بدعة القدرية مجوس هذه الأمة الذين قالوا : إن الله سبحانه وتعالى لم يقدِّر أفعال العباد ، وليست داخلة تحت مشيئته ، وليست مخلوقة له ، بل كان زعماؤهم وغلاتهم يقولون : إنها غير معلومة لله ، ولا مكتوبة في اللوح المحفوظ ، وأن الله لا يعلم ما يصنع الناس ، إلا إذا وقع ذلك ، ويقولون : إن الأمر أُنُفٌ ، أي : مستأنف ، وهؤلاء أدركوا آخر عصر الصحابة ، فقد أدركوا زمن عبد الله بن عمر رضي الله عنه وعبادة بن الصامت ، وجماعة من الصحابة ، وكان ذلك في أواخر عصر الصحابة .

ثم حدثت بدعة الإرجاء ، وأدركت زمن كثير من التابعين ، والمرجئة هم الذين يقولون : إنه لا تضر المعصية ! أنت مؤمن ، تقول : نعم ، يقول لك : لا تضرك المعصية مع الإيمان ، تزني وتسرق وتشرب الخمر ، وتقتل ما دمت مؤمنًا ، فأنت مؤمن كامل الإيمان ، وإن فعلت كل معصية !!

لكن قال شيخ الإسلام ابن تيمية : إن كلام القدرية والمرجئة حين رده بقايا الصحابة كان في الطاعة والمعصية ، والمؤمن والفاسق ، لم يتكلموا في ربهم وصفاته .

فجاء قوم من الأذكياء ممن يدعون أن العقل مقدم على الوحي ، فقالوا قولاً بين القولين – قول المرجئة ، وقول الخوارج – قالوا : الذي يفعل الكبيرة ليس بمؤمن كما قاله المرجئة ، وليس بكافر كما

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٠) ومسلم (١٠٦٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

قاله الخوارج ، بل هو في منزلة بين منزلتين ، كرجل سافر من مدينة إلى أخرى فصار في أثناء الطريق ، فلا هو في مدينته ، ولا في التي سافر إليها ، بل في منزلة بين منزلتين ، هذا في أحكام الدنيا ، أما في الآخرة فهو مخلد في النار ، فهم يوافقون الخوارج في الآخرة ، لكن في الدنيا يخالفونهم .

ظهرت هذه البدعة وانتشرت ، ثم حدثت بدعة الجهمة ، وهي بدعة جهم بن صفوان وأتباعه ، ويسمون « الجهمية » ، حدثت هذه البدعة وهي لا تتعلق بمسألة الأسماء والأحكام ، مؤمن أم كافر أم فاسق ، ولا في منزلة بين منزلتين ، بل تتعلق بذات الخالق ، انظر كيف تدرجت البدع في صدر الإسلام ، حتى وصلوا إلى الخالق جل وعلا ، وجعلوا الخالق بمنزلة المخلوق ، يقولون كما شاءوا ، فيقولون : هذا ثابت للَّه ، وهذا غير ثابت ، هذا يقبل العقل أن يتصف اللَّه به ، وهذا لا يقبل العقل أن يتصف به ، فحدثت بدعة الجهمية والمعتزلة ، فانقسموا في أسماء اللَّه وصفاته إلى أقسام متعددة :

١- قسم قالوا : لا يجوز أبدًا أن نصف اللَّه لا بوجود ولا بعدم ، لأنه إن وصف بالوجود ، أشبه الموجودات ، وإن وصف بالعدم ، أشبه المعدومات ، وعليه يجب نفي الوجود والعدم عنه ، وما ذهبوا إليه ، فهو تشبيه للخالق بالممتنعات والمستحيلات ؛ لأن تقابل بالعدم والوجود تقابل نقيضين ، والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان ، وكل عقول بني آدم تنكر هذا الشيء ولا تقبله ، فانظر كيف فروا من شيء فوقعوا في أشر منه !

٢- وقسم آخر قالوا : نصفه بالنفي ولا نصفه بالإثبات ، يعني : أنهم يجوزون أن تسلب عن اللَّه سبحانه وتعالى الصفات لكن لا تثبت ، يعني : لا نقول : هو حي ، وإنما نقول : ليست بميت ! ولا نقول : عليم ، بل نقول : ليس بجاهل ... وهكذا . قالوا : لو أثبت له شيئًا شبهته بالموجودات ؛ لأنه على زعمهم كل الأشياء الموجودة متشابهة ، فأنت لا تثبت له شيئًا ، وأما النفي فهو عدم ، مع أن الموجود في الكتاب والسنة في صفات اللَّه من الإثبات أكثر من النفي بكثير .

قيل لهم : إن اللَّه قال عن نفسه : « سميع بصير » .

قالوا : هذا من باب الإضافات ، بمعنى : نسب إليه السمع ؛ لا لأنه متصف به ، ولكن لأن له مخلوقًا يسمع ، فهو من باب الإضافات ، فـ « سميع » ، يعني : ليس له سمع ، لكن له مسموع .

وجاءت طائفة ثانية ، قالوا : هذه الأوصاف لمخلوقاته ، وليست له ، أما هو فلا يثبت له صفة .

٣- وقسم قالوا : يثبت له الأسماء دون الصفات ، وهؤلاء هم المعتزلة ، أثبتوا أسماء اللَّه ، قالوا : إن اللَّه سميع بصير قدير عليم حكيم .. لكن قدير بلا قدرة ، سميع بلا سمع ، بصير بلا بصر ، عليم بلا علم ، حكيم بلا حكمة .

٤- وقسم رابع قالوا : نثبت له الأسماء حقيقة ، ونثبت له صفات معينة دل عليها العقل وننكر

الباقي ، نثبت له سبع صفات فقط والباقي ننكره تحريفًا لا تكذيبًا ، لأنهم لو أنكروه تكذيبًا كفروا ، لكن ينكرونه تحريفًا ، وهو ما يدعون أنه « تأويل » .

الصفات السبع هي مجموعة في قوله :

له الحياةُ والكلامُ والبصر سمعٌ إرادةٌ وعلمٌ واقتدرْ

فهذه الصفات نثبتها ؛ لأن العقل دل عليها وبقية الصفات ما دل عليها العقل ، فنثبت ما دل عليه العقل ، وننكر ما لم يدل عليه العقل ، وهؤلاء هم الأشاعرة ، آمنوا بالبعض ، وأنكروا البعض .

فهذه أقسام التعطيل في الأسماء والصفات ، وكلها متفرعة من بدعة الجهم ، « ومن سن في الإسلام سنة سيئة ، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة »[1] .

فالحاصل : أنكم أيها الإخوة لو طالعتم في كتب القوم التي تعتني بجمع أقاويل الناس في هذا الأمر ، لرأيتم العجب العجاب ، الذي تقولون : كيف يتفوه عاقل – فضلاً عن مؤمن – بمثل هذا الكلام ؟ ! ولكن من لم يجعل الله له نورًا ، فما له من نور ! الذي أعمى الله بصيرته كالذي أعمى الله بصره ، فكما أن أعمى البصر لو وقف أمام الشمس التي تكسر نور البصر لم يرها ، فكذلك من أعمى الله بصيرته لو وقف أمام أنوار الحق ما رآها ، والعياذ بالله .

ولهذا ينبغي لنا دائمًا أن نسأل الله تعالى الثبات على الأمر ، وألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ؛ لأن الأمر خطير ، والشيطان يدخل على ابن آدم من كل صوب ، ومن كل وجه ، ويشككه في عقيدته ، وفي دينه ، وفي كتاب الله وسنة رسوله ؛ فهذه في الحقيقة البدع التي انتشرت في الأمة الإسلامية .

ولكن – ولله الحمد – ما ابتدع أحد بدعة ، إلا قيض الله له بمنه وكرمه من يبين هذه البدعة ويدحضها بالحق ، وهذا من تمام مدلول قول الله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر : ٩] ، هذا من حفظ الله لهذا الذكر ، وهذا أيضًا هو مقتضى حكمة الله ﷻ ؛ لأن الله تعالى جعل محمدًا خاتم النبيين ، والرسالة لابد أن تبقى في الأرض ، وإلا لكان للناس حجة على الله ، وإذا كانت الرسالة لا بد أن تبقى في الأرض ، لزم أن يقيض الله ﷻ بمقتضى حكمته عند كل بدعة من يبينها ويكشف عورها ، وهذا هو الحاصل ؛ ولهذا أقول لكم دائمًا : احرصوا على العلم ، لأننا في هذا البلد في مستقبل إذا لم نتسلح بالعلم المبني على الكتاب والسنة ، فيوشك أن يحل بنا ما حل في غيرنا من البلاد الإسلامية ، وهذا البلد الآن هو الذي يركز عليه أعداء الإسلام ويسلطون عليه سهامهم ، من أجل أن يضلوا أهلها ، فلذلك تسلحوا بالعلم ، حتى تكونوا على بينة من أمر دينكم ، وحتى تكونوا مجاهدين بألسنتكم وأقلامكم لأعداء الله سبحانه وتعالى .

---

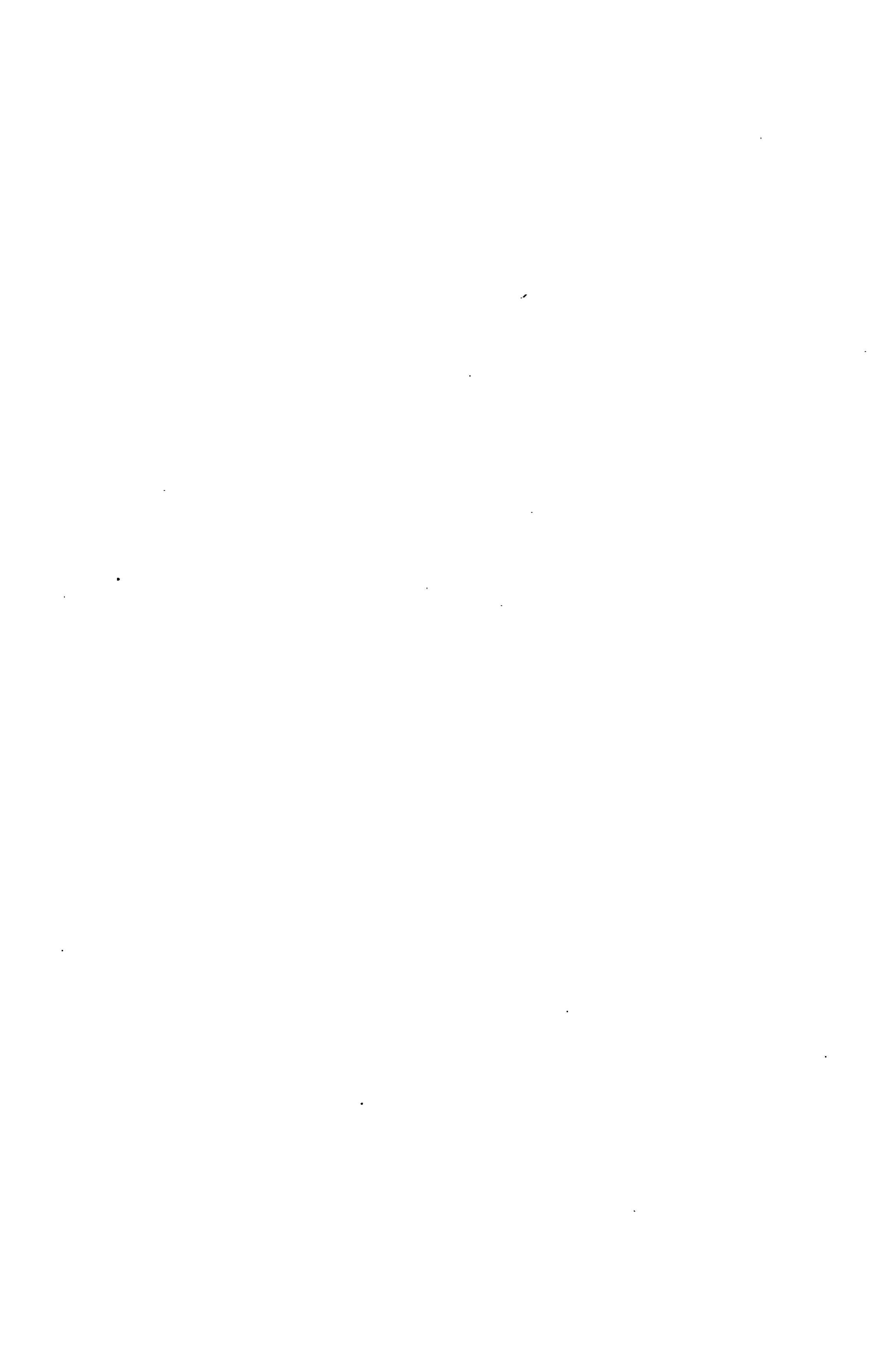
(١) مسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه .

وكل هذه البدع انتشرت بعد الصحابة ، فالصحابة ﷺ لم يكونوا يبحثون في هذه الأمور ، لأنهم يتلقون الكتاب والسنة على ظاهرهما وعلى ما تقتضيه الفطرة ، والفطرة السليمة سليمة ، لكن أتى هؤلاء المبتدعون ، فابتدعوا في دين الله تعالى ما ابتدعوا ، إما لقلة علمهم ، أو لقصور فهمهم ، أو لسوء قصدهم ، فأفسدوا الدنيا بهذه البدع التي ابتدعوها ، ولكن كما قلنا : إن الله تعالى بحكمته وحده ومنته وفضله ما من بدعة خرجت إلا قيض الله لها من يدحضها ويبينها .

ومن جملة الذين بينوا البدع وقاموا قيامًا تامًّا بدحضها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، هذا الرجل الذي نفع الله بما آتاه من فضله ومنَّ على الأمة بمثله ألف هذه « العقيدة » كما قلت : إجابة لطلب أحد قضاة واسط الذي شكا إليه ما كان الناس عليه من البدع ، وطلب منه أن يؤلف هذه « العقيدة » فألفها .

وأسأل الله لي ولكم أن يجمعنا في جنات النعيم .

❁ ❁ ❁



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

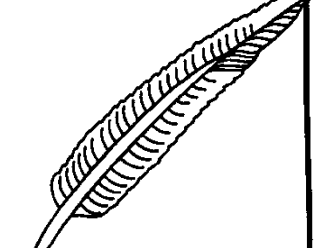
مقدِّمةُ المؤلفِ

الحمدُ للَّهِ الذي أرْسَل رسولَه بالهُدَى ودينِ الحقِّ ؛ ليُظْهِرَه على الدينِ كلِّه ، وكَفَى باللَّهِ شهيدًا ، وأَشْهَدُ أن لا إلهَ إلَّا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له ، إقرارًا به وتوحيدًا ، وأشْهَدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه صلَّى اللَّهُ عليه وعلى آلِه وصَحْبِه وسلَّمَ تسليمًا مَزيدًا .

أمَّا بعـدُ :

فهذا اعتقادُ الفرقةِ الناجيةِ المنصورةِ إلى قيامِ الساعةِ ؛ أهلِ السنةِ والجماعةِ ، وهو الإيمانُ باللَّهِ وملائكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه ، والبعثِ بعدَ الموتِ ، والإيمانُ بالقدرِ ؛ خيرِه وشرِّه .





الشـــرح

❁ **قال الشيخ فيصل بن عبد العزيز آل مبارك رحمه الله:**

هذا الكتاب هو «العقيدة الواسطية» لشيخ الإسلام ابن تيمية، وهو أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن أبي القاسم ابن تيمية الحراني، شيخ الإسلام والمسلمين وقامع أهل البدع والملحدين، ولد سنة إحدى وستين وست مائة، وتوفي سنة ثمان وعشرين وسبع مائة رحمه الله.

قوله: «أمَّا بعـدُ: فهذا اعتقادُ الفرقةِ الناجيةِ المنصورةِ إلى قيامِ الساعةِ؛ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ»:

* يشير إلى قوله ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي»[1]. وقوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى»[2].

• قوله: «وهو الإيمانُ باللَّهِ وملائكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه، والبعثِ بعدَ الموتِ، والإيمانُ بالقدرِ؛ خيرِه وشرِّه»:

* يشير إلى ما وقع في حديث سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان، وفيه قال- أي: جبريل- «فأخبرني عن الإيمان. قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت». وقال النبي ﷺ في آخره: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»[3].

❁ **قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله:**

قوله: «الحمدُ للَّهِ الذي أرْسَلَ رسولَه بالهُدَى ...»:

أي: جميع أوصاف الكمال ثابتة لله على أكمل الوجوه وأتمها.

ومما يحمد عليه نعمه على العباد التي لا يحصى أحد من الخلق تعدادها، وأعظمها إرساله محمدًا ﷺ رحمة للعالمين.

«بالهدى»؛ الذي هو العلم النافع، «ودين الحق»؛ الذي هو العمل الصالح.

«ليظهره»؛ على جميع الأديان بالحجة والبرهان، وبالعز والسلطان.

---

(١) الترمذي (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٢) صحيح ابن حبان (٦٧١٤). وأخرجه مسلم (١٩٢٠) بنحوه.

(٣) مسلم (١/٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

« وكَفَى باللَّهِ شهيدًا » ؛ على صدق رسوله وحقيقة ما جاء به .

وشهادته تعالى بقوله وفعله ، وتأييده لرسوله بالنصر ، والمعجزات ، والبراهين المتنوعة الدالة كل واحد منها- فكيف بجميعها- على رسالته وصدقه ، وأن جميع ما جاء به هو الحق من عقائد وأخلاق وآداب وأعمال وغيرها .

قوله : « وأَشْهَدُ أن لا إلهَ إلَّا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له ، إقرارًا به وتوحيدًا » :

أي : أقر وأعترف مصدقًا ومنقادًا أنه لا يستحق الألوهية- وهي التفرد بكل كمال- إلا اللَّه ، وأنه لا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له ، ولهذا قال : « إقرارًا به » ؛ أي : بالقلب واللسان .

« وتوحيدًا » ؛ أي : إخلاصًا للَّه في كل عبادة قولية أو عملية أو اعتقادية .

وأعظم ما يوحد به ويتقرب إليه به : « تحقيق العقيدة السلفية » المحتوي عليها هذا الكتاب . وبتحقيق العقيدة تصلح الأعمال ، وتقبل وتستقيم الأمور .

قوله : « وأَشْهَدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه صلَّى اللَّهُ عليه وعلى آلِه وصَحْبِه وسلَّمَ تسليمًا مَزيدًا » :

الشهادة للرسول بالرسالة . والعبودية مقرونة بالشهادة للَّه بالتوحيد ، لا يكفي إحداهما عن الأخرى ، ولا بد فيها من اعتراف العبد بكمال عبودية النبي ﷺ لربه ، وكمال رسالته المتضمنة لكماله ﷺ ، وأنه فاق جميع البشر في كل خصلة كمال .

ولا تتم الشهادة حتى يصدقه العبد في كل ما أخبر ، ويطيعه في كل ما أمر ، وينتهي عما نهى عنه . وبهذه الأمور تتحقق الشهادة للَّه بالتوحيد ، وللرسول بالرسالة .

قوله : « الإيمانُ باللَّهِ وملائكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه ، والبعثِ بعدَ الموتِ ، والإيمانُ بالقدرِ ؛ خيرِه وشرِّه » :

يقول المصنف ؒ : إن ما احتوت عليه هذه الرسالة هو العقيدة المنجية من الهلاك والشرور ، والمحصلة لخير الدنيا والآخرة ، الموروثة عن محمد ﷺ ، المأخوذة عن كتاب اللَّه وسنة رسوله ، وهي التي عليها الصحابة والتابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة ، الذين ضمن اللَّه لهم على لسان رسوله النصر إلى قيام الساعة ، والنصر إنما حصل بهم ببركة هذه العقيدة والعمل بها ، وتحقيقها بالقيام بجميع أمور الدين . وأصلها الذي تبنى عليه هو : الإيمان بهذه الأصول الستة التي صرح بها الكتاب والسنة في مواضع كثيرة ، جملة وتفصيلًا ، وتأصيلًا وتفريعًا .

وهي المذكورة في حديث جبريل المشهور حين سأل جبريل النبي ﷺ : « ما الإيمان ؟ »[1] فأجابه بها .

---

(١) البخاري (٥٠) ، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة ؓ .

فهذه الرسالة من أولها إلى آخرها تفصيل لهذه الأصول الستة .

۞ قال الشيخ عبد العزيز بن محمد بن مانع رحمه الله :

قوله : « بسم الله » :

* الجار والمجرور متعلقان بمحذوف ، والمختار : كونه فعلًا خاصًا متأخرًا ، والتقدير : أؤلف حال كوني مستعينًا بذكر الله متبركًا به . ولفظ الجلالة دال على الصفة القائمة به تعالى وهي الإلهية .

قال ابن عباس : الله ذو الإلهية والعبودية على خلقه أجمعين(١) .

قوله : « الرحمن الرحيم » :

* صفتان لله ؛ فالرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه ، والرحيم دل على تعلقها بالمرحوم ، يظهر ذلك بتأمل قوله تعالى : ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب : ٤٣] .

قوله : « الحمد لله » :

* الحمد : نقيض الذم ، وهو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية ، والشكر لا يكون إلا على المتعدية ، ويكون باللسان والجنان والأركان ، كما قال الشاعر :

أفادتكم النعماء مني ثلاثة   يدي ولساني والضمير المحجبا

قوله : « ﷺ » :

* أصح ما قيل في صلاة الله على عبده هو ما ذكره البخاري في « صحيحه » عن أبي العالية قال : « صلاة الله على رسوله ، ثناؤه عليه عند الملائكة »(٢) .

۞ قال الشيخ محمد خليل هراس رحمه الله :

قوله : « بسم الله الرحمن الرحيم » :

اختلف العلماء في البسملة ، هل هي آية من كل سورة افتتحت بها ، أو هي آية مستقلة أنزلت ، للفصل بها بين السور ، وللتبرك بالابتداء بها ؟ والمختار القول الثاني .

واتفقوا على أنها جزء آية من سورة « النمل » ، وعلى تركها في أول سورة « براءة » ؛ لأنها جعلت هي و« الأنفال » كسورة واحدة .

والباء في « باسم » للاستعانة ، وهي متعلقة بمحذوف قدره بعضهم فعلًا وقدره بعضهم اسمًا ، والقولان متقاربان ، وبكلٍّ ورد القرآن ، قال تعالى : ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق : ١] ، وقال : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا﴾ [هود : ٤١] .

---

(١) ابن جرير في « تفسيره » (١/٥٤) بإسناد ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) البخاري - معلقًا - (٥٣٢- فتح) .

ويحسن جعل المقدر متأخرًا ، لأن « اسم » أحق بالتقديم ، ولأن تقديم الجار والمجرور يفيد اختصاص الاسم الكريم بكونه متبركًا به ، والاسم هو اللفظ الموضوع لمعنى تعيينًا له أو تمييزًا » .

واختلف في أصل اشتقاقه ، فقيل : إنه من السمة ، بمعنى العلامة . وقيل : من السمو . وهو المختار ، وهمزته همزة وصل ، وليس الاسم نفس المسمى كما زعم بعضهم ، فإن الاسم هو اللفظ الدال ، والمسمى هو المعنى المدلول عليه بذلك الاسم .

وليس هو كذلك نفس التسمية فإنها فعل المسمى ، يقال : سميت ولدي محمدًا . مثلًا .

وقول بعضهم : إن لفظ الاسم هنا مقحم ؛ لأن الاستعانة إنما تكون بالله عزَّ وجلَّ لا باسمه ، ليس بشيء ؛ لأن المراد ذكر الاسم الكريم باللسان ، كما في قوله : ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى : ١] ، أي : سبحه ناطقًا باسم ربك متكلمًا به ، فالمراد التبرك بالابتـداء بذكر اسمه تعالى .

واسم الجلالة ، قيل : إنه اسم جامد غير مشتق ؛ لأن الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها ، واسمه تعالى قديم ، والقديم لا مادة له ، فهو كسائر الأعلام المحضة التي لا تتضمن صفات تقوم بمسمياتها .

والصحيح أنه مشتق ، واختلف في مبدأ اشتقاقه ، فقيل : من أَلِهَ يَأْلَه أُلُوهَة وإِلَاهَة وأُلُوهِيَّة . بمعنى عبد عبادة ، وقيل من أَلِهَ بكسر اللام يَأْلَه بفتحها أَلَهًا إذا تحير ، والصحيح الأول ، فهو إِلَه بمعنى مَأْلُوه أي معبود ؛ ولهذا قال ابن عباس ﷺ : الله ذو الإِلَهِيَّة والعبودية على خلقه أجمعين ، وعلى القول بالاشتقاق يكون وصفًا في الأصل ، ولكن غلبت عليه العَلَمية فتجري عليه بقية الأسماء أخبارًا أو أوصافًا .

يقال : الله رحمن رحيم سميع عليم . كما يقال : الله الرحمن الرحيم . . . إلخ .

والرحمن الرحيم اسمان كريمان من أسمائه الحسنى دالان على اتصافه تعالى بصفة الرحمة ، وهي صفة حقيقية له سبحانه على ما يليق بجلاله ، ولا يجوز القول بأن المراد بها لازمها كإرادة الإحسان ونحوه كما يزعم المعطِّلة ، وسيأتي مزيد بيان لذلك إن شاء الله .

واختلفت في الجمع بينهما ، فقيل : المراد بالرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء في الدنيا ؛ لأن صيغة فعلان تدل على الامتلاء والكثرة ، والرحيم الذي يختص برحمته المؤمنين في الآخرة . وقيل العكس .

وقد ذهب العلامة ابن القيم رحمه الله إلى أن الرحمن دال على الصفة القائمة بالذات ، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم ، ولهذا لم يجئ الاسم الرحمن متعديًا في القرآن ، قال تعالى : ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ . ولم يقل : رحمانًا . وهذا أحسن ما قيل في الفرق بينهما .

وروى ابن عباس أنه قال : هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر . ومنع بعضهم كون الرحمن في البسملة نعتًا لاسم الجلالة؛ لأنه علم آخر لله لا يطلق على غيره والأعلام لا ينعت بها .

والصحيح أنه نعت له باعتبار ما فيه من معنى الوصفية ، فالرحمن اسمه تعالى ووصفه ولا تنافي اسميتُه وصفيتَه ، فمن حيث هو صفة جرى تابعًا على اسم اللّٰه ، ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع بل ورود الاسم العلم كقوله تعالى : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه : ٥] .

قوله : « الحمد للّٰه الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق » :

« الحمدُ للّٰه » روى عن النبي ﷺ أنه قال : « كل كلام لا يبدأ فيه بحمد اللّٰه والصلاة عليَّ فهو أقطع أبتر ممحوق البركة »[1] . وورد مثل ذلك فى البسملة ، ولهذا جمع المؤلف بينهما عملًا بالروايتين ولا تعارض بينهما ، فإن الابتداء قسمان حقيقى وإضافى ، والحمد ضد الذم ، يقال : حمدت الرجل أحمده حمدًا ، ومحمدًا ومحمدة فهو محمود وحميد . ويقال : حمَّد اللّٰه بالتشديد . أثنى عليه المرة بعد الأخرى ، وقال : الحمد للّٰه .

والحمد : هو الثناء باللسان على الجميل الاختيارى ، نعمة كان أو غيرها ، يقال : حمدت الرجل على إنعامه وحمدته على شجاعته ، وأما الشكر فعلى النعمة خاصة ويكون بالقلب واللسان والجوارح ، قال الشاعر :

أَفَادَتكُمُ النَّعماءُ مِنِّى ثَلَاثَةً يَدِى وَلِسَانِى وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبَا

وعلى هذا فبين الحمد والشكر عموم وخصوص من وجه ، يجتمعان فى الثناء باللسان على النعمة ، وينفرد الحمد فى الثناء باللسان على ما ليس بنعمة من الجميل الاختيارى ، وينفرد الشكر بالثناء بالقلب والجوارح على خصوص النعمة . فالحمد أعم متعلقًا وأخص آلة والشكر بالعكس .

وأما الفرق بين الحمد والمدح فقد قال ابن القيم : إن الحمد إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وتعظيمه فلابد فيه من اقتران الإرادة بالخبر بخلاف المدح فإنه إخبار مجرد ، ولذلك كان المدح أوسع تناولًا ؛ لأنه يكون للحى والميت ، وللجماد أيضًا .

و« أل » فى الحمد للاستغراق ، ليتناول كل أفراد الحمد المحققة والمقدرة ، وقيل : للجنس ، ومعناه أن الحمد الكامل ثابت للّٰه ، وهذا يقتضى ثبوت كل ما يحمد عليه من صفات كماله ونعوت جماله ، إذ مَن عَدِمَ صفات الكمال فليس بمحمود على الإطلاق ، ولكن غايته ألَّا يكون محمودًا من كل وجه وبكل اعتبار بجميع أنواع الحمد إلا من حاز صفات الكمال[2] جميعها .

---

(١) قال الشيخ إسماعيل الأنصاري رحمه اللّٰه : عزاه الحافظ السخاوى فى « القول البديع من الصلاة على الحبيب الشفيع » إلى فوائد ابن عمرو بن منده بلفظ : « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بذكر اللّٰه ثم الصلاة عليَّ فهو أقطع ممحوق من كل بركة » . ثم قال السخاوى : والحديث مشهور لكن بغير هذا اللفظ . وذكر أنه ضعيف .

(٢) قال الشيخ إسماعيل الأنصاري رحمه اللّٰه : عبارة ابن القيم من « مدارج السالكين » : « وغايته أنه محمود من وجه دون =

الرسول في اللغة هو من بعث برسالة . يقال : أرسله بكذا . إذا طلب إليه تأديته وتبليغه ، وجمعه رسْل بسكون السين ، ورسُل بضمها ، وفي لسان الشرع : إنسان ذكر حر أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه ، فإن أُوحِيَ إليه ولم يؤمر بالتبليغ فهو نبي ، فكل رسول نبي ولا عكس ، فقد يكون نبيًّا غير رسول .

والمراد بالرسول المضاف إلى ضمير الرب هنا محمد ﷺ .

والهدى في اللغة : البيان والدلالة كما في قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ ، فإن المعنى بيّنا لهم ، وكما في قوله : ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ .

والهدى بهذا المعنى عام لجميع الناس ، ولهذا يوصف به القرآن كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ . ويوصف به الرسول ﷺ كما في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ .

وقد يأتي الهدى بمعنى التوفيق والإلهام ، فيكون خاصًّا بمن يشاء الله هدايته ، قال تعالى : ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ . ولهذا نفاه الله عن رسوله ، قال تعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ .

والمراد بالهدى هنا كل ما جاء به النبي ﷺ من الاختيارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع والعمل الصالح .

والدين يأتي لعدة معانٍ ؛ منها الجزاء كما في قوله تعالى : ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة : ٤] ، ومنه قولهم : « كما يدين الفتى يدان » .

ومنها الخضوع والانقياد ، يقال : دان له بمعنى ذلَّ وخضع ، ويقال : دان الله بكذا أو على كذا بمعنى اتخذه دينًا يعبده به .

والمراد بالدين هنا جميع ما أرسل الله به رسول الله ﷺ من الأحكام والشرائع ، اعتقادية كانت أم قولية أم فعلية ، وإضافته إلى الحق من إضافة الموصول إلى صفته ، أي الدين الحق .

والحق مصدر حق يحق إذا ثبت ووجب . فالمراد به الثابتَ الواقع ، ويقابله الباطل الذي لا حقيقة له .

اللام في قوله : ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ لام التعليل وهي متعلقة بـ : « أرسل » ، وهو من الظهور بمعنى العلو

= وجه ولا يكون محمودًا بكل وجه وبكل اعتبار بجميع أنواع الحمد إلا من استولى على صفات الكمال جميعها ، فلو عدم منها صفة واحدة لنقص من حمده بحسبها » . هذا نص عبارة ابن القيم ، وقد حصل في نقل المؤلف لها خلل ظاهر فليتنبه لذلك .

والغلبة ، أى : ليجعله عاليًا على الأديان كلها بالحجة والبرهان . و« أل » فى الدين للجنس ، فيدخل فيه كل دين باطل ، وهو ما عدا الإسلام .

والشهيد فعيل ، وهو مبالغة من شهد ، وهو إما من الشهادة بمعنى الإخبار والإعلام ، أو من الشهادة بمعنى الحضور والمعنى : ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ : مخبرًا بصدق رسوله أو حاضرًا مطلعًا لا يغيب عنه شىء .

والمعنى الإجمالى لما تقدم أن جميع أوصاف الكمال ثابتة للّٰه على أكمل الوجوه وأتمها .

ومما يحمد عليه سبحانه نعمه على عباده التى لا يحصى أحد من الخلق عدها ، وأعظمها إرساله محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق رحمة للعالمين ، وبشرى للمتقين ، ليظهره على جميع الأديان بالحجة والبرهان ، والعز والتمكين والسلطان ، وكفى باللّٰه شهيدًا على صدق رسوله وحقيقة ما جاء به .

وشهادته سبحانه تكون بقوله وفعله وتأييده لرسوله بالنصر والمعجزات والبراهين المتنوعة على أن ما جاء به هو الحق المبين .

قوله : (وأشهد أن لا إله إلا اللّٰه وحده لا شريك له ، إقرارًا به وتوحيد ...) :

الشهادة : الإخبار بالشىء عن علم به واعتقاد لصحته وثبوته ، ولا تعتبر الشهادة إلا إذا كانت مصحوبة بالإقرار والإذعان وواطأ القلب عليها اللسان ، فإن اللّٰه قد كذب المنافقين فى قولهم : ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ . مع أنهم قالوا [ذلك][1] بألسنتهم .

ولا إله إلا اللّٰه هى كلمة التوحيد التى اتفقت عليها كلمة الرسل صلوات اللّٰه وسلامه عليهم أجمعين ، بل هى خلاصة دعواتهم وزبدة رسالاتهم ، وما من رسول منهم إلا جعلها مفتتح أمره وقطب رحاه ، كما قال نبينا ﷺ : « أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا اللّٰه . فإذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم ، إلا بحقها وحسابهم على اللّٰه عزَّ وجلَّ » .

ودلالة هذه الكلمة على التوحيد باعتبار اشتمالها على النفى والإثبات المقتضى للحصر وهو أبلغ من الإثبات المجرد ، كقولنا : اللّٰه واحد . مثلًا فهى تدل بصدرها على نفى الإلهية عما سوى اللّٰه تعالى ، وتدل بعجزها على إثبات الإلهية له وحده . ولابد فيها من إضمار خبر تقديره : لا معبود بحق موجود إلا اللّٰه .

وأما قوله : « وحده لا شريك له » ؛ فهو تأكيد لما دلت عليه كلمة التوحيد .

وقوله : « إقرارًا به » . مصدر مؤكد لمعنى الفعل أشهد ، والمراد إقرار القلب واللسان .

(١) زيادة يقتضيها السياق .

وقوله : توحيدًا أى : إخلاصًا للَّه عزَّ وجلَّ فى العبادة ، فالمراد به التوحيد الإرادى الطلبى المبنى على توحيد المعرفة والإثبات .

قوله : (وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ تسليمًا مزيدًا) :

وجعل الشهادة للرسول ﷺ بالرسالة والعبودية مقرونة بالشهادة للَّه بالتوحيد للإشارة إلى أنه لابد من كل منهما ، فلا تغنى إحداهما عن الأخرى ، ولهذا قرن بينهما فى الأذان وفى التشهد . وقال بعضهم فى تفسير قوله تعالى : ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح : ٤] يعنى : لا أذكر إلا ذكرت معي[1] .

وإنما جمع له بين وصفى الرسالة والعبودية لأنهما أعلى ما يوصف به العبد ، والعبادة هى الحكمة التى خلق اللَّه الخلق لأجلها كما قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، فكمال المخلوق فى تحقيق تلك الغاية ، وكلما ازداد العبد تحقيقًا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ، ولهذا ذكر اللَّه نبيه بلقب العبد فى أسمى أحواله وأشرف مقاماته كالإسراء ، به وقيامه بالدعوة إلى اللَّه والإيحاء إليه ، والتحدى بالذى أنزل عليه ، ونبه بوصف العبودية أيضًا إلى الرد على أهل الغلو الذين قد يتجاوزون بالرسول ﷺ قدره ويرفعونه إلى مرتبة الألوهية ، كما يفعل ضُلَّال الصوفية قبحهم اللَّه ، وقد صح عنه ﷺ أنه قال : « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، وإنما أنا عبد فقولوا : عبد اللَّه ورسوله »[2] . والمقصود أن هذه الشهادة تتضمن اعتراف العبد بكمال عبوديته ﷺ لربه وكمال رسالته ، وأنه فاق جميع البشر فى كل خصلة كمالِه ، ولا تتم هذه الشهادة حتى يصدقه العبد فى كل ما أخبر به ، ويطيعه فى كل ما أمر به ، وينتهى عما نهى عنه .

الصلاة فى اللغة الدعاء ، قال تعالى : ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة : ١٠٣] ، وأصح ما قيل فى صلاة اللَّه على رسوله هو ما ذكره البخارى فى « صحيحه » عن أبى العالية ، قال : « صلاة اللَّه على رسوله ثناؤه عليه عند الملائكة » .

والمشهور أن الصلاة من الملائكة الاستغفار كما فى الحديث الصحيح : « والملائكة يصلون على أحدكم ما دام فى مجلسه الذى فيه يقولون : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه » . ومن الآدميين التضرع والدعاء .

وآل الشخص هم من يمتُّون إليه بصلة وثيقة من قرابة ونحوها وآله ﷺ يراد بهم أحيانًا من حرمت

(١) قال الشيخ إسماعيل الأنصاري رحمه الله : رواه إسماعيل بن إسحاق القاضى فى فضل الصلاة على النبى ﷺ عن مجاهد قال : حدثنا ابن عبد اللَّه قال : ثنا سفيان قال : ثنا ابن أبى نجيح عن مجاهد : ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ . قال : لا أذكر إلا ذكرت معى أشهد أن لا إله إلا اللَّه ، أشهد أن محمدًا رسول اللَّه . اهـ .

(٢) أخرجه البخارى ومسلم .

عليهم الصدقة وهم بنو هاشم وبنو المطلب ، ويراد بهم أحيانًا كل من تبعه على دينه ، وأصل « آل » أهل ، أبدلت الهاء همزة فتوالت همزتان فقلبت الثانية منهما ألفًا ويصغر على : أهيل أو : أويل ، ولا يستعمل إلا فيما شرف غالبًا فلا يقال : آل الإسكاف . وآل الحجام . والمراد بالصحب أصحابه ﷺ هم كل من لقيه حال حياته مؤمنًا ومات على ذلك . والسلام اسم مصدر من سلم تسليمًا عليه ، بمعنى طلب له السلامة من كل مكروه ، وهو اسم من أسمائه تعالى ، ومعناه : البراءة والخلاص من النقائص والعيوب ، أو الذي يسلم على عباده المؤمنين في الآخرة .

ومزيدًا : صفة لتسليمًا ، وهو اسم مفعول من زاد المتعدى ، والتقدير : مزيدًا فيه .

قوله : (أما بعدُ : اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة) :

« أما بعد » : كلمة يؤتى بها للدلالة على الشروع في المقصود ، وكان النبي ﷺ يستعملها كثيرًا في خطبه وكتبه . وتقديرها عند النحويين : مهما يكن من شيء بعد .

والإشارة بقوله : « هذا » إلى ما تضمنه هذا المؤلف من العقائد الإيمانية التي أجملها في قوله : « وهو الإيمان بالله . . . إلخ » .

« والاعتقاد » : مصدر اعتقد كذا ، إذ اتخذه عقيدة له ، بمعنى عقد عليه الضمير والقلب ودان لله به ، وأصله من عقد الحبل ، ثم استعمل في التصميم والاعتقاد الحازم .

والفِرقة - بكسر الفاء - : الطائفة من الناس . ووصفها بأنها الناجية المنصورة أخذًا من قوله عليه السلام : « لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله » .

ومن قوله في الحديث الآخر : « ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلهم في النار إلا واحدة ، وهي من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي » .

وقوله : « أهل السنة والجماعة » بدل من الفرقة ، والمراد بالسنة الطريقة التي كان عليها رسول الله ﷺ وأصحابه قبل ظهور البدع والمقالات . والجماعة في الأصل القوم المجتمعون ، والمراد بهم هنا سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين الذين اجتمعوا على الحق الصريح من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

قوله : (وهو الإيمان بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والبعث ...) :

هذه الأمور الستة هي أركان الإيمان ، فلا يتم إيمان أحد إلا إذا آمن بها جميعًا على الوجه الصحيح الذي دل عليه الكتاب والسنة ، فمن جحد شيئًا منها أو آمن به على غير هذا الوجه فقد كفر ، وقد ذكرت كلها في حديث جبريل المشهور حين جاء إلى النبي ﷺ في صورة أعرابي يسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان ، فقال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وتؤمن بالبعث بعد الموت ، وبالقدر خيره وشره ، حلوه ومره من الله تعالى » .

(والملائكة) : جمع ملاك وأصله مألك من الألوكة ، وهى الرسالة ، وهم نوع من خلق الله ﷻ أسكنهم سماواته ووكلهم بشئون خلقه ووصفهم فى كتابه بأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وأنهم يسبحون له بالليل والنهار لا يفترون . فيجب علينا الإيمان بما ورد فى حقهم من صفات وأعمال فى الكتاب والسنة ، والإمساك عما وراء ذلك ، فإن هذا من شئون الغيب التى لا نعلم منها إلا ما علمنا الله ورسوله .

والكُتُب جمع كِتاب ، وهو من الكَتْبِ بمعنى الجمع والضم . والمراد بها الكتب المنزلة من السماء على الرسل عليهم الصلاة والسلام . والمعلوم لنا منها « صحف إبراهيم ، والتوراة » التى أنزلت على موسى فى الألواح و« الإنجيل » الذى أنزل على عيسى ، و« الزبور » الذى أنزل على داود ، و« القرآن الكريم » الذى هو آخرها نزولًا ، وهو المصدق لها والمهيمن عليها ، وما عداها يجب الإيمان به إجمالًا .

والرسل جمع رسول – وقد تقدم أنه من أوحى الله إليه بشرع وأمره بتبليغه – وعلينا أن نؤمن تفصيلًا بمن سمى الله فى كتابه منهم وهم خمسة وعشرون ، ذكرهم الشاعر فى قوله :

فِى تِلْكَ حُجَّتُنَا مِنهُم ثَمَانِيَةٌ ... مِن بَعدِ عَشرٍ وَيَبقَى سَبعَةٌ وَهُم
إدرِيسُ هُودٌ شُعَيبٌ صَالِحٌ وَكَذا ... ذوُ الكِفلِ آدَمُ بِالمختارِ قَد خُتِمُوا

وأما من عدا هؤلاء من الرسل والأنبياء فنؤمن بهم إجمالًا على معنى الاعتقاد بنبوتهم ورسالتهم دون أن نكلف أنفسنا البحث عن عدتهم وأسمائهم ، فإن ذلك مما اختص الله بعلمه ، قال تعالى : ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤] .

ويجب الإيمان بأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به على ما أمرهم الله عزّ وجلّ ، وبينوه بيانًا لا يسع أحدًا ممن أرسلوا إليه جهله ، وأنهم معصومون من الكذب والخيانة ، والكتمان والبلادة ، وأن أفضلهم أولو العزم ، والمشهور أنهم محمد وإبراهيم وموسى وعيسى ونوح ؛ لأنهم ذكروا معًا فى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب : ٧] ، وقوله : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى : ١٣] .

والبعث فى الأصل الإثارة والتحريك ، والمراد به فى لسان الشرع : إخراج الموتى من قبورهم أحياء يوم القيامة لفصل القضاء بينهم ؛ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة : ٧، ٨] . ويجب الإيمان بالبعث على الصفة التى بينها الله فى كتابه ، وهو أنه جمع ما تحلل من أجزاء الأجساد التى كانت فى الدنيا وإنشاؤها خلقًا جديدًا وإعادة الحياة إليها ،

ومنكر البعث الجثماني كالفلاسفة والنصارى كفار، وأما من أقرَّ به ولكنه زعم أن الله يبعث الأرواح في أجسام غير الأجسام التي كانت في الدنيا فهو مبتدع وفاسق.

وأما القدر: فهو في الأصل مصدر، تقول: قدرت الشيء بفتح الدال وتخفيفها، أقدره بكسرها قدرًا وقدرًا إذا أحطت بمقداره، والمراد به في لسان الشرع أن الله عزَّ وجلَّ علم مقادير الأشياء وأزمانها أزلًا، ثم أوجدها بقدرته ومشيئته على وفقِ ما علمه منها، وأنه كتبها في اللوح قبل إحداثها، كما في الحديث: «أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. قال: وما أكتب؟ قال: اكتب كل ما هو كائن». وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢].

❁ قال الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ابتدأ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابه بالبسملة؛ اقتداء بالكتاب العزيز، وتأسيا بالنبي ﷺ في مكاتباته ومراسلاته، وعملًا بحديث: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع»[1]، وفي رواية: «أجذم»[2]، وفي رواية: «أبتر»[3]. والمعنى: ناقص البركة.

«الحمد لله» الحمد، قال المصنف: هو ذكر محاسن المحمود مع حبه وتعظيمه وإجلاله.

وقال معناه أيضًا ابن القيم.

«الذي أرسَل رسولَه» محمدًا ﷺ «بالهدى» هو العلم النافع.

«ودين الحق» هو العمل الصالح، «ليُظهِرَه على الدينِ كلِّه» ليعليه وينصره على سائر الأديان؛ من اليهودية، والنصرانية، والوثنية، وغير ذلك.

ولما بعث الله نبيه ﷺ وأرسله بالهدى ودين الحق، وكان له أعداء أظهره عليهم وأتمه، فإن هذه النعمة- وهي نعمة الدين- لا تتم إلا بما يحميها ويحوطها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ② وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

«وكَفَى باللهِ شهيدًا» على أنك نبي، وسينصرك، ويظهر دينك.

---

(١) الخطيب في «الجامع في أخلاق الراوي» برقم (١٢١٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٩٧٠١).

(٢) يُنظر: أبو داود (٤٨٤٠)، والطبراني (١٩/٧٢/١٤١)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود».

(٣) أحمد (٢/٣٥٩).

« وأَشْهَدُ أن لا إلهَ إلَّا اللَّهُ » أنه لا معبود حق إلا اللَّه .

« وحده » تأكيد للإثبات ، « لا شريك له » تأكيد للنفي ، فهو تأكيد بعد التوكيد ؛ اهتمامًا بمقام التوحيد .

« إقرارًا به وتوحيدًا » ؛ يعني : أخبر عن اعتقاد وعلم أن لا إله إلا اللَّه ؛ أي : أنه لا معبود حق إلا اللَّه .

« وأشهد أن محمدًا عبده » هذه العبودية في حق المصطفى ﷺ هي عبودية التشريف والتكريم ، وهذا أخصِ وصفه ﷺ ، فإنه ﷺ خير بين أن يكون مِلكًا نبيًا ، وبين أن يكون عبدًا رسولًا ، فاختار أن يكون عبدًا رسولًا .

وله ﷺ من هذه العبودية أكملها وأعلاها ، فإن العبودية عبوديتان : خاصة وعامة .

عبودية تابعة للربوبية : وهي التي دخل فيها جميع الخلق ؛ كما في قوله تعالى : ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ .

وعبودية تابعة للألوهية والعبادة : وهي المذكورة في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ﴾ الآية .

وذكر ﷺ بالعبودية في أشرف مقاماته ؛ كما في آية « الإسراء » : ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ ، وقال في مقام الإنزال عليه : ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ ، وقال في مقام التحدي : ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ .

« ورسوله » الجمع له ﷺ بين العبودية والرسالة فيه :

الرد على أهل الإفراط الذين غلو فيه ؛ حتى جوزوا الاستغاثة به في كل ما يستغاث باللَّه فيه ، فهؤلاء في الحقيقة ما جعلوه عبدًا ؛ بل اتخذوه معبودًا ، ورفعوه فوق منزلته .

* وعلى أهل التفريط بترك متابعته ، والرضا عن سنته بالأوضاع والقوانين الباطلة ، فهم ما شهدوا في الحقيقة أنه رسول اللَّه ؛ بل شهادتهم ناقصة على حسب ما كان معهم من تلك الأمور .

« صلى اللَّه عليه » معنى الصلاة عليه : ثناؤه على عبده في الملأ الأعلى ، وجمع بين الصلاة والسلام عليه ، كما جمع اللَّه بينهما في قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ .

« وعلى آله » : « آله » قيل : إنهم أتباعه على دينه . وقيل : إنهم أزواجه وذريته ، وهذا أرجح الأقوال ، كما أن الذي يليه هم من تحرم عليهم الزكاة .

« وأصحَابه وسلَّمَ تسليمًا مَزيدًا » أصحاب : جمع صاحب . والصحابي : من اجتمع بالنبي ﷺ -ولو لحظة- وآمن به .

وجمع بين الآل والصحب ، كما جمع بين الصلاة على النبي ﷺ والسلام عليه ، ففيه الرد على الروافض من قوله : « وأصحابه » ، وعلى النواصب من قوله : « وآله » إذا عني بهم أهل بيته .

« أمَّا بعـدُ » هذه الكلمة يؤتى بها عند الانتقال من أسلوب إلى أسلوب . والمعنى : أما بعد ما تقدم من حمد الله والثناء عليه ، والصلاة على رسوله ﷺ .

وأقرب الأقوال فيمن قال هذه الكلمةِ أولًا : داود عليه السلام . وقيل : إنها فصل الخطاب الذي أعطيه ، والصحيح خلافه ، وأن فصل الخطاب الذي أعطيه عليه السلام هو الفصل بين الحق والباطل .

« فهذا » الإشارة إلى ما في هذه العقيدة الجليلة .

« اعتقاد » الاعتقاد : مصدر اعتقد ، والاعتقاد من العقد ، مأخوذ من عقد الأصابع على ما تشد عليه ، وهو يطلق على التصديق مطلقًا ، وعلى ما يعتقد من الأمور الدينية مما يشد عليه ويعتقد ، وتعيه وتمسكه القلوبه . وسمي الاعتقاد اعتقادًا ؛ لأن القلوب تعقد عليه وتدين به وتلزمه ، واعتقاد الشيء قبل عمله ، والغالب أن من اعتقد بقلبه ؛ عمله .

« الفرقةِ الناجيةِ » عند هلاك الفرق والأمم ؛ كما أخبر النبي ﷺ أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة ، وهي الجماعة[(١)]، وفي رواية : « هم من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي »[(٢)].

وبعض أهل العلم ذكر الثلاث والسبعين الفرقة باجتهاده ، لكن هذا من الإخبار بالغيب ، وإن كان الكل مبتدعة لا شك ، لكن التعيين ما فيه نص ، وإن كانت أصول هذه البدع ترجع إلى الخمس التي وجدت في زمن السلف : الجهمية ، والمرجئة ، والخوارج ، والرافضة ، والقدرية .

وهذا الحديث لا يدل على أن هذه الأمة أشر من غيرها من الأمم ؛ كالنصارى واليهود ؛ بل فيه بيان أن ما يوجد من الافتراق في تلك الأمم ، يوجد في هذه الأمة مثله في الافتراق وأكثر .

فهذا المذكور في هذا الكتاب : هو اعتقاد الفرقة الواحدة الناجية من بين الفرق كلها .

« المنصورةِ إلى قيامِ الساعةِ » ؛ كما جاء في الحديث : « لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ، حتى تقوم الساعة »[(٣)].

---

(١) أبو داود (٤٥٩٧) ، والدارمي (٢/٢٤١) ، وابن أبي عاصم في « السنة » (٦٥ ، ٦٩) من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « الظلال » (٦٥ ، ٦٩) .

(٢) الترمذي (٢٦٤١) ، والحاكم (٤٥٥) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، وحسنه الألباني في « الصحيحة » (١٣٤٨) .

(٣) البخاري برقم (٣٦٤١) من حديث معاوية رضي الله عنه ، ومسلم (١٩٢٠) من حديث ثوبان رضي الله عنه .

« أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ » هذا من ألقاب أهل الحق- وهذا اللقب ليس من ألقاب أهل الطرق- لما كانوا يؤثرون السنة على غيرها من الطرق .

« وهو الإيمانُ باللّهِ » يعني : وبما وصف به نفسه في كتابه .

« وملائكتِهِ » الكرام ، بوجودهم وعددهم ، إجمالًا في الإجمالي ، وتفصيلًا في التفصيلي .

معنى إجمالًا : أنك تؤمن بهم جميعًا- جميع ما جاء عن اللّه فيهم .

والتفصيل : إذا بلغك تفصيلًا تسميته . وكذلك الرسل الذين جاء تسميتهم نؤمن بهم تفصيلًا .

« وكتبه » وكذلك الإيمان بكتبه .

« ورسله » وكذلك الإيمان برسله ، إجمالًا في الإجمالي ، وتفصيلًا في التفصيلي .

« والبعث بعد الموت » والجهلة يستبعدون إعادة أجزاء هذا البدن بعد بلائها ، فلذلك ذكر المصنف هذا اللفظ بدل : « واليوم الآخر » ، فإن المنكرين لليوم الآخر لا ينكرون قدرة اللّه على خلق الأجسام وإنزال المطر ، وغير ذلك .

وحقيقة الإيمان بالبعث : أن يؤمن الإنسان ، ويقر أن هذه الأجسام تعاد كما كانت ، وترد إليها أرواحها ، وتنعم أو تعذب .

وقرر تعالى هذا الأصل بكمال علمه وكمال قدرته ، ولهذا كان المعاد معلومًا بالعقل والشرع .

« والإيمان بالقدر خيره وشره » كما في حديث جبريل ، وهذا هو السادس من أركان الإيمان ، فهذا الكتاب المؤلف معظمه في شرح هذه الأصول الستة ، وإن كان قد ذكر أشياء غير ذلك . وقيل : إنها ترجع إلى ذلك .

والدين ثلاث مراتب : الإسلام ، والإيمان ، والإحسان . فكل خصلة من خصال الإسلام داخلة في مسمى الإيمان ، وكل خصلة من خصال الإيمان داخلة في مسمى الإسلام ، ولكن إذا اقترنا فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة ؛ لأنها أغلب عليه ، وفسر الإيمان بالأعمال الباطنة .

فالإسلام أغلب على الأعمال الظاهرة ، والإيمان أغلب على الأعمال الباطنة ، فهو أصدق في القلوب ، وذلك أنه مشتق من الأمن والائتمان على الأمور الباطِنة الخفية ، فإن المصدق أمن المخبر . وأصله التصديق .

وفي الشرع : تصديق خاص كما يأتي .

فهذه أصول الإيمان الستة التي عليها مبنى الإيمان ، ويأتي تفصيلها فيما بعد ، فإن المبتدعة صاروا شجًا في حلوق أهل السنة وأهل الحق ، وصنفوا وبدعوا وحبسوا ، فلذلك صنَّف أهل السنة في العقائد المصنفات ، وبينوا خطأ وضلال أهل البدع .

والمصنف رحمه الله أطال فيما كثر فيه جدال أهل البدع ، والذين لم ينازعوا فيه ذكر فيه كالإشارة .

❁ قال الشيخ زيد بن عبد العزيز آل فياض رحمه الله :

قوله : « الحمدُ للَّهِ الذي أرْسَل رسولَه بالهُدَى ..» :

قال تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ .

والحمد إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وتعظيمه وإجلاله ، وقال العلامة ابن القيم رحمه الله : وإثبات الحمد الكامل له يقتضي ثبوت كل ما يحمد عليه من صفات كماله ونعوت جلاله ، إذ من عدم صفات الكمال فليس بمحمود على الإطلاق ، وغايته أنه محمود من وجه دون وجه ولا يكون محمودًا من كل وجه وبكل اعتبار بجميع أنواع الحمد إلا من استولى على صفات الكمال جميعها ، فلو عدم منها صفة واحدة لنقص من حمده بحسبها .

وقال الشيخ[1] : والحمد نوعان : حمد على إحسانه إلى عباده وهو من الشكر ، وحمد لما يستحقه هو بنفسه من نعوت كماله ، وهذا الحمد لا يكون إلا على ما هو في نفسه مستحق للحمد ، وإنما يستحق ذلك من هو متصف بصفات الكمال وهي : أمور وجودية ، فإن الأمور العدمية المحضة لا حمد فيها ولا خير ولا كمال ، ومعلوم أن كل ما يحمد فإنما يحمد على ما له من صفات الكمال ، فكل ما يحمد به لخلق فهو من الخالق ، والذي منه ما يحمد عليه هو أحق بالحمد ، فثبت أنه المستحق للمحامد الكاملة وهو أحق من كل محمود . اهـ .

قوله : « الذي أرْسَل رسولَه ..» يعني : محمدًا ﷺ ، والرسول هو إنسان ذكر أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه ، فإن أوحي إليه ولم يؤمر بالتبليغ فهو نبي .

والهدى هو ما جاء به النبي ﷺ من الشرع القويم ، والدين الكامل ، وما أنزل عليه من القرآن الذي به حياة القلوب ، وهداية الخلق ، قال ابن كثير : الهدى هو ما جاء به النبي ﷺ من الإخبارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع والعلم الصالح ، فإن الشريعة تشتمل على شيئين : علم وعمل ، فالعلم الشرعي صحيح ، والعمل الشرعي مقبول ، فإخباراتها حق وإنشاآتها عدل .

ليظهره ليعليه على الدين كله ، أي : على أهل جميع الأديان من أهل الأرض من عرب وعجم ، ومليين ومشركين ، وكفى بالله شهيدًا أي : أنه ناصره .

وقال ابن القيم : فقد تكفل الله لهذا الأمر بالتمام والإظهار على جميع أديان أهل الأرض ، ففي هذا تقوية لقلوبهم وبشارة لهم وتثبيت لهم ، وأن يكونوا على ثقة من هذا الوعد الذي لا بد أن ينجزه فلا

---

(١) « تفصيل الإجمال فيما يحب الله من صفات الكمال » (٥/٤٩) .

تظنوا أن ما وقع من الأغماض والقهر يوم الحديبية نصرة لعدوه ولا تخليًا عن رسوله ودينه كيف وقد أرسله بدينه الحق ووعده أن يظهره على كل دين سواه ؟ اهـ .

قوله : « وأَشْهَدُ أن لا إلهَ إلَّا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له ، إقرارًا به وتوحيدًا » :

* أي : أشهد شهادة عن علم ويقين وعمل بمدلول هذه الكلمة العظيمة ، ومقتضاها ، من إثبات الوحدانية للَّه ، فكما أنه واحد في ربوبيته ، وتدبيره للكون ، فكذلك هو واحد في إلهيته ، وهو المستحق لأن يعبد وحده لا شريك له ، وأن يفرد بصفات الكمال ، ونعوت الجلال ، وأن ينزه عن كل نقص وعيب .

وفي قوله : « وحده » تأكيد للإثبات ، وقوله : « لا شريك له » تأكيد للنفي ، قاله الحافظ .

وقال أيضًا : « وحده لا شريك له » تأكيدًا بعد تأكيد اهتمامًا بمقام التوحيد .

وقد شهد اللَّه لنفسه بالوحدانية في قوله : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

فقد تضمنت هذه الآية الكريمة : إثبات حقيقة التوحيد والرد على جميع طوائف الضلال ، فتضمنت أجل شهادة وأعظمها وأعدلها وأصدقها من أجل شاهد بأجل مشهود به ، وعبارات السلف في « شهد » تدور على الحكم والقضاء والإعلام والبيان ، والإخبار ، وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها ؛ فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره ، وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه ، فلها أربع مراتب :

فأول مراتبها : علم ومعرفة واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته .

وثانيها : تكلمه بذلك وإن لم يعلم به غيره بل يتكلم بها مع نفسه ويتذكرها وينطق بها أو يكتبها .

وثالثها : أن يعلم غيره بما يشهد به ويخبره به ، ويبينه له .

ورابعها : أن يلزمه بمضمونها ، ويأمره به .

فشهادة اللَّه سبحانه لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط تضمنت هذه المراتب الأربع : علمه بذلك سبحانه ، وتكلمه به ، وإخباره لخلقه به ، وأمرهم وإلزامهم به .

أما مرتبة العلم فإن الشهادة تتضمنها ضرورة وإلا كان الشاهِد شاهدًا بما لا علم له به قال تعالى : ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ . وقال ﷺ : « على مثلها فاشهد » . وأشار إلى الشمس .

وأما مرتبة التكلم والخبر فقال تعالى : ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ . فجعل ذلك منهم شهادة وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة ولم يؤدوها عند غيرهم .

وأما مرتبة الإعلام والإخبار فنوعان : إعلام بالقول وإعلام بالفعل ، وهذا شأن كل معلم لغيره بأمر ،

تارة بعلمه به بقول، وتارة بفعل، ولهذا كان من جعل داره مسجدًا وأبرزها وفتح طريقها وأذن للناس بالدخول والصلاة فيها، مُعلِمًا أنها وقف وإن لم يتلفظ به، وكذلك من وجد متقربًا إلى غيره بأنواع المسار يكون معلمًا له ولغيره أنه يحبه وإن لم يتلفظ بقوله وكذلك بالعكس.

وكذلك شهادة الرب ﷻ وبيانه وإعلامه يكون بقوله تارة وبفعله أخرى، فالقول ما أرسل به رسله وأنزل به كتبه.

وأما بيانه وإعلامه بفعله فكما قال ابن كيسان: شهد الله بتدبيره العجيب وأموره المحكمة عند خلقه أنه لا إله إلا هو، وقال آخر:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

ومما يدل على أن الشهادة تكون بالفعل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾. فهذه شهادة منهم على أنفسهم بما يفعلونه، والمقصود أنه سبحانه يشهد بما جعل آياته المخلوقات دالة عليه، ودلالته إنما هي بخلقه وجعله.

وأما مرتبة الأمر بذلك والإلزام به وأن مجرد الشهادة لا يستلزمه، لكن الشهادة في هذا الموضع تدل عليه وتتضمنه، فإنه سبحانه شهد به شهادة من حكم به وقضى وأمر وألزم عباده، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾. وقال الله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾. وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾، ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾، ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾.

والقرآن كله شاهد بذلك، ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو، فقد أخبر ونبأ وأعلم وحكم وقضى أن ما سواه ليس بإله، وأن إلهية ما سواه باطلة فلا يستحق العبادة سواه، كما لا تصلح الإلهية لغيره، وذلك يستلزم الأمر باتخاذه وحده إلهًا، والنهي عن اتخاذ غيره معه إلهًا، وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفي والإثبات، فالله سبحانه لا شريك له في أي نوع من أنواع التوحيد.

والتوحيد نوعان: نوع في العلم والاعتقاد، ونوع في الإرادة والقصد، ويسمى الأول: التوحيد العلمي، والثاني: التوحيد القصدي الإرادي؛ لتعلق الأول بالأخبار والمعرفة، والثاني بالقصد والإرادة، وهذا الثاني أيضًا نوعان: توحيد في الربوبية، وتوحيد في الإلهية، فهذه ثلاثة أنواع، قال ابن القيم: وأما التوحيد الذي دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب فهو نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في الطلب والقصد، فالأول هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه وتكلمه بكتبه وتكليمه لمن شاء من عباده، إثبات عموم قضائه وقدره وحكمته، وقد أفصح القرآن عن هذا

النوع جد الإفصاح، كما في أول سورة الحديد، وسورة طه، وآخر سورة الحشر، وأول تنزيل السجدة، وأول آل عمران، وسورة الإخلاص بكمالها وغير ذلك.

النوع الثاني: ما تضمنته سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، وأول سورة تنزيل الكتاب وآخرها، وأول سورة المؤمن، ووسطها وآخرها، وأول سورة الأعراف وآخرها، وجملة سورة الأنعام، وغالب سور القرآن، بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد شاهدة به داعية إليه، فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأقواله فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له وخلع عبادة ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته وأمره ونهيه فهو من حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن إكرام أهل التوحيد، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد، فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم. اهـ.

قوله: «وأشهَدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه صلَّى اللَّهُ عليه وعلى آلِه وأصحَ وسلَّمَ تسليمًا مَزيدًا»:

* رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله والصلاة علي فهو أقطع أبتر ممحوق البركة»[1]. ومن مواطن الصلاة عليه ﷺ الصلاة عليه عند كل كلام خير ذي بال، فإنه يبتدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم بالصلاة على رسول الله ﷺ، ثم يذكر كلامه بعد ذلك، وأعلى ما يوصف به العبد مرتبة العبودية والرسالة، وهو ﷺ أكمل الخلق في ذلك، فكمال المخلوق في تحقيق عبودية الله تعالى، وكلما ازداد العبد تحقيقًا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته، ومن توهم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه، وأن الخروج عنها أكمل فهو من أجهل الخلق وأضلهم، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾. إلى غير ذلك من الآيات، وذكر الله نبيه باسم العبد في أشرف المقامات فقال في ذكر الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾. وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾. وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾. وقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾. وبذلك استحق التقديم على الناس في الدنيا والآخرة، ولذلك يقول المسيح عليه السلام يوم القيامة إذا طلبوا منه الشفاعة بعد الأنبياء: اذهبوا إلى محمد عبد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر،

(١) ضعفه الألباني في: «ضعيف سنن ابن ماجه» (١٩٢٤)، و«السلسلة الضعيفة» (٩٠٢).

فحصلت له تلك المرتبة بتكميل عبوديته للّٰه تعالى . اهـ .

قوله : « ﷺ » : صلاة اللّٰه على نبيه أن يثني عليه في الملأ الأعلى عند الملائكة .

هذا هو الذي عليه المحققون ، ونصره الشيخ وتلميذه ابن القيم ، وصوبه الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمهم اللّٰه .

وقد يراد بهذا الدعاء كما في « المسند » عن علي مرفوعًا : « الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه »[1] .

والمشهور عند كثير من المتأخرين أن الصلاة من اللّٰه بمعنى الرحمة ، وقيل : بمعنى المغفرة . قال ابن القيم : وهذا القول من جنس الذي قبله وهما ضعيفان . اهـ .

وعلى آله وصحبه : وآل الشخص هم القوم المنتمون إليه الذين تجمعهم به صلة وثيقة من قرابة ونحوها ، وأحسن الأقوال في آل النبي ﷺ أنهم أتباعه على دينه .

قال في « القاموس » : آله : أهل الرجل وأتابعه وأولياؤه ، ولا يستعمل إلا فيما فيه شرف غالبًا ، فلا يقال : آل الإسكاف كما يقال : أهله . قال : وأصله أهل ، أبدل الهاء همزة فصارت أأل ، توالت همزتان ، فأبدلت الثانية ألفًا ، تصغيره : أويل وأهيل . اهـ .

وعطف الصحب على الآل من عطف الخاص على العام .

والصحابي هو من لقي النبي ﷺ مؤمنًا ومات على ذلك .

وسلم تسليمًا مزيدًا . هاتان جملتان خبريتان لفظًا إنشائيتان معنى أعني قول المؤلف : « صلى اللّٰه عليه وسلم » .

وجمع بين الصلاة والسلام : اقتداء بالآية الكريمة : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ .

والسلام هو طلب السلامة من كل مكروه ، والسلام اسم من أسماء اللّٰه « وحقيقة هذه اللفظة البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب ، وعلى هذا المعنى تدور جميع تصاريفها » . اهـ .

قوله : « أما بعد فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة ..» .

* أما بعد : كلمة يؤتى بها للانتقال من أسلوب إلى غيره .

وقد كان النبي ﷺ يأتي بها كثيرًا في خطبه ومكاتباته .

ومعناها مهما يكن من شيء .

البخاري (٤٣٦) عن أبي هريرة ، بنحوه . وينظر : « صحيح الجامع » للألباني (حديث رقم : ٦٧٢٧) .

والعقيدة : هي ما يعقد عليه المرء . ويدين به .

قال في المصباح المنير : « اعتقدت كذا عقدت عليه الضمير والقلب ، والمشهور أن الصلاة من الملائكة معناها الاستغفار ، ومن الآدميين الدعاء .

وقال ابن القيم في بدائع الفوائد (جـ١ ص ٢٦، ٢٧) : وهو مشكل من وجوه :

أحدها : أن الدعاء يكون بالخير والشر ، والصلاة لا تكون إلا بالخير .

والثاني : إن دعوت تعدى باللام وصليت لا تعدى إلا بعلى ، ودعا المعدي بعلى ليس بمعنى صلى ، وهذا يدل على أن الصلاة ليست بمعنى الدعاء .

الثالث : أن فعل الدعاء يقتضي مدعوًا ومدعو له ؛ تقول : دعوت اللّه لك بخير ، وفعل الصلاة حتى قيل : العقيدة ما يدين الإنسان به ربه ، وله عقيدة حسنة سالمة من الشك وأصله في عقد البيع ونحوه ، ثم استعمل في التصميم والاعتقاد الجازم فهو يطلق على التصديق مطلقًا وعلى ما يعتقد من أمور الدين .

والفرقة بالكسر الطائفة من الناس ، والناجية المنصورة ، هذا من أوصاف أهل السنة والجماعة ، كما قال النبي ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ، حتى يأتي أمر اللّه »[1] .

وأهل : بدل من الفرقة بالكسر ، ويجوز فيه الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره : هم ، وبالنصب على إضمار فعل تقديره : أعني أهل السنة . وسيأتي لهذا مزيد بحث في آخر العقيدة إن شاء اللّه .

قال الشيخ في مناظرته لمن اعترض نعته لأهل السنة بأنهم الفرقة الناجية ، وزعم أنه إذا كان هذا قول الفرقة الناجية خرج عن ذلك من لم يقل ذلك من المتكلمين ، قال الشيخ : قلت لهم : وليس كل من خالفني في شيء من هذا يكون هالكًا ؛ فإن المنازع قد يكون مجتهدًا مخطئًا يغفر اللّه خطاياه ، وقد لا يكون بلغه في ذلك من العلم ما تقوم عليه الحجة ، وقد يكون له من الحسنات ما يمحو اللّه به سيئاته ، وإذا كانت ألفاظ الوعيد المتناولة لا يجب أن يدخلَ فيها المتأول والقانت وذو الحسنات الماحية ، والمغفور له ، وغير ذلك فهذا أولى ، بل موجب الكلام أن من اعتقد ذلك نجا في هذا الاعتقاد ، ومن اعتقد ضده فقد يكون ناجيًا وقد لا يكون ناجيًا ، كما يقال : من صمت نجا ، وهي الإيمان باللّه ... إلخ .

---

(١) صحيح ابن حبان (٦٧١٤) . وأخرجه مسلم (١٩٢٠) بنحوه .

هذه الأصول الستة هي أركان الإيمان ؛ قال تعالى : ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ . وقال : ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ . وقال : ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ . وفي حديث جبريل المشهور حين سأل النبي ﷺ عن الإيمان : « الإيمان أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر ؛ خيره وشره »[1] .

وهذه الأركان العظيمة قد اتفقت عليها الرسل والشرائع ، ونزلت بها الكتب وآمن بها جميع المسلمين ، ولم يجحد شيئًا منها إلا من خرج عن دائرة الإيمان وصار من الكافرين .

والإيمان بالله معناه الاعتقاد الجازم أن الله رب كل شيء ومليكه وأنه الخالق وحده ، وأنه الذي يستحق أن يفرد بالعبادة والذل والخضوع وجميع أنواع العبادة وأنه المتصف بصفات العظمة ، والكمال ، المنزه عن كل سوء ونقص .

والإيمان بالملائكة الاعتقاد الجازم بأنهم موجودون ، قائمون بوظائفهم التي كلفهم الله بها ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، كما تواترت بذلك النصوص من القرآن والسنة « فكل حركة في السماوات والأرض من حركات الأفلاك والنجوم والشمس والقمر والرياح والسحاب والنبات والحيوان ، فهي ناشئة عن الملائكة الموكلين بالسماوات والأرض كما قال تعالى : ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ ، ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ . وهي الملائكة عند أهل الإيمان واتباع الرسل ، وأما المكذبون للرسل المنكرون للصانع فيقولون : هي النجوم . وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة وأنها موكلة بأصناف المخلوقات ، وأنه سبحانه وكل بالجبال ملائكة ، ووكل بالسحاب والمطر ملائكة ، ووكل بالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها ، ثم وكل بالعبد ملائكة لحفظه وما يعمله وإحصائه وكتابته ، ووكل بالموت ملائكة ، ووكل بالسؤال في القبر ملائكة ، ووكل بالأفلاك ملائكة يحركونها ، ووكل بالشمس والقمر ملائكة ، ووكل بالنار وإيقادها وتعذيب أهلها وعمارتها ملائكة ، ووكل بالجنة وغراسها وعمل الأنهار فيها ملائكة ، فالملائكة أعظم جنود الله ، ولفظ الملك يشعر بأنه رسول منفذ لأمر غيره ، فليس لهم من الأمر شيء ، بل الأمر كله لله الواحد القهار ، يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون . اهـ .

وكتبه فيجب الإيمان بكتب الله المنزلة من السماء على الأنبياء ، ما علمنا من ذلك كالتوراة والإنجيل والزبور والقرآن ، وما لم نعلم .

---

(١) مسلم (٣٧/١) من حديث ابن عمر ، عن أبيه ، رضي الله عنهما .

قال الحافظ : والإيمان بكتب الله التصديق بأنها كلام الله وأن ما تضمنه حق . اهـ .

ويجب مع الإيمان بالقرآن وأنه منزل من عند الله تكلم الله به ، كما تكلم بالكتب المنزلة على الأنبياء ، يجب مع هذا كله اتباع ما فيه من أوامر واجتناب ما فيه من زواجر .

ورسله فيجب التصديق بهم والإيمان بأنبياء الله ورسله من أولهم إلى آخرهم ، قال في شرح الطحاوية : وأما الأنبياء والمرسلون فعلينا الإيمان بمن سمي الله في كتابه من رسله ، والإيمان بأن الله أرسل رسلًا سواهم وأنبياء لا يعلم عددهم وأسماءهم إلا الله تعالى الذي أرسلهم ، فعلينا الإيمان بهم جملة ؛ لأنه لم يأت في عددهم نص ، وقد قال تعالى : ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ . وعلينا الإيمان بأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به على ما أمرهم الله به ، وبينوه بيانًا لا يسع أحدًا ممن أرسلوا له جهله ولا يحل خلافه ، قال تعالى : ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ . وأما أولوا العزم من الرسل فقد قيل فيهم أقوال ، أحسنها ما نقله البغوي وغيره عن ابن عباس وقتادة : أنهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، وهم المذكورون في قوله تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾ الآية ، وأما الإيمان بمحمد ﷺ فتصديقه واتباع ما جاء به من الشرائع إجمالًا وتفصيلًا . اهـ .

والبعث بعد الموت ، هو الإيمان بأن هناك دارًا آخرة يجازى فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، ويغفر الله ما دون الشرك لمن يشاء .

وقد كان المشركون الأولون ينكرون البعث ، ويقولون : ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمعبوثين ، وقد رد الله عليهم وكذبهم في زعمهم الباطل ، وبين أن من كان قادرًا على إيجادهم من العدم ، إذ أخرجهم لهذه الدنيا ، ولم يكونوا شيئًا هو كذلك قادر على إعادتهم مرة أخرى بطريق الأولى . قال تعالى : ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ . وقال : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ الآيات .

والإيمان بالبعث : أحد أركان الإيمان ، والصحيح : أنه مما دل عليه العقل مع الشرع ، قال الحافظ : ومناسبة الترتيب المذكور وإن كانت الواو لا ترتب ، بل المراد من التقديم أن الخير والرحمة

من اللّه ، ومن أعظم رحمته أن أنزل كتبه إلى عباده والمتلقي لذلك منهم الأنبياء والواسطة بين اللّه وبينهم الملائكة . اهـ .

وقال أيضًا : وقدم الملائكة على الكتب والرسل ؛ نظرًا للترتيب الواقع ؛ لأنه سبحانه أرسل الملك بالكتاب إلى الرسول قال : وليس فيه متمسك لمن فضل الملك على الرسول (قلت) : ومسألة تفضيل الملك على الرسول أو بالعكس مسألة لا طائل تحتها .

« وأصل البعث إثارة الشيء عن جفاء وتحريك عن سكون ، والمراد هنا إحياء الأموات وخروجهم من قبورهم ونحوها إلى حكم يوم القيامة » .

قوله : « والإيمان بالقدر خيره وشره » : وقد دل على إثبات القدر الكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح ، وخالف في ذلك القدرية النفاة ، وقد أنكر السلف عليهم أشد الإنكار لما أظهروا بدعتهم وسموهم مجوس هذه الأمة .

قال ابن عمر وقد قيل له : إن قومًا يقولون : لا قدر : إني منهم بريء وإنهم مني براء ، والذي يحلف به عبد اللّه بن عمر لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبًا ثم أنفقه في سبيل اللّه ما قبله اللّه منه حتى يؤمن بالقدر ، ثم ذكر حديث سؤال جبريل للنبي ﷺ وفيه : « تؤمن بالقدر خيره وشره »[1] ، وقال ابن عباس : الإيمان بالقدر نظام التوحيد ، فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده .

« والقدر » مصدر نقول : قدرت الشيء بتخفيف الدال وفتحها أقدره بالكسر والفتح قَدَرًا وقَدْرًا إذا أحطت بمقداره ، والمراد أن اللّه تعالى علم مقادير الأشياء وأزمانها قبل إيجادها ، ثم أوجد ما سبق في علمه أنه يوجد .

فكل محدث صادر عن علمه وقدرته وإرادته ، هذا هو المعلوم من الدين بالبراهين القطيعة ، وعليه كان السلف من الصحابة وخيار التابعين إلى أن حدثت بدعة القدر في أواخر زمن الصحابة .

فهذه أركان الإيمان الستة ، آمن بها حقيقة الإيمان اتباع الرسل .

وأما أعداؤهم ومن سلك سبيلهم من الفلاسفة ، وأهل البدع فهم متفاوتون في جحدها وإنكارها ، وأعظم الناس لها إنكارً هم الفلاسفة المسمون عند من يعظمهم بالحكماء ، فإن من علم حقيقة قولهم علم أنهم لا يؤمنون باللّه ولا رسله ولا كتبه ولا ملائكته ولا باليوم الآخر ، فإن مذهبهم أن اللّه سبحانه موجود لا ماهية له ، ولا حقيقة فلا يعلم الجزئيات بأعيانها ، وكل موجود في الخارج فهو جزئي ولا يفعل عندهم بقدرته ومشيئته ، وإنما العالم عندهم لازم له أزلًا وأبدًا ، وإن سموه مفعولًا له فمصانعة

---

(١) مسلم في صحيحه (٨) من حديث يحيى بن يعمر عن عبد اللّه بن عمر ﷺ .

ومصالحة للمسلمين في اللفظ ، وليس عندهم بمفعول ولا مخلوق ولا مقدور عليه وينفون عنه سمعه وبصره وسائر صفاته فهذا إيمانهم بالله ، وأما كتبه عندهم فإنهم لا يصفونه بالكلام فلا يكلم ولا يتكلم ولا قال ولا يقول ، والقرآن عندهم فيض فاض من العقل الفعال على قلب بشر زاكي النفس طاهر متميز من النوع الإنساني بثلاث خصائص : قوة الإدراك وسرعته لينال العلم أعظم مما يناله غيره ، وقوة النفس ليؤثر بها في هيولي العلم بقلب صورة إلى صورة ، وقوة التخييل ليخل بها القوي العقلية في أشكال محسوسة وهي الملائكة عندهم ، وليس في الخارج ذات منفصلة تصعد وتنزل وتذهب وتجيء وترى وتخاطب الرسول ، وإنما ذلك عندهم أمور ذهنية لا وجود لها في الأعيان .

وأما اليوم الآخر فهم أشد الناس تكذيبًا وإنكارًا له في الأعيان ، وعندهم أن هذا العالم لا يُخرب ، ولا تنشق السماوات ، ولا تنفطر ، ولا تنكدر النجوم ، ولا تكور الشمس والقمر ، ولا يقوم الناس من قبورهم ويبعثون إلى جنة ونار .

كل هذا عندهم أمثال مضروبة لتفهيم العوام لا حقيقة لها في الخارج كما يفهم منها أتباع الرسل ، فلا مبدأ عندهم ، ولا معاد ، ولا صانع ، ولا نبوة ، ولا كتب نزلت من السماء تكلَّم الله بها ، ولا ملائكة تنزلت بالوحي من الله .

وقد أبدلتها المعتزلة بأصولهم الخمسة التي هدموا بها كثيرًا من الدين ، فإنهم بنوا أصل دينهم على الجسم والعرض الذي هو الموصوف والصفة عندهم ، واحتجوا بالصفات التي هي الأعراض على حدوث الموصوف الذي هو الجسم ، وتكلموا في التوحيد على هذا الأصل .

فنفوا عن الله كل صفة تشبيها بالصفات الموجودة في الموصوفات التي هي الأجسام .

ثم تكلموا بعد ذلك في أفعاله التي هي القدر وسموا ذلك العدل .

ثم تكلموا في النبوة له والشرائع ، والأمر والنهي والوعد والوعيد وهي : مسائل الأحكام التي هي المنزلة بين المنزلتين ، ومسألة إنفاذ الوعيد ، ثم تكلموا في مسألة إلزام الغير بذلك الذي هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وضمنوه جواز الخروج على الأئمة بالقتال ، فهذه أصولهم الخمسة التي وضعوها بإزاء أصول الدين الخمسة التي بُعث بها الرسول .

والرافضة المتأخرون جعلوا الأصول أربعة : التوحيد ، والعدل ، والنبوة ، والإمامة .

وأصول أهل السنة والجماعة تابعة لما جاء به الرسول ، وقال أبو طالب المكي : أصول الإيمان سبعة : يعني هذه الخمسة ، والإيمان بالقدر والإيمان بالجنة والنار .

وهذا حق والأدلة عليه ثابتة محكمة قطعية . اهـ .

❁ قال الشيخ عبد العزيز الناصر الرشيد رحمه الله:

قوله: «الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ...»:

قوله: «الحمد»: الألف واللام للاستغراق، فجميع أنواع المحامد كلها لله- سبحانه- ملكًا واستحقاقًا، وهو لغة: الثناء بالصفات الجميلة، والأفعال الحسنة، وعرفًا: فعل ينبئ عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعمًا.

قال الشيخ تقي الدين رحمه الله: الحمد هو: ذكر صفات المحمود مع حبه وتعظيمه وإجلاله، فإن تجرد عن ذلك فهو مدح، فالفرق بينهما: أن الإخبار عن محاسن الغير إما أن يكون إخبارًا مجردًا من حب وإرادة، أو مقرونًا بحبه وإرادته، فإن كان الأول فهو مدح، وإن كان الثاني فهو الحمد.

قوله: «لله»: لفظ الجلالة علم على ذاته- سبحانه- وهو أعرف المعارف على الإطلاق.

وقال بعض العلماء: إنه الاسم الأعظم، وذكر في القرآن في (٢٣٦٠) ألفين وثلاث مائة وستين موضعًا، وهو يتناول معاني سائر الأسماء بطريق التضمن، وهو مشتق من أله يأله إذا عبد فهو إله بمعنى مألوه، أي: معبود، فالإله هو: المألوه والذي تألهه القلوب، وكونه مستحقًّا للألوهية مستلزمًا لصفات الكمال فلا يستحق أن يكون معبودًا محبوبًا لذاته إلا هو، وكل عمل لا يراد به وجهه فهو باطل، وعبادة غيره وحب غيره يوجب الفساد، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

قوله: «الذي أرسل رسوله»: أي: بعث رسوله، والرسول: إنسان ذكر أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، وأما النبي فهو مأخوذ من النبأ وهو الإخبار؛ لأنهم مخبرون عن الله، أو من النبوة وهي الرفعة؛ لارتفاع رتب الأنبياء عليهم السلام، وهو إنسان أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، فكل رسول نبي ولا ينعكس، وعدد الأنبياء عليهم السلام مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا كما جاء في حديث أبي ذر[(١)]، وقيل: لا يعرف عددهم بدليل قوله سبحانه: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨] الآية، وأما عدد الرسل فهم ثلاث مائة وثلاثة عشر، كما في الحديث المذكور.

وأولو العزم منهم خمسة، كما ذكر ذلك البغوي عن ابن عباس وغيرهم وهم: محمد، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ونوح عليهم السلام، ونظمهم بعضهم بقوله:

محمد إبراهيم موسى كليمه ... فعيسى فنوح هم أولوا العزم فاعلم

وهم في الفضل على هذا الترتيب المذكور في البيت.

---

(١) أحمد (٥/٢٦٥)، والطبراني (٨/٢١٧) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

قوله : « بالهدى » : أي : العلم النافع ، وقوله : « ودين الحقِّ » : أي : العمل الصالح .

قوله : « ليظهره » : أي : يعليه وينصره ظهورًا بالحجة والبيان ، والسيف والسنان ، حتى يظهر على مخالفيه ، وقد وقع ذلك ، فإن المسلمين جاهدوا في الله حق جهاده حتى فتح الله عليهم ، فاتسعت رقعة البلاد الإسلامية شرقًا وغربًا في مدة يسيرة مع قلة عددهم وعدتهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم من الروم والفرس والترك والبربر وغيرهم ، فقهروا الجميع حتى علت كلمة الله ، وظهر دينه على سائر الأديان ، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها في أقل من ثلاثين عامًا .

قوله : « على الدين كله » : أي : على سائر الأديان ، كما ثبت في الصحيح من حديث ثوبان أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وأن مُلك أُمتي سيبلغ ما زوى لي منها »[(١)] ، وما في هذا الحديث أخبر به الرسول ﷺ في أول الأمر وأصحابه في غاية القلة قبل فتح مكة فكان كما أخبر ، فإن ملكهم انتشر في المشرق والمغرب ما بين أرض الهند أقصى المشرق إلى بحر طنجة في المغرب حيث لا عمارة وراءه ، وذلك ما لم تملكه أمة من الأمم ، وفي حديث جابر : « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله » . أخرجاه في « الصحيحين »[(٢)] .

قوله : « وكفى بالله شهيدًا » : أي : شاهدًا أنه رسوله وهو ناصره ومعليه ، وكفى بشهادته- سبحانه- إثباتًا لصدقه وكفى بالله شهيدًا ، أي : في علمه واطلاعه على أمر محمد كفاية في صدق هذا المخبر عنه ؛ إذ لو كان مفتريًا لعاجله بالعقوبة البليغة ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ [الحاقة : ٤٤] . الآية .

ومن أسمائه- سبحانه- الشهيد ، قال الله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت : ٥٣] .

أي : أنه لا يغيب عنه شيء ، ولا يعزب عنه ، بل هو مطلع على كل شيء مشاهد له عليم بتفاصيله ، فشهد- سبحانه- لرسوله أن ما جاء به حق وصدق ، فلا يليق به- سبحانه- أن يقر من يكذب عليه أعظم الكذب ، ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه ، ثم ينصره ويؤيده ويعلي شأنه ، ويجيب دعوته ، ويظهر على دينه من الآيات والبراهين ما يعجز عن مثله قوى البشر ، وهو مع ذلك كاذب عليه ومفتر ، ومعلوم أن شهادته - سبحانه- على كل شيء واطلاعه وقدرته وحكمته وعزته وكماله يأبى ذلك أشد

---

(١) مسلم (٢٨٨٩) ، وأبو داود (٤٢٥٢) من حديث ثوبان رضي الله عنه .

(٢) البخاري (٣١٢٠) ، ومسلم (٢٩١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الإباء ، ومن جوز ذلك فهو من أبعد الناس عن معرفته سبحانه ، انتهى من كلام ابن القيم - رحمه الله سبحانه وتعالى- باختصار .

قوله : « وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقرارًا به وتوحيدًا ...» :

قوله : « وأشهد » ؛ أي : أقر وأعترف أن لا معبود بحق في الوجود إلا الله ، وتأتي « شهد » بمعنى : أخبر ، كما في حديث ابن عباس : « شهد عندي رجال مرضيون وأرضاهم عندي عمر »[1] ، أي : أخبرني ، وتأتي بمعنى حضر ، كما في قوله سبحانه : ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥] أي : حضر ، وتأتي بمعنى : اطلع ، كما في قوله سبحانه : ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦] أي : مطلع . أفاده ابن القيم رحمه الله في كتابه « بدائع الفوائد » .

قوله : « أن لا إله إلا الله » : أن مخففه من الثقلية .

قوله : « لا إله إلا الله » : أي : لا معبود بحق في الوجود إلا الله سبحانه ، وهذا معنى هذه الكلمة العظيمة التي تدل عليه الأدلة ، خلافًا لمن زعم أن معناها : القدرة على الاختراع ، كما يقوله الأشاعرة ، فإن المشركين الذين بعث إليهم الرسول ﷺ يقرون بأن الله هو الخالق الرزاق ، المحيي المميت ، المدبر لجميع الأمر ؛ ولم يدخلهم ذلك في الإسلام ، بل قاتلهم رسول الله ﷺ واستحل دماءهم وأموالهم ، ولما قال لهم رسول الله : « اعبدوا الله واتركوا ما كان يعبد آباؤكم ، قولوا : لا إله إلا الله . أنكروا ذلك ونفروا ، وقالوا : أجعل الآلهة إلها واحدا »[2] ، فدل على أن معنى هذه الكلمة هو إفراد الله بالعبادة ، وترك عبادة ما سواه ، وهذه الكلمة هي أول واجب وأعظم واجب على الإطلاق ، كما في الصحيح من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن : « فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله »[3] ، وفي رواية : « إلى أن يعبدوا الله »[4] ، فدل على أن التوحيد هو أول واجب على العباد ، خلافًا لمن زعم أن أول واجب معرفة الله بالنظر أو القصد إلى النظر أو الشك ، كما هي أقوال لأهل الكلام المذموم ، فإن معرفة الله فطرية فطر الله عليها عباده ، قال تعالى : ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] ؛ أي : أفي وجوده شك ؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده مجبولة على الإقرار به ، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة ، كما قال ﷺ : « كل مولود يولد

---

(١) البخاري (٥٥٦) ، ومسلم (٨٢٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) أحمد (٢٢٧/١) ، وابن حبان (٦٦٨٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) البخاري (١٤٢٥) ، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٤) البخاري (١٣٨٩) ، والبيهقي (١٠١/٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه »[(١)].

ولهذه الكلمة ، أركان وشروط إلى غير ذلك من الأبحاث المتعلقة بهذه الكلمة العظيمة .

فأركان لا إله إلا الله اثنان : النفي ، الإثبات ، فـ « لا إله » نافيًا لجميع المعبودات ، و« إلا الله » مثبتًا العبادة للّه سبحانه ، وشروطهما سبعة : العلم ، واليقين ، والإخلاص ، والصدق ، والمحبة ، والانقياد ، والقبول ، ونظمها بعضهم بقوله :

علم يقين وإخلاص وصدقك مع محبة وانقياد والقبول لها
وزيد ثامنها الكفران منك بما غير الإله من الأوثان قد ألها

وتحقيقها : ألَّا يعبد إلا الله ، كما أن تحقيق شهادة أن محمدًا رسول الله ألَّا يعبد الله إلا بما شرع .

وحق هذه الكلمة : هو فعل الواجبات وترك المحرمات ، وأما فائدتها وثمرتها : فسعادة الدارين لمن قالها عارفًا بمعناها عاملًا بمقتضاها ، وأما مجرد النطق بها فقط فإنه لا ينفع .

قال الشيخ ابن تيمية رحمه الله : من اعتقد أنه بمجرد تلفظه بالشهادة يدخل الجنة ولا يدخل النار فهو ضال مخالف للكتاب والسنة والإجماع .

وأما فضلها : فقد تكاثرت الأحاديث في فضل هذه الكلمة ، منها : حديث عبادة بن الصامت المتفق عليه أن النبي ﷺ قال : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأن الجنة حق ، والنار حق ؛ أدخله الله الجنة على ما كان من العمل »[(٢)] ، وفي حديث أبي سعيد الخدري أن موسى عليه السلام قال : « يا رب ، علمني شيئًا أذكرك وأدعوك به ، قال : قل يا موسى : لا إله إلا الله »[(٣)] الحديث .

وفي هذا الحديث وغيره ردٌّ على من زعم أن الذكر بالاسم المفرد : « الله الله » أفضل من الذكر بالجملة المركبة ، كقوله : سبحانه الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، وهذا فاسد ؛ فإن الذكر بالاسم المفرد غير مشروع أصلًا ، ولا مفيد شيئًا ، ولا هو كلام ولا يدل على مدح ولا تعظيم ، ولا تعلق به إيمان ولا ثواب ولا دخل الذاكر به عقد الإسلام جملة ، فلو قال الكافر : « الله الله » طول عمره لم يصر بذلك مسلمًا ، فضلًا أن يكون من جملة الذكر أو يكون أفضل الأذكار ، إلى آخره ما ذكره ابن القيم رحمه الله في كتابه « سفر الهجرتين » .

---

(١) البخاري (١٣١٩) ، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) البخاري (٣٢٥٢) ، ومسلم (٢٨) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

(٣) ابن حبان (٦٢١٨) ، والحاكم (١٩٣٦) ، وأبو يعلى (١٣٩٣) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في « ضعيف الترغيب والترهيب » (٩٢٣) .

وأما نواقض « لا إله إلا اللَّه » فكثيرة جدًا ذكرها العلماء في باب حكم المرتد ، وأعظمها الشرك باللَّه .

وإما إعراب هذه الكلمة : فـ « لا » نافية للجنس تعمل عمل إن ، و« إله » اسمها مبني معها على الفتح ، وخبرها محذوف التقدير حق ، و« إلا » أداة استثناء ملغاة ، ولفظ الجلالة مرفوع على البدلية .

وأما دلالتها على التوحيد فإنها دلت على أنواع التوحيد الثلاثة ، فدلت على إثبات العبادة للَّه ونفيها عمن سواه ، كما دلت- أيضًا- على توحيد الربوبية ، فإن العاجز لا يصلح إلهًا ، ودلت على توحيد الأسماء والصفات ، فإن مسلوب الأسماء والصفات ليس بشيء ، بل هو عدم محض ، كما قال بعض العلماء : المشبه يعبد صنمًا ، والمعطل يعبد عدمًا ، والموحد يعبد إله الأرض والسماء .

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية ﷺ : وشهادة أن لا إله إلا اللَّه فيها الإلهيات وهي الأصول الثلاثة : توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات ، وهذه الأصول الثلاثة تدور عليها أديان الرسل وما أنزل إليهم ، وهي الأصول الكبار التي دلت عليها وشهدت بها العقول والفطر .

قوله : « وحده » : فيه تأكيد للإثبات ، وقوله : « لا شريك له » : تأكيد للنفي .

قال الحافظ ابن حجر ﷺ : تأكيد بعد تأكيد اهتمامًا بمقام التوحيد .

قوله : « إقرارًا به » : أي : اعترافًا ، وقوله : « وتوحيدًا » مصدر وحد يوحد توحيدًا ؛ أي : جعله وحدا ، أي : فردًا فهو بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتًا وصفاتًا وأفعالًا ، وسمي دين الإسلام توحيدًا ؛ لأن مبناه على أن اللَّه واحد في ملكه وأفعاله ، وواحد في ذاته وصفاته لا نظير له ، وواحد في ألوهيته وعبادته لا ند له ، وإلى هذه الأنواع الثلاثة ينقسم توحيد الأنبياء والمرسلين ، وهذه الثلاثة متلازمة ، كل نوع منها لا ينفك عن الآخر .

فتوحيد الربوبية : هو الإقرار بأن اللَّه هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر لجميع الأمور ، وهذا النوع من التوحيد أقر به المشركون ولم يدخلهم إقرارهم به في الإسلام .

النوع الثاني : توحيد الألوهية : وهو إفراد اللَّه بالعبادة ، وهذا النوع هو الذي فيه الخصومة بين الأنبياء وأممهم .

النوع الثالث : توحيد الأسماء والصفات : وهو أن يوصف اللَّه بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، وإن شئت قلت : التوحيد ينقسم إلى قسمين كما ذكره ابن القيم في « النونية » :

أحدهما : التوحيد الفعلي وهي المسمى بتوحيد الألوهية ، سمي فعليًا ؛ لأنه متضمن لأفعال القلوب والجوارح ، فأفعال القلوب ، كالرجاء والخوف والمحبة ، والجوارح ، كالصلاة والزكاة

والحج ونحو ذلك ، فهو إفراد الله بأفعال العبيد .

النوع الثاني : التوحيد القولي الاعتقادي ؛ سمي بذلك لاشتماله على أقوال القلوب وهو اعترافها واعتقادها ، وعلى أقوال اللسان ، وهذا النوع هو المسمى : توحيد الأسماء والصفات وتوحيد الربوبية .

والتوحيد القولي ينقسم إلى قسمين :

الأول : النفي .

والثاني : الإثبات .

فالنفي ينقسم إلى قسمين :

الأول : نفي النقائص والعيوب عن الله .

والثاني : نفي التشبيه والتعطيل عن أسمائه وصفاته .

والثاني : الإثبات : وهو إثبات صفات الكمال لله ، ثم السلب- أيضًا- ينقسم إلى قسمين :

الأول : سلب متصل .

والثاني : سلب منفصل ، فالأول نفي ما يناقض ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله من كل ما يضاد الصفات الكاملة من النقائص والعيوب ، كالموت ، والإعياء ، والنوم ، والنعاس ، والجهل ، والعجز ، ونحو ذلك ، والثاني سلب منفصل وهو تنزيهه- سبحانه- عن أن يشاركه في خصائصه التي لا تكون لغيره ، كالشريك والظهير والشفيع بغير إذنه ، ونفي الزوجة والولد ونحو ذلك .

وأما ضد التوحيد : فتوحيد الربوبية ضده اعتقاد مدبر أو خالق مع الله سبحانه وتعالى ، وضد توحيد الألوهية هو الإعراض عن عبادته ، أو عبادة غيره معه ، وضد توحيد الأسماء والصفات شيئان : التشبيه ، والتعطيل .

قوله : « محمد » : هذا أحد أسمائه ﷺ ، قيل : سمي به ؛ لكثرة خصاله الحميدة ، وهو اسمه الذي في التوراة ، وأما اسمه أحمد فهو الذي بشر به المسيح عليه السلام ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ الآية [الصف : ٦] .

قوله : « عبده » : أضافه إليه إضافة تشريف وتعظيم ، ووصفه بالعبودية بأشرف أحواله ؛ مقام الإرسال والإسراء والتحدي ، ومعنى العبد هنا : المملوك العابد ، والعبودية الخاصة وصفه ﷺ ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر : ٣٦] ، وأعلى مراتب العبد : العبودية الخاصة والرسالة ، والنبي ﷺ أكمل الخلق في هاتين الصفتين الشريفتين ، وأما الربوبية والألوهية فهما حق لله لا يشركه فيهما أحد ، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ، فضلًا عن غيرهما .

قوله : « عبده ورسوله » : إشارة للرد على أهل الإفراط والتفريط ، أهل الإفراط الذين غلوا فيه

ورفعوه عن منزلته ، وارتكبوا ما نهاهم النبي ﷺ من الغلو .

وأهل التفريط الذين يشهدون أن رسول الله حقًّا ، وهم مع ذلك قد نبذوا ما جاء به وراء ظهورهم ، واعتمدوا على الآراء المخالفة لما جاء به ، فإن شهادة أن محمدًا رسول الله تقتضي الإيمان به وطاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر ، فما أثبته وجب إثباته وما نفاه وجب نفيه ، فشهادة أن محمدًا رسول الله كما تقتضي الإيمان بجميع الرسل لما بينهما من التلازم ، وكذلك الكتب التي جاءت بها الرسل .

قوله : « صلى الله عليه ..» :

* صلاة الله على عبده هو ثناؤه في الملأ الأعلى كما ذكره البخاري في « صحيحه » عن أبي العالية ، وقيل : الرحمة ، والصواب الأول لوجوه عديدة ذكرها ابن القيم في « بدائع الفوائد » ، و« جلاء الأفهام » .

قوله : « وعلى آله » : أي : أتباعه على دينه ، كما هو رواية عن أحمد ، وعليه أكثر الأصحاب ، وعلى هذا فيشمل الصحابة وغيرهم من المؤمنين .

قوله : « وسلم » : السلام بمعنى : التحية أو السلامة من النقائص والرذائل ، ومن أسمائه سبحانه : السلام لسلامته من النقائص والعيوب ، كما قال ابن القيم في « النونية » :

وهو السلام على الحقيقة سالم   من كل عيب ومن نقصان

وجمع المصنف بين الصلاة والسلام امتثالاً لقوله سبحانه وتعالى : ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب : ٥٦] .

قوله : « مزيدًا » : أي : زائدًا عن الزيادة وهي النمو .

قوله : « أما بعدُ ؛ فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة ....» :

قوله : « أما بعد فهذا » : هذه الكلمة يؤتى بها للانتقال من أسلوب إلى أسلوب آخر ، ويندب الإتيان بها في الخطب والمكاتبات ، كما كان ﷺ يأتي بها في خطبه ومكاتباته ، رواه عبد القاهر الرهاوي في « الأربعين » له عن أربعين صحابيًا .

قوله : « اعتقاد » : الاعتقاد لغة : الربط والجزم ، اعتقدت كذا : عقدت عليه القلب والضمير . انتهى « مصباح » .

وعرفه بعضهم اصطلاحًا بقوله : هو حكم الذهن الجازم ؛ فإن طابق فصحيح ، وإلا ففاسد .

قوله : « الفرقة » : أي : الطائفة والجماعة ، وأما الفرقة بالضم فمعناه : الافتراق .

قوله : « الناجية » : أي : التي سلمت من الهلاك والشرور في الدنيا والآخرة ، وحصلت على السعادة بسبب استقامتها على الحق وتمسكها بما كان عليه ﷺ وأصحابه ، كما في حديث أبي

هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة »[1] ، رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه ، وحديث ابن ماجه مختصر ، وقال الترمذي : حسن صحيح . وعن معاوية ﷺ أنه قال : ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال : « أن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة ، وإن الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ؛ اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة »[2] ، رواه أبو داود ، وفي رواية الترمذي : « كلهم في النار إلا واحدة » . قالوا : من هي يا رسول الله ؟ فقال : « من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي »[3] ، وقال : هذا حديث غريب مفسر لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

وقد أخطأ بعضهم في تعريف الفرقة الناجية أنها أهل الحديث والأشعرية والماتريدية ، فإن لفظ الحديث يرد ذلك ، فإن قوله : « واحدة » ينافي التعدد ، فتعين أن تكون الفرقة الناجية هم أهل الحديث فقط وهم أهل السنة والجماعة .

قوله : « المنصورة » : أي : التي أعانها- سبحانه- وأيدها وقواها على من خالفها وعادها ، وجعل العاقبة لها لتمسكها بما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه ، كما في الصحيح من حديث المغيرة عن النبي ﷺ قال : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون »[4] ، وفي حديث جابر بن سمرة ، وجابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال : « لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة »[5] ، رواه مسلم وغيره .

قال البخاري وغيره : هذه الطائفة هم أهل العلم ، وقال أحمد : إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم ، وكذا قال يزيد بن هارون قال : قال القاضي عياض : إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة ، ومن يعتقد مذهب أهل الحديث .

ففيه أعظم بشارة- أن الحق لا يزول بالكلية- وفيه معجزة ظاهرة للنبي ﷺ ، فإنه لم يزل ولله

---

(١) أبو داود (٤٥٩٦) ، والترمذي (٢٦٤٠) ، وابن ماجه (٣٩٩١) ، وابن حبان (٦٢٤٧) ، والحاكم (١٠ ، ٤٤١) من حديث أبي هريرة ﷺ ، وصححه الألباني في « الصحيحة » (٢٠٣) .

(٢) أخرجه أبو داود (٤٥٩٧) ، والدارمي (٢٥١٨) من حديث معاوية ﷺ ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٢٦٤١) .

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٤١) ، وأبو نعيم في الحلية (٩/٢٤٢) من حديث ابن عمرو ﷺ ، وضعفه الألباني في « مشكاة المصابيح » (١٧١) .

(٤) أخرجه البخاري (٦٨٨١) ، ومسلم (١٩٢١/١٧١) من حديث المغيرة ﷺ .

(٥) مسلم (١٩٢٢) من حديث جابر بن سمرة ، و(١٩٢٣) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ .

الحمد هذا الوصف باقيًا ولا يزال، وهذه سنة الله في خلقه أنه ينصر عباده المؤمنين، كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣]، وفي «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: من عادى لي وليًا فقد بارزني بالحرب»[١]. ولهذا أهلك الله قوم نوح وعاد وثمود وأشباههم ممن كذب الرسل وأنجى عباده المؤمنين، وهكذا نصر الله نبيه محمد وأصحابه على من خالفه وناوأه وعاداه، فجعل كلمته العليا، ودينه الظاهر على سائر الأديان، وفتح الله عليه مكة واليمن، ودانت له جزيرة العرب بكمالها، وأقام الله أصحابه وخلفاؤه من بعده فبلغوا عنه دين الله، ودعوا إلى الله وفتحوا البلاد والأقاليم حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها، ثم لا يزال هذا الدين قائمًا منصورًا إلى قيام الساعة، كما قال الله سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]. أي: يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأجل.

وعن أبي عتبة الخولاني قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسًا يستعملهم في طاعته»[٢] رواه ابن ماجه.

نقل نعيم بن طريف رحمه الله عن أحمد أنه قال: هم أصحاب الحديث، وفي السنن: «إن الله يبعث لهذه الأمة في رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[٣]، وقال علي رضي الله عنه: لن تخلو الأرض من قائم لله بحجته.

قوله: «إلى قيام الساعة»: أي ساعة موتهم بمجيء الريح التي تقبض روح كل مؤمن، وهي الساعة في حق المؤمنين وإلا فالساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق كما في «صحيح مسلم»: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله»[٤]. والمراد بالريح ما روى الحاكم أن عبد الله بن عمرو قال: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، هم شر أهل الجاهلية»[٥]. وقال عقبة لعبد الله: أعلم ما تقول، وأما أنا فسمعت النبي يقول: «لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله ظاهرين لا يضرهم

---

(١) البخاري (٦١٣٧)، وابن حبان (٣٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ابن ماجه (٨)، وأحمد (٤/٢٠٠)، وابن حبان (٣٢٦) من حديث أبي عتبة الخولاني، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٦٩٢).

(٣) أبو داود (٤٢٩١)، والحاكم (٨٥٩٢)، والطبراني في الأوسط (٦٥٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٨٧٤).

(٤) مسلم (١٤٨/٢٣٤)، وأحمد (٣/١٠٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٥) مسلم (١٩٢٤)، وابن حبان (٦٨٣٦) من حديث ابن عمرو رضي الله عنه.

من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك »[١]، قال عبد الله : ويبعث الله ريحًا ريحها ريح المسك ومسها مس الحرير ، فلا تترك أحدًا في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته ، ثم يبقى شرار الناس فعليهم تقوم الساعة .

قوله : « أهل السنة » : أي المختصون والمتمسكون بها والمعتنون بدراستها وفهمها المحكمون لها في القليل والكثير ، والسنة لغة : الطريقة ، وشرعًا : هي أقوال النبي وأفعاله وتقديراته ، وسموا أهل السنة لانتسابهم لسنته ﷺ دون المقالات كلها والمذاهب ، وقد سئل بعضهم عن السنة فقال : ما لا اسم له سوى السنة ، يعني : أن أهل السنة ليس لهم اسم ينتسبون إليه سواها خلافًا لأهل البدع ، فإنهم تارة ينتسبون إلى المقالة كالقدرية والمرجئة ، وتارة إلى القائل كالجهمية والنجارية ، وتارة إلى الفعل كالروافض والخوارج ، وأهل السنة بريئون من هذه النسب كلها ، وإنما نسبتهم إلى الحديث والسنة .

قوله : « والجماعة » : لغة : الفرقة من الناس ، والمراد بهم هنا أصحاب النبي ﷺ ومن تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة ، وقد تكاثرت الأدلة في الحث على لزوم الجماعة ؛ فروى الترمذي عن ابن عباس مرفوعًا : « إن يد الله على الجماعة »[٢]. وعن أبي ذر مرفوعًا : « عليكم بالجماعة ، إن الله لم يجمع أمتي إلا على هدى »[٣]. رواه أحمد ، وعن أبي ذر مرفوعًا : « من فارق الجماعة شبرًا فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه »[٤] رواه أحمد وأبو داود .

قال أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة في كتاب « الباعث على إنكار البدع والحوادث » : حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة ، فإن المراد بها لزوم الحق ، وإن كان المتمسك به قليلًا والمخالف له كثيرًا ؛ لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي ﷺ ، ولا نظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم ، وقال ميمون بن مهران : قال ابن مسعود رضي الله عنه : الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك ، وقال نعيم بن حماد : إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد ، وإن كنت وحدك فإنك أنت الجماعة حينئذ . ذكره البيهقي وغيره .

قال ابن القيم في كتابه « أعلام الموقعين » : « واعلم أن الإجماع والحجة والسواد الأعظم هو العالم صاحب الحق وإن كان وحده ، وإن خالفه أهل الأرض ، وقد شذ الناس كلهم زمن الإمام

---

(١) مسلم (١٧٦/١٩٢٤) ، والحاكم (٨٤٠٩) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه .

(٢) الترمذي (٢١٦٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٨٠٦٥) .

(٣) أحمد (١٤٥/٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه ، قال الألباني في « ضعيف الجامع » (١٣٦) : موضوع .

(٤) أبو داود (٤٧٥٨) ، وأحمد (١٨٠/٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٦٤١٠) .

أحمد بن حنبل إلا نفرًا يسيرًا فكانوا هم الجماعة ، وكان الفقهاء والمفتون والخليفة وأتباعه هم الشاذين ، وكان الإمام أحمد وحده هو الجماعة ، ولما لم يتحمل هذا عقول الناس قالوا للخليفة : يا أمير المؤمنين تكون أنت وقضاتك وولاتك والفقهاء والمفتون كلهم على الباطل ، وأحمد وحده على الحق ، فلم يتسع علمه لذلك ، فأخذه بالسياط والعقوبة بعد الحبس الطويل ، فلا إله إلا الله ما أشبه الليلة بالبارحة وهي السبيل المهيع لأهل السنة والجماعة حتى يلقوا ربهم ، مضى عليها سلفهم وينتظرها خلفهم ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب : ٢٣] . ولا حول ولا قوة إلا بالله » . انتهى بتصرف .

ذكر المصنف رحمه الله أن الاعتقاد النافع المنجي من الشرور الذي هو سبب العزة والنصر والتأييد والرفعة والشرف ، هو الاعتقاد المأخوذ من الكتاب والسنة ، وهو الذي عليه الصحابة وتابعوهم بإحسان ، وأصله الذي ينبى عليه هو هذه الأصول الستة المذكورة في حديث جبريل(١) . في هذه الرسالة من أولها إلى آخرها تفصيل لهذه الأصول الستة المذكورة في هذا الحديث وغيره من الآيات ، قال تعالى : ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة : ٢٨٥] ، وقال : ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة : ١٧٧] الآية ، وهذه الأصول الستة اتفقت عليها الأنبياء والمرسلون عليهم السلام ، ولم يؤمن بها حقيقة الإيمان إلا أتباع الرسل ، وأما أعداؤهم ومن سلك سبيلهم من الفلاسفة وأهل البدع فهم متفاوتون في جحدها وإنكارها .

قوله : « الإيمان بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ... » :

قوله : « الإيمان بالله » : الإيمان معناه لغة : التصديق ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ﴾ [يوسف : ١٧] ، أي : مصدق ، وكذلك إذا أقرن العمل فمعناه التصديق ، قال الله : ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [الشعراء : ٢٢٧] .

أما الإيمان في الشرع : فهو قول وعمل واعتقاد ، وذكر بعضهم إجماع السلف على ذلك ، ومعنى الإيمان بالله : إثبات وجوده سبحانه ، وأنه متصف بصفات الجلال والعظمة والكمال ، منزه عن كل عيب ونقص ، وأنه مستحق للعبادة لا إله غيره ولا رب سواه .

قوله : « وملائكته » : أي : التصدق بوجودهم ، وأنهم كما وصفهم الله سبحانه وتعالى : ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء : ٢٦، ٢٧] فيجب الإيمان بهم إجمالًا فيما لم نعلمه تفصيلًا ، أما من علم عينه كجبريل وميكائيل وإسرافيل ونحوهم ، فيجب الإيمان بأعيانهم .

---

(١) مسلم (٨/١) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

أما عددهم فلا يعلمه إلا اللّٰه ، وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة ، وأنها موكلة بأصناف المخلوقات ، منهم موكلون بالسحاب والمطر ، ومنهم موكلون بالأرحام ، ومنهم موكلون بحفظ بني آدم ، ومنهم موكلون بحفظ ما يعمله وإحصائه وكتابته ، ومنهم الموكلون بالموت والسؤال في القبر ، إلى غير ذلك من أصناف الملائكة مما لا يعلمه إلا اللّٰه ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر : ٣١] ، ومما تقدم يعلم بطلان قول من قال : إن الملائكة لا عقول لهم ، فقد تقدم أن منهم السفراء بين اللّٰه ورسله ، والموكلين بأصناف المخلوقات ، إلى غير ذلك مما تواترت به الأدلة من صفاتهم وما كلفهم اللّٰه به ، وما جاءت به الأدلة من عبادتهم العظيمة وخوفهم من اللّٰه سبحانه وتعالى ، فهل يصدق عاقل أو من شم رائحة الإيمان بما زعمه هذا السفيه ، لا شك أن هذا قول باطل مصادم لأدلة الكتاب والسنة .

قوله : « وكتبه » : أي : التصديق بأنها كلام اللّٰه ، وأنها حق ونور وهدى ، فيجب الإيمان بما سمى اللّٰه منها من التوراة والإنجيل والزبور ، ونؤمن بأن للّٰه سوى ذلك كتبًا أنزلها على أنبيائه لا يعرف أسمائها وعددها إلا اللّٰه سبحانه وتعالى قال تعالى : ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن﴾ الآية [البقرة : ٢٨٥] ، وغيرها من الآيات الدالة على أن اللّٰه تكلم بها حقًّا ، وأنها أنزلت من عنده ، وفي ذلك إثبات صفة الكلام والعلو ، أما الإيمان بالقرآن فالإقرار به واتباع ما فيه ، وذلك أمر زائد على الإيمان بغيره من الكتب .

قوله : « ورسله » : أي : التصديق بأنهم صادقون فيما أخبروا به ، وأنهم بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة ، وأنهم بينوا ما لا يسع أحدًا ممن أرسلوا إليهم جهله ولا يحل خلافه ، وأنه يجب احترامهم ، وألَّا يفرق بينهم فيجب الإيمان بمن سمى اللّٰه في كتابه من رسله ، وأن للّٰه رسلًا غيرهم وأنبياء لا يعلم عددهم إلا اللّٰه ، فعلينا الإيمان بهم جملة ؛ لأنه لم يأت نص صحيح في عددهم ، وقد قال اللّٰه تعالى : ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء : ١٦٤] الآية ، وقد سبق الكلام في هذا الموضوع .

فيجب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين وتصديقهم بكل ما أخبروا به من الغيب وطاعتهم في كل ما أمروا به ونهوا عنه ، قال تعالى : ﴿قُولُوٓا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة : ١٣٦] .

قال ابن رجب ؒ : والإيمان بالرسل يلزم منه الإيمان بجميع ما أخبروا به من الملائكة والأنبياء والكتب والبعث والقدر ، وغير ذلك من صفات اللّٰه وصفات اليوم الآخر ، كالصراط

والميزان ، والجنة والنار ونحو ذلك .

وأفضل الخلق على الإطلاق نبينا ﷺ ، والأفضل بعده أولوا العزم من الرسل ، ثم بقية الرسل ، ثم الأنبياء ، ولا يبلغ الولي مهما بلغ من الجد والاجتهاد في طاعة الله درجة الأنبياء عليهم السلام ، وقد شنع الشيخ تقي الدين رحمه الله على من يزعم ذلك ورد عليه أسوأ رد ، وقال : إن ذلك مخالف لدين الإسلام واليهود والنصارى .

وأما الكلام على قوله : « والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر » فسيأتي إن شاء الله .

قال الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله :

قوله : « الفرقة الناجية : أهل السنة والجماعة في الأسماء والصفات » :

* هو إثبات ما جاء في القرآن العظيم والسنة الصحيحة ، من أسماء الله وصفاته ، على الوجه اللائق بجلال الله ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ؛ عملًا بقول الله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] ، فنفى عن نفسه المماثلة ، وأثبت السمع والبصر ، فدل ذلك على أن مراده : سمع وبصر لا يمثلان أسماع الخلق وأبصارهم . اهـ .

قال الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله :

قوله : « بسم الله الرحمن الرحيم » :

البداءة بالبسملة هى شأن جميع المؤلفين ؛ اقتداء بكتاب الله ؛ حيث أنزل البسملة فى ابتداء كل سورة واستنادًا إلى سنة الرسول ﷺ .

وإعراب البسملة ومعناها تكلم فيه الناس كثيرًا ، وفى متعلقها ، وأحسن ما يقال فى ذلك : أنها متعلقة بفعل محذوف متأخر مناسب للمقام ؛ فإذا قدمتها بين يدى الأكل ؛ يكون التقدير : باسم الله آكل ، وبين يدى القراءة يكون التقدير : باسم الله أقرأ .

نقدره فعلا ؛ لأن الأصل فى العمل الأفعال لا الأسماء ، ولهذا كانت الأفعال تعمل بلا شرط ، والأسماء لا تعمل إلا بشرط ؛ لأن العمل أصل فى الأفعال ، فرع فى الأسماء .

ونقدّره متأخرًا لفائدتين :

الأولى : الحصر ؛ لأن تقديم المعمول يفيد الحصر ، فيكون : باسم الله أقرأ ؛ بمنزلة : لا أقرأ إلا باسم الله . الثانية : تيمنًا بالبداءة باسم الله سبحانه وتعالى .

ونقدره خاصًا ؛ لأن الخاص أدل على المقصود من العام ، إذ من الممكن أن أقول : التقدير : باسم الله أبتدئ ، لكن (باسم الله أبتدئ) لا تدل على تعيين المقصود ، لكن (باسم الله أقرأ) خاص ، والخاص أدل على المعنى عن العام .

قوله : « الله » : علم على نفس الله ﷻ ، ولا يُسمى به غيره ومعناه : المألوه ؛ أى : المعبود محبة وتعظيمًا وهو مشتق على القول الراجح لقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ ﴾ [الأنعام : ٣] ؛ فإن ﴿ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ متعلق بلفظ الجلالة ، يعنى : وهو المألوه فى السماوات وفى الأرض .

قوله: « الرحمن » : فهو ذو الرحمة الواسعة ؛ لأن (فعلان) فى اللغة العربية تدل على السعة والامتلاء ؛ كما يقال : رجل غضبان : إذا امتلأ غضبًا .

قوله: « الرحيم » : اسم يدل على الفعل ؛ لأنه فعيل بمعنى فاعل فهو دال على الفعل .

فيجتمع من « الرحمن الرحيم » : أن رحمة الله واسعة وأنها واصلة إلى الخلق . وهذا هو ما أومأ إليه بعضهم بقوله : الرحمن رحمة عامة ، والرحيم رحمة خاصة بالمؤمنين ، ولما كانت رحمة الله للكافر رحمة خاصة فى الدنيا فقط فكأنها لا رحمة لهم ؛ لأنهم فى الآخرة يقول تعالى لهم إذا سألوا الله أن يخرجهم من النار وتوسلوا إلى الله تعالى بربوبيته واعترافهم على أنفسهم : ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون : ١٠٧] ؛ فلا تدركهم الرحمة ، بل يدركهم العدل ، فيقول الله ﷻ لهم : ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون : ١٠٨] .

قوله : « الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق » :

الله تعالى يحمد على كماله ﷻ وعلى إنعامه ؛ فنحن نحمد الله ﷻ ؛ لأنه كامل الصفات من كل وجه ، ونحمده أيضًا لأنه كامل الإنعام والإحسان ، [قال تعالى] : ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾ [النحل : ٥٣] ، وأكبر نعمة أنعم الله بها على الخلق إرسال الرسل ، الذى به هداية الخلق .

ولهذا يقول المؤلف : « الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق » .

والمراد بالرسول هنا الجنس ؛ فإن جميع الرسل أرسلوا بالهدى ودين الحق ، ولكن الذى أكمل الله به الرسالة محمد ﷺ ؛ فإنه قد ختم الله به الأنبياء ، وتم به البناء ؛ كما وصف محمد ﷺ نفسه بالنسبة للرسل ، كرجل بنى قصرًا وأتمه ؛ إلا موضع لبنة ، فكان الناس يأتون إلى هذا القصر ويتعجبون منه ؛ إلا موضع هذه اللبنة ؛ يقول : « فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين »[1] . عليه الصلاة والسلام .

« بالهدى » : الباء هنا للمصاحبة ، والهدى هو العلم النافع ويحتمل أن تكون الباء للتعدية ، أى : إن المرسل به هو الهدى ودين الحق .

« ودين الحق » : هو العمل الصالح ؛ لأن الدين هو العمل أو الجزاء على العمل ؛ فمن إطلاقه على

---

(١) أخرجه البخارى (٣٥٣٥) ، ومسلم (٢٢٨٦) .

العمل : قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران : ١٩] ، ومن إطلاقه على الجزاء قوله تعالى : ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار : ١٧] . والحق ضد الباطل ، هو - أى الحق - المتضمن لجلب المصالح ودرء المفاسد فى الأحكام والأخبار .

قوله : « ليظهره على الدين كله » : اللام للتعليل ومعنى « ليظهره » ؛ أى : يعليه ؛ لأن الظهور بمعنى العلو ، ومنه : ظهر الدابة أعلاها ، ومنه : ظِهر الأرض سطحها ؛ كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر : ٤٥] .

والهاء فى « يظهره » هل هو عائد على الرسول أو على الدين ؟ إن كان عائدًا على « دين الحق » ؛ فكل مَن قاتل لدين الحق سيكون هو العالى ؛ لأن اللّه يقول : « ليظهره » ؛ يظهر هذا الدين على الدين كله ، وعلى ما لا دين له فيظهره عليهم من باب أولى ؛ لأن من لا يدين أخبث ممن يدين بباطل ؛ فإذن : كل الأديان التى يزعم أهلها أنهم على حق سيكون دين الإسلام عليها ظاهرًا ، ومَن سواهم من باب أولى .

وإن كان عائدًا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ فإنما يظهر اللّه رسوله ؛ لأن معه دين الحق .

وعلى كلا التقديرين ؛ فإن من تمسك بهذا الدين الحق ؛ فهو الظاهر العالى ، ومن ابتغى العزة فى غيره ؛ فقد ابتغى الذلّ ؛ لأنه لا ظهور ولا عزة ولا كرامة إلا بالدين الحق ، ولهذا أنا أدعوكم معشر الإخوة إلى التمسك بدين اللّه ظاهرًا وباطنًا فى العبادة والسلوك والأخلاق ، وفى الدعوة إليه ، حتى تقوم الملة وتستقيم الأمة .

قوله : ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ . يقول أهل اللغة : إن الباء هنا زائدة ، لتحسين اللفظ والمبالغة فى الكفاية ، وأصلها : « وكفى اللّه » .

و« شهيدًا » : تمييز محول عن الفاعل ؛ لأن أصلها « وكفت شهادة اللّه » - المؤلف جاء بالآية - ولو قال قائل : ما مناسبة ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ ؛ لقوله : ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ؟

قيل : المناسبة ظاهرة ؛ لأن هذا النبى عليه الصلاة والسلام جاء يدعو الناس ويقول : « من أطاعنى دخل الجنة ، ومن عصانى دخل النار »[(١)] . ويقول بلسان الحال : من أطاعنى سالمته ، ومن عصانى حاربته ويحارب الناس بهذا الدين ، ويستبيح دماءهم وأموالهم ونساءهم وذريتهم ، وهو فى ذلك منصور مؤزر غالب غير مغلوب ؛ فهذا التمكين له فى الأرض ؛ أى تمكين اللّه لرسوله فى الأرض : شهادة من اللّه ﷻ فِعْلية بأنه صادق وأن دينه حق ؛ لأن كل من افترى على اللّه كذبًا فمآله الخذلان

(١) أخرجه البخارى (٧٢٨٠) .

والزوال والعدم ، وانظر إلى الذين ادَّعوا النبوة ماذا كان مآلهم ؟ أن نسوا وأهلكوا ؛ كمسيلمة الكذاب ، والأسود العنسي . . .. وغيرهما ممن ادعوا النبوة ، كلهم تلاشوا وبان بطلان قولهم ، وحُرموا الصواب والسداد لكن هذا النبي محمدًا ﷺ على العكس دعوته إلى الآن ، والحمد لله ، باقية – ونسأل الله أن يثبتنا وإياكم عليها – وإلى أن تقوم الساعة ثابتة راسخة ، يستباح بدعوته إلى اليوم دماء من ناوأها من الكفار وأموالهم ، وتسبى نساؤهم وذريتهم ، هذه الشهادة فِعْلية ، ما أخذه الله ولا فضحه ولا كذبه ، ولهذا جاءت بعد قوله : ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ .

قوله : (وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إقرارًا به وتوحيدًا) :

« أشهد » ؛ بمعنى : أقر بقلبي ناطقًا بلساني ؛ لأن الشهادة نطق وإخبار عما في القلب ؛ فأنت عند القاضي تشهد بحق فلان على فلان ؛ تشهد باللسان المعبر عما في القلب واختيرت الشهادة دون الإقرار ؛ لأن الشهادة أصلها من شهَود الشيء ؛ أي : حضوره ورؤيته ؛ فكأن هذا المخبر عما في قلبه الناطق بلسانه ؛ كأنه يشاهد الأمر بعينه .

« لا إله إلا الله » ؛ أي : لا معبود حق إلا الله ، وعلى هذا يكون خبر لا محذوفا ، ولفظ الجلالة بدلًا منه .

« وحده » هي من حيث المعنى توكيد للإثبات .

« لا شريك له » : توكيد للنفي .

« إقرارًا به » : « إقرارًا » هذه مصدر ، وإن شئت ؛ فقل : إنه مفعول مطلق ؛ لأنه مصدر معنوى لقوله : « أشهد » ، وأهل النحو يقولون : إذا كان المصدر بمعنى الفعل دون حروفه ؛ فهو مصدر معنوى ، أو مفعول مطلق ، وإذا كان بمعناه وحروفه ؛ فهو مصدر لفظي فـ : قمت قيامًا : مصدر لفظي ، و : قمت وقوفًا : مصدر معنوى ، و : جلست جلوسًا : لفظي ، و : جلست قعودًا : معنوى .

« وتوحيدًا » مصدر مؤكد لقوله : « لا إله إلا الله » .

قوله : (وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله) :

نقول في « أشهد » ما قلنا في « أشهد » الأولى .

محمد : هو ابن عبد الله بن عبد المطلب القرشي الهاشِمي الذى هو من سلالة إسماعيل بن إبراهيم ، أشرف الناس نسبًا ، عليه الصلاة والسلام .

هذا النبي الكريم هو عبد الله ورسوله ، وهو أعبد الناس لله ، وأشدهم تحقيقًا لعبادته ، كان عليه الصلاة والسلام يقوم في الليل حتى تتورم قدماه ويقال له : كيف تصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فيقول : « أفلا أكون عبدًا شكورًا ؟ »[1] .

(١) أخرجه البخارى (٤٨٣٦) ، ومسلم (٢٨١٩) .

لأن الله تعالى أثنى على العبد الشكور حين قال عن نوح : ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء : ٣] ، فأراد النبى عليه الصلاة والسلام أن يصل إلى هذه الغاية ، وأن يعبد الله تعالى حق عبادته ، ولهذا كان أتقى الناس ، وأخشى الناس لله ، وأشدهم رغبة فيما عند الله تعالى ؛ فهو عبد لله ، ومقتضى عبوديته أنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًا وليس له حق فى الربوبية إطلاقًا بل هو عبد محتاج إلى الله مفتقر له يسأله ويدعوه ويرجوه ويخافه ، بل إن الله أمره أن يعلن وأن يبلغ بلاغًا خاصًا بأنه لا يملك شيئًا من هذه الأمور فقال : ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ﴾ [الأعراف : ١٨٨] ، وأمره أن يقول : ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ﴾ [الأنعام : ٥٠] ، وأمره أن يقول : ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا إِلَّا بَلَٰغًا﴾ [الجن : ٢١- ٢٣] ﴿إِلَّا﴾ استثناء منقطع ؛ أى : لكن أبلغ بلاغًا من الله ورسالاته .

فالحاصل أن محمدًا صلوات الله وسلامه عليه عبد لله ، ومقتضى هذه العبودية أنه لا حق له فى شىء من شئون الربوبية إطلاقًا .

وإذا كان محمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بهذه المثابة ، فما بالك بمن دونه من عباد الله ؟ ! فإنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ، ولا لغيرهم أبدًا وبهذا يتبين سفه أولئك القوم الذين يدعون من يدعونهم أولياء من دون الله ﷻ .

قوله : « ورسوله » : هذا أيضًا وصف لا يكون لأحد بعد رسول الله ﷺ ؛ لأنه خاتم النبيين ؛ فهو رسول الله الذى بلغ مكانًا لم يبلغه أحد من البشر ، بل ولا من الملائكة فيما نعلم اللهم إلا حملة العرش ، وصل إلى ما فوق السماء السابعة ، وصل إلى موضع سمع فيه صريف أقلام القضاء[1] الذى يقضى به الله ﷻ فى خلقه ، ما وصل أحد فيما نعلم إلى هذا المستوى ، وكلمه الله ﷻ بدون واسطة ، وأرسله إلى الخلق كافة وأيده بالآيات العظيمة التى لم تكن لأحد من البشر أو الرسل قبله ، وهو هذا القرآن العظيم ؛ فإن هذا القرآن لا نظير له فى آيات الأنبياء السابقين أبدًا ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [العنكبوت : ٥٠، ٥١] ، هذا يكفى عن كل شىء ، ولكن لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، أما المُعرض ؛ فسيقول كما قال من سبقه : هذا أساطير الأولين .

الحاصل : أن محمدًا ﷺ رسول الله وخاتم النبيين ، ختم الله به النبوة والرسالة أيضًا ، لأنه إذا

---

(١) أخرجه البخارى (٣٤٩) ، ومسلم (١٦٣) .

انتفت النبوة ، وهى أعم من الرسالة ، انتفت الرسالة التى هى أخص ؛ لأن انتفاء الأعم يستلزم انتفاء الأخص ؛ فرسول الله عليه الصلاة والسلام هو خاتم النبيين .

قوله : (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا مزيدًا) :

معنى « صلى الله عليه » : أحسن ما قيل فيه ما قاله أبو العالية رحمه الله ؛ قال : « صلاة الله على رسوله : ثناؤه عليه فى الملأ الأعلى »[1] .

وأما من فسر صلاة الله عليه بالرحمة ؛ فقوله ضعيف ؛ لأن الرحمة تكون لكل أحد ، ولهذا أجمع العلماء على أنك يجوز أن تقول : فلان رحمه الله . واختلفوا ؛ هل يجوز أن تقول : فلان صلى الله عليه ؟ وهذا يدل على أن الصلاة غير الرحمة . وأيضا ؛ فقد قال الله تعالى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾ [البقرة : ١٥٧] . والعطف يقتضى المغايرة ، إذن ؛ فالصلاة أخص من الرحمة ؛ فصلاة الله على رسوله ثناؤه عليه فى الملأ الأعلى .

قوله : « وعلى آله » ، و(آله) هنا : أتباعه على دينه هذا إذا ذكرت الآل وحدها أو مع الصحب ؛ فإنها تكون بمعنى أتباعه على دينه منذ بعث إلى يوم القيامة ويدل على أن الآل بمعنى الأتباع على الدين قوله تعالى فى آل فرعون : ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر : ٤٦] ؛ أى : أتباعه على دينه .

أما إذا قرنت بالأتباع ؛ فقيل : آله وأتباعه ، فالآل هم المؤمنون من آل البيت ؛ أى : بيت الرسول عليه الصلاة والسلام .

وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لم يذكر الأتباع هنا ؛ قال : « آله وصحبه » ؛ فنقول : آله هم أتباعه على دينه ، وصحبه كل من اجتمع بالنبى ﷺ مؤمنًا به ومات على ذلك .

وعطف « الصحب » هنا على « الآل » من باب عطف الخاص على العام ؛ لأن الصحبة أخص من مطلق الاتباع .

قوله : « وسلم تسليما مزيدًا » : (سلم) فيها السلامة من الآفات ، وفى الصلاة حصول الخيرات ؛ فجمع المؤلف فى هذه الصيغة بين سؤال الله تعالى أن يحقق لنبيه الخيرات – وأخصها : الثناء عليه فى الملأ الأعلى – وأن يزيل عنه الآفات ، وكذلك من اتبعه .

والجملة فى قوله : « صلى » و« سلم » خبرية لفظًا طلبية معنى ؛ لأن المراد بها الدعاء .

قوله : « مزيدًا » ؛ بمعنى : زائدًا أو زيادة ، والمراد تسليمًا زائدًا على الصلاة ، فيكون دعاء آخر بالسلام بعد الصلاة .

---

(١) أخرجه البخارى (٨/٣٩٣) .

والرسول عند أهل العلم : « من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه »[1] .

وقد نبئ ﷺ بـ : ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ وأرسل بالمدثر ؛ فبقوله تعالى : ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ . إلى قوله تعالى : ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق : ١- ٥] كان نبيًّا ، وبقوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ [المدثر : ١، ٢] كان رسولا عليه الصلاة والسلام .

« أما بعد » : (أما) هذه نائبة عن اسم شرط وفعله ، التقدير : مهما يكن من شيء ؛ قال ابن مالك :

أَمَّا كَمَهْمَا يَكُ مِنْ شَيْءٍ وَفَا لِتِلْوِ تِلْوِهَا وجوبًا أُلِفَا

فقولهم : أما بعد : التقدير : مهما يكن من شيء بعد هذا ؛ فهذا .

وعليه ؛ فالفاء هنا رابطة للجواب والجملة بعدها فى محل جزم جواب الشرط ، ويحتمل عندى أن تكون : « أما بعد ؛ فهذا » ؛ أى أن (أما) حرف شرط وتفصيل أو حرف شرط فقط مجرد عن التفصيل ، والتقدير : أما بعد ذكر هذا ، فأنا أذكر كذا وكذا . ولا حاجة أن نقدر فعل شرط ، ونقول : إن (أما) حرف ناب مناب الجملة .

قوله : (فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة) :

« فهذا » : الإشارة لابد أن تكون إلى شيء موجود ، فأنا عندما أقول : هذا ؛ فإنى أشير إلى شيء محسوس ظاهر ، وهنا المؤلف كتب الخطبة قبل الكتاب وقبل أن يبرز الكتاب لعالم الشاهد ؛ فكيف ذلك ؟ !

أقول : إن العلماء يقولون : إن كان المؤلف كتب الكتاب ثم كتب المقدمة والخطبة ؛ فالمشار إليه موجود ومحسوس ، ولا إشكال فيه ، وإن لم يكن كتبه ، فإن المؤلف يشير إلى ما قام فى ذهنه عن المعانى التى سيكتبها فى هذا الكتاب ، وعندى فيه وجه ثالث ، وهو أن المؤلف قال هذا باعتبار حال المخاطب ، والمخاطب لم يخاطب بذلك إلا بعد أن برز الكتاب وصدر ؛ فكأنه يقول : « فهذا الذى بين يديك كذا وكذا » .

هذه إذن ثلاثة أوجه .

« اعتقادا » : افتعال من العقد وهو الربط والشد هذا من حيث التصريف اللغوى ، وأما فى الاصطلاح عنهم ؛ فهو حكم الذهن الجازم ؛ يقال : اعتقدت كذا ؛ يعنى : جزمت به فى قلبى ؛ فهو حكم الذهن الجازم ؛ فإن طابق الواقع ؛ فصحيح ، وإن خالف الواقع ؛ ففاسد ؛ فاعتقادنا أن الله إله واحد صحيح ، واعتقاد النصارى أن الله ثالث ثلاثة باطل ؛ لأنه مخالف للواقع ووجه ارتباطه بالمعنى اللغوى ظاهر ؛ لأن هذا الذى حكم فى قلبه على شيء ما كأنه عقده عليه وشده عليه بحيث لا يتفلت منه .

(١) « الصحيحة » للألبانى (٢٦٦٨) .

« الفرقة » بكسر الفاء ؛ بمعنى : الطائفة ، قال اللَّه تعالى : ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التوبة : ١٢٢] ، وأما الفرقة بالضم ؛ فهى مأخوذة من الافتراق .

« الناجية » : اسم فاعل من نجا ، إذا سلم ؛ ناجية فى الدنيا من البدع سالمة منها ، وناجية فى الآخرة من النار .

ووجه ذلك أن النبى ﷺ قال : « وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا واحدة » . قالوا : من هى يا رسول اللَّه ؟ قال : « من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي »[(١)] .

هذا الحديث يبين لنا معنى (الناجية) ؛ فمن كان على مثل ما عليه النبى ﷺ وأصحابه ؛ فهو ناجٍ من البدع . و« كلها فى النار إلا واحدة » : إذا هى ناجية من النار ؛ فالنجاة هنا من البدع فى الدنيا ، ومن النار فى الآخرة .

« المنصورة » عبر المؤلف بذلك موافقة للحديث ؛ حيث قال النبى ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين »[(٢)] . والظهور الانتصار ؛ لقوله تعالى : ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف : ١٤] ، والذى ينصرها هو اللَّه وملائكته والمؤمنون ؛ فهى منصورة إلى قيام الساعة ؛ منصورة من الرب ﷻ ، ومن الملائكة ، ومن عباده المؤمنين ، حتى قد يُنْصَرُ الإنْسَانُ من الجن ، ينصره الجنُّ ويُرهبون عدوه .

« إلى قيام الساعة » ؛ أى : إلى يوم القيامة ؛ فهى منصورة إلى قيام الساعة .

وهنا يَرِد إشكال ، وهو أن الرسول عليه الصلاة والسلام أخبر بأن الساعة تقوم على شرار الخلق[(٣)] ، وأنه لا تقوم حتى لا يقال : اللَّه اللَّه[(٤)] . فكيف نجمع بين هذا وبين قوله : « إلى قيام الساعة » ؟ !

والجواب : أن يقال : إن المراد : إلى قرب قيام الساعة ؛ لقوله فى الحديث : « حتى يأتى أمر اللَّه » . أو : إلى قيام الساعة ؛ أى : ساعتهم ، وهو موتهم ؛ لأن من مات فقد قامت قيامته ، لكن الأول أقرب ؛ فهم منصورون إلى قرب قيام الساعة ، وإنما لجأنا إلى هذا التأويل لدليل ، والتأويل بدليل جائز ؛ لأن الكل من عند اللَّه .

« أهل السنة والجماعة » : أضافهم إلى السنة ؛ لأنهم متمسكون بها ، والجماعة ؛ لأنهم مجتمعون عليها .

---

(١) صحيح الجامع للألبانى (٢٠٤٢) .

(٢) أخرجه البخارى (٣١١٦) ، ومسلم (١٠٣٧) .

(٣) أخرجه مسلم (١٩٢٤) .

(٤) أخرجه مسلم (١٤٨) .

فإن قلت : كيف يقول : « أهل السنة والجماعة » ؛ لأنهم جماعة ؛ فكيف يضاف الشيء إلى نفسه ؟ !

فالجواب : أن الأصل أن كلمة الجماعة بمعنى الاجتماع ؛ فهي اسم مصدر ، هذا في الأصل ، ثم نقلت من هذا الأصل إلى القوم المجتمعين ، وعليه ؛ فيكون معنى أهل السنة والجماعة ؛ أي : أهل السنة والاجتماع ، سموا أهل السنة ؛ لأنهم متمسكون بها ، وسموا أهل الجماعة ؛ لأنهم مجتمعون عليها .

ولهذا لم تفترق هذه الفرقة كما افترق أهل البدع ؛ نجد أهل البدع ؛ كالجهمية والروافض متفرقين ، وغيرهم من أهل التعطيل متفرقين ، لكن هذه الفرقة مجتمعة على الحق ، وإن كان قد يحصل بينهم خلاف ، لكنه خلاف لا يضر ، وهو خلافٌ لا يُضلل أحدهم الآخر به ؛ أي أن صدورهم تتسع له ، وإلا ؛ فقد اختلفوا في أشياء مما يتعلق بالعقيدة ، مثل : هل رأى النبي ﷺ ربه بعينه أم لم يره ؟ ومثله : هل عذاب القبر على البدن والروح أو الروح فقط ؟ ومثل بعض الأمور يختلفون فيها ، لكنها مسائل تعد فرعية بالنسبة للأصول ، وليست من الأصول . ثم هم مع ذلك إذا اختلفوا ؛ لا يُضلل بعضهم بعضًا ؛ بخلاف أهل البدع . إذن فهم مجتمعون على السنة ؛ فهم أهل السنة والجماعة .

وعلم من كلام المؤلف رحمه الله أنه لا يدخل فيهم من خالفهم في طريقتهم ؛ فالأشاعرة مثلا والماتريدية لا يعدون من أهل السنة والجماعة في هذا الباب ؛ لأنهم مخالفون لما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه في إجراء صفات الله سبحانه وتعالى على حقيقتها ، ولهذا يخطئ من يقول : إن أهل السنة والجماعة ثلاثة : سلفيون ، وأشعريون ، وماتريديون . فهذا خطأ ؛ نقول : كيف يكون الجميع أهل سنة وهم مختلفون ؟ ! فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ ! وكيف يكونون أهل سنة وكل واحد يرد على الآخر ؟ ! هذا لا يمكن ؛ إلا إذا أمكن الجمع بين الضدين ؛ فنعم ، وإلا ؛ فلا شك أن أحدهم وحده هو صاحب السنة ؛ فمن هو ؟ ! الأشعرية ، أم الماتريدية ، أم السلفية ؟ ! نقول : من وافق السنة ؛ فهو صاحب السنة ومن خالف السنة ؛ فليس صاحب سنة ؛ فنحن نقول : السلف هم أهل السنة والجماعة ، ولا يصدق الوصف على غيرهم أبدًا والكلمات تعتبر بمعانيها لننظر كيف نسمي من خالف السنة أهل سنة ؟ ! لا يمكن ! وكيف يمكن أن نقول عن ثلاث طوائف مختلفة : إنهم مجتمعون ؟ ! فأين الاجتماع ؟ ! فأهل السنة والجماعة هم السلف معتقدًا ، حتى المتأخر إلى يوم القيامة إذا كان على طريقة النبي ﷺ وأصحابه ؛ فإنه سلفي .

قوله : (وهو الإيمانُ باللَّهِ وملائكته وكتبه ورسله) :

هذه العقيدة أصَّلها لنا النبي ﷺ في جواب جبريل حين سأل النبي ﷺ : ما الإسلام ؟ ما الإيمان ؟

ما الإحسان ؟ متى الساعة ؟ فالإيمان – قال له : « أن تؤمن بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره »[1] .

« الإيمان بالله » : الإيمان في اللغة : يقول كثير من الناس : إنه التصديق ؛ فصدقت وآمنت معناهما لغة واحد ، وقد سبق لنا في « التفسير » أن هذا القول لا يصح بل الإيمان في اللغة : الإقرار بالشيء عن تصديق به ؛ بدليل أنك تقول : آمنت بكذا وأقررت بكذا وصدقت فلانا . ولا تقول : آمنت فلانًا .

إذن فالإيمان يتضمن معنًى زائدًا على مجرد التصديق ، وهو الإقرار والاعتراف المستلزم للقبول للأخبار والإذعان للأحكام ، هذا الإيمان ، أما مجرد أن تؤمن بأن الله موجود ؛ فهذا ليس بإيمان ، حتى يكون هذا الإيمان مستلزمًا للقبول في الأخبار والإذعان في الأحكام ، وإلا ؛ فليس إيمانًا .

والإيمان بالله يتضمن أربعة أمور :

١ – الإيمان بوجوده سبحانه وتعالى .

٢ – الإيمان بربوبيته ؛ أي : الانفراد بالربوبية .

٣ – الإيمان بانفراده بالألوهية .

٤ – الإيمان بأسمائه وصفاته . لا يمكن أن يتحقق الإيمان إلا بذلك .

فمن لم يؤمن بوجود الله ؛ فليس بمؤمن ، ومن آمن بوجود الله لا بانفراده بالربوبية ؛ فليس بمؤمن ، ومن آمن بالله وانفراده بالربوبية لا بالألوهية ؛ فليس بمؤمن ، ومن آمن بالله وانفراده بالربوبية والألوهية لكن لم يؤمن بأسمائه وصفاته ؛ فليس بمؤمن ، وإن كان الأخير فيه من يسلب عنه الإيمان بالكلية وفيه من سلب عنه كمال الإيمان .

الإيمان بوجوده :

إذا قال قائل : ما الدليل على وجود الله ﷻ ؟

قلنا : الدليل على وجود الله : العقل ، والحس ، والشرع ؛

ثلاثة كلها تدل على وجود الله ، وإن شئت ، فزد : الفطرة ، فتكون الدلائل على وجود الله أربعة : العقل ، والحس ، والفطرة ، والشرع . وأخّرنا الشرع ، لا لأنه لا يستحق التقديم ، لكن لأننا نخاطب من لا يؤمن بالشرع .

– فأما دلالة العقل ؛ فنقول : هل وجود هذه الكائنات بنفسها ، أو وُجدت هكذا صدفة ؟

فإن قلت : وجدت بنفسها ؛ فمستحيل عقلا ما دامت هي معدومة ؛ كيف تكون موجودة وهي

(١) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

معدومة ؟! المعدوم ليس بشيء حتى يوجد، إذن لا يمكن أن توجد نفسها بنفسها، وإن قلت: وجدت صدفة، فنقول: هذا يستحيل أيضًا؛ فأنت أيها الجاحد؛ هل ما أنتج من الطائرات والصواريخ والسيارات والآلات بأنواعها؛ هل وجد هذا صدفة؟! فيقول: لا يمكن أن يكون. فكذلك هذه الأطيار والجبال والشمس والقمر والنجوم والشجر والجمر والرمال والبحار وغير ذلك لا يمكن أن توجد صدفة أبدًا.

ويقال: إن طائفة من السُّمنية جاءوا إلى أبي حنيفة رحمه الله، وهم من أهل الهند، فناظروه في إثبات الخالق ﷻ، وكان أبو حنيفة من أذكى العلماء فوعدهم أن يأتوا بعد يوم أو يومين، فجاءوا؛ قالوا: ماذا قلت؟ قال: أنا أفكر في سفينة مملوءة من البضائع والأرزاق جاءت تشق عباب الماء حتى أرست في الميناء ونزلت الحمولة وذهبت، وليس فيها قائد ولا حمالون.

قالوا: تفكر بهذا؟! قال: نعم. قالوا: إذن ليس لك عقل! هل يُعقل أن سفينة تأتي بدون قائد وتنزل وتنصرف؟! هذا ليس معقول! قال: كيف لا تعقلون هذا، وتعقلون أن هذه السماوات والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب والناس كلها بدون صانع؟ فعرفوا أن الرجل خاطبهم بعقولهم، وعجزوا عن جوابه هذا أو معناه.

وقيل لأعرابي من البادية: بم عرفت ربك؟ فقال: الأثر يدل على المسير، والبعرة تدل على البعير؛ فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج؛ ألا تدل على السميع البصير؟

ولهذا قال الله ﷻ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

فحينئذ يكون العقل دالًّا دلالة قطعية على وجود الله.

- وأما دلالة الحس على وجود الله؛ فإن الإنسان يدعو الله ﷻ؛ يقول: يا رب! ويدعو بالشيء، ثم يستجاب له فيه، وهذه دلالة حسِّية، هو نفسه لم يدعُ إلا الله، واستجاب الله له، رأى ذلك رأى العين. وكذلك نحن نسمع عمَّن سبق وعمَّن في عصرنا؛ أن الله استجاب له.

فالأعرابي الذي دخل والرسول ﷺ يخطب الناس يوم الجمعة قال: هلكت الأموال، وانقطعت السبل فادع الله أن يغيثنا. قال أنس: والله، ما في السماء من سحاب ولا قزعة (أي: قطعة سحاب) وما بيننا وبين سَلْع (جبل في المدينة تأتي من جهته السحب) من بيت ولا دار .. وبعد دعاء الرسول ﷺ فورًا خرجت سحابة مثل الترس، وارتفعت في السماء وانتشرت ورعدت، وبرقت، ونزل المطر، فما نزل الرسول ﷺ إلا والمطر يتحادر من لحيته عليه الصلاة والسلام(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٩٣٣)، ومسلم (٨٩٧).

وهذا أمر واقع يدل على وجود الخالق دلالة حسية .

وفي القرآن كثير من هذا ؛ مثل : ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤] وغير ذلك من الآيات .

– وأما دلالة الفطرة ؛ فإن كثيرًا من الناس الذين لم تنحرف فطرهم يؤمنون بوجود اللّه ، حتى البهائم العجم تؤمن بوجود اللّه ، وقصة النملة التي رويت عن سليمان عليه الصلاة والسلام ؛ [أنه] خرج يستسقى ، فوجد نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها نحو السماء ، تقول : اللهم إنا خلق من خلقك ؛ فلا تمنع عنا سُقياك .

فقال : « ارجعوا ؛ فقد سقيتم بدعوة غيركم » .

فالفطر مجبولة على معرفة اللّه ﷻ وتوحيده . وقد أشار اللّه تعالى إلى ذلك في قوله : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣] . فهذه الآية تدل على أن الإنسان مجبول بفطرته على شهادته بوجود اللّه وربوبيته وسواء أقلنا : إن اللّه استخرجهم من ظهر آدم واستشهدهم . أو قلنا : إن هذا هو ما رَكَّب اللّه تعالى في فطرهم من الإقرار به . فإن الآية تدل على أن الإنسان يعرف ربه بفطرته .

هذه أدلة أربعة تدل على وجود اللّه سبحانه وتعالى .

– وأما دلالة الشرع ؛ فلأن ما جاءت به الرسل من شرائع اللّه تعالى المتضمنة لجميع ما يصلح الخلق يدل على أن الذي أرسل بها رب رحيم حكيم ، ولا سيما هذا القرآن المجيد الذي أعجز البشر والجن أن يأتوا بمثله .

الملائكة جمع : ملأك ، وأصل ملأك : مألك ؛ لأنه من الألوكة ، والألوكة في اللغة الرسالة ؛ قال اللّه تعالى : ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ﴾ [فاطر: ١] .

فالملائكة عالم غيبي ، خلقهم اللّه ﷻ من نور ، وجعلهم طائعين له متذللين له ، ولكل منهم وظائف خصَّه اللّه بها ، ونعلم من وظائفهم :

أولًا : جبريل : موكل بالوحي ، ينزل به من اللّه تعالى إلى الرسل .

ثانيًا : إسرافيل : موكل بنفخ الصور ، وهو أيضًا أحد حملة العرش .

ثالثًا : ميكائيل : موكل بالقطر والنبات .

وهؤلاء الثلاثة كلهم موكلون بما فيه حياة ؛ فجبريل موكل بالوحي وفيه حياة القلوب ، وميكائيل بالقطر والنبات وفيه حياة الأرض ، وإسرافيل بنفخ الصور وفيه حياة الأجساد يوم المعاد .

ولهذا كان النبى ﷺ يتوسل بربوبية الله لهم فى دعاء الاستفتاح فى صلاة الليل ، فيقول : « اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم »[١] ، هذا الدعاء الذى كان يقوله فى قيام الليل متوسلا بربوبية الله لهم .

كذلك نعلم أن منهم من وُكِّل بقبض أرواح بنى آدم ، أو بقبض روح كل ذى روح وهم : ملك الموت وأعوانه ولا يسمى : عزرائيل ؛ لأنه لم يثبت عن النبى عليه الصلاة والسلام أن اسمه هذا .

قال تعالى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام : ٦١] . وقال تعالى : ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة : ١١] . وقال تعالى : ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر : ٤٢] .

ولا منافاة بين هذه الآيات الثلاث ؛ فإن الملائكة تقبض الروح ؛ فإن ملك الموت إذا أخرجها من البدن تكون عنده ملائكة ، إن كان الرجل من أهل الجنة ؛ فيكون معهم حنوط من الجنة ، وكفن من الجنة ، يأخذون هذه الروح الطيبة ، ويجعلونها فى هذا الكفن ، ويصعدون بها إلى الله ﷻ حتى تقف بين يدى الله ﷻ ، ثم يقول : « اكتبوا كتاب عبدى فى عليين وأعيدوه إلى الأرض » . فترجع الروح إلى الجسد من أجل الاختبار : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ وإن كان الميت غير مؤمن والعياذ بالله ، فإنه ينزل ملائكة معهم كفن من النار ، وحنوط من النار ، يأخذون الروح ، ويجعلونها فى هذا الكفن ، ثم يصعدون بها إلى السماء ، فتغلق أبواب السماء دونها وتطرح إلى الأرض ؛ قال الله تعالى : ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج : ٣١] ، ثم يقول الله : « اكتبوا كتاب عبدى فى سجين »[٢] . نسأل الله العافية ! .

هؤلاء موكلون بقبض الروح من ملك الموت إذا قبضها ، وملك الموت هو الذى يباشر قبضها ؛ فلا منافاة إذن ، والذى يأمر بذلك هو الله ، فيكون فى الحقيقة هو المتوفى .

ومنهم ملائكة سياحون فى الأرض ، يلتمسون حِلَق الذكر ، إذا وجدوا حلقة العلم والذكر ؛ جلسوا[٣] .

وكذلك هناك ملائكة يكتبون أعمال الإنسان : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ كِرَامًا كَٰتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار : ١٠- ١٢] ، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق : ١٨] .

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧٠) .

(٢) أخرجه أبو داود (٣٢١٢) ، والنسائى (٤/٧٨) ، وابن ماجه (١٥٤٨ ، ١٥٤٩) ، وأحمد (٤/٢٨٧) .

(٣) أخرجه البخارى (٦٤٠٨) ، ومسلم (٢٦٨٩) .

دخل أحد أصحاب الإمام أحمد عليه وهو مريض رحمه الله فوجده يئن من المرض ، فقال له : يا أبا عبد الله ! تئن ، وقد قال طاوس : إن الملك يكتب حتى أنين المريض ؛ لأن الله يقول : ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ؟ فجعل أبو عبد الله يصبر وترك الأنين ؛ لأن كل شيء يكتب [كما قال تعالى] : ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ . من : زائدة لتوكيد العموم ، أي قول تقوله : يكتب لكن قد تجازى عليه بخير أو بشر ، هذا حسب القول الذي قيل .

ومنهم أيضًا ملائكة يتعاقبون على بني آدم في الليل والنهار ، ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد : ١١] .

ومنهم ملائكة رُكّع وسجّد لله في السماء ؛ قال النبي عليه الصلاة والسلام : « أطت السماء ، وحق لها أن تئط » . والأطيط : صرير الرحل ؛ أي : إذا كان على البعير حمل ثقيل ؛ تسمع له صريرًا من ثقل الحمل ، فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « أطت السماء ، وحق لها أن تئط ما من موضع أربع أصابع منها ؛ إلا وفيه ملك قائم لله أو راكع أو ساجد »[1] . وعلى سعة السماء فيها هؤلاء الملائكة .

ولهذا قال الرسول ﷺ في البيت المعمور الذي مر به في ليلة المعراج ؛ قال : « يطوف به - أو قال : يدخله - سبعون ألف ملك كل يوم ، ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم »[2] . والمعنى : كل يوم يأتي إليه سبعون ألف ملك غير الذين أتوه بالأمس ، ولا يعودون له أبدًا ، يأتي ملائكة آخرون غير من سبق ، وهذا يدل على كثرة الملائكة ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر : ٣١] .

ومنهم ملائكة موكّلون بالجنة وموكلون بالنار ؛ فخازن النار اسمه مالك ؛ يقول أهل النار : ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف : ٧٧] ؛ يعني : ليهلكنا ويمتنا ؛ فهم يدعون الله أن يميتهم ؛ لأنهم في عذاب لا يصبر عليه ، فيقول : ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف : ٧٧] ؛ ثم يقال لهم : ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [الزخرف : ٧٨] .

المهم : أنه يجب علينا أن نؤمن بالملائكة .

وكيف الإيمان بالملائكة ؟

نؤمن بأنهم عالم غيبي لا يشاهدون ، وقد يشاهدون ، إنما الأصل أنهم عالم غيبي مخلوقون من نور مكلفون بما كلفهم الله به من العبادات وهم خاضعون لله عز وجل أتم الخضوع ، ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم : ٦] .

---

(١) صحيح الجامع للألباني (٢٤٤٩) .

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٧) ، ومسلم (١٦٤) .

كذلك نؤمن بأسماء من علمنا بأسمائهم ونؤمن بوظائف من علمنا بوظائفهم ويجب علينا أن نؤمن بذلك على ما علمنا .

وهم أجساد ؛ بدليل قوله تعالى : ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾ [فاطر : ١] ، ورأى النبي ﷺ جبريل على صورته التي خُلق عليها له ستمائة جناح قد سد الأفق[١] ؛ خلافًا لمن قال : إنهم أرواح .

إذا قال قائل : هل لهم عقول ؟ نقول : هل لك عقل ؟ ما يسأل عن هذا إلا رجل مجنون ؛ فقد قال الله تعالى : ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ؛ فهل يثنى عليهم هذا الثناء وليس لهم عقول ؟ ! ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء : ٢٠] ؛ أنقول : هؤلاء ليس لهم عقول ؟ ! يأتمرون بأمر الله ، ويفعلون ما أمر الله به ويبلغون الوحي .

ونقول : ليس لهم عقول ؟ ! أحق من يوصف بعدم العقل من قال : إنه لا عقول لهم ! ! .

« وكُتبه » : أي كتب الله التي أنزلها مع الرسل .

ولكل رسول كتاب ؛ قال الله تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد : ٢٥] . وهذا يدل على أن كل رسول معه كتاب ، لكن لا نعرف كل الكتب ، بل نعرف منها : صحف إبراهيم وموسى ، والتوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والقرآن ؛ ستة ؛ لأن صحف موسى بعضهم يقول : هي التوراة ، وبعضهم يقول : غيرها ، فإن كانت التوراة ؛ فهي خمسة ، وإن كانت غيرها ؛ فهي ستة ، ولكن مع ذلك نحن نؤمن بكل كتاب أنزله الله على الرسل ، وإن لم نعلم به ، نؤمن به إجمالا .

« ورسله » : أي : رسل الله وهم الذين أوحى الله إليهم بالشرائع وأمرهم بتبليغها ، وأولهم نوح وآخرهم محمد ﷺ .

الدليل على أن أولهم نوح : قوله تعالى : ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء : ١٦٣] ؛ يعني : وحيًا ؛ كإيحائنا إلى نوح والنبيين من بعده ، وهو وحي الرسالة . وقوله : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد : ٢٦] ؛ ﴿فِى ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ : أي ذرية نوح وإبراهيم ، والذي قبل نوح لا يكون من ذريته . وكذلك قوله تعالى : ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الذاريات : ٤٦] ؛ قد نقول : إن قوله : ﴿مِن قَبْلُ﴾ : يدل على ما سبق .

إذن من القرآن ثلاثة أدلة تدل على أن نوحا أول الرسل ، ومن السُّنة ما ثبت في حديث الشفاعة :

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣٥) .

« أن أهل الموقف يقولون لنوح : أنت أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض »[1] ، وهذا صريح .

أما آدم عليه الصلاة والسلام ؛ فهو نبي ، وليس برسول .

وأما إدريس ؛ فذهب كثير من المؤرخين أو أكثرهم وبعض المفسرين أيضًا إلى أنه قبل نوح ، وأنه من أجداده لكن هذا قول ضعيف جدًا والقرآن والسنة ترده ، والصواب ما ذكرنا .

وآخرهم محمد عليه الصلاة والسلام ؛ لقوله تعالى : ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب : ٤٠] ، ولم يقل : وخاتم المرسلين ؛ لأنه إذا ختم النبوة ؛ ختم الرسالة من باب أولى .

فإن قلت : عيسى عليه الصلاة والسلام ينزل في آخر الزمان وهو رسول ؛ فما الجواب ؟ .

نقول : هو لا ينزل بشريعة جديدة ، وإنما يحكم بشريعة النبي ﷺ .

فإذا قال قائل : من المتفق عليه أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ، وعيسى يحكم بشريعة النبي ﷺ ، فيكون من أتباعه ، فكيف يصح قولنا : إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ؟

فالجواب : أحد ثلاثة وجوه :

أولها : أن عيسى عليه الصلاة والسلام رسول مستقل من أولي العزم ولا يخطر بالبال المقارنة بينه وبين الواحد من هذه الأمة ؛ فكيف بالمفاضلة ؟ ! وعلى هذا يسقط هذا الإيراد من أصله ؛ لأنه من التنطع ، وقد « هلك المتنطعون » ؛ كما قال النبي ﷺ[2] .

الثاني : أن نقول : هو خير الأمة إلا عيسى .

الثالث : أن نقول : إن عيسى ليس من الأمة ، ولا يصح أن نقول : إنه من أمته ، وهو سابق عليه ، لكنه من أتباعه إذا نزل ؛ لأن شريعة النبي ﷺ باقية إلى يوم القيامة .

فإن قال قائل : كيف يكون تابعًا ، وهو يقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ولا يقبل إلا الإسلام مع أن الإسلام يقر أهل الكتاب بالجزية ؟ ! . قلنا : إخبار النبي ﷺ بذلك إقرار له ، فتكون من شرعه ويكون نسخًا لما سبق من حكم الإسلام الأول .

قوله : (والبعث بعد الموت ، والإيمان بالقدر خيره وشره) :

البعث بمعنى الإخراج ؛ يعني : إخراج الناس من قبورهم بعد موتهم .

وهذا من معتقد أهل السنة والجماعة .

وهذا ثابت بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين ، بل إجماع اليهود والنصارى ؛ حيث يقرون بأن هناك يومًا يبعث الناس فيه ويجازون :

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٦) ، ومسلم (١٩٣) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٠) .

- أما القرآن ؛ فيقول الله ﷻ : ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ [التغابن : ٧] ، وقال ﷻ : ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون : ١٥، ١٦] .

- وأما في السنة ؛ فجاءت الأحاديث المتواترة عن النبي ﷺ في ذلك .

- وأجمع المسلمون على هذا إجماعًا قطعيًا ، وأن الناس سيبعثون يوم القيامة ويلاقون ربهم ويجازون بأعمالهم ؛ ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة : ٧، ٨] .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق : ٦] ؛ فتذكر هذا اللقاء حتى تعمل له ؛ خوفًا من أن تقف بين يدى الله ﷻ يوم القيامة وليس عندك شيء من العمل الصالح ، انظر ماذا عملت ليوم النقلة ؟ وماذا عملت ليوم اللقاء ؟ فإن أكثر الناس اليوم ينظرون ماذا عملوا للدنيا ؛ مع العلم بأن هذه الدنيا التى عملوا لها لا يدرون هل يدركونها أم لا ؟ قد يخطط الإنسان لعمل دنيوى يفعله غدًا أو بعد غد ، ولكنه لا يدرك غدًا ولا بعد غد ، لكن الشيء المتيقن أن أكثر الناس فى غفلة من هذا ؛ قال الله تعالى : ﴿بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ [المؤمنون : ٦٣] وأعمال الدنيا يقول : ﴿وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ [المؤمنون : ٦٣] ، فأتى بالجملة الاسمية المفيدة للثبوت والاستمرار : و﴿هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ ، وقال تعالى : ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ [ق : ٢٢] : يعنى : يوم القيامة وقال تعالى : ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ [ق : ٢٢] .

هذا البعث الذى اتفقت عليه الأديان السماوية وكل متدين بدين هو أحد أركان الإيمان الستة وهو من معتقدات أهل السنة والجماعة ولا ينكره أحد ممن ينتسب إلى ملة أبدًا .

هذا الركن السادس : الإيمان بالقدر خيره وشره .

القدر هو : « تقدير الله ﷻ للأشياء » .

وقد كتب الله مقادير كل شيء قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة [١]؛ كما قال الله تعالى : ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحج : ٧٠] .

وقوله : « خيره وشره » : أما وصف القدر بالخير ؛ فالأمر فيه ظاهر . وأما وصف القدر بالشر ؛ فالمراد به شر المقدور لا شر القدر الذى هو فعل الله ؛ فإن فعل الله ﷻ ليس فيه شر ، كل أفعاله خير وحكمة ، ولكن الشر فى مفعولاته ومقدوراته ؛ فالشر هنا باعتبار المقدور والمفعول ، أما باعتبار

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣) .

الفعل ؛ فلا ، ولهذا قال النبى عليه الصلاة والسلام : « والشر ليس إليك »(١) .

فمثلا ؛ نحن نجد فى المخلوقات المقدورات شرًا ؛ ففيها الحيات والعقارب والسباع والأمراض والفقر والجدب وما أشبه ذلك ، وكل هذه بالنسبة للإنسان شر ؛ لأنها لا تلائمه ، وفيها أيضًا المعاصى والفجوز والكفر والفسوق والقتل وغير ذلك ، وكل هذه شر ، لكن باعتبار نسبته إلى الله هى خير ؛ لأن الله ﷻ لم يقدرها إلا لحكمة بالغة عظيمة ، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها .

وعلى هذا يجب أن تعرف أن الشر الذى وُصِفَ به القدر إنما هو باعتبار المقدورات والمفعولات ، لا باعتبار التقدير الذى هو تقدير الله وفعله .

ثم اعلم أيضًا أن هذا المفعول الذى هو شر قد يكون شرًا فى نفسه ، لكنه خير من جهة أخرى ؛ قال الله تعالى : ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم : ٤١] ، النتيجة طيبة ، وعلى هذا ؛ فيكون الشر فى هذا المقدور شرًا إضافيًا ؛ يعنى : لا شرا حقيقيا ؛ لأن هذا ستكون نتيجته خيرًا .

ولنفرض حد الزانى مثلا إذا كان غير محصن أن يجلد مائة جلدة ويسفر عن البلد لمدة عام ، هذا لاشك أنه شر بالنسبة إليه ؛ لأنه لا يلائمه ، لكنه خير من وجه آخر لأنه يكون كفارة له ؛ فهذا خير ؛ لأن عقوبة الدنيا أهون من عقوبة الآخرة ؛ فهو خير له ، ومن خيره أنه ردع لغيره ونكال لغيره ؛ فإن غيره لو هم أن يزنى وهو يعلم أنه سيفعل به مثل ما فعل بهذا ؛ ارتدع ، بل قد يكون خيرًا له هو أيضًا ، باعتبار أنه لن يعود إلى مثل هذا العمل الذى سبب له هذا الشيء .

أما بالنسبة للأمور الكونية القدرية ؛ فهناك شيء يكون شرًا باعتباره مقدورًا ؛ كالمرض مثلا ؛ فالإنسان إذا مرض ؛ فلا شك أن المرض شر بالنسبة له ؛ لكن فيه خير له فى الواقع ، وخيره تكفير الذنوب ، قد يكون الإنسان عليه ذنوب ما كفرها الاستغفار والتوبة ، لوجود مانع ؛ مثلا لعدم صدق نيته مع الله ﷻ فتأتى هذه الأمراض والعقوبات ، فتكفر هذه الذنوب .

ومن خيره أن الإنسان لا يعرف قدر نعمة الله عليه بالصحة ، إلا إذا مرض ، نحن الآن أصحاء ولا ندرى ما قدر الصحة لكن إذا حصل المرض ؛ عرفنا قدر الصحة فالصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يعرفها إلا المرضى .. هذا أيضًا خير ، وهو أنك تعرف قدر النعمة .

ومن خيره أنه قد يكون فى هذا المرض أشياء تقتل جراثيم فى البدن لا يقتلها إلا المرض ؛ يقول الأطباء : بعض الأمراض المعينة تقتل هذه الجراثيم التى فى الجسد وأنت لا تدرى .

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧١) .

فالحاصل أننا نقول :

أولًا : الشر الذى وصف به القدر هو شر بالنسبة لمقدور الله ، أما تقدير الله ؛ فكله خير والدليل قول النبى ﷺ : « والشر ليس إليك » .

ثانيا : أن الشر الذى فى المقدور ليس شرًا محضًا بل هذا الشر قد ينتج عنه أمور هى خير ، فتكون الشرية بالنسبة إليه أمرًا إضافيًا .

هذا ؛ وسيتكلم المؤلف رحمه الله على القدر بكلام موسع يبين درجاته عند أهل السنة .

۞ قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك حفظه الله :

قوله : « الحمد لله » :

* هذه افتتاحية العقيدة الواسطية من تأليف الإمام الكبير الشهير بعلمه ، وجهاده ، وإحيائه للسنن ، ومحاربته للبدع الإمام المعروف أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني رحمه الله .

وهذا الكتاب الموسوم بالعقيدة الواسطية نسبة إلى من طلب من الشيخ كتابتها ، وهو رجل من أهل العلم في نواحي واسط- بلد معروف في العراق- فعرفت بالعقيدة الواسطية .

ولا مشاحة في التسمية ؛ فالمقصود التمييز ، كما أن لشيخ الإسلام مؤلفات كثيرة في مسائل الاعتقاد ، بل لعلنا لا نبالغ إذا قلنا : إن معظم مؤلفات شيخ الإسلام في مسائل الاعتقاد .

فقد ألف في مسائل الاعتقاد مؤلفات مطولة ومختصرة ، ومعظمها ألفها إجابة للسائلين ، فهو لا يكاد يبتدئ التأليف ابتداء ، بل جل مؤلفاته إجابة لمسائل ، وردود على المخالفين ، ومن أمتع وأفضل ما ألف في الاعتقاد هذه العقيدة : « العقيدة الواسطية » ، التي ذكر أنه كتبها وهو قاعد بعد العصر ، كتبها في مجلس واحد .

وقد نوظر في شأنها وجودل ؛ لأنه قرر فيها اعتقاد أهل السنة والجماعة من السلف الصالح ، من الصحابة والتابعين وأئمة الدين ، ومن سلك سبيلهم .

وهذا ما يخالفهم ما عليه جمهور الناس فقد دخلت عليهم المذاهب المبتدعة ؛ فلذلك ينكرون ويستنكرون ما يخالف ما هم عليه .

وقد أبان رحمه الله في المناظرة التي كتبها ، أنه إنما يقرر في هذا الاعتقاد ما دل عليه الكتاب والسنة ، وما درج عليه أهل القرون المفضلة من الصحابة والتابعين ، وأنه في هذه العقيدة يتحرى الألفاظ الشرعية .

وهذه العقيدة متميزة على سائر ما ألفه رحمه الله ؛ فكثير من مؤلفاته في مسائل الاعتقاد مشتمل على ذكر شبهات المفترين ، ومناقشتها مناقشة عقلية وشرعية ، كما هو ظاهر في « الرسالة التدمرية » .

أما العقيدة الواسطية فإنها خالصة ، فيها تقرير لمعتقد أهل السنة والجماعة وبيان أصولهم ، مع التدليل على ذلك من القرآن والسنة ، من غير تعرض لشبهات المخالفين ؛ فلذلك كانت هذه العقيدة جديرة بالحفظ .

وقد عرض فيها رحمه الله لأكثر المسائل التي وقع فيها الافتراق والتي خالف فيها أهل السنة سائر فرق الأمة .

قوله : « الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدًا » :

* هذا الثناء مقتبس من القرآن ؛ كما في سورة الفتح : ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ [الفتح : ٢٨] .

والهدى هو : العلم النافع ، ودين الحق هو العمل الصالح ، وهذا جماع رسالة محمد ﷺ ، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ كفى به مطلعًا على عباده ، وأحوالهم الظاهرة والباطنة .

وفي هذا إشارة إلى دليل من أدلة صدق الرسول ﷺ ؛ فإن الإيمان باطلاعه - تعالى - على أحوال الخلق يستلزم الإيمان بصدق محمد ﷺ كما قال تعالى : ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [فصلت : ٥٣] .

فكفى دليلا على صدق الرسول ﷺ ، وصدق ما جاء به من القرآن والحكمة ، أنه تعالى على كل شيء شهيد ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ .

قوله : « وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقرارًا به وتوحيدًا » :

* هذه كلمة التوحيد المركبة من نفي وإثبات ، من نفي إلهية ما سوى الله ، وإثبات الإلهية له تعالى وحده .

« وأشهد أن لا إله إلا الله وحده » : فوحده هذه حال مؤكدة لمدلول الإثبات « إلا الله » .

« لا شريك له » : هذه أيضًا جملة مؤكدة لمدلول النفي « لا إله » .

« لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقرارًا به وتوحيدًا » ، وهذا تأكيد بعد توكيد ؛ إقرارًا به وتوحيدًا له سبحانه وتعالى في إلهيته ، وربوبيته ، وأسمائه وصفاته .

قوله : « وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله » :

* وهكذا يجب أن يشهد الإنسان للنبي ﷺ بأنه عبد الله ورسوله ، يجب أن نجمع في الشهادة للرسول ﷺ بأنه عبد عابد لله مربوب مدبر ، ليس بإله ، وليس له شيء من خصائص الإلهية ، بل رسول من عند الله : ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

وهذا هو الصراط المستقيم فيما يجب اعتقاده في الرسول ﷺ، فإن الناس فيه ﷺ طرفان ووسط، فمن الناس من فرط في حقه فكذبه أو قصر في اتباعه.

ومنهم من غلا فيه، ورفعه فوق منزلته التي أنزله الله فيها، وهذا ما حذر منه ﷺ في قوله: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»[1]؛ يعني: لا تبالغوا في مدحي ولا تغلوا في «وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ»، كما في التشهد[2]، «صلى الله عليه»، وهذه صفة صلاتنا عليه: أن نسأل الله أن يصلي عليه، كما قال ﷺ لما قال له الصحابة: «كيف نصلي عليك؟ قال: قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد» الحديث[3].

فصلاتنا على الرسول ﷺ هي دعاؤنا وسؤالنا الله بأن يصلي عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وأحسن ما قيل في هذا المقام: إن الصلاة من الله ثناؤه على عبده عند الملائكة.

ولنبينا ﷺ من ثناء الله أكمل ثناء أثنى الله به على عبد من عباده؛ لأنه ﷺ هو سيد ولد آدم، فحظه من صلاة الله ومن ثنائه أوفر حظ ونصيب.

«وعلى آله وأصحابه» الآل هنا: هم أتباعه ﷺ، وعطف الصحابة على الآل في هذا المقام من عطف الخاص على العام، وقد درج أهل السنة على ذكر الصحابة في الصلاة على الرسول ﷺ، خارج الصلاة، أما في الصلاة فيتقيد بنص ما ورد.

وهذا كله دعاء له ﷺ بأن يصلي الله عليه، وأن يسلم عليه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾، وصلاتنا وسلامنا عليه بأن نسأل الله أن يصلي ويسلم عليه، ومن صفة السلام ما جاء في التشهد: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته»[4].

هذه الخطبة اشتملت على حمد الله، فله الحمد كله، له المدح والثناء كله؛ لأنه الموصوف بجميع المحامد، الموصوف بكل كمال، فلا يستحق الحمد كله والثناء كله إلا المستحق لكل كمال، الموصوف بجميع نعوت الجلال، وليس ذلك إلا الله وحده، فهو الذي له الحمد كله، وله الملك كله، وبيده الخير كله سبحانه وتعالى.

---

(١) البخاري (٣٤٤٥) من حديث عمر رضي الله عنه.

(٢) البخاري (٨٣١)، ومسلم (٤٠٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) البخاري (٣٣٧٠)، ومسلم (٤٠٦) من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه.

(٤) صحيح سنن أبي داود (حديث رقم: ٩٦٨).

قوله : « صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ..» :

* يعني : وسلم الله عليه . « تسليمًا » : هذا مصدر مؤكد . « مزيدًا » : موصولًا بالزيادة مستمرًا دائمًا .

قوله : « أما بعدُ » :

* هذه جملة يؤتى بها للانتقال من المقدمة إلى المقصود ، وكان من هديه ﷺ أنه يقول في خطبه : أما بعد ، ومعناها عند أهل اللغة : مهما يكن من شيء بعد فهو كذا وكذا .

قوله : « فهذا اعتقاد » :

* إشارة إلى ما هو حاضر مما سيذكره الشيخ في هذه العقيدة ، وبهذا يتبين أن الشيخ قصد في هذا التأليف إلى بيان اعتقاد الفرقة الناجية في ربهم ، واعتقادهم فيما أمر الله بالإيمان به .

قوله : « الفرقة الناجية المنصورة » :

* وصفها بالصفتين ، الناجية والمنصورة أخذًا من الحديث المشهور المروي في المسانيد والسنن عن النبي ﷺ : « إن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ، قيل : من هي يا رسول الله؟ قال : من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي »[1] : وفي لفظ « وهي الجماعة »[2] ، هذه هي الفرقة الناجية .

فالفرقة المستقيمة على ما كان عليه الرسول ﷺ توصف بأنها الناجية أخذًا من هذا الحديث ؛ لقوله ﷺ : « كلها في النار إلا واحدة » ، وهي المنصورة ؛ لقوله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى »[3] . فهي موصوفة بالنجاة وبالنصر .

والفرقة الناجية المنصورة : هم أهل السنة والجماعة الذين التزموا طريقة الرسول ﷺ ، وما عليه جماعة المسلمين ، واعتصموا بحبل الله جميعًا ، وجانبوا الفرقة وأسبابها .

والفرقة ، والطائفة معناهما متقارب ، ثم بين الشيخ هذا الاعتقاد إجمالًا بقوله : « وهو الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والبعث بعد الموت ، والإيمان بالقدر خيره وشره » .

---

(١) الترمذي (٢٦٤١) ، والحاكم (٤٤٤) من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ ، وحسنه الألباني في « صحيح سنن الترمذي » .

(٢) أخرجه أبو داود (٤٥٩٧) ، وأحمد (١٠٢/٤) من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، وابن ماجه (٣٩٩٣) من حديث أنس رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٢٠٤٢) .

(٣) البخاري (٣٦٤١) ، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية رضي الله عنه .

هذه هي أصول الإيمان التي فسر بها النبي ﷺ الإيمان في حديث جبريل حين سأل النبي ﷺ فقال : « أخبرني عن الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره »[(١)] .

هذه أصول الإيمان الستة ، فجميع مسائل الاعتقاد راجعة إلى هذه الأصول .

إذن ؛ هذا هو اعتقاد الفرقة الناجية بهذه الأصول على سبيل الإجمال ، والإيمان بها فرض عين على كل مكلف .

الأصل الأول : الإيمان بالله :

ويشمل ثلاثة أمور :

الإيمان به ربًا ، يعني : مالكًا مدبرًا منعمًا متفضلًا خالقًا رازقًا ، والإيمان به إلهًا معبودًا لا يستحق العبادة غيره ، والإيمان به مستحقًا لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال .

فالإيمان بالله يشمل الإيمان بربوبيته ، وإلهيته ، وأسمائه وصفاته على سبيل الإجمال .

الأصل الثاني : الإيمان بالملائكة :

كما أخبر الله عنهم في كتابه بأنهم مخلوقون موجودون ، عباد مكرمون ، خيار اختارهم الله ، واصطفاهم وفضلهم ، وجعلهم عبادًا طائعين خاضعين : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء : ٢٦- ٢٨] .

وفي هذا رد على من زعم أن الملائكة بنات الله فجعلوهم ولدًا لله ، وقال تعالى : ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩﴾ [فصلت : ٣٨] ، وفي الآية الأخرى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩﴾ [الأعراف : ٢٠٦] .

والآيات في ذكر الملائكة ، وصفاتهم ، وعبادتهم لربهم ، ودوام خضوعهم ، وتسليمهم كثيرة ، فهم عباد ليسوا آلهة : ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء : ٢٩] ، وحاشا أن يقول أحد منهم ذلك ؛ فهم معصومون .

والأصل الثالث :

الإيمان بالكتب ويتضمن الإيمان بكل ما أنزله الله من كتبه على من شاء من رسله ، ما علمنا منها

(١) مسلم (٨) ، والنسائي (٤٩٩٠) من حديث عمر رضي الله عنه .

وما لم نعلم ، فيجب أن نؤمن بأن الله أنزل كتبًا على من شاء من رسله ، منها : التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والقرآن ، وهو أعظم كتب الله .

والأصل الرابع :

الإيمان بالرسل ، فيجب الإيمان برسل الله إجمالًا ، وأن الله أرسل إلى عباده رسلًا يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ويحذرون من عبادة ما سواه ، يدعون إلى كل خير ، ويحذرون من كل شر .

وقد سمى الله من شاء منهم في كتابه ، وذكر أنه قص منهم ما قص ، وطوى علم آخرين : ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء : ١٦٤] .

والأصل الخامس :

الإيمان باليوم الآخر ، ويعبر عنه بالبعث ؛ لأن البعث بعد الموت هو الذي يكون به الانتقال من دار البرزخ إلى الدار الآخرة ، فهذا أصل من أصول الإيمان يجب الإيمان به .

وهذه الأصول ذكرها الله- تعالى- في كتابه مفرقة ، ومجتمعة قال سبحانه وتعالى : ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

وذكر أربعة في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

والإيمان بالقدر يندرج في الإيمان بالله ، وله أدلة مفصلة في القرآن ، ومنها : قوله تعالى : ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر : ٤٩] ، ومنها : قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج : ٧٠] ، ومنها : قوله تعالى : ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد : ٢٢] .

ويأتي هذا الكلام على بعض هذه الأصول مفصلًا ، فيما ذكره الشيخ في هذه الرسالة .

❁ قال الشيخ صالح بن فوزان الفوزان حفظه الله :

قوله : « بسم الله الرحمن الرحيم » :

ابتدأ المصنف ، رحمه الله ، كتابه بالبسملة ؛ اقتداءً بالكتاب العزيز ، حيث جاءت البسملة في ابتداء

كل سورةٍ ، ما عدا سورة « براءة » ، واقتداءً بالنبى ﷺ ، حيث كان يبدأ بها فى مكاتباته .

وقوله : (بسم اللّه) . الباء للاستعانة ، والاسم فى اللغة ما دل على مسمًّى ، وفى الاصطلاح : ما دل على معنًى فى نفسه ، ولم يقترن بزمانٍ .

والجار والمجرور متعلق بمحذوفٍ ينبغى أن يقدر متأخرًا ليفيد الحصر .

واللّه : علم على الذات المقدسة ، ومعناه : ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين ، مشتقٌّ من أله يأله ألوهةً ، بمعنى عبد يعبد عبادةً ، فاللّه إله ، بمعنى مألوه ؛ أى : معبود .

(والرحمن الرحيم) : اسمان كريمان من أسمائه الحسنى ، دالان على اتصافه تعالى بالرحمة ، على ما يليق بجلاله ، فالرحمن ذو الرحمة العامة لجميع المخلوقات ، والرحيم ذو الرحمة الخاصة بالمؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ .

افتتح هذه الرسالة الجليلة بهذه الخطبة المشتملة على حمد اللّه ، والشهادتين ، والصلاة والسلام على رسوله ؛ تأسيًا بالرسول ﷺ فى أحاديثه وخطبه ، وعملًا بقوله ﷺ : « كل أمرٍ ذى بالٍ لا يبدأ فيه بحمد اللّه فهو أقطع » [رواه أبو داود وغيره][1] .

ويروى : « ببسم اللّه الرحمن الرحيم »[2] .

ومعنى « أقطع » ؛ أى : معدوم البركة ، ويجمع بين الروايتين للحديث بأن الابتداء بـ : « بسم اللّه » حقيقىٌّ ، وبـ : « الحمد للّه » نسبىٌّ إضافىٌّ .

قوله : (الحمد للّه) . الألف واللام للاستغراق ؛ أى : جميع المحامد للّه ؛ ملكًا ، واستحقاقًا .

والحمد لغةً : الثناء بالصفات الجميلة والأفعال الحسنة .

وعرفًا : فعل ينبئ عن تعظيم المنعم ؛ بسبب كونه منعمًا ، وهو ضد الذم .

(للّه) تقدم الكلام على لفظ الجلالة .

(الذى أرسل رسوله) اللّه سبحانه يحمد على نعمه ، التى لا تحصى ، ومن أجل هذه النعم أن (أرسل) ؛ أى : بعث (رسوله) محمدًا ﷺ .

والرسول لغةً : من بعث برسالةٍ .

وشرعًا : هو إنسان ذكر أوحى إليه بشرعٍ وأمر بتبليغه .

(بالهدى) ؛ أى : العلم النافع ، وهو كل ما جاء به النبى ﷺ من الإخبارات الصادقة ، والأوامر والنواهى ، وسائر الشرائع النافعة .

---

(١) رواه أحمد (٢/٣٥٩) (٨٦٩٧) ، وأبو داود (٤٨٤٠) ، وابن ماجه (١٨٩٤) .

(٢) قال الألبانى فى « الإرواء » (١/٣٠) : ومما سبق يتبين أن الحديث بهذا اللفظ ضعيف جدًّا .

والهدى نوعان :

النوع الأول : هدًى بمعنى الدلالة والبيان ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت : ٧١] . وهذا يقوم به الرسول ﷺ ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ .

النوع الثاني : هدًى بمعنى التوفيق والإلهام ، وهذا هو المنفى عن الرسول ﷺ ، ولا يقدر عليه إلا اللـه تعالى ، كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص : ٥٦] .

(ودين الحق) هو العمل الصالح ، والدين يطلق ويراد به الجزاء ، كقوله تعالى : ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ . ويطلق ويراد به الخضوع والانقياد .

وإضافة الدين إلى الحق من إضافة الموصوف إلى صفته ؛ أى : الدين الحق ، والحق مصدر : حق يحق . بمعنى : ثبت ووجب ، وضده الباطل .

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ؛ أى : ليعليه على جميع الأديان بالحجة والبيان والجهاد حتى يظهر على مخالفيه من أهل الأرض ، من عربٍ وعجمٍ ، مليين ومشركين ، وقد وقع ذلك ، فإن المسلمين جاهدوا فى اللّه حق جهاده ، حتى اتسعت رقعة البلاد الإسلامية ، وانتشر هذا الدين فى المشارق والمغارب .

(وكفى باللّه شهيدًا) ؛ أى : شاهدًا أنه رسوله ومطلع على جميع أفعاله ، وناصره على أعدائه ، وفى ذلك دلالة قاطعة على صدق هذا الرسول ؛ إذ لو كان مفتريًا لعاجله اللّه بالعقوبة ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة : ٤٤، ٥٤] .

(وأشهد أن لا إله إلا اللّه) ؛ أى : أقر وأعترف أن لا معبود بحقٍّ إلا اللّه .

(وحده لا شريك له) فى هاتين الكلمتين تأكيد لما تضمنته شهادة أن لا إله إلا اللّه من النفى والإثبات ؛ نفى الإلهية عما سوى اللّه ، وإثباتها للّه ، فقوله : (وحده) تأكيد للإثبات ، وقوله : (لا شريك له) تأكيد للنفى .

وقوله : (إقرارًا به وتوحيدًا) مصدران مؤكدان لمعنى الجملة السابقة . (وأشهد أن لا إله إلا الله) إلخ ؛ أى : إقرارًا باللسان ، (وتوحيدًا) ؛ أى : إخلاصًا فى كل عبادةٍ قوليةٍ أو فعليةٍ أو اعتقاديةٍ .

وقوله : (وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله) ؛ أى : أقر بلسانى ، وأعتقد بقلبى أن اللّه أرسل عبده محمدًا ﷺ إلى الناس كافةً ؛ لأن الشهادة لهذا الرسول بالرسالة مقرونة بالشهادة للّه بالتوحيد ، لا تكفى إحداهما عن الأخرى .

وفي قوله : (عبده ورسوله) . ردٌّ على أهل الإفراط والتفريط في حق الرسول ﷺ ، فأهل الإفراط غلوا في حقه ورفعوه فوق منزلة العبودية .

وأهل التفريط قد نبذوا ما جاء به وراء ظهورهم ، كأنه غير رسولٍ .

فشهادة أنه عبد اللَّه تنفي الغلو فيه ورفعه فوق منزلته ، وشهادة أنه رسول اللَّه تقتضي الإيمان به وطاعته فيما أمر ، وتصديقه فيما أخبر ، واجتناب ما نهى عنه ، واتباعه فيما شرع .

وقوله : (صلى اللَّه عليه) الصلاة لغةً : الدعاء ، وأصح ما قيل في معنى الصلاة من اللَّه على الرسول : ما ذكره البخاري في « صحيحه » ، عن أبي العالية ، قال : « صلاة اللَّه على رسوله ثناؤه عليه في الملأ الأعلى »[1] .

(وعلى آله)آل الشخص من ينتمون إليه بصلةٍ وثيقةٍ من قرابةٍ ونحوها ، وأحسن ما قيل في المراد بآل الرسول ﷺ هنا أنهم أتباعه على دينه .

(وأصحابه) جمع صاحبٍ ، من عطف الخاص على العام ، والصحابي : هو من لقي النبي ﷺ مؤمنًا به ، ومات على ذلك .

(وسلم تسليمًا مزيدًا) السلام بمعنى التحية ، أو السلامة من النقائص والرذائل .

وقوله : (مزيدًا) . اسم مفعولٍ من الزيادة ، وهي النمو ، وجمع بين الصلاة والسلام ؛ امتثالًا لقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب : ٥٦] .

« أما بعد » : هذه الكلمة يؤتى بها للانتقال من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ آخر ، ومعناها : مهما يكن من شيءٍ ، ويستحب الإتيان بها في الخطب والمكاتبات ؛ اقتداءً بالنبي ﷺ ، حيث كان يفعل ذلك .

« فهذا » : إشارة إلى ما تضمنته هذه الرسالة ، واحتوت عليه من العقائد الإيمانية التي أجملها بقوله : (وهو الإيمان باللَّه - إلخ) .

« اعتقاد » : مصدر اعتقد كذا ، إذا اتخذه عقيدةً ، والعقيدة : هي ما يعقد عليه المرء قلبه ، تقول : اعتقدت كذا ؛ أي : عقدت عليه القلب ، والضمير .

وأصله مأخوذ من عقد الحبل ، إذا ربطه . ثم استعمل في عقيدة القلب وتصميمه الجازم .

(الفرقة) ؛ أي : الطائفة والجماعة .

(الناجية) ؛ أي : التي سلمت من الهلاك والشرور في الدنيا والآخرة ، وحصلت على السعادة . وهذا الوصف مأخوذ من قوله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورةً ، لا يضرهم من

(١) رواه البخاري معلقًا (٨/٥٣٢- فتح) بإسناد حسن .

خذلهم حتى يأتى أمر الله ». [رواه البخارى ومسلم][(١)] .

(المنصورة) ؛ أى : المؤيدة على من خالفها .

(إلى قيام الساعة) ؛ أى : مجيء ساعة موتهم بمجيء الريح التى تقبض روح كل مؤمنٍ ، فهذه هى الساعة فى حق المؤمنين .

وأما الساعة التى يكون بها انتهاء الدنيا فهى لا تقوم إلا على شرار الناس ؛ لما فى صحيح مسلمٍ : « لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض الله الله »[(٢)] .

وروى الإمام الحاكم من حديث عبد الله بن عمرٍو ، رضي الله عنهما ، وفيه : « ويبعث الله ريحًا ، ريحها ريح المسك ، ومسها مس الحرير ، فلا تترك أحدًا فى قلبه مثقال ذرةٍ من إيمانٍ إلا قبضته ، ثم يبقى شرار الناس ، فعليهم تقوم الساعة »[(٣)] .

(أهل السنة) « أهل » بالكسر على أنه بدل من « الفرقة » ، ويجوز الرفع على أنه خبر لمبتدأٍ محذوفٍ ، تقديره (هم) .

والسنة : هى الطريقة التى كان عليها رسول الله ﷺ ؛ من أقواله وأفعاله وتقريراته .

وسموا أهل السنة ؛ لانتسابهم لسنة الرسول ﷺ دون غيرها من المقالات والمذاهب ، بخلاف أهل البدع ؛ فإنهم ينسبون إلى بدعهم وضلالاتهم ؛ كالقدرية والمرجئة ، وتارةً ينسبون إلى إمامهم كالجهمية ، وتارةً ينسبون إلى أفعالهم القبيحة كالرافضة والخوارج .

(والجماعة) لغةً : الفرقة المجتمعة من الناس ، والمراد بهم هنا الذين اجتمعوا على الحق الثابت بالكتاب والسنة ، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسانٍ ، ولو كانوا قلةً ، كما قال ابن مسعودٍ رضي الله عنه : « الجماعة ما وافق الحق ، وإن كنت وحدك ، فإنك أنت الجماعة حينئذٍ » .

(وهو) ؛ أى : اعتقاد الفرقة الناجية ، (الإيمان) الإيمان معناه لغةً : التصديق ، قال الله تعالى : ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ [يوسف : ٧١] أى : مصدقٍ .

وتعريفه شرعًا : أنه قول باللسان ، واعتقاد بالقلب ، وعمل بالجوارح .

وقوله : (بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والبعث بعد الموت ، والإيمان بالقدر ؛ خيره وشره) . هذه هى أركان الإيمان الستة التى لا يصح إيمان أحدٍ إلا إذا آمن بها جميعًا على الوجه الصحيح الذى دل عليه الكتاب والسنة ، وهذه الأركان هى :

---

(١) البخارى (٧٣١١) ، ومسلم (١٥٣٢/٣) .

(٢) رواه مسلم (١٣١/١) (١٤٨) .

(٣) رواه مسلم (١٥٢٤/٣) (١٥٢٥) (١٩٢٤) موقوفًا على عبد الله بن عمرو .

١ – الإيمان بالله ، وهو الاعتقاد الجازم بأنه رب كل شيء ومليكه ، وأنه متصف بصفات الكمال ، منزه عن كل عيبٍ ونقصٍ ، وأنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، والقيام بذلك علمًا وعملًا .

٢ – الإيمان بالملائكة ؛ أى : التصديق بوجودهم ، وأنهم كما وصفهم الله فى كتابه ، كما فى الآية [بأنهم] ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧] .

وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة وأوصافهم ، وأنهم موكلون بأعمالٍ يؤدونها كما أمرهم الله ، فيجب الإيمان بذلك كله .

٣ – الإيمان بالكتب ؛ أى : التصديق بالكتب التى أنزلها الله على رسله ، وأنها كلامه ، وأنها حقٌّ ونور ، وهدًى ، فيجب الإيمان بما سمى الله منها ، كالتوراة والإنجيل والزبور والقرآن ، والإيمان بما لم يسم الله منها .

٤ – الإيمان بالرسل الذين أرسلهم الله إلى خلقه ؛ أى : التصديق بهم جميعًا ، وأنهم صادقون فيما أخبروا به ، وأنهم بلغوا رسالات ربهم ، لا نفرق بين أحدٍ منهم ، بل نؤمن بهم جميعًا ، من سمى الله منهم فى كتابه ، ومن لم يسم منهم ، كما قال تعالى : ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤] .

• وأفضلهم أولو العزم ، وهم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، عليهم الصلاة والسلام ، ثم بقية الرسل ، ثم الأنبياء . وأفضل الجميع خاتم الرسل نبينا محمد ﷺ .

• وأصح ما قيل فى الفرق بين النبى والرسول : أن النبى : من أوحى إليه بشرعٍ ، ولم يؤمر بتبليغه ، والرسول : من أوحى إليه بشرعٍ ، وأمر بتبليغه .

٥ – الإيمان بالبعث : وهو التصديق بإخراج الموتى من قبورهم أحياءً يوم القيامة ؛ لفصل القضاء بينهم ومجازاتهم بأعمالهم على الصفة التى بينها الله فى كتابه ، وبينها الرسول ﷺ فى سنته .

٦ – الإيمان بالقدر خيره وشره : وهو التصديق بأن الله سبحانه علم مقادير الأشياء وأزمانها قبل وجودها ، ثم كتبها فى اللوح المحفوظ ، ثم أوجدها بقدرته ومشيئته فى مواعيدها المقدرة .

فكل محدثٍ من خيرٍ أو شرٍّ فهو صادر عن علمه وتقديره ومشيئته وإرادته ، ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

هذا شرح مجمل لأصول الإيمان ، وسيأتى ، إن شاء الله ، شرحها مفصلًا .

❁ قال الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ حفظه الله :

ابتدأ رحمه الله هذه الرسالة بقوله : (بسم الله الرحمن الرحيم) ، والمتقرر عند العلماء أن الجار

والمجرور لابد أن يتعلق بفعلٍ أو ما في معناه ، وقول القائل : (بسم الله الرحمن الرحيم) ، فالجار والمجرور الذي هو الباء وما دخلت عليه لابد أن يتعلق بفعل أو بما في معنى الفعل من مصدر ونحوه ، فمن أهل العلم من قَدَّر هذا المتعلق في الباء ؛ كقول القائل : أبتدئ أو ابتدائي بسم الله ، وهذا يعم جميع الأحوال ، يعني : سواءٌ كان ابتداؤه بطعام أو بشراب أو علم أو غير ذلك .

وقال بعض أهل العلم : إن المتعلق هذا ينبغي أن يُقَدَّر بما يناسب حال القائل بهذه الكلمة ، فإذا قالها المبتدئ بطعام كان تقدير الكلام : آكل باسم الله ، وإذا قالها المبتدئ بشراب كان تقدير الكلام : أشرب بسم الله ، وإذا قالها المبتدئ بالكتابة كان معناها : أكتب باسم الله ، وإذا قالها المبتدئ بالعلم أو التعلم أو التعليم كان معناها : أُعَلِّمُ أو أتعلم باسم الله .

هذا القول الثاني أظهر وأحسن وأقوى ؛ وذلك لأنه يكون تخصيصًا لكل حالة بما يناسبها .

فإذن يكون هنا تقدير الكلام : أكتب باسم الله ، أو أُعلم باسم الله ، أو أختصر باسم الله .

و (بسم الله) الباء هذه باء الاستعانة والمشوبة لمعنى التوسل ، فكأنه قال : أكتب مستعينًا أو متوسلًا بكل اسم لله ﷻ ، فقوله هنا : (بسم الله) بدون تحديد اسم معين ، فهذا يعم جميع الأسماء ، وهذا منه اقتداءً بفاتحة القرآن ، فإن القرآن ابتدئ بالبسملة ثم بالحمدلة .

لهذا اقتدى العلماء في كتبهم بأشرف كتاب وأعظم كتاب ألا وهو القرآن كلام الله ﷻ في بدئهم كتبهم بالبسملة ثم بالحمدلة .

وقد رُوي في البداءة بالبسملة أحاديث لكنها ضعيفة جدًا ، وكذلك في البداءة بالحمدلة ، ولكن أسانيدها فيها ضعف ، لكن ما ورد بالبداءة بالحمدلة مثل قوله ﷺ : « كُلُّ كَلَامٍ أَوْ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُفْتَحُ بِذِكْرِ اللَّهِ ﷻ فَهُوَ أَبْتَرُ »(١) . يعني : فهو ناقص البركة ، هذا أقوى من غيره في هذا الباب ، ولكن أسانيدها فيها ضعف ، والمقصود أن العمدة في هذا أنه اقتداء واحتذاء بأعظم كتاب وهو كتاب الله ﷻ .

والبسملة في قوله : (بسم الله الرحمن الرحيم) أول من استعملها على هذا النحو التام سليمان عليه السلام في كتبه ، وكان النبي ﷺ يكتب أول ما كتب « بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ » . فلما نزلت : ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل : ٣٠] كتب : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »(٢) .

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٤٠) ، وابن ماجه (١٨٩٤) ، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٢٧) من حديث أبي هريرة - وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (١٠٣١) .

(٢) أخرجه أبو داود (٧٨٧) معلقًا من قول الشعبي وأبي مالك وقتادة وثابت بن عمارة . وعبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٨١) ، وابن أبي شيبة (٧/ ٢٦١) عن الشعبي . وقال الألباني في ضعيف أبي داود (١٦٩) : مرسل معلق .

فقوله : (بسم اللَّه) ، يعني : أكتب مستعينًا باسم اللَّه (الرحمن الرحيم) . والرحمن والرحيم من أسماء اللَّه ﷻ الحسنى المتضمنان صفة الرحمة للَّه ﷻ التي وسعت كل شيء ، فنعت اللَّه بهذين الاسمين في هذا المقام تعريض للنفس بالدخول في رحمة اللَّه ﷻ التي وسعت كل شيء ، ومن المتقرر أن العلم مبناه على الرحمة والتراحم ، فإن العلم الشرعي رحمة اللَّه ﷻ الخاصة يؤتيها من يشاء من عباده ، فالابتداء ببسم اللَّه الرحمن الرحيم مناسب تمام المناسبة في كتب العلم ، وفيما سبق بيانه من الأمور المختلفة .

ثم قال : (الحمد للَّه) أثنى على اللَّه ﷻ ؛ لأنه سبحانه هو المستحق لجميع أنواع المحامد ؛ لأن كلمة الحمد وهي مكونة من الألف واللام التي تدل على استغراق الجنس ، ويكون معنى : (الحمدُ) : أن جميع أجناس المحامد هي للَّه ﷻ استحقاقًا .

فقوله هنا : (الحمد للَّه) يعني : كل أنواع المحامد للَّه ﷻ ، وإذا تقرر ذلك فإن موارد الحمد التي يُثنى بها على اللَّه ﷻ عظيمة كثيرة جماعها في خمسة موارد :

الأول : أنه يحمد ﷻ على تفرده في الربوبية ؛ إذ لا رب معه يملك هذا الملكوت ويدبره ويصرفه ، فيثنى على اللَّه ﷻ بتفرده بالربوبية ، ويثنى عليه ﷻ بآثار تلك الربوبية في خلقه ، وإذا تأمل المثني على اللَّه ﷻ بذلك وجد أنه أثنى على اللَّه ﷻ بكل آثار ربوبيته في خلقه التي منها : خلقهم ، ورزقهم ، وإحياؤهم ، وإماتتهم ، وتدبيره الأمر ، وما يحدث في ملكوت السماوات والأرض من أنواع ما يقدره اللَّه ﷻ ، فهو المحمود على كل حال .

وهذا الحمد قد استغرق الزمان كله ، بل حمده ﷻ كائن قبل أن يكون مخلوق ، فهو ﷻ المستحق للحمد قبل أن يوجد حامد ، وذلك لعظم أوصافه ﷻ ، ومنها هذا المورد ألا وهو تفرده ﷻ في ربوبيته .

الثاني : أنه ﷻ محمود على تفرده في ألوهيته ، فهو ﷻ الإله الحق المبين ، لا إله يُعبد بحق إلا هو سبحانه ، فهو الإله الحق في السماء ، وهو الإله الحق في الأرض ، وكل إله عُبد في الأرض فإنما عُبد بغير الحق ؛ عُبد بالبغي والظلم والعدوان ، ومن يستحق العبادة الحق وحده دونما سواه هو اللَّه ﷻ ، فيثنى عليه ﷻ بهذا الأمر العظيم ألا وهو توحده ﷻ في إلهيته .

الثالث : أنه ﷻ يُحمد على ما له من الأسماء والصفات التي هي له ﷻ على وجه الكمال ، فهو سبحانه له الأسماء الحسنى والصفات العلا ؛ له الأسماء التي لا يماثله في معانيها ولا فيما اشتملت عليه من الصفات أحد ، وله ﷻ من الصفات ما لا يشاركه فيها على وجه التمام والكمال أحد ، فهو ﷻ ذو الأسماء الحسنى والصفات العلا ، قال تعالى : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] . وقال :

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤]، فليس له ﷻ سمي، وليس له مثل ولا مثيل في نعوت جلاله وكماله وجماله، فهو ﷻ يُحمد - يعني: يُثنى عليه - بما له من الأسماء الحسنى والصفات العلا، وكذلك يُثنى عليه بكل اسم على حدة، ويُثنى عليه بكل صفة له على حدة، وهذا مما تنقضي الأعمار فيه لو تأمله الحامدون.

الرابع: أنه ﷻ يُحمد على شرعه وأمره، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف: ١]، فهو سبحانه يُحمد على شرعه وعلى أمره، يعني: يُحمد على دين الإسلام الذي جعله دينًا للناس، ويُحمد على هذه الشريعة؛ شريعة محمد ﷺ، فيُثنى عليه ﷻ بإنزاله الكتاب؛ كما أثنى على نفسه بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾، ويثنى عليه ﷻ بما أمر به في كتابه من الأوامر وبما نهى عنه من النواهي؛ إذ أوامره ﷻ ونواهيه في كتابه وفي سنة رسوله، أي: في شريعة الإسلام شريعة محمد ﷺ، فكل أمر يستحق به ﷻ أن يُحمد عليه. وهذا لا شك مما يفتح على قلوب أهل الإيمان أنواعًا من المعارف، وأنواعًا من محبة هذا الدين، ومحبة الشريعة، ومحبة الأحكام، فأهل العلم يحمدون الله ﷻ على كل حكم تعلموه، وعلى كل حكم علموه، وعلى كل مسألة من مسائل العلم فهموها، فأهل العلم هم أحق الناس بحمد الله ﷻ، وهم أحق الناس بالثناء على الله ﷻ، لأنهم يعلمون عن الله ﷻ ما لا يعلمه غيرهم من العوام أو من غير المتعلمين.

الخامس: أنه ﷻ محمود على خلقه وقدره، وهو ﷻ له تصريف هذا الملك، وله في كل شيء قدر؛ كما قال ﷻ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وله سبحانه أوامر كونية في ملكوته منها: الإنعام على من شاء أن يُنعِم عليهم، ومنها: المصائب على من شاء أن يبتليهم. وهكذا، فهو ﷻ محمود على خلقه وقدره، وكل أنواع تقديره ﷻ يستحق أن يُثنى عليه بها، وهذا النوع بعضه يستحضره الناس حينما يقولون: الحمد لله. يعني: على ما أولاهم به من نعمه، فيحمدون الله ﷻ، يعني: يثنون عليه بما أفاض عليهم من النعم، وهذا لا شك نوع من أهم موارد الحمد. أما أهل العلم المتبصرون بما يستحقه ﷻ من الأسماء والصفات، وما لِه ﷻ من النعوت والكمالات، فإنهم يستحضرون من معاني الحمد أكثر من ذلك الذي يستحضره أكثر الخلق من أن الحمد لا يكون إلا على ما أولوا من النعمة؛ ولهذا فإن النبي ﷺ كان يحمد الله ﷻ في السراء والضراء، ويحمده ﷻ إذا أتته نعمة، وإذا جاءه ما لا يسره حمد الله ﷻ، ويثني على الله ﷻ باستحقاقه للربوبية على خلقه، ويثني على الله ﷻ باستحقاقه للعبادة من خلقه وحده دونما سواه، ويثني عليه ﷻ بأنواع من الثناء.

ومن المهمات أن يَستحضر الحامد لله ﷻ هذه الموارد، وإن لم يمكنه ذلك لضيق وعاء القلب

عنده فإنه يستحضر شيئًا فشيئًا منها ، حتى يُعود قلبه على الثناء على الله ﷻ في جميع أنواع الثناء عليه سبحانه الذي يستحقها .

وقوله هنا : (لله) : اللام هنا للاستحقاق ، وضابطها أنها تأتي بعد المعاني دون الأعيان ، (الحمد لله) يعني : الحمد مستحق لله ﷻ ، و(الله) عَلَمٌ على المعبود بحق ، فلا يُسمى به إلا من يستحق العبادة وحده دونما سواه ، الموصوف بأوصاف الكمال سبحانه ، أما غيره ﷻ مما عُبد من الآلهة التي عُبدت بالباطل والبغي والظلم والعدوان فإنها يطلق عليها البشر « إله » ، يعني : معبود ، أما الاسم (الله) فهو علم على المعبود بحق ، أما المعبودات بالباطل والظلم والطغيان فلم يَدّع أحدٌ أنه يسميها الله ؛ ولهذا قال المشركون : ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص : ٥] ، وقال ﷻ : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات : ٣٥] ، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يعني : لا أحد يستحق العبادة الحقة إلا الله ﷻ ، ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ لأنهم اتخذوا آلهة من دون الله ﷻ ومعه .

وقوله هنا : ﴿ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ : هذا اقتباس من آخر سورة الفتح ، وهي قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح : ٢٨] . والهدى هو : العلم النافع مما جاء في الكتاب والسنة ، فالله ﷻ أرسل رسوله بالهدى وهو العلم النافع ، سواءٌ في ذلك ما كان من باب الإخبار ، وهي أبواب الاعتقاد ، أو من باب الأمر والنهي ، وهذا كله العلم النافع الذي يورث الهدى ، وهو هدًى في نفسه ، يعني مرشدًا ودالًّا على الطريق التي هي أقوم ، وكذلك يورث الهدى الكامل في الدنيا والآخرة .

وأما قوله : ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ : فقد فسره بعض السلف بأنه العمل الصالح . الأعمال النافعة للمؤمن في نفسه وللناس في أنفسهم ، وكما يقال : للمجتمعات وللأمم بأجمعها ، الله ﷻ أرسل رسوله بالهدى ، يعني : بالعلم النافع وبدين الحق الذي هو العمل الصالح .

قوله تعالى : ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي : كفى بالله شهيدًا على ما ذكر ، فالله ﷻ هو الذي شهد بأن ما بعث به رسوله ﷺ هو الهدى وهو دين الحق ، وشهادة الله ﷻ فوق كل شهادة ، إذ لا أعلم من الله ، ولا شاهد يُكتفى به إلا الله ﷻ في هذه المسائل العظيمة أو ما أوحى به إلى رسوله ﷺ ، فمن أتته شهادة الله تعالى كفى بها شهادة .

إذا كان كذلك فمن المتقرر أن نصوص الكتاب والسنة التي وصفت في هذه الآية بأنها الهدى قد اشتملت على أنواع الأخبار التي هي في الأمور الغيبية عن الله ﷻ ، وعن أسمائه وصفاته وعما يكون في يوم المعاد من الأمور الغيبية ، وإذا كانت هذه النصوص في هذه الأمور الخبرية ، وكذلك ما أخبر به النبي ﷺ في هذه الأمور قد وصفها الذي يُكتفى بشهادته بأنها هدى ، فيُعلم منه أن من لَمْ يَرْضَ بكون

هذه النصوص وما دلت عليه الهدى الكامل والشفاء الكامل فإن ذلك يتضمن أنه لم يكتفِ بشهادة الله ﷻ، وهذا هو ما صنعه الذين سلكوا مسلك البدع من أنواع الفرق ؛ كالخوارج ، والمرجئة ، والقدرية ، والمعتزلة ، والجهمية ، والأشاعرة ، والماتريدية ، فإن كل فرقةٍ من هذه الفرق لم ترتضِ نصوص الكتاب والسنة ولم تجعلها كافية ، بل عملت في ذلك إما بعقولها أو بأقيسةٍ ضالة ، فمن أخذ بما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة ، وهي القاعدة العظيمة في الاعتقاد ، لأننا لا نتجاوز في الاعتقاد القرآن والحديث ؛ كما قال الإمام أحمد بهذا الأصل : « لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ﷺ ، ولا نتجاوز القرآن والحديث » .

يعني لا نتأول كما تأول المتأولة ، ولا نعطل كما عطل المعطلة ، ولا نشبه أو نمثل كما مَثَّلَ المجسمة أو مَثَّلَ الممثلة ، وإنما لا نتجاوز القرآن والحديث ، وذلك لأن أهل السنة قد اكتفوا بشهادة الله ﷻ في هذه الآية بأن ما أرسل به رسوله ﷺ هو الهدى وهو دين الحق ، فقبلوه ولم يتجاوزوا القرآن والحديث .

قال بعد ذلك : (وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إقرارًا به وتوحيدًا) ، وهذه تحتاج إلى شيءٍ من التفصيل ، وذلك أن قوله هنا : (وأشهد) : هذه الشهادة معناها الاعتراف والإقرار الذي يتبعه إعلامٌ وإخبار ؛ لأن الشهادة تشمل : اعتقاد القلب وإخبار اللسان ، فمن اعتقد بقلبه دون أن يتكلم بلسانه لم يُعد شاهدًا ، ومن تكلم بلسانه - كحال المنافقين - ولم يعتقد بقلبه لم يكن شاهدًا بما دلت عليه كلمة التوحيد .

إذن الشهادة في قوله : (وأشهد) : يعني : أعتقد وأعترف وأقر لله بأنه هو المستحق للعبادة وحده دونما سواه ، وأخبر وأعلم بأن الله ﷻ هو المستحق للعبادة دونما سواه .

وهذا هو الذي فُسر به قوله تعالى : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران : ١١٨] ، ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ : يعني : أعلم وأخبر ، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ : شهدوا بذلك ، أعلموا وأخبروا بذلك واعتقدوا ذلك ، ﴿وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ : من خلقه شهدوا ذلك بمرتبتين : مرتبة الاعتقاد ، ومرتبة القول .

قال : (وأشهد أن لا إله إلا الله) : و(أن) هنا : هي التفسيرية ، وضابطها : أنها هي التي تأتي بعد كلمةٍ فيها معنى القول دون حروف القول ، كـ : شهد ، ونادى ، وأوحى ، وقضى ، وأمر ، ووصى ، ونحو ذلك ، فـ(أن) : إذا أتت بعد هذه الألفاظ أو نحوها مما فيه معنى القول دون حروف القول فهي التفسيرية ؛ لأن ما بعدها يفسر ما قبلها ؛ كالتي جاءت في قول الله ﷻ : ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ الآية [الأعراف : ٤٤] .

هذه الكلمة (أشهد أن لا إله إلا اللّه) هي كلمة التوحيد، ولها ركنان:
النفي: المستفاد من قوله: (لا إله)، وهو نفي استحقاق العبادة عن كل أحد.
والإثبات: المستفاد من قوله: (إلا اللّه)، وهو إثبات استحقاق العبادة للّه.
فركنا هذه الكلمة: النفي والإثبات، فمن نفى ولم يثبت لم يكن قد أتى بهذه الكلمة على صحتها، إذ أتى بركنٍ ولم يأتِ بالثاني، وكذلك من أثبت ولم ينفِ، فإنه لم يأتِ بما دلت عليه هذه الكلمة، فلابد أن يجتمع في حق الشاهد: أنه ينفي استحقاق العبادة عن كل أحدٍ، ويثبت استحقاق العبادة للّه ﷻ وحده دونما سواه.

والمشركون كانوا يثبتون ولا ينفون، يقولون: إن اللّه جل جلاله مستحقٌّ للعبادة، فهو مستحقٌّ لأن يُعبد، لكنهم لا ينفون، ولهذا قال النبي ﷺ لأبي طالب: «أَيْ عَمِّ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ»[١]، فأبى أن يقول، وقال ﷺ للمشركين: «قُولُوا كَلِمَةً إِنْ تَكَلَّمْتُمْ بِهَا مَلَكْتُمُ العَرَبَ وَدَانَتْ لَكُم بِهَا العَجَمُ بِالخَرَاجِ». قالوا: لنعطينكها وعشر أمثالها، فما هي؟ قال: «قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»[٢]، فأبوا واشمأزوا؛ لأنهم يعلمون أنه لا يصح الإقرار بهذه الكلمة إلا بالجمع بين النفي والإثبات، وهم إنما يثبتون للّه ﷻ أنه معبود وأنه يعبد، لكن ينفون كونه ﷻ واحدًا في استحقاق العبادة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦]، وقال ﷻ مخبرًا عن قولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥].

وهذا هو الذي صنعه المشركون وَمَن بعدهم من مشركي هذه الأمة فإنهم أتوا بركنٍ من أركان كلمة التوحيد ألا وهو: الإثبات، قالوا: إن اللّه جل جلاله مستحقٌّ للعبادة، لكن قالوا: يمكن أن يكون معه من يستحق شيئًا من أنواع العبادة، لكن لا على وجه الأصالة ولكن على وجه الواسطة.
وهذا من الأمور المهمة التي ينبغي العناية بها، وهي: أن كلمة التوحيد لها ركنان: ركن النفي، وركن الإثبات.

أما معناها: فإن الإله في قوله: (لا إله): هو المعبود عن محبةٍ وتعظيم، لأن مادة: (أله) في اللغة والتي جاء بها القرآن معناها: العبادة، (أله): بمعنى عُبد مع المحبة والتعظيم، والألوهية: هي العبادة

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤) من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه.
(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٣٢)، والنسائي في الكبرى (٨٧١٦، ١١٣٧٢) من حديث ابن عباس. وضعف إسناده الألباني في ضعيف الترمذي (٦٣٦).

مع المحبة والتعظيم ، فالإله هو المعبود مع المحبة والتعظيم ، ويدل له من قول العرب : قول الشاعر في رجزه المشهور :

لِلَّـهِ دَرُّ الغَـانِيَـاتِ المُـدَّهِ سَبَّحْنَ وَاسْتَرْجَعْنَ من تَأَلُّهِي

يعني : من عبادتي ، فالتأله أَلِهَ ، يَأْلَهُ ، إِلهةً ، وألوهة ، هذا كله راجع إلى معنى التعبد والعبادة ، والعرب لا تَعرف منها إلا أنه عُبد ، حتى إن بعضهم قال : الهمزة في « أله » أصلها واو ، وهي مِنْ « وَلَهَ » ؛ لأنه عُبد متولهًا متيمًا من الوله والمحبة الذي هو شدة المحبة .

المقصود : أن كلمة(لا إله) هذه فيها العبودية ، وهذا هو المتقرر في العربية وفي القرآن ؛ كما قال ﷻ : ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل : ٦٠] ، يعني : أمعبود مع الله ؟ لأنهم إنما جعلوا معبودًا مع الله ولم يجعلوا ربًا مع الله جل جلاله ، ومن ذلك ما جاء في قراءة ابن عباس المشهورة في سورة الأعراف : « وَيَذَرَكَ وَإِلاهَتَكَ » [الأعراف : ١٢٧] يعني : وعبادتك .

فإذن معنى : (الإلهة) و(الألوهة) في كلام العرب : العبادة مع المحبة والتعظيم ، وهذا ينبئ ويثبت أن قول الأشاعرة والماتريدية والمتكلمين في معنى (الإله) قولٌ باطل ، حيث إن تفاسير المتكلمين للإله على قولين :

الأول : منهم من يقول : الإله هو القادر على الاختراع .

وهذا هو معنى الرب ، أما الإله فليس فيه معنى الخلق ، ولا القدرة على الخلق ، ولا القدرة على الاختراع ، إنما فيه معنى العبادة .

الثاني : وهو قول الأشاعرة والماتريدية ونحوهم - في كلامهم المعروف - : إن الإله هو المستغني عما سواه ، المفتقر إليه كل ما عداه . حتى قال السنوسي في « أم البراهين » المشهورة من عقائدهم : قال : « فمعنى لا إله إلا الله : لا مستغنيًا عما سواه ولا مفتقرًا إليه كل ما عداه إلا الله » ، ففسر الألوهية بالربوبية .

وهذا من مناهج المتكلمين ومن عقيدة أهل الكلام ، إذ إنهم يفسرون : (الإله) : بـ(الرب) ، ويفسرون الألوهية بالربوبية ، وعلى هذا - عندهم - من اتخذ مع الله ﷻ إلهًا آخر يعبده ، ويخافه ، ويرجوه ، ويدعوه ، ويستغيث به ، وينذر له ، ويذبح له ، فإنه لا يكفر بذلك عندهم ؛ لأنه لم يخالف ما دلت عليه كلمة التوحيد إذا كان معتقدًا أن الله ﷻ هو المتفرد وحده بالقدرة على الاختراع ، وبالاستغناء عما سواه ، وبافتقار كل شيء إليه ﷻ .

فإذن :(لا إله) : ليس معناها الربوبية ، وإنما معناها :(لا معبود) ، وخبر :(لا) النافية للجنس محذوف ، وحذف الخبر شائع كثير في لغة العرب ؛ كقول النبي ﷺ : « لَا عَدْوَى ولا طِيَرَةَ

ولا هَامَةَ »[1] . فالخبر كله محذوف .

وخبر لا النافية للجنس يُحذف كثيرًا وبشيوع إذا كان معلومًا لدى السامع ، كما قال ابن مالك في الألفية :

وَشَاعَ فِي ذَا البَابِ إِسْقَاطُ الخَبَرْ إِذَا المُرَادُ مَعْ سُقُوطِهِ ظَهَرْ

فإذا ظهر المراد مع السقوط جاز الإسقاط .

وهنا في قوله : (لا إله إلا الله) : لم يذكر خبر (لا) ؛ لأنه معروف ؛ لأن المشركين لم ينازعوا في وجود إله مع الله ﷻ ، وإنما نازعوا في أحقية الله ﷻ بالعبادة دون غيره ، وأن غيره لا يستحق العبادة ، فلما كان النزاع في الثاني دون الأول ، يعني : لما كان في الاستحقاق دون الوجود ، جاء هذا النفي بحذف الخبر ؛ لأن المراد مع سقوطه ظاهر وهو نفي الأحقية ، وصار الخبر تقديره (حق) ؛ كما قال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج : ٦٢] ، وفي الآية الأخرى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ [لقمان : ٣٠] ، فلما قال سبحانه ذلك قرن بين أحقيته تعالى للعبادة وبطلان عبادة ما سواه ، ودل على أن المراد بكلمة التوحيد هو نفي استحقاق العبادة بشيء لأحد غير الله ﷻ ، فإذن صار تقدير الخبر بكلمة (حق) صوابًا من جهتين :

الجهة الأولى : أن النزاع بين المشركين وبين الرسل كان لاستحقاق العبادة لهذه الآلهة ولم يكن لوجود الآلهة .

الجهة الثانية : أن الآيات دلت على بطلان عبادة غير الله ، وعلى أحقية الله للعبادة دونما سواه .

إذا تقرر ذلك فإن الخبر مقدر بكلمة (حق) ، ولا نافية للجنس ، فنفت جنس استحقاق الآلهة للعبادة ؛ نفت جنس المعبودات الحقة ، فلا يوجد على الأرض ولا في السماء معبود عبده المشركون حق ، ولكن المعبود الحق هو الله ﷻ وحده ، وهو الذي عبده أهل التوحيد .

وتقدير الخبر بكلمة (حق) هو المتعين خلافًا لما عليه أهل الكلام المذموم ، حيث قدروا الخبر بكلمة (موجود) أو بشبه الجملة (في الوجود) ، فقالوا : لا إله في الوجود أو لا إله موجود . وهذا فهم غلط ليس من جهة الغلط النحوي ، ولكن من جهة عدم فهمهم لمعنى الإله ؛ لأنهم فهموا من معنى الإله الرب ، فنفوا وجود رب مع الله ﷻ ، وجعلوا آية الأنبياء دليلًا على ذلك ، وهو قوله : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء : ٢٢] ، وقوله في آية الإسراء : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء : ٤٢] ، ففسروا الإله في آية الأنبياء وآية الإسراء بالرب ، ولكن

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠٧) ، ومسلم (٢٢٢٠) من حديث أبي هريرة .

هي في الآلهة كما هو ظاهر اللفظ فيهما .

فقوله هنا : (لا إله إلا اللَّه) ، (لا) نافية للجنس ، و(إله) هو اسمها مبني على الفتح ، ولا النافية للجنس مع اسمها في محل رفع المبتدأ ، (وحق) هو الخبر المحذوف ، والعامل فيه هو الابتداء ، أو العامل فيه لا النافية للجنس على اختلاف بين النحويين في العمل ، و(إلا اللَّه) ، (إلا) أداة استثناء و(اللَّه) مرفوع ، وهو بدل من الخبر لا من المبتدأ ؛ لأنه يدخل في الآلهة حتى يُخرج منها ؛ لأن المنفي هي الآلهة الباطلة فلا يدخل فيها - كما يقوله من لم يفهم - حتى يكون بدلًا من اسم لا النافية للجنس ، بل هو بدل من الخبر ، وكون الخبر مرفوعًا والاسم هذا مرفوعًا يبين ذلك ؛ لأن التابع مع المتبوع في الإعراب والنفي والإثبات واحد ، وهنا ينتبه إلى أن الخبر لما قُدر (بحق) صار المُثبت هو استحقاق اللَّه ﷻ للعبادة ، ومعلوم أن الإثبات بعد النفي أعظم دلالة في الإثبات من إثبات مجرد بلا نفي ؛ ولهذا صار قول : (لا إله إلا اللَّه) ، وقول : (لا إله غير اللَّه) هذا أبلغ في الإثبات من قول : (اللَّه إله واحد) ؛ لأن هذا قد ينفي التقسيم ولكن لا ينفي استحقاق غيره للعبادة ، ولهذا صار قوله تعالى : ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة : ١٦٣] ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [الصافات : ٣٥] جمع بين النفي والإثبات ، وهذا يسمى الحصر والقصر ، ففي الآية حصر وقصر ، وبعض أهل العلم يعبر عنها بالاستثناء المفرغ ، وهذا ليس بجيد ، بل الصواب أن يُقال : هذا حصر وقصر ، فجاءت (لا) نافية ، وجاءت (إلا) مثبتة ليكون ثَمَّ حصر وقصر في استحقاق العبادة للَّه ﷻ دون غيره ، وهذا عند علماء المعاني في البلاغة يفيد : الحصر ، والقصر ، والتخصيص ، يعني : أنه فيه لا في غيره ، وهذا أعظم دلالة فيما اشتمل عليه النفي والإثبات ، ومعنى كلمة التوحيد وتفصيل الكلام عليها يُرجع إليه في موضعه من كلام أئمة الدعوة ، رحمهم اللَّه تعالى .

لهذا نقول : تحقيق الشهادتين يكون بتحقيق : (لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه) ، وتحقيق الأولى : بألا تعبد إلا اللَّه ﷻ ، وتحقيق الثانية : بألا يعبد اللَّه إلا بما شرع رسوله ﷺ .

قال هنا : (وحده لا شريك له) : وهذا من التأكيد بعد التأكيد .

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري على قوله : (وحده لا شريك له) : « هذا تأكيدٌ بعد تأكيد لبيان عظم مقام التوحيد » . وأن اللَّه ﷻ في استحقاقه العبادة وحده لا شريك له في ذلك .

قال هنا : (لا شريك له) : وأنواع ادعاء الشريك كثيرة ومجملها :

الأول : ادعاء الشريك له في ربوبيته ، وأن ثَمَّ ظهيرًا معه يُصَرِّفُ معه الأمر .

الثاني : ادعاء الشريك معه في استحقاق العبادة .

الثالث : ادعاء شريك معه في أسمائه وصفاته على وجه الكمال .

الرابع : ادعاء الشريك معه في الأمر والنهي في التشريع .

الخامس : ادعاء الشريك معه في الحكمة التي قضاها في كونه كما يقول الفلاسفة ونحوهم .

إذن أنواع الاشتراك التي ادُّعِيَ أن ثَمَّ من يشارك الله ﷻ فيها هذه الخمسة هي جِماعُها .

قال بعدها : (إقرارًا به وتوحيدًا) : والإقرار هو الإذعان والتسليم والاعتقاد بذلك ، (إقرارًا به) : يعني بأنه وحده لا شريك له ، (وتوحيدًا) : التوحيد مصدر وَحَّدَ يُوحِّدُ تَوْحِيدًا ، يعني : جعل الشيء واحدًا ، وقد جاء استعمالها في السنة في بعض طرق حديث ابن عباس : أن النبي ﷺ لما أرسل معاذًا إلى اليمن قال : « إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ ، فَلْيَكُنْ أَوَّلُ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى »[1] . فمن دعا إلى توحيد الله فإنه يدعو إلى تحقيق الشهادتين ، وجاء في قول الصحابي رضي الله عنه : « فأهلَّ بالتوحيدِ لبيكَ اللهم لبيكَ ، لبيكَ لا شريكَ لك لبيكَ »[2] .

إذن كلمة التوحيد موجودة في السنة ومستعملة ، ودين الإسلام هو دين التوحيد ، والنصوص دلت على انقسام التوحيد إلى :

- توحيد الألوهية .
- توحيد الربوبية .
- توحيد الأسماء والصفات .

قسمها العلماء إلى هذه القسمة ، ولديهم فيها استقراء لنصوص الكتاب والسنة ، ويكثر ذلك في عبارات المتقدمين من أئمة الحديث والأثر ، فجاء عند أبي جعفر الطبري في تفسيره ، وفي غيره من كتبه ، وفي كلام ابن بطة ، وكلام ابن منده ، وكلام ابن عبد البر ، وغيرهم من أهل العلم من أهل الحديث والأثر ، خلافًا لمن زعم من المبتدعة من أن هذا التقسيم أحدثه ابن تيمية ، فهذا التقسيم قديم يعرفه من يطالع كتب أهل العلم .

فتوحيد الله ثلاثة أنواع :

الأول : توحيد الربوبية : وهو اعتقاد أن الله واحدٌ في أفعاله سبحانه وتعالى ، لا شريك له ، وأفعاله سبحانه وتعالى منها : خلقه ، ورزقُه ، وإحياؤه ، وإماتته ، وتدبيره للأمر ، ونحو ذلك ، يعني : أن توحيد الربوبية راجع إلى إفراد الربوبية التي هي : السيادة ، والتصرف في الملكوت ، وكل ما رجع إلى السيادة والتصرف في الملكوت ، رجع إلى توحيد الربوبية ؛ فالإيمان بتوحيد الربوبية معناه : أنه إيمان بأن الله وحده لا شريك له هو المتصرف في هذا الملكوت أمرًا ونهيًا ، فهو الخالق وحده ، وهو الرازق وحده ،

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٢) .

(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر بن عبد الله .

وهو المحيي المميت وحده ، وهو النافع الضار وحده ، وهو القابض الباسط وحده في ملكوته ؛ كما قال ﷻ : ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس : ٣١] ، فأثبت أنهم أقروا بالربوبية ، وأنكر عليهم أنهم لم يتقوا الشرك به وتركوا توحيد الألوهية .

وتوحيد الألوهية : هو توحيد اللّٰه بأفعال العبيد ؛ التوحيد في القصد والطلب بأن يُفرِد العبد رَبَّهُ ﷻ في إنابته ، وخضوعه ، ومحبته ، ورجائه ، وأنواع عباداته من صلاته ، وزكاته ، وصيامه ، ودعائه ، وذبحه ، ونذره .. إلى آخر أفراد العبادة بما هو معلوم في توحيد الألوهية .

وتوحيد الأسماء والصفات : وهو اعتقاد أن اللّٰه ﷻ هو المتوحد في استحقاقه لما بلغ في الحسن نهايته من الأسماء ، ولما بلغ غاية الكمال من النعوت أو الصفات ، فاللّٰه ﷻ لا يماثله أحد في أسمائه وصفاته ، كما قال : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] ، وكما قال تعالى : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص : ٤] ، وكما قال تعالى : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] .

وهناك نوع رابع : هو توحيد دلت عليه شهادة أن محمدًا رسول اللّٰه ، وهو : ألا يُعبد اللّٰه إلا بما شرع ، ويُسمى عند طائفة من أهل العلم : (توحيد المتابعة) ، يعني : أن يكون المرء متابعًا للنبي ﷺ وحده ، فلا أحد يستحق المتابعة على وجه الكمال إلا النبي ﷺ ، كما قال ابن القيم في نونيته :

فَلِواحِدٍ كُن واحدًا في واحِدٍ   أَعْنِي سَبِيلَ الحَقِّ وَالإِيمَانِ

« فلواحد » يعني : للّٰه المقصود والمعبود ، له وحده ﷻ قصدًا وإرادة وتوجهًا ورغبًا ورهبًا ، جل جلاله وتقدست أسماؤه ، « كن واحدًا » أنت في قصدك وإرادتك وتوجه قلبك لا تتشعب عليك الأوهام في قلبك ولا في سلوكك ؛ بل « كن واحدًا » أنت ، « في واحدٍ » يعني في سبيل واحد ، قال بعدها : « أعني سبيل الحق والإيمان » ، وهو سبيل السلف الصالح الذين اتبعوا النبي ﷺ واهتدوا به ، وهذا التعبير (توحيد المتابعة) استعمله ابن القيم ، واستعمله شارح الطحاوية ابن أبي العز الحنفي ، وجماعة من أهل العلم .

وبعض أهل العلم يُقسم التوحيد إلى قسمين :

الأول : توحيد قولي اعتقادي .

الثاني : توحيد فعلي إرادي .

وقولهم : (توحيد قولي اعتقادي) ، هذا يشمل توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات ؛ لأن توحيد الربوبية قولي واعتقادي ، وتوحيد الأسماء والصفات قولي واعتقادي .

وقولهم : (توحيد فعلي إرادي) ، هذا يعنون به ما يتعلق بفعل المكلف ، وهو على قسمين :
- أفعال القلوب ، مثل : الخوف ، والرجاء ، والمحبة ، والرغبة ، والرهبة ، ونحو ذلك .
- أفعال الجوارح ، مثل : الدعاء ، والاستغاثة ، والذبح ، والنذر ، ونحو ذلك .

قال بعدها : (وأشْهَدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه صلَّى اللَّهُ عليه وعلى آلِه وصَحْبِه وسلَّمَ تسليمًا مَزيدًا) .

قوله : (وأشهد) يعني : أعتقد وأخبر وأعلم ، (أن محمدًا) محمد بن عبد الله القرشي ﷺ (عبده ورسوله) ، ليس إلهًا وليس ملكًا ، وإنما هو عبدٌ من عبيد الله ، شرفه الله ﷻ بالرسالة ، فلا يُدَّعى فيه أكثر من أنه رسول من الله ﷻ ، وكفى بها مرتبة وكفى بها منزلة .

وهذه الشهادة تقتضي اعتقاد أنه رسول الله ، والإعلام بذلك يقتضي أشياء ، منها :
- أنه ﷺ مبلغ عن الله .
- وأنه يجب طاعته فيما أمر .
- وأن يُصَدَّقَ فيما أخبر .
- وأن يُجتنب ما عنه نهى وزجر .
- وألا يُعبد اللهُ إلا بما شرع .

والمشهور أن هذا معنى الشهادة بأن محمدًا رسول الله ﷺ ، وهو من مقتضياتها ومعناها الذي تقتضيه ، أما معناها الأول فهو : اعتقاد وإعلام وإخبار بأن محمدًا ﷺ عبدٌ من عبيد الله ، ورسولٌ من المرسلين الذين أرسلهم الله ﷻ .

هنا في قوله : (رسوله) تنبيه : أن النبوة غير الرسالة ، والنبي غير الرسول ، والنبي والرسول لفظان موجودان في لغة العرب ، فتعريفهما في اللغة يؤخذ من موارده في اللغة ، وهو أن النبي مأخوذ من النبوة ، وهي الارتفاع ، وذلك لأنه بالإيحاء إليه وبالإخبار إليه أصبح مرتفعًا على غيره ، والرسول : هو من حُمِّلَ رسالة فبعث بها .

وكلمة (نبي) جاءت في القرآن في القراءات على قراءتين متواترتين :
الأولى : النبي بالياء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ، وأشهر من قرأ بـ (النبي) عاصم .
والثانية : النبيء (يا أيها النبيءُ) ، وأشهر من قرأ بـ (النبيء) نافع .

والفرق أن النبي والنبيء في اللغة : أن النبي مأخوذ من النبوة وهي الارتفاع ، والنبيء من النبوة وهو مَن نُبئ ، أما من حيث الشرع فالنبي والنبيء واحد ، وكلا الأمرين حاصل في النبي ﷺ ، وفي كل نبي ، فهو مرتفع ولأجل ذلك فهو نبي ، وهو مُنبأ ولأجل ذلك فهو نبيء .

ولهذا نقول : إن كلمة (نبي) صارت من الرفعة ؛ لأنه نبيء ، يعني : أنه نُبيءٌ في نَبْوة وارتفاع عن غيره من الناس .

أما في التعريف الاصطلاحي للنبي والرسول فهذا مما اختلف فيه أهل العلم كثيرًا ، والمذاهب فيه متنوعة ، منها :

المذهب الأول : قول من قال : إنه لا فرق بين الرسول والنبي ، فكل نبي رسول وكل رسول نبي . قال به طائفة قليلة من أهل العلم من المتقدمين والمتأخرين ، ومنهم من ينسب إلى السنة .

المذهب الثاني : أن النبي والرسول بينهما فرق ، وهو أن النبي أدنى مرتبة من الرسول ، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولًا ، وهو قول جمهور أهل العلم وعامة أهل السنة .

والمذهب الثالث : أن النبي أرفع من الرسول ، وأن الرسول دون النبي ، وهو قول غلاة الصوفية .

وأرجح الأقوال هو قول جمهور أهل العلم وعامة أهل السنة ؛ ذلك لأدلة كثيرة استدلوا بها على هذا الأصل مبسوطة في مواضعها ، نختصر بعضها :

الدليل الأول : قوله ﷻ : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج : ٥٢] .

فيؤخذ من قوله : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ أوجه ثلاثة :

الأول : أن الإرسال وهو فعل (أرسلنا) وقع على الرسول وعلى النبي ، فإذن الرسول مرسل والنبي مرسل ؛ لأن هذا وقع على الجميع .

الثاني : أنه - تعالى - عطف بالواو ، فقال : ﴿مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ والعطف بالواو يقتضي المغايرة : مغايرة الذات ، أو مغايرة الصفات ، وهنا المقصود منه أن الصفة التي صار بها رسولًا غير النعت الذي صار به نبيًا ، وهو المقصود مع تحقق أن الجميع وقع عليهم الإرسال .

الثالث : أنه - تعالى - عطف ذلك بـ « لا » أيضًا في قوله : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ . ومجيء (لا) هنا في تأكيد النفي في أول الآية ، وهو قوله : تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا﴾ فهو تقرير تكرير الجملة منفية من أولها ؛ كأنه قال : وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا أرسلنا من قبلك من نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته .

الدليل الثاني : أن النبوة ثبتت لآدم عليه السلام ، فآدم كما صح في الحديث نبي مُكلم ، وأن هناك أنبياء جاءوا بعد آدم عليه السلام كإدريس وشيث وغيرهما ، وإدريس ذكره الله ﷻ في القرآن .

والرسل أولهم نوح عليه السلام ، وجعل الله ﷻ أولي العزم من الرسل خمسة ، وجعل أولهم نوحًا

عليه السلام ؛ فهذا يدل على أن آدم عليه السلام لم يحصل له وصف الرسالة ، بل جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال : « آدم نبي مُكلم »[1] ، ووصف نوح بأنه رسول ، ووُصف إدريس بأنه نبي ، فدل هذا على التفريق بين المقامين .

الدليل الثالث : ما جاء في الحديث من التفريق ما بين عدد الأنبياء وعدد المرسلين ، فقد سأل أبو ذر رضي الله عنه النبي ﷺ فقال : يا نبي الله كم وفاء عدة الأنبياء؟ قال ﷺ : « مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وعِشْرون ألفًا ، الرُّسُلُ مِنْ ذَلِكَ ثَلاثمِائَةٍ وَخَمسَةَ عَشَرَ »[2] . وهذا الحديث - حديث أبي ذر- حسنه بعض أهل العلم ، وإن كان إسناده عند التحقيق فيه ضعف ، لكن فيه جمل صحيحة ، وهو حديث طويل رواه ابن حبان وغيره .

والله ﷻ قص علينا خبر بعض الرسل وحجب عنا قصص البعض الآخر ، فقال ﷻ : ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء : ١٦٤] .

وثم أدلة أخرى في هذا المقام قد لا تكون دالة بوضوح على المراد . إذا تبين ذلك وأن الصحيح هو قول الجمهور ، وهو أن النبي والرسول بينهما فرق ، فما تعريف النبي وما تعريف الرسول في الاصطلاح ؟

قلنا : إن النبي يقع عليه الإرسال ولكن لا يسمى رسولًا عند الإطلاق ، والرسول يقع عليه الإرسال وهو الذي يسمى رسولًا عند الإطلاق ، والله ﷻ جعل ملائكة مرسلين ، وإذا قلنا : (الرسول) فلا ينصرف بالإطلاق على المبلغ للوحي جبريل عليه السلام .

والله ﷻ أرسل الريح وأرسل المطر وأرسل أشياء من العذاب ، ولا يقع عند الإطلاق أن يُقال : هذه مرسلة ، أو هذه رسالة الله ، أو هذه الأشياء رسول ، من إطلاق المفرد وإرادة الجمع به ؛ ولهذا نقول : قد يُقال عن هذه الأشياء : إنها مرسلة ؛ كما جاء في القرآن : ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ [المرسلات : ١] ، ولكن إذا أطلق لفظُ الرسول فلا ينصرف إلى من أرسل من الملائكة ، وإنما ينصرف إلى من أرسل من البشر ، وهذا يدل على أن الفرق القائم ما بين النبي وما بين الرسول ، وأن النبي إرساله خاص وأن الرسول إرساله مطلق .

فلهذا نقول : دلت آية سورة الحج : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج : ٥٢] على أن كلًّا من النبي والرسول يقع عليه إرسال ، فما الفرق بينهما من جهة التعريف ؟

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٨) ، والبخاري في تاريخه (١/ ٢٩) ، وابن حبان (٢/ ٧٦) ، والطبراني (٧٨٧١) من حديث أبي ذر. وصححه الألباني في الصحيحة (٢٦٦٨) .

(٢) تقدم تخريجه في الحاشية السابقة .

الجواب : أن العلماء اختلفوا على أقوال كثيرة في تعريف هذا وهذا ، ولكن الاختصار في ذلك مطلوب ، وهي مسألة اجتهادية .

فتعريف النبي : هو من أوحى اللّٰه إليه بشرع لنفسه أو أمره بالتبليغ إلى قوم موافقين يعني موافقين له في التوحيد ، والرسول : هو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه إلى قوم مخالفين ، ويلاحظ من هذا التعريف للنبي وللرسول أنه لا مدخل لإيتاء الكتاب في وصف النبوة والرسالة ، فقد يُعطى النبي كتابًا وقد يُعطى الرسول كتابًا ، وقد يكون الرسول ليس له كتاب وإنما له صحف كما في قوله : ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى : ١٩] ، وقد يكون له كتاب .

فإذن من جعل الفيصل أو الفرق بين النبي والرسول هو مجيء الوحي بكتاب منزل من عند اللّٰه ﷻ ، فهذا ليس بجيد ، بل يُقال : إن المدار على أمرين :

أولًا : فالنبي موحى إليه والرسول موحى إليه .

ثانيًا : أنه يوحى إليه بشرع أو بفصل في قضية - شرع يشمل أشياء كثيرة- فالنبي يوحى إليه بشرع ، وكذلك الرسول يوحى إليه بشرع .

لكن النبي يوحى إليه لإبلاغه إلى قوم موافقين ، أو ليعمل به في خاصة نفسه ؛ كما جاء في الحديث : « عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ »[1] ، والرسول يبعث إلى قوم مخالفين له ؛ ولهذا جاء في الحديث : « إِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ »[2] ، ولم يجعلهم ورثة الرسل ؛ وذلك لأن العالم في قومه يقوم مقام النبي في إيضاح الشريعة التي معه ، فيكون في إيضاح الشريعة ثم شبه ما بين العالم والنبي ، ولكن النبي يوحى إليه فتكون أحكامه صوابًا ؛ لأنها من عند اللّٰه ﷻ ، والعالم يوضح الشريعة ويعرض لحكمه الغلط .

يتعلق بهذه المسألة بحث أن الرسول قد يكون متابعًا لشريعة مَن قبله كما أن النبي يكون متابعًا لشريعة مَن قبله .

فإذن الفرق ما بين النبي والرسول في اتباع شريعة من قبل : أن النبي يكون متابعًا لشريعة من قبله ، والرسول قد يكون متابعًا كيوسف عليه السلام جاء قومه بما بعث اللّٰه به إبراهيم عليه السلام ويعقوب ، وقد يُبعث بشريعة جديدة . وهذه الاحترازات لأجل أن ثمة طائفة من أهل العلم جعلت كل محترز من هذه الأشياء فرقًا ما بين النبي والرسول ، فالكتاب قد يعطاه النبي وقد يعطاه الرسول ، ولكن هل بُعث

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٥٢) ، ومسلم (٢٢٠) من حديث ابن عباس .

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٤١) ، والترمذي (٢٦٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء . وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣٠٩٦) .

لقوم مخالفين أو موافقين ؟ هذا مدار الفرق ما بين النبي والرسول ، فالرسول قد يُبعث بالديانة التي جاء بها رسول ممن قبله ، لكنه يُرسل إلى قوم مخالفين ، وإذا كانوا مخالفين فلابد أن يكون منهم من يصدقه ومنهم من يكذبه ؛ لأنه ما من رسول إلا وقد كُذِّب ؛ كما جاءت بذلك الآيات الكثيرة .

قال هنا : (ﷺ) ، هذا سؤال من المصنف ؒ أن يُثني الله على نبيه محمد ﷺ ؛ إذ الصلاة من الله الثناء ، وذلك امتثالاً لقول الله ﷻ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب : ٥٦] .

والعلماء قد اختلفوا في هذا الأمر ، وهو قوله : ﴿صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب : ٥٦] . هل هو للوجوب أم فيه تفصيل ؟ على أقوال :

القول الأول : قال طائفة من أهل العلم من الحنفية ؛ كالطحاوي وجماعة من الشافعية والمالكية : إنه يجب الصلاة على النبي ﷺ كلما ذكر . واستدلوا لهذا بأدلة منها : أنه مقتضى الأمر بالآية ، ومنها : ما جاء عن النبي ﷺ أنه قال : « رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِندَهُ فَلَمْ يُصلِّ عَلَيَّ »(١) .

القول الثاني : قال شيخ الإسلام ابن تيمية : الأقرب أنه تجب الصلاة على النبي ﷺ في الدعاء ؛ وذلك لأنه قد ثبت عن عمر ؓ وغيره أنه قال : « إِنَّ الدُّعَاءَ مَوْقُوفٌ بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ لَا يَصْعَدُ مِنْهُ شَيْءٌ حَتَّى تُصَلِّيَ عَلَى نَبِيِّكَ ﷺ »(٢) .

وعلى هذا القول وهو أن الصلاة على النبي ﷺ تجب في الدعاء ، فمحلها قبل الدعاء ، يعني : بعد حمد الله والثناء عليه تأتي الصلاة على النبي ﷺ قبل الدعاء ؛ وذلك لأن تقديمه ﷺ على النفس واجب ، وإذا خُتم به الدعاء فذلك من باب الكمال ، لكن محل الوجوب هو قبل الدعاء ، فإن فات أن يكون قبل الدعاء يُختم به الدعاء وهذا سائغ ، لكن لو تركه قبل الدعاء ثم أتى به في آخر الدعاء فقد ترك الأفضل ، والأفضل والأكمل أن يجمع بينهما .

القول الثالث : أن الصلاة على النبي ﷺ تجب في العمر مرة . وهذا القول أقعد في الأصول : وذلك أن الله ﷻ أمر بالصلاة على نبيه بدون قيد ، فقال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب : ٥٦] وأمر بالصلاة عليه ، فيبرأ المأمور من العهدة إذا صلى عليه مرة ، يعني : صلى عليه خارج الصلاة التي هي العبادة المعروفة ، أما في الصلاة فذاك وجوب جاء من دليل آخر .

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص٢٢٥) ، والترمذي (٣٥٤٥) من حديث أبي هريرة - وقال الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٠٣) : حسن صحيح .

(٢) أخرجه الترمذي (٤٨٦) موقوفًا على عمر . وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٤٠٣) .

وهذا القول أنسب وأقعد في أصول الفقه ؛ لأن الأمر عندهم يقتضي التكرار إذا اقترنت به القرينة ، أو كان معلقًا بشيء يتكرر فيتكرر بتكرره ، أما إذا لم يُعلق بالدليل فإن دل على الوجوب في شيء يتكرر فإنه يبرأ من العهدة بمرة واحدة ، مثل ما أمر الله ﷻ بالحج بقوله : ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة : ١٩٦] ، وقوله : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران : ٩٧] فلم يقيده بقيد فتبرأ ذمته بالحج مرة .

إذا تقرر ذلك فما معنى الصلاة على النبي ﷺ ، أو الصلاة مطلقًا ؟ قال جمهور أهل اللغة : إن الصلاة في اللغة هي الدعاء ، قال ﷻ : ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة : ١٠٣] ، ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي : ادع لهم ، وكان النبي ﷺ إذا أتاه أحد بزكاة مالهم أو بصدقة أموالهم دعا لهم ، وقد أتاه ابن أبي أوفى بصدقة قومه ، فقال ﷺ : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى »[1] .

ويؤيد القول بأن الصلاة بمعنى الدعاء قول الأعشى في شعره المشهور :

تقولُ بنتي وقد قَرَّبتُ مُرْتَحِلًا ... يَا ربِّ جَنِّبْ أَبِي الأَوْصَابَ والوَجَعَا
عَلَيْكِ مِثْلُ الذِّي صَلَّيْتِ فَاغْتَمِضِي ... يَوْمًا فَإِنَّ لِجَنْبِ المَرْءِ مُضْطَجَعَا

قالت : يا رب ، جنب أبي الأوصاب والوجعا ، فقال هو : عليك مثل الذي صليت ، وهي دعت بهذا الدعاء ، فأطلق الأعشى - وهو عربي - على دعائها الصلاة .

وهذا هو المشهور عند أهل العلم ، لكن ليس معنى الصلاة الدعاء بالمطابقة ، ولكن نقول : الصلاة فيها معنى الدعاء ، فإذا كان مناسبًا أن يكون دعاء فيعطى معنى الدعاء ، وإذا لم يكن ذلك مناسبًا أعطي المعنى الذي يناسب .

وابن القيم ﷺ أطال البحث في هذا في كتابه « جِلاء الأفهام » ، وأنكر أن تكون الصلاة بمعنى الدعاء ، في بحث طويل ماتع يرجع إليه من أراد المزيد ، وأريد ذلك بأدلة كثيرة منها : إن الصلاة لا تكون إلا بالخير في اللغة ، أما الدعاء فيكون بالخير والشر ، وقال أيضًا : إن الدعاء إذا عُدي لا يكون معناه صلى ، بل يكون دعا على فلان ، وليس معناه صلى على فلان ، وقال : إن الصلاة في اللغة معناها الثناء ... وهكذا في اعتراضات موفقة من ابن القيم ﷺ .

وعلى كلٍّ فالمعروف عند السلف أن الصلاة من الله ﷻ هي الثناء ؛ وذلك لأن الله ﷻ يثني على عباده ، فيكون الذي يقول : صلى الله . يطلب من الله ﷻ أن يصلي على محمد بن عبد الله ﷺ ، فتكون الصلاة من الله ﷻ بمعنى الثناء .

قال بعدها : (وعلى آله) الآل : الصحيح أنهم أهل بيت النبي ﷺ خاصته ، وأفضلهم أهل الكساء

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٩٧، ٤١٦٦) ، ومسلم (١٠٧٨) من حديث عبد الله بن أبي أوفى .

الذين أدار عليهم النبي ﷺ الكساء، وقال طائفة من المحققين من أهل العلم: إن آل كل نبي هم أتباعه، مستدلين لذلك بقوله ﷻ: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢٤٨] يعني مما ترك أتباع موسى وهارون.

لكن هاهنا قوله: (وعلى آله وصحبه) الآل: هم آل بيت النبي ﷺ بخصوصه، وأهل السنة والجماعة غالبًا ما يعطفون عليهم الأصحاب، فيقولون: (وعلى آله وأصحابه)، وعطف الأصحاب على الآل شعار لأهل السنة، بخلاف الرافضة الذين يصلون على الآل دون الصحب؛ وذلك لأنهم يتولون الآل دون الصحب، وأما أهل السنة فإنهم يصلون على الآل والصحب معًا إما دائمًا أو كثيرًا.

ورأى طائفة من أهل العلم أنه عند الصلاة على النبي ﷺ يضاف الآل فيقال: (صلى الله على محمد وعلى آله وسلم)؛ وذلك لأنه لما نزل قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، قال الصحابة: يا رسول الله كيف الصلاة عليكم أهل البيت؟ فإن الله قد علمنا كيف نسلم عليكم. قال ﷺ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ على محمدٍ، وعلى آلِ محمدٍ»[1].

قوله: (وسلم تسليمًا مزيدًا) يعني: طلب السلامة له ﷺ امتثالًا لما جاء في قوله ﷻ: ﴿صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] ويحصل الامتثال بالأمر بقول القائل: ﷺ، أو صلى الله وسلم عليه، ومطابقة الامتثال للآية أن يقول: ﷺ؛ لأن الله ﷻ قال:

﴿صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ فيقول المؤمن: ﷺ، أو صلى الله وسلم على محمد، أو اللهم صل وسلم على نبينا محمد.

قال: (أما بعدُ)، هذه كلمة يؤتَى بها للانتقال، وقد استعملها النبي ﷺ في خطبه[2]، واستعملها الصحابة، وقد قيل إنها فصل الخطاب الذي أوتيه داود[3] عليه السلام في قوله ﷻ: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، لكن هذا ليس بصحيح.

قال هنا: (فهذا) إشارة إلى ما سيأتي في هذه العقيدة، يعني: هذا الذي ستراه في هذه الورقات (اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة).

و(الاعتقاد): ما يعقد القلب عليه من الأمور التي تُعتقد، وأصلها من العلم الجازم؛ لأن الاعتقاد

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٠)، ومسلم (٤٠٦) من حديث كعب بن عجرة.

(٢) هي مذكورة في خطبة الحاجة، وقد أخرجها مسلم (٨٦٧، ٨٦٨) من حديث جابر بن عبد الله مختصرة.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوائل (ص ٦٨) مرفوعًا. وابن أبي عاصم في الأوائل (ص١١٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٢٣٧) موقوفًا على أبي موسى الأشعري.

فيه جزم على العلم ، فإذا علمت شيئًا وجزمت به صرت معتقدًا له ، وخص هذا الاسم (الاعتقاد) بشرح أركان الإيمان الستة : الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والإيمان باليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره من الله تعالى ، وما أضيف إلى ذلك من المسائل التي تميز بها أهل الاعتقاد الحق في أسماء الله وصفاته .

وفي أركان الإيمان الستة ما تميز به أهل السنة والجماعة عن سواهم من المبتدعة والزائغين من أهل الفرق المختلفة ، مثل الكلام في مسائل الإمامة ، والصحابة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والأخلاق ، ونحو ذلك .

قال : (فهذا اعتقاد الفرقة الناجية) ، الفرقة هي : الطائفة من الناس أو الطائفة من أي شيء ، فيقال : فرقة من الطير ؛ كما جاء في الحديث الصحيح : « اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آل عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا »(1) . يعني : طائفتان من طير صواف ، وكما قال ﷻ : ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء : ٦٣] ، (الطود) : هو الجبل ، يعني انفلق البحر فكان هذا كالجبل العظيم وهذا كالجبل العظيم ، وما بينهما يابس آية لموسى عليه السلام ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة : ١٢٢] ، والفرقة الناجية سميت فرقة لأجل أنها طائفة ، ولأنها مقابلة بالفرق الأخرى ، ولم يرد - فيما أعلم - هذا النص (الفرقة الناجية) في الحديث ، لكن العلماء أخذوه مما جاء في حديث معاوية وغيره ، في حديث الافتراق المشهور أن النبي ﷺ قال : « افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وسبعونَ في النارِ ، وافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فَإِحْدَى وَسبعونَ فِي النارِ ، وواحدةٌ في الجنَّةِ ، والذي نَفْسُ محمدٍ بيدِهِ لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وسَبعينَ فرقةً ، فَواحِدَةٌ في الجنَّةِ ، وثِنْتَانِ وسبعونَ في النارِ » . قيل : يا رسول الله ، مَن هم ؟ قال : « الجماعةُ »(2) .

فيفهم من هذا الحديث أن هذه الفرقة التي هي الجماعة هي الفرقة الناجية ، وغيرها من الفرق فرق هالكة ؛ ولهذا قال أهل العلم في وصف من اعتقد الاعتقاد الحق وكان مع الجماعة : إنه من الفرقة الناجية . ووصفها بأنها ناجية يعني : ناجية من النار ، وهي ناجية في الدنيا من عقاب الله ﷻ ، ومن

---

(1) أخرجه مسلم (٨٠٤) من حديث أبي أمامة الباهلي .

(2) أخرجه أبو داود (٤٥٩٦) ، والترمذي (٢٦٤٠) ، وابن ماجه (٣٩٩١) من حديث أبي هريرة . وقال الألباني في صحيح أبي داود (٣٨٤٢) : حسن صحيح .

أنواع عقوباته وسخطه، وناجية في الآخرة من النار؛ لقوله ﷺ: «كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة». فكل الفرق متوعدة بالهلاك، وأما هذا الفرقة فهي الناجية.

فإذن (الناجية) هي صفتها في الآخرة، يعني: ناجية في الآخرة، وأما صفتها في الدنيا فهي (المنصورة)؛ كما قال شيخ الإسلام هنا ناعتًا هذه الفرقة بنعتين: (فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة)، فأهل السنة والجماعة هم الفرقة الناجية وهم الطائفة المنصورة.

والفرقة الناجية والطائفة المنصورة بمعنى واحد، ولكن وصفها بأنها ناجية باعتبار الآخرة، وفي ذلك أيضًا نجاة في الدنيا، ووصفها بأنها منصورة باعتبار الدنيا، وهذا لأجل ما جاء في الأحاديث الكثيرة أن النبي ﷺ قال: «لَا تَزالَ طائفةٌ مِن أمتي ظَاهرينَ عَلَى الحقِّ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهمْ حتى يَأْتِيَ أَمرُ اللَّهِ وهُمْ كَذلك»(١)، فهي طائفة منصورة، وهم على الحق ظاهرون ومنصورون، ينصرهم الله ﷻ على من عاداهم، إما بالحجة نصر بيان، وإما بالسنان نصر سنان إذا كان ثم جهاد قائم، وهذا لا يخلو منه أهل السنة والجماعة، وقد قال الإمام أحمد وغيره في تحديد من هي الفرقة الناجية المنصورة: «إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري مَن هم»؛ وذلك لأن أهل الحديث في زمن الإمام أحمد، كانوا هم القائمين لنصرة الدين والمنافحة عن الاعتقاد الصحيح، والرد على المخالفين من أهل البدع الذين أَدخلوا في الإسلام ما ليس منه، الذين راموا تحريف الكلم عن مواضعه.

والإمام البخاري رحمه الله لما ذكر هذا الحديث، قال: «الجماعة هم أهل العلم».

وإليه مال الترمذي في جامعه وغيره.

فالفرقة الناجية المنصورة هم أهل الحديث؛ كما عليه أقوال أكثر أهل العلم، وهم أهل العلم، وهم الذين اعتقدوا الاعتقاد الحق، فمن اعتقد الاعتقاد الحق فهو ناجٍ بوعد الله ﷻ له، ووعد الرسول ﷺ له في الآخرة، وهو منصور في الدنيا ومنصور في الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، فهم منصورون في الدنيا ومنصورون في الآخرة.

فهذا النعت الذي عبر به شيخ الإسلام رحمه الله يُنبئ عما كان كالإجماع عند أهل السنة والجماعة، وعند أهل الحديث، وعند أئمة الإسلام، أن الفرقة الناجية والطائفة المنصورة كلها تدل على طائفة واحدة وعلى فرقة واحدة، وهم الذين اعتقدوا الاعتقاد الحق، وساروا على نهج السلف الصالح رضوان الله عليهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٤١) من حديث معاوية، ومسلم (١٩٢٠) من حديث ثوبان.

وقد عُقد لشيخ الإسلام مجلس محاكمة على هذه العقيدة لما ألفها ، وقيل له : إنك تقول في هذا الاعتقاد : (فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة) ، فهل معنى ذلك أنك تقول : إن من لم يعتقد هذا الاعتقاد فليس بناج من النار؟ فقال رحمه الله مجيبًا في المجلس الذي حوكم فيه من قبل القضاة ومشايخ زمنه : لم أقل هذا ولم يقتضه كلامي ، وإنما قلت : فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة ، فمن اعتقد هذا الاعتقاد كان موعودًا بالنجاة ، ومن لم يعتقد هذا الاعتقاد لم يكن موعودًا بالنجاة وكان متوعدًا بالعذاب ، وقد ينجو بأسباب ، منها : صدق المقام في الإسلام ، وكثرة الحسنات الماحية في الجهاد في نصرة الإسلام ، وذلك لمن عنده نوع مخالفة لهذا الاعتقاد .

كما هو عند طائفة من أهل العلم ، فإنهم قد يكون عندهم - كما قال شيخ الإسلام - من الحسنات الماحية وصدق المقام في نصرة الإسلام ما يُكَفِّر اللَّه ﷻ به عنهم المعصية والكَبيرة التي عملوها ، وهي سوء الاعتقاد الذي اعتقدوه ، ولم يعتقدوا ما كان عليه أهل السنة والجماعة .

قوله : (إلى قيام الساعة) ، يعني : إلى قيام ساعة المؤمنين أي : الطائفة المنصورة ، وذلك يكون قبل طلوع الشمس من مغربها بزمن قليل ، عند كثير من أهل العلم ؛ كما قال النبي ﷺ فيما صح عنه في الحديث : « .. يُرسلُ اللَّهُ ريحًا باردةً من قبلِ الشَّامِ فلا يَبقى على وجهِ الأرضِ أحدٌ في قلبِهِ مثقالُ ذرةٍ من خيرٍ أو إيمانٍ إلَّا قَبَضَتْهُ ، حتَّى لو أنَّ أحدكمْ دخلَ في كبدِ جبلٍ لَدَخَلَتْهُ عليه حتَّى تَقْبِضَهُ ، فيبقَى شِرَارُ الناسِ في خِفَّةِ الطيرِ وأحلامِ السِّباعِ ، لا يعرفونَ معروفًا ولا يُنْكِرونَ مُنكرًا .. »[1] .

قوله : (أهلِ السنةِ والجماعة ...) :

ذكر شيخ الإسلام - فيما سبق - أن هذا الاعتقاد الذي في هذه الرسالة هو (اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة) ، ثم وصفهم بوصف ثالث تميز به هؤلاء عمن خالفهم ، وهو أنهم (أهل السنة والجماعة) ، ومعنى أهل السنة والجماعة أنهم أصحاب السنة الذين لزموها في اعتقادهم ولزموها في أقوالهم وأعمالهم - يعني في الجملة - وتركوا غير ما دلت عليه السنة .

و (السنة) هي الطريقة التي كان عليها رسول اللَّه ﷺ وأصحابه المنتخبون الخيرة ومن سار على نهجهم .

والسنة في الاصطلاح : هي ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو وصف . والمراد هنا : ما كان عليه النبي ﷺ من الأقوال والأعمال والتقريرات ، فهذا ينسب إليه أهل السنة بهذا الاعتبار ، فيقال : هم أهل السنة ، يعني : هم أهل اتباع أقوال النبي ﷺ ، وأهل اتباع أفعاله ، وأهل اتباع تقريراته ﷺ .

(١) أخرجه مسلم (٢٩٤٠) من حديث عبد اللَّه بن عمرو .

وهذا اللفظ (أهل السنة) يطلق باعتبارين :

الأول : يطلق ويراد به من خالف الشيعة والرافضة وفرقهم وما تفرع منهم ، فيدخل في هذا الإطلاق أهل الأثر - أهل الحديث - ويدخل فيه الأشاعرة ، ويدخل فيه الماتريدية ، ويدخل فيه كل من خالف الرافضة ، فيدخل فيه الذين عندهم نوع احتجاج بالحديث ، ويخرج الرافضة والشيعة والخوارج والمعتزلة ونحو ذلك ، هذا باعتبار مقابلة هذا اللفظ بأهل التشيع ، فيقال : السنة والشيعة ، وأهل السنة وأهل التشيع .

الثاني : يُطلق ويراد به أهل اتّباع النبي ﷺ في الأقوال والأفعال والتقريرات ، الذين لا يقدمون شيئًا من العقول على سنة النبي ﷺ ، سواء في الأخبار أو في الأحكام أو في السلوك والأخلاق ، وهذا الذي يُعنى به هذه الطائفة ، وهم طائفة أهل الأثر ، طائفة أهل السنة والجماعة ، طائفة أهل الحديث ، الذين تميزوا بهذا الاعتقاد ، وهم الفرقة الناجية والطائفة المنصورة إلى قيام الساعة .

فتلخص إذن أن هذا اللفظ ، وهو (أهل السنة) دون أن تُعطف (الجماعة) على السنة ، يُطلق بأحد هذين الاعتبارين ، قد يطلق ويراد به ما عدا الرافضة ، وقد يطلق - وهو الأصل - ويراد به من لازم السنة ، على ما سبق تفصيله .

وأما قوله : (والجماعة) فإن هذا اللفظ استعمله طائفة من أئمة السنة المتقدمين من طبقة مشايخ الإمام أحمد وطبقته ومن بعدهم ، وقد جاء في الأحاديث الصحيحة أن النبي ﷺ استعمل لفظ (الجماعة) ، فمنها أنه ﷺ ذكر الفرقة الناجية في حديث الافتراق المشهور ، حيث قال بعدما ساق الافتراق : « كُلها في النارِ إلا واحدةً ، وهي الجماعةُ » ، وفي لفظ آخر قال : « كلُّهَا في النَّارِ إلا واحدةً » . قالوا : من هي يا رسول اللّه ؟ - قال : « مَن كانَ على مثلِ ما أنَا عليهِ وأصْحَابِي » ، وفي رواية أخرى زاد لفظ : « اليوم » بقوله : « مَنْ كانَ على مثلِ ما أنَا عليهِ اليومَ وأَصْحَابي »[1] .

وقد جاء الحث على التمسك بالجماعة ولزومها في أحاديث كثيرة ، والآيات التي فيها النهي عن التفرق فيها الأمر بلزوم الجماعة بالمفهوم ، وقد جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال : « الجماعةُ رحمةٌ والفرقةُ عذابٌ »[2] ، والنصوص في ذكر الجماعة كثيرة ، وفي الحث عليها والحض على لزومها ، والتحذير من مخالفة الجماعة . وقد اختلف أهل العلم من المتقدمين في معنى الجماعة وتفسير الجماعة على أقوال :

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤١) من حديث عبد اللّه بن عمرو . وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢١٢٩) .

(٢) أخرجه عبد اللّه ابن الإمام أحمد في زوائد المسند (٤/ ٢٧٨) ، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٤٤) من حديث النعمان بن بشير . وحسن إسناده الألباني في الصحيحة (٦٦٧) .

القول الأول : أن (الجماعة) هم السواد الأعظم ، وهذا التفسير منقول عن ابن مسعود الهذلي الصحابي المعروف ، وأبي مسعود الأنصاري البدري ﷺ ساق عنهما ذلك جمع منهم :

اللالكائي في كتابه : « شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة » ، قال : « إن الجماعة هي السواد الأعظم » .

وقد جاء في بعض الأحاديث ، وفي إسنادها من لا يحتج به أنه قال ﷺ : « عليكم بِالسَّوادِ الأعظمِ »[1] ، فأخذوا أن الجماعة هي السواد الأعظم ، ويعنون بذلك السواد الأعظم في وقتهما ، وذلك بأنه في آخر وقت ابن مسعود بدأ ظهور الذين ينقمون على عثمان ﷺ من الخوارج ومن شابههم ، وحثوا على لزوم السواد الأعظم ، وهو سواد عامة صحابة رسول الله ﷺ .

القول الثاني : أن(الجماعة) هم جماعة أهل العلم والسنة والأثر والحديث ، سواء كانوا من أهل الحديث تعلمًا وتعليمًا ، أو كانوا من أهل الفقه تعلمًا وتعليمًا ، أو أهل اللغة تعلمًا وتعليمًا ، فالجماعة هم أهل العلم والفقه والحديث والأثر ، وهذا القول هو مجموع أقوال عدد من الأئمة حيث قالوا : إن الجماعة وإن الفرقة الناجية هم أهل الحديث .

كما ذكر ذلك الإمام أحمد بقوله : « إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم » ، وذكر ذلك أيضًا عبد الله بن المبارك ، ويزيد بن هارون ، وجماعة من أهل العلم . وقال آخرون : هم أهل العلم . كما ذكره البخاري .

خلاصة هذا القول : أن الجماعة هم أهل العلم ، وأهل الحديث ، وأهل الأثر ، ساق تلك الأقوال الخطيب البغدادي في كتابه « شرف أصحاب الحديث » بأسانيدها إلى من قالها .

وهذا الذي اشتهر عند العلماء - بل عُدَّ إجماعًا - أن المعني بالجماعة وبالفرقة الناجية هم أهل الحديث والأثر- يعني : في زمن الإمام أحمد ومن قاربه - لأنهم هم الذين نفوا عن دين الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وهم الذين نصروا السنة ، ونصروا العقيدة الحقة وبينوها ، وردوا على من خالفها ، وأعلنوا عليه النكير من كل جهة .

القول الثالث : أن الجماعة هم أصحاب رسول الله ﷺ ، وهذا القول منسوب إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز الأموي ﷺ ، وهذا القول دليله واضح ، وهو أن النبي ﷺ قال في بعض ألفاظ حديث الافتراق : « هي الجماعة » ، وقال في ألفاظ أخر : « مَنْ كانَ على مثلِ مَا أنَا عليهِ اليومَ وأصحابِي »[2] ،

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٩٥٠) من حديث أنس بن مالك . وقال الألباني في « ضعيف ابن ماجه » (٨٥٦) : ضعيف جدًا .

(٢) تقدم تخريجه .

معنى ذلك أن الجماعة هي الصحابة .

القول الرابع : وهو قول نذكره لكن لا دليل عليه : أن الجماعة هي أمة الإسلام عامة . لكن هذا باطل ؛ لأنه يناقض حديث الافتراق ، فإن حديث الافتراق يبين أن أمة الإسلام- يعني : أمة الإجابة - تفترق إلى ثلاث وسبعين فرقة ، وتفسير الجماعة بأنها أمة الإسلام يناقض الحديث مناقضة واضحة صريحة .

القول الأخير : أن الجماعة يراد بها عصبة المؤمنين الذين يجتمعون على الإمام الحق ، فيدينون له بالسمع والطاعة ، ويعقدون له البيعة الشرعية . واختار هذا القول ابن جرير الطبري رحمه الله وجماعة كثيرون من أهل العلم ، قالوا : لأنه بهذا يحصل الاجتماع والائتلاف إذا كان على إمام حق .

إذا كان كذلك فهذه الأقوال ، كما ترى ، متباينة ولكن في تحديد من هم أهل السنة والجماعة نحتاج إلى أن نعلم هذه الأوصاف التي ذكرت في هذه الأقوال ، وتحقيق المقام أن الأقوال الثلاثة الأول وهي : القول بأن الجماعة هم السواد الأعظم ، أو أن الجماعة هم أهل الحديث والأثر ، أو أن الجماعة هم صحابة رسول الله ﷺ ، هذه الأقوال متقاربة ، وهي من اختلاف التنوع ، لأن الجماعة الذين هم السواد الأعظم - كما فسرها أبو مسعود البدري رضي الله عنه - يعنون بها صحابة رسول الله ﷺ .

وفسر أكثر أهل العلم الجماعة بأنهم أهل العلم والأثر والحديث ؛ لأنهم تمسكوا بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد ، والجماعة المراد بها أصحاب رسول الله ﷺ .

فتحصل إذن أن هذه الأقوال الثلاثة ترجع إلى معنى واحد ، وأن أهل السنة والجماعة هم الذين تابعوا صحابة رسول الله ﷺ ، وتابعوا أهل العلم والحديث والأثر في أمورهم .

أما قول ابن جرير الطبري رحمه الله فهذا صحيح ، وهو أن الجماعة هم عصبة المؤمنين الذين اجتمعوا على الإمام الحق ، وتبيان ذلك مما يبين حصيلة هذا الكلام ويقرره أتم وأوضح تقرير أن الجماعة مقابلة للفرقة ، والافتراق يقابله الاجتماع ، وقد ذكر الخطابي رحمه الله في كتابه : « العزلة » كلمة فائقة فيها تحرير هذا المقام ، قال : « الفرقة فرقتان : فرقة الآراء والأديان ، وفرقة الأشخاص والأبدان ، والجماعة جماعتان : جماعة هي الأئمة والأمراء ، وجماعة هي العامة والدهماء ، فأما الافتراق في الآراء والأديان فإنه محظور في العقول ، محرم في قضايا الأصول ؛ لأنه داعية الضلال ، وسبب التعطيل والإهمال ..» إلى آخر كلامه رحمه الله .

نأخذ من هذا أنه لفهم معنى الجماعة فهمًا دقيقًا فإنه ينبغي على هذا فهم معنى أهل السنة والجماعة حتى لا يدخل فيهم ما ليس منهم .

وتحريره أن الجماعة تطلق باعتبارين :

الأول : جماعة باعتبار الآراء والأديان ، فإذا نظرت إلى هذا المعنى في الاجتماع فإنه مأمور به . والاجتماع على الآراء والأديان ، وعلى الأقوال في الدين ، وعلى الأحكام ، وعلى العقائد ، وعلى المنهج ، ونحو ذلك ، لابد أن يكون له مرجع ، ومرجعه في فهم نصوص الكتاب والسنة هم صحابة رسول الله ﷺ ، وبهذا يلتقي هذا الفهم مع أقوال أهل العلم الذين قالوا : إن الجماعة هم صحابة رسول الله ﷺ .

وعلى هذا فالذين أخذوا بما قالته الصحابة ﵃ ، وما بينته الصحابة من أحكام الشرع الخبرية - يعني : من العقائد - فإنهم على الحق الذي لم يكن مع الفرق التي فارقت الجماعة ، وهؤلاء الذين هم مع صحابة رسول الله ﷺ ، هم مع السواد الأعظم قبل أن يفسد ، ومعلوم أنه لا يحتج بالسواد الأعظم في كل حال ، وإنما السواد الأعظم الذي يُحتج به هو السواد الأعظم لصحابة رسول الله ﷺ . وهذه مسألة في غاية الأهمية ؛ إذ الاحتجاج بالسواد الأعظم إنما يُراد به السواد الأعظم للمهتدين وهم صحابة رسول الله ﷺ ومن تابعهم في أمور الدين ، فهناك إذن قولان رجعا إلى هذا المعنى .

كذلك من قال بأن الجماعة هم أهل العلم ، والحديث ، والأثر ، ومن سار على نهجهم من الفقهاء ، وأهل اللغة ، ونحو ذلك ، فهؤلاء إنما أخذوا بأقوال الصحابة ، رضوان الله عليهم ، وساروا على ما قرروه ، فإذن هم مع الجماعة قبل أن تفسد الجماعة ، ومع السواد الأعظم قبل أن يتفرق الناس عنه .

وقد جاء عن نعيم بن حماد أنه قال : « إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد ، وإن كنت وحدك فإنك أنت الجماعة حينئذ » ، وهذا يُراد به ما كان عليه صحابة رسول الله ﷺ قبل أن يفسد الناس ؛ لأنه حصلت فتن وحصلت في الناس أمور منكرة وافتراق في الدين ، فكيف تضبط هذه المسألة ، وهي أعظم المسائل التي هي مسألة الاعتقاد وما يجب اعتقاده ، وما يُنتهج في الحياة ؟

قال أهل العلم : إن الجماعة - يعني : التي من تمسك بها فهو على الجماعة ومن حاد عنها فهو من أهل الفرقة - هم صحابة رسول الله ﷺ . وهذا ظاهر .

الثاني : اجتماع في الأبدان والأشخاص ، وهذا هو الذي فهمه ابن جرير الطبري ؒ ولا شك أن هذا مأمور به في نصوص كثيرة ، فقد أمر النبي ﷺ بلزوم الجماعة ، والاجتماع على الإمام ، وعدم التفرق عليه ، وترك الخروج عليه ، والبعد عن الفتن التي تفرق المؤمنين ، وهذا مما تميز به صحابة رسول الله ﷺ ، وتميز به أهل السنة في كل عصر ، فنظر ابن جرير ؒ في هذا المعنى إلى ما فعله الإمام أحمد ؒ مع ما حصل من المأمون والمعتصم والواثق ؛ فإنه لم ينزع يدًا من طاعة ؛ لأنه رأى أن

الاجتماع إنما يحصل بذلك ، فأخذ بما جاء في النصوص في هذا المعنى ، وهكذا أهل السنة والجماعة هم على هذين الأمرين . فإذن تحصل أن معنى الجماعة وإن تعددت الأقوال فيها ؛ فإن هذه الأقوال كاختلاف التنوع ؛ لأن جميعها صحيح دلت عليه نصوص الشرع ، فباجتماع هذه الأقوال يحصل لنا المعنى الصحيح لأهل السنة والجماعة .

وقد غلط من غلط في معنى السنة وَالجماعة ، فأدخل في أهل السنة والجماعة بعض الفرق الضالة ؛ كالأشاعرة ، والماتريدية ، ومن أمثال من غلط من المتقدمين السفاريني في شرحه « لوامع الأنوار البهية » ، فقال : « اعلم أن أهل السنة والجماعة ثلاث طوائف : أهل الحديث والأثر ، والأشاعرة ، والماتريدية » . وعلى هذا الكلام فإن الأشعرية والماتريدية وأهل الأثر جميعًا من الجماعة ، وهذا باطل ؛ لأن أهل الأثر هم الذين تمسكوا بما كانت عليه الجماعة ، وأما الأشاعرة والماتريدية فهم يقولون قولتهم المشهورة : « إن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم » ، وهذا لا شك أن فيه افتراء وفرقة وخلافًا واختلافًا عما كانت عليه الجماعة قبل أن يذر مخيم الابتداع في هذه الأمة .

فإذن هذا الكلام غلط على أهل السنة والجماعة ، ولم يقل به أحد من أئمة أهل السنة والجماعة ، فإذن أهل السنة والجماعة فرقة واحدة ، وطائفة واحدة لا غير ، وهم الذين يعتقدون هذا الاعتقاد الذي سيبينه شيخ الإسلام رحمه الله في هذه الرسالة .

وإذا تبين أن من لم يكن على هذه الجماعة فإنه على الفرقة والضلال والاختلاف ، فهذا يبين أهمية العناية بهذه الرسالة التي تشرح اعتقاد أهل السنة والجماعة قبل أن يخالفها المخالفون ، وقبل أن يكثر الفساد والاختلاف في هذه الأبواب ، ليتبين وجوب التزام طريقتهم ونهجهم في هذه الأمور التي سيبينها شيخ الإسلام في هذه الرسالة العظيمة . وكل ما سيأتي في هذه الرسالة هو تفصيل لاعتقاد أهل السنة والجماعة مع شيء من الاقتضاب يناسب هذه الرسالة .

قوله : (وهو الإيمانُ باللهِ ، وملائكتِه ، وكُتبه ، ورُسلِه ، والبعثِ بعدَ الموتِ ، والإيمانُ بالقدرِ خيرِه وشرِّه) :

قد مرت معنا مقدمة هذه الرسالة الوجيزة في ألفاظها ، الكبيرة في معانيها ، وقد ذكر رحمه الله أن هذا الاعتقاد الذي سيأتي في هذه الرسالة مفصلًا هو اعتقاد الفرقة الناجية ، وهو اعتقاد الطائفة المنصورة ، وهو اعتقاد أهل السنة والجماعة .

وقال هنا في بيان هذا الاعتقاد : (وهو الإيمانُ باللهِ ، وملائكتِه ، وكُتبه ، ورُسلِه ، والبعثِ بعدَ الموتِ ، والإيمانُ بالقدرِ خيرِه وشرِّه) ،اعتقاد أهل السنة والجماعة مبني على هذه الأركان التي بينها الشيخ رحمه الله في هذه الكلمات ، وهذه الكلمات هي أركان الإيمان التي جاء الأمر بها في الآيات

والأحاديث الصحيحة، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فذكر هذه الخمسة، وقال ﷻ في آخر السورة نفسها: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وقد جاءت هـذه الستة في حديث جبريل عليه السلام الذي في الصحيح، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: «قالَ: فَأَخبِرني عن الإيمانِ، قالَ: أنْ تؤمنَ باللّهِ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ واليومِ الآخرِ، وتؤمنَ بالقدرِ خيرِه وشرِّهِ»(١)، هذه الأركان الستة هي أركان الإيمان.

والإيمان إذا قُرن بالإسلام فيُعنى به الاعتقاد الباطن، وهذه الرسالة فيها ذكر الاعتقاد - اعتقاد أهل السنة والجماعة - فتحصل أن الإسلام يُعنى به الأمور الظاهرة، والإيمان يُعنى به الأمور الباطنة؛ أمور اعتقاد القلب، وهو مبني على أركان ستة:

الأول: الإيمان بالله.

الثاني: الإيمان بالملائكة.

الثالث: الإيمان بالكتب.

الرابع: الإيمان بالرسل.

الخامس: الإيمان بالبعث بعد الموت، أي: الإيمان باليوم الآخر.

السادس: الإيمان بالقدر خيره وشره من الله تعالى.

فما هو معنى الإيمان؟

الإيمان له معنى في اللغة، وله معنى في الشرع؛ لأنه من الألفاظ التي نقلت من معناها اللغوي إلى معنى شرعي، مثل: الصلاة، والزكاة، ونحو ذلك.

فأما معناه في اللغة: فهو التصديق الجازم؛ كما قال تعالى مخبرًا عن قول إخوة يوسف لأبيهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، يعني: ما أنت بمصدقنا ولو كنا صادقين، فالإيمان في اللغة: هو التصديق، آمن لفلان يعني صَدقه، آمنت لكلامك يعني صدقت لكلامك حيث إنه لا ريب عندي فيما تقول.

وأما معناه في الشرع: فهو قول وعمل، قول القلب وعمل القلب، وقول الجوارح وعمل الجوارح، فالإيمان في الشرع فيه زيادة على معناه اللغوي أنه له موارد- القلب والجوارح - فهو «قول وعمل».

(١) أخرجه مسلم (٨).

وقد حصر هذا أهل العلم بقولهم : « إن الإيمان في الشرع هو : القول باللسان » يعني : شهادة التوحيد « والاعتقاد بالجنان » الاعتقاد المفصل الذي سيأتي بيانه « والعمل بالجوارح والأركان » ، فهذا هو معنى الإيمان في النصوص ، وهو المراد بالإيمان عند أهل السنة والجماعة .

فمعتقد أهل السنة والجماعة في الإيمان ما جمع خمسة أمور ، هي :

الأول : قول القلب وهو اعتقاد القلب ، واعتقادات القلب هي أقواله ؛ لأنه يحدث بها نفسه ويقولها في قلبه ، فأقوال القلب هي الاعتقادات ، وستأتي مفصلة في هذا الكتاب إن شاء اللّه .

الثاني : قول اللسان بالشهادة للّه بالتوحيد ، فيقول : لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه ﷺ .

الثالث : عمل القلب ، وأوله نيته وإخلاصه ، وأنواع أعمال القلوب من التوكل والرجاء والرهبة والخوف والمحبة والإنابة والخشية ، ونحو ذلك .

الرابع : عمل الجوارح والأركان بأنواع الأعمال مثل : الصلاة ، والزكاة ، والجهاد ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ونحو ذلك من الأعمال .

الخامس : أن الإيمان يزيد بطاعة الرحمن ، وينقص بمعصية الرحمن وطاعة الشيطان .

فهذه خمسة أمور تميز بكل واحد منها أهل السنة والجماعة عمن خالفهم في هذا الأصل ، فمن قال من السلف : « إن الإيمان قول وعمل » . فهو يعني به هذه الأمور الخمسة ، أما زيادته ونقصانه فقد دلت عليها الأدلة الكثيرة ؛ كقوله تعالى : ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح : ٤] ، وقوله : ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة : ١٢٤] .

فإذن صار عندنا مسمى للإيمان غير ما تدل عليه اللغة في الإيمان ؛ وذلك أن الإيمان في اللغة أصله التصديق الجازم ، وقال بعض أهل العلم : إن أصله من الأمن ؛ لأن من صدق جازمًا فإنه يأمن غائلة التكذيب .

وفي الاصطلاح عند أهل السنة والجماعة : هو ما فسروه بالأمور الخمسة .

وفي القرآن أتى الإيمان بالمعنى اللغوي وبالمعنى الشرعي ، وقد فرق بين مجيء هذا وهذا في القرآن بعضُ أهل العلم بقوله : إنّ غالب ما جاء فيه الإيمان بالمعنى اللغوي فإنه يُعدى باللام ، وما جاء فيه بالمعنى الشرعي فإنه يُعدى فيه بالباء .

أما القسم الأول : وهو الإيمان اللغوي الذي عُدي باللام ، مثل قول اللّه ﷻ - : ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف : ١٧] ، فلمّا قال ﴿بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ فعدى الإيمان باللام علمنا أن الإيمان هنا بالمعنى اللغوي . تقول : آمنت لك : يعني : صدقتك تصديقًا لازمًا ؛ وكما قال ﷻ : ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت : ٢٦] ، يعني : صدق به تصديقًا لازمًا .

أما القسم الثاني : وهو الإيمان الشرعي ، فإنه يُعدى بالباء ، مثل قول الله ﷻ : ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ [البقرة : ٢٨٥] ، وقوله : ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [البقرة : ١٣٧] ، فهذا إيمان شرعي خاص .

وزيادة الإيمان ونقصانه أصل عند أهل السنة والجماعة يخالفون به الخوارج ومن يُكفرون بالذنوب ، وينبغي أن يُعلم هنا أن أهل السنة يقولون : « لا نُكفر بذنب » . ويقصدون بذلك لا يُكفرون بعمل المعاصي ، أما مباني الإسلام العظام التي هي الصلاة والزكاة والحج ففي تكفير تاركها والعاصي بتركها خلاف مشهور عندهم ، فقولهم : إن أهل السنة والجماعة يقولون : لا نُكفّر بذنب ما لم يستحله بإجماع . يعني المعصية ، أما المباني العظام فإن التكفير عندهم الخلاف فيه مشهور ، يعني منهم من يُكفر بترك مباني الإسلام العظام أو أحد تلك المباني ، ومنهم من لا يُكفّر .

كذلك ينبغي أن يُعلم أن قولنا : العمل داخل في مسمى الإيمان وركن فيه لا يقوم الإيمان إلا به ، نعني به جنس العمل وليس أفراد العمل ؛ لأن المؤمن قد يترك أعمالًا كثيرة صالحة مفروضة عليه ويبقى مؤمنًا ، لكنه لا يُسمى مؤمنًا ولا يصح منه إيمان إذا ترك كل العمل ، يعني إذا أتى بالشهادتين وقال : أقول ذلك وأعتقده بقلبي ، وأترك كل الأعمال بعد ذلك ، وأكون مؤمنًا . فالجواب : أن هذا ليس بمؤمن ؛ لأن ترك العمل مُسقط لأصل الإيمان ، يعني ترك جنس العمل مُسقط للإيمان ، فلا يوجد مؤمن عند أهل السنة والجماعة يصح إيمانه إلا ولا بد أن يكون معه مع الشهادتين جنس العمل الصالح ، جنس الامتثال للأوامر والاجتناب للنواهي .

كذلك الإيمان مرتبة من مراتب الدين ، والإسلام مرتبة من مراتب الدين ، والإسلام فُسر بالأعمال الظاهرة ؛ كما جاء في المسند أن النبي ﷺ قال : « الإيمانُ في القلبِ والإسلامُ علانيةٌ »[1] ، يعني أن الإيمان ترجع إليه العقائد ، أعمال القلوب ، وأما الإسلام فهو ما ظهر من أعمال الجوارح .

فليُعلم أنه لا يصح إسلام عبد إلا ببعض إيمان يصحح إسلامه ؛ كما أنه لا يصح إيمانه إلا ببعض إسلام يصحح إيمانه ، فلا يتُصور مسلم ليس بمؤمن البتة ، ولا مؤمن ليس بمسلم البتة ، وقول أهل السنة : إن كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنًا . لا يعنون به أن المسلم لا يكون معه شيء من الإيمان أصلًا ، بل لابد أن يكون معه مُطلق الإيمان الذي به يصح إسلامه ، كما أن المؤمن لابد أن يكون معه مُطلق الإسلام الذي به يصح إيمانه - ونعني بُمطلق الإسلام جنس العمل - فبهذا يتفق ما ذكروه في تعريف الإيمان ، وما أصلوه من أن كل مؤمن مسلم دون العكس .

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ١٥٧) ، وأحمد (٣/ ١٣٥) من حديث أنس بن مالك - وأنكره الألباني في الضعيفة (٦٩٠٦) .

فإذن هاهنا - كما يقول أهل العلم عند أهل السنة والجماعة - خمس نونات :

النون الأولى : أن الإيمان قول اللسان ، هذه النون الأولى يعني اللسان .

الثانية : أنه اعتقاد الجنان .

الثالثة : أنه عمل بالأركان .

الرابعة : أنه يزيد بطاعة الرحمن .

والخامسة : أنه ينقص بطاعة الشيطان وبمعصية الرحمن .

والإيمان متفاضل ، كلما عمل العبد طاعة زاد إيمانه ، وكلما عمل العبد معصية نقص إيمانه ، فبقدر المعصية ينقص الإيمان ، وبقدر إيمانه ومتابعته وإحداثه للطاعات يزيد إيمانه ، سواء كانت طاعات القلوب من الاعتقادات والأعمال ، أو طاعات الجوارح من الأعمال الصالحات ، فإن الإيمان يزداد بذلك ، فإذا عمل معصية نقص الإيمان .

كذلك فإن الناس في أصل الإيمان ليسوا سواء بل مختلفون ، فإيمان أبي بكر ليس كإيمان سائر الصحابة ؛ ولهذا قال شعبة أبو بكر بن عياش القارئ المعروف : « ما سبقهم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام وإنما بشيء وقر في قلبه » ، وهذا مستقى من بعض الأحاديث أو من بعض الآثار ، ويعني أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان معه من أصل الإيمان ما ليس عند غيره ، فيغلِّط أهلُ السنة من قال : « إن أهل الإيمان في أصله سواء ، وإنما يتفاضلون بعد ذلك في الأعمال » ، بل هم مختلفون في أصله .

وفهمُ معتقد أهل السنة والجماعة في الإيمان يمنع من الدخول في الضلالات ؛ من التكفير بالمعصية ، أو من التكفير بما ليس بمكفر ، فلو فهم المسلم معتقد أهل السنة والجماعة في الإيمان حصَّن لسانه وعقله من الدخول في الغلو في التكفير ، واتباع الفرق الضالة التي سارعت في باب التكفير فخاضت فيه بغير علم ، فكفروا المسلمين ، وأدخلوا في الإسلام والإيمان من ليس بمسلم ولا مؤمن .

قال هنا : (وهو الإيمان بالله) ، والإيمان بالله يشمل أشياء :

أولًا : أن يؤمن العبد بأن له ربًّا موجودًا ، وأن المخلوقات لم توجد من عدم ، وأن لهذا الملكوت مُوجِدًا .

الثاني : أن يؤمن بأن هذا الذي له هذا الملك واحد في ربوبيته ، لا شريك له في ملكه ، يحكم في ملكه بما يشاء ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لأمره ، وهذا الذي يُعنى به توحيد الربوبية .

ثالثًا : الإيمان بأن هذا الذي له ملكوت كل شيء وأنه صاحب هذا الملك وحده دونما سواه ، الذي ينفذ أمره في هذا الملكوت العظيم ، أنه له الأسماء الحسنى والصفات العلا ، له النعوت الكاملة ، وله الكمال المطلق بجميع الوجوه ، الذي ليس فيه نقص من وجه من الوجوه ، بل له الكمال في

أسمائه ، وله الكمال في صفاته ، وله الكمال في أفعاله ، وله الكمال في حكمه في بريته وفي خلقه ، وهذا هو الذي يُعنى به توحيد الأسماء والصفات . ويعتقد مع ذلك أنه في تلك النعوت وتلكم الصفات أنه ليس ثَم أحد يماثله فيها ولا يكافئه فيها ؛ كما قال ﷻ- : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] ، وقال : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص : ٤] ، فليس له ﷻ مثيل ، ولا كفء ، ولا نظير ، ولا ند ، ولا عدْل ، تبارك ربنا وتعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا .

الرابع والأخير- وهو المهم الأعظم في الإيمان بالله - : الإيمان بأن هذا الرب الذي له الملك وحده دونما سواه ، والذي له نعوت الجلال والجمال والكمال على وجه الكمال أنه هو المستحق للعبادة وحده دونما سواه ، وأن كل ما سواه لا يستحق شيئًا من العبادة ، وأن أنواع العبادة - عبادات القلب أو عبادات الجوارح - أن المستحق لها قليلها وكثيرها هو الله ﷻ وحده دونما سواه . فمن أتى بهذه الدرجات الأربع فقد أتى بالإيمان بالله الذي هو ركن من أركان الإيمان ، ومن ترك الأولى منها فهو ملحد لا شك ، يتبع ذلك أنه لا يعتقد شيئًا بعد ذلك ، وكذلك من أشرك في الربوبية ولم يعتقد الربوبية الكاملة لله ﷻ وحده فإنه تبع ذلك ، وكذلك من لم يوحد الله ﷻ في العبادة فإنه لا يسمى مؤمنًا بالله ولو كان يعتقد أن الله ﷻ موجود ، وأن له الربوبية الكاملة له وحده دونما سواه ، وأنه له الأسماء الحسنى والصفات العلا ، فإذا لم يوحد الله ﷻ في العبادات في نفسه ، أو أقر عدم توحيد الله ﷻ بتصحيحه لذلك أو بتجويزه له فهو لم يؤمن بالله . أما من أشرك في الأسماء والصفات ، فهل ينتفي إيمانه بذلك فيصبح كافرًا ؟ الجواب : من لم يؤمن بتوحيد الأسماء والصفات ففي حقه تفصيل يأتي إن شاء الله تعالى في هذه الرسالة ، لأنه سيأتي بعد قليل قول شيخ الإسلام : (ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه) ، وسيذكر الإيمان بالأسماء والصفات من الكتاب والسنة على وجه التفصيل ، فنرجئ تفصيل هذا الحكم إلى موضعه .

إذن من أنكر توحيد الأسماء والصفات ، يعني : من لم يثبت لله ﷻ جميع الصفات ، أو قال بالتشبيه في بعض المواضع ، أو نحو ذلك ، فهل يقال : إن هذا ليس يؤمن بالله ؟ الجواب : ثَم تفصيل يأتي في موضعه إن شاء الله تعالى ، وهو من المهمات ؛ لأن من الناس من غلا في هذا الجانب وكفر بالإخلال بشيء من أفراد توحيد الأسماء والصفات .

الثاني من أركان الإيمان : الإيمان بالملائكة ، فلا يصح إيمان العبد إلا أن يؤمن بالملائكة ، ولفظ الملائكة جمع « ملأك » ، وأصل هذه الكلمة « ملأك » مقلوبة عن « مألك » ، والمألك : مصدر - يعني بالاعتبار العام- أصلها من الألوكة ، والألوكة : هي الرسالة ، وفعلها ألك يألك ألوكة ، يعني : أرسل برسالة خاصة وبمهمة خاصة .

فإذن الكلمة راجعة إلى معنى الإرسال ، « فالملائكة » من لفظها اللغوي معناها : المرسلون برسالة خاصة والقائمون بمهمة خاصة .

كما قال الشاعر أبو ذؤيب :

أَلِكْنِي إِليها وخيرُ الرَّسُو ... لِ أَعْلَمُهُمْ بِنَواحِي الخَبَر

أي : أرسلني إليها برسالة خاصة .

والإيمان بالملائكة مرتبتان : إيمان إجمالي ، وإيمان تفصيلي .

المرتبة الأولى : الإيمان الإجمالي ، هو المعني بهذا الركن ، ومعناه أن يؤمن العبد بأن الملائكة خلْقُ الله ﷻ ، خلقهم من نور ؛ كما جاء في حديث عائشة - ﵂ - الذي رواه مسلم : « خُلقتِ الملائكةُ مِنْ نورٍ »[1] . فهم أرواح مطهرة مكرمة جعلهم الله ﷻ عنده ، يعني : أنه جعلهم في السماء ، فأصل مقامهم في السماء ، وقد يوكلون بأعمال في الأرض فينزلون بأمر الله ﷻ ، قال تعالى : ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر : ٤] ، وقال : ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء : ١٩٣] ، يعني : أصل مكانهم في السماء ؛ كما أن أصل مكان الجن والإنس في الأرض . فمن اعتقد هذا الإيمان الإجمالي وهو أن الملائكة خلق من خلق الله ﷻ ، وأنهم خلق مطهرون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وأنهم عبيد الله وليسوا بمعبودين ، فقد حقق وأتى بهذا الركن وهذه المرتبة الإجمالية ، فمن قال من العوام : أؤمن بأن الملائكة موجودون وهم عبيد الله ﷻ ولا يُعْبَدُون . فقد حقق هذا الركن .

المرتبة الثانية : الإيمان التفصيلي ، وهي الإيمان بكل ما أخبر به الله ﷻ في كتابه ، أو أخبر به النبي ﷺ في السنة من أحوال الملائكة وصفاتهم وخلقهم ومميزاتهم ، وما وكلوا به ، وأنواع المهمات ، ونحو ذلك ، وهذا إيمان تفصيلي يلزم العبد الإيمان به إذا علم النص في ذلك ، فإذا علم النص وجب عليه الإيمان به ؛ لأنه أمر غيبي ، أما من لم يصل إليه النص فإنه لا يكون ناقصًا لإيمانه بالملائكة إذا كان قد أتى بالإيمان الإجمالي ؛ لأن الإيمان التفصيلي يختلف فيه الناس تبعًا للعلم .

فلو سألت عاميًا وقلت له : هل تؤمن بإسرافيل ؟ فقال : لا أؤمن بإسرافيل ، من إسرافيل هذا ؟ فهذا لا يُعد كافرًا لوجود هذا الملك إلا إذا عُرف بالنصوص وعُلم بها إعلامًا ، فيكون بعد ذلك الجاحد له كافرًا ، وهذا مرجعه إلى تكذيب النصوص لا عدم الإيمان بالملائكة ؛ لأنه قد يكون مؤمنًا بجنس الملائكة لكن ليس مؤمنًا بهذا على هذا الوجه ، فيكون مكذبًا للنص ، فيُعرَّف ويُعلم ، فإن أنكر كفر .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٦٦) .

فيمكن أن نقول في جُملة بحث الملائكة : الملائكة من حيث خلقهم خلق عظيم ، يعني : في الصفة ، وأنهم خلقوا من نور ، فلا يراهم الإنسان بعينه المجردة ، لكن إن كُشف عنه الغطاء رأى ؛ كما قال سبحانه وتعالى : ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق : ٢٢] ، فالإنسان على بصره غطاء أي : حدود يرى بها ، لكن إذا كشف اللَّه ﷻ الغطاء البشري في الدنيا لأنبيائه ورسله فإنهم يرون ما لا يرى غيرهم ، فيرون الملائكة على صورتهم التي خلقهم اللَّه ﷻ عليها ؛ كما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ رأى جبريل على صورته التي خلق عليها مرتين ، قد سد الأفق[1] ، وجاء في وصف جبريل عليه السلام أنه : « لهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ »[2] ، ومنهم ذوو الأجنحة ، ومنهم من ليس بذي أجنحة ، خلقهم متنوع لكن يجمعهم أن خلقهم من نور . والملائكة أنواع ، واللَّه ﷻ وَكَّل الملائكة بأعمال ، فهذا مختص بالسحاب ، وهذا مختص بالهواء ، وهذا بالبحار ، وهذا بالإنسان ... إلى آخره ، في أعمال كثيرة جدًا ، فما من شيء يحصل إلا واللَّه ﷻ قد أمر به ، وحدث بأمره وإذنه وقدرته ، والملائكة موكلون بذلك ، فالموكل بقبض الأرواح ملك من الملائكة اسمه عند أهل الكتاب « عزرائيل »[3] ، وفي بعض الآثار أو بعض المقاطيع سُمي « عبد الرحمن » ، هذا هو الموكل بقبض أرواح العالمين ؛ كما قال ﷻ : ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة : ١١] ، وتحته ملائكة وهو رئيسهم وكبيرهم يأمرهم فيقبضون أرواح العباد ؛ كما قال تعالى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام : ٦١] ، فهم رسل وسيدهم أو رئيسهم ملك الموت .

ومن الملائكة ثلاثة كرّمهم اللَّه ﷻ وجعلهم سادة الملائكة ، وهم : جبرائيل ، وميكائيل ، وملك النفخ في الصور إسرافيل .

وهؤلاء الثلاثة في مهمتهم تشابه[4] :

فجبرائيل : جعله اللَّه ﷻ سيدًا على الملائكة وموكلًا بالوحي ، فهو الذي ينزل بالوحي من اللَّه ﷻ إلى رسله وملائكته .

وميكائيل : موكل بالقطر من السماء يُصرفه كما يأمر اللَّه ﷻ ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ [الفرقان : ٥٠] .

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٧) من حديث عائشة .

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣٢) ، ومسلم (١٧٤) من حديث ابن مسعود .

(٣) تسمية مَلك الموت بـ « عزرائيل » لم يرد في الكتاب ولا في السنة . يُنظر البداية والنهاية لابن كثير (١/٤٧) .

(٤) يُنظر المعجم الكبير للطبراني (١٢٠٦١) . وقال الهيثمي في المجمع (١٤٢١٤) : وفيه محمد بن أبي ليلى وقد وثقه جماعة ولكنه سيئ الحفظ ، وبقية رجاله ثقات .

وإسرافيل : هو الموكل بالنفخ في الصور ، ونحو ذلك .

والتناسب بينهم - كما ذكر العلماء - : أن هؤلاء متصلة بهم الحياة ، فجبرائيل متصلة به حياة الدين ، وهي حياة الأرواح الحقيقية ؛ لأنه ينزل بالوحي ، وميكائيل بحياة الأرض ؛ بالقطر من السماء ، وإسرافيل بحياة الأبدان بعد موتها . وهذا كله من الإيمان التفصيلي الذي ألفت فيه مؤلفات في وصف الملائكة وخلقتهم ومنازلهم ، وفي أحوالهم وأعمالهم وعباداتهم ، وما وكلوا به من الأعمال ، ومن أحسن ما كُتب في هذا : كتاب « عالم الملائكة الأبرار » للدكتور الأشقر ؛ فإنه جمع فيه جمعًا حسنًا طيبًا ، وتحرى الصواب في كثير من مباحثه .

الركن الثالث : الإيمان بالكتب : فيعتقد أن اللَّه ﷻ أنزل كتبًا على من شاء من رسله ، والإيمان بالكتب يكون على مرتبتين :

إيمان إجمالي : وهو القدر المجزئ من الإيمان بالكتب ، فيؤمن العبد أن اللَّه ﷻ أنزل كتبًا مع رسله إلى خلقه ، وجعل في هذه الكتب الهدى والنور والبينات وما به يصلح العباد ، وأن منها القرآن الذي هو كلام اللَّه ﷻ ، وأن هذه الكتب التي أنزلت مع الرسل كلها حق ؛ لأنها من عند اللَّه ﷻ ، واللَّه ﷻ هو الحق المبين ، وما كان من جهة الحق فهو حق ، يوقن بذلك يقينًا تامًّا . ثم بعد ذلك يكون الإيمان التفصيلي : فيوقن ويؤمن إيمانًا خاصًّا بأن القرآن آخر هذه الكتب ، وأنه كلام اللَّه منه بدأ وإليه يعود ، وأنه حجة اللَّه على الناس إلى قيام الساعة ، وأنه به نُسخت جميع الرسالات وجميع الكتب التي قبله ، وأنه حجة اللَّه الباقية على الناس ، وأن هذا الكتاب مهيمن على جميع الكتب ، وما فيه مهيمن على جميع ما سبق ؛ كما قال ﷻ في وصف كتابه : ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾ [المائدة : ٤٨] ، وأن ما فيه من الأخبار يجب تصديقها ، وما فيه من الأحكام يجب امتثالها ، وأن مَن حكم بغيره فقد حكم بهواه ولم يحكم بما أنزل اللَّه ، ويؤمن بجميع الكتب السابقة : التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، وصحف إبراهيم ، وصحف موسى ، ونحو ذلك ، فيؤمن بأن اللَّه ﷻ أنزل على موسى التوراة ، وأنزل على عيسى الإنجيل ، قد يقول قائل : أنا لا أعرف التوراة ، أو لا أعرف الإنجيل ، فإذا عُرِّف وجب عليه الإيمان ، وهكذا في تفاصيل ذلك . فمن علم شيئًا بدليله وجب عليه أن يؤمن به ، لكن أول ما يدخل في الإسلام يجب عليه أن يؤمن بالقدر المجزئ ، وهو الذي يصح معه إيمان المسلم .

الركن الرابع : الإيمان بالرسل : وكذلك الإيمان بالرسل على مرتبتين :

إيمان إجمالي : فإذا آمن العبد بأن اللَّه ﷻ أرسل رسلًا يدعون أقوامهم إلى التوحيد ، وأنهم بلغوا ما أُمروا به ، وأيدهم اللَّه تعالى بالمعجزات والبراهين والآيات الدالة على صدقهم ، وأنهم كانوا أتقياء بررة ، بلغوا الأمانة وأدوا الرسالة ، والإيمان بهم متلازم ؛ فمن كفر بواحدٍ منهم كفر باللَّه تعالى وبجميع

الرسل عليهم الصلاة والسلام . فبهذا يكون قد آمن بالرسل جميعًا ، ثم يؤمن إيمانًا خاصًا بمحمد ﷺ بأنه خاتم الرسل ، وأن اللَّه ﷻ بعثه بالحنيفية السمحة ، بعثه بدين الإسلام الذي جعله خاتم الأديان وآخر الرسالات .

أما الإيمان التفصيلي بالرسل : ففيه مقامات كثيرة ، يتبع العلم التفصيلي بأحوال الرسل ، وأسمائهم ، وأحوالهم مع أقوامهم ، وما دعوا إليه ، وكتبهم ، ونحو ذلك ، وفيه أشياء مستحبة في تفاصيل .

وهنا مناسبة وهي : أن الإيمان باللَّه هو الأصل ، والملائكة هم الواسطة بين اللَّه وبين خلقه ، فهم الذين ينزلون بالوحي إلى الرسل وينزلون بالكتب والشرائع ؛ لهذا رُتبت هنا أحسن ترتيب ، فقدم الإيمان باللَّه ؛ لأن منه ﷻ المبتدأ ، وإليه المعاد ، والإيمان به هو المقصود ، وكل أمور الإيمان هي كالتفريع للإيمان باللَّه ، وثَنَّى بالملائكة لأنهم يأخذون الوحي من اللَّه ﷻ ويسمعونه ، فينقلونه إلى الرسل ، وينزلون بالكتب ، وثلث بالكتب ، ثم الرسل . فالترتيب بين هذه الأربعة : الإيمان باللَّه لأنه أصل الإيمان ، ثم الإيمان بملائكته لأنهم هم الواسطة ، والإيمان بالكتب لأن الملائكة تنزل بها ، والإيمان بالرسل لأنهم هم ختام هذه السلسلة ، ثم الرسل ينقلونها إلى الناس .

الركن الخامس : الإيمان باليوم الآخر : وهو الإيمان بالموت وما بعده إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، وهو أيضًا على مرتبتين :

إيمان إجمالي : وهو القدر المجزئ في الإيمان بهذا الركن ، فيوقن العبد بغير شك أن ثَمَّ يومًا يعود الناس إليه ، يُبعثون فيه من قبورهم للحساب على ما عملوا ، وأن كل إنسان مجزي بما فعل ، فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ؛ كما قال تعالى : ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر : ٧٠] ، فإذا آمن بهذا القدر ، وأنه سيبعث من جديد ، فإنه قد حقق هذا الركن .

فلو سألت أحدًا قلت له : هل ثَمَّ يوم آخر يعود فيه الناس ؟ قال : بلا شك هناك يوم القيامة يُبعث فيه الناس ويحاسبون ، وفيه أهوال . وسكت ، فيكون بهذا قد حقق الركن وهو الإيمان باليوم الآخر .

بعد ذلك الإيمان التفصيلي باليوم الآخر : وهذا يتبع العلم بما جاء في الكتاب والسنة من أحوال القبور ، وأحوال ما يكون يوم القيامة ، والإيمان بالحوض ، والميزان ، والصحف ، والصراط ، والإيمان بأحوال الناس في العرصات ، وأحوال ما يكون بعد أن يجوز المؤمنون الصراط ، ومن يدخل الجنة أولًا ، وأحوال الناس في النار ، ونحو ذلك .

هذه كلها أمور تفصيلية لا يجب الإيمان بها على كل أحد ، إلا من علمها من النصوص فإنه يجب عليه الإيمان بما علم ، لكن لو قال قائل : أنا لا أعلم هل ثَمَّ حوض أم لا ؟ لا أدري هل ثَمَّ ميزان أم لا ؟

ونحو ذلك . فإنه يُعرَف بالنصوص ، فإن عرف فأنكر وكذب فيكون مُكذبًا بالقرآن وبالسنة ؛ لأن هذا من العلم التفصيلي الذي يجب أن يؤمن به بعد إخباره بما جاء في النصوص من الأدلة عليه .

وهذا الإيمان بالبعث بعد الموت يأتي تفصيله - إن شاء الله تعالى - في هذه الرسالة ، فقد أطال عليه شيخ الإسلام في موضعه .

الركن السادس : الإيمان بالقدر خيره وشره ، وهو أيضًا ينقسم إلي : إيمان تفصيلي ، وإيمان إجمالي :

فالإيمان الإجمالي : وهو القدْر المجزئ من الإيمان بالقدر أن يؤمن العبد بأن كل شيء يحدث في هذا الملكوت قد سبق به قدر الله ، وأن الله ﷻ عالم بهذه الأحوال وتفصيلاتها بخلقه قبل أن يخلقهم ، وكتب ذلك ، فإذا آمن أن كل شيء قد سبق به قدر الله فيكون حقق هذا الركن .

أما الإيمان التفصيلي : فيكون على مرتبتين :

المرتبة الأولى : الإيمان بالقدر السابق لوقوع المقدر : وهذا يشمل درجتين : الأولى : العلم السابق ، فإن الله ﷻ يعلم ما كان وما سيكون وما هو كائن وما لم يكن لو كان كيف يكون ، علم الله السابق بكل شيء ، بالكليات وبالجزئيات ، بجلائل الأمور وتفصيلاتها ، هذا العلم الأول لم يزل الله ﷻ عالمًا به بجميع تفاصيله ، علمُه به أول ، يعني ليس له بداية .

الثانية : أن يؤمن العبد أن الله ﷻ كتب أحوال الخلق وتفصيلات ذلك قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وذلك عنده في كتاب جعله في اللوح المحفوظ .

المرتبة الثانية : أيضًا تحوي درجتين ، وهي تقارن وقوع المقدر :

الأولى : الإيمان بأن مشيئة الله ﷻ نافذة ، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لا يكون ، فليس ثَمّ شيء يحدث ويحصل في ملكوت الله ﷻ إلا وقد شاءه وأراده كونًا ، فلا يمكن أن يعمل العبد شيئًا يكون مقدرًا من الله ﷻ إلا وهذا الشيء قد شاءه الله ﷻ .

الثانية : أن يؤمن بأن كل شيء مخلوق ؛ فالله ﷻ خالقه ، مثل أعمال العباد وأحوالهم ، والسماوات والأرض ومن فيهن .

وبهذا البيان تتضح أركان الإيمان الستة : الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره ، وهذه الأركان بها يتفاضل الناس وتعظم درجاتهم ومراتبهم عند ربهم ﷻ ، فكلما زاد علم العبد زاد إيمانه ، وكلما زاد الفقه في الدين زاد اليقين ، فإذا وفق الله ﷻ عبده للعمل الصالح كانت له النجاة في الآخرة عند السؤال في القبر وما بعده . وطلب العلم من أعظم ما يُحض العبد عليه ؛ لأن النجاة إنما هي بالعلم ، وليس سواءً عالم وجهولُ .

وهذه أركان الإيمان الستة عند أهل السنة ، وأما عند غير أهل السنة ، ونعني بغير أهل السنة : المعتزلة ، والرافضة ، والخوارج ، ومن شابههم ممن لم يدخل في الالتزام بالسنة بوجه عام ، فهؤلاء عندهم أصول إيمان غير هذه الستة ، فهذه الستة هي أصول الإيمان عندنا ، وهي التي تنبني عليها العقيدة عندنا ، وكل ما في الاعتقاد تفصيل لها ، أما عند أهل الاعتزال فأصول الإيمان عندهم خمسة ، مشهورة بالأصول الخمسة عند المعتزلة ، وهي : التوحيد ، والعدل ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمنزلة بين المنزلتين ، وإنفاذ الوعيد .

وأما الرافضة فعندهم الأصول التي تنبني عليها عقيدتهم أربعة وهي : التوحيد ، والعدل ، والنبوة ، والإمامة .

فإذا أردت أن تعرف معتقد أهل السنة والجماعة ؛ فمعتقدهم تفصيل لهذه الستة ، ومعتقد المعتزلة تفصيل لتلك الخمسة ، ومعتقد الرافضة تفصيل لتلك الأربعة .

بعض السلف زاد على هذه الأركان فقال : والإيمان بالجنة والنار . ولكن الإيمان بالجنة والنار هو من الإيمان باليوم الآخر .

هذه خلاصة لمعنى هذه الجمل التي ذكرها شيخ الإسلام رحمه الله .

❁ ❁ ❁

الأسئلة

❁ قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان رحمه الله :

س١- ما هو معنى الحمد ، وما معنى لفظ الجلالة ؟

ج- هو لغة : الثناء باللسان على الجميل الاختياري ، على وجه التعظيم والتبجيل .

وعرفًا : فعل ينبئ عن تعظيم المنعم ، بسبب كونه منعمًا على الحامد وغيره ، واللام والألف للاستغراق ، فجميع المحامد كلها لله .

أما معنى الإله فهو المألوه المعبود المستحق لإفراده بالعبادة ، لما اتصف به من صفات الألوهية ، وهي صفات الكمال ، وهو أعرف المعارف على الإطلاق .

س٢- من هو الرسول ؟ ومن هو النبي ؟ وهل كل رسول نبي ؟

ج- هو لغة : من بعث إليه برسالة ، واصطلاحًا : إنسان ذكر أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه ، فإن أوحي إليه ولم يؤمر فهو نبي ، فكل رسول نبي ، ولا عكس .

س٣- ما هو الهدى ؟ وما هي أقسامه ؟ وما هي أدلة كل قسم ؟

ج- الهدى لغة : الدلالة والبيان ، وهو ينقسم إلى قسمين ، هدى دلالة وبيان ، وهو الذي يقدر عليه الرسل وأتباعهم ، ودليله قوله تعالى : ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد : ٧] ، وقوله : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى : ٥٢] ، وقوله ﷺ لعلي رضي الله عنه : « لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حُمر النعم » .

والقسم الثاني : هو الذي لا يقدر عليه إلا الله عز وجل ، وهو الذي معناه : التوفيق والإلهام ، فهذا هو المذكور في قوله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص : ٥٦] ، وقال : ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة : ٢٧٢] ، وقال : ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ [النحل : ٣٧] ، وفيه آيات آخر تدل على ذلك .

س٤- ما المراد بالهدى المذكور في خطبة العقيدة ؟

ج- الهدى معناه : ما جاء به النبي ﷺ من الإخبارات الصادقة ، والإيمان الصحيح ، والعلم النافع ، والعمل الصالح .

س٥- ما هو الدين ؟ وما معنى قوله : ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ؟

ج- الدين له معان كثيرة ، والمراد به هنا : جميع ما شرعه الله من الأحكام ، ومعنى قوله : ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ ؛ أي : ليعليه على الأديان كلها بالحجة والبرهان .

س٦- بأي شيء تكون معرفة الإنسان لدينه ؟

ج- بمعرفة أركانه الثلاثة المذكورة في حديث جبريل المشهور، وهي الإسلام والإيمان والإحسان، وقد بينها ﷺ بيانًا واضحًا شافيًا كافيًا وافيًا .

س٧- ما الذي تفهمه من قوله : ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء : ٧٩] ؟ وبأي شيء تكون شهادته سبحانه ؟

ج- المعنى : وكفى بشهادته إثباتًا لصدقه قال تعالى : ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام : ١٩] ، وشهادته سبحانه تكون بقوله ، وفعله ، ونصره ، وتأييده ، ومن أسمائه تعالى الشهيد الذي لا يغيب عنه شيء ، وهو مرادف للرقيب ، فهو سبحانه مطلع على كل شيء مشاهد له ، عليم بجميع المعلومات الجلية والخفية ، سامع لكل المسموعات ، مبصر لكل المبصرات ، محيط بكل شيء .

س٨- ما معنى شهادة أن لا إله إلا اللَّه ؟ وما أركانها ؟

ج- معناه : لا معبود بحق إلا اللَّه .

وأركانها اثنان :

نفي وإثبات ، وحد النفي من الإثبات « لا إله » نافيًا جميع ما يعبد من دون اللَّه ، « إلا اللَّه » مثبتًا العبادة للَّه وحده لا شريك له في عبادته ؛ كما أنه ليس له شريك في ملكه ، واللَّه أعلم .

س٩- كم شروط لا إله إلا اللَّه ؟ وما هي ؟ وما الذي ينافيها ؟

ج- شروطها سبعة :

فأولها : العلم المنافي للجهل ، واليقين المنافي للشك ، والإخلاص المنافي للشرك ، والصدق المنافي للكذب ، والمحبة المنافية لضدها ، والانقياد المنافي للامتناع ، والقبول المنافي للرد ، وهذه السبعة جمعها بعضهم في بيت شعر :

علم يقين وإخلاص وصدقك ... مع محبة وانقياد والقبول لها

س١٠- هل يكتفي بالنطق بالشهادة ؟ أم لا بد من العلم بمعناها ، والعمل بمقتضاها ؟

ج- لا تعتبر إلا لمن تكلم بها ، عارفًا لمعناها ، عاملًا بمقتضاها باطنًا وظاهرًا ، فلا بد في الشهادتين من العلم والعمل بمدلولهما قال تعالى : ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف : ٨٦] ، وقال تعالى : ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد : ١٩] الآية . إلى غير ذلك من الأدلة .

س١١- ما معنى شهادة أن محمدًا رسول اللَّه ؟

ج- طاعته فيما أمر به ، وتصديقه فيما أخبر ، واجتناب ما عنه نهي وزجر ، وأن لا يعبد اللَّه إلا بما

شرع، وأن يعظم أمره ونهيه، فلا يقدم عليه قول أحد كائنًا ما كان.

س١٢- ما الحكمة في قرن شهادة أن محمدًا رسول الله بشهادة أن لا إله إلا الله؟

ج- الحكمة في جعل الشهادة للرسول ﷺ بالرسالة مقرونة بالشهادة لله بالتوحيد؛ إشارة إلى أنه لا بد من كل منهما، فلا تغني إحداهما عن الأخرى، ولهذا قرن بينهما في الأذان، وفي التشهد.

وقال بعضهم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، ذلك: أن الله لا يذكر في موضع إلا ذكر معه ﷺ، قاله الحسن.

وقال قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا متشهد، ولا صاحب صلاة إلا ينادي فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، قال مجاهد: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾؛ يعني: بالتأذين.

قال حسان:

أغر عليه للنبوة خاتم ... من الله مشهود يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبي مع اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد

س١٣- ما الحكمة في الجمع له ﷺ بين وصفي العبودية والرسالة؟

ج- الحكمة في ذلك: لأنها أعلى ما يوصف به العبد، والرسول ﷺ أكمل الخلق فيهما، وفيه: تنبيه للرد على الذين رفعوه فوق منزلته، والذين نبذوا ما جاء به وراء ظهورهم، واعتمدوا على الآراء التي تخالف ما جاء به ﷺ.

س١٤- ما حد التوحيد؟ اذكره بوضوح.

ج- هو علم العبد، واعترافه واعتقاده، وإيمانه بتفرد الرب بكل صفة كمال، وتوحيده في ذلك، واعتقاده أنه لا شريك له، ولا مثيل له في كماله، وأنه ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين.

س١٥- ما هي أقسام التوحيد عند من يجعلها ثلاثة أقسام؟

ج- توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الألوهية.

س١٦- ما هو توحيد الربوبية؟

ج- هو اعتقاد العبد أن الله هو الرب المتفرد بالخلق، والرزق، والتدبير الذي ربى جميع الخلق بالنعم، وربى خواص خلقه وهم الأنبياء وأتباعهم بالعقائد الصحيحة، والأخلاق الجميلة، والعلوم النافعة، والأعمال الصالحة.

س١٧- ما هو توحيد الأسماء والصفات؟

ج- هو اعتقاد انفراد الله بالكمال المطلق من جميع الوجوه ، بنعوت العظمة والجلال والجمال ، وذلك بإثبات ما أثبته لنفسه ، أو أثبته له رسوله ﷺ من جميع الأسماء والصفات ، ومعانيها ، وأحكامها الواردة في الكتاب والسنة .

س١٨- ما هو توحيد الألوهية ؟

ج- هو العلم والاعتراف بأن الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين ، وإفراده وحده بالعبادة كلها ، وإخلاص الدين لله وحده ، ويسمى هذا النوع توحيد العبادة .

س١٩- هل للتوحيد تقسيم ثان غير ما ذكر ؟

ج- نعم ، بعضهم يقول التوحيد نوعان :

أولًا : القولي الاعتقادي سمي بذلك لاشتماله على أقوال القلوب ، وهو اعترافها واعتقادها ، وعلى أقوال اللسان ، والثناء على الله بتوحيده ، وهذا النوع هو توحيد الأسماء والصفات التي يدخل فيها توحيد الربوبية .

ثانيًا : الفعلي وهو المسمى بتوحيد الألوهية ، وسمي فعليًا ؛ لأنه متضمن لأفعال القلوب والجوارح ، كالصلاة والزكاة والحج ونحو ذلك .

س٢٠- ما هي أقسام التوحيد القولي ؟

ج- الأول : النفي ، وهو ينقسم إلى قسمين :

الأول : نفي النقائص والعيوب عن الله .

والثاني : نفي التشبيه والتعطيل عن أسمائه وصفاته .

والثاني من أقسام التوحيد القولي : الإثبات وهو إثبات كل صفة كمال للرحمن وردت بالكتاب والسنة .

س٢١- ما ينزه عنه الله ينقسم إلى قسمين : متصل ومنفصل ، اذكر مثالًا لكل قسم والضابط لكل قسم ؟

ج- مثال المتصل كالنوم ، والإعياء ، والتعب ، واللغوب ، والموت ، والجهل ، والظلم ، والغفلة ، والنسيان ، وعن احتياجه إلى طعم ورزق ، وضابط هذا القسم ؛ ما يناقض ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ في كل ما يضاد الصفات الكاملة .

والقسم الثاني : المنفصل ، وضابطه ؛ تنزيهه عن أن يشاركه أحد من الخلق في شيء من خصائصه التي لا تكون لغيره ، وذلك كالزوجة ، والشريك ، والكفء ، والظهير ، والشفيع بدون إذن الله ، والولي من الذل ، فكل ذلك ينزه عنه الله جل وعلا وتقدس .

س٢٢- أي أقسام التوحيد الذي جاءت به الرسل وأنزلت به الكتب؟ وضحه مع ذكر دليله.

ج- هو توحيد الألوهية قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، وقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وقال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٦]، وقال يوسف: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ الآية [يوسف: ٤٠].

س٢٢- ما أركان توحيد الألوهية؟ تكلم عنها بوضوح.

ج- **اثنان: الصدق والإخلاص؛ فالأول توحيد المراد، فلا يزاحمه مراد، والثاني: توحيد الإرادة؛ ببذل الجهد والطاقة في عبادته وحده.**

س٢٤- ما ضد هذا القسم الذي هو توحيد العبادة؟

ج- **ضده أمران: أولًا: الإعراض عن محبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه.**

ثانيًا: الإشراك به، واتخاذ أولياء شفعاء من دونه.

س٢٥- ما ضد توحيد الربوبية؟

ج- **أن يجعل لغيره معه تدبيرًا؛ فالربوبية منه لعباده، والتأله من عباده له.**

س٢٦- ما ضد توحيد الأسماء والصفات؟

ج- **أمران: التعطيل والتشبيه، فمن نفى صفاته تعالى وعطلها ناقض تعطيله توحيده، وكذبه، ومن شبهه بخلقه ناقض تشبيهه توحيده وكذبه.**

س٢٧- ما معنى الصلاة على النبي ﷺ؟ ومن هم آل النبي ﷺ؟ ومن هو الصحابي؟

ج- **معناها: ثناء الله عليه عند الملأ الأعلى، وآل الشخص هم المنتمون إليه الذين تجمعهم به صلة وثيقة من قرابة ونحوها، وأحسن ما قيل في آل النبي: أنهم أتباعه على دينه. والصحابي كل من لقيه ﷺ مؤمنًا ومات على ذلك.**

س٢٨- ما معنى كلمة «أما بعد»؟ ولأي شيء يؤتى بها؟ وإلى أي شيء أشار المصنف بقوله: «هذا اعتقاد الفرقة الناجية»؟

ج- **معناها: أي، أما بعد، مهما يكن من شيء.**

ويؤتى بها: للانتقال من أسلوب إلى أسلوب، والإشارة فيما يظهر- والله أعلم- أنه إلى ما تصوره

في الذهن مما سيصنفه ، وإن كانت الخطبة بعد العقيدة فهي إلى العقيدة .

س٢٩- ما معنى الاعتقاد ؟ ومن هي الفرقة الناجية ؟

ج- هو مصدر اعتقد ، وهو يطلق على التصديق مطلقًا ، وعلى ما يعتقده الإنسان من أمور الدين ، والفرقة الناجية هم أهل السنة والجماعة .

س٣٠- من أين أخذ وصفها بأنها ناجية ؟ وضح ذلك .

ج- من قوله ﷺ : « ستفترق هذه الأُمة إلى ثلاث وسبعين فرقة ، كلهم في النار إلا واحدة » . ومن قوله : « لا تزال طائفة من أُمتي على الحق منصورة ، لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة » .

س٣١- ما هي السنة ؟ومن هم أهلها ؟ ولم نسبوا إليها ؟

ج- هي لغة : الطريقة ، وشرعًا : أقوال النبي ﷺ ، وأفعاله ، وإقراراته : وأهلها : هم المتبعون لها ، ونسبوا إليها لتمسكهم بها ، وانتسابهم إليها دون الطرق الأخرى المنحرفة .

الإيمان بالله :

س٣٢- ما هو الإيمان بالله الذي هو الركن الأول من الإيمان ؟

ج- هو الاعتقاد الجازم بأن الله رب كل شيء ومليكه ، وأنه الخالق الرزاق ، المحيي المميت ، وأنه المستحق لأن يفرد بالعبادة ، والذل والخضوع ، وجميع أنواع العبادة ، وأن الله هو المتصف بصفات الكمال ، والعظمة والجلال المنزه عن كل عيب ونقص .

الإيمان بالملائكة :

س٣٣- ما هو الإيمان بالملائكة الذي هو الركن الثاني من أركان الإيمان ؟

ج- هو التصديق الجازم بأن لله ملائكة موجودين مخلوقين من نور ، وأنهم كما وصفهم الله عباد مكرمون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، وأنهم قائمون بوظائفهم التي أمرهم الله بالقيام بها .

س٣٤- هل يكفي الإيمان إجمالًا بالملائكة ؟

ج- أما من ورد تعيينه باسمه المخصوص كجبريل وميكائيل وإسرافيل ورضوان ومالك ، ومن ورد تعيين نوعهم المخصوص ؛ كحملة العرش ، والحفظة ، والكتبة ، فبالتفصيل .

وأما البقية فيجب الإيمان بهم إجمالًا ، ولا يحصي عددهم إلا الله .

الإيمان بكتب الله :

س٣٥- ما هو الإيمان بكتب الله الذي هو الركن الثالث من أركان الإيمان ؟

ج- هو التصديق الجازم بأن لله كتبًا أنزلها على أنبيائه ورسله ، وهي من كلامه حقيقة ، وأنها نور ، وهدى ، وأن ما تضمنته حق ، ولا يعلم عددها إلا الله ، وأنه يجب الإيمان بها جملة إلا ما سمى الله منها ؛ وهي التوراة والإنجيل والزبور والقرآن ، فيجب الإيمان بها على التفصيل ، ويجب مع الإيمان بالقرآن وأنه منزل من عند الله ؛ الإيمان بأن الله تكلم به حقيقة ، كما تكلم بالكتب المنزلة على أنبيائه ، وأنه المخصوص بمزية الحفظ من التبديل والتغيير ، قال تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر : ٩] ، وقال : ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت : ٤٢] .

الإيمان برسل الله :

س٣٦- ما هو الإيمان برسل الله الذي هو الركن الرابع من أركان الإيمان ؟

ج- التصديق الجازم بأن لله رسلًا أرسلهم لإرشاد الخلق في معاشهم ، ومعادهم ، اقتضت حكمة اللطيف الخبير ألَّا يهمل خلقه ، بل أرسل إليهم رسلًا مبشرين ومنذرين ، فيجب علينا الإيمان بمن سمى الله منهم في كتابه على التفصيل ، والإيمان جملة بأن لله رسلًا غيرهم ، وأنبياء لا يحصى عددهم إلا الله ، ولا يعلم أسماءهم إلا هو جل وعلا قال تعالى : ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء : ١٦٤] .

عدد الرسل :

س٣٧- كم عدد المذكورين من الأنبياء والرسل في القرآن ؟ ومن هم ؟ اذكرهم بوضوح .

ج- عددهم خمس وعشرون وهم : آدم ، إدريس ، نوح ، هود ، صالح ، إبراهيم ، لوط ، يونس ، إسماعيل ، إسحاق ، يعقوب ، يوسف ، أيوب ، شعيب ، موسى ، هارون ، اليسع ، ذو الكفل ، داود ، زكريا ، سليمان ، إلياس ، يحيى ، عيسى ، محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

س٣٨- ما موضوع رسالة الرسل ؟ وما الحكمة فيها ؟ وما الدليل عليها ؟

ج- موضوعها : التبشير والإنذار قال تعالى : ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء : ١٦٥] .

والحكمة في إرسال الرسل : دعوة أممهم إلى عبادة الله وحده ، والنهي عن عبادة ما سواه قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل : ٣٦] .

س٣٩- من هم أولوا العزم من الرسل ؟ وأين ذكروا ؟

ج- هم : محمد ، ونوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، المذكورون في آية سورة الشورى قوله تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى

وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى : ١٣] ، وفي آية الأحزاب : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب : ٧] .

س٤٠- ما الواجب علينا نحو الرسل عليهم الصلاة والسلام ؟

ج- يجب علينا تصديقهم ، وبأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به على ما أمرهم اللَّه به ، وبينوه بيانًا واضحًا لا يسع أحدًا ممن أرسلوا إليه جهله ، ولا يحل خلافه قال تعالى : ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء : ٨٠] ، فيجب علينا الإيمان : بأنهم معصومون عن الكذب والخيانة والكتمان ، وأنهم معصومون من الكبائر ، وأما الصغائر فقد تقع منهم ، والكتاب والسنة يدلان على ذلك لكن لا يقرون عليها ، بل يوفقون للتوبة منها ، ويجب احترامهم ، وألَّا يفرق بينهم ، ويجب الاهتداء بهديهم ، والائتمار بأمرهم ، والكف عما نهوا عنه ، ويجب اعتقاد أنهم أكمل الخلق علمًا وعملًا ، وأصدقهم وأبرهم وأكملهم أخلاقًا ، وأن اللَّه خصهم بفضائل لا يلحقهم فيها أحد ، وبرأهم من كل خلق رذيل ، ويجب محبتهم وتعظيمهم ، ويحرم الغلو فيهم ورفعهم فوق منازلهم .

س٤١- ما الأشياء التي تجوز على الرسل ؟

ج- يجوز في حقهم عقلًا وشرعًا : النوم ، والنكاح ، والأكل ، والجلوس ، والمشي ، والضحك ، وسائر الأعراض البشرية التي لا تؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية ، فهم بشر يعتريهم ما يعتري سائر أفراده ، فيما لا علاقة له بتبليغ الأحكام ، وتمتد إليهم أيدي الظلمة ، وينالهم الاضطهاد والأذى ، وقد يقتل الأنبياء كما أخبر اللَّه في كتابه بقوله : ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران : ١١٢] ، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان : ٢٠] ، وقال ﷺ : «ولكني أصلي وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء» ، وكان ﷺ يمرض ، ويتألم ، ويشتكي ، وكان يصيبه الحر والبرد ، والجوع والعطش ، والغضب ، والضجر ، والتعب ، ونحو ذلك مما لا نقص عليه فيه .

س٤٢- ما الدليل على صدق الرسل ؟ وبأي شيء أيدهم اللَّه تعالى ؟

ج- أيدهم اللَّه بالدلالة الباهرة الدالة على صدقهم في دعواهم الرسالة ، فمن معجزاته ﷺ : القرآن الذي أعجز الخلق كلهم ، ومثل انشقاق القمر ، وحراسة السماء بالشهب ، ومعراجه إلى السماء ، وكفاية اللَّه له أعداءه ، وعصمته من الناس ، وإجابة دعائه ، وإعلامه بالمغيبات الماضية والمستقبلة ، وتأثيره في تكثير الطعام والشراب إلى غير ذلك ، وكما أيد اللَّه موسى عليه السلام قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ [الإسراء : ١٠١] ، وسائر رسله مع انضمام ذلك إلى أحوالهم الجليلة ، وأخلاقهم السامية ، مع سلامة الفطرة ، والعفاف ، والكرم ، والشجاعة ، والعدل ، والنصح ، والمروءة

التامة إلى غير ذلك من الأخلاق الفاضلة الدالة لمن تأملها أن ما جاءوا به حق وصدق لا شك فيه .

الإيمان بالبعث :

س٤٣- ما هو البعث ؟ وما دليله ؟ وما حكم الإيمان به ؟

ج- هو لغة : التحريك والإثارة . وشرعًا : إعادة الأبدان ، وإدخال الأرواح فيها ، قال تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس : ٥١] ، وقال : ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر : ٦٨] ، وقال : ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات : ١٣، ١٤] ، وقال تعالى : ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج : ٤٣] ، فقيام الناس لرب العالمين حق ثابت يجب الإيمان به .

س٤٤- ما حكم إنكاره ؟ وما دليل الحكم ؟

ج- إنكاره كفر أكبر مخرج من الملة الإسلامية قال تعالى : ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن : ٧] ، وقال : ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه : ٥٥] ، وقال ﷺ للعاص بن وائل وقد جاء بعظم حائل ففتته بيده ، وقال : يا محمد ، يحيي الله هذا بعد ما أرم ؟ ! قال : نعم ، يبعث الله هذا ، ثم يميتك ، ثم يحييك ، ثم يدخلك نار جهنم ، فنزلت هذه الآية : ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس : ٧٧- ٧٩] .

قال ابن القيم رحمه الله في النونية في هذه الأركان الخمسة :

إيماننا بالله ثم برسله	وبكتبه وقيامة الأبدان
وبجنده وهم الملائكة الألى	هم رسله لمصالح الأكوان
هذي أصول الدين حقًا أصول	الخمس للقاضي هو الهمذان .

الإيمان بالقدر :

س٤٥- ما هو الإيمان بالقدر ؟ اذكره بوضوح .

ج- هو التصديق الجازم بأن كل خير وشر فهو بقضاء الله وقدره ، وأنه الفعال لما يريد لا يكون شيء إلا بإرادته ، ولا يخرج شيء عن مشيئته ، وليس في العالم شيء يخرج عن تقديره ، ولا يصدر إلا عن تدبيره ، ولا محيد لأحد عن القدر والمقدور ، ولا يتجاوز ما خط في اللوح المسطور ، وأنه خالق أفعال العباد والطاعات والمعاصي ، ومع ذلك فقد أمر العباد ونهاهم ، وجعلهم مختارين لأفعالهم غير مجبورين عليها ، بل هي واقعة بحسب قدرتهم وإرادتهم ، والله خالقهم ، وخالق قدرتهم يهدي من يشاء برحمته ، ويضل من يشاء بحكمته ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

[القواعد الأساسية في الإيمان بأسماء اللَّه وصفاته]

ومِن الإيمانِ باللَّهِ ؛ الإيمانُ بما وصَف به نفسَه في كتابِه ، وبما وصَفَه به رسولُه مِن غيرِ تحريفٍ ، ولا تعطيلٍ ، ومِن غيرِ تَكْييفٍ ، ولا تَمثيلٍ .

بل يُؤْمِنون بأنَّ اللَّهَ سبحانَه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] .

فلا يَنْفُونَ عنه ما وصَف به نفسَه ، ولا يُحَرِّفون الكَلِمَ عن مَواضعِه ، ولا يُلْحِدُون في أسماءِ اللَّهِ وآياتِه ، ولا يُكَيِّفُونَ ، ولا يَمَثِّلُونَ صفاتِه بصفاتِ خلقِه .

لأنه سبحانَه لا سَمِيَّ له ، ولا كُفْءَ له ، ولا نِدَّ له .

ولا يُقاسُ بخلقِه سبحانَه وتعالى ؛ فإنه أعْلَمُ بنفسِه وبغيرِه ، وأصْدَقُ قِيلًا ، وأحسنُ حديثًا مِن خلْقِه .

ثم رُسُلُه صادقون مَصْدُوقون بخلافِ الذين يَقُولون عليه ما لا يَعْلَمون .

ولهذا قال : ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الصافات : ١٨٠ - ١٨٢] .

فسبَّح نفسَه عمَّا وَصَفه به المُخالِفون للرُّسُلِ ، وسلَّم على المُرْسَلِين لسلامةِ ما قالوه مِن النقصِ والعيبِ .

وهو سبحانَه قد جمَع فيما وصَف ، وسمَّى به نفسَه بينَ النفيِ والإثباتِ ، فلا عُدولَ لأهلِ السنةِ والجماعةِ عمَّا جاء به المُرْسَلون ؛ فإنه الصراطُ المستقيمُ ؛ صراطُ الذين أنْعَم اللَّهُ عليهم مِن النبيِّين والصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ والصالحينَ .

الشـــرح

❁ قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله :

قوله : « ومن الإيمان بالله : الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه ، وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ » :

*** ذكر المصنف رحمه الله هذا الأصل والضابط العظيم في الإيمان بالله إجمالًا قبل أن يشرع في التفصيل ؛ ليبني العبد على هذا الأصل ما يرد عليه من الكتاب والسنة ؛ ليستقيم له إيمانه ويسلم من الانحراف .**

فذكر : إنه يجب ويتعين الإيمان بكل ما أخبر الله به في كتابه ، وأخبر به الرسول ﷺ عن ربه إيمانًا صحيحًا سالمًا من التحريف والتعطيل ، وسالمًا من التكييف والتمثيل ، بل يثبت ما أثبته الله ورسوله ، ولا يزيد على ذلك ولا ينقص ، فإن الكلام على ذات الباري وصفاته بابه واحد ، فكما أن لله ذاتًا لا تشبه الذوات ، فله تعالى صفات لا تشبهها الصفات .

فمن مال إلى نفي الصفات أو بعضها فهو ناف معطل محرف ، ومن كيفها أو مثلها بصفات الخلق فهو ممثل مشبه .

قوله : « من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل » :

*** الفرق بين « التحريف » ، و« التعطيل » : أن « التعطيل » : نفي للمعنى الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة .**

و« التحريف » : تفسير للنصوص بالمعاني الباطلة التي لا تدل عليها بوجه من الوجوه .

فـ « التحريف » و« التعطيل » قد يكونان متلازمين إذا أثبت الباطل ونفي المعنى الحق ، وقد يوجد « التعطيل » بلا تحريف كحال النافين للصفات الذين ينفون الصفات الواردة في الكتاب والسنة ، ويقولون : ظاهرها غير مراد !

ولكنهم لا يعينون معنى آخر ، ويسمون أنفسهم « مفوضة » ويظنون أن هذا مذهب « السلف » ، وهو غلط فاحش !!

فإن السلف يثبتون الصفات ، وإنما يفوضون علم كيفيتها إلى الله ، فيقولون : الوصف المذكور معلوم ، والكيف مجهول والإيمان به واجب وإثباته واجب والسؤال عن كيفيته بدعة ، كما قال الإمام مالك وغيره في الاستواء وغيره[1] .

---

(١) أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٢٥، ٣٢٦) ، واللالكائي في « اعتقاد أهل السنة » (٦٦٤) ، والذهبي في « العلو » (٣٤٤) ، وينظر « مختصر العلو » للألباني (ص١٤١) .

وأما قوله : « من غير تكييف ولا تمثيل » ، فالفرق بينهما :

أن « التكييف » : أن تُكيَّف صفات الله وأن يبحث عن كنهها .

و« التمثيل » : أن يقال فيها أنه مثل صفات المخلوقين .

فقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ - نفي الكفؤ والند والسمي- ينفي ذلك « التكييف » و« التمثيل » .

وقوله : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ونحوها- من إثبات أسماء الله وصفاته- تنفي « التعطيل » و« التحريف » .

فـ « المؤمن الموحد » : يثبت الصفات كلها على الوجه اللائق بعظمة الله وكبريائه .

و « المعطل » : ينفيها أو ينفي بعضها . و « المشبه الممثل » : يثبتها على وجه يليق بالمخلوق .

ونصوص الكتاب والسنة التي يتعذر إحصاؤها كلها تشترك في دلالتها على هذا الأصل ، وهو : إثبات الصفات على وجه الكمال الذي لا يشبهه كمال أحد ، وهي في غاية الوضوح والبيان وأعلى مراتب الصدق .

فإن الكلام إنما يقصر بيانه ودلالته لأمور ثلاثة :

١- إما جهل المتكلم وعدم علمه وقصوره .

٢- وإما عدم فصاحته وبيانه .

٣- وإما كذبه وغشه .

أما نصوص الكتاب والسنة فإنها بريئة من هذه الأمور الثلاثة من كل وجه .

فكلام الله ورسوله في غاية الوضوح والبيان وفي غاية الصدق .

كما قال : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء : ١٢٢] ، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء : ٨٧] .

ونظيرها : قوله تعالى : ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان : ٣٣] .

والرسول ﷺ في غاية النصح والشفقة العظيمة على الخلق .

فمن كان أعلم الخلق ، وأصدق الخلق ، وأفصح الخلق ، وأنصح الخلق للخلق ، هل يمكن أن يكون في كلامه شيء من النقص أو القصور ؟

أم تقول- والحق تقول- إن كلامه هو النهاية التي لا فوقها في الوضوح والبيان للحقائق كلها وهذا برهان على أن كلام الله وكلام رسوله يوصل إلى أعلى درجات العلم واليقين ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

فالحق النافع هو ما اشتمل عليه كلام الله وكلام رسوله في جميع الأبواب لا سيما في هذا الباب الذي هو أصل الأصول كلها .

وهذا معنى قول المصنف في إيراده للآية الكريمة : ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ . فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل ، وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب .

أي قال : ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ؛ لدلالة الحمد على الكمال المطلق من جميع الوجوه .

قوله : « وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات ..» :

* هذا الذي ذكر المصنف ضابط نافع في كيفية الإيمان بالله وبأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، وأنه مبني على أصلين :

أحدهما : النفي . وثانيهما : الإثبات .

أما النفي فإنه ينفي عن الله ما يضاد الكمال من أنواع العيوب والنقائص .

وينفي عنه أيضًا أن يكون له شريك أو نديد أو مثيل في شيء من صفاته أو في حق من حقوقه الخاصة . فكل ما نافى صفات الكمال فإن الله منزه عنه مقدس .

والنفي مقصود لغيره ، القصد منه الإثبات ، ولهذا لم يرد نفي شيء في الكتاب والسنة عن الله إلا لقصد إثبات ضده .

فنفي : « الشريك والنديد » عن الله ؛ لكمال عظمته وتفرده بالكمال .

ونفي : « السِّنة » و« النوم » و« الموت » ؛ لكمال حياته .

ونفي : عزوب شيء عن علمه وقدرته وحكمته ؛ كل ذلك لإثبات سعة علمه وشمول حكمته وكمال قدرته . ولهذا كان التنزيه والنفي لأمور مجملة عامة .

وأما الإثبات : فإنه يجمع الأمرين :

إثبات المجملات : كالحمد المطلق ، والكمال المطلق ، والمجد المطلق ونحوها .

وإثبات المفصلات : كتفصيل علم الله ، وقدرته ، وحكمته ، ورحمته ونحو ذلك من صفاته .

فأهل السنة والجماعة لزموا هذا الطريق الذي هو الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم ، وبلزومهم لهذا الطريق النافع تمت عليهم النعمة وصحت عقائدهم ، وكملت أخلاقهم .

أما من سلك غير هذا السبيل ، فإنه منحرف في عقيدته ، وأخلاقه وآدابه .

« فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاءت به المرسلون ، فإنه الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين ، والشهداء ، والصالحين » .

❁ قال الشيخ عبد العزيز بن محمد بن مانع رحمه الله :

قوله : « من غير تحريف ولا تعطيل » :

* قال الراغب : « تحريف الشيء إمالته كتحريف القلم ، وتحريف الكلام أن تجعله على حرف من الاحتمال يمكن حمله على الوجهين » .

قال الله ﷻ : ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة : ١٣] وصفات الله دالة على معان قائمة بذات الرب جل جلاله لا تحتمل غير ذلك ، فيجب الإيمان والتصديق بها وإثباتها لله إثباتًا بلا تمثيل ؛ لأنه ليس كمثله شيء وتنزيهًا له تعالى عن مشابهة خلقه بلا تعطيل .

و« التعطيل » : جحد الصفات الإلهية وإنكار قيامها بذاته تعالى ، كما هو قول « المعتزلة » و« الجهمية » ، وكذلك لا تكيف صفاته ، كما لا تكيف ذاته ولا تمثل ، ولا تشبه بصفات المخلوقين ؛ لأنه ليس له كفؤ ، ولا مثيل ولا نظير . ويرحم الله ابن القيم حيث قال :

لسنا نشبه وصفه بصفاتنا إن المشبه عابد الأوثان
كلا ولا نخليه من أوصافه إن المعطل عابد البهتان
من شبه الله العظيم بخلقه فهو الشبيه لمشرك نصراني
أو عطل الرحمن من أوصافه فهو الكفور وليس ذا الإيمان

قوله : « ولا يلحدون ..» :

* « الإلحاد » إما يكون بجحدها وإنكارها . وإما بجحد معانيها وتعطيلها ، وإما بتحريفها عن الصواب ، وإخراجها عن الحق بالتأويلات . وإما بجعلها اسما لهذه المخلوقات كإلحاد أهل الاتحاد .

قوله : « ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه ..» :

* لأن الصفة تابعة للموصوف ، فكما أن الموصوف سبحانه لا تعلم كيفية ذاته ، فكذلك لا تعلم كيفية صفاته ، مع أنها ثابتة في نفس الأمر .

قوله : « لا سمي له » :

* أي : مثيلًا ونظيرًا يستحق اسمه ، وموصوفًا يستحق صفته على التحقيق .

وليس المعنى : هل نجد من يتسمى باسمه إذا كان كثير من أسمائه قد يطلق على غيره ؛ لكن ليس معناه إذا استعمل فيه ، كما كان معناه إذا استعمل في غيره .

قوله : « ولا ند له » :

* « الأنداد » : الأمثال والنظراء . فكل من صرف شيئًا من أنواع العبادة لغير الله رغبة فيه أو رهبة منه ؛ فقد اتخذه ندًا لله ؛ لأنه أشرك مع الله فيما لا يستحقه غيره .

وذلك كحال عباد الأموات الذين يستعينون بهم وينذرون لهم ، ويحلفون بأسمائهم .

قال الشيخ محمد خليل هراس رحمه الله :

وقوله : (ومن الإيمان بالله . . . إلخ) :

هذا شروع في التفصيل بعد الإجمال ، و« من » هنا للتبعيض ، والمعنى : ومن جملة إيمان أهل السنة والجماعة بالأصل الأول الذى هو أعظم الأصول وأساسها ، وهو الإيمان بالله أنهم يؤمنون بما وصف به نفسه إلخ .

وقوله : « من غير تحريف » متعلق بالإيمان قبله ؛ يعنى أنهم مؤمنون بالصفات الإلهية على هذا الوجه الخالى من كل هذه المعانى الباطلة إثباتًا بلا تمثيل ، وتنزيهًا بلا تعطيل . والتحريف فى الأصل مأخوذ من قولهم : حرفت الشىء عن وجهه حرفًا ، من باب ضرب إذا أملته وغيرته ، والتشديد للمبالغة . وتحريف الكلام إمالته عن المعنى المتبادر منه إلى معنى آخر لا يدل عليه اللفظ إلا باحتمال مرجوح ، فلا بد فيه من قرينة تبين أنه المراد .

وأما التعطيل فهو مأخوذ من العطل الذى هو الخلو والفراغ والترك ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ﴾ [الحج : ٤٥] . أى : أهملها أهلها وتركوا وردها . والمراد به هنا نفى الصفات الإلهية ، وإنكار قيامها بذاته تعالى . فالفرق بين التحريف والتعطيل أن التعطيل نفى للمعنى الحق الذى دل عليه الكتاب والسنة ، وأما التحريف فهو تفسير النصوص بالمعانى الباطلة التى لا تدل عليها .

والنسبة بينهما العموم والخصوص المطلق ، فإن التعطيل أعم مطلقًا من التحريف بمعنى أنه كلما وجد التحريف وجد التعطيل دون العكس ، وبذلك يوجدان معًا فيمن أثبت المعنى الباطل ونفى المعنى الحق ، ويوجد التعطيل بدون التحريف فيمن نفى الصفات الواردة فى الكتاب والسنة ، وزعم أن ظاهرها غير مراد ولكنه لم يعين لها معنى آخر وهو ما يسمونه بالتفويض .

ومن الخطأ القول بأن هذا هو مذهب السلف كما نسب ذلك إليهم المتأخرون من الأشاعرة وغيرهم ، فإن السلف لم يكونوا يفوضون فى علم المعنى ولا كانوا يقرءون كلامًا لا يفهمون معناه ، بل كانوا يفهمون معانى النصوص من الكتاب والسنة ، ويثبتونها لله عزَّ وجلَّ ، ثم يفوضون فيما وراء ذلك من كنه الصفات أو كيفياتها كما قال مالك حين سُئل عن كيفية استوائه تعالى على العرش : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول » .

وأما قوله : (ومن غير تكييف ولا تمثيل) . فالفرق بينهما أن التكييف أن يعتقد أن صفاته تعالى على كيفية كذا ، أو يسأل عنها بكيف .

وأما التمثيل فهو اعتقاد أنها مثل صفات المخلوقين ، وليس المراد من قوله : من غير تكييف . أنَّهم ينفون الكيف مطلقًا ، فإن كل شىء لابد أن يكون على كيفية ما ؛ ولكن المراد أنهم ينفون علمهم

بالكيف ؛ إذ لا يعلم كيفية ذاته وصفاته إلا هو سبحانه .

قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ﴾ هذه الآية المحكمة من كتاب الله عزَّ وجلَّ هي دستور أهل السنة والجماعة فى باب الصفات ، فإن الله عزَّ وجلَّ قد جمع فيها بين النفى والإثبات ، فنفى عن نفسه المثل وأثبت لنفسه سمعًا وبصرًا ؛ فدل هذا على أن المذهب الحق ليس هو نفى الصفات مطلقًا كما هو شأن المعطلة ولا إثباتها مطلقًا ، كما هو شأن الممثلة ، بل إثباتها بلا تمثيل .

وقد اختلف فى إعراب : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ على وجوه أصحها أن الكاف صلة زيدت للتأكيد كما فى قول الشاعر :

ليس كمثل الفتى زهير خلق يوازيه فى الفضائل

وقوله : (فلا ينفون عنه إلخ) تفريع على ما قبله ، فإنهم إذا كانوا يؤمنون بالله على هذا الوجه فلا ينفون ولا يحرفون ، ولا يكيفون ولا يمثلون . والمواضع جمع موضع ، والمراد بها المعانى التى يجب تنزيل الكلام عليها لأنها هى المتبادرة منه عند الإطلاق فهم لا يعدلون به عنها .

وأما قوله : « ولا يلحدون فى أسماء الله وآياته » . فقد قال العلاَّمة ابن القيم رحمه الله : والإلحاد فى أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها ، مأخوذ من الميل كما يدل عليه مادة (ل ح د) ، فمنه اللحد وهو الشق فى جانب القبر الذى قد مال عن الوسط ، ومنه الملحد فى الدين : (المائل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه) . اهـ .

فالإلحاد فيها إما أن يكون بجحدها وإنكارها بالكلية ، وإما بجحد معانيها وتعطيلها ، وإما بتحريفها عن الصواب وإخراجها عن الحق بالتأويلات الفاسدة ، وإما بجعلها أسماء لبعض المبتدعات كإلحاد أهل الاتحاد .

وخلاصة ما تقدم :

أن السلف رضي الله عنهم يؤمنون بكل ما أخبر الله به عن نفسه في كتابه ، وبكل ما أخبر به عنه رسوله ، إيمانًا سالمًا من التحريف والتعطيل ، ومن التكييف والتمثيل ، ويجعلون الكلام في ذات الباري وصفاته بابًا واحدًا ؛ فإن الكلام في الصفات فرعُ الكلام في الذات ، يُحتذى فيه حذوه ، فإذا كان إثبات الذات إثباتَ وجودٍ لا إثبات تكييف ؛ فكذلك إثبات الصفات .

وقد يعبِّرون عن ذلك بقولهم : « تمر كما جاءت بلا تأويل » ، ومَن لم يفهم كلامهم ؛ ظن أن غرضهم بهذه العبارة هو قراءة اللفظ دون التعرُّض للمعنى ، وهو باطل ، فإن المراد بالتأويل المنفي هنا هو حقيقة المعنى وكنهه وكيفيته .

قال الإمام أحمد رحمه الله : لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ، ولا

يتجاوز القرآن والحديث » .

وقال نعيم بن حماد شيخ البخارى : « من شبه اللّٰه بخلقه كفر ، ومن جحد ما وصف اللّٰه به نفسه كفر ، وليس فيما وصف اللّٰه به نفسه أو وصفه به رسوله تشبيه ولا تمثيل » .

قوله : (لأنه سبحانه لا سمى له ، ولا كفو له ، ولا ندَّ له) :

تعليل لقوله فيما تقدم إخبارًا عن أهل السنة والجماعة [بأنهم] لا يكيفون ولا يمثلون . ومعنى : (لا سمى له) : أى : لا نظير له يستحق مثل اسمه ، أو : لا مسامى له يساميه . وقد دل على نفيه قوله تعالى فى سورة « مريم » : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] ، فإن الاستفهام هنا إنكارى معناه النفى .

وليس المراد من نفى السمى أن غيره لا يسمى بمثل أسمائه ، فإنه هناك أسماء مشتركة بينه وبين خلقه ، ولكن المقصود أن هذه الأسماء إذا سمى اللّٰه بها كان معناها مختصًا به لا يشركه فيه غيره ، فإن الاشتراك إنما هو فى مفهوم الاسم الكلى ، وهذا لا وجود له إلا فى الذهن ، وأما فى الخارج فلا يكون المعنى إلا جزئيًا مختصًا ، وذلك بحسب ما يضاف إليه ، فإن أضيف إلى الرب كان مختصًا به لا يشاركه فيه العبد ، وإن أضيف إلى العبد كان مختصًا به لا يشاركه فيه الرب .

وأما الكفء فهو المكافئ المساوى ، وقد دل على نفيه قوله تعالى : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص : ٤] . وأما النِّد : فمعناه المساوى المناوئ ، قال تعالى : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٢٢] .

قوله : (ولا يُقاس بخلقِهِ سبحانه) :

وأما قوله : (ولا يقاس بخلقه) ، فالمقصود به أنه لا يجوز استعمال شىء من الأقيسة التى تقتضى المماثلة والمساواة بين المقيس والمقيس عليه فى الشئون الإلهية .

وذلك مثل قياس التمثيل الذى يعرِّفه علماء الأصول : بأنه إلحاق فرع بأصل فى حكم الجامع ، كإلحاق النبيذ بالخمر فى الحرمة لاشتراكهما فى علة الحكم وهى الإسكار . فقياس التمثيل مبنى على وجود مماثلة بين الفرع والأصل ، واللّٰه ﷻ لا يجوز أن يمثل بشىء من خلقه .

ومثل قياس الشمول المعروف عند المناطقة بأنه الاستدلال بكلى على جزئى بواسطة اندراج ذلك الجزئى مع غيره تحت هذا الكلى . فهذا القياس مبنى على استواء الأفراد المندرجة تحت هذا الكلى ، ولذلك يحكم على كل منها بما حكم به عليه .

ومعلوم أنه لا مساواة بين اللَّه ﷻ وبين شيء من خلقه ، وإنما يستعمل فى حقه تعالى قياس الأَولَى ومضمونه أن كل كمال ثبت للمخلوق وأمكن أن يتصف به الخالق ، فالخالق أَولَى به من المخلوق ، وكل نقص تنزه عنه المخلوق فالخالق أحق بالتنزه عنه .

وكذلك قاعدة الكمال التى تقول : إنه إذا قدر اثنان أحدهما موصوف بصفة كمال ، والآخر يمتنع عليه أن يتصف بتلك الصفة كان الأول أكمل من الثانى ، فيجب إثبات مثل تلك الصفة للَّه ما دام وجودها كمالًا وعدمها نقصًا .

قوله : (فإنه أعلم بنفسه وبغيره – إلى قوله – : ثم رسله صادقون مصدقون) تعليل لصحة مذهب السلف فى الإيمان بجميع الصفات الواردة فى الكتاب والسنة . فإنه إذا كان اللَّه عزَّ وجلَّ أعلم بنفسه وبغيره ، وكان أصدق قولًا وأحسن حديثًا ، وكان رسله عليهم الصلاة والسلام صادقين فى كل ما يخبرون به عنه ، معصومين من الكذب عليه والإخبار عنه بما يخالف الواقع . وجب التعويل إذن فى باب الصفات نفيًا وإثباتًا على ما قاله اللَّه وقاله رسوله الذى هو أعلم خلقه به ، وألَّا يترك ذلك إلى قول من يفترون على اللَّه الكذب ويقولون عليه ما لا يعلمون .

وبيان ذلك أن الكلام إنما تقصر دلالته على المعانى المرادة منه لأحد ثلاثة أسباب ؛ إما لجهل لمتكلم وعدم علمه بما يتكلم به ، وإما لعدم فصاحته وقدرته على البيان ، وإما لكذبه وغشه وتدليسه . ونصوص الكتاب والسنة بريئة من هذه الأمور الثلاثة من كل وجه ، فكلام اللَّه وكلام رسوله فى غاية الوضوح والبيان ، كما أنه المثل الأعلى فى الصدق والمطابقة للواقع لصدوره عن كمال العلم بالنسب الخارجية وهو كذلك صادر عن تمام النصح والشفقة ، والحرص على هداية الخلق وإرشادهم .

فقد اجتمعت له الأمور الثلاثة التى هى عناصر الدلالة والإفهام على أكمل وجه .

فالرسول ﷺ أعلم الخلق بما يريد إخبارهم به ، وهو أقدرهم على بيان ذلك ، والإفصاح عنه . وهو أحرصهم على هداية الخلق وأشدهم إرادة لذلك ، فلا يمكن أن يقع فى كلامه شيء من النقص والقصور بخلاف كلام غيره فإنه لا يخلو من نقص فى أحد هذه الأمور أو جميعها ، فلا يصح أن يعدل بكلامه كلام غيره فضلًا عن أن يعدل عنه إلى كلام غيره ، فإن هذا هو غاية الضلال ومنتهى الخذلان .

قوله : (ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ سبحان ربك عما يصفون .. ﴾ إلخ) : تعليلٌ لما تقدم من كون كلام اللَّه وكلام رسوله أكمل صدقًا وأتم بيانًا ونصحًا ، وأبعد عن العيوب والآفات من كلام كل أحد .

و(سبحان) : اسم مصدر من التسبيح ، الذى هو التنزيه والإبعاد عن السوء ، وأصله من السبح الذى هو السرعة والانطلاق والإبعاد ، ومنه : فرس سبوح إذا كانت شديدة العدو .

إضافة الرب إلى العزة من إضافة الموصوف إلى صفته ، وهو بدل من الرب قبله ، فهو سبحانه ينزه

نفسه عما ينسبه إليه المشركون من اتخاذ الصاحبة والولد وعن كل نقصٍ وعيبٍ .

ثم يسلم على رسله عليهم الصلاة والسلام بعد ذلك للإشارة إلى أنه كما يجب تنزيه الله عزَّ وجلَّ وإبعاده عن كل شائبة نقصٍ وعيب ، فيجب اعتقاد سلامة الرسل في أقوالهم وأفعالهم من كل عيب ، كذلك فلا يكذبون على الله ولا يشركون به ، ولا يغشون أممهم ولا يقولون على الله إلا الحق .

قوله : (والحمد لله رب العالمين) : ثناء منه سبحانه على نفسه بما له من نعوت الكمال وأوصاف الجلال وحميد الفعال ، وقد تقدم الكلام على معنى الحمد فأغنى عن إعادته .

لما بين فيما سبق أن أهل السنة والجماعة يصفون الله عزَّ وجلَّ بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ، ولم يكن ذلك كذلك إثباتًا ولا كله نفيًا نبه على ذلك بقوله : (وهو سبحانه قد جمع . . . إلخ) .

واعلم أن كلًّا من النفي والإثبات في الأسماء والصفات مجمل ومفصل :

أما الإجمال في النفي : فهو أن ينفي عن الله عزَّ وجلَّ كل ما يضاد كماله من أنواع العيوب والنقائص مثل قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ ، ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ .

وأما التفصيل في النفي فهو أن ينزه الله عن كل واحد من هذه العيوب والنقائص بخصوصه ، فينزه عن الوالد والولد والشريك والصاحبة والنِّد والضد والجهل والعجز والضلال والنسيان والسِّنَة والنوم والعبث والباطل . . . إلخ .

لكن ليس في الكتاب ولا في السُّنَّة نفي محض ، فإن النفي الصرف لا مدح فيه ، وإنما يراد بكل نفي فيهما إثبات ما يضاده من الكمال ، فنفي الشريك والنِّد لإثبات كمال عظمته وتفرده بصفات الكمال ، ونفي العجز لإثبات كمال قدرته ، ونفي الجهل لإثبات سعة علمه وإحاطته ، ونفي الظلم لإثبات كمال عدله ، ونفي العبث لإثبات كمال حكمته ، وفي السِّنَة والنوم والموت لإثبات كمال حياته وقيُّوميته وهكذا ، ولهذا كان النفي في الكتاب والسنة إنما يأتي مجملًا في أكثر أحواله بخلاف الإثبات ، فإن التفصيل فيه أكثر من الإجمال لأنه مقصود لذاته .

وأما الإجمال في الإثبات ، فمثل إثبات الكمال المطلق ، والحمد المطلق والمجد المطلق ونحو ذلك ، كما يشير إليه مثل قوله تعالى : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ .

وأما التفصيل في الإثبات فهو متناول لكل اسم أو صفة وردت في الكتاب والسنة ، وهو من الكثير بحيث لا يمكن لأحد أن يحصيه فإن منها ما اختص الله عزَّ وجلَّ بعلمه كما قال عليه الصلاة والسلام : « سبحانك لا نحصي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » . وفي حديث دعاء الكرب :

« أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحدًا من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك » .

قوله : (فلا عدول . . . إلخ) : هذا مترتب على ما تقدم من بيان أن ما جاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام هو الحق الذى يجب اتباعه ولا يصح العدول عنه ، وقد علل ذلك بأنه الصراط المستقيم ، يعنى الطريق السوى القاصد الذى لا عوج فيه ولا انحراف .

« الصراط المستقيم » لا يكون إلا واحدًا ، مَن زاغ عنه أو انحرف وقع فى طريق من طرق الضلال والجور ، كما قال تعالى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣] ، والصراط المستقيم هو طريق الأمة الوسط الواقع بين طرفى الإفراط والتفريط .

ولهذا أمرنا الله عزّ وجلّ وعلمنا أن نسأله أن يهدينا هذا الصراط المستقيم فى كل ركعة من الصلاة ، أى : يلهمنا ويوفقنا لسلوكه واتباعه فإنه صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا .

❁ قال الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ ﷫ :

« ومن الإيمان بالله » هذا هو الأصل الأول من أصول الإيمان الستة ، وهو أعظمها . ولم يقل المصنف : « والإيمان بالله » ؛ لكون الإيمان بالله أقسام ، الأول : الإيمان بوجوده وربوبيته . والثاني : الإيمان بوحدانيته في الألوهية . والثالث : الإيمان بأسمائه وصفاته ، بل قال : « ومن الإيمان بالله » .

« الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه ، وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ » في السنة يقتصر عليه ، ولا يزاد فيه ولا ينقص ، لا يرد شيء من لفظه ولا معناه ، وهذا سماع محض لا مجال فيه للرأي . قال الإمام أحمد ﷫ : « لا يوصف الله سبحانه إلا بما وصف به نفسه في كتابه ، أو بما وصفه به رسوله ﷺ في السنة ، لا يتجاوز القرآن والحديث » .

وهذا الذي قاله الإمام أحمد هو الذي عليه جميع الأئمة من أهل السنة ، فيقتصر على ما وصف به نفسه ، ويثبت ويؤمن به ، ويعتقد على ما يليق بجلال الله وعظمته .

« من غير تحريف » التحريف : التصريف ؛ يعني : من غير تصريف عن المراد به ، إنما ذلك لأهل البدع .

وتحريف النصوص تارة يكون للفظ والمعنى جميعًا ، وتارة للمعنى وحده ، فإن من المحرفين من يحرف اللفظ ويلزم منه تحريف المعنى ، ومنهم من يحرف المعنى من غير تحريف اللفظ ، ومنهم من يحرفهما جميعًا .

فمن تحريفهما جميعًا : قول اليهود : « حنطة » بدل : ﴿حِطَّةٌ﴾ ، وقول جهم : « استولى » ، فإنه قال : لو استطعت أن أحك من المصحف ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ لحككتها .

والثاني : تحريف المعنى- وهي حرفة اليهود- وسائر تحريف نصوص الصفات التي يسميه المبتدعة تأويلًا .

ومثال تحريف اللفظ فقط كقولهم : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ ؛ بنصب الاسم الشريف .

« ولا تعطيل » التعطيل في الأصل : الإخلاء ، من قولهم : جيدٌ عاطل ؛ أي : خالٍ من الحليّ . من غير تعطيل للفظ وللمعنى ، فالتعطيل هو : إخلاؤه تعالى من صفاته التي وصف بها نفسه .

وأهل التعطيل هم الجهمية ؛ عطلوا النصوص ، وهم أعظم كفرًا وضلالًا من أهل التشبيه ، كما قال بعض السلف : « المُعطِّل يعبد عدمًا ، والمشبِّه يعبد صنمًا ، والموحِّد يعبد إلهًا واحدًا فردًا صمدًا » .

وأهل التعطيل أعظم كفرًا من أهل التشبيه ؛ لأمور :

الأمر الأول : أن عابد العدم أعظم كفرًا من عابد الصنم .

الأمر الثاني : أن هذا التعطيل محفوف بتمثيلين ؛ مثلوا أولًا حيث لم يفهموا من النصوص الواردة في الصفات إلا التشبيه . الثاني أنهم لما نفوا الصفات لزمهم التمثيل بالمعدومات .

الأمر الثالث : أن كونه أشر تمثيلًا من الممثلة ؛ أنهم يشبهونه بالمعدومات ، بل بالممتنعات ، فإنهم قالوا : ليس بكذا ولا كذا ولا كذا ؛ حتى عطلوه من جميع الصفات ، فشبهوا أولًا ، وعطلوا ثانيًا ، وشبهوا ثالثًا ، وأولئك مثلوه بالحيوانات ، تعالى اللّٰه وتقدس .

وبهذه الأوجه عرفنا أن كفر المعطلة أعظم من كفر الممثلة .

ومن هؤلاء : المعتزلة ؛ فإنهم يثبتون الأسماء وينفون الصفات ، ويرون أن الأسماء لا معنى لها ، لا تدل إلا على الذات فقط .

ومن فروع هؤلاء : الأشاعرة ؛ الذين ينتسبون إلى أبي الحسن الأشعري ، وهو منهم بريء ، ومثلهم الماتريدية .

وقال بعض السلف أيضًا : « من شبه اللّٰه بخلقه ؛ فقد كفر ، ومن نفى عنه ما وصف به نفسه ؛ فقد كفر ، وليس فيما وصف اللّٰه به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ تشبيه » . وهذه العبارة عند السلف شهيرة ، متلقاة بالقبول عند الأئمة .

فأهل التشبيه ؛ أثبتوا وغلوا وزادوا في الإثبات ؛ حتى وقعوا في كفر التشبيه .

وأهل التعطيل ؛ غلوا وزادوا في التنزيه ؛ حتى وقعوا في كفر التعطيل ، فصاروا ضالين من جهتين :

ى : فهمهم التشبيه من الآيات الواردة في إثبات الصفات .

الثاني : تشبيهه بالجمادات والمعدومات .

« ومن غير تكييف » التكييف : تعيين كيفية من الكيفيات للصفة ، فيقول : كيفيتها كذا وكذا ، كقولهم- والعياذ بالله- : هو كذا وكذا . فممنوع كيف ؟ ولم ؟

« ولا تمثيل » وهو أن يقول : هذا مثل هذا ؛ كأن يقول : يد كيدي ، ونحو ذلك .

ولم يقل المصنف : « ولا تشبيه » . وقد أجاب عن هذه اللفظة حين امتحانه ، فقال : إنها لم ترد في القرآن ، إنما ورد نفي التمثيل ؛ كقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ، فاقتصرت عليها .

والناس في باب الصفات طرفان ووسط :

الطرف الأول : حرفوا ونفوا وجحدوا الصفات . وهم الجهمية أتباع جهم بن صفوان ، أخذ هذا المذهب عن شيخه الجعد بن درهم- ولم يكن يظهرها- ، والجعد أخذها عن أبان بن سمعان ، وأبان أخذها عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم ، وطالوت أخذها عن لبيد بن الأعصم اليهودي- الساحر الذي سحر النبي ﷺ- ، وأظهرها الجهم ، فنسبت إليه ، وقيل : إن الجهم أخذها عن كفار الهند .

فالجهم سلك هذا المسلك- نفى الصفات- من جهله ، زعم أنه إذا أثبتها وقع في التشبيه ، فنفاها ؛ مخافة التشبيه ، وزعم أن نفيها تحقيق لقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ لم يفهم من صفات الله تعالى إلا ما يفهمه من صفات المخلوقين .

الطرف الثاني : أفرطوا في الإثبات ، وشبهوا ، ومثلوه بصفات المخلوقين ، فضربوا النصوص بعضها ببعض ، وزعموا أن هذا مدلولها ، وردوا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ، وهاتان الفرقتان في طرفي نقيض .

وإطلاق التفويض في الصفات شر من التحريف . وقول مالك ظاهر . وابن عباس وغيره من الصحابة فسروا الصفات . وتفويض الكنه والكيفية صواب .

والقسم الثالث : الأمة الوسط بين هذين الطرفين- أهل السنة والجماعة- ، سلكوا في هذا الباب العظيم المسلك القويم الذي جاءت به الكتب السماوية ، ونطقت به الرسل ، ودرج عليه الصدر الأول ومن تبعهم .

وهذا المسلك الذي هداهم الله له ، هو الوسط بين الطرفين ، والهدى بين الضلالتين ، فأثبتوا لله ما أثبته لنفسه في كتابه ، وأثبته له رسوله ﷺ في السنة ، إثباتًا بريئًا من تمثيل الممثلين ، ونفوا عنه ما لا يليق بجلاله وعظمته نفيًا بريئًا من تعطيل المعطلين ، على حد قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ؛ لأن باب الأسماء والصفات توقيفي ، لا مجال للعقول والقياس والذوق فيه . والتحريف حرفة اليهود والجهمية ، والتعطيل حرفة الجهمية ، والتمثيل طريقة المشبهة .

« بل يؤمنون بأن اللّه تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ » ؛ يعني : أهل السنة والجماعة ، يؤمنون بأن اللّه ليس كمثله شيء في ذاته ، ولا في أسمائه وصفاته ، (﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾) ويثبتون ما أثبته اللّه لنفسه من الأسماء والصفات ؛ كالسميع والبصير .

وفي هذه الآية الرد على الطائفتين : أهل التعطيل ، وأهل التشبيه . فقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ رد على أهل التشبيه . وقوله : ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ رد على أهل التعطيل .

وفي هذه الآية بيان طريقة الكتاب والسنة في الأسماء والصفات ، وأن طريقتهما في النفي الإجمال ، وفي الإثبات التفصيل ، فإن الكتاب والسنة جاءا بنفي مجمل وإثبات مفصل ، وهي طريقة أهل السنة والجماعة .

والكلام في باب الأسماء والصفات دائر بين النفي والإثبات ، بخلاف طريقة الجهمية وأضرابهم ؛ فإنهم أثبتوا إثباتًا مجملًا ، ونفوا نفيًا مفصلًا ، فخالفوا الكتاب والسنة وأهل السنة والجماعة في التأصيل والتفصيل ، زعمًا منهم أنه تنزيه للّه .

و « الكاف » في ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ﴾ فيها كلام كثير ، وليست زائدة ، بل جاءت إحداهما مؤكدة للأخرى ، لمزيد تأكيد عدم المماثلة .

« فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه » حاشا وكلا ، بل هذه طريقة الجهمية والأشاعرة .

« ولا يحرفون الكلم عن مواضعه » ، بل يقرون الكلم على معانيه وما أريد به .

« ولا يلحدون في أسماء اللّه وآياته » والإلحاد في اللغة هو : الميل ، ومنه تسمية موضع الميت في القبر لحدًا ؛ لميله عن وسطه .

وفي الشرع : هو : الميل والخروج عن الحق فيها إلى الجور .

وقد ذم اللّه تعالى : مَن ألحد في أسمائه وآياته ؛ فقال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ ، فمن عطل فقد ألحد ، ومن مَثَّلَ فقد ألحد ، ولا يسلم من الإلحاد إلا من آمن بها كما جاءت من غير تمثيل ، وكذلك الآيات من حملها ما لا تطيق فقد ألحد ، ومن نقصها فقد ألحد .

وأهل التعطيل والتشبيه كلهم من أهل الإلحاد .

« ولا يكيفون » صفاته ، فلا يقولون : كيفيته كذا وكذا ، وقد قال اللّه تعالى : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ .

« ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه » فما يضاف إلى الخالق فهو يليق به ويختص به ، كما أن ما يضاف إلى المخلوق ويليق به يختص به ، كما أن ما يضاف إلى المخلوق ويليق به يختص به ، وإن

اجتمعا في الاسم أو الصفة ، فإنه سبحانه ليس كمثله شيء ، لا في ذاته ، ولا في أسمائه وصفاته ، ولا في أفعاله ، فإن القول في الذات كالقول في الصفات ، يحتذى حذوه ويقاس عليه ، فتثبت إثبات وجود ، لا ثبوت تمثيل فيه ، فكما أن ذات الباري سبحانه لا تدانيها ولا تقاربها ولا تشابهها ذوات المخلوقين ، فكذلك صفاته سبحانه .

« لأنه – سبحانه – لا سمي له » المعنى : لا يساميه أحد ، أو لا يستحق مثل اسمه ، وكلا المعنيين راجع إلى الآخر ، لكون اسمه تعالى دال على الكمال . والخلق وإن كان لهم نوع كمال ، فإن اللّه هو الذي أكسبهم إياه .

« ولا كفء له » الكفء : المساوي .

« ولا ند له » : ولا مثل له .

« ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى » فيضرب له مثلًا ، فيقاس بالمخلوق في مثل يستوي هو والمخلوق فيه- تعالى وتقدس- فجميع القياس في حقه ممتنع شرعًا وعقلًا . نعم قياس الأولى ، فيقال : ما كان في حق المخلوق كمال ، فإن اللّه أحق بالكمال ، فيثبت للّه تعالى على ما يليق بجلال اللّه وعظمته من غير تمثيل .

« فإنه سبحانه أعلم بنفسه » من خلقه ، وبما يجوز في حقه وما يمتنع عليه ، فعلينا أن نذعن ونصدق ونؤمن بما يصل إلينا ، ونعتقده حقيقة على ما يليق بجلال اللّه وعظمته .

وهذا الباب توقيفي ، فينطق حيث نطق الكتاب والسنة ، وقد نطق الكتاب والسنة بالصفات ، وهو الحق والتوحيد ، فلا محذور في النطق بما وصف به نفسه ، والخلق ما لهم علم بالأمور الاعتقادية إلا ما أخذوه من مشكاة النبوة .

« وبغيره » وأعلم من خلقه بأنفسهم ، والعلم أقسام ؛ فأعلاها العلم بالتوحيد ، والتوحيد ثلاثة أقسام ؛ ومنها توحيد الأسماء والصفات ، وهو التوحيد العلمي الاعتقادي .

« وأصدق قيلًا ، وأحسن حديثًا من خلقه » وقد وصف نفسه .

« ثم رسله » هذا عطف على قوله : « فإن سبحانه أعلم بنفسه وبغيره ، وأصدق قيلًا وأحسن حديثًا من خلقه » مع ما تقدم من قوله : « ومن الإيمان باللّه ..» إلخ .

« صادقون » وقد وصفوا اللّه بصفات ، وهم معصومون في كل ما بلغوه عن اللّه ، لا ينطقون عن الهوى .

« مصدقون » فيما أخبروا به عن ربهم ؛ أي : مؤتمنون فيما أوحي إليهم ، فيجب تصديقهم فيما بلغوه عن ربهم ، والالتفات إلى ما قالوا والتمسك به . وفي بعض النسخ : « مصدوقون » .

« بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون » هذا راجع إلى أهل التعطيل والجحد ، وإلى أهل التمثيل ، كلهم قائلون عليه بغير علم ، فإنهم لا صادقون ولا مصدقون ، ولا التفات إلى ما قالوا ؛ بل كاذبون ومكذبون ، ومعتمدون على نحاتة الأفكار وزبالة الأذهان ، فإن منهم من عطل وجحد ، فهو قائل بلا علم مع مخالفتهم لما عرفوا من العلم ، وكذلك الذين يقولون أنها لا تدل على كذا ، ولا على كذا ، فكلهم مخالفون للرسل ، وكل من وصف الله بغير ما وصف به نفسه ، فهو قائل على الله بلا علم .

فكل من الجهمية وأضرابهم والممثلة تائه ، الكل قائل على الله بغير علم ، وواقع فيما هو أعظم من الشرك ، وقد قال الله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ، فكل من حرف أو ألحد أو عطل ؛ فهو قائل على الله بلا علم ، بل هو مخالف للعلم الواضح .

« ولهذا » هذا تعليل من المصنف ، فالله سبحانه الذي هذا شأنه ، (قال : ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الصافات : ١٨٠- ١٨٢] .

« فسبح نفسه » وقدسها . والتسبيح : التنزيه والتقديس ، « عما وصفه به المخالفون للرسل » ، مما قالوه في أسمائه وصفاته ، وشرعه وقدره ؛ لأن ما قاله أعداء الرسل نقص وعيب لا يليق بجلال الله .

« وسلم على المرسلين » ذكر في الآية السلام عليهم ؛ « لسلامة ما قالوه » في الله وفي أسمائه وصفاته ، وشرعه ودينه « من النقص والعيب » ؛ لأن ما ذكروه هو الصدق والكمال ، وضده الكذب والعيب ، فاستحقوا السلام من الله ، وحمد نفسه لما له من الأسماء والصفات وبديع المخلوقات .

« وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه » ؛ يعني : في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ (بين) نوعين : (النفي والإثبات) :

نفى ما لا يليق بجلال الله وعظمته نفيًا عامًّا مجملًا ؛ كقوله : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ ، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ، ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ .

وأما الإثبات : فأثبت إثباتًا مفصلًا : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ، ونظائر ذلك من الإثبات ، فعكس ذلك أهل التجهم والاعتزال ، زعمًا منهم أنه تنزيه لله ، ووقعوا في ضلالتين : في معاكسة الكتاب ، وفي وصفه تعالى بغير ما وصف به نفسه .

« فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون » ؛ يعني : أنه إذا كان كذلك ؛ تبين أنه لا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون ؛ يعني : متعين عليهم التمسك بمسلك المرسلين ، والأخذ بما جاء عنهم ، الذي من تمسك به نجا ، ومن تركه هلك ، فإنه ضروري تمسكهم بالحق

وعدم العدول عما جاء به المرسلون ، ولازم هذا ولا غرو ، ولا استقام مقصدهم إلا بعدم العدول عما جاء به المرسلون .

وما جاء به المرسلون هو إثبات صفات الكمال على وجه التفصيل ، وفي النفي : نفي ما لا يليق بالله على وجه الإجمال كما تقدم .

« فإنه الصراط المستقيم » الذي جعله الرب موصلًا للعباد إلى ربهم ، ولا طرق سواه ، إنما هو هذا الطريق الأوحد الذي يصل الخلق إلى ربهم منه ، فلا طريق لهم موصل إلى ربهم ودار كرامته إلا من هذا الطريق .

« صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » ، النعمة الكاملة ؛ نعمة الدين ، فإن لله نعمتين :

نعمة كاملة مطلقة : وهي : نعمة الدين .

ونعمة ناقصة مقيدة : وهي : التي يشترك فيها البر والفاجر ؛ من المأكل والمشرب ، ونحو ذلك .

فالأولى : نعمة الأرواح . والثانية : نعمة الأجسام . وشتان بين مشرق ومغرب ، فإن الإنسان مخلوق من مادتين ، روحانية نورانية ، وأرضية جسمانية .

فالنعمة التامة لأهل الإيمان ، وهي المعنية بقوله في « الفاتحة » : ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ، والمنعم عليهم الذين يسأل الله الهداية إلى طريقهم هم في قوله : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ .

فنعمة هؤلاء هي النعمة المطلقة ، وهؤلاء الطبقات الأربع أئمة هذه النعمة ، ولهم أتباع على حسب اتباعهم .

والنعمة المقيدة يستحق الرب عليها الشكر ، ولكنها بالنسبة إلى المطلقة كلا نعمة ، فتلك هي التي تستمر في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة ، أما الثانية فهي أيضًا نعمة ابتلاء وامتحان .

النعمة معرفة الدين والعمل به ، والمنعم عليهم على طبقات ، وترتيبهم على ما في الآية ، فهذا طريق المنعم عليهم النعمة الكاملة ، هو إثبات ما أثبته الله لنفسه ، على ما يليق بجلاله وعظمته من الصفات من غير تمثيل ، ونفي ما نفاه الله عن نفسه نفيًا بريئًا من التعطيل .

﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ ؛ يعني : من صار معهم فهو مرافق لهم ، والذي يحصل هذا حصل رفيقًا ما مثله رفيقًا ؛ يعني : وحسن هذا الرفيق رفيقًا ؛ يعني : هؤلاء هم أحسن الرفقاء .

قال الشيخ زيد بن عبد العزيز آل فياض رحمه الله:

قوله: « ومن الإيمان بالله: الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل »:

ومن هنا إلى آخر العقيدة كالتفصيل لما سبق.

وذكر في هذه الجملة قاعدة أهل السنة والجماعة في الصفات وهي أنهم:

يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل، كما قال الإمام أحمد رحمه الله: لا يوصف إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله، لا يتجاوز القرآن والحديث. وقال نعيم بن حماد شيخ البخاري رحمهما الله: ومن شبه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله تشبيه ولا تمثيل.

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: لله أسماء وصفات لا يسع أحدًا جهلها، فمن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر، وأما قبل قيام الحجة فيعذر بالجهل.

وقال الشيخ: ومن شك في صفة من صفات الله ومثله لا يجهلها فمرتد، وإن كان مثله يجهلها ليس بمرتد.

ولا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله؛ لأن باب الأسماء والصفات توقيفي فلا يتجاوز القرآن والحديث، كما قال الإمام أحمد وغيره من السلف، وقوله: من غير تحريف ولا تعطيل.. إلخ، فأهل السنة وسط بين فرق الضلال؛ فالجهمية والمعتزلة ومن تبعهم نفوا الصفات وعطلوها، وكذلك الأشعرية نفوا بعضًا وأثبتوا بعضًا.

والمشبهة، كداود الجواربي وهشام بن الحكم الرافضي غلوا في الإثبات فضلوا، وهدى الله أهل السنة للطريق الأمثل، وما أحسن المثل المضروب للمثبت للصفات من غير تشبيه ولا تعطيل باللبن الخالص السائغ للشاربين يخرج من بين فرث التعطيل ودم التشبيه، قال بعض العلماء: المعطل يعبد عدمًا، والممثل يعبد صنمًا، والموحد يعبد إلهًا واحدًا فردًا صمدًا.

وقال الخطّابي رحمه الله: مذهب السلف إجراء آيات الصفات وأحاديثها على ظاهرها مع نفي الكيفية والتشبيه عنها؛ إذ الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات يحتذى فيه حذوه ويتبع فيه مثاله، فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات تكييف، فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود لا إثبات تكييف، وقد يعبرون عن ذلك بقولهم: تمر كما جاءت ولا يتعرض لها بتأويل، ومرادهم أنه يجب إثبات حقيقة الصفات دون التكييف، وقد يَظُنّ من ينسب لهم أنهم أرادوا التفويض أو أنها من المتشابه، وهذا ظن خاطئ.

قال الشيخ : وأما إدخال أسماء الله وصفاته ، أو بعض ذلك في المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله ، أو اعتقاد أن ذلك هو المتشابه الذي استأثر الله بعلم تأويله ، كما يقول كل واحد من القولين طوائف من أصحابنا وغيرهم ، فإنهم وإن أصابوا في كثير مما يقولون ونجوا من بدع وقع فيها غيرهم ، فالكلام على هذا من وجهين :

الأول : أني لا أعلم عن أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة لا أحمد بن حنبل ولا غيره ؛ أنه جعل ذلك من المتشابه الداخل في هذه الآية ونفى أن يعلم معناه أحد ، وجعلوا أسماء الله وصفاته بمنزلة الكلام الأعجمي الذي لا يفهم ، ولا قالوا : إن الله ينزل كلامًا لا يفهم معناه أحد ، وإنما قالوا كلمات لها معاني صحيحة قالوا : في أحاديث الصفات تمر كما جاءت ، ونهوا عن تأويلات الجهمية وردوها وأبطلوها ، ويقرون النصوص على ما دلت عليه من معناها ، ويفهمون منها بعض ما دلت عليه ، كما يفهمون ذلك في سائر نصوص الوعد والوعيد والفضائل وغير ذلك .

وأحمد قد قال في غير أحاديث الصفات تمر كما جاءت في أحاديث الوعيد مثل : « من غشنا فليس منا » ، وأحاديث الفضائل ، ومقصوده : أن الحديث لا يحرف كلامه عن مواضعه كما يفعله من يحرفه ، وسمى تحريفه تأويلًا بالعرف المتأخر ، فتأويل هؤلاء المتأخرين عند الأئمة تحريف باطل ، وكذلك نص أحمد في كتاب الرد على الجهمية والزنادقة أنهم تمسكوا بمتشابه القرآن ، وتكلم أحمد على ذلك المتشابه وبين معناه وتفسيره بما يخالف تأويل الجهمية ، وجرى ذلك على سنن الأئمة قبله .

وقال الشيخ أيضًا : وأما التفويض فمعلوم أن الله أمرنا أن نتدبر القرآن وحضنا على عقله وفهمه ، فكيف يجوز مع ذلك أن يراد منا الإعراض عن فهمه ومعرفته وعقله ؟ وحقيقة قول هؤلاء « أهل التفويض » في المخاطب لنا أنه لم يبين الحق ولا أوضحه مع أمره لنا أن نعتقده ، وأن ما خاطبنا به وأمرنا باتباعه والرد إليه لم يبين به الحق ولا كشفه ، بل دل ظاهره على الكفر والباطل ، وأراد منا ألّا نفهم منه شيئًا ، أو أن نفهم منه ما لا دليل عليه فيه ، وهذا كله مما يعلم بالاضطرار تنزيه الله ورسوله عنه ، وأنه من جنس أقوال أهل التحريف والإلحاد . اهـ .

قوله : « من غير تحريف ولا تعطيل » : التحريف صرف الكلام عن ظاهره .

قال في القاموس : التحريف التغيير ، وقطُّ القلم مُحرفًا وأحر ورف مال وعدل كانحرف . وقال الراغب في مفرداته : تحريف الشيء إمالته كتحريف القلم ، وتحريف الكلام أن تجعله على حرف من الاحتمال يمكن حمله على الوجهين قال الله ﷻ : ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ . وقال ابن القيم : فالتحريف تحريف المعاني بالتأويلات التي لم يردها المتكلم بها . والتبديل تبديل لفظ بلفظ آخر . والكتمان جحده ، وهذه الأدواء الثلاثة منها غيرت الأديان والملل . اهـ .

وقال في موضع آخر : والتحريف نوعان : تحريف اللفظ وتحريف المعنى ؛ فتحريف اللفظ العدول عن جهته إلى غيرها إما بزيادة وإما بنقصان ، وإما بتغيير حركة إعرابية ، وإما غير إعرابية ، فهذه أربعة أنواع ، وقد سلك فيها الجهمية ، والرافضة ، فإنهم حرفوا نصوص الحديث ولم يتمكنوا من ذلك في ألفاظ القرآن وإن كان الرافضة حرفوا كثيرًا من لفظه ، وادعوا أن أهل السنة غيروه عن وجهه وأما تحريف المعنى فهذا الذي جالوا فيه وصالوا وتوسعوا وسموه تأويلًا ، وهو اصطلاح فاسد حادث لم يعهد به استعمال في اللغة ؛ وهو العدول بالمعنى عن وجهه وحقيقته ، وإعطاء اللفظ معنى لفظ آخر بقدر ما مشترك بينهما .

وأصحاب تحريف الألفاظ شر من هؤلاء من وجه ، وهؤلاء شر من وجه ؛ فإن أولئك عدلوا باللفظ والمعنى عما هما عليه فأفسدوا اللفظ والمعنى ، وهؤلاء تركوا اللفظ على حاله ، فكانوا خيرًا من أولئك من هذا الوجه ، ولكن أولئك لما أرادوا المعنى الباطل صرفوا له لفظًا يصلح له لئلا يتنافر اللفظ والمعنى ، بحيث إذا أطلق ذلك على اللفظ المحرف فهم منه المعنى المحرف ، فإنهم رأوا أن العدول بالمعنى عن وجهه وحقيقته مع بقاء اللفظ على حاله مما لا سبيل إليه ، فبدأوا بتحريف اللفظ ليستقيم لهم حكمهم على المعنى الذي قصدوا . اهـ .

قوله : « ولا تعطيل » : العطل في اللغة الخلو والفراغ والترك ، ومنه « وبئر معطلة » ، قال الراغب : العطل فقدان الزينة والشغل ، يقال : عطلت المرأة فهي عطل وعاطل ؛ ومنه قوس عطل ولا وتر عليه ، وعطلته من الحلي ومن العمل فتعطل قال : ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ ، ويقال : لمن يجعل العالم بزعمه فارغًا عن صانع أتقنه وزينه معطل ، وعطل الدار عن ساكنها والإبل عن داعبها . اهـ .

وسمي جاحدو الصفات معطلين ؛ لنفيهم عن اللَّه صفات كماله وإخلائهم له منها .

قال ابن القيم : أصل الشرك وقاعدته التي يرجع إليها هو التعطيل ، وهو ثلاثة أقسام : تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه ، وتعطيل الصانع سبحانه عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وصفاته وأفعاله ، وتعطيل معاملته عمّا يجب على العباد من حقيقة التوحيد . اهـ .

وقد سأل أحد المناظرين للشيخ في العقيدة : ما المراد بالتحريف والتعطيل ؟

ومقصوده أن هذا ينفي التأويل الذي أثبته أهل التأويل ، وهو صرف اللفظ عن ظاهره ، إما وجوبًا وإما جوازًا ، قال الشيخ : فقلت : تحريف الكلام هو تحريف الكلام عن مواضعه ، كما ذمه اللَّه تعالى في كتابه ، وهو إزالة اللفظ عما دل عليه من المعنى ، مثل : تأويل بعض الجهمية لقوله تعالى : ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ أي : جرحه بأظافير الحكمة تجريحًا .

ومثل تأويلات القرامطة والباطنية وغيرهم من الجهمية والرافضة والقدرية وغيرهم ، فسكت وفي

نفسه ما فيها ، وقد ذكرت في غير هذا المجلس أني عدلت عن لفظ التأويل إلى لفظ التحريف ؛ لأن التحريف اسم جاء القرآن بذمه ، وأنا تحريت في هذه العقيدة اتباع الكتاب والسنة فبينت ما ذم الله من التحريف ولم أذكر فيها لفظ التأويل بنفي ولا إثبات لأنه لفظ له عدة معان ، كما بينته في موضعه من القواعد ، فإن معنى لفظ التأويل في كتاب الله غير لفظ التأويل في اصطلاح كثير من أهل التفسير والسلف ؛ لأن من المعاني التي قد سمي تأويلًا ما هو صحيح منقول عن السلف ، مما تقوم الحجة عن صحته إذ ما قامت الحجة على صحته وهو منقول عن السلف فليس فيه من التحريف . اهـ .

والتأويل تفعيل من آل يؤول إلى كذا إذا صار إليه ، قال الجوهري : التأويل تفسير ما يؤول إليه الشيء ؟ ثم تسمى العاقبة تأويلًا ؛ لأن الأمر يصير إليها كقوله : ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ ، وتسمى حقيقة الشيء المخبر به تأويلًا ؛ لأن الأمر ينتهي إليه ومنه قوله : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ . فمجيء تأويله نفس ما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر والمعاد وتفاصيله والجنة والنار .

وأما التأويل في اصطلاح أهل التفسير والسلف فمرادهم به معنى التفسير والبيان ، كقول محمد بن جرير الطبري : القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا .

فهذا التأويل يرجع إلى فهم المؤمن ويحصل في الذهن ، والأول يعود إلى وقوع حقيقته في الخارج ، وأما المعتزلة والجهمية وغيرهم من المتكلمين فمرادهم بالتأويل صرف اللفظ عن ظاهره ، وهذا هو الشائع في عرف المتأخرين من أهل الأصول والفقه ، ولهذا يقولون : التأويل على خلاف الأصل ، والتأويل يحتاج إلى دليل ، وهذا التأويل هو الذي صنف في تسويغه وإبطاله من الجانبين .

قوله : « ومن غير تكييف ولا تمثيل » : كيفية الشيء حاله وكنهه ، أو السؤال عنه بصيغة كيف ، فالتكييف البحث عن كنه الصفات والتمثيل أن يقال فيها مثل صفات المخلوقين .

وإنما نفي السلف عن صفات الله التكييف ؛ لأن العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف .

« والمكيفون يثبتون كيفية يقولون أنهم علموا كيفية ما أخبروا به من صفات الرب » ، وكما نفي السلف التحريف والتعطيل في مقام النفي والسلب ، كذلك رفضوا التكييف والتمثيل في مقام الإيجاب والثبوت ، فلا إفراط ولا تفريط ، ولا غلو ولا تقصير ، والتعبير بالتكييف والتمثيل أولى من التعبير بالتشبيه .

قال الشيخ في المناظرة : وقلت لهم أيضًا : ذكرت في النفي التمثيل ولم أذكر التشبيه ؛ لأن التمثيل نفاه الله بنص كتابه حيث قال : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ، وقال : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ ، وكان

أحب إلي من لفظ ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله ، وإن كان قد يعني نفيه معنى صحيح كما قد يعني به معنى فاسد ، وقلت : قولي من غير تكييف ولا تمثيل بنفي كل باطل ، وإنما اخترت هذين الاسمين ؛ لأن التكييف مأثور عن السلف ، كما قال مالك وربيعة وابن عيينة وغيرهم المقالة التي تلقاها العلماء بالقبول : الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة . فاتفق هؤلاء السلف على أن التكييف غير معلوم لنا فنفيت ذلك اتباعًا لسلف الأمة ، وهو أيضًا منفي بالنص ؛ فإن تأويل آيات الصفات يدخل فيها حقيقة الموصوف وحقيقة صفاته ، وهذا من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله ، كما قد قررت ذلك في قاعدة مفردة ذكرتها في التأويل ، والفرق بين علمنا بالكلام وعلمنا بتأويله .

وكذلك التمثيل منفي بالنص والإجماع القديم مع دلالة العقل على نفيه ، وكذلك نفي التكييف ؛ إذ كنه الباري غير معلوم للبشر .

وذكرت في ضمن ذلك كلام الخطابي الذي نقل أنه مذهب السلف ، وهو إجراء آيات الصفات وأحاديثها على ظاهرها مع نفي الكيفية والتشبيه عنها ؛ إذ الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات . اهـ .

قال : والمقصود أن أهل السنة متفقون على أن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، ولكن لفظ التشبيه في كلام الناس لفظ مجمل ، فإن أراد بنفي التشبيه ما نفاه القرآن ودل عليه العقل فهذا حق ؛ فإن خصائص الرب لا يوصف بها شيء من المخلوقات ، ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته ، ومن جعل صفات الله مثل صفات المخلوق فهو المشبه المبطل المذموم ، وإن أراد بالتشبيه أنه لا يثبت لله شيء من الصفات فلا يقال : له علم ولا قدرة ولا حياة ؛ لأن العبد موصوف بهذه الصفات ، وكذلك في كلامه وسمعه وبصره ورؤيته وغير ذلك ، وهم يوافقون أهل السنة على أن الله موجود حي عليم قدير ، ولا يقال : هذا التشبيه يجب نفيه . وهذا مما يدل عليه الكتاب والسنة ، وصريح العقل ، ولا يمكن أن يخالف فيه عاقل ، فإن الله تعالى سم نفسه بأسماء وسمي بعض عباده بأسماء ، وكذلك سمى صفاته بأسماء وسمي بعض صفات خلقه ، وليس المسمى كالمسمى ؛ فسمى نفسه حيًا عليمًا قديرًا رؤفًا حليمًا عزيزًا حكيمًا سميعًا بصيرًا ملكًا مؤمنًا جبارًا متكبرًا ، وقد سمى بعض عباده بذلك ، فإنهما وإن اتفقا في مسمى ما اتفقا فيه ، فإن الله تعالى مختص بوجوده وعلمه وقدرته ، وسائر صفاته والعبد لا يشركه في شيء من ذلك ، والعبد أيضًا مختص بوجوده وعلمه وقدرته ، والله تعالى منزه عن مشاركة العبد في خصائصه ، وإن اتفقا في مسمى الوجود والعلم القدرة ، فهذا المشترك مطلق كلي يوجد في الأذهان لا في الأعيان ، والموجود في الأعيان

مُختص الاشتراك فيه ، وهذا موضع اضطراب فيه كثير من النظار ، حيث توهموا أن الاتفاق في مسمى هذه الأشياء يوجب أن يكون الوجود الذي للرب هو الوجود الذي للعبد .

قوله : « بل يؤمنون بأن الله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] » :

* ففي قوله سبحانه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ . رد على المشبهة الممثلة ، وفي قوله : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ . رد على المعطلة ، وما أحسن قول صاحب « الكافية الشافية »[1] :

لسنا نشبه وصفه بصفاتنا	إن المشبه عابد الأوثان
كلا ولا نخليه من أوصافه	إن المعطل عابد البهتان
من شبه الله العظيم بخلقه	فهو النسيب لمشرك نصراني
أو عطل الرحمن من أوصافه	فهو الكفور وليس ذا إيماني

قوله : « ولا يلحدون في أسماء الله وآياته » :

* قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ . وأصل الإلحاد في اللغة الميل ، قال ابن الأثير في النهاية : الإلحاد الميل والعدول عن الحق والظلم والعدوان ، واللحد الشق الذي يعمل في جانب القبر لموضع الميت ؛ لأنه أميل عن القبر إلى جانبه . اهـ .

وقال ابن القيم : والإلحاد في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها ، وهو مأخوذ من الميل كما يدل عليه مادة (ل . ح . د) فمنه اللحد ، وهو الشق في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط ، ومنه الملحد في الدين المائل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه .

ومنه الملتحد وهو مفتعل من ذلك ، وقوله : ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ أي : من تعدل إليه وتهرب إليه وتلتجئ إليه من غيره ، تقول العرب : التحد فلان إلى فلان إذا عدل إليه .

إذا عرف هذا فالإلحاد في أسمائه تعالى أنواع :

أحدهما : أن يسمى الأصنام بها كتسميتهم باللات من الإلهية ، والعزى من العزيز ، وتسميتهم الصنم إلهًا وهذا إلحاد حقيقة ؛ فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة .

الثاني : تسميته بما لا يليق بجلاله ، كتسمية النصارى له أبا ، وتسمية الفلاسفة له موجبًا بذاته أو علة فاعلة بالطبع ونحو ذلك .

وثالثها : وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص ، كقول أخبث اليهود : إنه فقير ، وقولهم : إنه

(١) ابن القيم (ص١٥٤) .

استراح بعد أن خلق خلقه ، وقولهم : يد اللَّه مغلولة . وأمثال ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته .

ورابعها : تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها ، كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم : إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني ، فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم والمريد ، ويقولون : لا حياة له ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به ، وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلًا وشرعًا ولغة وفطرة ، وهو مقابل إلحاد المشركين ؛ أولئك أعطوا أسمائه وصفاته آلهتهم ، وهؤلاء سلبوه صفات كماله وجحدوها وعطلوها ، فكلاهما ملحد في أسمائه ، ثم الجهمية وفروخهم متفاوتون في هذا الإلحاد ، فمنهم الغالي والمتوسط والمنكوب .

وكل من جحد شيئًا من ما وصف اللَّه به نفسه أو وصف به رسوله ، فقد ألحد في ذلك فليستقل أو ليستكثر .

وخامسها : تشبيه صفاته بصفات خلقه تعالى اللَّه عمَّا يقول المشبهون علوًّا كبيرًا .

فهذا الإلحاد في مقابلة إلحاد المعطلة ، فإن أولئك نفوا صفة كماله وجحدوها ، وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه فجمعهم الإلحاد ، وتفرقت بهم طرقه ، وبرأ اللَّه أتباع رسوله وورثته القائمين بسنته عن ذلك كله ، فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه ، ولم يجحدوا صفاته ، ولم يشبهوها بصفات خلقه ، ولم يعدلوا بها عمَّا أنزلت عليه لفظًا ولا معنى ، بل أثبتوا له الأسماء والصفات ونفوا عنه مشابهة المخلوقات ، فكان إثباتهم بريًّا من التشبيه ، وتنزيههم خليًّا من التعطيل ، ولا كمن شبه حتى كأنه يعبد صنمًا أو عطل حتى كأنه لا يعبد إلا عدمًا .

وأهل السنة وسط في النحل ، كما أن أهل الإسلام وسط في الملل . اهـ .

ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه ، كما قال الإمام مالك وربيعة وغيرهما من السلف : الاستواء معلوم والكيف مجهول . وهكذا يقال في سائر الصفات .

فإذا قال قائل مثلًا : كيف ينزل ربنا إلى سماء الدنيا ؟ قيل له : كيف هو ؟ فإذا قال : لا أعلم كيفيته ، قيل له : ونحن لا نعلم كيفية نزوله ؛ إذا العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف وهو فرع له وتابع له ، فكيف تطالبني بكيفية سمعه وبصره وتكليمه ، واستوائه ونزوله ، وأنت لا تعلم كيفية ذاته ، وإذا كنت تقر بأن له حقيقة ثابتة في نفس الأمر مستوجبة لصفات الكمال لا يماثلها شيء ، فسمعه وبصره وكلامه ونزوله واستوائه ثابت في نفس الأمر ، وهو متصف بصفات الكمال التي لا يشابهه فيها سمع المخلوقين وبصرهم وكلامهم ونزولهم واستواؤهم ، وهذا الكلام لازم لهم في العقليات وفي تأويل السمعيات ، فإن من أثبت شيئًا ونفي شيئًا بالعقل ألزم إذا في ما نفاه من الصفات التي جاء بها الكتاب والسنة نظير ما يلزمه فيما أثبته ، ولو طولب بالفرق بين المحذور في هذا ، وهذا لم

يجد بينهما فرقًا ، ولهذا لا يوجد لنفاة بعض الصفات الذين يوجبون فيما نفوه إما التفويض ، وإما التأويل المخالف لمقتضى اللفظ قانون مستقيم .

فإذا قيل لهم : لم تأولتم هذا وأقررتم هذا ؟ والسؤال فيهما واحد لم يكن لهم جواب صحيح ، فإن من تأول النصوص على معنى من المعاني آخر لزمهم في المعنى المصروف إليه ما كان يلزمهم في المعنى المصروف عنه . اهـ .

وقال ابن القيم في معنى قول بعض السلف : تثبت الصفات للّٰه بلا كيف : « ومراد السلف بقولهم : بلا كيف . هو نفي للتأويل ، فإنه التكييف الذي يزعمه أهل التأويل ، فإنهم هم الذين يثبتون كيفية تخالف الحقيقة ، فيقعون في ثلاثة محاذير : نفي الحقيقة ، وإثبات التكييف بالتأويل ، وتعطيل الرب عن صفته التي أثبتها لنفسه ، وأما أهل الإثبات فليس أحد منهم يكيف ما أثبته اللّٰه تعالى لنفسه ، ويقول : كيفيته كذا وكذا حتى يكون قول السلف ردًّا عليه ، وإنما ردوا على أهل التأويل الذي يتضمن التحريف والتعطيل ، تحريف اللفظ وتعطيل معناه » . اهـ .

ولا يمثلون والتمثيل كما تقدم ، أن يشبه صفات اللّٰه بصفات خلقه ، كأن يقول : له يد كيدي ، أو سمع كسمعي ونحو ذلك ، تعالى اللّٰه وتقدس .

« فإنه سبحانه وتعالى أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلًا ، وأحسن حديثًا من خلقه ، ثم رسله صادقون مصدقون بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون » .

وإذا كان كذلك فيجب أن يثبت له من الصفات ما أثبته لنفسه ، وأثبته له رسوله محمد ﷺ .

وأن يقتصر في هذا الباب باب الأسماء والصفات على ما ورد به النص ، وما لم يأت به النص كلفظ الجسم والجوهر والعرض ونحو ذلك ، فلا يطلقونه على اللّٰه نفيًا ولا إثباتًا .

وما جاء في الكتاب والسنة من الصفات ، فهم يصفون اللّٰه به ، ويثبتون له حقيقة مع نفي مماثلة المخلوقات ؛ لأن اللّٰه خاطبنا بلسان عربي مبين ، وأمرنا أن نتدبر القرآن ، والأصل في الكلام حقيقة .

« ومن ادعى صرف اللفظ عن ظاهره إلى مجازه لم يتم له ذلك إلا بأربع مقامات :

أحدها : بيان امتناع إرادة الحقيقة .

الثاني : بيان صلاحية اللفظ لذلك المعنى الذي عينه وإلا كان مفتريًا على اللغة .

الثالث : بيان تعيين ذلك المجمل إن كان له عدة مجازات .

الرابع : الجواب عن الدليل الموجب لإرادة الحقيقة ، فما لم يقم بهذه الأربعة كانت دعواه صرف اللفظ عن ظاهره دعوى باطلة ، وإن ادعى مجرد صرف اللفظ عن ظاهره ، ولم يعين مجملًا لزمه أمران : أحدهما : بيان الدليل الدال على امتناع إرادة الظاهر ، والثاني : جوابه عن المعارض » ، ونفاة

الصفات أو بعضها ليس معهم دليل على نفيها إلا مجرد الظن والدعوى .

قال ابن القيم : فصل في بيان أنه مع كمال علم المتكلم وفصاحته وبيانه ونصحه يمتنع عليه أنه يريد بكلامه خلاف ظاهره وحقيقته ، ويكتفي من هذا الأصل بذكر مناظرة جرت بين سني وجهمي حدثني بمضمونها شيخنا عبد الله بن تيمية ؛ أنه جمعه وبعض الجهمية مجلس فقال الشيخ : قد تطابقت نصوص الكتاب والسنة والآثار على إثبات الصفات لله تعالى ، وتنوعت دلالتها أنواعًا توجب العلم الضروري بثبوتها ، وإرادة المتكلم اعتقاد ما دلت عليه ، والقرآن مملوء من ذكر الصفات ، والسنة ناطقة بما نطق به القرآن مقررة له مصدقة له مشتملة على زيادة في الإثبات ؛ فتارة يذكر الاسم الدال على الصفة كالسميع والبصير ، وتارة يذكر المصدر وهو الوصف الذي اشتقت منه تلك الصفة كقوله : ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ وتارة يذكر حكم تلك الصفة كقوله : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ . ونظائر ذلك كثيرة إلى أضعاف ذلك بما لو جمعت النصوص والآثار فيه لم تنقص عن نصوص الأحكام وآثارها ، ومن أبين المحال وأوضح الضلال حمل ذلك كله على خلاف حقيقته وظاهره ، ودعوى المجاز فيه والاستعارة ، وأن الحق في أقوال النفاة المعطلين ، وأن تأويلاتهم هي المرادة من هذه النصوص ؛ إذ يلزم من ذلك محاذير ثلاثة لا بد منها ، وهي القدح في علم المتكلم بها ، أو في بيانه ، أو في نصحه ، وتقرير ذلك أن يقال : إما أن يكون المتكلم بهذه النصوص عالمًا أن الحق في تأويلات النفاة المعطلين أو لا يعلم ذلك ، فإن لم يعلم ذلك كان قدحًا في علمه ؛ وإن كان عالمًا أن الحق فيها ، فلا خلو إما أن يكون قادرًا على التعبير بعباراتهم التي هي تنزيه الله بزعمهم عن التشبيه والتمثيل والتجسيم ، وأنه لا يعرف الله من لم ينزه الله بها أو لا يكون قادرًا على تلك العبارة ، فإن لم يكن قادرًا على التعبير بذلك لزم القدح في فصاحته ، وكان ورثة الصابئة وأفراخ الفلاسفة وأوقاح المعتزلة والجهمية وتلامذة الملاحدة أفصح منه وأحسن بيانًا وتعبيرًا عن الحق ، وهذا مما يعلم بطلانه بالضرورة أولياؤه وأعداؤه وموافقوه ومخالفوه ، فإن مخالفيه لم يشكوا أنه أفصح الخلق وأقدرهم على حسن التعبير بما يطابق المعنى ، ويخلصه من اللبس والإشكال ، وإن كان قادرًا على ذلك ولم يتكلم به ، وتكلم دائمًا بخلافه ، كان ذلك قدحًا في نصحه ، وقد وصف الله رسله بأنهم أنصح الخلق لأممهم ، فمنع النصح والبيان والمعرفة التامة كيف يكون مذهب النفاة المعطلة أصحاب التحريف هو الصواب ، وقول أهل الإثبات اتباع القرآن والسنة باطلا ؟ ! اهـ .

بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون مما يدعي المجاز في الأسماء والصفات وينفيها بشتى وسائل النفي ، معرضين عما دلت عليه النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي لا تحصى كثرة .

قال الشيخ : وجماع الأمر أن الأقسام الممكنة في آيات الصفات وأحاديثها ستة أقسام ، كل قسم

عليه طائفة من أهل القبلة ، فقسمان يقولون : تجري على ظواهرها ، وقسمان يقولون : على خلاف ظواهرها ، وقسمان يسكتون ، أما الأولون فقسمان : أحدهما : من يجريها على ظاهرها ، ويجعل ظاهرها من جنس صفات المخلوقين فهؤلاء المشبهة ، ومذهبهم باطل أنكره السلف ، وإليه توجه الرد بالحق .

والثاني : من يجريها على ظاهرها اللائق بجلال الله تعالى ، كما يجري اسم العليم والقدير والرب والإله والموجود ونحو ذلك على ظاهرها اللائق بجلال الله ، فإن ظواهر هذه الصفات في حق المخلوق ؛ إما جوهر محدث ، وإما عرض قائم به ، فالعلم والقدرة والكلام والمشيئة والرحمة والرضى والغضب ونحو ذلك في حق العبد أعراض ، والوجه واليد والعين في حقه أجسام ، فإذا كان الله موصوفًا عند عامة أهل الإثبات بأن له علمًا وقدرة وكلامًا ومشيئة ، وإن لم يكن ذلك عرضًا يجوز عليه ما يجوز على صفات المخلوقين ، جاز أن يكون وجه الله ويداه ، صفات ليست أجسامًا يجوز عليها ما يجوز على صفات المخلوقين ، وهذا هو المذهب الذي حكاه الخطابي وغيره عن السلف ، وعليه يدل كلام جمهورهم ، وكلام الباقين لا يخالفه ، وهو أمر واضح ، فإن الصفات كالذات ، فكما أن ذات الله ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس ذوات المخلوقين ، فكذلك صفاته ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس صفات المخلوقين .

ومعلوم أن صفات كل موصوف تناسب ذاته وتلائم حقيقته ، فمن لم يفهم من صفات الرب الذي ليس كمثله شيء إلا ما يناسب المخلوق ، فقد ضل في عقله ودينه ، وما أحسن ما قاله بعضهم : إذا قال لك الجهمي : كيف استوى ؟ وكيف ينزل إلى سماء الدنيا ؟ وكيف يداه ونحو ذلك ؟ فقل له : كيف هو في نفسه ؟ فإذا قال لك : لا يعلم ما هو إلا هو ، وكنه الباري غير معلوم للبشر . فقل له : والعلم بكيفية الصفة مستلزم العلم بكيفية الموصوف .

فكيف يمكن أن تعلم كيفية صفة موصوف لم تعلم كيفيته ، وإنما تعلم الذات والصفات من حيث الجملة على الوجه الذي ينبغي لك .

بل هذه المخلوقات في الجنة قد ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء[1] ، وقد أخبر الله تعالى أنه : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ ، وأخبر النبي ﷺ أن في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر[2] ، فإذا كان نعيم الجنة وهو

---

(١) صححه الألباني في « صحيح الجامع » (٥٤١٠) ، و« الصحيحة » (٢١٨٨) .

(٢) الترمذي (٥/ ٣٤٦، ٤٠٠) من حديث أبي هريرة ، قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح ، ويُنظر صحيح الجامع (حديث رقم : ٢١٢٧) للألباني .

خَلْق من خَلق الله كذلك ، فما الظن بالخالق سبحانه ؟ ! وهذه الروح قد علم العاقل اضطراب الناس فيها ، وإمساك النصوص عن بيان كيفيتها أفلا يعتبر العاقل بها عن الكلام في كيفية الله تعالى ؟ مع أنا نقطع أن الروح في البدن ، وأنها تخرج منه ، وتعرج إلى السماء ، وأنه تسل منه وقت النزع ، كما نطقت بذلك النصوص الصحيحة ، فعدم مماثلتها للبدن لا ينفي أن تكون هذه الصفات ثابتة لها بحسبها .

وأما القسمان اللذان ينفيان ظاهرها ويقولون هي على خلاف ظاهرها ، أعني الذين يقولون ليس لها في الباطن مدلول هو صفة لله تعالى قط ، وأن الله لا صفة له ثبوتية ، أو يثبتون بعض الصفات أو يثبتون الأحوال دون الصفات على ما قد عرف من مذاهب المتكلمين ، فهؤلاء قسمان : قسم يتأولونها ويعينون المراد مثل قولهم : استوى بمعنى استولى ، أو بمعنى علو المكانة والقدر ، أو بمعنى ظهور نوره للعرش ، أو بمعنى انتهاء الخلق إليه ، إلى غير ذلك من معاني المتكلمين .

وقسم يقولون : الله أعلم بما أراد بها ، لكنا نعلم أنه لم يرد إثبات صفة خارجة عما علمناه .

وأما القسمان الواقفان فقسم يقولون : يجوز أن يكون المراد بظاهرها المراد اللائق بالله تعالى ، ويجوز أن يكون المراد صفة لله ، وهذه طريقة كثير من الفقهاء وغيرهم ، وقسم يمسكون عن ذلك كله ، ولا يزيدون على تلاوة القرآن وقراءة الحديث ، معرضين بقلوبهم وألسنتهم عن هذه التقديرات فهذه الأقسام الستة التي لا يمكن أن يخرج الرجل عن قسم منها .

والصواب في كثير من آيات الصفات وأحاديثها القطع بالطريقة الثانية . اهـ .

ولهذا قال : ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ . فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل ، وسلام على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب » .

التسبيح : هو التنزيه والتبرئة من العيوب ، أي : ولأنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره ، وأصدق قيلًا وأحسن حديثًا من غيره ، ولأن رسله صادقون مصدقون ، وقد أخبروا عن الله أنه متصف بصفات الكمال ، وهم لا يقولون إلا الحق والصدق ، وقد بلغوا ما أرسلوا به على الوجه الأكمل ، فمن نهج نهج الرسل وسار على طريقهم صدقهم فيما أخبروا به .

ومن حاد عن سبيلهم كذبهم ، ورد ما جاءوا به ، بالتكذيب الصريح أو بالتأويل الفاسد .

ونزه الله نفسه عما نسبه إليه المشركون من اتخاذ الصاحبة والولد ، وعن كل نقص وعيب .

وفي اقتران السلام على المرسلين بتسبيحه لنفسه ما يتضمن الرد على كل مبطل ومبتدع ، فسلامه عليهم يقتضي سلامتهم من كل ما يقول المكذبون المخالفون لهم ، ويتضمن سلامة كل ما جاءوا به من الكذب والشرك والنقص والعيب ، وأعظم ما جاءوا به هو التوحيد ومعرفة الله بصفات كماله مما

وصف نفسه على ألسنة رسله وهذه الآية :

كقوله تعالى : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ . فإنه يتضمن حمده بما له من نعوت الكمال وأوصاف الجلال والأفعال الحميدة والأسماء الحسنى ، وسلامة رسله من كل نقص وعيب ، فالرب سبحانه حمد نفسه وسلم على عباده وأمر رسوله بتبليغ ذلك ، فإذا قال الرسول الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى كان قد حمد الله بما حمد به نفسه ، وسلم به هو على عباده فهو سلام من الله ابتداء ، ومن المبلغ بلاغًا ، ومن العباد اقتداءً وطاعة ، فنحن نقول كما أمرنا الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى .

وقال الحافظ ابن كثير : ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة ويستلزم إثبات الكمال ، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة ، ويستلزم التنزيه من النقص فرق بينهما في هذا الموضع وفي مواضع كثيرة . اهـ .

وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمي به نفسه بين النفي والإثبات « فلا عدول لأهل السنة والجماعة مما جاء به المرسلون ، فإنه الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » .

فالنفي كما في السنة والنوم والتعب واللغوب ، وكذلك السمي والند والكفوة ، والإثبات ، كما في قوله : ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ ، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ، ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ، ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ إلى غير ذلك من أسمائه سبحانه وصفاته .

والقرآن جاء بنفي مجمل وإثبات مفصل .

قال الشيخ : فالكلام في باب التوحيد والصفات هو من باب الخبر الدائر بين النفي والإثبات .

والله سبحانه بعث رسله بنفي مجمل وإثبات مفصل ، فأثبتوا لله الصفات على وجه التفصيل ، ونفوا عنه ما لا يصلح له من التشبيه والتمثيل .

وأما الإثبات المفصل ، فإنه ذكر من أسمائه وصفاته ما أنزلهِ في محكم آياته ، فإن ذلك من إثبات ذاته وصفاته على وجه التفصيل ، وإثبات وحدانيته بنفي التمثيل ما هدى الله به عباده إلى سواء السبيل فهذه طريقة الرسل .

وأما مِن زاغ وحاد عن سبيلهم من الكفار المشركين والذين أتوا الكتاب ممن دخل في هؤلاء من الصابئة والمتفلسفة والجهمية والقرامطة الباطنية ونحوهم ، فإنهم على ضد ذلك يصفونه بالصفات السلبية على وجه التفصيل ولا يثبتون إلا وجودًا مطلقًا لا حقيقة له عند التحصيل ، وإنما يرجع إلى

وجود في الأذهان يمتنع تحققه في الأعيان ، فقولهم يستلزم غاية التعطيل وغاية التمثيل ، فإنهم يمثلونه بالممتنعات والمعدومات والجمادات ، ويعطلون الأسماء والصفات تعطيلًا يستلزم نفي الذات ، فغلاتهم يسلبون عنه النقيضين فيقولون : لا موجود ولا معدوم ولا حي ولا ميت ، ولا عالم ولا جاهل ؛ لأنهم يزعمون أنهم إذا وصفوه بالإثبات شبهوه بالموجودات ، وإذا وصفوه بالنفي شبهوه بالمعدومات فوصفوه بالنقيضين ، وهذا ممتنع في بداهة العقول ، وحرفوا ما أنزل اللّٰه من الكتاب وما جاء به الرسول ، فوقعوا في شر مما فروا منه ، فإنهم شبهوه بالممتنعات إذا سلب النقيضين كجمعهما كلاهما من الممتنعات ، وقد علم أنه لا بد من موجود قديم واجب بذاته غني عما سواه ، قديم أزلي لا يجوز عليه الحدوث ولا العدم ، فوصفوه بما يمتنع وجوده فضلًا عن الوجوب أو الوجود أو القدم .

وقاربهم طائفة من الفلاسفة وأتباعهم ، فوصفوه بالسلوب والإضافات دون صفات الإثبات ، وجعلوه هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق ، وقد علم بصريح العقل أن هذا لا يكون إلا في الذهن لا فيما خرج عنه من الموجودات ، وجعلوا الصفات هي الموصوف ؛ فجعلوا العلم عين العالم مكابرة للقضايا البديهيات ، وجعلوا هذه الصفة هي الأخرى فلم يميزوا بين العلم والقدرة والمشيئة جحدًا للعلوم الضروريات .

وقاربهم طائفة ثالثة من أهل الكلام من المعتزلة ومن اتبعهم ، فأثبتوا للّٰه الأسماء دون ما تضمنته من الصفات ، فمنهم من جعل العليم والقدير والسميع والبصير كالأعلام المحضة المترادفات ، ومنهم من قال : عليم بلا علم ، قدير بلا قدرة ، سميع بلا سمع ، بصير بلا بصر ، فأثبتوا للّٰه الاسم دون ما تضمنه من الصفات ، والكلام على فساد مقالة هؤلاء وتناقضها بصريح المعقول المطابق لصحيح المنقول مذكور في غير هؤلاء الكلمات ، وهؤلاء يفرون من شيء فيقعون في نظيره ، بل في شر منه مع ما يلزمهم من التحريف والتعطيل .

وذلك أنه قد علم بالضرورة أنه لا بد من موجود قديم غني عما سواه ؛ إذ نحن نشاهد حدوث المحدثات ، كالحيوان والمعدن والنبات ، والحادث ممكن ليس بواجب ولا ممتنع ، وقد علم بالأضرار أن المحدث لا بد له من محدث ، والممكن لا بد له من موجد ، كما قال تعالى : ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ . فإذا لم يكونوا خلقوا من غير خالق ، ولا هم الخالقون لأنفسهم تعين أن لهم خالقًا خلقهم .

وإذا كان من المعلوم بالضرورة أن في الوجود ما هو قديم واجب بنفسه ، وما هو محدث ممكن يقبل الوجود والعدم ، فمعلوم أن هذا موجود وهذا موجود ، ولا يلزم من اتفاقهما في مسمى الوجود أن يكون وجود هذا مثل وجود هذا ، بل وجود هذا يخصه ووجود هذا يخصه ، واتفاقهما في اسم عام لا

يقتضي تماثلهما في مسمى ذلك الاسم عند الإضافة والتخصيص والتقييد ، ولا في شيء غيره ، فلا يقول عاقل : إذا قيل : إن العرش شيء موجود والبعوض شيء موجود : إن هذا مثل هذا لاتفاقهما في مسمى الشيء والوجود ؛ لأنه ليس في الخارج شيء موجود غيرهما يشتركان فيه ، بل الذهن يأخذ معنى مشتركًا كليًا هو مسمى الاسم المطلق ، وإذا قيل هذا موجود وهذا موجود ، فوجود كل منهما يخصه ولا يشركه فيه غيره مع أن الاسم حقيقة في كل منهما . اهـ .

قوله : « فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاءت به المرسلون » :

* ومن ذلك إثبات صفات الكمال لله وتنزيهه عما لا يليق به سبحانه ، فإن الرسل عليهم السلام قد أثبتوا لله صفات الكمال ، وقرروا ذلك الأصل العظيم وأبدوا فيه وأعادوا ولم يقولوا لأممهم أن هذه الصفات على خلاف ظاهرها ، وأنها واجبة التأويل كما يقوله ذوو الزيغ ، وآخر الرسل محمد ﷺ الذي أكمل الله به الدين ، ولم يأل جهدًا في النصح والتبليغ ، حتى قال : « تركتم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، ولا يزيغ عنها بعدي إلا هالك »[1] ، وكان يعلم أصحابه آداب الغائط والوطء ، وآداب الطعام والشراب ، وقال : ما بعث الله من نبي إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم[2] .

وقال أبو ذر : توفي رسول الله ﷺ ، وما طائر يقلب جناحيه إلا ذكر لنا منه علمًا[3] .

فمن المحال مع هذا أن يدع ما خلق له الخلق ، وأرسلت له الرسل وأنزلت به الكتب وأسست عليه الملة ، وهو : باب الإيمان بالله ، ومعرفته ، ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله ، متلبسًا حقه بباطله ، مع شدة حاجة النفوس إلى معرفته وهو أفضل ما اكتسبته النفوس ، وأجل ما حصلته القلوب ، فكيف يتوهم من لله ورسوله في قلبه وقار ، أن يعتقد أن رسول الله ﷺ قد أمسك عن بيان هذا الأمر العظيم ؟ ولم يتكلم فيه بالصواب ؟ معاذ الله ، بل لا يتم الإيمان إلا بأن يعتقد أن رسول الله ﷺ قد بين ذلك أتم البيان ، وأوضحه غاية الإيضاح ، ولم يدع لقائل مقالًا ولا لمتأول تأويلًا .

ثم من المحال أن يكون خير الأمة وأفضلها وأسبقها إلى كل خير قصروا في هذا الباب ، فجفوا عنه وتجاوزوا فضلوا فيه ، وإنما ابتلي من خرج عن منهاجهم بهذين الدائين ، والحال في هؤلاء المبتدعة الذين فضلوا طريقة الخلف على طريقة السلف ، حيث ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ

---

(١) سنن ابن ماجه (١٦/١) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « صحيح سنن ابن ماجه » (٤٣) .

(٢) مسلم (١٨٤٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، رضي الله عنه .

(٣) الطبراني في « المعجم الكبير » (١٥٥/٢) من حديث أبو ذر ، وصححه الألباني في « الصحيحة » (١٨٠٣) .

القرآن والحديث ، من غير فقه لذلك بمنزلة الأميين الذين قال الله فيهم : ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ . وأن طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات ، فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالات التي مضمونها نبذ الإسلام وراء الظهر ، فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف في الكذب عليهم ، وبين الجهل والضلال بتصويب طريقة الخلف ، وسبب ذلك اعتقادهم أنه ليس في نفس الأمر صفة دلت عليها هذه النصوص ، فلما اعتقدوا التعطيل وانتفاء الصفات في نفس الأمر ، وكان لا بد مع ذلك للنصوص من معنى ، بقوا مترددين بين الإيمان باللفظ وتفويض المعنى ، وهي التي يسمونها طريقة السلف وبين صرف اللفظ إلى معان بنوع تكلف ، وهي التي يسمونها طريقة الخلف ، فصار هذا الباطل مركبًا من فساد العقل ، والكفر بالسمع ، فإن النفي إنما اعتمدوا فيه على أمور عقلية ، ظنوها بينات وهي شبهات ، والسمع حرفوا فيه الكلام عن مواضعه ، فلما انبنى أمرهم على هاتين المقدمتين الكاذبتين كانت النتيجة استجهال السابقين الأولين ، الذين هم أعلم الأمة بالله وصفاته ، واعتقاد أنهم كانوا أميين بمنزلة الصالحين من العامة ، لم يتبحروا في حقائق العلم بالله ، ولم يتفطنوا لدقائق العلم الإلهي ، وأن الخلف الفضلاء حازوا قصب السبق في هذا كله ، وهذا القول إذا تدبره الإنسان وجده في غاية الجهالة ، بل في غاية الضلالة ، كيف يكون هؤلاء المتأخرون ، لا سيما والإشارة إلى ضرب من المتكلمين كثر في باب الدين اضطرابهم ، وغلظ عن معرفة الله حجابهم ، وأخبر الواقف على نهاية أمرهم بما انتهى إليه أمرهم من الشك والحيرة .

كيف يكون هؤلاء الحيارى أعلم بالله وأسمائه وصفاته ، وأحكم في باب ذاته وآياته من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، من ورثة الأنبياء وخلفاء الرسل ، الذين وهبهم الله من الحكمة ما برزوا على سائر أتباع الأنبياء فضلًا عن سائر الأمم لا كتاب لهم ، وأحاطوا من حقائق المعارف وبواطن الحقائق بما لو جمعت حكمة غيرهم إليها لاستحى من يطلب المقابلة ؟ !

وأصل العدول في اللغة الميل والانحراف .

والصراط المستقيم هو المذكور في دعاء المؤمنين في سورة الفاتحة ، وهو الصراط المذكور في قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : خط رسول الله ﷺ خطًا بيده ، ثم قال : « هذا سبيل الله مستقيمًا ، وخط عن يمينه وعن شماله ، ثم قال : هذه السبل ، ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه » ، ثم قرأ : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾[1] .

---

(١) أحمد (٤٣٦/٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

ولا تكون الطريق صراطًا حتى تتضمن خمسة أمور: الاستقامة، والإيصال إلى المقصود، والقرب، وسعته للمارين عليه، وتعينه طريقًا للمقصود، ولا يخفى تضمن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة.

فوصفه بالاستقامة يتضمن قربه؛ لأن الخط المستقيم هو أقرب خط فاصل بين نقطتين، وكلما تعوج طال وبعد، واستقامته تتضمن إيصاله إلى المقصود، ونصبه لجميع المارين عليه يستلزم سعته وإضافته إلى المنعم عليهم، ووصفه بمخالفة صراط أهل الغضب والضلال يستلزم تعينه طريقًا.

والصراط يضاف إلى الله، إذ هو الذي شرعه ونصبه، كقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾، وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾، وتارة يضاف إلى العباد كما في الفاتحة، لكونهم أهل سلوكه، وهو المنسوب لهم وهم المارون عليه.

وفي تخصيصه لأهل الصراط المستقيم بالنعمة ما دل على أن النعمة المطلقة هي الموجبة للفلاح الدائم، وأما مطلق النعمة فعلى المؤمن والكافر، فكل الخلق في نعمة.

وهذا فصل النزاع في مسألة: هل لله على الكافرين من نعمة أم لا؟ فالنعمة المطلقة لأهل الإيمان، ومطلق النعمة يكون للمؤمن والكافر، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾. والنعمة من جنس الإحسان، بل هي الإحسان، والرب تعالى إحسانه على البر والفاجر، والمؤمن والكافر، وأما الإحسان المطلق فللذين اتقوا، والذين هم محسنون.

وذكر الصراط المستقيم مفردًا معرفًا تعريفين: تعريفًا باللام وتعريفًا بالإضافة، وذلك يفيد تعينه واختصاصه وأنه صراط واحد، وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها، ويفردها، كقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحد، وهو ما بعث به رسله، وأنزل به كتبه، لا يصل إليه أحد إلا من هذا الطريق، ولو أتى الناس من كل طريق، واستفتحوا من كل باب، فالطرق عليهم مسدودة والأبواب عليهم مغلقة، إلا من هذا الطريق الواحد، فإنه متصل بالله موصل إلى الله، ولما كان طالب الصراط المستقيم طالب أمرًا أكثر الناس ناكبون عنه، مريد السلوك طريق مرافقه فيها في غاية القلة والعزة، والنفوس مجبولة على وحشة التفرد، وعلى الإنس بالرفيق فيه الله سبحانه على الرفيق في هذه الطريق، وأنه هم ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾، فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له، وهم الذين أنعم الله عليم ليزول عن الطالب للهداية، وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه، وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط هم الذين أنعم الله عليهم، فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه، فإنهم

هم الأقلون قدرًا وإن كانوا الأكثرين عددًا .

فالصراط المستقيم هو طاعة الله ورسوله ، وهو دين الإسلام التام ، وهو اتباع القرآن وهو لزوم السنة والجماعة ، وهو طريق العبودية وهو طريق الخوف والرجاء .

❁ قال الشيخ عبد العزيز الناصر الرشيد رحمه الله :

قوله : « ومن الإيمان بالله : الإيمان بما وصف به نفسه ..» :

قوله : « ومن الإيمان بالله : الإيمان » : فمن جحد صفات الله سبحانه وتعالى فليس بمؤمن ، قال تعالى : ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد : ٣٠] الآية ، وكذلك من عطلها أو شبهها بصفات خلقه ، قال نعيم بن حماد : من شبه الله بخلقه كفر ، ومن نفي ما وصف به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله تشبيهًا ، وقال ابن القيم رحمه الله في « النونية » :

من شبه الله العظيم بخلقه فهو النسيب لمشرك نصراني
أو عطل الرحمن من أوصافه فهو الكفور وليس ذا إيمان

قوله : « بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله » : إثبات أن صفاته سبحانه وتعالى إنما تتلقى من السمع لا بآراء الخلق ، فصفاته- سبحانه- مبنية على التوقيف ؛ فلا يوصف إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ .

قال أحمد رحمه الله : لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ لا يتجاوز القرآن والحديث .

قال ابن القيم رحمه الله في « البدائع » : ما يطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي ، وما يطلق عليه في باب الأخبار لا يجب أن يكون توقيفًا ، كالشيء والموجود والقديم ونحو ذلك .

ذكر المصنف- رحمه الله تعالى- هذا الأصل العظيم في باب الأسماء والصفات ، فيناسب أن نضم إليه عدة أصول مجموعة من كتب المحققين لتكون المقدمة .

أولًا : إن أسماء الله وصفاته غير محصورة بعدد معروف ، وأما حديث « إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة »[1] . فليس فيه حصر لها ، وإنما غاية ما فيه أن هذه الأسماء موصوفة بأن من أحصاها دخل الجنة ، كما تقول : عندي مائة عبد عددتهم للجهاد في سبيل الله ، فلا ينافي أن لديك عبيدًا غيرهم أعددتهم لغير ذلك .

ثانيًا : أن الصفات تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول : صفات ذاتية ، وهي التي لا تنفك عنه بحال ، كالغني والقدرة والعلو والرحمة ،

---

(١) البخاري (٢٥٨٥) ، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ونحو ذلك من الصفات التي هي من لوازم ذاته .

القسم الثاني : صفات فعلية ، وهي كل صفة تعلقت بمشيئة وإرادته ، ويعبر عنها بالأفعال الاختيارية كالاستواء والمجيء والنزول ونحو ذلك .

ثالثًا : أركان الإيمان بالأسماء والصفات ، والإيمان بالصفة وما دلت عليه من المعنى ، وبما تعلق بها من الآثار ، فتؤمن بأنه عليم وذو علم عظيم ، وأنه لا تخفى عليه خافية .

رابعًا : ليس في أسماء الله وصفاته نفي محض ، بل كل نفي وجد في أسماء الله وصفاته فهو لإثبات كمال ضده ؛ إذ النفي المحض عدم ، والعدم ليس بشيء ، فضلًا عن أن يمدح به ، كما قال تعالى : ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف : ٤٩] ، أي : لكمال عدله ، ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، أي : لكمال قوته واقتداره .

خامسًا : طريقة أهل السنة والجماعة ، هو الإجمال في النفي والتفصيل في الإثبات ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة ، قال تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] . فأجمل في النفي وفصل في الإثبات ، وهذا عكس ما عليه أهل البدع من الجهمية والمعتزلة وأشباههم ، فإنهم يجملون في الإثبات ويفصلون في النفي .

سادسًا : أسماء الله سبحانه وتعالى وصفاته هي بالنظر إلى الذات من قبيل المترادف بالنظر إلى الصفات من قبيل المتباين .

سابعًا : أسماء الله- سبحانه- وصفاته حقيقة ، وليست من قبيل المجاز خلافًا للمبتدعة من الجهمية والمعتزلة وغيرهم ، فعلى كلام هؤلاء لا يكون- سبحانه- حيًا حقيقة ولا مريدًا حقيقة ولا قادرًا ، تعالى الله عن قولهم ، وهذا لازم لكل من ادعى المجاز في أسماء الرب وصفاته وأفعاله لزومًا لا محيد عنه ، وكفى أصحاب هذه المقالة كفرًا .

ثامنًا : أسماؤه سبحانه وتعالى تنقسم إلى قسمين : أعلام وأوصاف ، والوصيفة فيها لا تنافي العلمية ، بخلاف أوصاف العباد .

تاسعًا : للاسم من أسمائه ثلاث دلالات : دلالة على الذات والاسم بالمطابقة ، وعلى أحدهما بالتضمن ، وعلى الصفة الأخرى بالالتزام ، مثاله : اسم السميع يدل على ذات الرب وسمعه بالمطابقة ، وعلى الذات وحدها والسمع وحده بالتضمن ، ويدل على الحي وصفة الحياة بالالتزام ، وكذلك سائر أسمائه وصفاته .

عاشرًا : إذا كانت الصفة منقسمة إلى كمال ونقص لم تدخل بمطلقها في أسمائه- سبحانه- بل يطلق عليه منها كمالها كالمريد والصانع ، فإن هذه الألفاظ لا تدخل في أسمائه ، فإن الصنع والإرادة

تنقسم إلى محمود ومذموم .

الحادي عشر : لا يلزم من الإخبار عنه بالفعل مقيدًا أن ينشق له منه اسم مطلق ، وقد غلط من جعل من أسمائه الماكر والفاتن والمضل ، تعالى الله عن قولهم ، ثم أنه على فهم هذا الغالط أن يجعل من أسمائه الجائي والغضبان ، ونحو ذلك من الأسماء التي أطلقت عليها أفعالها ، وهذا لا يقوله مسلم ولا عاقل ، انتهى من كلام ابن القيم ملخصًا .

الثاني عشر : الأسماء والصفات التي تستعمل في حق الخالق والمخلوق ، كالعلم والقدرة ونحو ذلك ، هي حقيقة في الخالق والمخلوق خلافًا للجهمية .

قال ابن القيم : وهذا قول عامة العقلاء ، وهو الصواب .

الثالث عشر : أسماء اللّٰه وصفاته من قبيل المحكم وليست من المتشابه ، فإن معناها واضح معروف في لغة العرب ، وأما الكنه والكيفية فهو مما استأثر اللّٰه بعلمه .

الرابع عشر : لا يلزم في اتحاد الاسمين تماثل مسماهما ، فإن اللّٰه سمى نفسه بأسماء تسمى بها بعض خلقه ، وكذلك وصف نفسه بصفات وصف بها بعض خلقه ، فلا يلزم من ذلك التشبيه ، فقد وصف نفسه بالسمع والبصر والعلم والقدرة ، ووصف بذلك بعض خلقه ، فليس السميع كالسميع ولا البصير كالبصير ، فصفات كل موصوف تناسب ذاته وتليق به ، ولا مناسبة بين الخالق والمخلوق .

الخامس عشر : ذكر الشيخ تقي الدين في كتابه « التدمرية » أصلين عظيمين نافعين من هذا الباب :

الأول : القول في الصفات كالقول في الذات ، فكما أننا نثبت للّٰه ذاتًا لا تشبه الذوات ، فيجب أن نثبت له صفات لا تشبه الصفات ، فالصفات فرع الذات يحذى فيها حذوها .

الثاني : القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر إذ لا فرق ، فمن أثبت الصفات ونفى البعض الآخر كالأشاعرة فقد تناقض ؛ إذ الدليل الذي ثبتت به الصفات التي أقروا بها يوجد مثله أو أقوى منه يثبت البعض الآخر ، إلى غير ذلك من الأصول العظيمة التي ذكرها الشيخ تقي الدين وابن القيم وغيرهما من المحققين في كتبهم ، وقد أفردنا تلك الأصول في رسالة مفردة فارجع إليها .

قوله : « من غير تحريف » :

* أي تغيير لألفاظ الأسماء والصفات أو تغيير لمعانيها ، وقد ذم اللّٰه سبحانه وتعالى الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، كما قال اللّٰه سبحانه وتعالى عن اليهود : ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء : ٣٦] ، أي : يغيرونه ويفسرونه بغير معناه ، فالتحريف لغة : التغيير وإمالة الشيء عن وجهه ، يقال : انحرف عن كذا ، أي : مال وعدل ، واصطلاحًا : هو التغيير لألفاظ الأسماء والصفات أو معانيها ، كقول الجهمية في قوله سبحانه : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه : ٥] ،

أي : استولى ، وقوله : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] ، أي : أمره ، فالتحريف ينقسم إلى قسمين :

الأول : تحريف اللفظ كقولهم في ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ بنصب لفظ الجلالة ، وكقولهم في ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ [الأعراف : ٥٤] : استولى ، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] ، أي : أمره . ويروى أن جهميًا طلب من أبي عمرو بن العلاء أحد القراء يقرأ : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ بنصب لفظ الجلالة فقال له : هبني فعلت ذلك ، فما تصنع بقوله : ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ؟ فبهت الجهمي .

الثاني : التحريف المعنوي ، كقولهم في قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء : ١٦٤] أي : جرحه بأضافير الحكمة تجريحًا .

قال ابن القيم رحمه الله : والتحريف نوعان : تحريف اللفظ وتحريف المعنى ، فتحريف اللفظ : العدول عن جهته إلى غيرها ؛ إما بزيادة أو نقصان ، وإما بتغيير حركة إعرابية ، فهذه أربع أنواع ، وأما تحريف المعنى : فهو العدول بالمعنى عن وجهه وحقيقته ، وإعطاء اللفظ معنى لفظ آخر بقدر ما مشترك بينهما .

قوله : « ولا تعطيل » :

* وهو لغة : الإخلاء ، يقال : جيد عطل ، أي : خال من الزينة ، قال الشاعر :

وجيد كجيد الريم ليس بفا حش إذا هي نصته ولا بمعطل

وأما معناه هنا فهو جحد الصفات وإنكار قيامها بذاته- سبحانه- ونفي ما دلت عليه من صفات الكمال ، وأول من قال بالتعطيل في الإسلام الجعد بن درهم ، فقتله خالد بن عبد الله القسري بعد استشارة علماء زمانه . قال ابن القيم رحمه الله في « النونية » :

ولذا ضحى بجعد خالد الـ قسري يوم ذبائح القربان
شكر الضحية كل صاحب سنة لله درك من أخي قربان

وتلقى عن الجعد مقالة التعطيل الجهم بن صفوان الترمذي فنشرها وناضل عنها ؛ فلذا نسب المذهب إليه ، فيقال : جهمية بفتح الجيم ، والجهم قتله سلم بن أحوز أمير خراسان ، والتعطيل ينقسم إلى ثلاثة أقسام ، كما ذكره ابن القيم رحمه الله :

الأول : تعطيل المصنوع من صانعه ، كتعطيل الفلاسفة الذين زعموا قدم هذه المخلوقات ، وأنها تتصرف بطبيعتها .

الثاني : تعطيل الصانع من كماله المقدس ؛ بتعطيل أسمائه وصفاته ، كتعطيل الجهمية وأشباههم من المعتزلة وغيرهم .

الثالث : تعطيل حق معاملته بترك عبادته ، أو عبادة غيره معه .

قال ابن القيم رحمه الله : والتعطيل شر من الشرك ، فإن المعطل جاحد للذات أو كمالها وهو جحد لحقيقة الألوهية ، فإن ذاتًا لا تسمع ولا تبصر ولا تغضب ولا ترضى ولا تفعل شيئًا وليست داخل العالم ، ولا خارجه ، ولا متصلة بالعالم ولا منفصلة ، ولا فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال ، هو والعدم سواء ، والمشرك مقر بالله ، لكن عبد معه غيره ، فهو خير من المعطل للذات والصفات .

قوله : « ولا تكييف » :

* وهو تعيين كنه الصفة ، يقال : كيَّف الشيء ؛ أي : جعل له كيفية معلومة ، وكيفية الشيء : صفته وحاله ، فالتكييف تعيين كنه الصفة وكيفيتها ، وهذا مما استأثر الله به ، فلا سبيل إلى الوصول إليه ؛ إذ الصفة تابعة للموصوف ، فكما لا يعلم كيف هو إلا هو ، فكذلك صفاته فالصفات يحذى فيها حذو الذات .

وقد سئل مالك- رحمه الله تعالى- فقيل له : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه : ٥] كيف استوى ؟ فقال : الاستواء معلوم والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . وكذلك روي عن ربيعة نحوًا من هذه الإجابة ، وكذلك روي عن أم سلمة زوج النبي ﷺ .

فقوله : الاستواء معلوم ، أي : في لغة العرب ، وقوله : والكيف مجهول ، أي : كيفية استوائه سبحانه وتعالى لا يعلم كنهها وكيفيتها إلا هو سبحانه ، وقوله : الإيمان به واجب ؛ لتكاثر الأدلة من الكتاب والسنة في إثبات ذلك ، والسؤال عنه ، أي : عن الكيفية بدعة ، ففرق مالك رحمه الله بين المعنى المعلوم من هذه اللفظة ، وبين الكيف الذي لا يعقله البشر .

وإجابة مالك- رحمه الله تعالى- وغيره جواب كاف شاف في جميع مسائل الصفات ، فإذا سئل إنسان عن المجيء أو النزول أو السمع أو البصر أو غير ذلك ، أجاب بجواب مالك رحمه الله ، فيقال مثلًا : المجيء معلوم والكيف مجهول ، وكذلك من سئل عن الغضب والرضا والضحك وغير ذلك فمعانيها كلها مفهومة ، وأما كيفيتها فغير معقولة ؛ إذ تعقل الكيفية فرع العلم بكيفية الذات وكنهها ، فإذا كان ذلك غير معقول للبشر فكيف يعقل لهم كيفية الصفات ؟

قوله : « ولا تمثيل » :

* التمثيل هو التشبيه ، يقال : مثل الشيء بالشيء : سواه وشبهه وجعله مثله وعلى مثاله ، فالشبيه والمثيل والنظير ألفاظ متقاربة ، فلا تمثل صفاته بصفات خلقه ، فإنه لا مثل له ولا شبه له ولا نظير ، لا في ذاته وأسمائه ، ولا في صفاته وأفعاله ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] ، والتشبيه ينقسم إلى قسمين :

الأول : تشبيه المخلوق بالخالق ، كتشبيه اليهود « العزير » بالله ، وتشبيه النصارى عيسى بالله ، وتشبيه المشركين أصنامهم بالله ، وهذا النوع هو الذي أرسلت الرسل وأنزلت الكتب في النهي عنه ، وهو أعظم الذنوب على الإطلاق ومحبط لجميع الأعمال .

الثاني : تشبيه الخالق بالمخلوق ، كقول المشبه لله : يد كأيدينا ، وسمع كأسماعنا ، وهذا هو الذي صنفت كتب التوحيد للرد على قائله ، وكلا النوعين كفر ، وكل مشبه معطل وبالعكس ، فإن المعطل لم يفهم من صفات الله إلا ما يليق بالمخلوق ، فأراد بزعمه الفاسد تنزيهه عن ذلك فوقع في التعطيل ، فشبه أولًا ، وعطل ثانيًا ، وشبهه ثالثًا بالمعدومات والناقصات ، تعالى الله عن قولهم .

وكذلك المشبه عطل الصفة التي تليق بالله ووصفه بصفات المخلوق ، فعطل أولًا ، وشبهه ثانيًا ، فكل معطل مشبه وبالعكس .

قال الشيخ تقي الدين في « الحموية » : وكل واحد من فريقي التعطيل والتمثيل فهو جامع بين التعطيل والتمثيل ، أما المعطلون فإنهم لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ما هو اللائق بالمخلوق ، ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات فقد جمعوا بين التمثيل والتعطيل ، مثلوا أولًا ، وعطلوا آخرًا ، وهذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم ، وتعطيل لما يستحقه هو من الصفات اللائقة بالله سبحانه ، ومذهب السلف بين التعطيل والتمثيل ، فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه ، كما لا يمثلون ذاته بذوات خلقه ، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه أو صفه به رسوله ﷺ ، فيعطلون أسماءه الحسنى وصفاته ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، ويلحدون في أسماء الله آياته . انتهى .

قوله : « بل يؤمنون بأن الله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] » :

* كما قال سبحانه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أي : أنه سبحانه لا مثل له في ذاته ولا في أسمائه وصفاته ولا في أفعاله ، فقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى : ١١] رد على المشبهة الممثلة ، وقوله : « وهو السميع البصير » رد على المعطلة النفاة .

و« الكاف » في قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أصح الأقوال إنها زائدة ، وهذا معروف في لغة العرب ، كقول الشاعر :

ليس كمثل الفتى زهير   خلق يوازيه في الفضائل

في هذه الآية المتقدمة فوائد :

الأول : إثبات السمع والبصر والرد على من زعم أن السمع والبصر بمعنى العلم ، وفيها الرد على المعطلة الذين ينفون الصفات بالكلية كالجهمية ، والذين يثبتون الأسماء دون المعاني ، كالمعتزلة

الذين يقولون : سميع بلا سمع ، بصير بلا بصر ، وتصور هذا القول يكفي في رده واستهجانه .

وفيها الرد على الأشاعرة الذين يثبتون بعض الصفات ويؤولون البعض الآخر ، وهم متناقضون أعظم تناقض ، وفيها النفي المجمل والإثبات المفصل ، وفيها الجمع بين النفي والإثبات ، وفيها تقديم النفي على الإثبات ؛ لأن الأول من باب التخلية ، والثاني من باب التحلية .

وفيها الجمع بين السمع والبصر فكثيرًا ما يقرن بينهما لعموم متعلقهما ، فسمعه سبحانه محيط بجميع المسموعات ، وبصره محيط بجميع المبصرات ، وسمعه سبحانه ينقسم إلى قسمين :

الأول : سمع عام وهو سمعه- سبحانه- لكل مسموع ، كقوله سبحانه : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة : ١] .

الثاني : سمع خاص ، وهو سمع الإجابة والإثابة ، كما قال سبحانه : ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [ابراهيم : ٣٩] الآية ، ومنه قول العبد : « سمع اللّٰه لمن حمده » . أي : استجاب سبحانه لمن حمده وأثنى عليه ، وفيها إثبات الصفات للّٰه على ما يليق بجلاله وعظمته ، وفيها أن صفاته ليس كصفات خلقه ، والمخلوق وإن كان يوصف بأنه سميع بصير فليس سمعه وبصره كسمع الرب وبصره ، فصفات الخالق كما يليق به ، وصفات المخلوق كما يليق به ؛ إذ لا مناسبة بين الخالق والمخلوق ، فصفات كل موصوف تناسب ذاته وحقيقته ، فلا يعلم كيف هو إلا هو .

قال بعض السلف : إذا قال الجهمي : كيف استوى ؟ كيف ينزل إلى السماء الدنيا ؟ ونحو ذلك ، فقل له : كيف هو بنفسه ؟ فإذا قال : لا يعلم كيف هو إلا هو ، وكنه الباري غير معلوم للبشر . فقل له : فالعلم بكيفية الصفة مستلزم للعلم بكيفية الموصوف ، فكيف يمكن أن يعلم كيفية صفة لموصوف لم تعلم كيفيته ، وإنما تعلم الذات والصفات من حيث الجملة ، فلا سبيل إلى العلم بالكنه والكيفية ، فإذا كان في المخلوقات ما لا يعلم كنهه فكيف بالباري سبحانه ؟ فهذه الجنة ، ورد عن ابن عباس : ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء ، وهذه الروح نجزم بوجودها وأنها تعرج إلى السماء ، وأنها تسل منه وقت النزع ، وقد أمسكت النصوص عن بيان كيفيتها ، فإذا كان ذلك في المخلوق فكيف بالخالق سبحانه وتعالى ؟

وفيها أعظم دلالة على كثرة صفات كماله ونعوت جلاله ، وإنها لكثرتها وعظمتها لم يكن له فيها مثل ، وإلا فلو أريد نفي الصفات لكان العدم المحض أولى بهذا المدح مع أن كل عاقل يفهم من قول القائل : فلان لا مثل له ؛ أنه قد تميز عن الناس بأوصاف ونعوت لا يشاركونه بها ، وهذا واضح من معنى الآية ؛ أن معناها إثبات الصفات لا نفيها خلافًا لأهل البدع من الجهمية وغيرهم .

وفي الآية متمسك لمن فضل السمع على البصر .

قوله : « فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه » :

* ووصفه به رسوله ﷺ ، بل يثبتون له الأسماء والصفات ، وينفون عنه مشابهة المخلوقات . رضوا لربهم ما رضيه لنفسه ورضيه له رسوله ﷺ ، فإنه- سبحانه- أعلم بنفسه وبغيره ، وكذلك رسله فإنهم أعلم بالله وأصدق وأنصح من جميع خلق الله ، وأقدر على البيان والتبليغ ، وقد بلغوا البلاغ المبين ، وقد سار على منهاجهم أصحاب النبي ﷺ والتابعون لهم بإحسان ، والخير في اتباعهم .

وخير الأمور السالفات على الهدى وشر الأمور المحدثات البدائع

وأما أهل البدع من الجهمية وغيرهم فنفوا أسماء الله وصفاته وعطلوها ؛ زعمًا منهم أن إثباتها يقتضي التشبيه أو التجسيم أو التحيز ، ونحو ذلك من أقوال أهل الضلال الذين نبذوا كتاب الله وسنة رسوله وراء ظهورهم ، ورضوا بالتلمذة على اليهود والمجوس والصابئين وأضرابهم من ضلال الأمم ، فإن أصل مقالة التعطيل مأخوذه عن هؤلاء ، كما ذكر ذلك الشيخ تقي الدين وابن القيم وغيرهم ، فإن الجهم بن صفوان تلقى مقالة التعطيل عن الجعد بن درهم ، والجعد أخذها عن أبان بن سمعان ، وأبان أخذها عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم الذي سحر النبي ﷺ ، كما أن الجهم قابل قومًا من السمنية وسألوه عن الله ، فتحير ومكث أربعين يومًا لا يصلي ، ويروى أنه دخل حران وقابل قومًا من الصابئة وباحثهم ، فمقالته هذه مصادرها لا شك أنها أخبث مقالة ، وكفى بقوم أعرضوا عن كتاب الله وسنة رسوله ، وتتلمذوا على هؤلاء الضلال كفرًا وضلالًا .

وما عوض لنا منهاج جهم بمنهاج ابن آمنة الأمين

قوله : « ولا يحرفون الكلم عن مواضعه » :

* أي : يغيرونه ويفسرونه بغير معناه ، قال تعالى : ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء : ٤٦] .

قال ابن كثير رحمه الله : أي يتأولونه على غير تأويله ، ويفسرونه بغير مراد الله قصدًا منهم وافتراءً ، قال في « شرح الطحاوية » : والتحريف على مراتب ؛ منه ما يكون كفرًا ، ومنه ما يكون فسقًا ، وقد يكون معصية ، وقد يكون خطأ . انتهى .

قوله : « ولا يلحدون في أسماء الله وآياته » :

أي : يميلون ويعدلون عن الحق الثابت ، فالإلحاد معناه لغة : الميل والعدول عن الشيء ، ومنه : اللحد في القبر لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر .

قال ابن القيم : الإلحاد هو العدول بأسماء الله وصفاته وآياته عن الحق الثابت ، وقال في « النونية » :

أسماؤه أوصاف مدح كلها مشتقة قد حملت لمعاني
إياك والإلحاد فيها إنه كفر معاذ الله من كفران
وحقيقة الإلحاد فيها الميل بالإشراك والتعطيل والنكران
فالملحدون إذا ثلاث طوائف فعليهم غضب من الرحمن

وقال أيضًا : والإلحاد في أسماء الله وصفاته أنواع :

أحدها : أن يسمي الأصنام بها ، كتسمية اللات من الإله ، والعزى من العزيز ونحوه .

الثاني : تسميته- سبحانه- بما لا يليق بجلاله ، كتسمية النصارى له أبًا ، وتسمية الفلاسفة له موجبًا ، أو علّة فاعلة .

الثالث : وصفه بما يتعالى ويتقدس عنه من النقائص ، كقول أخبث اليهود : إن الله فقير ، وقولهم : يد الله مغلولة .

الرابع : تعطيل الأسماء الحسنى عن معانيها وجحد حقائقها ، كقول من يقول من الجهمية : إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني ، فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي ، ويقولون : لا سمع له ولا بصير ولا حياة ونحو ذلك .

الخامس : تشبيه صفات بصفات خلقه ، تعالى الله عن قول الملحدين علوًّا كبيرًا ، فجمعهم الإلحاد وتفرقت بهم طرقه ، وبرّأ الله أتباع رسوله وورثته القائمين بسنته عن ذلك كله ، فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه ، ولم يجحدوا صفاته ولم يشبهوها بصفات خلقه ، ولم يعدلوا بها عما أنزلت له لفظًا ولا معنى ، بل أثبتوا له الأسماء والصفات ، ونفوا عنه مشابهة المخلوقات ، فكان إثباتهم بريئًا من التشبيه ، وتنزيههم خليًا من التعطيل ، لا كمن شبه حتى كأنه يعبد صنمًا ، أو عطل حتى كأنه يعبد عدمًا . انتهى .

قوله : « ولا يكيفون ...» :

* شيئًا من صفاته سبحانه وتعالى ، فإنه الموصوف بصفات الكمال التي لا تبلغها عقول الخلائق ، قال تعالى : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه : ١١٠] ، فيجب الإيمان بصفات الله واعتقاد أنها حقيقة تليق بجلال الله وعظمته ، أما كنهها وكيفيتها فهو مما استأثر الله بعلمه فلا سبيل إلى معرفته ، وقد تقدم الكلام على هذا الموضوع .

قوله : « ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه ..» :

* فمذهب أهل السنة إثبات الأسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات ، إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

قوله : « لأنه سبحانه لا سمي له ...» : أي : لا نظير له ، كما قال سبحانه : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] أي : من يساميه أو يماثله ، ويروى عن ابن عباس : مثيلًا أو شبيهًا .

قوله : « ولا كفؤ له ...» : أي : لا مثل له سبحانه ، قال تعالى : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] .

قوله : « ولا ند له » : أي : لا شبه له ولا نظير ، قال تعالى : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢] .

وفي قوله : « ولا ند له ..إلخ » رد على المعتزلة الذين يزعمون أن العبد يخلق فعل نفسه .

قوله : « ولا يقاس بخلقه » : أي : لا يمثل بهم ولا يشبه ، والقياس في اللغة : التمثيل .

قال تعالى : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤] ، فلا يقاس سبحانه بخلقه في أفعاله ولا في صفاته ، كما لا يقاس بهم في ذاته خلافًا للمعتزلة ومن وافقهم من الشيعة ، فإنهم قاسوه سبحانه بخلقه فشبهوه بهم فوضعوا له شريعة من قبل أنفسهم ، فقالوا : يجب على الله كذا ، ويحرم عليه كذا بالقياس على المخلوق ، فالمعتزلة ومن وافقهم مشبهة في الأفعال ، معطلة في الصفات ، جحدوا بعض ما وصف الله به نفسه من صفات الكمال وسموه توحيدًا ، وشبهوه بخلقه فيما يحسن ويقبح من الأفعال وسموا ذلك عدلًا ، فعدلهم إنكار قدرته- سبحانه- ومشيئته العامة الكاملة التي لا يخرج عنها شيء من الموجودات ذواتها وصفاتها وأفعالها ، وتوحيدهم إلحادهم في أسماء الله الحسنى وتحريف معانيها عما هي عليه ، فكان توحيدهم في الحقيقة تعطيلًا وعدلهم شركًا . انتهى ، من كلام ابن القيم بتصرف .

قوله : « فإنه- سبحانه- أعلم بنفسه وبغيره » :

* قال الله تعالى : ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥] ، وقال : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] أي : لا يحيط الخلائق به سبحانه علمًا ، فهو الموصوف بصفات الكمال التي لا تبلغها عقول الخلائق ، كما في الصحيح : « لا نحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك »[1] ، فما جاء في الكتاب والسنة من صفاته سبحانه وجب الإيمان به وتلقيه بالقبول والتسليم ، وترك التعرض له بالرد والتشبيه والتمثيل ، فهو الذي وصف بها نفسه ووصفه بها رسوله ﷺ ؛ فعلينا أن نرضى بما رضيه لنفسه ، فإنه أعلم بما يجوز ويمتنع ويليق بجلاله .

قال الإمام الشافعي- رحمه الله تعالى- : آمنت بالله وبما جاء عن الله على مراد الله ، وآمنت

---

(١) مسلم (٤٨٦) ، وأبو داود (٨٧٩) من حديث عائشة رضي الله عنها .

برسول اللّٰه وبما جاء عن رسول اللّٰه على مراد رسول اللّٰه . وعلى هذا درج السلف الصالح رضوان اللّٰه عليهم ، وقد أمرنا باقتفاء آثارهم والاهتداء بمنارهم ، كما قال ﷺ : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ؛ فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة »[1] .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفيتم ، وقال الشعبي : عليكم بآثار من سلف وإن رفضك الناس ، وإياك وأراء الرجال وإن زخرفوه لك بالقول .

قوله : « وأصدق قيلًا ... » :

* قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء : ١٢٢] ، وثبت في الصحيح من حديث جابر أن رسول اللّٰه ﷺ كان يقول في خطبته يوم الجمعة : « إن أصدق الحديث كتاب اللّٰه ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ »[2] الحديث ، فما أخبر به الله- سبحانه- فهو حق وصدق ، علينا أن نصدقه ولا نعارضه ولا نعرض عنه ، فمن عارضه بعقله لم يصدق به ، وكذلك من أقر بلفظه مع جحد معناه أو حرفه إلى معان آخر غير ما أريد به لم يكن مصدقًا .

قوله : « وأحسن حديثًا من خلقه » : قال اللّٰه تعالى : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء : ٨٧] لفظه لفظ استفهام ومعناه : لا أحد أحسن حديثًا منه سبحانه ، فألفاظه أفصح الألفاظ وأبينها وأعظمها مطابقة لمعانيها المرادة منها ، ومعانيه أشرف المعاني ، فلا تجد كلامًا أحسن تفسيرًا ولا أتم بيانًا من كلامه سبحانه ؛ ولهذا سماه اللّٰه بيانًا وأخبر أنه يسره للذكر ، يسر ألفاظه للحفظ ، ويسر معانيه للفهم ، فمحالًا أن يترك باب الإيمان باللّٰه وأسمائه وصفاته ملتبسًا ، وهو أشرف العلوم على الإطلاق ، بل قد بينه اللّٰه ورسوله بيانًا شافيًا قاطعًا للعذر ، لا لبس فيه ولا إشكال ، فآيات الصفات واضحة المعنى وضوحًا تامًّا ، بحيث يشترك في فهم معانيها العام والخاص ، أي : فهم أصل المعنى لا فهم الكنه والكيفية ، كما أنها مفيدة للعلم اليقيني الكامل .

قوله : « ثم رسله صادقون مصدقون ... » :

أي : فيما جاءوا به عن اللّٰه ، والصدق هو مطابقة الخبر للواقع ، فرسله عليهم السلام صادقون في جميع ما أتوا به ؛ إذ هو الحق الصدق المطابق للواقع ، فلا يصح لإنسان قول ولا عمل إلا باعتقاد صدقهم وأمانتهم ، وأنهم بلغوا البلاغ المبين بأبلغ عبارة وأوضح أسلوب ، ليس في كلامهم لغز ولا أحاجي ، وليس له باطن يخالف ظاهره ، وأن لديهم من القدرة على التعبير وكمال العلم وتمام الشفقة

(١) أبو داود (٤٦٠٧) ، والترمذي (٢٦٧٦) ، وأحمد (١٢٦/٤) من حديث العرباض بن سارية .

(٢) مسلم (٨٦٧) ، والنسائي (١٥٧٨) ، وأحمد (٣١٠/٣) من حديث جابر بن عبد اللّٰه رضي الله عنه .

والنصح ما ليس عند غيرهم ، فيجب أن يكون بيانهم للحق أكمل من بيان كل أحد ، فمن المحال أن يتركوا باب الإيمان بالله وأسمائه وصفاته ملتبسًا وهو أشرف العلوم على الإطلاق وأجلها وأوجبها ، قد بينوه غاية البيان ، ولم يبق فيه شك ولا إشكال .

قال الشيخ تقي الدين رحمه الله : ومعلوم أنه ﷺ قد بلغ الرسالة كما أمر ولم يكتم منها شيئًا ، فإن كتمان ما أنزله الله عليه يناقض موجب الرسالة ، كما أن الكذب يناقض موجب الرسالة ، قال : ومن المعلوم في دين المسلمين أنه معصوم من الكتمان لشيء من الرسالة ، كما أنه معصوم من الكذب فيها ، والآية تشهد له بأنه بلغ الرسالة كما أمر الله ، وبين ما أنزل إليه من ربه ، وقد وجب على كل مسلم تصديقه في كل ما أخبر به .

قوله : « مصدقون » : أي : فيما يأتيهم من الوحي الكريم ، قال تعالى : ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة : ١٣٦] ، فيجب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين ، وألا يفرق بين أحد منهم ، وتصديقهم فيما أخبروا به ، واتباعهم في كل ما جاءوا به فهو حق وصدق ، وقد اتفق العلماء على كفر من كذب نبيًا معلوم النبوة ، وكذا من سبه أو انتقصه ويجب قتله ؛ لأن الإيمان واجب بجميع المرسلين واتباعهم واتباع ما أنزل إليهم ، وقد ختمهم الله بمحمد ﷺ وأنزل عليه الكتاب والحكمة ، وجعل دعوته عامة لجميع الثقلين ، باقية إلى يوم القيامة وانقطعت به حجة العباد على الله سبحانه ، وقد بين الله به كل شيء وأكمل له ولأمته الدين خبرًا وأمرًا ، وأقسم بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى يحكموه فيما شجر بينهم ، قال تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية [النساء : ٦٥] ، وفي حديث أنس أن النبي ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به »[1] .

وأعظم ما جاء به ﷺ هو وإخوانه من الرسل هو الدعوة إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ، ومعرفته بأسمائه وصفاته وأفعاله ، وأنه لا شبيه له ولا نظير ، فهذا هو مفتاح دعوتهم وزبدة رسالتهم من أولهم إلى آخرهم ، فدينهم واحد ، وإنما اختلفت الشرائع ، كما قال النبي ﷺ : « نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد »[2] الحديث .

قوله : « بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون ... » :

* أي : بخلاف الذين يقولون على الله في شرعه ودينه أو في أسمائه وصفاته وأفعاله ما لا يعلمون ،

---

(١) ضعفه الألباني في « مشكاة المصابيح » (١٦٧) .

(٢) البخاري (٣٢٥٨) ، ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

بل بمجرد عقولهم الفاسدة وتخيلاتهم الكاسدة التي ما أنزل اللّٰه بها من سلطان ، قال تعالى : ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٣٣] ، وقال : ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ﴾ [النحل : ١١٦] ، فالقول على اللّٰه سبحانه وتعالى بلا علم من أعظم المنكرات ؛ ولهذا جعله في أعظم مراتب التحريم ، فإنه بدأ بأسهلها وختم بأشدها وأعظمها تحريمًا وهو القول على اللّٰه بلا علم ، وتواتر عن النبي ﷺ : « مَن كذب عليَّ متعمدًا ؛ فليتبوأ مقعده مِن النار »(١) .

قال ابن القيم رحمه الله : فالقول على اللّٰه بغير علم من كبائر الذنوب ، سواء كان في أسماء اللّٰه وصفاته وأفعاله ، أو في أحكامه وتقديم الخيال المسمى بالعقل والسياسة الظالمة والعوائد الباطلة والآراء الفاسدة والأذواق والكشوفات الشيطانية على ما جاء به رسول اللّٰه ﷺ . انتهى بتصرف .

قوله : « ولهذا قال سبحانه : ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ » :

* ذكر المصنف- رحمه اللّٰه تعالى- هذه الآية الكريمة دليلًا على ما تقدم من إثبات صدق الرسل عليهم السلام وصحة ما جاءوا به ، وأنه الحق الذي يجب اعتقاده ، وأن الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة ، ووصفوا اللّٰه بما يليق به من صفات الكمال ونزهوه عن صفات النقص والعيب ، وأن من قال بخلاف ما جاءوا به فهو كاذب على اللّٰه قائل عليه بدون علم .

قوله : « سبحان ربك » : أي : تنزيها للّٰه عن كل نقص وعيب .

قال ابن القيم : التسبيح : تنزيه اللّٰه عن كل سوء ، وأصل اللفظة من المباعدة من قولهم : سبحت في الأرض إذا تباعدت فيها ، وتأتي سبحان للتعجب . انتهى .

قوله : « رب العزة » :

أي : القوة والغلبة ، وأضافها إليه لاختصاصها به ، والعزة يراد بها عزة القوة وعزة الامتناع وعزة الغلبة والقهر ، فله- سبحانه- العزة التامة بالاعتبارات الثلاث ، يقال من الأول : عز يعز- بفتح العين- في المستقبل ، وفي الثاني بكسر العين ، وفي الثالث بضمها من النقائص والعيوب .

قوله : « ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ » : أي تنزه سبحانه وتقدس عما يصفه به المخالفون للرسل من النقائص والعيوب .

قوله : « ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ » : أي : سلام اللّٰه عليهم في الدنيا والآخرة ؛ لسلامة ما قالوه في

---

(١) البخاري (١١٠) ، ومسلم (٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ربهم وصحته وأحقيته .

قوله : « ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ » : وقوله : « رب » : هو الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور ، ولا يطلق إلا على الله سبحانه وتعالى إلا إذا أضيف فيطلق على غيره ، كرب الدار ورب الدابة ونحو ذلك ، ولفظة رب وإله فيهما دلالة الاقتران والانفراد ، فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر ، وإذا ذكرا معًا فسر الرب بما تقدم ، وفسر الإله بأنه المعبود المطاع .

قوله : « ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ » : العالم كل من سوى الله ، سمي بذلك ؛ لأنه علامة على وجود خالقه وموجده ووحدانيته ، وأنه المستحق للعبادة كما قيل :

فواعجبًا كيف يُعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

ويُروى أن أعرابيًا سُئل عن الله ، فقال : يا سبحان الله ، إن البعرة لتدل على البعير ، وإن الأثر ليدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحر ذات أمواج ، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير !!

ففي هذه الآية نزه نفسه - سبحانه- عما لا يليق بجلاله ، ثم سلم على المرسلين ، وهذا يقتضي سلامتهم من كل ما يقوله المكذبون لهم ، وإذا سلموا من ذلك لزم سلامة كل ما جاءوا به من الكذب والفساد ، وأعظم ما جاءوا به هو التوحيد ومعرفة الله سبحانه وتعالى ، ووصفه بما لا يليق بجلاله مما وصف به نفسه على ألسنتهم ، وإذا سلم ذلك من الكذب والمحال فهو الحق المحض ، وما خالفه فهو الباطل والكذب والمحال .

قال ابن كثير رحمه الله : ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة ، ويستلزم إثبات الكمال ، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة ، ويستلزم التنزيه عن النقص ، قرن بينهما في هذا الموضع وفي مواضع كثيرة من القرآن ، ولهذا قال : ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات : ١٨٠] . انتهى .

وفي هذه الآية إثبات أنواع التوحيد الثلاثة ، فإن الحمد يتضمن إثبات أنواع التوحيد الثلاثة ، فإن الحمد مدح المحمود بصفات كماله ونعوت جلاله مع محبته والرضا عنه والخضوع له ، ومن المعلوم أن فاقد صفات الكمال لا يكون إلهًا ولا مدبرًا ، بل هو مذموم معيب ليس له الحمد ، وإنما الحمد لمن له صفات الكمال ونعوت الجلال التي لأجلها استحق الحمد ، واشتملت هذه الآية على وصفه- سبحانه- بالعزة المتضمنة للقوة والقدرة وعدم النظير ، والحمد المتضمن لصفات الكمال والتنزيه عن أضدادها ، وعلى إثبات صفة الكلام ، وعلى الرد على جميع المخالفين ، وإثبات أن ما جاء به

المرسلون هو الحق الذي يتعين اعتقاده لسلامة ما قالوه في ربهم من النقص والعيب . انتهى من كلام ابن القيم ملخصًا .

قوله : « فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل ..» :

أي : نزهها عما يصفه به العباد إلا ما وصفه به المرسلون وأتباعهم ، فإن هذه الكلمة ؛ أي : سبحان ربك ، تنزيه للرب وتعظيمه وإجلاله عما لا يليق به من النقائض والعيوب ، فالرسل- عليهم الصلاة والسلام- وأتباعهم وصفوه سبحانه وتعالى بصفات الكمال ، ونزهوه عما لا يليق به من الشبيه والمثال ، وأما أعداء الرسل فوصفوه بضد ذلك من النقائص والعيوب ، وألحدوا في أسماء اللّٰه وصفاته وآياته ، وحرفوا الكلام عن مواضعه ، فالحق هو ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه ، وما جاء به علمًا وعملًا واعتقادًا في باب صفات الرب وأسمائه ، وتوحيده وأمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، وكل ذلك مسلم إلى رسول اللّٰه دون آراء الرجال وأوضاعهم وأفكارهم واصطلاحاتهم ، فكل ما خالف ما عليه الرسول وأصحابه فهو مردود على صاحبه كائنًا من كان .

قوله : « لسلامة ما قالوه » : أي : أن ما قالوه في ربهم سالم من النقص والعيب ، فإنهم أعلم الخلق بالحق وأنصح الخلق وأفصحهم وأقدرهم على البيان والتبليغ ، فما بينوه من أسماء اللّٰه وصفاته وغير ذلك هو الغاية في الكمال ، وهو الحق الذي يجب اعتقاده واتباعه ، ولا تحل مخالفته .

قال في القاموس : السلامة : البراءة من العيوب . اهـ . والعيب والنقصان مترادفان .

قوله : « جمع » : الجمع في اللغة : الضم ، والاجتماع : الانضمام ، والتفريق ضده .

قوله : « وصف » : الوصف لغة : نعته بما فيه ، وصف الشيء : نعته بما فيه وحلاه والصفة : النعت ، والصفة ما يقوم بالموصوف كالعلم والجمال ، وأسماؤه- سبحانه- تنقسم إلى قسمين : أعلام وأوصاف ، والوصفية فيها لا تنافي العلمية بخلاف أوصاف العباد ، وصفاته سبحانه وتعالى دالة على معان قائمة بذاته ، فيجب الإيمان بها والتصديق ، وإثباتها للّٰه حقيقة على ما يليق بجلال اللّٰه وعظمته ، وهي بالنظر إلى الذات من قبيل المترادف ، وبالنظر إلى الصفات من قبيل المتباين ، وهي تنقسم كما مضى إلى قسمين : صفات ذات ، وصفات فعل .

قوله : « بين النفي والإثبات » : فالنفي كقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى : ١١] ، وقوله : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص : ٤] ، وقوله : ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وقوله : ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

والإثبات كقوله : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] ، وقوله : ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام : ١٨١] ، وقوله : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص : ١، ٢] .

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية ﷺ : ومعاني التنزيه ترجع إلى هذين الأصلين ؛ إثبات الكمال ونفي التشبيه والمثال ، وقد دل عليهما سورة الإخلاص ، فاسمه الصمد يجمع معاني صفات الكمال ، والأحد يتضمن أنه لا مثل له ولا نظير . من « المنهاج » بتصرف .

والنفي ليس مقصودًا لذاته ، وإنما هو مقصود لغيره ؛ إذ النفي المحض ليس بمدح ولا ثناء ، بل هو عدم محض ولا مدح في ذلك .

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية ﷺ في كتابه « التدمرية » : وينبغي أن يعلم أن النفي ليس فيه كمال ولا مدح إلا إذا تضمن إثباتًا ، وكل ما نفى الله عن نفسه من النقائص ومشاركة أحد له في خصائصه ، فإنها تدل على إثبات ضدها من أنواع الكمالات . انتهى .

وطريقة أهل السنة والجماعة في النفي : الإجمال ، وفي الإثبات : التفصيل ، كما جاء في الكتاب والسنة ، فأثبتوا له- سبحانه- الأسماء والصفات ، ونفوا عنه مماثلة المخلوقات ، ومن خالفهم من المعطلة والمتفلسفة وغيرهم عكسوا القضية فجاءوا بنفي مفصل وإثبات مجمل ، فيقولون : ليس كذا ، ليس كذا . ذكر معناه في « التدمرية » وغيرها .

قوله : « فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون ..» :

أي : فلا ميل ولا انحراف لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون ، بل هم مقتفون آثارهم ، مستضيئون بأنوارهم ، مؤمنون بجميعهم ، مصدقون لهم في كل ما أخبروا به من الغيب ؛ إذ هو الحق والصدق الذي يجب اعتقاده واتباعه ، ولا تجوز مخالفته ، وأعظم ما جاء به المرسلون هو الدعوة إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ، ومعرفته بأسمائه وصفاته وأفعاله ، وأنه لا شبيه له ، ولا نظير ، فهذا دينهم من أولهم إلى آخرهم ، قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران : ١٩] ؛ أي : إن الدين الذي جاء به محمد ﷺ هو دين الأنبياء من أولهم إلى آخرهم ، ليس لله دين سواه ، فالإسلام دين أهل السماوات ودين أهل التوحيد من الأرض ، لا يقبل الله من أحد دينًا سواه .

قال الشيخ تقي الدين ﷺ : فأهل السنة والجماعة المتبعون لمحمد وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من رسل الله يثبتون ما أثبتوه من تكليم الله ومحبته ورحمته ، وسائر ما له من الأسماء والصفات ، وينزهونه عن مشابهة الأجساد التي لا حياة فيها ، وأما أهل البدع من الجهمية ونحوها فإنهم سلكوا سبيل أعداء الرسل- إبراهيم وموسى ومحمد- الذين أنكروا أن الله كلم موسى تكليمًا ، واتخذ إبراهيم خليلًا ، وقد كلم الله محمدًا واتخذه خليلًا ورفعه فوق ذلك درجات ، وتابعوا فرعون الذي قال : ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ * أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر : ٣٦، ٣٧] ، وتابعوا المشركين الذين ﴿وَإِذَا قِيلَ

لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] الآية.

واتبعوا الذين ألحدوا في أسماء الله فهم يجحدون حقيقة الرحمن، أو أنه يرحم، أو يكلم، وزعموا أن من أثبت له هذه الصفات فقد شبهه بالأجسام الميتة وأن هذا تشبيه لله بخلقه، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

قوله: «فإنه الصراط المستقيم ..»: أي: أن ما جاء به المرسلون هو الصراط المستقيم الموصل إلى السعادة الأبدية، وهو الذي لا طريق إلى الله ولا جنته سواه، والصراط في اللغة: الطريق الواضح، قال الشاعر:

أمير المؤمنين على صراط إذا أعوج الموارد مستقيم

والمستقيم: الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خط رسول الله خطًا بيده، ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيما». ثم خطا خطوطًا عن يمين ذلك الخط وعن شماله، ثم قال: «وهذه السبل ليس من سبيل إلا وعليه شيطان يدعوا إليه». ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] الآية[١]، رواه الإمام أحمد، والنسائي، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والمراد بالصراط: قيل: الإسلام، وقيل: القرآن، وقيل: طريق السنة والجماعة.

قال ابن القيم- رحمه الله تعالى-: ولا ريب أن ما كان رسول الله وأصحابه علمًا وعملًا، وهو معرفة الحق وتقديمه وإيثاره على غيره هو الصراط المستقيم، وكل هذه الأقوال المتقدمة دالة عليه جامعة له. انتهى.

والصراط المذكور في الكتاب والسنة ينقسم إلى قسمين: معنوي وحسي، فالمعنوي: هو ما تقدمت الإشارة إليه، والحسي: هو الجسر الذي ينصب على متن جهنم يوم القيامة يمر الناس عليه على قدر أعمالهم، فبحسب استقامة الإنسان على الصراط المعنوي الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار تكون استقامته على ذلك الصراط الحسي حذو القذة بالقذة ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

قال ابن القيم- رحمه الله تعالى-: أفرد الصراط؛ لأن الحق واحد، وهو صراط الله المستقيم الذي لا صراط يوصل إليه سواه، وهو عبادة الله بما شرع على لسان رسوله ﷺ، وهذا بخلاف طرق

---

(١) أحمد (١/٤٦٥)، والحاكم (٢٩٣٨)، والنسائي في «الكبرى» (٦/٣٤٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٦٦).

الباطل فإنها متعددة متشعبة ؛ ولهذا يجمعها كقوله سبحانه وتعالى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام : ١٥٣] الآية ، ولا يناقض هذا قوله سبحانه : ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة : ١٦] ، فإن تلك هي طرق مرضاته التي يجمعها سبيله الواحد .

قوله : « صراط » : بدل من الصراط الأول ، أي : طريق المنعم عليهم ، قال تعالى في سورة الفاتحة : ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة : ٦، ٧] ، وهؤلاء هم المذكورون في قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء : ٦٩] ، والنعمة بكسر النون : الإحسان ، وبالضم : المسرة ، وبالفتح : المتعة من العيش اللين .

قوله : « أنعم الله عليهم » أي : أنعم عليهم الإنعام المطلق التام ، وهي النعمة المتصلة بسعادة الأبد ، وهي نعمة الإسلام والسنة ، وهي التي أمرنا الله أن نسأله أن يهدينا صراط أهلها ، ومن خصهم بها وجعلهم أهل الرفيق الأعلى ، كما قال تعالى : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [النساء : ٦٩] الآية ، فهؤلاء الأصناف الأربعة هم أهل هذه النعمة المطلقة وأصحابها هم المعنيون بقوله : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة : ٣] ، فأضاف إليهم الدين ؛ إذ هم المختصون بهذا الدين القيم دون سائر الأمم ، وأما مطلق النعمة فعلى المؤمن والكافر ، فكل الخلق في نعمته ، فالنعمة المطلقة لأهل الإيمان ، ومطلق النعمة يكون للمؤمن والكافر . انتهى ، ذكره ابن القيم .

وفي قوله : ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ : تنبيه على الرفيق في هذا الطريق ، وأنهم هم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ؛ ليزول عن سالك هذا الطريق وحشة التفرد عن أهل زمانه وبني جنسه إذا استشعر أن رفيقه في هذا الصراط هم الأنبياء والشهداء والصالحون .

قال بعض السلف : لا تستوحش من الحق لقلة السالكين ، ولا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين ، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ : ٢٠] ، وقال ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف : ١٠٣] .

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتابه « في مسائل التوحيد » : وفيه عمق علم السلف ، وهو عدم الاغترار بالكثرة وعدم الزهد في القلة ، انتهى .

والصراط تارة يضاف إلى الله سبحانه وتعالى ؛ إذ هو الذي شرعه ونصبه كقوله : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا

﴿صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وتارة يضاف إلى العباد لكونهم أهل سلوكه. أفاده ابن القيم.

وفي قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾: إشارة إلى أنهم إنما استحقوا هذا الإنعام المطلق بسبب سلوكهم هذا الصراط، وفيه إشارة إلى وجوب توحيد هذا الصراط بالسلوك، وأن لا صراط موصل للسعادة سوى هذا الصراط. قال ابن القيم في «الكافية الشافية»:

فلواحد كن واحدًا في واحد أعني سبيل الحق والإيمان

قال ابن القيم- رحمه الله تعالى- في كتابه «مدارج السالكين»: والهدي التام يتضمن توحيد المطلوب وتوحيد الطلب وتوحيد الطريق الموصلة والانقطاع، وتخلف الوصول يقع من الشركة في هذه الأمور أو في بعضها، فالشركة في المطلوب تنافي التوحيد والإخلاص، والشركة في الطلب تنافي الصدق والعزيمة، والشركة في الطريق تنافي اتباع الأمر، فالأول يوقع في الشرك والرياء، والثاني يوقع في المعصية والبطالة، والثالث يوقع في اتباع البدعة ومفارقة السنة، فتأمل، فتوحيد المطلوب يعصم من الشرك والرياء، وتوحيد الطلب يعصم من المعصية، وتوحيد الطريق يعصم من البدعة، والشيطان إنما ينصب فخه بهذه الطرق الثلاثة.

قوله: «من النبيين»: الذين اختصهم من خلقه وشرفهم برسالته ونبوته، وقد تقدم الكلام على الأنبياء.

قوله: «والصديقين»: الذين صدقوا أقوالهم بأفعالهم، فالصديق المبالغ في الصدق، كما في الحديث: «إن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا»[(١)]، أو المبالغ في التصديق، كما سمي أبو بكر: الصِّديق.

قال ابن القيم: الصديق أبلغ من الصدوق، والصدوق أبلغ من الصادق، فأعلى مراتب الصدق: الصديقية؛ وهي كمال الانقياد للرسول ﷺ مع كمال الإخلاص للرسل.

قوله: «والشهداء»: والشهيد هو المقتول في سبيل الله، قيل: سمي بذلك؛ لأن الله وملائكته شهدوا له بالجنة، أو لأن ملائكة الرحمة تشهده، أي: تحضره، قال العلماء: والشهيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: شهيد في الدنيا والآخرة، وهو المقتول في سبيل الله في حرب الكفار.

الثاني: شهيد في الآخرة دون أحكام الدنيا، وهو الغريق، والحريق، والمطعون، والمبطون، ومن قتل دون ماله أو دون نفسه أو دون حرمته.

---

(١) مسلم (٢٦٠٧)، وأبو داود (٤٩٨٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

الثالث : شهيد في الدنيا دون الآخرة ، وهو من غل من الغنيمة ، أو قتل مدبرًا .

قوله : « والصالحين » : الصالح : هو القائم بحدود الله وحقوق عباده .

قال الشيخ تقي الدين في كتاب « الإيمان » : ولفظ الصالح والشهيد يذكر مفردًا ، فيتناول النبيين والصديقين والشهداء ، ويذكر مع غيره فيفسر بحسبه . اهـ .

وقدم النبيين على الصديقين لشرفهم ، ولكون الصديق تابعًا للنبي ، فاستحق اسم الصديق بكمال تصديقه للنبي فهو تابع محض ، وقدم الصديقين على الشهداء لفضل الصديقين عليهم ، وقدم الشهداء على الصالحين لفضلهم عليهم . انتهى من « البدائع » بتصرف .

قال الشيخ تقي الدين- رحمه الله تعالى- : وأفضل الخلق النبيون ، ثم الصديقون ، ثم الشهداء ، ثم الصالحون ، وأفضل كل صنف أتقاهم . انتهى .

قال الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله :

قوله : « التحريف » :

* معناه تغيير ألفاظ الأسماء والصفات ، أو تغيير معانيها .

كقول الجهمية في ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ : استولى . وكقول بعض المبتدعة : إن معنى « الغضب في حق الله » إرادة الانتقام ، وأن معنى « الرحمة » كذلك إرادة الإنعام . وكل هذا تحريف . فقولهم : ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ : استولى ؛ من تحريف اللفظ .

وقولهم : الرحمة : إرادة الإنعام . والغضب : إرادة الانتقام ؛ من تحريف المعنى .

والقول الحق : أن معنى الاستواء : الارتفاع والعلو كما هو صريح لغة العرب ، وجاء به القرآن ؛ ليدل على أن معناه : الارتفاع والعلو على العرش ، على وجه يليق بجلال الله وعظمته . وكذا الغضب والرحمة : صفتان حقيقيتان ، تليقان بجلال الله وعظمته كسائر الصفات الواردة في القرآن والسنة .

قوله : « التعطيل » :

* معناه سلب الصفات ، ونفيها عن الله تعالى .

وهو مأخوذ من قولهم : جيد معطل ؛ أي : خال من الحلي .

فـ « الجهمية » وأشباههم قد عطلوا الله عن صفاته ؛ فلذلك سموا بالمعطلة .

وقولهم هذا من أبطل الباطل ؛ إذ لا يعقل وجود ذات بدون صفات ، والقرآن والسنة متضافران على إثبات هذه الصفات على وجه يليق بجلال الله وعظمته .

قوله : « التكييف » :

* معناه بيان الهيئة التي تكون عليها الصفات .

فلا يقال : كيف ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ ؟ كيف وجهه ؟ ونحو ذلك ؛ إذ القول في الصفات كالقول في الذات يحتذى حذوه ويقاس عليه ، فكما أن له ذاتًا ولا نعلم كيفيتها ، فكذلك له صفات ولا نعلم كيفيتها ؛ إذ لا يعلم ذلك إلا هو ، مع إيماننا بحقيقة معناها .

قوله : « التمثيل » :

* فمعناه : التشبيه . فلا يُقال : ذات اللّٰه مثل ذواتنا ، أو شبه ذواتنا ، وهكذا .

فلا يقال في صفاته : إنها مثل صفاتنا ، أو شبه صفاتنا ، بل على المؤمن أن يلتزم قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى : ١١] ، و﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] ، والمعنى : لا أحد يساميه ؛ أي : يشابهه .

فائدة : ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، قال : « إذا قال لك : نؤول معنى الغضب ، إرادة الانتقام ، والرحمة : إرادة الإنعام ، فقل : وهل إرادة الخالق تشبه إرادة المخلوق ، أم أنها إرادة تليق بجلاله وعظمته ؟ فإن قال الأول فقد شبه ، وإن قال الثاني فقل : ولم لا تقل : رحمة وغضب يليقان بجلاله وعظمته ، وبذلك تحجه وتخصمه » . اهـ .

قوله : « وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات » :

طريقة الكتاب والسنة في أسماء اللّٰه وصفاته : الإثبات المفصل ، والنفي المجمل فقد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي المجمل ، مثل قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى : ١١] ، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص : ٤] ، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] .

وكذلك قوله في حديث أبي موسى : « إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا »[(١)] ، في حكم النفي المجمل ؛ لأن الصمم والغيبة تتضمنان نفي نقائص كثيرة تلزم من صفتي الصمم والغيبة ؛ لأن الأصم هو الذي لا يسمع ولا يصلح أن يكون إلهًا لهذا النقص العظيم الذي يلزم منه عدم سماع دعاء الداعين ، وأصوات المحتاجين ، وغير ذلك من النقائص ، كما أن الغيبة يلزم منها عدم اطلاعه على أحوال عباده ، وعدم علمه بما ينبغي أن يعاملهم به ونحو ذلك » . اهـ .

❁ قال الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

قوله : « ومِن الإيمان باللّٰه : الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه » :

(من) : هنا للتبعيض ؛ لأننا ذكرنا أن الإيمان باللّٰه يتضمن أربعة أمور : الإيمان بوجوده ، وانفراده بالربوبية ، وبالألوهية ، وبالأسماء والصفات ؛ يعني : بعض الإيمان باللّٰه : الإيمان بما وصف به نفسه .

(١) البخاري (٦٤٠٩) ، ومسلم (٢٧٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ .

قوله : « بما وصف به نفسه » ينبغى أن يقال : وسمى به نفسه لكن المؤلف رحمه الله ذكر الصفة فقط : إما لأنه ما من اسم إلا ويتضمن صفة ، أو لأن الخلاف فى الأسماء خلاف ضعيف ، لم ينكره إلا غلاة الجهمية والمعتزلة ؛ فالمعتزلة يثبتون الأسماء ، والأشاعرة والماتريدية يثبتون الأسماء ، لكن يخالفون أهل السنة فى أكثر الصفات .

فنحن الآن نقول : لماذا اقتصر المؤلف على « ما وصف الله به نفسه » ؟

نقول : لأحد أمرين : إما لأن كل اسم يتضمن صفة ، وإما لأن الخلاف فى الأسماء قليل بالنسبة للمنتسبين للإسلام .

« فى كتابه » : (كتابه) يعنى القرآن ، وسماه الله تعالى كتابًا ؛ لأنه مكتوب فى اللوح المحفوظ ، ومكتوب فى الصحف التى بأيدى السفرة الكرام البررة ، ومكتوب كذلك بين الناس يكتبونه فى المصاحف ؛ فهو كتاب بمعنى مكتوب ، وأضافه الله إليه ؛ لأنه كلامه سبحانه وتعالى ؛ فهذا القرآن كلام الله ، تكلم به حقيقة ؛ فكل حرف منه ؛ فإن الله قد تكلم به .

وفى هذه الجملة مباحث :

المبحث الأول : أن من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه :

ووجه ذلك أن الإيمان بالله - كما سبق - يتضمن الإيمان بأسمائه وصفاته ؛ فإن ذات الله تسمى بأسماء وتوصف بأوصاف ، ووجود ذات مجردة عن الأوصاف أمر مستحيل ؛ فلا يمكن أن توجد ذات مجردة عن الأوصاف أبدًا ، وقد يفرض الذهن أن هناك ذاتًا مجردة من الصفات لكن الفرض ليس كالأمر الواقع ؛ أى أن المفروض ليس كالمشهود ؛ فلا يوجد فى الخارج - أى : فى الواقع المشاهد - ذات ليس لها صفات أبدًا .

فالذهن قد يفرض مثلا شيئًا له ألف عين ، فى كل ألف عين ألف سواد وألف بياض ، وله ألف رجل ، فى كل رجل ألف إصبع ، فى كل إصبع ألف ظفر ، وله ملايين الشعر ، فى كل شعرة ملايين الشعر .. وهكذا بفرضه وإن لم يكن له واقع ؛ لكن الشيء الواقع لا يمكن أن يوجد شيء بدون صفة .

لهذا ؛ كان الإيمان بصفات الله من الإيمان بالله ، لو لم يكن من صفات الله إلا أنه موجود واجب الوجود ، وهذا باتفاق الناس ، وعلى هذا ؛ فلا بد أن يكون له صفة .

المبحث الثانى : أن صفات الله عز وجل من الأمور الغيبية ، والواجب على الإنسان نحو الأمور الغيبية : أن يؤمن بها على ما جاءت دون أن يرجع إلى شيء سوى النصوص . قال الإمام أحمد : « لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ، لا يتجاوز القرآن والحديث » .

يعنى أننا لا نصف الله إلا بما وصف به نفسه فى كتابه ، أو على لسان رسوله ﷺ .

ويدل لذلك القرآن والعقل :

ففى القرآن : يقول الله ﷻ : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٣٣] ؛ فإذا وصفت الله بصفة لم يصف الله بها نفسه ؛ فقد قلت عليه مالا تعلم وهذا محرم بنص القرآن .

ويقول الله ﷻ : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] ، ولو وصفنا الله بما لم يصف به نفسه ؛ لكنا قَفَوْنَا ما ليس لنا به علم ، فوقعنا فيما نهى الله عنه .

وأما الدليل العقلى ؛ فلأن صفات الله ﷻ من الأمور الغيبية ولا يمكن فى الأمور الغيبية أن يدركها العقل ، وحينئذ لا نصف الله بما لم يصف به نفسه ، ولا نكيف صفاته ؛ لأن ذلك غير ممكن .

نحن الآن لا ندرك ما وصف الله به نعيم الجنة من حيث الحقيقة مع أنه مخلوق ، فى الجنة فاكهة ونخل ورمان وسرر وأكواب وحور ونحن لا ندرك حقيقة هذه الأشياء ، ولو قيل : صفها لنا ؛ لا نستطيع وصفها ؛ لقوله تعالى : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة : ١٧] ، ولقوله تعالى فى الحديث القدسى : « أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »[١] .

فإذا كان هذا فى المخلوق الذى وصف بصفات معلومة المعنى ولا تُعلم حقيقتها ؛ فكيف بالخالق ؟ !

مثال آخر : الإنسان فيه روح ، لا يحيا إلا بها ، لولا أن الروح فى بدنه ما حيى ولا يستطيع أن يصف الروح لو قيل له : ما هذه الروح التى بك ؟ ما هى التى لو نزعت منك ؛ صرت جثة ، وإذا بقيت فأنت إنسان تعقل وتفهم وتدرك ؟ لجلس ينظر ويفكر فلا يستطيع أن يصفها أبدًا مع أنها قريبة منه ؛ فى نفسه وبين جنبيه ، ويعجز عن إدراكها مع أنها حقيقة ؛ يعنى : شىء يرى ؛ كما أخبر النبى عليه الصلاة والسلام بـ : « أن الروح إذا قبض ؛ تبعه البصر »[٢] ؛ فالإنسان يرى نفسه وهى مقبوضة ، ولهذا تبقى العين مفتوحة عند الموت تشاهد الروح وهى قد خرجت ، وتؤخذ هذه الروح وتجعل فى كفن ويُصعد بها إلى الله ومع ذلك ما يستطيع أن يصفها وهى بين جنبيه ؛ فكيف يحاول أن يصف الرب بأمر لم يصف به نفسه ! ولا بد إذن تحقق ثبوت الصفات لله .

المبحث الثالث : أننا لا نصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه .

(١) أخرجه مسلم (٣٢٤٤) ، ومسلم (٢٨٢٤) .

(٢) أخرجه مسلم (٩٢٠) .

ودليل ذلك أيضا من السمع والعقل :

ذكرنا من السمع آيتين .

وأما من العقل ؛ إن هذا أمر غيبي ، لا يمكن إدراكه بالعقل ، وضربنا لذلك مثلين .

المبحث الرابع : وجوب إجراء النصوص الواردة فى الكتاب والسنة على ظاهرها ، لا نتعداها .

مثال ذلك : لما وصف الله نفسه بأن له عينًا ؛ هل نقول : المراد بالعين الرؤية لا حقيقة العين ؟ لو قلنا ذلك ؛ ما وصفنا الله بما وصف به نفسه .

ولما وصف الله نفسه بأن له يدين : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة : ٦٤] ؛ لو قلنا : إن الله تعالى ليس له يد حقيقة ، بل المراد باليد ما يسبغه من النعم على عباده ؛ فهل وصفنا الله بما وصف به نفسه ؟ لا !

المبحث الخامس : عموم كلام المؤلف يشمل كل ما وصف الله به نفسه من الصفات الذاتية المعنوية والخبرية والصفات الفعلية .

فالصفات الذاتية هى التى لم يزل ولا يزال متصفًا بها وهى نوعان : معنوية وخبرية :

فالمعنوية ؛ مثل : الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والحكمة .. وما أشبه ذلك ، وهذا على سبيل التمثيل لا الحصر .

والخبرية ؛ مثل : اليدين ، والوجه ، والعينين ... وما أشبه ذلك مما سماه ، نظيره أبعاض وأجزاء لنا .

فالله تعالى لم يزل له يدان ووجه وعينان لم يحدث له شيء من ذلك بعد أن لم يكن ، ولن ينفك عن شيء منه ؛ كما أن الله لم يزل حيًا ولا يزال حيًا ، ولم يزل عالمًا ولا يزال عالمًا ، ولم يزل قادرًا ولا يزال قادرًا .. وهكذا ؛ يعنى ليس حياته تتجدد ، ولا قدرته تتجدد ، ولا سمعه يتجدد بل هو موصوف بهذا أزلا وأبدًا ، وتجدد المسموع لا يستلزم تجدد السمع ؛ فأنا مثلا عندما أسمع الأذان الآن فهذا ليس معناه أنه حدث لى سمع جديد عند سماع الأذان بل هو منذ خلقه الله فيَّ لكن المسموع يتجدد وهذا لا أثر له فى الصفة .

واصطلح العلماء رحمهم الله على أن يسموها الصفات الذاتية ؛ قالوا : لأنها ملازمة للذات ، لا تنفك عنها .

والصفات الفعلية هى الصفات المتعلقة بمشيئته ، وهى نوعان :

صفات لها سبب معلوم ؛ مثل : الرضا ؛ فالله ﷻ إذا وجد سبب الرضا ؛ رضى ؛ كما قال تعالى : ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر : ٧] .

وصفات ليس لها سبب معلوم ؛ مثل : النزول إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر[1] .

ومن الصفات ما هو صفة ذاتية وفعلية باعتبارين ؛ فالكلام صفة فعلية باعتبار آحاده لكن باعتبار أصله صفة ذاتية ؛ لأن اللّه لم يزل ولا يزال متكلما لكنه يتكلم بما شاء متى شاء ؛ كما سيأتى فى بحث الكلام إن شاء اللّه تعالى .

اصطلح العلماء رحمهم اللّه أن يسموا هذه الصفات الصفات الفعلية ؛ لأنها من فعله سبحانه وتعالى .

ولها أدلة كثيرة من القرآن ؛ مثل : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة : ١١٩] ، ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة : ٤٦] ، ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [المائدة : ٨٠] .

وليس فى إثباتها للّه تعالى نقص بوجه من الوجوه بل هذا من كماله أن يكون فاعلا لما يريد .

وأولئك القوم المحرفون يقولون : إثباتها من النقص ! ولهذا ينكرون جميع الصفات الفعلية ؛ يقولون : لا يجيء ولا يرضى ، ولا يسخط ولا يكره ولا يحب .. ينكرون كل هذه ؛ بدعوى أن هذه حادثة والحادث لا يقوم إلا بحادث وهذا باطل ؛ لأنه فى مقابلة النص ، وهو باطل بنفسه ؛ فإنه لا يلزم من حدوث الفعل حدوث الفاعل .

المبحث السادس : أن العقل لا مدخل له فى باب الأسماء والصفات :

لأن مدار إثبات الأسماء والصفات أو نفيها على السمع ؛ فعقولنا لا تحكم على اللّه أبدًا ؛ فالمدار إذن على السمع ؛ خلافًا للأشعرية والمعتزلة والجهمية وغيرهم من أهل التعطيل ، الذين جعلوا المدار فى إثبات الصفات أو نفيها على العقل ، فقالوا : ما اقتضى العقل إثباته ؛ أثبتناه ، سواء أثبته اللّه لنفسه أم لا ! وما اقتضى نفيه ؛ نفيناه ، وإن أثبته اللّه ! وما لا يقتضى العقل إثباته ولا نفيه ؛ فأكثرهم نفاه ، وقال : إن دلالة العقل إيجابية ؛ فإن أوجب الصفة ؛ أثبتناها ، وإن لم يوجبها ؛ نفيناها ! ومنهم من توقف فيه ، فلا يثبتها ؛ لأن العقل لا يثبتها لكن لا ينكرها ؛ لأن العقل لا ينفيها ، ويقول : نتوقف ! لأن دلالة العقل عند هذا سلبية ، إذا لم يوجب ؛ يتوقف ولم ينف !

فصار هؤلاء يحكمون العقل فيما يجب أو يمتنع على اللّه ﷻ .

فيتفرع على هذا : ما اقتضى العقل وصف اللّه به ، وُصف اللّه به وإن لم يكن فى الكتاب والسنة ،

---

(١) أخرجه البخارى (١١٤٥) ، ومسلم (٧٥٨) .

وما اقتضى العقل نفيه عن الله ؛ نفوه ، وإن كان فى الكتاب والسنة .

ولهذا يقولون : ليس لله عين ، ولا وجه ، ولا له يد ، ولا استوى على العرش ، ولا ينزل إلى السماء الدنيا لكنهم يحرفون ويسمون تحريفهم تأويلا ولو أنكروا إنكار جحدٍ ؛ لكفروا ؛ لأنهم كذبوا لكنهم ينكرون إنكار ما يسمونه تأويلا وهو عندنا تحريف .

والحاصل أن العقل لا مجال له فى باب أسماء الله وصفاته فإن قلت : قولك هذا يناقض القرآن ، لأن الله يقول : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾ [المائدة : ٥٠] والتفضيل بين شيء وآخر مرجعه إلى العقل وقال ﷻ : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل : ٦٠] وقال : ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل : ١٧] وأشباه ذلك مما يحيل الله به على العقل فيما يثبته لنفسه وما ينفيه عن الآلهة المدعاة ؟

فالجواب أن نقول : إن العقل يدرك ما يجب لله سبحانه وتعالى ويمتنع عليه على سبيل الإجمال لا على سبيل التفصيل ؛ فمثلا : العقل يدرك بأن الرب لا بد أن يكون كامل الصفات ، لكن هذا لا يعنى أن العقل يثبت كل صفة بعينها أو ينفيها لكن يثبت أو ينفى على سبيل العموم أن الرب لا بد أن يكون كامل الصفات سالمًا من النقص .

فمثلًا : يدرك بأنه لا بد أن يكون الرب سميعًا بصيرًا ؛ قال إبراهيم لأبيه : ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ [مريم : ٤٢] .

ولابد أن يكون خالقًا ؛ لأن الله قال : ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل : ١٧] ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل : ٢٠] . [فالعقل] يدرك هذا ، ويدرك بأن الله سبحانه وتعالى يمتنع أن يكون حادثًا بعد العدم ؛ لأنه نقص ، ولقوله تعالى محتجًا على هؤلاء الذين يعبدون الأصنام : ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل : ٢٠] ؛ إذن يمتنع أن يكون الخالق حادثًا بالعقل .

العقل أيضًا يدرك بأن كل صفة نقص فهى ممتنعة على الله ؛ لأن الرب لا بد أن يكون كاملا فيدرك بأن الله ﷻ مسلوب عنه العجز ؛ لأنه صفة نقص ، إذا كان الرب عاجزًا وعُصى وأراد أن يعاقب الذى عصاه وهو عاجز ؛ فلا يمكن !

إذن ؛ العقل يدرك بأن العجز لا يمكن أن يوصف الله به ، والعمى كذلك والصّمم كذلك والجهل كذلك . . . وهكذا على سبيل العموم ندرك ذلك ، لكن على سبيل التفصيل لا يمكن أن ندركه فنتوقف فيه على السمع .

سؤال : هل كل ما هو كمال فينا يكون كمالا فى حق الله ، وهل كل ما هو نقص فينا يكون نقصًا فى حق الله ؟

الجواب : لا ؛ لأن المقياس فى الكمال والنقص ليس باعتبار ما يضاف للإنسان ؛ لظهور الفرق بين الخالق والمخلوق ، لكن باعتبار الصفة من حيث هى صفة ؛ فكل صفة كمال ؛ فهى ثابتة للّٰه سبحانه وتعالى .

فالأكل والشرب بالنسبة للخالق نقص ، لأن سببهما الحاجة ، واللّٰه تعالى غنى عما سواه ، لكن هما بالنسبة للمخلوق كمال ولهذا ؛ إذا كان الإنسان لا يأكل ؛ فلا بد أن يكون عليلًا بمرض أو نحوه هذا نقص .

والنوم بالنسبة للخالق نقص ؛ وللمخلوق كمال ، فظهر الفرق .

والتكبر كمال للخالق ونقص للمخلوق ؛ لأنه لا يتم الجلال والعظمة إلا بالتكبر حتى تكون السيطرة كاملة ولا أحد ينازعه . . . ولهذا توعد اللّٰه تعالى من ينازعه الكبرياء والعظمة ؛ قال : « من نازعنى واحدًا منهما عذبته »[١] .

فالمهم أنه ليس كل كمال فى المخلوق يكون كمالا فى الخالق ولا كل نقص فى المخلوق يكون نقصًا فى الخالق إذا كان الكمال أو النقص اعتباريًا .

هذه ستة مباحث تحت قوله : « ما وصف به نفسه » وكلها مباحث هامة ، وقدمناها بين يدى العقيدة ؛ لأنه سينبنى عليها ما يأتى إن شاء اللّٰه تعالى .

قوله : « وبما وصفه به رسوله » :

ووصف رسول اللّٰه ﷺ لربه ينقسم إلى ثلاثة أقسام : إما بالقول ، أو بالفعل ، أو بالإقرار .

أ - أما القول ؛ مثل « ربنا اللّٰه الذى فى السماء تقدس اسمك ، أمرك فى السماء والأرض »[٢] وقوله فى يمينه : « لا ومقلب القلوب »[٣] .

ب - وأما الفعل ؛ فهو أقل من القول ؛ مثل إشارته إلى السماء يستشهد اللّٰه على إقرار أمّته بالبلاغ ، وهذا فى حجة الوداع فى عرفة ، خطب الناس ، وقال : « ألا هل بلغت ؟ » . قالوا : نعم ثلاث مرات . قال : « اللهم ! اشهد » يرفع إصبعه إلى السماء ، وينكتها إلى الناس[٤] . فرفع إصبعه إلى السماء ؛ هذا وصف اللّٰه تعالى بالعلو عن طريق الفعل .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٠) .
(٢) ضعيف أبى داود للألبانى (٨٣٩) .
(٣) أخرجه البخارى (٦٦١٧) .
(٤) أخرجه مسلم (١٢١٨) .

وجاءه رجل وهو يخطب الناس يوم الجمعة ؛ قال : يا رسول الله ! هلكت الأموال .. فرفع يديه[1] وهذا أيضًا وصف لله بالعلو عن طريق الفعل .

وغير ذلك من الأحاديث التى فيها فعل النبى عليه الصلاة والسلام إذا ذكر صفة من صفات الله .

وأحيانًا يذكر الرسول عليه الصلاة والسلام الصفة من صفات الله بالقول ويؤكدها بالفعل ، وذلك حينما تلا قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء : ٥٨] فوضع إبهامه على أذنه اليمنى ، والتى تليها على عينه وهذا إثبات للسمع والبصر بالقول والفعل[2] .

وحينئذٍ نقول : إن إثبات الرسول عليه الصلاة والسلام للصفات يكون بالقول ويكون بالفعل ؛ مجتمعين ومنفردين .

جـ - أما الإقرار ؛ فهو قليل بالنسبة لما قبله ؛ مثل : إقراره الجارية التى سألها : « أين الله ؟ » قالت : فى السماء . فأقرها وقال : « أعتقها »[3] .

وكإقراره الحَبْر من اليهود الذى جاء وقال للرسول عليه الصلاة والسلام : إننا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع ، والأرضين على إصبع والثرى على إصبع .. آخر الحديث ، فضحك النبى ﷺ تصديقًا لقوله[4] ، وهذا إقرار .

إذا قال قائل : ما وجه وجوب الإيمان بما وصف الرسول به ربه أو : ما دليله ؟

نقول : دليله قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء : ١٣٦] ، وكل آية فيها ذكر أن الرسول عليه الصلاة والسلام مبلغ ؛ فهى دال على وجوب قبول ما أخبر به من صفات الله ؛ لأنه أخبر بها وبلغها إلى الناس ، وكل ما أخبر به ؛ فهو تبليغ من الله ، ولأن الرسول عليه الصلاة والسلام أعلم الناس بالله وأنصح الناس لعباد الله وأصدق الناس فيما قال ، وأفصح الناس فى التعبير ؛ فاجتمع فى حقه من صفات القبول أربع : العلم والنصح ، والصدق ، والبيان ؛ فيجب علينا أن نقبل كل ما أخبر به عن ربه ، وهو - والله - أفصح وأنصح وأعلم من أولئك القوم الذين تبعهم هؤلاء من المناطقة والفلاسفة ، ومع هذا يقول : « سبحانك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »[5] .

(١) أخرجه البخارى (٩٣٣) ، ومسلم (٨٩٧) .

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٢٨) .

(٣) أخرجه مسلم (٥٣٧) .

(٤) أخرجه البخارى (٤٨١١) ، ومسلم (٢٧٨٦) .

(٥) أخرجه مسلم (٤٨٦) .

قوله : « من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل » :

في هذه الجملة بيان صفة إيمان أهل السنة بصفات الله تعالى ؛ فأهل السنة والجماعة يؤمنون بها إيمانًا خاليًا من هذه الأمور الأربعة : التحريف والتعطيل ، والتكييف ، والتمثيل .

فالتحريف : التغيير وهو إما لفظي وإما معنوي ، والغالب أن التحريف اللفظي لا يقع ، وإذا وقع ؛ فإنما يقع من جاهل ؛ فالتحريف اللفظي يعني تغيير الشكل ؛ فمثلا : فلا تجد أحدًا يقول : « الحَمْدَ للهِ رَب العالمينَ » بفتح الدال ؛ إلا إذا كان جاهلًا .. هذا الغالب ! لكن التحريف المعنوي هو الذي وقع فيه كثير من الناس . فأهل السنة والجماعة إيمانهم بما وصف الله به نفسه خال من التحريف ؛ يعني : تغيير اللفظ أو المعنى .

وتغيير المعنى يسميه القائلون به تأويلا ويسمون أنفسهم بأهل التأويل ؛ لأجل أن يصبغوا هذا الكلام صبغة القبول ؛ لأن التأويل لا تنفر منه النفوس ولا تكرهه ، لكن ما ذهبوا إليه في الحقيقة تحريف ؛ لأنه ليس عليه دليل صحيح ؛ إلا أنهم لا يستطيعون أن يقولوا : تحريفًا ! ولو قالوا : هذا تحريف ؛ لأعلنوا على أنفسهم برفض كلامهم .

ولهذا عبر المؤلف رحمه الله بالتحريف دون التأويل مع أن كثيرًا ممن يتكلمون في هذا الباب يعبرون بنفي التأويل ؛ يقولون : من غير تأويل ، لكن ما عبر به المؤلف أولى لوجوه أربعة :

الوجه الأول : أنه اللفظ الذي جاء به القرآن ؛ فإن الله تعالى قال : ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء : ٤٦] ، والتعبير الذي عبر به القرآن أولى من غيره ؛ لأنه أدل على المعنى .

الوجه الثاني : أنه أدل على الحال ، وأقرب إلى العدل ؛ فالمؤول بغير دليل ليس من العدل أن نسميه مؤولا ، بل العدل أن نصفه بما يستحق وهو أن يكون محرفا .

الوجه الثالث : أن التأويل بغير دليل باطل ، يجب البعد عنه والتنفير منه ، واستعمال التحريف فيه أبلغ تنفيرًا من التأويل ؛ لأن التحريف لا يقبله أحد ، لكن التأويل لين ، تقبله النفس ، وتستفصل عن معناه ، أما التحريف ؛ بمجرد ما نقول : هذا تحريف . ينفر الإنسان منه ، إذا كان كذلك ؛ فإن استعمال التحريف فيمن خالفوا طريق السلف أليق من استعمال التأويل .

الوجه الرابع : أن التأويل ليس مذمومًا كله ؛ قال النبي عليه الصلاة والسلام : « اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل » . وقال الله تعالى : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران : ٧] ؛ فامتدحهم بأنهم يعلمون التأويل .

والتأويل ليس كله مذمومًا ؛ لأن التأويل له معان متعددة ، يكون بمعنى التفسير ، ويكون بمعنى العاقبة والمآل ، ويكون بمعنى صرف اللفظ عن ظاهره .

أ- يكون بمعنى التفسير ؛ كثير من المفسرين عندما يفسرون الآية ؛ يقولون : تأويل قوله تعالى كذا وكذا . ثم يذكرون المعنى وسمى التفسير تأويلا ؛ لأننا أوّلنا الكلام ؛ أى : جعلناه يؤول إلى معناه المراد به .

ب- تأويل بمعنى عاقبة الشيء ، وهذا إن ورد فى طلب ؛ فتأويله فعله إن كان أمرًا وتركه إن كان نهيًا ، وإن ورد فى خبر ؛ فتأويله وقوعه .

مثاله فى الخبر قوله تعالى : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف : ٥٣] ؛ فالمعنى : ما ينتظر هؤلاء إلا عاقبة ومآل ما أخبروا به ، يوم يأتى ذلك المخبر به ؛ يقول الذين نسوه من قبل : قد جاءت رسل ربنا بالحق .

ومنه قول يوسف لما خر له أبواه وإخوته سجدًا قال : ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف : ١٠٠] : هذا وقوع رؤياى ؛ لأنه قال ذلك بعد أن سجدوا له .

ومثاله فى الطلب قول عائشة ﵂ : كان النبى ﷺ يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده بعد أن أنزل عليه قوله تعالى : ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر : ١] ؛ يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي » ؛ يتأول القرآن[1] . أى : يعمل به .

جـ- المعنى الثالث للتأويل : صرف اللفظ عن ظاهره وهذا النوع ينقسم إلى محمود ومذموم ؛ فإن دل عليه دليل ؛ فهو محمود النوع ويكون من القسم الأول ، وهو التفسير ، وإن لم يدل عليه دليل ؛ فهو مذموم ، ويكون من باب التحريف ، وليس من باب التأويل .

وهذا الثانى هو الذى درج عليه أهل التحريف فى صفات الله ﷻ .

مثاله قوله تعالى : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه : ٥] : ظاهر اللفظ أن الله تعالى استوى على العرش : استقر عليه ، وعلا عليه ؛ فإذا قال قائل : معنى ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ : استولى على العرش ؛ فنقول : هذا تأويل عندك لأنك صرفت اللفظ عن ظاهره ، لكن هذا تحريف فى الحقيقة ؛ لأنه ما دل عليه دليل ، بل الدليل على خلافه ؛ كما سيأتى إن شاء الله .

فأما قوله تعالى : ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل : ١] ؛ فمعنى : ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ . أى سيأتى أمر الله ؛ فهذا مخالف لظاهر اللفظ لكن عليه دليل وهو قوله : ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ .

وكذلك قوله تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل : ٩٨] ؛ أى : إذا أردت أن تقرأ ، وليس المعنى : إذا أكملت القراءة ؛ قل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ لأننا علمنا

---

(١) أخرجه البخارى (٨١٧) ، ومسلم (٤٨٤) .

من السنة أن النبي عليه الصلاة والسلام إذا أراد أن يقرأ ؛ استعاذ بالله من الشيطان الرجيم ، لا إذا أكمل القراءة ؛ فالتأويل صحيح .

وكذلك قول أنس بن مالك : كان النبي ﷺ إذا دخل الخلاء ؛ قال : « أعوذ بالله من الخبث والخبائث »[1] ؛ فمعنى : « إذا دخل » . إذا أراد أن يدخل ؛ لأن ذكر الله لا يليق داخل هذا المكان ؛ فلهذا حملنا قوله : « إذا دخل » على : إذا أراد أن يدخل . هذا التأويل الذى دل عليه الدليل صحيح ، ولا يعدو أن يكون تفسيرًا .

ولذلك قلنا : إن التعبير بالتحريف عن التأويل الذى ليس عليه دليل صحيح أولى ، لأنه الذى جاء به القرآن ، ولأنه ألصق بطريق المحرف ، ولأنه أشد تنفيرًا عن هذه الطريقة المخالفة لطريق السلف ، ولأن التحريف كله مذموم ؛ بخلاف التأويل ؛ فإن منه ما يكون مذمومًا ومحمودًا ؛ فيكون التعبير بالتحريف أولى من التعبير بالتأويل من أربعة أوجه .

التعطيل بمعنى التخلية والترك ؛ كقوله تعالى : ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ [الحج : ٤٥] ؛ أى : مخلاة متروكة .

والمراد بالتعطيل : إنكار ما أثبت الله لنفسه من الأسماء والصفات ؛ سواء كان كليًا أو جزئيًا ، وسواء كان ذلك بتحريف أو بجحود ، هذا كله يسمى تعطيلا .

فأهل السنة والجماعة لا يعطلون أى اسم من أسماء الله ، أو أى صفة من صفات الله ولا يجحدونها ، بل يقرون بها إقرارًا كاملا .

فإن قلت : ما الفرق بين التعطيل والتحريف ؟

قلنا : التحريف فى الدليل والتعطيل فى المدلول ؛ فمثلا :

إذا قال قائل : معنى قوله تعالى : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة : ٦٤] ؛ أى بل قوتاه هذا محرف للدليل ، ومعطل للمراد الصحيح ؛ لأن المراد اليد الحقيقية ؛ فقد عطل المعنى المراد ؛ وأثبت معنى غير المراد . وإذا قال : بل يداه مبسوطتان ؛ لا أدرى ! أفوض الأمر إلى الله ؛ لا أثبت اليد الحقيقية ، ولا اليد المحرف إليها اللفظ . نقول : هذا معطل ، وليس بمحرف ؛ لأنه لم يغير معنى اللفظ ولم يفسره بغير مراده ، لكن عطل معناه الذى يراد به ، وهو إثبات اليد لله ﷻ .

أهل السنة والجماعة يتبرءون من الطريقتين : الطريقة الأولى : التى هى تحريف اللفظ بتعطيل معناه الحقيقى المراد إلى معنى غير مراد . والطريقة الثانية : وهى طريقة أهل التفويض ؛ فهم لا يفوضون

(١) أخرجه البخارى (١٤٢) ، ومسلم (٣٧٥) .

المعنى كما يقول المفوضة بل يقولون : نحن نقول : ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾ ، أى : يداه الحقيقيتان ﴿مَبْسُوطَتَانِ﴾ ، وهما غير القوة والنعمة .

فعقيدة أهل السنة والجماعة بريئة من التحريف ومن التعطيل .

وبهذا نعرف ضلال أو كذب من قالوا : إن طريقة السلف هى التفويض . هؤلاء ضلوا إن قالوا ذلك عن جهل بطريقة السلف ، وكذبوا إن قالوا عن عمد ، أو نقول : كذبوا على الوجهين على لغة الحجاز ؛ لأن الكذب عند الحجازيين بمعنى الخطأ .

وعلى كل حال ؛ لاشك أن الذين يقولون : إن مذهب أهل السنة هو التفويض ؛ أنهم أخطئوا ؛ لأن مذهب أهل السنة هو إثبات المعنى وتفويض الكيفية .

وليعلم أن القول بالتفويض - كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية - من شرِّ أقوال أهل البدع والإلحاد ! عندما يسمع الإنسان التفويض ؛ يقول : هذا جيد ، أسلم من هؤلاء وهؤلاء ، لا أقول بمذهب السلف ، ولا أقول بمذهب أهل التأويل ، أسلك سبيلا وسطًا وأسلم من هذا كله ، وأقول : اللَّه أعلم ولا ندرى ما معناها . لكن يقول شيخ الإسلام : هذا من شر أقوال أهل البدع والإلحاد !

وصدق رحمه الله . وإذا تأملته وجدته تكذيبًا للقرآن وتجهيلا للرسول ﷺ واستطالة للفلاسفة .

تكذيب للقرآن ؛ لأن اللَّه يقول : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل : ٨٩] ، وأى بيان فى كلمات لا يدرى ما معناها ؟ ! وهى من أكثر ما يرد فى القرآن ، وأكثر ما ورد فى القرآن أسماء اللَّه وصفاته ، إذا كنا لا ندرى ما معناها ؛ هل يكون القرآن تبيانًا لكل شىء ؟ ! أين البيان ؟ !

إن هؤلاء يقولون : إن الرسول ﷺ لا يدرى عن معانى القرآن فيما يتعلق بالأسماء والصفات ! وإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام لا يدرى ؛ فغيره من باب أولى .

وأعجب من ذلك يقولون : الرسول ﷺ يتكلم فى صفات اللَّه ، ولا يدرى ما معناه ! يقول : « ربنا اللَّه الذى فى السماء » ، وإذا سئل عن هذا ؟ قال : لا أدرى ! وكذلك فى قوله : « ينزل ربنا إلى السماء الدنيا »[1] وإذا سئل ما معنى « ينزل ربنا » ؟ قال : لا أدرى .. وعلى هذا ؛ فقس .

وهل هناك قدح أعظم من هذا القدح بالرسول ﷺ بل هذا من أكبر القدح ! رسول من عند اللَّه ليبين للناس وهو لا يدرى ما معنى آيات الصفات وأحاديثها وهو يتكلم بالكلام ولا يدرى معنى ذلك كله !

فهذان وجهان : تكذيب القرآن وتجهيل الرسول .

---

(١) أخرجه البخارى (١١٤٥) ، ومسلم (٧٥٨) .

وفيه فتح الباب للزنادقة الذين تطاولوا على أهل التفويض ، وقالوا : أنتم لا تعرفون شيئًا ، بل نحن الذين نعرف ، وأخذوا يفسرون القرآن بغير ما أراد اللّٰه ، وقالوا : كوننا نثبت معانى للنصوص خير من كوننا أميين لا نعرف شيئًا . وذهبوا يتكلمون بما يريدون من معنى كلام اللّٰه وصفاته ! ! ولا يستطيع أهل التفويض أن يردوا عليهم ؛ لأنهم يقولون : نحن لا نعلم ماذا أراد اللّٰه ؛ فجائز أن يكون الذى يريد اللّٰه هو ما قلتم ! ففتحوا باب شرور عظيمة ، ولهذا جاءت العبارة الكاذبة : « طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم » ! .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : « هذه قالها بعض الأغبياء » . وهوصحيح ؛ أن القائل غبى .

هذه الكلمة من أكذب ما يكون نطقًا ومدلولا ، « طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم » . كيف تكون أعلم وأحكم وتلك أسلم ؟ ! لا يوجد سلامة بدون علم وحكمة أبدًا ! فالذى لا يدرى عن الطريق ؛ لا يسلم ؛ لأنه ليس معه علم ، لو كان معه علم وحكمة ؛ لسلم ؛ فلا سلامة إلا بعلم وحكمة .

إذا قلت : إن طريقة السلف أسلم ؛ لزم أن تقول : هى أعلم وأحكم . وإلا لكنت متناقضًا .

إذن ؛ فالعبارة الصحيحة : « طريقة السلف أسلم وأعلم وأحكم » ، وهذا معلوم .

وطريقة الخلف ما قاله القائل :

لعمرى لقد طفت المعاهد كلها ... وسيرت طرفى بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعا كف حائر ... على ذقن أو قارعًا سن نادم

هذه الطريقة التى يقول عنها : إنه ما وجد إلا واضعًا كف حائر على ذقن . وهذا ليس عنده علم ، أو آخر : قارعًا سن نادم لأنه لم يسلك طريق السلامة أبدًا .

والرازى وهو من كبرائهم يقول :

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعى العالمين ضلال

وأرواحنا فى وحشة من جسومنا ... وغاية دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ثم يقول : « لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ؛ فما رأيتها تشفى عليلا ولا تروى غليلا ، ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن ، أقرأ فى الإثبات : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه : ٥] ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر : ١٠] ، واقرأ فى النفى : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه : ١١٠] ، ومن جرب مثل تجربتى ؛ عرف مثل معرفتي » أهؤلاء نقول : إن طريقتهم أعلم وأحكم ؟ !

الذى يقول : « إنى أتمنى أن أموت على عقيدة عجائز نيسابور » . والعجائز من عوام الناس ، يتمنى

أنه يعود إلى الأميات ! هل يقال : إنه أعلم وأحكم ؟ !

أين العلم الذى عندهم ؟ !

فتبين أن طريقة التفويض طريق خاطئ ؛ لأنه يتضمن ثلاث مفاسد : تكذيب القرآن ، وتجهيل الرسول ، واستطالة الفلاسفة ! وأن الذين قالوا : إن طريقة السلف هى التفويض كذبوا على السلف ، بل هم يثبتون اللفظ والمعنى ويقررونه ، ويشرحونه بأوفى شرح .

أهل السنة والجماعة لا يحرفون ولا يعطلون ، ويقولون بمعنى النصوص كما أراد الله : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف : ٥٤] ؛ بمعنى : علا عليه وليس معناه : استولى . ﴿بِيَدِهِۦ﴾ : يد حقيقية وليست القوة ولا نعمة ؛ فلا تحريف عندهم ولا تعطيل .

« تكييف » : لم ترد فى الكتاب والسنة ، لكن ورد ما يدل على النهى عنها .

التكييف : هو أن تذكر كيفية الصفة ، ولهذا تقول : كيَّف يكيِّفُ تكييفًا ، أى ذكر كيفية الصفة .

التكييف يسأل عنه بـ : (كيف) ؛ فإذا قلت مثلا : كيف جاء زيد ؟ تقول : راكبًا . إذن : كيفت مجيئه . كيف لون السيارة ؟ أبيض . فذكرت اللون .

أهل السنة والجماعة لا يكيفون صفات الله ؛ مستندين فى ذلك إلى الدليل السمعى والدليل العقلى :

أما الدليل السمعى ؛ فمثل قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٣٣] ، والشاهد فى قوله ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

فإذا جاء رجل وقال : إن الله استوى على العرش ، على هذه الكيفية ووصف كيفية معينة : نقول : هذا قد قال على الله ما لا يعلم ! هل أخبرك الله بأنه استوى على هذه الكيفية ؟ ! لا ؛ أخبرنا الله بأنه استوى ولم يخبرنا كيف استوى . فنقول : هذا تكييف وقول على الله بغير علم .

ولهذا قال بعض السلف : إذا قال لك الجهمى : إن الله ينزل إلى السماء ؛ فكيف ينزل ؟ فقل : إن الله أخبرنا أنه ينزل ، ولم يخبرنا كيف ينزل . وهذه قاعدة مفيدة .

دليل آخر من السمع : قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] : لا تتبع ما ليس لك به علم ؛ ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ .

وأما الدليل العقلى ؛ فكيفية الشىء الشىء لا تدرك إلا بواحد من أمور ثلاثة : مشاهدته ، أو مشاهدة نظيره ، أو خبر الصادق عنه أى : إما أن تكون شاهدته أنت وعرفت كيفيته . أو شاهدت نظيره ؛ كما لو

قال واحد : إن فلانا اشترى سيارة داتسون موديل ثمان وثمانين رقم ألفين . فتعرف كيفيتها ؛ لأن عندك مثلها ، أو خبر صادق عنه ؛ أتاك رجل صادق وقال : إن سيارة فلان صفتها كذا وكذا .. ووصفها تماما ؛ فتدرك الكيفية الآن .

ولهذا أيضًا قال بعض العلماء جوابًا لطيفًا : إن معنى قولنا : « بدون تكييف » : ليس معناه ألا نعتقد لها كيفية ، بل نعتقد لها كيفية لكن المنفى علمنا بالكيفية ؛ لأن استواء اللَّه على العرش لا شك أن له كيفية ، لكن لا تُعلم ؛ نزوله إلى السماء الدنيا له كيفية ، لكن لا تُعلم ؛ لأنه ما من موجود إلا وله كيفية ، لكنها قد تكون معلومة ، وقد تكون مجهولة .

سئل الإمام مالك رحمه الله عن قوله تعالى : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه : ٥] : كيف استوى ؟ فأطرق مالك برأسه حتى علاه العرق ، ثم رفع رأسه وقال : « الاستواء غير مجهول » ؛ أى : من حيث المعنى معلوم ؛ لأن اللغة العربية بين أيدينا ، كل المواضع التى وردت فيها ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ معداة بـ : « على » معناها العلو فقال : « الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول » ؛ لأن العقل لا يدرك الكيف ؛ فإذا انتفى الدليل السمعى والعقلى عن الكيفية ؛ وجب الكف عنها ، « والإيمان به واجب » ؛ لأن اللَّه أخبر به عن نفسه ، فوجب تصديقه ، « والسؤال عنه بدعة »(1) : السؤال عن الكيفية بدعة ؛ لأن من هم أحرص منا على العلم ما سألوا عنها وهم الصحابة لما قال اللَّه : ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف : ٥٤] ؛ عرفوا عظمة اللَّه ﷻ ، ومعنى الاستواء على العرش ، وأنه لا يمكن أن تسأل : كيف استوى ؟ لأنك لن تدرك ذلك فنحن إذا سُئلنا ؛ فنقول : هذا السؤال بدعة .

وكلام مالك رحمه الله ميزان لجميع الصفات ؛ فإن قيل لك مثلا : إن اللَّه ينزل إلى السماء الدنيا ؛ كيف ينزل ؟ فالنزول غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة والذين يسألون : كيف يمكن النزول وثلث الليل يتنقل ؟ ! فنقول : السؤال هذا بدعة كيف تسأل عن شيء ما سأل عنه الصحابة وهم أحرص منك على الخير وعلى العلم بما يجب للَّه ﷻ ، ولسنا بأعلم من الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ فهو لم يعلمهم . فسؤالك هذا بدعة ، ولولا أننا نحسن الظن بك ؛ لقلنا ما يليق بك بأنك رجل مبتدع .

والإمام مالك رحمه الله قال : « ما أراك إلا مبتدعًا » . ثم أمر به فأُخرج ؛ لأن السلف يكرهون أهل البدع وكلامهم واعتراضاتهم وتقديراتهم ومجادلاتهم .

فأنت يا أخى عليك فى هذا الباب بالتسليم ؛ فمن تمام الإسلام للَّه ﷻ ألا تبحث فى هذه الأمور ، ولهذا أحذركم دائمًا من البحث فيما يتعلق بأسماء اللَّه وصفاته على سبيل التعنت والتنطع والشيء

(1) أخرجه أبو نعيم فى « الحلية » (٦/٣٢٥) ، والبيهقى (٤٠٨) .

الذى ما سأل الصحابة عنه ؛ لأننا إذا فتحنا على أنفسنا هذه الأبواب ؛ انفتحت علينا الأبواب ، وتهدمت الأسوار ، وعجزنا عن ضبط أنفسنا ؛ فلذلك قل : سمعنا وأطعنا وآمنا وصدقنا ؛ آمنا وصدقنا بالخبر وأطعنا الطلب وسمعنا القول ؛ حتى تسلم !

وأى إنسان يسأل فيما يتعلق بصفات الله عن شيء ما سأل عنه الصحابة ؛ فقل كما قال الإمام مالك ؛ فإن لك سلفًا : السؤال عن هذا بدعة . وإذا قلت ذلك ؛ لن يلح عليك ، وإذا ألح ؛ فقل : يا مبتدع ! السؤال عنه بدعة ، اسأل عن الأحكام التى أنت مكلف بها ، أما أن تسأل عن شيء يتعلق بالرب ﷻ وبأسمائه وصفاته ، ولم يسأل عنه الصحابة ؛ فهذا لا نقبله منك أبدًا !

وهناك كلام للسلف يدل على أنهم يفهمون معانى ما أنزل الله على رسوله من الصفات ؛ كما نقل عن الأوزاعى وغيره ؛ نقل عنهم أنهم قالوا فى آيات الصفات وأحاديثها : « أمروها كما جاءت بلا كيف » . وهذا يدل على أنهم يثبتون لها معنى من وجهين :

أولا : أنهم قالوا : « أمروها كما جاءت » . ومعلوم أنها ألفاظ جاءت لمعانى ولم تأت عبثًا ، فإذا أمررناها كما جاءت ؛ لزم من ذلك أن نثبت لها معنى .

ثانيًا : قولهم : « بلا كيف » لأن نفى الكيفية يدل على وجود أصل المعنى ؛ لأن نفى الكيفية عن شيء لا يوجد لغو وعبث .

إذن ؛ فهذا الكلام المشهور عند السلف يدل على أنهم يثبتون لهذه النصوص معنى .

يعنى : ومن غير تمثيل ؛ فأهل السنة يتبرءون من تمثيل الله ﷻ بخلقه ؛ لا فى ذاته ولا فى صفاته . والتمثيل : ذكر مماثل للشيء ، وبينه وبين التكييف عموم وخصوص مطلق ، لأن كل ممثل مكيف ، وليس كل مكيف ممثلا ؛ لأن التكييف ذكر كيفية غير مقرونة بمماثل ؛ مثل أن تقول : لى قلم كيفيته كذا وكذا . فإن قرنت بمماثل ؛ صار تمثيلا ؛ مثل أن أقول : هذا القلم مثل هذا القلم ؛ لأنى ذكرت شيئًا مماثلا لشيء وعرفت هذا القلم بذكر مماثله .

وأهل السنة والجماعة يثبتون لله ﷻ الصفات بدون مماثلة ؛ يقولون : إن الله ﷻ له حياة وليست مثل حياتنا ، له علم وليس مثل علمنا ، له بصر وليس مثل بصرنا ، له وجه وليس مثل وجوهنا ، له يد وليست مثل أيدينا ... وهكذا جميع الصفات ؛ يقولون : إن الله ﷻ لا يماثل خلقه فيما وصف به نفسه أبدًا ، ولهم على ذلك أدلة سمعية وأدلة عقلية :

أ - الأدلة السمعية :

تنقسم إلى قسمين : خبر ، وطلب .

- فمن الخبر قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى : ١١] ، فالآية فيها نفى صريح

للتمثيل وقوله : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] ؛ فإن هذا وإن كان إنشاء ، لكنه بمعنى الخبر ؛ لأنه استفهام بمعنى النفى وقوله : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص : ٤] ؛ فهذه كلها تدل على نفى المماثلة ، وهى كلها خبرية .

– وأما الطلب ؛ فقال الله تعالى : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة : ٢٢] أى : نظراء مماثلين .
وقال : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل : ٧٤] .

فمن مثَّل الله بخلقه ؛ فقد كذب الخبر وعصى الأمر ولهذا أطلق بعض السلف القول بالتكفير لمن مثل الله بخلقه ، فقال نعيم بن حماد الخزاعى شيخ البخارى رحمه الله : « من شبه الله بخلقه ؛ فقد كفر » ؛ لأنه جمع بين التكذيب بالخبر وعصيان الطلب .

وأما الأدلة العقلية على انتفاء التماثل بين الخالق والمخلوق : فمن وجوه :

أولا : أن نقول : لا يمكن التماثل بين الخالق والمخلوق بأى حال من الأحوال لو لم يكن بينهما من التباين إلا أصل الوجود ؛ لكان كافيًا ، وذلك أن وجود الخالق واجب ؛ فهو أزلى أبدى ، ووجود المخلوق ممكن مسبوق بعدم ويلحقه فناء ؛ فما كانا كذلك لا يمكن أن يقال : إنهما متماثلان .

ثانيًا : أنا نجد التباين العظيم بين الخالق والمخلوق فى صفاته وفى أفعاله ؛ فى صفاته يسمع عز وجل كل صوت مهما خفى ومهما بعد ، لو كان فى قعار البحار ؛ لسمعه جل جلاله .

وأنزل الله قوله تعالى : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة : ١] ؛ تقول عائشة : « الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، إنى لفى الحجرة ، وإنه ليخفى على بعض حديثها » ، والله تعالى سمعها من على عرشه وبينه وبينها ما لا يعلم مداه إلا الله جل جلاله ؛ ولا يمكن أن يقول قائل : إن سمع الله مثل سمعنا .

ثالثًا : نقول : نحن نعلم أن الله تعالى مباين للخلق بذاته : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ﴾ [الزمر : ٦٧] ، ولا يمكن لأحد من الخلق أن يكون هكذا ؛ فإذا كان مباينًا للخلق فى ذاته ؛ فالصفات تابعة للذات ، فيكون أيضًا مباينًا للخلق فى صفاته جل جلاله ، ولا يمكن التماثل بين الخالق والمخلوق .

رابعًا : نقول : إننا نشاهد فى المخلوقات أشياء تتفق فى الأسماء وتختلف فى المسميات ؛ يختلف الناس فى صفاتهم : هذا قوى البصر وهذا ضعيفه ، وهذا قوى السمع وهذا ضعيفه ، هذا قوى البدن وهذا ضعيفه وهذا ذكر وهذه أنثى . . . وهكذا التباين فى المخلوقات التى من جنس واحد ؛ فما بالك بالمخلوقات المختلفة الأجناس ؟ فالتباين بينها أظهر ولهذا ؛ لا يمكن لأحد أن يقول : إن لى يدًا كيد الجمل ، أو لى يدًا كيد الذرة ، أو لى يدًا كيد الهر . فعندنا الآن إنسان وجمل وذرة وهر ، كل واحد له

يد مختلفة عن الثاني ، مع أنها متفقة في الاسم فنقول : إذا جاز التفاوت بين المسميات في المخلوقات مع اتفاق الاسم ؛ فجوازه بين الخالق والمخلوق من باب أولى . بل نحن نقول : إن التفاوت بين الخالق والمخلوق ليس جائزًا فقط ، بل هو واجب ؛ فعندنا أربعة وجوه عقلية كلها تدل على أن الخالق لا يمكن أن يماثل المخلوق بأى حال من الأحوال .

ربما نقول أيضًا : هناك دليل فطرى ، وذلك لأن الإنسان بفطرته بدون أن يلقن يعرف الفرق بين الخالق والمخلوق ولولا هذه الفطرة ؛ ما ذهب يدعو الخالق .

فتبين الآن أن التمثيل منتف سمعًا وعقلا وفطرةً .

فإن قال قائل : إن النبى ﷺ حدثنا بأحاديث تشتبه علينا ؛ هل هى تمثيل أو غير تمثيل ؟ ونحن نضعها بين أيديكم :

- قال النبى ﷺ « إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر ، لا تضامون فى رؤيته »[1] ؛ فقال : « كما » والكاف للتشبيه ، وهذا رسول الله ﷺ ، ونحن من قاعدتنا أن نؤمن بما قال الرسول كما نؤمن بما قال الله ؛ فأجيبوا عن هذا الحديث ؟

نقول : نجيب عن هذا الحديث وعن غيره بجوابين : الجواب الأول مجمل والثانى مفصل .

فالأول المجمل : أنه لا يمكن أن يقع تعارض بين كلام الله وكلام رسوله الذى صح عنه أبدًا ؛ لأن الكل حق ، والحق لا يتعارض ، والكل من عند الله ، وما عند الله تعالى لا يتناقض ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء : ٨٢] ؛ فإن وقع ما يوهم التعارض فى فهمك ؛ فاعلم أن هذا ليس بحسب النص ، ولكن باعتبار ما عندك ؛ فأنت إذا وقع التعارض عندك فى نصوص الكتاب والسنة ؛ فإما لقلة العلم ، وإما لقصور الفهم ، وإما للتقصير فى البحث والتدبر ، ولو بحثت وتدبرت ؛ لوجدت أن التعارض الذى توهمته لا أصل له ، وإما لسوء القصد والنية ؛ بحيث تستعرض ما ظاهره التعارض لطلب التعارض ، فتحرم التوفيق ؛ كأهل الزيغ الذين يتبعون المتشابه .

ويتفرع على هذا الجواب المجمل أنه يجب عليك عند الاشتباه أن ترد المشتبه إلى المحكم ؛ لأن هذه الطريق طريق الراسخين فى العلم ؛ قال الله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران : ٧] ، ويحملون المتشابه على المحكم حتى يبقى النص كله محكمًا .

---

(١) أخرجه البخارى (٥٥٤) ، ومسلم (٦٣٣) .

وأما الجواب المفصل ؛ فأن نجيب عن كل نص بعينه فنقول :

إن قول النبي ﷺ : « إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته » . ليس تشبيهًا للمرئي بالمرئي ، ولكنه تشبيه للرؤية بالرؤية ؛ « سترون .. كما ترون » ؛ فالكاف في : « كما ترون » : داخله على مصدر مؤول ؛ لأن (ما) مصدرية ، وتقدير الكلام : كرؤيتكم القمر ليلة البدر وحينئذ يكون التشبيه للرؤية بالرؤية لا المرئي بالمرئي ، والمراد أنكم ترونه رؤية واضحة كما ترون القمر ليلة البدر ولهذا أعقبه بقوله : « لا تضامون في رؤيته » أو : « لا تضارون في رؤيته » . فزال الإشكال الآن .

– قال النبي ﷺ : « إن الله خلق آدم على صورته »[1] ، والصورة مماثلة للأخرى ، ولا يعقل صورة إلا مماثلة للأخرى ، ولهذا أكتب لك رسالة ، ثم تدخلها الآلة الفوتوغرافية ، وتخرج الرسالة ، فيقال : هذه صورة هذه ، ولا فرق بين الحروف والكلمات ؛ فالصورة مطابقة للصورة ، والقائل : « إن الله خلق آدم على صورته » : الرسول عليه الصلاة والسلام أعلم وأصدق وأنصح وأفصح الخلق .

والجواب المجمل أن نقول : لا يمكن أن يناقض هذا الحديث قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى : ١١] ، فإن يسر الله لك الجمع ؛ فاجمع ، وإن لم يتيسر ؛ فقل : ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران : ٧] ، وعقيدتنا أن الله لا مثيل له ؛ بهذا تسلم أمام الله ﷻ .

هذا كلام الله ، وهذا كلام رسوله ، والكل حق ، ولا يمكن أن يكذب بعضه بعضًا ؛ لأنه كله خبر وليس حكمًا كي ينسخ ؛ فأقول : هذا نفي للمماثلة ، وهذا إثبات للصورة ؛ فقل : إن الله ليس كمثله شيء ، وإن الله خلق آدم على صورته ؛ فهذا كلام الله ، وهذا كلام رسوله والكل حق نؤمن به ، ونقول : كل من عند ربنا ، ونسكت وهذا هو غاية ما نستطيع .

وأما الجواب المفصل ؛ فنقول : إن الذي قال : « إن الله خلق آدم على صورته » رسول الذي قال : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى : ١١] والرسول لا يمكن أن ينطق بما يكذب المرسل والذي قال : « خلق آدم على صورته » : هو الذي قال : « إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر »[2] ؛ فهل أنت تعتقد أن هؤلاء الذين يدخلون الجنة على صورة القمر من كل وجه أو تعتقد أنهم على صورة البشر لكن في الوضاءة والحسن والجمال واستدارة الوجه وما أشبه ذلك على صورة القمر ، لا من كل وجه ؟ ! فإن قلت بالأول ؛ فمقتضاه أنهم دخلوا وليس لهم أعين وليس لهم آناف وليس لهم أفواه ! وإن شئنا قلنا : دخلوا وهم أحجار ! وإن قلت بالثاني ؛ زال الإشكال ، وتبين أنه لا يلزم من كون الشيء على

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٢٧) ، ومسلم (٢٨٤١) .

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٤٥) ، ومسلم (٢٨٣٤) .

صورة الشيء أن يكون مماثلا له من كل وجه .

فإن أبى فهمك ، وتقاصر عن هذا ، وقال : أنا لا أفهم إلا أنه مماثل .

قلنا : هناك جواب آخر ، وهو أن الإضافة هنا من باب إضافة المخلوق إلى خالقه ؛ فقوله : « على صورته » ؛ مثل قوله ﷻ في آدم : ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص : ٧٢] ، ولا يمكن أن الله ﷻ أعطى آدم جزءًا من روحه ، بل المراد الروح التي خلقها الله ﷻ ، لكن إضافتها إلى الله بخصوصها من باب التشريف ؛ كما نقول : عباد الله ؛ يشمل الكافر والمسلم والمؤمن والشهيد والصديق والنبي لكننا لو قلنا : محمد عبد الله ؛ هذه إضافة خاصة ليست كالعبودية السابقة .

فقوله : « خلق آدم على صورته » . يعني : صورة من الصور التي خلقها الله وصورها ؛ كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف : ١١] . والمصور آدم إذن ؛ فآدم على صورة الله ؛ يعني : أن الله هو الذي صوره على هذه الصورة التي تعد أحسن صورة في المخلوقات ، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين : ٤] ؛ فإضافة الله الصورة إليه من باب التشريف ، كأنه ﷻ اعتنى بهذه الصورة ومن أجل ذلك ؛ لا تضرب الوجه ؛ فتعيبه حسًا ، ولا تقبحه فتقول : قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك . فتعيبه معنًى ؛ فمن أجل أنه الصورة التي صورها الله وأضافها إلى نفسه تشريفًا وتكريمًا ؛ لا تقبحها بعيب حسي ولا بعيب معنوي .

ثم هل يعتبر هذا الجواب تحريفًا أم له نظير ؟

نقول : له نظير ، كما في : بيت الله ، وناقة الله ، وعبد الله ؛ لأن هذه الصورة (أي : صورة آدم) منفصلة بائنة من الله وكل شيء أضافه الله إلى نفسه وهو منفصل بائن عنه ؛ فهو من المخلوقات ؛ فحينئذ يزول الإشكال .

ولكن إذا قال القائل : أيما أسلم : المعنى الأول أو الثاني ؟ قلنا : المعنى الأول أسلم ، ما دمنا نجد أن لظاهر اللفظ مساغًا في اللغة العربية وإمكانًا في العقل ؛ فالواجب حمل الكلام عليه ونحن وجدنا أن الصورة لا يلزم منها مماثلة الصورة الأخرى ، وحينئذ يكون الأسلم أن نحمله على ظاهره .

فإذا قلت : ما الصورة التي تكون لله ويكون آدم عليها ؟

قلنا : إن الله ﷻ له وجه وله عين وله يد وله رجل ﷻ ، لكن لا يلزم من أن تكون هذه الأشياء مماثلة للإنسان ؛ فهناك شيء من الشبه لكنه ليس على سبيل المماثلة ؛ كما أن الزمرة الأولى من أهل الجنة فيها شبه من القمر لكن بدون مماثلة ، وبهذا يصدق ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة ؛ من أن جميع صفات الله سبحانه وتعالى ليست مماثلة لصفات المخلوقين ؛ من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل .

نسمع كثيرًا من الكتب التى نقرؤها يقولون : تشبيه ؛ يعبرون بالتشبيه وهم يقصدون التمثيل ؛ فأيما أولى : أنعبر بالتشبيه ، أو نعبر بالتمثيل ؟

نقول : بالتمثيل أولى .

أولا : لأن القرآن عبر به : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى : ١١] ، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة : ٢٢] .. وما أشبه ذلك ، وكل ما عبر به القرآن ؛ فهو أولى من غيره ؛ لأننا لا نجد أفصح من القرآن ولا أدل على المعنى المراد من القرآن ، والله أعلم بما يريده من كلامه ، فتكون موافقة القرآن هى الصواب ، فنعبر بنفى التمثيل . وهكذا فى كل مكان ؛ فإن موافقة النص فى اللفظ أولى من ذكر لفظ مرادف أو مقارب .

ثانيًا : أن التشبيه عند بعض الناس يعنى إثبات الصفات ولهذا يسمون أهل السنة : مشبهة ؛ فإذا قلنا : من غير تشبيه . وهذا الرجل لا يفهم من التشبيه إلا إثبات الصفات ؛ صار كأننا نقول له : من غير إثبات صفات ! فصار معنى التشبيه يوهم معنًى فاسدًا فلهذا كان العدول عنه أولى .

ثالثًا : أن نفى التشبيه على الإطلاق غير صحيح ؛ لأن ما من شيئين من الأعيان أو من الصفات إلا وبينهما اشتراك من بعض الوجوه ، والاشتراك نوع تشابه ، فلو نفيت التشبيه مطلقًا ؛ لكنت نفيت كل ما يشترك فيه الخالق والمخلوق فى شىء ما .

مثلا : الوجود ؛ يشترك فى أصله الخالق والمخلوق ، هذا نوع اشتراك ونوع تشابه ، لكن فرق بين الوجودين ؛ وجود الخالق واجب ووجود المخلوق ممكن .

وكذلك السمع ؛ فيه اشتراك ؛ الإنسان له سمع ، والخالق له سمع ، لكن بينهما فرق ، لكن أصل وجود السمع مشترك .

فإذا قلنا : من غير تشبيه . ونفينا مطلق التشبيه ؛ صار فى هذا إشكال .

وبهذا عرفنا أن التعبير بالتمثيل أولى من ثلاثة أوجه .

فإن قلت : ما الفرق بين التكييف والتمثيل ؟

فالجواب : الفرق بينهما من وجهين :

الأول : أن التمثيل ذكر الصفة مقيدة بمماثل ؛ فتقول يد فلان مثل يد فلان ، والتكييف ذكر الصفة غير مقيدة بمماثل ؛ مثل أن تقول : كيفية يد فلان كذا وكذا .

وعلى هذا نقول : كل ممثِّل مكيِّف ، ولا عكس .

الثانى : أن الكيفية لا تكون إلا فى الصفة والهيئة ، والتمثيل يكون فى ذلك وفى العدد ؛ كما فى قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ١٢] ؛ أى : فى العدد .

قوله : (بل يؤمنون بأنَّ الله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾) :

أي : يقر أهل السنة والجماعة بذلك إقرارًا وتصديقًا بأن الله ليس كمثله شيء ؛ كما قال عن نفسه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] ؛ فهنا نفى المماثلة ، ثم أثبت السمع والبصر فنفى العيب ، ثم أثبت الكمال ؛ لأن نفي العيب قبل إثبات الكمال أحسن ؛ ولهذا يقال : التخلية قبل التحلية . فنفي العيوب يبدأ به أولا ، ثم يذكر إثبات الكمال .

وكلمة ﴿شَيْءٌ﴾ نكرة في سياق النفي ، فتعم كل شيء ، ليس شيء مثله أبدًا ﷻ أي مخلوق وإن عظم ؛ فليس مماثلا لله ﷻ ؛ لأن مماثلة الناقص نقص ، بل إن طلب المفاضلة بين الناقص والكامل تجعله ناقصا ؛ كما قيل :

ألم ترَ أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

فهنا لو قلنا : إن لله مثيلا ؛ لزم من ذلك تنقص الله ﷻ ؛ فلهذا نقول : نفى الله عن نفسه مماثلة المخلوقين ؛ لأن مماثلة المخلوقين نقص وعيب ؛ لأن المخلوق ناقص ، وتمثيل الكامل بالناقص يجعله ناقصا ، بل ذكر المفاضلة بينهما يجعله ناقصًا ؛ إلا إذا كان في مقام التحدي ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل : ٥٩] ، وقوله : ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة : ١٤] .

وفي قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ : رد صريح على الممثلة الذين يثبتون أن الله سبحانه وتعالى له مثيل .

وحجة هؤلاء يقولون : إن القرآن عربي ، وإذا كان عربيًا ؛ فقد خاطبنا الله تعالى بما نفهم ، ولا يمكن أن يخاطبنا بما لا نفهم ، وقد خاطبنا الله تعالى ، فقال : إن له وجهًا وإن له عينًا ، وإن له يدين .. وما أشبه ذلك ونحن لا نعقل بمقتضى اللغة العربية من هذه الأشياء إلا مثل ما نشاهد ، وعلى هذا ؛ فيجب أن يكون مدلول هذه الكلمات مماثلا لمدلولها بالنسبة للمخلوقات : يد ويد ، وعين وعين ، ووجه ووجه .. وهكذا ؛ فنحن إنما قلنا بذلك لأن لدينا دليلا .

ولا شك أن هذه الحجة واهية يوهيها ما سبق من بيان أن الله ليس له مثيل ونقول : إن الله خاطبنا بما خاطبنا به من صفاته ، لكننا نعلم علم اليقين أن الصفة بحسب الموصوف ودليل هذا في الشاهد ؛ فإنه يقال : للجمل يد وللذرة يد . ولا أحد يفهم من اليد التي أضفناها إلى الجمل أنها مثل اليد التي أضفناها إلى الذرة !

هذا وهو في المخلوقات ؛ فكيف إذا كان ذلك من أوصاف الخالق ؟ ! فإن التباين يكون أظهر وأجلى . وعلى هذا ؛ فيكون قول هؤلاء الممثلة مردودًا بالعقل كما أنه مردود بالسمع .

قال الله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ . فأثبت لنفسه سبحانه وتعالى السمع والبصر ؛ لبيان

كماله ، ونقص الأصنام التي تُعبد من دونه ؛ فالأصنام التي تُعبد من دون الله تعالى لا يسمعون ، ولو سمعوا ؛ ما استجابوا ، ولا يبصرون ؛ كما قال الله ﷻ : ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل : ٢٠، ٢١] ؛ فهم ليس لهم سمع ولا عقل ولا بصر ولو فرض أن لهم ذلك ؛ ما استجابوا : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف : ٥] .

فأهل السنة والجماعة يؤمنون بانتفاء المماثلة عن الله ؛ لأنها عيب ويثبتون له السمع والبصر ؛ لقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] .

وإيمان الإنسان بذلك يثمر للعبد أن يعظمه غاية التعظيم ؛ لأنه ليس مثله أحد من المخلوقات ، فتعظم هذا الرب العظيم الذى لا يماثله أحد ، وإلا ؛ لم يكن هناك فائدة من إيمانك بأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ .

إذا آمنت بأنه سميع ؛ فإنك سوف تحترز عن كل قول يغضب الله ؛ لأنك تعلم أنه يسمعك ، فتخشى عقابه ؛ فكل قول يكون فيه معصية الله ﷻ ؛ فسوف تتحاشاه ؛ لأنك تؤمن بأنه سميع ، وإذا لم يحدث لك هذا الإيمان هذا الشيء ؛ فاعلم أن إيمانك بأن الله سميع إيمان ناقص بلا شك .

إذا آمنت بأن الله سميع ؛ فلن تتكلم إلا بما يرضيه ولا سيما إذا كنت تتكلم معبرًا عن شرعه ، وهو المفتى والمعلم ؛ فإن هذا أشد ، والله سبحانه يقول : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام : ١٤٤] ؛ فإن هذا من أظلم الظلم ولهذا قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف : ١٠] وهذا من عقوبة من يفتى بلا علم ؛ أنه لا يُهدى ؛ لأنه ظالم .

فحذار يا أخى المسلم أن تقول قولا لا يرضى الله ؛ سواء قلته على الله ، أو على غير هذا الوجه .

وثمرة الإيمان بأن الله بصير ألَّا تفعل شيئًا يغضب الله ؛ لأنك تعلم أنك لو تنظر نظرة محرمة لا يفهم الناس أنها نظرة محرمة ؛ فإن الله تعالى يرى هذه النظرة ، ويعلم ما فى قلبك ، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر : ١٩] . إذا آمنت بهذا ؛ لا يمكن أن تفعل فعلا لا يرضاه أبدًا .

استحيى من الله كما تستحيى من أقرب الناس إليك وأشدهم تعظيمًا منك .

إذن ؛ إذا آمنَّا بأن الله بصير ؛ فسوف نتحاشى كل فعل يكون سببًا لغضب الله ﷻ ، وإلا ؛ فإن إيماننا بذلك ناقص . لو أن أحدًا أشار بإصبعه أو شفته أو بعينه أو برأسه لأمر محرم ؛ فالناس الذين حوله لا يعلمون عنه ، لكن الله تعالى يراه ؛ فليحذر هذا من يؤمن به ، ولو أننا نؤمن بما تقتضيه أسماء الله وصفاته ؛ لوجدت الاستقامة كاملة فينا فالله المستعان .

قوله : (فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه) :

أى : لا ينفى أهل السنة والجماعة عن الله ما وصف به نفسه ؛ لأنهم متبعون للنص نفيًا وإثباتًا ؛ فكل ما وصف الله به نفسه يثبتونه على حقيقته ؛ فلا ينفون عن الله ما وصف الله به نفسه ، سواء كان من الصفات الذاتية أو الفعلية (أو الخبرية) .

الصفات الذاتية ؛ كالحياة والقدرة ، والعلم .. وما أشبه ذلك ، وتنقسم إلى ذاتية معنوية ، وذاتية خبرية ، وهى التى مسماها أبعاض لنا وأجزاء ؛ كاليد والوجه ، والعين ؛ فهذه يسميها العلماء : ذاتية خبرية ، ذاتية : لأنها لا تنفصل ولم يزل الله ولا يزال متصفًا بها . خبرية : لأنها متلقاة بالخبر ؛ فالعقل لا يدل على ذلك ، لولا أن الله أخبرنا أن له يدًا ؛ ما علمنا بذلك لكنه أخبرنا بذلك ؛ بخلاف العلم والسمع والبصر ؛ فإن هذا ندركه بعقولنا مع دلالة السمع ، لهذا نقول فى مثل هذه الصفات اليد والوجه وما أشبهها : إنها ذاتية خبرية . ولا نقول : أجزاء وأبعاض . بل نتحاشى هذا اللفظ لكن مسماها لنا أجزاء وأبعاض ؛ لأن الجزء والبعض ما جاز انفصاله عن الكل ؛ فالرب ﷻ لا يُتصور أن شيئًا من هذه الصفات التى وصف بها نفسه – كاليد – أن تزول أبدًا ؛ لأنه موصوف بها أزلا وأبدًا ولهذا لا نقول ؛ إنها أبعاض وأجزاء .

والصفات الفعلية : هى المتعلقة بمشيئته إن شاء فعلها ، وإن شاء لم يفعلها ، وقد ذكرنا أن هذه الصفات الفعلية : منها ما يكون له سبب ، ومنها ما ليس له سبب ، ومنها ما يكون ذاتيًا فعليًا .

قوله : (ولا يحرفون الكلم عن مواضعه) :

(الكلم) : اسم جمع ، كلمة ويراد به كلام الله وكلام رسوله . لا يحرفونه عن مواضعه ؛ أى : عن مدلولاته ؛ فمثلا قوله تعالى : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة : ٦٤] ؛ يقولون : هى يد حقيقية ثابتة لله من غير تكييف ولا تمثيل . والمحرفون يقولون : قوته ، أو نعمته أما أهل السنة ؛ فيقولون : القوة شىء واليد شىء آخر ، والنعمة شىء واليد شىء آخر ؛ فهم لا يحرفون الكلم عن مواضعه ؛ فإن التحريف من دأب اليهود ، ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء : ٤٦] ؛ فكل من حرَّف نصوص الكتاب والسنة ؛ ففيه شبه من اليهود ؛ فاحذر هذا ، ولا تتشبه بالمغضوب عليهم الذين جعل الله منهم القردة والخنازير وعَبَدَ الطاغوت ، لا تحرِّف ، بل فسر الكلام على ما أراد الله ورسوله .

ومن كلام الشافعى ما يذكر عنه : « آمنت بالله وبما جاء عن الله على مراد الله ، وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله » .

قوله : « ولا يلحدون » أى : أهل السنة والجماعة .

والإلحاد فى اللغة : الميل ، ومنه سمى اللحد فى القبر ؛ لأنه مائل إلى جانب منه وليس متوسطًا

والمتوسط يسمى شقًّا واللحد أفضل من الشق .

فهم لا يلحدون فى أسماء اللَّه ، ولا يلحدون أيضًا فى آيات اللَّه ، فأفادنا المؤلف رحمه الله أن الإلحادَ يكون فى موضعين : فى الأسماءِ وفى الآياتِ .

هذا الذى يفيده كلام المؤلف قد دلَّ عليه القرآن ؛ قال اللَّه تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف : ١٨٠] . فأثبت اللَّه الإلحادَ فى الأسماء ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ﴾ [فصلت : ٤٠] . فأثبت اللَّه الإلحاد فى الآيات .

- فالإلحادُ فى الأسماء هو الميل فيها عما يجب ، وهو أنواع :

النوع الأول : أن يُسمى اللَّه بما لم يسم به نفسه ؛ كما سماه الفلاسفة علة فاعلة وسماه النصارى : أبًا ، وعيسى : الابن ؛ فهذا إلحاد فى أسماء اللَّه ، وكذلك لو سمى اللَّه بأى اسم لم يسم به نفسه ؛ فهو ملحدٌ فى أسماء اللَّه .

ووجه ذلك أن أسماء اللَّه ﷻ توقيفية ؛ فلا يمكن أن نثبت له إلا ما ثبت بالنص ، فإذا سميت اللَّه بما لم يسم به نفسه ؛ فقد ألحدتَ ومِلتَ عن الواجب .

وتسمية اللَّه بما لم يسم به نفسه سوء أدبٍ مع اللَّه وظلم وعدوان فى حقه ؛ لأنه لو أن أحدًا دعاك بغير اسمك أو سماك بغير اسمك ؛ لاعتبرته قد اعتدى عليك وظلمك هذا فى المخلوق ؛ فكيف بالخالق ؟ !

إذن ؛ ليس لك حق أن تسمى اللَّه بما لم يسم به نفسه ، فإن فعلت ؛ فأنت ملحدٌ فى أسماء اللَّه .

النوع الثانى : أن ينكر شيئًا من أسمائه ؛ عكس الأول ؛ فالأول سمى اللَّه بما لم يسم به نفسه ، وهذا جرد اللَّه مما سمى به نفسه ، فينكر الاسم ؛ سواء أنكر كل الأسماء أو بعضها التى تثبت للَّه ؛ فإذا أنكرها ؛ فقد ألحدَ فيها .

ووجه الإلحادِ فيها : أنه لما أثبتها اللَّهُ لنفسه ؛ وجب علينا أن نثبتّها له ؛ فإذا نفيناها ؛ كان إلحادًا وميلا بها عما يجب فيها .

وهناك من الناس من أنكر الأسماء ؛ كغُلاةِ الجهمية ، فقالوا : ليس للَّه اسم أبدًا ! قالوا : لأنك لو أثبت له اسمًا ؛ شبهته بالموجودات ، وهذا معروف أنه باطلٌ مردودٌ .

النوع الثالث : أن ينكر ما دلت عليه من الصفات ؛ فهو يثبت الاسم ، لكن ينكر الصفة التى يتضمنها هذا الاسم ؛ مثل أن يقول : إن اللَّه سميع بلا سمعٍ ، وعليم بلا علمٍ ، وخالق بلا خلقٍ ، وقادر بلا قدرة . . . . وهذا معروف عن المعتزلة ، وهو غير معقول !

ثم هؤلاء يجعلون الأسماء أعلامًا محضةً متغايرة ، فيقولون : السميع غير العليم ، لكن كلها ليس لها معنى ! السميع لا يدل على السمع ! والعليم لا يدل على العلم ! لكن مجرد أعلام ! !

ومنهم آخرون يقولون : هذه الأسماء شيء واحد ؛ فهي عليم وسميع وبصير كلها واحد ، لا تختلف إلا بتركيب الحروف فقط ، فيجعل الأسماء شيئًا واحدًا ! !

وكل هذا غير معقول ، ولذلك نحن نقول : إنه لا يمكن الإيمان بالأسماء حتى تثبت ما تضمنته من الصفات .

ولعلنا من هنا نتكلم على دلالة الاسم ؛ فالاسم له أنواع ثلاثة فى الدلالة : دلالة مطابقة ، ودلالة تضمن ، ودلالة التزام :

١ - فدلالة المطابقة : دلالة اللفظ على جميع مدلوله ، وعلى هذا ؛ فكل اسم دال على المسمى به ، وهو الله ، وعلى الصفة المشتق منها هذا الاسم .

٢ - ودلالة التضمن : دلالة اللفظ على بعض مدلوله ، وعلى هذا ؛ فدلالة الاسم على الذات وحدها أو على الصفة وحدها من دلالة التضمن .

٣ - ودلالة الالتزام : دلالته على شيء يُفهم لا من لفظ الاسم لكن من لازمه ولهذا سميناه : دلالة الالتزام .

مثل كلمة الخالق : اسم يدل على ذات الله ويدل على صفة الخلق .

إذن ؛ فباعتبار دلالته على الأمرين يسمى دلالة مطابقة ؛ لأن اللفظ دل على جميع مدلوله ، ولا شك أنك إذا قلت : الخالق ؛ فإنك تفهم خالقًا وخلقًا .

- وباعتبار دلالته على الخالق وحده أو على الخلق وحده يسمى دلالة تضمن ؛ لأنه دلّ على بعض معناه ، وباعتبار دلالته على العلم والقدرة يسمى دلالة التزام ؛ إذ لا يمكن خلق إلا بعلم وقدرة ؛ فدلالته على القدرة والعلم دلالة التزام .

وحينئذ ؛ يتبين أن الإنسان إذا أنكر واحدًا من هذه الدلالة ؛ فهو ملحدٌ فى الأسماء .

ولو قال : أنا أؤمن بدلالة الخالق على الذات ، ولا أؤمن بدلالته على الصفة ؛ فهو ملحد فى الاسم .

[و] لو قال : أنا أومِن بأن (الخالق) تدل على ذات الله وعلى صفة الخلق ، لكن لا تدل على صفة العلم والقدرة . قلنا : هذا إلحاد أيضًا ؛ فلازم علينا أن نثبت كل ما دل عليه هذا الاسم ؛ فإنكار شيء مما دل عليه الاسم من الصفة إلحاد فى الاسم سواء كانت دلالته على هذه الصفة دلالة مطابقة أو تضمن أو التزام .

ولنضرب مثلا حسيًا تتبين فيه أنواع هذه الدلالات : لو قلت : لى بيت . فكلمة (بيت) فيها

الدلالات الثلاث ؛ فتفهم من (بيت) أنها تدل على كل البيت دلالة مطابقة . وتدل على مجلس الرجال وحده ، وعلى الحمامات وحدها ، وعلى الصالة وحدها ؛ دلالة تضمن ؛ لأن هذه الأشياء جزء من البيت ودلالة اللفظ على جزء معناه دلالة تضمن . وتدل على أن هناك بانيًا بناه دلالة التزام ؛ لأنه ما من بيت ؛ إلا وله بان .

النوع الرابع من أنواع الإلحاد فى الأسماء : أن يثبت الأسماء للّه والصفات ، لكن يجعلها دالة على التمثيل ؛ أى دالة على بصر كبصرنا وعلم كعلمنا ، ومغفرة كمغفرتنا . .. وما أشبه ذلك ؛ فهذا إلحاد ؛ لأنه ميل بها عما يجب فيها ؛ إذ الواجب إثباتها بلا تمثيل .

النوع الخامس : أن ينقلها إلى المعبودات ، أو يشتق أسماء منها للمعبودات ؛ مثل أن يسمى شيئًا معبودًا بالإله ، فهذا إلحاد ، أو يشتق منها أسماء للمعبودات مثل : اللات من الإله ، والعُزى من العزيز ، ومناة من المنان ؛ فنقول : هذا أيضًا إلحاد فى أسماء اللّه ؛ لأن الواجب عليك أن تجعل أسماء اللّه خاصة به ، ولا تتعدى وتتجاوز فتشتق للمعبودات منها أسماء . هذه أنواع الإلحاد فى أسماء اللّه .

فأهل السنة والجماعة لا يلحدون فى أسماء اللّه أبدًا بل يجرونها على ما أراد اللّه بها سبحانه وتعالى ويثبتون لها جميع أنواع الدلالات ؛ لأنهم يرون أن ما خالف ذلك ؛ فهو إلحاد .

- وأما الإلحاد فى آيات اللّه تعالى ؛ فالآيات جمع آية ، وهى العلامة المميزة للشىء عن غيره ، واللّه ﷻ بعث الرسل بالآيات لا بالمعجزات ، لهذا كان التعبير بالآيات أحسن من التعبير بالمعجزات .

أولا : لأن الآيات هى التى يُعبر بها فى الكتاب والسنة .

ثانيًا : أن المعجزات قد تقع من ساحر ومشعوذ وما أشبه ذلك تُعجز غيره .

ثالثًا : أن كلمة (آيات) أدل على المعنى المقصود من كلمة معجزات ؛ فآيات اللّه ﷻ هى العلامات الدالة على اللّه ﷻ ، وحينئذٍ تكون خاصة به ولولا أنها خاصة ؛ ما صارت آية له .

وآيات اللّه ﷻ تنقسم إلى قسمين : آيات كونية ، وآيات شرعية :

فالآيات الكونية : ما يتعلق بالخلق والتكوين ، مثال ذلك قوله : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت : ٣٧] ، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم : ٢٠] ، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم : ٢٢- ٢٥] . فهذه الآيات كونية وإن شئت ؛ فقل :

كونية قدرية ، وكانت آية لله ؛ لأنه لا يستطيع الخلق أن يفعلوها ؛ فمثلا : لا يستطيع أحد أن يخلق مثل الشمس والقمر ، ولا يستطيع أن يأتي بالليل إذا جاء النهار ، ولا بالنهار إذا جاء الليل ؛ فهذه الآيات كونية .

والإلحاد فيها أن ينسبها إلى غير الله استقلالا أو مشاركة أو إعانة ، فيقول : هذا من الولى الفلانى ، أو : من النبى الفلانى ، أو : شارك فيه النبى الفلانى أو الولى الفلانى ، أو : أعان الله فيه . قال الله تعالى : ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ : ٢٢] . فنفى كل شيء يتعلق به المشركون بكون معبوداتهم لا تملك شيئًا فى السماوات والأرض اسقلالا أو مشاركة ولا معينة لله ﷻ ، ثم جاء بالرابع : ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ : ٢٣] ؛ لما كان المشركون قد يقولون : نعم ؛ هذه الأصنام لا تملك ولا تشارك ولم تعاون ، لكنها شفعاء ؛ قال : ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ ؛ فقطع كل سببٍ يتعلق به المشركون .

القسم الثانى من الآيات : الآيات الشرعية ، وهى ما جاءت به الرسل من الوحى ؛ كالقرآن العظيم وهو آية ؛ لقوله تعالى : ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة : ٢٥٢] ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت : ٥٠ ، ٥١] ؛ فجعله آيات .

ويكون الإلحاد فيها إما بتكذيبها أو تحريفها أو مخالفتها ؛ فتكذيبها : أن يقول : ليست من عند الله . فيكذب بها أصلا ، أو يكذب بما جاء فيها من الخبر مع تصديقه بالأصل ، فيقول مثلا : قصة أصحاب الكهف ليست صحيحة ، وقصة أصحاب الفيل ليست صحيحة ، والله لم يرسل عليهم طيرًا أبابيل . وأما التحريف ؛ فهو تغيير لفظها ، أو صرف معناها عما أراد الله بها ورسوله ؛ مثل أن يقول : استوى على العرش ؛ أى : استولى . أو : ينزل إلى السماء الدنيا ؛ أى : ينزل أمره .

وأما مخالفتها ؛ فبترك الأوامر أو فعل النواهى .

قال الله تعالى فى المسجد الحرام : ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج : ٢٥] ؛ فكل المعاصى إلحاد فى الآيات الشرعية ؛ لأنه خروج بها عما يجب لها ؛ إذ الواجب علينا أن نمتثل الأوامر وأن نجتنب النواهى ، فإن لم نقم بذلك ؛ فهذا إلحاد .

قوله : (ولا يكيِّفون) :

أى : أهل السنة والجماعة ، وسبق أن التكييف ذكر كيفية الصفة ، سواء ذكرتها بلسانك أو بقلبك ؛ فأهل السنة والجماعة لا يكيفون أبدًا ؛ يعنى : لا يقولون : كيفية يده كذا وكذا ، ولا كيفية

وجهه كذا وكذا . فلا يكيفون هذا باللسان ولا بالقلب أيضًا ؛ يعني : نفس الإنسان لا يتصور كيف استوى الله ﷻ ، أو كيف ينزل ، أو كيف وجهه ، أو كيف يده ، ولا يجوز أن يُحاول ذلك أيضًا ؛ لأن هذا يؤدي إلى أحد أمرين : إما التمثيل ، وإما التعطيل .

ولهذا لا يجوز للإنسان أن يحاول معرفة كيفية استواء الله على العرش ، أو يقوله بلسانه ، بل ولا يسأل عن الكيفية ؛ لأن الإمام مالكًا رحمه الله قال : « السؤال عنه بدعة » . لا تقل : كيف استوى ؟ كيف ينزل ؟ كيف يأتي ؟ كيف وجهه ؟ إن فعلت ذلك ؛ قلنا : إنك مبتدعٌ . وقد سبق ذكر الدليل على تحريم التكييف ، وذكرنا الدليل على ذلك من السمع والعقل .

« ولا يمثلون » ؛ أي : أهل السنة والجماعة : « صفاته بصفات خلقه » ، وهذا معنى قوله فيما سبق : « من غير تمثيل » وسبق لنا امتناع التمثيل سمعًا وعقلا ، وأن السمع ورد خبرًا وطلبًا في نفي التمثيل ؛ فهم لا يكيفون ولا يمثلون .

قوله : (لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفو له ، ولا ندَّ له) :

(سبحان) : اسم مصدر سبح والمصدر تسبيح ؛ فـ : (سبحان) بمعنى تسبيح ، لكنها بغير اللفظ ، وكل ما دل على معنى المصدر وليس بلفظه ؛ فهو اسم مصدر ؛ كـ : سبحان من سبح ، وكلام من كلّم ، وسلام من سلم . وإعرابها مفعول مطلق منصوب على المفعولية المطلقة ، وعاملها محذوف دائما .

ومعنى (سبح) ؛ قال العلماء معناها : نزّه ، أصلها من السبح وهو البعد ، كأنك تبعد صفات النقص عن الله ﷻ ؛ فهو سبحانه وتعالى منزه عن كل نقص .

دليـل ذلك قوله تعالى : ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم : ٦٥] : ﴿هَلۡ﴾ استفهام ، لكنه بمعنى النفي ويأتي النفي بصيغة الاستفهام لفائدة عظيمة ، وهي التحدي ؛ لأن هناك فرقًا بين أن أقول : لا سمي له . و : ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ . لأن ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ متضمن للنفي وللتحدي أيضًا ؛ فهو مُشرَب معنى التحدي ، وهذه قاعدة مهمة : كلما كان الاستفهام بمعنى النفي ؛ فهو مُشرَب معنى التحدي ؛ كأني أقول : إن كنت صادقًا ؛ فأتني بسَمِي له . وعلى هذا ؛ فـ : ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ : أبلغ من : « سَمِيٌ له » .

والسمي : هو المسامي ؛ أي : المماثل .

الدليل قوله تعالى : ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص : ٤] .

الدليل قوله تعالى : ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة : ٢٢] ؛ أي : تعلمون أنه لا ند له والنِّد بمعنى النظير .

وهذه الثلاثة – السَّمي والكُفء والنِّد – معناها متقارب جدًّا ؛ لأن معنى الكفء : الذي يكافئه ،

ولا يكافئ الشيءُ الشيءَ إلا إذا كان مثله ، فإن لم يكن مثله ؛ لم يكن مكافئًا له ، إذن : لا كفء له ؛ أي : ليس له مثيل سبحانه وتعالى .

وهذا النفي المقصود منه كمال صفاته ؛ لأنه لكمال صفاته لا أحد يماثله .

قوله : (ولا يُقاس بخلقه سبحانه) :

القياس ينقسم إلى ثلاثة أقسام : قياس شمول ، وقياس تمثيل ، وقياس أولوية ؛ فهو سبحانه وتعالى لا يقاس بخلقه قياس تمثيل ولا قياس شمول :

١ - قياس الشمول : هو ما يعرف بالعام الشامل لجميع أفراده ؛ بحيث يكون كل فرد منه داخلًا في مسمى ذلك اللفظ ومعناه ؛ فمثلًا : إذا قلنا : الحياة ؛ فإنه لا تقاس حياة اللَّه تعالى بحياة الخلق من أجل أن الكل يشمله اسم (حي) .

٢ - وقياس التمثيل : هو أن يلحق الشيء بمثيله فيجعل ما ثبت للخالق مثل ما ثبت للمخلوق .

٣ - وقياس الأولوية : هو أن يكون الفرع أولى بالحكم من الأصل ، ولهذا يقول العلماء : إنه مستعمل في حق اللَّه ؛ لقوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل : ٦٠] ؛ بمعنى كل صفة كمال ؛ فللَّه تعالى أعلاها ، والسمع والعلم والقدرة والحياة والحكمة وما أشبهها موجودة في المخلوقات ، لكن للَّه أعلاها وأكملها . ولهذا أحيانًا نستدل بالدلالة العقلية من زاوية القياس بالأولى ؛ فمثلا : نقول : العلو صفة كمال في المخلوق ، فإذا كان صفة كمال في المخلوق ؛ فهو في الخالق من باب أولى وهذا دائمًا نجده في كلام العلماء .

فقول المؤلف رحمه الله : « ولا يقاس بخلقه » . بعد قوله : « لا سمي له ولا كفء له ، ولا ند له » . يعني : القياس المقتضي للمساواة وهو قياس الشمول وقياس التمثيل .

إذن ؛ يمتنع القياس بين اللَّه وبين الخلق للتباين بينهما ، وإذا كنا في الأحكام لا نقيس الواجب على الجائز ، أو الجائز على الواجب ؛ ففي باب الصفات بين الخالق والمخلوق من باب أولى .

لو قال لك قائل : اللَّه موجود ، والإنسان موجود ، ووجود اللَّه كوجود الإنسان بالقياس .

فنقول : لا يصح ؛ لأن وجود الخالق واجب ، ووجود الإنسان ممكن .

فلو قال : أقيس سمع الخالق على سمع المخلوق .

نقول : لا يمكن ؛ سمع الخالق واجب له لا يعتريه نقص ، وهو شامل لكل شيء ، وسمع الإنسان ممكن ؛ إذ يجوز أن يولد الإنسان أصم ، والمولود سميعًا يلحقه نقص السمع ، وسمعه محدود .

إذن ؛ لا يمكن أن يقاس اللَّه بخلقه ؛ فكل صفات اللَّه لا يمكن أن تقاس بصفات خلقه ؛ لظهور التباين العظيم بين الخالق وبين المخلوق .

قوله : (فإنه سبحانه أعلمُ بنفسه وبغيره ، وأصدقُ قِيلًا ، وأحسنُ حديثًا من خلقه) :

قال المؤلف هذا تمهيدًا وتوطئة لوجوب قَبول ما دل عليه كلام الله تعالى من صفاته وغيرها ، وذلك أنه يجب قبول ما دل عليه الخبر إذا اجتمعت فيه أوصاف أربعة :

الأول : أن يكون صادرًا عن علم ، وإليه الإشارة بقوله : « فإنه أعلم بنفسه وبغيره » .

الثاني : الصدق ، وأشار إليه بقوله : « وأصدق قيلًا » .

الوصف الثالث : البيان والفصاحة ، وأشار إليه بقوله : « وأحسن حديثًا » .

الوصف الرابع : سلامة القصد والإرادة ؛ بأن يريد المخبر هداية من أخبرهم .

فدليل الأول - وهو العلم - : قوله تعالى : ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ﴾ [الإسراء : ٥٥] ؛ فهو أعلم بنفسه وبغيره من غيره ؛ فهو أعلم بك من نفسك ؛ لأنه يعلم ما سيكون لك في المستقبل ، وأنت لا تعلم ماذا تكسب غدًا ؟

وكلمة ﴿أَعْلَمُ﴾ هنا اسم تفضيل ، ولقد تحاشاها بعض العلماء وفسر ﴿أَعْلَمُ﴾ بـ : (عالم) ، فقال : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل : ١٢٥] ؛ أي هو عالم بمن ضل عن سبيله وهو عالم بالمهتدين . قال : لأن ﴿أَعْلَمُ﴾ اسم تفضيل وهو يقتضي اشتراك المفضل والمفضل عليه ، وهذا لا يجوز بالنسبة لله ، لكن (عالم) اسم فاعل وليس فيه مقارنة ولا تفضيل .

فنقول له : هذا غلط ؛ فالله يعبِّر عن نفسه ويقول : ﴿أَعْلَمُ﴾ . وأنت تقول : عالم ! وإذا فسرنا ﴿أَعْلَمُ﴾ بـ : (عالم) ؛ فقد حططنا من قدر علم الله ؛ لأن (عالم) يشترك فيها غير الله على سبيل المساواة ، لكن : ﴿أَعْلَمُ﴾ مقتضاه ألَّا يساويه أحد في هذا العلم ؛ فهو أعلم من كل عالم ، وهذا أكمل في الصفة بلا شك .

ونقول له : إن اللغة العربية بالنسبة لاسم الفاعل لا تمنع المساواة في الوصف ، لكن بالنسبة لاسم التفضيل تمنع المشاركة فيما دلَّ عليه .

ونقول أيضًا : في باب المقارنة لا بأس أن نقول : أعلم ؛ بمعنى : أن تأتي باسم التفضيل ، ولو فرض خلو المفضل عليه من ذلك المعنى ؛ كما قال الله تعالى : ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان : ٢٤] ؛ فجاء باسم التفضيل ، مع أن المفضل عليه ليس فيه شيء منه إطلاقًا .

وفي باب مجادلة الخصم ومحاجَّته يجوز أن نأتي باسم التفضيل ، وإن كان المفضل عليه ليس فيه شيء منه ؛ قال الله تعالى : ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل : ٥٩] . ومعلوم أن ما يشركون ليس فيه خير ، وقال يوسف : ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف : ٣٩] ، والأرباب ليس فيها خير .

فالحاصل أن نقول : إن ﴿أَعْلَمُ﴾ الواردة فى كتاب الله يراد بها معناها الحقيقى ، ومن فسرها بـ : (عالم) ؛ فقد أخطأ من حيث المعنى ومن حيث اللغة العربية .

ودليل الوصف الثاني - الصدق : قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ أى : لا أحد أصدق منه ، والصدق مطابقة الكلام للواقع ، ولا شيء من الكلام يطابق الواقع كما يطابقه كلام الله سبحانه وتعالى ؛ فكل ما أخبر الله به ؛ فهو صدق ، بل أصدق من كل قول .

ودليل الوصف الثالث - البيان والفصاحة : قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ وحسن حديثه يتضمن الحسن اللفظى والمعنوى .

ودليل الوصف الرابع - سلامة القصد والإرادة : قوله تعالى : ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء : ١٧٦] ، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء : ٢٦] .

فاجتمع فى كلام الله الأوصاف الأربعة التى توجب قبول الخبر .

وإذا كان كذلك ؛ فإنه يجب أن نقبل كلامه على ما هو عليه ، وألَّا يلحقنا شك فى مدلوله ؛ لأن الله لم يتكلم بهذا الكلام لأجل إضلال الخلق ، بل ليبين لهم ويهديهم ، وصدر كلام الله عن نفسه أو عن غيره من أعلم القائلين ، ولا يمكن أن يعتريه خلاف الصدق ، ولا يمكن أن يكون كلامًا عيًّا غير فصيح ، وكلام الله لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ؛ لما استطاعوا ؛ فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة فى الكلام ؛ وجب على المخاطب القبول بما دل عليه .

مثال ذلك : قوله تعالى مخاطبًا إبليس : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص : ٧٥] ؛ قال قائل : فى هذه الآية إثبات يدين لله ﷻ يخلق بهما من شاء فنثبتهما ؛ لأن كلام الله ﷻ صادر عن علم وصدق ، وكلامه أحسن الكلام وأفصحه وأبينه ، ولا يمكن ألَّا يكون له يدان لكن أراد من الناس أن يعتقدوا ذلك فيه ، ولو فرض هذا ؛ لكان مقتضاه أن القرآن ضلال ؛ حيث جاء بوصف الله بما ليس فيه ، وهذا ممتنع ؛ فإذا كان كذلك ؛ وجب عليك أن تؤمن بأن للهِ تعالى يدين اثنتين خلق بهما آدم .

وإذا قلت : المراد بهما النعمة أو القدرة .

قلنا : لا يمكن أن يكون هذا هوالمراد ؛ إلا إذا اجترأت على ربك ووصفت كلامه بضد الأوصاف الأربعة التى قلنا ؛ فنقول : هل الله ﷻ حينما قال : ﴿بِيَدَيَّ﴾ : عالم بأن له يدين ؟ فسيقول : هو عالم . فنقول : هل هو صادق ؟ فسيقول : هو صادق بلا شك . ولا يستطيع أن يقول : هو غير عالم ، أو : غير صادق ، ولا أن يقول : عبر بهما وهو يريد غيرهما عيًّا وعجزًا ، ولا أن يقول : أراد من خلقه أن يؤمنوا بما ليس فيه من الصفات إضلالًا لهم ! فنقول له : إذن ؛ ما الذى يمنعك أن تثبت لله اليدين ؟ ! فاستغفر ربك وتب إليه ، وقل : آمنت بما أخبر الله به عن نفسه ؛ لأنه أعلم بنفسه وبغيره ، وأصدق قيلًا ،

وأحسن حديثًا من غيره وأتم إرادة من غيره أيضًا .

ولهذا أتى المؤلف رحمه الله بهذه الأصناف الثلاثة ونحن زدنا الوصف الرابع ، وهو : إرادة البيان للخلق وإرادة الهداية لهم ؛ لقوله تعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء : ٢٦] .

هذا حكم ما أخبر اللّه به عن نفسه بكلامه الذى هو جامع للكمالات الأربع فى الكلام ، أما ما أخبرت به الرسل فقال المؤلف : « ثم رسله صادقون مصدقون . . . » .

قوله : (ثم رسله صادقون مصدقون) :

الصادق : المخبر بما طابق الواقع ؛ فكل الرسل صادقون فيما أخبروا به ، ولكن: لابد أن يثبت السند إلى الرسل عليهم السلام ؛ فإذا قالت اليهود : قال موسى كذا وكذا . فلا نقبل ؛ حتى نعلم صحة سنده إلى موسى . وإذا قالت النصارى : قال عيسى كذا وكذا . فلا نقبل ، حتى نعلم صحة السند إلى عيسى . وإذا قال قائل : قال محمد رسول اللّه كذا وكذا . فلا نقبل ، حتى نعلم صحة السند إلى محمد . فرسله صادقون فيما يقولون ؛ فكل ما يخبرون به عن اللّه وعن غيره من مخلوقاته ؛ فهم صادقون فيه ، لا يكذبون أبدًا . ولهذا أجمع العلماء على أن الرسل عليهم الصلاة والسلام معصومون من الكذب .

« مَصْدوقون » أو : « مُصَدَّقون » : نسختان : أما على نسخة « مصدوقون » ؛ فالمعنى أن ما أوحى إليهم ؛ فهو صدق ، والمَصدُوق : الذى أخبر بالصدق والصادق : الذى جاء بالصدق ، ومنه قول الرسول عليه الصلاة والسلام لأبى هريرة حين قال له الشيطان : إنك إذا قرأت آية الكرسى ؛ لم يزل عليك من اللّه حافظ ، ولا يقربك شيطان . حتى قال له : « صدقك وهو كذوب »[1] ؛ يعنى : أخبرك بالصدق . فالرسل مصدوقون ، كل ما أوحى إليهم ؛ فهو صدق ، ما كذبهم الذى أرسلهم ولا كذبهم الذى أرسل إليهم ، وهو جبريل عليه الصلاة والسلام ، ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير : ١٩- ٢١] .

وأما على نسخة : « مُصَدَّقون » ، فالمعنى أنه يجب على أممهم تصديقهم ، وعلى هذا يكون معنى « مصدقون » ؛ أى : شرعًا ؛ يعنى : يجب أن يصدقوا شرعًا ؛ فمن كذب بالرسل أو كذبهم ؛ فهو كافر ، ويجوز أن يكون « مصدقون » له وجه آخر ؛ أى أن اللّه تعالى صدقهم . ومعلوم أن اللّه تعالى صدَّق الرسل ؛ صدَّقهم بقوله وبفعله :

أما بقوله ؛ فإن اللّه قال لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء : ١٦٦] ، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ [المنافقون : ١] ؛ فهذا تصديق بالقول .

---

(١) أخرجه البخارى (٣٢٧٥) .

أما تصديقه بالفعل ؛ فبالتمكين له ، وإظهار الآيات ؛ فهو يأتي للناس يدعوهم إلى الإسلام ، فإن لم يقبلوا ، فالجزية ، فإن لم يقبلوا ؛ استباح دماءهم ونساءهم وأموالهم ، والله تعالى يمكّن له ، ويفتح عليه الأرض أرضًا بعد أرض ، وحتى بلغت رسالته مشارق الأرض ومغاربها ؛ فهذا تصديق من الله بالفعل ، كذلك أيضًا ما يجريه الله على يديه من الآيات هو تصديق له سواء كانت الآيات شرعية أم كونية ؛ فالشرعية كان دائمًا يسأل عن الشيء وهو لا يعلمه ، فيُنزل الله الجواب : ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] ؛ إذن هذا تصديق بأنه رسول ولو كان غير رسول ؛ ما أجاب الله ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ٢١٧]. فالجواب : ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ﴾ ... إلخ ؛ فهذا تصديق من الله ﷻ .

والآيات الكونية ظاهرة جدًّا وما أكثر الآيات الكونية التي أيد الله بها رسوله ؛ سواء جاءت لسبب أو لغير سبب ، وهذا معروف في السيرة . ففهمنا من كلمة : « مصدقون » : أنهم مصدَّقون من قِبَل الله بالآيات الكونية والشرعية ، مصدقون من قبل الخلق ؛ أي : يجب أن يصدقوا وإنما حملنا ذلك على التصديق شرعًا ؛ لأن من الناس من صدق ومن الناس من لم يصدق ، لكن الواجب التصديق .

قوله : (بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون) :

فهؤلاء كاذبون أو ضالون ؛ لأنهم قالوا ما لا يعلمون .

وكأن المؤلف يشير إلى أهل التحريف ؛ لأن أهل التحريف قالوا على الله ما لا يعلمون من وجهين : قالوا : إنه لم يرد كذا وأراد كذا ! فقالوا في السلب والإيجاب بما لا يعلمون .

مثلًا : قالوا : لم يرد بالوجه الحقيقي !! فهنا قالوا على الله ما لا يعلمون بالسلب ، ثم قالوا : والمراد بالوجه الثواب ! فقالوا على الله ما لا يعلمون في الإيجاب .

وهؤلاء الذين يقولون على الله ما لا يعلمون لا يكونون صادقين ولا مصدوقين ولا مصدَّقين بل قامت الأدلة على أنهم كاذبون مكذوبون بما أوحى إليهم الشيطان .

قوله : (ولهذا قال سبحانه وتعالى : « سبحان ربك رب العزة عما يصفون .... ») :

قوله : « ولهذا » ؛ أي : لأجل كمال كلامه وكلام رسله .

قوله : « سبحان ربك » : سبق معنى التسبيح وهو تنزيه الله عن كل ما لا يليق به .

قوله : « ربك » : أضاف الربوبية إلى محمد ﷺ وهي ربوبية خاصة ، من باب إضافة الخالق إلى المخلوق .

قوله : « رب العزة » من باب إضافة الموصوف إلى الصفة ، ومن المعروف أن كل مربوب مخلوق

وهنا قال : ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ ، وعزة الله غير مخلوقة ؛ لأنها من صفاته ؛ فنقول : هذه من باب إضافة الموصوف إلى الصفة وعلى هذا ؛ فـ : ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ هنا معناها : صاحب العزة ؛ كما يقال : رب الدار . أى : صاحب الدار .

قوله : « عما يصفون » : يعنى : عما يصفه المشركون ؛ كما سيذكره المؤلف .

قوله : « وسلام على المرسلين » أى : على الرسل .

قوله : « والحمد لله رب العالمين » حمد الله نفسه ﷻ بعد أن نزهها ؛ لأن فى الحمد كمال الصفات ، وفى التسبيح تنزيه عن العيوب ؛ فجمع فى الآية بين التنزيه عن العيوب بالتسبيح ، وإثبات الكمال بالحمد .

قوله : (فسبَّح نفسَه عمَّا وَصَفه به المُخالِفون للرُّسُلِ ، وسلَّم على المُرْسَلِين لسلامةِ ما قالوه مِن النقصِ والعيبِ) :

معنى هذه الجملة واضح ، وبقى أن يقال : وحمد نفسه لكمال صفاته بالنسبة لنفسه وبالنسبة لرسله ؛ فإنه سبحانه محمود على كمال صفاته وعلى إرسال الرسل ؛ لما فى ذلك من رحمة الخلق والإحسان إليهم .

قوله : (وهو سبحانَه قد جمَع فيما وصَف ، وسمَّى به نفسَه بينَ النفيِ والإثباتِ) :

بيَّن المؤلف رحمه الله فى هذه الجملة أن الله تعالى جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفى والإثبات ، وذلك لأن تمام الكمال لا يكون إلا بثبوت صفات الكمال وانتفاء ما يضادها من صفات النقص ؛ فأفادنا رحمه الله أن الصفات قسمان :

١ - صفات مثبتة : وتسمى عندهم : الصفات الثبوتية .

٢- وصفات منفية : ويسمونها : الصفات السلبية ، من السلب وهو النفى ، ولا حرج من أن نسميها سلبية ، وإن كان بعض الناس توقف وقال : لا نسميها سلبية ، بل نقول : منفية .

فنقول : ما دام السلب فى اللغة بمعنى النفى ؛ فالاختلاف فى اللفظ ولا يضر .

فصفات الله ﷻ قسمان : ثبوتية وسلبية ، أو إن شئت ؛ فقل : مثبتة ومنفية ، والمعنى واحد .

فالمثبتة : كل ما أثبته الله لنفسه ، وكلها صفات كمال ، ليس فيها نقص بوجه من الوجوه ، ومن كمالها ألا يمكن أن يكون ما أثبته دالًّا على التمثيل ؛ لأن المماثلة للمخلوق نقص .

وإذا فهمنا هذه القاعدة ؛ عرفنا ضلال أهل التحريف ، الذين زعموا أن الصفات المثبتة تستلزم التمثيل ؛ ثم أخذوا ينفونها فرارًا من التمثيل .

ومثاله : قالوا : لو أثبتنا لله وجهًا ؛ لزم أن يكون مماثلًا لأوجه المخلوقين ؛ وحينئذ يجب تأويل معناه إلى معنى آخر لا إلى الوجه الحقيقى .

فنقول لهم : كل ما أثبت الله لنفسه من الصفات ؛ فهو صفة كمال ولا يمكن أبدًا أن يكون فيما أثبته الله لنفسه من الصفات نقص . ولكن ؛ إذا قال : هل الصفات توقيفية كالأسماء ، أو هى اجتهادية ؛ بمعنى أنه يصح لنا أن نصف الله سبحانه وتعالى بشىء لم يصف به نفسه ؟

فالجواب أن نقول : إن الصفات توقيفية على المشهور عند أهل العلم ؛ كالأسماء ؛ فلا تصف الله إلا بما وصف به نفسه .

وحينئذ نقول : الصفات تنقسم إلى ثلاثة أقسام : صفة كمال مطلق ، وصفة كمال بقيد ، وصفة نقص مطلق . أما صفة الكمال على الإطلاق ؛ فهى ثابتة للّه ﷻ ؛ كالمتكلم ، والفعال لما يريد ، والقادر .. ونحو ذلك .

وأما صفة الكمال بقيد ؛ فهذه لا يوصف الله بها على الإطلاق ، إلا مقيدًا ؛ مثل : المكر ، والخداع ، والاستهزاء .. وما أشبه ذلك ؛ فهذه الصفات كمال بقيد ، إذا كانت فى مقابلة من يفعلون ذلك ؛ فهى كمال ، وإن ذكرت مطلقة ؛ فلا تصح بالنسبة للّه ﷻ ، ولهذا لا يصح إطلاق وصفه بالماكر أو المستهزئ أو الخادع ، بل تقيد فنقول : ماكر بالماكرين ، مستهزئ بالمنافقين ، خادع للمنافقين ، كائد للكافرين ؛ فتقيدها لأنها لم تأت إلا مقيدة .

وأما صفة النقص على الإطلاق ؛ فهذه لا يوصف الله بها بأى حال من الأحوال ؛ كالعاجز والخائن والأعمى والأصم ؛ لأنها نقص على الإطلاق ؛ فلا يوصف الله بها وانظر إلى الفرق بين خادع وخائن ؛ قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء : ١٤٢] ؛ فأثبت خداعه لمن خادعه لكن قال فى الخيانة : ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال : ٧١] ولم يقل : فخانهم ؛ لأن الخيانة خداع فى مقام الائتمان ، والخداع فى مقام الائتمان نقص ، وليس فيه مدح أبدًا . فإذن ؛ صفات النقص منفية عن الله مطلقًا .

والصفات المأخوذة من الأسماء هى كمال بكل حال ويكون الله ﷻ قد اتصف بمدلولها ؛ فالسمع صفة كمال دل عليها اسمه السميع ؛ فكل صفة دلت عليها الأسماء ؛ فهى صفة كمال مثبتة للّه على سبيل الإطلاق ، وهذه نجعلها قسمًا منفصلًا ؛ لأنه ليس فيها تفصيل ، وغيرها تنقسم إلى الأقسام الثلاثة التى سلف ذكرها ، ولهذا لم يسم الله نفسه بالمتكلم مع أنه يتكلم ؛ لأن الكلام قد يكون خيرًا ، وقد يكون شرًا ، وقد لا يكون خيرًا ولا شرًا ؛ فالشر لا ينسب إلى الله ، واللغو كذلك لا ينسب إلى الله ؛ لأنه سفه ، والخير ينسب إليه ، ولهذا لم يسم نفسه بالمتكلم ؛ لأن الأسماء كما وصفها الله ﷻ : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف : ١٨٠] ؛ ليس فيها أى شىء من النقص ولهذا جاءت باسم التفضيل المطلق .

إذا قال قائل : فهمنا الصفات وأقسامها ؛ فما الطريق لإثبات الصفة ما دمنا نقول : إن الصفات توقيفية ؟

فنقول : هناك عدة طرق لإثبات الصفة :

الطريق الأول : دلالة الأسماء عليها ؛ لأن كل اسم ؛ فهو متضمن لصفة ، ولهذا قلنا فيما سبق : إن كل اسم من أسماء اللّه دال على ذاته وعلى الصفة التي اشتق منها .

الطريق الثاني : أن ينص على الصفة ؛ مثل الوجه ، واليدين ، والعينين .. وما أشبه ذلك ؛ فهذه بنص من اللّه ﷻ ، ومثل الانتقام ، فقال عنه تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [إبراهيم : ٤٧] ، ليس من أسماء اللّه المنتقم ؛ خلافًا لما يوجد في بعض الكتب التي فيها عد أسماء اللّه ؛ لأن الانتقام ما جاء إلا على سبيل الوصف أو اسم الفاعل مقيدًا ؛ كقوله : ﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة : ٢٢] .

الطريق الثالث : أن تؤخذ من الفعل ؛ مثل : المتكلم ؛ فنأخذها من ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء : ١٦٤] .

هذه هي الطرق التي تثبت بها الصفة وبناء على ذلك نقول : الصفات أعم من الأسماء ؛ لأن كل اسم متضمن لصفة ، وليس كل صفة متضمنة لاسم .

وأما الصفات المنفية عن اللّه ﷻ ؛ فكثيرة ولكن الإثبات أكثر ؛ لأن صفات الإثبات كلها صفات كمال ، وكلما تعددت وتنوعت ؛ ظهر من كمال الموصوف ما هو أكثر ، وصفات النفي قليلة ، ولهذا نجد أن صفات النفي تأتي كثيرًا عامة ، غير مخصصة بصفة معينة ، والمخصص بصفة لا يكون إلا لسبب ؛ مثل تكذيب المدعين بأن اللّه اتصف بهذه الصفة التي نفاها عن نفسه أو دفع توهم هذه الصفة التي نفاها .

فالقسم الأول العامة ؛ كقوله تعالى : ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] ؛ قال : ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ في علمه وقدرته وسمعه وبصره وعزته وحكمته ورحمته .. وغير ذلك من صفاته ؛ فلم يفصل ، بل قال : ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ ، وهذا النفي العام المجمل يدل على كمال مطلق ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ في كل كمال .

أما إذا كان مفصلًا ؛ فلا تجده إلا لسبب ؛ كقوله : ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ﴾ [المؤمنون : ٩١] ؛ ردًّا لقول من قال : إن للّه ولدًا وقوله : ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ [الإخلاص : ٣] كذلك وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾ [ق : ٣٨] ؛ لأنه قد يفرض الذهن الذي لا يقدر اللّه حق قدره أن هذه السماوات العظيمة والأرض العظيمة إذا كان خلقها في ستة أيام ؛ فسيلحقه التعب ؛ فقال : ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾ ؛ أي : من تعب وإعياء .

فتبين بهذا أن النفى لا يرد فى صفات الله ﷻ إلا على سبيل العموم أو على سبيل الخصوص لسبب ؛ لأن صفات السلب لا تتضمن الكمال إلا إذا كانت متضمنة لإثبات ، ولهذا نقول : الصفات السلبية التى نفاها الله عن نفسه متضمنة لثبوت كمال ضدها ؛ فقوله : ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ . متضمن كمال القوة والقدرة وقوله : ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف : ٤٩] . متمضن لكمال العدل وقوله : ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة : ٨٥] . متضمن لكمال العلم والإحاطة .. وهلم جرا ؛ فلابد أن تكون الصفة المنفية متضمنة لثبوت ، وذلك الثبوت هو كمال ضد ذلك المنفى وإلا ؛ لم تكن مدحًا .

لا يوجد فى الصفات المنفية عن الله نفى مجرد ؛ لأن النفى المجرد عدم والعدم ليس بشيء ؛ فلا يتضمن مدحًا ولا ثناء ؛ ولأنه قد يكون للعجز عن تلك الصفة فيكون ذمًّا ، وقد يكون لعدم القابلية ؛ فلا يكون مدحًا ولا ذمًّا .

مثال الأول الذى للعجز قول الشاعر :

قبيلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

ومثال الثانى الذى لعدم القابلية : أن تقول : إن جدارنا لا يظلم أحدًا .

والواجب علينا نحو هذه الصفات التى أثبتها الله لنفسه والتى نفاها أن نقول : سمعنا وصدقنا وآمنا . هذه هى الصفات فيها مثبت وفيها منفى ، أما الأسماء فكلها مثبتة .

لكن أسماء الله تعالى المثبتة منها ما يدل على معنى إيجابى ، ومنها ما يدل على معنى سلبى ، وهذا هو مورد التقسيم فى النفى والإثبات بالنسبة لأسماء الله .

فمثال التى مدلولها إيجابى كثير .

ومثال التى مدلولها سلبى : السلام . ومعنى السلام ؛ قال العلماء : معناه : السالم من كل عيب . إذن ؛ فمدلوله سلبى ؛ بمعنى : ليس فيه نقص ولا عيب ، وكذلك القدوس قريب من معنى السلام ؛ لأن معناه المنزه عن كل نقص وعيب .

فصارت عبارة المؤلف سليمة وصحيحة وهو لا يريد بالنسبة للأسماء أن هناك أسماء منفية ؛ لأن الاسم المنفى ليس باسم لله ، لكن مراده أن مدلولات أسماء الله ثبوتية وسلبية .

قوله : (فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاءت به المرسلون) :

العدول : معناه الانصراف والانحراف ؛ فأهل السنة والجماعة لا يمكن أن يعدلوا عما جاءت به الرسل .

وإنما جاء المؤلف بهذا النفى ؛ ليبين أنهم لكمال اتباعهم ﷺ لا يمكن أن يعدلوا عما جاءت به

الرسل ؛ فهم مستمسكون تمامًا ، وغير منحرفين إطلاقًا ، عما جاءت به الرسل ، بل طريقتهم أنهم يقولون : سمعنا وأطعنا فى الأحكام وسمعنا وصدقنا فى الأخبار .

ما جاء به محمد ﷺ واضح أننا لا نعدل عنه ؛ لأنه خاتم النبيين ، وواجب فعلى جميع العباد أن يتبعوه ، لكن ما جاء عن غيره ؛ هل لأهل السنة والجماعة عدول عنه ؟ لا عدول لهم عنه ؛ لأن ما جاء عن الرسل عليهم الصلاة والسلام فى باب الأخبار لا يختلف ؛ لأنهم صادقون ولا يمكن أن يُنسخ ؛ لأنه خبر ؛ فكل ما أخبرت به الرسل عن الله ﷻ ؛ فهو مقبول وصدق ويجب الإيمان به .

مثلًا : قال موسى لفرعون لما قال له : ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه : ٥١، ٥٢] ؛ فنفى عن الله الجهل والنِّسيان ؛ فنحن يجب علينا أن نصدق بذلك ؛ لأنه جاء به رسول من الله ، ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه : ٤٩، ٥٠] ؛ فلو سألنا سائل : من أين علمنا أن الله أعطى كل شيء خلقه ؟ فنقول : من كلام موسى ، فنؤمن بذلك ، ونقول : أعطى كل شيء خلقه اللائق به ؛ فالإنسان على هذا الوجه ، والبعير على هذا الوجه ، والبقرة على هذا الوجه ، والضأن على هذا الوجه ، ثم هدى كل مخلوق إلى مصالحه ومنافعه ؛ فكل شيء يعرف مصالحه ومنافعه ؛ فالنملة فى أيام الصيف تُدَّخر قُوتَها فى جحورها ، ولكن لا تدخر الحب كما هو ، بل تقطع رءوسه ؛ لئلا ينبت ؛ لأنه لو نبت ؛ لفسد عليها ، وإذا جاء المطر وابتل هذا الحب الذى وضعته فى الجحور ؛ فإنها لا تبقيه يأكله العفن والرائحة ، بل تنشره خارج جحرها حتى ييبس من الشمس والريح ، ثم تدخله !

لكن يجب التنبيه إلى أن ما نُسب للأنبياء السابقين يُحتاج فيه إلى صحة النقل ؛ لاحتمال أن يكون كذبًا ؛ كالذى نسب إلى رسول الله ﷺ وأولى ، وقوله رحمه الله : « عما جاء به المرسلون » . هل يشمل هذا الأحكام أو أن الكلام الآن فى باب الصفات ؛ فيختص بالأخبار ؟

إن نظرنا إلى عموم اللفظ ؛ قلنا : يشمل الأخبار والأحكام .

وإن نظرنا إلى السياق ؛ قلنا : القرينة تقتضى أن الكلام فى باب العقائد وهى من باب الأخبار .

ولكن نقول : إن كان كلام شيخ الإسلام رحمه الله خاصًا بالعقائد ؛ فهو خاص ، وليس لنا فيه كلام . وإن كان عامًّا ؛ فهو يشمل الأحكام . والأحكام التى للرسل السابقين اختلف فيها العلماء : هل هى أحكام لنا إذا لم يرد شرعنا بخلافها ، أو ليست أحكامًا لنا ؟

والصحيح أنها أحكام لنا ، وأن ما ثبت عن الأنبياء السابقين من الأحكام ؛ فهو لنا ، إلا إذا ورد شرعنا بخلافه ، فإذا ورد شرعنا بخلافه ؛ فهو على خلافه ؛ فمثلًا : السجود عند التحية جائز فى شريعة يوسف ويعقوب وبنيه ، لكن فى شريعتنا محرم ، كذلك الإبل حرام على اليهود : ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ

﴿هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦] ولكن هى فى شريعتنا حلال .

فإذن ؛ يمكن أن نحمل كلام شيخ الإسلام رحمه الله على أنه عام فى الأخبار والأحكام ، وأن نقول : ما كان فى شرع الأنبياء من الأحكام ؛ فهو لنا ؛ إلا بدليل .

ولكن يبقى النظر : كيف نعرف أن هذا من شريعة الأنبياء السابقين ؟

نقول : لنا فى ذلك طريقان : الطريق الأول : الكتاب ، والطريق الثانى : السنة . فما حكاه الله فى كتابه عن الأمم السابقين ؛ فهو ثابت وما حكاه النبى ﷺ فيما صح عنه ؛ فهو أيضًا ثابت .

والباقى لا نصدق ولا نكذب ؛ إلا إذا ورد شرعنا بتصديق ما نقل أهل الكتاب ؛ فإننا نصدقه ، لا لنقلهم ، ولكن لما جاء فى شريعتنا ، وإذا ورد شرعنا بتكذيب أهل الكتاب ؛ فإننا نكذبه ؛ لأن شرعنا كذبه ، فالنصارى يزعمون بأن المسيح ابن الله ؛ فنقول : هذا كذب ، واليهود يقولون : عزير ابن الله ؛ فنقول : هذا كذب .

قوله : (فإنه الصراطُ المستقيمُ ؛ صراطُ الذين أنْعَم اللّهُ عليهم مِن النبيِّين والصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ والصالحينَ) :

(فإنه) : الضمير يعود على ما جاءت به الرسل ويمكن أن يعود على طريق أهل السنة والجماعة وهو الاتباع وعدم العدول عنه ؛ فما جاءت به الرسل وما ذهب إليه أهل السنة والجماعة : هو الصراط المستقيم .

(صراط) : على وزن فعال ؛ بمعنى : مصروط ؛ مثل : فراش ؛ بمعنى : مفروش ، وغراس ؛ بمعنى : مغروس ؛ فهو بمعنى اسم المفعول . والصراط إنما يقال للطريق الواسع المستقيم مأخوذ من الزرط وهو بلع اللقمة بسرعة ؛ لأن الطريق إذا كان واسعًا ؛ لا يكون فيه ضيق يتعثر الناس فيه ؛ فالصراط يقولون فى تعريفه : كل طريق واسع ليس فيه صعود ولا نزول ولا اعوجاج .

إذن ؛ الطريق الذى جاءت به الرسل هو الصراط المستقيم ، الذى ليس فيه عوج ولا أمْتٌ ، طريق مستقيم ليس فيه انحراف يمينًا ولا شمالًا : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣] .

وعليه ؛ فيكون المستقيم صفة كاشفة على تفسيرنا الصراط بأنه الطريق الواسع الذى لا اعوجاج فيه ، لأن هذا هو المستقيم ؛ أو يقال : إنها صفة مقيدة ؛ لأن بعض الصراط قد يكون غير مستقيم كما قال تعالى : ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٣، ٢٤] ، وهذا الصراط غير مستقيم .

« صراط الذين أنعم الله عليهم » ؛ أى طريقهم وأضافه إليهم لأنهم سالكوه ؛ فهم الذين يمشون فيه ، كما أضافه الله إلى نفسه أحيانًا : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى : ٥٢، ٥٣] ؛ باعتبار أنه هو الذى شرعه ووضعه لعباده ، وأنه موصل إليه ؛ فهو صراط الله باعتبارين وصراط المؤمنين باعتبار واحد ؛ صراط الله باعتبارين هما : أنه وضعه لعباده ، وأنه موصل إليه وصراط المؤمنين ؛ لأنهم هم الذين يسلكونه وحدهم .

وقوله : « الذين أنعم الله عليهم » : النعمة : كل فضل وإحسان من الله ﷻ على عباده ؛ فهو نعمة وكل ما بنا من نعمة ؛ فهو من الله ، ونعم الله قسمان : عامة وخاصة ، والخاصة أيضًا قسمان خاصة ، وخاصة أعم .

فالعامة : هى التى تكون للمؤمنين وغير المؤمنين ولهذا ؛ لو سألنا سائل : هل لله على الكافر نعمة ؟

قلنا : نعم ؛ لكنها نعمة عامة وهى نعمة ما تقوم به الأبدان لا ما تصلح به الأديان ؛ مثل الطعام والشراب والكسوة والمسكن وما أشبه ذلك ؛ فهذه يدخل فيها المؤمن والكافر .

والنعمة الخاصة : ما تصلح به الأديان من الإيمان والعلم والعمل الصالح ؛ فهذه خاصة بالمؤمنين ، وهى عامة للنبيين والصديقين ؛ كالشهداء والصالحين .

ولكن نعمة الله على النبيين والرسل نعمة هى أخص النعم ، واستمع إلى قوله تعالى : ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء : ١١٣] ؛ فهذه النعمة التى هى أخص لا يلحق المؤمنون فيها النبيين ، بل هم دونهم .

وقوله : « صراط الذين أنعم الله عليهم » : هى كقوله تعالى : ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة : ٦، ٧] .

فمن هم الذين أنعم الله عليهم ؟

فسرها تعالى بقوله : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ﴾ [النساء : ٦٩] ؛ فهؤلاء أربعة أصناف .

النبيون : وهم كل من أوحى الله إليهم ونبأهم فهو داخل فى هذه الآية ، فيشمل الرسل ، لأن كل رسول نبى ، وليس كل نبى رسولًا ، وعلى هذا فيكون النبيون شاملًا للرسل أولى العزم وغيرهم وشاملًا أيضًا للنبيين الذين لم يرسلوا وهؤلاء أعلى أصناف الخلق .

الصديقون : جمع صديق على وزن فعيل صيغة مبالغة .

فمن الصدّيق ؟

أحسن ما يفسر به الصديق قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الزمر : ٣٣] ؛ وقال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ﴾ [الحديد : ١٩] ؛ فمن حقق الإيمان – ولا يتم تحقيق الإيمان إلا بالصدق والتصديق – فهو صديق :

الصدق في العقيدة : بالإخلاص ، وهذا أصعب ما يكون على المرء حتى قال بعض السلف : ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص ؛ فلابد من الصدق في المقصد – وهو العقيدة – والإخلاص لله ﷻ .

الصدق في المقال : لا يقول إلا ما طابق الواقع ؛ سواء على نفسه أو على غيره ؛ فهو قائم بالقسط على نفسه وعلى غيره ؛ أبيه وأمه وأخيه وأخته .. وغيرهم .

الصدق في الفعال : وهي أن تكون أفعاله مطابقة لما جاء به النبي ﷺ ، ومن صدق الفعال أن تكون نابعة عن إخلاص ؛ فإن لم تكن نابعة عن إخلاص ؛ لم تكن صادقة لأن فعله يخالف قوله .

فالصديق إذن : من صدق في معتقده وإخلاصه وإرادته وفي مقاله وفي فعاله .

وأفضل الصديقين على الإطلاق أبو بكر رضي الله عنه ؛ لأن أفضل الأمم هذه الأمة ، وأفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر رضي الله عنه .

والصديقية مرتبة تكون للرجال والنساء ؛ قال الله تعالى في عيسى ابن مريم : ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة : ٧٥] ، ويقال : الصديقة بنت الصديق عائشة رضي الله عنها ، والله تعالى يمن على من يشاء من عباده .

الشهداء قيل : هم الذين قتلوا في سبيل الله ؛ لقوله : ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران : ١٤٠] وقيل : العلماء ؛ لقوله تعالى : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ [آل عمران : ١٨] ؛ فجعل أهل العلم شاهدين بما شهد الله لنفسه ؛ ولأن العلماء يشهدون للرسل بالبلاغ وعلى الأمة بالتبليغ ولو قال قائل : الآية عامة لمن قتلوا في سبيل الله تعالى وللعلماء ؛ لأن اللفظ صالح للوجهين ، ولا يتنافيان ؛ فيكون شاملًا للذين قتلوا في سبيل الله وللعلماء الذين شهدوا لله بالوحدانية وشهدوا للنبي ﷺ بالبلاغ وشهدوا على الأمة بأنها بلغت .

الصالحون يشمل كل الأنواع الثلاثة السابقة ومن دونهم في المرتبة ؛ فالأنبياء صالحون ، والصديقون صالحون ، والشهداء صالحون ؛ فعطفها من باب عطف العام على الخاص .

والصالحون هم الذين قاموا بحق الله وحق عباده ، لكن لا على المرتبة السابقة – النبوة والصديقية والشهادة ؛ فهم دونهم في المرتبة .

هذا الصراط الذي جاءت به الرسل هو صراط هؤلاء الأصناف الأربعة ؛ فغيرهم لا يمشون على ما جاءت به الرسل .

❁ قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك حفظه الله :

قوله : « ومن الإيمان بالله » :

* بعد ما ذكر اعتقاد أهل السنة والجماعة إجمالًا ، شرع في ذكر اعتقادهم تفصيلًا ، فقال : « ومن

الإيمان بالله » ؛ أي : مما يدخل في الإيمان بالله : الإيمان بما وصف الله به نفسه في كتابه ، وبما وصفه به الرسول ﷺ فيما صح من سننه ، والإيمان بذلك يكون بإثبات ما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ ، وبنفي ما نفاه الله عن نفسه ونفاه عنه رسوله ﷺ ، فالإيمان بهذا يكون بإثبات وبنفي .

قوله : « من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل » :

* يؤمنون بما وصف الله به نفسه ، أو وصفه به رسوله ، من غير تحريف ؛ يعني : من غير تحريف للنصوص عن وجهها ، ومن غير تحريف للكلم عن مواضعه ، وهو ما ذم الله به أعداءه اليهود ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦] .

والتحريف معناه العام : التغيير ، وهو يشمل التغيير اللفظي والتغيير المعنوي ، فالتحريف اللفظي يكون بالزيادة على النص ، أو النقص منه ، أو تغيير الشكل .

فلا يجوز تحريف النصوص ، ولا سيما آيات القرآن ، فإنه يجب الالتزام بلفظها ، فلا يغير لفظها زيادة ولا نقصًا ، ولا شكلًا .

وكذلك سنة الرسول ﷺ لا يجوز تغيير لفظها بما يستلزم تغيير معناها ، فإن ذلك من تحريف الكلم عن مواضعه ، بل يجب إجراء النصوص على ظاهرها .

« ولا تعطيل » : التعطيل ، مأخوذ من العطل بمعنى الخلو ، فمعناه : إخلاء الرب عما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ ، وتعطيل أسماء الرب وصفاته ، وتعطيل الرب عن صفات كماله ، إنما يكون بجحدها ونفيها ، فالمعطلة ينفون ما وصف الله به نفسه ، وما أثبته الله لنفسه ، أو أثبته له رسوله ﷺ ، فيعطلون الرب عن كماله المقدس ، فينفون استواءه على عرشه ، وينفون حقيقة اليدين ، كما سيأتي مفصلًا .

« ومن غير تكييف » : من غير بحث عن كيفية صفات الرب ، ولا تعرض لتحديد كنه صفاته ، فأهل السنة والجماعة يصفون الله بما وصف به نفسه ، وما وصفه به رسوله ، من غير تحريف لنصوص الكتاب والسنة ، ولا تعطيل للنصوص عما دلت عليه ، ولا تعطيل للرب عما يجب إثباته له ، ولا تكييف لصفاته ، ولا تمثيل لصفاته بصفات خلقه .

إذن اعتقاد أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات قائم على الإثبات والنفي ، إثباتًا بلا تشبيه ، وتنزيهًا له تعالى عن كل نقص وعيب بلا تعطيل ، خلافًا لأهل الضلال ، الذين غلوا في الإثبات حتى شبهوا صفاته بصفات خلقه ، فيقول قائلهم : له سمع كسمعي ، وبصر كبصري ، ويد كيدي ، وخلافًا لمن غلا في التنزيه ، حتى سلب الله صفات كماله ، زعمًا منه أن إثبات الصفات يستلزم التشبيه .

فلهذا كان مذهب أهل السنة والجماعة بريئًا من التشبيه ، وبريئًا من التعطيل ، فلا ينفون ما

وصف الله به نفسه ، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ولا يلحدون في أسماء الله وآياته .

فإن الله ذم الملحدين في أسمائه كما قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف : ١٨٠] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ [فصلت : ٤٠] .

والإلحاد في أسماء الله يكون بنفيها ، أو بنفي معانيها ، أو بتسمية الله بغير ما سمى به نفسه ، أو بتسمية بعض المخلوقين بما هو من خصائصه سبحانه وتعالى .

قوله : « ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ، ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه » :

* كل هذا تأكيد لما سبق ، وأن مذهب أهل السنة والجماعة بريء من هذه الأباطيل ، بريء من التعطيل ، ومن الإلحاد ، ومن التكييف ، ومن التحريف ، ومن التمثيل .

ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه ؛ فإنه سبحانه وتعالى لا سمي له ، ولا ند له ، ولا كفو له ، وهذا كله منفي في كتابه : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] ، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص : ٤] ، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٢٢] .

والسمي والكفو والند ألفاظ متقاربة ، كلها تفسر بالمثيل والنظير ، فهو سبحانه وتعالى لا مثيل ، ولا نظير له من خلقه ، ولا سمي ، ولا كفو ، ولا ند ، ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى .

قوله : « وهو أعلم بنفسه وبغيره ، وأصدق قيلًا ، وأحسن حديثًا من خلقه » :

* هو أعلم بنفسه ، كما قال المسيح عليه السلام : ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة : ١١٦] ، فهو أعلم بنفسه .

فالعباد لا سبيل لهم إلى معرفة أسمائه وصفاته إلا ببيانه وتعريفه وتعليمه سبحانه ، فهو أعلم بنفسه وبغيره ؛ لأن علمه محيط بكل شيء ، وهو تعالى أصدق قيلًا ، وأحسن حديثًا من خلقه : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء : ٨٧] ، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء : ١٢٢] .

فإذا كان- تعالى- هو أعلم بنفسه ، وهو أصدق الصادقين، فكيف يكذب ما أخبر به في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ ؟ كيف لا يثبت ما أثبته لنفسه ، وأثبته له رسوله ﷺ ؟ !

فالمعطلة قد كذبوا بما أخبر الله به ورسوله ﷺ من أسمائه- تعالى- وصفاته ، وكأنهم ادعوا لأنفسهم أنهم أعلم بالله من الله ، وأعلم بالله من رسول الله ﷺ ، وهذا من أبطل الباطل ، وأسفه السفه ، وأعظم الجهل : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء : ٨٧] ، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء : ١٢٢] .

بعث الله رسله في صفاته بالنفي والإثبات :

بعد ما ذكر الشيخ رحمه الله ما يجب في صفاته تعالى ، وأن الواجب أن يوصف الله بما وصف به نفسه ، ووصفه به رسوله ﷺ ، وأن هذا من الإيمان بالله ، وأن هذه هي عقيدة أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات يعتمدون في ذلك على كتاب الله إيمانًا بالله ، وكتابه ورسوله ﷺ .

ولهذا قال الأئمة في بعض الصفات : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب » .

فالإيمان به : هو حقيقة تصديق الله ، وتصديق رسوله ﷺ ، وهو مقتضى الإيمان بالله ورسوله ﷺ وكتابه .

قوله : « ثم رسله صادقون مصدقون » :

*** الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم جاءوا- في باب الأسماء والصفات وغيره- بالحق المبين ، فقولهم هو الحق ، وما جاءوا به هو الحق الذي يجب الإيمان به والالتزام به .**

والرسل- عليهم الصلاة والسلام- هم أصدق الناس وقد عصمهم الله من الكذب ؛ لأنه اصطفاهم لتبليغ رسالاته ، ولا يصطفي سبحانه وتعالى لتبليغ رسالاته وتبليغ شرائعه إلا الصادقين .

« ثم رسله صادقون مصدقون » :

وهم مصدوقون ، فالله تعالى يصدقهم ، ويقيم الأدلة والخوارق الدالة على صدقهم ، وشهد بصدقهم في كلامه : ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [يس : ١- ٣] ، ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾ [النمل : ٧٩] .

وهم مصدوقون عند الموفقين ؛ بل إن أعداء الله الكفرة هم مصدقون للرسل في الباطن ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام : ٣٣] ، وكما قال عن فرعون وقومه : ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [النمل : ١٤] ، فلا يكذب الرسل ظاهرًا وباطنًا إلا من لا عقل له .

أما العقلاء فإنهم- وإن جحدوا ظاهرًا عنادًا وحسدًا وكبرًا وما إلى ذلك- مصدقون لهم في الباطن ، وإن كان هذا التصديق لا ينفعهم ، فمن صدق الرسل في الباطن وأظهر تكذيبهم فهو الكفور ، ولا ينفعه تصديقه في الباطن .

أما معنى « مصدوقون » : المصدوق هو المخبر بالصدق ، والصادق هو المخبر بالصدق .

فالرسل صادقون ؛ لأنهم قد أخبروا بالصدق ، وهم مصدوقون ؛ لأنهم مخبرون بالحق ، فهم يتلقون علومهم وما يبلغونه عن الله بواسطة وحيه ، ورسوله من الملائكة : ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ [التكوير : ١٩، ٢٠] .

إذن فما قالته الرسل في الله هو الحق نفيًا وإثباتًا ، ولصدق الرسل ، وأن ما قالوه في رب العالمين هو الحق ، قال سبحانه وتعالى : ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات : ١٨٠- ١٨٢] .

فسبح نفسه سبحانه وتعالى عما يصفه به الجاهلون والمفترون والمشركون ، الذين يقولون على الله ما لا يعلمون .

قوله : « سبحان » :

* هذه الكلمة تدل على التنزيه وعلى النفي المعائب والنقائص ، قال تعالى : ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ [النساء : ١٧١] ، ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة : ٣١] .

قوله : « وسلَّم على المرسلين » :

* سلام من الله على رسله ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات : ١٨١] ، وإنما سلم عليهم ؛ لأنهم أولياؤه الصادقون فيما أخبروا به عنه ، المحقون فيما يصفون به ربهم ؛ ولهذا يقول الشيخ : « وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب » ، ومن الشرك والإفك .

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات : ١٨٢] ثناء من الله على نفسه بإثبات الحمد كله له ؛ لما له سبحانه وتعالى من الأسماء الحسنى ، والصفات العلا ، وبديع المخلوقات .

فهذه الآيات فيها تنزيه وتحميد وتمجيد ، وثناء على المرسلين- صلوات الله وسلامه عليهم- فالرسل هم الأئمة ، وهم القدوة ، ولنا فيهم أسوة ، وسبيلنا سبيلهم ، ولا سيما نبينا خاتم النبيين ﷺ .

قوله : « وقد جمع سبحانه وتعالى فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات » :

* وهذه قاعدة في باب الأسماء والصفات : الجمع بين النفي والإثبات ؛ معناها : أنه موصوف بإثبات الفضائل ، والكمالات ، وموصوف بنفي النقائص والآفات ، والمدح لا يكون بالإثبات فقط ، ولا بالنفي فقط ، وإنما يكون بالنفي ، والإثبات .

ومما ينبغي التنبيه عليه في هذا المقام أن النفي والإثبات الذي جاء في النصوص ، القاعدة فيه هي : « الإجمال في النفي ، والتفصيل في الإثبات » ؛ فالإثبات يأتي مفصلًا في : تعداد الأسماء ، وتعداد الصفات ، وتعيينها .

أما النفي ؛ فيكون عامًّا مطلقًا ، وهو ما يعبر بالإجمال ، هذا هو الغالب على طريقة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم .

فالرسل جاءوا في صفات الله بإثبات مفصل ، وبنفي مجمل ، ولكن قد يأتي الإثبات مجملًا ، كما قد يأتي النفي مفصلًا ، لكن القاعدة الغالبة هي : التفصيل في الإثبات ، والإجمال في النفي .

وسيأتي لهذا المعنى مزيد إيضاح عندما نصل إلى شواهد النفي ، فيحصل تطبيق هذه القاعدة ، وإيضاحها .

وهذا النفي الذي يوصف الله به هو : النفي المتضمن لإثبات كمال ، فكل نفي ورد في صفاته سبحانه ؛ فإنه متضمن لإثبات كمال ضده .

أما النفي المحض الذي لا يتضمن ثبوت كمال ؛ فهذا لم يصف الله به نفسه ؛ لأن النفي الذي لا يتضمن ثبوت كمال لا يكون مدحًا ، ولا كمالًا .

وإذا كان هذا ما جاءت به الرسل فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون صلوات الله وسلامه عليهم ، بل هم مقتفون لآثار الرسل لا سيما خاتمهم الذي له على أمته من واجب الإيمان ، والمحبة ، والاتباع ما ليس لغيره ﷺ .

قوله : « فلا عدول لأهل السنة عما جاء به المرسلون » :

* أهل السنة الفرقة الناجية المنصورة ، لا محيد لهم ولا عدول لهم عن طريق المرسلين .

قال سبحانه وتعالى لنبيه بعد ما ذكر الأنبياء والمرسلين إجمالًا وتفصيلًا قال : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام : ٩٠] ، فالصحابة والتابعون ماضون على سبيل الرسول ﷺ ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف : ١٠٨] ، وسبيل الرسول ﷺ هو سبيل المؤمنين ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء : ١١٥] ، وما جاء به المرسلون في صفاته تعالى وغيرها هو الصراط المستقيم .

قوله : « فإنه الصراط المستقيم » :

* ما جاء به المرسلون هو الصراط المستقيم ، والصراط : هو الطريق الذي يجمع معان ، فليس كل طريق صراطًا ، والصراط هو : الطريق المستقيم الموصل إلى المقصود ، القريب ، الواسع ، المسلوك . هذا معنى ما ذكره ابن القيم في بيان خصائص الصراط في كلامه على سورة الفاتحة في « مدارج السالكين » .

وصراط الله مسلوك سالكوه هم : المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

وأهل السنة داخلون في طريق المنعم عليهم على حسب مراتبهم في العلم والدين والفضل .

والصراط المستقيم : هو دين الله الذي بعث به رسوله ﷺ في كل باب من أبواب العلم في مسائل الاعتقاد ، كالأسماء والصفات ، واليوم الآخر ، وسائر أصول الإيمان ، والشرائع ، والأوامر ، والنواهي .

❁ **قال الشيخ صالح بن فوزان الفوزان حفظه اللَّه :**

قوله : « ومن الإيمان باللَّه : الإيمان بما وصف به نفسه ... » :

بعد ما ذكر المصنف رحمه الله الأصول التي يجب الإيمان بها مجملةً ، شرع يذكرها على سبيل التفصيل ، وبدأ بالأصل الأول ، وهو الإيمان باللَّه تعالى ، فذكر أنه يدخل فيه الإيمان بصفاته التي وصف نفسه بها في كتابه ، أو وصفه بها رسوله في سنته .

وذلك بأن نثبتها له كما جاءت في الكتاب والسنة بألفاظها ومعانيها ، من غير تحريفٍ لألفاظها ، ولا تعطيلٍ لمعانيها ، ولا تشبيهٍ لها بصفات المخلوقين ، وأن نعتمد في إثباتها على الكتاب والسنة فقط ، لا نتجاوز القرآن والحديث ؛ لأنها توقيفية .

والتحريف : **هو التغيير وإمالة الشيء عن وجهه . يقال : انحرف عن كذا . إذا مال ، وهو نوعان :**

النوع الأول :

تحريف اللفظ ، وهو العدول به عن جهته إلى غيرها ، إما بزيادة كلمةٍ ، أو حرفٍ أو نقصانه ، أو تغيير حركةٍ ، كقول أهل الضلال في قوله تعالى : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ . أي : استولى . فزادوا في الآية حرفًا .

وكقولهم في قوله تعالى : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ . أي : أمر ربك . فزادوا كلمةً .

وكقولهم في قوله تعالى : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهَ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ بنصب لفظ الجلالة ، فغيروا الحركة الإعرابية من الرفع إلى النصب .

النوع الثاني :

تحريف المعنى ، وهو العدول به عن وجهه وحقيقته ، وإعطاء اللفظ معنى لفظٍ آخر ؛ كقول المبتدعة : إن معنى الرحمة إرادة الإنعام ، وإن معنى الغضب إرادة الانتقام .

وقوله : « من غير تحريف » **متعلق بالإيمان قبله ؛ يعني أنهم مؤمنون بالصفات الإلهية على هذا الوجه الخالي من كل هذه المعاني الباطلة إثباتًا بلا تمثيل ، وتنزيهًا بلا تعطيل .**

والتحريف في الأصل مأخوذ من قولهم : حرفت الشيء عن وجهه حرفًا ، من باب ضرب إذا أملته وغيرته ، والتشديد للمبالغة .

وتحريف الكلام إمالته عن المعنى المتبادر منه إلى معنى آخر لا يدل عليه اللفظ إلا باحتمال مرجوح ، فلا بد فيه من قرينة تبين أنه المراد .

والتعطيل لغةً : **الإخلاء ، يقال : عطله ؛ أي : أخلاه ، والمراد به هنا نفي الصفات عن اللَّه سبحانه وتعالى .**

والفرق بين التحريف والتعطيل : أن التحريف هو نفى المعنى الصحيح الذى دلت عليه النصوص ، واستبداله بمعنًى آخر غير صحيحٍ .

والتعطيل هو نفى المعنى الصحيح من غير استبدالٍ له بمعنًى آخر ، كفعل المفوضة ، فكل محرفٍ معطل ، وليس كل معطلٍ محرفًا .

والتكييف : هو تعيين كيفية الصفة ، يقال : كيف الشىء . إذا جعل له كيفيةً معلومةً ، فتكييف صفات اللّٰه هو تعيين كيفيتها والهيئة التى تكون عليها .

وهذا لا يمكن للبشر ؛ لأنه مما استأثر اللّٰه تعالى بعلمه ، فلا سبيل إلى الوصول إليه ؛ لأن الصفة تابعة للذات .

فكما أن ذات اللّٰه لا يمكن للبشر معرفة كيفيتها ، فكذلك صفته سبحانه لا تعلم كيفيتها ، ولهذا لما سئل الإمام مالك رحمه الله ، فقيل له : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كيف استوى ؟ فقال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة[1] . وهذا يقال فى سائر الصفات .

والتمثيل : هو التشبيه بأن يقال : إن صفات اللّٰه مثل صفات المخلوقين . كأن يقال : يد اللّٰه كأيدينا ، وسمعه كسمعنا ، تعالى اللّٰه عن ذلك ، قال تعالى فى الآية : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] .

فلا يقال فى صفاته : إنها مثل صفاتنا ، أو شبه صفاتنا ، أو كصفاتنا . كما لا يقال : إن ذات اللّٰه مِثل أو شِبه ذواتنا . فالمؤمن الموحد يثبت الصفات كلها على الوجه اللائق بعظمة اللّٰه وكبريائه ، والمعطل ينفيها ، أو ينفى بعضها ، والمشبه الممثل يثبتها على وجهٍ لا يليق باللّٰه ، وإنما يليق بالمخلوق .

قوله : (بل يُؤْمِنون بأنَّ اللّٰهَ سبحانَه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾) :

لما ذكر المصنف رحمه الله أن الواجب هو الإيمان بصفات اللّٰه الثابتة فى الكتاب والسنة ، من غير تحريفٍ ، ولا تعطيلٍ ، ومن غير تكييفٍ ، ولا تمثيلٍ ، بين موقف أهل السنة والجماعة من ذلك ، وهو أنهم يؤمنون بتلك الصفات على هذا المنهج المستقيم ، فيثبتونها على حقيقتها ، نافين عنها التمثيل .

فلا يعطلون ، ولا يمثلون على وفق ما جاء فى قوله تعالى فى الآية : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ .

فقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ . ردٌّ على الممثلة .

وقوله : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ . ردٌّ على المعطلة ؛ لأن فيه إثبات السمع والبصر ، فالآية

(١) رواه اللالكائى فى « شرح السنة » (٦٦٤) ، والبيهقى فى « الأسماء والصفات » (٨٦٧) .

الكريمة دستور واضح فى باب الأسماء والصفات ؛ لأنها جمعت بين إثبات الصفات لله ، ونفى التمثيل عنها ، وسيأتى تفسيرها إن شاء الله .

وقوله : (فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه) ؛ أى : لا يحمل أهل السنة والجماعة إيمانهم بأن الله ليس كمثله شيء على أن ينفوا عنه ما وصف به نفسه ، كما يفعل ذلك الذين غلوا فى التنزيه ، حتى عطلوه من صفاته بحجة الفِرار من التمثيل بصفات المخلوقين .

فأهل السنة يقولون : لله سبحانه صفات تخصه وتليق به ، وللمخلوقين صفات تخصهم وتليق بهم ، ولا تشابه بين صفات الخالق ، وصفات المخلوق ، فلا يلزم هذا المحذور الذى ذكرتم أيها المعطلة .

وقوله : (ولا يحرفون الكلم عن مواضعه) . تقدم بيان معنى التحريف ؛ أى : لا يغيرون كلام الله ، فيبدلون ألفاظه ، أو يغيرون معانيه ، فيفسرونه بغير تفسيره ، كما يفعل المعطلة الذين يقولون فى (استوى) : استولى ، وفى : (وجاء ربك) : جاء أمر ربك ، ويفسرون رحمة الله بإرادة الإنعام ، ونحو ذلك .

« ولا يلحدون فى أسماء الله وآياته » . الإلحاد لغةً : الميل والعدول عن الشيء ، ومنه اللحد فى القبر ، سمى بذلك لميله وانحرافه عن سَمتِ الحفر إلى جهة القبلة .

والإلحاد فى أسماء الله وآياته : هو العدول والميل بها عن حقائقها ومعانيها الصحيحة إلى الباطل ، والإلحاد فى أسماء الله وصفاته أنواع :

النوع الأول : أن تسمى الأصنام بها ، كتسمية اللات من الإله ، والعزى من العزيز ، ومناة من المنان .

النوع الثانى : تسميته سبحانه وتعالى بما لا يليق به ، كتسمية النصارى له أبًا ، وتسمية الفلاسفة له موجِبًا ، أو علةً فاعلةً .

النوع الثالث : وصفه سبحانه وتعالى بما ينزه عنه من النقائص ، كقول اليهود الذين قالوا : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ . وقولهم : ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ ، وأنه استراح يوم السبت ، تعالى الله عما يقولون .

النوع الرابع : جحد معانيها وحقائقها ؛ كقول الجهمية : إنها ألفاظ مجردة ، لا تتضمن صفاتٍ ، ولا معانى ؛ فالسميع لا يدل على سمعٍ ، والبصير لا يدل على بصرٍ ، والحى لا يدل على حياةٍ . ونحو ذلك .

النوع الخامس :

تشبيه صفاته بصفات خلقه ، كقول الممثل : يده كيدى . إلى غير ذلك ، تعالى الله .

وقد توعد الله الملحدين في أسمائه وآياته بأشد الوعيد، فقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ﴾ [فصلت: ٤٠].

قوله: (ولا يكيفون ولا يمثلون) إلخ، تقدم بيان معنى التكييف والتمثيل.

و(سبحانه) سبحان مصدر مثل غفران، من التسبيح، وهو التنزيه.

[وقوله]: (لأنه سبحانه لا سمي له) هذا تعليل لما سبق من قوله عن أهل السنة: (ولا يكيفون، ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه).

(لا سمي له)؛ أي: لا نظير له يستحق مثل اسمه، كقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]. استفهام معناه النفي؛ أي: لا أحد يساميه، أو يماثله.

(ولا كفء له) الكفء هو المكافئ المماثل؛ أي: لا مثل له، كقوله تعالى في سورة «الإخلاص»: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

(ولا ند له): الند هو الشبيه والنظير، قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢].

(ولا يقاس بخلقه): القياس في اللغة: التمثيل؛ أي: لا يشبه، ولا يمثل بهم، قال سبحانه: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ﴾ [النحل: ٧٤].

فلا يقاس سبحانه بخلقه، لا في ذاته، ولا في أسمائه وصفاته، ولا في أفعاله، وكيف يقاس الخالق الكامل بالمخلوق الناقص؟! تعالى الله عن ذلك.

(فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره): وهذا تعليل لما سبق من وجوب إثبات ما أثبته لنفسه من الصفات، ومنع قياسه بخلقه؛ فإنه إذا كان أعلم بنفسه وبغيره وجب أن يثبت له من الصفات ما أثبته لنفسه، وأثبته له رسوله ﷺ.

والخلق لا يحيطون به علمًا فهو الموصوف بصفات الكمال التي لا تبلغها عقول المخلوقين، فيجب علينا أن نرضى بما رضيه لنفسه، فهو أعلم بما يليق به، ونحن لا نعلم ذلك.

وهو سبحانه: (أصدق قيلًا وأحسن حديثًا من خلقه) فما أخبر به فهو صدق وحقٌّ يجب علينا أن نصدقه، ولا نعارضه، وألفاظه أحسن الألفاظ، وأفصحها، وأوضحها، وقد بين ما يليق به من الأسماء والصفات أتم بيانٍ، فيجب قبول ذلك والتسليم له.

(ثم رسله صادقون مصدوقون): هذا عطف على قوله: (فإنه أعلم بنفسه ... إلخ). الصدق مطابقة الخبر للواقع؛ أي: صادقون فيما أخبروا به عن الله تعالى: (مصدوقون)؛ أي: فيما يأتيهم من الوحي بواسطة الملائكة؛ لأنه من عند الله، فهم لا ينطقون عن الهوى.

وهذا توثيق لسند الرسل ، عليهم الصلاة والسلام ، فقد قيل لهم الحق ، وبلغوه للخلق ، فيجب قبول ما وصفوا الله به .

فهم (بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون) ؛ أى : بخلاف الذين يقولون على الله بلا علم فى شرعه ودينه ، وفى أسمائه وصفاته ، بل بمجرد ظنونهم وتخيلاتهم ، أو بما يتلقونه عن الشياطين ، كالمتنبئين الكذبة ، والمبتدعة ، والزنادقة ، والسحرة ، والكهان ، والمنجمين ، وعلماء السوء ، كما قال تعالى : ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣] .

وقال تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٧٩] .

فإذا كان الله سبحانه وتعالى أعلم بنفسه وبغيره ، وكان أصدق قولًا ، وأحسن حديثًا من خلقه ، وكان رسله عليهم الصلاة والسلام صادقين فى كل ما يخبرون به عنه ، والواسطة بينهم وبين الله التى تأتيهم بالوحى من عنده واسطة صادقة من ملائكته الكرام ؛ وجب التعويل إذن على ما قاله الله ورسله لا سيما فى باب الأسماء والصفات نفيًا وإثباتًا ، ورفض ما قاله المبتدعة والضلال ممن يدعى المجاز فى الأسماء والصفات ، وينفيها بشتى وسائل النفى ، معرضين عما جاءت به الرسل ، معتمدين على أهوائهم ، أو مقلدين لمن لا يصلح للقدوة من الضلال .

ولهذا : تعليل لما سبق من كون كلام الله وكلام رسله أصدق وأحسن .

سبحان : اسم مصدرٍ من التسبيح ، وهو التنزيه .

ربك : الرب هو المالك السيد المربى لخلقه بنعمه .

العزة : القوة والغلبة والمنعة . وإضافة الرب إلى العزة من إضافة الموصوف إلى الصفة .

يصفون ؛ أى : يصفه به المخالفون للرسل ، مما لا يليق بجلاله .

وسلام . قيل : هو من السلام بمعنى التحية . وقيل : من السلامة من المكاره .

على المرسلين : الذين أرسلهم الله إلى خلقه ، وبلغوا رسالات ربهم ، جمع مرسلٍ ، وتقدم تعريفه .

العالمين : جمع عالم ، وهم كل من سوى الله .

المعنى الإجمالى : قد بينه الشيخ رحمه الله بقوله : فسبح نفسه ... إلخ .

ما يستفاد من الآيات .

١ - تنزيه الله سبحانه عما يصفه به الضلال والجهال مما لا يليق بجلاله .

٢ - صدق الرسل ووجوب قبول ما جاءوا به، وما أخبروا به عن اللّٰه.

٣ - مشروعية السلام على الرسل، عليهم الصلاة والسلام، واحترامهم.

٤ - رد كل ما يخالف ما جاءت به الرسل، لا سيما ما يتعلق بأسماء اللّٰه وصفاته.

٥ - مشروعية الثناء على اللّٰه، وشكره على نعمه، التى من أجلها نعمة التوحيد.

(وهو سبحانه قد جمع) إلخ هذا بيان للمنهج الذى رسمه اللّٰه فى كتابه لإثبات أسمائه وصفاته، وهو المنهج الذى يجب أن يسير عليه المؤمنون فى هذا الباب المهم.

فإنه سبحانه: (قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه)؛ أى: فى جميع أسمائه وصفاته.

(بين النفى والإثبات)، وهو نفى ما يضاد الكمال من أنواع العيوب والنقائص، كنفى الند والشريك، والسنة، والنوم، والموت، واللغوب.

وأما الإثبات فهو إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال للّٰه، كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٣، ٢٤]، وغير ذلك مما سيذكر له المؤلف نماذج فيما يأتى.

وقوله: (فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون)؛ أى: لا ميل لهم، ولا انحراف عن ذلك، بل هم مقتفون آثارهم، مستضيئون بأنوارهم.

ومن ذلك إثبات صفات الكمال للّٰه، وتنزيهه عما لا يليق به؛ فإن الرسل قد قرّروا ذلك الأصل العظيم، وأما أعداء الرسل فإنهم قد عدلوا عن ذلك.

وقوله: (فإنه الصراط المستقيم). تعليل لقوله: (فلا عدول لأهل السنة)؛ أى: لأن ما جاء به المرسلون هو الصراط المستقيم، والصراط المستقيم هو الطريق المعتدل الذى لا تعدُّد فيه، ولا انقسام، وهو المذكور فى قوله تعالى، من سورة «الفاتحة»: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وهو الذى ندعو اللّٰه، فى كل ركعةٍ من صلواتنا أن يهدينا إليه.

قوله: (صراط الذين أنعم اللّٰه عليهم): أى: أن الصراط المستقيم الذى جاء به المرسلون فى الاعتقاد وغيره، وسلكه أهل السنة والجماعة.

هو (صراط الذين أنعم اللّٰه عليهم)؛ أى: أنعم اللّٰه عليهم الإنعام المطلق التام المتصل بسعادة الأبد، وهم الذين أمرنا اللّٰه أن ندعوه أن يهدينا طريقهم، فهؤلاء الأصناف الأربعة هم أهل هذه النعمة المطلقة، وهم:

١ - النبيون : جمع نبيّ ، وهم الذين اختصهم الله بنبوته ورسالته ، وتقدم تعريفهم .

٢ - الصديقون : جمع صديق ، وهو المبالغ فى الصدق والتصديق ؛ أى : المبالغ فى الانقياد للرسول ﷺ مع كمال الإخلاص لله .

٣ - الشهداء : جمع شهيد ، وهو المقتول فى سبيل الله ، سمى بذلك ؛ لأنه مشهود له بالجنة ، ولأن ملائكة الرحمة تشهده .

٤ - الصالحون : جمع صالح ، وهو القائم بحقوق الله ، وحقوق عباده .

والصراط تارةً يضاف إلى الله تعالى ، كقوله تعالى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام : ١٥٣] لأنه هو الذى شرعه ونصبه ، وتارةً يضاف إلى العباد ، كما فى قوله تعالى : ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ لكونهم سلكوه .

وفى قوله : ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ . تنبيه على الرفيق فى هذا الطريق ، وأنهم هم الذين أنعم الله عليهم من النبيين ، والصديقين والشهداء والصالحين ؛ ليزول عن سالك هذا الطريق وحشة التفرد عن أهل زمانه ، إذا استشعر أن رفقته على هذا الصراط الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون . ثم أورد الشيخ رحمه الله فيما يلى : نماذج من الكتاب والسنة تشتمل على إثبات أسماء الله وصفاته ، وفيما يلى إيراد ذلك .

❁ قال الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ حفظه الله :

قوله : (ومِن الإيمانِ باللّهِ ؛ الإيمانُ بما وصَف به نفسَه فى كتابِه ، وبما وصَفَه به رسولُه ﷺ) :

هذه الجمل التي سيأتي بيان ما فيها من العلم النافع من كلام شيخ الإسلام والمسلمين أبي العباس أحمد بن تيمية - رحمه الله تعالى - هي تفصيل لما سبق من ذكر مجمل أركان الإيمان ، فإنه ذكر أركان الإيمان مجملة دون تفصيل .

ولهذا قال بعد أن ذكر أركان الإيمان :

(ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ) ، يعني : من الإيمان بالله الإيمان بصفات الله ﷻ فيما جاء في الكتاب ، وفيما ثبت في السنة ، أن هذا بعض الإيمان بالله ؛ وذلك لأن الإيمان بالله ﷻ يشمل ثلاثة أشياء :

* الإيمان بأن الله ﷻ واحد في ربوبيته .
* الإيمان بأن الله ﷻ واحد في ألوهيته .
* الإيمان بأن الله ﷻ واحد في أسمائه وصفاته .

فالإيمان بتوحيد الأسماء والصفات هو بعض الإيمان بالله ، ولهذا قال : (ومن الإيمان بالله) ،

وهذه الجملة تفيد أن أهل السنة والجماعة ، الذين يقررون هذا الاعتقاد ، أنهم ساعون في تكميل الإيمان بالله بإيمانهم بالأسماء والصفات التي أخبر الله ﷻ بها عن نفسه ، وأخبر بها عنه أعلم الخلق بربه محمد ﷺ .

وهذه الرسالة سيكون أكثرها في باب الأسماء والصفات ، فإن شيخ الإسلام ؒ أطال عليه لشدة الحاجة إليه ، ولكثرة المخالفين فيه ، ولكثرة الاشتباه فيه ، وقد قرر القاعدة العظيمة في هذا الباب بقوله : (الإيمان بما وصف الله به نفسه في كتابه أو وصفه به رسوله ﷺ) ، وهذه الجملة نأخذ منها أن هذا الباب إنما عمدته على كتاب الله جل وعلا ، وعلى السنة التي ثبتت عن المصطفى ﷺ .

فإذن مصدر توحيد الأسماء والصفات إنما هو الكتاب والسنة ، وهنا كما قال أئمتنا رحمهم الله تعالى ، ومنهم الإمام أحمد بن حنبل ؒ إذ قال في الصفات : « لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ ، ولا نتجاوز القرآن والحديث » ، فصارت قاعدة : أن ما جاء في كتاب الله ، وما ثبت في السنة ، من الأسماء والصفات والأفعال ، وكذلك في الاعتقادات في الأمور الغيبية ، أنه يثبت لله ﷻ .

إذا تقرر هذا فثم بيان وهو : أن ما يوصف الله ﷻ به مما يكون في كلام أهل العلم مما لم يأت في الكتاب والسنة ، هذا على أقسام :

الأول : أن القاعدة – كما ذكرنا – أنه لا يتجاوز القرآن والحديث ، ولكن ربما استعمل بعض أهل العلم من أئمة السنة ألفاظًا هي داخلة في باب الصفات ، أو داخلة في باب الأفعال ، ولم تثبت صفة لله ﷻ في الكتاب والسنة ، وهذا الباب قال أهل العلم : إنه من باب الإخبار . والقاعدة عندهم أن باب الإخبار أوسع من باب الصفات ؛ كما أن باب الصفات أوسع من باب الأسماء ، وسيأتي إيضاح هذه القاعدة – إن شاء الله تعالى – بعد ذكر بقية الأقسام .

الثاني : أنه تارة تُذكر صفة من الصفات أو فعل من الأفعال ولا يصح أن ينسب إلى الله ﷻ ، فقد يطلق بعض العلماء كلمة لا تصح أن تكون صفة لله ﷻ ، أطلقوها إما من جهة الاجتهاد أو من جهة الحاجة إليها في زمن معين ونحو ذلك ، وإذا كانت الصفة لا يصح أن يوصف الله ﷻ بها فإنها تُرد ؛ لأن قاعدة هذا الباب : ألا يُتجاوز القرآن والحديث .

الثالث : أن يكون ثمة إطلاق لبعض الكلمات التي فيها وصف لله ﷻ ، لكن ليس هناك ظهور في معناها من أنها تحتمل معنى صحيحًا يصح أن يُقال : إنه من باب الإخبار عن الله ﷻ بما ثبت جنسه أو معناه في الكتاب والسنة ، فقد تحتمل المعنى الصحيح ، وقد تحتمل معنى غير صحيح .

وذلك في مثل تسمية الله ﷻ بالدليل مثلًا ؛ فإن بعض أهل العلم سموا الله ﷻ بذلك من باب

الإخبار، خاصة في الدعاء من مثل ما أرشد به الإمام أحمد حيث أرشد من يدعو بقوله: «يا دليل الحيارى دلني على طريق الصادقين، واجعلني من عبادك الصالحين»، أو نحو ذلك، فأثبت طائفة هذا الاسم، ولكن هذا يحتمل المعنى الصحيح ويحتمل معنى آخر. ولهذا فإن هذا الباب يُطلق فيه مما لم يأت في الكتاب والسنة - مما هو محتمل - على الوجه الذي يكون فيه كمال لله ﷻ، وهذا في مثل هذا الاسم وهو الدليل، فإن الله ﷻ دليل دل العباد عليه، فإن العباد ما استدلوا على الله ﷻ إلا بدلالته، فالله سبحانه دليل، وهو ﷻ مدلول عليه أيضًا؛ ولهذا ساغ الإخبار بمثل هذا، وسيأتي - إن شاء الله - مزيد تفصيل.

المقصود: أن القاعدة المقررة عند أهل السنة والجماعة هي: ألا يُتجاوز القرآن والحديث، فما لم يأت في الكتاب والسنة من الصفات مما ليس جنسه موجودًا في الكتاب والسنة، فإنه لا يصح أن يُنسب لله ﷻ ولو في باب الإخبار، ولكن إذا كان في باب الإخبار قد جاء مثله فإنه يُنسب، وقد يُسمى الله ﷻ بذلك في باب الإخبار، مثل ما يقال: إنه ﷻ قديم، أو صانع، أو مريد، ونحو ذلك، فلم يأت في القرآن ولا في السنة، أن الله ﷻ قديم، أو أنه مريد، أو صانع - يعني: التسمية الخاصة باسم الصانع - وذلك لأن هذه الأشياء تنقسم إلى ما فيه كمال وإلى ما فيه نقص، فلأجل الاحتمال لم تُطلق في باب الصفات، وإنما يجوز أن تطلق في باب الخبر عن الله ﷻ، يعني: يُخبر عن الله ﷻ بأنه موجود، وأنه مريد، وأنه قديم، وهذا ليس من باب الاسم ولا من باب الصفة.

يتبع هذا أن نذكر في مقدمة شرحنا لهذا الكتاب العظيم قواعد مهمة في باب الأسماء والصفات، هي كالتفصيل لهذه القاعدة التي نبه عليها شيخ الإسلام بقوله: (ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ)، فمن القواعد المقررة في ذلك: أن باب الأسماء لله ﷻ أضيق من باب الصفات، وأن باب الصفات أضيق من باب الأفعال، وأن باب الأفعال أضيق من باب الإخبار، ومعنى هذا بعبارة مختلفة: أن باب الإخبار عن الله ﷻ - أوسع من باب الأفعال، وباب الأفعال أوسع من باب الصفات، وباب الصفات أوسع من باب الأسماء، فإذا ثبت في الكتاب والسنة صفة لله ﷻ لا يعني أنه يسوغ أن يُشتق منها اسم لله ﷻ، بل قد يكون ثم صفة وُصف الله ﷻ بها ولا يلزم أن يُشتق له ﷻ منها اسم؛ لأن هذا الباب مبناه على التوقيف وليس مبناه على الاشتقاق، فإذا أُطلق الاسم تقيدنا بإثبات الاسم، وإذا أطلقت الصفة تقيدنا بإطلاق الصفة، لكن إذا ثبت الاسم لله فإنه يُشتق منه صفة لله؛ لأن باب الأسماء أضيق، فإن الاسم يشتمل على دلالة على الذات وعلى دلالة على الصفة.

فمثلًا: من أسماء الله ﷻ الرحمن، فإننا نقول: إنه ﷻ موصوف بصفة الرحمة، والله ﷻ

السميع ، فنقول : إنه سبحانه موصوف بصفة السمع ، والله ﷻ حي ، فنقول : إنه ﷻ موصوف بصفة الحياة ، ونحو ذلك ، وهذا كثير في هذا الباب . كذلك باب الأفعال أوسع من باب الصفات ، يعني قد يكون في الكتاب والسنة وصف الله ﷻ بالفعل ولكن لم تأت الصفة من الفعل ، فهنا يُتقيد بالكتاب والسنة ، فنثبت لله ﷻ ما أثبته لنفسه بالفعل ، وأما الصفة أو الاسم من باب أولى ألا يوصف الله ﷻ إلا بما ثبت في الكتاب والسنة .

مثلًا : الله ﷻ وصف نفسه بأنه يستهزئ ، وأنه يخادع ، وأنه يمكر ، وهذه الأفعال هي لله ﷻ على وصف ونعت الكمال الذي لا يشوبه نقص ، وقد أُطلقت في الكتاب والسنة بالمقابلة ؛ كما قال ﷻ : ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤، ١٥]، وقال تعالى : ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] ، وقال : ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠] . فهذه وَصْفُ الله ﷻ بها من باب ذكر فعله سبحانه وتعالى ، فلا يُشتق له من ذلك اسم ؛ كما غلط من غلط في ذلك من أمثال القرطبي في شرحه للأسماء الحسنى بقوله : إنه يشتق من يمكر ماكر ، أو إن من صفاته المكر - هكذا بإطلاق - أو إنه يُشتق له من قوله تعالى : ﴿يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أنه مستهزئ ، أو أن له صفة الاستهزاء بإطلاق ، ونحو ذلك . وإنما المقرر ألا يُتجاوز القرآن والحديث ، فيقال : يوصف الله ﷻ بأنه يستهزئ بمن استهزأ به ، فنأتي بصيغة الفعل ؛ لأن هذا هو محض الاتباع ، أما إطلاق اشتقاقات فإن هذا فيه شيء ، نعم قد يُطلق الاشتقاق مقيدًا ، وهذا ينفي النقص ، فيقول القائل - مثلًا - : الله ﷻ يوصف بمخادعة من خادعه ، ويوصف بالاستهزاء بمن استهزأ به أو بأوليائه ، ويوصف بالمكر بمن مكر به أو بنبيه أو بأوليائه .

وهذا أجازه العلماء إذا كان على وجه التقييد ؛ لأنه ليس فيه نقص وليس فيه تعدٍّ للمعنى ؛ لأن المعنى المراد هو إثبات الصفة مقيدة ، ولكن الأولى أن يُلتزم ما جاء في الكتاب والسنة ، مثل : صفة الملل ، فلا يُقال : إن الله يُوصف بالملل ، هذا باطل ، لأن الملل نقص ، ولكن الله ﷻ وصف نفسه بأنه يمل ممن مل منه ، وهذا على جهة الكمال ، فهذه الصفات التي تحتمل كمالًا ونقصًا فإن لله ﷻ فيها الكمال ، والكمال فيها يكون على أنحاء ، منها : أن يكون على وجه المقابلة . قال ﷻ : ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] ، قال ﷻ : ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠] ، فهو سبحانه يخادع من خادعه ، ويستهزئ بمن استهزأ به ، وهذا كمال ؛ لأنه من آثار أنه ﷻ عزيز ، وجبار ، وذو الجلال ، وذو الكمال ، وذو القدرة العظيمة ، فهو ﷻ لا يُعجزه شيء .

وأيضًا باب الإخبار أوسع من باب الأفعال ، يعني : أن باب الأفعال مُقيد بالنصوص ، ولكن قد نُخبر عن الله ﷻ بفعل أو بصفة أو باسم لكن ليس من باب وصف الله ﷻ به ، وإنما من جهة الإخبار لا من

جهة الوصف ، وهذا سائغ - كما ذكرت آنفًا - لأن باب الإخبار أوسع هذه الأبواب ، فإذا كان الإخبار بمعنى صحيح لم ينف في الكتاب والسنة وثبت جنسه في الكتاب والسنة فإنه لا بأس أن يُخبر عن ذلك . مثال ذلك : أن يُخبر عن الله ﷻ بأنه الصانع ، فإنه جاء في القرآن قوله ﷻ : ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل : ٨٨] ، وقد جاء في الحديث عند مسلم : « فإنَّ اللَّهَ صانع مَا شاءَ »[(١)] ، وكذلك قوله ﷺ : « إنَّ اللَّهَ صانعٌ كلَّ صانعٍ وصنعتهُ » . هذه رواية الحاكم[(٢)] ، هذا أيضًا من هذا الباب ، فإذن لفظ الصانع ، والمريد ، والشيء ، قال بعض أهل العلم : [لا] يُخبر عن الله ﷻ بأنه شيء . وهذا فيه نظر ؛ لأنه جاء في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال : « لَا شيءَ أغيرُ مِنَ اللهِ »[(٣)] .

المقصود : أن هذه القاعدة مهمة جدًا فيما سيأتي من بيان الأسماء والصفات ، وتقرير عقيدة أهل السنة والجماعة في ذلك .

وصفات المقابلة تُقيد بما قُيدت في النصوص ، فاللَّه ﷻ لم يصف نفسه بأنه يستهزئ دون مقابلة ، وإنما وصف نفسه بأنه يستهزئ بمن استهزأ به ، فقال : ﴿مُسْتَهْزِءُونَ ۝ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة : ١٤، ١٥] ، لم يصف نفسه مطلقًا بأنه يُخادع ، بل وصف نفسه بأنه يُخادع من خادعه ، وهذا كله تقييد ؛ وذلك لأن هذه الصفات تحتمل كمالًا ونقصًا ، فعند الناس أن الذي يستهزئ ويخادع ويمكر ، ونحو ذلك ، أن هذه الصفات ليست بجهات كمال ، واللَّه ﷻ كل كمال في المخلوق هو أحق به .

فالاستهزاء - مثلًا - فإن الذي لا يرد على الاستهزاء - بحسب العرف العام - قد يكون مأخذه العجز ، وقد يكون مأخذه الضعف ، مثل من يستهزئ به كبير قوم أو يستهزئ به أمير أو ملك أو رئيس أو نحو ذلك ، فمن جهة ضعفه لا يَرد عليه استهزاءه ، واللَّه ﷻ موصوف بصفات الكمال ؛ ولهذا مع أن العرب تعلم أن الجهل مذموم وتذم الجاهلين .

لكن قال عمرو بن كلثوم مثبتًا لنفيه كمال هذا الوصف بقوله :

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَينا فَنَجْهَلَ فَوقَ جَهْلِ الجَاهِلِينَا

وذلك لأن الجهل منه على من جهل عليه هذا من آثار قوته وعزته وجبروته وملكه وسلطانه ، فلهذا صارت كمالًا بهذا الاعتبار ، وهذه لها تفصيل يأتي - إن شاء اللَّه - مزيد بيان لها عند الآيات التي فيها

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٩) من حديث أبي هريرة .

(٢) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (ص٤٦) ، والحاكم (١/ ٨٥) ، والبزار (٧/ ٢٥٨) من حديث حذيفة . وصححه الألباني في ظلال الجنة (٣٥٧) .

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٢٢) ، ومسلم (٢٧٦٢) من حديث أسماء .

تقرير ذلك ، والنصوص التي ورد إطلاق هذه الصفات فيها تُحمل على النصوص المقيدة .

ومن القواعد المقررة في هذا الباب :

أن أسماء الله ﷻ لا تُحصر بعدد معين ؛ كما جاء في الحديث أن النبي ﷺ بين أن لله ﷻ أسماء استأثر بها في علم الغيب عنده ، قال ﷺ في تعليمه الدعاء : « اللهمَّ إنِّي عبدكَ ، ابنُ عبدكَ ، ابنُ أَمَتِكَ ، ناصِيتي بيدكَ ، ماضٍ فيَّ حُكمكَ ، عدلٌ فيَّ قضاؤكَ ، أسألكَ بكلِّ اسمٍ هوَ لكَ ، سميتَ بهِ نفسكَ ، أو أنزلتهُ في كتابكَ ، أو علمتهُ أحدًا مِن خلقكَ ، أو استأثرتَ به في علمِ الغيبِ عندكَ ، أنْ تجعلَ القرآنَ ربيعَ قلبي ... »[1] إلى آخر الحديث . فدل هذا الحديث على أن أسماء الله ﷻ لا تُحد بحد ، أما ما جاء في الصحيحين أن النبي ﷺ قال : « إنَّ للّهِ تسعةً وتسعينَ اسمًا مَنْ أحصاها دخلَ الجنةَ »[2] ، فهذا تخصيص لتسعة وتسعين اسمًا بهذا الفضل بأن من أحصاها دخل الجنة ، وليس معناها حصرًا للأسماء الحسنى في هذا العدد ، وأسماء الله ﷻ حسنى ؛ كما قال سبحانه وتعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف : ١٨٠] ، ومعنى كون أن أسماء الله ﷻ حسنى أنها بالغة في الحسن نهاية الحسن ، وبالغة في الجلال والكمال والجمال نهاية الجلال ونهاية الكمال ونهاية الجمال .

وقد فُسر الإحصاء في قوله ﷺ : « مَنْ أحصاهَا دخلَ الجنةَ » بأشياء ، وجماع ذلك ثلاثة أمور ، الإتيانُ به مجتمعة هو معنى الإحصاء :

الأول : حفظها .

الثاني : معرفة معانيها .

الثالث : التعبد لله ﷻ - بها ؛ بسؤاله بها ، ودعائه بها ، ونحو ذلك .

ومن القواعد المقررة في هذا الباب :

أن صفات الله ﷻ تنقسم باعتبارات ، فهي تنقسم إلى :

صفات ذاتية : وهي الصفة التي لا تنفك عن الله ﷻ ، يعني : أن الله ﷻ موصوف بها دائمًا وليس في حال دون حال ، مثل : الرحمة ، فإن الله ﷻ من صفاته الذاتية أنه رحيم وأنه ذو رحمة ، وكذلك الغني فالله ﷻ غني ، وكذلك القدرة فالله ﷻ قدير ، وذلك من صفات ذاته ، وكذلك العلو فالله ﷻ موصوف بأنه ذو العلو ، ونعني بالعلو جميع أقسامه : علو الذات ، وعلو القهر ، وعلو القدر ، وهذا كله

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢) ، وابن حبان (٣/ ٢٥٣) ، والطبراني (١٠٣٥٢) ، والحاكم (١/ ٦٩٠) من حديث ابن مسعود . وصححه الألباني في تعليقاته على صحيح ابن حبان (٩٦٨) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣٦) ، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة .

صفة ذاتية لله ﷻ لا تنفك عن الموصوف، والله ﷻ سميع وبصير، هذه صفات ذاتية له ﷻ.

وصفات فعلية، وهي التي يتصف الله ﷻ بها بمشيئته وقدرته، يعني: أنه ربما اتصف بها في حال، وربما لم يتصف بها، مثل: صفة الغضب مثلًا، فالله ﷻ ليس من صفاته الذاتية الغضب، فإنه يغضب ويرضى، يغضب حينًا ويرضى حينًا؛ كما في قوله ﷻ -: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١] وهنا الغضب يحل، وأيضًا جاء مبينًا في حديث الشفاعة أنه ﷺ قال: «إنَّ ربي قد غَضِبَ اليومَ غضبًا لم يَغضبْ قبلهُ مثلهُ ولنْ يغضبَ بعدهُ مثلهُ»[1]، ومثل: الاستواء، فإن الاستواء صفة فعلية باعتبار أن الله ﷻ لم يكن مستويًا على العرش، ثم استوى على العرش. وهذا باب واسع، وهذا يسمى عند كثير من العلماء بالصفات الاختيارية، وهي التي نفاها ابن كُلاب ومن شابهه وأخذ نهجه من الأشاعرة، والماتريدية، ونحوهم؛ كما سيأتي تفصيله إن شاء الله في مواضعه.

أيضًا من التقسيمات: أن أسماء الله ﷻ وصفاته تنقسم من حيث معناها إلى:

* منها ما هي أوصاف أو أسماء جلال.
* ومنها ما هي أوصاف أو أسماء جمال.
* ومنها ما هي أوصاف أو أسماء لمعاني الربوبية.
* ومنها أوصاف أو أسماء لمعاني الألوهية.

وهذه انقسامات للمعاني، فأسماء الله ﷻ منها أسماء جلال ومنها أسماء جمال، وضابط ذلك أن أسماء الجمال ما كان فيها فتح باب المحبة من العبد لربه ﷻ من جنس أسماء وصفات الرحمة؛ كصفة الرحمة والأسماء المأخوذة منها كالرحمن، والرحيم، ونحو ذلك، ومثل اسم الله ﷻ الجميل أو صفة الجمال لله، واسم الله ﷻ النور أو صفة النور لله ﷻ، والله ﷻ رزاق فاسمه الرزاق وذو الرزق، ونحو ذلك مما فيه إحسان للعباد، فهذه يقال لها: صفات جمال.

ولهذا شيخ الإسلام في ختمه للقرآن المشهور نسبتها إليه يقول في أولها: «صدق الله العظيم المتوحد في الجلال بكمال الجمال تعظيمًا وتكبيرًا، الذي نزل القرآن على عبده ....» إلى آخره.

هنا قال: «المتوحد في الجلال بكمال الجمال» ذلك أن أسماء الله ﷻ منها جلال ومنها كمال، أما أسماء وصفات الجلال فضابطها أنها الأسماء والصفات التي فيها معاني جبروت الله ﷻ وعزته وقهره، مثل اسم الله العزيز، والقهار، والجبار، والقوي، والمنتقم، ونحو ذلك من الأسماء والصفات، فمعاني العزة والجبروت والقهر هذه كلها جلال؛ لأنها تورث الإجلال والتعظيم والخوف

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٦)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس.

والهيبة لله ﷻ ومن الله ﷻ . وأسماء الله ﷻ أو صفاته من جهة الربوبية ؛ كاسم الله ﷻ الرب ، والمالك ، والملك ، والسيد - عند من أطلقه اسمًا لله ﷻ ومدبر الأمر الذي يجير ولا يجار عليه ، والرزاق ، ونحو ذلك من الأسماء التي فيها معاني الربوبية ، قد تكون ببعض الاعتبارات أسماء جلال ، وقد تكون أسماء جمال ، وهذا باب واسع يُطلب من مظانه . كذلك من الأسماء ما فيها معاني الألوهية مثل : الله ، والمعبود ، مع أن المعبود ما أطلق اسمًا ، يعني : ما فيه معانٍ تدل على إفراد الله ﷻ بأفعال العبيد .

وتقسيم الأسماء والصفات إلى ما يرجع إلى الجلال وما يرجع إلى الكمال دليله اللغة والمعنى ، فصفات الجلال هي في اللغة صفات جلال ، وصفات الجمال هي هكذا في اللغة ، وقد قال النبي ﷺ : « إنَّ اللَّهَ جميلٌ يُحبُّ الجمالَ »[1] ، هو جميل ﷻ في ذاته وفي أسمائه وصفاته وأفعاله ، وهو ﷻ ذو الجلال والإكرام ، فوصف نفسه بأنه ذو الجلال ، ووصف نفسه بأنه جميل ، والله ﷻ له جمال الذات وله جلال الذات ، وله جمال الأسماء والصفات وجلال الأسماء والصفات ، وهذا مأخذه من النصوص واللغة ؛ لأن الجلال غير الجمال ، ومأخذ الجلال من الأسماء غير مأخذ الجمال من الأسماء ، وهذا ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في مواضع ، وذكره ابن القيم في مواضع ، وهو مقرر عند العلماء في شرح حديث : « إنَّ اللَّهَ جميلٌ يُحبُّ الجمالَ » ، وكذلك عند قوله تعالى : ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن : ٢٧] .

ومن القواعد المقررة في هذا : أن العقل تابع للنقل ، وأن نصوص الكتاب والسنة لا يُحكم فيها القوانين التي اصطلح عليها طوائف من الخلق ، بل نأخذ القواعد العقلية من النصوص ، فالنصوص مصدر للقواعد العقلية ؛ كما أنها مصدر للشرع وللأحكام ، وهذا فيه إبطال لمن قدم العقل على النقل أو جعل العقل أصلًا والسمع فرعًا ، وهذه القاعدة هي التي كتب فيها شيخ الإسلام كتابه العظيم العجاب « درء تعارض العقل والنقل » الذي قال فيه ابن القيم ؒ مثنيًا عليه معظمًا له :

واقرأ كِتابَ العقلِ والنقلِ الذي ... ما في الوُجُودِ لَهُ نَظِير ثَانِ

فإن هذا الكتاب أصل في دحض أصول المتكلمين وأصول المبتدعة من أشاعرة ونحوهم والمعتزلة ، وليس ثم مصنف يعدله في هذا من مصنفات علماء المسلمين ، وهو مطبوع بتحقيق الدكتور محمد رشاد سالم في أحد عشر مجلدًا مع الفهارس ، وهذه القاعدة يُستفاد منها في الرد على أولئك في مواضعه ، وتفصيلها يأتي إن شاء الله تعالى .

---

(١) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود .

ومن القواعد المقررة في هذا الباب ، والتي سنحتاجها - إن شاء الله تعالى - فيما سيأتي من بيان معاني الآيات والأحاديث التي فيها الصفات : «أن الواجب على العباد أن يؤمنوا بما أنزل الله ﷻ في كتابه» .

والإيمان بما أنزل الله ﷻ في كتابه أو أخبر به نبيه ﷺ من الأسماء والصفات يكون بأشياء :

الأول : إثبات الصفة ؛ لأن الله ﷻ أثبتها ، فتثبت كما أثبتها الله ﷻ ، وهذا أول درجات الإيمان .

الثاني : أن يُثبت المعنى الذي يدل عليه ظاهر اللفظ ، فإن القرآن نزل بلسان عربي مبين تُعقل معانيه ، وتُفهم ألفاظه بلسان العرب وبلغة العرب ، وآيات الصفات وآيات الأسماء هي من القرآن ، فهي تُفهم باللسان العربي ، فكل اسم من أسماء الله له معنى يدل عليه ، وكل صفة من صفات الله لها معنى تدل عليه بظاهر اللفظ ، فيجب إثبات الصفة من حيث هي ، ويجب إثبات المعنى الذي في اللفظ الظاهر وما يتبع ذلك .

نقول : إثبات المعنى ، لم ؟ لأن الله ﷻ قال : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [محمد : ٢٤] ، وقال سبحانه : ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء : ١٩٥] ، يعني : بين واضح ، وهذا يعني أن آيات الكتاب - ومنها آيات الأسماء والصفات - يتعلق بها التدبر والفهم ، والتدبر فرع العلم بالمعنى ، ليست الأسماء والصفات غير معلومة المعنى فإن معانيها معلومة ، والتدبر للمعاني ، أما لو لم تكن لمعانٍ صارت بمنزلة الأحرف الهجائية (أ ، ب ، ت ، ث ...) إلى آخر ذلك ، ليس لها معانٍ خاصة تدل عليها ، وهذا يعني أنها لا تُعقل ولا تُتدبر ، ولكن الله ﷻ أمرنا أن نعقل وأن نتدبر كتابه ، وأعظم ما في القرآن الدلالة والعلم بالله ﷻ ، ووصف الله ﷻ ، ونعوت كماله ﷻ ، وهذه كلها متعلق بها التدبر ، فكيف يكون التدبر لغير هذا المطلب الأعظم ؟

أيضًا من الإيمان بها : أن يؤمن بمتعلقاتها في الخلق ، وبآثارها في الخلق ، فإن الأسماء والصفات لها آثار متعلقة بخلق الله ، ومتعلقة بملكوت الله ، فكل اسم وكل صفة لها أثر ، فنؤمن بالصفة من حيث هي ، ونؤمن بما اشتملت عليه من المعنى ، ونؤمن بالأثر الذي للصفة ، وهذا قد يُسمى متعلق الصفة ، فمثلًا : الله ﷻ موصوف بأنه ذو سمع وأنه السميع ، وهذا نثبت فيه السمع لله ﷻ ونثبت معنى السمع ، ثم نثبت أثر هذه الصفة في الخلق ، وأن الله ﷻ لا يعزب عنه مسموع ، سبحان من وسع سمعه الأصوات ، ما معنى السمع ؟

الجواب : السمع من حيث هو معناه إدراك ما يُسمع .

وهنا تنبيه : وهو أن المعاني يصعب تفسيرها ، بخلاف الذوات والأعيان فإنه يسهل التعريف بها ؛ ولهذا تجد أن ما يقوم بقلب البشر من الصفات إذا عرفهُ فإنه يُعرِّف ما قام بقلبه بتعلقه بذاته وتعلقه

بالبشر، مثلًا لو طلب تعريف الرحمة فإنها معنى قلبي، وكل واحد منا يدرك معنى الرحمة؛ لأنها معنى قلبي يشعر به، والدلالة بما يشعر به هذه دلالة أعظم من دلالات الألفاظ، فإذا أراد أن يُعبر عنه ربما عسر عليه أن يعبر بتعبير مطلق، يعني: بتعبير عام يشمل ما في قلبه ويشمل غيره، ربما عسر على كثير من الناس، بل ربما عسر على كثير من أهل العلم، ولكن الخاصة يؤتيهم اللَّه ﷻ من ذلك ما يشاء، فإذا عرف معرف الرحمة فإنه ربما يعرفها بالنظر إلى حاله، مثلما عرفها الأشاعرة.

فكل أعمال القلوب التي في الإنسان ووصف اللَّه ﷻ بها نفسه عرفوها بناء على أنها أعمال قلوب في الإنسان؛ ولذلك نفوها عن اللَّه ﷻ، وهذا في المعاني كثير. لهذا نقول: إن المعاني تُعقل معانيها؛ الصفات التي من هذا الجنس تُعقل معانيها، وأما تفسيرها فلابد أن تقف عليه بعبارة من عبارات أهل العلم المحققين؛ لأن تفسير تلك المعاني قد يكون من المفسر بالنظر إلى بعض متعلقاتها، فتُفسر الرحمة من جهة تعلقها بالمخلوق، ويُفسر الحياء من جهة اتصاف المخلوق به، ويُفسر الغضب من جهة اتصاف المخلوق به، ويُفسر الرضا من جهة اتصاف المخلوق به.. وهكذا، فإن هذه وجودها مطلق من دون إضافة - كما هو معلوم - إنما يوجد في الأذهان، أما في الخارج - يعني: في الواقع - فإنما توجد مضافة، مثل: رحمة اللَّه، ورحمة الإنسان، فإذا عرف مُعرف هذه المعاني فإنه قد ينظر في ذلك إلى ما يعقله من نفسه؛ ولهذا ضل من ضل في هذا الباب من هذه الجهة، فيُتنبه إلى هذه القاعدة وهي: أن المعاني تفسيرها من دون إضافة قد يعسر على كثيرين، فيؤخذ تفسيرها من أهل العلم المحققين، حتى بعض اللغويين يُفسرها باعتبار من قامت به، فربما فسر الحياء وهو ينظر إلى حياء المخلوق، لكن الحياء الذي هو مطلق عن الإضافة الذي هو معنى كلي في الذهن قد لا يصل إلى تعريفه؛ لأنه إنما وجد في ذهنه بالتخصيص؛ لهذا قال شيخ الإسلام - رحمه اللَّه تعالى - في «التدمرية»، في قاعدته المعروفة في الفرق بين التعميم: «إن المعاني لا توجد كلية إلا في الأذهان، أما في الخارج فإنما توجد بالإضافات والنسب».

والقواعد في هذا كثيرة، وقد ذكر ابن القيم - رحمه اللَّه تعالى - منها ما يضيق المقام على تعداده، بعضها سنستخدمه - إن شاء اللَّه - في فهم النصوص، والرد على المخالفين من المؤولة والمعطلة والمشبهة والمجسمة، ونحو ذلك من أصناف أهل الضلال في هذه الأبواب.

القاعدة الأخيرة التي نختم بها هي: أن ظاهر النصوص مراد، وأن الإيمان إنما يكون بظاهر النص؛ لأن الظاهر هو ما يتبادر إلى الذهن من النص، وهذا هو الذي كلفنا اللَّه ﷻ بالإيمان به؛ إذ لم نُكلف في الغيبيات بأن نؤمن بأشياء وراء الظاهر لأنها لا تدرك، وهذه الغيبيات لابد من إدراكها.

فما هو ظاهر النصوص ؟

الجواب : ظاهر النصوص هو إثبات المعنى دون إثبات الكيفية ؛ ولهذا وجب الإيمان به ؛ لأن فيه إثباتًا للمعنى دون إثبات الكيفية ، والله ﷻ وصف نفسه بأنه استوى على العرش ، وهذا إثبات للمعنى دون إثبات للكيفية ، ووصف نفسه بأنه يغضب ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفتح : ٦] ، وهذا إثبات للمعنى دون إثبات للكيفية ، ووصف نفسه بأنه يرضى وهذا إثبات للمعنى دون إثبات للكيفية ، فظاهر النص هو المعنى الذي دل عليه ، أما كيفية الاتصاف فإن هذه لا يدل عليها ظاهر النصوص ؛ ولهذا ضل من ضل حيث زعم وظن أن ظاهر النصوص فيه التشبيه أو التمثيل ، ففهم من الغضب غضب المخلوق ، يعني : كيفية غضب المخلوق ، وفهم من الرضا رضا المخلوق ، يعني : كيفية رضا المخلوق ، فيفسرون الغضب - مثلًا - بأنه ثوران دم القلب ، أو غليان دم القلب ، وهذا أثر الغضب في المخلوق وليس هو معنى الغضب ، بل الغضب له معنى كلي لا يتقيد بالمخلوق . وهذا الباب مهم جدًا ، فإن الإيمان بظاهر النص هو إيمان بالمعنى الذي دل عليه هذا الظاهر ، وهذا الظاهر أحيانًا يكون إفراديًا نفهمه من كلمة واحدة ، وأحيانًا يكون هذا الظاهر تركيبيًا نفهمه من تركيب الكلام ، يعني أن الظاهر ينقسم إلى قسمين : ظاهر إفرادي ، وظاهر تركيبي .

الظاهر الإفرادي : هو الذي دل عليه أفراد الكلام ، يعني : كلمة واحدة ؛ كقوله تعالى : ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفتح : ٦] ، وقوله تعالى : ﴿وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾ [طه : ٨١] ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوۡقَهَاۚ﴾ [البقرة : ٢٦] ، ونحو ذلك من الصفات .

وأما الظاهر التركيبي : فهو الذي يُفهم لا من جهة لفظه ، ولكن من جهة الكلام كله ، وهذا حجة وأصل في اللغة ، وهو مقرر عند أئمة أهل اللغة ، وكذلك أئمة أهل السنة في كتب العقائد وغيرها ، فيُفهم بسياق الكلام ، وهذا هو الذي يُسمى عند الأصوليين بالدلالة الحملية للكلام ، هذا في غاية الأهمية للناظر في هذا الباب - باب الأسماء والصفات - لأن من ادعوا أن السلف أوّلوا في باب الأسماء والصفات احتجوا ببعض كلامهم في هذا الأمر ، وهم إنما أرادوا دلالة التركيب ، ومعلوم أن الكلام إذ دل بتركيبه فإنه لا يكون نفيًا لما دلت عليه أفراده .

مثال ذلك : قول الله ﷻ : ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان : ٤٥] ، الظاهر الإفرادي للكلام في قوله : ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أن الرؤية تكون لله ، يعني : يرى الرب ﷻ ، لكن لَمّا قال : ﴿كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ علمنا بدلالة التركيب - وهو ما يُفهم به مقصود المتكلم من كلامه - أنه أراد قدرة الله ﷻ : ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ كذلك قوله ﷻ : ﴿قَدۡ مَكَرَ

ﭐلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل: ٢٦]، هل هذه من آيات الصفات التي فيها الإتيان ؟ لا ، ولم لم يحملها السلف على أنها من آيات صفة الإتيان ؟ لأن المقصود بالإتيان - إذا أُثبتت الصفة - إتيان الذات وليس إتيان الصفات ، وهنا قال : ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ﴾ وهذا ليس دليلًا على صفة الإتيان ؛ لأن التركيب تركيب الكلام يدل على أن المراد إثبات الصفة بقوله : ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ﴾ ، ومن المعلوم المتقرر أن الله ﷻ ليس كمثله شيء ، فهو سبحانه لا يأتي بذاته للبنيان من قواعده ، فهو ﷻ أجل من ذلك ، وهو سبحانه مستوٍ على عرشه ، وإنما المقصود إتيان صفاته اللائقة في هذا الموضع ، وهي قدرته ، وبطشه ، وقوته ، وعقابه ، ونكاله بالكافرين ؛ لذلك قال : ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ .

أيضًا من أمثلته : قولـه ﷻ في سورة البقرة : ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ١١٥]، هنا فسر السلف الوجه بالقبلة ؛ لأن الوجه من حيث اللفظ يطلق على الجهة ويطلق على الصفة ، فيكون « وجه » بمعنى وجهة ، ويكون وجه الله بمعنى الصفة التي هي الوجهة المعروفة ، هنا ما حُمل المعنى على الصفة مع أنها إضافة صفة إلى متصف بها وهو (وجه الله) ؛ وذلك لدلالة السياق ودلالة التركيب ، وهذا ظاهر لأن سياق الآيات في القبلة ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ يعني القبلة ؛ لهذا خرجت هذه الآية عن أن تكون من آيات الصفات .

كذلك قوله ﷻ : ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢]، هذه هي الآية الوحيدة التي اختلف فيها السلف هل هي من آيات الصفات أم ليست من آيات الصفات ؟ فبعضهم قال : هي من آيات الصفات ، وبعضهم فسرها بما يخرجها عن كونها من آيات الصفات ، لم ؟

الجواب : لتنازع هذا الموضع بين أن يُقصد الفرد فتكون من آيات الصفات ، أو أن يكون المقصود التركيب فتكون من غير آيات الصفات ، يعني : هل يفهم الكلام بفهم كلمة (سَاق) ، أو نفهمه مع سابقه ولاحقه ؟ فالعرب تقول : كشفت الحرب عن ساقٍ . إذا كشفت عن هول وشدة ، وهذا استعمال تركيبي تستعمله العرب للدلالة على الهول والشدة ؛ فلهذا قال ابن عباس وغيره : ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾ يعني عن هول وشدة .

وآخرون كأبي سعيد وغيره قالوا : ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾ يعني : عن ساق الرحمن ﷻ لما جاء في الحديث[1] من الدلالة على ذلك .

---

(١) ينظر صحيح البخاري (٤٩١٩) من حديث أبي سعيد الخدري .

المقصود أن هذا البحث مهم وطويل فروعه ، وضابطه أن ظاهر الكلام قد يكون من جهة اللفظ ، وقد يكون من جهة التركيب ؛ لأنه الذي يُفهم به مقصود المتكلم من جهة ظاهر كلامه ، لأننا لا نعلم بواطن الكلام ، لكننا نعلم ظاهر الكلام ، وهذا الظاهر قد يكون من جهة الإفراد ، وقد يكون من جهة التركيب ، ولهذا ينقسم الظاهر إلى : ظاهر إفرادي ، وظاهر تركيبي .

هذا البحث أطل عليه شيخ الإسلام في مواضع كثيرة من كتبه ، منها ما في أوائل المجلد الثالث من رده على الرازي في بيان تلبيس الجهمية ، أو نقض التأسيس والتقديس الذي يرد فيه على كتابه التأسيس والتقديس ، وهذا الجزء لم يُطبع بعد ، وهو من الأقسام المهمة جدًّا في هذا الباب ؛ لأن الرازي ذكر تأويل الآيات والأحاديث ، فأصل شيخ الإسلام تأصيلًا عميقًا قويًا ؛ كعادته رحمه الله في بيان الظاهر والتأويل وأقسام الظاهر والحقيقة وهذه المباحث ، وهذا البحث معروف في علم أصول الفقه في مبحث دلالة الألفاظ أو الاستدلال .

كذلك الحقيقة تنقسم إلى قسمين : حقيقة تفهم من مفرد الكلام ، وحقيقة تفهم من تركيب الكلام ، وهي مرتبطة بتقسيم ظاهر الكلام إلى : ظاهر إفرادي وظاهر تركيبي .

فمثلًا : ادُّعِيَ المجاز في قوله تعالى : ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ﴾ [يوسف : ٨٢] ، وكذلك في قوله تعالى : ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء : ٢٤] وفي قوله تعالى : ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة : ٣] ، وادعي المجاز في أشياء كثيرة ، وهم يزعمون أن مثل قوله تعالى : ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ﴾ فيها إثبات للمجاز ؛ لأن حقيقة اللفظ لم تُعن بيقين ، وفهموا من حقيقة اللفظ هنا أن السؤال متوجه إلى القرية والعير ، ففهموا من قوله : ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ أن السؤال يتوجه إلى القرية .

ونقول : هذا ليس بظاهر الكلام ، وليس بحقيقته أيضًا ؛ لأن الحقيقة هنا تركيبية ، ولأن الظاهر هنا ليس هو ما دل عليه مفرد اللفظ كما زعموا ، بل الحقيقة التركيبية هي المفهومة من قوله تعالى : ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ ، ومعلوم أن السؤال لم نؤمر بتوجيهه إلى جدران القرية وبيوتها وأرضها ، وإنما لمن يفهم السؤال ويجيب عليه ، وهم أهل القرية ، فهذا يُسمى حقيقة تركيبية أو ظاهر دل عليه تركيب الكلام ، وفيه نفيٌ للمجاز .

قوله : (من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله ﷺ) :

ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أن (من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله ﷺ) ، وقد شرحنا هذه الجملة وما يتبعها من قواعد مهمة ، وهذا الإيمان ادعاه كثيرون من المنتسبين إلى القبلة ، ولكن دعوى الإيمان بما وصف الله عز وجل به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ لما

كانت دعوى عند كثيرين التزم أهل السنة والجماعة أن يذكروا قيد هذا الإيمان بهذه النصوص - نصوص الصفات- فهو ليس إيمانًا على وفق ما تشتهي النفس أو يؤدي إليه العقل، بل على قاعدة: أن يكون الإيمان بتلك النصوص بما وصف الله به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، فهناك محرفون يقولون: نؤمن بالصفات على ما جاء في الكتاب والسنة. لكنهم يحرفونها عن مواضعها، فأهل السنة خالفوهم وآمنوا بالنصوص من غير تحريف، وهناك معطلة عطلوا نصوص الصفات عن معانيها اللائقة بها، أو عطلوا الله ﷻ عن الوصف الذي وصف به نفسه على كماله وأولوه وحرفوه وتوجهوا به إلى معنى آخر، فخالفهم أهل السنة فآمنوا بظاهر النصوص من غير تعطيل لها ولا تأويل يصرفها عن حقائقها اللائقة بالله جل جلاله.

كذلك آمنوا بالنصوص من غير تكييف؛ لأن هناك من آمن فكَيَّف، فجعل نصوص الصفات مكيفة بكيفيات اخترعوها وابتدعوها في أذهانهم، وهؤلاء يزعمون أنهم آمنوا بالنصوص، لكن أهل السنة بينوا أن الإيمان لابد أن يكون من غير تكييف، وهناك أيضًا ممثلة مجسمة آمنوا بالنصوص على زعمهم وجعلوا ظاهر النص يُراد به أمثلة معروفة، فقالوا: يد الله كأيدينا، وعين الله كأعيننا، وسمع الله كسمعنا، ونحو ذلك، وزعموا أنهم آمنوا لكن آمنوا إيمانًا فيه تمثيل.

إذن يكون إيمان هؤلاء الأصناف الأربعة إيمانا مدعى، ليس إيمانًا شرعيًا، فمتى يكون الإيمان بنصوص الصفات صحيحًا؟

الجواب: إذا جَمَع هذه الأربع: أن يؤمن بما وصف الله به نفسه وما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، فهذه أربع قواعد:

* أن نؤمن بالنصوص ولا نحرفها.
* أن نؤمن بالنصوص ولا نعطل الله ﷻ عن وصفه الذي وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ.
* أن نؤمن بالصفات من دون تكييف لهذه الصفات بكيفيات معهودة أو غير معهودة.
* أن نؤمن بالنصوص ولا نمثل الله ﷻ بخلقه بل ننزهه سبحانه.

وهذا يُحتاج في بيانه إلى المراد بهذه الألفاظ الأربعة: التحريف، والتعطيل، والتكييف، والتمثيل.

أما التحريف: فأصله في اللغة من الانحراف بالشيء عن وجهه، وهو صرفه عن وجهه ومعناه إلى غيره، وهذا تحريف بمعنى التغيير والتبديل، فيكون معنى التحريف التغيير والتبديل؛ حرّف أي غير وبدل، قال ﷻ عن اليهود: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]، قال المفسرون في معنى هذه الآية: يعني يحرفون ما أنزل إليهم عن معانيه اللائقة به، بل يخترعون له معاني من عندهم، وسمى الله ﷻ هذا منهم تحريفًا.

والتحريف في نصوص الصفات معناه : أن تُغير وتُبدل ألفاظها أو معانيها عن ظواهرها ، فإذا صُرف ظاهر النص عن معناه اللائق به ، سواء أكان في اللفظ أو في المعنى فإن هذا تحريف ، لأنه تغيير وتبديل .

قال العلماء : التحريف من حيث هو في تعلقه بنصوص الصفات أو بغيره على قسمين :

* تحريف في اللفظ : إما بزيادة أو نقصان أو بتغيير حركة إعرابية أو بغير تغيير حركة إعرابية .

* وتحريف في المعنى : يكون بتغيير معنى الكلمة عن معناها المعروف في لغة العرب .

النوع الأول : التحريف في اللفظ : قد يكون التحريف في اللفظ بزيادة ؛ كما فعل اليهود ، فإن الله ﷻ أخبر عنهم بقوله تعالى : ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة : ٥٩] ، قيل لهم : ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ [البقرة : ٥٨] ، فقالوا : « حبة في شعيرة » . غيروا اللفظ من أصله ، أو غيروه بزيادة ؛ كما روي أنهم قالوا : « حنطة » ، بزيادة النون .

كذلك فعل المعتزلة والجهمية والأشاعرة ونحوهم ، حينما فسروا معنى قوله تعالى : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الفرقان : ٥٩] ، وقوله تعالى : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه : ٥] بقولهم : استولى . فهذا تحريف في اللفظ بزيادة حرف ، فإن كلمة « استوى » ليس فيها حرف اللام ، زادوا اللام فغيروا المعنى ، ومعنى استوى المعروف في اللغة علا وارتفع .

كذلك قد يكون بنقص في اللفظ ، وقد يكون بتغيير حركة إعرابية في النص ، مثل ما قال جهمي لأبي عمرو بن العلاء ، أحد القراء والنحاة والعلماء المتحققين بالسنة ، قال : يا أبا عمرو ألا تقرأ : (وكلم اللهَ موسى تكليمًا) بالنصب ؟ أي : غير حركة إعرابية ؛ لأن القراءة : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء : ١٦٤] ، فالله ﷻ هو فاعل الكلام ، وموسى عليه السلام في الإعراب مفعول به ، أراد أن يحرف بتغيير حركة إعرابية ، فقال : ألا تقرأ (وكلم اللهَ موسى تكليمًا) ، يعني : أن له وجهًا في العربية عند هذا القائل ؛ لأن موسى عليه السلام لا تظهر الحركة في آخره ، فإذا قرأ : (وكلم اللهَ موسى) يكون المُكلِّم هو موسى ، والمكلَّم هو الله ﷻ ، قال له أبو عمرو بن العلاء : هبني قلت لك ذلك وقرأته على هذا النحو ، فماذا تقول في قوله تعالى : ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ؟ فبُهت .

وهذا من نوع تغيير حركة إعرابية ، ربما لجأ إليه كثير من الذين يزعمون أن عندهم علمًا بالنحو ، لكن مع ظهور العلم وقوته بطل ذلك منهم . وقد يكون التحريف بلا زيادة في اللفظ ولا نقصان ولا تغيير حركة إعرابية ، بل يكون تحريفًا للفظ بغير هذه الأنحاء ، وفي المثال السابق بقوله (وكلم اللهَ موسى) أراد أن يجعل موسى المُكلِّم ، فحرف وغير موسى من كونه مفعولًا به إلى كونه فاعلًا ، وهذا لم تدل عليه حركة إعرابية .

كذلك يدخل في هذا الذين يُحرفون الكلام فيجعلونه بمعنى آخر - لفظ له معنى يجعلون له معنى آخر- مثلًا في قوله تعالى : ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص : ٧٥] ، يجعلون معناه : بقدرَتي أو بقدرَتَيَّ ، هذا تحريف للفظ ، فهل هو من جهة المعنى ؟ الجواب : لا ، بل جعلوا لفظًا مكان لفظ ، يقولون : اليد هنا القدرة ، وليست اليد المعروفة .

النوع الثاني : التحريف من جهة المعنى :

وهذا كثير ؛ كادعاء المجاز في آيات الصفات ؛ وكتأويل النصوص على ما دلت عليه لغة العرب ، فمثلًا قول الله ﷻ : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة : ٣] ، يقولون : الرحمة هي إرادة الإحسان ، هذا تحريف وتغيير للرحمة عن معناها ، بأي شيء؟ الجواب : بالأخذ بالمجاز ، والأخذ بالمجاز في نصوص الصفات باطل ، ومن أصول أهل الضلال في الصفات ، أما في غير الصفات - يعني في اللغة من غير دخوله في الصفات - فهو خلاف أدبي ، مع أن الصحيح عند المحققين أنه لا مجاز أصلًا .

ويدخل في المحرفة هنا ؛ الذين حرفوا الكلم عن موضعه ، الجهمية ، لأن أصل التحريف إنما جاء من جهة الجعد بن درهم ، بل من جهة اليهود ؛ لأن هذه المقالة أخذها الجعد عن اليهود ، لأنهم هم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، وكان أول ما بدأ التحريف حيث نفى اتصاف الله ﷻ بالكلام ، وقال : إن قوله تعالى : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ أي : جرحه بأظافير الحكمة تجريحًا . فليس من جهة الكلام وإنما من جهة التجريح ، و(كلم) أي جرّح من الكلْم وهو الجُرح ، ثم أخذها عنه جهم بن صفوان رأس الجهمية .

وهذا أول ما بدأ به الجهمية فنفوا صفة الكلام ، وتسلسل هذا .

والجهمية يُحرِفُون من جهات :

أولًا : تحريفهم الأسماء الحسنى والصفات العُلا ، فهم يقولون بها في القرآن لكن يجعلون تفسيرها بمخلوقات منفصلة ، فصفة الله عند الجهمية هي الوجود المطلق فقط ، وغيره من الأسماء الحسنى - السميع ، البصير ، الحي ، القيوم ، العليم ، الحكيم - يُفسرها الجهمية بمخلوقات منفصلة ، فيقولون : السميع هو من يُسمَع ، والبصير هو من يُبصَر ، والمتكلم هو من يُكلَّم - يعني : مخلوقات الله ﷻ المنفصلة - والعزيز هو من أُعز أو من عزّ ، والقيوم هو من أقيم أو من قام بأموره . وهذه الأسماء تعلقت بالخلق من آثار صفة الوجود لله ﷻ ، فعندهم الوجود عام . ويدخل فيه المعتزلة ، فإن المعتزلة حرفوا الغيبيات جميعًا في الصفات والأسماء ، وفي الأمور الغيبية ، مثل : عذاب القبر ، والميزان ، والحوض ، والصراط ، ونحو ذلك من الأمور الغيبية التي حرفوها عن معانيها ، ويدخل فيه أيضًا الأشاعرة .

وهل كل تحريف يُعد كفرًا ؟ الجواب : ليس كل تحريف يُعد كفرًا ، فإن أهل السنة والجماعة لم يُكفروا الذين فسروا استوى بـ « استولى » ، فإن كان التحريف في جميع الصفات - كفعل الجهمية - فإنه يُعد كفرًا ، والجهمية عندهم كفار ؛ لأنهم حرفوا ونفوا صفات الله ﷻ ، وإن كان التحريف في بعض الصفات ، وكانت الدلالة عليها ظاهرة ولا يحتملها وجه - يعني : ليس للتأويل فيها مدخل - هنا يُكفر به ؛ كتكفير من نفى رؤية الله ﷻ ، وتكفير من جعل كلام الله ﷻ مخلوقًا ، وأما غيره مما يكون لقائله عذر في تأويله فإنه لا يقال بكفره .

ولهذا فإن أهل السنة والجماعة لم يكفروا الأشاعرة ، والماتريدية ، والكلابية ، والسالمية ، والكرامية ، وأشباه هؤلاء .

قال : (ولا تعطيل) هذه اللفظة الثانية ، والتعطيل أصله في اللغة . من عَطل يُعطّل تعطيلًا ، وهو عُطلٌ ، إذا كان خاليًا ، يقال : هذا مكان مُعطّل إذا كان خاليًا ليس فيه شيء ، ويقال أيضًا للمرأة : جيدها معطل . إذا كان خاليًا من الحلي ، ومنه قول الشاعر في وصف جيد امرأة :

وجيدٍ كَجيدِ الرئمِ ليسَ بفاحشٍ إذا هـي نَـصَّـتْـهُ ولا بِـمُـعَـطَّـلِ

بمعطل أي : خالٍ من الحلي ، فهذا أصله .

فإذن الإخلاء هو التعطيل ، ومعنى قول الله ﷻ : ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ [الحج : ٤٥] ، أي : خالية من الماء ؛ لأنه لم يستفد منها ، أو لم تُحفر ، أي : لم يُعتن بها لإخراج الماء . وتعطيل النصوص ، أو تعطيل الصفات ، أي : تعطيل الله ﷻ عن صفاته ، بمعنى إخلاء الله سبحانه وتعالى عن أوصافه ، يعني : نفي الصفات عن الله ﷻ .

والتعطيل عند العلماء أقسام أشهرها ثلاثة وهي :

الأول : تعطيل المخلوق عن خالقه ، يعني إخلاء المخلوق عن أن يكون مخلوقًا بنفي أن يكون ثَمّ خالقٌ له ؛ كقول الملاحدة .

الثاني : تعطيل الخالق عن أوصافه التي وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله ﷺ .

الثالث : تعطيل الخالق عن استحقاقه العبادة وحده لا شريك له .

فالأول بحثه في توحيد الربوبية ، والثاني في توحيد الأسماء والصفات ، والثالث في الألوهية .

فإذن التعطيل دخل فيه أنواع التوحيد ، فإذا كان تعطيلًا للمخلوق عن الخالق صار ذلك نفيًا لتوحيد الربوبية ، وإذا كان تعطيلًا لله من أوصافه صار تعطيلًا ونفيًا للأسماء والصفات ، وإذا كان تعطيلًا للخالق عما يستحقه من عبادته وحده دونما سواه صار تعطيلًا في الألوهية ، والمقصود هنا الثاني .

إذن المقصود بالتعطيل أن يُعطّل الله ﷻ عن أوصافه ، يعني : أن يصف نفسه بصفة أو يصفه

رسوله ﷺ بصفة ، فيُخلي الله ﷻ من هذه الصفة ، وكأنه سبحانه لم يصف نفسه بذلك الوصف ، ولم يصفه رسوله ﷺ بذلك الوصف ، فإن وصف اللهُ ﷻ نفسه جلب لهذه الصفة لله ﷻ ؛ لأننا لم نعلم أنه سبحانه متصف بهذه الصفة ، فأخبرنا الله ﷻ لنعلم أنه ﷻ متصف بها ، فصار إثباته لنفسه هذه الصفة زيادة علم عما كان عندنا من قبل ، فإذا نُفيت صار ذلك إخلاء لله ﷻ عن الوصف فصار تعطيلًا . فإذن يدخل في المعطلة الذين ينفون وصف الله ﷻ بكل الصفات كفعل الجهمية ، ويدخل فيهم الذين ينفون أوصاف الله ﷻ غير الصفات الثلاث المشهورة عند المعتزلة ، وكذلك يدخل فيه الذين يعطلون الله ﷻ عن الاتصاف بغير الصفات السبع المشهورة عند الكلابية ومن تبعهم من الأشاعرة والماتريدية ، وهذا باب واسع يأتي - إن شاء الله - تفصيله .

فإذن كل من لم يصف الله ﷻ بما وصف به نفسه ، بأن حرّف أو أوّل فقد أخلى الله ﷻ عن الوصف اللائق به كما أخبر ، ومنع الأخذ بظواهر النصوص ، فإن هذا يُعد تعطيلًا ، فإن أهل السنة والجماعة يخالفون المبتدعة الذين يعطلون .

وهل إيمان المعطل بالنص هو حقيقة أم دعوى ؟ الجواب : هو دعوى ، فالأشعري ، والماتريدي ، والمعتزلي ، والإباضي ، والرافضي ، وأشباههم يقولون : نؤمن بالنصوص . لكنهم يعطلون النصوص عن معانيها ، ويجعلون هذه المعاني للنصوص في الصفات راجعة إلى الأوصاف التي يثبتونها ، فالجهمي يُرجع كل صفة إلى صفة الوجود بجعل الأوصاف والأسماء أثرًا لصفة الوجود ، والمعتزلي يجعل الصفات والأسماء من آثار الصفات الثلاث التي يثبتها ،

والأشعري والكلابي يجعل كل صفة راجعة للصفات السبع التي يثبتها ، والماتريدي يجعل الصفات والأسماء من آثار الصفات الثمان التي يثبتها .

فمثلًا : صفة النزول لله ﷻ ينفيها أولئك .

فالأشعري يُفسرها فيقول : نؤمن بأنه ينزل لكن نزوله ليس نزولًا حقيقيًا ، إنما هو نزول الرحمة والإجابة ؛ إجابة الله ﷻ للداعين في هذا الوقت المتأخر من الليل . فهم يجعلون الصفة راجعة إلى الصفات التي يثبتونها ، فالرحمة عندهم إرادة الإحسان ، لِمَ ؟ لأنهم يجعلون من الصفات السبع صفة الإرادة ، والغضب عندهم إرادة الانتقام ، لِمَ ؟ لأن الإرادة عندهم من الصفات السبع . وهكذا ، فكل صفة يعطلونها عن معناها الذي دلت عليه اللغة ، ويقولون : نؤمن بالنص لكن هذه الصفة معناها أحد الأوصاف السبعة التي أثبتناها .

وهذه الأوصاف السبعة لإثباتهم لها وسبب ذلك مزيد من التفصيل يأتي في مكانه - إن شاء الله - من هذه الرسالة المباركة .

قال : (ومن غير تكييف) هنا كرر (من غير) ، فقال : (من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل) ، والسبب في ذلك أن التحريف والتعطيل متقاربان ، وكذلك التكييف والتمثيل متقاربان ، لكن التكييف والتمثيل غير التحريف والتعطيل ، فالتكييف والتمثيل يدخل فيه المجسمة ، والتحريف والتعطيل يدخل فيه المعطلة ؛ ولهذا قال العلماء : « الممثل يعبد صنمًا ، والمعطل يعبد عدمًا ، والسني يعبد إلهًا واحدًا فردًا صمدًا » لِمَ ؟ الجواب : لأنه جَسَّم فتخيل إلهه على نحو ما ، فعبد هذا المتخيل ، فصار صورة ، فصار صنمًا ، أما المعطل فهو يعبد إلهًا ليس له صفة أو ليس له أسماء أو نعوت ، فإذا كان لا يصف الله بشيء فهو يعبد عدمًا محضًا ؛ كفعل الجهمية .. وهكذا .

قال : (من غير تكييف) التكييف من كيّف الشيء يكيفه تكييفًا إذا جُعل له كيفية ، والتكييف : معناه أن يجعل لصفة الله ﷻ كيفية ، قد تكون هذه الكيفية معلومة المثال ، وقد لا تكون معلومة المثال .

مثال ذلك : أن يجعل اتصاف الله ﷻ باليد على مثال يعلمه ، فيجعل الكيفية على نحو ما ، كمن يقول - مثلًا : إن الله ﷻ استوى على العرش وكيفية الاستواء كذا وكذا . فقد يُكيفها بما عهده فيكون تمثيلًا ، وقد يكيفها بشيء خيال في ذهنه فُيعد تكييفًا من غير مثال .

ما المقصود بالتكييف في هذا الموضع ؟

لما عطف المصنف رحمه الله عليه التمثيل بالواو - والواو تقتضى المغايرة - دل على أنهم يريدون بالتكييف التكييف على غير مثال معلوم ، يعني : يخترع له كيفية لا مثال لها ، وإن كان التمثيل يدخل في التكييف ، لكنه لما عطف بالواو علمنا أنه يريد بالتكييف غير التمثيل ، وأن التمثيل له وصفه والتكييف له وصفه . فكيف يكون التكييف ؟

مثلًا : يتخيل صورة ليد الله ﷻ ، أو يتخيل صورة لاستواء الله ﷻ ، أو يتخيل صورة وحالًا لنزول الله ﷻ ، أو يتخيل صورة وحالًا لغضب الله ﷻ ، هذا كله تكييف ، يعني : جعل للصفات كيفية ، وهذا هو التكييف الذي سلكه طائفة من المجسمة ؛ لأن المجسمة على قسمين : مجسمة مكيفة : وهم الذين جعلوا الله ﷻ على كيفية اخترعوها في أذهانهم ليس لها مثال .

ومجسمة ممثلة : وهم الذين جعلوا لله ﷻ جسمًا على مثال يعلمونه ، مثل مخلوق أو نحو ذلك .

هذا معنى التكييف ، ونفيه لا شك أنه من أعظم المعلومات التي يعلمها المؤمن ، فإذا وَصَف الله ﷻ يصفه بصفة يؤمن بمعناها ولا يعلم كيفيتها ؛ ولهذا قرر الإمام مالك رحمه الله هذه القاعدة آخذًا لها من قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] ، فقال لمن سأله عن الاستواء : « الاستواء معلوم والكيف غير مَعْقُول » . وهذه أثبت من الرواية الأخرى التي فيها : « الكيف

مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة » .

قوله : « الاستواء معلوم » يعني : في اللغة معلوم المعنى ، فإن معنى الاستواء في اللغة : العلو والارتفاع ، « والكيف غير معقول » أي : لا تُعقل كيفية استواء اللَّه ﷻ ، وإيمان المؤمن باستواء اللَّه ﷻ إيمان معنى لا إيمان كيفية ؛ لأنه إيمان بما دل عليه ظاهر اللفظ ، أما الكيفية فإن قلب المؤمن قد انقطعت علائقه به ، وانقطع طمعه وانقطع طلبه لإدراك كيفية الاتصاف ، فإن هذا لا يعلمه إلا اللَّه ﷻ .

وهذه قاعدة نقولها في كل صفة ، فإذا قيل : كيف ينزل ؟ نقول : النزول معلوم والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة . وإذا قيل : كيف غضب اللَّه ﷻ ؟ نقول : الغضب معلوم والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة .

وكذلك إذا قيل : كيف الاستواء ؟ أو كيف الرضا ؟ أو كيف الأسف ؟ أو كيف الرحمة ؟ أو كيف المجيء ؟ أو كيف الإتيان ؟ ونحو ذلك ، هذه كلها معلومة المعنى لكن كيفياتها غير معقولة .

قال هنا : (ولا تمثيل) ، والتمثيل مِنْ مثّل يُمثل تمثيلًا إذا جعل للشيء مثلًا ، وقد سبق أن التمثيل في الأصل نوع من التكييف ، لكن هنا أفرده فصار قسيمًا للتكييف ، أي : صار التكييف شيئًا والتمثيل شيئًا آخر ، فما المراد بالتمثيل ؟

الجواب : أن يجعل لصفة اللَّه ﷻ مثالًا يعلمه ، فيجعل - مثلًا - اتصاف اللَّه ﷻ باليد على نحو اتصاف المخلوق بها ، أو يجعل اتصاف اللَّه ﷻ بالغضب على نحو اتصاف المخلوق به ، أو يجعل اتصاف اللَّه ﷻ بالنزول على نحو اتصاف المخلوق به ؛ ولهذا تجد أن كل معطل ممثل ؛ لأنه لم يُعطل إلا وقد استحضر التمثيل قبل أن يُعطل .

فإذا سألت المعطل الذي نفى : لِمَ عطلت ؟ لم قلت في النزول : تنزل رحمة اللَّه ؟ لِم لم تقل : يتنزل اللَّه ؛ كما أخبرنا النبي ﷺ بذلك الذي هو أعلم الخلق بربه ؟ قال : هذا غير معقول ، هذا يستحيل ، هذا يقتضي التشبيه ، فظن أن ظاهر النص هو التمثيل ، فمثل أولًا ثم نفى ثانيًا .

ولهذا يقول العلماء : « كل محرف أو معطّل لنصوص الصفات فقد مثل وعطّل » ، فالممثل والمكيف خيرٌ من المعطل ؛ لأنه إنما وقع في شر واحد وبدعة واحدة ، وهو التمثيل والتكييف ، أما المعطل المحرف النافي للصفات فقد مثل باطنًا ثم عَطَّلَ ظاهرًا ، قام في قلبه التمثيل بأن اللَّه ﷻ في هذه الصفة مثل المخلوق ، فيقول : كيف يد اللَّه ؟ بعد أن مثلها بالجارحة في المخلوق ، وكيف يتكلم بحرف وصوت ؟ بعد أن تخيل أن ذلك يلزم له لسان ولهاة كما في المخلوق ... إلى آخره ، فاستحضر التمثيل أولًا : يعني : فهم من النص أنه يدل على التمثيل فمثّلَ ، ثم بعد ذلك نفى هذا وعطل ، نسأل اللَّه ﷻ العافية .

قال هنا : (ولا تمثيل) ، والتمثيل من فعل المجسمة ، كذلك التكييف من فعل المجسمة ، والمجسمة والمعطلة أعداء لأهل السنة والجماعة ؛ لأن أهل السنة والجماعة يؤمنون بالنصوص لا يُمثلون ولا يُجسمون ، ولا يُعطلون ولا يُحرفون ، بل يثبتون النصوص على ما دلت عليه ؛ كما سيأتي بيان ذلك في عقيدتهم في نصوص الصفات التي سيسوقها شيخ الإسلام ، رحمه الله تعالى .

قوله : (بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه) :

قال : (بل يؤمنون بأن الله سبحانه) ، (بل) هذه للإضراب ؛ إضراب عما سبق إلى الآتي ، والإضراب نوعان :

قد يكون إضرابًا لغلط ، وقد يكون إضرابًا للانتقال من كلام إلى كلام ، والذي في القرآن من الإضراب : الإضراب الانتقالي ، وهنا إضراب انتقالي .

قال : (بل يؤمنون) ، أضرب عن الكلام السالف ، يعني : عن تفصيله وعن تدقيق الكلام فيه ، وتنويع الكلام فيه ، ودخل في كلام آخر ، قال : (بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه) . نؤمن بأن الله ﷻ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ؛ كما أخبر الله ﷻ عن نفسه بذلك فقال : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] ، وقال ﷻ : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص : ٤] ، وقال سبحانه : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] ، وقال ﷻ : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل : ٧٤] ، يعني : لا تضربوا لله الأوصاف والنعوت إن الله يعلم ما يصف به نفسه وأنتم لا تعلمون كيف تصفون الله ﷻ .

وفي قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ نفي وإثبات ، نَفَى بقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ، وأثبت بقوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ، وهذه قاعدة عظيمة أخبر الله ﷻ بها ، ومعنى ذلك أن هذا الدين وهذا الإيمان بالصفات مبني على النفي والإثبات ، والذي يظهر من الآية أن النفي جاء فيها مجملًا ، وأن الإثبات جاء فيها مفصلًا ، فقوله سبحانه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ هذا نفي مُجمل دون تحديد لهذا النفي .

وهذا بخلاف طريقة أهل البدع فإنهم يجعلون الإثبات مجملًا والنفي مفصلًا ، والله جل جلاله جعل النفي مجملًا والإثبات مفصلًا ، قال سبحانه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ، فكل ما يعلق بالذهن لا يصح أن يكون الله ﷻ مثله .

وفي قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ الكاف هذه مما تكلم فيها العلماء ولتقريرها فائدة في

العقائد ؛ لأن معنى الآية يتوقف على فهم معنى الكاف في قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ، فالكاف هنا على أي شيء تدل ؟ لأهل العلم فيها وجهان :

الأول : أن الكاف هنا بمعنى المثل ، هي حرف لكنها اسم ، بمعنى « مثل » فقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ يعني : ليس مثلَ مثله شيء ، وهذا يقتضي المبالغة في نفي المثيل ، فنفى أن يوجد المثل ، فنفيه من باب أولى . ومجيءِ الكاف بمعنى الاسم هذا موجود في القرآن ولغة العرب :

فأما مجيئه في القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة : ٧٤] ، فقوله : ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ عطف الاسم على الكاف التي هي في قوله : ﴿كَٱلْحِجَارَةِ﴾ فهي كالحجارة أو أشد ، ومعلوم أن الاسم إنما يعطف على الاسم ، وقوله : ﴿كَٱلْحِجَارَةِ﴾ أي : مثل الحجارة ، أو أشد قسوة من الحجارة .

ومجيئه في اللغة ظاهر ومحفوظ ؛ كقول الشاعر :

لو كانَ في قلبي كقدْرِ قُلامَةٍ   حبًا لغيرك ما أَتَتْكَ رَسَائِلِي

جعل شبه الجملة الجار والمجرور « في قلبي » مقدمًا ، وجعل الاسم « كقدر » لكون الكاف بمعنى « مثل » ، أي : لو كان في قلبي مثل قدر قلامة ، وهذا التوجيه الأول لطائفة من المفسرين في أن الكاف هنا بمعنى المثل على ما ذكرنا ، وهو توجيه لهم وجيهٌ وظاهرٌ في اللغة ومستقيم المعنى أيضًا في الآية .

الثاني : أن الكاف في قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ هذه صلة ، وهي تسمى عند النحويين زائدة ، وزيادتها ليست زيادة في اللفظ ، وإنما هو زيادة لها ليكون المعنى زائدًا ، وليست زائدة بمعنى أن وجودها وعدم وجودها واحد ، حاشا وكلًا أن يكون في القرآن شيء من ذلك ، وإنما تُزاد ليكون مبالغة في الدلالة على المعنى ، ففي قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ تكون الكاف هذه صلة ، وهي التي يسميها بعضهم الزائدة ، وهي تفيد تكرير الجملة ؛ كما حرره ابن جني النحوي المعروف في كتابه « الخصائص » حيث قال : « إن الصلة والزيادة تكون في الجمل لتأكيدها فتكون في مقام تكريرها مرتين أو أكثر » ، أو كما قال .

فيكون معنى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ليس مثله شيء ، ليس مثله شيء ليس مثله شيء ، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وهذا تفهمه العرب في كلامها ، وتأتي الزيادة بالصلة في مواضع كثيرة من القرآن ؛ كقول الله ﷻ : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، يعني : ليس من جهتك وإنما هو رحمة من الله سبحانه وتعالى .

وكقوله تعالى : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾ [المائدة : ١٣] ، يعني فبنقضهم ميثاقهم لعناهم ، وكقوله : ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة : ١] في أحد وجهي التفسير .

إذا تقرر ذلك فإن الوجه الأولى من هذين التفسيرين هو الوجه الثاني من كون الكاف صلة زائدة في مقام تكرير الجملة ، يعني أن النفي أُكد فتكون أبلغ من أن ينفى مثل المثل ؛ لأنه قد يُشكل في نفي مثل المثل أن يكون نفي المثلية الأولى ليس مستقيمًا دائمًا ، أما الوجه الثاني فإنه واضح من جهة العربية ، وواضح من جهة العقيدة ، وواضح من جهة دلالته على تأكيد النفي الذي جاء في الآية .

فإذن تكون الكاف على هذا صلة ، ويكون معنى الجملة تأكيدًا : (ليس مثله شيء ، ليس مثله شيء ، ليس مثله شيء ، وهو السميع البصير) قال هنا : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ هذا إثبات مفصل ، و ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ و ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ اسمان من أسماء الله ﷻ ، وأسماء الله ﷻ تدل على ذاته ، ودلالة الاسم على المسمى - على الذات - وفيها الصفة ، فالسميع اسم لمن كان ذا سمع ، والبصير اسم لمن كان ذا بصر ، ففيها إثبات السمع والبصر لله ﷻ ، ما فائدة إثبات السمع والبصر هنا ؟

قال العلماء : في هذا حكمة وفائدة عظيمة ، وهي : أنه نفى أولًا بقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ثم أثبت هذين الاسمين لله المتضمنين لصفتي السمع والبصر ، وسبب ذلك أن صفة السمع والبصر من الصفات التي تشترك فيها أكثر المخلوقات الحية ذات الروح ، فمهما صغر من فيه حياة من ذوي الأرواح أو عظم ، ففيه سمع وبصر ، تنظر إلى النملة عندها سمع وبصر : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل : ١٨] ، فهي تسمع وتبصر طريقها ، والبعوضة كذلك لها سمع وبصر ، والدواب لها سمع وبصر ، والإنسان له سمع وبصر ، فصفتا السمع والبصر من أكثر الصفات اشتراكًا بين المخلوقات الحية ذوات الأرواح ، فإذا كان ثم توهم في المماثلة فليكن توهم للماثلة في اتصاف هذه المخلوقات في صفة السمع والبصر ، فهل بصرك أيها الإنسان وسمعك مثل سمع النملة وبصرها ؟ لا شك أن ثَمّ قدرًا مشتركًا في السمع بين البعوض والإنسان ، وفي البصر بين البعوض والإنسان ، لكن تختلف كيفيته ، وتختلف حقيقته ، ويختلف عظمه وتعلقه . كذلك السمع ، الإنسان يسمع من مسافة بعيدة ، والمخلوق الصغير مثل الذبابة أو البعوضة يسمع لكن لمسافة أقل ، وهكذا .

فإن كان كذلك دل على أن إثبات السمع والبصر في المخلوقات هو إثبات وجود لا إثبات مساواة ، وهذا متصل بقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فإذن إثبات هاتين الصفتين لله - التي عظم اشتراك المخلوقات مع الله سبحانه في اسم الصفة وفي بعض معناها - ليس من جهة التمثيل في شيء ، وفي هذا أعظم رد على الذين توهموا أن إثبات الصفات لله ﷻ فيه تمثيل وفيه تجسيم .

وهنا تنبيه وهو : أن التمثيل يختلف عن التشبيه .

ولتقرير ذلك يُتنبه إلى أن الذي جاء نفيه في الكتاب والسنة إنما هو نفي المماثلة ، أما نفي مشابهة

الله بخلقه فإنها لم تنف في الكتاب والسنة ؛ لأن المشابهة تحتمل أن تكون مشابهة تامة وتحتمل أن تكون مشابهة ناقصة ، فإذا كان المراد المشابهة التامة فإنما هي التمثيل والمماثلة ، وذلك منفي ؛ لقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ .

فإذن لفظ المشابهة ينقسم إلى :

* أن يكون الشبيه موافقًا للمثيل والمثل .
* أو يكون غير موافق للمثيل والمثل .

يعني : قد يشترك معنى التشبيه والمثيل ويكون المعنى واحدًا إذا أريد بالمشابهة المشابهة التامة في الكيفية وفي تمام معنى الصفة ، وأما إذا كان المراد المشابهة الناقصة – وهي الاشتراك في أصل معنى الاتصاف – فإن هذا ليس هو التمثيل المنفي ، ولا يكون ثم مشابهة ، بمعنى : أن يكون ثم اشتراك في أصل المعنى .

وإذا كان كذلك فإن لفظ الشبيه والمثيل بينهما فرق ، ولفظ المشابهة لفظ مجمل لا يُنفى ولا يثبت ، وأهل السنة والجماعة إذا قالوا : إن الله ﷻ لا يماثله شيء ، ولا يشابهه شيء . يعنون بالمشابهة المماثلة .

أما المشابهة التي هي الاشتراك في المعنى فنعلم قطعًا أن الله ﷻ لم ينفها ؛ لأنه سبحانه سمى نفسه بالملك ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة : ٤] ، الملك الحق ، وسمى بعض خلقه بالملك ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ [يوسف : ٥٤] ، وأشباه ذلك من الآيات ، وسمى نفسه بالعزيز وسمى بعض خلقه بالعزيز ، وكذلك جعل نفسه سبحانه سميعًا ، وأخبرنا بصفة السمع له ، والبصر ، والقوة ، والقدرة ، والكلام ، والاستواء ، والرحمة ، والغضب ، والرضا ، وأشباه ذلك ، وأثبت هذه الأشياء للمخلوق فيما يناسبه منها ، فدلّ على أن الاشتراك في اللفظ وفي بعض المعنى ليس هو التمثيل الممتنع ؛ لأن كلام الله ﷻ حق ، وبعضه يفسر بعضًا ، فنفي المماثلة في الآية : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] ، وأثبت اشتراكًا في الصفة ، وإذا قلت : اشتراكًا ، ليس معنى ذلك أنها من الأسماء المشتركة في الصفات ، لكن أثبت اشتراكًا في الوصف ، يعني : شركة فيه ، فالإنسان له مُلك والله ﷻ له الملك ، والإنسان له سمع والله ﷻ له سمع ، والإنسان له بصر والله ﷻ له بصر ، وهذا الإثبات فيه قدر من المشابهة لكنها مشابهة في أصل المعنى ، وليست مشابهة في تمام المعنى ولا في الكيفية ، فتحصل من ذلك أن المشابهة ثلاثة أقسام :

الأول : مشابهة في الكيفية ، وهذا ممتنع .

الثاني : مشابهة في تمام الاتصاف ودلالة الألفاظ على المعنى بكمالها ، وهذا ممتنع أيضًا .

الثالث : مشابهة في أصل معنى الصفة وهو مطلق المعنى ، وهذا ليس بمنفي .

ولهذا لفظ التمثيل ونفي التمثيل والمثلية صار شرعيًا ؛ لأنه واضح ودلالته غير مجملة ، وأما لفظ المشابهة فإن دلالته مجملة ولم يأت نفيه ، ونحن نقول : إن الله ﷻ لا يماثله شيء ، ولا يشابهه شيء سبحانه وتعالى . ونعني بقولنا : لا يشابهه شيء - معنى المماثلة في الكيفية ، أو المماثلة في تمام الاتصاف بالصفة ، وتمام دلالة اللفظ على تمام معناه .

ولهذا فإننا نقول في الصفات هنا ، كما قال : (ومن غير تكييف ولا تمثيل) وإذا قيل : (ومن غير تشبيه) فإنهم يريدون بالتشبيه التمثيل ، وهذا مستعمل عند العلماء أنهم ينفون التشبيه ويريدون به التمثيل .

ثم قال - رحمه الله تعالى - في وصف أهل السنة والجماعة : (فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه) ، يعني : لا ينفون عنه ما وصف به نفسه ؛ كما نفى عنه الصفات التي وصف بها نفسه طوائف الضلال من الجهمية والمعتزلة والرافضة والكلابية والأشعرية والماتريدية ونحو ذلك ، فإن كل طائفة من هؤلاء نفت عن الله ﷻ إما جميع الصفات وإما بعض الصفات ، والذين ينفون عن الله ﷻ ما وصف به نفسه إما أن يكونوا من الذين ينفون أكثر الصفات ، وهؤلاء يقال لهم : نفاة الصفات ؛ كالجهمية والمعتزلة ، وإما أن يثبتوا منها سبعًا أو عشرين أو ثمانيًا ؛ كحال الماتريدية ، وهؤلاء قد يقال في حقهم : الصفاتية ؛ لأنهم يثبتون من الصفات أكثر مما أثبت المعتزلة ، وكذلك الأشاعرة والماتريدية ، ولهذا قد يقال لهؤلاء : الصفاتية في مقابلة النفاة ؛ كما يذكر ذلك كثير من علماء أهل السنة ، ومنهم شيخ الإسلام رحمه الله تعالى . وهؤلاء جميعًا سواء كانوا من النفاة أم كانوا من الصفاتية ينفون عن الله جل جلاله ما وصف به نفسه ، وهذا النفي قد يكون نفيًا للصفة بالكلية ، وقد يكون نفيًا لمعناها بتأويلها في غير معناها ، وبحمل الظاهر فيها على غير ما دلت عليه ظاهر النصوص .

فهؤلاء ينفون ، يعني : أن مآل حالهم النفي ، سواء نفوه أصلًا أو نفوا معناه الذي دل عليه الظاهر ، فالذين نفوا أن الله ﷻ متصف بالرحمة اللائقة به هؤلاء نفوا الرحمة ولو قالوا : إن معنى الرحمة إرادة الإحسان ونثبت الرحمة بتأويل . وأما أهل السنة والجماعة فإنهم يثبتون المعاني التي اشتملت عليها ألفاظ الصفات على ما يليق بالله ﷻ على قاعدة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] ، فيثبتون اللفظ وما فيه من الصفة ، ويثبتون ويوقنون ويؤمنون بما دل عليه اللفظ من الصفة ، ويعلمون أصل معنى هذه الصفة لأنها بلسان عربي مبين ، ثم هم مع ذلك - أعني أهل السنة والجماعة - يقطعون الطمع عن إدراك الكنه وعن إدراك الكيفية ، يعني : عن إدراك كل المعنى وعن

إدراك الكيفية ، فإذن أهل السنة لا ينفون عن الله ﷻ ما وصف به نفسه بل يثبتون لله ﷻ ما وصف به نفسه ، وما وصفه به رسوله ﷺ .

قال - رحمه الله تعالى - بعد ذلك : (ولا يحرفون الكلم عن مواضعه) ؛ لأن الذين يُحرفون الكلم عن مواضعه هم اليهود ؛ كما وصف الله ﷻ طوائف اليهود بقوله تعالى : ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦] ، ومعنى تحريف الكلم عن مواضعه بحمله على غير ما دل عليه . والتحريف قد سبق بيان أنه نوعان :

تحريف في اللفظ : إما بزيادة أو نقصان أو بتغيير حركة إعرابية أو بغير تغيير حركة إعرابية .

وتحريف في المعنى : يكون بتغيير معنى الكلمة عن معناها المعروف في لغة العرب .

وقوله : ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾ يعني به الكلمات الشرعية الدينية التي هي في باب الأخبار عن الله ﷻ ، وقد بينا فيما سبق أن تحريف الكلم عن مواضعه قد يكون كفرًا ، وقد يكون كبيرة ، وقد يكون معصية ، وقد يكون خطأ يُعذر فيه صاحبه ، فهو إذن أقسام ، فليس كل تحريف كفرًا ، وتفصيل هذا وأمثلته تأتي في مواضعها في الرسالة إن شاء الله تعالى .

قال : (ولا يلحدون في أسماء الله وآياته) ، والإلحاد في أسماء الله ﷻ الميل بها والعدول بها عن حقائقها وعما يليق بها .

وأصله في اللغة : من لحد وألحد إذا مال ، ألحد فلان في الطريق أي مال في الطريق ؛ ولهذا سمي لحد القبر لحدًا ؛ لأنه مائل عن سمت الحفر ، فالإلحاد الميل ، والملحد المائل عن الحق إلى غيره ، وفي الاصطلاح : الملحد هو من مال عن الإيمان إلى الكفر .

قال : (ولا يلحدون في أسماء الله وآياته) ، يعني : أن أهل السنة والجماعة يؤمنون بأسماء الله وما اشتملت عليه الآيات من الأسماء والصفات ، ولا يميلونها ولا يخرجون بها عن حقائقها اللائقة بها ؛ إذ إن صراط الأسماء الحسنى وصراط الآيات المستقيم أن يؤخذ بها بما دلت عليه ألفاظها من المعاني ، ويثبت ذلك لله ﷻ .

فإذا حُرف ذلك فإن هذا من الإلحاد ، بمعنى : أنه إذا نفى صفة أو نفى اسمًا من أسماء الله فإن هذا من جنس الإلحاد في أسمائه وصفاته ، وقد قال الله ﷻ في محكم كتابه : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠] ، يعني : يميلون بها عما يليق بها .

وهذا الإلحاد قد يكون :

* بصرفها عن ظواهرها التي دلت عليه .
* أو بترك التعبد بها .

* أو بتحريفها .

فالمشركون سموا العزى من العزيز وهذا إلحاد ، وسموا اللات من الله أو من الإله وهذا من الإلحاد - وسموا مناة من المنان - كما هي بعض الروايات - وهذا كله من الإلحاد ، وترك دعاء الله ﷻ بأسمائه من الإلحاد . ومراده هنا نوع من ذلك الإلحاد ، وهو : صرفها عن معانيها اللائقة بها ؛ لأنه ميل بها وعدول عن اللائق بها ، والواجب أن يُسلك في الأسماء والصفات وآيات الله ﷻ ما يليق بها لا أنْ يُمال عما يليق بها ، ويعدل عن حقائقها التي تليق بالله ﷻ .

قال هنا : (ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه) التكييف مر معنا معناه ، وكذلك التمثيل مر معنا معناه .

إذن أهل السنة والجماعة تميزوا عن سواهم بهذه الخصائص :

أنهم يثبتون لله ﷻ ما أثبته لنفسه ، ولا ينفون عن الله ﷻ ما وصف به نفسه ، ولا ينفون عن الله ﷻ ما وصفه به رسوله ﷺ ؛ لأن سبيلهم ليس هو سبيل الزائغين الضالين المغضوب عليهم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه من الذين شابهوا اليهود ، أو الذين يُلحدون في أسماء الله وآياته الذين شابهوا المشركين ، وإنما يؤمنون بالأسماء والصفات على حقائقها اللائقة بالله ﷻ .

ثم بين العلة في ذلك فقال : (لأنه سبحانه لا سمي له ولا كُفْءَ له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى) ، فهذا تعليل لما سبق ، لِمَ لَمْ يَنْفِ أهل السنة والجماعة عن الله ﷻ ما وصف به نفسه ؟ قال : (لأنه سبحانه لا سمي له ولا كُفْءُ له) ، فإن كان ظاهر المعنى قد يقتضي المشابهة إلا أن إثبات الأسماء والصفات لله ﷻ إثبات للفظ وإثبات للمعنى الذي دل عليه اللفظ على ما يليق بالله ﷻ . وأما الاشتراك في بعض المعنى فإن هذا لا ينفيه أهل السنة والجماعة ؛ لأن الله ﷻ هو الذي وصف نفسه بذلك ؛ كما سيأتي من قوله : (فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره) ، فهو ﷻ الذي سمى نفسه السميع ، وسمى المخلوق بالسميع ، وبين السميع والسميع قدر مشترك من المعنى ، وهذا المعنى هو أصل السمع ، والسمع الذي في المخلوق يناسب ذاته ، والسمع الذي لله ﷻ يناسب ذاته ، وهذا على أصل القاعدة المقررة ، وهي « أن القول في الصفات كالقول في الذات يُحتذى فيه حذوه وينهج فيه منهاجه » ؛ لأن كل صفة تناسب الموصوف ، فسمع المخلوق يناسب ذاته ، وسمع الله ﷻ يناسب ذاته ، وما بين الصفتين من القدر المشترك هذا هو ما يجمعهما في أصل اللغة في المعنى العام ، أما المناسبة للذات فهي خارج الأصل العام ، والله ﷻ له من الصفات أكملها ، وله من كل صفة كمالى أكمل تلك الصفة وأعظمها وأشملها أثرًا وأعمها متعلقًا ، وهذا لا يعني بحال المماثلة ، وإنما القدر المشترك في أصل المعنى هذا لا ينفيه أهل السنة ؛ لأن الله ﷻ أنزل القرآن بلسان عربي مبين ، ومعنى

ذلك أن الكلمات التي فيها ذكر الأسماء والصفات أنها تفهم باللغة ، وهذا سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى .

قال : (لأنه سبحانه لا سمي له) وتنزيهه سبحانه بالتسبيح يعني : نفي أن يكون ثم مماثل له سبحانه وتعالى ، فمعنى (سبحانه) : تنزيهًا لله تعالى عن أن يماثله شيء ، أو عن النقائص جميعًا ، وسيأتي - إن شاء الله - مزيد تفصيل في معنى (سبحانه) عند بيان معنى قوله تعالى : ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات : ١٨٠] .

قال : (لا سمي له ولا كفء له ولا ند له) هذه الألفاظ الثلاثة - السمي ، والكفء ، والند - جاءت في القرآن وهي متقاربة المعنى ، قال ﷻ : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] ، وقال سبحانه : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص : ٤] ، وقال سبحانه : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة : ١٦٥] . وفي قوله تعالى : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ إنكار أن يكون له سمي ؛ لأن الاستفهام إذا أتى بعده جملة يُراد إبطالها فإنه يكون للإنكار ، وإذا أتى بعده جملة يُراد إثباتها صار الاستفهام للتوبيخ أو للحث أو نحو ذلك من المعاني المقررة في علم العربية . فلا يُعلم له سمي سبحانه وتعالى ، فليس أحدٌ من خلقه ﷻ يعلم له سميًا ، والسمي : هو المثيل والشبيه والنظير ؛ كما فسرها ابن عباس رضي الله عنهما وغيره ، وكذلك الند : هو المثيل والنظير ؛ كما ذكر ذلك ابن جرير عند قوله تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ ، قال : « الأنداد جمع ند ، والند هو العدل والمثل ، وكل شيء كان نظيرًا لشيء وشبيهًا فهو له ند » ، واستشهد لذلك بقول حسان بن ثابت رضي الله عنه :

أتهجوهُ ولستَ لهُ بِكُفْءٍ فشرُّكُما لخيرِكُما الفِدَاءُ

وتروى : أتهجوه ولست له بند .

فهذا الند والكفء والمثيل والسمي ، هذه كلها لا ترادف بينها ، لكن معانيها متقاربة ، وسيأتي - إن شاء الله تعالى - بيان معانيها عند الآيات التي سيوردها شيخ الإسلام رحمه الله تعالى .

قال : (ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى) هذه الكلمة من شيخ الإسلام إبطال لأصل أصّله الجهمية والمعتزلة ، يعني : أصّله أهل الكلام وأهل البدع الذين شقوا صف الجماعة في باب الأسماء والصفات بل وفي باب القدر ، قالوا : إن الله ﷻ يقاس بخلقه . ما معنى القياس هاهنا ؟ يعني : أنه ما نفته العقول نفيناه ، وما أثبته العقول أثبتناه ، وبناء على هذا نفوا عن الله ﷻ أكثر الصفات الذاتية ، وقالوا : إن إثبات الوجه لله ﷻ يقتضي التجسيم ، والعقل ينفي أن يتصف الله ﷻ بهذا ، وأن الوجه أبعاض وأجزاء ، والله ﷻ ليس على ذلك . وقالوا : إن الله ﷻ لا يتصف بأن له يدين ، وذلك لأن اليد جارحة ، ما الدليل ؟ الجواب : القياس العقلي . وهكذا في سائر الصفات . وأهل السنة قد أثبتوا ما أثبته

القرآن من القياس – وسيأتي ذلك في موضعه – لكن ليس هو كل أنواع القياس [illegible]

قال هنا : (لا يقاس بخلقه) يعني : في جميع الصفات التي اتصف الله ﷻ بها ، فإنما نثبتها مع قطع القياس وقطع المماثلة مع المخلوق ، فنحن نثبت لله ﷻ الوجه وليس وجه الله ﷻ كوجه مخلوق من مخلوقاته ، ونثبت لله ﷻ يدين وليست اليدان لله ﷻ كيدي بعض مخلوقاته ، ونثبت لله ﷻ العينين وليست العينان لله ﷻ كعيني بعض مخلوقاته ، وهكذا نثبت لله ﷻ استواء يليق بجلاله وليس استواؤه كاستواء خلقه ، ونثبت لله ﷻ النزول كما أخبر النبي ﷺ عن ربه ﷻ وليس نزوله ﷻ كنزول خلقه ، وهذا كله على هذه القاعدة : « أنه سبحانه لا يقاس بخلقه » ، وأصل ذلك كما ذكرنا من القاعدة – « أن القول في الصفات كالقول في الذات » ، فكما أن الله ﷻ لا يماثله ولا يشبهه شيء من الذوات ، فكذلك أسماؤه في عموم معناها ، وكنه اتصاف الله ﷻ بها ، وكيفية الاتصاف ، ونحو ذلك .

والأسماء كذلك لا تقاس بخلق الله ﷻ في أسمائهم ، إلى غير ذلك من الأصول العظيمة ، ثم ذكر تعليلًا آخر للاتباع ، فقال : (فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره) ، لِمَ اتفقنا على هذه الوجهة من التسليم ، ولِمَ لَمْ ندخل في هذا الأمر بالقياس وبالعقل ، وبها أصلوا طوائف من مبتدعتهم أولئك المتكلمة ؟

الجواب : لأن الله ﷻ هو الذي وصف نفسه بذلك ، وهو سبحانه أعلم بنفسه وبغيره [illegible]

هل تعلمون ذلك منه ، هل تعلمون كيف اتصف الله بصفاته ، هل يعلم المبتدعة والمؤولة والمحرفة كل المعنى الذي تحتمله الصفة [illegible]

الجواب : لا . [illegible]

وإذا كان كذلك بطلت دعوى المجاز ، وبطلت دعوى التأويل الذي يصرف الألفاظ عن ظاهرها ، فإن الله ﷻ أعلم بنفسه ، وهذا الباب ، باب الأسماء والصفات ، أعظم الأبواب التي توصل منها الإيمان إلى القلب . وإذا كان كذلك فالله ﷻ لا يبين للعباد من كلامه إلا ما فيه نفعهم ، ولو كانت الألفاظ في الأسماء والصفات في الآيات والأحاديث ولا يراد ظاهرها مع ذلك لوقع عدم التأسيس والاشتباه في هذا الأصل العظيم – وهو الإيمان بالله ؛ لأن الله جل جلاله إنما خاطب العباد ليذلوا له ، وعبدوه ، وأحبوه ، ورغبوا إليه ، ورهبوا منه ، وخافوه ، ورجوه ، كل ذلك لشهودهم آثار أسمائه وصفاته ، ولإيمانهم بأسمائه ﷻ وصفاته ، ونعوت جلاله وأنواع توحيده ، فإنهم إنما وحدوه ﷻ وإنما علموه ﷻ بما علموا من الأسماء والصفات [illegible]

وإذا كان كذلك كان محالًا أن يبقى هذا الباب ملتبسًا على الخلق ، وأن يكون فيه ألفاظ يمكن تأويلها بالاجتهاد ، كالآيات والأحاديث التي فيها أحكام فقهية ، التي تحتمل أكثر من معنى ، فيقدم بعضها على بعض ، أما في باب الأسماء والصفات فمحال أن يبقى فيه اللفظ محتملًا ؛ وذلك لأنه لا مدخل فيه

للاجتهاد ، ولو كان فيه مدخل للاجتهاد فمعنى ذلك أن فيه سبيلًا لإضلال الناس ، والله ﷻ إنما عرّف العباد بأسمائه وصفاته ، وأعلمهم بذلك ليكونوا في هذا الأصل العظيم على يقين ، وعلى ثبات ، وعلى إدراك تام لصفاته ﷻ وما دلت عليه من المعاني ؛ وبهذا تخضع قلوبهم له ، وتذل قلوبهم له ، وتألهه ﷻ محبة وانقيادًا وتعظيمًا .

قال هنا : (فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره) ، والعطف هنا في قوله : (وبغيره) مهم ؛ لأن أولئك النفاة قاسوه ﷻ بخلقه ، والقياس ممتنع ؛ لأن الله أعلم بنفسه فيما وصف به نفسه ، وأعلم بغيره الذين وصفهم بصفات يشتركون في ألفاظها مع صفات الله ﷻ ، ويشتركون في جزء المعنى مع صفات الله وأسمائه ﷻ ، فهو أعلم بنفسه وما يصلح له وما يليق به ﷻ ، وأعلم بخلقه وما يصلح لهم وما يليق بهم ، وهو ﷻ وصف نفسه بالصفات ووصف خلقه ، وسمى نفسه بالأسماء وسمى خلقه ، وهو أعلم بنفسه وبخلقه ، فلو كان مجال القياس واردًا - كما ادعوه - ولو كانت الشبهة ووقوع التمثيل والتجسيم - كما ادعوه - واردًا ، لكنا في هذا إلباسًا على متلقي هذا الدين ومتلقي القرآن ليؤمن به ، والله ﷻ وصف آياته بأنها صدق وعدل ، فقال سبحانه : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام : ١١٥] ، وفي القراءة الأخرى : (وتَمَّتْ كلماتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا) ، فهي صدق في الأخبار ، وعدل في الأحكام ، فلما كان ﷻ أعلم بنفسه وبغيره - يعني بخلقه - فإنه يُتلقى ما سمى به نفسه وما وصف به نفسه بالتسليم العظيم ؛ لأنه لا أحد أعلم بالله من الله ، ولا أحد أعلم بالله من خلقه من رسول الله ﷺ .

قال بعده : (وأصدق قيلًا وأحسن حديثًا من خلقه) ؛ كما قال سبحانه : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء : ١٢٢] ، وقال : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء : ٨٧] .

فالله ﷻ لا أحد أصدق منه قيلًا ، بل هو ﷻ الذي كلماته صدق في أخباره ، إذا أخبر عن نفسه فهو صدق وحق ، وإذا أخبر عن أسمائه فهو صدق وحق ، وإذا أخبر عن صفاته فهو صدق وحق .

وإذا كان كذلك فمعنى ذلك أن دعاوى أولئك كلها باطلة .

قال - رحمه الله تعالى - : (ثم رسله صادقون مصدقون) : الرسل : جمع رسول ، وهم الذين أوحي إليهم بكتاب وأمروا بتبليغه إلى قوم مخالفين ؛ كما مر معنا في أول هذه الرسالة .

(صادقون) : جمع صادق ، والصادق اسم لمن قام به الصدق ، والصدق مطابقة الخبر للواقع ؛ كما قيل : « الصدق : أن يطابق الواقع ما تقوله » ، فإذا طابق الواقع ما تقوله فهذا هو الصدق ، وإذا خالف الواقع ما تقوله فإن هذا يُعد كذبًا ، سواء كان خطأ أو كان متعمدًا ، هذا في الاصطلاح .

ورسل الله ﷻ صادقون ، يعني : قام بهم الصدق ، فلم يخبروا بشيء من أسماء الله ﷻ وصفاته ولا

من دينه إلا وقد طابق الواقع ، فهم لم يذكروا شيئًا عن الله ﷻ لم يطابق الواقع ، بل كل ما وصفوا الله ﷻ به يطابق الحال ، وقد وصف الرسل ربهم ﷻ بأنه استوى على العرش ، فذكر موسى لفرعون أن ربه هو الأعلى ، فقال فرعون : ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر : ٣٦، ٣٧] ، فهذا العلو نفاه فرعون ، ورسل الله مجمعون على إرشاد الناس وتبيين تلك الصفة لهم ، فهو ﷻ له الصفات ، وقد أخبر رسله بما له من الصفات ، ورسله أخبروا الخلق بذلك وهم صادقون في ذلك ، فمن نفى صفة فقد كذب الرسول - هذا حقيقة حاله - لكن قد يكون التكذيب له وجه من العذر فلا يكون كافرًا بذلك .

فقوله : (مصدقون) ، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه في الحديث المشهور : « أخبرني الصادقُ المَصدوق : إنَّ أحدَكُم يُجمع خَلقُهُ في بَطْنِ أُمِّه ...»[1] الحديث .

قال هنا : (بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون) ، فالقول على الله بلا علم حرام ، سواء أكان القول في الأسماء والصفات - في العقائد - أو في الأحكام العملية ، يعني : سواء أكان في الأحكام الخبرية التي هي العقائد ، أو في الحلال والحرام وهي الأحكام العملية .

فالقول على الله بلا علم أشد المحرمات ؛ ولهذا عنه تفرع كل ضلال ، وقد ذكر الله ﷻ تحريمه في عدة آيات في كتابه ﷻ .

من هم الذين قالوا على الله ما لا يعلمون ؟

الجواب : قالها كل مخالف للرسل ، فإن مشركي العرب - مثلًا - وصفوا الله ﷻ بخلاف ما قاله الرسل ، وخلاف ما قاله النبي ﷺ ، وأخبروا عن أسماء الله ﷻ بخلاف ما جاءت به الرسل ، وعن صفات الله ﷻ بخلاف ما جاءت به الرسل ، بل أثبتوا لله سبحانه صفات ونفوا أسماء بما عندهم ، فقال الله ﷻ عنهم : ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ [الرعد : ٣٠] ، وهذا قول على الله بلا علم ، وقال عن اليهود : ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ﴾ [آل عمران : ١٨١] ، وأخبر أنهم قالوا : ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾ [المائدة : ٦٤] وهذا كله في باب الأسماء والصفات ، قالوا على الله ما لا يعلمون به .

فورث هذا القول منهم طوائف الضلال ، فالجهمية ومن تفرع عنهم من المعتزلة والأشاعرة والماتريدية وأشباه هؤلاء ، كل طائفة من هؤلاء أثبتت لله أسماء ونفت صفات من عقولهم ومن آرائهم بلا دليل ، فجعلوا من أسماء الله ﷻ وصفاته : الصفات السلبية .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨، ٣٣٣٢) ، ومسلم (٢٦٤٣) .

والمعتزلة – بل الجهمية قبلهم – نفوا أن يكون لله ﷻ أسماء فيها صفات، فيفسر الجهمية الأسماء بمخلوقات منفصلة، والمعتزلة يفسرون الأسماء بالذات التي ليس فيها صفة، فيجعلون دلالة السميع هي دلالة العليم هي دلالة البصير؛ دلالة على الذات بدون المعنى، فتكون عندهم من قبيل المترادف المحض؛ لأنها دالة على ذات بلا معنى، وهذا كله قول على الله ﷻ بلا علم.

وهذه لا شك جمل من الكلام وعرض عام سيأتي تفصيله بدقته وبتحريراته في مواضعه من هذه الرسالة إن شاء الله تعالى.

قوله: (لهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢]، فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل)، وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ﴾ ﴿سُبْحَٰنَ﴾ هذا مفعول مطلق، يعني: أسبح سبحانه، وأصله في اللغة: الإبعاد، يقولون: سبحان فلان من كذا، يعني: بُعد فلان من كذا، وقد قال الأعشى:

أقولُ لـمَّـا جـاءَنـي فـخـرُه ... سُبحانَ مِن علقمةَ الفاخِرِ

فسبحان من علقمة، يعني: بعيد جدًّا أن يكون لعلقمة من يفخر به، وتسبيح الله (سبحان الله) معناه: تنزيه الله عن كل نقص وعيب وسوء، وموارده في الكتاب والسنة خمسة:

الأول: تنزيه الله ﷻ عن الشريك في الربوبية؛ كما ادعاه الملحدون.

الثاني: تنزيه الله ﷻ عن الشريك في الألوهية؛ كما ادعاه المشركون.

الثالث: تنزيه الله ﷻ في أسمائه وصفاته أن تسلب معانيها اللائقة بها، وتنزيه الله ﷻ في أسمائه وصفاته عن مماثلة المخلوقين لها.

الرابع: تنزيه الله ﷻ في أمره الكوني وقدره الكوني عن أن يكون بلا حكمة أو أن يكون عبثًا؛ كما ادعاه من قال: خلقنا الله عبثًا. ومن نفوا الحكمة في الخلق والإيجاد وتقدير الأشياء.

الخامس: تنزيه الله ﷻ في شرعه وأمره الديني عن النقص عن منافاة الحكمة، فالله ﷻ ينزه نفسه بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ﴾ [الصافات: ١٨٠] يعني: تنزيهًا لله من كل سوء ادعاه المخالفون للرسل، وهم ادعوا الشركة له في الربوبية، فيتنزه الله ﷻ عن الشريك في الربوبية.

وإذا قلت في الركوع: سبحان ربي العظيم، معناه: تنزيهًا لله ربي العظيم عن كل سوء ونقص في هذه الموارد الخمسة التي في الكتاب والسنة: في الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات، وفي الأمر الكوني والقدر، وفي الشرع.

قال هنا: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ﴾ هنا الإضافة للتشريف أضاف الربوبية إلى النبي ﷺ لتشريفه بها في هذا المقام العظيم، وهذا يقتضي أن كلام النبي ﷺ عن ربه – الذي جحده الجاحدون – هو الأكمل وهو

الأليق بالله ﷻ.

ثم قال بعدها: ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ [الصافات: ١٨٠] بمعنى صاحب العزة، وذي العزة، والمتصف بالعزة، والعزة صفة لله ﷻ، ومن أسمائه العزيز، والعزيز هو الذي كملت له أوصاف العزة.

والعزة في الكتاب والسنة التي يتصف الله ﷻ بها جاءت على ثلاثة معانٍ:

الأول: العزة التي هي بمعنى الامتناع والغنى وعدم الحاجة؛ الامتناع عمن يغالب أو عمن يسيء، هذه كلها معنى واحد، والغنى عن الخلق.

الثاني: العزة بمعنى القهر والغلبة.

الثالث: العزة بمعنى القوة، يعني: القوة الخاصة التي لا يُقوى عليها، قوة لا يبلغها شيء. وهذه هي المعاني الثلاث التي ذكرها ابن القيم في النونية حيث قال في بيان معاني اسم الله العزيز:

وهو العزيزُ فلن يُرامَ جنابُهُ ... أنَّى يُرامُ جنابُ ذي السلطانِ
وهو العزيزُ بقوةٍ هي وصفُهُ ... فالعزُّ حينئذٍ ثلاثُ معانِ
وهي التي كملتْ لهُ سُبحانَهُ ... من كلِّ وجهٍ عادمِ النقصانِ

هنا ذكر معاني العزة الثلاثة:

الأول: قال: (وهو العزيز فلن يرام جنابه)، وهذه عزة الامتناع، وهي التي بمعنى الغنى التام والامتناع عن أن يضره أحد؛ كما قال في الحديث القدسي: «إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي»، وامتناع عن أن ينفعه أحد؛ كما قال: «وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»(١).

الثاني: قال: (وهو العزيز القاهر الغلاب)، وهذه عزة القهر والغلبة، لم يغلبه شيء (هذه صفتان).

الثالث: قال: (وهو العزيز بقوة هي وصفه)، وهذه القوة الكاملة العظيمة التي لا يقوى عليها شيء، فهذه تكون في الكتاب والسنة في فعلها من عز يعز، بالفتح؛ قال سبحانه: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يس: ١٤]، يعني: قوينا وأيدنا بثالث، وأما العزة بمعنى الامتناع فهذه قد يأتي فعلها مكسورًا عز يعزّ، وأما القهر والغلبة فيكون فعلها المضارع مضمومًا عز يعز عزة، المصدر في الجميع عزّة لكن في المضارع يختلف المعنى، هكذا قرره ابن القيم وغيره من العلماء، والقهر والغلبة هذه متعدية، والقوة هذه لازمة.

وبهذا الدليل يصح أن تقول لله ﷻ: رب الرحمة، ورب السمع، ورب البصر، ورب العزة،

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر.

ورب الجمال ، ورب النور ... ونحو ذلك ، بمعنى : صاحب ، يعني : المتصف بهذه .

قال : ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات : ١٨٠] ، يعني : عن الذي يصفون ، والمفعول به الذي هو الضمير محذوف ، يعني عن الذي يصفون الله ﷻ به .

ومن هم الواصفون الذين نزّه الله ﷻ نفسه عن وصفهم ؟

الجواب : هم الذين لم يستجيبوا للرسل ، فقال سبحانه : ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات : ١٨١] وذلك لأن المرسلين أنزل الله ﷻ عليهم السلام ، وهو ﷻ من أسمائه السلام ، وهو الذي يعطي السلام ، وهو الذي جعل الأنبياء والمرسلين أهل السلام .

والسلامة متبعضة :

* هناك سلامة في القول بصحته ومطابقته للواقع وسلامة في الفهم .
* وسلامة في العبودية .
* وسلامة في الاعتقاد .
* وسلامة في التبليغ .

فجهات السلامة كثيرة ، والله ﷻ أعطاها عباده المرسلين ؛ ولهذا قال هنا : ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات : ١٨١] وأفاد الإعطاء التعدية بـ ﴿عَلَى﴾ ، وفي قوله : ﴿عَلَى﴾ ما يفيد أن السلامة صارت عليهم وقد أحاطت بهم .

وهذا في هذا المقام ظاهر الفائدة ؛ لأن المرسلين وصفوا الله ﷻ بالصفات العلا ، وسموه بالأسماء الحسنى ، وفي هذه السورة - التي هي سورة الصافات - ذكر الله ﷻ عن المشركين أنهم استكبروا عن قول لا إله إلا الله ، فقال فيها : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات : ٣٥، ٣٦] ، وذكر في آخر السورة أنهم جعلوا الملائكة بنات لله ﷻ ، وهذا فيه وصف لله ﷻ ، والأنبياء والرسل لم يصفوا الله ﷻ بذلك ، بل هم سالمون مسلمون في أقوالهم وفي أعمالهم وفي تبليغهم ، ولهذا قال هنا : ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ، لسلامة ما وصفوه به من النقص والعيب ، وهذا لا شك أنه واسع المعنى .

ثم قال : ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات : ١٨٢] والحمد مر معنا معانيه الكثيرة في أول هذه الرسالة ، وقوله هنا : ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ، هذا فيه فائدة ، وهي : أن هذه الآية دليل على أن الربوبية غير الألوهية ؛ لأنه قال : ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ والمعتمد عندنا أن لفظ الجلالة (الله) مشتق ، وعليه يكون مشتق من الألوهية ؛ لأن الاشتقاق يكون من المصدر ، والرب من الربوبية ، والربوبية إذن غير الألوهية .

وقد قال الإمام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى - : « إن اسم الرب والإله من الأسماء التي إذا اجتمعت افترقت ، وإذا افترقت اجتمعت ، وذلك إما بدلالة اللفظ أو بدلالة التضمن واللزوم » .

قال : ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات : ١٨٢] ، العالمون جمع العالم ، والعالم هو كل ما سوى الله ﷻ ، وسمي عالَمًا من العلامة ؛ لأنه علامة على أنه مربوب ، وأن له ربًا خالقه ، أو من العلم ؛ لأن به عُلم ما لله ﷻ من الحق والأسماء والصفات . كما قال أبو العتاهية :

وفـي كُـلِّ شَـيءٍ لَـهُ آيـةٌ تَـدُلُّ عَـلَـى أَنَّـهُ وَاحِـدُ

قوله : (وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمَّى به نفسه بين النفي والإثبات ، فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون ...) :

الله ﷻ جمع بين النفي والإثبات ؛ كما في قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] ، نفى في قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ، ثم أثبت فقال : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وكذلك أثبت في قوله : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ ، ثم نفى فقال : ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة : ٢٥٥] . وكذلك أثبت في قوله : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص : ١، ٢] . ثم نفى فقال : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص : ٣، ٤] . وهذا فيه بيان لقاعدة أهل السنة والجماعة في ذلك بأعظم دليل وأوضح استدلال ، فهم يجمعون في عقائدهم وفي الأسماء والصفات بين النفي والإثبات ، وعندهم النفي يكون مجملًا - كما أجمله الله ﷻ وعندهم الإثبات يكون مفصلًا ؛ كما فصله الله ﷻ .

وأما النفي المفصل الذي جاء في القرآن ؛ كقوله تعالى : ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف : ٤٩] ، وقوله تعالى : ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر : ٤٤] ، فإن النفي لا يكون كمالًا ولا يُمدح به المنفي إلا إذا كان يُراد بالنفي إثبات كمال الضد ، فالله ﷻ نفى عن نفسه الظلم بقوله : ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ، وقوله : ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت : ٤٦] ، والغرض من ذلك إثبات كمال اتصافه بضد صفة الظلم وهو العدل .

وبعض العلماء يسمي هذه الصفات السلبية ، يعني الصفات المسلوبة عن الله ﷻ .

وما الفائدة من السلب ؟

الجواب : الفائدة منه أن يُثبت كمال ضده ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة : ٢٥٥] وذلك لكمال حياته سبحانه ، وقد يكون النفي لإثبات صفة واحدة وقد يكون النفي لإثبات صفتين معًا ، يعني يكون المراد من النفي إثبات صفتين جميعًا ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر : ٤٤] ، فنفى الله ﷻ عن نفسه العجز .

قال العلماء : العجز إما أن يكون :

مثلًا: لأجل عدم العلم بالعجز عن الشيء لأنه ليس بعالم به، وعجزت عن جواب سؤال لأني غير عالم بالجواب.

* لأجل عدم القدرة عليه: عجزت عن الكتابة لأني غير قادر عليها، عجزت عن المسير لأني غير قادر عليه.

أما قوله ﷻ هنا في هذا النفي: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ﴾ يُراد به إثبات كمال ضد العجز، وكمال ضد العجز يكون بكمال صفتين، وهي صفة العلم وصفة القدرة، ولهذا قال ﷻ في نفس هذه الآية:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ [فاطر: ٤٤]، وقد تقرر أن كلمة ﴿إِنَّهُۥ﴾ في القرآن من أساليب التعليل لما قبلها إذا كان خبرًا أو أمرًا أو نهيًا، أو حكمًا، أو استفهامًا، فيكون ما بعد (إن) تعليل لما قبلها، ومعنا قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ ما علة ذلك؟ قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ [فاطر: ٤٤]، وهذا فيه ظهور أن النفي هنا أريد به إثبات كمال ضده وهما صفتان: صفة العلم وصفة القدرة، ولذلك وصف الله ﷻ نفسه بذلك، بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ مع ما في كان من إثبات الكمال السابق واللاحق، وما في قوله: ﴿عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ من إثبات الكمال لدلالة صيغة المبالغة عليه.

[قال هنا: (في النفي والإثبات)، المبتدعة عندهم عكس ذلك؛ عندهم الإثبات مجمل، يقولون: يتصف الله بصفات الكمال. أما النفي عندهم يكون مفصلًا، يقولون: الله ﷻ ليس بذي دم، وليس بذي جوارح وليس بذي روح، ولا بذي أبعاض، ولا هو فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال، ولا بذي جهة، وليس بداخل العالم ولا خارجه ... إلى آخره.

ولذلك كما في كتاب: «التمهيد» للباقلاني، وغيره، وكتب أهل الكلام، فهو يأتي في وصف الله ﷻ بالنفي بصفحتين أو أكثر، كلها نفي مفصل، ليس بكذا وليس بكذا وليس بكذا، وإذا أتى الإثبات أجمله فقال: وله صفات الكمال. ما هي؟ هي الصفات السبع العقلية التي يثبتونها.

قال: (فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون):

وهذه كلمة عظيمة تدل على أن أهل السنة والجماعة - يعني: السلف الصالح - أنهم تبعوا المرسلين، (فلا عدول لهم) يعني لا ميل لهم ولا انحراف، ولا يعدلون، لا يوازنون بما جاء به المرسلون شيئًا، بل هم متبعون للمرسلين.

وأما غيرهم فهم متبعون للمشركين أو لليهود أو للنصارى أو للملحدين، فكل بدعة في الأسماء والصفات ظهرت في هذه الأمة فإنها لم تُؤخذ من الأنبياء والمرسلين - وحاشاهم من ذلك - وإنما

أُخذت من المشركين وأهل الكتاب ، وقد قال النبي : « لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَان قبلكُمْ »(١) ، وبيّن في الحديث الآخر ، الذي رواه البخاري وغيره من حديث ابن عباس ، قال : « إنَّ أَبْغَضَ الرِّجالِ إلى اللَّهِ ثلاثةٌ » ، وذكر منهم : « مُبتغٍ في الإسلامِ سُنةَ الجاهليةِ »(٢) .

وقد نفى المشركون عن اللَّه ﷻ اسمًا من أسمائه الحسنى ؛ كما أخبر بذلك سبحانه في قوله : ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد : ٣٠] ، فنفوا اسم الرحمن عن اللَّه ﷻ ، وورثهم نفاة الأسماء في هذه الأمة واتبعوا سبيل أهل الجاهلية ، ونفوا عن اللَّه ﷻ الأسماء الحسنى ، فوصفوا اللَّه بما لم يصف به نفسه ، ونفوا عن اللَّه ﷻ ما وصف به نفسه ، وكذلك اليهود والنصارى جعلوا له ﷻ مثيلًا وشبيهًا ، فورثهم المجسمة والمؤولة .

فإذن كل بدعة حصلت في هذه الأمة في أبواب الأسماء والصفات فإنها من ابتغاء سنة الجاهلية ، فإن أهلها إنما أخذوها من اليهود والنصارى والمشركين .

كذلك في باب الإيمان ، فالذين قالوا بالجبر من الجبرية إنما أخذوها عن طائفة كانت موجودة قبل النبي ﷺ ، كذلك الذين قالوا بالإرجاء ورثوها ممن قبلهم ، وكذلك في أبواب الإمامة ، فإن اجتماع الناس على إمام واحد يطيعونه ويرضونه هذا إنما جاءت به الرسل ، أما أهل الجاهلية فإنهم يعدون التفرق مفخرة ، ويعدون الاتباع والطاعة لولي أمر واحد مسبة وذلة ، وهكذا في أبواب الصحابة فإن المشركين يسبون أتباع الرسل ؛ كما أخبر عنهم ﷻ في قوله : ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء : ١١١] ، وفي هذه الآية في باب العقائد خالف من خالف في العقيدة في أتباع الرسل فسبوهم ، يعني : أن أهل السنة والجماعة تبعوا المرسلين ، وكل من خالف أهل السنة والجماعة فإنما تبع أهل الجاهلية ، وهذه جملة يطول تفصيلها .

قال : (فإنه الصراط المستقيم صراط الذين أنعم اللَّه عليهم من النبيين والصديقين والشهداء) ، يعني : الطريق الوحيد الموصل لرضا اللَّه ﷻ (صراط الذين أنعم اللَّه عليهم) وهذه جملة يؤخذ تفسيرها من الآية .

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٦) ، ومسلم (٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري .

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٨٢) .

الأسئلة

❁ **قال الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان رحمه الله :**

س١- بم يوصف الله ﷻ ؟

ج- بما وصف به نفسه في كتابه العزيز ، وبما وصفه به رسول الله ﷺ من غير تحريف ، ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل .

التحريف :

س٢- ما هو التحريف ؟ وما هي أقسامه ؟ وما مثال كل قسم ؟

ج- هو التغيير والتبديل . واصطلاحًا : تغيير ألفاظ الأسماء الحسنى ، والصفات العلى ، أو معانيهما ، وهو ينقسم إلى قسمين :

أحدهما : تحريف اللفظ بزيادة أو نقص ، أو تغيير شكل ، وذلك كقول الجهمية في استوى استولى ، بزيادة اللام ، وكقول اليهود : حنطة . لما قيل لهم : « قولوا حطة » ، وكقول بعض المبتدعة بنصب الجلالة في قوله : ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ ، وقولهم في قوله : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ وجاء أمر ربك .

والقسم الثاني : تحريف المعنى ، وهو إبقاء اللفظ على حاله ، وتغيير معناه ، وذلك كتفسير بعض المبتدعة الغضب بإرادة الانتقام ، وكقولهم معنى الرحمة : إرادة الإنعام ، وكقولهم : إن المراد باليد النعمة أو القدرة ، وكتفسيرهم التكليم بالتجريح ، قال ابن القيم رحمه الله :

أمر اليهود بأن يقولوا حطة ... فأبوا وقالوا حنطة لهوان

وكذلك الجهمي قيل استوى ... فأبى وزاد الحرف للنكران

نون اليهود ولام جهمي هما ... في وحي رب العرش زائدتان

التعطيل :

س٣- ما هو التعطيل ؟ وما الفرق بينه وبين التحريف ؟

ج- مأخوذ من العطل الذي هو الخلو والفراغ والترك ، ومعناه هنا : نفي الصفات الإلهية وسلبها عن الله ، والفرق بينهما : أن التعطيل : نفي للمعنى الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة ، وأما التحريف : فهو تفسير النصوص بالمعاني الباطلة .

س٤- ما هي أنواع التعطيل ؟ وكم هي ؟

ج- ثلاثة :

أولًا : تعطيل الله من كماله المقدس ، وذلك بتعطيل أسمائه وصفاته ، كتعطيل الجهمية والمعتزلة ومن نحا نحوهم .

ثانيًا : تعطيل معاملته بترك عبادته أو عبادة غيره معه .

ثالثًا : تعطيل المصنوع من صانعه ، كتعطيل الفلاسفة الذين زعموا قدم هذه المخلوقات ، وأنها تتصرف بطبيعتها ، فهذا من أبطل الباطل ؛ إذ لا يمكن وجود ذات بدون صفات .

س٥- من أول من عرف بالتعطيل لأسماء الله وصفاته ؟

ج- الجعد بن درهم ، وأخذها عنه تلميذه الجهم بن صفوان وبثها ، وقتل الجعد خالد بن عبد الله القسري بعد استشارة علماء زمانه ، خطب يوم الأضحى فقال : أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم ، فإني مضح بالجعد بن درهم ؛ إنه زعم : أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا ، ولم يكلم موسى تكليمًا ، ثم نزل فذبحه ، وذلك في أوائل المائة الثانية ، وأما الجهم : فقتله سلم بن أحوز أمير خراسان .

التكييف :

س٥- بين ما هو التكييف ؟ وما هو التمثيل ؟ وبين ما فيه تقاسيم وأمثلة ؟

ج- التكييف : هو تعيين كنه الصفة ، يقال : كيف الشيء ؛ أي : جعل له كيفية معلومة ، وأما التمثيل : فهو التشبيه والتشبيه ، ينقسم إلى قسمين :

أولًا : تشبيه المخلوق بالخالق ، كتشبيه النصارى المسيح ابن مريم بالله قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة : ١٧] ، وكتشبيه اليهود عزيرًا بالله ، وكتشبيه المشركين أصنامهم بالله .

والقسم الثاني : تشبيه الخالق بالمخلوق ، وذلك كتشبيه المشبهة الذين يقولون : له وجه كوجه المخلوق ، ويد كيد المخلوق ، وسمع كسمع المخلوق ، ونحو ذلك تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا .

س٦- بين ما تفهمه من معنى قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ؟

ج- الآية تتضمن أولًا : تنزيه الله عن مشابهة خلقه لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، وفي أولها ، وهو قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ رد على المشبهة ، وفي آخرها : وهو قوله : ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ، رد على المعطلة ، وفيها : إثبات صفة السمع والبصر ، وفي أولها : نفي مجمل ، وفي آخرها : إثبات مفصل ، وفي الآية رد على الأشاعرة المثبتين لبعض الصفات ، دون البعض الآخر ، وهم متناقضون ، وكذلك ترد على المعتزلة الذين يقولون : سميع بلا سمع ، بصير لا بصر ، ونحو ذلك .

الأسماء الحسنى :

س٧- ما مثال الأسماء الحسنى ؟

ج- اللّه الحي القيوم ، العلي العظيم ، الرحمن الرحيم ، الغفور الملك ، القدوس السلام ، المؤمن المهيمن ، العزيز الجبار ، المتكبر الخالق البارئ .

س٨- لم كانت أسماء اللّه حسنى ؟ وهل هي من قبيل المحكم ؟ وهل الوصفية فيها تنافي العلمية ؟ وضح ذلك .

ج- لدلالتها على أحسن مسمى ، وأشرف مدلول ، وأسماؤه سبحانه ، أعلام وأوصاف ، الوصفية ؛ لا تنافي العلمية بخلاف أوصاف العباد ، وكل أسمائه تعالى دالة على معانيها ، وكلها أوصاف مدح وحمد ، وثناء ، وهي من قبيل المحكم ؛ لأن معانيها واضحة في لغة العرب ، إنما الكنه والكيفية مما استأثر اللّه بعلمه .

س٩- ما هي أركان الإيمان بالأسماء الحسنى ؟ ومثل لذلك .

ج- ثلاثة : الإيمان بالاسم ، وبما دل عليه من المعنى ، وبما تعلق به من الآثار ؛ فنؤمن بأنه رحيم ذو رحمة وسعت كل شيء ، قدير ذو قدرة ويقدر على كل شيء ، عليم ذو علم ويعلم كل شيء ، غفور ذو مغفرة ويغفر لعباده .

س١٠- هل أسماء اللّه توقيفية ، وإذا كانت توقيفية فما معنى ذلك ؟

ج- نعم ، لا يتجاوز بها الوارد في الكتاب والسنة ، فهي تتلقى من طريق السمع ، لا بالآراء ، فلا يوصف إلا بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ﷺ ، ولا يسمى إلا بما سمى به نفسه ، أو سماه به رسوله ﷺ ، فهذا معنى أنها توقيفية فليس للاستحسان والاجتهاد دخل في ذلك .

س١١- ما هي أنواع دلالة الأسماء الحسنى ؟ وضح ذلك بالأمثلة .

ج- ثلاثة أنواع :

دلالة مطابقة : إذا فسرنا الاسم بجميع مدلوله .

ودلالة تضمن : إذا فسرناه ببعض مدلوله .

ودلالة التزام إذا استدللنا به على غيره من الأسماء التي يتوقف هذا الاسم عليها ، فمثلًا لفظة الرحمن على الرحمة والذات دلالة مطابقة ، وعلى إحداهما دلالة تضمن داخلة في الضمن ، ودلالته على الأسماء التي لا توجد الرحمة إلا بثبوتها ، كالحياة والعلم والقدرة ونحوها دلالة التزام .

س١٢- هل أسماء اللّه من قبيل المترادف أم من قبيل المتباين ، وضح ذلك ؟

ج- هي بالنظر إلى الذات من قبيل المترادف ؛ لدلالتها على مسمى واحد ، وبالنظر إلى الصفات

من قبيل المتباين ؛ لأن كل صفة غير الأخرى .

س١٣- هل أسماء اللَّه محصورة بعدد معروف ؟ وهل في الحديث إفادة لحصرها ؟

ج- ليست محصورة بعدد معروف ، وأما الحديث الوارد : « إن للَّه تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة » ، فلا يفيد : أنها محصورة بالتسعة والتسعين ؛ وإنما غاية ما فيه أن هذه الأسماء موصوفة بأن على من أحصاها دخل الجنة .

س١٤- ما مراتب إحصاء أسماء اللَّه التي من أحصاها دخل الجنة ؟

ج- ثلاثة حفظها ، وفهمها ، ودعاء اللَّه بها دعاء عبادة ، ودعاء مسألة .

س١٥- لم كان إحصاء أسماء اللَّه الحسنى والعلم بها أصل العلم بكل معلوم ؟

ج- لأن المعلومات القدرية والشرعية صادرة عن أسماء اللَّه وصفاته ، ولهذا كانت في غاية الإحكام ، والإتقان ، والصلاح ، والنفع .

س١٦- ما هو الاسم الذي ينبغي لمن دعا اللَّه بأسمائه الحسنى أن يدعو اللَّه به ؟

ج- ينبغي له أن يتوسل إليه بالاسم المقتضي لذلك المطلوب المناسب لحصوله ؛ حتى كأن الداعي يستشفع إليه متوسلًا إليه به ، فطالب المغفرة يقول : يا غفار اغفر لي ، وطالب الرحمة يقول : يا رحمن ارحمني ، وطالب الرزق يقول : يا رزاق ارزقني ، والتائب : يا تواب تب عليَّ ، وهلم جرًّا .

س١٧- إذا كان الاسم منقسم إلى مدح وذم ، فهل يدخل في أسماء اللَّه تعالى ؟ وما مثال ذلك .

ج- لا يدخل بمطلقه بأسمائه ، وذلك كالمريد والصانع والفاعل ؛ فهذه ليست من الأسماء الحسنى لانقسامها إلى محمود ومذموم ؛ بل يطلق عليه منها كمالها .

س١٨- هل يلزم من اتحاد الاسمين تماثل مسماها ؟ وضح ذلك بالأمثلة .

ج- لا يلزم ذلك ، فإن اللَّه سمى نفسه بأسماء ، تسمى بها بعض خلقه ، وكذلك وصف نفسه بصفات وصف بها بعض خلقه ، فلا يلزم في ذلك التشبيه ، فقد وصف نفسه بالسمع والبصر ، والعلم والقدرة ، ووصف بذلك بعض خلقه فليس السميع كالسميع ، ولا البصير كالبصير ، فصفات كل موصوف تناسب ذاته ، وتليق به ، ولا مناسبة بين الخالق والمخلوق .

س١٩- ما مثال أسماء اللَّه المزدوجة المتقابلة التي لا يطلق واحد منها بمفرده على اللَّه إلا مقرونًا بالاسم الآخر ، وما المحذور من إفرادها ؟ وضح ذلك .

ج- مثالها : المانع ، المعطي ، الضار ، النافع ، المذل ، المعز ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، والحكمة في أنها لا تفرد ؛ لأن في إفرادها ما يوهم نوع نقص تعالى اللَّه عن ذلك ؛ ولأن الكمال الحقيقي تمامه وكماله من اجتماعهما .

أقسام الصفات :

س٢٠- إلى كم تنقسم صفات الله ، ووضح كل قسم منها بما يميزه عن الآخر ؟

ج- إلى قسمين : صفات ذات وهي التي لا تنفك عن الله ، وصفات فعل وهي التي تتعلق بالمشيئة والقدرة .

س٢١- ما مثال الصفات الذاتية ، والصفات الفعلية ؟

ج- مثال صفات الذات العلم ، والحياة ، والقدرة ، والسمع ، والبصر ، والوجه ، واليد ، والرجل ، والملك ، والعظمة ، والكبرياء ، والعزة ، والعلو ، والإصبع ، والقدم ، والغنى ، والرحمة ، والكلام .

وأما الصفات الفعلية كالاستواء ، والنزول ، والمجيء ، والضحك ، والرضى ، والعجب ، والسخط ، والإتيان ، والإحياء ، والإماتة ، والفرح ، والغضب ، والكره ، والحب ، فهذه يقال لها قديمة النوع حادثة الآحاد .

س٢٢- هل القول في الصفات يخالف القول بالذات ؟

ج- القول في الصفات كالقول في الذات ؛ فكما أن لله ذاتًا لا تشبهها الذوات ، فله صفات لا تشبهها الصفات ، فالصفات فرع الذات يحذى بها حذوها ، والقول في بعض الصفات كالقول في بعض .

الأقسام الممكنة في آيات الصفات وأحاديثها :

س٢٣- ما هي الأقسام الممكنة في آيات الصفات وأحاديثها ؟

ج- هي ستة أقسام : قسمان يقولون : تجري على ظاهرها ، فقسم قالوا : تجري على ظاهرها اللائق بالله من غير تشبيه ، وهؤلاء هم السلف الصالح .

والقسم الثاني : المشبهة الذين غلوا في الإثبات ، وقالوا : تجعل كصفات المخلوقين ومذهبهم باطل أنكره السلف ، وقسمان ينفيان ظاهرها وهم الجهمية ومن تفرع عنهم ، فقسم منهم : يؤولونها بمعان أخر ، وقسم منهم يقولون : الله أعلم بما أراد منها ، وقسمان واقفان ، فقسم يقولون : يجوز أن يكون المراد اللائق بالله ، ويجوز ألَّا يكون المراد صفة ، وهذه طريقة كثير من الفقهاء ، وغيرهم .

وقسم يمسكون عن هذا كله ولا يزيدون على تلاوة القرآن وقراءة الحديث ، معرضين بقلوبهم وألسنتهم عن هذه التقديرات .

والصواب في آيات الصفات وأحاديثها : القطع بالطريقة السلفية .

الواجب في آيات الصفات وأحاديثها :

س٢٤- ما الواجب في آيات الصفات وأحاديثها ؟

ج- يجب التصديق بها، وإثباتها وإمرارها كما جاءت من غير تكييف، ولا تمثيل، ومن غير تشبيه ولا تعطيل، ولا تحريف، قال بعضهم:

وجميع آيات الصفات أمرها حقًا كما نقل الطراز الأول

تعريف الإلحاد في الأسماء والصفات:

س٢٥- ما هو الإلحاد في أسماء الله وصفاته؟ وما هي أقسامه؟

ج- هو الميل والعدول بها، وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها إلى الإشراك والتعطيل، والكفر وأقسامه خمسة:

أولًا: تسميته بما لا يليق بجلاله وعظمته كتسمية النصارى له أبًا، والفلاسفة له موجبًا بذاته، أو علة فاعلة بالطبع ونحو ذلك.

ثانيًا: أن يسمى بها بعض المخلوقات؛ كتسميتهم اللات من الإله، واشتقاقهم العزى من العزيز.

ثالثًا: وصفه بما يتقدس ويتنزه عنه، كقول اليهود قبحهم الله ولعنهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾، وقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ ونحو ذلك.

رابعًا: تعطيل الأسماء عن معانيها، وجحد حقائقها؛ كقول من يقول: إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني.

خامسًا: تشبيه صفاته بصفات خلقه، فجمعهم الإلحاد وتفرقت بهم طرقه.

حكم استعمال الأقيسة في جانب الله:

س٢٧- هل يجوز استعمال شيء من الأقيسة في جانب الله ﷻ؟

ج- لا يجوز أن يشرك هو والمخلوق في قياس تمثيل، ولا في قياس شمول تستوي أفراده، ولكن يستعمل في حقه المثل الأعلى، وهو أن كل ما اتصف به المخلوق من كمال فالخالق أولى به، وكل ما ينزه عنه المخلوق من نقص فالخالق أولى بالتنزه عنه، قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

صفة العزة:

س٢٨- ما الذي تفهم عن معنى قوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠- ١٨٢]؟ ولم ساقها المصنف؟

ج- أما سياق المصنف لها في هذا الموضع؛ ففيما يظهر أنه تعليل لما تقدم من كون كلام الله وكلام رسوله ﷺ أكمل صدقًا وأتم بيانًا ونصحًا، وأبعد عن العيوب والآفات من كلام كل أحد، وأما ما يؤخذ منها فهي أولًا: تتضمن تنزيه الله وتقديسه وتبرئته عما يقول الظالمون، ثانيًا: صحة ما

جاء به المرسلون ، وأنه الحق الذي لا مرية فيه ، ثالثًا : إثبات صفة الربوبية ، رابعًا : إثبات صفة العزة ؛ وهي بأقسامها الثلاثة ثابتة له سبحانه ، عزة القوة ، وعزة الامتناع ، وعزة القهر ، ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه من النقص والتبرئة منه بدلالة المطابقة ، ويستلزم إثبات الكمال ، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال بالمطابقة ، ويستلزم التنزيه من النقص قرن بينهما في هذا الموضع ، وفي هذه الآية إثبات صفة الكلام والرد على المخالفين .

س٢٩- لم كانت هذه الآية تتضمن أنواع التوحيد الثلاثة ؟

ج- وجه ذلك كما ذكره ابن القيم رحمه الله : أن الحمد يتضمن إثبات أنواع التوحيد الثلاثة ؛ فإن الحمد مدح المحمود بصفات كماله ، ونعوت جلاله ، مع محبته والرضى عنه ، والخضوع له ، ومن المعلوم أن فاقد الصفات الكاملة لا يكون إلهًا ، ولا مدبرًا ؛ بل هو مذموم معيب ليس له الحمد ، وإنما الحمد لمن له صفات الكمال ، ونعوت الجلال التي لأجلها استحق الحمد ، وهو اللّه جلا وعلا .

النفي والإثبات :

س٣٠- ما هي طريقة أهل السنة والجماعة في النفي والإثبات الواردين في نصوص الصفات ؟

ج- طريقتهم في ذلك : أنهم ينفون نفيًا إجماليًا غالبًا على حد قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى : ١١] ، ويثبتون إثباتًا مفصلًا على حد قوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ، فكل ما أثبته اللّه لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من جميع الأسماء والصفات ، فيثبتونه للّه على الوجه اللائق بجلاله وعظمته .

س٣١- ما الذي يقصد بالنفي ؟ وهل فيه كمال أو مدح وأذكر مثالًا يوضح ذلك ؟

ج- النفي مقصود لغيره ، وهو إثبات ما يضاده من الكمال ، فنفي الشريك والند والنظير لإثبات كمال عظمته وتفرده بصفات الكمال ، ونفي العجز لكمال قدرته ، ونفي الجهل ، وعزوب شيء عن علمه لإثبات سعة علمه ، ونفي الظلم لإثبات عدله ، ونفي السنة والنوم لإثبات كمال حياته وقيوميته ، ونفي العبث وترك الخلق سدى لكمال حكمته التامة .

والنفي المحض ليس فيه مدح ولا كمال إلا إذا تضمن إثباتًا ؛ فكل ما نفى اللّه عن نفسه من النقائص ومشاركة أحد من خلقه في شيء من خصائص ، فإنها تدل على ضدها من أنواع الكمال .

س٣٢- ما هو الصراط المستقيم ؟

ج- قيل : إنه القرآن ، وقيل : الرسول ﷺ وصاحباه من بعده ، وقيل : الإسلام ، قال ابن القيم : والقول الجامع في تفسير الصراط المستقيم هو الطريق الذي نصبه اللّه لعباده على ألسنة رسله ، وجعله موصلًا لعباده إليه ، ولا طريق لهم سواه ، وهو إفراده بالعبودية ، وإفراد رسله بالطاعة ، وهو مضمون

شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، ونكتة ذلك وعقده : أن تحبه بقلبك كله ، وترضيه بجهدك فلا يكون في قلبك موضع إلا معمور بحبه ، ولا تكون إرادة إلا متعلقة بمرضاته ، وهذا هو الهدى ودين الحق ، وهو معرفة الحق والعمل به ، وهو معرفة ما بعث الله به رسله ، والقيام به ، فقل ما شئت من العبارات التي هذا أحسنها ، وقطب رحاها .

س٣٣- لم يضاف الصراط تارة إلى الله ، وتارة إلى العباد ؟ ولماذا يذكر مفردًا معرفًا بالألف واللام تارة ، وبالإضافة تارة ؟

ج- أما إضافته إلى الله ، فلأنه هو الذي شرعه ونصبه ، وأما إضافته إلى العباد ، فلأنهم أهل سلوكه ، وأما ذكره مفردًا معرفًا باللام تارة وبالإضافة تارة ، فالإفادة تعيينه واختصاصه ، وأنه صراط واحد بخلاف طرق أهل الضلال .



الاستدلالُ على إثباتِ أسماءِ اللَّهِ وصفاتِه

من القرآنِ الكريمِ

١- الجمعُ بينَ النفيِ والإثباتِ في وصفِه تعالى :

وقد دخَل في هذه الجملةِ ما وصَف اللَّهُ به نفسَه في سورةِ الإخلاصِ التي تَعدِلُ ثُلثَ القرآنِ.

حيثُ يقولُ : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١- ٤].

وما وصَف به نفسَه في أعظمِ آيةٍ في كتابِه ، حيثُ يقولُ : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ولهذا كان مَن قرأ هذه الآيةَ في ليلةٍ لم يَزَلْ عليه من اللَّهِ حافظٌ ، ولا يقربُه شيطانٌ حتى يُصْبِحَ.

وقولِه سبحانَه : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

٢- الجمعُ بينَ عُلُوِّه وقربِه وأَزَلِيَّتِه وأَبَدِيَّتِه :

وقولِه سبحانَه : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

٣- إحاطةُ علمِه بجميعِ مخلوقاتِه :

وقولِه : ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [التحريم: ٢]، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [الحديد: ٤]. ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقوله : ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ .

وقوله : ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق : ١٢].

وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات : ٥٨].

٤- إثباتُ السمعِ والبصرِ للّهِ سبحانَه :

وقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١].

وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء : ٥٨].

٥- إثباتُ المَشيئةِ والإرادةِ للّهِ سبحانَه:

وقوله : ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف : ٣٩].

وقوله : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة : ٢٥٣].

وقوله : ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة : ١].

وقوله : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام : ١٢٥].

٦- إثباتُ مَحبّةِ اللّهِ ومَوَدَّتِه لأوليائِه على ما يليقُ بجلالِه :

وقوله : ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة : ١٩٥]، ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات : ٩]، ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة : ٧]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة : ٢٢٢].

وقوله : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران : ٣١].

وقوله : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة : ٥٤].

وقولِه : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

وقولِه : ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤].

٧- إثباتُ اتصافِه بالرحمةِ والمغفرةِ سبحانَه وتعالى :

وقولِه : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الأحقاف: ٨]، ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

٨- ذِكْرُ رِضَا اللَّهِ وغضبِه وسَخَطِه وكراهتِه في القرآنِ الكريمِ، وأنه مُتَّصِفٌ بذلك :

وقولِه : ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [البينة: ٨]، ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ [النساء: ٩٣].

وقولِه : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ [محمد: ٢٨].

وقولِه : ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

وقولِه : ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦].

وقولِه : ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

٩- ذِكْرُ مَجِيءِ اللَّهِ سبحانَه لفَصْلِ القضاءِ بينَ عبادِه على ما يليقُ بجلالِه :

وقولِه : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

وقولِه : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢١، ٢٢]، ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

١٠- إثباتُ الوجهِ للَّهِ سبحانَه :

وقولِه : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

١١- إثبات اليَدْينِ للَّهِ تعالى في القرآنِ الكريم :

وقولِه : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

١٢- إثباتُ العينَيْنِ للَّهِ تعالى :

وقولِه : ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۝ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٣، ١٤]، ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩].

١٣- إثباتُ السمعِ والبصرِ للَّهِ تعالى :

وقولِه : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

وقولِه: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]، ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ۝ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٨- ٢٢٠]، ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

١٤- إثباتُ المكرِ والكيدِ للَّهِ تعالى على ما يليقُ به :

وقولِه : ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣].

وقولِه : ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

وقوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

١٥- وَصْفُ اللهِ بالعَفْوِ والمغفرةِ والرحمةِ والعِزَّةِ والقدرةِ:

وقوله: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]، ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وقوله عن إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].

١٦- إثباتُ الاسمِ للهِ، ونفيُ المثلِ عنه:

وقوله: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

١٧- نفيُ الشريكِ عن اللهِ تعالى:

وقوله: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١]، ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١].

وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ١، ٢]، ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢]، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤].

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

١٨- إثباتُ استواءِ اللّهِ على عرشِه:

وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ في سبعةِ مواضعَ، في سورةِ «الأعراف» قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال في سورةِ «يُونُس»، عليه السلامُ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣].

وقال في سورةِ الرَّعْدِ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٢].

وقال في سورةِ طه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٤].

وقال في سورةِ الفُرقانِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الفرقان: ٥٩].

وقال في سورةِ الم السَّجْدةَ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [السجدة: ٤].

وقال في سورةِ الحديدِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤].

١٩- إثباتُ عُلُوِّ اللّهِ على مخلوقاتِه:

وقوله: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]. ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦، ١٧].

٢٠- إثباتُ مَعِيَّةِ للَّهِ تعالى لخلقِه :

وقوله : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد : ٤] ، ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة : ٧] .

وقوله : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة : ٤٠] ، ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه : ٤٦] ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل : ١٢٨] ، ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال : ٤٦] ، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

٢١- إثباتُ الكلامِ للَّهِ تعالى :

وقوله : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء : ٨٧] .

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء : ١٢٢] .

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة : ١١٦] ، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام : ١١٥] ، ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء : ١٦٤] ، ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة : ٢٥٣] ، ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم : ٥٢] ، ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشعراء : ١٠] ، ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف : ٢٢] ، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص : ٦٥] ، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة : ٦] ، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ

بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح: ١٥]، ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الكهف: ٢٧]، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

٢٢- إثباتُ تنزيلِ القرآنِ مِن اللَّهِ تعالى:

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾

[النحل: ١٠١- ١٠٣].

٢٣- إثباتُ رؤيةِ المؤمنينَ لربِّهم يومَ القيامةِ:

وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٣٥]، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

وهذا البابُ في كتابِ اللَّهِ كثيرٌ، مَن تدبَّر القرآنَ طالبًا للهُدَى منه تبيَّن له طريقُ الحقِّ.

❁ ❁ ❁

الشــــرح

❁ **قال الشيخ فيصل بن عبد العزيز آل مبارك رحمه الله :**

قوله : « قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ...﴾ [الإخلاص : ١-٤] » :

قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ، أي : هو الواحد الأحد الذي لا نظير له ولا وزير ؛ لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله .

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ : قال ابن عباس : يعني الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم . وعنه أيضًا : الصمد الذي لا جوف له ، وقاله كثير من المفسرين .

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أي : ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة ، ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام : ١٠١] .

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : انسب لنا ربك فأنزل الله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ رواه أحمد وغيره .

قوله : « قوله تعالى : ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة : ٢٥٥] » :

قوله تعالى : ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي : هو المتفرد بالإلهية .

﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ أي : الحي الذي لا يموت أبدًا ، ﴿الْقَيُّومُ﴾ : القائم على كل شيء ، فجميع الموجودات مفتقرة إليه ، وهو غني عنها ، ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ﴾ أي : نعاس ، ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ ، و﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكًا وخلقًا ، ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ بأمره ، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمر الدنيا والآخرة ، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ ، أي : لا يحيطون بشيء من علم الغيب إلا بما شاء الله أن يطلعهم عليه مما أخبر به الرسل ، ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي : ملأ وأحاط ، قال ابن عباس : الكرسي موضع القدمين ، والعرش لا يقدر أحد قدره[1] ، ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ أي : لا يثقله ولا يشق عليه ، ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ قال البغوي : وهو العلي الرفيع فوق خلقه ، والمتعالي عن الأشباه والأنداد ، ﴿الْعَظِيمُ﴾ : الكبير الذي لا أعظم منه .

---

(١) الطبراني (١٢٤٠٤) ، وصححه الألباني في تخريج « شرح الطحاوية » (ص٥٤) .

قوله: «قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]..».

قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾؛ أي: الذي ليس قبله شيء، ﴿وَالْآخِرُ﴾ الذي ليس بعده شيء، ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ الذي ليس فوقه شيء، ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ الذي ليس دونه شيء، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ظاهره وباطنه وأوله وآخره.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ أي: فإنه حقيق بالتوكل عليه؛ لأنه باق على الأبد، والحياة صفة للَّه تعالى.

قوله: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ أي: في قوله وأفعاله، ﴿الْخَبِيرُ﴾: الذي لا تخفى عليه خافية.

قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يدخل فيها من الماء والأموات وغير ذلك، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات وغيره، والأموات إذا حشروا، ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من الملائكة والأمطار وغير ذلك، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الملائكة والأعمال الصالحة وغير ذلك.

قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ مفاتح الغيب: خزائنه، وعن ابن عمر ﵄ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا اللَّه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]. رواه البخاري[1].

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ أي: يعلم الحركات حتى من الجمادات، ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾؛ يعني: مكتوب في اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي: هو عالم بذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء.

قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، وأول الآية ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾، فالوحي من السماء السابعة إلى الأرض السفلى، قال قتادة: «في كل أرض من أرضه وسماء من سمائه خلق من خلقه، وأمر من أمره، وقضاء من قضائه؛ ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فلا يخفى عليه شيء».

---

(١) البخاري (١٠٣٩) من حديث ابن عمر ﵄.

قوله: « قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ..».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾؛ أي: الرزاق لجميع خلقه، وهو القوي المقتدر المبالغ في القوة والقدرة.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾؛ لأنه الفرد الصمد الذي لا نظير له، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

ففي قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ رد للتشبيه. وفي قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ رد للتعطيل، فتضمنت إثبات صفات الكمال لله تعالى، ونفي التشبيه عنه تبارك وتعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾، وأول الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا﴾ أي: نعم الشيء الذي يعظكم به. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ أي: سميعًا لأقوالكم بصيرًا لأفعالكم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية، ويضع إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه ويقول: «هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها ويضع إصبعيه»، رواه أبو داود وغيره[1]، ومعنى ذلك: إثبات السمع والبصر حقيقة لا تشبيه السمع بالسمع والبصر بالبصر، فكما أن ذاته لا تشبه الذوات فصفاته لا تشبه الصفات ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: هي بمشيئة الله إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، وأول الآية قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ أي: كل ذلك عن قضاء الله وقدره. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ فيوفق من يشاء فضلًا، ويخذل من يشاء عدلًا.

قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أي: أحلت لكم بهيمة الأنعام كلها إلا ما كان منها وحشيًا، فإنه صيد لا يحل لكم في حال الإحرام، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ أي: هو الحكيم في جميع ما يأمر به وينهى عنه.

---

(١) أبو داود (٤٧٢٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (حديث رقم: ٤٧٢٨).

قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ أي: يفتح قلبه وينوره حتى يقبل الإسلام، ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ أي: لا يتسع لشيء من الهدى ولا يخلص إليه ما ينفعه من الإيمان، وليس للخير فيه منفذ، ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: يشق عليه الإيمان كما يشق عليه صعود السماء ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

« قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩] .. ».

قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: الإحسان: هو أعلى مقامات الطاعة، قال ابن جرير: « يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟﴾: أحسنوا أيها المؤمنون في أداء ما ألزمتكم من فرائضي، وتجنبوا ما أمرتكم بتجنبه من معاصي، ومن الإنفاق في سبيلي، وعود القوي منكم على الضعيف ذي الخلة فإني أحب المحسنين في ذلك ».

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟﴾ أي: اعدلوا في الحكم في الفئتين المتقاتلتين. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، وفي الحديث عن النبي ﷺ: « إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ﷻ، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا » رواه مسلم(١).

قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: متى استقاموا على العهد فاستقيموا لهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ قال ابن كثير: « ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ أي: من الذنب وإن تكرر غشيانه. ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي: المتنزهين عن الأقذار والأذى، وهو ما نهوا عنه من إتيان الحائض، أو في غير المأتى ».

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ قال ابن كثير: « أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض العلماء الحكماء: ليس الشأن أن تحب، إنما الشأن أن تحب.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في نفس الأمر. قال الحسن البصري: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية ».

---

(١) مسلم (١٨٢٧/١٨) من حدث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

قوله تعالى : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ فيه إثبات صفة محبة الله تعالى لعباده على ما يليق بجلاله ، قال الحسن : « علم الله تبارك وتعالى أن قومًا يرجعون عن الإسلام بعد موت نبيهم ﷺ ، فأخبر أنه سيأتي بقوم يحبهم ويحبونه » .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ روى أحمد وغيره عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يضحك الله إليهم : الرجل يقوم من الليل ، والقوم إذا صفوا للصلاة ، والقوم إذا صفوا للقتال »(١) .

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ قال ابن كثير : « أي : يغفر ذنب من تاب إليه وخضع لديه ، ولو كان الذنب من أي شيء كان » .

والودود : قال ابن عباس وغيره : « هو الحبيب » .

قوله تعالى : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ في الحديث : « أن عيسى عليه السلام قال للمعلم : الرحمن رحمان الدنيا والآخرة ، والرحيم رحيم الآخرة »(٢) .

قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ ، وأول الآية : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي : رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم ، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأحوالهم ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ .

قوله تعالى : ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره وكان بالمؤمنين به ورسوله ذا رحمة أن يعذبهم وهم له مطيعون ، ولأمره متبعون : ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب : ٤٤] » .

قوله تعالى : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي : عمت كل شيء ، قال الحسن : « وسعت رحمته في الدنيا البر والفاجر ، وهي يوم القيامة للمتقين خاصة » .

قوله تعالى : ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ قال ابن كثير : « أي : أوجبها على نفسه الكريمة ؛ تفضلًا منه وإحسانًا وامتنانًا » .

قال تعالى : ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي : الغفور لذنوب من تاب وأناب من عباده حتى من الشرك ، الرحيم بمن آمن به وأطاعه .

---

(١) أحمد (٣/٨٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (٢٦١١) .

(٢) الطبراني في « تفسيره » (١/٥٦) ، وفي سنده ضعف .

قوله تعالى : ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي : فسيرحم كبري وضعفي ، ووجدي بولدي ، وأرجو من اللَّه أن يرده علي ، ويجمع شملي به ، إنه أرحم الراحمين ، فهو أرحم لعباده من كل أحد .

قوله : « قوله تعالى : ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة : ١١٩] ، ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ [النساء : ٩٣] .. » .

قوله تعالى : ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى : رضي اللَّه عن هؤلاء الصادقين الذين صدقوا في الوفاء له ما وعدوه ، من العمل بطاعته واجتناب معاصيه . ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ يقول : ورضوا هم عن اللَّه تعالى في وفائه لهم بما وعدهم على طاعتهم إياه ، فيما أمرهم ونهاهم من جزيل ثواب ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [الصف : ١٢] » .

قوله تعالى : ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا﴾ أي : عامدًا قتله ، ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ بقتله إياه متعمدًا . ﴿وَلَعَنَهُۥ﴾ أبعده عن رحمته وأخزاه ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا﴾ [النساء : ٩٣] ، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن فعل مثل هذا الذنب العظيم .

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ﴾ من طاعة الشيطان ، ﴿وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ من طاعة الرحمن ، ﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ ؛ لأنها عملت في غير مرضاته .

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أي : أغضبونا ، ﴿ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ بعاجل العذاب ، ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ .

قوله تعالى : ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ﴾ أي : منعهم وحبسهم عن الخروج ، ﴿وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ .

قوله تعالى : ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ قال البغوي : أي : عظم ذلك في المقت والبغض عند اللَّه ، أي : أن اللَّه يبغض بغضًا شديدًا أن تقولوا ما لا تفعلون ، أي : أن تعدوا من أنفسكم شيئًا ثم لم تفوا به .

وقال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : يا أيها الذين آمنوا اصدقوا اللَّه ورسوله . ﴿لِمَ تَقُولُونَ﴾ القول الذي لا تصدقونه بالعمل ، فأعمالكم مخالفة أقوالكم ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ يقول : عظم مقتًا عند ربكم قولكم ما لا تفعلون » .

قوله : « قوله تعالى : ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام : ١٨٥] .. » :

وقوله تعالى : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ :
قال ابن كثير : « يقول تعالى مهددا الكافرين : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يعني : يوم القيامة ، لفصل القضاء بين الأولين والآخرين ، فيجزي كل عامل بعمله ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ » .

قوله تعالى : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ . قال ابن جرير : « يقول جل ثناؤه هل ينظر هؤلاء العادلون بربهم الأوثان والأصنام إلا أن تأتيهم الملائكة بالموت ، فتقبض أرواحهم ، أو أن يأتيهم ربك - يا محمد - للقضاء بين خلقه في موقف القيامة ، ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ يقول : أو أن يأتيهم بعض آيات ربك ، وذلك - فيما قال أهل التأويل - : طلوع الشمس من مغربها » .

قوله تعالى : ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ قال ابن كثير : « أي : وطئت ومهدت وسويت الأرض والجبال ، وقام الخلائق من قبورهم لربهم .

و« جاء ربك » يعني : لفصل القضاء بين خلقه ، وذلك بعد ما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق - صلوات الله وسلامه عليه - فيذهب فيشفع عند الله تعالى في أن يأتي لفصل القضاء ، فيشفعه الله تعالى في ذلك - وهي أول الشفاعات - وهي المقام المحمود ، فيجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء كما يشاء ، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفًا صفوفًا » .

قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ قال ابن جرير : وتأويل الكلام : ويوم تشقق السماء عن الغمام ، وقيل : إن ذلك غمام أبيض مثل الغمام الذي ظلل على بني إسرائيل ، ثم ذكر عن مجاهد قوله : ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ قال : هو الذي قال : ﴿فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، الذي يأتي الله فيه يوم القيامة ، ولم يكن قط إلا لبني إسرائيل .

قال ابن جريج : الغمام الذي يأتي الله فيه غمام زعموا في الجنة . وذكر بسنده عن عبد الله بن عمرو قال : يهبط الله حين يهبط ، بينه وبين خلقه سبعون [ألف] حجاب منها النور والظلمة والماء ، فيضرب الماء في تلك صوتًا تنخلع له القلوب .

وعن عكرمة في قوله : ﴿يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة : ٢١٠] يقول : والملائكة حوله . وعن ابن عباس قال : إن هذه السماء إذا انشقت نزل منها من الملائكة أكثر من الجن والإنس ، وهو يوم التلاقي ؛ يوم يلتقي أهل السماء وأهل الأرض ، فيقول أهل الأرض : جاء ربنا . فيقولون : لم يجيء وهو آت ، ثم تشقق السماء الثانية ، ثم سماء سماء على قدر ذلك من التضعيف إلى السماء السابعة ، فينزل منها من الملائكة أكثر من جميع من نزل من السماوات ، ومن الجن والإنس .

قال : فتنزل الملائكة الكروبيون ، ثم يأتي ربنا تبارك وتعالى في حملة العرش الثمانية ، بين كعب كل ملك وركبته مسيرة سبعين سنة ، وبين فخذه ومنكبه مسيرة سبعين سنة ، قال : وكل ملك منهم لم يتأمل وجه صاحبه ، وكل ملك منهم واضع رأسه بين يديه يقول : سبحان الملك القدوس ، وعلى رءوسهم شيء مبسوط كأنه القباء ، والعرش فوق ذلك ، ثم وقف . انتهى .

قال سفيان بن عيينة : « كل ما وصف الله نفسه في كتابه فتفسيره قراءته والسكوت عليه ، ليس لأحد أن يفسره إلا الله تعالى ورسوله » .

قوله : « قوله تعالى : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن : ٢٧] ، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص : ٨٨] ...

قوله تعالى : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ، وقبلها ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن : ٢٦] ، قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : كل من على ظهر الأرض من جن وإنس فإنه هالك ، ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ يا محمد ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ » .

﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ من نعت الوجه ، فلذلك رفع ﴿ذُو﴾ . وقد ذكر أنها في قراءة عبد الله بالياء- « ذي الجلال والإكرام »- على أنه من نعت الرب وصفته ، قال ابن عباس : « ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن : ٢٧] ذو العظمة والكبرياء » .

قوله تعالى : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص : ٨٨] أي : كل شيء هالك إلا هو ، قال ابن كثير في قوله تعالى : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ : « يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون ، وكذلك أهل السماوات إلا من شاء الله ، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم ، فإن الرب تعالى وتقدس لا يموت ، بل هو الحي الذي لا يموت أبدًا » .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص : ٨٨] وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية بأنه ذو الجلال والإكرام .

قوله تعالى : ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى : قال الله لإبليس ، إذ لم يسجد لآدم وخالف أمره : يا ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ يقول : أي شيء منعك من السجود . ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ يقول : لخلق يدي . يخبر تعالى ذكره بذلك ؛ أنه خلق آدم بيده ، ثم ساق بسنده عن ابن عمر : خلق الله أربعة بيده : العرش ، وعدن ، والقلم ، وآدم . ثم قال لكل شيء : كن فكان » .

قوله تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ قال ابن عباس : « ليس يعنون بذلك أن يد الله موثقة ، ولكنهم يقولون : أنه بخيل أمسك ما عنده ، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا » .

وقال الضحاك: «﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ يقولون: إنه بخيل ليس بجواد. قال الله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أمسكت أيديهم عن النفقة والخير، ثم قال يعني نفسه: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾، وقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩]، يقول: لا تمسك يدك عن النفقة». قال البغوي: «ويد الله صفة من صفات ذاته كالسمع والبصر والوجه، وقال جل ذكره: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]. وقال النبي ﷺ: «كلتا يديه يمين»[1]. والله أعلم بصفاته، فعلى العباد فيها الإيمان والتسليم، وقال أئمة السلف من أهل السنة في هذه الصفات: أمروها كما جاءت بلا كيف».

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ يا محمد الذي حكم به عليك، وامض لأمره ونهيه وبلغ رسالاته، ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ يقول جل ثناؤه: فإنك بمرآى منا نراك ونرى عملك، ونحن نحوطك ونحفظك فلا يصل إليك من أرادك بسوء من المشركين.

قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ قال ابن كثير: «أي: تجري بأمرنا وبمرآى منا ونحو حفظنا وكلاءتنا، ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٤] أي: جزاء لهم على كفرهم بالله وانتصارًا لنوح عليه السلام».

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ أي: بمرأى مني. قال قتادة: «﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ هو غذاؤه، ولتغذ على عيني». قال ابن كثير: «﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ أي: عند عدوك جعلته يحبك». قال سلمة بن كهيل: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ قال: «حببتك إلى عبادي». ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ قال أبو عمران الجوني: «تربى بعين الله». وقال قتادة: «تغذى على عيني». وقال معمر بن المثنى: «﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ بحيث أرى».

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «يعني اجعله في بيت الملك ينعم ويترف، وغذاؤه عندهم غذاء الملك، فتلك الصنعة». انتهى.

قوله: «قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾ [آل عمران: ١٨١] ..»:

قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾: عن عائشة رضي الله عنها قالت: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة

(١) مسلم (١٨٢٧/١٨) من حدث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

إلى النبي ﷺ تكلمه ، وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول ؛ فأنزل الله ﷻ : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إلى آخر الآية ». رواه أحمد وغيره .

قال ابن جرير : « يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ يا محمد ، ﴿قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يقول : وتشتكي المجادلة- ما لديها من الهم بظهار زوجها منها- إلى الله ، وتسأله الفرج . ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ يعني : تحاور رسول الله ﷺ ، والمجادلة خولة بنت ثعلبة . ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ يقول تعالى ذكره : إن الله سميع لما تجاوبانه ويتحاورانه ، وغير ذلك من كلام خلقه ، بصير بما يعملون ويعمل جميع عباده » .

قوله تعالى : ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ عن ابن عباس قال : « لما نزل قوله تعالى : ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة : ٢٤٥] قالت اليهود : يا محمد ، افتقر ربك فسأله عباده القرض ، فأنزل الله : ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ الآية » .

قوله تعالى : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ قال البغوي : « ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ ما يسرونه عن غيرهم ويتناجونه بينهم ، ﴿بَلَىٰ﴾ نسمع ذلك ونعلم ، ﴿وَرُسُلُنَا﴾ أيضًا من الملائكة يعني الحفظة ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ » .

قوله تعالى : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ قال ابن عباس : « أسمع دعاءكما فأجيبه ، وأرى ما يراد بكما فأمنعه ، لست بغافل عنكما فلا تهتما » .

وقال ابن جرير : « يقول الله تعالى ذكره : قال الله لموسى وهارون ﴿لَا تَخَافَآ﴾ فرعون ، ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ أعينكما عليه ، وأبصركما ﴿أَسْمَعُ﴾ ما يجري بينكما وبينه ، فأفهمكما ما تحاورانه به ، « وأرى » ما تفعلان ويفعل ، لا يخفى علي من ذلك شيء » .

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : ألم يعلم أبو جهل إذ ينهى محمدًا عن عبادة ربه والصلاة له ، بأن الله يراه فيخاف سطوته وعقابه » .

وقال ابن كثير : « ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ أي : أما علم هذا الناهي لهذا المهتدي أن الله يراه ويسمع كلامه ، وسيجازيه على فعله أتم الجزاء » .

قوله : « ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ » :

قال ابن جرير : « ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ إلى صلاتك ، ويرى ﴿وَتَقَلُّبَكَ﴾ في المؤتمين بك فيها بين قيام وركوع وسجود وجلوس ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ تلاوتك يا محمد ، وذكرك في صلاتك ما تتلو وتذكر ، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما تعمل فيها ويعمل فيها من يتقلب فيها

معك ، مؤتمًا بك ، يقول : فرتل فيها القرآن ، وأقم حدودها فإنك بمرأى من ربك ومسمع » .

قوله تعالى : ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ : قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : ﴿وَقُلِ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين اعترفوا لك بذنوبهم من المتخلفين عن الجهاد معك ، ﴿ٱعْمَلُوا۟﴾ بما يرضيه من طاعته وأداء فرائضه ، ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ يقول : فسيرى الله إن عملتم عملكم ، ويراه رسوله ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ في الدنيا ، ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾ يوم القيامة إلى من يعلم سرائركم وعلانيتكم فلا يخفى عليه شيء من باطن أموركم وظواهرها ، ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يقول : فيخبركم بما كنتم تعملون ، وما منه خالصًا وما منه رياء ، وما منه طاعة وما منه معصية ، فيجازيكم على ذلك كله جزاءكم ، المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته .

قوله : « قوله تعالى : ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرعد : ١٣] ، ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران : ٥٤] .. » .

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ ، قال ابن كثير : « وقوله : ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي : يشكون في عظمته ، وأنه لا إله إلا هو ، ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ » .

قال ابن جرير : « شديدة مما حلته في عقوبة من طغى عليه وعتا ، وتمادى في كفره » .

وهذه الآية شبيهة بقوله : ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل : ٥٠، ٥١] . وعن علي رضي الله عنه : ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ أي : شديد الأخذ .

وقال مجاهد : شديد القوة .

قوله تعالى : ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ قال ابن جرير : « يعني بذلك جل ثناؤه : ومكر الذين كفروا من بني إسرائيل ، وهم الذين ذكر الله أن عيسى أحس منهم الكفر ، وكان مكرهم الذي وصفهم الله به مواطأة بعضهم بعضًا على الفتك بعيسى وقتله » .

قال : « وأما مكر الله بهم فإنه- فيما ذكرى السدي- : إلقاؤه شبه عيسى على بعض أتباعه ، حتى قتله الماكرون بعيسى ، وهم يحسبونه عيسى ، وقد رفع الله ﷻ عيسى قبل ذلك .. إلى أن قال : وقد يحتمل أن يكون معنى مكر الله بهم استدراجه إياهم ، ليبلغ الكتاب أجله » .

وقال البغوي : « المكر من المخلوقين الخبث والخديعة والحيلة ، ومن الله استدراج العبد وأخذه بغتة من حيث لا يعلم ، كما قال : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ١٨٢] » .

قوله تعالى : ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : وغدر هؤلاء التسعة الرهط الذين يفسدون في الأرض بصالح ؛ بمصيرهم إليه ليلًا ليقتلوه

وأهله ، وصالح لا يشعر بذلك ، ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ يقول : فأخذناهم بعقوبتنا إياهم وتعجيل العذاب لهم ، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بمكرنا ، وقد بينا فيما مضى معنى مكر اللّٰه بمن مكر به ، وما وجه ذلك ، وأنه أخذه من أخذه منهم على غرة ، أو استدراجه من استدراج منهم على كفره به ومعصيته إياه ، ثم إحلاله العقوبة على غرة وغفلة ».

قوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : إن هؤلاء المكذبين باللّٰه ورسوله والوعد والوعيد يمكرون مكرًا ، وقوله : ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ يقول : وأمكر مكرًا ، ومكره جل ثناؤه بهم إملاؤهم إياهم على معصيتهم وكفرهم به ».

وقال البغوي : « ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ يخاتلون النبي ﷺ ويظهرون ما هم على خلافه ، ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ وكيد اللّٰه استدراجه إياهم من حيث لا يعلمون ».

قوله تعالى : ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ ، قال ابن جرير : « يعني بذلك جل ثناؤه ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا﴾ يقول : إن تقولوا جميلًا من القول لمن أحسن إليكم ، فتظهروا ذلك شكرًا منكم على ما كان منه من حسن إليكم ، ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ يقول : أو تتركوا إظهار ذلك فلا تبدوه ، ﴿أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ﴾ يقول : أو تصفحوا لمن أساء إليكم عن إساءته ، فلا تجهروا له بالسوء من القول الذي قد أذنت لكم أن تجهروا له به ، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ يقول : لم يزل ذا عفو عن خلقه ، يصفح عمن عصاه وخالف أمره ، « قديرًا » يقول : ذا قدرة على الانتقام منهم ، وإنما يعني بذلك : أن اللّٰه لم يزل ذا عفو عن عباده مع قدرته على عقابهم على معصيتهم إياه ، يقول : فاعفوا أنتم أيضًا أيها الناس عمن أتى إليكم ظلمًا ، ولا تجهروا له بالسوء من القول إلا من ظلم ».

وقال ابن كثير : « وقوله : ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي : إن تظهروا أيها الناس خيرًا أو أخفيتموه ، أو عفوتم عمن أساء إليكم ، فإن ذلك مما يقربكم عند اللّٰه ويجزل ثوابكم لديه ، فإن من صفاته تعالى أن يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم ، ولهذا قال : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ ، ولهذا ورد في الأثر : أن حملة العرش يسبحون اللّٰه فيقول بعضهم : سبحانك على حلمك بعد علمك ، ويقول بعضهم : سبحانك على عفوك بعد مقدرتك ، وفي الحديث الصحيح : « ما نقص مال من صدقة ، ولا زاد اللّٰه عبدًا بعفو إلا عزًّا ومن تواضع للّٰه رفعه »[1] .

قوله تعالى : ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ، وأول الآية ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ أي : لا يحلف ، ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ

---

(١) مسلم (٢٥٨٨/٦٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ .

قال ابن جرير : « يقول : ﴿وَلْيَعْفُواْ﴾ عما كان منهم إليهم من جرم ، وذلك جرم مسطح إلى أبي بكر ، في إشاعته على ابنته عائشة ما أشاع من الإفك ، ﴿وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ يقول : وليتركوا عقوبته على ذلك بحرمانهم ما كانوا يؤتونهم قبل ذلك ، ولكن ليعودوا لهم إلى مثل الذي كانوا لهم عليه من الإفضال عليهم ، ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ يقول : ألا تحبون أن يستر الله عليكم ذنوبكم ، بإفضالكم عليهم ، فيترك عقوبتكم عليها ، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لذنوب من أطاعه ، واتبع أمره ، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم أن يعذبهم مع اتباعهم أمره وطاعتهم إياه على ما كانت لهم من زلة وهفوة ، قد استغفروا منها ، وتابوا إليه من فعلها » .

قوله : « قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون : ٨] ، ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص : ٨٢] .. » :

قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ : قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : يقول هؤلاء المنافقون الذي وصف صفتهم قبل : ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ فيها ، ويعني بالأعز الأشد والأقوى ، قال الله جل ثناءه : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾ يعني : الشدة والقوة ، ﴿وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله ، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك » . قال البغوي : « فعزة الله قهره من دونه ، وعزة رسوله إظهار دينه على الأديان كلها ، وعزة المؤمنين نصر الله إياهم على أعدائهم » .

قوله : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ : قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : قال إبليس : ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ أي : بقدرتك وسلطانك وقهرك من دونك من خلقك ، ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يقول : لأضلن بني آدم أجمعين ، ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ يقول : إلا من أخلصته منهم لعبادتك ، وعصمته من إضلالي ، فلم تجعل لي عليه سبيلًا ، فإني لا أقدر على إضلاله وإغوائه . وذكر بسنده عن قتادة قال : علم عدو الله أنه ليست له عزة » .

قوله تعالى : ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : تبارك ذكر ربك يا محمد ، ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ﴾ يعني : ذي العظمة ، ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ يعني : ومن له الإكرام من جميع خلقه . وذكر بسنده عن ابن عباس : قوله : ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ يقول : ذو العظمة والكبرياء » .

وقال ابن كثير : « أي : هو أهل أن يجل فلا يعصى ، وأن يكرم فيعبد ، ويشكر ولا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى ، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « أَلِظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام »[1] . وفي

(١) مسلم (٦٩/٢٥٨٨) .

الحديث الآخر أن رسول اللَّه ﷺ كان إذا انصرف من صلاته استغفر اللَّه ثلاثًا وقال: «اللهم أنت السلام، ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام»[(١)].

قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ قال ابن جرير: «وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ يقول: فالزم طاعته، وذل لأمره ونهيه، ﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ يقول: واصبر نفسك على النفوذ لأمره ونهيه، والعمل بطاعته، تفز برضاه عنك، فإنه الإله الذي لا مثل له ولا عدل ولا شبيه في جوده وكرمه وفضله، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ يقول: هل تعلم يا محمد لربك هذا الذي أمرناك بعبادته، والصبر على طاعته مثلًا في كرمه وجوده، فتعبده رجاء فضله وطوله دونه؟ كلا، ما ذلك بموجود. وذكر بسنده عن ابن عباس في قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ قال: شبيهًا».

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ قال أبو العالية: «لم يكن له شبيه ولا عدل، وليس كمثله شيء».

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال ابن جرير: «الأنداد جمع ند، والند: العدل والمثل. وذكر بسنده عن ابن عباس في قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ قال: أشباهًا. وعن قتادة في قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تعلمون أن اللَّه خلقكم وخلق السماوات والأرض، ثم تجعلون له أندادًا».

وقال البغوي: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: أمثالًا تعبدونهم كعبادة اللَّه.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] قال ابن كثير: «يذكر تعالى حال المشركين في الدنيا وما لهم في الدار الآخرة، حيث جعلوا له أندادًا، أي: أمثالًا ونظراء يعبدونهم معه، ويحبونهم كحبه، وهو اللَّه لا إله إلا هو، ولا ضد له ولا ند، ولا شريك له».

قوله: «قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١١]، ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١] ..»:

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾: قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَقُلِ﴾ يا محمد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ فيكون مربوبًا لا ربًا؛ لأن رب الأرباب لا ينبغي أن يكون له ولد، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ

(١) مسلم (٥٩١/١٣٥) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ فيكون عاجزًا ذا حاجة إلى معونة غيره ضعيفًا ، ولا يكون إلهًا من يكون محتاجًا إلى معين على ما حاول ، ولم يكن منفردًا بالملك والسلطان ، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ يقول : ولم يكن له حليف حالفه من الذل الذي به ؛ لأن من كان ذا حاجة إلى نصرة غيره ، فذليل مهين ، ولا يكون من كان ذليلًا مهينًا يحتاج إلى ناصر إلهًا يطاع ، ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ يقول : وعظم ربك يا محمد بما أمرناك أن تعظمه به من قول وفعل ، وأطعه فيما أمرك ونهاك » .

وقال ابن كثير : « لمّا أثبت تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنى ، نزّه نفسه عن النقائص فقال : ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ بل هو اللَّه الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد . ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ أي : ليس بذليل فيحتاج أن يكون له ولي أو وزير أو مشير ، بل هو تعالى خالق الأشياء وحده لا شريك له » .

قال مجاهد في قوله : « ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ لم يحالف أحدًا ، ولم يبتغ نصرة أحد .

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أي : عظمه وأجله عما يقول الظالمون المعتدون علوًا كبيرًا .

قال ابن جرير : « حدثني يونس : أنبأنا ابن وهب ، أخبرني أبو صخر ، عن القرظي أنه كان يقول في هذه الآية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ الآية قال : إن اليهود والنصارى قالوا : اتخذ اللَّه ولدًا . وقالت العرب : لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك ، وقال الصابئون والمجوس : لولا أولياء اللَّه لذل ، فأنزل اللَّه هذه الآية ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ » .

قوله تعالى : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : يسجد له ما في السماوات السبع ، وما في الأرض من خلقه ويعظمه . وقوله : ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ يقول تعالى ذكره : له ملك السماوات والأرض وسلطانه ، ماض قضاؤه في ذلك كله ، نافذ فيه أمره . وقوله : ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ يقول : وله حمد كل ما فيها من خلق ؛ لأن جميع من في ذلك من الخلق لا يعرفون الخير إلا منه وليس لهم رازق سواه ، فله حمد جميعهم . ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقول : وهو على كل شيء ذو قدرة ، يقول : يخلق ما يشاء ، ويميت من يشاء ، ويغني من أراد ، ويفقر من يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، ولا يتعذر عليه شيء أراده ؛ لأنه ذو القدرة التامة التي لا يعجزه معها شيء » .

قوله : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ : ذكر ابن جرير بسنده عن ابن عباس قال : « تبارك تفاعل من البركة ، وهو كقول القائل : تقدس ربنا . فقوله : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ يقول : تبارك الذي نزل الفصل بين الحق والباطل فصلًا بعد فصل ، وسورة بعد سورة . ﴿عَلَىٰ

عَبْدِهِۦ﴾ محمد ﷺ ليكون محمد لجميع الجن والإنس الذين بعثه الله إليهم داعيًا إليه . ﴿نَذِيرًا﴾ يعني منذرًا ينذرهم عقابه ويخوفهم عذابه ، إن لم يوحدوه ، ولم يخلصوا له العبادة ، ويخلعوا كل ما دونه من الآلهة والأوثان » .

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ .

يقول تعالى ذكره : ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ ، ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الذي له سلطان السماوات والأرض ينفذ في جميعها أمره وقضاءه ، ويمضي في كلها أحكامه ، يقول : فحق على من كان كذلك أن يطيعه أهل مملكته ، ومن في سلطانه ، ولا يعصوه . يقول : فلا تعصوا نذيري إليكم أيها الناس واتبعوه ، واعملوا بما جاءكم به من الحق .

﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ يقول : تكذيبًا لمن أضاف إليه الولد- وقال : الملائكة بنات الله- ما اتخذ الذي نزل الفرقان على عبده ولدًا ، فمن أضاف إليه ولدًا فقد كذب وافترى على ربه .

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ يقول : تكذيبًا لمن يضيف الألوهية إلى الأصنام ويعبدها من دون الله من مشركي العرب- ويقول في تلبيته : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكًا هو لك ، تملكه وما ملك- : كذب قائلو هذا القول ، ما كان لله من شريك في ملكه وسلطانه فيصلح أن يعبد من دونه ، يقول تعالى ذكره : فأفردوا أيها الناس لربكم- الذي نزل الفرقان على عبده محمد نبيه ﷺ- الألوهية ، وأخلصوا له العبادة دون كل ما تعبدونه من دونه من الآلهة والأصنام والملائكة والجن والإنس ؛ فإن كل ذلك خلقه وفي ملكه ، فلا تصلح العبادة إلا لله الذي هو مالك جميع ذلك .

وقوله : ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ يقول تعالى ذكره : وخلق الذي نزل على محمد الفرقان كل شيء ، فالأشياء كلها خلقه وملكه ، وعلى المماليك طاعة مالكهم وخدمة سيدهم دون غيره ، يقول : وأنا خالقكم ومالككم ، فأخلصوا لي العبادة دون غيري .

وقوله : ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ يقول : فسوى كل ما خلق ، وهيأه لما يصلح له فلا خلل فيه ولا تفاوت .

قوله تعالى : ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ :

يقول تعالى : ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ ؛ أي : لو كان معه آلهة لذهب كل إله بما خلق ، ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ؛ أي : لغلب بعضهم بعضًا كالعادة بين الملوك ، ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الولد والشريك ، ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ؛ أي : ما غاب عن خلقه وما رأوه .

﴿فَتَعَٰلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: فارتفع الله وعلا عن شرك هؤلاء المشركين، ووصفهم إياه بما يصفون».

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال ابن جرير: «يقول: فلا تمثلوا لله الأمثال، ولا تشبهوا له الأشباه؛ فإنه لا مثل له ولا شبه، فإنه أحد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد».

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يقول: والله أيها الناس يعلم خطأ ما يمثلون ويضربون من الأمثال وصوابه، وغير ذلك من سائر الأشياء، ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ صواب ذلك من خطئه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ ما تزايد قبحه من الكبائر، ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ جهرها وسرها.

﴿وَالْإِثْمَ﴾ كل ذنب. ﴿وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾؛ أي: الظلم. ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ برهانًا. ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بالافتراء عليه، والكذب من دعوى أن له ولدًا، ونحو ذلك مما لا علم لكم به.

قوله: «قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣] ...».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾: قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: إن سيدكم ومصلح أموركم أيها الناس، هو المعبود الذي له العبادة من كل شيء. ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، وذلك يوم الأحد والإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة».

وقال ابن كثير: «أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾، فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جدًا، ليس هذا موضع بسطها، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح؛ مالك والأوزاعي، والثوري، والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد، وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديمًا وحديثًا، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، بل الأمر كما قال الأئمة منهم نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري قال: من شبه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر. وليس في ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة

والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله، ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى». انتهى.

وقال البغوي: «﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤] قال الكلبي ومقاتل: استقر. وقال أبو عبيدة: صعد. وأولت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء، فأما أهل السنة فيقولون: الاستواء على العرش صفة لله تعالى بلا كيف يجب على الرجل الإيمان به، ويكل العلم فيه إلى الله ﷻ. وسأل رجل مالك بن أنس عن قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟ فأطرق رأسه مليًا وعلاه الرحضاء، ثم قال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أظنك إلا ضالًا، فأمر به فأخرج. وروي عن سفيان الثوري، والأوزاعي، والليث بن سعد، وسفيان بن عيينة، وعبد الله بن المبارك، وغيرهم من علماء السنة في هذه الآيات التي جاءت في الصفات المتشابهات: أمروها كما جاءت بلا كيف». انتهى.

وقال في «جامع البيان»: أجمع السلف على أن استواءه على العرش صفة بلا كيف، نؤمن به، ونكل العلم إلى الله تعالى.

قوله تعالى في «سورة يونس»: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣]، قال ابن جرير: «قوله تعالى ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ الذي له عبادة كل شيء، لا تنبغي العبادة إلا له، هو الذي خلق السماوات السبع، والأرضين السبع في ستة أيام، وانفرد بخلقها بغير شريك ولا ظهير، ثم استوى على عرشه مدبرًا للأمور، وقاضيًا في خلقه ما أحب، لا يضاده في قضائه أحد، ولا يتعقب تدبيره متعقب، ولا يدخل أموره خلل».

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه، وأنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، قيل: كهذه الأيام. وقيل: كل يوم كألف سنة مما تعدون. ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، والعرش أعظم المخلوقات وسقفها».

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: الله- يا محمد- الذي رفع السماوات السبع بغير عمد ترونها، فجعلها للأرض سقفًا مسموكًا... إلى أن قال: وأما قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٢] فإنه يعني: علا عليه».

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى عن كمال قدرته، وعظيم سلطانه: أنه الذي بإذنه وأمره رفع السماوات بغير عمد، بل بإذنه وأمره وتسخيره، رفعها عن الأرض بعدًا لا تنال، ولا يدرك مداها، فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة

خمس مائة عام، وسمكها في نفسها مسيرة خمس مائة عام، ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت، وبينهما من بعد المسير خمس مائة عام وسمكها خمس مائة عام، وهكذا الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] الآية. وفي الحديث: «ما السماوات السبع وما فيهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، والكرسي في العرش المجيد كتلك الحلقة في تلك الفلاة»[(١)]، وفي رواية: «والعرش لا يقدر قدره إلا الله ﷻ»[(٢)]. وجاء عن بعض السلف: أن بعد ما بين العرش إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة، وبعد ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة، وهو من ياقوتة حمراء. وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ تقدم تفسيره في «سورة الأعراف»، وأنه يمر كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل».

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: الرحمن على عرشه ارتفع وعلا».

وقال ابن كثير: وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]: تقدم الكلام على ذلك في «سورة الأعراف» بما أغنى عن إعادته أيضًا، وأن المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف: إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف، ولا تحريف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل».

قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قيل: كان ابتداء ذلك يوم الأحد، والفراغ يوم الجمعة، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ وعلا عليه، وذلك يوم السبت فيما قيل».

وقوله: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ يقول: فاسأل يا محمد بالرحمن خبيرًا بخلقه، فإنه خالق كل شيء، ولا يخفى عليه ما خلقه.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: المعبود الذي لا تصلح العبادة إلا له، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من خلق، ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ على عرشه في اليوم السابع بعد خلق

---

(١) ابن حبان (٢/٧٧- إحسان) مرفوعًا عن أبي ذر رضي الله عنه، وصححه الألباني في تخريج «شرح الطحاوية» (ص٥٤).

(٢) الحاكم في «المستدرك» (٢/٣١٠)، وصححه الألباني في تخريج «شرح الطحاوية» (٥٤).

السماوات والأرض وما بينهما ».

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قال ابن جرير: « يقول تعالى ذكره: هو الذي أنشأ السماوات السبع والأرضين، فدبرهن وما فيهن، ثم استوى على عرشه، فارتفع عليه وعلا ».

قوله: « قوله تعالى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨] .. »:

قوله تعالى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾: قال ابن جرير: « يعني بذلك جل ثناؤه، ومكر اللَّه بالقوم الذين حاولوا قتل عيسى مع كفرهم باللَّه، وتكذيبهم عيسى فيما أتاهم به من عند ربهم، إذ قال اللَّه جل ثناؤه: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ فـ (إذ) صلة من قوله: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤] يعني: ومكر اللَّه بهم حين قال اللَّه لعيسى: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ فتوفاه ورفعه إليه ».

وقال ابن كثير: « وقوله تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [آل عمران: ٥٥]؛ أي: رفعي إياك إلى السماء ».

قوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ قال ابن جرير: « يعني: بل رفع اللَّه المسيح إليه، يقول: لم يقتلوه ولم يصلبوه، ولكن اللَّه رفعه إليه، فطهره من الذين كفروا ».

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ قال ابن جرير: « يقول تعالى ذكره: إلى اللَّه يصعد ذكر العبد إياه، وثناؤه عليه، ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ يقول: ويرفع ذكر العبد ربه إليه العمل الصالح، وهو العمل بطاعته، وأداء فرائضه، والانتهاء إلى ما أمره به ».

ثم ذكر بسنده عن عبد اللَّه قال: « إذا حدثناكم أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب اللَّه، إن العبد المسلم إذا قال: سبحان اللَّه وبحمده، الحمد للَّه، لا إله إلا اللَّه، واللَّه أكبر، تبارك اللَّه، أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحين، ثم صعد بهن إلى السماء، فلا يمر على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يجيء بهن وجه الرحمن. ثم قرأ عبد اللَّه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ ».

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ قال ابن جرير: « يقول تعالى ذكره: وقال فرعون لما وعظه المؤمن من آله بما وعظه به، وزجره عن قتل موسى نبي اللَّه، وحذره من بأس اللَّه على قتله إن قتله ما حذره لوزيره هامان وزير السوء: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ يعني: بناء. ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾: لعلي أبلغ من أسباب السماوات أسبابًا أتسبب بها إلى رؤية إله موسى. وقوله: ﴿وَإِنِّى

﴿لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ يقول : وإني لأظن موسى كاذبًا فيما يقول ويدعي من أن له في السماء ربًّا أرسله إلينا ».

قوله تعالى : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أيها [الناس] الكافرون ، ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ يقول : فإذا الأرض تذهب بكم وتجيء وتضطرب ، ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو الله ، ﴿أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ وهو التراب فيه الحصباء الصغار ، ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ يقول : فستعلمون أيها الكفرة كيف عاقبة نذيري لكم ، إذ كذبتم به ، ورددتموه على رسولي ».

وقال البغوي : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ قال ابن عباس : « أي : عذاب من في السماء إن عصيتموه ».

قوله : « قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد : ٤] ، ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة : ٧] ... » :

قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ :

قال ابن جرير : « وقوله : ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ يقول تعالى ذكره مخبرًا عن صفته وأنه لا يخفى عليه خافية من خلقه : ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من خلقه ، يعني بقوله : ﴿يَلِجُ﴾ يدخل ، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ منهم ، ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى الأرض من شيء قط ، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ فيصعد إليها من الأرض ، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ يقول : وهو شاهدكم أيها الناس ، أينما كنتم يعلمكم ويعلم أعمالكم ومتقلبكم ومثواكم ، وهو على عرشه فوق سماواته السبع ، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يقول : والله بأعمالكم التي تعملونها من حسن وسيئ ، وطاعة ومعصية ، ذو بصر ، وهو لها محص ليجازي المحسن منكم بإحسانه ، والمسيء بإساءته يوم تجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ».

قوله تعالى : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ ، وأول الآية : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾

الآية ، قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : ألم تنظر يا محمد بعين قلبك فترى أن اللَّه يعلم ما في السماوات والأرض من شيء ، لا يخفى عليه صغير ذلك وكبيره . يقول جل ثناؤه : فكيف يخفى على من كانت هذه صفته أعمال هؤلاء الكافرين وعصيانهم ربهم . ثم وصف - جل ثناؤه - قربه من عباده وسماعه نجواهم ، وما يكتمونه الناس من أحاديثهم ، فيتحدثون سرًّا بينهم ، فقال : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ من خلقه ، ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ يعلم سرهم ونجواهم ، لا يخفى عليه شيء من أسرارهم ، ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ يقول : ولا يكون من نجوى خمسة ، إلا هو سادسهم كذلك ، ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ يقول : ولا أقل من ثلاثة ، ﴿وَلَآ أَكْثَرَ﴾ من خمسة ، ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ إذا تناجوا ، ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ يقول : في أي موضع ومكان كانوا . وعنى بقوله : ﴿هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ يعني : أنه مشاهدكم بعلمه وهو على عرشه . ثم ساق بسنده عن الضحاك في قوله : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ إلى قوله : ﴿هُوَ مَعَهُمْ﴾ قال : هو فوق العرش وعلمه معهم ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ » .

وقال ابن كثير : « وحكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علمه تعالى ، ولا شك في إرادة ذلك ، ولكن سمعه أيضًا مع علمه بهم وبصره نافذ فيهم ، فهو سبحانه وتعالى مطلع على خلقه ، لا يغيب عنه من أمورهم شيء ، قال الإمام أحمد : افتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم » .

قوله تعالى : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ قال ابن جرير : « يقول إذ يقول رسول اللَّه لصاحبه أبي بكر : ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ ، وذلك أنه خاف من الطلب أن يعلموا بمكانهما ، فجزع من ذلك ، فقال له رسول اللَّه ﷺ لا تحزن إن اللَّه معنا ، واللَّه ناصرنا ، فلن يعلم المشركون بنا ، ولن يصلوا إلينا »[1] .

قوله تعالى : ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ قد تقدمت هذه الآية في الآيات التي فيها إثبات السمع والبصر ، والمراد بها هنا إثبات المعية الخاصة .

قال ابن كثير : « ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ ؛ أي : لا تخافا من فرعون ، فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه ، وأرى مكانكما ومكانه ، لا يخفى علي من أمركم شيء ، واعلما أن ناصيته بيدي ؛ فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذني وبعدَ أمري ، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي » .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ يا محمد ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ اللَّه في محارمه فاجتنبوها وخافوا عقابه عليها ، فأحجموا

(١) ابن جرير الطبري في « تفسيره » (١٠/١٣٦) .

عن التقدم عليها ، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ يقول : وهو مع الذين يحسنون رعاية فرائضه ، والقيام بحقوقه ولزوم طاعته فيما أمرهم به ونهاهم عنه ».

وقال ابن كثير : « وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ أي : معهم بتأييده ونصره ومعونته ، وهذه معية خاصة ، كقوله : ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال : ١٢] ، وقوله لموسى وهارون : ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه : ٤٦] ، وقول النبي ﷺ للصديق وهما في الغار : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة : ٤٠] . وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم ، كقولـه تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد : ٤] ، وكقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة : ٧] ، وكما قال تعالى : ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ الآية [يونس : ٦١] . ومعنى ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ [الرعد : ٣٥] أي : تركوا المحرمات ، ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ أي : فعلوا الطاعات ، فهؤلاء يحفظهم ويكلؤهم ، وينصرهم ويؤيدهم ، ويظفرهم على أعدائهم ومخالفيهم ».

قوله تعالى : ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ قال ابن جرير : « ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ يقول : اصبروا مع النبي ﷺ عند لقاء عدوكم ، ولا تنهزموا عنه وتتركونه ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ يقول : اصبروا فإني معكم ».

وأورد البغوي في تفسير هذه الآية حديث : « لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا اللَّه العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا »[1] الحديث .

قوله تعالى : ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ قال ابن جرير على قوله تعالى : ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ الآية ، تأويل الكلام : « قال الذين يوقنون بالمعاد ويصدقون بالمرجع إلى اللَّه للذين قالوا : لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده : ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ يعني بـ ﴿كَم﴾ كثيرًا غلبت فئة قليلة فئة كثيرة ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ يعني : بقضاء اللَّه وقدره ، ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ يقول : مع الحابسين أنفسهم على رضاه وطاعته ، يعني : واللَّه معين الصابرين على الجهاد في سبيله ، وغير ذلك من طاعته ، وظهورهم ونصرهم على أعدائه الصادين عن سبيله المخالفين منهاج دينه ، وكذلك يقال لمعين الرجل على غيره : هو معه . بمعنى : هو معه بالعون والنصرة ».

---

(١) البخاري (٧٣٧) ، ومسلم (٢٠/١٧٤٢) من حديث عبد اللَّه بن أبي أوفى رضي الله عنه .

قوله: «قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] ..»:

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾، وأول الآية ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ قال ابن جرير: «يعني بذلك: فاعلموا حقيقة ما أخبرتكم من الخبر، فإني جامعكم إلى يوم القيامة للجزاء والعرض والحساب، والثواب والعقاب يقينًا، فلا تشكوا في صحته، ولا تمتروا في حقيقته، فإن قولي الصدق الذي لا كذب فيه، ووعدي الصدق الذي لا خلف فيه. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ يقول: وأي ناطق أصدق من اللَّه حديثا؟ وذلك أن الكاذب إنما يكذب ليجتلب بكذبه إلى نفسه نفعًا، أو يدفع به عنها ضرًا، واللَّه تعالى ذكره خالق الضر والنفع، فغير جائز أن يكون منه كذب؛ لأنه لا يدعوه إلى اجتلاب نفع، ولا دفع ضر عن نفسه، أو دفع ضر عنها سواه تعالى ذكره، فيجوز أن يكون له في استحالة الكذب منه نظير، ومن أصدق من اللَّه حديثًا وخبرًا».

وقال ابن كثير: وقوله تعالى: «﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾؛ أي: لا أحد أصدق منه في حديثه وخبره، ووعده ووعيده، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه».

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ قال ابن جرير: «يقول: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ﴾ أيها الناس، ﴿مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ أي: لا أحد أصدق منه قيلًا، فكيف تتركون العمل بما وعدكم على العمل به ربكم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا، وتكفرون به، وتخالفون أمره، وأنتم تعلمون أنه لا أحد أصدق منه قيلًا، وتعملون بما يأمركم به الشيطان رجاء لإدراك ما يعدكم من عداته الكاذبة وأمانيه الباطلة، وقد علمتم أن عداته غرور لا صحة لها، ولا حقيقة، وتتخذونه وليًا من دون اللَّه، وتتركون أن تطيعوا اللَّه فيما يأمركم به وينهاكم عنه، فتكونوا له أولياء، ومعنى القيل والقول واحد».

وقال ابن كثير: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ أي: لا أحد أصدق منه قولًا؛ أي: خبرًا، لا إله إلا هو، ولا رب سواه، وكان النبي ﷺ يقول في خطبته: «إن أصدق الحديث كلام اللَّه، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ [المائدة: ١٠٩] فيقول: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ إذ قال اللَّه: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وقيل: إن اللَّه قال هذا القول لعيسى حين رفعه إليه في

(١) أخرجه النسائي (١٥٧٨) من حديث جابر رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي» (حديث رقم: ١٥٧٨).

الدنيا . وساق بسنده عن السدي قال : لما رفع الله عيسى ابن مريم إليه ، قالت النصارى ما قالت ، وزعموا أن عيسى أمرهم بذلك ، فسأله عن قوله فقال : ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ إلى قوله : ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة : ١١٧] . وعن ابن جريج ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ قال : والناس يسمعون ، فراجعه بما قد رأيت ، وأقر له بالعبودية على نفسه ، فعلم من كان يقول في عيسى ما يقول أنه إنما كان باطلًا » .

وقال ابن كثير على قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ الآيات : « هذا أيضًا مما يخاطب الله به عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام ، قائلًا له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله : ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ،وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رءوس الأشهاد . هكذا قاله قتادة وغيره » .

قوله تعالى : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ ؛ يعني : القرآن ، سماه كلمة كما تقول العرب للقصيدة من الشعر يقولها الشاعر : هذه كلمة فلان . ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ يقول : كلمت كلمة ربك من الصدق والعدل ، والصدق والعدل نصبًا على التفسير للكلمة ، كما يقال عندي عشرون درهمًا . ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ يقول : لا مغير لما أخبر في كتبه أنه كائن من وقوعه في حينه وأجله الذي أخبر الله أنه واقع فيه ، وذلك نظير قوله جل ثناؤه : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح : ١٥] » .

وقال ابن كثير : « وقوله تعالى : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قال قتادة : صدقًا فيما قال ، وعدلًا فيما حكم ، يقول : صدقًا في الإخبار ، وعدلًا في الطلب ، فكل ما أخبر به فحق لا مرية فيه ولا شك ، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه ، وكل ما نهى عنه فباطل ، فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة . ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أي : ليس أحد يعقب حكمه تعالى لا في الدنيا ولا في الآخرة . وقال البغوي : قوله ﷻ : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ قرأ أهل الكوفة ويعقوب : (كلمت) على التوحيد ، وقرأ آخرون : (كلمات) بالجمع ، والمراد بالكلمات أمره ونهيه ، ووعده ووعيده . ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ ، أي : صدقًا في الوعد والوعيد ، وعدلًا في الأمر والنهي ، قال قتادة ومقاتل : صدقًا فيما وعد ، وعدلًا فيما حكم ، ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ قال ابن عباس : لا راد لقضائه ولا مغير لحكمه ، ولا خلف لوعده ، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ قيل : أراد بالكلمات القرآن ، ﴿لَا مُبَدِّلَ﴾ يريد لا يزيد فيه المفترون ولا ينقصون » . انتهى .

قوله تعالى : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ : قال ابن جرير : « يعني بذلك جل ثناؤه : وخاطب الله بكلامه موسى خطابًا . وساق بسنده عن نوح بن أبي مريم ، وسئل : كيف كلم الله موسى تكليمًا ؟ قال : مشافهة » .

وقال ابن كثير : « قوله : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ وهذا تشريف لموسى عليه السلام بهذه الصفة ، ولهذا يقال له : الكليم » .

وقال صاحب « الوجيز » : « أخبر الله بأنه شرف موسى بكلامه ، وأكده بالمصدر دلالة على وقوع الفعل على حقيقته لا على المجاز » .

قوله تعالى : ﴿مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾ قال ابن جرير : « يعني تعالى ذكره بقوله : ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ﴾ الذين قص الله قصصهم في هذه السورة ؛ كموسى بن عمران ، وإبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، وشمويل ، وداود ، وسائر من ذكر نبأهم في هذه السورة ، يقول تعالى ذكره : هؤلاء رسلي فضلت بعضهم على بعض ، والذي كلمته منهم موسى ﷺ ، ورفعت بعضهم درجات على بعض بالكرامة ورفعة المنزلة . وساق بسنده عن مجاهد في قول الله تعالى ذكره : ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ﴾ قال : يقول : ﴿مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ﴾ منهم من كلم الله ، ورفع بعضهم على بعض درجات ، يقول : كلم الله موسى ، وأرسل محمدًا إلى الناس كافة » .

وقال البغوي : « ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾ أي : كلمه الله تعالى ، يعني : موسى عليه السلام ، ﴿وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ﴾ يعني : محمدًا ﷺ ، وما أوتي نبي آية إلا أوتي نبينا مثل تلك الآية ، وفضل على غيره بآيات مثل : انشقاق القمر بإشارته ، وحنين الجذع على مفارقته ، وتسليم الحجر والشجر عليه ، وكلام البهائم والشهادة برسالته ، ونبع الماء من بين أصابعه ، وغير ذلك من المعجزات والآيات التي لا تحصى ، وأظهرها القرآن الذي أعجز أهل السماء والأرض على الإتيان بمثله » . انتهى .

قوله تعالى : ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : وناديناه موسى من ناحية الجبل ، ويعني بالأيمن يمين موسى ؛ لأن الجبل لا يمين له ولا شمال ، وإنما ذلك كما يقال قام عن يمين القبلة وعن شمالها . وقوله : ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ يقول تعالى ذكره : وأدنيناه مناجيًا كما يقال : فلان نديم فلان ومنادمه ، وجليس فلان ومجالسه ، وذكر أن الله جل ثناؤه أدناه حتى سمع صريف القلم . ثم ساق بسنده عن ابن عباس : ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ قال : أدنى حتى سمع صريف القلم » .

وقال ابن كثير : « وقوله : ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ أي : الجبل ، ﴿ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ أي : الجانب

الأيمن من موسى حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة ، فرأها تلوح فقصدها فوجدها في جانب الطور الأيمن من غربيه عند شاطيء الوادي ، فكلمه الله تعالى وناداه وقربه فناجاه . قال ابن عباس : أدنى حتى سمع صريف القلم ، وهكذا قال مجاهد وأبو العالية وغيرهم . يعنون صريف القلم بكتابة التوراة ، وقال السدي ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ قال : أدخل في السماء فكلم ، وعن مجاهد نحوه » .

وقال البغوي : « قوله : ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ يعني : يمين موسى . والطور : جبل بين مصر ومدين ، ويقال اسمه : الزبير ، وذلك حين أقبل من مدين ورأى النار فنودي : ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص : ٣٠] ، ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ أي : مناجيًا ، فالنجي المناجي ، كما يقال : جليس ونديم ، قال ابن عباس : معناه قربه فكلمه ، ومعنى التقريب إسماعه كلامه ، وقيل : رفعه الحجب حتى سمع صريف القلم » . انتهى .

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : واذكر يا محمد إذ نادى ربك موسى بن عمران : ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني : الكافرين ، ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ [الشعراء : ١١] عقاب الله على كفرهم به » .

قوله تعالى : ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : ونادى آدم وحواء ربهما : ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ عن أكل ثمرة الشجرة التي أكلتما ثمرتها ، وأعلمتكما أن إبليس لكما عدو مبين ؟ يقول : قد أبان عداوته لكما بترك السجود لآدم حسدًا وبغيًا » .

وعن ابن عباس قال : « لما أكل آدم من الشجرة قيل له : أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها ؟ قال : حواء أمرتني . قال : فإني قد أعقبها ألَّا تحمل إلا كرهًا ولا تضع إلَّا كرهًا . قال : فرنت حواء عند ذلك ، فقيل لها : الرنة عليك وعلى ولدك » .

وعن أبي بن كعب قال : « كان آدم رجلًا طوالًا كأنه نخلة سحوق ، كثير شعر الرأس ، فلما وقع فيما وقع فيه من الخطيئة بدت له عورته- عند ذلك وكان لا يراها- فانطلق هاربًا في الجنة ، فتعلقت برأسه شجرة من شجر الجنة . فقال لها : أرسليني . فقالت : إني غير مرسلتك ، فناداه ربه ﷻ : يا آدم ، أمني تفر ؟ قال : يا رب ، إني استحييتك » .

قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : ويوم ينادي الله هؤلاء المشركين فيقول لهم : ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فيما أرسلناهم به إليكم ، من دعائكم إلى توحيدنا ، والبراءة من الأوثان والأصنام ؟ ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ » .

قال مجاهد : « ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ قال : الحجج . يعني الحجة » .

قوله : « قوله تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة : ٦] ، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٧٥] .. » :

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ **قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره لنبيه : وإن استأمنك يا محمد من المشركين الذين أمرتك بقتالهم وقتلهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم أحد ليسمع كلام اللَّه منك ، وهو القرآن الذي أنزله اللَّه عليك ﴿فَأَجِرْهُ﴾ يقول : فأمنه ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ وتتلوه عليه ، ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ يقول : ثم رده بعد سماعه كلام الله- إن هو أبى أن يسلم ، ولم يتعظ بما تلوته عليه من كلام اللَّه فيؤمن- إلى ﴿مَأْمَنَهُ﴾ يقول : إلى حيث يأمن منك وممن في طاعتك حتى يلحق بداره وقومه من المشركين » .**

قوله تعالى : ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ .

قال ابن كثير : « يقول تعالى : ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ أيها المؤمنون ، ﴿أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أي : ينقاد لكم بالطاعة ، هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود ، الذين شاهد آباؤهم من الآيات البينات ما شاهدوه ، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ أي : يتأولونه على غير تأويله ، ﴿مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي : فهموه على الجلية ، ومع هذا يخالفونه على بصيرة ، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله » .

قوله تعالى : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ **قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : سيقول يا محمد المخلفون في أهليهم عن صحبتك إذا سرت معتمرًا تريد بيت اللَّه الحرام ، إذا انطلقت أنت ومن صحبك في سفرك ذلك إلى ما أفاء اللَّه عليك وعليهم من الغنيمة لتأخذوها- وذلك ما كان اللَّه وعد أهل الحديبية من غنائم خيبر- : ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ إلى خيبر فنشهد معكم قتال أهلها . ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ يقول : يريدون أن يغيروا وعد اللَّه الذي وعد أهل الحديبية ؛ وذلك أن اللَّه جعل غنائم خيبر لهم ، ووعدهم ذلك عوضًا من غنائم أهل مكة ، إذا انصرفوا عنهم على صلح ، ولم يصيبوا منهم شيئًا . وقوله : ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : قل لهؤلاء المخلفين عن المسير معك يا محمد : لن تتبعونا إلى خيبر إذا أردنا المسير إليهم من قتالهم ، ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ . يقول : هكذا قال اللَّه لنا من قبل مرجعنا إليكم أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية معنا ، ولستم ممن شهدها ، فليس لكم أن تتبعونا إلى خيبر ؛ لأن غنيمتها لغيركم » .**

قوله : ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ : قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : واتبع يا محمد ما أنزل إليك من كتاب ربك هذا ، ولا تتركن تلاوته واتباع ما فيه من أمر الله ونهيه ، والعمل بحلاله وحرامه فتكون من الهالكين ، وذلك أن مصير من خالفه ، وترك اتباعه يوم القيامة إلى جهنم ، ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ يقول : لا مغير لما أوعد بكلماته التي أنزلها عليك ، أهل معاصيه ، والعاملين بخلاف هذا الكتاب الذي أوحيناه إليك . وقوله : ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ يقول : إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحي إليك من كتاب ربك فإنه لا ملجأ لك من الله » .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : إن هذا القرآن الذي أنزلته إليك يا محمد ، يقص على بني إسرائيل الحق في أكثر الأشياء التي اختلفوا فيها . وذلك كالذي اختلفوا فيه من أمر عيسى ، فقالت اليهود فيه ما قالت ، وقالت النصارى فيه ما قالت ، وتبرأ لاختلافهم فيه هؤلاء من هؤلاء ، وهؤلاء من هؤلاء ، وغير ذلك من الأمور التي اختلفوا فيها ، فقال جل ثناؤه لهم : إن هذا القرآن يقص عليكم الحق فيما اختلفتم ، فاتبعوه وأقروا لما فيه ، فإنه يقص عليكم بالحق ، ويهديكم إلى سبيل الرشاد » .

قوله : « قوله تعالى : ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام : ١٥٥] ، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر : ٢١] ..» :

قوله تعالى : ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ قال ابن جرير : « يعني جل ثناؤه بقوله : ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ وهذا القرآن الذي أنزلناه إلى نبينا محمد ﷺ ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام : ١٥٥] ، يقول : فاجعلوه إمامًا تتبعونه وتعملون بما فيه أيها الناس . ﴿وَاتَّقُوا﴾ يقول : واحذروا الله في أنفسكم أن تضيعوا العمل بما فيه ، وتتعدوا حدوده ، وتستحلوا محارمه . وقوله : ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام : ١٥٥] يقول : لترحموا ؛ فتنجوا من عذاب الله وأليم عقابه » .

وقال ابن كثير : « في الدعوة إلى اتباع القرآن ، يرغب سبحانه عباده في كتابه ويأمرهم بتدبره والعمل به والدعوة إليه ، ووصفه بالبركة لمن اتبعه وعمل به في الدنيا والآخرة ؛ لأنه حبل الله المتين » .

قوله تعالى : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ قال ابن جرير : « يقول جل ثناؤه : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ وهو حجر ، ﴿لَّرَأَيْتَهُ﴾ يا محمد ﴿خَاشِعًا﴾ يقول : متذللا ﴿مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ على قساوته ، حذرًا من ألّا يؤدي حق الله المفترض عليه في تعظيم القرآن ، وقد أنزل على ابن آدم ، وهو بحقه مستخف ، وعنه وعما فيه من العبر والذكر معرض ، كأن لم يسمعها ، كأن في أذنيه وقرًا . وساق بسنده عن ابن عباس من قوله : ﴿لَوْ

أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله﴾ قال : يقول : لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه ، تصدع وخشع من ثقله ومن خشية اللَّه ، فأمر اللَّه ﷻ الناس إذا أنزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع . قال : كذلك يضرب اللَّه الأمثال للناس لعلهم يتفكرون » .

قوله تعالى : ﴿وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون﴾ :

قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : وإذا نسخنا حكم آية ، فأبدلنا مكانه حكم أخرى ، ﴿والله أعلم بما ينزل﴾ يقول : واللَّه أعلم بالذي هو أصلح لخلقه فيما يبدل ويغير من أحكامه ، ﴿قالوا إنما أنت مفتر﴾ يقول : قال المشركون باللَّه المكذبون لرسوله : ﴿إنما أنت﴾ يا محمد ﴿مفتر﴾ أي : مكذب ، تخرص بتقول الباطل على اللَّه ، يقول اللَّه تعالى : بل أكثرهم هؤلاء القائلين لك يا محمد : إنما أنت مفتر . جهال بأن الذي تأتيهم به من عند اللَّه ، ناسخه ومنسوخه لا يعلمون حقيقة صحته » .

قوله تعالى : ﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين﴾ : قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : ﴿قل﴾ يا محمد للقائلين لك : ﴿إنما أنت مفتر﴾ فيما تتلوا عليهم من آي كتابنا ، ﴿نزله روح القدس﴾ يقول : قل جاء به جبريل من عند ربي بالحق » .

وقوله : ﴿ليثبت الذين آمنوا﴾ يقول تعالى ذكره : قل نزل هذا القرآن ناسخه ومنسوخه روح القدس علي من ربي ، تثبيتًا للمؤمنين ، وتقوية لإيمانهم ؛ ليزدادوا بتصديقهم لناسخه ومنسوخه إيمانًا لإيمانهم ، وهدى لهم من الضلالة ، وبشرى للمسلمين الذين استسلموا لأمر اللَّه ، وانقادوا لأمره ونهيه ، وما أنزله في آي كتابه ، فأقروا بكل ذلك ، وصدقوا به قولًا وعملًا .

قوله تعالى : ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾ : قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : ولقد نعلم أن هؤلاء المشركين يقولون- جهلًا منهم- : إنما يعلم محمدًا هذا الذي يتلوه بشر من بني آدم ، وما هو من عند اللَّه ، يقول اللَّه تعالى ذكره مكذبهم في قيلهم ذلك : ألا تعلمون كذب ما تقولون ؟ إن لسان الذي تلحدون إليه أعجمي ، يقول : تميلون إليه بأنه يعلم محمدًا أعجمي . وذلك أنهم فيما ذكر كانوا يزعمون أن الذي يعلم محمدًا هذا القرآن عبد رومي ، فلذلك قال تعالى : ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾ وهذا القرآن لسان عربي مبين » .

قوله : « قوله تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة : ٢٢، ٢٣] ، ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين : ٢٣] » .

قوله تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال ابن جرير : « يقول تعالى ذكره : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ [القيامة : ٢٤] يعني : يوم القيامة ، ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ يقول : حسنة جميلة من النعيم ، يقال من ذلك : نضر وجه فلان ، إذا حسن من النعمة ، ونضر الله وجهه إذا حسنه كذلك . وساق بسنده عن الحسن في قوله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ قال : حسنة ، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال : تنظر إلى الخالق ، وحق لها أن تنضر وهي تنظر إلى الخالق . وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه ألفي سنة ، قال : وإن أفضلهم منزلة لمن ينظر في وجه الله كل يوم مرتين قال : ثم تلا : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال : بالبياض والصفاء ، قال : ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال : تنظر كل يوم في وجه الله ﷻ »[١] .

وقال ابن كثير : « وقد ثبتت رؤية المؤمن لله ﷻ في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح ، من طرق متواترة عند أئمة الحديث ، لا يمكن دفعها ولا منعها ؛ لحديث أبي سعيد وأبي هريرة في « الصحيحين » : « أن ناسًا قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : « هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحابة ؟ » . قالوا : لا . قال : « فإنكم ترون ربكم كذلك »[٢] . وفي « الصحيحين » عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله ﷻ إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن »[٣] .

قوله تعالى : ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ قال ابن جرير : « يعني تعالى ذكره بقوله : ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ على السرر في الحجال من اللؤلؤ والياقوت ، ينظرون إلى ما أعطاهم الله من الكرامة والنعيم والحبور في الجنات » .

وقال على : « قوله تعالى : ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين : ٣٤، ٣٥] يقول تعالى ذكره : ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ [الأعراف : ٥١] وذلك يوم القيامة ، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأعراف : ٨٨] بالله في الدنيا ، ﴿مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التوبة : ١٢٣] فيها ﴿يَضْحَكُونَ﴾ [الزخرف : ٤٧] ، ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ يقول : على سررهم التي في الحجال ينظرون إليهم وهم في

---

(١) الترمذي (٢٥٥٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (حديث رقم : ١٣٨١) .

(٢) البخاري (٤٥٨١) ، ومسلم (١٨٣/٣٠٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٣) البخاري (٧٤٤٤) ، ومسلم (١٨٠) .

الجنة ، والكفار في النار يعذبون » .

وقال في قوله تعالى : ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين : ١٥] : « أي : محجوبون عن رؤيته وعن كرامته » .

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين : ٢٢ ، ٢٣] « أي : يوم القيامة هم في نعيم مقيم ، وجنات فيها فضل عميم ، ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ وهي : السرر تحت الحجال ، ﴿يَنظُرُونَ﴾ قيل : معناه : ينظرون في ملكهم وما أعطاهم الله من الخير والفضل الذي لا ينقضي ولا يبيد ، وقيل : معناه ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ إلى الله ﷻ . وهذا مقابل لما وصف به أولئك الفجار : ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين : ١٥] ، فذكر عن هؤلاء أنهم يباحون النظر إلى الله ﷻ وهم على سررهم وفرشهم ، كما تقدم في حديث ابن عمر : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة ، يرى أقصاه كما يرى أدناه ، وإن أعلاهم لمن ينظر إلى الله ﷻ في اليوم مرتين »[1] » .

وقال أيضًا : « ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين : ٣٤] أي : في مقابل ما ضحك بهم أولئك ، ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين : ٣٥] أي : إلى الله ﷻ ، في مقابلة من زعم فيهم أنهم ضالون ، ليسوا بضالين ؛ بل هم من أولياء الله المقربين ، ينظرون إلى ربهم في دار كرامته » .

قوله تعالى : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ الحسنى هي الجنة ، والزيادة هي النظر إلى وجه الله ﷻ ، وهذا قول أبي بكر الصديق وغيره من السلف والخلف .

قال ابن جرير : « إن الله تبارك وتعالى وعد المحسنين من عباده على إحسانهم الحسنى أن يجزيهم على طاعتهم إياه الجنة ، وأن يبيض وجوههم ، ووعدهم مع الحسنى الزيادة عليها ، ومن الزيادة على إدخالهم الجنة أن يكرمهم بالنظر إليه ، وأن يعطيهم غرفًا من لآلئ ، وأن يزيدهم غفرانًا ورضوانًا ، كل ذلك من زيادات عطاء الله إياهم على الحسنى التي جعلها الله لأهل جناته » .

قوله تعالى : ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ قال ابن جرير : « وقوله : ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ يقول : لهؤلاء المتقين ما يريدون في هذه الجنة التي أزلفت لهم من كل ما تشتهيه نفوسهم وتلذه أعينهم ، وقوله : ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ يقول : وعندنا لهم على ما أعطيناهم من هذه الكرامة التي وصف جل ثناؤه صفتها مزيد يزيدهم إياه ، وقيل : إن ذلك المزيد النظر إلى الله جل ثناؤه . ذكر من قال ذلك : حدثنا أحمد بن سهيل الواسطي قال : حدثنا قرة بن عيسى قال : حدثنا النضر بن عربي عن جده عن

(١) الترمذي (٢٥٥٣) من حديث ابن عمر ﷺ ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (حديث رقم : ١٣٨١) .

أنس : « إن الله ﷻ إذا أسكن أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، هبط إلى مرج من الجنة أفيح ، فمد بينه وبين خلقه حجبًا من لؤلؤ ، وحجبًا من نور ، ثم وضعت منابر النور ، وسرر النور ، وكراسي النور ، ثم أذن لرجل على الله ﷻ ... إلى أن قال : ثم ناداهم الرب ﷻ من وراء الحجب : مرحبًا بعبادي وزواري وجيراني ووفدي ، أكلوا وشربوا وفكهوا وكسوا وطيبوا ، وعزتي لأتجلين لهم حتى ينظروا إلي . فذلك انتهاء العطاء وفضل المزيد . قال : فتجلى لهم الرب ﷻ ، ثم قال : السلام عليكم عبادي ، انظروا إلي فقد رضيت عنكم »[1] الحديث .

وقال البغوي : « ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ وذلك أنهم يسألون الله تعالى حتى تنتهي مسألتهم فيعطون ما شاءوا ، ثم يزيدهم الله من عنده ما لم يسألوه ، وهو قوله : ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ ، يعني الزيادة لهم في النعيم مما لم يخطر ببالهم ، وقال جابر وأنس : « هو النظر إلى وجه الله الكريم » .

❁ قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله :

قوله : « ما وصف به نفسه في « سورة الإخلاص » التي تعدل ثلث القرآن ..» :

* هذا شروع في تفصيل النصوص الواردة في الكتاب والسنة الداخلة في الإيمان بالله ، وأنه يجب فيها إثباتها ، ونفي « التعطيل » و« التحريف » و« التكييف » و« التمثيل » عنها ، فثبت عنه ﷺ في « الصحيح »[2] أن هذه السورة « تعدل ثلث القرآن » ، وذلك كما قال أهل العلم : إن القرآن يحتوي على علوم عظيمة كثيرة جدًا وهي ترجع إلى ثلاثة علوم :

أحدها : علوم الأحكام والشرائع- الداخل فيها علوم الفقه- كلها عباداته ومعاملاته ، وتوابعهما .

الثاني : علوم الجزاء على الأعمال والأسباب التي يجازى فيها العاملون من خير وشر ، وبيان تفصيل الثواب والعقاب .

الثالث : علوم التوحيد : وما يجب على العباد من معرفته والإيمان به ، وهو أشرف العلوم الثلاثة .

و« سورة الإخلاص » كفيلة باشتمالها على أصول هذا العلم وقواعده ؛ فإن قوله : ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ؛ أي : الله متفرد بالعظمة والكمال ، ومتوحد بالجلال والجمال والمجد والكبرياء . يحقق ذلك قوله : ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ ؛ أي : الله السيد العظيم الذي قد انتهى في سؤدده ومجده وكماله . فهو : العظيم الكامل في عظمته ، العليم الكامل في علمه ، الحليم الكامل في حلمه ، فهو الكامل في جميع نعوته .

ومن معاني ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ : أنه الذي تصمد إليه الخليقة كلها ، وتقصده في جميع حاجاتها ومهماتها ، فهو المقصود ، وهو الكامل المعبود . فإثبات الأحدية لله ومعاني الصمدية كلها يتضمن

---

(١) ابن جرير الطبري في « تفسيره » (١٧٣/٢٦) .

(٢) البخاري (٥٠١٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، ومسلم (٨١٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

إثبات جميع تفاصيل الأسماء الحسنى والصفات العلى . فهذا أحد نوعي التوحيد وهو الإثبات ، وهو أعظم النوعين .

والنوع الثاني : التنزيه لله عن الولادة والند والكفو والمثل . وهذا داخل في قوله : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ؛ أي : ليس له مكافئ ولا مماثل ولا نظير .

فمتى اجتمع للعبد هذه المقامات المذكورة في هذه السورة بأن :

* نزه اللَّه وقدسه عن كل نقص وند وكفو ومثيل .

* وشهد بقلبه تفرد الرب بالوحدانية والعظمة والكبرياء .

وجميع صفات الكمال التي ترجع إلى هذين الاسمين الكريمين ؛ وهما « الأحد الصمد » .

ثم صمد إلى ربه وقصده في عبوديته وحاجاته الظاهرة والباطنة ، متى كان كذلك تم له : التوحيد العلمي والاعتقادي والتوحيد العملي ، فحق لسورة تشتمل عن هذه المعارف أن تعدل ثلث القرآن .

قوله : « وما وصف به نفسه في أعظم آية من كتابه ؛ حيث يقول : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة : ٢٥٥] » :

* وذلك لاشتمالها على أجل المعارف وأوسع الصفات ، فأخبر أنه المتوحد في الألوهية المستحق لإخلاص العبودية .

وأنه ﴿ٱلْحَىُّ﴾ الكامل- كامل الحياة- وذلك يقتضي كمال عزته ، وقدرته وسعة علمه ، وشمول حكمته ، وعموم رحمته ، وغيرها من صفات الكمال الذاتية .

وأنه ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ : الذي قام بنفسه ، واستغنى عن جميع المخلوقات وقام بالموجودات كلها ، فخلقها ، وأحكمها ، ورزقها ، ودبرها ، وأمدها بكل ما تحتاج إليه .

وهذا الاسم يتضمن جميع الصفات الفعلية ؛ ولهذا ورد : « أن الحي القيوم ، هما الاسم الأعظم ، الذي إذا دعي اللَّه به أجاب ، وإذا سئل به أعطى »[1] .

لدلالة ﴿ٱلْحَىُّ﴾ على الصفات الذاتية ، و﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ على الصفات الفعلية ، والصفات كلها ترجع إليهما .

ومن كمال قيوميته وحياته : أنه لا تأخذه سنة- وهي النعاس- ولا نوم ، ثم ذكر عموم ملكه للعالم العلوي والسفلي .

ومن تمام ملكه : أن الشفاعة كلها لله ، فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ، ففيها : ذكر الشفاعة التي

---

(١) ابن ماجه (٣٨٥٦) ، وحسنه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (حديث رقم : ٧٤٦) .

يجب إثباتها وهي التي تقع بإذنه لمن ارتضى ، والشفاعة المنفية التي يعتقدها المشركون ما كانت تطلب من غير الله وبغير إذنه ، فمن كمال عظمة الله أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ولا يأذن إلا فيمن رضي قوله وعمله ، وبين أن المشركين لا تنفعهم شفاعة الشافعين .

ثم ذكر سعة علمه فقال : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ؛ أي : علمه محيط بالأمور الماضية والمستقبلة ، فلا يخفى عليه منها شيء ، وأما الخلق فلا يحيطون بشيء من علم الله- لا قليل ولا كثير- إلا بما شاء أن يعلمهم الله على ألسنة رسله ، وبطرق وأسباب متنوعة .

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ : قيل : إنه العرش ، وقيل : إنه غيره ، وإنه كرسي ملكه من عظمته وسعته أن وسع السماوات والأرض .

ومع ذلك ﴿وَلَا يَئُودُهُ﴾ ؛ أي : لا يثقله ويكرثه حفظهما- أي : حفظ العالم العلوي والسفلي- وذلك لكمال قدرته وقوته .

وفيها بيان لعظيم نعمة الله على الخلق إذ خلق لهم السماوات والأرضين وما فيهما وحفظهما وأمسكهما عن الزوال والتزلزل ، وجعلهما على نظام بديع جامع للأحكام والمنافع المتعددة التي لا تحصي .

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ : الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه ؛ علو الذات : بكونه فوق جميع المخلوقات على العرش استوى . وعلو القدر : إذ كان له كل صفة كمال ، وله من تلك الصفة أعلاها وغايتها .

﴿الْعَظِيمُ﴾ : الذي له جميع أوصاف العظمة والكبرياء ، وله العظمة والتعظيم الكامل في قلوب أنبيائه وملائكته وأصفيائه الذي لا أعظم منه ولا أجل ولا أكبر .

فحقيق بآية تحتوي على هذه المعاني الجليلة أن تكون أعظم آيات القرآن ، وأن يكون لها من المنع وحفظ قارئها من الشرور والشياطين ما ليس لغيرهم .

قوله : « ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ » :

* قد فسر النبي ﷺ هذه الأسماء الأربعة بتفسير مختصر جامع واضح حيث قال : « أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء »[1] .

وهذا يدل على كمال عظمته وأنه لا نهاية لها ، وبيان إحاطته من كل وجه ؛ فـ ﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ :

---

(١) مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

إحاطته الزمانية ، و« الظاهر والباطن » : إحاطته المكانية ، ثم صرح بإحاطة علمه بكل شيء ؛ من الأمور الماضية والحاضرة والمستقبلة ، ومن العالم العلوي والسفلي ، ومن الظواهر والبواطن والواجبات والجائزات والمستحيلات ، فلا يغيب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

قوله : « ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ : ٢] » :

أقول : ذكر المصنف رحمه الله في هذا الموضع عدة آيات وكلها داخلة في الإيمان بالله ، ويتضح معناها عمومًا وخصوصًا بذكر أصول وضوابط نوضحها فيما يأتي :

منها : أن هذه النصوص القرآنية تنطبق عليها القاعدة المتفق عليها بين السلف ، وهي : أنه يجب الإيمان بجميع الأسماء الحسنى ، وما دلت عليه من الصفات وما نشأ عنها من الأفعال .

مثال ذلك : « القدرة » يجب علينا الإيمان بأنه على كل شيء قدير ، والإيمان بكمال قدرة الله ، والإيمان بأن قدرته نشأت عنها جميع الكائنات ، وبأنه « عليم » ذو علم محيط ، وأنه يعلم الأشياء كلها ، وهكذا بقية الأسماء الحسنى على هذا النمط .

في هذه الآيات التي ذكرها المصنف من الأسماء الحسنى فإنها داخلة في الإيمان بالأسماء ، وما فيها من ذكر الصفات مثل : « عزة الله » و« قدرته » و« علمه » و« حكمته » و« إرادته » و« مشيئته » و« كلامه » و« أمره » و« قوله » ونحوها ، فإنها داخل في الإيمان بالصفات .

وما فيها من ذكر الأفعال المطلقة والمقيدة مثل : ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ويعلم كذا وكذا ، ويحكم ويريد ، وسمع ويسمع ويرى ، وأسمع وأرى ، وقال ويقول ، وكلم ويكلم ، ونادى وناجى ، ونحوها من الأفعال ، فإنه داخل في الإيمان بأفعاله تعالى .

فعلى العبد الإيمان بكل ذلك إجمالًا وتفصيلًا وإطلاقًا وتقييدًا على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته ، وأن يعلم أن صفاته لا تشبهها صفات المخلوقين ، كما أن ذاته لا تشبهها ذوات المخلوقين .

ومن الأصول المتفق عليها بين « السلف » التي دلت عليها هذه النصوص : أن صفات الباري قسمان :

« صفات ذاتية » : لا تنفك عنها الذات كصفة : « الحياة » و« العلم » و« القدرة » و« القوة » و« العزة » و« الملك » و« العظمة » و« الكبرياء » و« العلو المطلق » ونحوها .

و« صفات فعلية » : تتعلق بها أفعاله كل وقت وآن وزمان ، ولها آثارها في الخلق والأمر ، فيؤمنون بأنه فعال لما يريد ، وأنه لم يزل ولا يزال يقول ويتكلم ويخلق ويدبر الأمور ، وأن أفعاله تقع شيئًا فشيئًا

تبعًا لحكمته وإرادته ، كما أن شرائعه وأوامره ونواهيه الشرعية لا تزال تقع شيئًا فشيئًا .

وقد دل على هذا الأصل الكبير : ما في النصوص من ذكر : « قال » و« يقول » و« سمع » و« يسمع » و« كلم » و« يكلم » و« نادى » و« ناجى » و« علم » و« كتب » و« يكتب » و« جاء » و« يجيء » و« أتى » و« يأتي » و« أوحى » و« يوحي » ونحوها من الأفعال المتنوعة التي تقع مقيدة بأوقاتها ، كما سمعت في هذه النصوص المذكورة آنفًا .

وهذا من أكبر الأصول وأعظمها ، ولقد صنف فيه المؤلف مصنفًا مستقلًا ؛ وهو المسمى بـ « الأفعال الاختيارية »[1] .

فعلى المؤمن : الإيمان بكل ما نسبه الله لنفسه ؛ من الأفعال المتعلقة بذاته كـ « الاستواء على العرش » ، و« المجيء » و« الإتيان » و« النزول إلى السماء الدنيا » و« القول » ونحوها ، والمتعلقة بخلقه كـ « الخلق » و« الرزق » و« أنواع التدبير » .

ومن الأصول الثابتة في الكتاب والسنة المتفق عليها بين السلف : التفريق بين مشيئة الله وإرادته وبين محبته .

« فمشيئة الله وإرادته الكونية » : تتعلق بكل موجود محبوب لله وغير محبوب ، كما ذكر في هذه الآيات أن الله يفعل ما يريد[2] وما يشاء ، وإذا أراد شيئًا قال له : كن فيكون .

---

(١) « مجموع الفتاوى » لابن تيمية (٦/٢١٧) .

(٢) قال الشيخ ابن باز رحمه الله :

من أصول أهل السنة والجماعة إثبات مشيئة الرب العامة ، وأن ما شاء كان ، وما لم يشأ لا يكون ، كما أن من أصولهم الثابتة إثبات صفة الإرادة ، وهي قسمان :

إرادة كونية قدرية ، كالمشيئة ، وهذه الإرادة لا يخرج عن مُرادها شيء كالمشيئة ، فالكافر والمسلم تحت هذه الإرادة الكونية سواء ، فالطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال كلها بمشيئة الرب وإرادته الكونية .

وقد ذكر سبحانه هذه الإرادة في قوله تعالى : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ، وقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ .

القسم الثاني من الإرادة : الإرادة الشرعية الدينية ، وتتضمن محبة الرب للمراد ورضاه به ، وهذه الإرادة لا يلزم وجود مرادها ، بل قد يوجد وقد لا يوجد ، فالله سبحانه قد أراد من عبادة شرعًا أن يعبدوه ويُطيعوه ، فمنهم من عبده وأطاعه ، ومنهم من لم يفعل ذلك .

وبهذا يعلم أن الإرادتين تجتمعان في حق المطيع ، وتنفرد الإرادة الكونية في حق العاصي ؛ لأن الله لم يُرد منه المعصية شرعًا ، بل قد نهاه عنه ، وقد ذكر الله هذه الإرادة بقوله : « يريد الله أن يتوب عليكم » ، وقوله : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ ، ومن عرف الفرق بين هاتين الإرادتين سَلِم من شُبهات كثيرة زلَّت فيها أقدام ، وضَلَّتْ فيها أفهام .

وأما « محبته » : فإنها تتعلق بما يحبه خاصة من الأشخاص والأعمال ، كما ذكر في هذه الآيات تقييدها بأنه يحب الصابرين والمتقين والمؤمنين والمحسنين والمقسطين ونحوها ، فمشيئته عامة للكائنات ، ومحبته خاصة ومتعلقة بالمحبوبات .

ويتفرع عن هذا أصل آخر وهو : التفريق بين الإرادة الكونية- فإنها تطابق المشيئة- وبين الإرادة الدينية - فإنها تطابق المحبة- .

فالأول مثل : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج : ١٤] ، ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج : ١٦] ونحوها .

والثاني نحو : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء : ٢٧] ، ومع ذلك فجميع ذلك خاصة عامة يثبته أهل السنة والجماعة على الوجه الذي قاله الله وقاله رسوله .

ومن أصول أهل السنة والجماعة الثابتة : إثبات علو الله على خلقه واستوائه على عرشه[1] ؛ وهي

---

(١) قال الشيخ ابن باز رحمه الله :

« إثبات علو الله على خلقه ، واستوائه على عرشه ، وإقرار العقول بذلك ، أمر فطري فطر الله عليه العباد ، وإما الاستواء : فأثبته السمع من كتاب الله ، وسنة رسوله ، وليس في العقول ما يخالف ذلك ، وحقيقته لغة : الارتفاع والعلو . وأما تفسير الاستواء بالاستيلاء ؛ فهو باطل من وجوه :

منها : أنه يتضمن أن الله جل وعلا كان مغلوبًا على عرشه ثم غلب .

وهذا باطل ؛ لأنه تعالى لم يزل قاهرًا لجميع خلقه ، مستوليًا على عرشه فما دونه ، وأما بيت الأخطل الذي يستدلون به على أن معنى : ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ : استولى . فلا حجة فيه ، والبيت هو :

قد اسْتَوَى بِر على العِراق   من غَيْر سَيْف أو دَم مهراق

لأن استعمال ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ بمعنى استولى غير معروف في لغة العرب ، ولأن ذلك لو وجد في اللغة لم يجز استعماله في حق الله ، وأما المخلوق فيكون غالبًا ومغلوبًا ، كَبِر هذا فإنه كان مغلوبًا على أمر العراق ثم غلب .

فائدة نفيسة : ما ورد في الكتاب والسنة من أسماء وصفاته أقسام .

منها : ما ورد بلفظ الاسم على وجه التسمي به كالعزيز الحكيم ، والغفور ، وشبه ذلك ، فهذا القسم يوصف به الرب ويسمى به ، ويشتق له منه فعل ، ويثبت له منه مصدر كالعزة والحكمة والمغفرة .

ومنها : ما ورد بلفظ الاسم على وجه الإضافة ، فهذا يطلق على الله بلفظ الإضافة ، ولفظ الفعل ، ولا يشتق له منه اسم ، مثل قوله تعالى : ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء : ١٤٢] ، فيجوز أن يقول : الله خادع المنافقين ، ويخدع من خدعه ، ونحو ذلك ، ولا يجوز أن نعد من أسمائه « الخادع » ؛ لعدم وروده ، ولأن إطلاق الخادع يحتمل الذم والمدح ، فلا يجوز إطلاقه في حق الله .

ومنها : ما ورد بلفظ الفعل فقط : كالكيد ، والمكر ؛ فهذا لا يطلق على الله إلا بلفظ الفعل ، كقوله سبحانه : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق : ١٥، ١٦] ، وقوله : ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران : ٥٤] .=

من أعم الأصول التي باين بها «أهل السنة» «للجهمية» و«المعتزلة» و«الأشاعرة»، فما في هذه الآيات من ذكر علوه واسمه العلي الأعلى، وصعود الأشياء إليه وعروجها ونزولها منه يدل على العلو، وما صرح به من استوائه على العرش برهان قاطع على ثبوت ذلك، وقد قيل للإمام مالك: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟ فقال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه- أي عن الكيفية- بدعة».

وفي هذه الآيات: ذكر معية الله العامة[1]، كقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، وهذه المعية تدل على إحاطة علمه بالعباد، ومجازاته لهم بأعمالهم.

وفيها: ذكر المعية الخاصة كقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وهذه الآيات تدل- مع العلم المحيط- على العناية بمن تعلقت به تلك المعية، وأن الله معهم بعونه وحفظه وكلاءته وتوفيقه.

وإذا أردت أن تعرف هل المراد المعية العامة أو الخاصة؟ فانظر في الآيات؛ فإن كان المقام مقام تخويف ومحاسبة للعباد على أعمالهم وحث على مراقبة الله؛ فإن المعية عامة، مثل قوله: ﴿مَا

= ولا يجوز أن يعد من أسمائه سبحانه الكائد والماكر لما تقدم؛ وإنما جاز وصف الرب بالخداع والمكر والكيد في الآيات المشار إليها؛ لأنه في مقابل خداع أعدائه وكيدهم ومعاملتهم بمثل ما فعلوا من مدح وعدل يستحق عليه المدح والثناء.

فائدة أخرى ذكرها شيخ الإسلام وغيره: وهي أن صفات الرب القولية والفعلية قديمة النوع حادثة الآحاد: كالكلام والخلق والرزق والنزول، وأشباه ذلك، ونحو ذلك، فجنس الكلام والخلق والرزق والنزول قديم وأنواعه تحدث شيئًا فشيئًا على حسب حكمة الرب سبحانه، كما في قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ الآية [الأنبياء: ٢]، وكخلق آدم بعد أن لم يكن مخلوقًا، وغير ذلك، وهكذا الرزق والكلام، وأما صفات الذات كاليد والقدم والسمع والبصر فهي صفات قديمة كالذات. اهـ.

(١) قال الشيخ ابن باز رحمه الله:
المعية صفة من صفات الله، وهي قسمان: معية خاصة: لا يعلم كيفيتها إلا الله كسائر صفاته، وتتضمن الإحاطة والنصرة والتوفيق والحماية من المهالك.
ومعية عامة: تتضمن علم الرب بأحوال عباده واطلاعه على جميع أحوالهم وتصرفاتهم الظاهرة والباطنة ولا يلزم منها الاختلاط والامتزاج؛ لأنه سبحانه لا يقاس بخلقه، فعلُوُّهُ على خلقه لا ينافي معيته لعباده، بخلاف المخلوق فإن وجوده في مكان وجهة يلزم منه عدم اطلاعه على المكان الآخر والجهة الأخرى، والرب ليس كمثله شيء لكمال علمه وقُدرته.

﴿يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ الآية [المجادلة: ٧]. وإذا كان المقام مقام لطف وعناية من الله بأنبيائه وأصفيائه- وقد رتبت المعية على الاتصاف بالأوصاف الحميدة- فإن المعية معية خاصة وهو أغلب إطلاقاتها في القرآن، مثل: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، ﴿مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ ونحوها.

ومن الأصول العظيمة: إثبات تفرد الرب بكل صفة كمال، وأنه ليس لله شريك ولا مثيل في شيء منها، والنصوص المذكورة التي فيها نفي: «الند»، و«المثل» و«الكفو» و«السمي» عن الله تدل على ذلك، وتدل على أنه منزه عن كل عيب ونقص وآفة.

ومن أصول أهل السنة والجماعة الثابتة: إثبات رؤية المؤمنين لربهم في دار القرار والتنعيم برؤيته وقربه ورضاه، ويدل على ذلك من الآيات التي ذكرها المصنف: قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾؛ أي: جملية ناعمة حسنة، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وهذا صريح في نظرهم إلى ربهم، وكذلك قوله: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٣]؛ أي: إلى ما أعطاهم من النعيم الذي أجله وأعظمه النظر إلى ربهم، وكذلك قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾؛ أي: وفوا مقام الإحسان لهم ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ التي هي الجنة، ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] وهي النظر إلى وجه الله الكريم[1]، وكذلك قوله ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

اعلم أن أهل السنة والجماعة- وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان وأهل القرون المفضلة- متفقون على:

إثبات جميع ما ورد في الكتاب والسنة من صفات الله، لا فرق بين الذاتية منها كـ: «العلم» و«القدرة» و«الإرادة» و«الحياة» و«السمع» و«البصر» ونحوها، ولا بين الفعلية كـ «الرضا» و«الغضب» و«المحبة» و«الكراهية»، وكذلك لا فرق بين إثبات «الوجه» و«اليدين» ونحوها، وبين «الاستواء على العرش» والنزول إلى السماء الدنيا كل ليلة وغيرها، فكلها يثبتونها من غير نفي لشيء منها ولا تأويل ولا تحريف ولا تمثيل، وهذا هو الحق وهو الصراط المستقيم- وهو الطريق المنجي من عذاب الله- والهدى والنور.

وخالفهم في هذا الأصل طائفتان من أهل البدع:

إحداهما: «الجهمية» و«المعتزلة» على اختلاف طوائفهم، فإنهم نفوا جميع الصفات ولم يثبتوا إلا الأسماء والأحكام.

---

(١) مسلم (١٨١)، والترمذي (٢٥٥٢) من حديث صهيب رضي الله عنه.

والآيات السابقة كلها تنقض قولهم وتبطله ، وكذلك كلامهم هذا ينقض بعضه بعضًا ، فإن إثبات الأسماء والأحكام بلا أوصاف تقوم بالله محال عقلًا كما أنه باطل سمعًا .

الطائفة الثانية : « الأشعرية » ومن تبعهم ، وهم أخف حالًا وأهون من « المعتزلة » ؛ لأنهم وافقوا « أهل السنة » في شيء ، ووافقوا « المعتزلة » في شيء ؛ وافقوا « أهل السنة » في إثبات الصفات السبع ، وهي : « الحياة » و« الكلام » و« العلم » و« السمع » و« البصر » و« الإرادة » و« القدرة » ، ووافقوا « المعتزلة » في بقية الصفات .

والجميع محجوجون بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة والقرون المفضلة على الإثبات العام .

وأما النفي للصفات كلها أو التناقض ، فإنه مخالف للكتاب والسنة ومناف للعقل الصحيح ، فلا يثبت للعبد إيمان إلا بالإيمان المحض والتسليم لما جاء به الرسول بلا شرط ولا قيد ، والدوران مع النصوص الشرعية إثباتًا ونفيًا .

❁ قال الشيخ عبد العزيز بن محمد بن مانع ﷺ :

قوله : « ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ » :

* قال شيخ الإسلام بعد كلام سبق : « وهذا شأن جميع ما وصف الله به نفسه ، لو قال في قوله : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ كيف يسمع ؟ وكيف يرى ؟ لقلنا : السمع والرؤية معلوم ، والكيف مجهول ، ولو قال : كيف كلم موسى تكليمًا ؟ لقلنا : التكليم معلوم والكيف غير معلوم » . اهـ[1] .

قوله : « ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾ » :

* أي : الأخذ بالعقوبة ، وقال ابن عباس : « شديد الحول » . وقال مجاهد : « شديد القوة » .

قوله : « ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ » :

* قول بعض السلف في تفسير « المكر » : « يستدرجهم بالنعم إذا عصوه ويملي لهم ، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر » ، قال الحسن : « من وسع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأي له » . وقد جاء في الحديث : « إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب ، فإنما هو استدراج »[2] ، والله جل وعلا وصف نفسه بالمكر والكيد ، كما وصف عبده بهما ؛ لكن ليس المكر كالمكر ، ولا الكيد كالكيد ، ولله المثل الأعلى ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] .

---

(١) « مجموع الفتاوى » (١٣/٣١٠) .

(٢) أحمد (١٤٥/١) ، والطبراني (٣٣٠/٩١٣/١٧) ، والأوسط (٩٢٧٢) من حديث عقبة بن عامر ﷺ . ويُنظر : « السلسلة الصحيحة » للألباني (حديث رقم : ٤١٣) .

قوله : « ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ » :

* قال شيخ الإسلام : « قال أهل اللغة : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أي : نظيرًا استحق مثل اسمه ، ويقال : مساميًا يساميه ، وهذا معنى ما يروى عن ابن عباس ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ : مثيلًا أو شبيهًا » . اهـ . .

قوله : « ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ » :

« الاستواء » : هو العلو والارتفاع ، فهو سبحانه كما أخبر عن نفسه ، فوق مخلوقاته ، مستو على عرشه ، وقد عبر أهل السنة عن ذلك بأربع عبارات ، ومعناها واحد ، وقد ذكرها ابن القيم في « النونية » حيث قال :

فلهم عبارات عليها أربع ... قد حصلت للفارس الطعان
وهي استقر وقد علا وكذلك أر ... تفع الذي ما فيه من نكران
وكذاك قد صعد الذي هو رابع ... وأبو عبيدة صاحب الشيباني
يختار هذا القول في تفسيره ... أدرى من الجهمي بالقرآن
والأشعري يقول تفسير استوى ... بحقيقة استولى من البهتان

تنبيه :

وقع في بعض الكتب التي زعم مؤلفوها أنها على مذهب السلف عبارة باطلة ، وهي كما في رسالة « نجاة الخلف في اعتقاد السلف » قال : « فاللَّه تعالى كان ولا مكان ، ثم خلق المكان ، وهو على ما عليه كان قبل خلق المكان » . اهـ .

وهذا إنما يقوله من لم يؤمن باستواء الرب على عرشه من المعطلة ، والحق أن يقال : إن اللَّه تعالى كان وليس معه غيره ، ثم خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، وكان عرشه على الماء ، ثم استوى على العرش ، و« ثم » هنا للترتيب لا لمجرّد العطف ، قال ابن القيم في « النونية » :

واللَّه كَانَ وليس شَيء غَيره ... وبَرى البريَّة وهي ذو حدثان

وقال غيره :

قضى خلقه استوى فوق عرشه ... ومن علمه لم يخل في الأُرض موضع

قوله : « في سبعة مواضع » :

* وقد بينها ابن عدوان في نظمه لهذه العقيدة فقال :

وذكر استواء اللَّه في كلماته ... على العرش في سبع مواضع فاعدد
ففي سورة الأعراف ثمت يونس ... وفي الرعد مع طه فللعد أكد

وفي سورة الفرقان ثمت سجدة كذا في الحديد أفهمه فهم مؤيد

قوله : « ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ » :

* قال ابن رجب في شرح حديث جبريل : « وقد ثبت في « صحيح مسلم » عن النبي ﷺ تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه اللّٰه تعالى في الجنة »(١) . قال : « وهذا مناسب لجعله جزاء لأهل الإحسان ؛ لأن الإحسان هو أن يعبد المؤمن ربه في الدنيا على وجه الحضور والمراقبة كأنه يراه بقلبه ، وينظر إليه في حال عبادته فكان جزاؤه ذلك النظر إلى وجه اللّٰه عيانًا في الآخرة » . اهـ .

❁ قال الشيخ محمد خليل هراس رحمه الله :

قوله : « وقد دخَل في هذه الجملةِ ما وصَف اللّٰهُ به نفسَه في « سورةِ الإخلاصِ » التي تَعْدِلُ ثُلُثَ القرآنِ . حيثُ يقولُ : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ ... » :

شروع فى إيراد النصوص من الكتاب والسنة المتضمنة لما يجب الإيمان به من الأسماء والصفات فى النفى والإثبات .

وابتدأ بتلك السورة العظيمة لأنها اشتملت من ذلك على ما لم يشتمل عليه غيرها . ولهذا سميت سورة « الإخلاص » لتجريدها التوحيد من شوائب الشرك والوثنية .

روى الإمام أحمد فى « مسنده » عن أُبى بن كعب رضي الله عنه فى سبب نزولها أن المشركين قالوا : يا محمد ، انسب لنا ربك ، فأنزل اللّٰه تبارك وتعالى : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص : ١، ٢] إلخ السورة .

وقد ثبت فى الصحيح أنها تعدل ثلث القرآن . وقد اختلف العلماء فى تأويل ذلك على أقوال ، أقربها : ما نقله شيخ الإسلام عن أبى العباس ، وحاصله أن القرآن الكريم اشتمل على ثلاثة مقاصد أساسية :

أولها : الأوامر والنواهى المتضمنة للأحكام والشرائع العملية التى هى موضوع علم الفقه والأخلاق .

ثانيها : القصص والأخبار المتضمنة لأحوال الرسل عليهم الصلاة والسلام مع أممهم ، وأنواع الهلاك التى حاقت بالمكذبين لهم ، وأحوال الوعد والوعيد وتفاصيل الثواب والعقاب .

ثالثها : علم التوحيد وما يجب على العباد من معرفة اللّٰه بأسمائه وصفاته ، وهذا هو أشرف الثلاثة .

ولما كانت سورة « الإخلاص » قد تضمنت أصول هذا العلم ، واشتملت عليه إجمالًا ، صح أن يقال : إنها تعدل ثلث القرآن(٢) .

---

(١) مسلم (٢٩٧) (١٨١) من حديث صهيب رضي الله عنه .

(٢) قال الشيخ إسماعيل الأنصاري رحمه الله : نص عبارة شيخ الإسلام ابن تيمية التى ذكر المؤلف أن هذا حاصل ، قد قيل =

وأما كيف اشتملت هذه السورة على علوم التوحيد كلها وتضمنت الأصول التى هى مجامع التوحيد العلمى الاعتقادى؟ فنقول : إن قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ دلت على نفى الشريك من كل وجه فى الذات أو فى الصفات أو فى الأفعال ، كما دلت على تفرده سبحانه بالعظمة والكمال والمجد والجلال والكبرياء ، ولهذا لا يطلق لفظ أحد فى الإثبات إلا على اللَّه عزَّ وجلَّ ، وهو أبلغ من واحد .

وقوله : (اللَّه الصمد) : قد فسرها ابن عباس رضي الله عنهما بقوله : « السيد الذى كمل فى سؤدده ، والشريف الذى كمل فى شرفه ، والعظيم الذى قد كمل فى عظمته ، والحليم الذى قد كمل فى حلمه ، والغنى الذى قد كمل فى غناه ، والجبار الذى قد كمل فى جبروته ، والعليم الذى قد كمل فى علمه ، والحكيم الذى قد كمل فى حكمه ، وهو الذى قد كمل فى أنواع الشرف والسؤدد ، وهو اللَّه سبحانه وتعالى ، هذه صفته لا تنبغى إلا له ليس له كفؤ وليس كمثله شىء »[(١)] .

وقد فسر « الصمد » أيضًا بأنه الذى لا جوف له ، وبأنه الذى تصمد إليه الخليقة كلها وتقصده فى جميع حاجاتها ومهماتها .

فإثبات الأحدية للَّه تتضمن نفى المشاركة والمماثلة ، وإثبات الصمدية بكل معانيها المتقدمة تتضمن إثبات جميع تفاصيل الأسماء الحسنى والصفات العلى ، وهذا هو توحيد الإثبات .

وأما النوع الثاني وهو توحيد التنزيه فيؤخذ من قوله تعالى : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص : ٣، ٤] ، كما يؤخذ إجمالًا من قوله : ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ . أى : لم يتفرع عنه شىء ولم يتفرع هو عن شىء ، وليس له مكافئ ولا مماثل ولا نظير .

فانظر كيف تضمنت هذه السورة توحيد الاعتقاد والمعرفة وما يجب إثباته للرب تعالى من الأحدية المنافية لمطلق المشاركة والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال الذى لا يلحقه نقص بوجه من الوجوه ، ونفى الولد والوالد الذى هو من لوازم غناه وصمديته وأحديته ، ثم نفى الكفء المتضمن لنفى

= فيه – أى فى توجيه كون سورة « قل هو اللَّه أحد » تعدل ثلث القرآن – وجوه أحسنها ، واللَّه أعلم ، الجواب منقول عن الإمام أبى العباس بن سريج عن أبى الوليد القرشى أنه سأل أبا العباس بن سريج عن معنى قول النبى ﷺ : « قل هو اللَّه أحد ، تعدل ثلث القرآن » ؟ فقال : معناه أنزل القرآن على ثلاثة أقسام ؛ ثلث منها الأحكام ، وثلث منها وعد ووعيد ، وثلث منها الأسماء والصفات ، وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات . أهـ .

(١) قال الشيخ إسماعيل الأنصاري رحمه الله : تمام قول ابن عباس عند ابن كثير : « سبحان اللَّه الواحد القهار » ، وليس فيما ذكره ابن كثير قوله : « الغنى الذى قد كمل فى غناه والجبار قد كمل فى جبروته » ، وعند ابن كثير لفظ « قد » قبل لفظ « كمل » فى جميع المواضع التى ورد فيها لفظ « كمل » فى قول ابن عباس .

التشبيه والتمثيل والنظير ، فحق لسورة تضمنت هذه المعارف كلها أن تعدل ثلث القرآن .

قوله : « وما وصف به نفسه في أعظم آية من كتابه ؛ حيث يقول : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ... ﴾ :

روى مسلم فى « صحيحه » عن أُبى بن كعب أن النبى ﷺ سأله : « أى آية فى كتاب اللّٰه أعظم ؟ » قال : اللّٰه ورسوله أعلم . فرددها مرارًا ، ثم قال أُبى : آية الكرسى . فوضع النبى ﷺ يده على كتفه وقال : « ليهنك هذا العلم يا أبا المنذر » . وفى رواية عند أحمد : « والذى نفسى بيده ، إن لها لسانًا وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش » .

فقد أخبر اللّٰه فيها عن نفسه بأنه المتوحد فى إِلَٰهِيَّتِهِ الذى لا تنبغى العبادة بجميع أنواعها وسائر صورها إلَّا له .

ثم أردف قضية التوحيد بما يشهد لها من ذكر خصائصه وصفاته الكاملة ، فذكر أنه الحى الذى له كمال الحياء ؛ لأن حياته من لوازم ذاته فهى أزلية أبدية ، وكمال حياته يستلزم ثبوت جميع صفات الكمال الذاتية له من العزة والقدرة والعلم والحكمة والسمع والبصر والإرادة والمشيئة وغيرها ؛ إذ لا يتخلف شىء منها إلا لنقص فى الحياة . فالكمال فى الحياة يتبعه الكمال فى سائر الصفات اللازمة للحى .

ثم قرن ذلك باسمه القيوم ومعناه : الذى قام بنفسه واستغنى عن جميع خلقه غنى مطلقًا لا تشوبه شائبة حاجة أصلًا لأنه غنّى ذاتى ، وبه قامت الموجودات كلها ، فهى فقيرة إليه فقرًا ذاتيًا بحيث لا تستغنى عنه لحظة ، فهو الذى ابتدأ إيجادها على هذا النحو من الإحكام والإتقان وهو الذى يدبر أمورها ويمدها بكل ما تحتاج إليه فى بقائها ، وفى بلوغ الكمال الذى قدره لها ، فهذا الاسم متضمن لجميع صفات الكمال الفعلية ، كما أن اسمه الحى متضمن لجميع صفات الكمال الذاتية ؛ ولهذا ورد أن « الحى القيوم » هما اسم اللّٰه الأعظم الذى إذا سُئل به أعطى ، وإذا دعى به أجاب .

ثم أعقب ذلك بما يدل على كمال حياته وقيُّوميتهِ ، فقال : ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ﴾ أى لا تغلبه ﴿سِنَةٌ﴾ أى نعاس ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ ، فإن ذلك ينافى القيُّومية ، إذ النوم أخو الموت ، ولهذا كان أهل الجنة لا ينامون .

ثم أردف ذلك بما يدل على تمام ملكه ، وهو أن الشفاعة كلها له فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه .

وقد تضمن هذا النفى والاستثناء أمرين ؛ أحدهما : إثبات الشفاعة الصحيحة ، وهى أنها تقع بإذنه سبحانه لمن يرضى قوله وعمله . والثانى : إبطال الشفاعة الشركية التى كان يعتقدها المشركين لأصنامهم وهى أنها تشفع لهم بغير إذن اللّٰه ورضاه .

ثم ذكر سعة علمه وإحاطته وأنه لا يخفى عليه شىء من الأمور المستقبلة والماضية ، وأما الخلق

فإنهم لا يحيطون بشيء من علمه ، قيل : يعني من معلومه ، وقيل : من علم أسمائه وصفاته إلا بما شاء اللَّه سبحانه أن يعلمهم إياه على السنة رسله أو بغير ذلك من طريق البحث والنظر والاستنتاج والتجربة .

ثم ذكر ما يدل على عظيم ملكه وواسع سلطانه ، فأخبر أن كرسيه قد وسع السماوات والأرض جميعًا . والصحيح في الكرسي أنه غير العرش وأنه موضع القدمين ، وأنه في العرش كحلقة ملقاة في فلاةٍ .

وأما ما أورده ابن كثير عن ابن عباس من تفسير الكرسي بالعلم فإنه لا يصح[1] ويفضي إلى التكرار في الآية .

ثم أخبر سبحانه بعد ذلك عن عظيم قدرته وكمال قوته بقوله : ﴿ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾ أي : السماوات والأرض وما فيهما . وفسر الشيخ رحمه الله ﴿ يَئُودُهُ ﴾ : (يثقله) ويكرثه ، وهو من آده الأمر إذا ثقل عليه .

ثم وصف نفسه سبحانه في ختام تلك الآية الكريمة ، بهذين الوصفين الجليلين ، وهما (العلي والعظيم) .

فالعلي هو الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه ؛ علو الذات : وكونه فوق جميع المخلوقات مستويًا على عرشه .

وعلو القدر : إذ كان له كل صفة كمال ، وله من تلك الصفة أعلاها وغايتها .

وعلو القهر : إذ كان هو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ، وأما العظيم : فمعناه الموصوف بالعظمة الذي لا شيء أعظم منه ، ولا أجل ولا أكبر ، وله سبحانه التعظيم الكامل في قلوب أنبيائه وملائكته وأصفيائه .

قوله : (هو الأول والآخر والظاهر ...) الجملة هنا جاءت معرفة الطرفين ، فهي تفيد اختصاصه سبحانه بهذه الأسماء الأربعة ومعانيها على ما يليق بجلاله وعظمته ، فلا يثبت لغيره من ذلك شيء .

وقد اضطربت عبارات المتكلمين في تفسير هذه الأسماء ، ولا داعي لهذه التفسيرات بعدما ورد تفسيرها عن المعصوم صلوات اللَّه وسلامه عليه ، فقد روى مسلم في « صحيحه » عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه كان يقول : إذا أوى إلى فراشه : « اللهم رب السماوات السبع ورب الأرض

---

(١) قال الشيخ إسماعيل الأنصاري رحمه الله :

لأنه من رواية جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وقد قال ابن منده في جعفر : هذا ليس بالقوي في سعيد بن جبير ، وقال في روايته لهذا الأثر : لم يتابع عليها ، أفاد ذلك الحافظ الذهبي من ترجمة جعفر المذكور من « الميزان » . اهـ .

رب كل شيء ، فالق الحب والنوى ، منزل التوارة والإنجيل والقرآن ، أعوذ بك من شر كل ذى شر أنت آخذ بناصيته ، أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عني الدين واغنني من الفقر » .

فهذا تفسير واضح جامع يدل على كمال عظمته سبحانه وأنه محيط بالأشياء من كل وجه ، (فالأول والآخر) بيان لإحاطته الزمانيةَ .

(والظاهر والباطن) بيان لإحاطته المكانية ، كما أن اسمه الظاهر يدل على أنه العالى فوق جميع خلقه ، فلا شيء منها فوقه .

فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة ، فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر ، وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن ، فاسمه الأول دال على قدمه وأزليته ، واسمه الآخر دال على بقائه وأبديته ، واسمه الظاهر دال على علوه وعظمته ، واسمه الباطن دال على قربه ومعيته ، ثم ختمت الآية بما يفيد إحاطة علمه بكل شيء من الأمور الماضية والحاضرة والمستقبلة ، ومن العلوم العلوى والسفلى ، ومن الواجبات والجائزات والمستحيلات فلا يغيب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء . فالآية كلها شأن إحاطة الرب سبحانه بجميع خلقه من كل وجه ، وأن العوالم كلها فى قبضة يده كخردلة في يد العبد لا يفوته منها شيء ، وإنما أتى بين هذه الصفات بالواو مع أنها جارية على موصوف واحد لزيادة التقرير والتأكيد ؛ لأن الواو تقتضى تحقيق الوصف المتقدم وتقريره وحسن ذلك لمجيئها بين أوصاف متقابلة قد يسبق إلى الوهم استبعاد الاتصال بها جميعًا ، فإن الأولية تنافى الآخرية فى الظاهر ، وكذلك الظاهرية والباطنية ، فاندفع توهم الإنكار التأكيد .

قوله : (وتوكل على الحي الذي لا يموت . . . إلخ) : هذه الجملة من الآيات ساقها المؤلف لإثبات بعض الأسماء والصفات ، فالآية الأولى فيها إثبات اسمه الحى ، كما تضمنت سلب الموت الذى هو ضد الحياة عنه ، وقد قدمنا أنه سبحانه حي بحياة هى صفة له لازمة لذاته فلا يعرض لها موت ولا زوال أصلًا ، وأن حياته أكمل حياة وأتمها فيستلزم ثبوتها له ثبوت كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة . وأما الآيات الباقية ففيها إثبات صفة العلم وما اشتق منها ككونه عليمًا ويعلم وأحاط بكل شيء علمًا إلخ . والعلم صفة للّٰه ﷻ بها يدرك جميع المعلومات على ما هى به فلا يخفى عليه منها شيء كما قدمنا .

وفيها إثبات اسمه « الحكيم » ، وهو مأخوذ من الحكمة ، ومعناه : الذى لا يقول ولا يفعل إلا الصواب ، فلا يقع منه عبث ولا باطل ، بل كل ما يخلقه أو يأمر به فهو تابع لحكمته .

وقيل : هو من فعيل بمعنى مفعل ، ومعناه المحكم للأشياء من الإحكام وهو الإتقان ، فلا يقع فى

خلقه تفاوت ولا فطور ، ولا يقع فى تدبيره خلل أو اضطراب .

وفيها كذلك إثبات اسمه الخبير ، وهو من الخبرة بمعنى كمال العلم ووثوقه والإحاطة بالأشياء على وجه التفصيل ووصول علمه إلى كل ما خفى ودق من الحسّيات والمعنويات .

وقد ذكر سبحانه في هذه الآيات بعض ما يتعلق به علمه للدلالة على شموله وإحاطته بما لا تبلغه علوم خلقه ، فذكر أنه يعلم ما يلج أى يدخل فى الأرض من حب وبذور ومياه وحشرات ومعادن ، وما يخرج منها من زرع وأشجار وعيون جارية ومعادن نافعة ، كذلك وما ينزل من السماء ، من ثلوج وأمطار وصواعق وملائكة ، وما يعرج ، أى : يصعد فيها كذلك من ملائكة وأعمال وطير صواف إلى غير ذلك مما يعلمه جل شأنه .

وذكر فيها أيضًا أن عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ومفاتح الغيب قيل : خزائنه . وقيل : طرقه وأسبابه التى يتوصل بها إليه ، جمع مِفْتَح بكسر الميم أو مِفْتاح بحذف ياء مفاعيل .

وقد فسرها النبى ﷺ بقوله : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا اللَّه » .

ثم تلا قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان : ٣٤] .

وقد دلت الآيتان الأخيرتان على أنه سبحانه عالم بعلم هو صفة له قائم بذاته خلافًا للمعتزلة الذين نفوا صفاته ، فمنهم من قال : إنه عالم بذاته وقادر بذاته إلخ . ومنهم من فسّر أسماءه بمعانٍ سلبية ، فقال : عليم معناه لا يجهل ، وقادر معناه لا يعرج . إلخ .

وهذه الآيات حجة عليهم ، فقد أخبر فيها سبحانه عن إحاطة علمه بحمل كل أنثى ووضعها من حيث المَتَى والكيف كما أخبر عن عموم قدرته وتعلقها بكل ممكن وعن إحاطة علمه بجميع الأشياء ، وما أحسن ما قاله الإمام عبد العزيز المكى فى كتابه « الحيدة » لبشر المريسى المعتزلى وهو يناظره فى مسألة العلم : « إن اللَّه ﷻ لم يمدح كتابه ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا ولا مؤمنًا تقيًا بنفى الجهل عنه ليدل على إثبات العلم له ، وإنما مدحهم بإثبات العلم ، فنفى بذلك الجهل عنهم ، فمن أثبت العلم نفى الجهل ، ومن نفى الجهل لم يثبت العلم » .

والدليل العقلى على علمه تعالى أنه يستحيل إيجاده الأشياء مع الجهل ؛ لأن إيجاده الأشياء بإرادته ، والإرادة تستلزم العلم المراد ، ولهذا قال سبحانه : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك : ١٤] .

ولأن المخلوقات فيها من الإحكام والإتقان وعجيب الصنعة ودقيق الخلقة ما يشهد بعلم الفاعل لها لامتناع صدور ذلك عن غير علم ولأن من المخلوقات من هو عالم والعلم صفة كمال ، فلو لم يكن

الله عالمًا لكان فى المخلوقات من هو أكمل منه .

وكل علم فى المخلوق إنما استفاده من خالقه ، وواهب الكمال أحق به ، وفاقد الشىء لا يعطيه .
وأنكر الفلاسفة علمه تعالى بالجزئيات وقالوا : إنه يعلم الأشياء على وجه كلى ثابت . وحقيقة قولهم : إنه لا يعلم شيئًا ، فإن كل ما فى الخارج هو جزئى . كما أنكر الغلاة من القدرية علمه تعالى بأفعال العباد حتى يعملوها ، توهمًا منهم أن علمه بها يفضى إلى الجبر ، وقولهم معلوم البطلان بالضرورة فى جميع الأديان .

قوله : (إن الله هو الرزاق .. إلخ) : تضمنت إثبات اسمه الرَّزَّاق ، وهو مبالغة من الرزق ، ومعناه : الذى يرزق عباده رزقًا بعد رزق فى إكثار وسعة ، وكل ما وصل منه سبحانه من نفع إلى عباده فهو رزق ، مباحًا كان أو غير مباح ، على معنى أنه قد جعل لهم قوتًا ومعاشًا ، قال تعالى : ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ﴾ [ق : ٩، ١٠] ، وقال : ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات : ٢٢] ، إلا أن الشىء إذا كان مأذونًا فى تناوله فهو حلال حكمًا ، وإلا كان حرامًا ، وجميع ذلك رزق ، وتعريف الجملة الاسمية والإتيان فيها بضمير الفصل لإفادة اختصاصه سبحانه بإيصال الرزق إلى عباده .

ورُوى عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : اقرأنى رسول الله ﷺ : « إنى أنا الرزاق ذو القوة المتين » .

وأما قوله : ﴿ذُو ٱلۡقُوَّةِ﴾ أى : صاحب القوة ، فهو بمعنى اسمه القوى إلا أنه أبلغ فى المعنى ، فهو يدل على أن قوته سبحانه لا تتناقص فيهن أو يفتر .

وأما ﴿ٱلۡمَتِينُ﴾ فهو اسم له من المتانة ، وقد فسره ابن عباس بـ : « الشديد » .

وقوله : ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ ... إلخ : دلَّ إثبات صفتى السمع والبصر له سبحانه بعد نفى المثل عنه على أنه ليس المراد من نفى المثل نفى الصفات كما يدعى ذلك المعطلة ويحتجون به باطلًا ، بل المراد إثبات الصفات مع نفى مماثلتها لصفات المخلوقين .

قال العلَّامة ابن القيم رحمه الله : قوله : ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ إنما قصد به نفى أن يكون معه شريك أو معبود يستحق العبادة والتعظيم كما يفعله المشبهون والمشركون ، ولم يقصد به نفى صفات كماله وعلوه على خلقه وتكليمه بكتبه وتكلمه لرسله ورؤية المؤمنين له جهرة بأبصارهم كما ترى الشمس والقمر فى الصحو . أهـ .

ومعنى « السميع » : المدرك لجميع الأصوات مهما خفتت ، فهو يسمع السر والنجوى بسمع هو صفة لا يماثل أسماع خلقه .

ومعنى « البصير » : المدرك لجميع المرئيات من الأشخاص والألوان مهما لطفت أو بعدت ، فلا تؤثر على رؤيته الحواجز والأستار ، و(هو) من فعيل بمعنى مفعل ، وهو دال على ثبوت صفة البصر له

سبحانه على الوجه الذى يليق به .

روى أبو داود فى « سننه » عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ فوضع إبهامه على أذنه والتى تليه على عينيه .

ومعنى الحديث : أنه سبحانه يسمع بسمع ، ويرى بعين ، فهو حجة على بعض الأشاعرة الذين يجعلون سمعه علمه بالمسموعات ، وبصره علمه بالمبصرات ، وهو تفسير خاطئ ، فإن الأعمى يعلم بوجود السماء ولا يراها ، والأصم يعلم بوجود الأصوات ولا يسمعها .

قوله : ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ﴾ إلخ : هذه الآيات دلت على إثبات صفتى الإرادة والمشيئة ، والنصوص فى ذلك لا تحصى كثرة .

والأشاعرة يثبتون إرادة واحدة قديمة تعلقت فى الأزل بكل المرادات فيلزمهم تخلف المراد عن الإرادة ، وأما المعتزلة فعلى مذهبهم فى نفى الصفات لا يثبتون فى صفة الإرادة ، ويقولون : إنه يريد بإرادة حادثة لا فى محل ، فيلزمهم قيام الصفة بنفسها وهو من أبطل الباطل .

وأما أهل الحق فيقولون : إن الإرادة على نوعين :

١ – إرادة كونية ترادفها المشيئة ، وهما تتعلقان بكل ما يشاء اللّه فعله وإحداثه ، فهو سبحانه إذا أراد شيئًا وشاءه كان عقب إرادته له كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس : ٨٢] .

وفى الحديث الصحيح : « ما شاء اللّه كان ، وما لم يشأ لم يكن » .

٢ – إرادة شرعية تتعلق بما يأمر اللّه به عباده مما يحبه ويرضاه ، وهى المذكورة فى مثل قوله تعالى : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، ولا تلازم بين الإرادتين ، بل قد تتعلق كل منهما بما لا تتعلق به الأخرى ، فبينهما عموم وخصوص من وجه . فالإرادة الكونية أعم من جهة تعلقها بما لا يحبه اللّه ويرضاه من الكفر والمعاصى ، وأخص من جهة أنها لا تتعلق بمثل إيمان الكافر وطاعة الفاسق .

والإرادة الشرعية أعم من جهة تعلقها بكل مأمور به واقعًا كان أو غير واقع ، وأخص من جهة أن الواقع بالإرادة الكونية قد يكون غير مأمور به .

والحاصل : أن الإرادتين قد تجتمعان معًا فى مثل إيمان المؤمن وطاعة المطيع ، وتنفرد الكونية فى مثل كفر الكافر ومعصية العاصى ، وتنفرد الشرعية فى مثل إيمان الكافر وطاعة العاصى .

وقوله تعالى : ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ الآية ، هذا من قول اللّه حكاية عن الرجل المؤمن لزميله الكافر صاحب الجنتين يعظه به أن يشكر نعمة اللّه عليه ويردها إلى مشيئة اللّه ويبرأ من حوله

وقوته فإنه لا قوة إلا بالله .

وقوله : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ الآية ، إخبار عما وقع بين أتباع الرسل من بعدهم من التنازع والتعادى بغيًا بينهم وحسدًا ، وأن ذلك إنما كان بمشيئة الله ﷻ ، ولو شاء عدم حصوله ما حصل ولكنه شاءه فوقع .

وقوله : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ إلخ : تدل على أن كلًّا من الهداية والضلال بخلق الله ﷻ ، فمن يرد هدايته ، أى إلهامه وتوفيقه يشرح صدره للإسلام بأن يقذف فى قلبه نورًا فيتسع له وينبسط كما ورد فى الحديث – ومن يرد إضلاله وخِذلانه يجعل صدره فى غايةِ الضِّيق والحرج ، فلا ينفذ إليه نور الإيمان . وشبه ذلك بمن يَصَّعَدُ فى السماء .

قوله : ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة : ١٩٥] ، ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات : ٩] :

تضمنت هذه الآيات إثبات أفعال له تعالى ناشئة عن صفة المحبة ومحبة الله ﷻ لبعض الأشخاص والأعمال والأخلاق صفة له قائمة به ، هى من صفات الفعل الاختيارية التى تتعلق بمشيئته . فهو يحب بعض الأشياء دون بعض على ما تقتضيه الحكمة البالغة ، وينفى الأشاعرة والمعتزلة صفة المحبة بدعوى أنها توهم نقصًا ، إذ المحبة فى المخلوق معناها ميله إلى ما يناسبه أو يستلذه ، فأما الأشاعرة فيرجعونها إلى صفة الإرادة ، فيقولون : إن محبة الله لعبده لا معنى لها إلا إرادته لإكرامه ومثوبته .

وكذلك يقولون فى صفات الرضى والغضب والكراهية والسخط كلها عندهم بمعنى إرادة الثواب والعقاب .

وأما المعتزلة فلأنهم لا يثبتون إرادة قائمة به ، فيفسرون المحبة بأنها نفس الثواب الواجب عندهم على الله لهؤلاء بناءً على مذهبهم فى وجوب إثابة المطيع وعقاب العاصى .

وأما أهل الحق فيثبتون المحبة صفة حقيقية لله ﷻ على ما يليق به فلا تقتضى عندهم نقصًا ولا تشبيهًا . كما يثبتون لازم تلك المحبة وهى إرادته سبحانه إكرام من يحبه وإثابته ، وليت شعرى ، بماذا يجيب النافون للمحبة عن مثل قوله عليه السلام فى حديث أبى هريرة : « إن الله ﷻ إذا أحب عبدًا قال لجبريل عليه السلام : إنى أحب فلانًا فأحبه . قال : فيقول جبريل عليه السلام لأهل السماء : إن ربكم ﷻ يحب فلانًا فأحبوه . قال : فيحبه أهل السماء ويوضع له القبول فى الأرض ، وإذا أبغضه فمثل ذلك » . رواه الشيخان .

وقوله تعالى فى الآية الأولى : ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟﴾ أمرٌ بالإحسان العام فى كل شىء ، لا سيما فى أمور الفقه المأمور بها قبل ذلك ، والإحسان فيها يكون بالبذل وعدم الإمساك ، أو بالتوسط بين التقتير والتبذير ،

وهو القوام الذى أمر اللّه به فى سورة « الفرقان » .

روى مسلم فى « صحيحه » عن شداد بن أوس أن رسول اللّه ﷺ قال : « إن اللّه كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته » . وأما قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فهو تعليل للأمر بالإحسان ؛ فإنهم إذا علموا أن الإحسان موجب لمحبته سارعوا إلى امتثال الأمر به .

وأما قوله فى الآية الثانية : ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟﴾ فهو أمر بالإقساط ، وهو العدل فى الحكم بين الطائفتين المتنازعتين من المؤمنين ، وهو من قسط إذ جار ، فالهمزة فيه للسلب ، ومن أسمائه تعالى « المقسط » ، وفى الآية الحث على العدل وفضله ، وأنه سبب لمحبة اللّه ﷻ .

وأما قوله تعالى : ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ . فمعناه : إذا كان بينكم وبين أحد عهد كهؤلاء الذين عاهدتموهم عند المسجد الحرام فاستقيموا لهم على عهدهم مدةَ استقامتهم لكم . فـ « ما » هنا مصدرية ظرفية ، ثم علل ذلك الأمر بقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ . أى : يحب الذين يتقون اللّه فى كل شيء ، ومنه عدم نقض العهود .

وأما قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ إلخ : فهو إخبار من اللّه سبحانه عن محبته لهذين الصِّنفين من عباده .

أما الأول : فهم التوابون : أى الذين يكثرون التوبة والرجوع إلى اللّه ﷻ بالاستغفار مما ألموا به على ما تقتضيه صيغة المبالغة ، فهم بكثرة التوبة قد تطهروا من الأقذار والنجاسات المعنوية التى هى الذنوب والمعاصى .

وأما الثانى : فهم المتطهرون الذين يبالغون فى التطهر ، وهو التنظيف بالوضوء أو بالغسل من الأحداث والنجاسات الحسية .

وقيل : المراد بالمتطهرين هنا الذين يتنزهون عن إتيان النساء فى زمن الحيض أو فى أدبارهن ، والحمل على العموم أَوْلى .

وأما قوله تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ . فقد رُوى عن الحسن فى سبب نزولها ؛ أن قومًا ادعوا أنهم يحبون اللّه ، فأنزل اللّه هذه الآية محنة لهم ، وفى هذه الآية قد شرط اللّه لمحبته اتباع نبيه ﷺ ، فلا ينال تلك المحبة إلا من أحسن الاتباع ، والاستمساك بهَديه عليه السلام .

قوله : ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ إلخ : تضمنت الآية إثبات اسمين من الأسماء الحسنى ، وهما « الغفور الودود » ، أما الأول فهو مبالغة الغفر ، ومعناه : الذى يكثر منه الستر على المذنبين من عباده والتجاوز عن مؤاخذتهم .

وأصل الغفر الستر ، ومنه يقال : الصبغ أغفر للوسخ . ومنه المغفر لسترة الرأس .

وأما الثانى فهو من الود الذى هو خالص الحب وألطفه ، وهو إما من فعول بمعنى فاعل ، فيكون معناه : الكثير الود لأهل طاعته والمتقرب إليهم بنصرته ومعونته .

وأما من فعول بمعنى مفعول فيكون معناه : المودود لكثرة إحسانه المستحق لأن يوده خلقه فيعبدوه ويحمدوه .

وأما قوله : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وما بعدها من الآيات فقد تضمنت إثبات أسمائه الرحمن والرحيم وإثبات صفتى الرحمة والعلم .

وقد تقدم فى تفسير ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ الكلام على هذين الاسمين وبيان الفرق بينهما ، وأن أولهما دال على صفة الذات ، والثانى دال على صفة الفعل ، وقد أنكر الأشاعرة والمعتزلة صفة الرحمة بدعوى أنها فى المخلوق ضعف وخور وتألم للمرحوم ، وهذا من أقبح الجهل فإن الرحمة إنما تكون من الأقوياء للضعفاء ، فلا تستلزم ضعفًا ولا خورًا بل قد تكون مع غاية العزة والقدرة ، فالإنسان القوى يرحم ولده الصغير وأبويه الكبيرين ومن هو أضعف منه ، وأين الضعف والخور وهما من أذم الصفات من الرحمة التى وصف الله نفسه بها وأثنى على أوليائه المتصفين بها وأمرهم أن يتواصوا بها .

وقوله : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ﴾ إلخ : من كلام الله ﷻ حكاية عن حملة العرش والذين حوله ، يتوسلون إلى الله ﷻ بربوبيته وسعة علمه ورحمته فى دعائهم للمؤمنين ، وهو من أحسن التوسلات التى يرجى معها الإجابة .

وانْصَبُ قوله : ﴿رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ على التمييز المحول من الفاعل ، والتقدير : وسعت رحمتك وعلمك كل شيء . فرحمته سبحانه وسعت فى الدنيا المؤمن والكافر والبر والفاجر ، ولكنها يوم القيامة تكون خاصة بالمتقين كما قال تعالى : ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾أى : أوجبها على نفسه تفضلًا وإحسانًا ولم يوجبها عليه أحد .

وفى حديث أبى هريرة فى « الصحيحين » : « إن الله لمّا خلق الخلق ، كتب كتابًا فهو عنده فوق العرش ؛ إن رحمتى سبقت – أو تسبق – غضبي » .

وأما قوله : ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ . فالحافظ والحفيظ مأخوذ من الحفظ وهو الصيانة ، ومعناه الذى يحفظ عباده بالحفظ العام فييسر لهم أقواتهم ويقيهم أسباب الهلاك والعطب ، وكذلك يحفظ عليهم أعمالهم ويحصى أقوالهم ويحفظ أولياءه بالحفظ الخاص فيعصمهم عن مواقَعةِ الذنوب

ويحرسهم من مكايد الشيطان وعن كل ما يضرهم في دينهم ودنياهم ، وانتصب « حافظًا » تمييزًا « لخير » الذى هو أفعل تفضيل .

قوله : ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ إلخ : تضمنت هذه الآيات إثبات بعض صفات الفعل من الرضى لله الغضب ، واللعن والكره ، والسخط والمقت والأسف .

وهى عند أهل الحق صفات حقيقة لله ﷻ على ما يليق به ولا تشبه ما يتصف به المخلوق من ذلك ، ولا يلزم منها ما يلزم في المخلوق ، فلا حجة للأشاعرة والمعتزلة على نفيها ولكنهم ظنوا أن اتصاف الله ﷻ بها يلزمه أن تكون هذه الصفات فيه على نحو ما هى فى المخلوق ، وهذا الظن الذى ظنوه فى ربهم أرداهم فأوقعهم فى حمأة النفى والتعطيل ، والأشاعرة يرجعون هذه الصفات كلها إلى الإرادة كما علمت سابقًا ، فالرضا عندهم إرادة الثواب والغضب والسخط إلخ إرادة العقاب .

وأما المعتزلة فيرجعونها إلى نفس الثواب والعقاب .

وقوله سبحانه : ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ . إخبار عما يكون بينه وبين أوليائه من تبادل الرضا والمحبة ، أما رضاه عنهم فهو أعظم وأجل من كل ما أعطوا من النعيم كما قال سبحانه : ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ، وأما رضاهم عنه فهو رضا كل منهم بمنزلته مهما كانت وسروره بها حتى يظن أنه لم يؤت أحد خيرًا مما أوتى ، وذلك فى الجنة .

وأما قوله : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ الآية ، فقد احترز بقوله مؤمنًا عن قتل الكافر ، وبقوله معتمدًا ، أى : قاصدًا لذلك (بأن يقصد من يعلمه آدميًا معصومًا فيقتله بما يغلب على الظن موته به) عن القتل الخطأ .

وقوله : ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ أى : مقيمًا على جهة التأبيد ، وقيل : الخلود المكث الطويل واللعن : هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله ، واللعين والملعون من حقت عليه اللعنة أو دعى عليه بها .

وقد استشكل العلماء هذه الآيات من حيث أنها تدل على أن القاتل عمدًا لا توبة له وأنه مخلد فى النار ، وهذا معارض لقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ .

وقد أجابوا عن ذلك بعدة أجوبة منها :

١- أن الجزاء لمن كان مستحلًا لقتل المؤمن عمدًا .

٢- أن هذا جزاؤه الذى يستحقه لو جوزى مع إمكان ألا يجازى بأن يتوب أو يعمل صالحًا يرجح بعمله السيئ .

٣- أن الآية واردة مورد التغليظ والزجر .

٤- أن المراد بالخلود المكث الطويل كما قدمنا .

وقد ذهب ابن عباس وجماعة إلى أن القاتل عمدًا لا توبة له حتى قال ابن عباس : إن هذه الآية من آخر ما نزل ولم ينسخها شيء ، والصحيح أن على القاتل حقوقًا ثلاثة : حقًّا لله وحقًّا للورثة وحقًّا للقتيل ، فحق الله يسقط بالتوبة ، وحق الورثة يسقط بالاستيفاء في الدنيا أو العفو ، وأما حق القتيل فلا يسقط حتى يجتمع بقاتله يوم القيامة ، ويأتي ورأسه في يده ويقول : يا رب ، سل هذا فيم قتلني ؟

وأما قوله : ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ إلخ : فالأسف يستعمل بمعنى شدة الحزن وبمعنى شدة الغضب والسخط وهو المراد في الآية والانتقام والمجازاة بالعقوبة مأخوذًا من النقمة وهي شدة الكراهة والسخط .

قوله : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ ... إلخ : في هذه الآيات إثبات صفتين من صفات الفعل له سبحانه وهما صفتا الإتيان والمجيء ، والذي عليه أهل السنة والجماعة الإيمان بذلك على حقيقته والابتعاد عن التأويل الذي هو في الحقيقة إلحاد وتعطيل .

ولعل من المناسب أن ننقل إلى القارئ هنا ما كتبه حامل لواء التجهم والتعطيل في هذا العصر وهو المدعو بزاهد الكوثري قال في حاشيته على كتاب « الأسماء والصفات » للبيهقي ما نصه : (قال الزمخشري ما معناه : إن الله يأتي بعذاب في الغمام الذي ينتظر منه الرحمة ، فيكون مجيء العذاب من حيث تنتظر الرحمة أفظع وأهول) . وقال إمام الحرمين في معنى الباء كما سبق ، وقال الفخر الرازي : أن يأتيهم أمر الله . أهـ .

فأنت ترى من نقل هذا الرجل عن أسلافه في التعطيل مدى اضطرابهم في التخريج والتأويل .

على أن الآيات صريحة في بابها لا تقبل شيئًا من تلك التأويلات ، فالآية الأولى تتوعد هؤلاء المصرين على كفرهم وعنادهم واتباعهم الشيطان بأنهم ما ينتظرون إلا أن يأتيهم الله ﷻ في ظلل الغمام لفصل القضاء بينهم ، وذلك يوم القيامة ، ولهذا قال بعد ذلك : ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ .

والآية الثانية أشد صراحة إذ لا يمكن تأويل الإتيان فيها بأنه إتيان الأمر أو العذاب ؛ لأنه ردد فيها بين إتيان الملائكة وإتيان الرب وإتيان بعض آيات الرب سبحانه[1] .

وقوله في الآية التي بعدها : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] ، لا يمكن حملها على مجيء العذاب ؛ لأن المراد مجيئه سبحانه يوم القيامة لفصل القضاء ، والملائكة صفوف إجلالًا

---

(١) قال الشيخ إسماعيل الأنصاري رحمه الله :

قال ابن القيم في « الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة » : فرق بين إتيان الملائكة وإتيان الرب وإتيان بعض آيات الرب ، فقسم ونوع ، ومع هذا التقسيم يمتنع أن القسمان واحدًا ، فتأمله ، قال : ولهذا منع عقلاء الفلاسفة حمل مثل هذا اللفظ على مجازه ، وقالوا : هذا يأباه التقسيم والترديد والاطراد . أهـ . المراد من كلام ابن القيم .

وتعظيمًا له ، وعند مجيئه تنشق السماء بالغمام كما أفادته الآية الأخيرة ، وهو سبحانه يجيء وينزل ويأتي ويدنو وهو فوق عرشه بائن من خلقه ، فهذه كلها أفعال له سبحانه على الحقيقة ، ودعوى المجاز تعطيل له عن فعله واعتقاد أن ذلك المجيء والإتيان من جنس مجيء المخلوقين وإتيانهم نزوع إلى التشبيه يفضي إلى الإنكار والتعطيل .

قوله : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ إلخ : تضمنت هاتان الآيتان إثبات صفة الوجه للّه ﷻ .

والنصوص في إثبات الوجه من الكتاب والسنة لا تحصى كثرة وكلها تنفي تأويل المعطلة الذين يفسرون الوجه بالجهة أو الثواب أو الذات ، والذي عليه أهل الحق أن الوجه صفة غير الذات ولا يقتضي إثبات كونها تعالى مركبًا من أعضاء كما يقوله المجسمة ، بل هو صفة للّه على ما يليق به فلا يشبه وجهًا ولا يشبهه وجه .

واستدل المعطلة بهاتين الآيتين على أن المراد بالوجه الذات إذ لا خصوص للوجه في البقاء وعدم الهلاك .

ونحن نعارض هذا الاستدلال بأنه لو لم يكن للّه ﷻ وجه على الحقيقة لما جاز استعمال هذا اللفظ في معنى الذات ، فإن اللفظ الموضوع لمعنى لا يمكن أن يستعمل في معنى آخر إلا إذا كان المعنى الأصلي ثابتًا للموصوف حتى يمكن للذهن أن ينتقل من الملزوم إلى لازمه ، على أنه يمكن دفع مجازهم بطريق آخر فيقال : إنه أسند البقاء إلى الوجه . ويلزم منه بقاء الذات بدلًا من أن يقال : أطلق الوجه وأراد الذات . وقد ذكر البيهقي نقلًا عن الخطابي أنه تعالى لما أضاف الوجه إلى الذات أضاف النعت إلى الوجه ، فقال : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ، دل على أن ذكر الوجه ليس بصلة ، وأن قوله : ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ صفة للوجه والوجه صفة للذات .

وكيف يمكن تأويل الوجه بالذات أو بغيرها في مثل قوله عليه السلام في حديث الطائف : « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات » إلخ ؟ وقوله فيما رواه أبو موسى الأشعري : « حجابة النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » ؟

قوله : ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ .... إلخ : تضمنت هاتان الآيتان إثبات اليدين صفة حقيقة له سبحانه على ما يليق به ، فهو في الآية الأولى يوبخ إبليس على امتناعه عن السجود لآدم الذي خلقه بيديه ، ولا يمكن حمل اليدين هنا على القدرة ، فإن الأشياء جميعًا حتى إبليس خلقها اللّه بقدرته فلا يبقى لآدم خصوصية يتميز بها .

وفي حديث عبد اللّه بن عمرو : « إن اللّه ﷻ خلق ثلاثة أشياء بيده : خلق آدم بيده وكتب التوراة بيده ، وغرس جنة عدن بيده » فتخصيص هذه الثلاثة بالذكر مع مشاركتها لبقية المخلوقات في

وقوعها بالقدرة دال على اختصاصها بأمر زائد .

وأيضًا فلفظ اليدين بالتثنية لم يعرف استعماله إلا فى اليد الحقيقية ولم يرد قط بمعنى القدرة أو النعمة فإنه لا يسوغ أن يقال : خلقه اللّه بقدرتين أو بنعمتين . على أنه لا يجوز إطلاق اليدين بمعنى النعمة أو القدرة أو غيرهما إلا فى حق من اتصف باليدين على الحقيقة ، ولذلك لا يقال : للريح يد ولا للماء يد .

وأما احتجاج المعطلة بأن اليد قد أفردت فى بعض الآيات وجاءت بلفظ الجمع فى بعضها فلا دليل فيه ؛ فإن ما يصنع بالاثنين قد ينسب إلى الواحد ، تقول : رأيت بعينى وسمعت بأذنى . والمراد : عيناى وأذناى . وكذلك الجمع يأتى بمعنى المثنى أحيانًا كقوله تعالى : ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ . والمراد قلباكما .

وكيف يتأتى حمل اليد على القدرة أو النعمة مع ما ورد من إثبات الكف والأصابع واليمين والشمال والقبض والبسط وغير ذلك مما لا يكون إلا لليد الحقيقية ؟

وفى الآية الثانية يحكى اللّه سبحانه مقالة اليهود قبحهم اللّه فى ربهم ووصفهم إياه حاشاه بأن يده مغلولة أى ممسكة عن الإنفاق .

ثم أثبت لنفسه سبحانه عكس ما قالوا ، وهو أن يديه مبسوطتان بالعطاء ينفق كيف يشاء ، كما جاء فى الحديث أن يمين اللّه ملأى سَحَّاء الليل والنهار لا تغيضها نفقة ، تُرى لو لم يكن للّه يدان على الحقيقة هل كان يحسن هذا التعبير ببسط اليدين ؟ !

ألا شاهت وجوه المتأولين .

قوله : ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ ... إلخ : فى هذه الآيات الثلاث يثبت اللّه سبحانه لنفسه عينًا يرى بها جميع المرئيات ، وهى صفة حقيقية للّه ﷻ على ما يليق به فلا يقتضى إثباتها كونها جارحة مركبة من شحم وعصب وغيرهما .

وتفسير المعطلة لها بالرؤية أو بالحفظ والرعاية نفى وتعطيل .

وأما إفرادها فى بعض النصوص وجمعها فى البعض الآخر فلا حجة لهم فيه على نفيها ، فإن لغة العرب تتسع لذلك ، فقد يعبر فيها عن الاثنين بلفظ الجمع ، ويقوم فيها الواحد مقام الاثنين كما قدمنا فى اليدين .

على أنه لا يمكن استعمال لفظ العين فى شىء من هذه المعانى التى ذكروها إلا بالنسبة لمن له عين حقيقية فهل يريد هؤلاء المعطلة أن يقولوا : إن اللّه يتمدح بما ليس فيه فيثبت لنفسه عينًا وهو عاطل عنها ؟ وهل يريدون أن يقولوا : إن رؤيته للأشياء لا تقع بصفة خاصة بها بل هو يراها بذاته كلها ، كما

تقول المعتزلة : إنه قادر بذاته مريد بذاته إلخ ؟ وفى الآية الأولى يأمر اللّه نبيه ﷺ بالصبر لحكمه والاحتمال لما يلقاه من أذى قومه ، ويعلل ذلك الأمر بأنه بمرأى منه وفى كلائته وحفظِه .

وفى الآية الثانية : يخبر اللّه ﷻ عن نبيه نوح عليه السلام أنه لما كذبه قومه وحقت عليهم كلمة العذاب وأخذهم اللّه بالطوفان حمله هو ومن معه من المؤمنين على سفينة ذات ألواح عظيمة من الخشب ودُسر ، أى مسامير (جمع دِسار) تشد بها الألواح ، وأنها كانت تجرى بعين اللّه وحراسته .

وفى الآية الثالثة : خطاب من اللّه لنبيه موسى عليه السلام بأنه ألقى عليه محبة منه ، يعنى أحبه هو سبحانه وحببه إلى خلقه ، وأنه صنعه على عينه ورباه تربية استعد بها للقيام بما حمله من رسالة إلى فرعون وقومه .

قوله : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾.. إلخ : هذه الآيات ساقها المؤلف لإثبات صفات السمع والبصر والرؤية .

أما السمع : فقد عبرت عنه الآيات بكل صيغ الاشتقاق وهى سمع ويسمع وسميع ونسمع وأسمع ، فهو صفة حقيقية للّه يدرك بها الأصوات كما قدمنا .

وأما البصر : فهو الصفة التى يدرك بها الأشخاص والألوان والرؤية لازمة له ، وقد جاء فى حديث أبى موسى : « يا أيها الناس ، أَربعوا على أنفسكم ، إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا ، ولكن تدعون سميعًا بصيرًا ، إن الذى تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » .

وكل من السمع والبصر صفة كمال ، وقد عاب اللّه على المشركين عبادتهم ما لا يسمع ولا يبصر ، وقد نزلت الآية الأولى فى شأن خولة بنت ثعلبة حين ظاهر منها زوجها فجاءت تشكو إلى رسول اللّه ﷺ وتحاروه وهو يقول لها : « ما أراكِ إلا قد حَرُمتِ عليه » .

أخرج البخارى فى « صحيحه » عن عروة ، عن عائشة ﵂ قالت : « الحمد للّه الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول اللّه ﷺ وأنا فى ناحية من البيت ما أسمع ما تقول ، فأنزل اللّه ﷻ : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة : ١] الآيات » .

وأما الآية الثانية : فقد نزلت فى فِنحاص اليهودى الخبيث حين قال لأبى بكر رضى اللّه عنه لما دعاه إلى الإسلام : واللّه يا أبا بكر ما بنا إلى اللّه من حاجة منَ فقر وأنه إلينا لفقير ولو كان غنيًا ما استقرضنا .

وأما الآية الثالثة : فـ : ﴿أَمْ﴾ بمعنى بل والهمزة ؛ فهى أَم المنقطعة ، والاستفهام إنكارى يتضمن معنى التوبيخ ، والمعنى : بل أيظن هؤلاء فى تخفيهم واستتارهم أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ، بلى نسمع ذلك وحفظتنا لديهم يكتبون ما يقولون وما يفعلون .

وأما الآية الرابعة : فهى خطاب من اللّه ﷻ لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام حين

شكوا إلى الله خوفهما من بطش فرعون بهما ، فقال لهما : ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه : ٤٦] .

وأما الآية الخامسة : فقد نزلت فى شأن أبى جهل - لعنه الله - حين نهى النبى ﷺ عن الصلاة عند البيت ، فنزل قوله تعالى : ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ إلخ السورة [العلق : ٩- ١٤] .

وقوله : ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ إلخ : تضمنت هذه الآيات إثبات صفتى المكر والكيد[١] ، وهما من صفات الفعل الاختيارية ، ولكن لا ينبغى أن يشتق له من هاتين الصفتين اسم ، فيقال : ماكر وكائد . بل يوقف عند ما ورد به النص من أنه خير الماكرين ، وأنه يكيد لأعدائه الكافرين .

وأما قوله سبحانه : ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ ، فمعناه : شديد الأخذ بالعقوبة كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج : ١٢] ، ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود : ١٠٢] .

وقال ابن عباس : معناه شديد الحول ، وقال مجاهد : شديد القوة ، والأقوال متقاربة .

وأما قوله : ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران : ٥٤] فمعناه أنفذهم وأسرعهم مكرًا .

وقد فسر بعض السلف مكر الله بعباده بأنه استدرجهم بالنعم من حيث لا يعلمون ، فكلما أحدثوا ذنبًا أحدث لهم نعمة ، وفى الحديث : « إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا ما يحب وهو مقيم على معصيته ، فاعلم أنما ذلك منه استدراج » .

وقد نزلت هذه الآية فى شأن عيسى عليه السلام حين أراد اليهود قتله فدخل بيتًا فيه كُوَّة ، وقد أيده الله بجبريل عليه السلام ، فرفعه إلى السماء من الكوة ، فدخل عليه يهوذا ليدلهم عليه فيقتلوه ، فألقى الله شبه عيسى على ذلك الخائن ، فلما دخل البيت فلم يجد فيه عيسى خرج إليهم وهو يقول : ما فى البيت أحد ، فقتلوه وهم يرون أنه عيسى ، فذلك قوله تعالى : ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ .

وأما قوله تعالى : ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا﴾ إلخ : فهى فى شأن الرهط التسعة من قوم صالح عليه السلام حين تقاسموا بالله ليبيتنه وأهله ، أى : ليقتلنه بياتًا وأهله ثم ليقولن لوليه : ما شهدنا مهلك أهله ، فكان

---

(١) قال الشيخ إسماعيل الأنصاري رحمه الله :

قرر ابن القيم فى « الصواعق » أن الله تعالى لم يصف نفسه بالمكر والكيد والاستهزاء والخداع مطلقًا بل على وجه الجزاء لمن فعل ذلك وهو حسن وإن أفعال هذه الألفاظ لا يجوز إطلاقها على الله تعالى ولا يشتق له منها أسماء لأنها تمدح فى موضع وتذم فى موضع أتى ابن القيم فى ذلك بما لا يستغنى عنه لولا « الإطالة ومن كلامه ذلك يتبين مراد شيخ الإسلام بإيراد قوله تعالى : ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ ، وقوله : ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ، وقوله : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ فى هذا الكتاب .

عاقبة هذا المكر منهم أن مكر اللّه بهم فدمرهم وقومهم أجمعين .

قوله : ﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا﴾ ... هذه الآيات تضمنت إثبات صفات العفو والقدرة والمغفرة والرحمة والعزة والتبارُك والجلال والإكرام .

فالعفو الذى هو اسمه تعالى معناه المتجاوز عن عقوبة عباده إذا هم تابوا إليه وأنابوا كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى : ٢٥] .

ولما كان أكمل العفو ما كان عن قدرة تامة على الانتقام والمؤاخذة جاء هذان الاسمان الكريمان العفو والقدير ، مقترنين فى هذه الآية وفى غيرها .

وأما القدرة فهى الصفة التى تتعلق بالممكنات إيجادًا وإعدامًا ، فكل ما كان ووقع من الكائنات واقع بمشيئته وقدرته كما فى الحديث : « ما شاء اللّه كان وما لم يشأ لم يكن » .

وأما قوله تعالى : ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْ..﴾ الآية ، فقد نزلت فى شأن أبى بكر رضي الله عنه حين حلف لا ينفق على مِسطح بن أثاثة ، وكان ممن خاضوا فى الإفك ، وكانت أم مسطح بنت خالة أبى بكر ، فلما نزلت هذه الآية قال أبو بكر : واللّه إنى لأحب أن يغفر اللّهُ لى . ووصَل مِسطحًا .

وأما قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون : ٨] ، فقد نزلت فى شأن عبد اللّه بن أُبى ابن سلول رئيس المنافقين ، وكان فى بعض الغزوات قد أقسم ليخرجن رسول اللّه ﷺ هو وأصحابه من المدينة ، فنزل قوله تعالى : ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّ﴾ [المنافقون : ٨] ، يقصد بالأعز – قبحه اللّه – نفسه وأصحابه ، ويقصد بالأذل رسول اللّه ومن معه من المؤمنين ، فرد اللّه ﷻ عليه بقوله : ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [المنافقون : ٨] .

والعزة صفة أثبتها اللّه ﷻ لنفسه ، قال تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ ، وقال : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ ، وأقسم بها سبحانه كما فى حديث الشفاعة : « وعزتى وكبريائى وعظمتى لأخرجن منها من قال : لا إله إلا اللّه » .

وأخبر عن إبليس أنه قال : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [ص : ٨٢، ٨٣] .

وفى « صحيح البخاري » وغيره عن أبى هريرة : « بينا أيوب عليه السلام يغتسل عريانًا خرَّ عليه جرادًا من ذهب ، فجعل يحثى فى ثوبه ، فناده ربه : يا أيوب ، ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى وعزتك ، ولكن لا غنى لى عن بركتك » .

وقد جاء فى حديث الدعاء الذى علمه النبى ﷺ لما كان به وجع : « أعوذ بعزة اللّه وقدرته من شر

ما أجد وأحاذر » .

والعزة تأتى بمعنى الغَلَبة والقهر من عَزَّ يَعُزُّ – بضم العين فى المضارع – يقال : عزه إذا غلبه ، وتأتى بمعنى القوة والصلابة من عَزَّ يَعَزُّ بفتحها ، ومنه : أرض عزاز للصلبة الشديدة ، وتأتى بمعنى علو القدر والامتناع من الأعداء من عَزَّ يَعِزُّ بكسرها ، وهذه المعانى كلها ثابتة للّٰه ﷻ .

وأما قوله : ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ فإنه من البركة بمعنى دوام الخير وكثرته ، وقوله : ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾ أى صاحب الجلال والعظمة سبحانه الذى لا شىء أجل ولا أعظم منه ، ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ الذى يكرم عما لا يليق به ، وقيل : الذى يكرم عباده الصالحين بأنواع الكرامة فى الدنيا والآخرة . والله أعلم .

قوله : ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ ... إلخ : تضمنت هذه الآيات الكريمة جملة من صفات القلوب وهى نفى السمى والكفؤ والنّديد والولد والشريك والولى من ذل وحاجة . كما تضمنت بعض صفات الإثبات من الملك والحمد والقدرة والكبرياء والتبارك .

وأما قوله تعالى : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] ، فقد قال شيخ الإسلام رحمه اللّٰهُ : « قال أهل اللغة : هل تعلم له سميًا . أى : نظيرًا استحق مثل اسمه ، ويقال مساميًا يساميه ، وهذا معنى ما يروى عن ابن عباس : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ : مثلًا ، أو شبيهًا » .

والاستفهام فى الآية إنكارى معناه النفى ، أى : لا تعلم له سميًا .

وأما قوله : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ فالمراد بالكفؤ : المكافئ المساوى ؛ فهذه الآية تنفى عنه سبحانه النظير والشبيه من كل وجه ؛ لأن « أحدًا » وقع نكرة فى سياق النفى فيعم ، وقد تقدم الكلام على تفسير سورة « الإخلاص » كلها فليرجع إليها .

وأما قوله : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ إلخ : فالأنداد جمع ند ، ومعناه كما قيل : النظير المناوئ ، ويقال : ليس للّٰهِ نِدّ ولا ضِدّ ، والمراد نفى ما يكافئه ويناوئه ، ونفى ما يضاده وينافيه .

وجملة : ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وقعت حالًا من الواو فى ﴿تَجْعَلُوا۟﴾ ، المعنى : إذا كنتم تعلمون أن اللّٰه هو وحده الذى خلقكم ورزقكم وأن هذه الآلهة التى جعلتموها له نظراء وأمثال وساويتموها به فى استحقاق العبادة لا تخلق شيئًا بل هى مخلوقة ولا تملك لكم ضرًا ولا نفعًا فاتركوا عبادتها وأفردوه سبحانه بالعبادة والتعظيم .

وأما قوله : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ﴾ إلخ : فهو إخبار من اللّٰه عن المشركين بأنهم يحبون آلهتهم كحبهم للّٰه ﷻ ، يعنى يجعلونها مساوية له فى الحب ، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة : ١٦٥] من حب المشركين لآلهتهم ؛ لأنهم أخلصوا له الحب وأفردوه به ، أما حب المشركين لآلهتهم فهو

موزع بينها ، ولا شك أن الحب إذا كان لجهة واحدة كان أمكن وأقوى . وقيل : المعنى أنهم يحبون آلهتهم كحب المؤمنين لله ، والذين آمنوا أشد حبًا لله من الكفار لأندادهم .

وأما قوله تعالى : ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ الآية ، فقد تقدم الكلام فى معنى الحمد ، وأنه الثناء باللسان على النعمة وغيرها ، وقلنا : إن إثبات الحمد له سبحانه متضمن لإثبات جميع الكمالات التى لا يستحق الحمد المطلق إلا من بلغ غايتها .

ثم نفى سبحانه عن نفسه ما ينافى كمال الحمد من الولد والشريك والولى من الذل ، أى : من فقر وحاجة ، فهو سبحانه لا يوالى أحدًا من خلقه من أجل ذلة وحاجة إليه ، ثم أمر عبده ورسوله أن يكبره تكبيرًا ، أى : يعظمه تعظيمًا وينزهه عن كل صفة نقص وصفه بها أعداؤه من المشركين .

وأما قوله : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ إلخ : فالتسبيح هو التنزيه والإبعاد عن السوء كما تقدم .

ولا شك أن جميع الأشياء فى السماوات وفى الأرض تسبح بحمد ربها وتشهد له بكمال العلم والقدرة والعزة والحكمة والتدبير والرحمة ، قال تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

وقد اختلف فى تسبيح الجمادات التى لا تنطق هل هو بلسان الحال أو بلسان المقال ، وعندى أن الثانى أرجح ؛ بدليل قوله تعالى : ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ ؛ إذ لو كان المراد تسبيحها بلسان الحال لكان ذلك معلومًا فلا يصح الاستدراك ، وقد قال تعالى خبرًا عن داود عليه السلام : ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص : ١٨] .

وأما قوله تعالى : ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى﴾ إلخ : فقد قلنا : إن معنى تبارك من البركة وهى دوام الخير وكثرته ، ولكن لا يلزم من تلك الزيادة سبق النقص ، فإن المراد تجدد الكمالات الاختيارية التابعة لمشيئته وقدرته ، فإنها تتجدد فى ذاته على وفق حكمته ، فالخلو عنها قبل اقتضاء الحكمة لها لا يعتبر نقصًا .

وقد فسَّر بعضهم التبارك بالثبات وعدم التغير ، ومنه سميت البركة لثبوت مائها وهو بعيد ، والمراد بالفرقان : القرآن ، سمى بذلك لقوة تفرقته بين الحق والباطل والهدى والضلال ، والتعبير بـ « نَزَّلَ » بالتشديد لإفادة التدرج فى النزول ، وأنه لم ينزل جملة واحدة ، والمراد بـ « عبده » : محمد ﷺ والتعبير عنه بلقب العبودية للتشريف كما سبق ، والعالمين : جمع عالم ، وهو جمع لم يعقل ، واختلف فى المراد به ، فقيل : الإنس . وقيل : الإنس والجن . وهو الصحيح ، فقد ثبت أن النبى ﷺ مرسل إلى الجن أيضًا ، وأنه يجتمع بهم ويقرأ عليهم القرآن ، وأن منهم نفرًا أسلم حين سمع القرآن وذهب ينذر

قومه به ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف : ٢٩] ، والنذير والمنذر : هو من يعلم بالشيء مع التخويف ، وضده البشير أو المبشر وهو من يخبرك بما يسرك .

وقوله : ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ إلخ : تضمنت هذه الآية الكريمة أيضًا جملة من صفات التنزيه التي يراد [بها][1] نفي ما لا يليق بالله ﷻ عنه ، فقد نزه سبحانه نفسه فيها عن اتخاذ الولد وعن وجود إله خالق معه وعما يصفه به المفترون الكذابون ، كما نهى عن ضرب الأمثال له والإشراك به بلا حجة ولا برهان ، والقول عليه سبحانه بلا علم ولا دليل .

فهذه الآية تضمنت إثبات توحيد الإلهية وإثبات توحيد الربوبية ، فإن الله بعدما أخبر عن نفسه بعدم وجود إله معه أوضح ذلك بالبرهان القاطع والحجة الباهرة ، فقال : (إذًا) أي : إذ لو كان معه آلهة كما يقول هؤلاء المشركون ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

وتوضيح هذا الدليل أن يقال : إذا تعددت الآلهة فلابد أن يكون لكل منهم خلق وفعل ولا سبيل إلى التعاون فيما بينهم ، فإن الاختلاف بينهم ضروري ، كما أن التعاون بينهم في الخلق يقتضي عجز كل منهم عند الانفراد ، والعاجز لا يصلح إلهًا ، فلابد أن يستقل كل منهم بخلقه وفعله ، وحينئذ فإما أن يكونوا متكافئين في القدرة لا يستطيع كل منهم أن يقهر الآخرين ويغلبهم فيذهب كل منهم بما خلق ويختص بملكه كما يفعل ملوك الدنيا من انفراد كل بمملكته إذا لم يجد سبيلًا لقهر الآخرين ، وإما أن يكون أحدهم أقوى من الآخرين فيغلبهم ويقهرهم وينفرد دونهم بالخلق والتدبير ، فلابد إذن مع تعدد الآلهة من أحد هذين الأمرين ؛ إما ذهاب كل بما خلق ، أو علو بعضهم على بعض .

وذهاب كل بما خلق غير واقع ؛ لأنه يقتضي التنافر والانفصال بين أجزاء العالم مع أن المشاهدة تثبت أن العالم كله كجسم واحد مترابط الأجزاء متسق الأنحاء فلا يمكن أن يكون إلا أثرًا لإله واحد ، وعلو بعضهم على بعض يقتضي أن يكون الإله هو العالي وحده .

وأما قوله تعالى : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ فهو نهي له أن يشبهوه بشيء من خلقه ، فإنه سبحانه له المثل الأعلى الذي لا يشركه فيه مخلوق .

وقد قدمنا أنه لا يجوز أن يستعمل في حقه من الأقيسة ما يقتضي المماثلة أو المساواة بينه وبين غيره كقياس التمثيل وقياس الشمول ، وإنما يستعمل في ذلك قياس الأَولى الذي مضمونه أن كل كمال وجودي غير مستلزم للعدم ولا للنقص بوجه من الوجوه اتصف [به][2] المخلوق ، فالخالق

---

(١) زيادة يقتضيها السياق . « إسماعيل الأنصاري » .

(٢) زيادة يقتضيها السياق . « إسماعيل الأنصاري » .

أَوْلَى أن يتصف به ؛ لأنه هو الذى وهب المخلوق ذلك الكمال ، ولأنه لو لم يتصف بذلك الكمال مع إمكان أن يتصف به لكان فى الممكنات من هو أكمل منه وهو محال ، وكذلك كل نقص يتنزه عنه المخلوق ، فالخالق أَوْلَى بالتنزه عنه .

وأما قوله : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ﴾ إلخ : فإنما أداة قصر تفيد اختصاص الأشياء المذكورة بالحرمة فيفهم أن من عداها من الطيبات فهو مباح لا حرج فيه ، كما أفادته الآية التى قبلها .

والفواحش : جمع فاحشة وهى الفعلة المتناهية فى القبح ، وخصها بعضهم بما تضمن شهوة ولذة من المعاصى ؛ كالزنى واللواط ونحوهما من الفواحش الظاهرة ، وكالكبر والعجب وحب الرياسة من الفواحش الباطنة .

وأما الإثم فمنهم من فسره بمطلق المعصية ؛ فيكون المراد منه ما دون الفاحشة ، ومنهم من خصه بالخمر فإنها جماع الإثم ، وأما البغى بغير الحق فهو التسلط والاعتداء على الناس من غير أن يكون ذلك على جهة القصاص والمماثلة .

وقوله : ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ . وحرم أن تعبدوا مع اللّه غيره وتتقربوا إليه بأى نوع من أنواع العبادات والقربات ؛ كالدعاء والنذر والذبح والخوف والرجاء ونحو ذلك ، مما يجب أن يخلص فيه العبد قلبه ويسلم وجهه للّه ، وحرم أن يتخذوا من دونه سبحانه أولياء يشرعون لهم من الدين ما لم يأذن به اللّه فى عباداتهم ومعاملاتهم كما فعل أهل الكتاب مع الأحبار والرهبان حيث اتخذوهم أربابًا من دون اللّه فى التشريع فأحلوا ما حرم اللّه وحرموا ما أحل اللّه فاتبعوهم فى ذلك ، وقوله : ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ . قيد لبيان الواقع ، فإن كل ما عبد أو اتبع أو أطيع من دون اللّه قد فعل به ذلك من غير سلطان .

وأما القول على اللّه بلا علم فهو باب واسع جدًّا يدخل فيه كل خبر من اللّه بلا دليل ولا حجة ، كنفى ما أثبته ، أو إثبات ما نفاه ، أو الإلحاد فى آياته بالتحريف والتأويل .

قال العلّامة ابن القيم فى كتابه « أعلام الموقعين » : « وقدم حرم اللّه القول عليه بغير علم فى الدنيا والقضاء وجعله من أعظم المحرمات بل جعله فى المرتبة العليا منها » . قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ الآية [الأعراف : ٣٣] ، فرتب المحرمات أربع مراتب وبدأ بأسهلها وهو الفواحش ، وثنى بما هو أشد تحريمًا منه وهو الإثم والظلم ، ثم ثَلَّثَ بما هو أعظم تحريمًا منهما وهو الشرك به سبحانه ، ثم رَبَّع بما هو أعظم تحريمًا من ذلك كله وهو القول عليه بلا علم ، وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم فى أسمائه وصفاته وأفعاله فى دينه وشرعه .

وقوله : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ إلخ : هذه هى المواضع السبعة التى أخبر فيها سبحانه

باستوائه على العرش ، وكلها قطعية الثبوت ؛ لأنها من كتاب الله ، فلا يملك الجهمى المعطل لها ردًا ، ولا إنكارًا ، كما أنها صريحة فى بابها لا تحتمل تأويلًا ، فإن لفظ استوى فى اللغة إذا عدى بعلى لا يمكن أن يفهم منه إلا العلو والارتفاع ، ولهذا لم تخرج تفسيرات السلف لهذا اللفظ عن أربع عبارات ، ذكرها العلّامة ابن القيم فى النونية ، حيث قال :

فَلَهُمْ عِبَارَاتٌ عَلَيهَا أَربَعٌ ... قَدْ حُصِّلَتْ لِلفَارِسِ الطَّعَّانِ
وَهِىَ اسْتَقَرَّ وَقَد عَلَا وَكَذَلِكَ ارْ ... تَفَعَ الَّذِى مَا فِيهِ مِنْ نُكْرَانِ
وَكَذَاكَ قَدْ صَعِدَ الَّذِى هُوَ رَابِعٌ ... وَأَبُو عُبَيْدَةُ صَاحِبُ الشَّيبَانِي
يَختَارُ هَذَا القَوْلَ فِى تَفْسِيرِهِ ... أَدْرَىَ مِنَ الجَهْمِىِّ بِالقُرْآنِ

فأهل السنة والجماعة يؤمنون بما أخبر به سبحانه عن نفسه من أنه مستوٍ على عرشه ، بائن من خلقه بالكيفية التى يعلمها هو جل شأنه كما قال مالك وغيره : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول » . أما ما يشغب به أهل التعطيل من إيراد اللوازم الفاسدة على تقرير الاستواء فهى لا تلزمنا ؛ لأننا لا نقول بأن فوقيته على العرش كفوقية المخلوق على المخلوق .

وأما ما يحاولون به صرف هذه الآيات الصريحة عن ظواهرها بالتأويلات الفاسدة التى تدل على حيرتهم واضطرابهم كتفسيرهم استوى : باستولى ، أو حملهم (على) على معنى (إلى) ، و(استوى) بمعنى : قصد . إلى آخر ما نقله عنهم حامل لواء التجهم والتعطيل زاهد الكوثرى فكلها تشغيب بالباطل وتغيير فى وجه الحق لا يغنى عنهم فى قليل ولا كثير ، وليت شعرى ، ماذا يريد هؤلاء المعطلة أن يقولوا ؟ أيريدون أن يقولوا : ليس فى السماء رب يقصد ولا فوق العرش إله يُعبد ؟ فأين يكون إذن ؟ ولعلهم يضحكون منا حين نسأل عنه بأين ، ونسوا أن أكمل الخلق وأعلمهم بربهم صلوات الله عليه وسلامه قد سأل عنه بأين حين قال للجارية : « أين الله ؟ » . ورضى جوابها حين قالت : فى السماء .

وقد أجاب كذلك من سأله بـ : أين كان ربنا قبل أن يخلق السماوات والأرض ؟ بأنه كان فى عماء . الحديث ، ولم يرو عنه أنه زجر السائل ولا قال له : إنك غلطت فى السؤال .

إن قصارى ما يقوله المتحذلق منهم فى هذا الباب : إن الله تعالى كان ولا مكان ، ثم خلق المكان ، وهو الآن على ما كان قبل خلق المكان .

فماذا يعنى هذا المخرف بالمكان الذى كان الله ولم يكن ؟ هل يعنى به تلك الأمكنة الوجودية التى هى داخل محيط العالم ؟ فهذه أمكنة حادثة ونحن لا نقول بوجود الله فى شىء منها ؛ إذ لا يحصره ولا يحيط به شىء من مخلوقاته .

وأما إذا أراد بها المكان العدمى الذى هو خلاء محض لا وجود فيه ، فهذا لا يقال أنه لم يكن ثم خلق ، إذن لا يتعلق به الخلق فإنه أمر عدمى ، فإذا قيل : إن اللّه فى مكان بهذا المعنى كما دلت عليه الآيات والأحاديث فأى محذور فى هذا ؟

بل الحق أن يقال : كان اللّه ولم يكن شىء قبله ، ثم خلق السماوات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ، ثم استوى على العرش ، و(ثم) هنا للترتيب الزمانى لا لمجرد العطف .

وقوله : ﴿يَٰعِيسَىٰٓ﴾ .. إلخ : هذه الآيات جاءت مؤيدة لما دلت عليه الآيات السابقة من علوه تعالى وارتفاعه فوق العرش مباينًا للخلق ، وناعية على المعطلة جحودهم وإنكارهم لذلك ، تعالى اللّه عما يقولون علوًا كبيرًا . ففى الآية الأولى ينادى اللّه رسوله وكلمته عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام بأنه متوفيه ورافعه إليه حين دبر اليهود قتله ، والضمير فى قوله : « إلى » هو ضمير الرب جل شأنه لا يحتمل غير ذلك ، فتأويله بأن المراد : إلى محل رحمتى أو مكان ملائكتى . إلخ لا معنى له ، ومثل ذلك يقال أيضًا فى قوله سبحانه ردًا على ما ادعاه اليهود من قتل عيسى وصلبه ، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ .

وقد اختلف فى المراد بالتوفى المذكور فى الآية ، فحمله بعضهم على الموت ، والأكثرون على أن المراد به النوم ، ولفظ التوفى يستعمل فيه ، قال تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام : ٦٠] .

ومنهم من زعم أن فى الكلام تقديمًا وتأخيرًا ، وأن التقدير : إنى رافعك ومتوفيك ، أى مميتك بعد ذلك . والحق أنه عليه السلام رُفع حيًا ، وأنه سينزل قرب قيام الساعة لصحة الحديث بذلك .

وأما قوله سبحانه : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ ، فهو صريح أيضًا فى صعود أقوال العباد وأعمالهم إلى اللّه ﷻ يصعد بها الكرام الكاتبون كل يوم عقب صلاة العصر ، وعقب صلاة الفجر ، كما جاء فى الحديث : « فيعرج الذين بأتوا فيكم فيسألهم ربهم - وهو أعلم - : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : يا ربنا ، أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون » .

وأما قوله سبحانه حكاية عن فرعون : ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ...﴾ إلخ : فهو دليل على أن موسى عليه السلام أخبر فرعون الطاغية بأن إلهه فى السماء ، فأراد أن يتلمس الأسباب للوصول إليه تمويهًا على قومه ، فأمر وزيره هامان أن يبنى له الصرح ، ثم عقب على ذلك بقوله : ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ﴾ - أى موسى - كاذبًا فيما أخبر به من كون إلهه فى السماء .

فمن إذن أشبه بفرعون وأقرب إليه نسبًا ؟ نحن أم هؤلاء المعطلة ؟ إن فرعون كذب موسى فى كون إلهه فى السماء ، وهو نفس ما يقوله هؤلاء .

﴿ءَأَمِنتُم﴾ إلخ : هاتان الآيتان فيهما التصريح بأن اللّه ﷻ فى السماء ، ولا يجوز حمل ذلك على

أن المراد به العذاب أو الأمر أو الملك كما يفعل المعطلة ؛ لأنه قال : (من) وهى للعاقل[١] ، وحملها على الملك إخراج اللفظ عن ظاهره بلا قرينة توجب ذلك .

ولا يجوز أن يفهم من قوله : « فى السماء » . أن السماء ظرف له سبحانه ، بل إن أريد بالسماء هذه المعروفة ، فـ : « فى » بمعنى « على » ، كما فى قوله تعالى : ﴿ لأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ ، وإن أريد بها جهة العلو ، فـ : « فى » على حقيقتها فإنه سبحانه فى أعلى العلو .

قوله [تعالى] : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إلخ : تضمنت هذه الآية الكريمة إثبات صفة المعية له ﷻ وهى على نوعين :

١- معية عامة : شاملة لجميع المخلوقات ، فهو سبحانه مع كل شىء بعلمه وقدرته وقهره وإحاطته ، لا يغيب عنه شىء ولا يعجزه ، وهذه هى المعية المذكورة فى الآية .

ففى الآية يخبر عن نفسه سبحانه بأنه هو وحده الذى خلق السماوات والأرض ؛ يعنى : أوجدها على تقديرها وترتيب سابق فى مدة ستة أيام ، ثم علا بعد ذلك وارتفع على عرشه لتدبير أمور خلقه ، وهو مع كونه فوق عرشه لا يغيب عنه شىء من العالَمين العلوى والسفلى ، فهو يعلم ما يلج ، أى : يدخل فى الأرض ، وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج ، أى يصعد ، ولا شكَّ أن من كان علمه وقدرته محيطين بجميع الأشياء فهو مع كل شىء ، ولذلك قال : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد :] .

قوله : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ﴾ إلخ : يثبت سبحانه شمول علمه وإحاطته بجميع الأشياء ، وأنه لا يخفى عليه نجوى المتناجين ، وأنه شهيد على الأشياء كلها مطلع عليها .

وإضافة : « نجوى » إلى ثلاثة من إضافة الصفة إلى الموصوف والتقدير : ما يكون من ثلاثة نجوى ، أى متناجين .

وأما الآيات الباقية فهى فى إثبات المعية الخاصة التى هى معيته لرسله تعالى وأوليائه بالنصر والتأييد والمحبة والتوفيق والإلهام .

فقوله تعالى : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ حكاية عما قاله عليه الصلاة والسلام لأبى بكر الصديق وهما فى الغار ، فقد أحاط المشركون بفم الغار عندما خرجوا فى طلبه عليه السلام ، فلما رأى أبو بكر ذلك انزعج وقال : « والله يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدمه لأبصرنا » . فقال له الرسول ﷺ ما حكاه الله ﷻ هنا : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ .

---

(١) لو عبر المؤلف هنا بلفظ « للعالم » بدل قوله : « للعاقل » لأصاب . « إسماعيل الأنصاري » .

فالمراد بالمعية هنا معية النصر والعصمة من الأعداء .

وأما قوله : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ فقد تقدم الكلام [عليه][1] ، وأنها خطاب لموسى وهارون عليهما السلام ألّا يخافا بطش فرعون بهما ؛ لأن اللّه ﷻ معهما بنصره وتأييده .

وكذلك بقية الآيات يخبر اللّه فيها عن معيته للمتقين الذين يراقبون اللّه ﷻ في أمره ونهيه ويحفظون حدوده ، وللمحسنين الذين يتلزمون الإحسان في كل شيء ، والإحسان في كل شيء بحسبه ؛ فهو في العبادة مثلًا : « أن تعبد اللّه كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . كما جاء في حديث جبريل عليه السلام .

وكذلك يخبر عن معيته للصابرين الذين يحبسون أنفسهم على ما تكره ويتحملون المشاق والأذى في سبيل اللّه وابتغاء وجهه صبرًا على طاعة اللّه وصبرًا عن معصيته وصبرًا على قضائه .

قوله : (ومن أصدق من اللّه حديثًا) ... : تضمنت هذه الآيات إثبات صفة الكلام للّه ﷻ .

وقد تنازع الناس حول هذه المسألة نزاعًا كبيرًا ؛ فمنهم من جعل كلامه سبحانه مخلوقًا منفصلًا منه ، وقال : (إن) معنى متكلم : خالق للكلام . وهم المعتزلة .

ومنهم من جعله لازمًا لذاته أزلًا وأبدًا لا يتعلق بمشيئته وقدرته ، ونفى عنه الحرف والصوت ، وقال : إنه معنى واحد في الأزل . وهم الكلابية والأشعرية .

ومنهم من زعم أنه حروف وأصوات قديمة لازمة للذات ، وقال : إنها مقترنة في الأزل ، فهو سبحانه لايتكلم بها شيئًا بعد شيء . وهم بعض الغلاة .

ومنهم من جعله حادثًا قائمًا بذاته تعالى ومتعلقًا بمشيئته وقدرته ، ولكن زعم أن له ابتداء في ذاته ، وأن اللّه لم يكن متكلمًا في الأزل . وهم الكرامية .

ويطول بنا القول لو اشتغلنا بمناقشة هذه الأقوال وإفسادها على أن فسادها بيّن لكل ذي فهم سليم ونظر مستقيم .

وخلاصة مذهب أهل السنة والجماعة في هذه المسألة : أن اللّه تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء ، وأن الكلام صفة له قائمة بذاته يتكلم بها بمشيئته وقدرته ، فهو لم يزل ولا يزال متكلمًا إذا شاء ، وما تكلم اللّه به فهو قائم به ليس مخلوقًا منفصلًا عنه كما تقول المعتزلة ، ولا لازمًا لذاته لزوم الحياة لها كما تقول الأشاعرة ، بل هو تابع لمشيئته وقدرته .

واللّه سبحانه نادى موسى بصوت ، ونادى آدم وحواء بصوت ، وينادى عباده يوم القيامة بصوت ،

---

(١) زيادة يقتضيها السياق . « إسماعيل الأنصاري » .

ويتكلم بالوحى بصوت ، ولكن الحروف والأصوات التى تكلم الله بها صفة له غير مخلوقة ولا تشبه أصوات المخلوقين وحروفهم ، كما أن علم الله القائم بذاته ليس مثل علم عباده ، فإن الله لا يماثل المخلوقين فى شىء من صفاته .

والآيتان الأوليان هنا وهما من سورة « النساء » تنفيان أن يكون أحد أصدق حديثًا وقولًا من الله ﷻ ، بل هو سبحانه أصدق من كل أحد فى كل ما يخبر به ، وذلك لأن علمه بالحقائق المخبر عنها أشمل وأضبط ، فهو يعلمها على ما هى به من كل وجه ، وعلم غيره ليس كذلك .

وأما قوله : ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى﴾ إلخ : فهو حكاية لما سيكون يوم القيامة من سؤال الله لرسوله وكلمته عيسى عما نسبه إليه الذين ألّهوه وأمه من النصارى من أنه هو الذى أمرهم بأن يتخذوه وأمه إلهين من دون الله . وهذا السؤال لإظهار براءة عيسى عليه السلام وتسجيل الكذب والبهتان على هؤلاء الضالين الأغبياء .

وأما قوله : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام : ١١٥] ، فالمراد : صدقًا فى إخباره وعدلًا فى أحكامه ؛ لأن كلامه تعالى إما إخبار وهى كلها فى غاية الصدق ، وإما أمر ونهى وكلها فى غاية العدل الذى لا جور فيه لابتنائها على الحكمة والرحمة ، والمراد بالكلمة هنا : الكلمات ؛ لأنها أضيفت إلى معرفة فتفيد معنى الجمع كما فى قولنا : رحمة الله ، ونعمة الله .

وأما قوله : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ ، وما بعدها من الآيات التى تدل على أن الله قد نادى موسى وكلمه تكليمًا ، وناجاه حقيقة من وراء حجاب وبلا واسطة ملك ، فهى ترد على الأشاعرة الذين يجعلون الكلام معنى قائمًا بالنفس بلا حرفٍ ولا صوت ، فيقال لهم : كيف سمع موسى هذا الكلام النفسى ؟ فإن قالوا : ألقى الله فى قلبه علمًا ضروريًا بالمعانى التى يريد أن يكلمه بها ؛ لم يكن هناك خصوصية لموسى فى ذلك ، وإن قالوا : إن الله خلق كلامًا فى الشجرة أو فى الهواء ونحو ذلك لزم أن تكون الشجرة هى التى قالت لموسى : ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ .

وكذلك ترد عليهم هذه الآيات فى جعلهم الكلام معنى واحدًا فى الأزل لا يحدث منه فى ذاته شىء ، فإن الله يقول : ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ . فهى تفيد حدوث الكلام عند مجىء موسى للميقات .

ويقول : ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ . فهذا يدل على حدوث النداء عند جانب الطور الأيمن ، والنداء لا يكون إلا صوتًا مسموعًا .

وكذلك قوله تعالى فى شأن آدم وحواء : ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ الآية . فإن هذا النداء لم يكن إلا بعد الوقوع فى الخطيئة فهو حادث قطعًا .

وكذلك قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ إلخ . فإن هذا النداء والقول سيكون يوم القيامة ، وفى الحديث : « ما من عبد إلا سيكلمه الله يوم القيامة ليس بينه ترجمان » .

قوله : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ إلخ : هذه الآيات الكريمة تفيد أن القرآن المتلو المسموع المكتوب بين دفتى المصحف هو كلام الله على الحقيقة وليس فقط عبارة أو حكاية عن كلام الله كما يقوله الأشعرية ، وإضافته إلى الله ﷻ تدل على أنه صفة له قائمة به وليست كإضافة البيت أو الناقة ؛ فإنها إضافة معنى إلى الذات تدل على ثبوت المعنى لتلك الذات بخلاف إضافة البيت أو الناقة فإنها إضافة أعيان ، وهذا يرد على المعتزلة فى قولهم : إنه مخلوق منفصل عن الله . ودلت هذه الآيات أيضًا على أن القرآن منزَّل من عند الله بمعنى أن الله تكلم به بصوت سمعه جبريل عليه السلام ، فنزل به وأدَّاه إلى رسول الله ﷺ كما سمعه من الرب جل شأنه .

وخلاصة القول فى ذلك : أن القرآن العربى كلام الله منزل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ، والله تكلم به على الحقيقة ، فهو كلامه حقيقة لا كلام غيره ، وإذا قرأ الناس القرآن أو كتبوه فى المصاحف لم يخرج ذلك عن أن يكون كلام الله ، فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئًا لا إلى من بلغه مؤديًا ، والله تكلم بحروفه ومعانيه بلفظ نفسه ليس شىء منه كلامًا لغيره لا لجبريل ولا لمحمد ولا لغيرهما ، والله تكلم به أيضًا بصوت نفسه ، فإذا قرأه العباد قرءوه بصوت أنفسهم ، فإذا قال القارئ مثلًا : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ . كان هذا الكلام المسموع منه كلام الله لا كلام نفسه ، وكان هو قرأه بصوت نفسه لا بصوتِ الله ، وكما أن القرآن كلام ، فكذلك هو كتابه ؛ لأنه كتبه فى اللوح المحفوظ ولأنه مكتوب فى المصاحف ، قال تعالى : ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة : ٧٨، ٧٩] ، وقال : ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج : ٢١، ٢٢] ، وقال : ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس : ١٣ - ١٦] .

والقرآن فى الأصل مصدر كالقراءة ، كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء : ٧٨] . ويراد به هنا أن يكون علمًا على هذا المنزل من عند الله المكتوب بين دفتى المصحف المتعبد بتلاوته المتحدى بأقصر سورة منه .

وقوله : ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ . يدل على أن ابتداء نزوله من عند الله ﷻ ، وأن روح القدوس جبريل عليه السلام تلقاه عن الله سبحانه بالكيفية التى يعلمها .

قوله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ إلخ : هذه الآيات تثبت رؤية المؤمنين لله ﷻ يوم القيامة فى الجنة .

وقد نفاها المعتزلة بناءً على نفيهم الجهة عن الله ؛ لأن المرئى يجب أن يكون فى جهة الرائى ، وما دامت الجهة مستحيلة وهى شرط فى الرؤية ، فالرؤية كذلك مستحيلة ، واحتجوا من النقل بقوله

تعالى : ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ . وقوله لموسى عليه السلام حين سأله الرؤية : ﴿لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

وأما الأشاعرة فهم مع نفيهم الجهة كالمعتزلة يثبتون الرؤية ، ولذلك حاروا فى تفسير تلك الرؤية ؛ فمنهم من قال : يرونه من جميع الجهات . ومنهم من جعلها رؤية بالبصيرة لا بالبصر ، وقال : المقصود زيادة الانكشاف والتجلى حتى كأنها رؤية عين .

وهذه الآيات التى أوردها المؤلف حجة على المعتزلة فى نفيهم الرؤية ، فإن الآية الأولى عَدَّى النظر فيها بـ : (إلى) فيكون بمعنى الإبصار ، يقال : نظرت إليه ، وأبصرته . بمعنًى ، ومتعلق النظر هو الرب جل شأنه .

وأما ما يتكلفه المعتزلة من جعلهم ﴿نَاظِرَةٌ﴾ بمعنى منتظرة ، و﴿إِلَىٰ﴾ بمعنى النعمة ، والتقدير : (ثواب ربها منتظرة) ، فهو تأويل مضحك .

وأما الآية الثانية فتفيد أن أهل الجنة وهم على أرائكهم ، يعنى أسرتهم – جمع أريكة – ينظرون إلى ربهم .

وأما الآيتان الأخيرتان فقد صح عن النبى ﷺ تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله ﷻ ، ويشهد لذلك أيضًا قوله تعالى فى حق الكفار : ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين : ١٥] ، فدل حجب هؤلاء على أن أولياءه يرونه ، وأحاديث الرؤية متواترة فى المعنى عند أهل العلم بالحديث لا ينكرها إلا ملحد زنديق .

وأما ما احتج به المعتزلة من قوله تعالى : ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ . فلا حجة لهم فيه ؛ لأن نفى الإدراك لا يستلزم نفى الرؤية ، فالمراد أن الأبصار تراه ولكن لا تحيط به رؤية كما أن العقول تعلمه ولكن لا تحيط به علمًا ؛ لأن الإدراك هو الرؤية على جهة الإحاطة فهو رؤية خاصة ونفى الخاص لا يستلزم نفى مطلق الرؤية ، وكذلك استدلالهم على نفى الرؤية بقوله تعالى لموسى عليه السلام : ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ . لا يصلح دليلًا ، بل الآية تدل على الرؤية من وجوه كثيرة منها :

١ – وقوع السؤال من موسى وهو رسول الله وكليمه ، وهو أعلم بما يستحيل فى [حال] الله ، من هؤلاء المعتزلة ، فلو كانت الرؤية ممتنعة لما طلبها .

٢ – أن الله ﷻ علق الرؤية على استقرار الجبل حال التجلى ، وهو ممكن ، والمعلق على الممكن ممكن .

٣ – أن الله تجلى للجبل بالفعل وهو جماد ، فلا يمتنع إذن أن يتجلى لأهل محبته وأصفيائه .

وأما قولهم : إن (لن) لتأبيد النفى وإنها تدل على عدم وقوع الرؤية أصلًا . فهو كذب على اللغة ،

فقد قال تعالى حكاية عن الكفار : ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ . ثم قال : ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ . فأخبر عن عدم تمنيهم للموت بـ « لن » ، ثم أخبر عن تمنيهم له وهم فى النار .

وإذن فمعنى قوله : ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ . لن تستطيع رؤيتى فى الدنيا لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته سبحانه ، ولو كانت الرؤية ممتنعة لذاتها لقال : إنى لا أرى أو لا يجوز رؤيتى أو لست بمرئى ونحو ذلك . واللَّه أعلم .

مباحث عامة حول آيات الصفات :

إن الناظر في آيات الصفات التي ساقها المؤلف رحمه الله يستطيع أن يستنبط منها قواعد وأصولًا هامة يجب الرجوع إليها في هذا الباب .

الأصل الأول : اتفق السلف على أنه يجب الإيمان بجميع الأسماء الحسنى وما دلت عليه من الصفات وما ينشأ عنها من الأفعال ، مثال ذلك (القدرة) مثلًا يجب الإيمان بأنه سبحانه على كل شيء قدير ، والإيمان بكمال قدرته ، والإيمان بأن قدرته نشأت عنها جميع الكائنات ، وهكذا بقية الأسماء الحسنى على هذا النمط . وعلى هذا فما ورد في هذه الآيات التي ساقها المصنف من الأسماء الحسنى فإنها داخلة في الإيمان بالاسم وما فيها من ذكر الصفات مثل عزة اللَّه وقدرته وعلمه وحكمته وإرادته ومشيئته ، فإنها داخلة في الإيمان بالصفات وما فيها من ذكر الأفعال المطلقة والمقيدة ، مثل يعلم كذا ، ويحكم ما يريد ، ويرى ويسمع ، وينادي ويناجي ، وكلم ويكلم ، فإنها داخلة في الإيمان بالأفعال .

الأصل الثاني : دلّت هذه النصوص القرآنية على أن صفات الباري قسمان :

١ - صفات ذاتية لا تنفك عنها الذات ، بل هي لازمة لها أزلًا وأبدًا ولا تتعلق بها ؛ مشيئته تعالى وقدرته ، وذلك كصفات الحياة والعلم والقدرة والقوة والعزة والملك والعظمة والكبرياء والمجد والجلال إلخ .

٢ - صفات فعلية تتعلق بها مشيئته وقدرته كل وقت وآنٍ وتحدث بمشيئته وقدرته ، آحاد تلك الصفات من الأفعال وإن كان هو لم يزل موصوفًا بها بمعنى أن نوعها قديم وأفرادها حادثة ، فهو سبحانه لم يزل فعّالًا لما يريد ، ولم يزل ولا يزال يقول ويتكلم ويخلق ويدبر الأمور ، وأفعاله تقع شيئًا فشيئًا تبعًا لحكمته وإرادته ، فعلى المؤمن الإيمان بكل ما نسبه اللَّه لنفسه من الأفعال المتعلقة بذاته كالاستواء على العرش ، والمجيء والإتيان ، والنزول إلى السماء الدنيا ، والضحك والرضا والغضب ، والكراهية والمحبة المتعلقة بخلقه كالخلق والرزق والإحياء والإماتة وأنواع التدبير المختلفة .

الأصل الثالث : إثبات تفرد الرب جل شأنه بكل صفة كمال وأنه ليس له شريك أو مثيل في شيء منها .

وما ورد في الآيات السابقة من إثبات المثل الأعلى له وحده ونفي الند والمثل والكفء والسَّمِي والشريك عنه يدل على ذلك كما يدل على أنه منزه عن كل نقص وعيب وآفة .

الأصل الرابع : إثبات جميع ما ورد به الكتاب والسنة من الصفات ، لا فرق بين الذاتية منها كالعلم والقدرة والإرادة والحياء والسمع والبصر ونحوها ، والفعلية كالرضا والمحبة والغضب والكراهة ، وكذلك لا فرق بين إثبات الوجه واليدين ونحوهما ، وبين الاستواء على العرش والنزول ، فكلها مما اتفق السلف على إثباته بلا تأويل ولا تعطيل ، وبلا تشبيه وتمثيل .

والمخالف في هذا الأصل فريقان :

١ - الجهمية : ينفون الأسماء والصفات جميعًا .

٢ - المعتزلة : فإنهم ينفون جميع الصفات ويثبتون الأسماء والأحكام ، فيقولون : عليم بلا علم ، وقدير بلا قدرة ، وحي بلا حياة إلخ . وهذا القول في غاية الفساد ، فإن إثبات موصوف بلا صفة وإثبات ما للصفة للذات المجردة محال في العقل كما هو باطل في الشرع .

أما الأشعرية ومن تبعهم فإنهم يوافقون أهل السنة في إثبات سبع صفات يسمونها صفات المعاني ويدعون ثبوتها بالعقل ؛ وهي الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام ، ولكنهم وافقوا المعتزلة في نفي ما عدا هذه السبع من الصفات الخبرية التي صح بها الخبر .

والكل محجوجون بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة والقرون المفضلة على الإثبات العام .

❁ قال الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ رحمه الله :

« وقد دخل في هذه الجملة » السابقة ؛ أي : جملة : « ما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات » ، وهي كونه تعالى جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات .

« ما وصف به نفسه في « سورة الإخلاص » » ؛ يعني : التوحيد ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ السورة . وكذلك : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ تسمى « سورة الإخلاص » ؛ فإنها دلت على التوحيد . فـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ دلت على التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي ، وسورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ دلت على التوحيد القصدي الإرادي الطلبي .

« التي تعدل ثلث القرآن » جاء ذلك عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا قرأت : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مرة ؛ فكأنما قرأت ثلث القرآن ، وإذا قرأت : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مرتين ؛ فكأنما قرأت ثلثي

القرآن ، وإذا قرأت : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلاث مرات ؛ فكأنما قرأت القرآن كله »[1] .

ووجه كونها تعدل ثلث القرآن ، من حيث إن القرآن قسمان : قسم إنشاء ، وهو طلب : أمر ونهي .

وقسم خبر ، والأخبار التي في القرآن منقسمة إلى قسمين :

قسم خبر عن الخلق ، وقسم خبر عن المخلوق .

قسم خبر عن الباري جل جلاله وإثبات صفاته ، وقسم خبر عن المخلوق وحاله ونشأته وما أعد له .

وهذه السورة ممحضة للخبر عن الخالق تعالى ، سبب نزولها أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : انسب لنا ربك ، فنزلت ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخرها ، صدرها إثبات وآخرها نفي ، بخلاف غيرها من السور ؛ حيث يقول : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ : هذا فيه إثبات الأحدية للرب تعالى وتفرده بها ، المنافية للشريك والمثيل والنديد من كل وجه .

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ : فيه إثبات الصمدية للّه سبحانه ، ووصفه بها ، ومعنى الصمد : الذي يصمد إليه الخلائق كلهم يوم القيامة ، وكل تفسير للصمد فهو يرجع إلى إثبات الكمال .

﴿لَمْ يَلِدْ﴾ : أحدًا ، فيه نفي الولد عنه سبحانه وتعالى ، وتنزه عما يقول الجاهلون علوًّا كبيرًا ؛ لمنافاته لكماله له سبحانه وتعالى .

﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ : ولم يلده أحد ، ففيه نفي الوالدة عنه سبحان وتعالى ؛ لمنافاته لكماله .

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ : فيه نفي الكفو ، وهو المساوي له سبحانه ؛ لمنافاته لكماله .

ففي هذه السورة نفي النقائص والعيوب عنه تعالى ، وإثبات الكمال له تعالى .

« وما وصف به نفسه » : وكذلك دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه ، « في أعظم آية في كتابه » : وهي « آية الكرسي » ؛ جمع تعالى فيها بين النفي والإثبات ، فإنها اشتملت على عشر جمل ، وفي ضمن تلك الجمل ما هو نفي وما هو إثبات ؛ حيث يقول : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ : فيها نفي الألوهية عن كل ما سوى اللّه ، وأنها لا تصلح لغير اللّه ؛ بل لا تصلح إلا اللّه ، وأما غيره فلا يصلح لها ، وكل مألوه غير اللّه فإلهيته بالباطل والضلال .

﴿إِلَّا هُوَ﴾ : فيه إثباتها للّه سبحانه دون كل ما سواه .

﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ : فيه إثبات صفة القيومية ، والحياة والقيومية يستلزمان سائر الصفات ؛ من القدرة والسمع والبصر ، وغير ذلك .

---

(١) الطبراني في « الأوسط » (٥٩٩٦) ، والبيهقي في « دلائل النبوة » (٦/٣٨) من حديث عمر رضي الله عنه .

﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ﴾ : وهي الذهول والغفلة ، وهي دون النوم .

﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ : فيه نفي النوم ؛ والنفي قسمان : نفي محض ، وهذا مراد لذاته ولا يقع في الصفات ، ونفي مراد به الإثبات ، كنفي السنة والنوم عنه سبحانه ؛ وذلك لكمال حياته وقيوميته تعالى .

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ : هذا فيه إثبات ملك السماوات والأرض ، وتفرد الله بملك ذلك .

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ : فيه نفي الشفيع ، وهذا نفي ظاهر . وهذا النفي دخل فيه جميع الشفعاء ، حتى سيد الخلق- صلوات الله وسلامه عليه- ، ولهذا في القيامة لا يشفع حتى يسجد ، ويقال له : « ارفع رأسك ، واشفع تشفع ، وسل تعطه »[1] ، ففيه نفي الشفاعة التي من غير إذنه ، وإثباتها بإذنه تعالى .

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ : فيه إثبات تفرده بالعلم سبحانه .

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ : فيه إثبات الكرسي ؛ يعني : أنه أوسع منها بكثير ، وجاء في الأحاديث أنه من جملة المخلوقات ، وجاء في السنة أنه موضع القدمين ، وليس كرسيه علمه ، كما يقوله المبتدعة ، فإن في هذه الآية الرد عليهم ، فهم ينفون الكرسي والعرش ، يريدون بذلك نفي العلو ؛ ولهذا أهل العلم يترجمون بباب في العرش : باب في الكرسي . وهذا كله رد على الجهمية والمبتدعة .

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ : أي : لا يكرثه ولا يثقله لا يثقل عليه ولا يشق عليه ؛ لكمال قدرته وقهره .

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ : الذي لا أعلى منه تعالى ، له العلو الكامل من جميع الوجوه : علو القدر والشرف ، وعلو القهر والسلطان لكل شيء ، وعلو الذات والفوقية على جميع المخلوقات ، فإنه أعلى من كل شيء ؛ قدرًا وقهرًا وفضلًا ، وأعلى من كل شيء علوًا وذاتًا وسلطانًا .

﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ : الذي لا أعظم منه سبحانه ، ولا أكبر ولا أجل .

« ولهذا كان من قرأ هذه الآية في ليلة ، لم يزل عليه من الله حافظ ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح » : أشار بهذا إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه : « أنه أتاه شيطان ليسرق من تمر الصدقة ، ثم يحلف أنه لا يعود ..» الحديث . فذكر له آية يسلم بها من السراق ، فقال ﷺ : « صدقك وهو كذوب »[2] ، من عادته الكذب ، فيفيد عظم شأن هذه الآية .

---

(١) البخاري (٤٧١٢) ، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) البخاري – تعليقًا – (٢٣١١) ، وابن خزيمة في « صحيحه » (٢٤٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « مشكاة المصابيح » (٢١٢٣) .

وقوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: هذا أيضًا مما دخل في الجملة السابق ذكرها. جملة: «ما وصف وسمى به نفسه، بين النفي والإثبات».

قول تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ﴾: هذه الآية فيها إثبات هذه الأسماء الحسنى الأربعة، واشتملت على اتصافه تعالى بها، وتفسير هذه الأسماء الأربعة جاء في الحديث: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»[1]. وحديث «كان الله ولم يكن شيء قبله»[2]؛ يعني: أنه سبحانه وتعالى بوجوده وأوليته، «ولم يكن شيء قبله» ليس معناه كان قبل أن لم يكن حدث، لا.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: واشتملت هذه الآية على اتصافه بالعلم بكل شيء، فشمل علمه الموجودات كلها، والمعدومات التي تكون، والتي لا تكون، كيف تكون لو كانت، بخلاف الممتنعات، فإنها ليست شيئًا حتى تشمل بالعلم.

وقوله سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾: هذه الآية فيها إثبات هذا الاسم، وإثبات مدلول هذا الاسم، وهي صفة الحياة لله سبحانه، وهي تستلزم السمع والبصر والعلم والقدرة، ونحو ذلك. ونفي الموت لمنافاته للحياة.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾: فيه إثبات هذين الاسمين: أحدهما: الحكيم، وهو الذي يضع الأشياء مواضعها. والثاني: الخبير، وإثبات مدلول هذين الاسمين وهما الحكمة والخبرة. والحكمة هي المنافية للسفه والعبث، فهو تعالى الحكيم في أقضيته وشرعه ودينه، وهي أبعد شيء عن السفه وعن خلاف المصلحة. والخبرة أخص من العلم، هي كمال العلم.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ﴾: فيه إثبات علمه الشامل؛ فما من داخل في الأرض أو خارج منها، ولا نازل من السماء ولا صاعد إليها، إلا وهو مشمول بالعلم.

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾: وهي الخمس المذكورة في الحديث: «خمس لا يعلمهن إلا الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسُۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾»[3]. فهذه الخمس لم يطلع عليها ملك مقرب، ولا نبي مرسل.

---

(١) مسلم (٢٧١٣)، والترمذي (٣٤٠٠)، وأبو داود (٥٠٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البخاري (٧٤١٨) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٣) البخاري (٤٧٧٨) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ : فيه إثبات صفة العلم وشموله لجميع الأشياء ، فما من شيء إلا وهو مشمول بالعلم ، وهو أشمل من القدرة ، وفيه إثبات الكتابة ، وهي إحدى المرتبتين في القدر كما يأتي .

وقوله : ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ : هذه الآية فيها إثبات صفة العلم .

وقوله : ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا﴾ : هذه الآية فيها إثبات صفة القدرة ، وهي مدلول اسمه القدير ، وإثبات صفة العلم ، وشمول القدرة وشمول العلم ، فما من شيء إلا دخل في القدرة إلا ذاته جل جلاله فإنها لا تقبل التصريف ، فإن القادر لا يكون مقدورًا ، فشملت قدرته ما كان وما يمكن أن يكون ، فإن اللّٰه قادر على الموجودات والمعدومات والممكنات ، ولا خرج عن ذلك إلا الممتنع ، فإنه ليس بشيء حتى يشمل ، وفي إثبات القدرة على كل شيء ، الرد على المرشدة الذين يقولون : إن اللّٰه لا يقدر إلا على ما يشاء ، وأما ما لا يشاء فلا . وهم طائفة من المبتدعة ، معلوم بطلان قولهم من نحو ثمانين موضعًا من القرآن : ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

وقوله : ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا﴾ : فيه كمال العلم ؛ فإن الإحاطة بالشيء علمًا هي الإحاطة به من كل الجهات ، فالعلم فيه شمول ؛ مثل : القدرة ، بل الشمول الذي في العلم أعم من الشمول الذي في القدرة ، فإنه تعالى أعلم بذاته وبأسمائه وصفاته وبشرعه ودينه وبجميع مخلوقاته ، وقد جاء في قصة الخضر وموسى ، حين أتى عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر نقرة أو نقرتين في البحر ، فقال الخضر لموسى عليه السلام : « ما نقص علمي وعلمك من علم اللّٰه ، إلا كنقرة هذا العصفور في هذا البحر »[1] ، وكما في الآية : ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ .

وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ : هذا فيه إثبات هذه الأسماء الثلاثة للّٰه حقيقة على ما يليق بجلال اللّٰه وعظمته من غير تمثيل .

وقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ﴾ : هذا فيه نفي مماثلة الخلق للّٰه سبحانه وتعالى ، فتقرر بذلك أصل عظيم ؛ وهو عدم مشابهته لخلقه .

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ : هذا فيه إثبات هذين الاسمين ، وفي هذه الآية بيان أن النفي إجمال ، والإثبات تفصيل ، نفي مجمل وإثبات مفصل .

---

(١) البخاري (١٢٢) ، ومسلم (٢٣٨٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا .

وفيه الرد على الطائفتين : أهل الجحد والتحريف والتعطيل ، وأهل التشبيه والتمثيل ، فإن طائفتي المبتدعة تقاسموا هذه الآية نصفين ، وأهل السنة أثبتوا الصفات على حد قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ .

وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ : هذه الآية فيها إثبات الاسمين ، وإثبات صفتين ، وهما مدلول هذين الاسمين على ما يليق بجلال الله وعظمته ، ولما نزلت هذه الآية جعل ﷺ إصبعيه في أذنيه ، بيانًا منه أنه سمع حقيقة ، وبصر حقيقة .

وقوله : ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ : فيها إثبات صفة المشيئة لله سبحانه وتعالى التي تكون بها الأشياء ، كما أنها لا تكون إلا بالقدرة والعلم .

وقوله : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ : هذه الآية فيها إثبات المشيئة والإرادة .

وقوله : ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ : فيه إثبات صفة الإرادة .

وقوله : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ : فيه إثبات صفة الإرادة لله سبحانه وتعالى ، وكذلك بقية الآيات التي فيها إثبات صفة الإرادة .

ورد في النصوص إرادة ومشيئة ، وصرح من صرح بترادفهما ، ولم يفطن للتفصيل ، ولكن أولى ما يكون أن الإرادة إرادتان : كونية قدرية ، وشرعية دينية ، وأما المشيئة فلم ترد في النصوص إلا كونية قدرية ، فلا تنقسم ، والشرعية الدينية تستلزم محبته ورضاه سبحانه وتعالى بخلاف الكونية القدرية .

فالإرادة في النصوص على قسمين : كونية وقدرية ، وهذه موافقة للمشيئة ، وإرادة شرعية دينية ، فأراد الله من العباد شرعًا عبادته ، والعباد انقسموا إلى قسمين :

- قسم أطاعوا ، فاجتمع فيهم الإرادتان . فالكونية شرط وجود الفعل .
- وقسم عصوا ، فانفردت الكونية فيهم ، ولا حظ لهم في الشرعية ، وليست الكونية حجة لأحد .

إذا عرفنا ذلك ؛ فالإرادتان بينهما عموم وخصوص ، يجتمعان في المطيع ، ويفترقان في العاصي ؛ فالمطيع أطاع الله فيما أراده الله منه شرعًا ودينًا وتبع الإرادة الكونية القدرية ، وانفردت الكونية القدرية في حق العاصي ، فالكفار أبوا عما أراد الله منهم شرعًا ، فلا تنالهم الإرادة الشرعية ، ولا لهم فيها نصيب لحكمة الله وعدم صلاحيتهم لشيء من ذلك ، هم خارجون عن إرادة الله الشرعية الدينية ؛ وهي ما أراده على ألسن رسله من عبادته وحده .

وقوله : ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ : هذه الآية فيها إثبات صفة المحبة ، وأن الله يحب أهل طاعته محبة تليق بجلاله وعظمته .

﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ : هذه مثل التي قبلها .

﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ : كذلك .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ : هذه الآية فيها إثبات صفة المحبة .

وقوله : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ : هذه الآية فيها زيادة أنه يحب ، ففيها إثبات المحبة من الجانبين .

وقوله : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ : وهذه كالتي قبلها في أنه يحب ويحب .

وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ : فيها إثبات صفة المحبة .

وقوله : ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ : قال البخاري[1] : « يعني الحبيب » ، وفيها إثبات صفة المغفرة ، وهي مدلول اسمه الغفور ، والمغفرة هي : التغطية مع الوقاية ؛ يعني : الذي يستر عباده ويقيهم عقوبة الذنوب .

قصد المصنف منها كلها إثبات صفة المحبة ، وأن الله جل جلاله يحب حقيقة محبة تليق بجلاله وعظمته ، لا كمحبة المخلوقين ، يحب رسله وعباده الموصوفين بهذه الصفات ، وفيها زيادة أنهم يحبونه محبة تدين وتذلل وتعبد ، ومحبته لهم محبة إحسان وتفضل .

وفيها الرد على الجهمية ؛ فإنهم ينفون أن يحب أو يحب ، فأهل التجهم ينفون المحبة من الجانبين ، كما أنكروا الخلة ، وهذا من ضلالهم وجهلهم ، قالوا : إن المحبة لا تكون إلا بين اثنين بينهما نوع من المناسبة ، كمناسبة محبة المخلوقين بعضهم لبعض ، ففروا منها إلى النفي . نعم محبة الله لا مناسبة بينها وبين محبة المخلوقين ، محبة تليق بجلال الله وعظمته من غير تمثيل ، لا يعلم كنهها ولا كيفيتها إلا هو سبحانه وتعالى ، فإنه أعلم بنفسه ، وقد أعلمنا أنه يحب ويحب ، فنحن نؤمن بالله وبما جاء عن الله على مراد الله ، كل ما جاء في القرآن أو الحديث الثابت ، فخذ معك أصلًا أنه على ما يليق بجلال الله .

وقوله : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ : في آية البسملة ، هي آية من القرآن بين كل سورتين إلا في « براءة » ، بالرحمة ، فالرحمن من الفعل المتعدي ، والرحيم من اللازم ، فالرحمة أحد

---

(١) البخاري - تعليقًا - (٨/٦٩٨- فتح) .

صفات الباري جل جلاله ، وقول ابن عباس ﵄ : « الرحمن الرحيم اسمان رقيقان ، أحدهما أرق من الآخر » ، المقصود السعة ؛ يعني : أسماء مبالغة أن كلًّا منهما صفة مبالغة ، هذا معنى « رقيقان ؛ أحدهما أرق وأوسع من الآخر » ، وأوسعهما الرحمن ، ولهذا جاء في التفسير رحمن الدنيا والآخرة ، فلولا رحمته العامة ما بقي أحد على وجه الأرض ، أما الرحيم فهي خاصة بالمؤمنين .

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ : فيه إثبات صفة الرحمة ، وإثبات سعتها ، وإثبات صفة العلم ، وإثبات سعته ، ففيه شمول رحمته ، كما فيه شمول علمه ، فما استقام أمر العالم إلا بالرحمة .

﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ : فيها إثبات صفة الرحمة .

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ : فيه إثبات صفة الرحمة أيضًا .

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ ، ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ، ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ : هذه الآيات فيها إثبات صفة الرحمة للّه تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته على حد قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ، فهي رحمة حقيقية ، بل هي أحق الحقيقة ، كما أن للمخلوق رحمة حقيقية تختص به .

وكثير من شراح الكتب صرفوا معنى هذين الاسمين عن مدلولهما ؛ فمنهم من يقول : إنه المنعم الحقيقي . ومنهم من يقول : الرحمة إرادة الإنعام . ونحو ذلك ، وكل هذا من الكلام الباطل ، ما حملهم عليه إلا سوء الفهم ، ولو فهموا فهمًا صحيحًا ما صرفوه عن مدلوله ، فإن الذي عليه أهل السنة والجماعة قاطبة ، أنهم يصفون اللّه تعالى بما وصف به نفسه في كتابه ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل .

ثم يلزمهم في قولهم : الرحمة إرادة الإنعام ، إما أن يقولوا : إنها كإرادة المخلوقين . فنقول لهم : شبهتم . وإما أن يقولوا : إنها إرادة حقيقية تليق بجلال اللّه وعظمته . فنقول لهم : فما يمنعكم أن تقولوا في الرحمة إنها حقيقية تليق بجلال اللّه وعظمته ؟ !

وأيضًا ؛ فما يقال في الصفات فرع عما يقال في الذات ، فيجب أن نصف اللّه تعالى بما وصف به نفسه في كتابه ، ونؤمن بما جاء عن اللّه على مراد اللّه على ما يليق بجلال اللّه وعظمته ، ونقول : للّه صفات ثابتة حقيقية ، لا تشبه صفات المخلوقين ، كما أن للّه ذاتًا حقيقية ثابتة لا تشبه ذوات المخلوقين ، ونعتقد أن الصفات حقائق ، ولا نقف عندها ، بل نستمر كما استمر الكتاب العزيز ، ونقف حيث وقف .

وقوله : ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ : فيه إثبات صفة الرضا ؛ رضا يليق به ، الله أعلم بكنهه وكيفيته .

وقوله : ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ : فيه إثبات صفة الغضب ، وإثبات صفة اللعن بالقول ، قال المصنف : « لا مانع من أن يقع اللعن من الله قولًا بالكلام » . وهو ظاهر النصوص أنه يلعن من يستحق اللعن بالقول ، كما أنه تعالى يرضى عمن يستحق الرضا ، ويغضب على من يستحق الغضب .

وقوله : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ : السخط هو : عدم الرضا ، والسخط إلى الكراهة أقرب منه إلى الغضب ، فإن الغضب يعدى بعلى ، وفيه إثبات الرضا ؛ فإن الله يرضى حقيقة ، كما أنه يسخط حقيقة .

وقوله : ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ : ﴿ءَاسَفُونَا﴾ : أغضبونا ، والأسف جاء في القرآن على معنيين : على معنى الغضب ، كما في هذه الآية ، وجاء بمعنى الحزن ، وليس هو المراد هنا ، وإنما هو من صفات المخلوقين ، كما في قصة موسى : ﴿غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ ، والأسيف : الحزين ؛ مثل قوله : « إن أبا بكر رجل أسيف إذا قرأ القرآن » . والله سبحانه منزه عن الحزن ، وفيه إثبات صفة الانتقام .

وقوله : ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ﴾ : فيه إثبات صفة الكراهة ، أن الله يكره من يستحق الكراهة على ما يليق بجلاله وعظمته .

وقوله : ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ : فيه إثبات صفة المقت على ما يليق بجلال الله وعظمته ، أن الله يمقت من يستحق المقت من الأقوال والأفعال .

وهذه الآيات فيها إثبات هذه الصفات لله سبحانه وتعالى على ما يليق بجلاله وعظمته من غير تمثيل .

وقوله : ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ﴾ : فيه إثبات صفة الإتيان يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده ، إتيانًا يليق بجلاله وعظمته ، لا نكيف ولا نشبه .

وقوله : ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾ : كالتي قبلها في صفة إتيان الرب يوم القيامة حقيقة ، وفيه ما يرد على المحرفين الذين يقولون : يأتي أمره ، وأمره معطوف على إتيانه ، وأمره لم يزل يأتي في الدنيا والآخرة ، فدعواهم فيه مجاز الحذف ، باطلة مخالفة للنصوص وما عليه الجمهور ؛ بل يأتي تعالى بذاته على ما يليق بجلاله وكبريائه .

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ : فيه إثبات مجيء اللّه سبحانه على ما يليق بجلاله من غير تمثيل ، وتأويل ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ بـ « جاء أمر ربك » : فاسد ؛ من جهة أنه باطل ، وهو من كلام المبتدعة ، وأيضًا فاسد من أمر آخر ؛ وهو أن أمر اللّه لا يزال يجيء ؛ ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ .

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ : هذه الآية فيها إثبات صفة ، وهي إتيان الربِّ يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده ، فإنه كما جاء في تفسيرها أن الأرض بعد ما تُمدُّ يوم القيامة مدَّ الأديم العُكاظيّ ، فيحشر من كان في الأرض ، ثم بعد ذلك تنشق السماء الدنيا ، فينزل من فيها من الملائكة ، فتحيط بمن في الأرض كلهم ، ثم الثانية ، ثم الثالثة ... إلخ ، ثم ينزل الربُّ تعالى للفصل بين عباده ؛ ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ ، فصار فيها إثبات صفة الإتيان ، لا نعلم كنهها ولا كيفيتها ، مجيء حقيقة على ما يليق بجلال اللّه وعظمته ، ولنعرف أن ما جاء في الآية في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ أن المراد هو : جبريل . وأما ما في الحديث في البخاري[1] ، فالمراد : الباري جل جلاله ، وهو معروف عند أهل التحقيق .

وقوله سبحانه : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ : هذه الآية فيها إثبات صفة الوجه على ما يليق بجلال اللّه وعظمته ، وفيها وصف وجه الباري بالجلال والإكرام .

و﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ : فيه إثبات صفة الوجه على ما يليق بجلال اللّه وكبريائه وعظمته وتقدست أسماؤه ، وهذه الصفة مما ادعت فيه الجهمية المجاز ، واختلفوا في جهة مجازه ، وهو باطل .

وقوله : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ : هذا قوله لإبليس ؛ تبكيتًا له ، ففيه إثبات صفة اليدين للّه سبحانه حقيقة على ما يليق بجلاله وعظمته ، وفيه إبطال قول من قال : إن اليد النعمة ، فإن اللّه تعالى ذكر الخلق وذكر ما يخلق به ، وأيضًا القدرة ما جاءت قدرتين أو نعمتين وقرن بالفعل ، فتعين أن تكون اليدين ، وأنها على الحقيقة ، ومثل : « خَلَقَ اللّهُ آدمَ بيده »[2] ، المراد : اليد التي بها الفعل .

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ : فيه إثبات صفة اليدين ، الأولى بالإفراد ، والثانية بالتثنية حقيقة على ما يليق بجلال اللّه وعظمته ، وفيه إثبات هذا البسط ، والبسط في كلام العرب هو السعة وكثرة العطاء ، كما في الآية الكريمة : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ الآية ، وفيه بيان لكمال جوده سبحانه ، كما أتى

(١) البخاري (٧٥١٧) ، ومسلم (١٦٢) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٢) ابن جرير في « تفسيره » (١/١٨) ، والحسين المروزي في « زوائده على الزهد » (١٤٥٨) .

في قصة الخضر وموسى حين أتى عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر نقرة أو نقرتين في البحر، فقال الخضر لموسى عليه السلام: «ما علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في هذا البحر»[١]. وكما في الآية: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾، وجاء في الحديث: «إحداهما يمين، والأخرى شمال، وكلتا يدي ربي يمين»[٢].

وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾: هذه الآية فيها إثبات صفة العينين لله سبحانه وتعالى على ما يليق بجلاله وعظمته.

﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾: فيه إثبات العينين، وأتت بصيغة الجمع؛ لتناسب ضمير العظمة، والمراد به المثنى، وهذا الجمع في قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ إنما هو للتعظيم، إذا صار «نا» للتعظيم؛ فما قبله يجري مجراه، وجاء في الحديث أنه ﷺ وضع أصبعيه على عينيه، كما تقدم.

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾: «عيني»: مفردٌ مضافٌ جارٍ على ما تقول العرب في كلامهم: «رعيتك بعيني»، ونحو ذلك، والمراد المثنى، وكذلك الثلاث فيها تشوه، وكذلك الواحدة، فإن في الحديث: «إن ربكم ليس بأعور»[٣]، نؤمن به ونكلُ كيفيته.

وقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾: هذه الآية فيها إثبات صفة السمع من ثلاثة أوجه: الأول: بصيغة الماضي. والثاني: بصيغة المضارع. والثالث: بصيغة اسم الفاعل. وفيها إثبات صفة البصر من غير تمثيل.

وهذه الآية نزلت في المرأة المجادلة، التي ظاهر منها زوجها، وكان لها منه عيال، وكانت فقيرة، فجاءت تشتكي إلى النبي ﷺ، قالت عائشة رضي الله عنها: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، إن كانت لفي البيت تكلم الرسول ويخفى علي بعض حديثها، وهي تقول: يا رسول الله أكل مالي، وأفنى شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك. قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية».

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾: فيها إثبات صفة السمع أيضًا،

---

(١) «صحيح الجامع» للألباني (حديث رقم: ٤٣٥٧).

(٢) الترمذي (٣٣٦٨)، وابن حبان (١٤/٤٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (حديث رقم: ٣٣٦٨).

(٣) البخاري (٧١٣١)، ومسلم (٢٩٣٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وأهل السنة يثبتون السمع والبصر ، والحياة والقدرة ، والعلم والكلام ، وغيرها من الصفات الخبرية ، كالوجه واليدين والعينين ، والغضب والرضا ، والصفات الفعلية كالضحك ، والنزول ، والاستواء على العرش ، وهي صفات كمال ، وأضدادها صفات نقص ينزه عنه الرب ، ويعتقدون لها معان حقيقية ، ويفسرونها ويبينونها ، خلافًا للجهمية وغيرهم .

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ : أنكر تعالى على من ظن أن الله لا يسمع ؛ يعني : بلى ، نسمع سرهم ونجواهم ، ورسلنا لديهم يكتبون .

وقوله : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ : هذه الآية فيها إثبات صفة السمع ، كما أنه يسمع جميع المسموعات ، فكذلك يرى جميع المرئيات .

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ : فيه إثبات أن الله يرى جميع المرئيات والمبصرات .

﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ : هذه الآية كالتي قبلها .

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ : فيه إثبات رؤية الله لأعمال العباد .

وقوله : ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ ؛ أي : المماحلة ، وهي العقوبة والأخذ لمن عصاه .

وقوله : ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ : هذه فيها إثبات هذه الصفة أنه يمكر مكرًا حقيقيًا ، على وجه لا نقص فيه ، على ما يليق بجلاله من غير تمثيل ، بخلاف مكر المخلوق فإن فيه ما هو على وجهه ، وفيه ما هو مذموم .

وقوله : ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ : فيه إثبات صفة المكر لله بمن مكر به ، على ما يليق بجلال الله وعظمته ، حقيقة على وجه جميل حسن يليق به سبحانه ، من غير تمثيل بمكر المخلوقين وصفاتهم ، فما فيه الذم والعيب فهو منزه عنه تعالى وتقدس .

وقوله : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ : هذه الآية فيها إثبات صفة الكيد .

ولنعرف أن ما جاء في النصوص من ذلك ، أن ما كان منه على وجه مذموم لا يضاف إلى الله ، لا يضاف منه إلا الوجه المحمود الممدوح الكمال ، ولنعرف ما ورد بلفظ الفعل فنقول : لا يطلق على الله إلا ما جاء في النص ، فلا يلزم من الإخبار عنه بالفعل أن يشتق منه اسم مطلق ، كالمضل والماكر ، وهنا قاعدة ذكرها ابن القيم في « المدارج » وكأنه أخذها من الاستقراء : أن الإخبار بالفعل أوسع من التسمية .

وقوله : ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ : فيه إثبات صفة العفو والقدرة ؛ والعفو : أصله بواوين ، لكن أدغمت الواو في الواو ، فصار « عفوًا » ، والعفو : هو

الترك ، ترك صاحب الجريمة عن مجازاته عليها ، والعفو- مشددًا- : الكثير والعظيم العفو والتجاوز عن عباده ، اسمه عفو ، وصفته عفو- بالتخفيف- عفو يحب العفو ، ويحب من عباده أن يعفو بعضهم عن بعض عن حقه ، والعفو أكمل ما يكون وأجمله إذا كان عن قدرة ، وإلا فربما يوجد عفو ممن يصدر منه العفو مع عدم قدرة ، أو ضعف ، أو يخاف ألَّا يأخذ حقه ، أما من عفا لا عن ضعف فهذا هو أكمل ، ولذلك جاء مقرونًا به القدرة ، فإنه أكمل .

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ : ففيها إثبات صفة المغفرة والرحمة ، ففيها إثبات هذين الاسمين للَّه تعالى « الغفور ، والرحيم » فأفادا اتصافه بمدلولهما من الرحمة والمغفرة ، وأفاد أيضًا بصفة الفعل ، فكان في الآية دليلان : الأول : يغفر . والثاني : غفور .

والمغفرة : اشتقاقها من الغفر ، وهو الستر ، ومنه : المغفر على الرأس ، فمغفرة الذنوب وقاية شرها وسترها ، والمصنف رحمه الله قرر في هذه المسألة ، أنه لا بد من الوقاية والستر ، فإن المغفر يستر الرأس ويقيه السلاح ، والقرآن لا يسلم أن يكون فيه عطف على متساويين- مثل اسم على اسم ، أو فعل على فعل- معناهما واحد ، وهو نزل بأفصح اللغات ، وإلا بعض أناس يظن أن فيها عطفًا مرادفًا محضًا على مرادفه بمعانيه الكلية الكاملة ، وهذا ذكره شيخ الإسلام في « الإيمان الكبير » في العطف .

وقوله : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ : هذه فيها إثبات صفة العزة ، وهي مدلول اسمه تعالى العزيز . العزة : تطلق ، ويراد بها القوة والغلبة .

وقوله عن إبليس : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ : فيها إثبات صفة العزة ، وهي مدلول اسمه العزيز .

وقوله : ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ : ﴿تَبَارَكَ﴾ ؛ أي : بلغ في البركة النهاية والغاية ، والنفع والسعة ، والبركة : هي كثرة النفع .

وفي هذه الآية إثبات الأسماء للَّه سبحانه ، والمراد بالاسم : جنس جميع الأسماء ، فإنه مفرد مضاف إلى معرفة ، فشمل وعم جميع الأسماء ، فدل على أن للَّه سبحانه أسماء ، وأنها بلغت في كثرة النفع والخير للغاية ، وفيها إثبات صفة الجلال والإكرام للَّه سبحانه وتعالى .

وقوله : ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ : هذه الآية فيها أنه لا سمي له ، استفهام بمعنى النفي العام ؛ أي : لا أحد يستحق لاسمه ، ولا مساوي له ، ولا مسامي . هذا من النفي العام .

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ :الكفو : المساوي ، لم يكن له مساويًا أحد ؛ لكماله تعالى في ذاته وأسمائه وصفاته ، وهذا من النفي العام مراد منه الكمال ، فهو مقصود لغيره ، بخلاف الإثبات المفصل ؛ فإنه مقصود لذاته ، وتقدم ، وهذه طريقة الكتاب العزيز في النفي- النفي المجمل- نفي ما

لا يليق بالله نفيًا مجملًا .

وقوله : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ : الند : المثل والشبيه ، هذا من النفي المجمل ؛ يعني : لا مثل له ولا نظير .

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ : ﴿أَندَادًا﴾ : أشباهًا ونظراء ، إنكار على الناس الذين يتخذون الأنداد مع الله ، فهذه الآية من النفي المجمل ، وكذلك نظائرها كقوله : ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ ، وقوله : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ .

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ : هذه الآية يقال لها : آية العز . وجاء في بعض الأخبار أو الآثار : أن البيت الذي تقرأ فيه هذه الآية ؛ يأمن أهله من السراق .

هذه الآية فيها إثبات جميع الحمد لله سبحانه ؛ لذاته ولأسمائه وصفاته ، وعلى قضائه وقدره ، واستحقاقه للحمد سبحانه يفيد أنه متنزه عن جميع النقائص ؛ إذ يستحيل ثبوت الحمد لمن ليس كذلك .

﴿الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ : إلى آخر الآية ، كل جملة من جملها من النفي المجمل ، ففيه نفي الولد لمنافاة ذلك لكمال صمديته وغناه سبحانه ؛ فإنه الغني بذاته عن كل ما سواه .

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ : فيه نفي الشريك في الملك ؛ لمنافاته لوحدانيته سبحانه .

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ : ليس له من خلقه أولياء يتعزز بهم من ذلة ، ولا يتكثر بهم من قلة ، كما يكون للمخلوق ولي يعزه وينصره ، فهو الغني عن ذلك كله الولي الناصر ؛ يعني : لا يحتاج لأنصار ينصرونه من الذل- سبحانه- وإنما اتخذ أولياء من أهل طاعته ، لكن لا من الذل ، وهو والأهم ؛ بأن هداهم إحسانًا منه تعالى ، وهم والوه بالذل والخضوع .

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ : كبره : عظمه . تكبيرًا : تعظيمًا . وهذا يفيد أنه الكبير الذي لا أكبر منه تعالى ، وفيه وصفه بالكبرياء والعظمة ، فهو أكبر من كل شيء ، وأعظم من كل شيء ، وفيه آكدية تعظيمه وإجلاله .

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ : يسبح ؛ منها ما هو تسبيحه بلسان الحال ، ومنها ما هو بلسان المقال ؛ كما قال تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ فجميع الكائنات ناطقة بتسبيحه وتمجيده .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

متصف بصفات الكمال ، متنزه عن جميع النقائص والعيوب .

﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ : هذا فيه إثبات الملك المطلق لله سبحانه من جميع الوجوه ، وفيه إثبات صفات الكمال ؛ إذ يستحيل ثبوت الملك لمن ليس كذلك .

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ : هذا فيه إثبات الحمد لله .

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ : هذا فيه إثبات القدرة لله سبحانه على جميع المخلوقات- الموجودات والمعدومات والممكنات أن توجد- فهيَ مشمولة بقدرته ، وقول بعض العلماء كما يذكره ابن كثير : « إنه على ما يشاء قدير » . ذهول منه ، وبعض المبتدعة ينكر قدرته إلا على ما يشاء ، وأما ما لا يشاء فلا ، وقد ورد المصنف وبين بطلان ما ادعوه بالبراهين الواضحة القاطعة ؛ كهذه الآية ونظائرها ، من أنه سبحانه على كل شيء قدير ، مما يريده ومما لا يريده .

والقدرة والعلم من أشمل صفاته سبحانه وتعالى ، فما من شيء إلا وهو مشمول بالعلم ، وهو أشمل من القدرة ، فالعلم يشمل العلم بالذات وبالأسماء والصفات وبالمخلوقات ، فهو أعلم بنفسه وبغيره ، والقدرة تشمل جميع المخلوقات ، ولا تشمل الذات والأسماء والصفات ؛ لأنها لا تقبل تصريفًا ولا تبديلًا ، وهذا مستثنى بالعقل .

وقوله : ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَـدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ : ﴿تَبَارَكَ﴾ : تعاظم ، بلغ في البركة نهايتها وغايتها ، والبركة : كثرة النفع وكثرة الخير ؛ يعني : بلغ فيها النهاية ، وهذه الصيغة « تفاعل » جاءت في القرآن مطردة في حق الله تعالى خاصة ، فلا يجوز إطلاقها على المخلوق ، فلا يقال : تباركت علينا ، ونحو ذلك ، فإن الله هو المتبارك والعبد هو المبارك .

﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ : هذا أحد أسماء القرآن ، وسمي فرقانًا ؛ لفرقه بين الحق والباطل .

﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ ؛ يعني : محمدًا ، هذه هي العبودية الخاصة ، وذلك أن أشرف حالات العبد ما يكون فيه طاعة خالقه وموجده ، فإن شرف المخلوق بطاعة خالقه .

﴿لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ : للخلق ، وهم الثقلان .

﴿نَذِيرًا﴾ : للذين فيهم أهلية للنذارة وأهلية للتكليف .

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ : هذا فيه تفرده بملك السماوات والأرض ، فيفيد اتصافه بصفات الكمال ، وتنزهه عن جميع النقائص والعيوب .

﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَـدًا﴾ : نفي الولد لمنافاته صمديته تعالى .

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ : نفي الشريك لمنافاته لوحدانية الباري جل جلاله .

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ : فيه تفرده بخلق كل شيء .

﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ : هيئة تهيئة كل شيء على ما يناسبه ويشاكله ، فأول ما خلق اللَّه القلم قال له : اكتب . قال : رب ، وما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة . فأفادت هذه الآية الإيمان بالقدر .

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۢ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ : هذا فيه نفي الولد عن اللَّه ، ونفي الإله مع اللَّه ، نفي الولد عن اللَّه لمنافاة الولد لصمديته ، و« ولد » نكرة في سياق النفي ، وقد دخلت عليها « من » ؛ فصار من أبلغ النفي .

﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ﴾ : لجميع المخلوقات ، ﴿إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۢ بِمَا خَلَقَ﴾ لو قدر- تعالى اللَّه وتقدس- أن مع اللَّه إلها ثانيًا لهذا الوجود ويستحق أن يعبد ؛ للزم أن يذهب كل إله بما خلق ، لا تتحد ولا تتفق إرادتهما ، ولو اتفقت وقتًا ما ؛ ما اتفقت إلى الأبد ، كما قال تعالى : ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ .

﴿وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ : وللزم من ذلك أن يعلو بعضهم على بعض ، فلما كان الوجود خاليًا من هذا ؛ تبين أن اللَّه هو المستحق أن يفرد بالعبادة ، وهذه الآية سيقت لتقرير توحيد الألوهية والعبادة ، وأن اللَّه هو المستحق أن يعبد وحده دون كل من سواه ، كما قرره الشيخ تقي الدين وتلميذه ابن القيم .

وزعم طائفة من المتكلمين : أنها سيقت لنفي التمانع ، والصحيح : أن دليل التمانع عقلي ، وأن الآية لم يقصد بها ذلك ، وإنما كان المقصود بها إفراد اللَّه بالعبادة ، وإن كان يلزم من ذلك ويقتضي صحة التمانع من ضمنها ، ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾) .

﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ : هذا فيه منع ضرب الأمثال للَّه سبحانه وتعالى ، فيفيد أنه تعالى لا مثل له ؛ إذ لو كان له مثل- تعالى اللَّه وتقدس عن ذلك علوًّا كبيرًا- لما نهى عن ضرب الأمثال له ، فلما نهى عن ضرب الأمثال له ؛ علم أنه سبحانه لا مثل له ، وهذا من أعظم ضروريات العقل ، أنه لا يماثله شيء من خلقه تعالى .

وقوله : ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ : هذه الآية الكريمة جمعت أصول المحرمات متنقلًا فيها من الأدنى إلى الأعلى ؛ فأدنى المحرمات ﴿ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ ، ثم ﴿ٱلۡإِثۡمَ﴾ وهو أعظم الفواحش ، ﴿وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ وهو أعظم من الإثم ، ﴿وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ وهو أعظم من البغي بغير الحق ، ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ هذا أعظم من الشرك ، وإنما كان

أعظم ؛ لأنه يستلزم الشرك وزيادة .

فأعظم المحرمات : القول على الله بلا علم ، وإذا عرفت أنه أعظم هذه المحرمات ، فالقول على الله بلا علم أقسام :

شَيْءٍ القول على الله بلا علم في أوامره ونواهيه ، وشرعه ، ودينه ، وتحليله وتحريمه .

شَيْءٍ والقول عليه بلا علم في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله .

فالقول على الله بلا علم في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، أعظم من القول عليه بلا علم في أوامره ونواهيه ، وشرعه ودينه ، وتحليله وتحريمه ، وأعلى مرتبة في التحريم ، وإن كان في الثاني ما يرجع إلى تنقصه في أسمائه وصفاته ، ومعلوم أن من أثبت لله صفة ، أو اسمًا ما أثبته لنفسه ، أو نفي عنه ما اتصف به ، فهو قائل عليه بلا علم ، وهو مخالف للكتاب والسنة والشرع والقدر ، كاذب ، ضال عن الصراط المستقيم ، فإن قوى العباد لا تقدر أن تصل إلى شيء من ذلك بعقولها ولا بأفهامها ، ولا طريق إلى ذلك إلا بالكتاب والسنة ، والسالم الناجي يوم القيامة ، هو الناطق بما نطق به الكتاب والسنة والواقف حيث وقفا . فنؤمن بما جاء عن الله وبما جاء عن رسول الله ، نؤمن باللفظ والمعنى جميعا ، ونعتقده حقيقة على ما يليق بجلال الله وعظمته .

وبهذا تعرف أن طائفتي الضلال والانحراف من نفاة الصفات هم أعظم القائلين على الله بلا علم ، سواء بجحد أو تعطيل ، أو تكييف أو تمثيل ، وإنما سلم من القول على الله بلا علم ، من اتبع النبي الكريم ، وأصحابه والتابعين ، المقتفين لهديه الكريم .

وقوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ : في سبعة مواضع كل واحد فيه التصريح باستواء الله على العرش ، وهو من أدلة علو الرب وفوقيته ، وفسر السلف ﴿ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ بأربعة أشياء : بـ « علا » ، وبـ « ارتفع » ، وبـ « استقر » ، و« صعد » ، ولم يجيء في الكتاب والسنة أنه استوى على مخلوق آخر ، أو على المخلوقات جميعها ، بل ما جاء إلا خاصًا بالعرش ، فدل على إثبات الاستواء على العرش ، لا كاستواء المخلوقين ، وكنه ذلك وكيفيته إلى الله ، قال مالك رحمه الله لما أتاه رجل فسأله ، فقال : استوى ! كيف استوى ؟ فقال : « الإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » . ثم أمر بإخراجه عنه ، وقال : « أراك رجل سوء- يعني : مبتدع- أخرجوه عني » . وهذا مثله لشيخه ربيعة ، وروي عن أم مسلم رضي الله عنها موقوفًا عليها ، وروي مرفوعًا إلى النبي ﷺ ، والموقوف أصح ، وهذا له بالحرف والمعنى ، وهو لجميع أئمة أهل السنة السلف والخلف بالمعنى ؛ كالإمام أحمد ، والليث بن سعد ، وإسحاق بن راهويه .

وقوله : « معلوم » ؛ أي : لفظه ومعناه من كلام العرب الذي نزل القرآن بلغتهم ، وليس المراد

بمعرفة لفظه ومعناه ، أن هذه الأحرف مجتمعة ، معلومة الاجتماع وأن تركيبها كذا ، « والكيف مجهول » علمه وحقيقته موكولة إلى اللَّه لا يعلمه الخلق ، ولا يصلون إليه لا شرعًا ولا قدرًا ، بل لا يليق أن تصل قوى البشر أن يحيط المخلوق بكنه الخالق ؛ بل هو سبحانه يعلم ولا يحاط به علمًا ، نعلمه بما أعلمنا ، وأما إدراكه على ما هو عليه فلا ، بل ممنوع التفكر في ذلك وعبث ، فمنع « كيف » في صفات اللَّه كمنع « لم » في أفعال اللَّه ، منع « كيف » بقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ ، ومنع « لم » بقوله : ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ .

ونعرف هذا في الذات ونعرفه في الصفات ، ونقول : معنى الرضا والغضب والمحبة ونحو ذلك معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، فإذا عرفت أنه جاء استواؤه تعالى على العرش مطردًا في النصوص في القرآن والسنة ، ولم يجيء استواؤه على غير العرش ولا في موضع واحد ، وتفطنت لذلك وتنبهت له ؛ عرفت صحة قول أهل السنة والجماعة في ذلك . هذا دليل واضح لأهل السنة والجماعة ، في أنه استوى على العرش حقيقة على ما يليق بجلاله وعظمته .

وقد حرفت الجهمية وألحدت وقالوا : استولى على العرش . وزعموا أن هذه النصوص لا تدل إلا على الاستيلاء ، فزادوا لامًا كما زادت اليهود نونًا .

ويقال لهؤلاء المبتدعة : الاستيلاء مشترك بين المخلوق والخالق ، ثم أيضًا الاستيلاء لا يكون إلا لمن كان مغلوبًا ثم غلب ، وهذا لا يجوز في حق اللَّه تعالى ، فإنه ليس مغلوبًا- تعالى على عرشه- حتى يقهر من غلبه ويستولي عليه ، وإنما يقال هذا في حق المخلوق المغلوب على الشيء .

ثم يقال لهؤلاء المبتدعة : أتثبتون استيلاء من جنس استيلاء المخلوقين ؟ فإن قالوا : نعم . قيل لهم : شبهتم . وهم لا يقولون ذلك ، وإن قالوا : لا كاستيلاء المخلوقين . فيقال لهم : لم لا تقولون استواء يليق بجلال اللَّه وعظمته ، وتلجئون إلى ما أتى به الكتاب والسنة وتسلمون من التشبيه ؟ !

وهذا خذه معك في جميع الصفات ، كالإرادة ، فإنه ما من محذور يظنه المبتدع ، إلا ويقع في مثله ونظيره ، أو شر مما فر منه وأشد ، ولو قصد التنزيه .

وهذه الآيات السبع على قسمين :

منها : ما فاعل الاستواء فيها ضمير مستتر « هو » يعود على اللَّه سبحانه ؛ يعني : ربكم .

ومنها : ما هو اسم مظهر مرفوع ، وهو في آية الفرقان « الرحمن » ، والسر في ذلك- واللَّه أعلم- أن العرش أوسع المخلوقات ، ورحمته وسعت كل شيء ، فاستوى بأوسع صفاته على أوسع مخلوقاته .

في سورة « الأعراف » قوله : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ... ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ : وتعرف أن الإتيان بـ « ثم » على بابها ، وقد حاول بعض المبتدعة ألَّا يجعلها على

بابها ، فالاستواء أمر زائد على مطلق العلو ، ومطلق العلو دل عليه السمع والعقل . والاستواء دل عليه السمع فقط ، وهو صفة فعل زائد على مطلق العلو ؛ فإن العلو أقسام ثلاثة : علو الذات على جميع المخلوقات ، وهو صفة فعل كما تقدم . والثاني : علو القدر والشرف . والثالث : علو السلطان والقهر والغلبة . وله سبحانه العلو بجميع الوجوه .

وقال في سورة « يونس » عليه السلام : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ . وقال في سورة « الرعد » : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ . وقال في سورة « طه » : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ . وقال في سورة « الفرقان » : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ : ثم السر في اختصاص العرش بالاستواء ، وذكر فاعل الاستواء باسم الرحمن ، لأمرين : سعة الرحمة ، وسعة العرش . وقال في سورة « ألم السجدة » : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ . وقال في سورة « الحديد » : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ . والاستواء على العرش نوع من أنواع العلو ، وهو أخص منه ، وطرق إثبات العلو واحد وعشرون طريقًا ، ذكرها ابن القيم في النونية :

أحدها : العقل الصريح .

والثاني : نصوص الاستواء على العرش ، ويشير المؤلف إلى بعضها قريبًا .

وكل دليل من أدلة العلو تحته أفراد أدلة ، منها ما يبلغ مائة من الكتاب والسنة ، وأقلها يبلغ إلى خمسة أدلة أو ستة ، فجميعها يبلغ ألف دليل ، وكلها نصوص تدل على أنه فوق مخلوقاته على عرشه ، من غير تكييف ولا تمثيل ، كما قال ابن المبارك رحمه الله لما سئل : بماذا نعرف ربنا ؟ قال : « بأنه فوق سماواته على عرشه ، بائن من خلقه » . وكل دليل يصلح للاستواء ، فهو دال على العلو ، ولا عكس .

وقوله : ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ : هذا من جملة نصوص العلو ، إثبات علو الرب وفوقيته ، لا يكون إلا من أسفل إلى فوق- من الأدنى إلى الأعلى- و﴿وَإِلَىَّ﴾ للانتهاء .

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ : كذلك هذه الآية مثلها .

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ : هذه دالة على علو الرب وفوقيته من جهتين :

الأولى : قوله : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ﴾ والصعود لا يكون إلا من الأسفل إلى الفوق .

والثاني : قوله : ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ فمن قال كلامًا طيبًا ، وشفعه العمل الصالح ، فإنه يرفعه العمل الصالح إلى الله ، فدل على أن الله في العلو ، فهذه ثلاث نصوص من أحد وعشرين .

وقوله : ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ * أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ : ﴿يَٰهَٰمَٰنُ﴾ وزيره ، ﴿ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ الصرح : هو البناء المرتفع ، ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ﴾ وأصل ﴿ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ الطرق ، ﴿أَسْبَٰبَ﴾ طرق ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ﴾ فأشرف وأنظر ، ﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ هذا من حماقة فرعون وجهالته ، ينكر ما جاء به موسى جملة ، وينكر ربه ، وينكر علوه ، وهذا كذب منه وتلبيس به على رعاياه من غير إتيان ببرهان ، فهو إمام الجهمية والمعتزلة وفروعهم ، كما أن إمام أهل السنة سيد المرسلين ، ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ كذب موسى ، وهو الكاذب الجبار الجاحد الكافر ، وموسى عليه السلام هو البار الصادق ، وإنما قال ذلك ؛ لأن موسى أخبره أن معبوده فوق السماوات ، فقال ذلك مكذبًا لما قاله موسى ، فإن فرعون معطل جاحد ، ولهذا قال : ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ، وهذا يفيد أن موسى عليه السلام بين أن معبوده فوق السماوات .

فعرفت أن إثبات العلو هو مسلك المرسلين وأتباعهم الصالحين ، وجحده مذهب فرعون اللعين وأتباعه الجهميين الضالين ؛ لأنه يرجع إلى لا شيء .

وقوله : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ : استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع لمن أمن ذلك ، أن يعاقب على كفره ، ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ : هاتان الآيتان فيهما إثبات علو الرب وفوقيته ، فإن ﴿فِى﴾ في الآيتين إما أن تكون بمعنى « على » ، كما في قوله : ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ ؛ أي : على جذوع النخل ، وكقوله : ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ؛ أي : عليها ، فالمعنى : آأمنتم من على السماء . وإن كانت على بابها وهي الظرفية ، فيكون المراد بالسماء العلو ، فاللَّه في العلو المطلق ، وقد سئل ابن المبارك : بماذا نعرف ربنا ؟ فقال : « بأنه فوق سماواته على عرشه ، بائن من خلقه » .

قد تقدمت نصوص الاستواء ، وكذلك نصوص العلم ، ومقصوده بسياق هذه الآيات إثبات صفة المعية ، وأن اللَّه مع خلقه معية حقيقية تليق بجلال اللَّه وعظمته ، والمعية : عامة ؛ ومقتضاها : العلم والقدرة ، والإحاطة والاطلاع . وخاصة ؛ ومقتضاها : مقتضى المعية العامة والحفظ والتأييد ، والكلاءة والنصر ، فهي تقتضي ما تقتضيه العامة وزيادة .

وقوله : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ : هذه الآية فيها إثبات صفة المعية العامة ، أن اللَّه مع خلقه حيث ما كانوا على المعنى الذي يليق بجلاله .

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ

أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ : هذه كالتي قبلها في إثبات صفة المعية العامة ، وفيها إثبات صفة العلم ، وابتدأ به واختتمت به ، وسيقت لمقتضاها ؛ وهو العلم ، والدليل على أن هذا مقتضاها : كونها مبدوءة بالعلم ومختتمة به ، كما أن من مقتضاها القدرة والاطلاع ، ونحو ذلك .

وتطلق في حقه تعالى ولا تقتضيَ امتزاجًا ولا اختلاطًا أبدًا ، وليس معيته تعالى مع خلقه كمعية الخلق بعضهم مع بعض ، واختلاط بعضهم ببعض ،- تعالى اللّٰه وتقدس عن أن يشابهه شيء من خلقه- ، فكما نقول : إن للّٰه صفات تليق بجلاله وعظمته مختصة به ، لا يشركه فيها أحد ، ولا يشاكله فيها أحد ، فكذلك نقول في المعية ، والذي حمل بعض السلف على تفسيرها ببعض مقتضاها :

أولًا : أنهم ابتلوا بمن ينفي العلو ، ويقول : إنه ممتزج بالخلق ، ففسروها بالعلم ، ردًّا على الحلولية من الجهمية الذين زعموا أنه في كل مكان ، وأنكروا علوه على خلقه واستواءه على عرشه . فهذا الذي من أجله قالوا بعلمهن وإلا فمعنى المعية عندهم واضح كالشمس .

ثانيًا : أن التفسير بالمقتضى سائغ ، ووجه من أوجه التفسير .

وأهل وحدة الوجود الذين يقولون : إن الوجود واحد ، ليس فيه خالق متميز عن مخلوق ، هم وأهل الاتحاد شيء واحد ، وهم أعظم من أهل الحلول . أهل الحلول يقولون : هنا إله ، لكنه حل في المخلوقات- والعياذ بالله- ويأتي فصل في بيان الجمع بين العلو والمعية .

وقوله : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ : هذه الآية فيها إثبات المعية الخاصة ، ومقتضاها الحفظ والكلاءة ؛ يعني : ولا يترك الأعداء يتولونا ، بل يتولانا ويكلؤنا ، فمقتضاها مقتضى العامة وتزيد على ذلك بما سيقت له وخص بها ، وهي النصر والكلاءة ، والحفظ والتأييد ، ونحو ذلك كما تقدم .

وقوله : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ ؛ يعني : موسى وهارون ، وهذا من المعية الخاصة أيضًا .

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ : هذه مثل ما تقدم ، فيها إثبات المعية الخاصة أيضًا .

﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ : هذا فيه إثبات المعية الخاصة أيضًا .

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ : هذا مثل ما تقدم ، فيه إثبات المعية الخاصة أيضًا ، معية تليق بجلال اللّٰه وعظمته ؛ كونه مع أهل القيام بما أمر به من الصبر والطاعة ، وغير ذلك بحسب مواطنها ، فإنها في الآيات كما بين ذلك ، وتقدم بيان مقتضاها ،

فالمعية في النصوص معيتان :

عامة : كما في آية « الحديد » ، و« المجادلة » .

وخاصة : كما في هذه الآيات ونظائرها .

وكلا المعيتين لا تقتضي الامتزاج والاختلاط ، فهو تعالى على العرش حقيقة ، ومع خلقه حقيقة ، أما القرب فلم يرد إلا خاصًا ، وهو قربه من عابديه وسائليه فقط ، كما ورد في النصوص .

وقوله : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ : فيه إثبات صفة الكلام ، وأن اللَّه متكلم حقيقة ، وفيه تسميته بالحديث ، وهو مثل القول .

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ : فيه إثبات صفة الكلام ، وتسميته « قيلا » ، وأن للَّه « قيلا » .

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ : فيه إثبات أن اللَّه قال ، فأسند القول إلى فاعله ، وهو من صدر منه القول ، فإنه قال ويقول .

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ : فيه إثبات صفة الكلام ، الكلمة في لغة العرب لا تطلق إلا على الجملة المفيدة .

﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ : فيه إثبات صفة الكلام ، ﴿تَكْلِيمًا﴾ : مصدر مؤكد لعامله ، ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ﴾ : وهو يرجع إلى التأكيد اللفظي ؛ لرفع توهم غير إرادة الحقيقي ، والأصل في الكلام هو الحقيقة ، ولا يصار إلى المجاز إلا لموجب ، وأن اللَّه تعالى كلم موسى كلامًا حصل من اللَّه تعالى وسمعه موسى ، فدل على أن اللَّه كلم موسى حقيقة ، وأنه سمع كلام اللَّه حقيقة .

وقد حاول بعض الجهلة المبطلين المنكرين لكلام اللَّه ، أن تكون القراءة بالنصب ؛ يريد أن يكون موسى هو الذي كلم اللَّه ، وأن يكون اللَّه غير مكلم ، وقاله لأحد أهل السنة فقال له : ما تصنع بقوله : ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ ؛ لأن قواعد العربي تأبى ذلك ، فبهت الجاهل ، فهو ظاهر في أن اللَّه هو المتكلم وأن موسى هو المكلم ، فهذه الآية لا يتمكن الجهمي من تحريفها .

﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ : فيه إثبات صفة الكلام أيضًا .

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ : فيه إثبات صفة الكلام للَّه سبحانه على ما يليق بجلاله وعظمته .

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ : هذه الآية فيها إثبات صفة الكلام من وجهين :

الأول : قوله : ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ ، والنداء نوع من أنواع الكلام وهو من بعد .

والثاني : قوله : ﴿نَجِيًّا﴾ ، وهو نوع من الكلام ، وهو يكون من قرب ، وكل جاء في القرآن ، جاء الكلام مطلقًا وجاء النداء والنجاء .

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ : فيه إثبات صفة الكلام .

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ : فيه إثبات صفة الكلام .

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ، وكذلك قوله : ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ : فيه إثبات صفة الكلام لله سبحانه وتعالى على ما يليق بجلاله وعظمته من غير تمثيل .

ومذهب أهل السنة والجماعة أن الله موصوف بالكلام ، وأنه متعلق بمشيئته وقدرته ، لم يزل متكلمًا إذا شاء ، ومتى شاء ، فكما أنه تعالى لا يشبهه شيء من مخلوقاته في ذاته ولا في أسمائه وصفاته ، فكذلك في كلامه .

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ : المراد به القرآن ، فيه إثبات صفة الكلام ، وفيه إضافة الكلام إلى الله ، والكلام إنما يضاف إلى من قاله مبتدئًا ، لا إلى من قال وبلغ مؤديًا ، الإضافة إنما تكون لمن صدر منه الكلام ، وجاء ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وإضافته إلى الرسول إضافة تبليغ .

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ : فيه إثبات صفة الكلام كالتي قبلها ، فدل على أنه كلام الله حقيقة حروفه ومعانيه ، بدليل ما في هذه الآية أنهم يحرفون اللفظ والمعنى .

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ﴾ : فيه إثبات صفة الكلام ، وفيه إضافته إلى الله ، فدل على أن القرآن العزيز كلام الله حروفه ومعانيه ، ليس كلام الله الحروف دون المعاني ، ولا المعاني دون الحروف .

هذه آيات ثلاثة فيها إضافته إلى الله ، والقرآن نزل بلغة العرب ، إذا أضيف الكلام إلى أحد فإنه يدل على أنه أول من قاله .

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ : فيه إثبات صفة الكلام ، وفيه أن القرآن متلو ، وأنه كلمات .

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ : فيه إثبات صفة الكلام . ﴿هَٰذَا﴾ : إشارة إلى القرآن الموجود أنه كلام الله حروفه ومعانيه ؛ إذ الإشارة إلى الجميع ، والقرآن هو ما بين الدفتين ، المنزل على رسول الله ﷺ ، المحفوظ في صدور المسلمين ، الذي يتلوه من حفظه من المسلمين ، المسموع بالآذان ، فالإشارة إلى مراتبه كلها موجود محفوظ متلو مسموع ، فالقرآن له أربع نسب : متلو ، ومسموع ، ومكتوب ، ومحفوظ ، وكل واحدة من هذه النسب لا

تخرجه عن أن يكون كلام اللّه حروفه ومعانيه .

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ : كذلك ، هذه إشارة إلى القرآن حروفه ومعانيه ، وفيه أن القرآن منزل غير مخلوق ، وفيه الدلالة على علو اللّه وفوقيته .

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ : الإشارة إليه بجميع مراتبه كلها ، وإلى حروفه ومعانيه .

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ الآيات دال على أنه منزل ، وجاء في القرآن تسميته سورًا ، كما في قوله : ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ الآية . وجاء في هذه الآية وغيرها أنه آيات وكلمات وحروف ، كما في قوله ﷺ : « من قرأ القرآن فأعربه ، فله بكل حرف عشر حسنات ....» الحديث[1] . فدل على أن القرآن كلام اللّه : السور والآيات والكلمات ، والحروف والمعاني .

وقوله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ : ﴿نَّاضِرَةٌ﴾– بالضاد– من النضارة ، وهي الحسن ، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ من النظر ، وهو المعاينة ، يراه المؤمنون في الجنة ولا يحيطون به رؤية لعظمته وجلاله ، كما أنه يعلم ولا يحاط به علمًا ، وقوله : ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ معناه : لا تحيط به ، ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم ، ففيه إثبات صفة النظر إلى اللّه تعالى عيانًا بالأبصار ، وهو أعظم لذة في الجنة .

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ : الأرائك : جمع أريكة ؛ يعني : في مجالسهم ينظرون إلى ربهم– من النظر ، وهو المعاينة– فلا نعيم ينظر إليه ، ولا سماع ألذ من سماع كلامه ونظره تعالى ، كما جاء في الحديث : « اللهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك »[2] ، كما أنهم كانت أعظم لذتهم في الدنيا سماع كلامه ، وكما رأته عين بصائرهم في الدنيا حتى كأنهم يرونه على ما يليق بجلاله وعظمته من غير تمثيل ، والكفار ما رأته عين بصائرهم في الدنيا ، فكذلك في الآخرة لا تراه أعين أبصارهم ، فأهل الشقاء في جحيم الدنيا قبل جحيم الآخرة ، وأهل الإيمان في جنة في الدنيا وفي الآخرة .

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ الزيادة : هي النظر إلى وجه اللّه تبارك وتعالى .

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ : والمزيد : هو النظر إلى وجه اللّه تعالى ، ومن قال : إن الزيادة

---

(١) الطبراني في « الأوسط » (٧٥٧٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، ويُنظر : « السلسلة الضعيفة » للألباني (٢٣٤٨) .

(٢) النسائي (١٣٠٥) ، والحاكم (٥٢٤/١) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه ، ويُنظر : « صحيح الجامع » للألباني (حديث رقم : ١٣٠١) .

على حسب الأعمال فلا منافاة بينهما ؛ لأن أعلى المزيد هو النظر إلى وجه اللّٰه تعالى .

ففي هذه النصوص الأربعة إثبات الرؤية ، فدل على أن المؤمنين يرونه في الجنة ، ويرونه في عرصات القيامة كما يشاء اللّٰه .

« وهذا الباب » باب الآيات المشتملة على الصفات ، « في كتاب اللّٰه » القرآن ، « كثير ، ومن تدبر القرآن طالبًا للهدي به ؛ تبين له طريق الحق » ، ولا أراد أن هذا الذي سيق وأثبت لإثبات الصفات هو الذي في القرآن كله ، بل في القرآن آيات كثيرة غير محصورة هنا ، ساق المصنف منها طرفًا صالحًا ، وهو كثير بالنسبة إلى هذه العقيدة المختصرة .

ومع أن هذه وجيزة مختصرة ، فقد أتى بنوع كثير منها ، وله غرض في الإكثار من الآيات :

أولًا : أنه يصير من محفوظاته غير حفظه للقرآن .

ثانيا : أهل البدع أثقل شيء عليهم سماع نصوص الصفات .

❁ قال الشيخ زيد بن عبد العزيز آل فياض رحمه الله :

قوله : « وقد دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه في « سورة الإخلاص » التي تعدل ثلث القرآن ، حيث يقول : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١- ٤] » .

* الإشارة في قوله : هذه الجملة يعني التي تقدمت من قوله : وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات .

وقد روى أحمد في « مسنده » عن أبي بن كعب في سبب نزول هذه السورة : أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : يا محمد ، انسب لنا ربك . فأنزل اللّٰه هذه السورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[1] ، وزاد الطبري في روايته : قال : « الصمد الذي لم يلد ولم يولد ؛ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت وليس شيء يموت إلا سيورث ، وأن اللّٰه ﷻ لا يموت ولا يورث ولم يكن له كفوًا أحد ، ولم يكن له شبيه ولا عدل ، وليس كمثله شيء » .

وقال قتادة والضحاك ومقاتل : « جاء ناس من أحبار اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا : يا محمد ، صف لنا ربك لعلنا نؤمن بك ، فإن اللّٰه أنزل نعته في التوراة فأخبرنا من أي شيء هو ؟ ومن أي جنس ؟ أمن ذهب أم من نحاس هو أم من صفر أم من حديد أن من فضة ؟ وهل يأكل ويشرب ؟ ومن ورث الدنيا

(١) مسند أحمد (٢٠٧٠٧) ، وإسناده ضعيف .

ومن سيورثها ؟ فأنزل اللَّه هذه السورة ، وهي نسبة اللَّه خاصة »[١] . وقيل في سبب نزولها غير هذا .

وسورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن ، والأحاديث بذلك تكاد تبلغ مبلغ التواتر ؛ فقد روى البخاري في « صحيحه » عن أبي سعيد أن رجلًا سمع رجلًا يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يرددها ، فلما أصبح جاء إلى رسول اللَّه ﷺ فذكر ذلك له وكأنه الرجل يتقالها ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن »[٢] .

وفي البخاري عن أبي سعيد أيضًا أن النبي ﷺ قال : « أيعجز أحدكم أن يقرأ القرآن في ليلة ؟ فشق ذلك عليهم وقالوا : أينا يطيق ذلك يا رسول اللَّه ! فقال : اللَّه الواحد الصمد ثلث القرآن »[٣] .

وعن عائشة في شأن الرجل الذي بعثه النبي ﷺ في سرية ، فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختمهم بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ، فأخبروا النبي ﷺ فقال : « سلوه لأي شيء صنع ذلك ؟ » . فسألوه ، فقال : لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها . فقال النبي ﷺ : « أخبروه أن اللَّه يحبه » . رواه البخاري ومسلم[٤] .

والأحاديث في فضلها كثيرة جدًا قال الدارقطني : لم يصح فضل سورة أكثر مما صح في فضلها . اهـ .

« والثناء أفضل من الدعاء » ولهذا كانت سورة « الإخلاص » تعدل ثلث القرآن ؛ لأنها أخلصت لوصف الرحمن ، وفي كونها تعدل ثلث القرآن وجوه أحسنها : أن معاني القرآن ثلاثة أنواع : توحيد وقصص وأحكام وهذه السورة صفة الرحمن فيها التوحيد وحده وذلك ؛ لأن القرآن كلام اللَّه ، والكلام نوعان : إما إنشاء وإما إخبار ، والإخبار إما خبر عن الخالق وإما خبر عن المخلوق ، فالإنشاء هو الأحكام كالأمر والنهي ، والخبر عن المخلوق هو القصص ، والخبر عن الخالق هو ذكر أسمائه وصفاته ؛ وليس في القرآن سورة هي وصف الرحمن محضًا إلا هذه السورة .

والتوحيد نوعان : علمي قولي ، وعملي قصدي ؛ فـ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ اشتملت على التوحيد العملي القولي نصًا ، وهي دالة على التوحيد العلمي لزومًا ، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ اشتملت على التوحيد العملي القولي نصًا ، وهي دالة على التوحيد العملي لزومًا ، ولهذا كان النبي ﷺ يقرأ بها في ركعتي الطواف وركعتي الفجر وغير ذلك ، وقال ابن القيم : فسورة « الإخلاص » متضمنة لتوحيد

---

(١) ضعفه الألباني في « السلسلة الضعيفة » (٥٢٠٦) .

(٢) البخاري (٥٠١٣/٦/١٨٩) .

(٣) البخاري (٥٠١٥/٦/١٨٩) .

(٤) البخاري (٧٣٧٥- ٩/١١٥) ، ومسلم (١/٥٥٧) .

الاعتقاد والمعرفة ، وما يجب إثباته للرب تعالى من الأحدية المنافية لمطلق المشاركة بوجه من الوجوه ، والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال الذي لا يلحقه نقص بوجه من الوجوه ، ونفي الولد والوالد الذي هو من لوازم الصمدية وغناه وأحديته ، ونفي الكفؤ المتضمن لنفي التشبيه والتمثيل والتنظير ، فتضمنت هذه السورة إثبات كل كمال له ونفي كل نقص عنه ، ونفي إثبات شبيه أو مثيل له في كماله ، ونفي مطلق الشريك عنه ، وهذه الأصول هي مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي الذي يباين صاحبه جميع فرق الضلال والشرك ؛ ولذلك كانت تعدل ثلث القرآن ، فأخلصت سورة « الإخلاص » الخبر عن الله وأسمائه وصفاته ثلث القرآن ، وخلصت قارئها المؤمن من الشرك العلمي ، كما خلصت سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ من الشرك العملي الإرادي القصدي . اهـ .

وتفضيل أحد الكلامين بأحكام توجب تشريفه يدل على أنه أفضل في نفسه وإلا كان ذلك ترجيحًا لأحد المتماثلين بلا مرجح ، وهذا خلاف ما عرف من سنة الرب تعالى في شرعه ، بل وفي خلقه وخلاف ما تدل عليه الدلائل العقلية مع الشرعية ، وأيضًا فقد قال تعالى : ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ ، وقال : ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ ، وقال : ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ فدل على أن فيما أنزل حسنًا وأحسن .

والقول بأن كلام الله بعضه أفضل من بعض هو القول المأثور عن السلف ، وهو الذي عليه أئمة الفقهاء من الطوائف الأربعة وغيرهم ، وكلام القائلين بذلك كثير مُنتشر في كُتب كثيرة .

والمقصود أن نبين أم مثل هذا من العلم المستقر في نفوس الأمة السابقين والتابعين ، ولم يعرف قط أحد من السلف رد مثل هذا ، ولا قال لا يكون كلام الله بعضه أشرف من بعض ، فإنه كله من صفات الله ونحو ذلك ، إنما حدث هذا الإنكار لما ظهرت البدع الجهمية الذين اختلفوا في الكتاب وجعلوه عضين .

ومعلوم أن الكلام له نسبتان : نسبة إلى المتكلم به ، ونسبة إلى المتكلم فيه ، فهو يتفاضل باعتبار النسبتين ، وباعتبار نفسه أيضًا مثل الكلام الخبري له نسبتان ، نسبة إلى المتكلم المخبر ونسبة إلى المخبر عنه المتكلم فيه ، فـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ كلاهما كلام الله ، وهما مشتركان من هذه الجهة لكنهما متفاضلان من جهة المتكلم فيه المخبر عنه فهذه كلام الله وخبره الذي يخبر به عن نفسه وصفته التي يصف بها نفسه ، وهما في هذه الجهة متفاضلان بحسب المعنى المقصود بالكلامين ؛ ألا ترى أن المخلوق يتكلم بكلام هو كلامه ؟ لكن كلامه الذي يذكر به ربه أعظم من كلامه الذي يذكر به بعض المخلوقات ، والجميع كلامه ؟ .

وقد علم أن تفاضل القرآن وغيره من كلام الله ليس باعتبار نسبته إلى المتكلم ، فإنه سبحانه واحد ،

ولكن باعتبار معانيه التي يتكلم بها ، وباعتبار ألفاظه المبينة لمعانيه ؛ فإذا كانت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن لم يلزم من ذلك أنها أفضل من الفاتحة ، ولا أنها يكتفي بتلاوتها ثلاث مرات عن تلاوة القرآن ، بل قد كره السلف أن تقرأ إذا قرأ القرآن كله إلا مرة واحدة ، كما ثبتت في المصحف ، فإن القرآن يقرأ كما كتب في المصحف لا يزاد على ذلك ولا ينقص منه ، ولكن إذا قرئت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مفردة تقرأ ثلاث مرات وأكثر من ذلك ، ومن قرأها فله من الأجر ما يعدل ثلث أجر القرآن ، لكن عدل الشيء بالفتح قد يكون من غير جنسه ، والثواب أجناس مختلفة ، كما أن الأموال أجناس مختلفة من مطعوم ومشروب وملبوس ومسكون ونقد وغير ذلك .

وإذا ملك الرجل من أجناس المال ما يعدل ألف دينار مثلًا لم يلزم من ذلك أن يستغنى عن سائر أجناس المال ، بل إذا كان عنده مال وهو طعام فهو محتاج إلى لباس ومسكن وغير ذلك ؛ وكذلك إذا كان من جنس غير النقد فهو محتاج إلى غيره ؛ وإن لم يكن معه إلا النقد فهو محتاج إلى جميع الأنواع التي يحتاج إلى أنواعها ومنافعها .

فالقرآن يحتاج الناس إلى ما فيه من الأمر والنهي والقصص ، وإن كان التوحيد أعظم من ذلك ، وإذا احتاج الإنسان إلى معرفة ما أمر به وما نهي عنه من الأفعال أو احتاج إلى ما يؤمر به ويعتبر به من القصص والوعد والوعيد لم يسد غيره مسده ، فلا يسد التوحيد مسد هذا ولا يسد القصص مسد الأمر والنهي ، ولا الأمر والنهي مسد القصص ؛ بل كل ما أنزل اللَّه ينتفع به الناس ويحتاجون إليه ، فإذا قرأ الإنسان ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حصل له ثواب بقدر ثواب ثلث القرآن ، لكن لا يجب أن يكون الثواب من جنس الثواب الحاصل ببقية القرآن ، بل قد يحتاج إلى جنس الثواب الحاصل بالأمر والنهي والقصص ، فلا تسد ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مسد ذلك ، ولا تقوم مقامه ، فلهذا لو لم يقرأ إلا ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ، فإنه وإن حصل له أجر عظيم لكن جنس الأجر الذي يحصل بقراءة ، غيرها لا يحصل له بقراءتها بل يبقى فقيرًا محتاجًا إلى ما يتم إيمانه من معرفة الأمر والنهي والوعد والوعيد .

ولو قام بالواجب عليه فالمعارف التي تحصل بقراءة سائر القرآن لا تحصل بمجرد قراءة هذه السورة ، فيكون من قرأ القرآن كله أفضل ممن قرأها ثلاث مرات من هذه الجهة لتنوع الثواب ، وإن كان قارئ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلاثًا يحصل له ثواب بقدر ذلك الثواب لكنه جنس واحد ليس فيه الأنواع التي يحتاج إليها العبد .

قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يعني : هو الواحد الأحد الذي لا نظير له ولا وزير ولا نديد ولا شبيه ولا عديل ، ولا يطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا ﷻ ؛ لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله ، وقال ابن القيم : قوله : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ توحيد منه لنفسه ، وأمر للمخاطب بتوحيده ،

فإذا قال العبد : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ كان قد وصف الله بما وصف به نفسه ، وأتى بلفظة ﴿قُلْ﴾ تحقيقًا لهذا المعنى وأنه مبلغ محض قائل لما أمر بقوله . اهـ .

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ : تنوعت عبارات السلف في معنى ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ وتقاربت في المعنى ؛ فقيل : هو السيد الذي كمل في سؤدده ، والشريف الذي كمل في شرفه ، والعظيم الذي كمل في عظمته ، والحليم الذي كمل في حلمه ، والعليم الذي قد كمل في علمه ، والحكيم الذي كمل في حكمته ، وهو الذي قد كمله في كل أنواع الشرف والسؤدد ، وهو الله سبحانه هذه صفته لا تنبغي إلا له ليس كمثله شيء وليس له كفؤ ، سبحان الله الواحد القهار ، وقيل : ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الذي قد انتهى سؤدده ، و﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الحي القيوم الذي لا زوال له ، و﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الذي لم يخرج منه شيء ولا يطعم ، و﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الذي لا جوف له ، و﴿ٱلصَّمَدُ﴾ نور يتلألأ .

قال الشيخ : والاسم الصمد فيه للسلف أقوال متعددة ، قد يظن أنها مختلفة وليس كذلك ، بل كلها صواب ، والمشهور منها قولان :

أحدهما : أن الصمد هو الذي لا جوف له .

والثاني : أنه السيد الذي يصمد إليه في الحوائج .

والأول هو قول أكثر السلف من الصحابة والتابعين وطائفة من أهل اللغة ، والثاني قول طائفة من السلف والخلف وجمهور اللغويين ، والاشتقاق يشهد للقولين جميعًا ؛ قول من قال : إن الصمد الذي لا جوف له ، وقول من قال : إنه السيد ، وهو على الأول أدل فإن الأول أصل للثاني ، ولفظ الصمد يقال على ما لا جوف له في اللغة .

والمقصود أن لفظ الأحد لم يوصف به شيء من الأعيان إلا الله وحده ، وإنما يستعمل في غير الله في النفي ، قال أهل اللغة : تقول : لا أحد في الدار ، ولا تقل : فيها أحد ، ولهذا لم يجيء في القرآن إلا في غير الموجب ، كقوله تعالى : ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ ، وكقوله : ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ ، وقوله : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ ، وفي الإضافة ، ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ﴾ ، و﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ ، وأما الصمد فقد استعمله أهل اللغة في حق المخلوقين كما تقدم ، فلم يقل : الله صمد ، بل قال : الله الصمد . فبين أنه المستحق لأن يكون هو الصمد دون ما سواه ، فإنه المستوجب لغايته على الكمال ، والمخلوق وإن كان صمدًا من بعض الوجوه فإن حقيقة الصمدية منتفية عنه ، فإنه يقبل التفرق والتجزئة .

وهو أيضًا محتاج إلى غيره ؛ فإن كل ما سوى الله محتاج إليه من كل وجه ، فليس أحد صمد إليه كل شيء ولا يصمد إلى شيء إلا الله ، وليس في المخلوقات إلا ما يقبل أن يتجزأ ويتفرق وينقسم

وينفصل بعضه من بعض ، والله سبحانه هو الصمد الذي لا يجوز عليه شيء من ذلك ، بل حقيقة الصمدية كمالها له وحده واجبة لازمة لا يمكن عدم صمديته بوجه من الوجوه ، كما لا يمكن تثنية أحديته بوجه من الوجوه ، فهو أحد لا يماثله شيء من الأشياء بوجه من الوجوه كما قال في آخر السورة ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ استعملها هنا في النفي ، أي ليس شيء من الأشياء كفوًا له في شيء من الأشياء ؛ لأنه أحد ، وقال رجل للنبي ﷺ : أنت سيدنا . فقال : « السيد الله »[1] . ودل قوله : ﴿أَحَدٌ﴾ ، ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ على أنه لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوًا أحد ، فإن الصمد هو الذي لا جوف له ولا أحشاء فلا يدخل فيه شيء ، فلا يأكل ولا يشرب سبحانه ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ ، وفي قراءة الأعمش وغيره : ﴿وَلَا يَطْعَمُ﴾ بالفتح ، وقال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ . ومن مخلوقاته الملائكة وهم صمد لا يأكلون ولا يشربون .

فالخالق لهم جل وعلا أحق بكل غني ، وكماله جعل لبعض مخلوقاته ، فلهذا فسر بعض السلف الصمد ؛ بأنه الذي لا يأكل ولا يشرب ، و﴿ٱلصَّمَدُ﴾ : المصمد الذي لا جوف له ، فلا يخرج منه عين من الأعيان ، فلا يلد ، ولذلك قال من قال من السلف : هو الذي لا يخرج منه شيء . ليس مرادهم أنه لا يتكلم وإن كان يقال في الكلام : أنه خرج منه . فخروج كل شيء بحسبه ، ومن شأن العلم والكلام إذا استفيد من العالم والمتكلم ألا ينقص من محله ، ولهذا شبه النور الذي يقتبس منه كل أحد الضوء ، وهو باق على حاله لم ينقص ، فقول من قال من السلف : الصمد الذي لا يخرج منه شيء . كلام صحيح بمعنى أنه لا يفارقه شيء منه ، ولهذا امتنع عليه أن يلد وأن يولد ، وذلك أن الولادة والمتولد وكل ما يكون من هذه الألفاظ لا يكون إلا من أصلين ، وما كان من المتولد عينًا قائمة بنفسها فلا بد لها من مادة تخرج منها ، وما كان عرضًا قائمًا بغيره فلا بد له من محل يقوم به .

فالأول نفاه بقوله : ﴿أَحَدٌ﴾ فإن الأحد هو الذي لا كفؤ له ولا نظير ، فيمتنع أن تكون له صاحبة ، والتولد إنما يكون بين شيئين قال تعالى : ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ، فنفى سبحانه الولد بامتناع لازمه عليه ، فإن انتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم ، وبأنه خالق كل شيء وكل ما سواه مخلوق ليس فيه شيء مولود له .

والثاني نفاه بكونه سبحانه : ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ وهذا المتولد من أصلين يكون بجزئين ينفصلان من الأصلين ، كتولد الحيوان من أبيه وأمه بالمني الذي ينفصل من أبيه وأمه ، فهذا التولد يفتقر إلى أصل آخر وإلى أن يخرج منهما شيء ، وكل ذلك ممتنع في حق الله تعالى ، فإنه أحد فليس له كفؤ يكون

---

(١) سنن أبي داود (٤/٤٠٢) ، وينظر : « مشكاة المصابيح » للألباني (حديث رقم : ٤٩٠٠) .

صاحبة ونظيرًا ، وهو صمد لا يخرج منه شيء ، فكل واحد من كونه أحدًا ، ومن كونه صمدًا يمنع أن يكون والدًا ، ويمنع أن يكون مولودًا بطريق الأولى والأخرى .

فاسمه الأحد دل على نفي المشاركة والمماثلة ، واسمه الصمد دل على أنه المستحق لجميع صفات الكمال ، وصفات التنزيه كلها ، بل وصفات الإثبات يجمعها هذان المعنيان .

والمقصود هنا : أن صفات التنزيه يجمعها هذان المعنيان المذكوران في هذه السورة :

أحدهما : نفي النقائص عنه ، وذلك من لوازم إثبات صفات الكمال ، فمن ثبت له الكمال التام انتفى عنه النقصان المضاد له ، وهذا مدلول اسمه الصمد .

والثاني : أنه ليس كمثله شيء في صفات الكمال الثابتة له ؛ وهذا من مدلول اسمه الأحد ، فهذان الاسمان العظيمان « الأحد ، الصمد » يتضمنان تنزيهه عن كل نقص وعيب ، وتنزيهه في صفات الكمال ألَّا يكون له مماثل في شيء منها ، واسمه الصمد يتضمن إثبات جميع صفات الكمال ، فتضمن ذلك إثبات جميع صفات الكمال ، ونفي جميع صفات النقص ، فالسورة تضمنت كل ما يجب نفيه عن الله ، وتضمنت أيضًا كل ما يجب إثباته من وجهين من اسمه ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ ، ومن جهة أن ما نفي عنه من الأصول والفروع ، والنظراء مستلزم ثبوت صفات الكمال أيضًا ، فإن كل ما يمدح به الرب من النفي فلا بد أن يتضمن ثبوتًا ، بل وكذلك كل ما يمدح به شيء من الموجودات من النفي فلا بد أن يتضمن ثبوتًا ، وإلا فالنفي المحض معناه عدم محض والعدم المحض ليس بشيء فضلًا عن أن يكون صفة كمال .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « قال الله ﷻ : كذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ؛ فأما تكذيبه إياي فقوله : لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته . وأما شتمه إياي فقوله : اتخذ الله ولدًا وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ، ولم يكن لي كفوًا أحد »[1] .

قوله : « وما وصف به نفسه في أعظم آية من كتابه ؛ حيث يقول : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾- أي : لا يكرثه ولا يثقله- ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ ولهذا كان من قرأ هذه الآية في ليلة ، لم يزل عليه من الله حافظ ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح » .

---

(١) البخاري (٤٨١٢- ٩/١٩) بنحوه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

* روى مسلم في «صحيحه» عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ سأله: أي آية في كتاب اللَّه أعظم؟ قال: اللَّه ورسوله أعلم. فرددها مرارًا ثم قال أبي: آية الكرسي. فقال النبي ﷺ: «ليهنك العلم أبا المنذر»[1]. ورواه أحمد وغيره، وفيه: «والذي نفسي بيده، إن لها لسانا وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش»[2]. وقد صح الحديث عن رسول اللَّه ﷺ: أنها أعظم آية في كتاب اللَّه. وعن أسماء بنت يزيد قالت: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول في هاتين الآيتين ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾: «إن فيهما اسم اللَّه الأعظم»[3]. رواه أحمد وأبو داود.

والحي القيوم اسمان من أسماء اللَّه ﷻ، والحياة والقيومية صفتان من صفات الرب سبحانه لا يماثله فيهما حياة أحد وقيوميته، وكان عمر رضي الله عنه يقرؤها: «القيام». قال ابن الأثير في «النهاية» في حديث الدعاء: «لك الحمد أنت قيام السماوات والأرض»، وفي رواية: «قيم»، وفي أخرى: «قيوم»، وهي من أبنية المبالغة، وهي من صفات اللَّه تعالى، ومعناها القائم بأمور الخلق ومدبر العالم في جميع أحواله، وأصلها من الواو «قيوام» و«قيووم» بوزن فيعال وفيعل وفيعول. اهـ.

والقيوم أبلغ من القيام؛ لأن الواو أقوى من الألف، ويفيد قيامه بنفسه باتفاق المفسرين وأهل اللغة، وهو معلوم بالضرورة، وهل تفيد إقامته لغيره وقيامه عليه؟ فيه قولان: أصحهما: أنه يفيد ذلك، وهي تفيد دوام قيامه وكل قيامه؛ لما فيه من المبالغة.

«فهو سبحانه لا يزول، ولا يأفل، فإن الآفل قد زال قطعًا» أي: لا يغيب ولا ينقص، ولا يفنى، ولا يعدم، بل هو الدائم الباقي، الذي لم يزل ولا يزال موصوفًا بصفات الكمال، واقترانه بالحي يستلزم سائر صفات الكمال، ويدل على بقائها ودوامها، وانتفاء النقص والعدم عنها أزلًا وأبدًا، ولهذا كان قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ أعظم آية في القرآن، كما ثبت ذلك في «الصحيح» عن النبي ﷺ، فعلى هذين الاسمين مدار الأسماء الحسنى كلها وإليها مرجع معانيها، فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال، ولا يتخلف عنها صفة منها إلا لضعف الحياة، فإذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها، استلزم إثباتها إثبات كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة، وأما ﴿ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ فهو متضمن كمال غناه وكمال قدرته، فإنه القائم بنفسه فلا يَحتاج إلى من يقيمه بوجه من الوجوه، وهذا من كمال غناه بنفسه عما سواه، وهو المقيم لغيره، فلا قيام لغيره إلا بإقامته، وهذا من كمال قدرته وعزته، فانتظم هذان الاسمان صفات الكمال، والغنى التام، والقدرة التامة، فكأن المستغيث

---

(١) مسلم (٨١٠- ١/٥٥٦) بنحوه من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

(٢) مسند أحمد (٣٥/٢٠٠- ٢١٢٧٨).

(٣) سنن أبي داود (١٤٩٨- ١/٥٥٥) من حديث أسماء بنت يزيد. ويُنظر: «صحيح أبي داود» (١٣٤٣- ٥/٢٣٤).

بهما مستغيث بكل اسم من أسماء الرب تعالى ، وبكل صفة من صفاته ، فما أولى الاستغاثة بهذين الاسمين أن يكونا في مظنة تفريج الكربات ، وإغاثة اللهفات ، وإنالة الطلبات .

فإن صفة الحياة متضمنة لجميع صفات الكمال مستلزمة لها ، وصفة القيومية متضمنة لجميع صفات الأفعال ، ولهذا كان اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى هو اسم الحي القيوم ، والحياة التامة تضاد جميع الأسقام والآلام .

ولهذا كما كملت حياة أهل الجنة لم يلحقهم هم ولا غم ولا حزن ولا شيء من الآفات ، ونقصان الحياة يضر بالأفعال ، وينافي القيومية ، فكمال القيومية لكمال الحياة ، فالحي المطلق التام لا يفوته صفة كمال البتة ، والقيوم لا يتعذر عليه فعل ممكن ، البتة ، والمقصود أن لاسم الحي القيوم تأثيرًا خاصًا في إجابة الدعوات وكشف الكربات ، وفي « السنن » و« صحيح أبي حاتم بن حبان » مرفوعًا : « اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين : ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ ، وفاتحة آل عمران : ﴿الم ۝ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ » . قال الترمذي : حديث حسن صحيح[(١)] .

وفي « السنن » و« صحيح ابن حبان » أيضًا من حديث أنس : أن رجلًا دعا فقال : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت المنان ، بديع السماوات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حي يا قيوم . فقال النبي ﷺ : « لقد دعا الله باسمه الأعظم ، الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى » . ولهذا كان النبي ﷺ إذا اجتهد في الدعاء قال : « يا حي يا قيوم »[(٢)] .

﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ : السنة : الوسن والنعاس ، ولهذا قال : ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ ؛ لأنه أقوى من السنة ، وفي « الصحيح » عن أبي موسى قال : قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال : « إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه »[(٣)] .

ونفي أخذ السنة والنوم مستلزم لكمال حياته وقيوميته ، فإن النوم ينافي القيومية والنوم أخو الموت ، ولهذا كان أهل الجنة لا ينامون .

﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ : فنفي الشفاعة بدون إذنه مستلزم لكمال ملكه ؛ إذ كل من شفع إليه شافع بدون إذنه فقبل شفاعته كان منفعلًا عن ذلك الشافع ، فقد أثرت شفاعته فيه ،

---

(١) سنن الترمذي (٣٤٧٨- ٥/٥١٧) ، وحسنه الألباني في « صحيح الترمذي » (٢٧٦٤) .

(٢) سنن الترمذي (٣٤٧٥- ٥/٥١٥) من حديث بريدة الأسلمي ، وصححه الألباني في « صحيح الترمذي » (٢٧٦٣) .

(٣) مسلم (١/١٦١) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

فصيرته فاعلًا بعد أن لن يكن، وكان ذلك الشافع شريكًا للمشفوع إليه في ذلك الأمر المطلوب بالشفاعة، إذ كانت بدون إذنه لا سيما والمخلوق إذا شفع إليه بغير إذنه فقبل الشفاعة فإنما يقبلها لرغبة أو لرهبة إما من الشافع أو من غيره، وإلا فلو كانت داعيته من تلقاء نفسه تامة مع القدرة لم يحتج إلى شفاعة، واللَّه تعالى منزه عن ذلك كله، كما قال في الحديث الإلهي: «يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني»[1].

ولهذا كان النبي ﷺ يأمر أصحابه بالشفاعة إليه، فكان إذا أتاه طالب حاجة يقول: «اشفعوا تؤجروا، ويقضي اللَّه على لسان نبيه بما يشاء». أخرجاه في «الصحيحين»[2].

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾: فيه إحاطة علم اللَّه وشموله وإحاطته بالماضي والحاضر والمستقبل، وبين أن العباد لا يعلمون من علمه إلا ما علمهم إياه، كما قالت الملائكة: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ وكان في هذا النفي إثبات أن العباد لا يعلمون إلا ما علمهم إياه، فأثبت أنه الذي علمهم، لا ينالون العلم إلا منه، فإنه الذي ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، و﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

فالمعنى: أنه لا يطلع أحد من علم اللَّه على شيء إلا بما أعلمه اللَّه ﷻ، وأطلعه عليه، ويحتمل أن يكون المراد: لا يطلعون على شيء من علم ذاته وصفاته إلا بما أطلعهم اللَّه عليه كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: الكرسي موضع قدمي الرحمن جل جلاله، والعرش: لا يقدر قدره إلا اللَّه، هذا هو المعروف عن السلف قال الدارمي: هذا الذي عرفناه عن ابن عباس صحيحًا مشهورًا، وأنكر هو وغيره قول من قال: كرسيه علمه.

وقوله: ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾: لكمال قدرته وتمامها، بخلاف المخلوق القادر إذا كان يقدر على الشيء بنوع كلفة ومشقة، فإن هذا نقص في قدرته وعيب في قوته.

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾: قرن اللَّه بين هذين الاسمين الدالين على علوه وعظمته في آخر آية «الكرسي»، وفي سورة «الشورى»، وفي سورة «الرعد»، وفي سورة «سبأ» في قوله: ﴿قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ففي آية «الكرسي» ذكر الحياة التي هي أصل جميع الصفات، وذكر معها قيوميته المقتضية لدوامه وبقائه، وانتفاء الآفات جميعها عنه من النوم والسنة والعجز وغيرها، ثم ذكر كمال ملكه، ثم عقبه بذكر وحدانيته في ملكه وأنه لا يشفع عنده أحد

---

(١) مسلم (٤/١٩٩٤) من حديث أبي ذر.

(٢) البخاري (١٤٣٢ - ٢/١١٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

إلا بإذنه ، ثم ذكر سعة كرسيه منبهًا به على سعته سبحانه وعظمته وعلوه ، وذلك توطئة بين يدي علوه وعظمته ، ثم أخبر عن كمال اقتداره ، وحفظه للعالم العلوي والسفلي من غير اكتراث ولا مشقة ولا تعب ، ثم ختم الآية بهذين الاسمين الجليلين الدالين على ذاته وعظمته في نفسه فقد تضمنت إثبات صفات الكمال ، ونفي النقص عن الله تقدس وتنزه عن كل عيب ونقص .

وورد في فضلها أحاديث منها ما رواه البخاري في « صحيحه » عن أبي هريرة قال : وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان ، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته وقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ . قال : دعني فإني محتاج ، وعلي عيال ، ولي حاجة شديدة . قال : فخليت عنه فأصبحت . فقال رسول الله ﷺ : « يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة ؟ » . قال : قلت : يا رسول الله ، شكا حاجة شديدة وعيالًا ، فرحمته فخليت سبيله . قال : « أما أنه قد كذبك وسيعود » . فرصدته فجاء يحثو من الطعام ، فعل ذلك ثلاث ليال كل ذلك والرسول ﷺ يقول : « أما أنه قد كذبك وسيعود » . فلما كان في الثالثة قلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ ، وهذا آخر ثلاث مرات تزعم أنك لا تعود ثم تعود فقال : دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها ؟ فقلت : وما هي ؟ قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية « الكرسي » ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ حتى ختم الآية ، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، وقال النبي ﷺ : « أما أنه صدقك وهو كذوب ، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة ؟ » . قلت : لا . قال : « ذاك شيطان »(١) .

وتقدم أنها أفضل آية في كتاب الله ، كما أن سورة « الفاتحة » أفضل سورة القرآن ، والذي قد صح عن النبي ﷺ أنه فضل من السورة سورة « الفاتحة » ، وقال : « إنه لم ينزل في التوراة ، ولا في الإنجيل ، ولا في القرآن مثلها »(٢) .

والأحكام الشرعية تدل على ذلك ، وفضل من الآيات آية « الكرسي » ، وليس في القرآن آية واحدة تضمنت ما تضمنته آية « الكرسي » ، وإنما ذكر الله في أول سورة « الحديد » وآخر سورة « الحشر » عدة آيات لا آية واحدة .

إحاطة الله بالمخلوقات :

قوله : « وقوله سبحانه : « ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ » :

* في هذه الآية إثبات هذه الأسماء الأربعة لله ، وإثبات معانيها حقيقة على ما يليق بجلال الله وعظمته ، وكذلك إثبات العلم له سبحانه .

---

(١) البخاري (٢٣١١) (٣/١٠١) (٣٢٧٥) (٤/١٢٣) (٥٠٠٨) (٦/١٨٨) .

(٢) « سنن الترمذي » (٥/١٥٥) ، وصححه الألباني في « صحيح الترغيب والترهيب » (١٤٥٣) .

وعطف بالواو مع أنها دالة على مسمى واحد وموصوف واحد ؛ قيل : لأنه لما كانت هذه الألفاظ دالة على معان متباينة ، وأن الكمال في الاتصاف بها على تباينها أتى بحرف العطف الدال على التغاير بين المعطوفات ؛ إيذانًا بأن هذه المعاني مع تباينها فهي ثابتة للموصوف بها ، ووجه آخر أحسن منه أن الواو تقتضي تحقيق الوصف المتقدم وتقريره ، فيكون الكلام متضمنًا لنوع من التأكيد ومزيد من التقرير ، فمثلًا إذا كان لرجل صفات أربع : عالم ، وجواد ، وشجاع ، وغني ، وكان المخاطب لا يعلم ذلك ولا يقر به ، ويعجب من اجتماع هذه الصفات في رجل ، فإذا قلت : زيد عالم ، وكأن ذهنه استبعد ذلك فتقول : وجواد ، أي : وهو مع ذلك جواد ، فإذا قدرت استبعاده لذلك قلت : وشجاع ، أي : وهو مع ذلك شجاع ، وغني ، فيكون في العطف مزيد تقرير ، وتوكيد ، لا يحصل بدونه تدرأ به توهم الإنكار .

إذا عرفت هذا فالوهم قد يعتريه إنكار لاجتماع هذه المقابلات في موصوف واحد ، فإذا قيل : هو الأول ربما سرى الوهم إلى الباطن مقابله ، فقطع هذا الوهم بحرف العطف الدال على أن الموصوف بالأولية هو الموصوف بالآخرية ، فكأنه قيل : هو الأول وهو الآخر وهو الظاهر وهو الباطن لا سواه ، فتأمل ذلك فإنه من لطيف العربية ودقيقها .

وباب هذه المعرفة والتعبد هو : معرفة إحاطة الرب سبحانه بالعالم وعظمته ، وأن العوالم كلها في قبضته ، وأن السماوات السبع والأرضين السبع في يده كخردلة في يد العبد ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ ، وقال : ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾ ولهذا يقرن سبحانه بين هذين الاسمين الدالين على هذين المعنيين ؛ اسم العلو الدال على أنه الظاهر ، وأنه لا شيء فوقه ، واسم العظمة ، الدال على الإحاطة وأنه لا شيء دونه ، كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ ، وقال تعالى : ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ، وقال : ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ، وهو تبارك وتعالى كما أنه العالي على خلقه بذاته فليس فوقه شيء ، فهو الباطن بذاته فليس دونه شيء ، بل ظهر على كل شيء فكان فوقه ، وبطن فكان أقرب إلى كل شيء من نفسه ، وهو محيط به ، حيث لا يحيط الشيء بنفسه ، وكل شيء في قبضته ، وليس شيء في قبضة نفسه فهذا قرب الإحاطة العامة ، وهذا قرب غير قرب المحب من حبيبه ، هذا لون وهذا لون ، فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة ، وهي إحاطتان : زمانية ومكانية ، فإحاطة أوليته وآخريته بالقرب والبعد ، فكان سابق انتهى إلى أوليته وكل آخر انتهى إلى آخريته ، فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن ، فما من ظاهر إلا الله فوقه ، وما من باطن إلا والله دونه وما من أول إلا والله قبله ، وما من آخر إلا والله بعده ، فالأول قدمه والآخر دوامه وبقاؤه ، والظاهر علوه وعظمته

والباطن قربه ودنوه .

فهذه الأسماء الأربعة تشتمل على أركان التوحيد ، فهو الأول في آخريته ، والآخر في أوليته والظاهر في بطونه والباطن في ظهوره ، لم يزل أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا .

والعلم بثبوت هذين الوصفين أي « الأول والآخر » مستقر في الفطرة ، فإن الموجودات لا بد أن تنتهي إلى واجب الوجود لذاته قطعًا للتسلسل ، فأنت تشاهد حدوث الحيوان والنبات والمعادن وحوادث الجو كالسحاب والمطر ، وغير ذلك ، وهذه الحوادث وغيرها ليست ممتنعة ، فإن الممتنع لا يوجد ، ولا واجبة الوجود بنفسها ، فإن واجب الوجود بنفسه لا يقبل العدم ، وهذه كانت معدومة ثم وجدت ، فعدمها ينفي وجودها ، ووجودها ينفي امتناعها ، وما كان قابلًا للوجود والعدم لم يكن وجوده بنفسه ، كما قال تعالى : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ .

وقد أدخل المتكلمون في أسماء اللَّه تعالى القديم ، وليس هو من أسماء اللَّه تعالى الحسنى ، فإن القديم في لغة العرب التي نزل بها القرآن هو المتقدم على غيره فيقال : هذا قديم للعتيق ، وهذا حديث للجديد ، ولم يستعمل هذا الاسم إلا في المتقدم على غيره لا فيما يسبقه عدم ، كما قال تعالى : ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ والعرجون القديم الذي يبقى إلى حين وجود العرجون الثاني ، فإذا وجد الحديث قيل للأول : قديم ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي : متقدم في الزمان ، وقال : ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ﴾ ، فالأقدم مبالغة في القديم ، ومنه القول القديم والجديد للشافعي ، وقال تعالى : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ أي : يتقدمهم ويستعمل منه الفعل لازمًا ومتعديًا ، كما يقال : أخذني ما قدم وما حدث ، ويقال : هذا قدم هذا وهو يقدمه ، ومنه سميت القدم قدمًا ؛ لأنها تقدم بقية بدن الإنسان ، وأما إدخال « القديم » في أسماء اللَّه تعالى فهو مشهور عند أكثر أهل الكلام ، وقد أنكر ذلك كثير من السلف والخلف منهم ابن حزم ، ولا ريب أنه إذا كان مستعملًا في نفسه التقدم فأن يقدم على الحوادث كلها فهو أحق بالتقدم من غيره ، لكن أسماء اللَّه تعالى هي الأسماء الحسنى التي تدل على خصوص ما يمدح به ، والتقدم في اللغة مطلق لا يختص بالتقدم على الحوادث كلها ، فلا يكون من الأسماء الحسنى ، وجاء الشرع باسمه « الأول » وهو أخص من القديم ؛ لأنه يشعر بأن ما بعده آيل إليه وتابع له بخلاف القديم ، واللَّه تعالى له الأسماء الحسنى .

قوله : « وقوله سبحانه : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ » .

* في هذه الآية إثبات صفة الحياة للَّه ، والحياة هي أجمع صفات الكمال وأصلها ، قال ابن القيم : وأما الرسل وأتباعهم فقالوا : إن اللَّه حي وله حياة ، وليس كمثله شيء في حياته . اهـ .

وذكر في هذه الآية نفي الموت لكمال الحياة وتمامها .

□ إثبات صفة العلم لله :

قوله : « ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ * يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ ، ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ . وقوله : ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ . وقوله : ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ » .

* في هذه الآية إثبات وصف الله بالعلم ، وعلمه سبحانه شامل لكل شيء ومحيط به ، فيعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، كما قال تعالى : ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾ ، وقوله : ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ ، وقال : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ الآية ، و« الحكيم الخبير » اسمان وصفتان لله جل وعلا ، فالحكيم هو الذي يضع الأشياء في مواضعها ، وهو سبحانه حكيم في أقواله وأفعاله ، وفي شرعه ودينه ، وفي قضائه وقدره ، والخبير أخص من العليم وهو العليم بدقائق الأمور وبواطنها ، والله سبحانه لا تخفى عليه خافية ، ومفاتح الغيب هي المذكورة في حديث ابن عمر في « الصحيحين » أن النبي ﷺ قال : « مفاتح الغيب خمس لا يعلمهم إلا الله ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ » .

والعلم صفة ذاتية لازمة لله تعالى لا يخلو منها في وقت من الأوقات ، ولا يتصور انفكاك ذات الله عنها ، وقد أنكر غلاة القدرية علم الله القديم ، وأنه يعلم الأشياء قبل وقوعها ، وقد اشتد إنكار السلف عليهم وقالوا : ناظروهم بالعلم فإن أقروا به خصموا ، وإن جحدوه كفروا ، وقال الإمام أحمد في رده على الجهمية والزنادقة : « فإن قال الجهمي : ليس له علم كفر ، وإن قال : لله علم محدث كفر ؛ حيث زعم أن الله قد كان في وقت من الأوقات لا يعلم حتى أحدث لها علمًا فعلم ، فإن قال : لله علم وليس مخلوقًا ولا محدثًا رجع عن قوله كله وقال بقول أهل السنة » .

وقال الإمام عبد العزيز المكي في « كتاب الحياة » الذي حكى فيه مناظرته لبشر المريسي عن علمه تعالى ، وبشر يقول : لا يجهل ولا يعترف أن الله عالم بعلم ، فقال الإمام عبد العزيز : « نفي الجهل لا يكون صفة مدح ، فإن هذه الأسطوانة لا تجهل ، وقد مدح الله الأنبياء والملائكة والمؤمنين بالعلم لا

بنفي الجهل ، ومن نفي الجهل لم يثبت العلم ، وعلى الخلق أن يثبتوا ما أثبته الله لنفسه ، وينفوا عنه ما نفى ويمسكوا عما أمسك عنه » .

والدليل العقلي على علمه تعالى : أنه يستحيل إيجاده الأشياء مع الجهل ، ولأن إيجاده الأشياء بإرادته ، والإرادة تستلزم تصور المراد ، وتصور المراد هو العلم بالمراد ، فكان الإيجاد مستلزمًا للعلم ، ولأن المخلوقات فيها من الإحكام والإتقان ما يستلزم علم الفاعل لها ؛ لأن الفعل المحكم المتقن يمتنع صدوره عن غير علم ، ولأن من المخلوقات ما هو عالم ، والعلم صفة كمال ، ويمتنع ألَّا يكون الخالق عالمًا ، وهذا له طريقان :

أحدهما : أن يقال : نحن نعلم بالضرورة أن الخالق أكمل من المخلوق ، وأن الواجب أكمل من الممكن ، ونعلم أن لو فرضنا شيئين أحدهما عالم والآخر غير عالم كان العالم أكمل ، فلو لم يكن الخالق عالمًا لزم أن يكون الممكن أكمل منه ، وهو ممتنع .

الثاني : أن يقال : كل علم في الممكنات التي هي المخلوقات فهو منه ، ومن الممتنع أن يكون فاعل الكمال ومبدعه عاريًا منه ، بل هو أحق به ، والله تعالى له المثل الأعلى ، ولا يستوي هو والمخلوق لا في قياس تمثيلي ولا في قياس شمولي ، بل كل ما ثبت للمخلوق من كمال فالخالق به أحق ، وكل نقص تنزه عنه مخلوق ما فتنزه الخالق عنه أولى ، وكثير من الفلاسفة ينكرون علم الله بالجزئيات .

فالخلاف في هذا الأصل مع فرقتين :

إحداهما : أعداء الرسل كلهم ، وهم الذين ينفون علمه بالجزئيات ، وحاصل قولهم أنه لا يعلم موجودًا البتة ، فإن كل موجود جزئي معين ، فإذا لم يعلم الجزئيات لم يكن عالمًا بشيء من العالم العلوي والسفلي .

والفرقة الثانية : غلاة القدرية الذين اتفق السلف على كفرهم وحكموا بقتلهم ، الذين يقولون : لا يعلم أعمال العباد حتى يعملوها ، ولم يعلمها قبل ذلك ولا كتبها ولا قدرها فضلًا عن أن يكون شاءها وكونها ، وقول هؤلاء معلوم البطلان بالضرورة من أديان جميع المرسلين ، وكتب الله المنزلة ، وكلام الرسول ﷺ مملوء بتكذيبهم ، وإبطال قولهم ، وإثبات عموم علمه الذي لا يشاركه فيه خلقه ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء أن يطلعهم عليه ويعلمهم به ، وما أخفاه عنهم ولم يطلعهم عليه لا نسبة لما عرفوه إليه إلا دون نسبة قطرة واحدة إلى البحار كلها .

قوله : « ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ » :

« الرزاق » : كثير الرزق واسعة ، كما تدل عليه صيغة المبالغة ، وكل ما في الكون من رزق فهو من

اللَّه واقع بمشيئته وقدرته ، وسواء في ذلك الرزق الحلال وغيره ، كما قال الشيخ السفاريني في عقيدته :

والرزق ما ينفع من حلال أو ضده فحل عن المحال
لأنه رازق كل الخلق وليس مخلوق بغير رزق

فالرزاق اسمه تعالى ووصفه ، والقوي شديد القوة ، فعلم أن القوي من أسمائه ، ومعناه الموصوف بالقوة ، فلولا ثبوت القوة لم يسم قويًّا .

و« المتين » : البالغ في القوة والقدرة نهايتهما ، قال ابن الأثير : « الشديد القوي الذي لا يلحقه في أفعاله مشقة ولا كلفة ولا تعب ، والمتانة والشدة والقوة ، فمن حيث أنه بالغ القوة تامها قوي ، ومن حيث أنه شديد القوة متين » . اهـ .

ولكمال حياته سبحانه كان قويًّا متينًا ، فإنه سبحانه حي حقيقة ، وحياته أكمل الحياة وأتمها ، وهي حياة تستلزم جميع صفات الكمال ونفي أضدادها من جميع الوجوه ، ومن لوازم الحياة الفعل الاختياري ، فإن كل حي فعال ، وصدور الفعل عن الحي بحسب كمال حياته ونقصها ، وكل من كانت حياته أكمل من غيره كان فعله أقوى وأكمل ، وكذلك قدرته ، ولذلك كان الرب سبحانه على كل شيء قدير وهو فعال لما يريد ، وقد ذكر البخاري في كتاب « خلق أفعال العباد » عن نعيم بن حماد أنه قال : الحي هو الفعال ، وكل حي فعال ، ولا فرق بين الحي والميت إلا بالفعل والشعور ، وإذا كانت الحياة مستلزمة للفعل ، فالفعل الذي لا يعقل الناس سواه هو الفعل الاختياري الإرادي الحاصل بقدرة الفاعل وإرادته ومشيئته ، وكون الرب سبحانه حيًّا فاعلًا مختارًا مريدًا مما اتفقت عليه الرسل والكتب ، ودل عليه العقل والفطرة وشهدت به الموجودات ناطقها وصامتها ، جمادها وحيوانها ، علويها وسفليها ، فمن أنكر فعل الرب الواقع بمشيئته واختياره وفعله فقد جحد ربه وفاطره وأنكر أن يكون للعالم رب .

□ ذكر سمع اللَّه وبصره :

وقوله : « ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ، وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ » .

* من صفات اللَّه تعالى الذاتية السمع والبصر ، و« السميع البصير » اسمان من أسمائه تعالى ، وهو تعالى له سمع يسمع به وبصر يبصر به حقيقة على ما يليق بجلاله .

وقوله سبحانه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ أحسن ما قيل في الكاف هنا أنها صلة ، فيكون مثله خبر ﴿لَيْسَ﴾ ، وهذا وجه قوي حسن تعرف العرب معناه في لغتها ولا يخفى عنها إذا خوطبت به ،

وقيل : إنه من باب قولهم : مثلك لا يفعل كذا ، أي : أنت لا تفعله ، وأتى بمثل للمبالغة ، أي : ليس كمثله مثل ، لو فرض المثل فكيف : ولا مثل له ؟ والأول أولى ، فقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ إنما سيق لإثبات الصفات وعظمتها لا لنفيها ، كما قال عثمان بن سعيد الدرامي في قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ، قال : « معناه هو أحسن الأشياء وأجملها ، وقالت الجهمية : معناه ليس هناك شيء » .

وقال ابن القيم : « قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ : إنما قصد به نفي أن يكون معه شريك أو معبود يستحق العبادة والتعظيم ، كما يفعله المشبهون والمشركون ، ولم يقصد به نفي صفات كماله وعلوه على خلقه وتكلمه بكتبه وتكليمه لرسله ، ورؤية المؤمنين له جهرة بأبصارهم كما ترى الشمس والقمر في الصحو » . اهـ .

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ فوضع إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه . رواه أبو داود[1] . وإنما وضع إبهامه على أذنه وعينه ؛ رفعًا لتوهم متوهم أن السمع والبصر غير العينين المعلومتين ، وأمثال ذلك كثيرة في الكتاب والسنة .

وقد عاب الله المشركين في عبادتهم ما لا يسمع ولا يبصر فقال : ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ، وأنكر الخليل عليه السلام على أبيه وقومه عبادة أصنام لا تسمع ولا تبصر فقال : ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ . فقد ثبت وصف الله بالسمع والبصر وهما صفتا كمال ، وعدمهما نقص يتنزه الله عنه ، وله المثل الأعلى في السماوات والأرض ، وفي ذلك إبطال لقول الجهمية والمعتزلة ونحوهم من معطلة الصفات الذين ينفون عن الله سمعه وبصره ، وفي قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ رد لقول المشبهة ، فإنه تعالى لا يماثله شيء من مخلوقاته في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، وقوله : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ رد لقول المعطلة .

قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ أي : نعم الشيء الذي يعظكم به ، ويأمركم به من أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس ، وغير ذلك من كل ما يأمركم به ، ويشرعه لكم ، وقال البخاري رحمه الله في « صحيحه » : باب وكان الله سميعًا بصيرًا ، وروي فيه حديث عائشة قالت : الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات ، فأنزل الله تعالى على النبي ﷺ ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾[2] .

وحديثها أن النبي ﷺ قال : « إن جبريل عليه السلام ناداني قال : إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا

---

(١) سنن أبي داود (٤٧٣٠ - ٤/٣٧٣) بنحوه من حديث أبي هريرة . وصحح إسناده الألباني في « صحيح وضعيف سنن أبي داود » (٤٧٢٨) .

(٢) البخاري (٩/١١٦) من حديث عائشة رضي الله عنها .

عليكم »[1] وأحاديث أخر .

قال ابن بطال : « غرض البخاري في هذا الباب الرد على من قال : إن معنى سميع بصير عليم ، قال : ويلزم من قال ذلك أن يسويه بالأعمى الذي يعلم أن السماء خضراء ولا يراها ، والأصم الذي يعلم أن في الناس أصواتًا ولا يسمعها ، ولا شك أن من سمع وأبصر وأدخل في صفة الكمال ممن انفرد بأحدهما دون الآخر ، فصح أن كونه سميعًا بصيرًا يفيد قدرًا زائدًا على كونه عليمًا ، وكونه سميعًا بصيرًا يتضمن أنه يسمع بسمع ويبصر ببصر ، كما تضمن كونه عليمًا أنه يعلم بعلم ، ولا فرق بين إثبات كونه سميعًا بصيرًا وبين كونه ذا سمع وبصر ، قال : وهذا قول أهل السنة قاطبة » انتهى . وقال البيهقي في « الأسماء والصفات » : « السميع من له سمع يدرك به المسموعات ، والبصير من له بصر يدرك به المرئيات ، وكل منهما في حق الباري صفة قائمة بذاته ، وقد أفادت الآية وأحاديث الباب الرد على من زعم أنه سميع بصير بمعنى عليم » . ثم ساق حديث أبي هريرة الذي أخرجه أبو داود بسند قوي على شرط مسلم من رواية أبي يونس عن أبي هريرة : رأيت رسول اللَّه ﷺ يقرؤها يعني : قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ إلى قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ ويضع أصبعيه ، قال أبو يونس : وضع أبو هريرة إبهامه على أذنيه والتي تليها على عينه . قال البيهقي : « وأراد بهذه الإشارة تحقيق إثبات السمع والبصر للَّه ببيان محلهما من الإنسان ؛ يريد أن له سمعًا وبصرًا ، لا أن المراد به العلم ، فلو كان كذلك لأشار إلى القلب ؛ لأنه محل العلم » . ثم ذكر شاهدًا لحديث أبي هريرة من حديث عقبة بن عامر : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول على المنبر : « إن ربنا سميع بصير » . وأشار إلى عينيه وسنده حسن[2] ، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رفعه : « إن اللَّه لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم »[3] .

وفي حديث أبي جري الهجيمي رفعه : « أن رجلًا ممن كان قبلكم لبس بردتين يتبختر فيهما ، فنظر اللَّه إليه فمقته » . الحديث[4] . وحديث ابن عمر رفعه : « لا ينظر اللَّه إلى من جر ثوبه خيلاء »[5] . وفي الكتاب العزيز : ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ وورد في السمع قول المصلي : سمع اللَّه لمن حمده ، وسنده صحيح متفق عليه ، بل مقطوع بمشروعيته في الصلاة .

---

(١) البخاري (٣٢٣١- ٤/ ١١٥، ٧٣٨٩- ٩/١١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) الطبراني في « المعجم الكبير » (٧٧٠، ٧٧٦- ١٧/٢٨٢) .

(٣) مسلم (٢٥٦٤- ٤/١٩٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) البيهقي في « شعب الإيمان » (٨٠٥- ٦/٢٥٣) .

(٥) البخاري (٥٧٨٣- ٧/١٤١) من حديث عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما .

□ المشية والإرادة :

وقوله : « ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ ، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ ، ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ ، ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ » :

* في هذه الآيات وما ماثلها إثبات مشيئة الله التامة ، وأن كل شيء بمشيئته ، وأن إثبات المشيئة من سنن المؤمنين وإنكارها من طريقة الكفرة والمشركين ؛ لقول المؤمن ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ ولولا هلا ، والجنة البستان ، ﴿قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ حثًا للكافرين على الإيمان .

فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن : والنصوص من القرآن والسنة لا تحصى كثرة في ذلك ، وقد أجمع علماء الإسلام وسلف الأمة وأئمتها وأهل السنة قاطبة على إثبات مشيئة الله سبحانه وإرادته .

والإرادة تكون شرعية وتكون قدرية فقوله : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ الإرادة هنا كونية قدرية ، وقوله : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ الآية ، الإرادة هنا : كونية قدرية أيضًا ، وقوله : ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ الإرادة هنا شرعية دينية ، وقوله : ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ فيها أنه يريد الإضلال « فعلم أنه يريد الإضلال كما يريد شرح الصدر .

والهداية نوعان : هداية توفيق وإلهام ، وهي المذكورة في قوله : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ ونحوها ، وفي قوله : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ ، وهداية بيان وإرشاد وهذه المذكورة في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ، وقوله : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي : بينا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلهم يهتدوا .

قال ابن عباس في قوله : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ يقول : « يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به » . قوله : ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ بفتح الضاد وتسكين الياء ، هكذا قرأه بعضهم ، وقرأه الأكثرون ﴿ضَيِّقًا﴾ بتشديد الياء وكسرها ، ﴿حَرَجًا﴾ قرئ بفتح الحاء وكسر الراء ، وهو الذي لا يتسع لشيء من الهدى وليس للخير فيه منفذ ، ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ من شدة الضيق والشبه والشكوك ، قال الأوزاعي : كيف يستطيع من جعل الله صدره ضيقًا أن يكون مسلمًا ، وقال ابن جرير : وهذا مثل ضربه الله لقلب هذا الكافر في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه ، فمثله في امتناعه عن قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه ، مثل امتناعه عن الصعود إلى السماء ، وعجزه عنه ؛ لأنه ليس في وسعه وطاقته .

ففي ذلك إثبات عموم مشيئة اللّه الشاملة ، وقد خالف الرسل كلهم من نفي مشيئة اللّه بالكلية ، ولم يثبت له سبحانه مشيئة واختيارًا ، كما يقوله طوائف من الفلاسفة وأتباعهم ، وكذلك من جوز أن يكون في الوجود ما لا يشاء ، أو أن يشاء ما لا يكون ، وهذا هو تنزيه الملحدين ، ومن أضل سبيلًا وأكفر ممن يزعم أن اللّه شاء الإيمان من الكافر ، وأن الكافر شاء الكفر فغلبت مشيئة الكافر مشيئة اللّه ، تعالى اللّه عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا .

وأما الإرادة فطريقة الأئمة الفقهاء ، وأهل الحديث وكثير من أهل النظر : أن الإرادة في كتاب اللّه نوعان : إرادة تتعلق بالأمر ، وإرادة تتعلق بالخلق ، فالإرادة المتعلقة بالأمر : أن يريد من العبد فعل ما أمره ، وأما إرادة الخلق فأن يريد ما يفعله هو ، فإرادة الأمر هي المتضمنة للمحبة والرضا ، وهي الإرادة الدينية ، والإرادة المتعلقة بالخلق هي : المشيئة ، وهي الإرادة الكونية القدرية .

فالأولى : كقوله تعالى : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ ، وقوله : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾ إلى قوله : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ﴾ ، وقوله : ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ﴾ الآية ، وقوله : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ .

والثانية : كقوله تعالى : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا﴾ ، وقوله : ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾ ، ومن هذا النوع قول المسلمين : « ما شاء اللّه كان ، وما لم يشأ لم يكن » . ومن الأول قولهم : لمن يفعل القبائح : هذا يفعل ما لا يريده اللّه .

وقسم الشيخ الإرادة أربعة أقسام :

الأول : ما تعلقت به الإرادتان وهو كل ما وقع في الوجود من الأعمال الصالحة ، فإن اللّه تعالى أرادها إرادة دين وشرع ، فأمر به وأحبه ورضيه ، وأراده إرادة كون فوقع ولولا ذلك لما كان .

الثاني : ما تعلقت به الإرادة الدينية فقط ، وهو ما أمر اللّه به من الأعمال الصالحة فعصى ذلك الكفار والفجار ، فتلك كلها إرادة دين ، وهو يحبها ويرضاها وقعت أو لم تقع .

الثالث : ما تعلقت به الإرادة الكونية فقط ، وهو ما قدره وشاءه من الحوادث التي لم يأمر بها كالمباحات والمعاصي ، فإنه لم يأمر بها ولم يرضها ولم يحبها إذ هو لا يأمر بالفحشاء ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ﴾ ، ولولا مشيئته وقدرته وخلقه لما كانت ولما وجدت .

الرابع : من أقسام الإرادة الذي لم تتعلق به هذه الإرادة ولا هذه ، فهذا ما لم يكن من أنواع المباحات والمعاصي . اهـ .

□ إثبات صفات المحبة والمودة :

قوله : ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ، ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ ، ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ ، وقوله : ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ .

*** إثبات صفة المحبة لله قد دل عليها الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة ، محبة تليق بجلاله تعالى ، كما يقال ذلك في سائر الصفات ، وكذلك المودة ، فهي صفة واسمه تعالى « الودود » ، والود صفاء المحبة وخالصها .**

والحب اشتقاقه في الأصل من الملازمة والثبوت من قولهم : **أَحَبَّ البَعِير فهو مُحِب إذا بَرَكَ فلم يَثُر ، فالمحب ملازم لذكر محبوبه ، ثابت القلب على حبه مقيمًا عليه لا يروم عنه انتقالًا ولا يبغي عنه تحولًا ولا زوالًا قد اتخذ له في سويداء قلبه وطنًا وجعله له سكنًا ، والحب - بالضم والكسر ، والضم أولى - أَوْلى لوجهين :**

أحدهما : **قوته ، وقوة الحب .**

الثاني : **أن في الضمة من الجمع ما يوازي ما في معنى الحب من جمع الهمة والإرادة على المحبوب ، ولا تُوصف المحبة ولا تُحد بحد أوضح من المحبة ولا أقرب إلى الفهم من لفظها . فهي ألطف وأرق من كل ما يُعبر به عنها .**

وللمحبة مراتب :

أولها : العلاقة : **وهي تعلق القلب بالمحبوب .**

الثانية : الإرادة : **وهي ميل القلب إلى محبوبه وطلبه له .**

الثالثة : الصبابة : **وهي انصباب القلب إليه بحيث لا يملكه صاحبه كانصباب الماء في الحدور .**

الرابعة : الغرام : **وهي الحب الملازم للقلب ، ومنه الغريم لملازمته ، ومنه : ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ .**

الخامسة : المودة : **وهي صفو المحبة وخالصها ولبها ، قال تعالى : ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ .**

السادسة : الشغف : **وهي وصول المحبة إلى شغاف القلب .**

السابعة : العشق : **وهو الحب المفرط الذي يخاف على صاحبه منه ، ولكن لا يُوصف به الرب تعالى ولا العبد في محبة ربه ، وإن كان قد أطلقه بعضهم واختُلف في سبب المنع ، فقيل : عدم وروده**

في الشرع ، وقيل غير ذلك ، ولعل امتناع إطلاقه أن العشق محبة مع شهوة .

الثامنة : التتيم : وهو بمعنى التعبد .

التاسعة : التعبد .

العاشرة : الخلة : وهي المحبة التي تخللت روح المحب وقلبه ، وإنما يوصف اللّه تعالى من هذه الأنواع بالإرادة والود والمحبة والخلة حيثما ورد النص ، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال : « إن اللّه اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا »[١] .

وفي الصحيحين عنه ﷺ قال : « لو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا ، ولكن صاحبكم خليل اللّه »[٢] .

وقد أنكر الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم محبة اللّه وقالوا : المحبة لا تكون إلا بين متناسبين ، وبهذه الشبهة الفاسدة ردوا صفة من صفات اللّه الثابتة له ، وما أحسن ما قال الإمام أحمد : لا نزيل عن اللّه صفة من صفاته لأجل شفاعة المشنعين .

والمناسبة : لفظ مُجمل ، فإنه قد يراد بها التوالد والقرابة فيقال : هذا نسيب فلان ويناسبه إذا كان بينهم قرابة مستندة إلى الولادة والآدمية ، واللّه سبحانه وتعالى منزه عن ذلك ، ويراد بها المماثلة فيقال : هذا يناسب هذا أي يماثله ، واللّه سبحانه وتعالى أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، ويراد بها الموافقة في معنى من المعاني ، وضدها المخالفة ، والمناسبة بهذا الاعتبار ثابتة ، فإن أولياء اللّه تعالى يوافقونه فيما يأمر به فيفعلونه ، وفيما يحبه فيحبونه ، وفيما نهى عنه ، فيتركونه وفيما يعطيه فيصيبونه ، واللّه وتر يحب الوتر ، جميل يحب الجمال ، نظيف يحب النظافة ، محسن يحب المحسنين ، مقسط يحب المقسطين ، إلى غير ذلك من المعاني ، فإذا أريد بالمناسبة هذا وأمثاله فهذه المناسبة حق وهي من صفات الكمال ، كما تقدم الإشارة إليه ، فإن من يحب صفات الكمال أكمل ممن لا فرق عنده بين صفات النقص والكمال ، أو لا يحب صفات الكمال ، وإذا قدر موجودان أحدهما يحب العلم والصدق والعدل والإحسان ونحو ذلك ، والآخر لا فرق عنده بين هذه الأمور وبين الجهل والكذب والظلم ونحو ذلك ، لا يحب هذا ولا يبغض هذا كان الذي يحب تلك الأمور أكمل من هذا .

وهؤلاء الذين ينفون أن اللّه يحب ويحب آخر أمرهم به لا يبقى عندهم فرق بالنسبة إلى اللّه بين

---

(١) مسلم (١/٣٧٧) من حديث جندب بن جنادة رضي الله عنه .

(٢) مسلم (٤/١٨٥٦) من حديث عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه .

أوليائه وأعدائه، ولا بين الإيمان والكفر، ولا بين ما أمر به وما نهى عنه ولا بين بيوته التي هي المساجد، وبين الحانات ومواضع الشرك.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾: والود خالص الحب وألطفه وأرقه، وهو من الحب بمنزلة الرأفة والرحمة، قال الجوهري: «وددت الرجل أوده ودا إذا أحببته، والود والود: تقول: بودي أن يكون كذا، والود الوديد بمعنى المودود، والودود المحب». اهـ.

و«الودود»: من صفات الله سبحانه وتعالى أصله من المودة، واختلف فيه على قولين: فقيل: هو ودود بمعنى واد كضروب معنى ضارب، وقتول بمعنى قاتل ونؤوم بمعنى نائم، ويشهد لهذا القول أن فعولًا في صفات الله سبحانه وتعالى، كغفور بمعنى غافر وشكور بمعنى شاكر وصبور بمعنى صابر، وقيل: بل هو بمعنى مودود وهو الحبيب، وبذلك فسره البخاري في «صحيحه» فقال: «الودود الحبيب». والأول أظهر لاقترانه بالغفور في قوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾، وبالرحيم في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾، وفيه سر لطيف وهو أنه يحب عبده بعد المغفرة فيغفر له ويحبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾، فالتائب حبيب الله، فالود أصفى الحب وألطفه، والتحقيق أن اللفظ يدل على الأمرين على كونه وادًّا لأوليائه مودودًا لهم، فأحدهما بالوضع والآخر باللزوم، فهو الحبيب المحب لأوليائه يحبهم ويحبونه، وما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور؛ فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه، وكذلك قد يرحم من لا يحب، والرب تعالى يغفر لعبده إذا تاب إليه ويرحمه ويحبه مع ذلك فإنه يحب التوابين، فإذا تاب إليه عبده أحبه، ولو كان منه ما كان.

وكونه مودودًا ليس بعجيب، وإنما العجيب جوده وإحسانه، فإنه يتودد إلى عباده، كما جاء في الأثر: يا عبدي كم أتودد إليه بالنعم، وأنت تمقت إلي بالمعاصي، ولا يزال ملك كريم يصعد إليّ منك بعمل سيئ. وأيضًا فمبدأ الحب والود منه لكن اسمه الودود يجمع المعنيين، كما قال الوالبي عن ابن عباس: أنه الحبيب، وذلك أنه كان يود عباده فهو مستحق؛ لأن بوده العباد بالضرورة، فإذا قيل: إن الودود بمعنى الواو لزم أن يكون مودودًا بخلاف العكس.

فالصواب القطع بأن الودود هو الذي يود وإن كان ذلك متضمنًا؛ لأنه يستحق أن يود ليس هو بمعنى المودود فقط. ولفظ الوداد بالكسر هو مثل: الموادة والتواد وذاك يكون من الطرفين كالتحاب، وكل ود في الوجود فهو من فعله، فالذي جعل الود في القلوب هو أولى بالود، كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما في قوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ قال: يحبهم ويحبونه، وقد دل

الحديث الذي في « الصحيحين » على أن ما يجعله من المحبة في قلوب الخلق هو بعد أن يكون قد أحبه وأمر جبريل أن ينادي ، بأن اللَّه يحبه ، فينادي جبريل في السماء : « أن اللَّه يحب فلانًا فأحبوه » .

□ إثبات صفة الرحمة والمغفرة :

قوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ ، ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ ، ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ، ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ :

* في هذه الآيات إثبات صفتي الرحمة والمغفرة للَّه ، وفيها الرد على الجهمية ، والمعتزلة ونحوهما وقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ قال ابن عباس : ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر أي : أوسع رحمة .

وأسماء الرب تعالى هي أسماء ونعوت ؛ فإنها دالة على صفات كماله فلا تنافي فيها بين الوصفية والعلمية ، فالرحمن اسمه تعالى ووصفه ، لا تنافي اسميته وصفيته ، فمن حيث هو صفة جري تابعًا على اسم اللَّه ، ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع وورد الاسم العلم ، ولما كان هذا الاسم مختصًا به تعالى حسن مجيئه مفردًا غير تابع كمجيء اسم اللَّه كذلك ، وهذا لا ينافي دلالته على صفة الرحمن كاسم اللَّه ، فإنه دال على صفة الألوهية ، ولم يجيء قط تابعًا لغيره بل متبوعًا ، وهذا بخلاف العليم والقدير والسميع والبصير ونحوها ، ولهذا لا تجيء هذه مفردة بل تابعة ، فتأمل هذه النكتة البديعة يظهر لك بها أن الرحمن اسم وصفة لا ينافي أحدهما الآخر ، وجاء استعمال القرآن بالأمرين جميعًا ، وأما الجمع بين الرحمن الرحيم ففيه معنى أحسن من المعنيين الذين ذكرهما ، وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم ، فكان الأول للوصف والثاني للفعل ، فالأول دال على أن الرحمة صفته ، والثاني دال على أن يرحم خلقه برحمته ، وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله : ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ، ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ، ولم يجيء قط رحمن بهم ، فعلم أن رحمن هو الموصوف بالرحمة ، ورحيم هو الراحم برحمته .

والكتابة تكون شرعية وتكون كونية ، فالكتابة الشرعية الأمرية : كقوله تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ ، ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ ، والكونية القدرية كقوله : ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ ، ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ ، ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ ، والكتابة في قوله : ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ كتابة كونية قدرية .

فقد كتب اللَّه على نفسه الرحمة تفضلًا منه ، وإحسانًا من غير أن يوجبها عليه أحد كما قيل :

ما للعباد عليه حق واجب   كلا ولا سعي لديه ضائع
إن عذبوا فبعدله أو نعموا   فبفضله وهو الكريم الواسع

وإذا كان معقولًا من الإنسان أن يوجب على نفسه ويحرم ، ويأمرها وينهاها مع كونه تحت أمر غيره ونهيه ، فالآمر الناهي الذي ليس فوقه آمر ولا ناه كيف يمتنع في حقه أن يحرم على نفسه ، ويكتب على نفسه ؟ وكتابته على نفسه سبحانه تستلزم إرادته لما كتبه ومحبته له ، ورضاه به ، وتحريمه على نفسه ، يستلزم بغضه لما حرم وكراهته له وإرادة ألّا يفعله ، فإن محبته للفعل تقتضي وقوعه منه ، وكراهته لأن يفعله تمنع وقوعه منه ، وهذا غير ما يحبه سبحانه من أفعال عباده ويكرهه ، فإن محبة ذلك منهم لا تستلزم وقوعه ، وكراهته منهم لا تمنع وقوعه ففرق بين فعله هو سبحانه وبين فعل عباده الذي يقع مع كراهته وبغضه له ، ويتخلف مع محبته له ورضاه به بخلاف فعله هو سبحانه فهذا نوع وذاك نوع .

واعلم أن الناس في هذا المقام ثلاث طوائف : فطائفة : منعت أن يجب عليه شيء أو يحرم عليه شيء بإيجابه وتحريمه ، وهم كثير من مثبتي القدر الذين ردوا أقوال القدرية النفاة ، وقابلوهم أعظم مقابلة نفوا لأجلها الحكم والأسباب والتعليل ، وأن يكون العبد فاعلًا أو مختارًا .

الطائفة الثانية : بإزاء هؤلاء أوجبوا على الرب وحرموا أشياء بعقولهم ، جعلوها شريعة له يجب عليه مراعاتها من غير أن يوجبها هو على نفسه ولا حرمها ، وأوجبوا عليه من جنس ما يجب عليهم وحرموا عليه من جنس ما يحرم عليهم ، ولذلك كانوا مشبهة في الأفعال ، والمعتزلة منهم جمعوا بين الباطلين ، تعطيل صفاته وجحد نعوت كماله ، والتشبيه له بخلقه فيما أوجبوه عليه وحرموه ، فشبهوا في أفعاله ، وعطلوا في صفات كماله ، فجحدوا بعض ما وصف به نفسه من صفات الكمال ، وسموه توحيدًا ، وشبهوه بخلقه فيما يحسن منهم ويقبح من الأفعال ، وسموا ذلك عدلًا وقالوا : نحن أهل العدل والتوحيد . فعدلهم إنكار قدرته ومشيئته العامة الشاملة التي لا يخرج عنها شيء من الموجودات ، ذواتها وصفاتها وأفعالها ، وتوحيدهم إلحادهم في أسمائه الحسنى وتحريف معانيها عما هي عليه ، فكان توحيدهم في الحقيقة تعطيلًا وعدلهم شركًا ، وهذا مقرر في موضعه .

والمقصود أن هذه الطائفة مشبهة في الأفعال ، معطلة في الصفات وهدى الله « الأمة الوسط » فلم يقيسوه بخلقه ، ولم يشبهوه بهم في شيء من صفاته ولا أفعاله ، ولم ينفوا ما أثبته لنفسه من ذلك ولم يوجبوا عليه شيئًا ولم يحرموا عليه شيئًا ، بل أخبروا عنه بما أخبر عن نفسه وشهدت قلوبهم ما في ضمن ذلك الإيجاب والتحريم من الحكم والغايات المحمودة التي يستحق عليها كمال الحمد والثناء ، فإن العباد لا يحصون ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه .

قوله : ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ : ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ : من أسمائه سبحانه ، والمغفرة صفته ، ومعنى ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ الساتر للذنوب الماحي له ، ومنه سمي المغفرة لسترة الرأس .

وإذا غفر الذنب زالت عقوبته ، فإن المغفرة هي وقاية شر الذنب ، ومن الناس من يقول : الغفر الستر ، ويقول : إنما سمي المغفرة والغفار لما فيه من معنى الستر ، وتفسير اسم الغفار بأنه الستار ، وهذا تقصير في معنى الغفر ؛ فإن المغفرة معناها وقاية شر الذنب بحيث لا يعاقب على الذنب ، فمن غفر ذنبه لم يعاقب عليه ، وأما مجرد ستره فقد يعاقب عليه في الباطن ، ومن عوقب على الذنب باطنًا أو ظاهرًا فلم يغفر له ، وإنما يكون غفران الذنب إذا لم يعاقب عليه العقوبة المستحقة بالذنب .

وقد أنكر الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم صفة الرحمة والمغفرة ، وقالوا : الرحمة ضعف وخور في الطبيعة وتألم على المرحوم ، وبذلك نفوا صفة للّه ثابتة ، وهذا الزعم باطل من وجوه :

أما الأول : فلأن الضعف والخور مذموم من الآدميين والرحمة ممدوحة ، وقد قال اللّه تعالى : ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ * وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ ، وقد نهى اللّه عباده عن الوهن والحزن فقال تعالى : ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ، وندبهم إلى الرحمة ، وقال النبي في الحديث الصحيح : « لا تُنْزَع الرحمة إلَّا من شقي »[(1)] . وقال : « مَن لا يَرْحَم ، لا يُرْحَم »[(2)] . وقال : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء »[(3)] . ومحال أن يقول : لا ينزع الضعف والخور إلا من شقي ، ولما كانت الرحمة تقارن في حق كثير من الناس الضعف والخور ، كما في رحمة النساء ونحو ذلك ظن الغالط أنها كذلك مطلقًا .

وأيضًا فلو قدر أنها في حق المخلوقين مستلزمة لذلك لم يجب أن تكون في حق اللّه تعالى مستلزمة لذلك ، كما أن العلم والقدرة والسمع والبصر والكلام فينا يستلزم من النقص والحاجة ما يجب تنزيه اللّه عنه .

وأيضًا فنحن نعلم بالاضطرار أنا إذا فرضنا موجودين أحدهما يرحم غيره فيجلب له المنفعة ويدفع عنه المضرة ، والآخر قد استوى عنده هذا وهذا ، وليس عنده ما يقتضي جلب منفعة ولا دفع مضرة ، كان الأول أكمل .

---

(١) سنن أبي داود (٤٩٤٤- ٤/٤٤١) ، وحسنه الألباني في « صحيح ابي داود » (٤٩٤٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٢) البخاري (٥٩٩٧- ٨/٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٣) سنن الترمذي (١٩٢٤- ٤/٣٢٣) ، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (٩٢٢) من حديث عبد اللّه بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وبعضهم تأول الرحمة بمعنى إرادة الإحسان ، والحق إثبات صفة الرحمة حقيقة على ما يليق بجلاله تعالى ، كما يقال في سائر الصفات والرحمة : لا تنفك عن إرادة الإحسان فهي مستلزمة للإحسان أو إرادته استلزام الخاص للعام ، فكما يستحل وجود الخاص بدون العام ، فكذلك الرحمة بدون الإحسان أو إرادته يستحيل وجودها ، ومنهم من تأول الرحمة بمعنى الثواب ، والله سبحانه فرق بين رحمته ورضوانه وثوابه المفضل فقال تعالى : ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ ، فالرحمة والرضوان صفته والجنة ثوابه ، وهذا يبطل قول من جعل الرحمة والرضوان ثوابًا منفصلًا مخلوقًا ، وقول من قال : هي إرادته الإحسان ، فإن إرادته الإحسان هي من لوازم الرحمة ، فإنه يلزم من الرحمة أن يريد الإحسان إلى المرحوم فإذا انتفت حقيقة الرحمة انتفى لازمها وهو إرادة الإحسان ، وكذلك لفظ اللعنة والغضب والمقت هي أمور مستلزمة للعقوبة ، فإذا انتفت حقائق تلك الصفات انتفى لازمها ، فإن ثبوت لازم الحقيقة مع انتفائها ممتنع فالحقيقة لا توجد منفكة عن لوازمها .

واعلم أن الرحمة المضافة إلى الله نوعان :

أحدهما : مضاف إليه إضافة مفعول إلى فاعله .

والثاني : مضاف إليه إضافة صفة إلى الموصوف بها ، فمن الأول قوله في الحديث الصحيح : « احتجت الجنة والنار ...» فذكر الحديث ، وفيه : « فقال للجنة : إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء »(١) ، فهذه رحمة مخلوقة مضافة إليه إضافة المخلوق بالرحمة إلى الخالق تعالى ، وسماه رحمة ؛ لأنها خلقت بالرحمة وللرحمة ، وخص بها أهل الرحمة ، وإنما يدخلها الرحماء ومنه قوله ﷺ : « خلق الله الرحمة يوم خلقها مائة رحمة ، كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض »(٢) . ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ ، ومنه تسميته تعالى للمطر رحمة بقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ ، وعلى هذا فلا يمتنع الدعاء المشهور بين الناس قديمًا وحديثًا ، وهو قول الداعي : اللهم اجمعنا في مستقر رحمتك . لأن مراد الداعي بالرحمة الجنة .

وقال في إبطال التنديد « شرح كتاب التوحيد » : غلط بعض المتأخرين في تفسير الرحمن بكمال الإنعام ، والرحيم بدون الكمال وبإرادة الإنعام ، فإن ذلك مذهب أهل التأويل الباطل من الجهمية المبتدعة ، ذكر معناه شيخنا الشيخ عبد الرحمن بن حسن حفيد المصنف . اهـ .

---

(١) مسلم (٤/٢١٨٦٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) مسلم (٤/٢١٠٩) بنحوه من حديث سلمان رضي الله عنه .

□ ذكر غضب الله ورضاه :

وقوله : ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ ، وقوله : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ ، وقوله : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ ، وقوله : ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ ، وقوله : ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ ، وقوله : ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ :

* في هذه الآيات إثبات وصف الله بالغضب والرضا واللعن والكراهية والأسف والمقت ، وهذه كلها من صفات الأفعال التي يفعلها جل وعلا متى شاء إذا شاء ، فكما يثبت أهل السنة الصفات الذاتية لله ، كذلك يثبتون أفعاله الاختيارية على ما يليق به سبحانه .

واللعن البعد عن مظان الرحمة ومواطنها : قيل : واللعن والملعون من حقت عليه اللعنة ، أو دعي عليها بها ، قال أبو السعادات : أصل اللعن الطرد والإبعاد من الله ، ومن الخلق السب والدعاء . قال شيخ الإسلام رحمه الله ، ما معناه : إن الله تعالى يلعن من استحق اللعنة بالقول ، كما يصلي على من استحق الصلاة من عباده ، قال تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ، ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ ، وقال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ ، وقال : ﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ .

وقوله : ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ : الأسف محرك يستعمل بمعنى شدة الحزن ، وبمعنى شدة الغضب والسخط ، وهو المراد في هذه الآية ، والانتقام المكافأة بالعقوبة ، وانتقامه تعالى مبالغته في العقوبة لمن يشاء ، والمنتقم مفتعل من نقم ينقم إذا بلغت به الكراهة حد السخط ، والمقت أشد البغض ، فدلت هذه الآيات وما ماثلها على إثبات رضا الله وغضبه وسخطه ونحو ذلك .

والرسل صلوات الله عليهم أجمعين إنما جاءوا بإثبات هذا الأصل ، وهو أن الله يحب بعض الأمور المخلوقة ويرضاها ، ويسخط بعض الأمور ويمقتها ، وأن أعمال العباد ترضيه تارة وتسخطه أخرى .

ومذهب السلف وسائر الأمة إثبات صفة الغضب والرضا والعداوة والولاية والحب والبغض ، ونحو ذلك من الصفات التي ورد بها الكتاب والسنة ، ومنع التأويل الذي يصرفها عن حقائقها اللائقة بالله تعالى ، كما يقولون مثل ذلك في السمع والبصر والكلام وسائر الصفات ، ولا يقال : إن الرضا إرادة الإحسان ، والغضب إرادة الانتقام ؛ فإن هذا نفي للصفة ، وقد اتفق أهل السنة على أن الله يأمر بما يحبه ويرضاه وإن كان لا يريده ولا يشاؤه ، وينهى عما يسخطه ويكرهه ويبغضه ، ويغضب على فاعله وإن كان قد شاءه وأراده ، فقد يحب عندهم ويرضى ما لا يريده ، ويكره ويسخط ويغضب لما أراده ،

ويقال لمن تأول الغضب والرضا : لم تأولت ذلك ؟ فلا بد أن يقول : لأن الغضب غليان دم القلب ، والرضا الميل والشهوة وذلك لا يليق بالله تعالى ، فيقال له : غليان دم القلب في الآدمي أمر ينشأ عن صفة الغضب . ويقال له أيضًا : وكذلك الإرادة والمشيئة فينا هي ميل الحي إلى الشيء ، أو إلى ما يلائمه ويناسبه .

فالمعنى الذي صرفت إليه اللفظ كالمعنى الذي صرفته عنه سواء ، فإن جاز هذا جاز ذاك ، وإن امتنع هذا امتنع ذاك ، فإن قالوا : الإرادة التي يوصف الله بها مخالف للإرادة التي يوصف بها العبد وإن كان كل منها حقيقة ! قيل له : فقل : إن الغضب والرضا الذي يوصف الله به مخالف لما يوصف به العبد ، وإن كان كل منهما حقيقة ، فإذا كان ما يقوله في الإرادة يمكن أن يقال في هذه الصفات لم يتعين التأويل بها يجب تركه ، وصفات الله تليق به وصفات العبد تليق به ، بل لو قيل : غضب مالك خازن النار وغضب غيره من الملائكة ، لم يجب أن يكون مماثلًا لكيفية غضب الآدمين ، فغضب الله أولى ، وقد نفى الجهم ومن وافقه كل ما وصف الله به نفسه من كلامه ورضاه وغضبه وحبه وبغضه وأسفه ونحو ذلك ، وقالوا : إنما هي أمور مخلوقة منفصلة عنه ليس هو في نفسه متصفًا بشيء من ذلك ، وعارض هؤلاء من الصفاتية ابن كلاب ومن وافقه فقالوا : لا يوصف الله بشيء يتعلق بمشيئته وقدرته أصلًا ، بل جميع هذه الأمور صفات لازمة لذاته قديمة أزلية ، فلا يرضى في وقت دون وقت ، ولا يغضب في وقت دون وقت ، كما قال ﷺ في حديث الشفاعة : « إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله »[1] .

وفي « الصحيحين » عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : « إن تعالى يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة . فيقولون : لبيك وسعديك والخير في يديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك . فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا »[2] . فيستدل به على أنه يحل رضوانه في وقت دون وقت ، وأنه قد يحل رضوانه ثم يسخط ، كما يحل السخط ثم يرضى لكن هؤلاء أحل عليهم رضوانًا لا يتعقبه سخط ، وهم قالوا : لا يتكلم إذا شاء ولا يضحك إذا شاء ولا يغضب إذا شاء ولا يرضى إذا شاء ، بل إما أن يجعلوا الرضا والغضب والحب والبغض هو الإرادة ويجعلوها صفات أخرى ، وعلى التقديرين فلا يتعلق شيء من ذلك لا بمشيئته ولا بقدرته ؛ إذ لو تعلقت بذلك لكان محلًا للحوادث ، فنفى هؤلاء الصفات العقلية الذاتية بهذا الأصل ، كما نفى

---

(١) البخاري (٤/١٣٥) ، ومسلم (١/١٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) البخاري (٦٥٣٩- ٨/١١٤) ، ومسلم (٤/٢١٧٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

أولئك الصفات مطلقًا بقولهم : ليس محلًا للأغراض .

وقد يقال : بل هي أفعال ولا تسمى حوادث ، كما سميت تلك صفات ولم تسم أعراضًا ، وما يزعمه الجهمية والمعتزلة من أن كلامه وإرادته ومحبته وكراهته ورضاه وغضبه ، وغير ذلك كل ذلك مخلوقات له منفصلة عنه هو مما أنكره السلف عليهم وجمهور الخلف ، بل قالوا : إن هذا من الكفر الذي يتضمن تكذيب الرسول وجحود ما يستحقه اللَّه من صفاته ، وكلام السلف في رد هذا القول ، وإطلاق الكفر عليه كثير منتشر ، كذلك لم يقل السلف : إن غضبه على فرعون وقومه قديم ولا أن فرحه بتوبة التائب قديم ، وكذلك سائر ما وصف به نفسه من الجزاء لعباده على الطاعة والمعصية من رضاه وغضبه لم يقل أحد منهم : إنه قديم فإن الجزاء لا يكون قبل العمل ، والقرآن صريح بأن أعمالهم كانت سببًا لذلك قوله : ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ ، واللَّه تعالى إذا خلق صفة في محل كان المحل متصفًا به ، فإذا خلق في محل علمًا أو قدرة أو حياة أو حركة أو لونًا أو سمعًا أو بصرًا كان ذلك المحل هو العالم به القادر المتحرك الحي المتلون السميع البصير ، فإن الرب لا يتصف بما يخلقه في مخلوقاته ، وإنما يتصف بصفاته القائمة به ، بل كل موصوف لا يوصف إلا بما يقوم به لا بما يقوم بغيره ولم يقم به .

وأما قول القائل : الغضب غليان دم القلب بطلب الانتقام ، وبذلك رد الجهمية ونحوهم صفة الغضب ، فيقال : أولًا : ليس بصحيح أن الغضب غليان دم القلب في حق المخلوقين ، بل الغضب قد يكون لدفع المنافي قبل وجوده ، فلا يكون هناك انتقام أصلًا ، وأيضًا فغليان دم القلب يقارنه الغضب ليس أن مجرد الغضب هو غليان دم القلب ، كما أن الحياء يقارن حمرة الوجه ، والوجل يقارن صفرة الوجه ، لا أنه هو ، وأيضًا فلو قدر أن هذا هو حقيقة غضبنا لم يلزم أن يكون غضب اللَّه تعالى مثل غضبنا ، كما أن حقيقة ذات اللَّه ليست مثل ذاتنا ، ونحن نعلم بالاضطرار أنا إذا قدرنا موجودين : أحدهما : عنده قوة يدفع بها الفساد ، والآخر : لا فرق عنده بين الصلاح والفساد ، كان الذي عنده تلك القوة أكمل ، ولهذا يذم من لا غيرة له على الفواحش كالديوث ، ويذم من لا حمية له يدفع بها الظلم عن المظلومين ، ويمدح الذي له غيره يدفع بها الفواحش وحمية يدفع بها الظلم ، ويعلم أن هذا أكمل من ذلك ، ولهذا وصف النبي ﷺ الرب بالأكملية في ذلك ، فقال في الحديث الصحيح : « لا أحد أغير من اللَّه ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن »(١) . وقال : « أتعجبون من غيرة سعد ؟ أنا أغير منه واللَّه أغير مني »(٢) .

---

(١) البخاري (٤٦٣٤- ٦/٥٧) ، ومسلم (٤/٢١١٤) .

(٢) البخاري (٦٨٤٦- ٨/١٧٣) ، ومسلم (٢/١١٣٦) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه .

وقول القائل : إن هذه انفعالات نفسانية ، فيقال : كل ما سوى الله مخلوق منفعل ونحن ذواتنا منفعلة ، فكونها انفعالات فينا لغيرنا نعجز عن دفعها لا يوجب أن يكون الله منفعلًا لها عاجزًا عن دفعها ، وكان كل ما يجري في الوجود فإنه بمشيئته وقدرته لا يكون إلا ما يشاء ، ولا يشاء إلا ما يكون له ، له الملك وله الحمد .

□ إثبات صفة مجيء الله وإتيانه ونزوله :

وقوله : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ ، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ ، ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ ، ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ :

* في هذه الآيات إثبات صفة مجيء الله وإتيانه ونزوله على ما يليق بجلاله سبحانه ، وهذه من أفعاله الاختيارية ، فينزل يوم القيامة لفصل القضاء بين الناس ، وينزل إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر ، وغير ذلك على ما وردت به النصوص ، وكما يشاء جل وعلا ، وفي ذلك إبطال لقول الجهمية والمعتزلة ونحوهم من النفاة المعطلة .

قوله : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي : هل ينتظر الكفار التاركون للدخول في السلم المتبعون خطوات الشيطان إلا أن يأتيهم الله يوم القيامة لفصل القضاء بين الناس ، وعند ذلك يحيق بهم العذاب السرمدي ، و﴿يَنظُرُونَ﴾ : بمعنى ينتظرون ، قال امرؤ القيس :

فإنكما إن تنظراني ساعة   من الدهر تنفعني لدى أم جندب

فإذا كان النظر مقرونًا بذكر الوجه أو معدى بإلى لم يكن إلا بمعنى الرؤية .

والظلل جمع ظلة ، وهو السحاب الأبيض الرقيق ، وقوله : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قال مجاهد : عند الموت حين توفاهم .﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ يوم القيامة لفصل القضاء ، ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ طلوع الشمس من مغربها وما شاء الله وقال ابن جرير : « حيث ذكر في القرآن إتيان الملائكة فهو محتمل لإتيانهم لقبض الأرواح ، ويحتمل أن يكون نزولهم لهم بعذاب الكفار وإهلاكهم » . اهـ .

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ : كلا حرف زجر وردع ، المعنى ليس الأمر ، كما يظن المنكرون للبعث من أنه لا بعث ولا جزاء ولا حساب ، بل إن ذلك حق آت لا ريب فيه وعندئذ يذكرون حين لا تنفع الذكرى .

والدك : التسوية والتمهيد ، والملك : واحد الملائكة ، والمراد هنا الجمع ، وأل فيه للجنس ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ إيذانا بنزوله تعالى ؛ لأن تشقق السماء مقدمة النزول ، ومقدمة الشيء

منه ، وقد زعم بعض المنكرين لصفة مجيء اللَّه أن في قوله : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ إضمارًا تقديره : وجاء ملك ربك أو أمره أو عذابه ، وهو زعم باطل ، فإنه إضمار ما لا يدل عليه اللفظ بمطابقة ولا لزوم ، وادعاء حذف ما لا دليل عليه يرفع الوثوق من الخطاب ، ويطرق كل مبطل على ادعاء إضمار ما يصحح باطله ، مع أن صحة التركيب واستقامة اللفظ لا تتوقف على هذا المحذوف ، بل الكلام مستقيم قائم المعنى بدون إضمار ، فإضماره مجرد دعوى خلاف الأصل فلا يجوز ، بل يكون قولًا على المتكلم بلا علم ، وأيضًا ففي السياق ما يبطل هذا التقدير ، وهو قوله : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ﴾ ، فعطف الملك على مجيئه سبحانه يدل على تغاير المجيئين ، وأن مجيئه سبحانه حقيقة ، كما أن مجيء الملك حقيقة ، بل مجيء الرب سبحانه أولى أن يكون حقيقة من مجيء الملك ، وكذلك قوله : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ ففرق بين إتيان الملائكة وإتيان الرب ، وإتيان ﴿بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ فقسم ونوع مع هذا التقسيم يمتنع أن يكون القسمان واحد فتأمله ، ولهذا منع عقلاء الفلاسفة حمل مثل هذا اللفظ على مجازه ، وقالوا : هذا يأباه التقسيم والترديد والاطراد ، ولو صرح بهذا المحذوف المقدر له يحسن وكان كلامًا ركيكًا ، فإنه لو قال : هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ملك ربك أو أمر ربك أو يأتي بعض آيات ربك كان مستهجنًا ، ولو كان المجيء والإتيان مستحيلًا عليه لكان كالأكل والشرب والنوم والغفلة ، ومتى عهد إطلاق الأكل والشرب والنوم والغفلة عليه ونسبتها مجازية ، وهي متعلقة بغيره ؟ وهل في ذلك شيء من الكمال البتة ؟ فإن قوله : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ وأتى ويأتي عندكم في الاستحالة مثل نام وأكل وشرب ، واللَّه سبحانه لا يطلق على نفسه هذه الأفعال ولا رسوله لا بقرينة ، ولا مطلقة فضلًا عن نظر نسبتها إليه .

وقد اطرد نسبة المجيء والإتيان والنزول والاستواء إليه مطلقًا من غير قرينة تدل على أن الذي نسب إليه ذلك غيره من مخلوقاته ، فكيف تسوغ دعوى المجاز فيه ؟ ومن ادعى المجاز زعم أن العقل يسانده في ذلك ، ولكن مدعي الحقيقة قد أبطل جميع العقليات التي لأجلها ادعى المجاز في المجيء ونحوه أكثر من ثلاثمائة وجه ، فسلم لهم النقل واتفاق السلف ، فكيف والعقل الصريح بجانبهم ؟ وبعضهم قال : أمره بمعنى مأموره فركب مجازًا على مجاز بزعمه ولم يصنع شيئًا .

وقد يجيء الإتيان والمجيء من اللَّه تعالى مقيدًا إذا كان مجيء رحمته أو عذابه ، كما في الحديث : جاء اللَّه بالرحمة والخير ، ومنه ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ ، ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ ، وفي الحديث : لا يأتي بالحسنات إلا اللَّه[1] .

---

(١) سنن أبي داود (٢٩٢١- ٤/٢٧) ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (حديث رقم : ١٩٩) .

وكذلك قوله: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾ فلما قيده بالمفعول وهو البنيان، وبالمجرور وهو القواعد دل ذلك على مجيء ما بينه، إذ من المعلوم أن الله سبحانه إذا جاء بنفسه لا يجيء من أساس الحيطان وأسفلها، وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ فهذا مجيء مقيد لقوم مخصوصين قد أوقع بهم بأسه، وعلم السامعون أن جنوده من الملائكة والمسلمين أتوهم فكان في هذا السياق ما يدل على المراد على أنه لا يمتنع في الآيتين أن يكون الإتيان على حقيقته، ويكون ذلك دنوًا ممن يريد إهلاكهم بغضبه وانتقامه، كما يدنو عشية عرفة من الحجاج برحمته ومغفرته، ولا يلزم من هذا الدنو والإتيان الملاصقة والمخالطة، بل يأتي هؤلاء برحمته وفضله، وهؤلاء بانتقامه وعقوبته، ومن فوق عرشه، إذ لا يكون الرب إلا فوق كل شيء، ففوقيته وعلوه من لوازم ذاته، ولا تناقض بين نزوله ودنوه وهبوطه ومجيئه وإتيانه وعلوه، لإحاطته وسعته وعظمته، وأن السماوات والأرض في قبضته، وأنه مع كونه الظاهر الذي ليس فوقه شيء فهو الباطن الذي ليس دونه شيء، فظهوره بالمعنى الذي فسره به أعلم الخلق لا يناقض بطونه بالمعنى الذي فسره به أيضًا، ومما يوضح ذلك أن النزول والمجيء والإتيان والصعود والارتفاع كلها أنواع أفعاله، وهو الفعال لما يريد.

وأفعاله كصفاته قائمة به، ولولا ذلك لم يكن فعالًا ولا موصوفًا بصفات كماله، فإن كانت مجازًا فأفعاله كلها مجاز ولا فعل له في الحقيقة، بل هو بمنزلة الجمادات، وهذا حقيقة من عطل أفعاله، وإن كان فاعلًا حقيقة أفعاله نوعان: لازمة ومتعدية، كما دلت النصوص التي هي أكثر من أن تحصر على النوعين، ولما فهمت العقول الفاسدة من نزول الرب ومجيئه وإتيانه وهبوطه ودنوه ما يفهم من مجيء المخلوق وإتيانه وهبوطه ودنوه، وهو أن يفرغ مكانًا ويشغل مكانًا نفت حقيقة ذلك فوقعت في محذورين؛ محذور التشبيه ومحذور التعطيل، فلو كان الرب سبحانه مماثلًا لخلقه لزم نزوله خصائص نزولهم، ضرورة ثبوت أحد المثلين للآخر.

❑ إثبات صفة الوجه لله:

وقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾:

* إثبات صفة الوجه لله قد دل عليها القرآن والسنة وإجماع السلف وأهل السنة، والوجه صفة ذاتية له تعالى، وقد أنكرت الجهمية ونحوهم أن يوصف الله بأن له وجهًا، وتأولوا ما ورد في ذلك تأويلات فاسدة؛ فمنهم من قال: المراد به الثواب، ومنهم من قال: القبلة، ومنهم من قال: الوجه صلة والتقدير ويبقى ربك، ودعوى المجاز في ذلك باطلة، فإن المجاز لا يمتنع نفيه، فعلى هذا لا

يمتنع أن يقال : ليس للَّه وجه ولا حقيقة لوجهه ، وهذا تكذيب لما أخبر اللَّه به عن نفسه وأخبر به عنه رسوله ﷺ ، ولو ساغ دعوى الزيارة في ذلك لساغ لمعطل آخر أن يدعى الزيادة في صفات أخرى ، وأيضًا فقد ذكر الخطابي والبيهقي وغيرهما أنه تعالى لما أضاف الوجه إلى الذات وأضاف النعت إلى الوجه فقال : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ دل على أن ذكر الوجه ليس بصلة ، وأن قوله : ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ صفة للوجه ، وأن الوجه صفة للذات ، فتأمل رفع قوله : ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ عند ذكر الوجه ، وجره في قوله : ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ، وأيضًا فإنه لا يعرف في لغة من لغات الأمم وجه الشيء بمعنى ذاته ونفسه ، والوجه في اللغة مستقبل كل شيء ؛ لأنه أول ما يواجه منه ، ووجه الرأي والأمر ما يظهر أنه صوابه ، وهو في كل محل بحسب ما يضاف إليه ، فإن أضيف إلى زمن كان الوجه زمنًا ، وإن أضيف إلى حيوان كان بحسبه ، وإن أضيف إلى ثوب أو حائط كان بحسبه ، وإن أضيف إلى من ليس كمثله شيء كان وجهه تعالى كذلك ، وأما حمله على الثواب المنفصل فهو من أبطل الباطل ، فإن اللغة لا تحتمل ذلك ولا يعرف أن الجزاء يسمى وجهًا للمجازى ، ثم إن الثواب مخلوق .

وقد صح عن النبي ﷺ أنه استعاذ بوجه اللَّه فقال : « أعوذ بوجهك الكريم أن تضلني ، لا إله إلا أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون » . رواه أبو داود وغيره[(١)] ، ومن دعائه يوم الطائف : « أعوذ بوجهك الكريم الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة » . ولا يظن برسول اللَّه ﷺ أن يستعيذ بمخلوق ، والأحاديث في الاستعاذة بوجه اللَّه كثيرة ، وكان النبي ﷺ يدعو في دعائه : « أسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك »[(٢)] .

ولا يعرف تسمية الثواب وجهًا لغة ، ولا شرعًا ولا عرفًا ، وقوله ﷺ : « حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه »[(٣)] . فإضافة السبحات التي هي الجلال والنور إلى الوجه ، وإضافة البصر إليه تبطل كل مجاز ، وتبين أن المراد وجهه وقال عبد اللَّه ابن مسعود : ليس عند ربكم ليل ولا نهار ، نور السماوات والأرض من نور وجهه . فهل يصح أن يحمل الوجه في هذا على مخلوق أو يكون صلة لا معنى له ، أو يكون بمعنى القبلة والجِهَة ؟ وهذا مطابق لقوله عليه السلام : « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات » . فأضاف النور إلى الوجه والوجه إلى الذات ، واستعاذ بنور الوجه الكريم فعلم أن نوره صفة له ، كما أن الوجه صفة ذاتية ، وهذا الذي قاله ابن مسعود تفسير

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (١٠/٣٢٧) ، وضعفه الألباني في « فقه السيرة » (١/١٦٥) .

(٢) « سنن النسائي » (١٣٠٥- ٣/٥٤) ، وصححه الألباني في « صحيح وضعيف سنن النسائي » (١٤٤٩) .

(٣) مسلم (١/١٦١) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

قوله : ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ .

وقد اتفق أهل الحق على رؤية المؤمنين الله في الجنة ، فمن أنكر حقيقة الوجه لم يكن للنظر عنده حقيقة ، ولا سيما إذا أنكر الوجه والعلو فيعود النظر عنده إلى خيال مجرد ، وحيث ورد الوجه فإنما ورد مضافًا إلى الذات في جميع موارده ، والمضاف إلى الرب تعالى نوعان :

أعيان قائمة بنفسها كبيت الله وناقة الله ، وروح الله ، وعبد الله ورسوله ، فهذه إضافة تشريف وتخصيص ، وهي إضافة مملوك إلى مالكه .

الثاني : صفات لا تقوم بنفسها ، كعلم الله وحياته وقدرته وعزته وسمعه وبصره ونوره وكلامه ، فهذه إذا وردت مضافة إليه فهي صفة إلى الموصوف بها ، وهذا الإضافة تنفي أن يكون الوجه مخلوقًا ، وأن يكون حشوًا في الكلام ، وفي سنن أبي داود عنه ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد قال : « أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم ، وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم »[1] . فتأمل كيف قرره في الاستعاذ بين استعاذته بالذات وبين استعاذته بالوجه الكريم ، وهذا صريح في إبطال قول من قال : إنه الذات نفسها ، وقول من قال : أنه مخلوق .

□ إثبات صفة اليدين :

وقوله : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ ، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ :

*صفة اليدين لله قد دل عليها الكتاب والسنة ، وإجماع سلف الأمة ، خلافًا للجهمية والمعتزلة ، قال عبد الله بن عمرو بن العاص : إن الله لم يخلق بيده إلا ثلاثًا خلق آدم بيده ، وغرس جنة عدن بيده ، وكتب التوراة بيده . وفي محاجة آدم لموسى قال موسى : أنت الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء[2] .

وزعم نفاة الصفات : أن المراد باليدين النعمة والقدرة ، وهي دعوى باطلة ، فإنه لا يصح في عقل أو نقل أن يقال : لم يخلق بنعمته أو بقدرته إلا ثلاثًا ، ولا يصح استعمال المجاز في هذا بلفظ التثنية ، فلا يستعمل إلا مفردًا أو مجموعًا كقولك : له عندي يد يجزيه الله بها ، وله عندي أياد ، وأما إذا جاء بلفظ التثنية فلا يعرف استعماله قط إلا في اليد الحقيقة ، وليس من المعهود أن يطلق الله على نفسه معنى القدرة والنعمة بلفظ التثنية ، بل بلفظ الإفراد الشامل لجميع الحقيقة ، كقوله : ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ

---

(١) سنن أبي داود (٤٦٦– ١/١٧٥) ، وصححه الألباني في « صحيح وضعيف سنن أبي داود » (١/٤٦٦) .

(٢) سنن أبي داود (٤٧٠٤– ٤/٣٦٢) من حديث عمر رضي الله عنه ، وحسنه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (٤/ ٢٠١) .

جَمِيعًا﴾ ، وقد يجمع النعم مثل : ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ ، وأما أن يقول : خلقتك بقدرتين أو بنعمتين ، فهذا لم يقع في كلامه ، ولا في كلام رسوله ، ولو ثبت استعمال ذلك بلفظ التثنية لم يجز أن يكون المراد به هاهنا القدرة ، فإنه يبطل فائدة تخصيص آدم ، فإنه وجميع المخلوقات حتى إبليس مخلوق بقدرته سبحانه ، فأي مزية لآدم على إبليس في ذلك ، وأيضًا فيه النعمة والقدرة لا يتجاوز بها لفظ اليد ، فلا يتصرف فيها بما يتصرف في اليد الحقيقية ، فلا يقال فيها كف ، ولا أصبع ، ولا أصبعان ، ولا يمين ، ولا شمال ، وهذا كله ينفي أن تكون اليد يد نعمة أو يد قدرة ، وقد قال النبي ﷺ : « المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن »[1] . وفي حديث الشفاعة : فأقوم عن يمين الرحمن مقامًا لا يقومه غيري .

وإذا ضممت قوله : ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إلى قوله ﷺ : « يأخذ الجبار سماواته وأرضه بيده يهزهن » . وجعل رسول اللَّه ﷺ يقبض يده ، ويبسطها ، وفي « صحيح مسلم » يحكي ربه بهذا اللفظ ، وقال : « ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء أن يزيغه أزاغه » . وفي حديث الشفاعة : « وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي أربعمائة ألف » . فقال أبو بكر : زدنا يا رسول اللَّه . قال : « وثلاث حثيات من حثيات ربي » . فقال عمر : حسبك يا أبا بكر ، إن شاء أدخل خلقه الجنة بكف واحدة . فقال رسول اللَّه ﷺ : « صدق عمر » . فهذا القبض والبسط والطي باليمين والأخذ والوقوف عن يمين الرحمن ، والكف ، وتقليب القلوب بأصابعه ، ووضع السماوات على أصبع ، والجبال على أصبع ، فذكر إحدى اليدين ، ثم قوله : « وبيده الأخرى » . ممتنع فيه اليد المجازية ، سواء كانت بمعنى القدرة أو بمعنى النعمة ، فإنها لا يتصرف فيها هذا التصرف ، وقد أنكر اللَّه تعالى على اليهود نسبة يده إلى النقص والعيب ، ولم ينكر عليهم إثبات يده ، وقدر إثباتها له زيادة على ما قالوا بأنهما « مبسوطتان » ، وأيضًا قيد القدرة والنعمة لا يعرف استعمالها البتة إلا في حق من له يد حقيقة ، فهذه موارد استعمالها من أولها إلى آخرها ، مطردة في ذلك فلا يعرف العربي خلاف ذلك ، فاليد المضافة إلى الحي إما أن تكون يدًا حقيقة أو مستلزمة للحقيقة ، وإما أن تضاف إلى من ليس لديه حقيقة ، وهو حي متصف بصفات الأحياء .

فهذا لا يعرف البتة ، وسر هذا أن الأعمال والأخذ والعطاء والتصرف لما كان باليد ، وهي التي تباشر عبروا بها عن الغاية الحاصلة بها ، وهذا يستلزم ثبوت أصل اليد حتى يصح استعمالها في مجرد القوة والنعمة والإعطاء ، فإذا انتفت حقيقة اليد امتنع استعمالها فيها فيما يكون باليد ، فثبوت هذا الاستعمال المجازي من أدل الأشياء على ثبوت الحقيقة ، فقوله تعالى في حق اليهود : ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾

---

(١) مسند أحمد (٦٤٩٢- ١١/٣٢) .

هو دعاء عليهم بغل اليد المتضمن للجبن والبخل ، وذلك لا ينفي ثبوت أيديهم حقيقة .

وأما الإضافة في مثل يد الشمال ، ويد الحائط ويد الليل ، فقد بينت أن المضاف من جنس المضاف إليه وكل ذلك حقيقة ، وكذلك إضافة اليدين إلى الرحمة في قوله : ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ ، فيتنوع المضاف بتنوع المضاف إليه ، وإن اختلفت ماهية الحقيقة وصفتها وتنوعت بتنوع المضاف إليه .

وقد ورد لفظ اليد في القرآن والسنة وكلام الصحابة والتابعين في أكثر من مائة موضع ، ورودًا متنوعًا متصرفًا فيه ، مقرونًا بما يدل على أنها يد حقيقة من الإمساك والطي والقبض والبسط والمصافحة ، والحثيات والنضح باليد ، والخلق باليدين والمباشرة بهما وكتب التوراة بيده ، وغرس جنة عدن بيده ، وتخمير طينة آدم ، ووقوف العبد بين يديه ، وكون المقسطين عن يمينه ، وقيام رسول الله ﷺ يوم القيامة عن يمينه ، وتخيير آدم بين ما في يديه فقال : اخترت يمين ربي . وأخذ الصدقة بيمينه ، يربيها لصاحبها ، وكتابته بيده على نفسه : إن رحمته تغلب غضبه ، وأنه مسح ظهر آدم بيده ، ثم قال له- ويداه مفتوحتان- : اختر . فقال : اخترت يمين ربي . وكلتا يديه يمين مباركة ، وأن يمينه ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار ، وبيده الأخرى القسط يرفع ويخفض ، وأنه خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، وأنه يطوي السماوات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يطوي الأرض باليد الأخرى وأنه خط الألواح التي كتبها لموسى بيده ، وتأمل قوله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ فلما كانوا يبايعون رسول الله ﷺ بأيديهم ، ويضرب بيده على أيديهم ، وكان رسول الله ﷺ هو السفير بينه وبينهم كانت مبايعتهم له مبايعة لله تعالى ، ولما كان سبحانه فوق سماواته على عرشه ، وفوق الخلائق كلهم كانت يده فوق أيديهم ، كما أنه سبحانه فوقهم ، فهل يصح هذا لمن ليس له يد حقيقة ؟

ولفظ اليد جاء في القرآن على ثلاثة أنواع : مفردًا ومثنى ومجموعًا ، فالمفرد كقوله : ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ ، والمثنى كقوله : ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ ، والمجموع : ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ ، فحيث ذكر اليد مثناة أضاف الفعل إلى نفسه بضمير الإفراد ، وعدى الفعل بالباء إليهما فقال : ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ ، وحيث ذكرها مجموعة أضاف العمل إليها ولم يعد الفعل بالباء ، فهذه ثلاثة فروق لا يحتمل ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ من المجاز ما يحتمله ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ ، فإن كل أحد يفهم من قوله : ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ ما يفهم من قوله : عملنا وخلقنا . كما يفهم من قوله : ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ، وأما قوله : ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ فلو كان المراد منه مجرد الفعل لم يكن لذكر اليد بعد نسبة الفعل إلى الفاعل معنى ، فكيف وقد دخلت عليها الباء؟ فكيف إذا ثنيت وسر الفرق أن الفعل قد يضاف إلى يد ذي اليد ، والمراد الإضافة إليه

كقوله : ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ ، ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ، وأما إذا أضيف إليه الفعل ثم عدى بالباء إلى يده مفردة أو مثناة فهو مما باشرته يده .

□ إثبات صفة عيني الرحمن جل وعلا :

وقوله : ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ، ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ ، ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ :

*قد دل الكتاب والسنة الصريحة وإجماع أهل الحق على أن اللَّه تعالى موصوف بأن له عينين حقيقة على ما يليق بجلاله وعظمته .

وقوله : ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ :الدسر : المسامير ، وأحدها دسار ، والمراد بـ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ السفينة ، ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ بمرآى منا ، وفي حفظنا وكلاءتنا ، قوله : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ ؛ أي : لتربى وتغذى وتنعم على عيني أراك وأحفظك .

وورد وصف اللَّه بالعينين في القرآن بلفظ المفردة تارة ، وبلفظ الجمع تارة ، وورد في السنة بلفظ التثنية ؛ وذلك أن المفرد المضاف يراد به أكثر من واحد ، كقوله : ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ ، ومنه : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ ، ثم إنه ذكر العين المفردة المضافة إلى الضمير المفرد ، والأعين مجموعة مضافة إلى ضمير الجمع ، وذكر العين مفردة لا يدل على أنها عين واحدة ليس إلا كقولك : أفعل هذا على عيني ، وأحبك على عيني . ويريد أن له عينًا واحدة ، وقد نطق الكتاب بلفظ العين مضافة إليه مفردة ومجموعة ، ونطقت السنة بإضافتها إليه مثناة ، كما قال النبي ﷺ : « إن العبد إذا قام في الصلاة قام بين عيني الرحمن ، فإذا التفت قال له ربه : إلى من تلتفت إلى خير لك مني ؟ »[1] . وقوله النبي ﷺ : « إن ربكم ليس بأعور »[2] . صريح بأنه ليس المراد إثبات عين واحدة ، فإن ذلك عور ظاهر تعالى عنه ، وهل يفهم من قول الداعي : اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام . أنها عين واحدة ليس إلا ذهن أقلف ، وقلب أغلف ، وقال عثمان بن سعيد : الأعور ضد البصير بالعينين .

ولغة العرب متنوعة في إفراد المضاف وتثنيته وجمعه ، بحسب أحوال المضاف إليه ، فإن أضافوا الواحد المتصل إلى مفرد أفردوه ، وإن أضافوه إلى اسم جمع ظاهرًا أو مضمرًا فالأحسن جمعه مشاكلة للفظ كقوله : ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ ، وإن أضيف إلى ضمير جمع جمعت ، كقوله : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ ، وإن أضافوه إلى اسم مثنى فالأفصح في لغتهم جمعه ، كقوله : ﴿فَقَدْ

---

(١) ضعفه الألباني في « السلسلة الضعيفة » (١٠٢٤) .

(٢) البخاري (٥٤٤٠/١٧٦) من حديث ابن عمر ﷺ .

صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ وإنما هما قلبان، وقوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾، وكقول العرب: اضرب أعناقهما وهذا أفصح استعمالهم، وتارة يفردون المضاف فيقولون: لسانهما وقلبهما، وتارة يثنون كقوله: ظهراهما مثل ظهور الترسين.

وإذا كان من لغتهم وضع الجمع موضع التثنية؛ لئلا يجمعوا في لفظ واحد بين تثنيتين ولا لبس هناك، فلأن يوضع الجمع موضع التثنية فيما إذا كان المضاف إليه تثنية أولى بالجواز، يدل عليه: أنك لا تكاد تجد في كلامهم: عينان ويدان ونحو ذلك، ولا يلتبس على السامع قول المتكلم، نراك بأعيننا ونأخذك بأيدينا، ولا يفهم منه بشر على وجه الأرض عيونًا كثيرة على وجه واحد.

وقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾، وقوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾، ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾، ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾:

* في هذه الآيات وصف اللّه بالسمع والبصر، وأنه تعالى يسمع بسمع ويبصر ببصر حقيقة، منزه في ذلك وغيره من صفات المخلوقين ومماثلتهم، هذا مذهب سلف الأمة وأئمتها، وعلى ذلك دل الكتاب والسنة، وفي ذلك الرد على الجهمية والمعتزلة، قالت عائشة رضي الله عنها: الحمد للّه الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى رسول اللّه ﷺ تكلمه في جانب البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل اللّه هذه الآية ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ رواه أحمد. فلا يشك صحيح الفهم البتة في هذا الخطاب: أنه نص صريح لا يحتمل التأويل بوجه من الوجوه في إثبات صفة السمع للّه حقيقة وأنه يسمع بنفسه، وهذا أصرح ما يكون في إثبات صفة السمع للّه، ذكر الماضي والمضارع، واسم الفاعل، سمع ويسمع، وهو سميع وله السمع، كما قالت عائشة: الحمد للّه الذي وسع سمعه الأصوات.

ولا يستقيم في كلام العرب أن يقال لشيء: هو سميع بصير. إلا وذلك الشيء موصوف بالسمع والبصر من ذوي الأعين والأبصار، وقد يقال في مجاز الكلام: الجبال تترآى وتسمع على معنى أنها تقابل بعضها بعضًا، وتبلغها الأصوات ولا تفقه، ولا يقال: جبل سميع بصير، وقصر سميع بصير؛ لأن ذلك مستحيل إلا لمن يسمع بسمع ويبصر ببصر.

وفعل السمع يراد به أربعة معان:

أحدها: سمع إدراك ومتعلقه الأصوات.

الثاني : سمع فهم وعقل ومتعلقة المعاني .

الثالث : سمع إجابة وعطاء ما سئل .

الرابع : سمع قبول وانقياد .

فمن الأول : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ ، و﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ ، ومن الثاني قوله : ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ ليس المراد سمع مجرد الكلام ، بل سمع الفهم والعقل ، ومنه : ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ، ومن الثالث : « سمع اللَّه لمن حمده » وفي الدعاء المأثور : اللهم اسمع . أي أجب وأعط ما سألتك ، ومن الرابع قوله تعالى : ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ ؛ أي : قابلون له ، ومنقادون له على أصح القولين ، ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي : قابلون ومنقادون ، وقيل : عيون وجواسيس ، وليس بشيء ، إذا عرف هذا فسمع الإدراك يتعدى بنفسه ، وسمع القبول يتعدى باللام تارة وبمن أخرى ، وهذا بحسب المعنى ، فإن كان السياق يقتضي القبول عدى بمن ، وإن كان يقتضي الانقياد عدى باللام ، وأما سمع الإجابة فيتعدى باللام نحو : « سمع اللَّه لمن حمده » ؛ لتضمنه معنى استجاب له ، ولا حذف هناك وإنما هو متضمن .

وأما سمع الفهم فيتعدى بنفسه ؛ لأن مضمونه يتعدى بنفسه ، فله تعالى سمع يدرك به المسموعات ، وبصر يدرك به المرئيات بلا تكييف ، وروى البخاري في « صحيحه » أن النبي ﷺ قال : « ما أذن اللَّه لشيء إذنه لرجل حسن الصوت يتغنى بالقرآن »[١] . والأدلة في ذلك أكثر من أن تحصر .

□ إثبات المكر والكيد :

وقوله : ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ ، وقوله : ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ ، وقوله : ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ، وقوله : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ :

* في هذه الآيات إثبات وصف اللَّه بالمكر والكيد والمماحلة ، وهذه صفات فعلية تثبت للَّه كما يليق بجلاله وعظمته .

قوله : ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ ؛ أي : الأخذ بشدة وقوة ، والمحال والمماحلة المماكرة والمغالبة ، وقد روى الإمام أحمد رحمه الله عن ابن عباس كان من دعاء النبي ﷺ : « أعني ولا تعن علي ، وانصرني ولا تنصر علي ، وامكر لي ولا تمكر علي » . رواه الترمذي وصححه[٢] .

---

(١) البخاري (٧٥٤٤- ٩/١٥٨) بنحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) « سنن الترمذي » (٣٥١١- ٥/٥٥٤) ، وصححه الألباني في « صحيح الترمذي » (٨/٥١) .

والمكر: الأخذ في غفلة كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فنسبة الكيد والمكر ونحوهما إليه سبحانه من إطلاق الفعل عليه تعالى، والفعل أوسع من الاسم، ولهذا أطلق الله على نفسه أفعالًا لم يتسم منها بأسماء الفاعل كأراد وشاء وأحدث، ولم يسم بالمريد والشائي والمحدث، كما لم يسم نفسه بالصانع والفاعل والمتقن، وغير ذلك من الأسماء التي أطلق أفعالها على نفسه، فباب الأفعال أوسع من باب الأسماء، وقد أخطأ أقبح الخطأ من اشتق له من كل فعل اسمًا وبلغ بأسمائه زيادة على الألف، فسماه الماكر المخادع والفاتن والكائد ونحو ذلك، وكذلك باب الإخبار عنه بالاسم أوسع من تسميته به، فإنه يخبر عنه بأنه شيء موجود ومذكور ومعلوم ومراد لا يسمى بذلك.

وهكذا جميع ما أطلقه على نفسه من صفات العلى أكمل معنى ولفظًا مما لم يطلقه، فـ« العليم الخبير » أكمل من الفقيه، والعارف و« الكريم الجواد » أكمل من السخي، و« الخالق البارئ المصور » أكمل من الصانع الفاعل، ولهذا لم تجيء هذه في أسمائه الحسنى، و« الرحيم والرؤوف » أكمل من الشفيق، فعليك بمراعاة ما أطلقه سبحانه على نفسه من الأسماء والصفات والوقوف معها، وعدم إطلاق ما لم يطلقه على نفسه ما لم يكن مطابقًا لمعنى أسمائه وصفاته، وحيئذ فيطلق المعنى لمطابقته له دون اللفظ، ولا سيما إذا كان مجملًا أو منقسمًا إلى ما يمدح به وغيره، فإنه لا يجوز إطلاقه إلا مقيدًا.

وهذا كلفظ الفاعل والصانع فإنه لا يطلق عليه في أسمائه الحسنى إلا إطلاقًا مقيدًا، أطلقه على نفسه، كقوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾، وقوله: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، فإن اسم الفاعل والصانع منقسم المعنى إلى ما يمدح عليه ويذم، ولهذا المعنى- والله أعلم- لم يجيء في الأسماء الحسنى المريد، كما جاء فيها « السميع البصير ».

ولا المتكلم ولا الآمر الناهي لانقسام مسمى هذه الأسماء، بل وصف نفسه بكمالاتها، وأشرف أنواعها، ومن هنا يعلم غلط بعض المتأخرين وزلقه الفاحش في اشتقاقه له سبحانه من كل فعل أخبر به عن نفسه اسمًا مطلقًا، فأدخله في أسمائه الحسنى، فاشتق له اسم الماكر والخادع، والفاتن والمضل والكاتب ونحوها من قوله: ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾، ومن قوله: ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾، ومن قوله: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾، ومن قوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾، وقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ وهذا خطأ، فإنه سبحانه لم يطلق على نفسه هذه الأسماء، فإطلاقها عليه لا يجوز، فقد أخبر عن نفسه بأفعال مختصة مقيدة، فلا يجوز أن ينسب إليه مسمى الاسم عند الإطلاق، ثم إن هذه ليست من الأسماء الحسنى التي يسمى الله بها سبحانه، فلا يجوز أن يسمي بها، ولو أن هذا القائل سمى بهذه الأسماء، وقيل له: هذه

مدحتك وثناء عليك ، فأنت الماكر الفاتن المخادع المضل الملاعن الفاعل الصانع ونحوها . لما كان يرضى إطلاق هذه الأسماء عليه ويعدها مدحة - ولله المثل الأعلى- ويلزم هذا القائل أن يجعل من أسماء اللاعن والجائي والآتي والذاهب والتارك والمقاتل والصادق والمنزل والنازل والمدمدم والمدمر ، وأضعاف أضعاف ذلك فيشق له اسمًا من كل فعل أخبر به عن نفسه وإلا تناقض تناقضًا بينًا ، ولا أحد من العقلاء طرد ذلك فعلم بطلان قوله : ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ .

وقد قيل : إن تسمية ذلك مكرًا وكيدًا واستهزاء وخداعًا من باب الاستعارة ، ومجاز المقابلة نحو : ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ ، ونحو قوله : ﴿قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ ، وقيل : وهو أصوب بل تسمية ذلك حقيقة على بابه ، فإن المكر إيصال الشيء إلى الغير بطريق خفي ، وكذلك الكيد والمخادعة ولكنه نوعان : قبيح ؛ وهو إيصال ذلك لمن لا يستحقه ، وحسن ؛ وهو إيصاله إلى من يستحقه عقوبة له ، فالأول مذموم ، والثاني ممدوح ، والرب تعالى إنما يفعل من ذلك ما يحمد عليه عدلًا منه وحكمة ، وهو تعالى يأخذ الظالم والفاجر من حيث لا يحتسب ، لا كما يفعل الظلمة بعباده ، وأما السيئة فهي فعيلة مما يسوء ، ولا ريب أن العقوبة تسوء صاحبها فهي سيئة له حسنة من الحكم والعدل .

□ إثبات صفة العفو والعزة :

وقوله : ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ ، ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ، وقوله : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ ، وقوله عن إبليس : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ :

* في هذه الآيات إثبات وصف الله بالعفو والمغفرة والقدرة والعزة ؛ والعفو اسمه تعالى وصفته ، ومعناه المتجاوز عن خطيئات عباده ، إذا تابوا وأنابوا ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ، وأكمل العفو ما كان عن مقدرة ، ولذا قرن الله تعالى عفوه بالقدرة فقال : ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ ، وقد سألت عائشة النبي ﷺ أن يعلمها دعاء تدعو به في ليلة القدر إن وافقتها قال : « قولي : اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني » . رواه الترمذي[1] ، وروي أن من دعاء حملة العرش : « سبحانك على عفوك بعد قدرتك »[2] . ما أحسن ما قال في الكافية الشافية :

وهو العفو فعفوه وسع الورى   لولاه غار الأرض بالسكان

ومن أسمائه تعالى القدير والعزيز ، والقدرة صفته وقدرته تعالى شاملة لكل شيء ، كما قال :

---

(١) « سنن الترمذي » (٣٥١٣- ٥/٥٣٤) ، وصححه الألباني في « صحيح الترمذي » (٢٧٨٩) .

(٢) « مختصر العلو » للذهبي (١/٧٥) .

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

والعزة صفة ثابتة للَّه لا تماثلها عزة مخلوق ، ومعنى العزة في اللغة القوة والغلبة والامتناع ، يقال : عز يعز بالفتح في المضارع إذا اشتد وقوي ، وبالكسر في المضارع إذا قوي وامتنع ، وبالضم إذا غلب وقهر .

فالعزة تتضمن القوة ، وللَّه القوة جميعًا ، يقال : عز يعز بالفتح إذا اشتد وقوي ، ومنه الأرض العزاز الصلبة الشديدة ، وعز يعز بكسر العين إذا امتنع ممن يرومه ، وعز يعز بضم العين إذا غلب وقهر ، فأعطوا أقوى الحركات وهي الضمة لأقوى المعاني وهو الغلبة والقهر للغير ، وأضعفها وهي الفتحة لأضعف المعاني ، وهو كون الشيء في نفسه صلبًا ، ولا يلزم من ذلك أن يمتنع عمن يرومه ، والحركة المتوسطة وهي الكسرة للمعنى المتوسط ، وهو القوي الممتنع عن غيره ، ولا يلزم منه أن يقهر غيره ويغلبه فأعطوا الأقوى للأقوى ، والأضعف للأضعف ، والمتوسط للمتوسط ، ولا ريب أن قهر المربوب عما يريده من أقوى أوصاف القادر ، فإن قهره عن إرادته وجعله غير مريد كان أقوى أنواع القهر ، والعز ضد الذل ، والذي أصله الضعف والعجز ، فالعز يقتضي كمال القدرة ، ولهذا يوصف به المؤمن ، ولا يكون ذما له بخلاف الكبر ، قال رجل للحسن البصري : إنك متكبر ! فقال : لست بمتكبر ، ولكني عزيز . وقال ابن مسعود : ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر[1] . وقال النبي ﷺ : « اللهم أعز الإسلام بأحد هذين الرجلين : عمر بن الخطاب أو أبي جهل بن هشام »[2] . وفي بعض الآثار : إن الناس يطلبون العزة في أبواب الملوك ولا يجدونها إلا في طاعة اللَّه ﷻ . وفي الحديث : « اللهم أعزنا بطاعتك ، ولا تذلنا بمعصيتك » . وقال بعضهم : من أراد عزًّا بلا سلطان ، وكنزًا بلا عشيرة ، وغنى بلا مال فلينتقل من ذل المعصية إلى عز الطاعة . فالعزة من جنس القوة ، وقد ثبت في « الصحيح » عن النبي ﷺ أنه قال : « المؤمن القوي خير وأحب إلى اللَّه من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير »[3] .

□ طريقة القرآن في النفي والإثبات :

وقوله : ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ ، وقوله : ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ ، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ ، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ ، ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ

---

(١) البخاري (٣٦٨٤- ٥/١١) .

(٢) « سنن الترمذي » (٣٦٨١- ٥/٦١٧) ، وصححه الألباني في « مشكاة المصابيح » (٣٠٣٦) .

(٣) مسلم (٤/٢٠٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ ، ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ ، ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ، ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ :

* **طريقة القرآن في باب الأسماء والصفات للنفي المجمل والإثبات المفصل ، ففيه من إثبات الأسماء الحسنى والصفات العلى ما لا سبيل إلى حصره ، وأما في النفي فطريقة القرآن والسنة في ذلك الإجمال ، والنفي إنما جيء به لإثبات صفات كماله سبحانه .**

قوله : ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ أي : تعالت أسماؤك وتعظمت وتقدست . والجلال والعظمة صفتان للَّه تعالى ، وقد ذكر تبارك سبحانه في المواضع التي أثنى فيها بالجلال والعظمة والأفعال ، الدالة على ربوبيته وإلهيته وحكمته ، وسائر صفات كماله من إنزال الفرقان وخلق العالمين وجعله البروج في السماء والشمس والقمر وانفراده بالملك وكمال القدرة ، قال الحسين بن الفضل : تبارك في ذاته وبارك فيمن شاء من خلقه وهذا أحسن الأقوال .

فتبارك سبحانه صفة ذات له وصفة فعل ، والذي يدل على ذلك أنه سبحانه يسند التبارك إلى اسمه ، كما قال : ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِي ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ ، وأن حديث الاستفتاح : « تبارك اسمك وتعالى جدك » . فدل هذا على أن تبارك ليس بمعنى بارك ، كما قاله الجوهري : وأن تبريكه سبحانه جزء مسمى اللفظ لإكمال معناه . والبركة نوعان :

أحدهما : بركة هي فعله تبارك وتعالى ، والفعل منها بارك ، ويتعدى بنفسه تارة ، وبأداة « على » تارة ، وبأداة « في » تارة ، والمفعول منها مبارك وهو ما جعل كذلك ، فكان مباركًا بجعله تعالى .

والنوع الثاني : بركة هي تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة ، والفعل منها تبارك ، ولهذا لا يقال لغيره ذلك ولا يصلح إلا له ﷻ ، فهو سبحانه المبارك ، وعبده ورسوله المبارك كما قال المسيح : ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ . فمن بارك اللَّه فيه وعليه فهو المبارك ، وأما صفته « تبارك » فمختصة به تعالى ، كما أطلقها على نفسه بقوله : ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ، ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ ، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ ، أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به لا تطلق على غيره ، وجاءت على بناء السعة والمبالغة ، كتعالى وتعاظم ونحوها ، فجاء بناء تبارك على

بناء تعالى ، الذي هو دال على كمال العلو ونهايته ، فكذلك تبارك دال على كمال بركته وعظمتها وسعتها ، وحقيقة اللفظة أن البركة كثرة الخير ودوامه ولا أحد أحق بذلك وصفًا وفعلا منه تبارك وتعالى .

وتفسير السلف يدور على هذين المعنيين وهما متلازمان ، لكن الأليق باللفظة معنى الوصف لا الفعل فإنه فعل ذم مثل تعالى وتقدس وتعاظم ، ومثل هذه الألفاظ ليس معناها أنه جعل غيره عاليًا ولا قدوسًا ولا عظيمًا ، هذا مما لا يحتمله اللفظ بوجه ، وإنما معناها في نفس من نسبت إليه فهو المتعالي المتقدس ، فكذلك تبارك لا يصح أن يكون معناها بارك في غيره ، وأين أحدهما من الآخر لفظًا ومعنى هذا لازم ، وهذا متعد ، فعلمت أن من فسر تبارك بمعنى ألقى البركة وبارك في غيره لم يصب معناها ، وإن كان هذا من لوازم كونه متباركًا فتبارك من باب مجد ، والمجد كثرة صفات الجلال والفضل ، وبارك من باب أعطى وأنعم ، ولما كان المعتدي في ذلك يستلزم اللازم من غير عكس فسر من فسر من السلف اللفظة بالمعتدي ؛ لينتظم المعنيين فقال : مجيء البركة كلها من عنده أو البركة كلها من قبله ، وهذا فرع على تبارك في نفسه .

وقوله : ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ ؛ أي : لا سمي له تعالى ولا شريك له ولا مثل . والسمي : النظير ؛ أي : نظيرًا يستحق مثل اسمه ، ويقال : مساميًا يساميه وهو معنى ما روي عن ابن عباس : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ : مثيلًا أو شبيهًا . وذلك نفي عن المخلوق أن يكون مشابهًا للخالق ومماثلًا له بحيث يستحق العبادة والتعظيم ، ولم يقل سبحانه : هل تعلمه سميًا أو مشابهًا لغيره ؟ فإن هذا لم يقله أحد ، بل المشركون المشبهون جعلوا بعض المخلوقات مشابهًا له مساميًا وندًّا وعدلًا ، فأنكر عليهم هذا التشبيه والتمثيل .

فالمعنى الصحيح الذي هو نفي المثل والشريك والند قد دل عليه قوله سبحانه : ﴿أَحَدٌ﴾ ، وقوله : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ، وقوله : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ ، وأمثال ذلك ، فالمعاني الصحيحة ثابتة بالكتاب والسنة ، والعقل يدل على ذلك ، وكذلك قوله : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ، فإن المعنى لم يكن أحد من الآحاد كفوًا له ، والند هو العديل والمثيل ، وفي « الصحيحين » عن ابن مسعود قال : قلت : يا رسول الله ، أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » . الحديث[1] .

وقوله : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أي : يؤلهونهم في المحبة والتعظيم ، وبذلك صاروا مشركين مع إقرارهم بتوحيد الربوبية . فأخبر تعالى أن من أحب من

---

(١) البخاري (٤٤٧٧- ٦/١٨) .

دون اللَّه شيئًا كما يحب اللَّه فهو ممن اتخذ من دون اللَّه أندادًا ، فهذا ند في المحبة لا في الخلق والربوبية ، فإن أحدًا من أهل الأرض لم يثبت هذا الند في الربوبية بخلاف ند المحبة ، فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون اللَّه أندادًا في الحب والتعظيم ، ثم قال : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ ، وفي الآية قولان :

أحدهما : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها ، ويعظمونها من دون اللَّه .

والثاني : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ من محبة المشركين بالأنداد للَّه ، فإن محبة المؤمنين خالصة ، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها ، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة ، والقولان مترتبان على القولين في قوله تعالى : ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ ، فإن فيها قولين :

أحدهما : يحبونهم كما يحبون اللَّه ، فيكون قد أثبت لهم محبة اللَّه ، ولكنها محبة يشركون فيها مع اللَّه أندادًا .

والثاني : أن المعنى يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون اللَّه ، ثم بين أن محبة المؤمنين أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم ، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يرجح القول الأول ، ويقول : إنما ذموا أن أشركوا بين اللَّه وبين أندادهم في المحبة ، ولم يخلصوها للَّه كمحبة المؤمنين له ، وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم وهم في النار يقولون لآلهتهم وأندادهم وهي محضرة معهم في العذاب : ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، ومعلوم أنهم لم يسووهم برب العالمين في الخلق والربوبية ، وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم ، وهذا أيضًا هو العدل المذكور في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي : يعدلون به غيره في العبادة : التي هي المحبة والتعظيم وهذا أصح القولين .

والقرآن مملوء من إبطال أن يكون في المخلوقات ليشبه الرب تعالى أو يماثله ، فهذا هو الذي قصد بالقرآن إبطالًا لما عليه المشركون والمشبهون العادلون باللَّه تعالى غيره ، فالند الشبه ، يقال : فلان ند فلان ونديده ؛ أي : مثله وشبهه ، ومنه قول حسان بن ثابت :

أتهجوه ولست له بند فشركما لخيركما الفداء

وقال جرير :

أتيما تجعلون إلي ندا وما تيم لذي حسب نديد

فالذي أنكره اللَّه سبحانه عليهم هو تشبيه المخلوق به حتى جعلوه ندًا للَّه تعالى يعبدونه كما يعبدون اللَّه ، وكذلك قوله : « ومن الناس من يتخذ من دون اللَّه أندادًا يحبونهم كحب اللَّه » فأنكر هذا

التشبيه عليهم وهو أصل عبادة الأصنام .

قوله : ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ الآية : حمد تعالى نفسه على ماله من صفات الكمال المبرأة من كل نقص وهو الغني بذاته ، وغناه وصف ذاتي له تعالى ، فلا ند له ولا شريك ولا معين ، وما ينبغي أن يعلم أن أعظم ما عليه المشركون قبل محمد وفي مبعثه هو دعوى الشريك لله والولد ، والقرآن مملوء منَ تنزيه الله عن هذين ، وتنزيهه عن المثل والولد يجمع كل التنزيه .

لما كان الشرك أكثر في بني آدم من القول بأن له ولدًا كان تنزيهه عنه أكثر ، وكلاهما يقتضي إثبات مثل وند من بعض الوجوه ، فإن الولد من جنس الوالد ونظير له ، وكلاهما يستلزم الحاجة والفقر فيمتنع وجود قادر بنفسه ، فالذي جعل شريكًا لو فرض مكافئًا لزم افتقار كل منهما ، وهو ممتنع ، وإن كان غير مكافئ فهو مقهور ، والولد يتخذه الوالد لحاجته إلى معاونته له ، كما يتخذ المال فإن الولد إذا اشتد أعان والده ، فإن كون المخلوق مملوكًا لخالقه وهو مفتقر إليه من كل وجه ، والخالق غني عنه يناقض اتخاذ الولد ؛ لأنه إنما يكون لحاجته إليه في حياته ، أو ليخلفه بعد موته ، والرب غني عن كل ما سواه وكل ما سواه فقير إليه ، وهو الحي الذي لا يموت ، والوالد في نفسه مفتقر إلى ولد مخلوق لا حيلة له فيه ، والولادة بغير اختيار الوالد ، والرب تعالى يمتنع أن يحدث شيء بغير اختياره ، واتخاذ الولد هو عوض عن الولادة لمن لم يحصل له فهو أنقص في الولادة .

وقال ابن جرير في تفسير الآية : « يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : ﴿وَقُلِ﴾ يا محمد : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ فيكون مربوبًا لا ربًا ؛ لأن رب الأرباب لا ينبغي أن يكون له ولد ، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ فيكون عاجزًا ذا حاجة إلى معونة غيره ضعيفًا ، ولا يكون إلهًا من يكون محتاجًا إلى معين على ما حاول ، ولم يكن منفردًا بالملك والسلطان ، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ يقول : ولم يكن له حليف حالفه من الذل ؛ لأن من كان ذا حاجة إلى نصرة غيره فذليل مهين ، ولا يكون من كان ذليلًا مهينًا يحتاج إلى ناصر إلهًا يطاع ، ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ يقول : وعقد ربك يا محمد بما أمرناك أن تعظمه من قول وفعل وأطعه فيما أمرك ونهاك » . اهـ .

قوله : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ : التسبيح التقديس والتعظيم ، وهذه الآية كقوله : ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ فكل يقدسه تعالى وهو المستحق لكل كمال .

وقوله : ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ : الفرقان هو القرآن الذي فرق بين الحق والباطل ، ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ لجميع البشر ، كما قال : ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ

﴿جَمِيعًا﴾ ، ﴿نَذِيرًا﴾ يحذر من وقوع العذاب بهم إن لم يؤمنون باللّه وما أرسله به من الشرع والهدى ، وفيها إثبات ملكه سبحانه وخلقه وتقديره لجميع الأشياء ، ونفي النقائص من اتخاذ الولد والشريك وغير ذلك .

قوله : ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ : استدل سبحانه على المشركين فيما جحدوه من توحيد الألوهية بما أقروا به من توحيد الربوبية ، وهذا كثير في القرآن كما في هذه الآية .

فتأمل هذا البرهان بهذا اللفظ الوجيز البين ، فإن الإله الحق لا بد أن يكون خالقًا فاعلًا ، يوصل إلى عابده النفع ، ويدفع عنه الضر ، فلو كان معه سبحانه إله لكان له خلق وفعل ، وحينئذ فلا يرضى شركة الإله الآخر معه ، بل إن قدر على قهره وتفرده بالألوهية دونه فعل ، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه ، وذهب به كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بممالكهم ، إذا لم يقدر المنفرد على قهر الآخر والعلو عليه ، فلا بد من أحد أمور ثلاثة : إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه ، وإما أن يعلو بعضهم على بعض ، وإما أن يكونوا كلهم تحت قهر إله واحد يتصرف فيهم ولا يتصرفون فيه ويمتنع من حكمهم ولا يمتنعون من حكمه . فيكون وحده هو الإله وهم العبيد المربوبون المقهورون ، وانتظام أمر العالم العلوي والسفلي وارتباط بعضه ببعض وجريانه على نظام محكم لا يختلف ولا يفسد من أدل دليل على أن مدبره واحد لا إله غيره ، كما دل دليل التمانع على أن خالقه واحد ، لا رب غيره فذاك تمانع في الفعل والإيجاد ، وهذا تمانع في العبادة والألوهية ، فكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان ، يستحيل أن يكون له إلهان معبودان ، فالعلم بأن وجود العالم عن صانعين متماثلين ممتنع لذاته مستقر في الفطرة معلوم بصريح العقل بطلانه ، فكذا تبطل إلهية اثنين .

فالآية الكريمة لما ثبت واستقر في الفطر من توحيد الربوبية ، دالة مثبتة مستلزمة لتوحيد الألوهية .

قوله : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ : قال ابن الأثير في « النهاية » : « ضرب المثل : اعتبار الشيء بغيره ، وتمثيله به والضرب المثال » . اهـ .

واللّه تعالى نهى أن يضرب عباده له الأمثال فلا يقاس بخلقه ، وما ابتدع من ابتدع إلا من ضرب الأمثال له سبحانه ، وأهل الكلام المحدث المبدع ضربوا له الأمثال الباطلة في الخبر عنه وعما يوصف به ، وأصحاب الإرادة المنحرفة ضربوا له الأمثال في الإرادة والطلب ، وكلاهما على بدعة وخطأ ، فنهى تعالى أن يضربوا له مثلًا من خلقه ، ولم نبههم أن يضربوه هو مثلًا لخلقه ، فإن هذا لم يقله أحد ، ولم يكونوا يفعلونه ، فإن اللّه سبحانه أجل في صدورهم ، وأعظم وأكبر من كل شيء في فطر الناس كلهم ، ولكن المشبهون المشركون يغلون فيمن يعظمونه فيشبهونهم بالخالق ، واللّه تعالى أجل في صدور جميع الخلق من أن يجعلوا غيره أصلًا ثم يشبهونه سبحانه بغيره ، فالذي يشبهه بغيره أن قصد

تعظيمه لم يكن في هذا تعظيم ؛ لأنه مثل أعظم العظماء بما دونه ، بل بما ليس بينه وبينه نسبة في العظمة والجلالة ، وعاقل لا يفعل هذا ، وإن قصد التنقيص شبهه بالناقصين المذمومين لا بالكاملين الممدوحين .

ومن هنا يعلم إثبات صفات الكمال لا يتضمن التشبيه والتمثيل لا بالكاملين ولا بالناقصين ، وأن نفي تلك الصفات يستلزم تشبيهه بأنقص الناقصين ، فانظر إلى الجهمية وأتباعهم جاءوا إلى التشبيه المذموم فأعرضوا عنه صفحًا ، وجاءوا إلى الكمال والمدح فجعلوه تشبيهًا وتمثيلًا عكس ما يثبته القرآن وجاء به من كل وجه .

قوله : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ : الفواحش : كبار الذنوب ، والإثم المعصية ، والبغي : العدوان على الناس وظلمهم ، وفي « الصحيحين » عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله » . قال ابن كثير : « وحاصل ما فسر به الإثم أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل ، والبغي هو المتعدي إلى الناس ، فحرم الله هذا وهذا ، وقوله : ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ ؛ أي : تجعلوا له شركاء في عبادته : ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولدًا ونحو ذلك مما لا علم لكم به » . اهـ .

وهذه المحرمات الخمس هي التي اتفقت عليها الرسل والشرائع والكتب الإلهية ، وهي المذكورة في قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ الآية ، فهذه محرمات على كل واحد في كل حال على لسان كل رسول لا تباح قط ، ولهذا أتى فيها بإنما المفيدة للحصر مطلقًا ، وغيرها محرم في وقت ، مباح في غيره كالميتة والدم لحم الخنزير ، ونحوه ، فهذه ليست محرمة على الإطلاق والدوام ، فلم تدخل تحت التحريم المحصور المطلق ، ورتب هذه المحرمات أربع مراتب وبدأ بأسهلها وهو الفواحش ، ثم ثنى بما هو أشد تحريمًا منه وهو الإثم والظلم ، ثم ثلث بما هو أعظم منهما وهو الشرك به سبحانه ، ثم ربع بما هو أشد تحريمًا من ذلك كله وهو القول عليه بلا علم ، وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله ، وفي دينه وشرعه .

وأصل الشرك والكفر هو القول على الله بلا علم ، فكل مشرك قائل على الله بلا علم دون العكس ، إذ القول على الله بلا علم قد يتضمن التعطيل والابتداع في دين الله ، فهو أهم من الشرك ، والشرك فرد من أفراده ، والمقصود أن هاتين الطائفتين أهل الشرك وأهل التعطيل هم أهل التنقص في الحقيقة ، بل هم أعظم الناس تنقصًا لبّس عليهن الشيطان حتى ظنوا أن تنقصهم هو الكمال ، ولهذا كانت البدعة قرينة الشرك في كتاب الله قال الله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ الآية ،

فالإثم والبغي قرينان والشرك والبدعة قرينان .

□ إثبات صفتي الاستواء والعلو :

وقوله : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ : في سبعة مواضع ، في سورة « الأعراف » قوله : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ، وقال في سورة « يونس » عليه السلام : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ، وقال في سورة « الرعد » : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ، وقال في سورة « طه » : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ ، وقال في سورة « الفرقان » : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ، وقال في سورة « ألم السجدة » : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ، وقال في سورة « الحديد » : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ، وقوله : ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ ، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ ، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ ، ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ ، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ :

* مذهب أهل السنة إثبات صفتي الاستواء والعلو للَّه حقيقة من غير تكييف ، كما قال الإمام مالك وغيره : « الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة »

والعلو وصف ذاتي للَّه تعالى فله العلو المطلق ، علو الذات وعلو القدر وعلو القهر ، وقد ورد وصف اللَّه بالاستواء على العرش في سبعة مواضع من القرآن ، كما قال في « الكافية الشافية » :

واذكر نصوص الاستواء فإنها ... في سبع آيات من القرآن

والاستواء صفة فعلية ، ومعنى الاستواء : العلو والارتفاع والاستقرار والصعود ، كما قال في « الكافية الشافية » :

فلهم عبارات عليها أربع ... قد حصلت للفارس الطعان
وهي استقر وقد علا وكذلك ار ... تفع الذي ما فيه من نكران
وكذاك قد صعد الذي هو رابع ... وأبو عبيدة صاحب الشيباني
يختار هذا القول في تفسيره ... أدرى من الجهمي بالقرآن

وأنكر الجهمية والمعتزلة علو اللَّه على خلقه واستواءه على عرشه ، وحرفوا معاني النصوص ففسروا الاستواء بالاستيلاء أو الإقبال على خلق العرش ، إلى غير ذلك من التأويلات الباطلة فإنها لا يقال :

استولى على الشيء . إلا لمن له مضاد فيقال لمن غلب من المتضادين : استولى عليه . والله تعالى لا مضاد له ، وأيضًا فلو كان الاستواء بمعنى الاستيلاء لم يختص بالعرش ، فإنه سبحانه مسئول على جميع المخلوقات ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ .

والاستواء في كلام العرب الذي خاطبنا الله بلغتهم ، وأنزل بها كلامه نوعان : مطلق ومقيد ؛ فالمطلق : ما لم يوصل معناه بحرف ، مثل قوله : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ ، وهذا معناه كمل وتم ، يقال : استوى النبات واستوى الطعام .

وأما المقيد فثلاثة أضرب :

أحدها : مقيد بإلى كقوله : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ ، واستوى فلان إلى السطح وإلى الغرفة ، وقد ذكر الله هذا المعدي بإلى في موضعين من كتابه في « البقرة » في قوله : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ ، وفي « السجدة » : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ ، وهذا بمعنى العلو والارتفاع بإجماع السلف .

والثاني : مقيد بعلى كقوله تعالى : ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ ، وقوله : ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ ، وقوله : ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ ، وهذا أيضًا معناه العلو والارتفاع والاعتدال بإجماع أهل اللغة .

الثالث : المقرون بواو مع التي تعدى الفعل إلى المفعول معه ، نحو : استوى الماء والخشبة بمعنى ساواها .

وهذه معاني الاستواء المعقولة في كلامهم ليس فيها معنى استولى البتة ، ولا نقله أحد من أئمة اللغة الذين يعتمد قولهم ، وإنما قاله متأخروا النحاة ممن سلك طريق المعتزلة والجهمية ، والذين قالوا ذلك لم يقولوه نقلًا ، وإنما قالوه استنباطًا وحملًا منهم للفظة ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ على استولى ، واستدلوا بقول الشاعر :

قد استوى بشر على العراق   من غير سيف أو دم مهراق

وهذا البيت محرف ، وإنما هو هكذا : قد استولى بشر على العراق على أنه لا يصح ولا يعرف قائله ، ولو صح لم يكن فيه حجة ، بل هو حجة عليهم وهو على حقيقة الاستواء ، فإن بشرًا هذا كان أخا عبد الملك بن مروان ، وكان أميرًا على العراق فاستوى على سريرها كما عادة الملوك ، ونوابها أن يجلسوا فوق سرير الملك مستوين عليه ، وهذا هو المطابق لمعنى هذه اللفظة في اللغة .

وأيضًا فاستواء الشيء على غيره يتضمن استقراره وثباته وتمكنه عليه ، واستواء بشر على العراق يتضمن استقراره وثباته عليها ودخوله دخول مستقر ثابت غير مزلزل ، وهذا يستلزم الاستيلاء أو يتضمنه ، فالاستيلاء لازم معنى الاستواء لا في كل موضع ، بل في الموضع الذي يقتضيه ، ولا يصلح

الاستيلاء في كل موضع يصلح فيه الاستواء، بل هذا له موضع وهذا له موضع، ولهذا لا يصح أن يقال: استولت السنبلة على ساقها، ولا استولت السفينة على الجبل ولا استولى الرجل على السطح إذا ارتفع فوقه، ولو كان المراد بالبيت استيلاء القهر والملك لكان المستوي على العراق عبد الملك بن مروان لا أخوه بشر؛ لأنه نائب له بخلاف الاستواء الحقيقي وهو الاستقرار فيها والجلوس على سريرها، فإن نواب الملوك تفعل هذا بإذنهم.

ومما يبطل دعوى المجاز: تجريد الاستواء من اللام واقترانه بحرف على وعطف فعله بثم على خلق السماوات والأرض، وكونه سابقًا في الخلق على السماوات والأرض، وذكر تدبير أمر الخلق معه الدال على كمال الملك، فإن العرش سرير المملكة فأخبر أن له سريرًا، كما قال أمية بن أبي الصلت:

مجدوا اللَّه فهو للمجد أهل ربنا في السماء أمسى كبيرا
بالبنا الأعلى الذي سبق الخلق وسوى فوق السماء سريرا

وصدقه رسول اللَّه ﷺ واستنشده الأسود بن سريع، فقد استوى على سرير ملكه يدبر أمر الممالك، وهذا حقيقة الملك، فمن أنكر عرشه وأنكر استواءه عليه أو أنكر تدبيره فقد قدح في ملكه.

فهذه القرائن تفيد القطع بأن الاستواء على حقيقته، ولو كان الاستواء بمعنى الملك والقهر لجاز أن يقال: استوى على ابن آدم، وعلى الجبل، وعلى الشمس والقمر، وعلى البحر والشجر والدواب، وهذا لا يقوله مسلم، وقد أطلق أعلم الخلق بربه عليه أنه فوق عرشه، كما في حديث ابن عباس: «والعرش فوق الماء واللَّه فوق العرش»(١). وهذه الفوقية هي تفسير الاستواء المذكور في القرآن والسنة، والجهمية يجعلون كونه فوق العرش بمعنى أنه خير من العرش وأفضل؛ كما يقال: الأمير فوق الوزير، والدينار فوق الدرهم. وهذا مما تأباه اللغة وتنفر منه العقول، فأين في لغة العرب حقيقة أو مجازًا أن يقال: استوى على كذا. إذا كان أعظم منه قدرًا وأفضل.

وتفضيل اللَّه على شيء من خلقه لا يذكر في شيء من القرآن إلا ردًّا على من اتخذ ذلك الشيء ندًّا للَّه تعالى، فبين سبحانه أنه خير من ذلك الند، كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فأما أن يفضل نفسه على شيء معين من خلقه ابتداء فهذا لم يقع في كلام اللَّه ولا هو مما يقصد بالأخبار؛ لأن قول القائل ابتداء: اللَّه خير من ابن آدم، وخير من السماء، وخير من العرش. من جنس قول: السماء فوق الأرض، والثلج بارد، والنار حارة. وليس في ذلك تمجيد ولا تعظيم ولا مدح، ولهذا لم يجيء هذا اللفظ في القرآن، ولا في كلام الرسول ﷺ،

(١) ابن خزيمة في «التوحيد» (٥٩٤)، والذهبي في «العلو» (١٧٥)، والألباني في «مختصر العلو» (ص٧٥).

ولا هو مما جرت عادة الناس بمدح الرب تعالى به مع تفنن مدحهم ومحامدهم ، بل هو أرك كلام وأسمجه ، فكيف يليق بهذا الكلام الذي يأخذ بمجامع القلوب عظمة وجلالة ، ومعانيه أشرف المعاني وأعظمها فائدة أن يكون معناه : إن اللَّه أفضل من العرش والسماء ، ومن المثل السائر نظمًا :

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذ قيل إن السيف أمضى من العصا

وهذا بخلاف ما إذا كان المقام يقتضي ذلك احتجاجًا على مبطل وإبطال لقول مشرك ، ولهذا قال يوسف الصديق عليه السلام في احتجاجه على الكفار : ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ . وأيضًا فإن الاستيلاء يكون مع مزايلة المستولى للمستولى عليه ومفارقته ، كما يقال : استوى عثمان بن عفان على خراسان ، واستولى عبد الملك بن مروان على بلاد المغرب ، واستولى الجواد على الأمد . قال الشاعر :

إلا لمثلك أو من أنت سابقه سبق الجواد إذا استولى على الأمد

والاستواء لا يكون إلا مع مجاورة الشيء الذي يستوي عليه ، هكذا موارده في اللغة التي خوطبنا بها ، ولا يصح أن يقال : استوى على الدابة والسطح إذا نزل عنها وفارقها . كما يقال : استولى عليها . وأيضًا فاستواء الرب المعدي بأداة على المعلق بعرشه ، المعرف باللام المعطوف بثم على خلق السماوات والأرض ، المطرد في موارده على أسلوب واحد ونمط واحد ، لا يحتمل إلا معنى واحدًا ، لا يحتمل معنيين البتة ، فضلًا عن ثلاثة عشر أو خمسة عشر ، ولفظ الاستواء هو بمعنى الاعتدال ؛ حيث استعمل مجردًا أو مقرونًا نقول : سويته فاستوى . كما يقال : عدلته فاعتدل . فهو مطاوع الفعل المعتدي ، وهذا المعنى عام في جميع موارد استعماله في اللغة ، ومنه استوى إلى السطح ؛ أي : ارتفع في اعتدال . ومنه : استوى على ظهر الدابة ؛ أي : اعتدل عليها ، قال تعالى : ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ ، وأهل رسول اللَّه ﷺ لما استوى على راحلته ، فهو يتضمن اعتدالًا واستقرارًا عند تجرده ، ويتضمن المقرون مع ذلك معنى العلو والارتفاع .

وهذا حقيقة واحدة تتنوع بتنوع قيودها ، كما تتنوع دلالة الفعل بحسب مفعولاته وصلاته ، وما يصاحبه من أداة نفي أو استفهام أو نهي أو إغراء ، فيكون له عند كل أمر من هذه الأمور دلالة خاصة والحقيقة واحدة ، وهذا شأن جميع الألفاظ المطلقة إذا قيدت فإنها تتنوع دلالتها بحسب قيودها ، ولا يخرجها ذلك عن حقائقها ، فعلى هذا إذا اقترن استوى بحرف الاستعلاء دل على الاعتدال بلفظ الفعل ، وعلى العلو بالحرف الذي وصل به ، فإن اقترن بالواو ودل على الاعتدال بنفسه ، وعلى معادلته بعد الواو بواسطتها ، وإذا اقترن بحرف الغاية دل على الاعتدال بلفظه ، وعلى الارتفاع قاصدًا لما بعد حرف الغاية بواسطتها وزال بحمد اللَّه الاشتراك والمجاز ، ووضح المعنى ، وأسفر صبحه ، ولو فرضنا

احتمال اللفظ في اللغة لمعنى الاستيلاء والخمسة عشر معنى ، فاللَّه ورسوله قد عين بكلامه منها معنى واحدًا ، ونوع الدلالة عليه أعظم تنويع حتى يقال بذلك ألف دليل ، فالصحابة كلهم متفقون لا يختلفون في ذلك المعنى ، ولا التابعون وأئمة الإسلام ، ولم يقل أحد منهم أنه بمعنى استولى وأنه مجاز ، فلا يضر الاحتمال بعد ذلك في اللغة لو كان حقًّا .

وقد نفت الجهمية المعطلة علو اللَّه على خلقه ، وقالوا : إنه في كل مكان بذاته وإنه لا داخل العالم ولا خارجه ولا مباينه ولا محايثه- تعالى اللَّه عما يقولون- قال الأوزاعي : كنا نقول- والتابعون متوافرون- : إن اللَّه جل ذكره فوق عرشه ، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته . وقيل لابن المبارك : بم نعرف ربنا ؟ قال : بأنه فوق سماواته على العرش بائن من خلقه . وكان مسروق إذا حدث عن عائشة قال : حدثتني الصديقة بنت الصديق ، المبرأة من فوق سبع سماوات . وفي « الصحيحين » أن النبي ﷺ قال لسعد بن معاذ : « لقد حكمت فيهم بحكم اللَّه من فوق سبع سماوات »[(١)] . والنصوص الواردة المتنوعة المحكمة الدالة على علو اللَّه على خلقه وكونه فوق عباده تقرب من عشرين نوعًا :

أحدها : التصريح بالفوقية مقرونًا بأداة « من » المعنية للفوقية بالذات ، كقوله : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ .

الثاني : ذكرها مجردة عن الأداة ، كقوله : ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ .

الثالث : التصريح بالعروج ، نحو : ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ .

الرابع : التصريح بالصعود إليه كقوله : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ .

الخامس : التصريح برفعه بعض المخلوقات إليه ، كقوله : ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ .

السادس : التصريح بالعفو المطلق ، الدال على جميع مراتب العلو ذاتًا وقدرًا وشرفًا ، كقوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ ، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ .

السابع : التصريح بتنزيل الكتاب منه ، كقوله : ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ .

الثامن : التصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده ، وأن بعضها أقرب إليه من بعض ، كقوله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ ، ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ ، ففرق بين من له عمومًا وبين من عنده من ملائكته وعبيده خصوصًا ، وقول النبي ﷺ : « في الكتاب الذي كتبه الرب تعالى على نفسه : إنه عنده فوق العرش »[(٢)] .

التاسع : التصريح بأنه تعالى في السماء ، وهذا عند المفسرين من أهل السنة على أحد وجهين : إما

---

(١) البخاري (٤١١٧) ، ومسلم (١٧٦٩) عن عائشة رضي الله عنها .

(٢) البخاري (٣١٩٤) ، ومسلم (٢٧٥١) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

أن تكون (في) بمعنى (على) ، وإما أن يراد بالسماء العلو لا يختلفون في ذلك ، ولا يجوز الحمل على غيره .

العاشر : التصريح بالاستواء مقرونًا بأداة (على) مختصا بالعرش ، الذي هو أعلى المخلوقات مصاحبًا في الأكثر لأداة (ثم) الدالة على الترتيب والمهلة .

الحادي عشر : التصريح برفع الأيديَ إلى اللَّه تعالى ، كقوله ﷺ : « إن اللَّه يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرًا »[1] .

الثاني عشر : التصريح بنزوله إلى سماء الدنيا كل ليلة .

الثالث عشر : الإشارة إليه حسًا إلى العلو ، كما أشار إليه من هو أعلم بربه وبما يجب له ويمتنع عليه من جميع البشر لما كان بالمجمع الأعظم الذي لم يجتمع لأحد مثله في اليوم الأعظم قال لهم : « إنكم مسئولون فماذا أنتم قائلون ؟ » . قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت . فرفع أصبعه الكريمة إلى السماء رافعًا لها إلى من هو فوقها وفوق كل شيء قائلًا : « اللهم اشهد »[2] .

الرابع عشر : التصريح بلفظ الأين ، كقول أعلم الخلق به ، وأنصحهم لأمته وأفصحهم بيانًا عن المعنى الصحيح بلفظ لا يوهم باطلًا بوجه : « أين اللَّه » . في غير موضع .

الخامس عشر : شهادته ﷺ لمن قال : إن ربه في السماء بالإيمان .

السادس عشر : إخباره تعالى عن فرعون أنه رام الصعود إلى السماء ليطلع إلى إله موسى فيكذبه ، فيما أخبر به من أنه سبحانه فوق السماوات فقال : ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۞ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾ ، فمن نفى العلو من الجهمية فهو فرعوني ، ومن أثبته فهو موسوي محمدي .

السابع عشر : إخباره ﷺ أنه تردد بين موسى عليه السلام وبين ربه ليلة المعراج بسبب تخفيف الصلاة ، فيصعد إلى ربه ثم يعود إلى موسى عدة مرار .

الثامن عشر : النصوص الدالة على رؤية أهل الجنة له تعالى من الكتاب والسنة وأخبار النبي ﷺ ؛ أنهم يرونه كرؤية الشمس والقمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ، فلا يرونه إلا من فوقهم ، كما قال ﷺ : « بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور ، فرفعوا رءوسهم فإذا الجبار جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم ، وقال : يا أهل الجنة سلام عليكم- ثم قرأ قوله تعالى : ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ

---

(١) أبو داود (١٤٨٨) ، والترمذي (٣٥٥٦) عن سلمان الفارسي رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (١٧٥٧) .

(٢) مسلم (١٢١٨) عن جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما .

رَّحِيمٍ﴾- ثم يتوارى عنهم وتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم » . رواه الإمام أحمد في « المسند » وغيره من حديث جابر رضي الله عنه[1] ، ولا يتم إنكار الفوقية إلا بإنكار الرؤية ، ولهذا طرد الجهمية الأمرين ، وصدق بهما أهل السنة وصار من أثبت الرؤية ونفي العلو مذبذبًا بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

وهذه الأنواع من الأدلة لو بسطت أفرادها لبلغت نحو ألف دليل ، فعلى المتأول أن يجيب عن ذلك كله وهيهات له بجواب صحيح ، فأما علوه تعالى ومباينته للمخلوقات فيعلم بالعقل الموافق للسمع ، وأما الاستواء فطريق العلم به هو السمع ، وعلوه سبحانه كما هو ثابت بالسمع ثابت بالعقل والفطرة ، أما ثبوته بالعقل فمن وجوه :

أحدها : العلم البديهي القاطع بأن كل موجودين ؛ إما أن يكون أحدهما ساريًا في الآخر قائمًا به كالصفات ، وإما أن يكون قائمًا بنفسه بائنًا من الآخر .

الثاني : أنه لما خلق العالم فإما أن يكون خلقه في ذاته ، أو خارجًا عن ذاته .

والأول باطل بالاتفاق ، ولأنه يلزم أن يكون محلًّا للخسائس والقاذورات تعالى اللَّه عن ذلك علوًّا كبيرًا ، والثاني يقتضي كون العالم واقعًا خارج ذاته ، فيكون منفصلًا فتعينت المباينة ؛ لأن القول بأنه غير متصل بالعالم وغير منفصل عنه غير معقول .

الثالث : أن كونه تعالى لا داخل العالم ولا خارجه يقتضي نفي وجوده بالكلية ؛ لأنه غير معقول فيكون موجودًا إما داخله وإما خارجه ، والأول باطل فتعين الثاني فلزمت المباينة .

وأما ثبوته بالفطرة فإن الخلق جميعًا بطباعهم وقلوبهم السليمة يرفعون أيديهم عند الدعاء ويقصدون جهة العلو بقلوبهم عند التضرع إلى اللَّه تعالى ، وقد زعم بعضهم أن السماء قبلة الدعاء ، ولذلك يقصد الناس جهة العلو عند الدعاء ، وهذا خطأ فإن وضع الجبهة في الأرض ليس ؛ لأن اللَّه في جهة الأرض ، وأيضًا فإنه لم يقل أحد من سلف الأمة أن السماء قبل الدعاء ، بل قبلة الدعاء هي قبلة الصلاة ، فإنه يستحب للداعي أن يستقبل القبلة ، فمن قال : إن للدعاء قبلة غير قبلة الصلاة . فقد ابتدع في الدين وخالف جماعة المسلمين ، والقبلة هي ما يستقبله العابد بوجهه كما تستقبل الكعبة في الصلاة والدعاء والذكر والذبح ، وكما يوجه المحتضر والمدفون ولذلك سميت وجهة .

والاستقبال خلاف الاستدبار فالاستقبال بالوجه والاستدبار بالدبر ، فأما ما حاذاه الإنسان برأسه أو يديه أو جنبه فهذا لا يسمى قبلة لا حقيقة ولا مجازًا ، والموضع الذي ترفع إليه الأيدي لا يسمى قبلة لا حقيقة ولا مجازًا ، ولأن القبلة في الدعاء أمر شرعي تتبع فيه الشرائع ، ولم تأمر الرسل أن الداعي يستقبل

---

(١) ابن ماجه (١٨٤) ، ويُنظر « ضعيف الترغيب والترهيب » للألباني (٢٢٤٤) .

السماء بوجهه بل نهوا عن ذلك ، ومعلوم أن التوحيد بالقلب ، واللجأ والطلب الذي يجده الداعي من نفسه أمر فطري يفعله المسلم والكافر والعالم والجاهل ، أكثر ما يفعله المضطر والمستغيث بالله ، كما فطر على أنه إذا مسه الضر يدعو الله مع أن أمر القبلة مما يقبل النسخ والتحويل ، كما تحولت القبلة من الصخرة إلى الكعبة ، وأمر التوحيد في الدعاء إلى الجهة العلوية مركوز في الفطر والمستقبل للكعبة يعلم أن الله تعالى ليس هناك ، بخلاف الداعي فإنه يتجه إلى ربه وخالقه ويرجو الرحمة أن تنزل من عنده ، وأما النقض بوضع الجبهة فما أفسده من نقض ، فإن واضع الجبهة إنما قصده الخضوع لمن فوقه بالذل له ، لا بأن يميل إليه ؛ إذ هو تحته هذا لا يخطر في قلب ساجد ، لكن يحكى عن بشر المريسي أنه سمع وهو يقول في سجوده : سبحان ربي الأسفل تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوًا كبيرًا .

□ إثبات المعية :

وقوله : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ، ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ ، وقوله : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ﴾ ، ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ ، ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ :

* في هذه الآيات إثبات معية الله لخلقه ، والمعية الواردة في الكتاب والسنة نوعان : معية عامة ؛ ومن مقتضاها العلم والإحاطة والاطلاع قال الإمام أحمد وغيره في آية المجادلة : ابتدأها بالعلم وختمها به ؛ حيث قال : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ ، ثم قال في آخرها : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ .

والنوع الثاني : المعية الخاصة ؛ ومن مقتضاها النصر والتأييد والتوفيق ونحو ذلك ، وهي المذكورة في مثل قوله تعالى : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ﴾ ، فهذه المعية المذكورة في قوله تعالى : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ الآية ، وقوله : ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ فإن هذه المعية تقتضي علمه واطلاعه ومراقبته لأعمالهم ، فهي مقتضية لتخويف العباد منه ، والمعية الأولى تقتضي حفظه وحياطته ونصره ، ومعيته سبحانه لا تنافي علوه واستواءه على عرشه ، ومباينته لخلقه .

وليس في ظاهر قوله : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ ونحوها ولا في حقيقتها ؛ أنه مختلط بالمخلوقات ممتزج

بها ، ولا تدل لفظة « مع » على هذا بوجه من الوجوه ، فضلًا عن أن يكون هو حقيقة اللفظ وموضوعه ، فإن « مع » في كلام العرب للصحبة اللائقة ، وهي تختلف باختلاف متعلقاتها ومصحوبها ، فكون نفس الإنسان « معه » لون ، وكون علمه وقدرته وقوته معه لون ، وكون زوجته معه لون ، وكون أميره ورئيسه معه لون ، وكون ماله معه لون ، فالمعية ثابتة في هذا كله مع تنوعها واختلافها ، فيصح أن يقال : زوجته معه وبينهما شقة بعيدة . وكذلك يقال : مع فلان دار كذا ، وضيعة كذا .

فتأمل نصوص المعية في القرآن كقوله تعالى : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ ، وقوله : ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ، ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ ، ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ، ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ ، ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ، ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ ، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ، ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ، ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ ، ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ . وأضعاف ذلك ، هل يقتضي موضع واحد منها مخالطة في الذوات التصاقًا وامتزاجًا ؟ فكيف تكون حقيقة المعية في حق الرب تعالى ، كذلك حتى يدعى أنه مجاز لا حقيقة ، فليس في ذلك ما يدل على أن ذاته تعالى فيهم ، ولا ملاصقة لهم ، ولا مخالطة ، ولا مجاورة بوجه من الوجوه ، وغاية ما تدل عليه « مع » المصاحبة والموافقة والمقارنة في أمر من الأمور ، وهذا الاقتران في كل موضع بحسبه يلزمه لوازم بحسب متعلقة ، فإذا قيل : الله مع خلقه بطريق العموم كان من لوازم ذلك علمه بهم ، وتدبيره لهم وقدرته عليهم .

وإذا كان ذلك خاصًا كقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ . كان من لوازم ذلك معيته لهم بالنصرة والتأييد والمعونة ، فمعية الله مع عبده نوعان : عامة وخاصة ، وقد اشتمل القرآن على النوعين ، وليس ذلك بطريق الاشتراك اللفظي ، بل حقيقتها ما تقدم من الصحبة اللائقة ، وقد أخبر الله تعالى أنه مع خلقه مع كونه مستويًا على عرشه ، وقرن بين الأمرين كما قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فأخبر أنه خلق السماوات والأرض ، وأنه استوى على العرش ، وأنه مع خلقه يبصر أعمالهم من فوق عرشه ، فعلوه لا يناقض معيته ، ومعيته لا تبطل علوه ، بل كلاهما حق .

فمن المعية الخاصة قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ ، ومن العامة قوله : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ الآية ، فنبه سبحانه بالثلاثة على العدد الذي يجمع الشفع والوتر ، ولا يمكن أهله أن ينقسموا في النجوى قسمين ، ونبه بالخمسة على العدد الذي

يجمعها ، ويمكن أهله أن ينقسموا فيها قسمين ، فيكون مع كل العددين ، فالمشتركون في النجوى : إما شفع فقط ، أو وتر فقط أو كلا القسمين ، وأقل أقسام الوتر المتناجين ثلاثة ، وأقل أنواع الشفع اثنان ، وأقل أقسام النوعين إذا اجتمعا خمسة فذكر أدنى مراتب طائفة الوتر وأدنى مراتب النوعين إذا اجتمعا ، ثم ذكر معيته العامة لما هو أدنى من ذلك أو أكثر . وتأمل كيف جعل نفسه رابع الثلاثة وسادس الخمسة إذ هو غيرهم سبحانه بالحقيقة ، لا يجتمعون معه في جنس ولا فصل ، وقال : ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ ، فإنهم ساووا بينه وبين الاثنين في الإلهية ، والعرب تقول : رابع أربعة ، وخامس خمسة ، وثالث ثلاثة لما يكون في المضاف إليه من جنس المضاف ، كما قال تعالى : ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ رسول الله ﷺ وصديقه ، فإن كان من غير جنسه قالوا : رابع ثلاثة وخامس أربعة ، وسادس خمسة . وقال تعالى في المعية الخاصة لموسى وأخيه ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ ، وقال في العامة : ﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ فتأمل كيف أفرد ضمير نفسه حيث أفرد موسى وأخاه عن فرعون ، وكيف جمع الضمير لما أدخل فرعون معهما في الذكر ، فجعل الخاص مع المعية الخاصة والعام مع العامة .

□ إثبات صفة الكلام :

وقوله : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ ، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ ، ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ ، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ﴾ ، ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ ، ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ﴾ ، ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ ، ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ ، ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ، ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ ، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ ، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ﴾ ، ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ ، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ، ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ ، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ ، ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ :

* في هذه الآيات إثبات صفة الكلام لله حقيقة على ما يليق بجلاله تعالى ، وهو سبحانه قد تكلم

بالقرآن والكتب المنزلة على الأنبياء وغير ذلك ، ويتكلم إذا شاء متى شاء والقرآن كلامه تعالى منزل غير مخلوق ، وهو كلام اللّه حروفه ومعانيه ، وهو سور وآيات وحروف وكلمات قد تكلم بها ، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة ، وقد دل القرآن وصريح السنة والمعقول وكلام السلف على أن اللّه سبحانه يتكلم بمشيئته ، كما دل على أن كلامه صفة قائمة بذاته وهي صفة ذات وفعل ، قال تعالى : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ، وتأمل نصوص القرآن من أوله إلى آخره .

ونصوص السنة التي إن دفعت دفعت الرسالة بأجمعها ، وإن كانت مجازًا كان الوحي كله مجازًا ، وإن كانت من المتشابه كان الوحي كله من المتشابه ، وإن وجب أو ساغ تأويلها على خلاف ظاهرها ساغ تأويل جميع القرآن والسنة على خلاف ظاهره ، فإن مجيء هذه النصوص في الكتاب والسنة وظهور معانيها وتعدد أنواعها ، واختلاف مراتبها أظهر من كل ظاهر وأوضح من كل واضح ، فكم جهد ما يبلغ التأويل والتحريف والحمل على المجاز ، هب أن ذلك يمكن في موضع واثنين وعشرة ، أفيسوغ حمل أكثر من ثلاثة آلاف وأربعة آلاف موضع كلها على المجاز وتأويل الجميع بما يخالف الظاهر ؟ فكل آية و كل حديث إلهي و كل حديث فيه الأخبار عن ما قال اللّه تعالى أو يقول ، و كل أثر فيه ذلك إذا استقرئت زادت على هذا العدد ، ويكفي أحاديث الشفاعة ، وأحاديث الرؤية ، وأحاديث الحساب ، وأحاديث تكليم اللّه لملائكته وأنبيائه ورسله وأهل الجنة ، وأحاديث تكليم اللّه لموسى ، وأحاديث تكلمه عن النزول الإلهي ، وأحاديث تكلمه بالوحي ، وأحاديث تكليمه للشهداء ، وأحاديث تكليم كافة عباده يوم القيامة بلا ترجمان ولا واسطة ، وأحاديث تكليمه للشفعاء يوم القيامة حين يأذن لهم في الشفاعة إلى غير ذلك .

وقد دلت النصوص النبوية على أنه تعالى يتكلم إذا شاء بما شاء ، وإن كلامه يسمع وأن القرآن العزيز الذي هو سور وآيات وحروف وكلمات عين كلامه حقًّا ، لا تأليف ملك ولا بشر ، وأنه سبحانه الذي قال بنفسه : ﴿الٓمٓصٓ﴾ ، و﴿حمٓ﴾ ، و﴿كٓهيعٓصٓ﴾ . وأن القرآن جميعه حروفه ومعانيه نفس كلامه الذي يتكلم به ، وليس بمخلوق ولا بعضه قديما وهو المعنى وبعضه مخلوق ، وهو الكلمات والحروف ولا بعضه كلامه وبعضه كلام غيره ، ولا ألفاظ القرآن وحروفه ترجمة ترجم بها جبرائيل أو محمد عليهما السلام عما قام به الرب من المعنى من غير أن يتكلم اللّه بها ، بل القرآن جميعه كلام اللّه حروفه ومعانيه تكلم اللّه به حقيقة ، والقرآن اسم لهذا النظم العربي الذي بلغه الرسول ﷺ عن جبرائيل عن رب العالمين ، فللرسولين منه مجرد التبليغ والأداء لا الوضع والإنشاء كما يقول أهل الزيغ والاعتداء .

قوله : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ قال الأئمة : هذه الآية أقوى ما ورد في الرد على المعتزلة .

قال النحاس: أجمع النحويون على أن الفعل إذا أكد بالمصدر لم يكن مجازًا، فإذا قال: ﴿تَكْلِيمًا﴾ وجب أن يكون كلامًا على الحقيقة، وأجمع السلف والخلف من أهل السنة وغيرهم على أن كلم هنا من الكلام، ونقل «الكشاف» عن بدع بعض التفسير أنه من الكلم بمعنى الجرح، وهو مردود بالإجماع المذكور.

وروي أن بعض المعتزلة قرأ على بعض المشائخ: «وكلم اللَّه موسى تكليمًا» بنصب لفظ الجلالة، فقال له: يا ابن الخناء، كيف تصنع بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ يعني أن هذا لا يحتمل التحريف ولا التأويل.

فذكر سبحانه في أول الآية وحيه إلى نوح والنبيين من بعده، ثم خص موسى من بينهم بالإخبار بأنه كلمه، وهذا يدل على أن التكليم الذي حصل له أخص من مطلق الوحي الذي ذكر في أول الآية، ثم أكده بالمصدر الحقيقي الذي هو مصدر كلم، وهو التكلم رفعًا لم توهمه المعطلة والجهمية والمعتزلة وغيرهم من أنه إلهام أو إشارة أو تعريف للمعنى النفسي بشيء غير التكليم، فأكده بالمصدر المفيد تحقيق النسبة، ورفع توهم المجاز، قال الفراء: العرب تسمي ما يوصل إلى الإنسان كلامًا بأي طريق وصل.

فإذا حققته بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الكلام، كالإرادة يقال: فلان أراد إرادة. يريدون حقيقة الإرادة، ويقال: أراد الجدار. ولا يقال: إرادة؛ لأنه مجاز غير حقيقة هذا كلامه، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾، وهذا تكليم غير التكليم الأول الذي أرسله به إلى فرعون، وفي هذا التكليم الثاني سأل النظر لا في الأول، وفيه أعطي الألواح وكان على مواعدة من اللَّه له، والتكليم الأول لم يكن عن مواعدة، وفيه قال اللَّه له: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ أي: بتكليمي لك بإجماع السلف، وقد أخبر سبحانه في كتابه أنه ناداه وناجاه، فالنداء من بعد، والنجاء من قرب، تقول العرب: إذا كبرت الحلقة فهو نداء أو نجاء.

وقال أبوه آدم في محاجته: أنت موسى الذي اصطفاك اللَّه بكلامه وخط لك التوراة بيده، وكذلك يقول له أهل الموقف إذا طلبوا منه الشفاعة إلى ربه، وكذلك في حديث الإسراء في رؤية موسى في السماء السادسة أو السابعة على اختلاف الرواية قال: وذلك بتفضيله بكلام اللَّه، ولو كان التكليم الذي حصل له من جنس ما حصل لغيره من الأنبياء لم يكن لهذا التخصيص به في الأحاديث معنى، ولا كان يسمى كليم الرحمن.

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ

﴿بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ ففرق بين تكليم الوحي بإرسال الرسول ، والتكليم من وراء حجاب . وقال ابن عباس : ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ أدني حتى سمع صريف الأقلام . وقال البغوي : ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ أي : مناجيًا فالنجي المناجي كما يقال جليس ونديم . اهـ .

ففي هذه الآيات دليل على تكليم موسى ، والمعنى المجرد لا يسمع بالضرورة ، ومن قال : إنه يسمع فهو مكابر ، ودليل أنه ناداه والنداء لا يكون إلا صوتًا مسموعًا لا يعقل في لغة العرب لفظ النداء بغير صوت مسموع لا حقيقة ولا مجازًا ، فإن النداء وقت بظرف محدد ، فدل على أن النداء يقع في ذلك الحين دون غيره ، وجعل الظرف للنداء لا يسمع النداء إلا فيه ، والكلابية ومن وافقهم من أصحاب الأئمة الأربعة يقولون : إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته بل الكلام المعين لازم لذاته كلزوم الحياة لذاته ، وعندهم لما جاء موسى لميقات ربه سمع النداء القديم لا أنه حينئذ نودي ولهذا يقولون : إنه يسمع كلامه لخلقه ، بدل قول الناس : يكلم خلقه ، وهؤلاء يردون على الخلقية الذين يقولون : القرآن مخلوق .

ويقولون عن أنفسهم : أنهم أهل السنة الموافقون للسلف الذين قالوا : القرآن كلام اللّه غير مخلوق . وليس قولهم قول السلف لكن قولهم أقرب إلى قول السلف من وجه ، وهم يقولون : الكلام عندنا صفة ذات لا صفة فعل . والخلقية يقولون : صفة فعل لا صفة ذات ، ومذهب السلف أنه صفة فعل وصفة ذات معا ، فكل منهما موافق للسلف من وجه دون وجه .

فكل من المعتزلة والأشعرية في جنس مسائل الكلام وأفعال اللّه وافقوا السلف والأئمة من وجه وخالفوهم من وجه ، وليس قول أحدهم قول السلف دون الآخر لكن الأشعرية في جنس الصفات ، والقدر أقرب إلى قول السلف والأئمة من المعتزلة فإن قيل فقد قال تعالى : ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ، وهذا يدل على أن الرسول أحدث الكلام العربي . قيل : هذا باطل ، وذلك أن اللّه ذكر هذا في موضعين والرسول في أحد الموضعين محمد ، والرسول في الآية الأخرى جبريل قال تعالى في سورة « الحاقة » : ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ الآية ، فالرسول هنا محمد ﷺ وقال في سورة « التكوير » : ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ ، فالرسول هنا جبريل فلو كان إضافة إلى الرسول لكونه أحدث حروفه أو أحدث منه شيئا لكان الخبران متناقضين ، فإنه إن كان أحدهما الذي أحدثها امتنع أن يكون الآخر هو الذي أحدثها ، وأيضًا فإنه قال : ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ولم يقل : لقول ملك ولا نبي ، ولفظ الرسول يستلزم مرسلًا له ، فدل ذلك على أن الرسول مبلغ له عن مرسله ، لا أنه أنشأ منه شيئا من جهة نفسه ، وهذا يدل على أنه أضافه إلى الرسول ؛ لأنه بلغه وأداه لا أنه أنشأ منه شيئًا وابتداه .

وأيضًا فإن الله قد كفر من جعله قول البشر ، ومحمد بشر فمن قال قول محمد فقد كفر ، ومع هذا فقد قال : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ ، فجعله قول الرسول البشري مع تكفيره من يقول : إنه قول البشر فعلم أن المراد بذلك أن الرسول بلغه عن مرسله لا أنه قوله من تلقاء نفسه ، وهو كلام الله تعالى الذي أرسله ، ولهذا كان النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف ويقول : « ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي ، فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي » . رواه أبو داود وغيره[(١)] .

والناس يعلمون أن النبي ﷺ إذا تكلم بكلام تكلم بحروفه ومعانيه بصوته ﷺ ثم المبلغون عنه يبلغون كلامه بحركاتهم وأصواتهم كما قال ﷺ : « نضر الله أمرأ سمع منا حديثًا فبلغه كما سمعه »[(٢)] . فالمستمع منه مبلغ حديثه ، كما سمعه لكن بصوت نفسه لا بصوت الرسول ، فالكلام هو كلام الرسول تكلم به بصوته ، والمبلغ بلغ كلام رسول الله بصوت نفسه ، وإذا كان هذا معلوما في تبليغ كلام المخلوق فكلام الخالق أولى بذلك ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ وقال النبي ﷺ : « زينوا القرآن بأصواتكم »[(٣)] . فجعل الكلام كلام الباري ، وجعل الصوت الذي يقرأه العبد صوت القارئ .

وأصوات العباد ليست هي الصوت الذي ينادي الله به ويتكلم به ، كما نطقت النصوص بذلك ، بل ولا ومثله ، فمن قال عن القرآن الذي يقرؤه المسلمون : ليس هو كلام الله أو هو كلام غير الله . فهو ملحد مبتدع ضال ، ومن قال : إن أصوات العباد أو المداد الذي يكتب به القرآن قديم أزلي فهو ملحد مبتدع . بل هذا القرآن هو كلام الله ، وهو مثبت في المصاحف ، وكلام الله مبلغ عنه مسموع من القراء ، ليس مسموعًا منه ، فالإنسان يرى الشمس والقمر والكواكب بطريق المباشر ، ويراها في ماء أو مرآة فهذه رؤية مقيدة بالواسطة وتلك مطلقة بطريق المباشر ، ويسمع من المبلغ عنه بواسطة ، والمقصود بالسماء هو كلامه في الموضعين ، كما أن المقصود بالرؤية هو المرئي في الموضعين ، وإذا قيل للمسموع : إنه كلام الله فهو كلام مسموعًا من المبلغ عنه ، لا مسموعًا منه فهو مسموع بواسطة صوت العبد ، وصوت العبد مخلوق ، وأما كلام الله منه فهو غير مخلوق حيثما تصرف .

---

(١) أحمد (٣/٣٩٠) ، وأبو داود (٤٧٣٤) ، والترمذي (٢٩٢٥) ، وابن ماجه (٢٠١) ، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (١٩٤٧) .

(٢) أبو داود (٣٦٦٠) ، والترمذي (٢٦٥٦) ، وابن ماجه (٤١٠٥) ، وأحمد (٥/١٨٣) عن أبان بن عثمان ، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (٤٠٤) .

(٣) أحمد (٤/٢٨٣) ، وأبو داود (١٤٦٨) ، وابن ماجه (١٣٤٢) ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٣٥٨٠) .

وقال تعالى : ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ : ففيه إخبار بأنه أنزل القرآن ، ولفظ الإنزال في القرآن قد يرد مقيدًا بالإنزال منه كتنزول القرآن ، وقد يرد مقيدًا بالإنزال من السماء ويراد العلو ، فيتناول نزول المطر من السحاب ، ونزول الملائكة من عند اللَّه وغير ذلك ، وقد يرد مطلقًا فلا يختص بنوع من الإنزال ، بل ربما يتناول الإنزال من رءوس الجبال ، كقوله : ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ ، والإنزال من ظهور الحيوان كإنزال الفحل من الماء وغير ذلك ، فقوله : ﴿نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ بيان لنزول جبريل به من اللَّه ﷻ ، فإن روح القدس هنا هو جبريل بدليل قوله تعالى : ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ، وهو الروح الأمين كما في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ ، وفي قوله : « الأمين » دلالة على أنه مؤتمن على ما أرسل به لا يزيد فيه ولا ينقص ، فإن الرسول الخائن قد يغير الرسالة .

وفي قوله : ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ دلالة على بطلان قول من يقول : إنه كلام مخلوق خلقه في جسم من الأجسام المخلوقة ، كما هو قول الجهمية الذين يقولون بخلق القرآن من المعتزلة والنجارية والضرارية وغيرهم ، فإن السلف كانوا يسمون كل من نفى الصفات وقال : إن القرآن مخلوق وإن اللَّه لا يرى في الآخرة جهميًا ، كما تبطل قول من يجعله على نفس النبي من العقل الفعال أو غيره وقول من قال : إن القرآن العربي ليس منزلًا من اللَّه ، بل مخلوق إما في جبريل أو محمد أو جسم غيرهما ، كما يقول ذلك الكلابية والأشعرية الذين يقولون : إن القرآن العربي ليس هو كلام اللَّه ، وإنما كلامه المعنى القائم بذاته ، والقرآن العربي خلق ليدل على ذلك المعنى ثم إما أن يكون خلق بعض الأجسام الهواء أو غيره أو ألهمه جبريل فعبر عنه بالقرآن العربي أو أن يكون جبريل أخذه من اللوح المحفوظ أو غيره ، والقرآن اسم للقرآن العربي لفظه ومعناه بدليل قوله تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ ، وإنما يقرأ القرآن العربي لا يقرأ معانيه المحددة ، وكذلك قوله : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ ، والكتاب اسم للكلام العربي بالضرورة والاتفاق ، فإن الكلابية أو بعضهم يفرق بين كلام اللَّه وكتاب اللَّه ، فيقول : كلام اللَّه هو المعنى القائم بالذات وهو غير مخلوق ، وكتابه هو المنظوم المؤلف العربي وهو المخلوق .

والقرآن يراد به تارة هذا وتارة هذا ، واللَّه تعالى قد سمى نفس مجموع اللفظ والمعنى قرآنًا وكتابًا وكلامًا ، فقال : ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ ، وقال : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ الآية ، فبين أن الذي سمعوه هو القرآن وهو الكتاب ، لكن لفظ الكتاب قد يراد به المكتوب فيكون هو الكلام ، وقد يراد به ما يكتب فيه كقوله : ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ الآية ، وقال :

﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا﴾ الآية ، فقوله : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ يتناول نزول القرآن العربي على كل قول ، فعلم أن القرآن العربي ينزل من الله لا من الهواء ولا من اللوح ولا من جسم آخر ولا من جبريل ولا محمد ولا غيرهما .

وكون القرآن مكتوبًا في اللوح المحفوظ ، وفي صحف مطهرة بأيدي الملائكة لا ينافي أن يكون جبريل نزل به من الله سواء كتبه الله قبل أن يرسل به جبريل أو غير ذلك ، وإذا كان قد أنزله مكتوبًا إلى بيت العزة جملة واحدة في ليلة القدر فقد كتبه كله قبل أن ينزله ، والله تعالى يعلم ما كان وما لا يكون أن لو كان كيف يكون ، وهو سبحانه قدر مقادير الخلائق وكتب أعمال العباد قبل أن يعملوها ، كما ثبت ذلك بالكتاب والسنة وآثار السلف ، ثم إنه يأمر الملائكة بكتابتها بعد ما يعملونها فيقابل من الكتابة المتقدمة على الوجود ، والكتابة المتأخرة عنها فلا يكون بينهما تفاوت هكذا ، قال ابن عباس ، وغيره من السلف : وهو حق ، فإذا كان ما يخلقه بائنا منه وقد كتب قبل أن يخلقه ، فكيف يستبعد أن يكتب كلامه الذي يرسل به ملائكته قبل أن يرسلهم به ، وقد افترق الناس في مسألة الكلام على تسعة أقوال :

أحدهما : أن كلام الله ما يفيض على النفوس إما من العقل الفعال عند بعضهم أو من غيره ، وهذا قول الصابئة والمتفلسفة .

وثانيهما : أنه مخلوق منفصل عنه . وهذا قول المعتزلة .

وثالثها : أنه معنى واحد قائم بذات الله هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار ، وإن عبر عنه بالعربية كان قرآنًا ، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة ، وهذا قول ابن كلاب ومن وافقه كالأشعري وغيره .

ورابعها : أنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الأزل ، وهذا قول طائفة من أهل الكلام ومن أهل الحديث .

وخامسها : أنه حرف وأصوات لكن تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلمًا ، وهذا قول الكرامية وغيرهم .

وسادسها : أن كلامه يرجع إلى ما يحدثه من علمه وإرادته القائمة بذاته ، وبهذا يقول صاحب المعتبر ويميل إليه الرازي في « المطالب العالية » .

وسابعها : أن كلامه يتضمن معنى قائمًا بذاته هو ما خلية في غيره ، وهذا قول أبي منصور الماتريدي .

وثامنها : أنه مشترك بين المعني القديم القائم بالذات ، وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات ، وهذا قول أبي المعالي ومن اتبعه .

وتاسعها : أنه تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء ، وهو يتكلم بصوت يسمع وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديمًا ، وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسنة .

واستدل المعتزلة على خلق القرآن بقوله : ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قالوا : والقرآن شيء فيدخل في عموم كل فيكون مخلوقًا ، وهذا من أعجب العجب فإن أفعال العباد كلها عندهم غير مخلوقة لله تعالى ، وإنما يخلقها العباد جميعها فأخرجوها من عموم كل ، وأدخلوا كلام الله في عمومها مع أنه صفة من صفاته به تكون الأشياء المخلوقة إذ بأمره تكون المخلوقات .

قال تعالى : ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ : ففرق بين الخلق والأمر فلو كان الأمر مخلوقا للزم أن يكون مخلوقًا بأمر آخر ، والآخر بآخر إلى ما لا نهاية له فيلزم التسلل وهو باطل ، وطرد باطلهم أن تكون جميع صفاته تعالى مخلوقة كالعلم والقدرة وغيرها وذلك صريح الكفر ، وكيف يصح أن يكون متكلمًا بكلام يقوم به غيره ؟ ولو صح ذلك للزم أن يكون ما أحدثه من الكلام في الجمادات كلامه ، وكذلك أيضًا ما خلقه في الحيوانات ، بل يلزم أن يكون متكلمًا بكل كلام خلقه في غيره زورًا كان أو كذبًا أو كفرًا وهذيانًا- تعالى الله عن ذلك- وقد طرد هذا الاتحادية فقال ابن عربي :

وكل الكلام في الوجود كلامه ... سواء علينا نثره ونظامه

ولو صح أن يوصف أحد بصفة قامت بغيره لصح أن يقال للبصير : أعمى وللأعمى بصير ؛ لأن البصير قد قام وصف البصيرة بغيره ، والأعمى قد قام وصف البصر بغيره ، ولصح أن يوصف الله تعالى بالصفات التي خلقها في غيره من الألوان والروائح والطعوم والطول والقصر ونحو ذلك ، وقال الإمام عبد العزيز المكي في مناظرته لبشر المريسي- إن قال بشر- : إن الله خلق كلامه في نفسه فهذا محال ؛ لأن الله لا يكون محلًا للحوادث المخلوقة ، ولا يكون منه شيء مخلوق وإن قال خلقه في غيره فهو كلام غير ذلك الغير ، وإن قال : خلقه قائمًا بنفسه وذاته فهذا محال ، لا يكون الكلام إلا من متكلم ، كما لا تكون الإرادة إلا من مريد ولا العلم إلا من عالم ، ولا يعقل كلام قائم بنفسه يتكلم بذاته ، فلما استحال من هذه الجهات أن يكون مخلوقًا علم أنه صفة الله . اهـ .

وعموم كل في كل موضع بحسبه ، ويعرف ذلك بالقرائن ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ ومساكنهم شيء ولم تدخل في عموم كل شيء دمرته الريح ؛ وذلك لأن المراد تدمر كل شيء يقبل التدمير بالريح عادة وما يستحق التدمير ، وكذا قوله تعالى حكاية عن بلقيس : ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ المراد : من كل شيء يحتاج إليه الملوك ، والمراد من قوله : « خلق كل شيء » أي : كل شيء مخلوق وكل موجود سوى الله فهو مخلوق ، فدخل في هذا

العموم أفعال العباد حتمًا ، ولم يدخل في العموم الخالق تعالى ، وصفاته ليست غيره ؛ لأنه تعالى هو الموصوف بصفات الكمال ، وصفاته ملازمة لذاته المقدسة لا يتصور انفصال صفاته عنه .

وقال ابن القيم : احتج المعتزلة على مخلوقية القرآن بقوله تعالى : « خلق كل شيء » ، ونحو ذلك من الآيات ، فأجاب الأكثرون بأنه عام مخصوص يخص محل النزاع كسائر الصفات من العلم ونحوه .

قال ابن عقيل في « الإرشاد » : ووقع لي أن القرآن لا يتناوله هذا الإخبار ولا يصلح لتناوله . قال : لأنه به حصل عقد الإعلام بكونه خالقًا لكل شيء ، وما حصل به عقد الإعلام والإخبار لم يكن داخلًا تحت الخبر . قال : ولو أن شخصًا قال : لا أتكلم اليوم كلامًا إلا كان كذبًا لم يدخل إخباره بذلك تحت ما أخبر به . قلت : ثم تدبرت هذا فوجدته مذكورًا في قوله تعالى في قصة مريم : ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ وإنما أمرت بذلك لئلا تسأل عن ولدها ، فقولها : ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ به حصل إخبار بأنها لا تكلم الإنس ، ولم يكن ما أخبرت به داخلًا تحت الخبر ، وإلا كان قولها هذا مخالفًا لنذرها . اهـ .

وأما استدلالهم بقوله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ فما أفسده من استدلال ! فإن جعل إذا كان بمعنى خلق يتعدى إلى مفعول واحد ، كقوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ وإذا تعدى إلى مفعولين لم يكن بمعنى خلق قال تعالى : ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ ، وكذا قوله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ .

وما أفسد استدلالهم بقوله تعالى : ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ على أن الكلام خلقه اللّه في الشجرة فسمعه موسى منها ، وعموا عما قبل هذه الكلمة وما بعدها ، فإن اللّه تعالى قال : ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ والنداء هو الكلام من بعد فسمع موسى النداء من حافة الوادي ، ثم قال : ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ أي : أن النداء كان في البقعة المباركة من عند الشجرة ومن لابتداء الغاية ، ولو كان الكلام مخلوقًا في الشجرة لكانت الشجرة هي القائلة : ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ، وهل قال : ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ غير رب العالمين ؟ ولو كان هذا الكلام بدأ من غير اللّه لكان قول فرعون : ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ صدقًا ؛ إذ كل من الكلامين عندهم مخلوق قد قاله غير اللّه ، وقد فرقوا بين الكلامين على أصولهم الفاسدة أن ذلك كلام خلقه اللّه في الشجرة ، وهذا كلام خلقه فرعون فحرفوا وبدلوا واعتقدوا خالقا غير اللّه .

وأما قوله تعالى في عيسى عليه السلام : ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ فالمعنى أنه

خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها الروح ، فعيسى ناشئ عن الكلمة ، وليس هو نفس الكلمة وقوله تعالى : ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ يعني : أنه كائن منه تعالى أي : هو موجده وخالقه ، فهو روح من الأرواح التي خلقها اللَّه كما قال تعالى : ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أي : مخلوقة بأمره .

❑ إثبات رؤية المؤمنين اللَّه يوم القيامة :

وقوله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ، ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ ، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ ، ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ :

في هذه الآيات إثبات رؤية المؤمنين ربهم جل وعلا يوم القيامة عيانًا بأبصارهم ، ومسألة الرؤية من أعظم المسائل التي وقع النزاع فيها بين أهل السنة وغيرهم . وقد اتفق عليها الأنبياء والمرسلون وجميع الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام على تتابع القرون . والمخالف في الرؤية الجهمية والمعتزلة ومن اتبعهم من الخوارج والإمامية ، وقولهم باطل مردود بالكتاب والسنة . قال ابن خزيمة : لم يختلف المؤمنون في أن المؤمنين يرون خالقهم يوم المعاد ، ومن أنكر ذلك فليس بمؤمن عند المؤمنين . اهـ .

قوله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ أي : حسنة مشرقة ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ترى اللَّه عيانًا ، وإضافة النظر إلى الوجه الذي هو محله في هذه الآية ، وتعديه بأداة « إلى » الصريحة في نظر العين ، وإخلاء الكلام من قرينة تدل على أن المراد بالنظر المضاف إلى الوجه المعدي بإلى خلاف حقيقته وموضوعه ، صريح في أن اللَّه سبحانه وتعالى أراد بذلك نظر العين التي في الوجه إلى نفس الرب جل جلاله ، فإن النظر له عدة استعمالات بحسب صلاته وتعديه بنفسه ، فإن عدي بنفسه فمعناه التوقف والانتظار كقوله : ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ عدي بفي ، فمعناه التفكر والاعتبار كقوله : ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ، وإن عدى بإلى فمعناه المعاينة بالأبصار كقوله : ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ ، فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذي هو محل البصر .

وقد أخرج عبد بن حميد عن عكرمة إنكار الرؤية ، ويمكن الجمع بالحمل على غير أهل الجنة ، وأخرج بسند صحيح عن مجاهد : « ناظرة » ؛ تنظر الثواب . وعن أبي صالح نحوه ، وأورد الطبري الاختلاف فقال : الأولى بالصواب ما ذكرناه عن الحسن وعكرمة ؛ وهو ثبوت الرؤية لموافقته الأحاديث الصحيحة ، وبالغ ابن عبد البر في رد الذي نقل عن مجاهد وقال : هو شذوذ ، وقد تمسك به بعض المعتزلة . وتمسكوا أيضًا بقوله ﷺ في حديث سؤال جبريل عن الإسلام والإيمان والإحسان ، وفيه : « أن تعبد اللَّه كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »(١) . تعقب بأن المنفي فيه رؤيته

---

(١) مسلم (٨) عن عمر رضي الله عنه .

في الدنيا ؛ لأن العبادة خاصة بها ، فلو قال قائل : إن فيه إشارة إلى جواز الرؤية في الآخرة لما أبعد ، وقال البيهقي : إذا ثبت أن « ناظرة » هنا بمعني « رائية » اندفع قول من زعم أن المعنى ناظرة إلى ثواب ربها ؛ لأن الأصل عدم التقدير ، وأريد منطوق الآية في حق المؤمنين بمفهوم الآية الأخرى في حق الكافرين ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ ، وقيدها بالقيامة في الآيتين إشارة إلى أن الرؤية تحصل للمؤمنين في الآخرة دون الدنيا . اهـ .

وقد أخرج أبو العباس السراج عن مالك بن أنس وقيل له : يا أبا عبد الله : قول الله تعالى : ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ يقول قوم : إلى ثوابه ؟ فقال : كذبوا فأين هم عن قوله تعالى : ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ ؟ ومن حديث النظر أن كل موجود يصح أن يرى ، وهذا على سبيل التنزل ، وإلا فصفات الخالق لا تقاس على صفات المخلوقين ، وتعقب ابن التين من زعم أن الرؤية بمعنى العلم بأن الرؤية بمعنى تتعدى إلى مفعولين تقول : رأيت زيدًا فقيهًا - أي : علمته - فإن قلت : رأيت زيدًا منطلقًا لم يفهم منه إلا برؤية البصر ، ويزيده تحقيقًا قوله في الخبر : إنكم سترون ربكم عيانًا ؛ لأن اقتران الرؤية بالعيان لا يحتمل أن تكون بمعنى العلم ، وقال ابن بطال : ذهب أهل السنة وجمهور الأمة إلى جواز رؤية الله في الآخرة ، ومنع الخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة ، وتمسكوا بأن الرؤية توجب كون المرئي محدثًا وحالًا في مكان ، وأولوا قوله : ﴿نَاظِرَةٌ﴾ بمنتظره وهو بالمرئي بمنزلة العلم في تعلقه بالمعلوم ، فإذا كان تعلق العلم بالمعلوم لا يوجب حدوثه فكذلك المرئي .

وأما ما روي عمن تأول ذلك بأن المراد بإلى مفرد وهي النعم ، فقد أبعد النجعة وأبطل فيما ذهب إليه وأين هو من قوله تعالى : ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ قال الشافعي رحمه الله : ما حجب الفجار إلا وقد علم أن المؤمنين يرونه ﷻ ، ثم تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ بما دل عليه سياق الآية الكريمة ، وهي قوله : ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ .

وقوله : ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ الأرائك : جمع أريكة ، وهي سرير مفروش ، قال في الصحاح : الأريكة ؛ سرير متخذ مزين في قبة أو بيت ، والجمع الأرائك . وقال الزهري : الأريكة كل ما يتكأ عليه . ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى وجه الله وهو أفضل نعيم أهل الجنة ، فأهل الجنة في النعيم ، والكفار في الجحيم محجوبون عن رؤية الله ، فجمع عليهم بين نوعي العذاب عذاب النار وعذاب الحجاب عنه سبحانه ، كما جمع لأوليائه بين نوعي النعيم نعيم التمتع بما في الجنة ونعيم التمتع برؤيته ، وذكر سبحانه هذه الأنواع الأربعة في هذه السورة فقال في حق الأبرار : ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ ، ولقد هضم معنى الآية من قال : ينظرون إلى أعدائهم يعذبون ، أو ينظرون إلى قصورهم وبساتينهم ، أو ينظر بعضهم إلى بعض ، وكل هذا عدول عن المقصود إلى غيره ، وإنما

المعنى ينظرون إلى وجه ربهم ضد حال الكفار الذين هم عن ربهم لمحجوبون ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ ، وتأمل كيف قابل سبحانه ما قاله الكفار في أعدائهم في الدنيا وسخروا به منهم بضده في القيامة ، فإن الكفار كانوا إذا مر بهم المؤمنون يتغامزون ويضحكون منهم ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ ، فقال تعالى : ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ مقابلة لتغامزهم وضحكهم منهم ، ثم قال : ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ فأطلق النظر وأفضلها وهي أعلى مراتب الهداية ، فقابل بذلك قولهم : ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ فالنظر إلى الرب سبحانه مراد من هذين الموضوعين ، ولابد إما بخصوصه وإما بالعموم والإطلاق ، ومن تأمل السياق لم يجد الآيتين تحتملان غير إرادة ذلك خصوصًا أو عمومًا .

قوله : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ الحسنى الجنة ، وما شاء اللَّه من الثواب ، والزيادة النظر إلى وجه اللَّه ، وفي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، كما قال تعالى : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وأعلى ما أعطيه أهل الجنة من النعيم النظر إلى وجه اللَّه ، كما روى مسلم في « صحيحه » عن صهيب قال : قرأ رسول اللَّه ﷺ : « ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ » قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد : يا أهل الجنة إن لكم عند اللَّه موعدًا ويريد أن ينجزكموه . فيقولون : ما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا ويدخلنا الجنة ويزحزحنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب فينظرون إليه ، فواللَّه ما أعطاهم اللَّه شيئًا أحب إليهم من النظر إليه وهي الزيادة »[1] . وبذلك فسرها الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام ، وقال غير واحد من السلف في الآية : ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ وبعد النظر إليه : ولما عطف سبحانه الزيادة على الحسنى التي هي الجنة دل على أنها أمر آخر وراء الجنة ، وقدر زائد عليها ، ومن فسر الزيادة بالمغفرة والرضوان ، فهو من لوازم رؤية الرب تبارك وتعالى .

❁ قال الشيخ عبد العزيز الناصر الرشيد رحمه الله :

قوله : « وقد دخل في هذه الجملة ما وصف اللَّه به نفسه في سورة الإخلاص ...» :

أي المتقدمة من قوله : « وقد جمع فيما وصف وسمى به نفسه » .

قوله : « في سورة الإخلاص » : أي : سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص : ١] ، فإنها اشتملت على النفي والإثبات ؛ إثبات صفات الكمال ونفي التشبيه والمثال ، ومعاني التنزيه ترجع إلى هذين الأصلين ، وهذا عكس ما عليه أهل البدع من الجهمية والمعتزلة وغيرهم ، فإنهم ينفون صفات

---

(١) مسلم (١٨١) .

الكمال ، ويثبتون ما لا يوجد إلا في الخيال .

قوله : « الجملة » : وهي لغة : جماعة الشيء وما تركب من مسند ومسند إليه ، جمعه : جمل .

قوله : « الإخلاص » ؛ أي : سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ؛ سميت بسورة « الإخلاص » ؛ لأنها أخلصت في صفة الله ، ولأنها تخلص قارءها من الشرك العلمي الاعتقادي .

قوله : « تعدل » عدل الشيء بالفتح ما سواه من غير جنسه ، وبالكسر ما سواه من جنسه ، وبالكسر ما سواه من جنسه .

قوله : « ثلث القرآن » ؛ وذلك لأن معاني القرآن ثلاثة أنواع : توحيد ، وقصص ، وأحكام ، وهذه السورة صفة الرحمن فيها التوحيد وحده ، وفي « صحيح البخاري » عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : أن رجلًا سمع رجلًا يقرأ : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يرددها ، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر له ذلك ، وكأن الرجل يتقالها ، فقال النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن »[1] الحديث . والأحاديث بكونها تعدل ثلث القرآن تكاد تبلغ مبلغ التواتر . انتهى من كلام ابن القيم رحمه الله .

قال القسطلاني : وذلك لأن القرآن على ثلاثة أنحاء : قصص ، وأحكام ، وصفات الله ، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ متضمنة للتوحيد والصفات فهي ثلثه ، قال : وفيه دليل على شرف علم التوحيد ، وكيف لا ، والعلم يشرف بشرف المعلوم ، ومعلوم هذا العلم هو الله وصفاته وما يجوز عليه وما لا يجوز ، فما ظنك بشرف منزلته وجلالة محله ؟ ! انتهى .

وفي هذا الحديث دليل على تفاضل القرآن ، وكذلك تفاضل آيات الصفات ، وأن علم التوحيد أفضل العلوم ؛ إذ شرف العلم بشرف موضوعه .

وسبب نزول هذه السورة هو ما رواه أحمد عن أبي بن كعب : أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : انسب لنا ربك . فأنزل الله ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[2] ، وأخرجه الترمذي والطبري ، فالمشركون سألوا رسول الله عن حقيقة ربه من أي شيء ؟ فدلهم على نفسه بصفاته فلم يجعل لهم سبيلًا إلى معرفة الذات والكنه ، فحقيقة الذات والكنه غير معلومة للبشر ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين : ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي : منفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله لا شريك له ولا مثيل ولا نظير ، و« أحد » بمعنى : واحد ، ولا يطلق هذا اللفظ في الإثبات إلا عليه سبحانه ؛ لأنه الكامل في جميع صفاته وأحكامه ، وفي هذا دليل على أن القرآن كلام الله ؛ إذ لو كان النبي أو غيره لم يقل :

---

(١) البخاري (٤٧٢٦) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه .

(٢) الترمذي (٣٣٦٤) ، وأحمد (٥/٤٥٢) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه ، وحسنه الألباني في « صحيح سنن الترمذي » (٢٦٨٠) .

﴿قُلْ﴾ ، ففيه الرد على المعتزلة القائلين أن القرآن كلام محمد أو جبريل .

قال ابن القيم- رحمه اللّه تعالى- : فدل على أن النبي ﷺ مبلغ عن اللّه ، فكان مقتضى البلاغ التام أن يقول : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ففيه الرد على الجهمية والمعتزلة وإخوانهم ممن يقول هو كلامه ابتداء من قبل نفسه ، ففي هذا أبلغ رد لهذا القول ، وأنه ﷺ بلغ ما أمر بتبليغه على وجهه ولفظه ، فقيل له : ﴿قُلْ﴾ فقال : ﴿قُلْ﴾ ؛ لأنه مبلغ محض فما على الرسول إلا البلاغ المبين ، وفيه دليل على الجهر بالعقيدة والتصريح بها .

قوله : « اللّه الصمد » : قال أبو وائل : الصمد : السيد الذي انتهى سؤدده ، والعرب تسمي أشرافها الصمد ؛ لكثرة الأوصاف المحمودة للمسمى به ، قال الشاعر :

إلا بكر الناعي بخير بني أسد ... بعمر بن مسعود وبالسيد الصمد

فإن الصمد من تصمد إليه القلوب بالرغبة والرهبة ، وذلك لكثرة خصال الخير فيه . انتهى . وقال عكرمة عن ابن عباس : معنى الصمد : هو الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم .

وقال الربيع بن أنس : هو الذي لم يلد ، ولم يولد كأنه ما بعده تفسيرًا له ، وهو تفسير جيد ، وقد تقدم الحديث من رواية ابن جرير عن أبي بن كعب في ذلك وهو صريح في ذلك . انتهى من ابن كثير .

قال الشيخ تقي الدين- رحمه اللّه تعالى- : ومن قال : إن الصمد هو الذي لا جوف له ، فقوله لا يناقض هذا التفسير ، فإن اللفظة من الاجتماع ، فهو الذي اجتمعت فيه صفات الكمال ولا جوف له ، فإنما لم يكن أحد كفوًا له لما كان صمدًا كاملًا في صمدانيته ، فلو لم يكن له صفات كمال ونعوت جلال ، ولم يكن له علم ولا قدرة ، ولا سمع ولا بصر ، ولا يقوم به فعل ولا يفعل شيئًا البته ، ولا له حياة ولا كلام ولا وجه ، ولا يد ، ولا فوق عرشه ، ولا يرضى ، ولا يغضب ، ولا يرى ، ولا يمكن أن يرى ولا يشار إليه ، لكان العدم المحض كفوًا له ، فإن هذه الصفة منطبقة على المعدوم ، فلو كان ما يقوله المعطلون هو الحق لم يكن صمدًا وكان العدم كفوًا له ، فاسمه الأحد دل على نفي المشاركة والمماثلة ، واسمه الصمد دل على أنه مستحق لصفات الكمال ، فمن ثبت له الكمال التام انتفى النقصان عنه المضاد له ، والكمال من مدلول اسمه الصمد .

والثاني : أنه ليس كمثله شيء في صفات الكمال الثابتة له ، وهذا من مدلول اسمه الأحد ، فهذان الاسمان العظيمان يتضمنان تنزيهه عن كل نقص وعيب ، وتنزيهه في صفات الكمال أن يكون له مماثل في شيء منها ، فالسورة تضمنت كل ما يجب نفيه عن اللّه وما يجب إثباته للّه من وجهين ؛ من جهة اسمه الصمد ، ومن جهة أن كل ما نفي عنه من الأصول والفروع والنظير ، استلزم ثبوت صفات الكمال ، فإن ما يمدح به من النفي فلا بد أن يتضمن ثبوتًا وإلا فالنفي المحض عدم محض ، والعدم

محض ليس بشيء فضلًا عن أن يكون صفة كمال . انتهى من كلام الشيخ تقي الدين ابن تيمية بتصرف .

قوله : « ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ » : فيه الرد على اليهود والنصارى والمشركين ، فإن اليهود قالوا : عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، ومشركو العرب زعموا أن الملائكة بنات الله ، تعالى الله عن قولهم .

قوله : « ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ » : الكفو : المثل والشبيه ، فهذه السورة تضمنت توحيد الاعتقاد والمعرفة وما يجب إثباته للرب من الأحدية المنافية لمطلق المشاركة بوجه من الوجوه ، والصمد المثبتة له جميع صفات الكمال الذي لا يلحقه فيها نقص بوجه من الوجوه ، ونفي الولد والوالد الذي هو من لزوم صمديته وغناه وأحديته ، ونفي الكفء المتضمن لنفي التشبيه والتمثيل ، فتضمنت هذه السورة إثبات كل كمال ، ونفي كل نقص عنه ، ونفي إثبات مثل له أو شبيه له في كماله ونفي مطلق الشريك عنه ، فهذه الأصول هو مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي الذي يباين به صاحبه جميع فرق الضلال والشرك ؛ ولهذا كانت تعدل ثلث القرآن ، فأخلصت سورة الإخلاص الخبر عنه وعن أسمائه وصفاته فعدلت ثلث القرآن ، وخلصت قارئها المؤمن بها من الشرك العلمي . اهـ ، من كلام ابن القيم- رحمه الله تعالى- ملخصًا .

وفي هذه السورة الجمع بين النفي والإثبات ، وفيها الإجمال في النفي ، والتفصيل في الإثبات ، وهذه طريقة أهل السنة والجماعة خلافًا لأهل الكلام المذموم ، وتضمنت هذه السورة أنواع التوحيد الثلاثة .

قوله : « وما وصف به نفسه في أعظم آية من كتابه ...» :

* وهي آية الكرسي ، وذلك لما اشتملت عليه من العلوم والمعارف ، كما في « الصحيح » أن النبي ﷺ قال لأبي بن كعب : « يا أبا المنذر ، أتدري أي آية في كتاب الله أعظم » . فقال : الله ورسوله أعلم . فرددها مرارًا ، ثم قال : أبي ، هي آية الكرسي ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة : ٢٥٥] . فقال : « ليهنك العلم يا أبا المنذر »(١) .

قوله : « آية » : هي لغة : العلامة ، واصطلاحًا : طائفة من كلمات القرآن متميزة بفصل ، سميت هذه الآية آية الكرسي ؛ لذكر الكرسي فيها ، وفيه دليل على فضل هذه الآية وإنها أعظم آية في كتاب الله ، وفيه دليل كما تقدم على فضل علم التوحيد ، وأن القرآن يتفاضل ، بل آيات الصفات تتفاضل .

---

(١) مسلم (٨١٠) ، وأحمد (١٤١/٥) من حديث أُبي بن كعب رضي الله عنه .

قوله : « ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ » ؛ أي : لا معبود بحق إلا هو ، قوله : ﴿ٱلْحَىُّ﴾ ، أي : الدائم الباقي الذي لا سبيل للفناء عليه ، قوله : ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ ؛ أي : القائم بنفسه المقيم لما سواه ، فهذان الاسمان عليهما مدار الأسماء الحسنى وإليها ترجع معانيها جميعًا ، فإن الحياة مستلزمة لصفات الكمال ، والقيوم متضمن لكمال غناه وكمال قدرته ، فإن القائم بنفسه لا يحتاج إلى من يقيمه بوجه من الوجوه ، وهذا من كمال غناه بنفسه عما سواه وهو المقيم لغيره فلا قيام لغيره إلا بإقامته ، وهذا من كمال قدرته وعزته . انتهى من كلامِ ابن القيم بتصرف .

قوله : ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ : السنة : النعاس وهو النوم الخفيف ، والنوم ثقل في الرأس ، والسنة في العين ، والنوم في القلب ، وهو تأكيد للقيوم ، أي : إنه – سبحانه– لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول ، ولا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية ، كما في الصحيح من حديث أبي موسى قال : قام فينا رسول اللَّه ﷺ بأربع كلمات ، فقال : « إن اللَّه لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النار– أو النور– لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه ، له ما في السماوات وما في الأرض ملكًا وخلقًا وعبيدًا »[1] .

قوله : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ ؛ أي : ليس لأحد أن يشفع عنده لعظمته وكبريائه إلا بإذنه ؛ أي : بأمره .

قوله : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ : أي : لا يحيط الخلق بشيء من علمه إلا بما شاء أن يعلمهم إياه ويطلعهم عليه كما قال سبحانه عن الملائكة : ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢] .

قوله : « ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ » : أي : ملأ وأحاط ، والكرسي مخلوق عظيم وهو موضع القدمين للَّه سبحانه وتعالى ، كما يروي عن ابن عباس وغيره ، وقد قيل : إنه العرش ، والصحيح أنه غيره ، كما روى ابن أبي شيبة والحاكم وقال : إنه على شرط الشيخين عن ابن عباس في قوله : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أنه قال : الكرسي موضع القدمين ، والعرش لا يقدر قدره إلا اللَّه ، وقد روي مرفوعًا ، والصواب : أنه موقوف علَى ابن عباس ، وذكر ابن جرير عن أبي ذر : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديث ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض »[2] وأما ما زعمه بعضهم أن معنى ﴿كُرْسِيُّهُ﴾ علمه ونسبه إلى ابن عباس فليس

---

(١) مسلم (١٧٩) ، وأحمد (٤/٤٠٥) من حديث أبي موسى رضي الله عنه .

(٢) ابن حبان (٣٦١) ، وأبو نعيم في الحلية (١/١٦٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (١٠٩) .

بصحيح ، بل هو من كلام أهل البدع المذموم ، وإنما هو كما قال غير واحد من السلف : الكرسي بين العرش كالمرقاة إليه .

قوله : « ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ » : أي : لا يكرثه ولا يثقله ولا يعجزه حفظهما ، أي : حفظ السماوات والأرض وما بينهما ، بل عليه سهل يسير ، وهذا النفي في قوله : ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ لثبوت كمال ضده ، وكذلك كل نفي يأتي في صفات الله ، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك .

قوله : « ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ » : (ال) في قوله : ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ للشمول والاستغراق ، فله- سبحانه- العلو الكامل من جميع الوجوه : علو القدر ، وعلو القهر ، وعلو الذات ، كما تواترت بذلك الأدلة ، وطابق على ذلك دليل العقل ، فدليل العلو عقلي ونقلي ، وهو من الصفات الذاتية كصفة الفوقية ، فوصفه- سبحانه- بالعلو يجمع معاني العلو جميعًا : علو القهر ، أي أنه - سبحانه- علا كل شيء ، بمعنى : أنه قاهر له قادر عليه متصرف فيه ، كما قال سبحانه : ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون : ٩١] وعلو القدر ، أي : أنه عال عن كل عيب ونقص ، فهو عال عن ذلك منزه عنه ، كما قال سبحانه : ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون : ٩١] الآية ، وفي دعاء الاستفتاح : « وتعالى جدك »[1] . وعلو الذات ، أي : أنه- سبحانه- عال على الجميع فوق عرشه ، فتبين أن أنواع العلو ثلاثة ، وأن اسمه العلي يتضمن اتصافه بجميع صفات الكمال والتنزيه له- سبحانه- عما ينافيها من صفات النقص . انتهى من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية .

قوله : « ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ » :

* أي : أنه لا أعظم منه ولا أجل ، لا في ذاته ولا في أسمائه وصفاته وأفعاله ، فهذه الآية اشتملت على فوائد عظيمة :

الأولى : إثبات ألوهيته سبحانه وانفراده بذلك ، وبطلان ألوهيته كل من سواه .

الثانية : إثبات صفة الحياة لها سبحانه وتعالى ، الحياة التامة الدائمة التي لا يلحقها فناء ولا اضمحلال ، فهي صفة ذاتية تواطأ على إثباتها النقل والعقل .

الثالث : إثبات صفة القيوم ، أي : قيامه بنفسه وقيامًا بتدبير أمور خلقه ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ﴾ [الرعد : ٣٣] ، وهذان الاسمان ؛ أعني : الحي القيوم ذكرا معًا في ثلاثة مواضع في القرآن ، وهما من أعظم أسماء الله وصفاته ، وورد أنهما الاسم الأعظم ، فإنهما متضمنان لصفات الكمال أعظم تضمن ، فالصفات الذاتية كلها ترجع إلى اسم الحي ، والصفات

---

(١) أبو داود (٧٧٥) ، والنسائي (٨٩٩) ، وأحمد (٣/ ٥٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه . وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (٢٩٩٦) .

الفعلية ترجع إلى اسم القيوم ، ويدل القيوم على معنى الأزلية والأبدية وعلى قيامه بذاته وعلى قيام كل شيء به ، وعلى أنه موجود بنفسه ، وهذا معنى كونه واجب الوجود .

الرابعة : تنزيهه- سبحانه- عن صفات النقص ، كالسنة والنوم والعجز والفقر ونحو ذلك وهو تأكيد للقيوم ؛ لأن من جاز عليه السنة والنوم استحال أن يكون قيومًا .

الخامسة : سعة ملكه سبحانه وتعالى ، له ما في السماوات والأرض ملكًا وعبيدًا تحت قهره وسلطانه .

السادسة : فيه دليل على عظمته وسلطانه ، وإن أحدًا لا يشفع عنده إلا بعد إذنه سبحانه ورضاه عن المشفوع له .

السابعة : فيه إثبات الشفاعة بقيودها ، وهو إذن اللّه للشافع أن يشفع ورضاه عن المشفوع له .

الثامنة : فيه الرد على المشركين الذين يزعمون أن أصنامهم تشفع لهم ، فظهر أن الشفاعة تنقسم إلى قسمين : شفاعة منفية ، وشفاعة مثبتة .

التاسعة : فيه إثبات صفة الكلام للّه سبحانه وأن يتكلم متى شاء، إذا شاء وأنه يتكلم- سبحانه- بحرف وصوت يليقان بجلاله وعظمته ، وأن كلامه- سبحانه- يسمع لقوله : ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [الحج : ٦٥] .

العاشر : فيها إثبات صفة العلم للّه سبحانه وإحاطته بكل معلوم ، وأنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون .

الحادي عشر : في ذكر إحاطة علمه- سبحانه- بالماضي والمستقبل إشارة إلى أنه لا ينسى ولا يغفل ، ولا يحدث له علم ولا يتجدد .

الثاني عشر : فيه الرد على القدرية والرافضة ونحوهم الذين يزعمون أن اللّه لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها ، والرد على من زعم أن اللّه لا يعلم إلا الكليات ، تعالى اللّه عن قولهم .

الثالث عشر : فيها اختصاصه بالتعليم ، وأن الخلق لا يعلمون إلا ما علمهم ، كما قالت الملائكة : ﴿سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة : ٣٢] .

الرابع عشر : فيه إثبات عظمته- سبحانه- بعظمة مخلوقاته ، فإذا كان عظمة كرسيه هذه العظمة التي جاءت بها الأدلة ، فمن باب أولى أن يكون الخلق أعظم وأجل .

الخامس عشر : فيها إثبات الكرسي وعظمته وأنه مخلوق للّه سبحانه وتعالى والرد على من زعم أن كرسيه علمه .

السادس عشر : فيه إثبات صفة المشيئة للّه سبحانه .

السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر : فيه إثبات عظمته واقتداره ، وفيه إثبات السماوات وتعددها ، وإثبات علوه- سبحانه- على خلقه ، وإثبات عظمته- سبحانه- ذاتًا وصفاتًا وأفعالًا .

قال ابن القيم ﷺ : قرن بين هذين الاسمين الدالين على علوه وعظمته- سبحانه- في آخر آية « الكرسي » ، وفي سورة « الشورى » ، وفي سورة « الرعد » ، وسورة « سبأ » .

ففي آية « الكرسي » ذكر الحياة التي هي أصل جميع الصفات ، وذكر معها قيوميته المقتضية لدوامه وبقائه وانتفاء الآفات جميعها عنه من السنة والنوم والعجز وغيرها ، ثم ذكر كمال ملكه ، ثم عقبه بذكر وحدانيته في ملكه ، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ، ثم ذكر سعة علمه وإحاطته ، ثم عقبه بأنه لا سبيل للخلق إلى علم شيء من الأشياء إلا بعد مشيئته لهم أن يعلموه ، ثم ذكر سعة كرسيه منبهًا على سعته سبحانه وعظمته وعلوه ، وذلك توطئة بين يدي علوه وعظمته ، ثم أخبر عن كمال اقتداره وحفظه للعالم العلوي والسفلي من غير اكتراث ولا مشقة ولا تعب ، ثم ختم الآية بهذين الاسمين الجليلين الدالين على علو ذاته وعظمته . انتهى من « الصواعق » .

قوله : « ولهذا كان من قرأ هذه الآية في ليلة ، لم يزل عليه من اللَّه حافظ ، ولا يقربه شيطان » :

* هذا الحديث في « صحيح البخاري » ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : وكلني رسول اللَّه ﷺ بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته وقلت : لأرفعنك إلى رسول اللَّه ﷺ . قال : دعني فإني محتاج وعلي عيال ، لا أعود . فرحمته وخليت سبيله ، فأصبحت ، فقال لي رسول اللَّه : « يا أبا هريرة ، ما فعل أسيرك البارحة ؟ » . قلت : يا رسول اللَّه ، شكا حاجة وعيالًا فرحمته وخليت سبيله . قال : « أما أنه قد كذبك وسيعود » . فعرفت أنه سيعود لقول النبي ﷺ : « إنه سيعود » . فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت : لأرفعنك إلى رسول اللَّه ﷺ . قال : دعني فإني محتاج وعلي عيال لا أعود ، فرحمته وخليت سبيله ، فأصبحت فقال رسول اللَّه : « ما فعل أسيرك البارحة ؟ » . فقلت : يا رسول اللَّه شكا عيالًا وحاجة فرحمته فخليت سبيله . قال : « أما إنه قد كذبك وسيعود » . فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت : لأرفعنك إلى رسول اللَّه ﷺ وهذه آخر ثلاث مرات تزعم فيها أنك لا تعود ثم تعود . فقال : دعني أعلمك كلمات ينفعك اللَّه بها ، قلت : وما هي ؟ فقال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية « الكرسي » : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة : ٢٥٥] حتى تختم الآية ، فإنك لن يزال عليك من اللَّه حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح . وكانوا أحرص شيء على الخير ، فقال النبي ﷺ : « أما أنه قد صدقك وهو كذوب ، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال ؟ » . قلت : لا . قال : « ذاك الشيطان » . كذا رواه البخاري معلقًا بصيغة الجزم ، وقد رواه النسائي في « اليوم [illegible] » عن إبراه[illegible]ن يعقوب عن عثمان بن الهيثم فذكره ، وقد روي عن أبي

هريرة بسياق آخر قريب من هذا .

قوله : « لم يزل عليه من حافظ » ؛ أي : يحفظه من الشياطين وغيرهم ، وفي رواية : « إذا قلتهن لم يقربك ذكر ولا أنثى من الإنس ولا من الجن » ، وفي حديث علي رضي الله عنه عن رسول اللَّه ﷺ : « من قرأها- يعني آية « الكرسي »- حين يأخذ مضجعه آمنه اللَّه على داره ودار جاره وأهل دويرات حوله » . رواه البيهقي في « شعب الإيمان » .

قوله : « شيطان » : الشيطان يطلق على كل متمرد من الجن والإنس ، من شطن إذا بعد لبعده عن رحمة اللَّه ، أو من شاط يشيط إذا هلك واحترق .

في هذا الحديث فضل آية « الكرسي » وعظم منفعتها وتأثيرها العظيم في التحرز من الشيطان ، وذلك لما اشتملت عليه من العلوم والمعارف ؛ ولذلك إذا قرأها الإنسان عند الأحوال الشيطانية بصدق أبطلتها ، مثل من يدخل النار بحال شيطاني ، أو يحضر المكاء والتصدية وتنزل عليه الشياطين ، وتتكلم على لسانه كلامًا لا يعلم ، وربما لا يفقه ، وربما كاشف بعض الحاضرين بما في قلبه إلى غير ذلك من الأحوال الشيطانية ، فأهل الأحوال الشيطانية تنصرف عنهم شياطينهم إذا ذكر عندهم ما يطردها مثل آية الكرسي ؛ أشار إلى ذلك الشيخ تقي الدين في كتابه « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » .

قوله : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد : ٣] : قوله : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ ؛ أي الذي ليس قبله شيء كما فسره بذلك رسول اللَّه ﷺ فقال : « اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء »(١) رواه مسلم ، فهو - سبحانه- أول ليس له بداية ، وأما القديم فقد ذكره بعض المتكلمين في أسماء اللَّه ، والصواب أنه ليس من أسمائه سبحانه بذلك ؛ ولأن القدم ينقسم إلى قسمين :

قدم حقيقي وقدم نسبي ، فالقدم الحقيقي : هو الذي لم يسبقه عدم ، والنسبي : هو قدم بعض المخلوقات على بعض ، كما قال سبحانه : ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس : ٣٩] ، وقد تقدم الأصل الذي ذكره ابن القيم : أن الصفة إذا كانت منقسمة إلى كمال ونقص لم تدخل بمطلقها في أسمائه الحسنى ، وذكر أن باب الإخبار عنه- سبحانه- أوسع من باب الأسماء والصفات ، وذكر أنه يخبر عنه- سبحانه- بالقديم ولا يسمى به وقال في « النونية » .

وهو القديم فلم يزل بصفاته ... سبحانه متفردًا بل دائم الإحسان

---

(١) مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

قوله : ﴿وَٱلْآخِرُ﴾ ؛أي : الذي ليس بعده شيء .

قوله : ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ ؛أي : العالي المرتفع الذي ليس فوقه شيء ، ولا ريب أنه ظاهر بذاته فوق كل شيء ، فالظهور هنا هو العلو ، كما قال تعالى : ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف : ٩٧] ، ولا يصح أن يحمل الظهور على الغلبة ؛ لأنه قابله بقوله وأنت الباطن .

قوله : ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ ؛أي : الذي ليس دونه شيء كما فسره الرسول : بطن سبحانه بعلمه فلا يحجبه شيء ، قال ابن القيم : فهذه الأسماء الأربعة متقابلة ؛ اسمان لأزليته وأبديته سبحانه ، واسمان لعلوه وقربه ، فأوليته سبحانه سابقة على أولية كل ما سواه ، وآخريته سبحانه ثابتة بعد آخرية كل ما سواه ، فأوليته سبقه لكل شيء ، وظاهريته : فوقيته وعلوه على كل شيء ، ومعنى الظهور يقتضي العلو ، وظاهر الشيء هو ما علا منه وأحاط بباطنه ، وبطونه- سبحانه- إحاطته بكل شيء بحيث يكون أقرب إليه من نفسه ، وهذا قرب الإحاطة العامة .

وأما القرب المذكور في الكتاب والسنة فقرب خاص من عابديه وسائليه ، وهو ثمرة التعبد باسمه الباطن .

ذكر البيهقي عن مقاتل قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد : ٣] هو الأول قبل كل شيء والآخر بعد كل شيء ، والظاهر فوق كل شيء ، والباطن أقرب من كل شيء ، وإنما القرب بعلمه وقدرته وهو فوق عرشه وهو بكل شيء عليم . اهـ .

قوله : ﴿عَلِيمٌ﴾ :جاء على بناء فعيل للمبالغة في وصفه بكمال العلم والإحاطة بكل شيء علمًا فهو من الصفات الذاتية ، فهذه الآية أفادت أولويته- سبحانه- وسبقه لكل مخلوق وأنه لا شيء قبله ، كما أفادت دوامه وبقاءه وآخريته ، وأنه لا شيء بعده ، وأفادت علوه وارتفاعه وفوقيته سبحانه ، وأفادت قربه ودنوه وإحاطته وسعة علمه ، وأنه لا يخفى عليه شيء ، وفيه الرد على المعتزلة والرافضة الذين يزعمون أن الله لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها ، والرد على من يزعم أنه يعلم الكليات دون الجزئيات .

قوله : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ :الآية ، أي : فوض أمورك إليه ، فمن توكل عليه كفاه وشفاه ويسر له كل شديد وقرب له كل بعيد ، قال تعالى : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق : ٣] ، والتوكل لغة : التفويض ، يقال : وكلت أمري إلى فلان أي : فوضته ، وحقيقته شرعًا : هو صدق اعتماد القلب على الله في جلب ما ينفع ودفع ما يضر ، ومن أسمائه- سبحانه- الوكيل ، ومعناه : الكافي لعبده والقائم بأموره ومصالحه ، وأما حكم التوكل ، فهو فرض لهذه الآية ولغيرها من الأدلة ، وهو لا ينافي الأخذ بالأسباب بل يجامعه ، كما في حديث عمر رضي الله عنه الذي رواه أحمد والترمذي والنسائي وا[بن ما]جه وابن حبا[ن وا]لحاكم أن النبي ﷺ قال : « لو أنكم توكلتم على الله حق

توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصًا وتروح بطانًا » (١) رواه الترمذي ، وقال : حسن صحيح ، وخرج الترمذي من حديث أنس قال : قال رجل : يا رسول اللَّه ، أعقلها وأتوكل ، أو أطلقها وأتوكل ، فقال : « اعقلها وتوكل » (٢).

وذكر عن يحيى القطان أنه قال : هو عندي حديث منكر ، ففيه إشارة إلى أن التوكل لا ينافي الإتيان بالأسباب بل يكون جمعهما أفضل ، كما روي أن عمر لقي أناسًا من أهل اليمن فقال : من أنتم ؟ فقالوا : نحن المتوكلون ، قال : بل أنتم المتأكلون ، إنما المتوكل الذي يلقي حبه في الأرض ويتوكل على اللَّه . ذكره ابن رجب .

قال ابن القيم في « المدارج » : أجمع القوم على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب ، فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها ، وإلا فهو بطالة ، وتوكل فاسد ، وقال سهل بن عبد اللَّه : من طعن في الحركة فقد طعن في السنة ، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان ، فالتوكل حال النبي ﷺ والكسب سنته ، فمن عمل على حاله ، فلا يتركن سنته .

والتوكل ينقسم إلى قسمين :

الأول : توكل على اللَّه فهو من أشرف أعمال القلوب وأجلها .

والثاني : التوكل على غيره سبحانه ، وينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : التوكل على غير اللَّه في الأمور التي لا يقدر عليها إلا اللَّه ، كالتوكل على الأموات والطواغيت في رزق أو نصر أو نفع أو ضر ونحو ذلك ؛ فهذا شرك أكبر .

الثاني : التوكل في الأسباب الظاهرة ، كمن توكل على أمير أو سلطان فيما أقدره اللَّه عليه من رزق أو دفع أذى ونحو ذلك ، فهذا النوع شرك أصغر .

الثالث : توكيل الإنسان غيره في فعل ما يقدر عليه نيابة عنه ، فهذه الوكالة الجائزة ، لكن ليس له أن يعتمد عليه ، بل يتوكل على اللَّه في تيسير أمره ، وذلك من جملة الأسباب الجائزة ، فهذه الآية أفادت الحث على التوكل على اللَّه ، وتعليق الأمل به - سبحانه - دون غيره ، كما أفادت وجوب التوكل على اللَّه ؛ إذ مطلق الأمر يقتضي الوجوب ، وأفادت إثبات صفة الحياة الكاملة للَّه سبحانه وتعالى .

---

(١) الترمذي (٢٣٤٤) ، وأحمد (١/ ٣٠) ، والطيالسي (٥١) ، من حديث عمر رضي الله عنه . وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (٣١٠) .

(٢) الترمذي (٢٥١٧) ، وأبو نعليم في الحلية (٨/ ٣٩٠) من حديث أنس رضي الله عنه . وحسنه الألباني في « جامع الترمذي » (٢٥١٧) .

قوله : ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ :

« الحكيم » ؛ أي : الحاكم بين خلقه بأمره الديني الشرعي وأمره الكوني القدري الذي له الحكم في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى : ١٠] ، وقال تعالى : ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء : ٥٩] ، فهو- سبحانه- الحكم والحاكم بين خلقه في الدنيا والآخرة ، يحكم سبحانه وتعالى في الدنيا بوحيه الذي أنزله على الأنبياء والرسل ، ويحكم يوم القيامة إذا نزل لفصل القضاء بين العباد ، والحكيم : المحكم المتقن للأشياء ، الذي يضع الأشياء ، مواضعها والذي له الحكمة التامة في خلقه وأمره فعليه يكون للحكيم معنيان :

الأول : بمعنى المحكم المتقن للأشياء ، والإحكام يكون في شرعه وأمره ، وفي خلقه وقدره ، وكل منهما محكم من وجهين :

الأول : وجوده على صورته المعينة .

الثاني : في غايته المحمودة التي يترتب عليها .

وأما حكمه سبحانه وتعالى فينقسم إلى قسمين :

الأول : حكم كوني قدري ، كقوله : ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ [يوسف : ٨٠] .

الثاني : حكم ديني شرعي ، كقوله : ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [المائدة : ١] إلى قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة : ١] .

والحكمة : وضع الأشياء مواضعها .

قال ابن القيم في « المدارج » : الحكمة حكمتان علمية ، وعملية ، فالعلمية : الاطلاع على بواطن الأشياء ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها خلقًا وأمرًا ، قدرًا وشرعًا ، والعملية : وضع الشيء في موضعه . انتهى .

وحكمته- سبحانه- صفة قائمة به كسائر صفاته من سمعه وبصره وعلمه وقدرته ونحو ذلك ، وهي تنقسم إلى قسمين :

إحداهما : حكمة في خلقه وهي نوعان :

الأول : إحكام هذا الخلق وإيجاده في غاية الإحكام والإتقان .

والثاني : صدوره لأجل غاية محمودة مطلوبة له سبحانه التي أمر لأجلها وخلق لأجلها .

الثانية : الحكمة في شرعه ، وتنقسم- أيضًا - إلى قسمين :

الأول : كونها في غاية الإحسان والإتقان .

والثاني : كونها صدرت لغاية محمودة وحكمة عظيمة يستحق عليها الحمد .

قال في « المنهاج » : أجمع المسلمون على وصفه- سبحانه- بالحكمة وتنازعوا في تفسير ذلك فقال : الجمهور من أهل السنة وغيرهم : هو حكيم في خلقه وأمره ، والحكمة تتضمن ما في خلقه وأمره من العواقب المحمودة والغايات المحبوبة ، والجمهور يقولون : لام التعليل داخلة في أفعال اللَّه وأحكامه . انتهى .

فاسمه الحكيم فيه إثبات الحكمة ، والحكمة تتضمن كمال علمه وخبرته ، وأنه أمر ونهي وخلق وقدر لما له في ذلك من الحكم والغايات الحميدة التي يستحق عليها كمال الحمد ، والإحكام الذي في مخلوقاته دليل على علمه ، وإنما يدل إذا كان الفاعل حكيمًا يفعل الحكمة . انتهى من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية .

والحكم معناه لغة : المنع ، وشرعًا : هو خطاب اللَّه المتعلق بأفعال المكلفين اقتضاء أو تخييرًا ، وينقسم الحكم بالنسبة إلى الرضا به وعدمه إلى أقسام : قسم يجب الرضا به والانقياد والاستسلام له ، وهو الحكم الديني الشرعي ، قال تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء : ٦٥] الآية .

وأما الحكم الكوني القدري فمنه ما يستحب الرضا به ، كالرضا بالكفر والمعصية ونحو ذلك .

وأما اسمه – سبحانه – الخبير ، فمعناه الذي انتهى علمه إلى الإحاطة ببواطن الأشياء وخفاياها كما أحاط بظواهرها . انتهى من « الصواعق » .

يقال : خبرت الأمر أخبره : إذا عرفته على حقيقته .

قوله : ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ : ٢] :

قوله : ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ﴾ ، أي : يدخل ، قال : ولج يلج ، أي : دخل يدخل ، أي : يعلم ما يدخل فيها ، أي : في الأرض من القطر والبذور والكنوز والموتى وغير ذلك .

قوله : ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ : أي : من الأرض من النبات والمعادن .

قوله : ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ : من المطر والملائكة .

قوله : ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ : أي : ما يصعد في السماء .

قوله : « ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ » : سيأتي الكلام على المعية .

قوله : ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام : ٥٩] :

قوله : ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ : أي : خزائنه أو الطرق الموصلة إلى علمه .

قوله : ﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ : قال المناوي رحمه الله : فمن ادعى علم شيء منها كفر ، ومفتاح الغيب هي الخمسة المذكورة في قوله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان : ٣٤] ، كما رواه البخاري في « صحيحه » .

قوله : ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ﴾ : أي : القفار من النبات والدواب وغير ذلك .

قوله : ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ ؛ أي : يعلم ما فيه من الحيوانات والجواهر ونحو ذلك .

قوله : ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾ ؛ أي : من أشجار البر والبحر وغير ذلك .

قوله : ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ : سبحانه .

قوله : ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ : من حبوب الثمار والزروع وغير ذلك .

قوله : ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ : هذا عموم بعد خصوص .

قوله : ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ : أي : مكتوب في اللوح المحفوظ ؛ لأن الله كتب علم ما يكون وما قد كان قبل أن يخلق السماوات والأرض ، فجميع الأشياء صغيرها وكبيرها مثبتة في اللوح المحفوظ على ما هي عليه ، فتقع جميع الحوادث طبق ما جرى به القلم ، وهذا أحد مراتب القضاء والقدر ، فإنها أربع مراتب : علمه- سبحانه- الشامل لجميع الأشياء ، وكتابه المحيط بجميع الموجودات ، ومشيئته العامة الشاملة لكل شيء ، وخلقه لجميع المخلوقات ، وسيأتي الكلام على هذا إن شاء الله في الكلام على القدر .

ففي هذه الآية إثبات صفة العلم لله سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته وهي من الصفات الذاتية ، وفيها الرد على المعتزلة حيث قالوا : إنه عالم بلا علم ، وفيها إثبات إحاطة علمه بكل شيء فلا يخفى عليه خافية ، وأنه يعلم الكليات والجزئيات ، ويعلم كل شيء ، ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، كما قال سبحانه : ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال : ٢٣] ، وقال تعالى : ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام : ٢٨] ، وفي هذه الآية الرد على من زعم أن رسول الله ﷺ يعلم الغيب فهي صريحة في أن هذه الأسماء الخمسة لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى كما تقدم الحديث الذي في « الصحيحين » أنه ﷺ قال : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ...: لا يعلم ما في الأرحام إلا الله »[1] الحديث .

---

(١) البخاري (٤٤٢٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

وقال القرطبي رحمه الله : لا مطمع لأحد في علم شيء من هذه الأمور الخمسة . اهـ ، والمراد بالغيب المشار إليه هو : الغيب المطلق وهو ما لا يعلمه إلا اللَّه ، لا الغيب المقيد : وهو ما علمه بعض المخلوقات دون بعض فهو غيب بالنسبة لمن لم يعلمه دون من علمه فيكون غيبًا عمن غاب عنه من المخلوقين لا عمن شهده ، فتلخص أن الغيب ينقسم إلى قسمين : مطلق ، ومقيد .

قوله : ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ : ﴿وَمَآ﴾ مصدرية ، أي : أنه- سبحانه - يعلم في أي يوم تحمل وفي أي يوم تضع ، وهل هو ذكر أو أنثى ، ففي هذه الآية إثبات صفة العلم كما تقدم ، وقد تواطأت الأدلة على إثبات هذه الصفة عقلًا ونقلًا ، وفيها سعة علمه سبحانه ، وأنه منفرد بعلم ما في الأرحام وعلم مدة إقامته فيه ، وهذا أحد أنواع الغيب الذي يعلمها إلا اللَّه .

قوله : ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ :

* هذه الآية فيها إثبات صفة القدرة للَّه سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله ، فجميع الأشياء منقادة لقدرته تابعة لمشيئته سبحانه ، و﴿قَدِيرٌ﴾ فعيل ، بمعنى : فاعل ، بمعنى : القادر ، وهي من الصفات الذاتية ، كما ذكره في « الفتح » قال ابن بطال : القدرة من صفات الذات ، والقوة والقدرة بمعنى واحد . انتهى .

وأما المقتدر فمعناه التام القدرة الذي لا يمتنع عليه شيء ، قال أحمد رحمه الله : « القدرة قدرة اللَّه » ، واستحسن ابن عقيل هذا من أحمد ، والمعنى : أنه لا يمنع من قدرة اللَّه شيء ، ونفاة القدر قد جحدوا كمال قدرة اللَّه سبحانه ، وقد قال بعض السلف : ناظروهم بالعلم ، فإن أقروا به خصموا وإن جحدوه كفروا ، وقد استدل العلماء على إثبات القدرة بشمول القدرة والعلم ، فقوله سبحانه : ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك : ١] عام يتناول كل شيء ، فيدخل فيه أفعال العباد من الطاعات والمعاصي ، فإنها داخلة تحت قدرة اللَّه ومشيئته ، وكما أنه المريد لها القادر عليها هم الفاعلون لها الواقعة بقدرتهم ومشيئتهم ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير : ٢٨، ٢٩] .

والقدرية تنكر دخول أفعال خلقه تحت قدرته ومشيئته وخلقه ، فهم في الحقيقة منكرون لكمال عزته وملكه ، قال ابن القيم رحمه الله في « الكافية الشافية » :

وهو القدير لكل شيء فهو مقـ	ـدور له طوعًا بلا عصيان
وعموم قدرته تدل بأنه	هو خالق الأفعال للحيوان
هي خلقه حقًّا وأفعال لهم	حقًّا ولا يناقض الأمران
فحقيقة القدر الذي حار الورى	في شأنه هو قدرة الرحمن

واستحسن ابن عقيل ذا من أحمد لما حكاه عن الرضا الرباني
قال الإمام شفى القلوب بلفظة ذات اختصار وهي ذات معان

فهو- سبحانه- خالق كل شيء وربه ومليكه لا خالق غيره ولا رب سواه ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، فكل ما في الوجود من حركة أو سكون فبقضائه وقدره ومشيئته وخلقه ، وهو- سبحانه- أمر بطاعته وطاعة رسوله ، ونهى عن معصيته ومعصية رسوله ، ولا يتناقض الأمران خلافًا لأهل البدع .

قوله : قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ :

* فلا يخرج حادث من الأعيان والأفعال عن قدرته وخلقه كما لا يخرج عن علمه ومشيئته .

تنبيه : يجيء في كلام بعض الناس « وهو على ما يشاء قدير ، وليس ذلك بصواب ، بل الصواب ما جاء في الكتاب والسنة ، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك : ١] ، لعموم قدرته ومشيئته خلافًا لأهل البدع من المعتزلة وغيرهم .

قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات : ٥٨] :

قوله : « الرزاق » : فعال من أبنية المبالغة ، ومعناه : الذي أعطى الخلائق أرزاقها وساقها إليهم ، والرزق بالفتح : العطاء ، وبالكسر لغة : الحظ والنصيب ، وشرعًا : هو ما ينفع من حلال أو حرام .

وينقسم الرزق إلى قسمين :

الأول : الرزق المطلق : وهو المستمر نفعه في الدنيا والآخرة ، وهو رزق القلوب العلم والإيمان والرزق الحلال .

الثاني : مطلق الرزق : وهو الرزق العام لسائر الخليقة برها وفاجرها وبهائمها وغيرها وهو سوق القوت لكل مخلوق ، وهذا يكون من الحلال والحرام ، والله رازقه ، قال تعالى : ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ الآية [هود : ٦] .

قوله : ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ ؛ أي : صاحب القوة التامة الذي لا يعتريه ضعف وهو بمعنى العزيز ، انتهى . والقوة من صفات الذات ، وهو بمعنى القدرة ، لم يزل- سبحانه- ذا قوة وقدرة ، والمعنى في وصفه بالقوة : أنه القادر البليغ الاقتدار على كل شيء . انتهى من « الفتح » .

قوله : ﴿الْمَتِينُ﴾ ؛ أي : الذي له كمال القوة ، قال البيهقي : القوي التام القدرة لا ينسب إليه عجز في حال من الأحوال . انتهى . فهذه الآية فيها إثبات صفة الرزاق ، وهي من الصفات الفعلية ، وفيها إثبات صفة القوة ، وهي من الصفات الذاتية .

قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ :

* هذه الآية قد تقدم الكلام عليها .

قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء : ٥٨] :

* « نعم » من ألفاظ المدح و« ما » قيل : نكرة موصوفة ، كأنه قيل : نعم شيئًا يعظكم به ، أو موصولة ، أي : نعم الشيء الذي يعظكم به .

قوله : ﴿يَعِظُكُم﴾ : أي : يأمركم به من أداء الأمانات والحكم بين الناس بالعدل .

قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ : أي : أنه سبحانه سميع لما تقولون ، وبصير بما تفعلون ، فهذه الآية ، وما قبلها من الآيات تدل على إثبات السمع والبصر للّه حقيقة كما يليق بجلال اللّه وعظمته ، وفيه دليل على أن صفة السمع غير صفة البصر ؛ إذ العطف يقضي المغايرة ، فالصفات بالنظر ، إلى الذات مترادفة ؛ لأنها كلها صفة لذات واحدة ، وبالنظر إلى الصفات متباينة ؛ لأن كل صفة غير الصفة الأخرى ، فالسمع غير البصر وكذلك العلم وهلم جرا .

عن أبي هريرة رضي الله عنه : « أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية ويضع إبهامه على أذنه ، والتي تليها على عينيه ، ويقول : هكذا سمعت رسول اللّه ﷺ يقرأها ويضع إصبعيه »(١) ، رواه أبو داود ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في مستدركه .

وعمل النبي ﷺ هذا دليل على إثبات هاتين الصفتين ، وأنهما غير صفة العلم وإلا لأشار إلى صدره ، ووضعه إبهاميه تحقيقًا لصفة السمع والبصر ، وأنهما حقيقة لا مجاز خلافًا لأهل البدع .

قوله : ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف : ٣٩] :

قوله : ﴿وَلَوْلَآ﴾ ؛ أي : وهلا .

قوله : ﴿إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ ؛ أي : هلا قلت حين دخلت بستانك .

قوله : ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ : « ما » موصولة ، أي : الأمر ما شاء اللّه إقرارًا بمشيئته ، أي : أنه إن شاء أبقاها ، وإن شاء أفناها ، واعترافًا بالعجز ، وأن القدرة للّه سبحانه .

قال بعض السلف : من أعجبه شيء فليقل : ما شاء اللّه لا قوة إلا باللّه ، وفي هذه الآية وصفه سبحانه بالقوة وإثبات المشيئة له الشاملة العامة ، فما وقع من شيء فقد شاءه وأراده ، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه .

قوله : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ :

أي : لو شاء سبحانه عدم اقتتالهم لم يقتتلوا ؛ إذ لا يجري في ملكه إلا ما شاء سبحانه ، فهذه الآية فيها إثبات المشيئة للّه سبحانه وتعالى ، وأن ما شاءه لا بد من وقوعه ، فكل ما وجد فهو بمشيئته

---

(١) أبو داود (٤٧٢٨) ، وابن حبان (٢٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « سنن أبي داود » (٤٧٢٨) .

سبحانه لا راد لأمره ولا معقب لحكمه ، وهذا يبطل قول المعتزلة ؛ لأنه أخبر أنه لو شاء أن يقتتلوا لم يقتتلوا ، وهم يقولون : شاء أن لا يقتتلوا فاقتتلوا ، والأدلة على بطلان قول المعتزلة كثيرة جدًا ، ومن أضل سبيلًا وأكفر ممن يزعم أن اللَّه شاء الإيمان من الكافر ، والكافر شاء الكفر ، فغلبت مشيئة الكافر مشيئة الله- تعالى اللَّه عن قولهم- وفيها إثبات الفعل حقيقة للَّه كما يليق بجلاله ، وأن القدرة عليه صفة كمال وأنه- سبحانه- لم يزل فعالًا لما يريد ولم يزل ولا يزل موصوفًا بصفات الكمال ، والفعل من لوازم الحياة ، والرب لم يزل حيًا فلم يزل فعالًا ، وأفعاله سبحانه كصفاته قائمة به ، ولولا ذلك لم يكن فعالًا ولا موصوفًا بصفات الكمال ، فأفعاله سبحانه نوعان : لازمة ، ومتعدية كما دلت على ذلك النصوص التي لا تحصى وهي أفعال حقيقية وليس مجازًا ، وليست كأفعال خلقه ، فصفاته تليق به سبحانه . انتهى من كلام شيخ الإسلام باختصار .

قال ابن القيم رحمه الله : قوله : ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود : ١٠٧] دليل على أمور :

أحدها : أنه سبحانه يفعل بإرادته ومشيئته .

الثاني :أنه لم يزل كذلك ؛ لأنه ساق ذلك في معرض المدح والثناء على نفسه وأن ذلك من كماله فلا يجوز في وقت من الأوقات أن يكون عادمًا لهذا الكمال ، وما كان من أوصاف كماله ونعوت جلاله لم يكن حادثة بعد أن لم يكن .

الثالث :أنه إذا أراد شيئًا فعله ، فإن « ما » موصولة عامة ، أي : يفعل كل ما يريد أن يفعله ، وهذا في إرادته المتعلقة بفعله ، وأما إرادته المتعلقة بفعل العبد فلها شأن آخر ، فإن هنا إرادتين : إرادة أن يفعل العبد ، وإرادة أن يجعله الرب فاعلًا ، وليستا متلازمتين وإن لزم من الثانية الأولى من غير عكس .

الرابع :إن إرادته وفعله متلازمتان ، فما أراد أن يفعله فعله وما فعله فقد أراده ، بخلاف المخلوق ، فما ثم فعال لما يريد إلا اللَّه .

الخامس :إثبات إرادات متعددة بحسب الأفعال وأن كل فعل له إرادة تخصه ، هذا هو المعقول في الفطر .

السادس : إن كل ما صلح أن تتعلق به إرادته جاز فعله .

قوله : ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة : ١] :

قوله : ﴿وَأُحِلَّتْ﴾ ؛أي : أبيحت .

قوله : ﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ ؛أي : الإبل والبقر والغنم سميت بهيمة ؛ لأنها لا تتكلم ، وأما النعم فهي الإبل خاصة .

قوله : ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ ؛أي إلا ما يتلى عليكم تحريمه في قوله سبحانه : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ [المائدة : ٣] الآية .

قوله : ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ : «غير» نصب على الحال ، ومعنى الآية : أحلت لكم بهيمة الأنعام كلها إلا ما كان منها وحشيًا فإنه صيد لا يحل لكم في حال الإحرام .

قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ ؛أي : يحكم ما يريد من التحليل والتحريم لا اعتراض عليه ، فهو الحكم - سبحانه- الحكيم لا حاكم غيره ، فكل حكم سوى حكمه فهو باطل ومردود ، وكل حاكم بغير حكمه وحكم رسوله فهو طاغوت كافر بالله ، قال تعالى : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة : ٤٤] ، وهذا عام شامل فما من قضية إلا ولله فيها حكم : ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام : ٣٨] ، ولا شك أن من أعرض عن كتاب الله وسنة رسوله واعتاض عنها بالقوانين الوضعية أنه كافر بالله .

وكذلك من زعم أنه يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى ، أو زعم أن هدي غير محمد أفضل من هديه ﷺ أو أحسن ، أو زعم أنه لا يسع الناس في مثل هذه العصور إلا الخروج عن الشريعة ، وأنها كانت كافية في الزمان الأول فقط ، وأما في هذه الأزمنة فالشريعة لا تساير الزمن ، ولا بد من تنظيم قوانين بما يناسب الزمن ، لا شك إن اعتقد هذا الاعتقاد أنه قد استهان بكتاب الله وسنة رسوله وتنقصهما فلا شك في كفره وخروجه عن الدين ، وكذلك من زعم أنه محتاج للشريعة في علم الظاهر دون علم الباطن ، أو في علم الشريعة دون علم الحقيقة ، أو أن الإنسان حر في التدين في أي دين شاء من يهودية أو نصرانية أو غير ذلك أو أن هذه الشرائع غير منسوخة بدين محمد ، أو استهان بدين الإسلام أو تنقصه أو هزل به أو بشيء من شرائعه ، أو بمن جاء به ، وكذلك ألحق بعض العلماء الاستهانة بحملته لأجل حمله ، فهذه الأمور كلها كفر ، قال تعالى : ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۞ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة : ٦٦] الآية .

قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ﴾ : فيها إثبات صفة الحكم لله سبحانه وتعالى ، وقد تقدم أن حكمه ينقسم إلى قسمين : كوني ، كما في قوله : ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ [يوسف : ٨٠] ، وشرعي : كما في هذه الآية .

قوله : ﴿مَا يُرِيدُ﴾ : فيه إثبات الإرادة لله سبحان تعالى كما يليق بجلاله ، وكما يليق بجلاله ، وأنه لا يزل مريدًا بإرادات متعاقبة ، فنوع الإرادة قديم ، وأما إرادة الشيء المعين إنما يريده في وقته ، فالإرادة من صفات الفاعل ، وهي تنقسم إلى قسمين : إرادة كونية قدرية ، وهذه مرادفة للمشيئة ، وما

أراده سبحانه كونًا وقدرًا فلا بد من وقوعه ، فهذه الإرادة هي المتعلقة بالخلق وهو أنه يريد سبحانه أن يفعل هو .

الثاني : إرادة شرعية دينية ، وهذه الإرادة المتعلقة بالأمر ، وهي أن يريد من عبده أن يفعل ، وهذه مرادفة للمحبة والرضا ، فتجمع الإرادتان في حق المخلص المطيع ، وتنفرد الإرادة الكونية في حق العاصي ، ومن لم يفرق بين النوعين فقد ضل كالجهمية والقدرية ، فالإرادة الكونية كقوله : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام : ١٢٥] ، والدينية كقوله : ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة : ٦] الآية ، فالمحبة والرضا أخص من الإرادة خلافًا للمعتزلة وأكثر الأشاعرة القائلين إن المحبة والرضا والإرادة سواء ، فأهل السنة يقولون : إن الله لا يحب الكفر والفسوق ولا يرضاه وإن كان قد أراده كونًا وقدرًا ، كما دخلت سائر المخلوقات لما في ذلك من الحكمة وهو وإن كان شرًا بالنسبة إلى الفاعل فليس كل ما كان شرًا بالنسبة إلى شخص يكون عديم الحكمة ، بل لله في بعض المخلوقات حكم قد يعلمها بعض الناس وقد لا يعلمها . انتهى من كلام الشيخ تقي الدين ابن تيمية ، بتصرف .

قوله : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام : ١٢٥] :

قوله : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ ؛ أي : من شاء سبحانه أن يدله ويرشده ويوفقه ويجعل قبله قابلًا للخير هداه سبحانه وتعالى ووفقه ، فهداية القلوب إليه سبحانه يهدي من يشاء بفضله ، ويضل من يشاء بعدله ، فلا تطلب الهداية إلا منه سبحانه فهو الهادي كما قال سبحانه : ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف : ١٧٨] .

وفي الحديث : « كلكم ضالٌ إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم »(١) . وليست هذه الآية معارضة لحديث عياض بن حمار عن النبي ﷺ يقول الله : « خلقت عبادي حنفاء- وفي رواية مسلمين- فاجتالهم الشياطين »(٢) .

فإن الله خلق بني آدم وفطرهم على قبول الإسلام والميل إليه دون غيره والتهيؤ لذلك والاستعداد له بالقوة ، لكن لا بد للعبد من تعليم الإسلام بالفعل ، فإنه قبل التعليم جاهلًا لا يعرف شيئًا ، كما قال سبحانه : ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل : ٧٨] الآية ، فإن هداه الله سبب له من يعلمه الإسلام فصار مهديًا بالفعل بعد أن كان مهديًا بالقوة ، وإن خذله قيض له ما يغير له

---

(١) مسلم (٢٥٧٧) ، والترمذي (٢٤٩٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

(٢) مسلم (٢٨٦٥) ، وأحمد (١٦٢/٤) من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه .

فطرته ، كما قال ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »[1] الحديث .

قوله : ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ ؛ أي : يوسع قلبه للإيمان بأن يقذف في قلبه نورًا فينفسح له ويقبله .

قوله : ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ ؛ أي : ومن شاء سبحانه أن يضله عن الهدى يجعل صدره ضيقًا ، أي : عن قبول الإيمان ، وحرجًا ، أي : شديد الضيق فلا يبقى فيه منفذ للخير ، ومكان حرج ، أي : ضيق كثير الشجر لا تصل إليه الراعية ، والحرج - أيضًا - الإثم .

قوله : ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ ؛ أي : إذا كلف الإيمان كأنما يصعد في السماء لشدته عليه .

قوله : ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ : يقول اللَّه سبحانه : كما يجعل صدر من أراد إضلاله ضيقًا كذلك يسلط عليه الشيطان وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان باللَّه ورسوله فيغويه ويصده عن سبيل اللَّه ، قال ابن عباس : الرجس : الشيطان ، وقال مجاهد : الرجس كل ما لا خير فيه ، وقيل : العذاب ، ففي هذه الآية : إن الهداية والإضلال بيد اللَّه ، وفيها : أن العبد مفتقر إلى ربه في كل شيء ، وأن العباد لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ، وأن من تفرد بخلق العبد ورزقه هو المستحق أن يفرد بالألوهية والعبادة والسؤال ، وأنه ليس عند أحد من هداية القلوب وتفريج الكروب شيء من ذلك لا الأنبياء ولا الملائكة ولا غيرهم ، ففيه الرد على من زعم ذلك للنبي ﷺ فضلًا عن غيره . اهـ .

وفي هذه الآية كغيرها دليل على إثبات العلة والحكمة في أفعال اللَّه ؛ إذ لا يعقل مريد إلا إذا كان المريد قد فعل لحكمة يقصدها بالفعل ، وإثبات الحكمة في أفعاله- سبحانه- هو قول السلف وجمهور المسلمين وجمهور العقلاء ، وقالت طائفة كجهم وأتباعه : أنه لم يخلق شيئًا لشيء ، ووافقه أبو الحسن الأشعري ومن اتبعه وهم يثبتون أنه مريد وينكرون أن له حكمة يريدها وهذا تناقض . انتهى من كلام الشيخ تقي الدين ابن تيمية بتصرف .

وفي هذه الآية كسوابقها إثبات الإرادة للَّه كما يليق بجلاله ، وعلم مما تقدم أن الإرادة تنقسم إلى قسمين ، وأن المشيئة لا تنقسم وأنها مرادفة للإرادة الكونية ، كما علم أن المحبة والرضا أخص من مطلق الإرادة ، وأن الأدلة دلت على الفرق بين المشيئة والمحبة والرضا ، وأن من جمع بينهما فقد ضل

---

(١) البخاري (١٣١٩) ، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ضلالًا مبينًا ، وصادم أدلة الكتاب والسنة ، وجمع بين ما فرق الله .

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله : فالإرادة الكونية : هي المشيئة لما خلقه وجميع المخلوقات داخلة في مشيئته وإرادته الكونية ، والإرادة الدينية الشرعية : هي المتضمنة للمحبة والرضا المتناولة لجميع ما أمر به وجعله شرعًا ودينًا ، وهذه مختصة بالإيمان والعمل الصالح ، قال : ومنشأ ضلال من ضل هو من التسوية بين المشيئة والإرادة والمحبة والرضا ، فسوى بينهما الجبرية والقدرية ، فقالت الجبرية : الكون كله بقضائه وقدره ، فيكون محبوبًا مرضيًا ، وقالت القدرية النفاة : ليست المعاصي محبوبة له ولا مرضية ، فليست مقدرة ولا مقتضية ، فهي خارجة عن مشيئته وخلقه .

وقد دل على الفرق بين المشيئة والمحبة الكتاب والسنة والفطرة الصحيحة ، أما نصوص المشيئة والإرادة فكقوله سبحانه : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة : ١٣] ، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس : ٩٩] ، أما نصوص المحبة والرضا فكقوله : ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة : ٢٠٥] ، وقوله : ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر : ٧] الآية . انتهى .

قال ابن القيم رحمه الله في « المدارج » : ومراده سبحانه نوعان : مراد يحبه ويرضاه ويمدح فاعله ويواليه ، فموافقته في هذا المراد هي عين محبته ، وإرادة خلافه رعونة ومعارضة واعتراض ، ومراد يبغضه ويكرهه ويمقت فاعله ، فموافقته في هذا المراد عين مشاقته ومعاداته ، فهذا الموضع موضع فرقان ، فالموافقة كل الموافقة في معارضة هذا المراد واعتراضه بالدفع والرد . انتهى .

وفي الآية إثبات الهداية لله سبحانه وتعالى وأنه الهادي لا سواه ، ومن أسمائه سبحانه الهادي ، وهو الذي بصر عباده وعرفهم طريق معرفته ، وهدى كل مخلوق إلى ما لا بد له منه ، وتنقسم الهداية إلى قسمين :

الأول : هداية خاصة بالله سبحانه وتعالى لا هادي غيره ولا تطلب إلا منه ، وهي هداية التوفيق والقبول والإلهام وهي المستلزمة للاهتداء ، وهي المذكورة في قوله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص : ٥٦] .

الثاني : الهداية العامة ، وهي هداية الدلالة الإرشاد والبيان ، وهي المذكورة في قوله : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى : ٥٢] ، فالنبي ﷺ هو المبين عن الله والدال على دينه وشرعه ، وكذلك الأنبياء وأتباعهم ، وهذه الهداية لا تستلزم الاهتداء ؛ ولهذا ينتفي معها الهدى ، كما في قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ [فصلت : ١٧] ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت : ١٧] ، أي : بينا لثمود وأرشدناهم فلم يهتدوا .

فالهداية المنفية عن النبي ﷺ وغيره هي هداية التوفيق والقبول ، وأما المثبتة له كغيره من الأنبياء

والمرسلين وأتباعهم فهي هداية الدلالة والإرشاد .

وفي الآية المتقدمة إثبات الصفات الفعلية وأنها تنقسم إلى قسمين : متعدية ، ولازمة . فالمتعدية : ما تعدى إلى مفعول مثل خلق ورزق وهدى وأضل ، واللازمة كقوله : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة : ٢٩] ، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف : ٥٤] ، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] إلى غير ذلك مما لا يحصى من النوعين ، ذكر ذلك الشيخ تقي الدين وابن القيم رحمهما اللَّه .

ونذكر المصنف- رحمه اللَّه تعالى- الآيات في إثبات المشيئة والإرادة ، ثم ذكر الآيات في إثبات المحبة والرضا ، إشارة إلى الرد على من زعم التسوية بين ما ذكر ، وأن المحبة والرضا والمشيئة متلازمان ، ولا شك في بطلان هذا القول وفساده ، فالأدلة الكثيرة دلت على الفرق بين محبته ورضاه وإرادته .

قال الشيخ تقي الدين رحمه الله في « المنهاج » : فأهل السنة والجماعة يقولون : إن اللَّه يحب ويرضى ، كما دل على ذلك الكتاب السنة ، ويقولون : إن المحبة والرضا أخص من الإرادة فيقولون : إن اللَّه لا يحب الكفر والفسوق والعصيان ولا يرضاه ، وإن كان داخلًا في مراده ، كما دخلت سائر المخلوقات لما في ذلك من الحكمة . انتهى .

قوله : ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ :

* لما حث على الصدقة والإنفاق في وجوه الخير أمر بالإحسان وهو أعلى مقامات الطاعة وهو الإتيان بالعمل على أحسن أحواله وأكملها ، وهذا أمر عام بالإحسان في معاملة اللَّه وفي معاملة خلقه ؛ إذ حذف عن شداد بن أوس أن رسول اللَّه ﷺ قال : « إن اللَّه كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته »[١] رواه مسلم ، فهذا الحديث كالآية فيهما دليل على وجوب الإحسان في كل شيء من الأعمال ، لكن إحسان كل شيء بحسبه ، وفي هذه الآية وأمثالها دليل على أن اللَّه موصوف بالمحبة ، وأنه يحب حقيقة ومحبته سبحانه كما يليق بجلاله ، وفيها دليل على أنه يحب مقتضى أسمائه وصفاته وما يوافقها ، فهو محسن يحب المحسنين ، ومؤمن يحب المؤمنين ، وفي هذه الآية وأمثالها جليل على أن محبته سبحانه وتعالى تتفاضل فيحب بعض المؤمنين أكثر من بعض ، وفيها إشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل ، وأن الإحسان أعظم سبب لمحبة اللَّه سبحانه وتعالى للعبد ، وفيها أدلة واضحة على إثبات فعل العبد وكسبه ، وأنه يثاب على حسنه ويعاقب على سيئة ، فتضمنت هذه الآية الرد على القدرية والجبرية ، وفيها إثبات العلة والحكمة .

---

(١) مسلم (١٩٥٥) ، وأبو داود (٢٨١٥) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه .

قوله : ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ :

* أي : اعدلوا في معاملاتكم وأحكامكم مع القريب والبعيد ، يقال : أقسط بمعنى : عدل ، وقسط بمعنى : جار ، قال تعالى : ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن : ١٥] ، ومن أسمائه سبحانه : المقسط ؛ أي : العادل ، ففي هذه الآية الحث على العدل وفضله ، وأنه سبب لمحبة الله ، وأن العدل في الرعية من أفضل القرب سواء كانت رعية عامة كالحاكم أو خاصة كعدل آحاد الناس في بيته وولده ، كما في الحديث : « كلكم راع ومسئول عن رعيته »[1] . وفي « صحيح مسلم » عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : « إن المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا »[2] . وفي الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن أحب العباد إلى الله يوم القيامة وأدناهم إليه مجلسًا إمام عادل »[3] .

قوله : ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة : ٧] :

قوله : ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ : « ما » شرطية ، أي : ما استقام لكم المشركون على العهد ولم ينقضوه فاستقيموا لهم على الوفاء به .

قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ؛ أي : المتقين للذنوب والمعاصي ، والتقوى : هي التحرز بطاعة الله عن معصيته ، فهي كلمة جامعة لفعل المأمورات وترك المنهيات ، قال طلق بن حبيب : التقوى : أن تعبد الله على نور من الله ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله . في هذه الآية الحث على الوفاء بالعهد وتحريم الغدر ، وفيها فضل التقوى والحث عليها ، وفيها إثبات محبة الله .

قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ : أي : من الذنوب والمعاصي ، والتواب : هو الذي كلما أذنب تاب ، يقال : تاب يتوب ؛ أي : رجع ، وتواب كثير التوبة ، وتواب من أسماء الله سبحانه وتعالى ، أي : كثير التوبة على عباده ، وتاب على العبد ألهمه التوبة وقبل توبته .

قال ابن القيم رحمه الله : والعبد تواب والله تواب ، فتوبة العبد رجوعه إلى سيده بعد إباق ، وتوبة الله نوعان إذن وتوفيق ، وقبول واعتداد . اهـ .

فالتوبة لغة : الرجوع ، يقال : تاب وآب وأناب وثاب ، كلها بمعنى : رجع .

---

(١) البخاري (٨٥٣) ، ومسلم (١٨٢٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنه .

(٢) مسلم (١٨٢٧) ، والنسائي (٥٣٧٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٣) الترمذي (١٣٢٩) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٣٠٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في « السلسلة الضعيفة » (١١٥٦) .

وشرعًا : الرجوع عن الذنب وهي واجبة من جميع الذنوب على الفور ، قال اللَّه تعالى : ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور : ٣١] والآيات والأحاديث في الأمر بالتوبة والحث عليها كثيرًا جدًّا ، وتصح التوبة من بعض الذنوب دون بعض ، وللتوبة ثلاثة شروط :

الأول : الندم على ما فات . والثاني : العزم على أن لا يعود . والثالث : الإقلاع عن الذنب ، فإن كانت التوبة من حقوق الآدميين اشترط شرط رابع : وهو الخروج عن تلك المظلمة واستحلاله إن كانت غيبة ، وللتوبة أيضًا شرط خامس : وهو أن يتوب قبل الغرغرة ، كما في الحديث الصحيح : « إن اللَّه يقبل توبة العبد ما لم يُغرغر »(١) . وأما في حالة الغرغرة وهي حالة النزع فلا تقبل توبته ، وأما التوبة النصوح فهي الخاصة التي لا يختص بها ذنب دون ذنب ، وقيل : أن التوبة النصوح هي أن يترك الذنب ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع .

قوله : ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ :

* أي : عن الذنوب والمعاصي ، وعن الأحداث والنجاسات .

فالطهارة لغة : النزاهة والنظافة عن الأقذار حسية كانت أو معنوية ، فالحسية كالطهارة عن الأحداث والنجاسات ، والمعنوية كالطهارة عن الذنوب والمعاصي ، والآية شاملة عامة حائة على الطهارتين ، وفي حديث أبي مالك الأشعري الذي رواه مسلم : « الطهور شطر الإيمان »(٢) . الحديث ، وتقديم التوابين على المتطهرين من باب تقديم السبب على المسبب ؛ لأن التوبة سبب الطهارة . أفاده ابن القيم في « بدائع الفوائد » .

ففي هذه الآيات المتقدمة إثبات محبته سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته ، خلافًا للمبتدعة من جهمية ومعتزلة الذين أنكروا محبته سبحانه ، وهم في الحقيقة منكرون للإلهية ، فإن الإله هو المألوه تألهه القلوب محبة وإجلالًا وخوفًا وتعظيمًا .

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية : في هذه الآيات إثبات محبة اللَّه وهي على حقيقتها عند سلف الأمة ومشائخها ، وأول من أنكر حقيقتها شيخ الجهمية الجعد بن درهم ، فهو أول من ابتدع هذا في الإسلام في أوائل المئة الثانية ، فضحى به خالد بن عبد اللَّه القسري أمير العراق والمشرق بواسط . خطب الناس يوم الأضحى فقال : أيها الناس ، ضحوا تقبل اللَّه ضحاياكم ، فإني مضح بالجعد بن درهم ؛ فإنه زعم أنه لم يتخذ إبراهيم خليلًا ، ولا كلم موسى تكليمًا . ثم نزل وذبحه ، وكان ذلك

---

(١) أحمد (٢/١٣٢) ، وابن حبان (٦٢٨) ، وأبو يعلى (٥٧١٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما . وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » (١٩٠٣) .

(٢) مسلم (٢٢٣) ، وأحمد (٥/٣٤٣) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه .

بفتوى أهل زمانه من علماء التابعين ﷺ، وأخذ هذا المذهب عن الجعد بن درهم : الجهم بن صفوان فأظهره وناظر عليه ، وإليه أضيف قول الجهمية فقتله سلم بن أحوز أمير خراسان بها ، ثم انتقل ذلك إلى المعتزلة أتباع عمرو بن عبيد وظهر قولهم في أثناء خلافة المأمون حتى امتحن أئمة الإسلام ودعوهم إلى الموافقة على ذلك ، وأصل ذلك مأخوذ عن المشركين والصابئة وهم ينكرون أن يكون إبراهيم خليلًا ؛ لأن الخلة هي كمال المحبة المستغرَقة للمحب كما قيل :

قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سمي الخليل خليلًا

ولكنه محبته وخلته كما يليق به كسائر صفاته . اهـ .

والذي يوصف به سبحانه وتعالى من أنواع المحبة : الإرادة ، والود ، والمحبة ، والخلة ، كما ورد النص . من « شرح الطحاوية » .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران : ٣١] . قال الحسن : ادعى قوم أنهم يحبون الله ، فأنزل الله هذه الآية محنة لهم ، فهذه الآية فيها دليل على أن من ادعى ولاية الله ومحبته وهم لم يتبع ما جاء به رسوله ﷺ فليس من أولياء الله ، بل من أولياء الشيطان ، وفيها أن علامة ودليل محبة الله هو اتباع رسوله ، وأن من اتبع الرسول حصلت له محبة الله ، قال بعض السلف : ليس الشأن أن تحب إنما الشأن أن تحب ، وفيها إثبات المحبة من الجانبين ، فمحبة الله لأنبيائه ورسله وعباده الصالحين صفة زائدة على رحمته وإحسانه وإعطائه ، فإن ذلك أثر المحبة موجبها فإن الله لما أحبهم كان نصيبهم من رحمته وإحسانه أتم نصيب .

هذا قول أهل السنة والجماعة ، أما الجهمية والمعتزلة فعكس هؤلاء ، فإنه عندهم لا يحب ولا يحب ولم يمكنهم تكذيب النصوص المتكاثرة في إثبات المحبة من الجانبين ، فأولوا نصوص محبة العباد له على محبة طاعته وعبادته ، وأولوا نصوص محبته لهم بإحسانه إليهم وإعطائهم الثواب ، ونحو ذلك من التأويلات الفاسدة لأدلة الكتاب والسنة الكثيرة في إثبات المحبة من الجانبين .

قال ابن القيم رحمه الله : وجميع طرق الأدلة عقلًا ونقلًا وفطرة وقياسًا وذوقًا واعتبارًا ووجدانًا تدل على إثبات محبة العبد لربه والرب لعبده ، وقد ذكرنا لذلك قريبًا من مائة دليل في كتابنا الكبير في المحبة . اهـ .

قوله : ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ : أي : يرجع ، والرد لغة : الرجوع . وشرعًا : هو الذي يكفر بعد إسلامه نطقًا أو اعتقادًا أو شكًا أو فعلًا .

قوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ

أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]:

قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾: أي: من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته فإن اللَّه يستبدل به من هو خيرًا منه وأقوم سبيلًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨] الآية، والقوم: الجماعة من الناس.

قوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: أهل رقة وتواضع للمؤمنين، قال عطاء: للمؤمنين كالولد لوالده، والعبد لسيده، وعلى الكافرين كالأسد على فريسته.

قوله: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: أهل غلظة وشدة على الكافرين، وهذه من صفات المؤمنين، كما قال سبحانه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وفي صفة رسول اللَّه: أنه الضحوك القتال، فهو ضحوك لأوليائه قتال لأعدائه.

قوله: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بأموالهم وأنفسهم وألسنتهم وذلك تحقيق دعوى المحبة، والجهاد لغة: بذل الطاقة والوسع، وشرعًا: قتال الكفار، وقد تكاثرت الأدلة على فضل الجهاد والحث عليها.

قوله: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾؛ أي: تأخذهم في اللَّه لومة لائم، وهذا علامة صحة المحبة، أي: لا يردهم عن ما هم فيه من طاعة اللَّه ورسوله راد، ولا يصدهم عنها صاد، ولا يخافون في ذلك لومة لائم، ولا عذل عاذل، كما روى الإمام أحمد من حديث أبي ذر قال: أمرني خليلي ﷺ بسبع: أمرني بحب المساكين والدنو منهم، وأمرني أن أصل الرحم وإن دبرت، وأمرني أن لا أسأل أحدًا شيئًا، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرًا، وأمرني أن لا أخاف في اللَّه لومة لائم، وأمرني أن أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا باللَّه فإنهن من كنز تحت العرش.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾؛ أي: من اتصف بهذه الصفات فإنما هو فضل اللَّه عليه وتوفيقه له.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: واسع الفضل عليم بمن يستحق ذلك ممن يحرمه إياه، أفادت هذه الآية إثبات المحبة حقيقة من الجانبين خلافًا للمبتدعة من الجهمية والمعتزلة ومن سلك سبيلهم، وأفادت هذه الآية التحذير عن معصية اللَّه سبحانه وتعالى، وأن الكافر والعاصي لم يضر إلا نفسه، وأفادت عظيم قدرته سبحانه وتعالى في أن من تولى عن دينه وأعرض عنه فإنه يستبدل به غيره، وأفادت أن هذه الأربع من صفات المؤمنين، وهي: الحب في اللَّه، والبغض في اللَّه، والجهاد في سبيل اللَّه، والقيام بأمره على الكبير والصغير والقريب والبعيد، وأفادت- أيضًا- إثبات فعل

العبد حقيقية ، كما أفادت أن الأعمال الصالحة سبب للسعادة ، كما قال تعالى : ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة : ١٧] ، وأن ذلك من فضله سبحانه وتوفيقه كما في الصحيح : « ليس أحد منكم يدخل الجنة بعمله » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمته »(١) .

وفيها- أيضًا- : وجوب إفراده سبحانه بالمحبة فإن محبته سبحانه وتعالى هي أصل دين الإسلام ، فبكمالها يكمل دين العبد وبنقصها ينقص .

قال ابن رجب- رحمه الله تعالى- : وقد علم أن العبادة إنما تنبني على ثلاثة أصول : الخوف والرجاء والمحبة ، وكل منها فرض لازم ، والجمع بين الثلاثة حتم واجب ؛ ولهذا كان السلف يذمون من تعبد بواحد منها دون الآخر . انتهى .

قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف : ٤] :

* أي : يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم في إعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى .

قوله : ﴿صَفًّا﴾ ؛ أي : يصفون أنفسهم عند القتال صفا ولا يزولون عن أماكنهم كأنهم بنيان مرصوص قد رص بعضه ببعض ، أي : ألزق بعضه ببعض وأحكم ، فليس فيه فرجة ولا خلل ، روى الإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يضحك الله إليهم : الرجل يقوم من الليل ، والقوم إذا صفوا للصلاة ، والقوم إذا صفوا للقتال »(٢) رواه ابن ماجه .

أفادت هذه الآية فضل الجهاد في سبيل الله والحث عليه ، وأفادت الندب إلى الصفوف في القتال ، وأفادت إثبات المحبة لله سبحانه وتعالى وهو قول جميع السلف ، وأنكرت الجهمية حقيقة المحبة من الجانبين زعمًا منهم أن المحبة لا تكون إلا لمناسبة بين المحب والمحبوب وأنه لا مناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة ، وهذا القول باطل ترده أدلة الكتاب والسنة المتكاثرة .

قوله : ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ :

* من أبنية المبالغة ، أي : كثير المغفرة ، وأصل : الغفر : الستر ، ومنه المغفرة فهو سبحانه وتعالى يغفر لمن تاب إليه ، أي : يستر ذنوبه ويتجاوز عن خطاياه .

قال ابن رجب- رحمه الله تعالى- :المغفرة : محو الذنب وإزالة أثره ووقاية شره ، ومنه المغفرة

---

(١) البخاري (٦٠٩٨) ، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أحمد (٣/٨٠) ، وابن أبي شيبة (١٩٣١٧) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (٢٦١١) .

لما بقي الرأس من الأذى ، لا كما ظنه بعضهم الستر ، فالعمامة لا تسمى مغفرًا مع سترها فلا بد في لفظ المغفرة من الوقاية . انتهى .

والغفور أبلغ من الغافر ؛ لأن فعول موضوع للمبالغة ، والغفار ، أي : الستار لذنوب عباده أبلغ من الغفور ، لأنه للتكثير من غير حصر ، وقد جاء في التنزيل : الغفور ، والغفار ، والغافر .

قوله : ﴿ٱلْوَدُودُ﴾ :

* من الود : وهو خالص الحب وألطفه وأرقه ، والودود من صفات الله- سبحانه وتعالى أصله من المودة ، أي : المتودد إلى عباده بنعمه الذي يود من تاب إليه وأقبل عليه ، وهو- أيضًا- الودود ، أي : المحبوب ، قال البخاري في « صحيحه » : الودود الحبيب ، والتحقيق : أن اللفظ يدل على الأمرين : على كونه وادًا لأوليائه ومردودًا لهم . انتهى صححه من كلام ابن القيم باختصار .

قوله : « ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ » : الباء في بسم اللَّه للاستعانة وهي متعلقة بمحذوف ، والتقدير : أبتدئ أو أؤلف على حسب ما يضمره المتكلم ، والاسم مشتق من السمو وهو العلو ، أو من السمة وهي العلامة ، ولفظ الجلالة مشتق من أله ، ومعنى كونه مشتق : أنه دال على صفة هي الألوهية كسائر أسمائه الحسنى ، كالعليم والسميع والبصير ونحو ذلك ، وهو جامع لمعاني الأسماء الحسنى والصفات العليا وراجعه إليه .

قوله : ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ : هما صفتان للَّه سبحانه وتعالى مشتقان من الرحمة ، وهما من أبنية المبالغة والرحمن أبلغ من الرحيم ؛ لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى ، والرحمن خاص باللَّه سبحانه وتعالى لا يسمى به غيره ولا يوصف ، بخلاف الرحيم فيوصف به غيره سبحانه وتعالى فيقال : رجل رحيم ، والرحمة صفة من صفات اللَّه سبحانه وتعالى اللائقة بجلاله وعظمته ؛ فيجب أن يوصف بها كما وصف بها نفسه ووصفه بها رسوله ﷺ بخلاف ما عليه أهل البدع الذين نفوا هذه الصفة وأولوها كمن يؤولها بالإنعام أو بإرادة الإنعام إلى غير ذلك من التأويلات الفاسدة ، فالرحمة ثابتة للَّه سبحانه وتعالى كغيرها من الصفات ، سواء كانت ذاتية كالعلم والحياة ، أو فعلية كالرحمة التي رحم بها عباده ، فكلها صفات قائمة به- سبحانه- ليست قائمة بغيره ، فيوصف بها سبحانه وتعالى حقيقة كما يليق بجلاله .

وقد اجتمع في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أنواع التوحيد الثلاثة : توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات ، وكذلك قد اجتمع فيها أنواع الخفض الثلاثة فـ ﴿بِسْمِ﴾ مخفوض بالحرف ، ولفظ الجلالة مخفوض بالإضافة ، و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مخفوضان بالتبعية .

وقال ابن القيم رحمه الله: وتضمنت ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إثبات النبوات من جهات عديدة:

الأول: من اسم الله وهو المألوه المعبود، ولا سبيل إلى معرفة عبوديته إلا من طريق رسله.

الثاني: من اسمه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، فإن رحمته تمنع إهمال عباده وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية السعادة، فمن أعطى هذا الاسم حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل وإنزال الكتب أعظم من تضمنته علم إنزال الغيث وإنبات الكلأ وإخراج الحب، فاقتضاء الرحمة لما يحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من قضائها ما يحصل به حياة الأبدان والأشباح. انتهى. «مدارج».

وقال في «البدائع»: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: دال على الصفة القائمة به سبحانه، و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ دال على تعلقها بالمرحوم، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ولم يجيء قط رحمان بهم، فكان الأول للوصف والثاني للفعل، فالأول دال على أن الرحمة وصفه، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته. انتهى.

قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾:

* أي: وسعت رحمتك وعلمك كل شيء، فما من مسلم، ولا كافر إلا وهو متقلب في نعمته، فهذه الآية فيها دليل على إثبات رحمته سبحانه وتعالى ودليل على سعتها وشمولها، روى الإمام أحمد عن أبي عثمان عن النبي ﷺ قال: «إن لله مائة رحمة، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق، وبها تعطف الوحوش على أولادها، وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة»(١). انفرد بإخراجه مسلم.

قوله: وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٣] ...:

قوله: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: ١٥٦]: أي: أن رحمته سبحانه عمت وشملت كل شيء، قال الحسن وقتادة: وسعت رحمته سبحانه في الدنيا البر والفاجر وهي يوم القيامة للمتقين خاصة، فهذه الآية فيها إثبات الرحمة وشمولها، ودلت هذه الآية وما قبلها على أن الرحمة تنقسم إلى قسمين:

الأول: رحمة عامة، وهي الرحمة المشتركة بين المسلم والكافر، فما يصل إليه من رزق وصحة ونحو ذلك فكله من رحمة الله كما في هذه الآية.

الثاني: رحمة خاصة بالمؤمنين، كما في الآية التي قبلها: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

---

(١) مسلم (٢٧٥٣)، وأحمد (٤٣٩/٥) من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه.

قوله سبحانه : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : ٥٤] : أي : أوجبها على نفسه الكريمة تفضلًا وإحسانًا ، كما في « الصحيحين » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لما خلق الخلق كتب كتابًا عنده فوق العرش ؛ إن رحمتي تغلب غضبي »[1] . الحديث .

فالكتاب المذكور في الآية هو الإيجاب على نفسه سبحانه وتعالى ، وكذلك ما ورد في الحديث : « وحق العباد على الله »[2] . تفضل منه سبحانه وتعالى وإحسان ، وإلا فليس للعباد حق واجب كحق المخلوق على المخلوق كما تزعمه المعتزلة ، فإن المعتزلة تزعم أنه واجب عليه بالقياس على المخلوق ، والأدلة ترد قولهم عليهم وتبطل قولهم ، وتدل على ما عليه أهل السنة والجماعة ، وهو أن العبد لا يستوجب على الله بسعيه نجاة ولا فلاحًا ، ولا يدخل الجنة بعمله ، ويقولون : إن الله سبحانه هو الذي كتب على نفسه الرحمة وأوجب الحق لم يوجب عليه مخلوقًا خلافًا للمعتزلة ، قال بعضهم :

ما للعباد حق عليه واجب   كلا ولا سعي لديه ضائع
إن عُذبوا فبعدله أو نعموا   فبفضله وهو الكريم الواسع

قال الشيخ تقي الدين - رحمه الله تعالى - : كون المطيع يستحق الجزاء هو استحقاق إنعام وفضل وليس هو استحقاق مقابلة كما يستحق المخلوق على المخلوق . انتهى .

وهذا كما في حديث : « لو عذب الله أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرًا لهم »[3] ، والحديث المتقدم : « ليس أحد منكم يدخل الجنة »[4] ، الحديث ، وهذا لا ينافي قوله : ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : ١٧] ، فإن الرسول ﷺ نفى باء المقابلة والمعادلة ، والقرآن أثبت باء التسبب ، فالمنفي استحقاقها بمجرد الأعمال ، وكون الأعمال ثمنًا وعوضًا لها كما تزعمه المعتزلة ، والمثبت كونها سببًا لدخول الجنة بتوفيقه وهداه .

قوله : ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ، وقوله : ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ :

* أي : أن حفظه سبحانه خير من حفظكم ، فمن توكل عليه سبحانه وتعالى وفوض أموره إليه كفاه وحفظه وحماه ، فلا سبيل لأحد عليه ، ولا قدرة لأحدٍ أن يصل إليه بما يؤذيه .

ومن أسمائه سبحانه وتعالى « الحفيظ » ، وهو نوعان :

---

(١) البخاري (٧١١٤) ، ومسلم (١٤/٢٧٥١) ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) البخاري (٢٧٠١) ، ومسلم (٣٠) من حديث معاذ رضي الله عنه .
(٣) أبو داود (٤٦٩٩) ، وأحمد (١٨٢/٥) ، وابن ماجه (٧٧) من حديث أُبي بن كعب رضي الله عنه .
(٤) البخاري (٦٠٩٨) ، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

أحدهما : حفظه على عباده جميع ما عملوا من خير وشر وطاعة ومعصية .

والثاني : أنه الحافظ لعباده من جميع ما يكرهون ، وهذا نوعان : أحدهما : عام ، والثاني : خاص .

فالأول : حفظه لجميع المخلوقات بتيسير ما يقيها ، ونحو ذلك .

الثاني : حفظ خاص ، وهو حفظه لأوليائه سوى ما تقدم عما يزلزل إيمانهم ويضعف يقينهم ، وحفظهم عما يضرهم في دينهم ودنياهم . انتهى من كلام ابن رجب .

أفادت هذه الآية كغيرها إثبات صفة الرحمة ، وأنها أكمل رحمة ، وأنها حقيقة لا مجاز ، وهذا عكس ما عليه الجهمية وأضرابهم ، الذين نفوا رحمته سبحانه ، وزعموا أنها مجاز ، وأن رحمة المخلوق حقيقة ، ولا شك أن هذا من أعظم الإلحاد في أسماء الله وصفاته ، فإن الله سبحانه أثبت لنفسه هذه الصفات ووصف نفسه بها ، كما وصف بعض خلقه بهذه الصفات ، ولكن ليست رحمته سبحانه وتعالى كرحمة المخلوق ، ولا سمعه ولا بصره ، فإن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء ، فاتفاق الاسمين لا يقضي باتحاد المسمى ، فإنه سبحانه وتعالى وصف نفسه بهذه الصفات ، ووصف به بعض خلقه ، فأثبت سبحانه الاسم ، ونفى المماثلة ، فقال : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] .

قال ابن القيم رحمه الله : وفي هذا أظهر دليل على أن أسماء الرب مشتقة من أوصاف ومعانٍ قامت به ، وأن كل اسم يناسب ما ذكره معه واقترن به من فعله وأمره . انتهى .

فهذه الآيات أفادت صفة الرحمة ، وأنها حقيقة لا مجاز ، كما أفادت أن الرحمة المضافة إليه سبحانه وتعالى تنقسم إلى قسمين : قسم يضاف إليه سبحانه من إضافة الصفة إلى الموصوف ، كما قال سبحانه : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف : ١٥٦] ، وكما في الحديث : « برحمتك أستغيث »[1] . والثاني : يضاف إليه سبحانه وتعالى من باب إضافة المخلوق إلى خالقه ، وهي الرحمة المخلوقة ، كما في الحديث : « إن الله خلق مائة رحمة »[2] .

قوله : ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ :

* لما ذكر أعمال الصالحة أنه أثابهم عليها « رضاه » ، الذي هو أعظم وأجلُّ من كل نعيم ، قال تعالى : ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة : ٧٢] .

أفادت هذه الآية إثبات صفة الرضا لله سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله ، ولا يقال : الرضا إرادة

---

(١) الحاكم في المستدرك (٣٠٠٠) ، والبيهقي في الشعب (٧٦٠) ، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (٢٢٧) .

(٢) البخاري (٦١٠٤) ، ومسلم (١٨/٢٧٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الإحسان ، والغضب ، إرادة الانتقام كما تزعمه المبتدعة ، فإن هذا نفي للصفة وصرف للقرآن عن ظاهره وحقيقته بغير موجب ، وهذا لا يجوز .

وفي هذه الآية دليل على إثبات أفعال اللّه الاختيارية وأدلة ذلك من الكتاب والسنة لا تحصر ، وفيها إثبات فعل العبد وأن له فعلًا اختياريًا .

وفيها دليل على أن الجزاء من جنس العمل ، وفيها فضل الرضا عن اللّه ، والرضا لغة : ضد السخط والكراهة ، وقال بعضهم : هو سكون القلب تحت مجاري الأحكام ، قال في « فتح المجيد » : هو أن يسلم العبد أمره إلى اللّه ويحسن الظن به ويرضى عنه في ثوابه .

قال ابن القيم رحمه الله : الرضا ينقسم إلى ثلاثة أقسام : الرضا باللّه ، والرضا عن اللّه ، والرضا بقضاء اللّه ، فالرضا باللّه فرض ، والرضا عنه وإن كان من أجل الأمور وأشرفها فلم يطالب به العموم ؛ لعجزهم عنه ومشقته عليهم ، وأوجبه بعضهم ، وأما الرضا بكل مقضي فلا يجب ، بل المقضي ينقسم إلى ما يجب الرضا به ، ومن المقضي الديني ، قال تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية [النساء: ٦٥] .

ومقضي كوني قدري ، فإن كان فقرًا أو مرضًا ونحو ذلك استحب الرضا به ولم يجب وأوجبه بعضهم ، فإن كان كفرًا أو معصية حرم الرضا به مخالفة لربه ، فإنه سبحانه لا يرضى بذلك ولا يحبه ، قال تعالى : ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ الآية [الزمر: ٧] ، وأما القضاء الذي هو صفة اللّه وفعله فالرضا به واجب . انتهى بتصرف .

وقال الشيخ تقي الدين ابن تيمية في « تائيته » :

فنرضى من الوجه الذي هو فعله ونسخط من وجه اكتساب بحيلتي

وقال السفاريني في « الدرة المضيئة » :

وليس واجبًا على العبد الرضا بكل مقضي ولكن بالقضاء

قوله : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ [النساء: ٩٣] :

قوله : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ : احترز بذلك عن قتل الكافر ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ : العمد لغة : القصد ، وشرعًا : أن يقصد من يعلمه آدميًا معصومًا فيقتله بما يغلب على الظن موته به ، واحترز بقوله : ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ عن قتل الخطأ .

وقوله : ﴿فَجَزَاؤُهُ﴾ ، أي : عقابه ، قوله : ﴿جَهَنَّمُ﴾ علم على طبقة من طبقات النار .

قوله : ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ ، أي : مقيمًا ، والخلود : هو المكث الطويل ، قوله : ﴿وَلَعَنَهُ﴾ أي :

طرده عن رحمته، فاللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾؛ أي: هيأ له ذلك لعظيم ذنبه.

في هذه الآي الوعيد الشديد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم، ويروى عن ابن عباس أنه قال: قاتل المؤمن متعمدًا لا تقبل له توبة، ويقول: هذه الآية من آخر ما نزل ولم ينسخها شيء، وممن ذهب إلى قوله: زيد بن ثابت، وأبو هريرة، وأبو سلمة، ابن عبد الرحمن، وعبيد بن عمير، والحسن، وقتادة، والضحاك، نقله ابن أبي حاتم، والذي عليه الجمهور سلفًا وخلفًا: أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله، فإن تاب وأناب وعمل صالحًا بدل الله سيئاته حسنات، وعوض المقتول عن ظلامته، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] الآية، وهذه الآية عامة في جميع الذنوب وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨] الآية، وهذه الآية عامة في جميع الذنوب عدا الشرك بالله إلى غير ذلك من الأدلة، وما يروى عن ابن عباس وغيره فهو مبالغة وتشديد في الزجر عن القتل، وقال ابن القيم- رحمه الله تعالى- : والتحقيق في المسألة: أن القتل تتعلق به ثلاثة حقوق: حق الله، وحق المقتول، وحق الولي، فإذا سلم القاتل نفسه طوعًا واختيارًا ندمًا على ما فعله، وخوفًا من الله، وتوبة نصوحًا سقط حق الله بالتوبة، وحق الأولياء بالاستيفاء أو الصلح أو العفو، وبقي حق المقتول يعوضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن ويصلح بينه وبينه، فلا يضيع حق هذا ولا يبطل حق هذا. انتهى.

وبتقدير دخول القاتل النار فليس بمخلد فيها أبدًا، بل الخلود هو المكث الطويل، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ: أنه «يخرج من النار مَن كان في قلبه مثقال ذرة إيمان»[1]، فدخول النار قسمين: دخول مطلق، دخول.

فالأول: هو دخول المشركين والكفرة، فهؤلاء يدخلونها ولا يخرجون منها أبدًا.

والثاني: هو دخول الموحدين الذين عليهم ذنوب ومعاصي، فهؤلاء يعذبون فيها بقدر سيئاتهم ثم يخرجون منها إن لم يحصل سبب للخروج منها قبل ذلك من شفاعة أو غيرها من الأسباب، فالناس ينقسمون بحسب ما تقدم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: المشركون والكفار، كُفرًا يُخرج عن الملة الإسلامية، فهؤلاء يدخلون النار ويخلدون فيها دائمًا ولا يخرجون منها أبدًا.

---

(١) البخاري (٢٢)، ومسلم (١٨٤)، والترمذي (٢٥٩٨) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

النوع الثاني : من مات على التوحيد وليس عليه ذنوب ؛ فهذا يدخل الجنة من أول وهلة .

الثالث : من مات موحدًا وعليه ذنوب ومعاص فهذا تحت مشيئة اللَّه إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة من أول وهلة ، وإن شاء عذبه بقدر ذنوبه ثم أدخله الجنة ، هذا ما عليه أهل السنة والجماعة ، وهو الذي تواترت به الأدلة من الكتاب والسنة ، عكس ما عليه المرجئة والخوارج والمعتزلة .

قال السفاريني في « الدرة المضيئة » :

ومن يمت ولم يتب من الخطأ فأمره مفوض لذي العطا

فإن يشأ يعفو وإن شاء انتقم وإن شاء أعطى وأجزل النعم

وفي هذه الآية دليل على إثبات الغضب ، وأنه سبحانه يغضب ويرضى كما يليق بجلالته وعظمته .

قوله : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ :

* أي : ذلك الضرب والقبض لأرواحهم بهذه الشدة بسبب اتباعهم ما يسخط اللَّه من الكفر وعداوة الرسول وبسبب كراهتهم رضوانه ، أي : ما يرضيه من الإيمان والعمل الصالح .

فهذه الآية أفادت إثبات صفة السخط والرضا ، وأنه سبحانه وتعالى يسخط ويرضى حقيقة كما يليق بجلاله وعظمته ، فيجب إثبات ذلك الوجه اللائق بجلاله وعظمته ، والباب كله واحد .

وفي هذه الآية إثبات العلل والأسباب ، وأن الأعمال الصالحة سبب للسعادة ، والأعمال السيئة سبب للشقاوة ، وفيها الرد على من زعم أنه لا ارتباط بين العمل والجزاء . انتهى .

وفيها أيضًا ذم من أحب ما كرهه اللَّه أو كره ما أحبه ، فالواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه اللَّه محبة توجب الإتيان بما وجب عليه منه ، فإن زادت المحبة حتى أتى بما ندب إليه منه كان ذلك فضل ، وأن يكره ما كرهه اللَّه كراهة توجب له الكف عما حرم اللَّه عليه منه ، فإن زادت الكراهة حتى أوجبت الكف عما كرهه تنزيهًا كان ذلك فضلًا ، وقد ثبت في « الصحيحين » عنه ﷺ أنه قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين »[1] ، فلا يكون العبد مؤمنًا حتى يقدم محبة الرسول على محبة جميع الخلق ، ومحبة الرسول تابعة لمحبة مرسله ، والمحبة الصحيحة تقتضي المتابعة والموافقة في حب المحبوبات وبغض المكروهات ، قال تعالى : ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة : ٢٤] الآية ، انتهى من كلام ابن رجب .

---

(١) البخاري (١٥) ، ومسلم (٤٤) من حديث أنس رضي الله عنه .

قوله : ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف : ٥٥] :

قوله : ﴿ءَاسَفُونَا﴾ ؛ أي : أغضبونا ، وأسف لها معنيان : تأتي بمعنى غضب كهذه الآية ، وتأتي بمعنى حزن ، كقوله سبحانه عن يعقوب أنه قال : ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف : ٨٤] الآية .

قوله : ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ ؛ أي : عاقبهم- سبحانه- بالغرق وغيره من العقوبات ، والانتقام : هو أن يبلغ في العقوبة حدها ، ومن أسمائه المنتقم ، كما جاء في حديث أبي هريرة الذي رواه الترمذي في « جامعه » في عدد الأسماء الحسنى ومعناه : المبالغ في العقوبة لمن يشاء ، وقال الشيخ تقي الدين رحمه الله : المنتقم ليست من أسماء الله الحسنى ، الثابتة عن النبي ﷺ ، وإنما جاء في القرآن مقيدًا كقوله سبحانه : ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة : ٢٢] ، وقوله : ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران : ٤] ، والحديث الذي في عدد الأسماء الحسنى يذكر فيها المنتقم ليس هو عند أهل المعرفة بالحديث من كلام النبي ﷺ ، بل هذا ذكره الوليد بن مسلم عن بعض شيوخه ؛ ولهذا لم يورده أحد من أهل الكتب المشهورة إلا الترمذي . انتهى .

قوله : ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ ؛ أي : أبغض خروجهم معكم إلى الغزو .

قوله : ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ ؛ أي : كسلهم ، والتثبيط : رد الإنسان عن الشيء الذي يفعله ، أي : أنه سبحانه وتعالى كسلهم عن الخروج للغزو قضاء وقدرًا وإن كان قد أمرهم بالغزو وأقدرهم عليه ، ولكن ما أراد إعانتهم بل خذلهم وثبطهم لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى : ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء : ٢٣] .

قوله : ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف : ٣] :

قوله : ﴿كَبُرَ﴾ ؛ أي : عظم .

قوله : ﴿مَقْتًا﴾ : منصوب على التمييز ، والمقت أشد البغض .

وفي الآية الحث على الوفاء بالعهد والنهي الأكيد عن الخلف في الوعد وغيره ، وبها تستدل بعض العلماء على أنه يوجب الوفاء بالوعد مطلقًا ، سواء ترتب عليه عزم للموعود أم لا ، واحتجوا بما ثبت في « الصحيحين » أن رسول الله ﷺ قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان »[1] . وفيها دليل على إثبات صفة البغض لله سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته ، وفيه دليل على أن بغضه سبحانه وتعالى يتفاوت ، فبغضه أشد من بعض كما في الحديث : « إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب مثله ولن يغضب بعده مثله »[2] .

---

(١) البخاري (٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) البخاري (٤٤٣٥) ، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وفيه دليل على أن الشخص قد يكون عدوًّا للّٰه ثم يصير وليًا ، ويكون اللّٰه سبحانه وتعالى يبغضه ثم يحبه ، وهذا مذهب الفقهاء والعامة وهو قول المعتزلة والكرامية والحنفية قاطبة ، والمالكية والشافعية والحنابلة ، وعلى هذا يدل القرآن قال تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران : ٣١] ، وقال : ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر : ٧] ، قوله : ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف : ٥٥] وغيرها من الآيات والأحاديث . انتهى ملخصًا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه اللّٰه تعالى– .

فهذه الآيات المتقدمة دليل على صفة الغضب والرضا ، والولاية والحب ، والبغض والسخط والكراهة ونحو ذلك ، وهذا مذهب السلف الصالح وسائر الأئمة يثبتون جميع ما في الكتاب والسنة على المعنى اللائق به ، كما يقولون ذلك في السمع والبصر والعلم والكلام وسائر الصفات وقد تقدم ذلك .

قوله : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [البقرة : ٢١٠] :

قوله : ﴿هَلْ﴾ : حرف استفهام .

قوله : ﴿يَنظُرُونَ﴾ ؛ أي : ينتظر الكفار ، يقال : نظرته وانتظر به معنى واحد ، إلا إذا عدى بـ « إلى » أو ذكر الوجع فمعناه النظر ، أو عدى بـ « في » معناه التفكر والاعتبار .

قوله : ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ : أي : لفصل القضاء بينهم يوم القيامة فيجزي كل عامل بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر .

قوله : ﴿فِى ظُلَلٍ﴾ : جمع ظلة ، والظلة : ما أظلك وسترك .

قوله : ﴿مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ : أي : السحاب الأبيض الرقيق ، سمي غمامًا ؛ لأنه يغم ، أي : يستر .

قوله : ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ : أي : والملائكة يجيئون في ظلل من الغمام ، ففيه إثبات مجيء الملائكة يوم القيامة ؛ لأنهم يحيطون بالإنس والجن ، ثم ينزل الله– سبحانه– لفصل القضاء بينهم .

قوله : ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ : أي : تم أمر هلاكهم .

قوله : ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ : أي : تصير أمور العباد إلى اللّٰه في الآخرة .

قال محمد بن جرير : حيث ذكر إتيان الملائكة فهو محتمل لإتيانهم لقبض الأرواح ، ويحتمل أن يكون نزولهم لعذاب الكفار وإهلاكهم ، وإما إتيان الرب فهو يوم القيامة لفصل الخطاب .

قال ابن القيم– رحمه اللّٰه تعالى– : نزوله سبحانه إلى الأرض يوم القيامة تواترت به الأحاديث والآثار ودل عليه القرآن صريحًا كما في الآيات . انتهى .

قوله : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ :

قوله : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ؛ أي : لقبض أرواحهم .

قوله : ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ : أي : يوم القيامة لفصل القضاء بين العباد .

قوله : ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ : وهو طلوع الشمس من مغربها ، وطلوعها من مغربها هو أحد أشراط الساعة الكبار ، وإذا طلعت من مغربها أغلق باب التوبة ، وإذا رآها الناس طلعت من مغربها آمنوا أجمعون ولكن لا يقبل لأحدهم توبة ما لم يكن آمن من قبل ، ذلك كما في « الصحيحين » وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذاك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل »[1] .

قوله : ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ : هي حرف ردع وزجر .

قوله : ﴿دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ : أي : زلزلت حتى ينهدم كل بناء عليها وينعدم .

قوله : ﴿دَكًّا دَكًّا﴾ : أي : دكا بعد دك ، أي : تكرر الدك عليها حتى عادت هباء منبثًا .

قوله : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ : أي : لفصل القضاء بين عباده .

قوله : ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ : أي : جنس الملائكة .

قوله : ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ : أي : يصفون صفا بعد صف قد أحدقوا بالجن والإنس ، كما روي أن الملائكة كلهم يكونون صفوفًا حول الأرض .

قوله : ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ :

قوله : ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ : المراد باليوم : يوم القيامة ، وتشقق السماء ، أي : انفطارها .

قوله : ﴿بِٱلْغَمَٰمِ﴾ : أي : يخرج منها الغمام وهو السحاب الأبيض وحينئذ تنزل الملائكة إلى الأرض فيحيطون بالخلائق في مقام الحشر ، ثم يجيء الرب لفصل القضاء بين عباده ، فهذه الآيات أفادت إثبات المجيء والنزول والإتيان لله سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته ، وهذه من صفاته سبحانه الفعلية ، فيجب إثبات جميع الصفات الواردة في الكتاب والسنة كما أثبتها الله- سبحانه- لنفسه وأثبتها رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، ودلت هذه الآيات- أيضًا- على نزوله سبحانه وتعالى وإتيانه ومجيئه ونحو ذلك من أفعاله أنه حقيقة كما يليق

(١) البخاري (٤٣٥٩) ، ومسلم (١٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

بجلاله وعظمته ؛ إذ الأصل الحقيقة ولا صارف عن ذلك خلافًا لأهل البدع ، ودلت على أنه نزول وإتيان ومجيء بذاته سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته ، خلافًا لأهل البدع الذين ينفون ذلك ويؤولون مجيئه بمجيء أمره ونزوله بنزول رحمته أو بعض ملائكته ونحو ذلك ، ويقولون : هذا مجاز حذف والتقدير في ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] ، أي : أمره وينزل ربنا ، أي : أمره أو بعض ملائكته أو رحمته ونحو ذلك من التأويلات الفاسدة ، ولا شك في بطلان هذه التأويلات ومصادمتها أدلة الكتاب والسنة الصريحة وما عليه أهل السنة والجماعة .

قال ابن القيم- رحمه اللَّه تعالى- في « الصواعق المرسلة » : ومما ادعوا فيه المجاز قوله : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ ، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، قالوا : هذا مجاز الحذف تقديره : وجاء أمر ربك ، وهذا باطل من وجوه .

أحدها : أنه إضمار ما لا يدل عليه اللفظ بمطابقة ولا تضمن ولا لزوم وادعاء حذف بلا دليل يرفع الوثوق من الخطاب ، وساق وجوهًا عديدة في إبطال دعواهم المجاز ، وساق الأدلة الكثيرة الصريحة الدالة على أنه مجيء حقيقة بذاته سبحانه . اهـ .

والإتيان والمجيء المضاف إليه سبحانه نوعان : مطلق ، ومقيد ، فإذا كان مجيء رحمته أو عذابه ونحو ذلك قيد بذلك كما في الحديث : « حتى جاء اللَّه بالرحمة والخير »[1] ، وقوله : « ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الأعراف : ٥٢] .

النوع الثاني : الإتيان والمجيء المطلق فهذا لا يكون إلا مجيؤه سبحانه ، كقوله : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، وقوله : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢٢] . انتهى من « الصواعق » ملخصًا .

وأفادت هذه الآيات إثبات أفعاله- سبحانه- الاختيارية ، فالإتيان ، والنزول ، والمجيء ، والاستواء ، والارتفاع ، والصعود ؛ كلها أنواع أفعاله ، وهو فعال لما يريد ، وأفعاله كصفاته قائمة به سبحانه ، ولولا ذلك لم يكن فعالًا ولا موصوفًا بصفات كماله .

وأفعاله سبحانه نوعان : لازمة ، ومتعدية كما دلت النصوص التي هي أكثر من أن تحصر على إثبات النوعين ، وأنها حقيقة ليست بمجاز ، وليست كأفعال المخلوق ، فصفاته سبحانه تليق به ، أما المبتدعة فإنهم نفوا أفعاله فزعموا أنها مجاز فوقعوا في محذورين . محذور التشبيه ، ومحذور التعطيل . انتهى من كلام شيخ الإسلام .

---

(١) لم نقف عليه بهذا اللفظ فيما لدينا من مصادر .

وفي هذه الآيات دليلًا على إثبات علو الله على خلقه ؛ لأنه لا يمكن أن تأتي إلا من جهة العلو ، وذكره ابن القيم أحد الطرق في إثبات العلو .

قوله : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ :

* أي : كل من على الأرض يعدم ويموت ويبقى وجهه سبحانه ، قال الشعبي رحمه الله : إذا قرأت قوله : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن : ٢٦] فلا تسكت حتى تقرأ قوله : ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن : ٢٧] ، وهذا من فقههم في القرآن وكمال علمهم ؛ إذ المقصود الإخبار بفناء من عليها مع بقاء وجهه ، فإن الآية سيقت لبيان تمدحه سبحانه بالبقاء وحده ، ومجرد فناء الخليقة ليس في مدح ، إنما المدح في بقائه سبحانه بعد فناء خلقه فهي نظير قوله سبحانه : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص : ٨٨] . انتهى من كلام ابن القيم .

قوله : ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ : ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ : فيه إثبات صفات الوجه لله وهو من الصفات الذاتية ؛ كالسمع والبصر واليدين وغير ذلك من الصفات ، فعلى العباد الإيمان بها والتسليم واعتقاد أنها حقيقة تليق بجلال الله وعظمته ، وعلى هذا مضى الصحابة والتابعون والأئمة .

قوله : ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ : أي : ذو العظمة والكبرياء .

قوله : ﴿وَالْإِكْرَامِ﴾ : أي : المكرم لأنبيائه وعباده الصالحين ، وقيل : ذو الجلال أي : هو المستحق لأن يجل ولأن يكرم ، والإجلال يتضمن التعظيم ، والإكرام يتضمن الحمد والمحبة ، وقد قال بعض السلف : لا يهدين أحدكم الله ما يستحي أحدكم أن يهديه لكريمه فإن الله أكرم الكرماء ، أي : هو أحق من كل شيء بالإكرام إذ كان أكرم من كل شيء ، وقال أيضًا : وإذا كان مستحقًا للإجلال والإكرام لزم أن يكون متصفًا في نفسه بما يوجب ذلك ، كما قال : الإله هو المستحق ؛ لأنه يؤله ، أي : يعبد كان هو في نفسه مستحقًا لما يوجب ذلك ، والإجلال من جنس التعظيم ، والإكرام من جنس الحب والحمد ، وهذا كقوله : ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ [التغابن : ١] ، فله الإجلال وله الإكرام والحمد . انتهى من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية .

قوله : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ :

أي : أن جميع أهل الأرض وأهل السماء سيموتون ويذهبون إلا من شاء الله ولا يبقى إلا وجهه سبحانه وتعالى ، والمستثنى من الهلاك والفناء ثمانية ، نظمها السيوطي بقوله :

ثمانية حكم البقاء يعمها ... من الخلق والباقون في حيز العدم
هي العرش والكرسي نار وجنة ... وعجب وأرواح كذا اللوح والقلم

وأما قوله : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ [القصص : ٨٨] ، وقوله : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن : ٢٦] فإن

المراد : كل شيء كتب عليها الفناء والهلاك هالك ، والجنة والنار خلقتا للبقاء ، وكذا العرش فإنه سقف الجنة ، والكرسي إلى آخرها ، فإن عموم ﴿كُلُّ﴾ في كل مقام بحسبه ، ويعرف ذلك بالقرائن كقوله : ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف : ٢٥] و﴿مَسَٰكِنُهُمْ﴾ شيء لم تدخل في عموم كل شيء ؛ لأن المراد من كل شيء يقبل التدمير بالريح عادة ، وكقوله عن بلقيس : ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل : ٢٣] ، فالمراد من كل شيء يحتاج إليه الملوك ، وهذا القيد يفهم من قرائن الكلام ؛ إذا المراد أنها ملكة تامة الملك .

ففي هذه الآيات كغيرها من أدلة الكتاب والسنة : إثبات صفة الوجه للَّه سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته ، وإثبات أنه وجه حقيقة لا يشبه وجوه خلقه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى : ١١] وهذا هو الذي عليه أهل السنة والجماعة خلافًا للمبتدعة من الجهمية وأشباههم ممن نفى الوجه وعطله وزعم أنه مجاز عن الذات أو الثواب أو الجهة أو غير ذلك ، وهذه تأويلات باطلة من وجوه عديدة ، منها : أنه فرق بين الذات والوجه ، وعطف أحدهما على الآخر يقتضي المغايرة كما في حديث : « إذا دخل أحدكم المسجد قال : أعوذ باللَّه العظيم وبوجهه الكريم »[(١)] ، ومنها : أنه أضاف الوجه إلى الذات وأضاف النعت إلى الوجه ، ولو كان ذكر الوجه صلة ولم يكن صفة للذات لقال : ﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ ، فلما قال : ذو الجلال تبين أنه نعت للوجه ، وأن الوجه صفة للذات كما ذكر معنى ذلك البيهقي والخطابي ، وروى مسلم في « صحيحه » حديث : « إن اللَّه لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه »[(٢)] ، ومنها : أن الوجه حيث ورد فإنما ورد مضافًا إلى الذات في جميع موارده ، والمضاف إلى الرب نوعان :

أعيان قائمة بنفسها : كبيت اللَّه ، وناقة اللَّه ، وروح اللَّه ، وعبد اللَّه ، فهذه إضافة تشريف وتخصيص ، وهي إضافة مملوك إلى مالكه .

الثاني : صفات لا تقوم بنفسها كعلم اللَّه ، وحياته ، وقدرته ، وسمعه ، وبصره ، ونوره ، فهذه إضافتها إليه سبحانه وتعالى إضافة صفة إلى موصوف بها ، إذا عرف ذلك ؛ فإضافة السمع والبصر والوجه ونحو ذلك إضافة صفة إلى موصوف لا إضافة مخلوق إلى خالقه ، وفي « سنن أبي داود » عنه ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد قال : أعوذ باللَّه العظيم وبوجهه الكريم وبسلطانه القديم من الشيطان الرجيم[(٣)] ، فتأمل كيف قرن بين الاستعاذة بالذات وبين الاستعاذة بوجهه الكريم ، وهذا صريح في

---

(١) أبو داود (٤٦٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، وصححه الألباني في « مشكاة المصابيح » (٧٤٩) .

(٢) مسلم (١٧٩) ، وأحمد (٤/٤٠٥) من حديث أبي موسى رضي الله عنه .

(٣) أبو داود (٤٦٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، وصححه الألباني في « مشكاة المصابيح » (٧٤٩) .

إبطال قول من قال : إنه الذات نفسها ، وقول من قال : إنه مخلوق ؛ إذ الاستعاذة لا تجوز بمخلوق ، إلى غير ذلك من الوجوه التي ذكرها ابن القيم رحمه الله بـ « الصواعق » في إثبات الوجه صفة لله سبحانه وتعالى وأنه وجه حقيقي يليق بجلاله وعظمته ، وإبطال قول من زعم غير ذلك .

قوله : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ :

أي : يقوله سبحانه وتعالى مخاطبًا لإبليس لما امتنع من السجود لآدم : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص : ٧٥] أي : أنه سبحانه باشر خلقه بيده كما في الحديث : « لم يخلق الله بيده إلا ثلاثًا : خلق آدم بيده »[١] الحديث ، ففيه إثبات اليدين لله سبحانه وتعالى ، وأنهما يدان حقيقة لائقتان بجلاله وعظمته ، وفيها : الرد على من زعم غير ذلك ممن صادم أدلة الكتاب والسنة واتبع هواه وعطل هذه الصفة ، وزعم أن المراد باليد : القدرة أو النعمة كما تقوله الجهمية والمعتزلة وأشباههم ، وهذا التأويل الذي زعموه تأويل فاسد مصادم لأدلة الكتاب والسنة المتكاثرة الصريحة في إثبات اليدين صفة لله سبحانه وتعالى ، فلو كان المراد باليد : القدرة لوجب أن يكون له سبحانه قدرتان ، وقد أجمع المسلمون على أنه لا يجوز أن يكون له قدرتان ، وكذلك لا يجوز أن يقال : خلق آدم بنعمتين ؛ لأن نعم الله على آدم وغيره لا تحصى .

قال ابن القيم- رحمه الله تعالى- : ورد لفظ اليد في الكتاب والسنة وكلام الصحابة والتابعين في أكثر من مائة موضع ورودًا متنوعًا متصرفًا فيه مقرونًا بما يدل على أنها يد حقيقة من الإمساك ، والطي ، والقبض ، والبسط ، والنضح باليد ، والخلق باليدين ، والمباشرة بهما ، وكتب التوراة بيده ، وغرس جنة عدن بيده .

قوله : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ :

* فقطع بالضرورة أن المراد يد الذات لا يد القدرة والنعمة ، فإن السياق والتركيب لا يحتمله ألبته ، انتهى .

وقد رد ابن القيم رحمه الله على المبتدعة الذين عطلوا صفة اليد وزعموا أن المراد باليد : القدرة أو النعمة أو غير ذلك من التأويلات الفاسدة من وجوه عديدة أنهاها إلى عشرين وجهًا ، وساق الأدلة الكثيرة الصريحة في إثبات اليد لله سبحانه وتعالى حقيقة كما يليق بجلاله وعظمته .

قوله : ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ : قال ابن عباس : المراد بخله . فالغل كناية عن البخل .

قوله : ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ : أي : أمسكت عن الخير .

---

(١) ابن أبي شيبة (٣٩٥٧٠) موقوفًا على حكيم بن جابر .

وقوله : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة : ٦٤] أي : بالفضل والعطاء ، فهذه الآية كسابقتها فيها إثبات صفة اليدين للّه سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته ، فعلينا أن نثبت له سبحانه وتعالى ذلك كما أثبته لنفسه وكما أثبته له رسوله ﷺ وهذا مذهب أهل السنة والجماعة ، وفي حديث عبد اللّه بن عمرو : « أن اللّه لم يباشر بيده أو لم يخلق بيده ، إلا ثلاثًا : خلق آدم بيده وغرس جنة عدن بيده ، وكتب التوراة بيده »[1].

وقال ابن القيم- رحمه اللّه تعالى- : هل يصح في عقل أو نقل أو فطرة أن يقال : لم يخلق بقدرته إلا ثلاثًا . أو لم يخلق بنعمته إلا ثلاثًا ؟ وأيضًا ، فلو كان المراد به ها هنا القدرة لبطل تخصيص آدم ، فإنه وجميع المخلوقات حتى إبليس مخلوقًا بقدرته ، فأي مزية لآدم على إبليس في قوله : ﴿أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] . اهـ .

وقال البيهقي في كتاب « الأسماء والصفات » ، باب : « ما جاء في إثبات اليدين صفتين لا من حيث الجارحة » ؛ فذكر الآيات ، ثم قال : قال بعض أهل النظر قد تكون اليد بمعنى : القوة ، كقوله : ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾ [ص: ١٧] ، أي : ذو القوة ، وبمعنى الملك والقدرة والنعمة وتكون صلة ، أي : زائدة ، ثم أبطل البيهقي ذلك كله وأثبت أن اليدين صفتان تعلقتا بخلق آدم تشريفًا له دون إبليس تعلق القدر بالمقدور ، لا من طريق المباشرة ولا من حيث المماسة ، وليس ذلك التخصيص وجه غير ما بينه بقوله : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] . اهـ .

قوله : ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ :

قوله : ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ : الصبر لغة : الحبس والمنع ، وهو حبس النفس عن الجزع ، وحبس اللسان عن التشكي والتسخط ، وحبس الجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ، وذكره ابن القيم- رحمه اللّه تعالى :- أفادت الآية وجوب الصبر ، قال ابن القيم- رحمه اللّه تعالى- : « هو واجب بالإجماع » . انتهى .

وينقسم الصبر إلى ثلاثة أقسام :

صبر على طاعة اللّه ، وصبر عن معصية اللّه ، وصبر على أقدار اللّه المؤلمة .

زاد الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله : وصبر على الأهواء المضلة ، والنوعان الأولان أفضل من الأخير وهو الصبر على أقدار اللّه المؤلمة ، صرح بذلك السلف ، منهم : سعيد بن جبير ، وميمون بن مهران ، وغيرهما والنوع الأول أفضل من النوع الثاني .

---

(١) ابن أبي شيبة (٣٣٩٥٧) موقوفًا على حكيم بن جابر .

قال ابن رجب رحمه الله : وأفضل أنواع الصبر : الصيام ؛ فإنه يجمع أنواع الصبر الثلاثة .

قال ابن القيم رحمه الله في كتاب « المدارج » : وتمام الصبر أن يكون كما قال الله : ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد : ٢٢] الآية ، وأقواه أن يكون بالله معتمدًا عليه لا على نفسه ولا على غيره من الخلق . انتهى .

وقد تكاثرت الأدلة على الحث على الصبر والترغيب فيه والثناء على أهله ، قال الإمام أحمد : ذكر الله الصبر في تسعين موضعًا من كتابه ، وفي الآية إثبات صفة الحكم لله سبحانه وتعالى ، وقد تقدمت الإشارة إلى تقسيمه إلى قسمين : حكم شرعي ديني ، وحكم قدري كوني ، فالشرعي متعلق بأمره ، والكوني متعلق بخلقه ، وهو سبحانه له الخلق والأمر ، وحكمه الديني الطلبي نوعان بحسب المطلوب ، فإن المطلوب إن كان محبوبًا له فالمطلوب فعله إما وجوبًا وإما استحبابًا ، وإن كان مبغوضًا له فالمطلوب تركه إما تحريمًا وإما كراهة ، وذلك - أيضًا - موقوفًا على الصبر ، فهذا حكمه الديني الشرعي ، وأما حكمه الكوني وهو ما يقتضيه وما يقدره على العبد من المصائب التي لا صنع له فيها ، فغرضه الصبر عليها ، وفي وجوب الرضا بها قولان للعلماء ، أصحهما : أنه مستحب ، فرجع الدين كله إلى هذه القواعد الثلاث : فعل المأمور ، وترك المحظور ، والصبر على المقدور . انتهى من كلام ابن القيم .

قوله : ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ : أي : بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا ، ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة : ٦٧] .

قال ابن القيم رحمه الله : وهذا يتضمن الحراسة والكلاءة والحفظ للصابر لحكمه سبحانه وتعالى ، وفيها : معية الله سبحانه وتعالى للصابر لحكمه سبحانه وحفظه ، وفيها : إثبات فعل العبد حقيقة . وأدلة ذلك أكثر من أن تحصر .

قوله : ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ﴾ :

قوله : ﴿وَحَمَلْنَٰهُ﴾ ؛ أي : نوح عليه الصلاة والسلام .

قوله : ﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ﴾ ؛ أي : على سفينة ذات ألواح ، المراد : خشب السفينة العريض .

قوله : ﴿وَدُسُرٍ﴾ ؛ أي : المسامير التي تشد بها الألواح ، يقال : دسرت السفينة إذا شددتها بالمسامير .

قوله : ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ ؛ أي : بأمرنا بمرأى منا تحت حفظنا وكلاءتنا ؛ والنون للتعظيم .

قوله : ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ ؛ أي : جزاء لهم على كفرهم وانتصارًا لنوح عليه السلام عليهم .

قوله : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه : ٣٩] :

قوله : ﴿وَأَلْقَيْتُ﴾ ؛ أي : وصنعت ﴿عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ ، أي : أن اللّه أحبه وحببه إلى خلقه .

قوله : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ : أي : بمرأى ومنظر مني ، والمعنى : أن اللّه أحب موسى وحببه إلى خلقه ورباه بمرأى منه سبحانه .

قال ابن القيم- رحمه اللّه تعالى- : والفرق بين قوله : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه : ٣٩] ، وقوله : ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر : ١٤] : أن الآية الأولى وردت في إظهار أمر كان خفيًا وإبداء ما كان مكتوبًا ، فإن الأطفال- إذ ذاك- كانوا يتغذون ويصنعون سرًا ، فلما أراد أن يصنع موسى ويتغذى ويربي على حال أمن وظهور دخلت ﴿عَلَىٰ﴾ في اللفظ تنبيهًا على المعنى ، لأنها تعطي الاستعلاء ، والاستعلاء ظهور وإبداء ، فكأنه يقول : وتصنع على أمن لا تحت خوف ، وذكر العين لتضمنها معنى الرعاية والكلاءة ، وأما قوله : ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ : فإنه يريد برعاية منا وحفظ ولا يريد إبداء شيء ولا إظهار بعد كتم فلم يحتج في الكلام إلى معنى على بخلاف ما تقدم . اهـ .

وفي هذه الآية الكريمة : إثبات محبة الله- سبحانه- لعبده موسى ، وتحبيبه لخلقه ، وفيها : عناية اللّه سبحانه وتعالى بعبده موسى وتربيته على مرأى منه ، وهذه عناية خاصة ومعية لعبده موسى تقتضي حفظه وكلاءته وعنايته ، وفي هذه الآيات : إثبات صفة العينين للّه سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله وعظمته ، فيجب على المؤمن أن يثبت لخالقه وبارئه ما أثبته لنفسه من العينين والسمع والبصر وغيرها ، وغير المؤمن من ينفي عن اللّه ما أثبته في محكم تنزيله ، وكذلك أثبته له رسوله ﷺ .

قوله : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ :

* أي : تراجعك أيها النبي في شأن زوجها ، وهي « خولة بنت ثعلبة » ، وزوجها « أويس بن الصامت » ، وذلك حين ظاهر منها زوجها وقال لها : أنت علي كظهر أمي ، فأتت النبي ﷺ فقال : « قد حرمت عليه » . فقالت : إن لي صبية صغار ؛ إن ضممتهم إلي جاعوا ، وإن ضممتهم إليه ضاعوا ، فقال : « قد حرمت عليه » . فقالت : أشكو إلى اللّه فاقتي وجهدي ، وكلما قال : حرمت عليه ؛ جعلت تهتف وتشكو[1] .

قوله : ﴿وَتَشْتَكِيٓ﴾ : أي : تظهر ما بها من المكروه .

قوله : ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ : أي : مراجعتكما الكلام ، من : حار إذا رجع .

قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ : أي : أحاط سمعه بجميع المسموعات وبصره بجميع المبصرات فلا يخفى عليه خافية ، وكثيرًا ما يقرن- سبحانه- بين هذين الاسمين « السميع »

---

(١) ابن ماجه (٢٠٦٣) ، والحاكم (٣٧٩١) ، وأبو يعلى (٤٧٨٠) من حديث عائشة رضي الله عنها ، وصححه الألباني في « صحيح ابن ماجه » (١٦٧٨) .

و« البصير » فكل من السمع والبصر محيط بجميع متعلقاته الظاهرة والباطنة ، فالسميع : هو الذي أحاط سمعه بجميع المسموعات والبصير : هو الذي أحاط بصره بجميع المبصرات .

وفي هذه الآية الكريمة إثبات السمع للَّه سبحانه وتعالى وأنه سميع ويسمع ، أحاطه سمعه بجميع المسموعات وكل ما في العالم العلوي والسفلي من الأصوات يسمعه سبحانه وتعالى سواء السر والعلانية ، قالت عائشة رضي الله عنها : الحمد للَّه الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة تشتكي إلى رسول اللَّه وأنا في جانب الحجرة يخفى علي بعض كلامها ، فأنزل اللَّه قوله : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة : ١] الآية ، وقال ابن القيم في « النونية » :

وهو السميع يرى ويسمع ما ... في الكون من سر ومن إعلان
ولكل صوت منه سمع حاضر ... فالسر والإعلان مستويان
والسمع منه واسع الأصوات لا ... يخفى عليه بعدها والداني

قال البيهقي في كتاب « الأسماء والصفات » : السميع الذي له سمع يدرك به المسموعات ، والبصير من له بصر يدرك به المرئيات ، ولكل منها في حق الباري صفة قائمة بذاته ، وقد أفادت الأحاديث الرد على من زعم أنه سميع بصير بمعنى عليم ، كما أخرج أبو داود بسند قوي على شرط مسلم من حديث أبي هريرة قال : رأيت رسول اللَّه ﷺ يقرأ قوله سبحانه : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ إلى قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء : ٥٨] ويضع إصبعيه ، قال أبو يونس : وضع أبو هريرة إبهامه على أذن والتي تليها على عينه[١] ، قال البيهقي : وأراد بهذه الإشارة تحقيق إثبات السمع والبصر للَّه ببيان محلها من الإنسان ، يريد أن له سمعًا وبصرًا ، لا أن المراد به العلم ، فإنه لو كان المراد به العلم لأشار إلى القلب ؛ لأنه محل العلم ولم يرد الجارحة ؛ فإن اللَّه منزه عن مشابهة المخلوقين ، ثم ذكر لحديث أبي هريرة شاهدًا من حديث عقبة بن عامر : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول على المنبر : « ربنا سميع بصير » . وأشار إلى عينيه[٢] ، وسنده حسن .

وفي « صحيح مسلم » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : « أن اللَّه لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم »[٣] . انتهى .

ولا شك أن من سمع وأبصر أدخل في صفة الكمال ممن انفرد بأحدهما دون الآخر فصح أن كونه

(١) أبو داود (٤٧٢٨) ، وابن حبان (٢٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « سنن أبي داود » (٤٧٢٨) .

(٢) الطبراني (١٧/٢٨٢) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه .

(٣) مسلم (٢٥٦٤) ، وأحمد (٢/٢٨٤) .

سميعًا بصيرًا يفيد قدرًا زائدًا على كونه عليمًا ، وكونه سميعًا بصيرًا يتضمن أنه يسمع بسمع ويبصر ببصر ، كما تضمن كونه عليمًا يعلم أنه يعلم بعلم ، ولا فرق بين كونه سميعًا بصيرًا وبين كونه ذا سمع وبصر ، وقالوا : هذا قول أهل السنة قاطبة ذكره في « فتح الباري » .

وفي هذه الآية وغيرها دليل على ثبوت الأفعال الاختيارية للّه وقيامها به ، كقوله سبحانه وتعالى : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن : ٢٩] ، وقوله : ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة : ١٠٥] الآية ، وفي هذه الآية الشكوى إلى اللّه سبحانه وتعالى ، وأن الشكوى إليه سبحانه لا تنافي الصبر كهذه الآية ، كشكاية يعقوب إلى اللّه ، وأما الشكوى إلى مخلوق فإنها تنافي الصبر ، والشكوى نوعان : شكوى بلسان المقال وشكوى بلسان الحال ، وفعلها أعظم ، وأما إخبار المخلوق بالحال فإنه كان للاستعانة بإرشاده أو معاونته لم يقدح ذلك في الصبر كإخبار الطبيب للمريض ، وقد كان النبي إذا دخل على مريض يسأله عن حاله ويقول : « كيف تجدك ؟ »[1] . انتهى من كلام ابن القيم بتصرف .

قوله : ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ الآية : سبب نزول هذه الآية : أن اليهود حين سمعوا قوله : ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد : ١١] ، قالوا : إن إله محمد يستقرض منا فنحن إذا أغنياء وهو فقير .

قوله : ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ : أي : سنأمر الحفظة بكتابة ما قالوا في الصحائف .

أفادت هذه الآية كغيرها من الآيات والأحاديث إثبات صفة السمع للّه كما يليق بجلاله ، وفي قوله : ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ [آل عمران : ١٨١] تحذير وتخويف ، فإنه ليس المراد به مجرد الإخبار بالسمع ، لكن المراد مع ذلك الإخبار بما يترتب على ذلك من المجازاة بالعدل ، وأفادت إثبات وجود الحفظة وأنهم يكتبون ما يقال ، وسيأتي الكلام على الحفظة .

قوله : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ :

السر : هو حديث الإنسان بينه وبين نفسه أو غيره في خفية ، والنجوى : هو ما يتحدث به الإنسان مع رفيقه ويخفيه عن غيره .

قوله : ﴿بَلَى﴾ : أي : نسمع سرهم ونجواهم ، فهو- سبحانه- السميع الذي أحاط سمعه بجميع المسموعات .

قوله : ﴿وَرُسُلُنَا﴾ : أي : الملائكة الحفظة للأعمال ، ﴿لَدَيْهِمْ﴾ [الزخرف : ٨٠] ، أي : عندهم .

---

(١) الترمذي (٩٨٣) ، وابن ماجه (٤٢٦١) ، وعبد بن حميد (١٣٧٠) من حديث أنس رضي الله عنه ، وحسنه الألباني في « مشكاة المصابيح » (١٦١٢) .

قوله : ﴿يَكْتُبُونَ﴾ : أي : يكتبون ما يقولون وما يفعلون .

فهذه الآية فيها تحذير وتخويف ، فإن طريقة القرآن بذكر العلم والقدرة تهديدًا وتخويفًا لترتب الجزاء عليها كهذه الآية ، وقوله : ﴿اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة : ١٠٥] الآية ، وليس المراد مجرد الإخبار بالقدرة والعلم لكن الإخبار مع ذلك بما يترتب عليهما مع الجزاء بالعدل . انتهى من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية .

وفي هذه الآية دليل على إثبات صفة السمع وإحاطته إحاطة تامة بكل مسموع ، وفيها دليل على وجود الملائكة الحفظة ، وأنهم يكتبون كل ما قال العبد أو فعل أو نوى أو هم به ؛ لأن النية فعل القلب ، فدخلت في عموم قوله : ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار : ١٢] ، ويشهد لذلك قوله ﷺ : «إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه فإن عملها فاكتبوها عليه ، وإذا هم عبدي بحسنة فلم يعملها فاكتبوه له حسنة وإن عملها فاكتبوها له عشرًا»(١) .

ويجب الإيمان بالحفظة ، والأدلة على إثبات وجودهم من الكتاب والسنة كثيرة ، قال تعالى : ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق : ١٨] ، وقوله : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار : ١٠- ١٢] .

قال علماؤنا- منهم ابن حمدان- في «نهاية المبتدئين» : الرقيب والعتيد ملكان موكلان بالعبد يجب أن نؤمن بهما ونصدق بأنهما يكتبان أفعاله ، واستدل بالآيتين المذكورتين ، قال : ولا يفارقان العبد بحال ، وقيل : بل عند الخلاء ، وقال الحسن : إن الملائكة يجتنبون الإنسان على حالين : عند غائطه وعند جماعه ومفارقتهما للمكلف ، حينئذ لا يمنع من كتابتهما ما يصدر منه في تلك الحال كالاعتقاد القلبي يجعل اللّه لهما أمارة على ذلك .

قوله : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه : ٤٦] :

أي : يقول سبحانه لكليمه موسى عليه السلام وأخيه هارون : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾ ، أي : بحفظي ونصري وكلاءتي وتأييدي .

قوله : «أسمع وأرى» : أي : أي أسمع كلامكما وكلامه ، وأرى مكانكما ومكانه ، ولا يخفى علي شيء من أمركم ، فأنا معكما بحفظي ونصري ، وهذه المعية الخاصة التي تقضي الحفظ والنصر والتأييد والإعانة كقوله : ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء : ٦٢] ، وقول النبي ﷺ : «ما ظنك باثنين اللّه ثالثهما ، لا تحزن إن اللّه معنا»(٢) .

(١) مسلم (١٢٨) ، والترمذي (٣٠٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) البخاري (٣٤٥٣) ، ومسلم (٢٣٨١) من حديث أبي بكر رضي الله عنه .

والمعية تنقسم إلى قسمين : معية خاصة ، ومعية عامة ، فالعامة : هي معية العلم والإحاطة كقوله سبحانه : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد : ٤] .

والثانية : وهي المعية الخاصة وهي معية القرب كما تقدم كقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل : ١٢٨] ، والفرق بينهما : أنها إذا جاءت المعية في سياق المحاسبة والمجازاة والتخويف فهي عامة ، وإذا أتت في سياق مدح أو ثناء فهي معية خاصة ، وكلا المعيتين منه- سبحانه- مصاحبة للعبد لكم هذه مصاحبة اطلاع وإحاطة ، وهذه مصاحبة موالاة ونصر وحفظ ، فـ « مع » في لغة العرب للصحبة اللائقة لا تشعر بامتزاج ولا اختلاط ولا مجازاة ولا مجانبة كقوله سبحانه : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة : ١١٩] وتقول : زوجتي معي ، وهذه المعية لا تنافي علو اللَّه على عرشه ، فإن قربه ومعيته ليست كقرب الأجسام بعضها من بعض ، ليس كمثله شيء ، كما قال مالك : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : وهذا شأن ما وصف اللَّه به نفسه ، فلو قال في قوله : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه : ٤٦] كيف يسمع وكيف يرى ؟ لقلنا : السمع والرؤية معلوم والكيف مجهول ، ولو قال كيف يتكلم لقلنا : الكلام معلوم والكيف مجهول .

قوله : ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ :

* أي : ما علم هذا الناهي عن الهدى أن اللَّه يراه ويسمع كلامه وسيجازيه على فعله أتم الجزاء ، وهذا وعيد .

قوله : ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ :

قوله : ﴿الَّذِي يَرَاكَ﴾ ؛ أي : يبصرك وينظر إليك لا تخفى عليه خافية ، فتوكل عليه فإنه سيحفظك وينصرك ويعزك ، وتضمن ذلك الوعد بالإثابة على ذلك أتم الثواب .

قوله : ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ : أي : يراك حين تقوم للصلاة وغيرها ، ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء : ٢١٩] .

أي : يرى تقلبك في الساجدين من قيام وقعود وركوعٍ وسجود ، ففيه فضيلة صلاة الجماعة ، استفيد من هذه الآيات إثبات صفة السمع والبصر ، وإثبات علمه المحيط واستفيد منه- كما تقدم- الإشارة إلى فضيلة السمع على البصر لتقديمه عليه .

قوله : ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ :

قوله : ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا﴾ ؛ أي : قل يا محمد لهؤلاء المنافقين : اعملوا ما شئتم واستمروا على

باطلكم ولا تحسبوا أن ذلك سيخفى عليه، وهذا وعيد شديد لمن خالف أوامره.

قوله: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ :الآية، أي: سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا، وهذا وعيد للمخالف أوامره بأن أعمالهم ستعرض عليه وعلى الرسول وعلى المؤمنين وهذا كائن لا محالة يوم القيامة، كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨] وقال: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩] وقد يظهر اللّٰه ذلك للناس في الدنيا، كما روى الإمام أحمد عن أبي سعيد مرفوعًا: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة ليس لها باب ولا منفذ لأخرج اللّٰه عمله للناس كائنًا ما كان»(١)، وقد ورد أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ.

ففي هذه الآية إثبات الكلام، وفيها دليل على ثبوت الأفعال الاختيارية للرب وقيامها له وأدلة ذلك كثيرة تزيد على الألف كما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما اللّٰه تعالى، وقال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية في كتاب «الرد على المنطقيين» قوله: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وقوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي: لنرى أو لنميز، وهكذا قال عامة المفسرين: إلا لنرى ونميز، وكذا قال جماعة من أهل العلم، قالوا: لنعلمه موجودًا واقعًا بعد أن كان قد علم أنه سيكون، ولفظ بعضهم قال: العلم على منزلتين: علم بالشيء قبل وجوده، وعلم به بعد وجوده، والحكم للعلم به بعد وجوده؛ لأنه يوجب الثواب والعقاب، قال: فمعنى قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾، أي: لنعلم العلم الذي يستحق به العامل الثواب والعقاب، ولا ريب أنه كان عالمًا سبحانه بأنه سيكون لكن لم يكن المعلوم قد وجد، والقرآن قد أخبر أنه سبحانه يعلم ما سيكون في غير موضع، وأخبر بما أخبر به من ذلك قبل أن يكون، وقد أخبر بعلمه المتقدم على وجوده، ثم لما خلقه علمه كائنًا مع علمه الذي تقدم أن سيكون، فهذا هو الكمال، وقد ذكر اللّٰه علمه بما سيكون بعد أن يكون في بضع عشرة آية من القرآن كقوله سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ [البقرة: ١٤٣] مع إخباره في مواضع كثيرة من أنه يعلم ما سيكون قبل أن يكون.

وفي هذه الآيات دليل واضح على أن اللّٰه موصوف بصفات الكمال من العلم والقدرة، والإرادة والحياة والكلام، والسمع والبصر، والوجه واليدين، والغضب والرضا، والفرح والضحك، والرحمة والحكمة، وبالأفعال؛ كالمجيء، والإتيان، والنزول إلى سماء الدنيا ونحو ذلك، والعلم بمجيء ذلك عن الرسول ﷺ ضروري وإخباره به ضروري فوق العلم بوجوب الصلاة والزكاة وتحريم

(١) أحمد (٣/٢٨)، وابن حبان (٥٦٧٨)، والحاكم (٧٨٧٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٧٩٩).

الفواحش، وفرض على الأمة تصديقه فرضًا لا يتم أصل الإيمان إلا به خلافًا للجهمية والمعتزلة وأشباههم.

وفي هذه الآيات - أيضًا - إشارة إلى أنه ينبغي للعبد أن يعبد اللَّه سبحانه وتعالى على استحضار قربه واطلاعه، وأنه بين يديه، وذلك يوجب للعبد الخشية والخوف والهيبة والتعظيم، ويوجب النصح في العبادة، وهذا هو مقام الإحسان كما في حديث عمر: «الإحسان أن تعبد اللَّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1]، وقد دل القرآن على هذا المعنى في مواضع كثيرة، وكذلك وردت أحاديث صحيحة بالندب إلى استحضار هذا القرب في حال العبادات كقوله ﷺ: «إذا قام أحدكم يصلي فإنه يناجي ربه»[2]. انتهى من كلام ابن رجب بتصرف.

قوله: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾:

أي: شديد مما حلته في عقوبة من طغى عليه وعتى وتمادى في كفره، وعن علي رضي الله عنه: شديد المحال أي: شديد الأخذ، وروي: شديد القوة، قال: النفسي في تفسيره: والمعنى: أنه شديد المكر والكيد لأعدائه يأتيهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون. انتهى.

قوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾:

قوله: ﴿وَمَكَرُوا﴾؛ أي: كفار بني إسرائيل حين أرادوا قتل عيسى وصلبه، والمكر: فعل شيء يراد به ضده.

قوله: ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾: أي: جازاهم على مكرهم بأن رفع عيسى إلى السماء، وألقى شبهه على من أراد اغتياله حتى قتل كما روي ذلك.

قوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾: أي: أقوى المجازين وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المعاقب. انتهى. «نسفي».

قوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾:

قوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا﴾؛ أي: دبروا أمرهم على قتل صالح عليه السلام وأهله على وجه الخفية حتى من قومهم خوفًا من أوليائه.

قوله: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾: أي: بنصر نبينا صالح عليه السلام وإهلاك قومه المكذبين، وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

هذه الآيات فيها التحذير من الأمن من مكر اللَّه، قال الحسن - رحمه اللَّه تعالى -: من وسع اللَّه

---

(١) البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البخاري (٣٩٧)، ومسلم (٥٥١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

عليه فلا يرى أنه يمكر به فلا رأي له ، وفي الحديث : « إذا رأيت الله يعطي العبد على معاصيه ما يحب فاعلم إنما هو استدراج »[(١)] . رواه أحمد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وهذا هو تفسير المكر في قول بعض السلف : يستدرجهم الله بالنعم إذا عصوه ، ويملي لهم ، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وهذا معنى المكر والخديعة ونحو ذلك ، ذكره ابن جرير بمعناه . انتهى من « فتح المجيد » .

قوله : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ :

* أي : أن كفار قريش يكيدون كيدًا ، وكيدهم هو ما دبروه في شأن رسول الله ﷺ من الإضرار به وإبطال أمره .

قوله : ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ :

أي : أجازيهم على كيدهم ، والكيد استدراجهم كما في الآية : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ١٨٢] . قال ابن القيم- رحمه الله تعالى- : إن الله سبحانه وتعالى يكيدهم كما يكيدون دينه ورسوله وعباده ، وكيده سبحانه : استدراجهم من حيث لا يعلمون والإملاء لهم حتى يأخذهم على غرة ، فإذا فعل ذلك أعداء الله بأوليائه ودينه كان كيد الله لهم حسنًا لا قبح فيه فيعطيهم ويستدرجهم من حيث لا يعلمون . انتهى بتصرف .

وقال ابن القيم- رحمه الله تعالى- : المكر ينقسم إلى قسمين : محمود ، ومذموم . فإن حقيقة إظهار أمر وإخفاء خلافه ليتوصل إلى مراده فمن المحمود مكره سبحانه بأهل المكر مقابلة لهم بفعلهم وجزاء لهم من جنس عملهم ، قال تعالى : ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال : ٣٠] ، وكذلك الكيد ينقسم إلى نوعين ، قال تعالى : ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم : ٤٥] ، وقوله : ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ [يوسف : ٧٦] ، وكذلك الخداع ينقسم إلى محمود ، ومذموم ، فإن كان بحق فهو محمود ، وإن كان بباطل فهو مذموم . انتهى .

وهذه التفاسير المتقدمة للمكر والكيد والخداع ونحو ذلك ليست من باب التأويل الذي ينكره أهل السنة الجماعة ، بل من باب التفسير ، فإن جميع الصحابة والتابعين يصفون الله سبحانه وتعالى بأنه شديد القوة وكذلك شديد المكر وشديد الأخذ كما وصف الله نفسه بذلك في غير آية من كتابه كقوله : ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود : ١٠٢] ، وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات : ٥٨] ، وقوله : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد : ٦] ، فيمرون هذه الآية على

(١) أحمد (١٤٥/٤) ، والطبراني في « الأوسط » (٩٢٧٢) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٥٦١) .

ظواهرها ويعرفون معناها ولكن لا يكيفونها ولا يشبهونها بصفات المخلوقين ، وهذا مجمع عليه بين أهل السنة . انتهى ملخصًا من رد الشيخ عبد اللّه بن محمد علي الزيدية .

وقال ابن القيم رحمه الله في « الصواعق » : واللّه سبحانه وتعالى لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع والاستهزاء مطلقًا ، لا ذلك داخل في أسمائه الحسنى .

فإن هذه الأفعال ليست ممدوحة بل تمدح في موضع وتذم في موضع فلا يجوز إطلاق أفعالها على اللّه سبحانه وتعالى مطلقًا ، فلا يقال : إن اللّه يمكر ويخادع ويستهزئ ، فكذلك بطريق الأولى أن لا يشتق له منها أسماء يسمى بها ، بل إذا كان لم يأت في أسمائه الحسنى المريد ولا المتكلم ولا الفاعل ولا الصانع ؛ لأن مسمياتها تنقسم إلى ممدوح ومذموم ، فكيف يكون منها الماكر والمخادع والمستهزئ ؟ وهذا لا يقوله مسلم ولا عاقل والمقصود : أن اللّه لم يصف نفسه بالمكر والكيد والخداع إلا على وجه الجزاء لمن فعل بغير ذلك بغير حق ، وقد علم أن المجازاة حسنة من المخلوق ، فكيف من الخلاق سبحانه وتعالى ؟ !

قوله : ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ :

قوله : ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا﴾ ؛ أي : تظهروه .

قوله : ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ : أي : فتعلموا سرًا ، وهذا عام شامل لكل خبر قولي أو فعلي ظاهر أو باطن .

قوله : ﴿أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ﴾ : أي : تتجاوزوا عمن أساء إليكم في أنفسكم أو أموالكم أو غير ذلك ، فالعفو هو التجاوز عن الذنب والصفح عنه ، فعفا تأتي في اللغة لمعان :

الأول : عفا عن الذنب ، أي : صفح عنه ، وعفا : أسقط حقه ، كما قال تعالى : ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ [البقرة : ٢٣٧] .

أي : يسقطوا حقوقهم ، وعفا القوم ، أي : كثروا ، ومنه ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ [الأعراف : ٩٥] أي : كثروا وعفا المنزل ، أي : انطمس ، ومنه قول حسان .

عفت ذات الأصابع فالجواء أي وزال أهلها وانطمست

قوله : ﴿عَفُوًّا﴾ : معناه : ذو العفو ، وهو ترك المؤاخذة على ارتكاب الذنب وهو أبلغ من المغفرة فإنها مشتقة من الغفر وهو الستر ، والعفو : إزالة الأثر ، ومنه عفت الديار . قال ابن القيم في « النونية » :

وهو العفو فعفوه وسع الورى لولاه غار الأرض بالسكان

قوله : « قديرا » : أي : قادرًا على كل شيء .

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله : فمن جعل شيئًا من الأعمال خارجًا عن قدرته ومشيئته فقد

ألحد في أسمائه وآياته بخلاف ما عليه القدرية . انتهى .

قوله : ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ :

العفو : الستر والتجاوز ، والصفح : الإعراض ، مشتق من صفحة العنق ، وهو أن يعرض عن عقاب المذنب وعتابه وكأنه ولاه صفحة عنقه وهو أبلغ من العفو ؛ لأن الصفح لا لوم فيه ولا تثريب .

هذه الآية نزلت في شأن أبي بكر الصديق حين حلف أن لا ينفق على مسطح ابن خالته لخوضه في أمر عائشة ، وكان مسكينًا بدريًّا مهاجرًا ، فلما تلاها النبي ﷺ على أبي بكر قال : بلى أحب أن يغفر اللّه لي ، ورد على مسطح نفقته .

قوله : ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ : غفور ، أي : كثير المغفرة ، وقد تقدم الكلام على ذلك . في هذه الآيات وصفه سبحانه وتعالى بالعفو والغفور ، وفيها : الحث على الصفح والعفو ومكارم الأخلاق ومعالي الأمور ، وفيها أن ما ذكر سبب للمغفرة ، وفيها : دليل على أن الجزاء من جنس العمل ، والأدلة على ذلك في الكتاب والسنة كثيرة ، وفيها : حلم اللّه- سبحانه- وكرمه ولطفه بعباده مع ظلمهم لأنفسهم ، وفيها : إثبات فعل العبد وأنه فاعل حقيقة ، والرد على المجبرة الذين يزعمون أن العبد لا فعل له وإنما ينسب الفعل على جهة المجاز ، ولو كان الأمر كما يزعمون لم يؤمر بما ذكر ولم ينسب إليه الفعل ولم يعاقب على سوء ، وقولهم باطل ترده أدلة الكتاب والسنة بل الفطرة والعقل ، وطرده يختل به النظام ولا يمكن أن تعيش عليه أمة أبدًا .

قال ابن القيم - رحمه اللّه تعالى- : ثم ختم الآية بصفتين من صفاته سبحانه مناسبتين لما تضمنته ، فقال : ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور : ٢٢] ، ففيه إشارة إلى أن كل اسم يناسب ما ذكر معه واقترن به من فعله وأمره سبحانه ، وفيها : أن أسماء الرب مشتقة من أوصاف ومعان قامت به سبحانه ، فهي أسماء وهي أوصاف وبذلك كانت حسنى ؛ إذ لو كانت ألفاظًا لا معاني لها لم تكن حسنى ، ولا كانت دالة على المدح ولا الكمال ، ولساغ وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام أسماء الرحمة والإحسان ، فيقال : اللهم إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت المنتقم ونحو ذلك ، ونفي معاني أسمائه سبحانه وتعالى من أعظم الإلحاد فيها . انتهى .

قوله : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾ :

* يعني : الغلبة والقدرة ، فمن يريد العزة فليطلبها بطاعة اللّه وطاعة رسوله ، فالعزة والعلو إنما هما لأهل الإيمان ، قال تعالى : ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٩] ، فللعبد من العلو بحسب ما معه من الإيمان ، قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون : ٨] ، فله من العزة بحسب ما معه من الإيمان وحقائقه ، فإذا فاته حظه من العلو والعزة ففي مقاله ما فاته من حقائق

الإيمان علمًا وعملًا ، ظاهرًا وباطنًا ، فالمؤمن عزيز عال مؤيد منصور مكفي مدفوع عنه بالذات أين كان ، ولو اجتمع عليه من أقطارها إذا قام بحقيقة الإيمان وواجباته ، فمن نقص إيمانه نقص نصيبه من النصر والتأييد بحسب ما نقص من إيمانه ، انتهى من كلام شيخ الإسلام بتصرف .

وفي هذه الآية إثبات العزة للّه سبحانه وتعالى الكاملة من جميع الوجوه ، قال تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [إبراهيم : ٤] ، والعزة في الأصل : القوة والغلبة والشدة ، تقول : عز يعز بكسر العين إذ صار عزيزًا ، وعز يعز بالفتح إذا اشتد وقوي ، ومنه أرض عزاز ، أي : صلبة ، وعز يعز بالضم إذا غلب وقهر ، فلاسمه العزيز سبحانه ثلاث معان :

الأول : بمعنى الممتنع الجناب عن أن يصل إليه ضرر أو يلحقه نقص أو عيب ، كقوله : ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم : ٢٠] .

الثاني : بمعنى القوة ، كقولهم : « من عزيز » .

الثالث : بمعنى : غلبة الغير وقهره ، ومنه : ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾ [ص : ٢٣] ، أي : غلبني . وكل هذه المعاني ثابتة له سبحانه وتعالى بمقتضى اسمه « العزيز » ، كما قال : ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الجاثية : ٣٧] فـ (ال) تفيد الاستغراق والشمول لجميع معاني العز : قال ابن القيم في « النونية » :

وهو العزيز فلن يرام جنابه ... أني يرام جناب ذي السلطان
وهو العزيز القاهر الغلاب لم ... يغلبه شيء هذه صفتان
وهو العزيز بقوة هي وصفه ... فالعز حينئذ ثلاث معان
وهي التي كملت له سبحانه ... من كل وجه عادم النقصان

قال ابن القيم رحمه الله في كتابه « المدارج » : فاسمه « العزيز » يتضمن كمال قدرته وقوته وقهره ، وهذه العزة مستلزمة لوحدانية ؛ إذ الشركة تنقص كمال العزة . انتهى .

قوله : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ :

* فيه دليل على الحلف بعزة اللّه سبحانه ، وكذا غيرها من صفاته ، وفيه دليل على أن صفات اللّه غير مخلوقة ؛ إذ الحلف بالمخلوق شرك ، وفيه إثبات العزة لله- سبحانه- ردًا على من قال : عزيز بلا عزة ، كما قالوا : إنه عليم بلا علم ، والعزة المضافة إليه- سبحانه- تنقسم إلى قسمين : قسم يضاف إليه- سبحانه- من باب إضافة المخلوق إلى خالقه ، وهي العزة المخلوقة التي يعز بها أنبياءه وعباده الصالحين .

والثاني : يضاف إليه من باب إضافة الصفة إلى الموصوف كما في هذه الآية ، وكما في الحديث :

« أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر »[1]

قوله : ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ :

* أي : تعاظم ، وهو فعل ماض لا يتصرف ، وهو خاص بالله سبحانه وتعالى . والبركة لغة : النماء والزيادة والتبريك : الدعاء بذلك ، قال ابن القيم- رحمه الله تعالى- : البركة نوعان :

أحدهما : بركة هي فعله ، والفعل منها بارك ، والمفعول مبارك ، وهو ما جعل فيها ذلك فكان مباركًا بجعله سبحانه .

والثاني : بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة ، والفعل منها تبارك ؛ ولهذا لا يقال لغيره ذلك ولا يصلح إلا له سبحانه ، فهو المتبارك ورسوله مبارك ، كما قال المسيح : ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم : ٣١] ، وأما صفته سبحانه وتعالى « تبارك » فمختصة به سبحانه كما أطلقها على نفسه . انتهى ملخصًا من « البدائع » .

قوله : ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ :

* أي : أفرده بالعبادة ولا تعبد معه غيره ، وهذا أمره بإفراده سبحانه بالعبادة ، ويتضمن النهي عن عبادة ما سواه ، وعبادته سبحانه وتعالى هي أعظم واجب ، والإشراك به هو أعظم محرم على الإطلاق ، والعبادة لغة : الذل ، يقال : طريق معبد إذا كان مذللًا قد وطئته الأقدام ، كما قال الشاعر :

تبارى عتاقًا ناجيات واتبعت وظيفًا وظيفًا فوق مور معبد

والعبادة شرعًا : ما أمر به شرعًا من غير اطراد عرفي ولا اقتضاء عقلي ، وعرفها الشيخ تقي الدين ابن تيمية - رحمه الله تعالى- بقوله : العبادة : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة كالصلاة والصوم والحج ونحو ذلك ، وفيها دليل على أن العبادة تجب على كل مكلف ، وأنه مهما بلغ فلن يصل إلى حد تسقط عنه التكاليف الشرعية ، ومن فعل ذلك فهو كافر بالله العظيم ، فإن قوله : ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ [مريم : ٦٥] خطاب لنبيه ، وأمته تبع له ، فإذا كان هذا حقه ﷺ فغيره من باب أولى وأحرى وللعبادة شرط لا تصح إلا بها :

الأول : الإخلاص ، وهو أن يكون العمل لله سبحانه وتعالى .

الثاني : المتابعة ، وهو أن يكون العمل على سنة رسول الله ﷺ ، كما قال تعالى : ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة : ١١٢] ، فقوله : « مَن » إشارة إلى الإخلاص ، وقوله : ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ إشارة إلى المتابعة ، وقال الفضيل بن عياض في قوله سبحانه وتعالى : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ

---

(١) مسلم (٢٢٠٢) ، وابن حبان (٢٩٦٤) من حديث عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه .

﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] قال: أخلصه وأصوبه، قيل: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، والخالص أن يكون للَّه، والصواب أن يكون على سنة رسول اللَّه ﷺ، وللعبادة ثلاثة أركان وهي: المحبة، والخوف، والرجاء.

قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾: أي: وهل له مساميًا ومشابهًا ومماثلًا من المخلوقين؟ وهذا استفهام بمعنى النفي المعلوم بالعقل، أي: لا تعلم له مشابهًا؛ لأنه الرب وغيره المربوب، الغني من جميع الوجوه، وغيره الفقير، الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وغيره ناقص من جميع الوجوه، فهذا برهان قاطع على أنه هو المستحق للعبادة وأن عبادة غيره باطلة، وفي الآية دليل على أنه لا مثل له ولا شبيه ولا نظير لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أسمائه ولا في أفعاله، وهذا النفي متضمن لإثبات جميع صفات الكمال على وجه الإكمال، وهذا هو المعقول في فطر الناس، فإذا قالوا: فلان لا مثل له ولا شبه له، فإنهم يريدون أنه تفرد في الصفات والأفعال والمجد فلا يلحقه في غيره، وفي الآية دليل على إثبات الصفات للَّه سبحانه وتعالى كما يليق بجلال اللَّه وعظمته، وفيه دليل على كثرة الصفات وعظمتها، فلو كان المراد به نفي صفاته لكان ذلك وصفًا بغاية الذم، فإن النفي المحض عدم، والعدم لا يمدح به أحد، وإنما يكون النفي كمالًا إذا تضمن الإثبات كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أي: لكمال حياته وقيوميته.

وفيه دليل على نفي المثلية، فاتفاق اسم الخالق واسم المخلوق لا يقضي بتماثلهما، فصفات الخالق تناسبه وتليق بذاته، وصفات المخلوق تناسبه.

قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾: فلا تقدم الكلام على ذلك.

قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾؛ أي: أمثالًا ونظراء تعبدونهم كعبادته وتساوونهم به في المحبة والتعظيم، فلا ند له في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله ولا في عبادته، والند في اللغة: المثل والنظير والشبيه، يقال: فلان ند فلان، أي: شبيهه ونظيره، كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

أتهجوه ولست له بند ... فشركما لخيركما الفداء

واتخاذ الند ينقسم إلى قسمين: قسم من الشرك الأكبر؛ كاتخاذ ند يدعوه أو يرجوه، أو يخافه، أو يذبح له، أو ينذر له، ونحو ذلك، كما في «الصحيحين» عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول اللَّه، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل له ندًا وهو خلقك»[1] الحديث.

---

(١) البخاري (٤٢٠٧)، ومسلم (٨٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

قال ابن القيم رحمه الله في كتابه « الكافية الشافية » :

والشرك فاحذره فشرك ظاهر ذا القسم ليس بقابل الغفران

وهو اتخاذ الند للرحمن أيا من حجر ومن إنسان

يدعوه أن يرجوه ثم يخافه ويحبه كمحبة الرحمن

القسم الثاني : ما هو من نوع الشرك الأصغر كقول الرجل : ما شاء الله وشئت ، ولولا الله وأنت لم يكن كذا ، والحلف بغير الله ، ونحو ذلك كما في حديث ابن عباس : أن رجلًا قال للنبي ﷺ : ما شاء الله وشئت ، فقال النبي ﷺ : « أجعلتني لله ندًا ؟ قل : ما شاء الله وحده »[١] . أخرجه النسائي وابن ماجه .

قوله : ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ : أي : أنه ربكم وخالقكم وخالق كل شيء ، فهو المستحق للعبادة ، فكيف تجعلون له أندادًا وقد علمتم أنه لا ند له يشاركه فعله .

ففي هذه الآية الرد على جميع فرق الضلال ، ففيه الرد على المشبهة الذين يشبهون الله بخلقه ، والذين يشبهون خلقه به كعبدة الأوثان ، وفيها الرد على القدرية الذين يزعمون : أن العبد يخلق فعل نفسه استقلالًا بدون مشيئة الله فيكون شريكًا لله سبحانه وتعالى وندًا ، وفيها الرد على المعطلة الذين نفوا صفات الله فرارًا من التشبيه ؛ فشبهوه بالمعدومات والناقصات ، وفيها دليل على أن معرفة الله والإقرار به فطري ضروري فطر الله عليه العباد كما في الحديث : « ما من مولود إلا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »[٢] .

وإن كان بعض الناس قد يحصل له ما يفسد فطرته حتى يحتاج إلى نظر تحصل به المعرفة كما قال تعالى : ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم : ١٠] ، أي : أيشك في الله حتى يطلب إقامة الدليل على وجوده ، وأي دليل أصح وأظهر من هذا المدلول . قال ابن القيم رحمه الله : سمعت شيخ الإسلام يقول : كيف يطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء ، وكان كثيرًا يتمثل بهذا البيت :

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

وقد تكلم الشيخ ابن تيمية رحمه الله على قول من قال : إن أول واجب هو النظر أو القصد إلى النظر أو الشك ، وبين أنها كلها غلط مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف والأئمة ، وباطلة بالعقل أيضًا ، وقرر هو وغيره أن أول واجب على العبد هو التوحيد كما في حديث معاذ رضي الله عنه

---

(١) أحمد (٢١٤/١) ، والطبراني (٢٤٤/١٢) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٧٨٣) ، وغيرهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما . وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (١٣٩) .

(٢) البخاري (١٢٩٣) ، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

حين بعثه النبي ﷺ إلى اليمن وقال: «فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة إلا إله إلا اللَّه»[1] ، وفي رواية: «إلى أن يوحدوا اللَّه»[2] . وكذلك جميع الرسل أول ما يفتتحون دعوتهم بالدعوة إلى التوحيد.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: أول من أنكر معرفة اللَّه الفطرية هم أهل الكلام الذي اتفق السلف على ذمه من الجهمية والقدرية، وهم عند سلف الأمة من أجهل الطوائف وأضلهم. انتهى. وفيها الرد على من زعم: أن القرآن مخلوق بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، ويزعم أن «جعل» بمعنى: «خلق»، فرد أحمد عليهم بقوله سبحانه: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، فليست جعل بمعنى خلق هنا. وفيها أنه سبحانه يحتج على المشركين بإقرارهم بتوحيد الربوبية على إثبات توحيد الألوهية. وفيها الاستدلال بهذه المخلوقات على وجوه سبحانه، فهي دليل وآية على توحيد اللَّه سبحانه، وإثبات أسمائه وصفاته وكماله وصدق رسله عليهم الصلاة والسلام، ويروى أنه سئل بعض الأعراب: ما الدليل على وجود الرب؟ فقال للسائل: يا سبحان اللَّه، إن البعر ليدل على البعير، وإن أثر الأقدام ليدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحر ذات أمواج؛ ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾:

أي: نظراء وأمثالًا يساويهم في اللَّه بالعبادة والمحبة والتعظيم، وهؤلاء لا يساوونهم باللَّه في الرزق والتدبير، وإنما يسوونهم باللَّه في المحبة فيعبدونهم ليقربوهم إلى اللَّه زلفى، فأخبر سبحانه أن من أحب من دون اللَّه شيئًا كما يحب اللَّه فهو ممن اتخذ من دون اللَّه أندادًا، ففيها دليل على أنه سبحانه لا ند له، وإنما المشركون جعلوا بعض المخلوقات أندادًا له تسمية مجردة ولفظًا فارغًا من المعنى كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ الآية [الأنعام: ١٠٠]، والمذكور في الآية هو المحبة الشركية المستلزمة للخوف والتعظيم والإجلال والإيثار على مراد النفس، فمحبة اللَّه سبحانه هي أصل دين الإسلام وبكمالها يكمل، فهي أعظم الفروض، فصرفها لغير اللَّه شرك أكبر، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

قال ابن القيم رحمه الله: فتوحيد المحبوب أن لا يتعدد محبوبه، أي: مع اللَّه بعبادته له، وتوحيد الحب أن لا يبقى في القلب بقية حب حتى يبذلها له.

---

(١) البخاري (١٤٢٥)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) البخاري (٦٩٣٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٦٥]:

أي: من أصحاب الأنداد لأندادهم، فمحبة المؤمنين لربهم لا تساويها محبة، والمعنى: والذين آمنوا أشد حبًا لله من محبة أهل الأنداد لله؛ لأن محبة المؤمنين لله خالصة، ومحبة المشركين لله مشتركة قد أخذت أندادهم قسطًا من محبتهم، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة، ففي هذه الآيات أن من أشرك مع الله غيره في المحبة فقد جعله شريكًا لله واتخذ ندًا لله، وأن ذلك هو الشرك الأكبر، فالمحبة تنقسم إلى أقسام كما ذكره ابن القيم رحمه الله وغيره.

الأول: محبة الله سبحانه، ولا تكفي وحدها بالنجاة من النار والفوز بالجنة، فإن المشركين يحبون الله سبحانه.

الثاني: محبة ما يحبه الله، وهذه المحبة هي التي تدخل في الإسلام، وتخرج من الكفر، وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة.

الثالث: المحبة في الله ولله، وهي فرض كمحبة أولياء الله وبغض أعداء الله، وهي من مكملات محبة الله ومن لوازمها، فالمحبة التامة مستلزمة لموافقة المحبوب في محبوبه ومكروهه، وولايته وعداوته، ومن المعلوم أن من أحب الله المحبة الواجبة، فلا بد أن يبغض أعداء الله ويحب أولياءه.

الرابع: المحبة مع الله، المحبة الشركية وهي المستلزمة للخوف والتعظيم والإجلال، فهذه لا تصلح إلا لله سبحانه، ومتى أحب العبد بها غير الله فقد أشرك الشرك الأكبر.

الخامس: المحبة الطبيعية وهي ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه، كمحبة المال والولد ونحو ذلك، فهذه المحبة لا تذم إلا أن أشغلت وألهت عن طاعة الله، كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

قوله: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾ [الإسراء: ١١١]:

قوله: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ﴾: «ال»: للاستغراق والشمول، أي: الحمد كله لله، فهو المستحق للحمد لما اتصف به من صفات الكمال، والحمد هو الثناء عليه- سبحانه- بما هو أهله، والثناء هو ذكر الصفات الجميلة مرة بعد أخرى، وأما النثاء بتقديم النون، فيكون في الخير والشر، وأما المجد فهو ذكر صفات الجلال والعظمة، وأما الشكر فهو فعل ينبئ عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعمًا، وشرعًا: هو صرف العبد جميع ما أنعم الله لما خلق لأجله.

والفرق بين الحمد والشكر، أن الشكر يكون باللسان والجنان والأركان، أما الحمد فلا يكون إلا

باللسان والجنان ، وأيضًا ، فإن الشكر لا يكون إلا في مقابلة نعمة ، وأما الحمد فهو يكون في مقابلة نعمة وفي غير مقابلة نعمه . قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية : والحمد نوعان : حمد على إحسانه إلى عباده ، وهو من الشكر ، وحمد لما يستحقه من نعوت كماله ، وإنما يستحق ذلك من هو متصف بصفات الكمال وهي أمور وجودية ، فإن الأمور العدمية لا حمد فيها ولا خير ولا كمال ، ومعلوم أن كل ما يحمد ، فإنما يحمد على ما له من صفات الكمال ، فكل ما يحمد به الخلق فهو من الخالق ، فثبت أنه المستحق للمحامد كلها ، وهو أحق بالحمد من كل محمود ، وبالكمال من كل كامل . اهـ .

قوله : ﴿ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ : هذا رد على اليهود والنصارى والمشركين ، فإن النصارى يقولون المسيح ابن اللَّه ، واليهود يقولون العزيز ابن اللَّه ، والمشركين يقولون الملائكة بنات اللَّه .

قوله : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ : هذا رد على المجوس والمشركين والقدرية .

قوله : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ ؛ أي : ليس بذليل فيحتاج إلى أن يكون له ولي أو وزير أو مشير ؛ لأنه سبحانه عزيز لا يفتقر إلى ولي يحميه ويمنعه من الذل ، فنفى الولاية على هذا المعنى ، لأنه غني عنها ولم ينف الولاية على وجه المحبة والكرامة لمن شاء من عباده ، فلم ينف الولي نفيًا عامًا مطلقًا ، بل نفي أن يكون له ولي من الذل ، وأثبت في موضع آخر أن يكون له أولياء بقوله : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس : ٦٢] ، فهذه موالاة رحمة وإحسان ، والموالاة المنفية موالاة حاجة وذل ، كما أشار إلى هذا المعنى ابن القيم رحمه الله .

قوله : ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ ؛ أي : عظمه عما يقوله الظالمون المخالفون للرسل .

ففي هذه الآية أمر نبيه بحمده ؛ لأنه المستحق أن يحمد لما اتصف به من صفات الكمال ، وفيها تنزيهه سبحانه عن الولد ، وذلك لكمال صمديته سبحانه وغناه وتعبد كل شيء له ، فاتخاذ الولد ينافي ذلك كما قال سبحانه : ﴿قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس : ٦٨] الآية .

وفيها : تنزيهه سبحانه أن يكون له شريك في الملك المتضمن تفرده بالربوبية والألوهية وتوحده بصفات الكمال التي لا يوصف بها غيره ، وهذه الآية آية عظيمة ، وتسمى آية العز . قال ابن كثير : قال قتادة : ذكر لنا أن النبي ﷺ كان يعلم أهله هذه الآية ؛ الصغير والكبير .

قلت : وقد جاء في حديث أن الرسول ﷺ سمى هذه الآية آية العز ، وفي بعض الآثار أنها ما قرأت في بيت في ليلة فيصيبه سرقة أو آفة . انتهى ، من كلام ابن كثير .

قوله : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن : ١] :

قوله : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ ؛ أي : ينزهه عما لا يليق بجلاله وعظمته ، فالتسبيح يقتضي التنزيه لله- سبحانه- من كل سوء وعيب وإثبات صفات الكمال لله سبحانه .

وهذا التسبيح قيل بلسان الحال ، وقيل بلسان المقال وهو الصحيح ، والله- سبحانه- قادر على خلق الإدراك في الجمادات وإنطاقها ، كما قال سبحانه عن الجلود : ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت : ٢١] .

والأصل في الكلام الحقيقة ، وقد سمع النبي ﷺ تسبيح الحصى ، وورد أن النبي ﷺ قال : « إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليَّ »[(١)] ، وكما في الحديث أن النبي ﷺ لما خطب على المنبر حن الجذع الذي كان يخطب عليه سابقًا ، وقال تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء : ٤٤] الآية .

قوله : ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ : أي : جميع ما في السماوات والأرض يسبح لله وحده وينزهه عما لا يليق بجلاله وعظمته وقدم السماوات على الأرض لأنها مقدمة بالرتبة والفضل والشرف ، أفاده ابن القيم في « البدائع » .

قوله : ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ ؛ أي : هو المالك وحده لجميع المخلوقات النافذ فيها أمره ، يتصرف فيها كيف يشاء ، لا معقب لحكمه ولا راد لأمره .

قوله : ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ : ففي هذه الآية دليل على وجود التسبيح من جميع المخلوقات ، وأنه تسبيح حقيقي ، وأنه سبحانه قادر على خلق الإدراك للجمادات وقادر على إنطاقها ، وفيها إثبات جميع صفات الكمال لله سبحانه ، ونفي كل نقض وعيب ، لأن التسبيح يقتضي ذلك .

قوله : ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان : ١، ٢] :

قوله : ﴿تَبَارَكَ﴾ : من البركة وهو لغة : النماء والزيادة ، وتبارك فعل مختص بالله لم ينطق له بمضارع .

قوله : ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ ؛ أي : القرآن ، سمي بذلك ؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل ، ومنه

---

(١) مسلم (٢٢٧٧) ، وأحمد (٥/ ٨٩) من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه .

الفاروق ، وفيه دليل على أن القرآن منزل من عند اللَّه ، وفيه دليل على علوه سبحانه على خلقه ، لأن الإنزال والتنزيل لا يكون إلا من أعلى إلى أسفل ، وأفادت هذه الآية فضل هذا الكتاب على الكتب الأخرى .

قوله : ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ : أي : على عبده ورسوله محمد ﷺ ، وهذا صفة مدح وثناء ، لأنه أضافه إلى عبوديته ووصفه بها في أشرف مقاماته مقام الإرسال ، كقوله سبحانه : ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن : ١٩] ، ومقام الإسراء ، كقوله سبحانه : ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء : ١] ، ومقام التحدي كقوله سبحانه : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ الآية [البقرة : ٢٣] ، وهذه الإضافة إضافة تشريف وتعظيم ، وتقدم أن المضاف إليه سبحانه ينقسم إلى قسمين : إضافة أعيان وإضافة معان ، فإضافة المعاني إليه سبحانه وتعالى من باب إضافة الصفة إلى الموصوف ، كإضافة السمع والبصر والعلم والقدرة ونحو ذلك إليه سبحانه من كل شيء لا يقوم بنفسه .

الثاني : إضافة الأعيان إليه سبحانه ، فإضافتها إليه سبحانه من باب إضافة المخلوق إلى خالقه ، كبيت اللَّه وناقة اللَّه ، والحجر يمين اللَّه ، وعبد اللَّه ورسول اللَّه ونحو ذلك . وفي هذه الآية فضل نبينا ﷺ حيث إضافة إليه ووصفه بالعبودية التي هي من أشرف مقامات العبد .

قوله : ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ ؛ أي : منذرًا ، والإنذار : هو الإعلام بأسباب المخافة ، فكل إنذار إعلام ولا ينعكس . قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله : والإنذار المذكور في الآية إنذار عام ، فإن الإنذار ينقسم إلى قسمين : إنذار عام وإنذار خاص . والخاص كقوله سبحانه : ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات : ٤٥] ، وقوله : ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس : ١١] الآية .

فهذا الإنذار الخاص هو التام النافع الذي ينتفع به المنذر ، والإنذار : هو الإعلام بالخوف ، فعلم المخوف فآمن وأطاع . انتهى .

ونذارته ﷺ تنقسم إلى قسمين : عامة وخاصة ، فالعامة كما في هذه الآية ، والخاصة كقوله سبحانه : ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء : ٢١٤] الآية .

قوله : ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ : اللام في قوله : ﴿لِيَكُونَ﴾ ؛ ليكون لام العلة ، ودخول لام التعليل في شرعه أكثر من أن يعد ، ففيه دليل على تعليل أفعال اللَّه وأنه لا يفعل شيئًا إلا لعلة وحكمة .

قال الشيخ تقي الدين : هذا قول السلف وجمهور السلف وجمهور العقلاء ، وقالت طائفة كجهم وأتباعه إنه لم يخلق شيئًا لشيء ووافقه أبو الحسن الأشعري ومن اتبعه من الفقهاء أتباع الأئمة . انتهى .

قوله : ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ : المراد بالعالمين هنا : الجن والإنس ، ففيه دليل على عموم رسالته ﷺ وبعثه إلى الجن والإنس ، ووفيه دليل على أن الجن مكلفون ، ويتضمن الدلالة على أنهم يثابون على الحسنات ويجازيهم على السيئات ، وفيه دليل على أن من بلغه القرآن ، فقد قامت عليه الحجة لقوله سبحانه وتعالى : ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ الآية [الفرقان : ١] ، ففيه الرد على من زعم : أن كلام الله ورسوله لا يفيد اليقين ، فلو كان الأمر كما زعم هؤلاء المبتدعة لم تقم بالقرآن حجة على المكلفين ، وأفادت هذه الآية الحكمة في إرسال الرسل وإنزال الكتب .

قوله : ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ؛ أي : له التصرف فيهما والجميع خلقه وعبيده .

قوله : ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ ؛ أي : لكمال غناه وقيامه بنفسه وحاجة كل شيء إليه وافتقاره وقيام كل شيء ؛ سبحانه وتعالى .

قوله : ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ ؛ أي : أوجد وأنشأ وأبدع ، وتأتي خلق بمعنى : قدر ، وتأتي بمعنى : كذب ، كما قال سبحانه : ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت : ١٧] ، وقال الشاعر :

لي حيلة فيمن ينم ... وليس في الكذاب حيلة
من كان يخلق ما يقول ... فحيلتي فيه قليلة

قوله : ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ ؛ أي : خلق كل شيء مخلوق ، فيدخل في ذلك أفعال العبد ، فهي خلق الله وفعل للعبد ولا يدخل في ذلك أسماء الله وصفاته ؛ لأن الأسماء والصفات تابعة للذات يحتذى فيها حذوها . وعموم ﴿كُلُّ﴾ [الأنعام : ١٠١] في كل مقام بحسبه كقوله سبحانه : ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف : ٢٥] ، أي : كل شيء أمرت بتدميره ، وقوله : ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل : ٢٣] ، أي : من كل شيء يصلح للملوك ، فلا يدخل في ذلك القرآن ؛ لأن القرآن كلامه ، وهو صفة من صفاته والله سبحانه وتعالى بصفات غير مخلوق ، كما في الصحيح من حديث خولة : « من نزل منزلًا وقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك »[1] ، فاستعاذ بكلمات الله ، والاستعاذة بالمخلوق شرك ، فدل على أن كلامه سبحانه غير مخلوق ، كما استدل بذلك أحمد وغيره .

قال ابن القيم رحمه الله في « المدارج » : استدل الجهمية على خلق القرآن بهذه الآية فأجابهم السلف بأن القرآن كلامه سبحانه ، وكلامه من صفاته وصفاته داخلة في مسمى اسمه كعلمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره ووجهه ، فليس لله سبحانه وتعالى أسماء لذات لا نعت لها ولا صفة ولا فعل ولا وجه ولا يدين ، فإن ذلك إله معدوم مفروض في الأذهان لا وجود له في الأعيان كإله الجهمية الذي فرضوه

---

(١) مسلم (٢٧٠٨) ، والترمذي (٣٤٣٧) من حديث خولة بنت حكيم رضي الله عنها .

لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا متصل فيه ولا منفصل عنه ، ولا محايد ولا مباين ، أما إله العالمين الحق هو الذي دعت إليه الرسل وعرفوه بأسمائه وصفاته وأفعاله فوق سماواته بائن من خلقه ، موصوف بالكمال ، منزه عن كل عيب ، فتجريد الذات عن الصفات والصفات عن الذات فرض وخيال ذهني لا حقيقة له . انتهى .

قوله : ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ ؛ أي : قدر رزقه وأجله وحياته وموته وما يصلح له ، ففيه دليل على الإيمان بالقدر ، ودليل على ما سبق : علم اللَّه سبحانه وتعالى بالأشياء وكتابتها ، كما ثبت في « صحيح مسلم » عن عبد اللَّه بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال : « قَدَّر اللَّه مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء »(١) ، وفي البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « كان اللَّه ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السماوات والأرض »(٢) ، وفي رواية : « ثم خلق السماوات والأرض »(٣) ، وأحاديث تقديره وكتابته سبحانه لما يريد أن يخلقه كثيرة جدًّا .

أفادت هذه الآية عدا ما تقدم عموم ربوبيته سبحانه وتعالى وملكه ، وأنه الإله الحق وبطلان عبادة ما سواه ، وأفادت الحث على التوكل ؛ لأن من وقر في قلبه أن الملك للَّه ، وأنه المتصرف النافع الضار لم يبال بأحد من الخلق ، وأفادت كما ذكره بعضهم : أن العباد لا يملكون الأعيان ملكًا مطلقًا ، وإنما يملكون التصرف فيها على مقتضى الشرع ، وأفادت تحريم الإفتاء بغير علم ؛ لأن ربوبيته وملكه يمنع من الحكم والإفتاء بغير إذنه وبغير حكمه ، وأفادت تعدد السماوات ، وأنها أشرف من الأرض ؛ لأنه قدمها ، وقد تقدم كلام ابن القيم رحمه الله في هذا الموضوع ، وفيها تنزيه سبحانه وتعالى عن مشابهة المخلوقين في قوله : ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ [الفرقان : ٢] ، فإن الولد عادة يكون من جنس الوالد ، وفيها الرد على اليهود القائلين : العزيز ابن اللَّه ، والنصارى القائلين : المسيح ابن اللَّه ، والمشركين القائلين الملائكة بنات اللَّه ، وفيها الرد على المشركين في إشراكهم معه غيره ، والرد على المجوس القائلين بأن النور خلق الخير ، والظلام خلق الشر ، والرد على الدهرية القائلين ما هي إلا حياتنا الدنيا ، وفيها الرد على القدرية القائلين بأن العباد يخلقون أفعالهم ، وتضمن إثبات صفة العلم للَّه سبحانه وتعالى ، فإن الخالق لا بد أن يعلم مخلوقه ، إذ الخلق فرع العلم فلا يمكن الخلق إلا بعد العلم ، قال تعالى : ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك : ١٤] .

---

(١) مسلم (٢٦٥٣) ، وأحمد (٢/١٦٩) من حديث عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما .

(٢) البخاري (٣٠١٩) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه .

(٣) البخاري (٦٩٨٢) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه .

ففيها الرد على غلاة القدرية الذين نفوا علمه سبحانه ، فكفرهم السلف قاطبة بذلك ، وفيها الرد على من زعم : أن العرش غير مخلوق ، وفيها الرد على المجبرة القائلين : إن العبد لا فعل له وأن فعله كهفيف الأشجار أو كحركة المرتعش ، وهذا باطل ترده أدلة الكتاب والسنة بل العقل والفطرة ، فإن أفعال العباد داخلة في عموم كل المضافة إلى شيء ، فهي مخلوقة والمخلوق بائن ، ومنفصل عن الخالق فليس هو فعله ، فإذًا لا بد له من فاعل يقوم به وهم العباد ، وكل أحد يفرق بين الحركة الاختيارية والاضطرارية ، وقد قال العلماء : أن مما يرده أدلة العقل والنقل والفطرة ، والأدلة على إثبات فعل العبد وأن له فعلًا حقيقة ينسب إليه على جهة الحقيقة لا على جهة المجاز أكثر من أن تحصر ، وفيها انتظام هذا الكون واتساقه على أكمل نظام وأتمه مما يدل دلالة واضحة على أن له خالقًا ومدبرًا وهو الله سبحانه .

قوله : ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون : ٩١، ٩٢] :

قوله : ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ ؛ أي : لأنه منزه عن المثل والشبيه والنظير ، والولد يشبه والده فلم يتخذ ولدًا لكمال صمديته وغناه وملكه وتعبد كل شيء له ، فاتخاذ الولد ينافي ذلك كما قال سبحانه : ﴿قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾ [يونس : ٦٨] ، ففيه الرد على من زعم أن له ولدًا كاليهود والنصارى والمشركين وغيرهم والرد على المشبهة الممثلة .

قوله : ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ﴾ ؛ أي ليس معه سبحانه شريك في الألوهية لتفرده سبحانه بالألوهية والربوبية وتوحده بصفات الكمال التي لا يوصف بها غيره سبحانه فيكون شريكًا له ، وكذا كل سلب وجد فهو لتضمنه إثبات كمال ضده ، وإلا فالسلب المحض ليس بمدح ولا ثناء . انتهى من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية .

قوله : ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾ ؛ أي : لو كان معه إله لذهب كل إله بما خلق ، أي : انفرد به ومنع غيره من الاستيلاء عليه ، فلو قدر ذلك لما كان ينتظم الوجود ، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق ، ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ﴾ [الملك : ٣] .

قوله : ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾ ؛ أي لو كان معه إله لعلا بعضهم على بعض مغالبة كفعل ملوك الدنيا فكل واحد منهم يطلب قهر الآخر ، والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا بدليل التمانع .

قوله : ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ ؛ أي : تنزيها لله سبحانه والتسبيح : التنزيه عن كل نقص وعيب .

قوله : ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ؛ أي : تنزيها لله سبحانه عما يصفه به المخالفون للرسل عليهم السلام .

وقال ابن القيم - رحمه اللَّه تعالى - : تأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز البين ، فإن الإله الحق لا بد أن يكون خالقًا فاعلًا يوصل إلى عابديه النفع ويدفع عنهم الضر ، فلو كان معه إله آخر لكان له خلق وفعل ، وحينئذ فلا يرضى شركة الإله الآخر معه ، بل إن قدر على قهره والتفرد بالألوهية دونه فعل ، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب به كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بممالكهم ، إذا لم يقدر المنفرد على قهر الآخر والعلو عليه فلا بد من أحد أمور ثلاثة :

إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه ، وإما أن يعلو بعضهم على بعض ، وإما أن يكونوا كلهم تحت قهر إله واحد يتصرف بهم ولا يتصرفون فيه ، فيكون وحده هو الإله الحق وهم العبيد المربوبون المقهورون ، وانتظام أمر العالم العلوي والسفلي وارتباط بعضه ببعض ، وجريانه على نظام محكم لا يختلف ولا يفسد من أدل دليل على أن مدبره واحد لا إله غيره ، كما دل دليل التمانع على أن خالقه واحد لا رب غيره فذلك تمانع في الفعل والإيجاد ، وهذا تمانع في الغاية والألوهية ، فكما يستحيل أن يكون للكون ربان خالقان متكافئان ، كذلك يستحيل أن يكون إلهان معبودان . اهـ .

قوله : ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ ؛ أي يعلم ما غاب عن العباد وما شاهدوه ، والغيب ينقسم إلى قسمين : غيب مطلق ، وغيب مقيد .

فالمطلق : لا يعلمه إلا اللَّه ، وهو ما غاب عن جميع المخلوقين الذي قال فيه : ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن : ٢٦] .

والغيب المقيد : ما علمه بعض المخلوقات من الجن والإنس ، فهو غيب عمن غاب عنه وليس هو غيبًا عمن شهده ، والناس قد يغيب عن هذا ما يشهده هذا فيكون غيبًا مقيدًا ، أي غيبًا عمن غاب عنه من المخلوقين لا عمن شهده ، وليس هو غيبًا مطلقًا عن المخلوقين قاطبة . انتهى من كلام شيخ الإسلام بتصرف .

قوله : ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف : ١٩٠] : قوله : ﴿فَتَعَـٰلَىٰ﴾ ، أي : علا وتنزه وتقدس عما لا يليق بجلاله ، فله سبحانه العلو الكامل المطلق من جميع الوجوه ، علو القهر ، أي أنه علا على كل شيء ، بمعنى : أنه قاهر له ، قادر عليه متصرف فيه كما قال تعالى : ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون : ٩١] انتهى . وله سبحانه وتعالى علو القدر ، فتعالى سبحانه وتنزه عن المثيل والنظير وتنزه عن النقائص والعيوب كما قال : ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة : ٣١] وفي دعاء الاستفتاح : « وتعالى جدك »[1] ، وله سبحانه علو الذات ، أي : أنه عال على

---

(١) أبو داود (٧٧٥) ، والنسائي (٨٩٩) ، وأحمد (٣/ ٥٠) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ . وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (٢٩٩٦) .

الجميع فوق عرشه ، وإثبات علوه سبحانه على ما سواه وقدرته عليه وقهره يقتضي ربوبيته له وخلقه له ، وذلك يستلزم ثبوت الكمال ، وعلو من الأمثال يقتضي أنه لا مثل له في صفات الكمال فاسمه : « العلي الأعلى » يتضمن اتصافه بجميع صفات الكمال وتنزيهه عما ينافيها من صفات النقص وعن أن يكون له مثل ، وأنه لا إله إلا هو ولا رب سواه . انتهى ملخصًا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

قوله : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل : ٧٤] :

قوله : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ : يعني الأشباه ، فتشبهونه بخلقه وتجعلون له شريكًا ، فإنه سبحانه لا مثل له ، ولا ند له لا في ذاته ولا في أسمائه وصفاته ولا في أفعاله ، وضرب المثل هو تشبيه حال بحال ، فلا يمثل سبحانه وتعالى بخلقه ولا يشبهه بهم سبحانه وتعالى ، فإنه سبحانه لا مثل له .

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية في أثناء كلامه : والله سبحانه لا تضرب له الأمثال التي فيها مماثلة لخلقه فإن الله لا مثل له ، بل له المثل الأعلى فلا يجوز أن يشرك هو والمخلوق في قياس تمثيل ولا قياس شمول تستوي أفراده ، بل يستعمل في حقه المثل الأعلى ، وهو أن كل ما اتصف به المخلوق من كمال فالخالق أولى به ، وكل ما ينزه عنه المخلوق من نقص فالخالق أولى بالتنزيه ، قال تعالى : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر : ٩] ، وهذا يبين أن العالم أكمل ممن لا يعلم ، وحينئذ فالمتصف له أولى ولله المثل الأعلى ، وقال تعالى : ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم : ٤٢] فدل على أن السميع البصير الغني أكمل وأن المعبود يجب أن يكون كذلك ، فمن جعل الواجب الوجود لا يقبل الاتصاف بصفات الكمال المذكورة فقد جعله من جنس الأصنام الجامد التي عابها الله وعاب عابديها ، والله سبحانه لم يذكر هذه النصوص لمجرد تقرير صفات الكمال ، بل ذكرها لبيان أنه المستحق للعبادة دون من سواه ، فأفاد الأصلين اللذين بهما يتم التوحيد ، وهو إثبات صفات الكمال ردا على أهل التعطيل ، وبيان أنه المستحق للعبادة لا إله إلا هو ردًا على المشركين . انتهى .

قوله : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٣٣] :

قوله : ﴿قُلْ﴾ ؛ قل يا محمد ، ففيه دليل على أن القرآن كلام الله ليس كلام محمد ولا غيره ، وإنما محمد عليه الصلاة والسلام مبلغ لكلام الله .

قوله : ﴿إِنَّمَا﴾ : أداة حصر تثبت المذكور وتنفي ما سواه .

قوله : ﴿حَرَّمَ﴾ ؛ أي : جعله حرامًا ومنع منه ، والحرام شرعًا : هو ما أثيب تاركه وعوقب فاعله ، وبمنعاه ، المحظور ، والممنوع ، والتحريم ينقسم إلى قسمين : شرعي كما في هذه الآية ، وكوني

قدري كما في قوله تعالى : ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥].

قوله : ﴿رَبِّيَ﴾ : الرب هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر لجميع الأمور ، وإذا أفرد أو عرف لم يطلق إلا على اللّه سبحانه وتعالى ، أما إذا أضيف فيطلق على غيره ، ما يقال : رب الدار ، ورب الدابة ونحو ذلك .

قوله : ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ : هي جمع فاحشة ، وهو ما استعظم من الذنوب والمعاصي كالزنا واللواط وقتل النفس ونحو ذلك سماه اللّه فاحشة لتناهي قبحه .

قال ابن القيم رحمه الله في كتابه « المدارج » : فيه دليل على أن الأفعال التي توصف بأنها حسنة وقبيحة ، كما أنها نافعة وضارة ، ولكن لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب إلا بالأمر والنهي ، قال تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] ، وقال : ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣١] وعلى أحد القولين : هو أن المعنى لم يهلكهم بظلم قبل إرسال الرسل ، فتكون الآية دالة على الأصلين : أن أفعالهم وشركهم قبيح قبل البعثة ، وأنه لا يعاقبهم إلا بعد الإرسال .

قوله : ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ ؛أي : ما أعلن منها وما أسر .

قوله : ﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ ؛أي : الذنب ، تعميم بعد تخصيص ، وقيل : المراد بالإثم : الخمر ، كما قال الشاعر :

شربت الإثم حتى ضل عقلي كذاك الإثم تذهب بالعقول

قوله : ﴿وَٱلْبَغْىَ﴾ : هو التعدي على الناس .

قال ابن القيم في « المدارج » : وأما الإثم والعدوان فهما قرينان ، قال تعالى : ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢] فكل منهما إذا انفرد تضمن الآخر ، فكل إثم عدوان ، إذ فعل ما نهى اللّه عنه وترك ما أمر اللّه به فهو عدوان على أمره ونهيه ، وكل عدوان إثم فإنه يأثم به صاحبه ، ولكن عند اقترانهما فهما شيئان بحسب متعلقهما ووصفهما ، فالإثم : ما كان محرم الجنس كالكذب والزنا وشرب الخمر ، والعدوان : ما كان محرم القدر والزيادة ، فالعدوان تعدي ما أبيح منه إلى القدر المحرم كالاعتداء في أخذ الحق ممن هو عليه ، إما أن يتعدى على ماله أو بدنه أو عرضه وهذا نوعان : عدوان في حق اللّه ، وعدوان في حق العبد .

فالعدوان في حق اللّه كما إذا تعدى ما أبيح له من الوطء الحلال في الأزواج والمملوكات إلى ما حرم عليه من سواهما ، والإثم والعدوان هما الإثم والبغي المذكوران في سورة الأعراف مع أن الغالب استعماله في حقوق العباد والاستطالة عليهم ، وعلى هذا فإن اقترن بالعدوان كان البغي ظلمهم بمحرم

الجنس كالسرقة والكذب والبهت ، والعدوان تعدي الحق في استيفائه إلى أكبر منه ، فيكون البغي والعدوان في حقهم كالإثم والعدوان في حدود الله . انتهى بتصرف .

قوله : « ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ﴾ » أي : تصرفوا شيئًا من حق الله سبحانه إلى غيره من الأوثان والأنداد ، والشرك بالله هو أعظم الذنوب على الإطلاق وأجهل الجهل وأظلم الظلم كما في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « ألا أخبركم بأكبر الكبائر ؟ » قلنا : بلى يا رسول الله ، قل : « الإشراك وعقوق الوالدين » . وكان متكئًا فجلس وقال : « ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور » . فما زال يكررها حتى قلنا : ليته يسكت[1] .

وفي « الصحيح » من حديث عبد الله بن مسعود أنه قال للنبي ﷺ : أي الذنب عند الله أعظم ؟ فقال : « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » قال : قلت ثم أي؟ قال : « أن تزاني بحليلة جارك »[2] .

والشرك ينقسم إلى قسمين : أكبر وأصغر ، فحد الشرك الأكبر هو تسوية غير الله بالله فيما هو خاص بالله .

قال ابن القيم رحمه الله : هو التشبه بالله أو تشبيه غيره به والتعريفان متقاربان ، وأما الشرك الأصغر فحده ما ورد في النصوص تسميته شركًا ولم يصل إلى حد الشرك الأكبر .

وينقسم الشرك الأكبر إلى قسمين : شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته ، وقسم يتعلق بمعاملته .

فالنوع الأول ينقسم إلى قسمين : شرك تعطيل وشرك تمثيل .

فشرك التعطيل ينقسم إلى ثلاثة أقسام : تعطيل المخلوق من خالقه ، وتعطيل الصانع من كماله المقدس بتعطيل أسمائه وصفاته ، وتعطيل حق معاملته ، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك .

القسم الثاني : شرك التمثيل وينقسم إلى قسمين : تشبيه المخلوق بالخالق ، كشرك النصارى وعبدة الأوثان شبهوا أوثانهم بالله وعبدوها معه .

القسم الثاني : تشبيه الخالق بالمخلوق ، كأن تقول : يد الله كأيدينا ، وعين الله كأعيننا ونحو ذلك ، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك .

النوع الثاني : شرك يتعلق بمعاملته سبحانه وهذا ينقسم إلى أقسام :

الأول : شرك الدعوة كقوله تعالى : ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت : ٦٥] .

---

(١) البخاري (٢٥١١) .

(٢) البخاري (٤٤٨٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

الثاني : شرك المحبة ، كقوله سبحانه : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة : ١٦٥] الآية .

الثالث : شرك الطاعة ، كقوله سبحانه : ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة : ٣١] الآية .

الرابع : شرك الإرادة والقصد ، كقوله سبحانه : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود : ١٥، ١٦] .

ويفترق الشرك الأكبر عن الشرك الأصغر في أمور ؛ منها : أن الشرك الأكبر لا يغفر لصاحبه ؛ لقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء : ٤٨] . أما الشرك الأصغر فهو تحت مشيئة اللَّه سبحانه . ومنها : أن الشرك الأكبر محبط لجميع الأعمال ؛ لقوله تعالى : ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان : ٢٣] ، وقوله : ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر : ٦٥] الآية . وأما الشرك الأصغر فلا يحبط إلا العمل الذي قارنه .

ومنها : أن الشرك الأكبر مخرج من الملة الإسلامية ، والأصغر لا يخرج من الملة الإسلامية .

ومنها : أن المشرك شركًا أكبر خالد مخلد في النار ، أما المشرك شركًا أصغر فهو كغيره من الذنوب .

قوله : ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ ؛ أي : برهان وحجة ، بل أنزل البرهان والحجة في تحريمه ، وأنه أعظم الذنوب على الإطلاق ، والسلطان والبرهان والحجة والدليل ألفاظ مترادفة ، وسلطان يأتي بمعنى الحجة كما في هذه الآية ، ويأتي بمعنى الملك كقوله : ﴿هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾ [الحاقة : ٢٩] ، ويأتي بمعنى التسلط كقوله : ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [النحل : ٩٩] الآية .

قوله : ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ؛ أي : وأن تقولوا على اللَّه من الافتراء والكذب ما لا علم لكم به ، فختم هذه المحرمات بالقول على اللَّه بلا علم ؛ لأنه أصلها وأعظمها ، وأصل بدعة وحدث في الدين ، ففيه تحريم القول على اللَّه بلا علم ، في أسمائه وصفاته وأفعاله ، وشرعه وقدره ، ووصفه بضد ما وصف به نفسه . اهـ .

وفي هذه الآية رتب المحرمات أربع مراتب وبدأ بأسهلها وهي الفواحش ، ثم ثنى بما هو أشد تحريمًا وهو الإثم والظلم ، ثم ثلث بما هو أعظم تحريمًا منهما وهو الشرك باللَّه ، ثم ربع بما هو أعظم

تحريمًا من ذلك كله وهو القول على الله بلا علم، في أسمائه وصفاته وأفعاله، وفي دينه وشرعه. انتهى من كلام ابن القيم رحمه الله.

قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾:

* في سبعة مواضع، أي أنه نص في معناه لا يحتمل التأويل، وصريح في أنه بذاته استوى استواء يليق بجلاله وعظمته.

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]:

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾: أي: هو المعبود وحده لا شريك له وعبادة غيره باطلة.

قوله: ﴿يُغۡشِي﴾؛ أي: يغطي ﴿ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [الأعراف: ٥٤] فيذهب ظلام هذا بضياء هذا وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا، أي: سريعًا لا يتأخر عنه، بل إذا ذهب جاء هذا وعكسه.

قوله: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾؛ أي: الجميع تحت قهره وتصريفه ومشيئته.

قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾؛ أي هو خالق كل شيء، وهذا عام فيشمل أفعال العباد، وله الأمر، أي: الملك والمتصرف، فلا راد لأمره ولا معقب لحكمه، والأمر ينقسم إلى قسمين: أمر شرعي ديني كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، وأمر كوني قدري كقوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦] الآية. تضمنت هذه الآية إثبات أنواع التوحيد الثلاثة، وأفادت الرد على الفلاسفة القائلين بقدم هذه المخلوقات، وأفادت عموم خلقه لهذه المخلوقات فيشمل ذواتها وصفاتها، وأفادت الاستدلال بهذه المخلوقات على وجود الخالق، وأفادت إثبات أسمائه وصفاته وأنه المستحق للعبادة، وأفادت إثبات صفة الخلق، وأفادت إثبات الأفعال الاختيارية اللازمة والمتعدية، وأفادت إثبات خلق السماوات ووجودها، وأفادت تعددها، وأفادت فضل السماء على الأرض، وأفادت أن خلق هذه المخلوقات في ستة أيام أولها يوم الأحد، وأفادت إثبات الاستواء على العرش استواء يليق بجلاله، وتضمنت إثبات العلو لله، وأفادت أن الاستواء صفة فعل، وأفادت أن الاستواء خاص بالعرش، وأفادت أن العرش مخلوق، وقد ثبت أن العرش مخلوق عظيم ذو قوائم وله حملة خلافًا للمبتدعة الذين ينفون وجود العرش ويقولون عرشه ملكه، فعلى قول هؤلاء المبتدعة يكون قوله تعالى: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [الحاقة:

١٧] معناه: ويحمل ملك ربك ، وهذا قول باطل مردود ، وأفادت أن الاستواء على العرش بعد خلق السماوات والأرض ؛ لأنه عقبه بـ « ثم » ، وأفادت الرد على الجهمية وأضرابهم الذين يقولون : أن معنى استوى استولى ؛ لأنه تحريف وزيادة في كتاب اللَّه وحمل له على غير ما يحتمل ، فتوارد الأدلة على هذا المعنى نص فيه فلا يجوز تأويله ، قال ابن القيم :

نون اليهود ولام جهمي هما　　　في وحي رب العرش زائدتان

قال الذهبي : وأول وقت سمعت مقالة من أنكر أن اللَّه فوق عرشه هو من الجعد بن درهم ، وكذلك أنكر جميع الصفات ، وقتله خالد بن عبد اللَّه القسري وقصته مشهورة ، فأخذ هذه المقالة عنه الجهم بن صفوان إمام الجهمية فأظهرها واحتج لها بالشبهات ، وكان ذلك في آخر عصر التابعين ، فأنكر مقالته أئمة ذلك العصر مثل الأوزاعي وأبي حنيفة ومالك والليث بن سعد والثوري وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وابن المبارك ومن بعدهم من أئمة الهدى .

وأفادت الاستدلال بهذه المخلوقات على وجود خالقها ومدبرها وأنها آية واضحة ودلالة صريحة على وجوده سبحانه ، وأنه المدبر والمسخر لهذه المخلوقات ، وهي مستلزمة للعلم بصفات كماله ، وتضمن ذلك أنه المعبود الحق وأن عبادة غيره باطلة ، إذ ما سواه عاجز ، والعاجز لا يصلح للأهلية ، وأفادت التفريق بين الخلق والأمر ، وفيه الرد على الجهمية والمعتزلة القائلين بأن كلام اللَّه مخلوق وأن خلقه وأمره واحد ، ويروى عن سفيان الثوري رحمه الله أنه قال : فرق اللَّه بين الخلق والأمر فمن جمع بينهما فهو كافر . انتهى .

وفيها الرد على من زعم من الفلاسفة أن العرش هو الخالق الصانع ، وفيها الرد على من زعم أن العرش لم يزل مع اللَّه وهو مذهب باطل . انتهى من « فتح الباري » .

قوله : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد : ٤] :

قوله : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ : خلق ، أي : أنشأ وأوجد والخلق : هو اختراع الشيء على غير مثال سبق ، ففيه إضافة الفعل والخلق إليه سبحانه على جهة الحقيقة ؛ لأنها الأصل . وقد رد ابن القيم رحمه الله على من زعم أن خلقه وفعله مجاز من وجوه عديدة .

قوله : « ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ » : أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ، وفيه اجتمع الخلق كلهم ، وهذه الأيام كأيامنا ، هذا هو المتبادر إلى الأذهان ، وهو ظاهر الأدلة .

قوله : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ؛ أي : استوى يليق بجلاله ، وعظمته لا تكيفه ولا تمثله ولا يعلم كيف هو إلا هو كما قال مالك : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به ، واجب والسؤال

عنه بدعة ، فقول مالك : الاستواء معلوم ، أي : في لغة العرب ، وقوله : والكيف مجهول ، أي : كيفية استوائه لا يعلمها إلا هو ، والإيمان به أي : بالاستواء واجب لتكاثر الأدلة في إثباته ، والسؤال عنه ، أي : عن الكيفية بدعة إذ لا يعلم كيفية استوائه إلا هو ، فإن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات ، فكما نعلم أن للّه ذاتًا لا تشبه الذوات ، فكذلك يجب أن نثبت له صفات لا تشبه الصفات ، فإثباتنا للصفات إثبات وجود لا إثبات تكييف وتمثيل ، إذ العلم بالصفة فرع عن العلم بالموصوف ، ولا يعلم كيف هو إلا هو ، وكذلك يقال في بقية الصفات كصفة المجيء والنزول والإتيان والوجه واليد ونحو ذلك ، فهذا الجواب الوارد عن الوارد عن مالك رحمه الله كاف شاف في سائر الصفات .

قال الذهبي : فانظر إليهم كيف أثبتوا الاستواء للّه وأخبروا أنه معلوم لا يحتاج لفظه إلى تفسير ، ونفوا عنه الكيفية ؟ ! أما معنى الاستواء في اللغة فلها أربعة معان ، تأتي بمعنى علا ، وبمعنى ارتفع ، وبمعنى صعد ، واستقر ، كما قال ابن القيم رحمه الله في كتابه المسمى بـ « النونية » .

ولهم عبارات عليهم أربع	قد فسرت للفارس الطعان
وهي استقر وقد علا وكذلك	ارتفع الذي ما فيه من نكران
وكذاك قد صعد الذي هو رابع	وأبو عبيدة صاحب الشيباني
يختار هذا القول في تفسيره	أدرى من الجهمي بالقرآن
والأشعري يقول تفسير استوى	بحقيقة استولى على الأكوان

فهذه الأربعة التي ذكرها ابن القيم رحمه الله هي التي تدور عليها تفاسير السلف رحمهم الله قال البخاري رحمه الله في « صحيحه » : قال مجاهد : استوى : علا على العرش ، وقال إسحاق بن راهويه : سمعت غير واحد من المفسرين يقولون : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه : ٥] ، أي : ارتفع ، وقال محمد بن جرير في قوله : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ ، أي : علا وارتفع ، وشواهد في أقوال الصحابة والتابعين وأتباعهم معروفة .

وأما تفسير ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ باستولى أو ملك أو قهر فهو تفسير باطل مردود من وجوه عديدة ؛ منها : أن هذا التفسير لم يفسره به أحد من السلف لا من الصحابة ولا من التابعين ، بل أول من عرف عنه هذا التفسير بعض الجهمية والمعتزلة .

ثانيًا : إن الاستواء في لغة العرب الذين نزل القرآن بلغتهم نوعان : مطلق ومقيد ، فالمطلق ما لم يقيد بحرف كقوله تعالى : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص : ١٤] وهذه معناها تم وكمل ، وأما المقيد فثلاثة أنواع : أحدها مقيد بإلى كقوله : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [فصلت : ١١] وهذا بمعنى العلو والارتفاع بإجماع الد[illegible] . الثاني : [illegible] بعلى كقوله : ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف : ١٣] ،

وقوله : ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ [هود : ٤٤] وهذا- نصًا- : معناه العلو والارتفاع والاعتدال بإجماع أهل اللغة . الثالث : المقرون بواو المعية كقولهم : استوى الماء والخشبة ، وهذا بمعنى ساواها ، فهذه معاني الاستواء المعقولة في كلامهم ليس فيها البتة استولى ولا نقله أحد من أئمة اللغة ، وإنما قاله متأخرة والنحاة ممن سلك طريق الجهمية والمعتزلة مستدلين ببيت للأخطل النصراني وهو قوله :

قد استوى بشر على العراق   من غير سيف أو دم مهراق

وهذا البيت ليس من شعر العرب ، وأهل اللغة لما سمعوه أنكروه غاية الإنكار ولم يجعلوه من لغة العرب .

ثالثا : إن هذا معنى هذه الكلمة مشهور كما قال مالك وربيعة وغيرهم .

رابعًا : إنه لو لم يكن معنى الاستواء في الآية معلومًا لم يحتج أن يقول : والكيف مجهول ؛ لأن نفي العلم بالكيف لا ينفي إلا ما قد علم أصله .

خامسًا : إن الاستواء خاص بالعرش ، وأما الاستيلاء فهو عام على سائر المخلوقات فلو كان معنى الاستواء : الاستيلاء ؛ لجاز أن يقول : استوى على الماء والهواء والأرض .

سادسًا : أنه أخبر بخلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ، وأخبر أن عرشه على الماء قبل خلقهما ، والاستواء متأخر عن خلقهن ، والله مستول على العرش قبل خلق السماوات وبعده ، فعلم أن الاستواء على العرش الخاص به غير الاستيلاء العام عليه وعلى غيره .

سابعًا : إنه لم يثبت في اللغة أن معنى ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ [الرعد : ٢] استولى ؛ إذ الذين قالوا ذلك عمدتهم البيت المذكور ولم يثبت نقل صحيح أنه عربي ، وغير واحد من أئمة اللغة أنكروه وقالوا : بيت مصنوع لا يعرف في اللغة ، فكيف تعارض أدلة الكتاب والسنة ببيت شعر نصراني ومع ذلك لم يثبت ؟ قال الشيخ تقي الدين رحمه الله في « لاميته » المشهورة :

قبحًا لمن نبذ الكتاب وراءه   وإذا استدل يقول قال الأخطل

وقال ابن القيم رحمه الله في كتابه « النونية » :

ودليلهم في ذاك بيت قاله   فيما يقال الأخطل النصراني

إلى غير ذلك من الوجوه التي ذكرها أهل العلم في رد وإبطال هذا التفسير ، وقد أنهاها ابن القيم رحمه الله إلى اثنين وأربعين وجهًا .

قوله : « العرش » : وهو لغة : عبارة عن السرير الذي يملك كما قال تعالى عن بلقيس : ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل : ٢٣] ، فالعرش سرير ذو قوائم تحمله الملائكة ، وهو كالقبة على العالم وهو سقف المخلوقات .

قال البيهقي رحمه الله : اتفقت أقاويل أهل التفسير على أن العرش هو السرير ، وأنه جسم خلقه الله وأمر ملائكته بحمله وتعبدهم بتعظيمه والطواف به ، كما خلق بيتًا في الأرض وأمر بني آدم بالطواف به واستقباله ، وقد اختلف العلماء في السابق بالخلق هل هو العرش أو القلم ، ونظم ذلك ابن القيم في « النونية » بقوله :

والناس مختلفون في القلم الذي	كتب القضاء به من الديان
هل كان قبل العرش أو هو بعده	قولان عند أبي العلا الهمذاني
والحق أن العرش قبل لأنه	قبل الكتابة كان ذا أركان
وكتابة القلم الشريف تعقبت	إيجاده من غير فصل زمان

قوله : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ :

أي : رفع السماوات بغير عمد بل بإذنه وتسخيره رفعها عن الأرض بعدا لا ينال ولا يدرك مداها كما في حديث : « إن بعد ما بين السماء والأرض خمسمائة عام وكذلك بعد ما بين السماوات »[1] .

وجاء عن بعض السلف : أن ما بين العرش إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة ، وبعد ما بين قطريه خمسين ألف سنة وهو من ياقوتة حمراء .

قوله : ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ ؛ أي : بغير عمد .

قوله : ﴿تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد : ٢] : تأكيد للنفي ، أي : هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها . قال ابن كثير : وهذا هو الأكمل في القدرة .

قوله : « في سورة طه : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ إلخ الآيات » :

* فهذه الآيات فيها دلالة واضحة على إثبات الاستواء على العرش وأنه استواء حقيقة يليق بجلاله وعظمته ، وفيها الرد على من زعم أن ذلك مجاز عن القهر أو الاستيلاء ، فيها دليل على إثبات العرش وأنه مخلوق والرد على من زعم أن معنى العرش الملك ، وفيها دليل على أن الاستواء صفة فعل ، وفي هذه الآيات دليل على علوه سبحانه على خلقه ، فأدلة الاستواء كلها أدلة على إثبات العلو ، وينقسم العلو إلى ثلاثة أقسام :

الأول : علو القهر . الثاني : علو القدر . الثالث : على الذات ، خلافًا للمبتدعة الذين ينكرون علو الذات .

وأدلة العلو عقلية ، فقد تواطأت أدلة السمع والعقل على إثباته ، وكذلك قد فطر الخلق على إثباته ،

---

(١) ابن خزيمة في « التوحيد » (٥٩٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

أما الاستواء فدليله سمعي فقط ، وهو أيضًا صفة فعل . اهـ .

وفي الآيات دليل صحيح على أن اللَّه سبحانه ليس هو عين هذه المخلوقات ولا صفة ولا جزء منها ، فإن الخالق غير المخلوق وليس بداخل فيها محصور ، بل هي صريحة في أنه مباين لها وليس حالًا فيها ولا محل لها سبحانه . انتهى من كلام ابن القيم رحمه اللَّه تعالى .

قوله : ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران : ٥٥] :

قوله : ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ ؛ أي : قابضك من الأرض ورافعك إلي من غير موت ، من قولهم : توفيت الشيء واستوفيته إذا قبضته وأخذته تامًا ، انتهى . « الخازن » .

والتوفي : الاستيفاء ، وهو يصلح لتوفي النوم ولتوفي الموت الذي هو فراق الروح البدن ، ولم يذكر القبض الذي هو قبض الروح والبدن جميعًا ، والصواب الذي عليه المحققون : أن عيسى عليه السلام لم يمت بحيث فارق روحه بدنه ، بل هي حي مع كونه توفي . انتهى من « خيارات الشيخ تقي الدين ابن تيمية » .

قوله : ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ ؛ أي رفعه اللَّه سبحانه إلى السماء وهو حي كما قال : ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء : ١٥٩] ، والضمير في قوله : ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ عائد إلى عيسى وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة ، ونزول عيسى ثابت وهو أحد أشراط الساعة الكبار ، وفي « الصحيحين » عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلًا مقسطًا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد »[1] . وفي رواية : « حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها » ، ثم يقول : « اقرءوا إن شئتم : ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ »[2] . وفي هذه الآية إثبات الكلام للَّه سبحانه والرد على من زعم أن كلامه سبحانه معناه المعنى النفسي ، وفيها دليل على أن اللَّه رفع عيسى إلى السماء وقبضه إليه ، وفيه دليل على علوه سبحانه على خلقه ، إذ الرفع لا يكون إلا من أسفل إلى أعلى .

قوله : ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ :

* في هذه الآية كالآية السابقة دليل على أن اللَّه رفع عيسى عليه السلام إلى السماء وقبضه إليه ، وفيها دليل على علوه سبحانه على خلقه ، وفي هذه الآية والتي قبلها الرد على اليهود الذين تنقصوه وجعلوها ابن زنى ، والرد على النصارى الذين غلوا فيه ورفعوه عن مقام النبوة إلى مقام الربوبية ،

(١) البخاري (٢١٠٩) ، ومسلم (١٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) البخاري (٣٢٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

تعالى اللَّه عن قولهم علوًا كبيرًا .

قوله : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر : ١٠] :

قوله : ﴿إِلَيْهِ﴾ ؛ أي إلى اللَّه سبحانه وتعالى . ﴿يَصَّعَّدُ﴾ [الأنعام : ١٢٥] : أي يرتفع ، والصعود : الارتفاع ، وأما أصعد يصعد بالضم فمعناه : أبعد في الهروب ، ومنه ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ [آل عمران : ١٥٣] .

قوله : ﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ : يعني الذكر والتلاوة والدعاء ، قاله غير واحد من السلف . انتهى من ابن كثير .

قوله : ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ : قال مجاهد : العمل الصالح يرفع الكلم الطيب . وقيل : الرفع من صفة اللَّه سبحانه وتعالى ، أي : العمل الصالح يرفعه اللَّه ، الطيب . وقيل : الرفع من صفة للَّه سبحانه وتعالى ، أي : العلم الصالح يرفعه اللَّه ، قال سفيان بن عيينة : العمل الصالح : هو الخالص ، يعني : أن الإخلاص يسبب قبول العمل كما قال سبحانه : ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف : ١١٠] الآية . وقال ابن القيم : العمل الصالح : هو الخالي من الرياء المقيد بالسنة . في هذه الآية أيضًا دليل على علو اللَّه سبحانه وتعالى ؛ لأن الصعود والرفع لا يكون إلا من أسفل إلى أعلى .

قوله : ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۞ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر : ٣٦، ٣٧] :

قوله : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ : هو ملك القبط في الديار المصرية ، وفرعون لقب لكل من ملك مصر .

قوله : ﴿يَٰهَٰمَٰنُ﴾ ؛ أي قال فرعون لوزيره هامان ﴿ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ [غافر : ٣٦] أي قصرًا عاليًا منيفًا .

قوله : ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ : أسباب : مفرده سبب ، والسبب يأتي بمعنى الحبل كقوله : ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج : ١٥] ، والطريق ، ومنه قوله : ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف : ٨٥[، والباب كقوله : ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [غافر : ٣٧] .

قوله : ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ : أي طرقها وأبوابها وما يؤدي إليها وكل ما أدى إلى شيء فهو سبب إليه كالرشا ونحوه .

قوله : ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ : بالنصب على جواب الشرط ؛ أي : أصعد ، والاطلاع هو الصعود .

قوله : ﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ ؛ أي : في دعواه أن له إلهًا غيري وأنه أرسله ، ففي هذه الآية دليل على أن موسى عليه كان يقول ربه في السماء ، وفرعون يظنه كاذبًا . فمن نفى العلو من الجهمية فهو فرعوني ومن أثبته فهو موسوي محمدي ، ففيها دليل على إثبات علو اللَّه سبحانه على

خلقه ، وأن موسى عليه السلام أخبر أن ربه في السماء ، وعلو اللَّه سبحانه على خلقه مما تواطأ على إثباته العقل والنقل وفطر اللَّه عليه الخلق ، وأدلة إثبات العلو كثيرة جدًا تزيد على ألف دليل ، قيل لعبد اللَّه بن المبارك : كيف نعرف ربنا ؟ فقال : بأنه فوق السماء السابعة على العرش بائن من خلقه . وقال الأوزاعي : كنا والتابعون متوافرون نقول : إن اللَّه تعالى بائن من خلقه ، ونؤمن بما وردت به السنة ، وقال أبو عمرو الطلمنكي في كتاب « الأصول » : أجمع المسلمون من أهل السنة على أن اللَّه استوى على عرشه على الحقيقة لا على المجاز ، ثم ساق بسنده عن مالك قال : اللَّه في السماء وعلمه في كل مكان ، ثم قال في هذا الكتاب : أجمع المسلمون من أهل السنة أن معنى قوله : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد : ٤] ونحو ذلك من القرآن أن ذلك علمه ، وأن اللَّه فوق السماوات بذاته مستو على عرشه كيف شاء ، هذا لفظه في كتابه ، وهذا كثير في كلام الصحابة والتابعين ، والأئمة أثبتوا ما أثبته اللَّه في كتابه على لسان رسوله على الحقيقة فيما يليق بجلاله وعظمته ، ونفوا عنه مشابهة المخلوقين ولم يمثلوا أو يعطلوا .

قوله : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ [الملك : ١٦، ١٧] :

قوله : ﴿ءَأَمِنتُم﴾ : من الأمن وهو ضد الخوف .

قوله : ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ؛ أي : أآمنتم عقاب من في السماء وهو اللَّه إن عصيتموه ، وهذا عند أهل السنة على أحد وجهين :

الأول : أن تكون ﴿فِي﴾ بمعنى على .

الثاني : أن يراد بالسماء العلو ، لا يختلفون في ذلك ولا يجوز الحمل على غيره .

قوله : ﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ﴾ ؛ أي كما خسف بقارون .

قوله : ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ﴾ ؛ أي : ريح شديدة سميت بذلك ؛ لأنها ترمي الحصباء .

قوله : ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ : أي إذا رأيتم ذلك علمتم كيف إنذاري حين لا ينفعكم العلم . في هذه الآية إشارة إلى التحذير من الأمن من مكر اللَّه ، وفي هذه الآية دلالة واضحة على علو اللَّه سبحانه على خلقه ، وقد تواترت في ذلك الأدلة واتفقت على إثبات العلو جميع الرسل ، وذكر ابن القيم أن أدلة العلو تزيد على ألف دليل ، وينقسم العلو إلا ثلاثة أقسام كما تقدمت الإشارة إلى ذلك : علو القدر ، علو القهر ، علو الذات ، فله العلو الكامل من جميع الوجوه ، قال ابن القيم رحمه الله في « النونية » .

إن العلو بمطلقه على التعـ ـميم والإطلاق بالبرهان
وله العلو من الوجوه جميعها . ذاتًا وقهرًا مع علو الشأن
وعلوه فوق الخليقة كلها فطرت عليه الخلق والثقلان
كل إذا ما نابه أمر يرى متوجهًا بضرورة الإنسان
نحو العلو فليس يطلب خلفه وأمامه أو جانب الإنسان

وكذلك الفوقية فإنها ثابتة لله سبحانه وتعالى ، قال الله تعالى : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل : ٥٠] ، وقوله : ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام : ١٨] وهي من صفات الذات . وفوق وعلا بمعنى واحد ، وفوقيته سبحانه ثابتة كعلوه تواطأت على إثباتها أدلة العقل والنقل والفطر التي لم تتغير ، وأقسام الفوقية ثلاثة :

فوقية القدر ، فوقية القهر ، فوقية الذات ، خلافًا للجهمية والمعتزلة الذين ينكرون فوقية الذات ، قال ابن القيم رحمه الله في « النونية » :

والفوق وصف ثابت بالذات من كل الوجوه لفاطر الأكوان
لكن نفاة الفوق ما وفوا به جحدوا كمال الفوق للرحمن
بل فسروه بأن قدر الله أعلا لا بفوق الذات للديان
قالوا وهذا مثل قول الناس في ذهب يرى من خالص العقيان
وهو فوق جنس الفضة البيضاء لا بالذات لا بل في مقتضى الأثمان
والفرق أنواع ثلاث كلها لله ثابتة بلا نكران
هذا الذي قالوا وفوق القهر والفوقية العليا على الأكوان

قال ابن القيم رحمه الله : ومما أدعى المعطلة مجازه : الفوقية ، وقد ورد به القرآن مطلقًا بدون حرف ، ومقترن بحرف . فالأول كقوله : ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام : ١٨] في موضوعين . والثاني كقوله سبحانه : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل : ٥٠] وفي حديث الأوعال : « والعرش فوق العرش لا يخفى عليه شيء من أعمالكم »[(١)] ، وحقيقة الفوقية : علو ذات الشيء على غيره ، فأدعى الجهمي أنه مجاز في فوقية الرتبة والقهر ، كما يقال الذهب فوق الفضة ، وهذا وإن كان ثابتا للرب لكن إنكار حقيقة فوقيته سبحانه وحملها على المجاز باطل من وجوه عديدة :

أحدهما : أن الأصل الحقيقة ، والمجاز خلاف الأصل .

الثاني : أن الظاهر خلاف ذلك إلى أن قال ...

---

(١) ابن خزيمة في « التوحيد » (٥٩٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

الثالث : أن الفطر والعقول والشرائع وجميع كتب اللَّه المنزلة على خلاف ذلك ، وساق وجوها عديدة في إبطال ما ذكروه والرد عليهم في « الصواعق » .

قوله : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ :

فيه إثبات الأفعال الاختيارية للرب سبحانه ، وهي تنقسم إلى قسمين : لازمة كالاستواء والمجيء والنزول ، ومتعدية .. كالخلق والرزق والإحياء والإماتة ونحو ذلك ، فهو سبحانه موصوف بالنوعين ، وقد جمعها في هذه الآية ، وفيها بيان أن الخلق غير المخلوق ، لأن نفس خلقه السماوات والأرض غير السماوات والأرض ، وفيها ، دليل على مباينة الرب سبحانه لخلقه فإنه لم يخلقه في ذاته بل خلقهم خارجا عن ذاته ثم بأن عنهم باستوائه على عرشه وهو يعلم ما هم عليه فيراهم وينفذه بصره فيهم ، ويحيط بهم علمًا وقدرة وإرادة وسمعًا وبصرًا ، وهذا معنى كونه أينما كانوا .

قوله : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ ؛ أي : معكم بعلمه ، وقد حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه : معية العلم ، ولا شك في إرادة ذلك ، فعلمه بهم وبصره نافذ فيهم ، فهو سبحانه مطلع على خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شيء ، فإن « مع » في لغة العرب لا تقتضي أن يكون أحدًا لشيئين مختلطا بالآخر ، كقوله سبحانه : ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة : ١١٩] ، وجاءت المعية في القرآن عامة وخاصة ، فالعامة كما في هذه الآية فافتتح الكلام بالعلم وختمه بالعلم ، فدل على أنه معهم بالعلم ؛ ولهذا قال ابن عباس والضحاك وسفيان وأحمد والثوري : وهو معهم بعلمه .

أما المعية الخاصة كقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل : ١٢٨] فهو مع المتقين دون الظالمين ، فلو كان معنى المعية أنه في كل مكان لتناقض الخبر الخاص والعام ، بل المعنى أنه مع هؤلاء بنصره وحفظه وتأييده دون أولئك .

وقد أخبر في هذه الآية وغيرها أنه سبحانه مع خلقه مع كونه مستويا على عرشه ، وقرن بين الأمرين كما قال سبحانه : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد : ٤] الآية ، فأخبر أنه أستوى على عرشه وأنه مع خلقه يبصر أعمالهم من فوق عرشه كما في حديث الأوعال ، فعلوه سبحانه لا يناقض معيته ، ومعيته لا تبطل علوه فكلاهما حق ، فهذه الآية فيها إثبات صفة الخلق كما تقدم ، وفيها الرد على من زعم قدم هذه المخلوقات وأنها لم تزل ولا تزال ، وفيها إثبات الأفعال الاختيارية ، وفيها أن هذه المخلوقات خلقت في ستة أيام ، وفيها إثبات الاستواء ، وفيها دليل على أن الاستواء صفة فعل ، وفيها دليل على إثبات صفة العلم ودليل على شمول العلم لكل شيء من الكليات والجزئيات ، وفيها إثبات معيته سبحانه لخلقه وأنها لا تناقض علوه واستواءه على العرش بل كلاهما حق .

وفيها إشارة إلى الندب إلى استحضار قربه واطلاعه كما في الحديث: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١).

قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]:

قوله: ﴿مَا يَكُونُ﴾، أي: يوجد فـ «كان» تامة.

قوله: ﴿مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾: النجوى: إسرار ثلاثة، فالنجوى: الإسرار.

قولهم: ﴿رَابِعُهُمْ﴾: لما كان سبحانه وتعالى ليس من جنس خلقه جعل نفسه رابع الثلاثة، وسادس الخمسة، إذ هو غيرهم بالحقيقة، والعرب تقول: رابع أربعة وخامس خمسة لما يكون فيه المضاف إليه من جنس المضاف، فإذا كان المضاف إليه من غير جنسه قالوا: رابع ثلاثة، وسادس خمسة ونحو ذلك. أفاده ابن القيم في «الصواعق».

قوله: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾؛ أي: مطلع عليهم يسمع كلامهم ويعلم سرهم ونجواهم، ورسله مع ذلك تكتب ما يتناجون به مع علمه وسمعه، وكما قال سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، قال ابن كثير رحمه الله: ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علمه سبحانه، ولا شك في إرادة ذلك، ولكن سمعه أيضًا مع علمه بهم وبصره نافذ فيهم، فهو سبحانه مطلع على خلقه لا يغيب عنه من أمرهم شيء.

قوله: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم﴾؛ أي: يخبرهم يوم القيامة بجميع أعمالهم، قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: قال الإمام أحمد: أفتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم، وقال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله: أجمع العلماء من الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل- أي تفسير القرآن- قالوا في تأويل قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] الآية، هو على عرشه وعلمه بكل مكان وما خالفهم في ذلك من يحتج بقوله.

قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾:

* كان هذا القول عام الهجرة لما هم المشركون بقتل النبي ﷺ أو حبسه أو نفيه فخرج منهم

---

(١) البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هاربًا صحبه صديقه وصاحبه أبو بكر فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم ثم يسيرون نحو المدينة ، فخاف أبو بكر على النبي ﷺ ، فجعل النبي ﷺ يسكنه ويثبته ويقول : « ما ظنك باثنين اللَّه ثالثهما » . كما روى الإمام أحمد في مسنده عن أنس أن أبا بكر حدثه قال : قلت للنبي ﷺ : ونحن في الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « ما ظنك باثنين اللَّه ثالثهما »[1] . أخرجاه في « الصحيحين » ، ولذلك قال العلماء : من أنكر صحبة أبي بكر فهو كافر لإنكاره كلام اللَّه وليس ذلك لغير أبي بكر .

قوله : ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ : الحزن هو ضد السرور .

قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ ؛ أي بنصره وحفظه وكلاءته ، ومن كان اللَّه معه فلا خوف عليه .

قوله : ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ :

* قد تقدم الكلام على هذه الآية الكريمة فارجع إليه .

قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ :

* أي : معهم بنصره وحفظه وتأييده ، وهذه معية خاصة ، وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم كما تقدم في قوله : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد : ٤] ، فهي مقتضية لتخويف العباد منه .

قوله : ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ :

* في هذه الآية الأمر بالصبر وهو دليل على وجوبه وهو شامل لأنواع الصبر الثلاثة ، فإن حذف المعمول يؤذن بالعموم .

قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ، أي : بحفظه ونصره وتأييده وهذه معية خاصة .

قوله : ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ :

قوله : ﴿فِئَةٍ﴾ : أي جماعة ، وهي جمع لا واحد له من لفظه .

قوله : ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ : أي بقضائه وإرادته ومشيئته .

أفادت هذه الآية كالآية السابقة الحث على الصبر وأنه أعظم سبب في تحصيل المقصود ، وفيه أيضًا المعية الخاصة للصابرين وأن اللَّه ضمن لهم النصر ، وفي حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال : « واعلم أن النصر مع الصبر »[2] ، وفيها أن النصر من عند اللَّه سبحانه وتعالى ، لا عن كثرة عدد ولا

---

(١) البخاري (٤٣٨٦) ، ومسلم (٢٣٨١) ، وأحمد (٤/١) من حديث أبي بكر رضي الله عنه .

(٢) أحمد (٣٠٧/١) ، والطبراني (١٢٣/١١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (٢٣٨٢) .

عدة ، وإنما تلك أسباب ، وقد أمر الله سبحانه وتعالى بتعاطيها واتخاذها كما قال سبحانه : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال : ٦٠] ، أفادت هذه الآيات المتقدمة إثبات المعية ، فالآيتان الأوليان فيهما إثبات المعية العامة ، والخمس الآيات الأخيرة فيها إثبات المعية الخاصة ومعيته سبحانه لا تنافي علوه على خلقه واستوائه على عرشه بل تجامعه ، فإن قربه سبحانه ومعيته ليست كقرب المخلوق ومعيته ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] .

قوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ : أي : هو إله ومعبود أهل السماوات والأرض ، كما تقول : فلان أمير في خراسان وفي العراق ، فلا يدل على أنه فيهما جميعًا ، وكذلك قوله : ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام : ٣] فسره أئمة العلم كالإمام أحمد وغيره أنه المعبود في السماوات والأرض ، فهذه الآيات لا تخالف الآيات التي فيها إثبات علوه سبحانه واستوائه على عرشه ، بل تجامعها ، فإن قربه ومعيته كما يليق بجلاله وعظمته ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] .

قوله : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ﴾ :

* لفظه استفهام ومعناه لا أحد أصدق من الله في حديثه وخبره ووعد ووعيده ، وكان رسول الله ﷺ يقول في خطبته : « إن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ »(١) .

قوله : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ : أي لا أحد أصدق من الله قولًا ولا خبرًا .

قوله : ﴿ابْنَ مَرْيَمَ﴾ : أضافه إلى أمه ؛ لأنه لا أب له فهو من أم بلا أب ، ففي هذه الآيات إثبات القول لله سبحانه وتعالى وأنه يقول متى شاء إذا شاء ، وأن الكلام والقول المضاف إليه سبحانه قديم النوع حادث الآحاد ، وفيه دليل على أنه سبحانه يتكلم بحرف وصوت كما يليق بجلاله سبحانه ، وفيه الرد على من زعم أن كلام الله هو المعنى النفسي ، إذ المعنى المجرد لا يسمع .

قوله : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ :

قوله : ﴿صِدْقًا﴾ : أي صدقًا في الإخبار وعدلًا في الطلب ، فكل ما أخبر به سبحانه فهو حق لا مرية فيه ولا شك ، فكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه ، وكل ما نهى عنه فباطل ؛ لأنه لا ينهي إلا عن مفسدة ، والمراد بالكلمة : أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، وكلمات الله نوعان : كونية ودينية .

فكلمات الله الكونية : هي التي استعاذ النبي ﷺ بها في قوله : « أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر »(٢) ، وكقوله : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام : ١١٥] .

---

(١) مسلم (٨٦٧) ، والنسائي (١٥٧٨) ، وأحمد (٣/٣١٠) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

(٢) « صحيح وضعيف الجامع الصغير » للألباني (حديث رقم : ٧٤) .

النوع الثاني : الكلمات الدينية : وهي القرآن وشرع اللَّه الذي بعث به رسوله ، وهي أمره ونهيه . انتهى من كلام الشيخ تقي الدين ابن تيمية .

قوله : ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ : أي ليس أحد يعقب حكمه سبحانه لا في الدنيا ولا في الآخرة .

قوله : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ : الذي أحاط سمعه بسائر الأصوات ، وأحاط علمه بالظواهر والخفيات .

قوله : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ :

* خصص اللَّه نبيه موسى عليه السلام بهذه الصفة تشريفًا له ؛ ولذا يقال لموسى عليه السلام : الكليم ، وهذا دليل على أن التكليم الذي حصل لموسى عليه السلام أخص من مطلق الوحي ، ثم أكده بالمصدر الحقيقي رفعًا لما توهمه المعطلة من أنه إلهام أو إشارة أو تعريف للمعنى النفسي بشيء غير التكليم فأكده بالمصدر المفيد لتحقيق النسبة ورفع توهم المجاز ، قال الفراء : إن الكلام إذا أكد بالمصدر ارتفع المجاز وثبتت الحقيقة ، ويروى أن رجلًا قال لأبي عمرو بن العلاء : أريد أن تقرأ : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء : ١٦٤] ، بنصب لفظ الجلالة فقال له : هب قرأت ذلك فما تقول في قوله : ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف : ١٤٣] فبهت المعتزلي .

قوله : ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ :

أي : كلمه اللَّه كموسى عليه السلام ومحمد ، وكذلك آدم كما ورد به الحديث المروي في « صحيح ابن حبان » عن أبي ذر رضي الله عنه .

قوله : ﴿لِمِيقَٰتِنَا﴾ : أي : للوقت الذي ضربنا أن نكلمه فيه .

قوله : ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ : أي : كلمه سبحانه وتعالى بكلام حقيقي يليق بجلاله وعظمته وكلمه بلا واسطة ، فهذه الآيات أفادت إثبات صفة الكلام للَّه ، وأنه تكلم ويتكلم سبحانه وتعالى ، والأدلة على أنه يتكلم أكثر من أن تحصر ، وفيها الرد على من زعم أن كلامه سبحانه معنى واحد قائم بالنفس لا يتصور أن يسمع ، وفيها دليل على أن كلامه سبحانه وتعالى حقيقة لا مجاز ؛ لأنه أكده بالمصدر ، فقال : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء : ١٦٤] ، أكدهَ بالمصدر لنفي المجاز ؛ لأن العرب لا تؤكد بالمصدر إلا إذا أرادت الحقيقة ، وفيها دليل على أن اللَّه لم يزل متكلمًا إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء ، وفيها دليل على أن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديمًا فكلام اللَّه سبحانه وتعالى قديم النوع حادث الآحاد ، وتقدمت الإشارة إلى أن كلامه سبحانه وتعالى نوعان : كوني قدري به توجد الأشياء كما قال سبحانه : ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس : ٨٢] . الثاني : كلام ديني شرعي ، ومنه كتبه المنزلة على رسله ، فهو الذي تكلم بها حقًا وليست

مخلوقه ، بل هي من جملة صفاته ، وصفاته سبحانه غير مخلوقه كما تقدم في حديث خولة ، وبه استدل الإمام أحمد وغيره على أن كلام الله غير مخلوق ؛ لأنه أمر بالاستعاذة بكلمات الله ؛ والاستعاذة بالمخلوق شرك فدل على أن كلام الله غير مخلوق . وتكليمه سبحانه وتعالى لعباده نوعان :

الأول : بلا واسطة ، كما كلم موسى بن عمران ، وكما كلم الأبوين ، وكذا نادى نبينا ليلة الإسراء .

الثاني : تكليمه سبحانه لعباده بواسطة . إما بالوحي الخاص للأنبياء وإما بإرساله إليهم رسولًا يكلمهم من أمره بما شاء .

وفي الآيات المتقدمة أيضًا دليل على أن الكلام المضاف إليه سبحانه وتعالى من صفاته الذاتية من حيث تعلقها بذاته واتصافه بها ، ومن صفاته الفعلية حيث كانت متعلقة بقدرته ومشيئته .

قوله : ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ :

* أي : نادينا موسى وكلمناه بقول : ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [القصص : ٣٠] ، وقوله : ﴿ٱلطُّورَ﴾ [القصص : ٤٦] هو اسم جبل بين مصر ومدين ، وقوله : ﴿ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ [مريم : ٥٢] : أي : الذي يملي يمين موسى حين أقبل من مدين ، قوله : ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم : ٥٢] : أي : مناجيًا .

قوله : ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشعراء : ١٠] ، وقوله : ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف : ٢٢] : أي : نادى آدم وحواء .

قوله : ﴿وَيَوۡمَ ٱلطُّورَ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [القصص : ٦٥] :

* قال بعض السلف : ما من فعلة وإن صغرت إلا وينشر لها ديوانان : لم ؟ وكيف ؟ أي لم فعلت ؟ وكيف فعلت ؟ ، فالأول سؤال عن الإخلاص ، والثاني سؤال عن المتابعة . فإن الله لا يقبل عملًا إلا بهما ، فطريق التخلص من السؤال الأول بتجريد الإخلاص ، وطريق التخلص من السؤال الثاني بتحقيق المتابعة . انتهى من الإغاثة ، وقال بعض السلف : كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون : ماذا كنتم تعبدون وماذا أجبتم المرسلين ؟ فيسأل عن المعبود وعن العبادة .

أفادت هذه الآيات إثبات صفة الكلام لله وأنه نادى وناجى ، وقد جاء النداء في تسع آيات من القرآن ، وكذلك النجاء جاء في عدة آيات ، والنداء هو الصوت الرفيع وضده النجاء ، ففيها إثبات أن الله يتكلم بحرف وصوت يليق بجلاله ؛ إذ لا يعقل النداء والنجاء إلا ما كان حرفًا وصوتًا ، وقد استفاضت الآثار عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة السنة بذلك ، وقال ابن القيم رحمه الله في « النونية » :

والله قد نادى الكليم وقبله سمع الندا في الجنة الأبوان

وأتى الندا في تسع آيات له ... وصفا فراجعها من القرآن
وكذا يكلم جبرئيل بأمره ... حتى ينفذه بكل مكان
واذكر حديثًا في صحيح محمد ... ذاك البخاري العظيم الشان
فيه نداء الله يوم معادنا ... بالصوت يبلغ قاصيًا والداني
هب أن هذا اللفظ ليس بثابت ... بل ذكره مع حذفه سيان
ورواه عندكم البخاري المجسـ ... ـسم بل رواه مجسم فوقان
أيصح في عقل وفي نقل ندا ... ء ليس مسموعًا لنا كأذان
أم أجمع العلماء والعقلاء من ... أهل اللسان وأهل كل لسان
أن الندا الصوت الرفيع وضده ... فهو النجاء كلاهما صوتان

وفي هذه الآيات أيضًا الرد على من زعم أن كلام اللَّه هو المعنى النفسي ، إذ المعنى المجرد لا يسمع .

وقد رد الشيخ تقي الدين على من زعم ذلك من تسعين وجهًا ، قال ابن القيم في « النونية » :

تسعون وجهًا بينت بطلانه ... أعني كلام النفس ذي البطلان

قال بعض العلماء : من زعم أن كلام اللَّه هو المعنى النفسي فقد زعم أن اللَّه لم يرسل رسولًا ولم ينزل كتابًا ، وقال : من زعم أن كلام اللَّه هو المعنى النفسي فقد زعم أن اللَّه أخرس ، وقال ابن حجر رحمه الله في شرح البخاري : ومن نفى الصوت فقد زعم أن اللَّه لم يسمع أحدًا من ملائكته ولا رسله كلامًا بل ألهمه إياه إلهامًا ، وفيها الرد على من زعم أن كلام اللَّه هو معنى قائم بذاته لا يتجزأ ولا يتبعض ، فإن الأمر لو كان كما زعموا لكان موسى عليه السلام سمع جميع كلام اللَّه ، وفيها الرد على مِن زعم أن كلام اللَّه مخلوق ، فإن صفات اللَّه داخلة في مسمى اسمه ، فليس اللَّه اسمًا لذات لا سمع لها ولا بصر ولا حياة ولا كلام لها ، فكلامه وعلمه وحياته وقدرته داخلة في مسمى اسمه ، فهو سبحانه بصفاته الخالق وما سواه المخلوق ، وفي إثبات الكلام إثبات الرسالة ، فإذا انتفت صفة الكلام انتفت صفة الرسالة ؛ إذ حقيقة الرسالة تبليغ كلام المرسل ، ومن هاهنا قال السلف : من أنكر كون اللَّه متكلمًا فقد أنكر رسالة الرسل كلهم ، والرب سبحانه وتعالى يخلق بقوله وبكلامه كما قال : ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس : ٨٢] ، فإذا انتفت حقيقة الكلام عنه فقد انتفى الخلق .

قوله : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ :

قوله : « أحد » : مرفوع بفعل يفسره استجارك ، وقوله : ﴿فَأَجِرْهُ﴾ [التوبة : ٦] ، أي : أمنه ، وقوله : ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة : ٦] : أي : حتى يسمع القرآن مبلغًا إليه من قارئه كما قال أبو

بكر الصديق حين قرأ على قريش : ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾ [الروم : ١، ٢] : فقالوا : هذا كلامك أو كلام صاحبك ، فقال : ليس بكلامي ولا بكلام صاحبي ولكنه كلام الله ، وفي « سنن أبي داود : أن رسول الله ﷺ كان يعرض نفسه على الناس بالموسم فيقول : « ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي ، فإن قريشًا منعوني أن أبلغ كلام ربي »[1] . فبين أن ما يبلغه ويتلوه هو كلام الله لا كلامه ، وفي الآية دليل على أنه إذا استأمن مشرك ليسمع القرآن وجب تأمينه ليعلم دين الله وتنتشر الدعوة ، ومنها أن رسول الله كان يعطي الأمان لمن جاءه مسترشدًا أو في رسالة كما جاء في الحديبية جماعة من قريش ، وكذلك من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية ، أو طلب من الإمام أو نائبه أعطى أمانًا ما دام مترددًا في دار الإسلام حتى يرجع إلى مأمنه ووطنه ، وفيها دليل على إثبات صفة الكلام لله وأنه يتكلم وأن القرآن كلامه ، وفيها دليل على أن الكلام إنما ينسب إلى منَ قاله ابتداءً لا إلى من قاله مبلغًا مؤديًا ، فإن القارئ يبلغ كلام الله ، وكلامه سبحانه صفة من صفاته غير مخلوق ، وأما صوت القارئ وكذا المداد والورق فهي مخلوقة لهذه الآية ، ولحديث : « زينوا القرآن بأصواتكم »[2]، فبين أن الأصوات التي يقرأ بها القرآن أصواتنا والقرآن كلام الله ، فالقرآن كلام الباري والصوت صوت القارئ ، وفي هذه الآية دليل على أن القرآن الذي هو سور وآيات وحروف وكلمات هو عين كلامه سبحانه حقًا لا تأليف ملك ولا بشر ، وأن حروفه ومعانيه عين كلامه سبحانه الذي تكلم به سبحانه حقًا ، وبلغه جبريل إلى محمد ﷺ ، وبلغه محمد ﷺ ، فللرسولين منه مجرد التبليغ والأداء لا الوضع والإنشاء ، فإضافته إلى الرسول بقوله : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴾ [الحاقة : ٤٠] إضافة تبليغ وأداء لا إضافة وضع وإنشاء لا كما يقوله أهل الزيغ والافتراء ، وفيه الرد على من زعم أن هذا الموجود بين أيدينا هو عبارة عن كلام الله ، حكاية له فإنه سبحانه أخبر أن الذي يسمع كلام الله ، وعندهم أن الذي يسمع ليس كلام الله على الحقيقة وإنما هو مخلوق حكى به كلام الله على أحد قولهم ، وعبارة عبر بها عن كلام الله على القول الآخر ، وهي مخلوقة على القولين ، فالمقروء المكتوب والمسموع والمحفوظ ليس كلام الله ، وإنما هو عبارة بها عنه كما يعبر عن الذي لا ينطق ولا يتكلم من أخرس أو عاجز ، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا ، وفيه دليل على أن القرآن كلام الله وأنه يسمع وأنه غير مخلوق ، وفيها الرد على من زعم أنه مخلوق أو أنه كلام بشر أو ملك ، أو غير

---

(١) أبو داود (٤٧٣٤) ، والترمذي (٢٩٢٥) ، والطبراني في الأوسط (٦٨٤٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه . وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (١٩٤٧) .

(٢) أبو داود (١٤٦٨) ، والنسائي (١٠١٥) ، وابن ماجه (١٣٤٢) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (٧٧١) .

ذلك ، وفيها أن من زعم أنه كلام غير اللّٰه فقد كفر أو زعم أنه مخلوق .

قال الشيخ تقي الدين ﷺ : ولم يقل أحد من السلف أنه مخلوق أو أنه قديم ، بل الآثار متواترة عن السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان إنهم يقولون : القرآن كلام اللّٰه ، وأول من عرف عنه أنه قال مخلوق : الجعد بن درهم وصاحبه الجهم بن صفوان ، وأول من عرف عنه أنه قال هو قديم عبد اللّٰه بن سعيد بن كلاب ، أما السلف فلم يقل أحد منهم بواحد من القولين ، ولم يقل أحد من السلف إن القرآن عبارة عن كلام اللّٰه ولا حكاية له ، ولا قال منهم أحد أن لفظي بالقرآن قديم أو مخلوق، بل كانوا يقولون بما دل عليه الكتاب والسنة من أن هذا القرآن كلام اللّٰه ، والناس يقرأونه بأصواتهم ويكتبونه بمدادهم وما بين اللوحين كلام اللّٰه وكلام اللّٰه غير مخلوق ، والمداد الذي يكتب به القرآن مخلوق والصوت الذي يقرأ به هو صوت العبد والعبد وصوته وحركاته وسائر صفاته مخلوقة ، فالقرآن الذي يقرؤه المسلمون كلام الباري والصوت صوت القارئ . انتهى .

قال البخاري ﷺ في كتابه« خلق أفعال العباد » بعد ذكر هذه الآية والآية التي بعدها ، أي قوله سبحانه : ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج : ٢١، ٢٢] وقوله : ﴿وَٱلطُّورِ ۝ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ [الطور : ١- ٣] قال : ذكر اللّٰه أن القرآن يحفظ ويسطر ، والقرآن الموعي في القلوب المسطور في المصاحب المتلو بالألسنة كلام اللّٰه ليس بمخلوق ، وأما المداد والورق والجلد فإنه مخلوق . انتهى من « فتح الباري » .

قوله : ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ :

قوله : ﴿فَرِيقٌ﴾ : أي : طائفة ، ﴿مِّنْهُمْ﴾ : أي : أحبارهم ، ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ ؛ أي التوراة .

قوله : « ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ » : أي : يغيرونه ويتأولونه على غير تأويله ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي : فهموه ، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي : أنهم مفترون ، وإذ كان هذا حال علمائهم فكيف بجهالهم ؟ !

في هذه الآية التأييس من إيمان اليهود الذين شاهد آباؤهم ما شاهدوا ، ثم قست قلوبهم ولم ينفعهم ما شاهدوه ، وفيها ذم للمحرفين للكلم عن مواضعه وأن التحريف ، من صفات اليهود ، وأفادت هذه الآية كغيرها إثبات صفة الكلام للّٰه سبحانه وتعالى والرد على من زعم أن اللّٰه لا يتكلم أو أن كلامه مخلوق ، وفيها دليل على أن الكلام إنما ينسب إلى من قاله مبتدءًا لا إلى من قاله مبلغًا مؤديًا ، فإن قوله : ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ : أي : من قارئه ومبلغه .

قوله : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ :

* أي مواعيده بغنائم خيبر ، أهل الحديبية خاصة لا يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب

والمتخلفين، فلا يقع غير ذلك شرعًا ولا قدرًا، ولهذا قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥] وهو الوعد الذي وعد به أهل الحديبية. اختاره ابن جرير.

قوله: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾: أي: في خيبر، وهذا خبر بمعنى النهي.

قوله: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾: أي: من قبل عودنا، من قبل انصرافنا من مكة إلى المدينة أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية خاصة دون غيرهم.

أفادت هذه الآية كغيرها إثبات صفة الكلام وإثبات القول لله سبحانه وتعالى وأنه قال ويقول متى شاء إذا شاء.

قوله: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾:

قوله: ﴿وَٱتْلُ﴾: أي: اتبع، والتلاوة هي الإتباع، يقال: اتل أثر فلان، وتلوت أثره وقفوته وقصصته بمعنى تبعت خلفه، ويسمى تالي الكلام تاليًا؛ لأنه يتبع بعض الحروف بعضًا لا يخرجها جملة واحدة، وحقيقة التلاوة في هذا الموضع وغيره هي التلاوة المطلقة التامة، وهي تلاوة اللفظ والمعنى. انتهى ملخصًا من كلام ابن القيم.

قوله: ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾: الوحي: لغة: الإعلام في خفاء، وفي الاصطلاح: إعلام الله أنبياءه بالشيء؛ إما بكتاب، أو رسالة ملك، أو منام، أو إلهام.

قوله: ﴿مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾: أي القرآن بدليل قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]- إلى قوله- ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠] الآية والمسموع واحد والكتاب في الأصل جنس ثم غلب على القرآن من بين الكتب. انتهى، (الكوكب المنير) ملخصًا.

قوله: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾: أي: لا تغير ولا تبدل كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] في هذه الآية كغيرها دليل على أن الكتاب هو القرآن خلافًا للكلابية فإن الله سبحانه سمى نفس مجموع اللفظ والمعنى قرآنًا وكتابًا وكلامًا كما تقدم في قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الأحقاف: ٢٩] الآية فبين أن الذي سمعوه هو القرآن وهو الكتاب، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ١]، وفي الآية المتقدمة دليل على أن القرآن منزل من عند الله وأنه كلامه، وفيها الحث على تلاوته وأنه سبحانه ضمن حفظه من التغيير والتبديل.

قوله: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾:

قوله: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾: مصدر قرأ؛ أي: جمع؛ لجمعه السور؛ أو ما في الكتب السابقة.

قوله: ﴿يَقُصُّ﴾: أي يبين ﴿عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [النمل: ٧٦] وهم حملة التوراة ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى

هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦] وذلك كاختلافهم في أمر عيسى وتباينهم فيه ، فجاء القرآن بالقول العدل الحق أنه عبد من عباد اللّه ونبي من أنبيائه ، وفي الآية دليل على عظمة هذا الكتاب وهيمنته على الكتب السابقة ، وتوضيحه لما وقع فيها من اشتباه ، وإضافة القصص والتوضيح إليه وتضمن وجوب الرجوع إليه واتباعه .

قوله : ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ :

* أي : القرآن ﴿مُبَارَكًا﴾ [ق : ٩] : أي : كثير المنافع والخير .

قوله : ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ :

قوله : ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا﴾ : أي متذللًا ، ﴿مُّتَصَدِّعًا﴾ : أي : متشققًا ، فإذا كان القرآن لو أنزل على جبل لخشع وتصدع من خوف اللّه فكيف يليق بكم أيها الناس أن لا تلين قلوبكم وتخشع من خوف اللّه وقد فهمتم عن اللّه أمره ونهيه وتدبرتم كتابه ، وفي الآية دليل على عظمة القرآن وأنه لو أنزل على جبل لخشع وتصدع من خشية اللّه ، وفيها دليل على أنه سبحانه خلق في الجمادات إدراكًا بحيث تخشع وتسبح ، وهذا حقيقة كما دلت على ذلك الأدلة ولا يعلم كيفية ذلك إلا هو سبحانه ، وفيها حث على الخوف من اللّه والخشوع عند سماع كلامه ، وأنه ينبغي أن يقرأ بتدبر وخشوع وإقبال قلب وأنه ينبغي الرقة عند سماع كلام اللّه والبكاء وتلاوته بحزن .

قوله : ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ :

قوله : ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ : أي نسخناها وأنزلنا غيرها لمصلح العباد .

قوله : ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ : أي هو سبحانه وتعالى أعلم بما هو أصلح لخلقه فيما يغير وينسخ من أحكامه ، وفي الآية دليل على وقوع النسخ في القرآن وأنه لحكمة ومصلحة يعلمها سبحانه ، فهو أعلم بمصلحة عباده ، وفيها دليل على إحاطة علمه سبحانه بكل معلوم .

قوله : ﴿قَالُوٓا۟﴾ : أي الكفار ، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ أي : كذاب ، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ، أي : لا يعلمون الحكمة في ذلك .

قوله : ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ :

قوله : ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ﴾ : أي : القرآن ، والتنزيل والإنزال هو مجيء الشيء من أعلى إلى أسفل ؛ ﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ : أي : جبريل عليه السلام ، فجبريل سمعه من اللّه والنبي ﷺ سمعه من جبريل ، وهو الذي نزل بالقرآن على محمد ﷺ كما نص على ذلك أحمد وغيره من الأئمة ، وجبريل هو الروح

الأمين المذكور في قوله سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] الآية.

ولم يقل أحد من السلف: إن النبي ﷺ سمعه من الله، وإنما قال ذلك بعض المتأخرين، والآية ترد عليه.

قال ابن حجر رحمه الله في «شرح البخاري»: والمنقول عن السلف اتفاقهم أن القرآن كلام الله غير مخلوق، تلقاه جبريل عن الله، وبلغة جبريل إلى محمد ﷺ، وبلغه محمد إلى أمته. انتهى.

ففي هذه الآيات دليل على أن القرآن منزل من عند الله وأنه كلامه بدأ منه وظهر لا من غيره، وأنه الذي تكلم به لا غيره، وأما إضافته إلى الرسول في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠] فإضافة تبليغ لا إضافة إنشاء، والرسالة تبليغ كلام المرسل، ولو لم يكن للرسل كلامًا يبلغه الرسول لم يكن رسولًا، ولهذا قال غير واحد من السلف: من أنكر أن يكون الله متكلمًا فقد أنكر رسالة رسله، فإن حقيقة رسالتهم تبليغ كلام المرسل، وفيها دليل على علو الله على خلقه، والتنزيل والإنزال المذكور في القرآن ينقسم إلى أقسام:

الأول: إنزال مطلق كقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥].

الثاني: إنزال من السماء كقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨].

الثالث: إنزال منه سبحانه كقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢].

فأخبر أن القرآن منزل منه، والمطر منزل من السماء، منزلا نزولًا مطلقًا، ففرق سبحانه بين النزول منه والنزول من السماء، وحكم المجرور بمن في هذا الباب حكم المضاف، والمضاف ينقسم إلى قسمين: إضافة أعيان وإضافة معان، فإضافة الأعيان إليه سبحانه من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، كبيت الله وناقة الله ونحو ذلك، أما إضافة المعاني إلى الله سبحانه وتعالى فهي من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، كسمع الله وبصره وعلمه وقدرته، فهذا يمتنع أن يكون المضاف مخلوقًا بل هو صفة قائمة به وهكذا حكم المجرور بمن، فإضافة القرآن إليه سبحانه من باب إضافة الصفة إلى الموصوف لا من باب إضافة المخلوق إلى خالقه خلافًا للمبتدعة من المعتزلة والجهمية وأشباههم، وفي هذه الآية الرد على من زعم أن القرآن مخلوق أو أنه كلام بشر وغيره، فمن زعم ذلك فهو كافر بالله العظيم، كما روي ذلك عن السلف، وفيها دليل على أن جبريل نزل به من عند الله، فإنه ﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ [النحل: ١٠٢] وهو أيضًا الروح الأمين، وفي قوله: «الأمين» [الشعراء: ١٩٣] دليل على أنه مؤتمن على ما أرسل به، فلا يزيد عليه ولا ينقص، وفيها دليل على أن الرسول ﷺ سمعه من جبريل وهو الذي نزل به عليه من عند الله، وجبريل سمعه من الله، والصحابة سمعوه من النبي ﷺ وفيها الرد على من

قال أن النبي ﷺ سمع القرآن من اللّٰه ، وفيها الدلالة على بطلان قول من قال أنه مخلوق خلقه اللّٰه من جسم من الأجسام المخلوقة كما هو قول الجهمية القائلين بخلق القرآن ، وفيها الدلالة على بطلان قول من قال إنه فاض على النبي ﷺ من العقل الفعال أو غيره كما يقوله طوائف من الفلاسفة والصابئة ، وهذا القول أشد كفرًا من الذي قبله ، وفيها الدليل على بطلان قول من يقول إن القرآن العربي ليس منزلًا من اللّٰه بل مخلوق ؛ إما في جبريل أو محمد أو جرم آخر كالهواء ، كما يقول ذلك الكلابية والأشعرية القائلين بأن القرآن العربي ليس هو كلام اللّٰه ، وإنما كلامه المعنى القائم بذاته ، والقرآن العربي خلق ليدل على ذلك المعنى ، وهذا يوافق قول المعتزلة ونحوهم في إثبات خلق القرآن ، وفيها أن السفير بين اللّٰه ورسوله محمد ﷺ هو جبريل عليه السلام ، وفيها الرد على من زعم أن كلام اللّٰه هو المعنى النفسي ، فإن جبريل سمعه من اللّٰه والمعنى المجرد لا يسمع ، وفيها دليل أن القرآن نزل باللغة العربية وتكلم اللّٰه سبحانه بالقرآن بها ، وفيها الرد على من زعم أنه يجوز ترجمة القرآن باللغات الأعجمية ؛ لأن القرآن معجز بلفظه ومعناه .

قوله : ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ : أي : بالصدق والعدل ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [النحل : ١٠٢] : أي : يزيدهم يقينًا وإيمانًا .

قوله : ﴿وَهُدًى﴾ : أي : بيان ونور وبصيرة ، ويطلق الهدى ويراد به ما يقر في القلب من الإيمان ، وهذا لا يقدر على خلقه في قلوب العباد إلا اللّٰه ، قال تعالى ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص : ٥٦] الآية ، ويطلق ويراد به بيان الحق وتوضيحه والدلالة عليه والإرشاد عليه ، قال تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى : ٥٢] . انتهى من ابن كثير .

وخصصت الهداية بالمسلمين لاختصاصهم بالنفع بالقرآن ؛ لأنه هو بنفسه هدى ولكنه لا يناله إلا الأبرار كما قال تعالى : ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة : ٢] .

قوله : ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ : البشرى والبشارة هو أول خبر سار ، والبشرى يراد بها أمران : أحدهما : بشارة المخبر . والثاني : سرور المخبر ، قال تعالى : ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس : ٦٤] فسرت البشرى بهذا . قيل : وسميت بشرى ؛ لأنه تؤثر في بشرة الوجه ، ولذلك كانت نوعين : بشرى سارة تؤثر فيه نضارة وبهجة ، وبشرى محزنة تؤثر فيه سوءًا وعبوسًا ، ولكن إذا أطلقت كانت للسرور ، وإذا قيدت كانت بحسب ما قيدت به ، أما البشارة بالفتح فهي نضارة الوجه وحسنه ، وأما البشارة بالضم فهو ما يعطاه المبشر .

قوله : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ :

وقوله : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ [النحل : ١٠٣] : أي كفار مكة . ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل : ١٠٣] والبشر : الإنسان ذكرًا كان أنثى ، وهو في الأصل جمع بشرة وهو ظاهر الجلد ، سموه بشرًا لظهور أبشارهم خلافًا لغيرهم من الحيوان ، أي : أن الذي يعلم النبي ﷺ آدمي ، وذلك أن النبي ﷺ كان يجلس إلى رجل أعجمي في مكة ، وكان ذلك الرجل يقرأ في الكتب السابقة ، فقالت قريش : إن هذا الرجل كان يعلم محمدًا ، فأكذبهم اللّٰه سبحانه وتعالى بقوله : ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل : ١٠٣] .

قوله : ﴿لِّسَانُ﴾ : أي : لغة ﴿الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ : أي : يميلون ويشيرون إليه أنه يعلم محمدًا ﷺ أعجمي ، أي : لا يتكلم بالعربية ، والعجمي المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحًا .

قوله : ﴿لِّسَانُ﴾ : أي : لغة كما في هذه الآية ، وفي قوله سبحانه : « ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم : ٤] ، ويطلق اللسان ويراد به الذكر الحسن كما قال تعالى عن إبراهيم : ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء : ٨٤] ويطلق يراد به الجارحة كما سبحانه : ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ [القيامة : ١٦] الآية .

قوله : ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ : أي : وهذا القرآن لسان عربي مبين ، أي : بين واضح فكيف يكون الذي يقوله أعجمي .

قوله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ :

قوله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ : أي : وجوه المؤمنين . ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي : يوم القيامة . ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ : بالضاد من النضارة وهي البهاء والحسن ومنه نضرة النعيم ، وروى ابن مردويه بسنده إلى بن عمرو قال : قال رسول اللّٰه ﷺ في قوله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ قال : « من الحسن والبهاء ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة : ٢٣] قال : في وجه اللّٰه »(١) .

قوله : ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ : من النظر بالعين فيرونه سبحانه في عرصة القيامة ، ويراه المؤمنون في الجنة ، ولا يجوز حمل النظر هنا بمعنى الانتظار إلى ثواب اللّٰه فإنه معدي بإلى ولا يعدى بإلى إلا إذا كان بمعنى النظر بالعين ، وأيضًا فالانتظار لا يليق في دار القرار ، فهذه الآية صريحة في أن اللّٰه يرى عيانًا بالأبصار يوم القيامة ، وفيها الرد على من زعم : أن معنى ﴿نَاظِرَةٌ﴾ ، أي منتظرة ثواب ربها ؛ لأن الأصل عدم التقدير ، ولأن النظر المعدي بإلى لا يكون إلا بمعنى النظر ، لا سيما وقد ذكر الوجه الذي هو محل النظر ، وقد تواترت الأدلة في إثبات النظر إلى وجه اللّٰه سبحانه وتعالى .

---

(١) « الدر المنثور » للسيوطي (٨/ ٣٥٠) .

قال ابن القيم كَلَلهُ في « النونية » :

ويرونه سبحانه من فوقهم نظر العيان كما يرى القمران
هذا تواتر عن رسول الله لم ينكره إلا فاسد الإيمان

وقال ابن حجر :

مما تواتر حديث من كذب ومن بني الله بيتًا واحتسب
ورؤية ، شفاعة والحوض ومسح خفين وهذي بعض

وفي هذه الآية دليل على أن هذه الرؤية خاصة بالمؤمنين ، وفيها دليل على أن الرؤية تحصل للمؤمنين يوم القيامة دون الدنيا ، ولم يثبت أن أحدًا رآه سبحانه في الدنيا ، قال الله في حق موسى عليه السلام : ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، أي : في الدنيا ، وفي « صحيح مسلم » أن رسول الله ﷺ قال : « إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا »[1] .

واختلف هل حصلت الرؤية لنبينا محمد ﷺ ؟ فالأكثرون على أنه لم يره سبحانه ، وحكاه عثمان بن سعيد الدرامي بإجماع الصحابة .

قال ابن القيم كَلَلهُ : والناس في إثبات الرؤية وعدمها طرفان ووسط ، فقسم غلو في إثباتها حتى أثبتوها في الدنيا والآخرة ، وهم الصوفية وأضرابهم ، وقسم نفوها في الدنيا والآخرة وهم الجهمية والمعتزلة ، والوسط هم أهل السنة والجماعة الذين أثبتوها في الآخرة فقط حسبما تواترت به الأدلة . انتهى .

قوله : ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ :

قوله : ﴿يَنظُرُونَ﴾ : أي ينظرون إلى وجه الله ، وهذا مقابل لما وصف به أولئك الفجار في قوله : ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين : ١٥] فذكر عن هؤلاء أنهم يباحون النظر إلى الله وهم على سررهم وفرشهم ، وعن أولئك الفجار أنهم يحجبون عن رؤيته ، وقد استدل العلماء بهذه الآية ، أي قوله : ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ على إثبات رؤية الله ، قالوا : لأنها لما حجب أعداءه عن رؤيته دل أن أولياءه يرونه .

قوله : ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ :

قوله : ﴿أَحۡسَنُواْ﴾ : أي : في أعمالهم ، وقد تقدم الكلام على هذا الإحسان .

قوله : ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ : أي : الجنة ، ﴿وَزِيَادَةٞۖ﴾ وهي النظر إلى وجه الله كما فسرها رسول الله ﷺ ، والصحابة ، ولما عطف الزيادة على ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ دل على أنها جزاء آخر وراء الجنة وقدر زائد

---

(١) أحمد (٥/٣٢٤) من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

عليها ، وثبت في « صحيح مسلم » عن النبي ﷺ تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم(١).

قال ابن رجب رحمه الله : وهذا مناسب لجعله جزاء لأهل الإحسان ؛ لأن الإحسان هو أن يعبد المؤمن ربه على وجه الحضور والمراقبة كأنه يراه بقلبه وينظر إليه في حال عبادته ، فكان جزاء ذلك النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى عيانًا في الآخرة ، وعكس هذا ما أخبر به عن جزاء الكفار أنهم عن ربهم محجوبون ، وذلك جزاء لحالهم في الدنيا وهو تراكم الران على قلوبهم حتى حجبت عن معرفته في الدنيا ، فكان جزاؤهم على ذلك أن حجبوا عن رؤيته في الآخرة . انتهى .

قوله : ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ :

قوله : ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ : أي : في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، كما في حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « قال الله سبحانه وتعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » ثم قرأ : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة : ١٧] رواه البخاري(٢) .

قوله : ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ : وهو النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى كما قال ذلك علي بن أبي طالب وأنس وغيرهم ، أفادت الآيات إثبات الرؤية وأنها خاصة بيوم القيامة ، وأن رؤية الله سبحانه وتعالى من أجل نعيم الجنة وأعظمه . اهـ .

قوله : « وهذا الباب » : أي : باب معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله وما يستحقه سبحانه من إفراده بالعبادة وترك عبادة ما سواه .

قوله : « في كتاب الله كثير » :

فقد أفصح القرآن عنه كل الإفصاح ، وأغلب سور القرآن متضمنة لذلك بل كل سورة من القرآن ، فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وهو التوحيد العلمي الخبري ، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه وهو التوحيد الطلبي ، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته ، وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيده وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاؤه وتوحيده ، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في العقبى من العذاب فهو جزاء من خرج من توحيده ، والقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه ، وفي الشرك وأهله وجزائهم ، فلا تجد كتابًا قد تضمن من البراهين والأدلة على هذه المطالب العالية كما تضمنه القرآن بأسلوب واضح جلي ، فألفاظ القرآن أفصح الألفاظ وأبينها وأعظمها مطابقة لمعانيها المرادة منها ، فلا تجد كلامًا أحسن تفسيرًا ولا

---

(١) مسلم (١٨١) ، والترمذي (٢٥٥٢) من حديث صهيب رضي الله عنه .

(٢) البخاري (٣٠٧٢) ، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

أتم بيانًا من كلامه سبحانه ولهذا سماه بيانًا خلافًا لمن زعم أن كلام اللّه ورسوله لا يفيد العلم بشيء من أصول الدين ولا يجوز أن تستفاد معرفة اللّه وأسمائه وصفاته وأفعاله منه ، وعبر عن ذلك بقوله : الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين .

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله : وزعم قوم من غالية أهل البدع أنه لا يصح الاستدلال بالقرآن أو الحديث على المسائل القطعية بناء على أن الدلالة اللفظية لا تفيد اليقين ، كما زعموا وزعم كثير من أهل البدع ، أنه لا يستدل بالأحاديث المتلقاة بالقبول على مسائل الصفات والقدر ونحوهما مما يطلب فيه القطع واليقين . اهـ .

قوله : « ومن تدبر القرآن طالبا للهدي منه ؛ تبين له طريق الحق » :

قوله : « ومن تدبر القرآن » : أي تفكر فيه ، والفكر : هو إعمال النظر في شيء ، وقد جاء في الكتاب والسنة الحث على التدبر والتفكير ، قال تعالى : ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص : ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد : ٢٤] ، إلى غير ذلك من الآيات الحاثة على التدبر وتفهم معاني القرآن ، وفيها الرد على من زعم أنه لا وصول إلى ذلك وأن باب الفهم عن اللّه وعن رسوله قد أغلق وباب الاجتهاد قد سد ، وهذا قول باطل ترده أدلة الكتاب والسنة .

قوله : « طالبًا للهدى » : أي : الرشاد . « تبين له » أي : اتضح . « طريق » أي : سبيل .

قوله : « الحق » : وهو ضد الباطل .

❁ قال العلامة عبد العزيز بن عبد اللّه بن باز رحمه الله :

قوله : « ما وصف اللّه به نفسه في « سورة الإخلاص » التي تعدل ثلث القرآن » » :

وجه كون سورة « الإخلاص » تعدل ثلث القرآن : أن القرآن خبر وإنشاء ، والخبر ينقسم في كلام اللّه إلى قسمين :

١ - خبر عن اللّه ، وعن أسمائه وصفاته .

٢ - وخبر عن خلقه من الجنة أو النار وأشراط الساعة ، وجميع ما تضمنه الكتاب من وعد ووعيد ، ومما كان أو سيكون .

وهذه السورة تمحضت للخبر عن اللّه سبحانه ، فكانت ثلث القرآن بهذا الاعتبار . ولقد دلت هذه السورة على أصول عظيمة : يستفاد منها : إثبات جميع صفات الكمال للّه ، ونفي جميع صفات النقائص والعيوب .

كما دلت على أنواع التوحيد الثلاثة : توحيد الذات والصفات على سبيل المطابقة وعلى توحيد

الربوبية وذلك على طريق التضمن، وتوحيد العبادة بالالتزام.

إذ أن دلالة الشيء على كل معناه يسمى : مطابقة، ودلالته على بعضه يسمى : تضمنًا، وعلى ما يلزم من جهة الخارج يسمى التزامًا. اهـ.

قوله : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ :

وجه سياق هذه الآية ضمن إثبات آيات الصفات للدلالة على أن القول على الله بلا علم من أعظم المحرمات في هذه الآية من الأدنى إلى الأعلى، والقول على الله بلا علم يشمل القول عليه في أحكامه وشرعه ودينه كما يشمل القول عليه في أسمائه وصفاته وهو أعظم من القول عليه في شرعه ودينه، فسياق الآية الكريمة هنا للتنبيه على هذا، والله أعلم.

۞ قال الشيخ محمد بن صالح بن عنيمين رحمه الله :

قوله : « دخل فى هذه الجملة ما وصف به نفسه في « سورة الإخلاص » التي تعدلُ ثُلثَ القرآن ».

يحتمل أنه يريد بها قوله : « وهو قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفى والإثبات » ويحتمل أن يريد ما سبق من أن أهل السنة والجماعة يصفون الله تعالى بما وصف به نفسه وما وصفه به رسوله، وأيًا كان ؛ فإن هذه السورة وما بعدها داخلة فى ضمن ما سبق ؛ من أن الله تعالى جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفى والإثبات وأن أهل السنة يؤمنون بذلك.

قوله : « في سورة الإخلاص » : (السورة) : هى عبارة عن آيات من كتاب الله مسورة ؛ أى منفصلة عما قبلها وعما بعدها ؛ كالبناء الذى أحاط به السور.

وقوله : « سورة الإخلاص » : إخلاص الشىء ؛ بمعنى : تنقيته ؛ يعنى : التى نقيت ولم يشبهها شيء. وسميت بذلك ؛ قيل : لأنها تتضمن الإخلاص لله ﷻ، وأن من آمن بها ؛ فهو مخلص فتكون بمعنى مُخْلصة لقارئها ؛ أى أن الإنسان إذا قرأها مؤمنًا بها ؛ فقد أخلص لله ﷻ وقيل : لأنها مخلَصة - بفتح اللام ؛ لأن الله تعالى أخلصها لنفسه، فلم يذكر فيها شيئًا من الأحكام ولا شيئًا من الأخبار عن غيره، بل هى أخبار خاصة بالله والوجهان صحيحان، ولا منافاة بينهما.

الدليل قول النبى عليه الصلاة والسلام لأصحابه : « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة ؟ ».

فشق ذلك عليهم وقالوا : أيّنا يُطيقُ ذلك يا رسول الله ؟ فقال : « الله الواحد الصمد ثلث القرآن » (١).

فهذه السورة تعدل ثلث القرآن فى الجزاء لا فى الإجزاء، وذلك كما ثبت عن النبى ﷺ أن : « من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ؛ عشر مرات

---

(١) أخرجه البخارى (٥٠١٥)، ومسلم (٨١١).

فكأنما أعتق أربع أنفس من بنى إسماعيل »[1] ؛ فهل يجزئ ذلك عن إعتاق أربع رقاب ممن وجب عليه ذلك وقال هذا الذكر عشر مرات ؟ فنقول : لا يجزئ . أما فى الجزاء ؛ فتعدل هذا ؛ كما قال النبى عليه الصلاة والسلام ؛ فلا يلزم من المعادلة فى الجزاء المعادلة فى الإجزاء . ولهذا ؛ لو قرأ سورة « الإخلاص » فى الصلاة ثلاث مرات ؛ لم تجزئه عن قراءة « الفاتحة » .

قال العلماء : ووجه كونها تعدل ثلث القرآن : أن مباحث القرآن خبر عن اللّه وخبر عن المخلوقات ، وأحكام ؛ فهذه ثلاثة :

١ - خبر عن اللّه : قالوا : إن سورة : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تتضمنه .

٢ - خبر عن المخلوقات ؛ كالإخبار عن الأمم السابقة ، والإخبار عن الحوادث الحاضرة ، وعن الحوادث المستقبلة .

٣ - والثالث : أحكام ؛ مثل : أقيموا ، آتوا ، لا تشركوا .. وما أشبه ذلك .

وهذا هو أحسن ما قيل فى كونها تعدل ثلث القرآن .

﴿قُلْ﴾ : الخطاب لكل من يصح خطابه .

وسبب نزول هذه السورة : أن المشركين قالوا للرسول عليه الصلاة والسلام صف لنا ربك ؟ فأنزل اللّه هذه السورة . وقيل : بل اليهود هم الذين زعموا أن اللّه خُلِقَ من كذا ومن كذا مما يقولون من المواد ؛ فأنزل اللّه هذه السورة . سواء صح السبب أم لم يصح ؛ فعلينا إذا سُئلنا أىَّ سؤال عن اللّه نقول : ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ .

﴿هُوَ﴾ : ضمير وأين مرجعه ؟ قيل : إن مرجعه المسئول عنه ؛ كأنه يقول : الذى سألتم عنه اللّه . وقيل : هو ضمير الشأن و﴿ٱللَّهُ﴾ : مبتدأ ثان و﴿أَحَدٌ﴾ : خبر المبتدأ الثانى ، وعلى الوجه الأول تكون ﴿هُوَ﴾ : مبتدأ ، ﴿ٱللَّهُ﴾ خبر المبتدأ ، ﴿أَحَدٌ﴾ : خبر ثان .

﴿ٱللَّهُ﴾ : هو العلم على ذات اللّه ، المختص باللّه ﷻ ، لا يتسمى به غيره وكل ما يأتى بعده من أسماء اللّه فهو تابع له إلا نادرًا ؛ ومعنى ﴿ٱللَّهُ﴾ : الإله ، وإله بمعنى مألوه أى : معبود ، لكن حذفت الهمزة تخفيفًا لكثرة الاستعمال ؛ كما فى (الناس) ، وأصلها : الأناس ، وكما فى : هذا خير من هذا ، وأصله : أخير من هذا لكن لكثرة الاستعمال حذفت الهمزة ؛ فاللّه ﷻ ﴿أَحَدٌ﴾ .

﴿أَحَدٌ﴾ : لا تأتى إلا فى النفى غالبًا أو فى الإثبات فى أيام الأسبوع ؛ يقال : الأحد ، الاثنين .. لكن تأتى فى الإثبات موصوفًا بها الرب ﷻ لأنه سبحانه وتعالى أحد ؛ أى : متوحد فيما يختص به فى

(١) البخاري (٦٤٠٤) ، ومسلم (٢٦٩٣) .

ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، ﴿أَحَدٌ﴾ ؛ لا ثانى له ولا نظير له ولا ند له .

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ : هذه جملة مستأنفة بعد أن ذكر الأحدية ذكر الصمدية ، وأتى بها بجملة معرفة فى طرفها ؛ لإفادة الحصر ؛ أى : اللّٰه وحده الصمد .

فما معنى الصمد ؟

قيل : إن ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ : هو الكامل ؛ فى علمه ، فى قدرته ، فى حكمته ، فى عزته ، فى سؤدده ، فى كل صفاته . وقيل : ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ : الذى لا جوف له ؛ يعنى لا أمعاء ولا بطن ، ولهذا قيل : الملائكة صمد ؛ لأنهم ليس لهم أجواف ؛ لا يأكلون ولا يشربون . هذا المعنى روى عن ابن عباس رضي الله عنهما[1] ولا ينافى المعنى الأول ، لأنه يدل على غناه بنفسه عن جميع خلقه ، وقيل : ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ بمعنى المفعول ؛ أى : المصمود إليه ؛ أى الذى تصمد إليه الخلائق فى حوائجها ؛ بمعنى : تميل إليه وتنتهى إليه وترفع إليه حوائجها ؛ فهو بمعنى الذى يحتاج إليه كل أحد .

هذه الأقاويل لا ينافى بعضها بعضًا فيما يتعلق باللّٰه ﷻ ، ولهذا نقول : إن المعانى كلها ثابتة ؛ لعدم المنافاة فيما بينها .

ونفسره بتفسير جامع فنقول : ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ : هو الكامل فى صفاته الذى افتقرت إليه جميع مخلوقاته ؛ فهى صامدة إليه .

وحينئذ يتبين لك المعنى العظيم فى كلمة ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ : أنه مستغن عن كل ما سواه ، كامل فى كل ما يوصف به ، وأن جميع ما سواه مفتقر إليه .

فلو قال لك قائل : إن اللّٰه استوى على العرش ؛ هل استواؤه على العرش بمعنى أنه مفتقر إلى العرش بحيث لو أزيل لسقط ؟ فالجواب : لا ، كلا ، لأن اللّٰه صمد كامل غير محتاج إلى العرش ، بل العرش والسماوات والكرسى والمخلوقات كلها محتاجة إلى اللّٰه ، واللّٰه فى غنى عنها فنأخذه من كلمة ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ .

لو قال قائل : هل اللّٰه يأكل أو يشرب ؟ أقول : كلا ؛ لأن اللّٰه صمد .

وبهذا نعرف أن ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ كلمة جامعة لجميع صفات الكمال للّٰه وجامعة لجميع صفات النقص فى المخلوقات وأنها محتاجة إلى اللّٰه ﷻ .

هذا تأكيد للصمدية والوحدانية ، وقلنا : توكيد ؛ لأننا نفهم هذا مما سبق فيكون ذكره توكيدًا لمعنى ما سبق وتقريرًا له ؛ فهو لأحديته وصمديته لم يلد ؛ لأن الولد يكون على مثل الوالد فى الخلقة ،

---

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى « السنة » (٦٦٥) بإسناد ضعيف .

في الصفة وحتى الشبه .

لما جاء مجزز المدلجي إلى زيد بن حارثة وابنه أسامة ، وهما ملتحفان برداء ، قد بدت أقدامهما ؛ نظر إلى القدمين . فقال : إن هذه الأقدام بعضها من بعض[1]. فعرف ذلك بالشبه .

فلكمال أحديته وكمال صمديته ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ والوالد محتاج إلى الولد بالخدمة والنفقة ويعينه عند العجز ويبقى نسله .

﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ ؛ لأنه لو ولد ؛ لكان مسبوقًا بوالد مع أنه جل وعلا هو الأول الذى ليس قبله شيء ، وهو الخالق وما سواه مخلوق ؛ فكيف يولد ؟

وإنكار أنه وُلِدَ أبلغ في العقول من إنكار أنه والد ولهذا لم يدع أحد أن اللَّه والدًا وادعى المفترون أن له ولدًا .

وقد نفى اللَّه هذا وهذا وبدأ بنفى الولد ؛ لأهمية الرد على مدعيه بل قال : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ [المؤمنون : ٩١] ، حتى ولو بالتسمي ؛ فهو لم يلد ولم يتخذ ولدًا ، بنو آدم قد يتخذ الإنسان منهم ولدًا وهو لم يلده بالتبني أو بالولاية أو بغير ذلك ، وإن كان التبني غير مشروع ، أما اللَّه ﷻ ؛ فلم يلد ولم يولد ، ولما كان يرد على الذهن فرض أن يكون الشيء لا والدًا ولا مولودًا لكنه متولد ؛ نفى هذا الوهم الذى قد يرد ، فقال : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ . وإذا انتفى أن يكون له كفوًا أحد ؛ لزم ألَّا يكون متولدًا ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ، أى : لا يكافئه أحد في جميع صفاته .

وفي هذه السورة : صفات ثبوتية وصفات سلبية :

الصفات الثبوتية : ﴿اللَّهُ﴾ التي تتضمن الألوهية ، ﴿أَحَدٌ﴾ تتضمن الأحدية ﴿الصَّمَدُ﴾ تتضمن الصمدية .

والصفات السلبية : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص : ٣، ٤] .

ثلاث إثبات ، وثلاث نفي ، وهذا النفي يتضمن من إثبات كمال الأحدية والصمدية .

قوله : « وما وصف به نفسه في أعظم آية في كتاب اللَّه »وهذه الآية تسمى آية الكرسي ؛ لأن فيها ذكر الكرسي : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وهي أعظم آية في كتاب اللَّه .

والدليل على ذلك : أن النبي ﷺ سأل أُبي بن كعب ؛ قال : « أى آية في كتاب اللَّه أعظم ؟ » فقال له : ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ فضرب على صدره ، وقال : « ليهنك العلم أبا المنذر » [2].

---

(١) البخاري (٦٧٧٠) ، ومسلم (١٤٥٩) .

(٢) أخرجه مسلم (٨١٠) .

يعنى : أن النبى ﷺ أقرّه بأن هذه أعظم آية فى كتاب الله ، وأن هذا دليلٌ على علم أُبى فى كتابِ الله ﷻ .

وفى هذا الحديث دليل على أن القرآن يتفاضل ؛ كما دل عليه أيضًا حديث سورة « الإخلاص » ، وهذا موضع يجب فيه التفصيل ؛ فإننا نقول : أما باعتبار المتكلم به ؛ فإنه لا يتفاضل ؛ لأن المتكلم به واحد وهو الله ﷻ ، وأما باعتبار مدلولاته وموضوعاته فإنه يتفاضل ؛ فسورة « الإخلاص » التى فيها الثناء على الله ﷻ بما تضمنته من الأسماء والصفات ليست كسورة « المسد » التى فيها بيان حال أبى لهب من حيث الموضوع كذلك ، يتفاضل من حيث التأثير والقوة فى الأسلوب ؛ فإن من الآيات ما تجدها آية قصيرة لكن فيها رَدْعٌ قوى للقلب وموعظة ، وتجد آية أخرى أطول منها بكثير لكن لا تشتمل على ما تشتمل عليه الأولى ؛ فمثلًا قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .. إلخ ؛ هذه آية موضوعها سهل ، والبحث فيها فى معاملات تجرى بين الناس وليس فيها ذاك التأثير الذى يؤثره مثل قوله تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران : ١٨٥] ؛ فهذه تحمل معانى عظيمة ، فيها زجر وموعظةٌ وترغيب وترهيب ، ليست كآية الدَّين مثلًا مع أن آية الدين أطول منها .

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فى هذه الآية يخبر الله بأنه منفرد بالألوهية ، وذلك من قوله : ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ؛ لأن هذه جملة تفيد الحصر وطريقة النفى والإثبات هذه من أقوى صيغ الحصر .

« القيوم » : أى : ذو الحياة الكاملة المتضمنة لجميع صفات الكمال لم تسبق بعدم ، ولا يلحقها زوال ، ولا يعتريها نقص بوجه من الوجوه .

و﴿ٱلْحَىُّ﴾ من أسماء الله ، وقد تطلق على غير الله ؛ قال تعالى : ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ [الأنعام : ٩٥] ، ولكن ليس الحى كالحى ، ولا يلزم من الاشتراك فى الاسم التماثل فى المسمى .

﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ على وزن فيعول ، وهذه من صيغ المبالغة ، وهى مأخوذة من القيام .

ومعنى ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ ؛ أى : أنه القائم بنفسه ؛ فقيامه بنفسه يستلزم استغناءه عن كل شىء ، لا يحتاج إلى أكل ولا شرب ولا غيرها ، وغيره لا يقوم بنفسه بل هو محتاج إلى الله ﷻ فى إيجاده وإعداده وإمداده .

ومن معنى ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ كذلك أنه قائم على غيره لقوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد : ٣٣] ، والمقابل محذوف تقديره : كمن ليس كذلك ، والقائم على كل نفس بما كسبت هو الله ﷻ ولهذا يقول العلماء : القيوم هو القائم على نفسه القائم على غيره . وإذا كان قائمًا

على غيره ؛ لزم أن يكون غيره قائمًا به ؛ قال اللَّه تعالى : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥] ؛ فهو إذن كامل الصفات وكامل الملك والأفعال .

وهذان الاسمان هما الاسم الأعظم الذى إذا دعى اللَّه به أجاب ، ولهذا ينبغى للإنسان فى دعائه أن يتوسل به ؛ فيقول : يا حى ! يا قيوم ! وقد ذكرا فى الكتاب العزيز فى ثلاثة مواضع : هذا أحدها ، والثانى فى سورة « آل عمران » : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢] ، والثالث فى سورة « طه » : ﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١] .

هذان الاسمان فيهما الكمال الذاتى والكمال السلطانى ؛ فالذاتى فى قوله : ﴿ٱلْحَىُّ﴾ والسلطانى فى قوله : ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ ؛ لأنه يقوم على كل شىء ويقوم به كل شىء .

السِّنة النعاس وهى مقدمة النوم ولم يقل : لا ينام . لأن النوم يكن باختيار ، والأخذ يكون بالقهر . والنوم من صفات النقص ؛ قال النبى عليه الصلاة والسلام : « إن اللَّه لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام »[1] .

وهذه صفة من صفات النفى وقد سبق أن صفات النفى لابد أن تتضمن ثبوتًا وهو كمال الضد ، والكمال فى قوله : ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] كمال الحياة والقيومية ؛ لأنه من كمال حياته ألَّا يحتاج إلى النوم ومن كمال قيوميته ألَّا ينام ؛ لأن النوم إنما يحتاج إليه المخلوقات الحية ؛ لنقصها ؛ لأنها تحتاج إلى النوم من أجل الاستراحة من تعب سبق واستعادة القوة لعمل مستقبل ، ولما كان أهل الجنة كاملى الحياة ؛ كانوا لا ينامون ؛ كما صحت بذلك الآثار .

لكن لو قال قائل : النوم فى الإنسان كمال ، ولهذا ؛ إذا لم ينم الإنسان ؛ عُدَّ مريضًا . فنقول : كالأكل فى الإنسان كمال ولو لم يأكل ؛ عُدَّ مريضًا لكن هو كمال من وجه ونقص من وجه آخر ؛ كمال لدلالته على صحة البدن واستقامته ونقص لأن البدن محتاج إليه ، وهو فى الحقيقة نقص .

إذن ليس كل كمال نسبى بالنسبة للمخلوق يكون كمالًا للخالق ؛ كما أنه ليس كل كمال فى الخالق يكون كمالًا فى المخلوق ؛ فالتكبر كمال فى الخالق نقص فى المخلوق والأكل والشرب والنوم كمال فى المخلوق نقص فى الخالق ؛ ولهذا قال اللَّه تعالى عن نفسه : ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤] .

قوله : ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ : ﴿لَّهُۥ﴾ : خبر مقدم . ﴿مَا﴾ : مبتدأ مؤخر ؛ ففى الجملة حصر ، طريقة تقديم ما حقه التأخير وهو الخبر . ﴿لَّهُۥ﴾ : اللام هذه للملك . ملك تام ، بدون

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩) .

معارض . ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ : من الملائكة والجنة وغير ذلك مما لا نعلمه ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ : من المخلوقات كلها الحيوان منها وغير الحيوان .

وقوله : ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ : تفيد أن السماوات عديدة ، وهو كذلك وقد نص القرآن على أنها سبع ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون : ٨٦] .

والأرضون أشار القرآن إلى أنها سبع بدون تصريح ، وصرحت ، بها السنة ؛ قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ١٢] ؛ مثلهن فى العدد دون الصفة ، وفى السُّنة قال النبى عليه الصلاة والسلام : « من اقتطع شبرًا من الأرض ظلمًا ؛ طوّقه الله به يوم القيامة من سبع أرضين »[(١)] .

﴿مَن ذَا﴾ اسم استفهام أو نقول : ﴿مَن﴾ اسم استفهام ، و﴿ذَا﴾ : ملغاة ، ولا يصح أن تكون ﴿ذَا﴾ : اسمًا موصولًا فى مثل هذا التركيب ؛ لأنه يكون معنى الجملة : من الذى الذى ! وهذا لا يستقيم .

« الذي يشفع » الشفاعة فى اللغة : جعل الوتر شفعًا ؛ قال تعالى : ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ [الفجر : ٣] .
وفى الاصطلاح : هى التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرّة ؛ فمثلًا : شفاعة النبى ﷺ لأهل الموقف أن يقضى بينهم : هذه شفاعة بدفع مضرة ، وشفاعته لأهل الجنة أن يدخلوها بجلب منفعة .

« عنده » أى : عند الله .

« إلا بإذنه » أى : إذنه له ، وهذه تفيد إثبات الشفاعة ، لكن بشرط أن يأذن : ووجه ذلك أنه لولا ثبوتها ؛ لكان الاستثناء فى قوله : ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ : لغوًا لا فائدة فيه .

وذكرها بعد قوله : ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يفيد أن هذا الملك الذى هو خاص بالله ﷻ ؛ أنه ملك تام السلطان ؛ بمعنى أنه لا أحد يستطيع أن يتصرف ، ولا بالشفاعة التى هى خير ؛ إلا بإذن الله ، وهذا من تمام ربوبيته وسلطانه ﷻ .

وتفيد هذه الجملة أن له إذنًا ، والإذن فى الأصل الإعلام ؛ قال الله تعالى : ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة : ٣] ؛ أى إعلام من الله ورسوله ؛ فمعنى ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ ؛ أى : إعلامه بأنه راضٍ بذلك .

وهناك شروط أخرى للشفاعة : منها : أن يكون راضيًا عن الشافع وعن المشفوع له ؛ قال الله تعالى : ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء : ٢٨] ، وقال : ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه : ١٠٩] .

---

(١) أخرجه البخارى (٥٢ ، ومسلم (١٦١٠) .

وهناك آية تنتظم الشروط الثلاثة : ﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ [النجم : ٢٦] ؛ أى : يرضى عن الشافع والمشفوع له ؛ لأن حذف المعمول يدل على العموم .

إذا قال قائل : ما فائدة الشفاعة إذا كان اللّه تعالى قد علم أن هذا المشفوع له ينجو ؟

فالجواب : أن اللّه سبحانه وتعالى يأذن بالشفاعة لمن يشفع من أجل أن يكرمه وينال المقام المحمود .

العلم هو إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا ، واللّه ﷻ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ المستقبل ، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الماضى ، وكلمة « مَا » من صيغ العموم تشمل كل ماض وكل مستقبل ، وتشمل أيضًا ما كان من فعله وما كان من أفعال الخلق .

الضمير فى ﴿يُحِيطُونَ﴾ يعود على الخلق الذى دل عليهم قوله : ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ؛ يعنى لا يحيط من فى السماوات والأرض بشيء من علم اللّه إلا بما شاء .

يحتمل من علم ذاته وصفاته ؛ يعنى : أنا لا نعلم شيئًا عن اللّه وذاته وصفاته إلا بما شاء مما علمنا إياه ويحتمل أن (علم) هنا بمعنى معلوم ؛ يعنى : لا يحيطون بشيء من معلومه ؛ أى : ما يعلمه ؛ إلا بما شاء ، وكِلا المعنيين صحيحٌ وقد نقول : إن الثانى أعم ؛ لأن معلومه يدخل فيه علمه بذاته وبصفاته وبما سوى ذلك .

يعنى إلا بما شاء مما علمهم إياه ، وقد علمنا اللّه تعالى أشياء كثيرة عن أسمائه وصفاته وعن أحكامه الكونية وأحكامه الشرعية ، ولكن هذا الكثير هو بالنسبة لمعلومه قليل ؛ كما قال اللّه تعالى : ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء : ٨٥] .

« وسع كرسيه » : بمعنى شمل ؛ يعنى : أن كرسيه محيط بالسماوات والأرض ، وأكبر منها ؛ لأنه لولا أنه أكبر ما وسعها .

الكرسى ؛ قال ابن عباس ﵄ : « إنه موضع قدمى اللّه ﷻ »[1] ، وليس هو العرش ، بل العرش أكبر من الكرسى وقد ورد عن النبى عليه الصلاة والسلام : « أن السماوات السبع والأرضين السبع بالنسبة للكرسى كحلقة ألقيت فى فلاةٍ من الأرض ، وأن فضل العرش على الكرسى كفضل الفلاةِ على هذه الحلقة »[2] .

هذا يدل على عِظم هذه المخلوقات وعظم المخلوق يدل على عظم الخالق .

---

(١) صححه الألبانى فى مختصر العلو (٤٥) .

(٢) صححه الألبانى فى الصحيحة (١٠٩) .

« وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا » : يعنى : لا يثقله ويكرثه حفظ السماوات والأرض .

وهذه من الصفات المنفية ، والصفة الثبوتية التى يدل عليها هذا النفى هى كمال القدرة والعلم والقوة والرحمة .

﴿ٱلْعَلِىُّ﴾ على وزن فعيل ، وهى صفة مشبهة ؛ لأن علوه ﷻ لازم لذاته ، والفرق بين الصفة المشبهة واسم الفاعل أن اسم الفاعل طارئ حادث يمكن زواله ، والصفة المشبهة لازمة لا ينفك عنها الموصوف .

وعلو اللَّه ﷻ قسمان : علو ذات ، وعلو صفات :

فأما علو الذات ؛ فإن معناه أنه فوق كل شيء بذاته ، ليس فوقه شيء ولا حذاءه شيء .

وأما علو الصفات ؛ فهى ما دل عليه قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل : ٦٠] ؛ يعنى : أن صفاته كلها عليا ، ليس فيها نقص بوجه من الوجوه .

﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ ؛ أيضًا صفة مشبهة ، ومعناها : ذو العظمة ، وهى القوة والكبرياء وما أشبه ذلك مما هو معروف من مدلول هذه الكلمة .

وهذه الآية تتضمن من أسماء اللَّه خمسة وهى : اللَّه ، الحى ، القيوم ، العلى ، العظيم .

وتتضمن من صفات اللَّه ستًا وعشرين صفة منها خمس صفات تضمنتها هذه الأسماء .

السادسة : انفراده بالألوهية .

السابعة : انتفاء السنة والنوم فى حقه ؛ لكمال حياته وقيوميته .

الثامنة : عموم ملكه ؛ لقوله : ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ .

التاسعة : انفراد اللَّه ﷻ بالملك ، ونأخذه من تقديم الخبر .

العاشرة : قوة السلطان وكماله ؛ لقوله : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ .

الحادية عشرة : إثبات العندية ، وهذا يدل على أنه ليس فى كل مكان ؛ ففيه الرد على الحلولية .

الثانية عشرة : إثبات الإذن من قوله : ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ .

الثالثة عشرة : عموم علم اللَّه تعالى لقوله : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ .

الرابعة عشرة والخامسة عشرة : أنه سبحانه وتعالى لا ينسى ما مضى ؛ لقوله : ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ولا يجهل ما يستقبل ؛ لقوله ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ .

السادسة عشرة : كمال عظمة اللَّه ؛ لعجز الخلق عن الإحاطة به .

السابعة عشرة : إثبات المشيئة ؛ لقوله : ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ .

الثامنة عشرة : إثـ [illegible] الكرسى ، [illegible] موضع القدمين .

التاسعة عشرة والعشرون والحادية والعشرون : إثبات العظمة والقوة والقدرة ؛ لقوله : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ؛ لأن عظمة المخلوق تدل على عظمة الخالق .

الثانية والثالثة والرابعة والعشرون : كمال علمه ورحمته وحفظه ، من قوله : ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ .

الخامسة والعشرون : إثبات علو اللَّه لقوله : ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ . ومذهب أهل السنة والجماعة أن اللَّه سبحانه وتعالى عالٍ بذاته ، وأن علوه من الصفات الذاتية الأزلية الأبدية .

وخالف أهل السنة في ذلك طائفتان : طائفة قالوا : إن اللَّه بذاته في كل مكان ! وطائفة قالوا : إن اللَّه ليس فوق العالم ولا تحت العالم ولا في العالم ولا يمين ولا شمال ولا منفصل عن العالم ولا متصل .

والذين قالوا بأنه في كل مكان استدلوا بقول اللَّه تعالى : ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة : ٧] ، واستدلوا بقوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد : ٤] ، وعلى هذا ؛ فليس عاليًا بذاته ، بل العلو عندهم علو صفة .

أما الذين قالوا : إنه لا يوصف بجهة ؛ فقالوا : لأننا لو وصفناه بذلك ؛ لكان جسمًا ، والأجسام متماثلة ، وهذا يستلزم التمثيل وعلى هذا ؛ فننكر أن يكون في أي جهة .

ولكننا نرد على هؤلاء وهؤلاء من وجهين :

الوجه الأول : إبطال احتجاجهم .

والثاني : إثبات نقيض قولهم بالأدلة القاطعة .

١ - أما الأول ؛ فنقول لمن زعموا أن اللَّه بذاته في كل مكان : دعواكم هذه دعوى باطلةٌ يردها السمع والعقل :

- أما السمع ؛ فإن اللَّه تعالى أثبت لنفسه أنه العَليُّ والآية التي استدللتم بها لا تدل على ذلك ؛ لأن المعية لا تستلزم الحلول في المكان ، ألا ترى إلى قول العرب : القمر معنا ؛ ومحله في السماء ؟ ويقول الرجل : زوجتي معي ؛ وهو في المشرق وهي في المغرب ؟ ويقول الضابط للجنود : اذهبوا إلى المعركة وأنا معكم ؛ وهو في غرفة القيادة وهم في ساحة القتال ؟ فلا يلزم من المعية أن يكون الصاحب في مكان المصاحب أبدًا ، والمعية يتحدد معناها بحسب ما تضاف إليه ؛ فنقول أحيانًا : هذا لبن معه ماء . وهذه المعية اقتضت الاختلاط . ويقول الرجل : متاعي معي . وهو في بيته غير متصل به ،

ويقول : إذا حمل متاعه معه : متاعي معي . وهو متصل به . فهذه كلمة واحدة لكن يختلف معناها بحسب الإضافة ؛ فبهذا نقول : معية الله ﷻ لخلقه تليق بجلاله سبحانه وتعالى ؛ كسائر صفاته ؛ فهي معية تامّة حقيقية ، لكن هو في السماء .

– وأما الدليل العقلي على بطلان قولهم ؛ فنقول : إذا قلت : إن الله معك في كل مكان ؛ فهذا يلزم عليه لوازم باطلة ؛ فيلزم عليه :

أولًا : إما التعدد أو التجزؤ ، وهذا لازم باطل بلا شك ، وبطلان اللازم يدل على بطلان الملزوم .

ثانيًا : نقول : إذا قلت : إنه معك في الأمكنة ؛ لزم أن يزداد بزيادة الناس ، وينقص بنقص الناس .

ثالثًا : يلزم على ذلك ألا تنزهه عن المواضع القذرة ؛ فإذا قلت : إن الله معك وأنت في الخلاء ؛ فيكون هذا أعظم قدح في الله ﷻ .

فتبين بهذا أن قولهم مناف للسمع ومناف للعقل ، وأن القرآن لا يدل عليه بأي وجه من الدلالات ؛ لا دلالة مطابقة ولا تضمن ولا التزام أبدًا .

٢ – أما الآخرون ؛ فنقول لهم :

أولًا : إن نفيكم للجهة يستلزم نفي الرب ﷻ ؛ إذ لا نعلم شيئًا لا يكون فوق العالم ولا تحته ولا يمين ولا شمال ، ولا متصل ولا منفصل ؛ إلا العدم ، ولهذا قال بعض العلماء : لو قيل لنا صفوا الله بالعدم ؛ ما وجدنا أصدق وصفًا للعدم من هذا الوصف .

ثانيًا : قولكم : إثبات الجهة يستلزم التجسيم ! نحن نناقشكم في كلمة الجسم :

ما هذا الجسم الذي تنفّرون الناس عن إثبات صفات الله من أجله ؟ !

أتريدون بالجسم الشيء المكون من أشياء مفتقر بعضها إلى بعض لا يمكن أن يقوم إلّا باجتماع هذه الأجزاء ؟ ! فإن أردتم هذا ؛ فنحن لا نقره ، ونقول : إن الله ليس بجسم بهذا المعنى . ومن قال : إن إثبات علوه يستلزم هذا الجسم ؛ فقوله مجرد دعوى ويكفينا أن نقول : لا قبول .

أما إن أردتم بالجسم الذات القائمة بنفسها المتصفة بما يليق بها ؛ فنحن نثبت ذلك ، ونقول : إن لله تعالى ذاتًا ، وهو قائم بنفسه ، متصف بصفات الكمال ، وهذا هو الذي يعلم به كل إنسان .

وبهذا يتبين بطلان قول هؤلاء الذين أثبتوا أن الله بذاته في كل مكان ، أو أن الله تعالى ليس فوق العالم ولا تحته ولا متصل ولا منفصل ونقول : هو على عرشه استوى ﷻ .

أما أدلة العلو التي يثبت بها نقيض قول هؤلاء وهؤلاء ، والتي تثبت ما قاله أهل السنة والجماعة ؛ فهي أدلة كثيرة لا تحصر أفرادها ، وأما أنواعها ؛ فهي خمسة : الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والعقل ، والفطرة .

– أما الكتاب ؛ فتنوعت أدلته على علو اللّه ﷻ منها التصريح بالعلو والفوقية وصعود الأشياء إليه ونزولها منه وما أشبه ذلك .

– أما السُّنة ؛ فكذلك ؛ فتنوعت دلالتها ، واتفقت السنة بأصنافها الثلاثة على علو اللّه بذاته ؛ فقد ثبت علو اللّه بذاته فى السنة من قول الرسول ﷺ وفعله وإقراره .

– أما الإجماع ؛ فقد أجمع المسلمون قبل ظهور هذه الطوائف المبتدعة على أن اللّه تعالى مستوٍ على عرشه فوق خلقه .

قال شيخ الإسلام : « ليس فى كلام اللّه ولا رسوله ولا كلام الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ما يدل لا نصًا ولا ظاهرًا على أن اللّه تعالى ليس فوق العرش وليس فى السماء ، بل كل كلامهم متفق على أن اللّه فوق كل شيء » .

– وأما العقل ؛ فإننا نقول : كلٌّ يعلم أن العلو صفة كمال ، وإذا كان صفة كمال ؛ فإنه يجب أن يكون ثابتًا للّه ؛ لأن اللّه متصف بصفات الكمال ، ولذلك نقول : إما أن يكون اللّه فى أعلى أو فى أسفل أو فى المحاذى ؛ فالأسفل والمحاذى ممتنع ؛ لأن الأسفل نقص فى معناه ، والمحاذى نقص لمشابهة المخلوق ومماثلته ، فلم يبق إلا العلو ، وهذا وجه آخر فى الدليل العقلى .

– وأما الفطرة ؛ فإننا نقول : ما من إنسان يقول : يا رب ! إلا وجد فى قلبه ضرورة بطلب العلوّ .

فتطابقت الأدلة الخمسة .

وأما علو الصفات ؛ فهو محل إجماع من كل من يدين أو يتسمى بالإسلام .

السادسة والعشرون : إثبات العظمة للّه ﷻ ؛ لقوله : ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ .

هذا طرف من حديث رواه البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه فى قصة استحفاظ النبى ﷺ إياه على الصدقة ، وأخذ الشيطان منها ، وقوله لأبى هريرة : « إذا أويت إلى فراشك ؛ فاقرأ آية الكرسى : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة : ٢٥٥] حتى تختم الآية ؛ فإنك لن يزال عليك من اللّه حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح » فأخبر أبو هريرة النبى ﷺ بذلك ، فقال : « إنه صدقك ، وهو كذوب »[١] .

هذا معطوف على (سورة) فى قول المؤلف : « ما وصف به نفسه فى سورة الإخلاص » .

﴿ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ : هذه أربعة أسماء كلها متقابلة فى الزمان والمكان ، تفيد

(١) علقه البخارى (٣٢٧٥) .

إحاطة اللّه سبحانه وتعالى بكل شيء أولًا وآخرًا وكذلك في المكان ففيه الإحاطة الزمانية والإحاطة المكانية .

﴿ٱلْأَوَّلُ﴾ : فسره النبي عليه الصلاة والسلام بقوله : « الذي ليس قبله شيء »(١) .

وهنا فسر الإثبات بالنفي فجعل هذه الصفة الثبوتية صفة سلبية ، وقد ذكرنا فيما سبق أن الصفات الثبوتية أكمل وأكثر ؛ فلماذا ؟

فنقول : فسرها النبي ﷺ بذلك ؛ لتوكيد الأولية ؛ يعني أنها مطلقة ، أولية ليست أولية إضافية ، فيقال : هذا أول باعتبار ما بعده وفيه شيء آخر قبله ؛ فصار تفسيرها بأمر سلبي أدل على العموم باعتبار التقدم الزمني .

﴿وَٱلْآخِرُ﴾ : فسره النبي عليه الصلاة والسلام بقوله : « الذي ليس بعده شيء » ، ولا يتوهم أن هذا يدل على غاية لآخريته ، لأن هناك أشياء أبدية وهي من المخلوقات ، كالجنة والنار ، وعليه فيكون معنى « الآخِرُ » أنه محيط بكل شيء ، فلا نهاية لآخريته .

﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ : من الظهور وهو العلو ؛ كما قال تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة : ٣٣] ؛ أي : ليعليه ، ومنه ظهر الدابة لأنه عال عليها ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف : ٩٧] ؛ أي يعلوا عليه ؛ وقال النبي عليه الصلاة والسلام في تفسيرها : « الذي ليس فوقه شيء » ؛ فهو عال على كل شيء .

﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ : فسره النبي عليه الصلاة والسلام قال : « الذي ليس دونه شيء » . وهذا كناية عن إحاطته بكل شيء ، ولكن المعنى أنه مع علوه ﷻ ؛ فهو باطن ؛ فعلوه لا ينافي قربه ﷻ ؛ فالباطن قريب من معنى القريب .

تأمل هذه الأسماء الأربعة ؛ تجد أنها متقابلة ، وكلها خبر عن مبتدأ واحد لكن بواسطة حرف العطف والأخبار بواسطة حرف العطف أقوى من الأخبار بدون واسطة حرف العطف ؛ فمثلًا : ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج : ١٤- ١٦] : هي أخبار متعددة بدون حرف العطف لكن أحيانًا تأتي أسماء اللّه وصفاته مقترنة بواو العطف وفائدتها :

أولًا : توكيد السابق ؛ لأنك إذا عطفت عليه ؛ جعلته أصلًا ؛ والأصل ثابت .

ثانيًا : إفادة الجمع ولا يستلزم ذلك تعدد الموصوف ، أرأيت قوله تعالى : ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى : ١- ٣] ، فالأعلى الذي خلق فسوى هو الذي قدر فهدى .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣) .

فإذا قلت : المعروف أن العطف يقتضى المغايرة .

فالجواب : نعم ؛ لكن المغايرة تارة تكون بالأعيان ، وتارة تكون بالأوصاف ، وهذا تغاير أوصاف ، على أن التغاير قد يكون لفظيًا غير معنوى مثل قول الشاعر :

* فَألفى قَوْلَها كَذبًا ومينا *

فَالمَيْن هو الكذب ومع ذلك عطفه عليه ؛ لتغاير اللفظ والمعنى واحد ؛ فالتغاير إما عينى أو معنوى أو لفظى ، فلو قلت : جاء زيد وعمرو وبكر وخالد . فالتغاير عينى ، ولو قلت : جاء زيد الكريم والشجاع والعالم . فالتغاير معنوى ، ولو قلت : هذا الحديث كذب ومين . فالتغاير لفظى .

واستفدنا من هذه الآية الكريمة : إثبات أربعة أسماء للّه ، وهى الأول والآخر والظاهر والباطن .

واستفدنا منها خمس صفات : الأولية ، والآخرية ، والظاهرية ، والباطنية وعموم العلم .

واستفدنا من مجموع الأسماء : إحاطة اللّه تعالى بكل شىء زمنًا ومكانًا ؛ لأنه قد يحصل من اجتماع الأوصاف زيادة صفة .

فإذا قال قائل : هل هذه الأسماء متلازمة ؛ بمعنى أنك إذا قلت : الأول ؛ فلابد أن تقول : الآخر ، أو : يجوز فصل بعضها عن بعض ؟!

فالظاهر أن المتقابل منها متلازم ؛ فإذا قلت : الأول ؛ فقل : الآخر ، وإذا قلت : الظاهر ؛ فقل : الباطن ؛ لئلا تفوّت صفة المقابلة الدالة على الإحاطة .

« وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » هذا إكمال لما سبق من الصفات الأربع ؛ يعنى : ومع ذلك ؛ فهو بكل شىء عليم . وهذه من صيغ العموم التى لم يدخلها تخصيص أبدًا ، وهذا العموم يشمل أفعاله وأفعال العباد الكليات والجزئيات ؛ يعلم ما يقع وما سيقع ويشمل الواجب والممكن والمستحيل ؛ فعلم اللّه تعالى واسع شاملٌ محيط لا يستثنى منه شىء ؛ فأما علمه بالواجب ؛ فكعلمه بنفسه وبما له من الصفات الكاملة ، وأما علمه بالمستحيل ؛ فمثل قوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء : ٢٢] ، وقوله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ [الحج : ٧٣] . وأما علمه بالممكن ؛ فكل ما أخبر اللّه به عن المخلوقات ؛ فهو من الممكن : ﴿يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل : ١٩] .

إذن ؛ فعلم اللّه تعالى محيط بكل شىء .

والثمرة التى ينتجها الإيمان بأن اللّه بكل شىء عليم : كمال مراقبة اللّه ﷻ وخشيته ؛ بحيث لا يفقده حيث أمره ، ولا يراه حيث نهاه .

التوكل: مأخوذ من وَكَلَ الشيء إلى غيره ؛ أى : فوضه إليه ؛ فالتوكل على الغير ؛ بمعنى : التفويض إليه .

وعرف بعض العلماء التوكل على الله بأنه : صدق الاعتماد على الله فى جلبِ المنافع ودفع المضار، مع الثقة به سبحانه وتعالى ، وفعل الأسباب الصحيحة .

وصدق الاعتماد : أن تعتمد على الله اعتمادًا صادقًا ؛ بحيث لا تسأل إلا الله ، ولا تستعين إلا بالله ، ولا ترجو إلا الله ، ولا تخاف إلا الله ؛ تعتمد على الله ﷻ بجلب المنافع ودفع المضار ، ولا يكفى هذا الاعتماد دون الثقة به وفعل السبب الذى أذن به ؛ بحيث إنك واثق بدون تردد مع فعل السبب الذى أذن فيه .

فمن لم يعتمد على الله واعتمد على قوته ؛ فإنه يخذل ؛ ودليل ذلك ما وقع للصحابة مع نبيهم محمد ﷺ فى غزوة حنين ؛ حين قال الله ﷻ : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ ؛ حيث قالوا : لن نغلب اليوم من قلة ؛ ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة : ٢٥، ٢٦] .

ومن توكل على الله ، ولكن لم يفعل السبب الذى أذن الله فيه ؛ فهو غير صادق ، بل إن عدم فعل الأسباب سَفهٌ فى العقل ونقص فى الدين ؛ لأنه طعن واضح فى حكمة الله .

والتوكل على الله هو شطر الدين ؛ كما قال تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة : ٥] ، والاستعانة بالله تعالى هى ثمرة التوكل ؛ ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود : ١٢٣] .

ولهذا ؛ فإن من توكل على غير الله لا يخلو من ثلاثة أقسام :

أولًا : أن يتوكل توكل اعتماد وتعبّد ؛ فهذا شرك أكبر ؛ كأن يعتقد بأن هذا المتوكل عليه هو الذى يجلب له كل خير ويدفع عنه كل شر ، فيفوض أمره إليه تفويضًا كاملًا فى جلب المنافع ودفع المضار ، مع اقتران ذلك بالخشية والرجاء ، ولا فرق بين أن يكون المتوكل عليه حيًا أو ميتًا ؛ لأن هذا التفويض لا يصح إلا لله .

ثانيًا : أن يتوكل على غير الله بشىء من الاعتماد لكن فيه إيمان بأنه سبب وأن الأمر إلى الله ؛ كتوكل كثير من الناس على الملوك والأمراء فى تحصيل معاشهم ؛ فهذا نوع من الشرك الأصغر .

ثالثًا : أن يتوكل على شخص على أنه نائب عنه ، وأن هذا المتوكل فوقه ؛ كتوكل الإنسان على الوكيل فى بيع وشراء ونحوهما مما تدخله النيابة ؛ فهذا جائز ، ولا ينافى التوكل على الله ، وقد وكل النبى ﷺ أصحابه فى البيع والشراء ونحوهما .

وقوله : ﴿عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ : يقولون : إن الحكم إذا علق بوصف ؛ دل على علية ذلك الوصف .

لو قال قائل : لماذا لم تكن الآية : وتوكل على القوى العزيز ؛ لأن القوة والعزم أنسب فيما يبدو ؟ !

فالجواب : أنه لما كانت الأصنام التى يعتمد عليها هؤلاء بمنزلة الأموات : كما قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل : ٢٠، ٢١] ؛ فقال توكل على من ليس صفته كصفة هذه الأصنام وهو الحى الذى لا يموت ، على أنه قال فى آية أخرى : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الشعراء : ٢١٧] ؛ لأن العزة أنسب فى هذا السياق .

ووجه آخر : أن الحى اسم يتضمن جميع الصفات الكاملة فى الحياة ، ومن كمال حياته عز وجل أنه أهل لأن يعتمد عليه .

وقوله : ﴿لَا يَمُوتُ﴾ ؛ يعنى لكمال حياته لا يموت فيكون تعلقها بما قبلها ، المقصود به إفادة أن هذه الحياة كاملة لا يلحقها فناء .

فى هذه الآية من أسماء اللَّه : الحى ، وفيها من صفاته : الحياة ، وانتفاء الموت المتضمن لكمال الحياة ؛ ففيها صفتان واسم .

سبق تعريف العلم ، وسبق أن العلم صفة كمال وسبق أن علم اللَّه محيط بكل شىء .

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ : هذه المادة (ح ك م) : تدل على حكم وإحكام ؛ فعلى الأول يكون الحكيم بمعنى الحاكم ، وعلى الثانى يكون الحكيم بمعنى المحكم ؛ إذن : يدل هذا الاسم الكريم على أن الحكم للَّه ، ويدل على أن اللَّه موصوف بالحكمة ؛ لأن الإحكام هو الإتقان ، والإتقان وضع الشىء فى موضعه . ففى الآية إثبات حكم وإثبات حكمة :

فاللَّه ﷻ وحده هو الحاكم ، وحكم اللَّه إما كونى وإما شرعى :

فحكم اللَّه الشرعى : ما جاءت به رسله ونزلت به كتبه من شرائع الدين .

وحكم اللَّه الكونى : ما قضاه على عباده من الخلق والرزق والحياة والموت ونحو ذلك من معانى ربوبيته ومقتضياتها .

دليل الحكم الشرعى : قوله تعالى فى سورة « الممتحنة » : ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة : ١٠] .

ودليل الحكم الكونى : قوله تعالى عن أحد إخوة يوسف : ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف : ٨٠] .

وأما قوله تعالى : ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين : ٨] ؛ فشامل للكونى والشرعى ، فالله ﷻ حكيم بالحكم الكونى وبالحكم الشرعى ، وهو أيضًا محكم لهما ، فكل من الحكمين موافق للحكمة .

لكن من الحكمة ما نعلمه ، ومن الحكمة ما لا نعلمه ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء : ٨٥] .

ثم الحكمة نوعان :

الأولى : حكمة فى كون الشىء على كيفيته وحاله التى هو عليها ؛ كحال الصلاة ؛ فهى عبادة كبيرة تسبق بطهارة من الحدث والخبث وتؤدى على هيئة معينة من قيام وقعود وركوع وسجود ، وكالزكاة ؛ فهى عبادة لله تعالى بأداء جزء من المال النامى غالبًا لمن هم فى حاجة إليها ؛ أو فى المسلمين حاجة إليهم كبعض المؤلفة قلوبهم .

الثانية : حكمة فى الغاية من الحكم ؛ حيث إن جميع أحكام الله تعالى لها غايات حميدة وثمرات جليلة .

فانظر إلى حكمة الله فى حكمه الكونى ؛ حيث يصيبُ الناس بالمصائب العظيمة لغاياتٍ حميدة ؛ كقوله تعالى : ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم : ٤١] ، ففيها ردٌّ لقول من يقول : إن أحكام الله تعالى ليست لحكمة ، بل هى لمجرد مشيئته .

وفى هذه الآية من أسماء الله : العليم ، والحكيم . ومن صفاته : العلم والحكمة .

وفيها من الفوائد المسلكية : أن الإيمان بعلم الله وحكمته يستلزم الطمأنينة التامة لما حكم به من أحكام كونية وشرعية ؛ لصدور ذلك عن علم وحكمة ، فيزول عنه القلق النفسى وينشرح صدره .

العليم : سبق الكلام فيه .

الخبير : هو العليم ببواطن الأمور فيكون هذا وصفًا أخص بعد وصف أعم ؛ فنقول : العليم بظواهر الأمور ، والخبير ببواطن الأمور ، فيكون العلم بالبواطن مذكورًا مرتين : مرة بطريق العموم ، ومرة بطريق الخصوص ؛ لئلا يظن أن علمه مختص بالظواهر .

وكما يكون هذا فى المعانى يكون فى الأعيان ؛ فمثلًا : ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر : ٤] : الروح جبريل ، وهو من الملائكة فنقول : الملائكة ومنهم جبريل ، وخص جبريل بالذكر تشريفًا له ويكون النص عليه مرتين : مرة بالعموم ، ومرة بالخصوص .

وفى هذه الآية من أسماء الله تعالى : العليم ، والخبير ومن صفاته : العلم ، والخبرة .

وفيها من الفوائد المسلكية : أن الإيمان بذلك يزيد المرء خوفًا من اللَّه وخشية ؛ سرًّا وعلنًا .

الآية الأولى : قوله : ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ﴾ [سبأ : ٢] .

هذه تفصيل لما سبق من عموم علمه تعالى .

﴿مَا﴾ : اسم موصول يفيد العموم ؛ كل ما يلج فى الأرض مثل المطر والحب يبذر فى الأرض والدود والنمل وغيرها ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كالماء والزروع .. وما أشبه ذلك ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ؛ مثل المطر والوحى والملائكة وأمر اللَّه ﷻ ، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ﴾ ؛ كالأعمال الصالحة والملائكة والأرواح والدعاء .

وهنا قال : (وما يخرج فيها) ؛ فعدّى الفعل بـ : (في) وفى سورة « المعارج » قال : ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج : ٤] ؛ فعداه بـ : (إلى) ، وهذا هو الأصل ؛ فما وجه كونه عدى بـ (في) فى قوله : ﴿يَعْرُجُ فِيهَاۚ﴾ ؟ .

فالجواب : اختلف نحاة البصرة والكوفة فى مثل هذا ، فقال نحاة البصرة : إن الفعل يضمن معنى يتلائم مع الحرف . وقال نحاة الكوفة : بل الحرف يضمن معنى يتلائم مع الفعل .

فعلى الرأى الأول : يكون قوله : ﴿يَعْرُجُ فِيهَاۚ﴾ : مضمنًا معنى (يدخل) ، فيصير المعنى : وما يعرج فيدخل فيها ، وعليه يكون فى الآية دلالة على أمرين : على عروج ودخول .

أما على الرأى الثانى ؛ فنقول : (في) بمعنى (إلى) ويكون هذا من باب التناوب بين الحروف .

لكن على هذا القول لا تجد أن فى الآية معنىً جديدًا وليس فيها إلا اختلاف لفظ (إلى) لفظ (في) ولهذا كان القول الأول أصح وهو أن تضمن الفعل معنى يتناسب مع الحرف .

ولهذا نظير فى اللغة العربية ؛ قال اللَّه تعالى : ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان : ٦] ، والعين يُشرب منها والذى يشرب به الإناء ، فعلى رأى أهل الكوفة نقول : ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ الباء بمعنى (من) ؛ أى : منها ، وعلى رأى أهل البصرة يُضمن الفعل ﴿يَشْرَبُ﴾ معنى يتلائم مع حرف الباء والذى يتلائم معها يُروى ، ومعلوم أنه لا رى إلا بعد شرب ، فيكون هذا الفعل ضمن معنى غايته وهو الرّى .

وكذلك نقول فى ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ﴾ : لا دخول فى السماء إلا بعد العروج إليها ، فيكون الفعل ضمن معنى الغاية .

ففى الآية ذكر اللَّه ﷻ عموم علمه فى كل شيء بنوع من التفصيل ، ثم فصل فى آية أخرى تفصيلًا آخر :

الآية الثانية : قوله : ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

﴿عِندَهُۥ﴾ : أى : عند الله وهو خبر مقدم ﴿مَفَاتِحُ﴾ : مبتدأ مؤخر .

ويفيد هذا التركيب الحصر والاختصاص ؛ عنده لا عند غيره مفاتح الغيب وأكد هذا الحصر بقوله : ﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ ؛ ففى الجملة حصر بأن علم هذه المفاتح عند الله بطريقتين : إحداهما : بطريقة التقديم والتأخير . والثانية : طريقة النفى والإثبات .

كلمة ﴿مَفَاتِحُ﴾ ؛ قيل : إنها جمع مفتح ؛ بكسر الميم وفتح التاء : المفتاح ؛ أو أنها جمع مفتاح لكن حذفت منها الياء وهو قليل ، ونحن نعرف أن المفتاح ما يفتح به الباب . وقيل : جمع مفتح ؛ بفتح الميم وكسر التاء وهو الخزائن ؛ فـ : ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ خزائنه ، وقيل : ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ ؛ أى : مبادئه ؛ لأن مفتاح كل شىء يكون فى أوله ، فيكون على هذا : ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ ؛ أى : مبادئ الغيب ؛ فإن هذه المذكورات مبادئ لما بعدها .

﴿ٱلْغَيْبِ﴾ : مصدر غاب يغيب غيبًا ، والمراد بالغيب : ما كان غائبًا والغيب أمر نسبى ، لكن الغيب المطلق علمه خاص بالله .

هذه المفاتح سواء قلنا : إن المفاتح هى المبادئ ، أو : هى الخزائن ، أو : المفاتيح ؛ لا يعلمها إلا الله ﷻ ؛ فلا يعلمها ملك ، ولا يعلمها رسول ، حتى إن أشرف الرسل الملكى وهو جبريل – سأل أشرف الرسل البشرى – وهو محمد عليه الصلاة والسلام – قال : أخبرنى عن الساعة ؟ قال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل »[(١)] . والمعنى : كما أنه لا علم لك بها ؛ فلا علم لى بها أيضًا . فمن ادعى علم الساعة ؛ فهو كاذب كافر ، ومن صدقه ؛ فهو أيضًا كافر ؛ لأنه مكذب للقرآن .

وهذه المفاتح ؟ فسرها أعلم الخلق بكلام الله محمد ﷺ حين قرأ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾[(٢)] [لقمان : ٣٤] ؛ فهى خمسة أمور :

الأول : علم الساعة : فعلم الساعة مبدأ مفتاح لحياة الآخرة ، وسميت الساعة بهذا ؛ لأنها ساعة عظيمة ، يهدد بها جميع الناس ، وهى الحاقة والواقعة ، والساعة علمها عند الله لا يدرى أحد متى تقوم إلا الله ﷻ .

---

(١) أخرجه مسلم (٨) .
(٢) أخرجه البخارى (٤٦٢٧) .

الثاني : تنزيل الغيث : لقوله : ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ : ﴿الْغَيْثَ﴾ : مصدر ومعناه : إزالة الشدة والمراد به المطر ؛ لأنه بالمطر تزول شدة القحط والجدب وإذا كان هو الذى ينزل الغيث ؛ كان هو الذى يعلم وقت نزوله .

والمطر نزوله مفتاح لحياة الأرض بالنبات ، وبحياة النبات يكون الخير فى المرعى وجميع ما يتعلق بمصالح العباد .

وهنا نقطة : قال : ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ ، ولم يقل : وينزل المطر ؛ لأن المطر أحيانًا ينزل ولا يكون فيه نبات ؛ فلا يكون غيثًا ، ولا تحيا به الأرض ، ولهذا ثبت فى « صحيح مسلم » : « ليست السَّنة ألا تمطَروا ، إنما السَّنة أن تمطروا ولا تنبت الأرض شيئًا »[1] ، والسَّنة القحط .

الثالث : علم ما فى الأرحام : لقوله : ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ [لقمان : ٣٤] ؛ أى : أرحام الإناث ، فهو ﷻ يعلم ما فى الأرحام ؛ أى : ما فى بطون الأمهات من بنى آدم وغيرهم ، ومتعلق العلم عام بكل شىء ؛ فلا يعلم ما فى الأرحام إلا من خلقها ﷻ .

فإن قلت : يقال الآن : إنهم صاروا يعلمون الذكر من الأنثى فى الرحم ، فهل هذا صحيح ؟ .

نقول : إن هذا الأمر وقع ولا يمكن إنكاره ، لكنهم لا يعلمون ذلك إلا بعد تكوين الجنين وظهور ذكورته أو أنوثته ، وللجنين أحوال أخرى لا يعلمونها ؛ فلا يعلمون متى ينزل ، ولا يعلمون إذا نزل إلى متى يبقى حيًا ولا يعلمون هل يكون شقيًا أو سعيدًا ، ولا يعلمون هل يكون غنيًا أم فقيرًا .. إلى غير ذلك من أحواله المجهولة .

إذن أكثر متعلقات العلم فيما يتعلق بالأجنَّةِ مجهول للخلق ؛ فصدق العموم فى قوله : ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ .

الرابع : علم ما فى الغد : وهو ما بعد يومك : لقوله : ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ .
وهذا مفتاح الكسب فى المستقبل ، وإذا كان الإنسان لا يعلم ما يكسب لنفسه ؛ فعدم علمه بما يكسبه غيره أولى .

لكن لو قال قائل : أنا أعلم ما فى الغد ، سأذهب إلى المكان الفلانى ، أو أقرأ ، أو أزور أقاربى .
فنقول : قد يجزم بأنه سيعمل ولكن يحول بينه وبين العمل مانع .

الخامس : علم مكان الموت : لقوله : ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ . ما يدرى أى أحد هل يموت فى أرضه أو فى أرض أخرى ؟ فى أرض إسلامية أو أرض كافر أهلها ؟ ولا يدرى هل يموت فى

(١) أخرجه مسلم (٢٩٠٤) .

البر أو فى البحر أو فى الجو ؟ وهذا شىء مشاهد .

ولا يدرى بأى ساعة يموت ؛ لأنه إذا كان لا يمكنه أن يدرى بأى أرض يموت وهو قد يتحكم فى المكان ؛ فكذلك لا يدرى بأى زمن وساعة يموت .

فهذه الخمسة هى مفاتح الغيب التى لا يعلمها إلا اللّٰه وسميت مفاتح الغيب ؛ لأن علم ما فى الأَرحام مفتاح للحياة الدنيا ، ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ مفتاح للعمل المستقبل ، ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ مفتاح لحياة الآخرة ؛ لأن الإنسان إذا مات ؛ دخل عالم الآخرة ، وسبق بيان علم الساعة وتنزيل الغيث ؛ فتبين أن هذه المفاتح كلها مبادئ لكل ما وراءها ؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ .

ثم قال ﷻ : ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام : ٥٩] : هذا إجمال ؛ فمن يحصى أجناس ما فى البر ؟ كم فيها من عالم الحيوان والحشرات والجبال والأشجار والأنهار أمور لا يعلمها إلا اللّٰه ﷻ والبحر كذلك فيه من العوالم ما لا يعلمه إلا خالقه ﷻ ؛ ويقولون : إن البحر يزيد على البر ثلاثة أضعاف من الأجناس ؛ لأن البحر أكثر من اليابس .

قال : ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام : ٥٩] :

هذا تفصيل ؛ فأى ورقة فى أى شجرة صغيرة أو كبيرة قريبة أو بعيدة تسقط ؛ فاللّٰه تعالى يعلمها ، ولهذا جاءت ﴿مَا تَسْقُطُ﴾ النافية و﴿مِن﴾ الزائدة ؛ ليكون ذلك نصًّا فى العموم ،والورقة التى تخلق يعلمها من باب أولى ؛ لأن عالم ما يسقط عالم بما يخلق ﷻ .

انظر إلى سعة علم اللّٰه تعالى كل شىء يكون ؛ فهو عالم به ، حتى الذى لم يحصل وسيحصل ؛ فهو تعالى عالم به .

قال : ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام : ٥٩] : حبة صغيرة لا يدركها الطرف فى ظلمات الأرض يعلمها ﷻ .

﴿ظُلُمَٰتِ﴾ : مع ظلمة ولنفرض أن حبة صغيرة غائصة فى قاع البحر ، فى ليلة مظلمة مطيرة ؛ فالظلمات : أولًا : طين البحر . ثانيًا : ماء البحر . ثالثًا : المطر . رابعًا : السحاب . خامسًا : الليل ؛ فهذه خمس ظلمات من ظلمات الأرض ومع ذلك هذه الحبة يعلمها سبحانه وتعالى ويبصرها ﷻ .

قال : ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ [الأنعام : ٥٩] : هذا عام ؛ فما من شىء إلا وهو إما رطب وإما يابس .

﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام : ٥٩] : ﴿كِتَٰبٍ﴾ ؛ بمعنى مكتوب .

﴿مُّبِينٍ﴾ أى : مظهر وبين ؛ لأن (أبان) تستعمل متعديًا ولازمًا فيقال : أبان الفجر . بمعنى ظهر الفجر ويقال : أبان الحق . بمعنى أظهره والمراد بالكتاب هنا : اللوح المحفوظ .

كل هذه الأشياء معلومة عند اللّٰه سبحانه وتعالى ومكتوبة عنده فى اللوح المحفوظ ؛ لأن اللّٰه

تعالى : « لما خلق القلم ؛ قال له : اكتب . قال القلم : ماذا أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة »[1] . فكتب في تلك اللحظة ما هو كائن إلى يوم القيامة ثم جعل سبحانه في أيدي الملائكة كتبًا تكتب ما يعمله الإنسان ؛ لأن الذي في اللوح المحفوظ قد كتب فيه ما كان يريد الإنسان أن يفعل ، والكتابة التي تكتبها الملائكة هي التي يجزى عليها الإنسان ولهذا يقول اللَّه ﷻ : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد : ٣١] ، أما علمه بأن عبده فلانًا سيصبر أو لا يصبر ؛ فهذا سابق من قبل ، لكن لا يترتب عليه الثواب والعقاب .

الآية الثالثة : قوله : ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فاطر : ١١] .

﴿مَا﴾ : نافية .

﴿أُنثَىٰ﴾ فاعل ﴿تَحْمِلُ﴾ لكنه معرب بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد .

وهنا إشكال : كيف تقول زائد وليس في القرآن زائد ؟ .

فالجواب : أنه زائد من حيث الإعراب ، أما من حيث المعنى ؛ فهو مفيد وليس في القرآن شيء زائد لا فائدة منه ؛ ولهذا نقول : هو زائد : زائد بمعنى أنه لا يُخلُّ بالإعراب إذا حذف ، زائد من حيث المعنى يزيد فيه . وقوله : ﴿مِنْ أُنثَىٰ﴾ : يشمل أي أنثى ؛ سواء آدمية أو حيوانية أخرى : الذي يحمل حيوانًا واضح أنه داخل في الآية ، كبقرة ، وبعير ، وشاة . .. وما أشبه ذلك ، ويدخل في ذلك الذي يحمل البيض ؛ كالطيور ؛ لأن البيض في جوف الطائر حمل . ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ ؛ فابتداء الحمل بعلم اللَّه ، وانتهاؤه وخروج الجنين بعلم اللَّه ﷻ .

الآية الرابعة : قوله : ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق : ١٢] .

﴿لِتَعْلَمُوٓا۟﴾ : اللام للتعليل ؛ لأن اللَّه قال : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الطلاق : ١٢] ؛ فقد خلق هذه السماوات السبع والأرضين السبع ، وأعلمنا بذلك ؛ لنعلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

القدرة وصف يتمكن به الفاعل من الفعل بدون عجز ؛ فهو على كل شيء قدير ، يقدر على إيجاد المعدوم وعلى إعدام الموجود ؛ فالسماوات والأرض كانت معدومة ، فخلقها اللَّه ﷻ وأوجدها على هذا النظام البديع .

---

(١) صححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠١٧) .

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ : كل شيء ؛ الصغير والكبير ، والمتعلق بفعله أو بفعل عباده ، والماضي واللاحق والحاضر ؛ كل ذلك قد أحاط الله سبحانه به علمًا .

وذكر الله ﷻ العلم والقدرة بعد الخلق ؛ لأن الخلق لا يتم إلا بعلم وقدرة ، ودلالة الخلق على العلم والقدرة من باب دلالة التلازم وقد سبق أن دلالات الأسماء على الصفات ثلاثة أنواع .

تنبيه : ذكر في « تفسير الجلالين » - عفا الله عنا وعنه - في آخر سورة « المائدة » ما نصه « وخص العقل ذاته ؛ فليس عليها بقادر » ! .

ونحن نناقش هذا الكلام من وجهين :

الوجه الأول : أنه لا حكم للعقل فيما يتعلق بذات الله وصفاته ، بل لا حكم له في جميع الأمور الغيبية ، ووظيفة العقل فيها التسليم التام ، وأن نعلم أن ما ذكره الله من هذه الأمور ليس محالًا ، ولهذا يقال : إن النصوص لا تأتي بمحال ، وإنما تأتي بمحار ؛ أي : بما يحير العقول ؛ لأنها تسمع ما لا تدركه ولا تتصوره .

والوجه الثاني : قوله : « فليس عليها بقادر » : هذا خطأ عظيم ؛ كيف لا يقدر على نفسه وهو قادر على غيره ؛ فكلامه هذا يستلزم أنه لا يقدر أن يستوي ولا أن يتكلم ولا أن ينزل إلى السماء الدنيا ولا يفعل شيئًا أبدًا وهذا خطير جدًّا ! ! .

لكن لو قال قائل : لعله يريد : « خص العقل ذاته ؛ فليس عليها بقادر » ؛ يعني : لا يقدر على أن يلحق نفسه نقصًا . قلنا : إن هذا لم يدخل في العموم حتى يحتاج إلى إخراج وتخصيص ؛ لأن القدرة إنما تتعلق بالأشياء الممكنة ؛ لأن غير الممكن ليس بشيء ؛ لا في الخارج ولا في الذهن ؛ فالقدرة لا تتعلق بالمستحيل ؛ بخلاف العلم .

فينبغي للإنسان أن يتأدب فيما يتعلق بجانب الربوبية ؛ لأن المقام مقام عظيم ، والواجب على المرء نحوه أن يستسلم ويسلم .

إذن ؛ نحن نطلق ما أطلقه الله ، ونقول : إن الله على كل شيء قدير . بدون استثناء .

في هذه الآيات من صفات الله تعالى : إثبات عموم علم الله على وجه التفصيل ، وإثبات عموم قدرة الله تعالى .

والفائدة المسلكية من الإيمان بالعلم والقدرة : قوة مراقبة الله والخوف منه .

قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ...﴾ : في هذه الآية إثبات صفة القوة لله ﷻ .

جاءت هذه الآية بعد قوله : ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن

﴿يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧]. فالناس يحتاجون إلى رزق اللَّه، أما اللَّه تعالى؛ فإنه لا يريد منهم رزقًا ولا أن يطعموه.

﴿الرَّزَّاقُ﴾: صيغة مبالغة من الرزق، وهو العطاء؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء: ٨]. أى: أعطوهم، والإنسان يسأل اللَّه تعالى فى صلاته، ويقول: اللهم ارزقنى.

وينقسم الرزق إلى قسمين: عام وخاص.

فالعام: كل ما ينتفع به البدن؛ سواء كان حلالًا أو حرامًا، وسواء كان المرزوق مسلمًا أو كافرًا، ولهذا قال السفارينى:

والرِّزقُ مَا يَنْفَعُ مِنْ حَلالِ أو ضِدُّهُ فَحُلْ عَنِ المُحالِ
لأنَّـهُ رازِقُ كُـلِّ الخَـلْـقِ ولَيْسَ مَخْلوقٌ بِغَيْرِ رِزْقِ

لأنك لو قلت: إن الرزق هو العطاء الحلال. لكان كل الذين يأكلون الحرام؛ لم يرزقوا، مع أن اللَّه أعطاهم ما تصلح به أبدانهم، لكن الرزق نوعان: طيب وخبيث، ولهذا قال اللَّه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، ولم يقل: والرزق. أما الخبائث من الرزق؛ فهى حرام.

أما الرزق الخاص؛ فهو ما يقوم به الدين من العلم النافع والعمل الصالح والرزق الحلال المعين على طاعة اللَّه، ولهذا جاءت الآية الكريمة: ﴿الرَّزَّاقُ﴾ ولم يقل: الرازق. لكثرة رزقه وكثرة من يرزقه؛ فالذى يرزقه اللَّه ﷻ لا يُحصى باعتبار أجناسه، فضلًا عن أنواعه، فضلًا عن آحاده؛ لأن اللَّه تعالى يقول: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦]، ويعطى اللَّه الرزق بحسب الحال.

ولكن إذا قال قائل: إذا كان اللَّه هو الرازق؛ فهل أسعى بطلب الرزق، أو أبقى فى بيتى ويأتينى الرزق؟

فالجواب نقول: اسع لطلب الرزق؛ كما أن اللَّه غفور؛ فليس معنى هذا ألَّا تعمل وتتسبب للمغفرة.

أما قول الشاعر:

جُنونٌ مِنْكَ أنْ تَسْعَى لِرِزْقٍ وَيُرْزَقُ فِى غِشَاوَتِهِ الجَنِينُ

فهذا القول باطل. وأما استشهاده بالجنين؛ فالجواب: أن يقال الجنين لا يمكن أن يوجه إليه طلب الرزق؛ لأنه غير قادر؛ بخلاف القادر.

ولهذا قال الله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك : ١٥] .

فلابد من سعى ، وأن يكون هذا السعى على وفق الشرع .

القوة : صفة يتمكن الفاعل بها من الفعل بدون ضعف ، والدليل قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم : ٥٤] ، وليست القوة هى القدرة ؛ لقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر : ٤٤] ؛ فالقدرة يقابلها العجز ، والقوة يقابلها الضعف ، والفرق بينهما : أن القدرة يوصف بها ذو الشعور ، والقوة يوصف بها ذو الشعور وغيره .

ثانيًا : أن القوة أخص ؛ فكل قوى من ذى الشعور قادر ، وليس كل قادر قويًا . مثال ذلك : تقول : الريح قوية ، ولا تقول : قادرة ، وتقول : الحديد قوى ، ولا تقول : قادر ، لكن ذو الشعور تقول : إنه قوى ، وإنه قادر .

ولما قالت عاد : ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ . قال الله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت : ١٥] .

المتين : قال ابن عباس رضي الله عنهما : الشديد . أى الشديد فى قوته ، الشديد فى عزته ، الشديد فى جميع صفات الجبروت ، وهو من حيث المعنى توكيد للقوى .

ويجوز أن نخبر عن الله بأنه شديد ، ولا نسمى الله بالشديد ، بل نسميه بالمتين ؛ لأن الله سمى نفسه بذلك .

فى هذه الآيات إثبات اسمين من أسماء الله ؛ هما : الرزاق ، والمتين ، وإثبات ثلاث صفات ، وهى الرزق ، والقوة ، وما تضمنه اسم المتين .

والفائدة المسلكية فى الإيمان بصفة القوة والرزق : ألَّا نطلب القوة والرزق إلا من الله تعالى ، وأن نؤمن بأن كل قوة مهما عظمت ؛ فلن تقابل قوة الله تعالى .

هذه الآية ساقها المؤلف لإثبات اسمين من أسماء الله وما تضمناه من صفة ، وهما السميع والبصير ؛ ففيها رد على المعطلة .

قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ : هذا نفى ؛ فهو من الصفات السلبية ، والمقصود به إثبات به كماله ؛ يعنى لكماله لا يماثله شىء من مخلوقاته ، وفى هذه الجملة رد على أهل التمثيل .

قوله : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ . ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ له معنيان : أحدهما : بمعنى المجيب . والثانى : بمعنى السامع للصوت .

أما السميع بمعنى المجيب ، فمثلوا له بقوله تعالى عن إبراهيم : ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم : ٣٩] ، أى : لمجيب الدعاء .

وأما السميع بمعنى إدراك الصوت ؛ فإنهم قسموه إلى عدة أقسام :

الأول : سمع يراد به بيان عموم إدراك سمع اللَّه ﷻ ، وأنه ما من صوت إلا ويسمعه اللَّه .

الثانى : سمع يراد به النصر والتأييد .

الثالث : سمع يراد به الوعيد والتهديد .

مثال الأول : قوله تعالى : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة : ١] ، فهذا فيه بيان إحاطة سمع اللَّه تعالى بكل مسموع ، ولهذا قالت عائشة ﵂ : « الحمد للَّه الذى وسع سمعه الأصوات ، واللَّه إنى لفى الحجرة ، وإن حديثها ليخفى علىَّ بعضه » .

ومثال الثانى : كما فى قوله تعالى لموسى وهارون : ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه : ٤٦] .

ومثال الثالث : الذى يراد به التهديد والوعيد : قوله تعالى : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف : ٨٠] ؛ فإن هذا يراد به تهديدهم ووعيدهم ؛ حيث كانوا يسرون ما لا يرضى من القول .

والسمع بمعنى إدراك المسموع من الصفات الذاتية ، وإن كان المسموع قد يكون حادثًا .

والسمع بمعنى النصر والتأييد من الصفات الفعلية ؛ لأنه مقرون بسبب .

والسمع : بمعنى الإجابة من الصفات العلية أيضًا .

وقوله : ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ ؛ يعنى : المدرك لجميع المبصرات ، ويطلق البصير بمعنى العليم ؛ فاللَّه سبحانه وتعالى بصير ، يرى كل شىء وإن خفى ، وهو سبحانه بصير بمعنى : عليم بأفعال عباده ؛ قال تعالى : ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات : ١٨] ، والذى نعمل بعضه مرئى وبعضه غير مرئى ؛ فبصر اللَّه إذن ينقسم إلى قسمين ، وكله داخل فى قوله : ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ .

فى هذه الآيات إثبات اسمين من أسماء اللَّه ؛ هما : السميع ، والبصير . وثلاث صفات ؛ هى : كمال صفاته من نفى المماثلة ، والسمع ، والبصر .

وفيه من الفوائد المسلكية : الكف عن محاولة تمثيل اللَّه بخلقه ، واستشعار عظمته وكماله ، والحذر من أن يراك على معصيته أو يسمع منك ما لا يرضاه .

واعلم أن النحاة خاضوا خوضًا كثيرًا فى قوله : ﴿كَمِثْلِهِۦ﴾ . حيث قالوا : الكاف داخلة على (المثل) ، وظاهره أن للَّه مثلًا ليس له مثل ؛ لأنه لم يقل : ليس كهو ؛ بل قال : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ﴾ ؛ فهذا ظاهر الآية من حيث اللفظ لا من حيث المعنى ؛ لأننا لو قلنا : هذا ظاهرها من حيث المعنى ؛ لكان

ظاهر القرآن كفرًا ، وهذا مستحيل ، ولهذا اختلفت عبارات النحويين فى تخريج هذه الآية على أقوال :

القول الأول : الكاف زائدة ، وأن تقدير الكلام : ليس مثله شىء . وهذا القول مريح ، وزيادة الحروف فى النفى كثيرة ؛ كما فى قوله تعالى : ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ [فاطر : ١١] ؛ فيقولون : إن زيادة الحروف فى اللغة العربية للتوكيد أمر مطرد .

والقول الثانى : قالوا العكس ؛ قالوا : إن الزائد (مثل) ، ويكون التقدير : ليس كهو شىء . لكن هذا ضعيف ، يضعفه أن الزيادة فى الأسماء فى اللغة العربية قليلة جدًّا أو نادرة ؛ بخلاف الحروف ؛ فإذا كنا لابد أن نقول بالزيادة ؛ فليكن الزائد الحرف ، وهى الكاف .

والقول الثالث : أن (مثل) بمعنى : صفة ، والمعنى : « ليس كصفته شىء » ، وقالوا : إن المِثْل والمَثَل والشِّبه والشَّبَه فى اللغة العربية بمعنى واحد ؛ وقد قال الله تعالى : ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [محمد : ١٥] ؛ أى : صفة الجنة ، وهذا ليس ببعيد من الصواب .

القول الرابع : أنه ليس فى الآية زيادة ، لكن إذا قلت : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ؛ لزم من ذلك نفى المثل ، وإذا كان ليس للمثل مثل ؛ صار الموجود واحدًا ، وعلى هذا ؛ فلا حاجة إلى أن نقدر شيئًا . قالوا : وهذا قد وجد فى اللغة العربية ؛ مثل قوله : ليس كمثل الفتى زهير .

والحقيقة أن هذه البحوث لو لم تعرض لكم ؛ لكان معنى الآية واضحًا ، ومعناها أن الله ليس له مثيلٌ ، لكن هذا وجد فى الكتب ، والراجح : أن نقول : إن الكاف زائدة . لكن المعنى الأخير لمن تمكن من تصوره أجود .

هذه الآية تكملة لقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء : ٥٧] ؛ فأمر ﷻ بأن نؤدى الأمانات إلى أهلها ، ومنها الشهادة للإنسان له أو عليه ، وأن نحكم إذا حكمنا بين الناس بالعدل ، فبين الله سبحانه وتعالى أنه يأمرنا بالقيام بالواجب فى طريق الحكم وفى الحكم نفسه ، وطريق الحكم الذى هو الشهادة تدخل فى عموم قوله : ﴿أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ ، والحكم : ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ . ثم قال سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾ ؛ أصلها : نعم ما . ولكن أدغمت الميم بالميم من باب الإدغام الكبير ؛ لأن الإدغام لا يكون بين جنسين إلا إذا كان الأول ساكنًا ، وهنا صار الإدغام مع أن الأول مفتوح .

وقوله : ﴿نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾ : جعل الله سبحانه الأمر بهذين الشيئين – أداء الأمانة والحكم بالعدل – موعظة ؛ لأنه تصلح به القلوب ، وكل ما يصلح القلوب ؛ فهو موعظة ، والقيام بهذه الأوامر لا شك أنه يصلح القلب .

ثم قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ وقوله : ﴿كَانَ﴾ : هذه فعل ، لكنها مسلوبة الزمن ؛ فالمراد بها

الدلالة على الوصف فقط ؛ أى : أن اللّه متصف بالسمع والبصر ، وإنما قلنا : إنها مسلوبة الزمن ؛ لأننا لو أبقيناها على دلالتها الزمانية ؛ لكان هذا الوصف قد انتهى ؛ كان فى الأول سميعًا بصيرًا ، أما الآن فليس كذلك ، ومعلوم أن هذا المعنى فاسد باطل ، وإنما المراد أنه متصف بهذين الوصفين السمع والبصر على الدوام ، و(كان) فى مثل هذا السياق يراد به التحقيق .

قوله : ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ : نقول فيها كما قلنا فى الآية التى قبلها : فيها إثبات السمع للّه بقسميه ، وإثبات البصر بقسميه .

قرأ أبو هريرة هذه الآية ، وقال : إن الرسول ﷺ وضع إبهامه وسبابته على عينه وأذنه . والمراد بهذا الوضع تحقيق السمع والبصر ، لا إثبات العين والأذن ؛ فإن ثبوت العين جاءت فى أدلة أخرى ، والأذن عند أهل السنة والجماعة لا تثبت للّه ولا تنفى عنه لعدم ورود السمع بذلك .

فإن قلت : هل لى أن أفعل كما فعل الرسول ﷺ ؟ .

فالجواب : من العلماء من قال : نعم ؛ افعل كما فعل الرسول ، لست أهدى للخلق من رسول اللّه ﷺ ، ولست أشد تحرزًا من أن يضاف إلى اللّه ما لا يليق به من الرسول ﷺ .

ومنهم من قال : لا حاجة إلى أن تفعل ما دمنا نعلم أن المقصود هو التحقيق . فهذه الإشارة إذن غير مقصودة بنفسها ، إنما هى مقصودة لغيرها ، وحينئذ ؛ لا حاجة إلى أن تشير ، لا سيما إذا كان يُخشى من هذه الإشارة توهم الإنسان التمثيل ؛ كما لو كان أمامك عامة من الخلق لا يفهمون الشيء على ما ينبغى ؛ فهذا ينبغى التحرز منه ، ولكل مقام مقال .

وكذلك ما ورد فى حديث ابن عمر كيف يحكى رسول اللّه ﷺ قال : « يأخذ اللّه ﷻ سماواته وأرضيه بيديه ، فيقول : أنا اللّه » ؛ ويقبض أصابعه ويبسطها[1] . فيقال فيه ما قيل فى حديث أبى هريرة .

والفائدة المسلكية من الإيمان بصفتى السمع والبصر : أن نحذر مخالفة اللّه فى أقوالنا وأفعالنا .

وفى الآية من أسماء اللّه إثبات اسمين هما : السميع ، والبصير . ومن الصفات : إثبات السمع ، والبصر ، والأمر ، والموعظة .

هذه آيات فى إثبات صفتى المشيئة والإرادة :

فالآية الأولى : قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف : ٣٩] .

﴿وَلَوْلَآ﴾ : بمعنى : هَلَّا ؛ فهى للتحضيض ، والمراد بها هنا التوبيخ ؛ بمعنى أنه يوبخه على

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٨٨) .

ترك هذا القول .

﴿إِذْ دَخَلْتَ﴾ : حين دخلت .

﴿جَنَّتَكَ﴾ : الجنة ؛ بفتح الجيم : هى البستان الكثير الأشجار ، سميت بذلك لأن من فيها مستتر بأشجارها وغصونها ؛ فهو مستجن فيها ، وهذه المادة (الجيم والنون) تدل على الاستتار ، ومنه : الجُنة - بضم الجيم - التى يتترس بها الإنسان عند القتال ، ومنها الجِنة - بكسر الجيم - ؛ يعنى : الجن ؛ لأنهم مستترون .

وقوله : ﴿جَنَّتَكَ﴾ : هذه مفرد ، والمعلوم من الآيات أن لها جنتين ، فما هو الجواب حيث كانت هنا مفردة مع أنهما جنتان ؟ .

الجواب : أن يقال : إن المفرد إذا أضيف يعم فيشمل الجنتين . أو أن هذا القائل أراد أن يقلل من قيمة الجنتين ؛ لأن المقام مقام وعظ وعدم إعجاب بما رزقه اللَّه ؛ كأنه يقول : هاتان الجنتان جنة واحدة ؛ تقليلًا لشأنهما ، والوجه الأول أقرب إلى قواعد اللغة العربية ﴿قُلْتَ﴾ : جواب ﴿لَوْلَا﴾ .

وقوله : ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ : ﴿مَا﴾ : يحتمل أن تكن موصولة ؛ ويحتمل أن تكون شرطية : فإن جعلتها موصولة ؛ فهى خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير : هذا ما شاء اللَّه ؛ أى : ليس هذا بإرادتى وحولى وقوتى ، ولكنه بمشيئة اللَّه ؛ أى : هذا الذى شاءه اللَّه . وإن جعلتها شرطية ؛ ففعل الشرط ﴿شَاءَ﴾ ، وجوابه محذوف ، والتقدير : ما شاء اللَّه كان ؛ كما نقول : ما شاء اللَّه كان ، وما لم يشأ لم يكن . والمراد : كان ينبغى لك أن تقول حين دخلت جنتك : ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ ؛ لتتبرأ من حولك وقوتك ولا تعجب بجنتك .

وقوله : ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ : ﴿لَا﴾ : نافية للجنس . و﴿قُوَّةَ﴾ : نكرة فى سياق النفى ، فتعم ، والقوة صفة يتمكن بها الفاعل من فعل ما يريد بدون ضعف .

فإن قيل : ما الجمع بين عموم نفى القوة إلا باللَّه ، وبين قوله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم : ٥٤] ، وقال عن عاد : ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت : ١٥] ، ولم يقل : لا قوة فيهم ؛ فأثبت للإنسان قوة .

فالجواب : أن الجمع بأحد الوجهين :

الأول : أن القوة التى فى المخلوق كانت من اللَّه ﷻ ؛ فلولا أن اللَّه أعطاه القوة ؛ لم يكن قويًّا ؛ فالقوة التى عند الإنسان مخلوقة للَّه ؛ فلا قوة فى الحقيقة إلا باللَّه .

الثانى : أن المراد بقوله : ﴿لَا قُوَّةَ﴾ ؛ أى : لا قوة كاملة إلا باللَّه ﷻ .

وعلى كل حال ؛ فهذا الرجل الصالح أرشد صاحبه أن يتبرأ من حوله وقوته ، ويقول : هذا

بمشيئة اللّٰه وبقوة اللّٰه .

في هذه الآية : إثبات اسم من أسماء اللّٰه ، وهو : اللّٰه ، وإثبات ثلاث صفات : الألوهية ، والقوة ، والمشيئة .

ومشيئة اللّٰه : هي إرادته الكونية ، وهي نافذة فيما يحبه وما لا يحبه ، ونافذة على جميع العباد بدون تفصيل ، ولابد من وجود ما شاءه بكل حال ؛ فكل ما شاء اللّٰه وقع ولابد ، سواء كان فيما يُحبه ويرضاه أم لا .

الآية الثانية : قوله : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة : ٢٥٣] .

﴿لَوْ﴾ : حرف امتناع لامتناع ، وإذا كان جوابها منفيًا بـ (ما) ؛ فإن الأفصح حذف اللام ، وإذا كان مثبتًا ؛ فالأكثر ثُبوت اللام ؛ كما قال تعالى : ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة : ٦٥] . فنقول : الأكثر ، ولا نقول : الأفصح ؛ لأنه وَرَدَ إثبات اللام وحذفها في القرآن الكريم : ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة : ٧٠] . وقولنا : إن الأفصح حذف اللام في المنفي ؛ لأن اللام تفيد التوكيد ، والنفي ينافي التوكيد ، ولهذا كان قول الشاعر :

وَلَوْ نُعْطَى الخِيارَ لِمَا افْتَرَقْنَا وَلَكِنْ لا خِيارَ مَعَ اللَّيالي

خلاف الأفصح ، والأفصح : لو نعطى الخيار ما افترقنا .

قوله : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ﴾ : الضمير يعود على المؤمنين والكافرين ؛ لقوله تعالى : ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ﴾ [البقرة : ٢٥٣] .

وفي هذا رد واضح على القدرية الذي ينكرون تعلق فعل العبد بمشيئة اللّٰه ؛ لأن اللّٰه قال : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ﴾ ؛ يعني : ولكنه شاء أن يقتتلوا فاقتتلوا . ثم قال : ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ . أي : يفعل الذي يريده ، والإرادة هنا إرادة كونية .

وقوله : ﴿يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ : الفعل باعتبار ما يفعله سبحانه وتعالى بنفسه فعل مباشر . وباعتبار ما يقدِّره على العباد فعل غير مباشر ؛ لأنه من المعلوم أن الإنسان إذا صام وصلى وزكى وحج وجاهد ؛ فالفاعل الإنسان بلا شك ، ومعلوم أن فعله هذا بإرادة اللّٰه .

ولا يصح أن يُنسب فعل العبد إلى اللّٰه على سبيل المباشرة ؛ لأن المباشر للفعل الإنسان ، ولكن يصح أن يُنسب إلى اللّٰه على سبيل التقدير والخلق .

أما ما يفعله اللّٰه بنفسه ؛ كاستوائه على عرشه ، وكلامه ، ونزوله إلى السماء الدنيا ، وضحكه .. وما أشبه ذلك ؛ فهذا يُنسب إلى اللّٰه تعالى فعلًا مباشرة .

في هذه الآية من الأسماء : اللّٰه . ومن الصفات : المشيئة ، والفعل ، والإرادة .

الآية الثالثة : قوله : ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة : ١] .

﴿أُحِلَّتْ لَكُم﴾ : المُحلُّ هو الله ﷻ ، وكذلك النبى عليه الصلاة والسلام يُحِلُّ ويحرم ، لكن بإذن من الله ﷻ ؛ قال النبى ﷺ : « أحلت لنا ميتتان ودمان »[1] . وكان عليه الصلاة والسلام يقول : « إن الله يحرم عليكم » . كذا يخبر أنه حُرِّمَ ، وربما يحرم تحريمًا يضيفه إلى نفسه ، لكنه بإذن الله .

﴿بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ : هى الإبل والبقر والغنم ، والأنعام جمع نَعَم ؛ كأسباب جمع سبب .

وقوله : ﴿بَهِيمَةُ﴾ : سميت بذلك لأنها لا تتكلم .

﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ﴾ : إلا الذى يُتلى عليكم فى هذه السورة ، وهى المذكورة فى قوله تعالى : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة : ٣] . فالاستثناء هنا فيه منقطع وفيه متصل ؛ فبالنسبة للميتة من بهيمة الأنعام متصل ، وبالنسبة للحم الخنزير منقطع ؛ لأنه ليس من بهيمة الأنعام .

وقوله : ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ : « غير » : حال من الكاف فى « لكم » ؛ يعنى : حال كونكم لا تحلُّون الصيد وأنتم حُرم ، وهذا الاستثناء منقطع أيضًا ؛ لأن الصيد ليس من بهيمة الأنعام .

وقوله : ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ ؛ يعنى : قاتليه فى الإحرام ؛ لأن الذى يفعل الشيءَ يصير كالمحل له ، و﴿الصَّيْدِ﴾ : هو الحيوان البرى المتوحش المأكول ، هذا هو الصيد الذى حرم فى الإحرام .

وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ : هذه الإرادة شرعية ؛ لأن المقام مقام تشريع ، ويجوز أن تكون إرادة شرعية كونية ، ونحمل الحكم على الكونى والشرعى ؛ فما أراده كونًا ؛ حكم به وأوقعه ، وما أراده شرعًا ؛ حكم به وشرَعَهُ لعباده .

فى هذه الآية من الأسماء : الله . ومن الصفات : التحليل ، والحكم ، والإرادة .

الآية الرابعة : قوله : ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

قوله : ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ : المراد بالإرادة هنا الإرادة الكونية ، والمراد بالهداية هداية التوفيق ؛ فتجده منشرح الصدر فى شرائع الإسلام وشعائره ، يفعلها بفرح وسرور وانطلاق .

فإذا عرفت من نفسك هذا ؛ فاعلم أن الله أراد بك خيرًا وأراد لك هداية ، أما من ضاق به ذرعًا ،

---

(١) صححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢١٠) .

والعياذ باللَّه ، فإن هذا علامة على أن اللَّه لم يرد له هداية ، وإلَّا لانشرح صدره .

ولهذا تجدون الصلاة التى هى أثقل ما يكون على المنافقين قُرّة عيون المخلصين ؛ قال النبى ﷺ : « حُبِّبَ إلى من دنياكم النساء والطيب ، وجُعِلَت قرة عينى فى الصلاة »[1] . ولا شك أن النبى ﷺ أكمل الناس إيمانًا ؛ فانشرح صدره بالصلاة وصارت قرة عينه .

فإذا قيل للشخص : إنه يجب عليك أن تصلى مع الجماعة فى المسجد ؛ فانشرح صدره ، وقال : الحمد للَّه الذى شرع لى ذلك . ولولا أن اللَّه شرعه ؛ لكان بدعة ، وأقبل إليه ، ورضى به ؛ فهذا علامة على أن اللَّه أراد أن يهده وأراد به خيرًا .

قال : ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ : ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ﴾ : بمعنى يوسع ، ومنه قول موسى عليه الصلاة والسلام لما أرسله اللَّه إلى فرعون : ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ [طه : ٢٥] ؛ يعنى : وسِّع لى صدرى فى مناجاة هذا الرجل ودعوته ؛ لأن فرعون كان جبارًا عنيدًا .

وقوله : ﴿لِلْإِسْلَٰمِ﴾ : هذا عام لأصل الإسلام وفروعه وواجباته ، وكلَّما كان الإنسان بالإسلام وشرائعه أشرح صدرًا ؛ كان أدل على إرادة اللَّه به الهداية .

وقوله : ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ : من يرد أن يضله ؛ يجعل صدره ضيقًا حرجًا ؛ أى : شديد الضيق ، ثم مثل ذلك بقوله : ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ ؛ يعنى : كأنه حين يعرض عليه الإسلام يتكلف الصعود إلى السماء ، ولهذا جاءت الآية : ﴿يَصَّعَّدُ﴾ ؛ بالتشديد ، ولم يقل : يَصْعَدُ ؛ كأنه يتكلف الصعود بمشقة شديدة ، وهذا الذى يتكلف الصعود لا شك أنه يتعب ويسأم .

ولنفرض أن هذا رجل طُلب منه أن يصعد جبلًا رفيعًا صعبًا ؛ فإذا قام يصعد هذا الجبل ؛ سوف يتكلف ، وسوف يضيق نفسه ويرتفع وينتهب ؛ لأنه يجد من هذا ضيقًا .

وعلى ما وصل إليه المتأخرون الآن ؛ يقولون : إن الذى يصعد فى السماء كلما ارتفع وازداد ارتفاعه ؛ كُثر عليه الضغط ، وصار أشد حرجًا وضيقًا ، وسواء كان المعنى الأول أو المعنى الثانى ؛ فإن هذا الرجل الذى يعرض عليه الإسلام وقد أراد اللَّه أن يضله يجد الحرج والضيِّق كأنما يصعَّد فى السَّماء .

ونأخذ من هذه الآية الكريمة إثبات إرادة اللَّه ﷻ .

والإرادة المذكورة هنا إرادة كونية لا غير ؛ لأنه قال : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ ، ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ ، وهذا التقسيم لا يكون إلا فى الأمور الكونيات ، أما الشرعية ؛ فاللَّه يريد من كل أحد أن

---

(١) صححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣١٢٤) .

يستسلم لشرع اللَّه .

وفيها من السلوك والعبادة أنه يجب على الإنسان أن يتقبل الإسلام كله ؛ أصله وفرعه ، وما يتعلق بحق اللَّه وما يتعلق بحق العباد ، وأنه يجب عليه أن يشرح صدره لذلك ، فإن لم يكن كذلك ؛ فإنه من القسم الثانى الذين أراد اللَّه إضلالهم .

قال النبي ﷺ : « من يرد اللَّه به خيرًا ؛ يفقهه فى الدين »[1] . والفقه فى الدين يقتضى قبول الدين ؛ لأن كل من فقه فى دين اللَّه وعرفه ؛ قبله وأحبه .

قال تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] ؛ فهذا إقسام مؤكد بـ : (لا) ، وإقسام بأخص ربوبية من اللَّه ﷻ لعباده - وهى ربوبية اللَّه للرسول - على نفى الإيمان عمن لم يقم بهذه الأمور :

الأول : تحكيم الرسول ﷺ لقوله : ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ . يعنى : الرسول ؛ فمن طلب التحاكم إلى غير اللَّه ورسوله ؛ فإنه ليس بمؤمن ؛ فإما كافر كفرًا مخرجًا عن الملة ، وإما كافرٌ كفرًا دون ذلك .

الثانى : انشراح الصدر بحكمه ؛ بحيث لا يجدون فى أنفسهم حرجًا مما قضى ؛ بل يجدون القبول والانشراح لما قضاه النبى ﷺ .

الثالث : أن يسلموا تسليمًا ، وأكد التسليم بمصدر ؛ يعنى : تسليمًا كاملًا .

فاحذر أيها المسلم أن ينتفى عنك الإيمان .

ولنضرب لهذا مثلًا : تجادل رجلان فى حكم مسألة شرعية ، فاستدل أحدهما بالسُّنة ، فوجد الثانى فى ذلك حرجًا وضيقًا ؛ كيف يريد أن يخرج عن متبوعه إلى اتباع هذه السنة ؟ ! فهذا الرجل ناقص بلا شك فى إيمانه ؛ لأن المؤمن حقًّا هو الذى إذا ظفر بالنص من كتاب اللَّه وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ؛ فكأنما ظفر غنيمة يفرح بها ، ويقول : الحمد للَّه الذى هدانى لهذا . وفلان الذى يتعصب لرأيه ويحاول أن يلوى أعناق النصوص حتى تتجه إلى ما يريده هو ، لا ما يريده اللَّه ورسوله ؛ فإن هذا على خطر عظيم .

أقسام الإرادة :

الإرادة تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول : إرادة كونية : وهذه الإرادة مرادفة تمامًا للمشيئة ، فـ : (أراد) فيها بمعنى (شاء) ،

---

(١) أخرجه البخارى (٧١) ، ومسلم (١٠٣٧) .

وهذه الإرادة :

أولًا : تتعلق فيما يحبه اللَّه وفيما لا يحبه .

وعلى هذا ؛ فإذا قال قائل : هل أراد اللَّه الكفر ؟ فقل : بالإرادة الكونية نعم أراده ، ولو لم يرده اللَّه ﷻ ؛ ما وقع .

ثانيًا : يلزم فيها وقوع المراد ؛ يعنى : أن ما أراده اللَّه فلابد أن يقع ، ولا يمكن أن يتخلف .

القسم الثانى : إرادة شرعية : وهى مرادفة للمحبة ؛ فـ : (أراد) فيها بمعنى (أحب) ؛ فهى :

أولًا : تختص بما يحبه اللَّه ؛ فلا يريد اللَّه الكفر بالإرادة الشرعية ولا الفسق .

ثانيًا : أنه لا يلزم فيها وقوع المراد ؛ بمعنى : أن اللَّه يريد شيئًا ولا يقع ؛ فهو سبحانه يريد من الخلق أن يعبدوه ، ولا يلزم وقوع هذا المراد ؛ قد يعبدونه وقد لا يعبدونه ؛ بخلاف الإرادة الكونية .

فصار الفرق بين الإرادتين من وجهين :

١ - الإرادة الكونية يلزم فيها وقوع المراد ، والشرعية لا يلزم .

٢ - الإرادة الشرعية تختص فيما يحبه اللَّه ، والكونية عامة فيما يحبه وما لا يحبه .

فإذا قال قائل : كيف يريد اللَّه تعالى كونًا ما لا يحبه ؟ بمعنى : كيف يريد الكفر أو الفسق أو العصيان وهو لا يحبه ؟ ! .

فالجواب : أن هذا محبوب إلى اللَّه من وجه مكروه إليه من وجه آخر ؛ فهو محبوب إليه لما يتضمنه من المصالح العظيمة ، مكروه إليه لأنه معصية .

ولا مانع من أن يكون الشيء محبوبًا مكروهًا باعتبارين ؛ فها هو الرجل يقدِّم طفله الذى هو فلذة كبده وثمرة فؤاده ؛ يقدمه إلى الطبيب ليشق جلدَه ويخرج المادة المؤذية فيه ولو أتى أحد من الناس يريد أن يشقه بظفره وليس بالمشرط ، لقاتله ، لكن هو يذهب إلى الطبيب ليشقه ، وهو ينظر إليه ، وهو فرح مسرور ، يذهب به إلى الطبيب ليحمى الحديد على النار حتى تلتهب حمراء ، ثم يأخذها ويكوى بها ابنه ، وهو راضٍ بذلك ؛ لماذا يرضى بذلك وهو ألم للابن ؟ لأنه مراد لغيره ، للمصلحة العظيمة التى تترتب على ذلك .

ونستفيد بمعرفتنا للإرادة من الناحية المسلكية أمرين :

الأمر الأول : أن نعلق رجاءنا وخوفنا وجميع أحوالنا وأعمالنا باللَّه ؛ لأن كل شيء بإرادته وهذا يحقق لنا التوكل .

الأمر الثانى : أن نفعل ما يريده اللَّه شرعًا ؛ فإذا علمت أنه مراد للَّه شرعًا ومحبوب إليه ؛ فإن ذلك يقوى عزمنا على فعله .

هذا من فوائد معرفتنا بالإرادة من الناحية المسلكية ؛ فالأول : باعتبار الإرادة الكونية ، والثانى : باعتبار الإرادة الشرعية .

هذه آيات فى إثبات صفة المحبة :

الآية الأولى : ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة : ١٩٥] .

﴿وَأَحْسِنُوٓا۟﴾ فعل أمر .

والإحسان قد يكون واجبًا ، وقد يكون مستحبًا مندوبًا إليه ، فما كان يتوقف عليه أداء الواجب ؛ فهو واجب ، وما كان زائدًا على ذلك فهو مستحب .

وبناءً على ذلك ؛ نقول : ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟﴾ : فعل أمر مستعمل فى الواجب والمستحب .

والإحسان يكون فى عبادة اللّه ، ويكون فى معاملة الخلق ؛ فالإحسان فى عبادة اللّه فسره النبى ﷺ حين سأله جبريل ، فقال : ما الإحسان ؟ قال : « أن تعبد اللّه كأنك تراه »[1] . وهذا أكمل من الذى بعده ؛ لأن الذى يعبد اللّه كأنه يراه يعبده عبادة طلب ورغبة ؛ « فإن لم تكن تراه ؛ فإنه يراك » . أى : فإن لم تصل إلى هذه الحال ؛ فاعلم أنه يراك والذى يعبد اللّه على هذه المرتبة يعبده عِبادةَ خوف وهرب ؛ لأنه يخاف ممن يراه .

وأما الإحسان بالنسبة لمعاملة الخلق ؛ فقيل فى تفسيره : بذل النَّدى ، وكف الأذى ، وطلاقة الوجه .

بذل الندى : أى : المعروف ؛ سواءً كان ماليًا أو بدنيًا أم جاهيًا .

كف الأذى : ألَّا تؤذى الناس بقولك ولا بفعلك .

وطلاقة الوجه : ألَّا تكون عبوسًا عند الناس ، لكن أحيانًا الإنسان يغضب ويعبس ، فنقول : هذا لسبب ، وقد يكون من الإحسان إذا كان سببًا لصلاح الحال .

ولهذا ؛ إذا رجمنا الزانى أو جلدناه ؛ فهو إحسان إليه .

ويدخل فى ذلك إحسان المعاملة فى البيع ، والشراء ، والإجارة ، والنكاح ... وغير ذلك ؛ لأنك إذا عاملتهم بالطيب فى هذه الأمور ؛ صبرت على المعسر ، وأوفيت الحق بسرعة ؛ هذا يعد بذل الندى ، فإن اعتديت بالغش والكذب والتزوير ؛ فأنت لم تكف الأذى ؛ لأن هذا أذيّة . أحسن فى عبادة اللّه وإلى عباد اللّه .

وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ : هذا تعليل للأمر ؛ فهذا ثواب المحسن ؛ أن اللّه يحبه ، ومحبة

---

(١) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر رضي الله عنه .

اللّه مرتبة عالية عظيمة ، ووالله إن محبة اللّه لتشترى بالدنيا كلها ، وهى أعلى من أن تحب اللّه ؛ فكون اللّه يحبك أعلى من أن تحبه أنت ، ولهذا قال تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران : ٣١] ، ولم يقل : فاتبعونى ؛ تصدقوا فى محبتكم لله . مع أن الحال تقتضى هكذا ، ولكن قال : ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ .

ولهذا قال بعض العلماء : الشأن كل الشأن فى أن اللّه يحبك لا أنك تحب اللّه .

كل يدعى أنه يحب اللّه ، لكن الشأن فى الذى فى السماء ﷻ ؛ هل يحبك أم لا ؟ إذا أحبك اللّه ﷻ ؛ أحبتك الملائكة فى السماء ، ثم يوضع لك القبول فى الأرض ، فيحبك أهل الأرض(١) ، ويقبلونك ، ويقبلون ما جاء منك وهذه من عاجل بشرى المؤمن .

وفى هذه الآية من الأسماء : اللّه . ومن الصفات الألوهية ، والمحبة .

الآية الثانية : قوله : ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات : ٩] .

[قوله تعالى] : ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ : فعل أمر ، والإقساط ليس هو القسط ، بل هو من فعل رباعى ؛ فالهمزة فيه همزة النفى ، هذه الهمزة هى همزة النفى ، إذا دخلت على الفعل ؛ نفت معناه ؛ فالفعل (قسط) ؛ بمعنى : جار ؛ فإذا أدخلت عليه همزة (أقسط) ؛ صار بمعنى : عدل ؛ أى : أزال القسط ، وهو الجور ، فيسمون مثل هذه الهمزة همزة السلب ؛ مثل : خطئ وأخطأ ، خطئ ؛ بمعنى ارتكب الخطأ عن عمد ، وأخطأ : ارتكبه عن غير عمد .

فقوله : ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ ؛ أى : اعدلوا ، وهذا واجب ؛ فالعدل واجب فى كل ما تجب فيه التسوية :

يدخل فى ذلك العدل فى معاملة اللّه ﷻ ؛ ينعم اللّه عليك بالنعم ؛ فمن العدل أن تقوم بشكره ، يبين اللّه لك الحق ؛ فمن العدل أن تتبع هذا الحق .

ويدخل فى ذلك العدل فى معاملات الخلق : أن تُعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به ، ولهذا قال النبى عليه الصلاة والسلام : « من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة ؛ فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه »(٢) .

عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به ؛ مثلا : إذا أردت أن تَعامل شخصًا معاملة ؛ فاعرضها أولًا على نفسك : هل إذا عاملك إنسان بها ؛ هل ترضى أم لا ؟ إن كنت ترضى ؛ فعامله ، [و] إلا ؛ فلا تعامله .

ويدخل فى ذلك العدل بين الأولاد فى العطية ؛ قال النبى ﷺ : « اتقوا اللّه واعدلوا بين

---

(١) أخرجه البخارى (٣٢٠٩) ، ومسلم (٢٦٣٧) .

(٢) أخرجه مسلم (١٨٤٤) .

(٣) أخرجه البخارى (٢٥٨٧) ، ومسلم فى (١٦٢٣) .

أولادكم »[1] .

ويدخل فى ذلك العدل بين الورثة فى الميراث ؛ فيعطى كل واحد نصيبه ، ولا يوصى لأحد منهم بشيء .

ويدخل فى ذلك العدل بين الزوجات ؛ بأن تقسم لكل واحدة مثل ما تقسم للأخرى .

ويدخل فى ذلك العدل فى نفسك ، فلا تكلفها ما لا تطيق من الأعمال ؛ إن لربك عليك حقًّا ، ولنفسك عليك حقًّا .

وعلى هذا فقس .

وهنا يجب أن ننبّه على أن من الناس من يستعمل بدل العدل : المساواة ! وهذا خطأ ، لا يقال : مساواة ؛ لأن المساواة قد تقتضى التسوية بين شيئين الحكمةُ تقتضى التفريق بينهما .

ومن أجل هذه الدعوة الجائرة إلى التسوية صاروا يقولون : أى فرق بين الذكر والأنثى ؟ ! سوُّوا بين الذكور والإناث ! حتى إن الشيوعية قالت : أى فرق بين الحاكم والمحكوم ، لا يمكن أن يكون لأحد سلطة على أحد ، حتى بيين الوالد والولد ، ليس للوالد سلطة على الولد . . . وهلم جرّا .

لكن إذا قلنا بالعدل ، وهو إعطاء كل أحد ما يستحقه ؛ زال هذا المحظور ، وصارت العبارة سليمة .

ولهذا ؛ لم يأت فى القرآن أبدًا : إن اللّه يأمر بالتسوية ! لكن جاء : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النحل : ٩٠] ، ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [النساء : ٥٨] .

وأخطأ على الإسلام من قال : إن دين الإسلام دين المساواة ! بل دين الإسلام دين عدل ، وهو الجمع بين المتساويين ، والتفريق بين المفترقين ؛ إلا أن يريد بالمساواة : العدل ، فيكون أصاب فى المعنى وأخطأ فى اللفظ .

ولهذا كان أكثر ما جاء فى القرآن نفى المساواة : ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ [الزمر : ٩] ، ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ﴾ [الرعد : ١٦] ، ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ﴾ [الحديد : ١٠] ، ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء : ٩٥] .

ولم يأت حرف واحد فى القرآن يأمر بالمساواة أبدًا ، إنما يأمر بالعدل .

وكلمة (العدل) أيضًا تجدونها مقبولة لدى النفوس .

وأحببت أن أنبه على هذا ؛ لئلا نكون فى كلامنا إمَّعة ؛ لأن بعض الناس يأخذ الكلام على عواهِنِه ؛ فلا يفكر فى مدلوله وفيمن وضعه وفى مغزاه عند من وضعه .

وفى الآية من الأسماء والصفات ما سبق فى التى قبلها .

الآية الثالثة : قوله : ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة : ٧] .

« مَا » : شرطية ، وفعل الشرط : ﴿ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ ، وجوابه : ﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟﴾ ؛ أى : مهما استقام لكم المعاهدون الذين عاهدتم عند المسجد الحرام بالوفاء بالعهد ؛ فاستقيموا لهم فى ذلك .

وهذه الجملة الشرطية تقتضى بمنطوقها ؛ أنهم إذا استقاموا لنا ؛ وجب أن نستقيم لهم ، وأن نُوفِّى بعهدهم . وتدل بمفهومها على أنهم إذا لم يستقيموا ؛ لا نستقيم لهم .

والمعاهدون ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

قسم استقاموا على عهدهم وأمنّاهم ؛ فيجب علينا أن نستقيم لهم ؛ لقوله تعالى : ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ .

وقسم خانوا ونقضوا العهد ؛ فهؤلاء لا عهد لهم ، لقوله تعالى : ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ [التوبة : ١٢] .

وقسم ثالث يظهرون الاستقامة لنا ، لكننا نخاف من خيانتهم ؛ بمعنى أنه توجد قرائن تدل على أنهم يريدون الخيانة ؛ فهؤلاء قال اللَّه فيهم : ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال : ٥٨] ؛ أى : انبذ إليهم عهدهم ؛ فقل : لا عهد بيننا وبينكم .

فإذا قال قائل : كيف ينبذ العهد إليهم وهم معاهدون ؟ ! .

قلنا : لخوف الخيانة ؛ فهؤلاء لا نأمنهم ؛ لأنه يمكن فى يوم من الأيام أن يُصَبِّحونا ؛ فهؤلاء ننبذ إليهم على سواء ، ولا نخونهم ما دام العهد قائمًا ؛ لأنه لو قال المسلمون : نحن نخاف منهم الخيانة ؛ سنبادرهم بالقتال .قلنا : هذا حرام ، لا تقاتلوهم حتى تنبذوا إليهم العهد .

وقوله : ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ : المتقون : هم الذين اتخذوا وقاية من عذاب اللَّه بفعل أوامره واجتناب نواهيه ، هذا من أحسن وأجمع ما يقال فى تعريف التقوى .

وفى الآية من الأسماء والصفات كالتى قبلها .

الآية الرابعة : قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

التواب : صيغة مبالغة من التوبة ، وهو كثير الرجوع إلى اللَّه ، والتوبة هى الرجوع إلى اللَّه من معصيته إلى طاعته . وشروطها خمسة :

الأول : الإخلاص للَّه تعالى ؛ بأن يكون الحامل له على التوبة مخافة اللَّه ورجاء ثوابه .

الثانى : الندم على ما فعل من الذنب ، وعلامة ذلك أن يتمنى أنه لم يقع منه .

الثالث : الإقلاع عن الذنب ؛ بتركه إن كان محرمًا ، أو تداركه إن كان واجبًا يمكن تداركه .

الرابع : العزم على ألَّا يعود إليه .

الخامس : أن تكون فى وقت تقبل فيه التوبة ، وهو ما كان قبل حضور الموت وطلوع الشمس من مغربها ، فإن كانت بعد حضور الموت أو بعد طلوع الشمس من مغربها ؛ لم تقبل .

فالتَّواب : كثير التوبة . ومعلوم أن كثرة التوبة تستلزم كثرة الذنب ، ومن هنا نفهم بأن الإنسان مهما كثر ذنبه ، إذا أحدث لكل ذنب توبة ؛ فإن اللّٰه تعالى يحبه ، والتائب مرة واحدة من ذنب واحد محبوب إلى اللّٰه ﷻ من باب أولى ؛ لأن من كثرت ذنوبه وكثرت توبته يحبه اللّٰه ، فمن قلَّت ذنوبه ؛ كانت محبة اللّٰه له بالتوبة من باب أولى .

وقوله : ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ : الذين يتطهرون من الأحداث ومن الأنجاس فى أبدانهم وما يجب تطهيره .

وهنا جمع بين طهارة الظاهر وطهارة الباطن : طهارة الباطن بقوله : ﴿ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ ، والظاهر بقوله : ﴿ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ .

وفى الآية من الأسماء والصفات ما سبق فى التى قبلها .

الآية الخامسة : قوله : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران : ٣١] .

يُسمى علماء السلف هذه الآية : آية المحنة ؛ يعنى الامتحان ؛ لأن قومًا ادعوا أنهم يحبون اللّٰه فأمر اللّٰه نبيه أن يقول لهم : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾ . وهذا تحدٍّ لكل من ادَّعى محبة اللّٰه ؛ أن يقال له : إن كنت صادقًا فى محبة اللّٰه ، فاتبع الرسول ؛ فمن أحدَث فى دين رسول اللّٰه ﷺ ما ليس منه ، وقال : إننى أحب اللّٰه ورسوله بما أحدثته .. قلنا له : هذا كذب ! لو كانت محبتك صادقة ؛ لاتبعت الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولم تتقدم بين يديه بإدخال شىء فى شريعته ليس من دينه ؛ فكل من كان أتبع لرسول اللّٰه ﷺ ؛ كان للّٰه أحب .

وإذا أحب اللّٰه وقام بعبادته ؛ فإن اللّٰه تعالى يحبه ، بل إن اللّٰه ﷻ يعطيه أكثر مما عمل ؛ يقول تعالى فى الحديث القدسى : « من ذكرنى فى نفسه ، ذكرته فى نفسي » ، ونفس اللّٰه أعظم من نفوسنا . « ومن ذكرنى فى ملأ ؛ ذكرته فى ملأ خير منه » . وفى الحديث أيضًا : « أن من تقرب إليه شبرًا تقرب اللّٰه إليه ذراعًا ، ومن تقرب إليه ذراعًا ، تقرب إليه باعًا ، ومن أتى إلى اللّٰه يمشى ، أتاه اللّٰه هرولة »[1] .

إذن فعطاء اللّٰه ﷻ وثوابه أكثر من عملك .

وفى الآية من الأسماء والصفات مما سبق فى التى قبلها .

---

(١) أخرجه البخارى (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) .

الآية السادسة : قوله : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة : ٥٤] .

الفاء واقعة في جواب الشرط في قوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ ؛ أي : إذا ارتددتم عن دين اللَّه ؛ فإن ذلك لا يضر اللَّه شيئًا ؛ ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ ، وهذا كقوله : ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد : ٣٨] .

فكل من ارتد عن دين اللَّه ؛ فإن اللَّه لا يعبأ به ، لأنه تعالى غنيٌّ عنه ؛ بل يزيله ويأتي بخير منه ؛ ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ﴾ بدل منهم ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ ، وإذا كانوا يحبون اللَّه ويحبهم اللَّه ؛ فسوف يقومون بطاعته .

وتمام الآية : ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ : أمام المؤمنين أذلة ؛ يخفضون أجنحتهم للمؤمنين ، ويلينون لهم ، ويتطامنون ، ومع الكفار أعزة أقوياء ، لا يظهرون الذل أمام الكفر أبدًا .

وقد علمنا الرسول عليه الصلاة والسلام : « وإذا لقيتموهم في طريق ؛ فاضطروهم إلى أضيقه »[1] ؛ فإذا لاقاكم اليهود والنصارى ، ولو كانوا ألفًا وأنتم عشرة ؛ نشق هذا الجمع ، ولا نُفسح لهم الطريق ، بل نلجئهم إلى أضيقه ، فنريهم العز بديننا لا بأنفسنا ، لأننا نحن بشر وهم بشر ، حتى يتبين لهم أن دين الإسلام هو الظاهر ، وأن المتمسك به هو العزيز .

﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ : يجاهدون في سبيل اللَّه ، كل من قام ضد دين اللَّه من كافر وفاسق وملحد ومارق يجاهدونه ، وكل إنسان يقابلونه من السلاح بما يليق به ؛ فمن قاتلهم بالحديد والنار ؛ قاتلوه بالحديد والنار ، ومن قاتلهم بالجدال والخصام الكلامي ؛ جادلوه بمثل ذلك ؛ فهم يجاهدون في اللَّه بكل نوع من أنواع الجهاد .

﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ لا يخافون نَقد الناس عليهم ؛ يقولون الحق ولو كان على أنفسهم .

لكنهم يستعملون الحكمة في هذا الجهاد ويرومون الوصول إلى الغاية ؛ فإذا رأوا أن الدعوة تستوجب التأخر في بعض الأمور ؛ تأخروا ، وإذا رأوا أن الدعوة تقتضي اللين في بعض الأحوال ؛ استعملوه ؛ لأنهم يريدون الوصول إلى غاية معينة ، والوسيلة حسب ما تقتضيه الحال .

ثم قال اللَّه تعالى : ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ .

وفي الآية من الأسماء والصفات ما سبق في التي قبلها ، وزيادة أن اللَّه تعالى يكون محبوبًا .

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٦٧) .

الآية السابعة : قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف : ٤] .

هذه الآية في سورة « الصف » ، وسورة الصف في الحقيقة هي سورة الجهاد ؛ لأن الله تعالى بدأها بالثناء على المقاتلين في سبيله ، ثم دعا إلى الجهاد في آخرها ، ثم ذكر بين ذلك أن الله سيظهر دينه على كل الأديان ولو كره المشركون .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ : لا يتقدم أحد على أحد ولا يتأخر ، حتى في الجهاد .

والصلاة جهاد مصغر ، فيها قائدٌ يجب اتباعه ؛ فإن لم تتبعه ؛ بطلت صلاتك ؛ قال النبي ﷺ : « أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحوّل الله رأسه رأسَ حمارٍ ، أو يجعل صورته صورة حمار »[1] ، والصف في الصلاة نظير الصف في الجهاد ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يصفهم في الجهاد كما يصفهم في الصلاة ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ﴾ والبنيان كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « يشد بعضه بعضا »[2] ، يتماسك بعضه ببعض ، ولهذا قال : ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ ؛ فليس كالمفرق : فالمرصوص أشد تماسكًا .

فهؤلاء الذين علق الله المحبة لهم بأعمالهم لهم عدة صفات :

أولًا : يقاتلون ؛ فلا يركنون إلى الخلود والخمول والكسل والجمود الذي يُضعف الدين والدنيا .

ثانيًا : الإخلاص ؛ لقوله : ﴿فِى سَبِيلِهِۦ﴾ .

ثالثًا : يشد بعضهم بعضًا ؛ لقوله : ﴿صَفًّا﴾ .

رابعًا : أنهم كالبنيان ، والبنيان حصن منيع .

خامسًا : لا يتخللهم ما يمزقهم ؛ لقوله : ﴿مَّرْصُوصٌ﴾ .

هذه خمس صفات علق الله المحبة لهؤلاء عليها .

وفي الآية من الأسماء والصفات ما سبق في التي قبلها .

الآية الثامنة : قوله : ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج : ١٤] .

﴿ٱلْغَفُورُ﴾ : الساتر لذنوب عباده المتجاوز عنها .

﴿ٱلْوَدُودُ﴾ مأخوذ من الود ، وهو خالص المحبة ، وهي بمعنى : وادٌّ ، وبمعنى : مَوْدود ؛ لأنه عز وجل محب ومحبوب ؛ كما قال تعالى : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة : ٥٤] .

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩١) ، ومسلم (٤٢٧) .

(٢) أخرجه البخاري (٤٨١) ، ومسلم (٢٥٨٥) .

فاللَّه ﷻ وادٌّ ومَودود ، وادٌّ لأوليائه ، وأولياؤه يودُّونه [و]يحبُّونه ؛ يحبُّون الوصول إليه وإلى جنته ورضوانه .

وفي الآية اسمان من أسماء اللَّه : الغفور ، والودود . وصفتان : المغفرة ، والود .

وأتمنى لو أن المؤلف أضاف آية تاسعة في المحبة ، وهى الخلة ، لقوله تعالى : ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء : ١٢٥] ، والخليل : من كان في أعلى المحبة ؛ فالخلة أعلى أنواع المحبة ؛ لأن الخليل هو الذى وصل حبه إلى سويداء القلب وتخلل مجارى عروقه ، وليس فوق الخلة شيء من أنواع المحبة أبدًا .

يقول الشاعر لمعشوقته :

قَد تَخَلَّلْتِ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي وَبِذَا سُمِّيَ الخَلِيلُ خَلِيلًا

فالنبى عليه الصلاة والسلام يحب أصحابه كلهم ، لكن ما اتخذ واحدًا منهم خليلًا أبدًا ؛ قال النبى عليه الصلاة والسلام وهو يخطب الناس : « لو كنت متخذًا خليلًا من أمتى لاتخذت أبا بكر » . إذن ، أبو بكر هو أحب الناس إليه ، لكن لم يصل إلى درجة الخلة ؛ لأن الرسول ﷺ لم يتخذ أحدًا خليلًا ، لكن إخوة الإسلام ومودته ، وأما الخلة ؛ فهى بينه وبين ربه ؛ قال النبى ﷺ : « إن اللَّه اتخذنى خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا »[1] .

والخلة لا نعلم أنها ثبتت لأحد من البشر ؛ إلا لاثنين ، هما إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام ؛ لقول النبى ﷺ : « إن اللَّه اتخذنى خليلًا » .

وهذه الخلة صفة من صفات اللَّه ﷻ ؛ لأنها أعلى أنواع المحبة ، وهى توقيفية ؛ فلا يجوز أن نثبت لأحد من البشر أنه خليل إلا بدليل ، حتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؛ إلا هذين الرسولين الكريمين ؛ فهما خليلان للَّه ﷻ .

وهذه الآية : ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ هى التى استشهد بها من قتل الجعد بن درهم رأس المعطِّلة الجهمية ، أول ما أنكر قال : إن اللَّه لم يتخذ إبراهيم خليلًا ! ولم يكلم موسى تكليمًا ! ! فقتله خالد بن عبد اللَّه القسرى ؒ ، حيث خرج به موثقًا في يوم عيد الأضحى ، وخطب الناس ، وقال : أيها الناس ! ضحوا ! تَقَبَّل اللَّه ضحاياكم ؛ فإنى مضحٍّ بالجعد ابن درهم ؛ لأنه زعم أن اللَّه لم يتخذ إبراهيم خليلًا ، ولم يكلم موسى تكليمًا ، ثم نزل فذبحه .

ويقول ابن القيم في ذلك :

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢) .

وَلأَجْلِ ذا ضَحَّى بجعْدٍ خالِدُ الـ ـقَسْرِيُّ يَوْمَ ذَبَائِحِ القُرْبانِ
إذْ قالَ إبْراهِيمُ لَيْسَ خَليلَهُ كَلا وَلا مُوسى الكليمُ الدَّانِي
شَكَرَ الضَّحِيَّةَ كُلُّ صاحِبِ سُنَّةٍ لِلّـهِ دَرُّكَ مِنْ أخِـي قُرْبَـانِ

فلدينا الآن محبة وود وخلة ؛ فالمحبة والود مطلقة ، والخلة خاصة بإبراهيم ومحمد .

ويجب أن يكون اعتمادنا فى الأمور الغيبية على الأدلة السمعية ، لكن لا مانع من أن نستدل بأدلة عقلية ؛ لإلزام من أنكر أن تكون المحبة ثابتة بالأدلة العقلية ؛ مثل الأشاعرة ؛ يقولون : لا يمكن أن تثبت المحبة بين اللّه وبين العبد أبدًا ؛ لأن العقل لا يدل عليها ، وكل ما لا يدل عليه العقل ؛ فإنه يجب أن ننزه اللّه عنه .

فنحن نقول : نثبت المحبة بالأدلة العقلية ؛ كما هى ثابته عندنا بالأدلة السمعية ؛ احتجاجًا على من أنكر ثبوتها بالعقل ؛ فنقول وباللّه التوفيق :

إثابة الطائعين بالجنات والنصر والتأييد وغيره ؛ هذا يدل بلا شك على المحبة ، ونحن نشاهد بأعيننا ونسمع بآذاننا عمن سبق وعمن لحق أن اللّه ﷻ أيد من أيد من عباده المؤمنين ونصرهم وأثابهم ، وهل هذا إلا دليل على المحبة لمن أيدهم ونصرهم وأثابهم ﷻ ؟ ! .

وهنا سؤالان :

الأول : بماذا ينال الإنسان محبة اللّه ﷻ ؟ وهذه هى التى يطلبها كل إنسان ، والمحبة عبارة عن أمر فطرى يكون فى الإنسان ولا يملكه ، ولهذا يُروى أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال فى العدل بين زوجاته : « هذا قسْمى فيما أملك ؛ فلا تَلُمْنى فيما لا أملك »[1] .

فالجواب : أن المحبة لها أسباب كثيرة :

منها : أن ينظر الإنسان : مَن الذى خلقه ؟ ومن الذى أمده بالنعم منذ كان فى بطن أمه ؟ ومَن الذى أجرى إليك الدم فى عروقك قبل أن تنزل إلى الأرض إلا اللّه ﷻ ؟ من الذى دفع عنك النقم التى انعقدت أسبابها ، وكثيرًا ما تشاهد بعينك آفات ونقمًا تهلكك ، فيرفعها اللّه عنك ؟ .

وهذا لا شك أنه يجلب المحبة ، ولهذا ورد فى الأثر : « أحبوا اللّه لما يغذوكم به من النعم »[2] .

وأعتقد لو أن أحدًا أهدى إليك قلمًا ؛ لأحببته ؛ فإذا كان كذلك ؛ فأنت انظر [إلى إنعامِ] اللّه عليك النعم العظيمة الكثيرة التى لا تحصيها ؛ تحب اللّه .

ولهذا إذا جاءت النعمة وأنت فى حاجة شديدة إليها ؛ تجد قلبك ينشرح ، وتحب الذى أسداها

(١) « ضعيف الجامع » للألبانى (٤٥٩٣) .

(٢) « ضعيف الجامع » للألبانى (١٧٦) .

إليك ؛ بخلاف النعم الدائمة ؛ فأنت تذكر هذه النعم التى أعطاك اللّه ، وتذكر أيضًا أن اللّه فضلك على كثير من عباده المؤمنين ، إن كان اللّه مَنَّ عليكَ بالعلم ؛ فقد فضّلك بالعلم ، أو بالعبادة ؛ فقد فضلك بالعبادة ، أو بالمال ؛ فقد فضلك بالمال ، أو بالأهل ، فقد فضلك بالأهل ، أو بالقوت فقد فضلك بالقوت ؛ وما من نعمة إلا وتحتها ما هو دونها ؛ فأنت إذا رأيت هذه النعمة العظيمة ؛ شكرت اللّه وأحببته .

ومنها : محبة ما يحبه اللّه من الأعمال القولية والفعلية والقلبية ؛ تحب الذى يحبه اللّه ؛ فهذا يجعلك تحب اللّه ؛ لأن اللّه يجازيك على هذا أن يضع محبته فى قلبك ، فتحب اللّه إذا قمت بما يحب ، وكذلك تحب من يحب ، والفرق بينهما ظاهر ؛ الأخيرة من الأشخاص ، والأولى من الأعمال ؛ لأننا أتينا بـ : (ما) التى لغير العاقل من الأعمال والأماكن والأزمان ، وهذه (من) للعاقل من الأشخاص ؛ تحب النبى عليه الصلاة والسلام ، تُحب إبراهيم ، تُحب موسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء ، تحب الصدّقين ؛ كأبى بكر ، والشهداء ، وغير ذلك ممن يحبهم اللّه ؛ فهذا يجلب لك محبة اللّه ، وهو أيضًا من آثار محبة اللّه ؛ فهو سبب وأثر .

ومنها : كثرة ذكر اللّه ؛ بحيث يكون دائمًا على بالك ، حتى تكون كلما شاهدت شيئًا ، استدللت به عليه ﷻ ، حتى يكون قلبك دائمًا مشغولًا باللّه ، مُعْرِضًا عما سواه ؛ فهذا يجلب لك محبة اللّه ﷻ .

وهذه الأسباب الثلاثة هى عندى من أقوى أسباب محبة اللّه ﷻ .

السؤال الثانى : ما الآثار المسلكية التى يستلزمها ما ذكر ؟ .

والجواب :

أولًا : قوله : ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة : ١٩٥] : يقتضى أن نحسن ، وأن نحرص على الإحسان ؛ لأن اللّه يحبه ، وكل شىء يحبه اللّه ؛ فإننا نحرص عليه .

ثانيًا : قوله : ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات : ٩] : يقتضى أن نعدل ونحرص على العدل .

ثالثًا : قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة : ٧] : يقتضىَ أن نتّقى اللّه ﷻ ، لا نتقى المخلوقين ؛ بحيث إذا كان عندنا من نستحى منه من الناس ؛ تركنا المعاصى ، وإذا لم يكن ؛ عصينا ؛ فالتقوى أن نتقى اللّه ﷻ ، ولا يهمك الناس . أصلح ما بينك وبين اللّه ؛ يصلح اللّه ما بينك وبين الناس . انظر يا أخى إلى الشىء الذى بينك وبين ربك ، ولا يهمك غير ذلك ؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج : ٣٨] . افعل ما يقتضيه الشرع ، وستكون لك العاقبة .

رابعًا : يقول اللّه تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة : ٢٢٢] ، وهذه تستوجب أن أُكْثر التوبة

إلى الله ﷻ ، أكثر أن أرجع إلى الله بقلبي وقالبي ، ومجرد قول الإنسان : أتوب إلى الله . هذا قد لا ينفع ، لكن تستحضر وأنت تقول : أتوب إلى الله : أن بين يديك معاصي ، ترجع إلى الله منها وتتوب ، حتى تنال بذلك محبة الله .

﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة : ٢٢٢] : إذا غَسلت ثوبك من النجاسة ؛ تحس بأن الله أحبك ؛ لأن الله يحب المتطهرين . إذا توضأت ؛ تحس بأن الله أحبك ؛ لأنك تطهرت . إذا اغتسلت ؛ تُحس أن الله أحبك ؛ لأن الله يحب المتطهرين .

ووالله ؛ إننا لغافلون عن هذه المعاني ، أكثر ما نستعمل الطهارة من النجاسة أو من الأحداث ؛ لأنها شرط لصحة الصلاة ؛ خوفًا من أن تفسد صلاتنا ، لكن يغيب عنا كثيرًا أن نشعر بأن هذا قربة وسبب لمحبة الله لنا ، لو كنا نستحضر عندما يغسل الإنسان نقطة بول أصابت ثوبه أن ذلك يجلب محبة الله له ؛ لحصَّلنا خيرًا كثيرًا ، لكننا في غفلة .

خامسًا : قوله : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران : ٣١] : هذا أيضًا يستوجب أن نحرص غاية الحرص على اتباع النبي ﷺ ؛ بحيث نترسم طريقه ؛ لا نخرج منه ، ولا نقصر عنه ، ولا نزيد ، ولا ننقص .

وشعورنا هذا يحمينا من البدع ، ويحمينا من التقصير ، ويحمينا من الزيادة والغلو ، لو أننا نشعر بهذه الأمور ؛ فانظر كيف يكون سلوكنا وآدابنا وأخلاقنا وعباداتنا .

سادسًا : قوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة : ٥٤] ؛ نحذر به من الردة عن الإسلام ؛ التي منها ترك الصلاة مثلًا ؛ فإذا علمنا أن الله يهددنا بأننا إن ارتددنا عن ديننا ؛ أهلكنا الله ، وأتى بقوم يحبهم ويحبونه ، ويقومون بواجبهم نحو ربهم ؛ فإننا نلازم طاعة الله والابتعاد عن كل ما يقرب للردة .

سابعًا : قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف : ٤] . إذا آمنا بهذه المحبة ؛ فعلنا هذه الأسباب الخمسة التي تستلزمها وتوجبها : القتال ، وعدم التواني ، والإخلاص ؛ بأن يكون في سبيل الله ، [و]أن يشد بعضنا بعضًا كأننا بنيان [مرصوص ، و]أن نُحكِمَ الرابطة بيننا إحكامًا قويًا كالبنيان المرصوص ، [و]أن نصف ، وهذا يقتضي التساوي حسًّا ، حتى لا تختلف القلوب ، وهو مما يؤكد الألفة ، والإنسان إذا رأى واحدًا عن يمينه وواحدًا عن يساره ؛ يقوى على الإقدام ، لكن لو يحيطون به من جميع الجوانب ؛ فستشتد همته .

فصار في هذه الآيات ثلاثة مباحث :

١ - إثبات المحبة بالأدلة السمعية .

٢ - أسبابها .

٣ - الآثار المسلكية في الإيمان بها .

أما أهل البدع الذين أنكروها ؛ فليس عندهم إلا حجة واهية ؛ يقولون :

أولًا : إن العقل لا يدل عليها .

ثانيًا : إن المحبة إنما تكون بين اثنين متجانسين ، لا تكون بين رب ومخلوق أبدًا ، ولا بأس أن تكون بين المخلوقات . ونحن نرد عليهم فنقول :

نجيبكم عن الأول - وهو أن العقل لا يدل عليها - بجوابين : أحدهما : بالتسليم ، والثاني : بالمنع .

التسليم : نقول : سلمنا أن العقل لا يدل على المحبة ، فالسمع دل عليها ، وهو دليل قائم بنفسه ، واللَّه ﷻ يقول في القرآن : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل : ٨٩] ؛ فإذا كان تبيانًا ؛ فهو دليل قائم بنفسه ، « وانتفاء الدليل المعيَّن ؛ لا يلزم منه انتفاء المدلول » . لأن المدلول قد يكون له أدلة متعددة ؛ سواء الحسيات أو المعنويات :

فالحسيات : مثل بلد له عدة طرق توصل إليه ؛ فإذا انسد طريق ؛ ذهبنا [من] الطريق الثاني .

أما المعنويات ؛ فكم من حكم واحد يكون له عدة أدلة ! وجوب الطهارة للصلاة مثلًا فيه أدلة متعددة .

فإذن ؛ إذا قلتم : إن العقل لا يدل على إثبات المحبة بين الخالق والمخلوق ؛ فإن السمع دل عليه بأجلى دليل وأوضح بيان .

الجواب الثاني : المنع : أن نمنع دعوى أن العقل لا يدل عليها ، ونقول : بل العقل دل على إثبات المحبة بين الخالق والمخلوق ؛ كما سبق .

وأما قولكم : إن المحبة لا تكون إلا بين متجانسين ؛ فيكفي أن نقول : لا قبول لدعواكم ! لأن المنع كافٍ في رد الحجة ؛ إذ إن الأصل عدم الثبوت ؛ فنقول : دعواكم أنَّها لا تكون إلا بين متجانسين ممنوعٌ ، بل هي تكون بين غير المتجانسين ، فالإنسان عنده ساَعة قديمة ما أتعبته بالصيانة وما فسدت عليه قط فتجده يحبها ، وعنده ساعة تأخذ نصف وقته في التصليح فتجده يبغضها . وأيضًا نجد أن البهائم تُحِب وتُحَب .

فنحن - ولله الحمد - نثبت لله المحبة بينه وبين عباده .

صفة الرحمة :

هذه آيات في إثبات صفة الرحمة :

الآية الأولى : قوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل : ٣٠] .

هذه آية أتى بها المؤلف ليثبت حكمًا ، وليست مقدمة لما بعدها ، وقد سبق لنا شرح البسملة ؛ فلا حاجة إلى إعادته .

وفيها من أسماء الله ثلاثة : الله ، الرحمن ، الرحيم . ومن صفاته : الألوهية والرحمة .

الآية الثانية : قوله : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر : ٧] : هذا يقوله الملائكة : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر : ٧] .

ما أعظم الإيمان ! وأعظم فائدته ! .

الملائكة حول العرش يحملونه ؛ يدعون الله للمؤمن .

وقوله : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً﴾ : يدل على أن كل شيء وصله علم الله ، وهو واصل لكل شيء ؛ فإن رحمته وصلت إليه ؛ لأن الله قرن بينهما في الحكم ، [حيث قال] : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ .

وهذه هي الرحمة العامة التي تشمل جميع المخلوقات ، حتى الكفار ؛ لأن الله قرَن الرحمة هذه مع العلم ؛ فكل ما بلغه علم الله ، وعلم الله بالغ لكل شيء ؛ فقد بلغته رحمته ؛ فكما يعلم الكافر ؛ يرحم الكافر أيضًا .

لكن رحمته للكافر رحمة جسدية بدنية دنيوية قاصرة غاية القصور بالنسبة لرحمة المؤمن ؛ فالذي يرزق الكافر هو الله الذي يرزقه بالطعام والشراب واللباس والمسكن والمنكح وغير ذلك .

أما المؤمنون ؛ فرحمتهم رحمة أخص من هذه وأعظم ؛ لأنها رحمة إيمانية دينية دنيوية .

ولهذا تجد المؤمن أحسنَ حالًا من الكافر ، حتى في أمور الدنيا ؛ لأن الله يقول : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل : ٩٧] . الحياة الطيبة هذه مفقودة بالنسبة للكفار ، حياتهم كحياة البهائم ، إذا شبع ، روث ، وإذا لم يشبع ؛ جلس يصرخ هكذا هؤلاء الكفار إن شبعوا بطِروا وإلا جلسوا يصرخون ! ولا يستفيدون من دنياهم ، لكن المؤمن إن أصابته ضراء صبر واحتسب الأجر على الله ﷻ ، وإن أصابته سراء شكر ؛ فهو في خير في هذا وفي هذا ، وقلبه منشرح مطمئن متفق مع القضاء والقدر ؛ لا جزع عند البلاء ، ولا بطَر عند النعماء ، بل هو متوازن مستقيم معتدل .

فهذا فرق ما بين الرحمة هذه وهذه .

لكن مع الأسف الشديد أيها الإخوة : إن منا أناسًا آلافًا يريدون أن يلحقوا بركب الكفار في الدنيا ، حتى جعلوا الدنيا هي همَّهم ، إن أعطوا رضوا ، وإن لم يعطوا إذا هم يسخطون ، هؤلاء مهما بلغوا في الرفاهية الدنيوية ؛ فهم في جحيم ؛ لم يذوقوا لذة الدنيا أبدًا ، إنما ذاقها من آمن باللَّه وعمل صالحًا ؛ ولهذا قال بعض السلف : واللَّه لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه ؛ لجالدونا عليه بالسيوف . لأنه حال بينهم وبين هذا النعيم ما هم عليه من الفسوق والعصيان والركون إلى الدنيا وأنها أكبر همهم ومبلغ علمهم .

قوله : ﴿رَّحۡمَةً وَعِلۡمٗا﴾ : ﴿رَّحۡمَةً﴾ : تمييز محول عن الفاعل ، وكذلك ﴿وَعِلۡمٗا﴾ ؛ لأن الأصل : ربنا وسعت رحمتك وعلمك كل شيء .

وفي الآية من صفات اللَّه : الربوبية ، وعموم الرحمة ، والعلم .

الآية الثالثة : قوله : ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب : ٤٣] .

﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ : متعلق بـ (رحيم) ، وتقديم المعمول يدل على الحصر ، فيكون معنى الآية : وكان بالمؤمنين لا غيرهم رحيمًا .

ولكن كيف نجمع بين هذه الآية والتي قبلها : ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر : ٧] ؟! .

نقول : الرحمة التي هنا غير الرحمة التي هناك ، هذه رحمة خاصة متصلة برحمة الآخرة لا ينالها الكفار ؛ بخلاف الأولى . هذا هو الجمع بينهما ، وإلا ؛ فكلٌّ مرحوم ، لكن فرق بين الرحمة الخاصة والرحمة العامة .

وفي الآية من الصفات : الرحمة . ومن الناحية المسلكية : الترغيب في الإيمان .

الآية الرابعة : قوله : ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف : ١٥٦] يقول جل جلاله ممتدحًا مثنيًا على نفسه : ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ . فأثنى على نفسه ﷻ بأن رحمته وسعت كل شيء من أهل السماء ومن أهل الأرض .

ونقول فيها ما قلنا في الآية الثانية ؛ فليرجع إليه .

الآية الخامسة : قوله : ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام : ٥٤] .

﴿كَتَبَ﴾ : بمعنى : أوجب على نفسه الرحمة ؛ فاللَّه ﷻ لكرمه وفضله وجوده أوجب على نفسه الرحمة ، وجعل رحمته سابقة لغضبه ، ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [فاطر : ٤٥] ، لكن حلمه ورحمته أوجبت أن يبقى الخلق إلى أجل مسمى .

ومن رحمته ما ذكره بقوله : ﴿أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام : ٥٤] : هذه من رحمته .

﴿ سُوٓءًا ﴾ : نكرة في سياق الشرط ؛ فتعم كل سوء ، حتى الشرك .

﴿ بِجَهَٰلَةٍ ﴾ : يعني : بسفهٍ ، وليس المراد بها عدم العلم ، والسفه عدم الحكمة ؛ لأن كل من عصى الله ؛ فقد عصاه بجهالة وسفه وعدم حكمة .

﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ . فيغفر ذنبه ويرحمه .

ولم يختم الآية بهذا ؛ إلا سينال التائب المغفرة والرحمة ، هذا من رحمته التي كتبها على نفسه ، وإلا لكان مقتضى العدل أن يؤاخذه على ذنبه ، ويجزيه على عمله الصالح .

فلو أن رجلًا أذنب خمسين يومًا ، ثم تاب وأصلح خمسين يومًا ؛ فالعدل أن نعذبه عن خمسين يومًا ، ونجازيه بالثواب عن خمسين يومًا ، لكن الله ﷻ كتب على نفسه الرحمة ؛ فكل الخمسين يومًا التي ذهبت من السوء تُمحى وتزول بساعة ، وزد على ذلك : ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ﴾ [الفرقان : ٧٠] ؛ السيئات الماضية تكون حسنات ؛ لأن كل حسنة عنها توبة ، وكل توبة فيها أجر .

فظهر بهذا أثر قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ .

وفي الآية من صفات الله : الربوبية ، والإيجاب ، والرحمة .

الآية السادسة : قوله : ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس : ١٠٧] .

الله ﷻ هو الغفور الرحيم ، جمع ﷻ بين هذين الاسمين ؛ لأن بالمغفرة سقوط عقوبة الذنوب ، وبالرحمة حصول المطلوب ، والإنسان مفتقر إلى هذا وهذا ؛ مفتقر إلى مغفرة ينجو بها من آثامه ، ومفتقر إلى رحمة يسعد بها بحصول مطلوبه .

فـ : ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾ : صيغة مبالغة مأخوذة من الغفر ، وهو الستر مع الوقاية ؛ لأنه مأخوذ من المغفر ، والمغفر شيء يوضع على الرأس في القتال يقي من السهام ، وهذا المغفر تحصل به فائدتان هما : ستر الرأس عنها .

ويدل على هذا ما ثبت في الصحيح : « أن الله ﷻ يخلو يوم القيامة بعبده ، ويقرره بذنوبه ، يقول : عملت كذا ، وعملت كذا .. حتى يقر ، فيقول الله ﷻ له : قد سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم »[1] .

أما ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ : فهو ذو الرحمة الشاملة . وسبق الكلام في ذلك .

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤١) ، ومسلم (٢٧٦٨) .

وفى الآية من الأسماء : الغفور ، والرحيم . ومن الصفات : المغفرة ، والرحمة .

الآية السابعة : قوله : ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف : ٦٤] ؛ قالها عن يعقوب حين أرسل مع أبنائه أخا يوسف الشقيق ؛ لأن يوسف عليه الصلاة والسلام قال : لا كيل لكم إذا رجعتم ، إلا إذا أتيتم بأخيكم ، فبلغوا والدهم هذه الرسالة ، ومن أجل الحاجة أرسله معهم ، وقال لهم عند وداعه : ﴿هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف : ٦٤] . يعنى : لن تحفظوه ، ولكن اللَّه هو الذى يحفظه .

﴿خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ﴾ : ﴿حَٰفِظٗاۖ﴾ : قال العلماء : إنها تمييز ؛ كقول العرب : للهِ دره فارسًا . وقيل : إنها حال من فاعل ﴿خَيۡرٌ﴾ فى قوله : ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ﴾ ؛ أى : حال كونه حافظًا .

الشاهد من الآية هنا قوله : ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ؛ حيث أثبت اللَّه ﷻ الرحمة ، بل بين أنه أرحم الراحمين ، لو جمعت رحمة الخلق كلهم ، بل رحمات الخلق كلهم ؛ لكانت رحمة اللَّه أشد وأعظم .

أرحم ما يكون من الخلق بالخلق رحمة الأم ولدها ؛ فإن رحمة الأم ولدها لا يساويها شىء من رحمة الناس أبدًا ، حتى الأب لا يرحم أولاده مثل أمهم فى الغالب .

جاءت امرأة فى السبى تطلب ولدها وتبحث عنه ، فلما رأته ؛ أخذته بشفقة وضمته إلى صدرها أمام الناس وأمام الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقال النبى ﷺ : « أترون أن هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ؟ » . قالوا : لا واللَّه يا رسول اللَّه . قال : « اللَّه أرحم بعباده من هذه بولدها »[1] .

جل جلاله ، عز ملكه وسلطانه .

كل الراحمين ؛ إذا جمعت رحماتهم كلهم ؛ فليست بشىء عند رحمة اللَّه .

ويدلك على هذا أن اللَّه ﷻ خلق مائة رحمة ، وضع منها رحمة واحدة يتراحم بها الخلائق فى الدنيا[2] .

كل الخلائق تتراحم ؛ البهائم والعقلاء ، ولهذا تجد البعير الجموح الرموح ترفع رجلها عن ولدها مخافة أن تصيبه عندما يرضع حتى يرضع بسهولة ويُسر ، وكذلك تجد السباع الشرسة تجدها تحن على ولدها وإذا جاءها أحد فى جحرها مع أولادها ؛ ترمى نفسها عليه ، فتدافع عنهم ، حتى ترده عن أولادها .

وقد دل على ثبوت رحمة اللَّه تعالى : الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والعقل :

فأما الكتاب ؛ فجاء به إثبات الرحمة على وجوه متنوعة : تارة بالاسم ؛ كقوله : ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٩) ، ومسلم (٢٧٥٤) .

(٢) أخرجه البخارى (٦٤٦٩) ، ومسلم (٢٧٥٢) .

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس : ١٠٧] ، وتارة بالصفة ؛ كقوله : ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف : ٥٨] ، وتارة بالفعل ؛ كقوله : ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ [العنكبوت : ٢١] ، وتارة باسم التفضيل ؛ كقوله : ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف : ٩٢] .

وبمثل هذه الوجوه . . . جاءت السنة .

وأما الأدلة العقلية على ثبوت الرحمة للَّه تعالى ؛ فمنها ما نرى من الخيرات الكثيرة التى تحصل بأمر اللَّه ﷻ ، ومنها ما نرى من النِّقم الكثيرة التى تندفع بأمر اللَّه ؛ كله دال على إثبات الرحمة عقلًا .

فالناس فى جدب وفى قحط ؛ الأرض مجدبة ، والسماء قاحطة ؛ لا مطر ولا نبات ، فينزل اللَّه المطر وتنبت الأرض ، وتشبع الأنعام ويسقى الناس . . . حتى العاميّ الذى لم يدرس ، لو سألته وقلت : هذا من أى شيءٍ ؟ فسيقول : هذا من رحمة اللَّه ولا يشك أحد فى هذا أبدًا .

فرحمة اللَّه ﷻ ثابتة بالدليل السمعى والدليل العقلى .

وأنكر الأشاعرة وغيرهم من أهل التعطيل أن يكون اللَّه تعالى متصفًا بالرحمة ؛ قالوا : لأن العقل لم يدل عليها . وثانيًا : لأن الرحمة رقة وضعف وتطامن للمرحوم ، وهذا لا يليق باللَّه ﷻ ؛ لأن اللَّه أعظم من أن يرحم بالمعنى الذى هو الرحمة ، ولا يمكن أن يكون للَّه رحمة ! ! وقالوا : المراد بالرحمة : إرادة الإحسان ، أو : الإحسان نفسه . أى : إما النعم ، أو إرادة النعم .

فتأمل الآن كيف سلبوا هذه الصفة العظيمة ، التى كل مؤمن يرجوها ويؤملها ، كل إنسان لو سألته : ماذا تريد ؟ قال : أريد رحمة اللَّه [قال تعالى] : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف : ٥٦] . أنكروا هذا ؛ قالوا : لا يمكن أن يوصف اللَّه بالرحمة ! ! .

ونحن نرد عليهم قولهم من وجهين : بالتسليم ، والمنع :

التسليم أن نقول : هب أن العقل لا يدل عليها ، ولكن السمع دل عليها ؛ فثبتت بدليل آخر ، والقاعدة العامة عند جميع العقلاء : أن انتفاء الدليل المعين لا يستلزم انتفاء المدلول ؛ لأنه قد يثبت بدليل آخر . فهب أن الرحمة لم تَثْبُتْ بالعقل ، لكن ثَبَتَتْ بالسمع ، وكم من أشياء ثبتت بأدلة كثيرة .

أما المنع ؛ فنقول : إن قولكم : إن العقل لا يدل على الرحمة . قولٌ باطلٌ ، بل العقل يدل على الرحمة ؛ فهذه النعم المشهودة والمسموعة ، وهذهِ النِّقم المدفوعة ؛ ما سببها ؟ إن سببها الرحمة بلا شك ، ولو كان اللَّه لا يرحم العباد ؛ ما أعطاهم النعمَ ، ولا دفع عنهم النِّقم ! .

وهذا أمر مشهود ؛ يشهد به الخاص والعام ، العامى فى دكانه أو سوقه يعرف أن هذه النعم من آثار الرحمة .

والعجيب أن هؤلاء القوم أثبتوا صفة الإرادة عن طريق التخصيص ؛ قالوا : الإرادة ثابتة للهِ تعالى

بالسمع والعقل : بالسمع : واضح . وبالعقل : لأن التخصيص ؛ يدل على الإرادة ومعنى التخصيص يعني تخصيص المخلوقات بما هي عليه يدل على الإرادة ، كون هذه السماء سماء ، وهذه الأرض أرضًا ، وهذه النجوم وهذه الشمس . . . . هذه مختلفة بسبب الإرادة ؛ أراد اللَّه أن تكون السماء سماء ؛ فكانت ، وأن تكون الأرض أرضًا ؛ فكانت ، والنجم نجمًا ؛ فكان . . . . وهكذا .

قالوا : فالتخصيص يدل على الإرادة ؛ لأنه لولا الإرادة ؛ لكان الكل شيئًا واحدًا ! .

نقول لهم : يا سبحان اللَّه العظيم ! هذا الدليل على الإرادة بالنسبة لدلالة النعم على الرحمة أضعف وأخفى من دلالة النعم على الرحمة ؛ لأن دلالة النعم على الرحمة يستوي في عملها العام والخاص ، ودلالة التخصيص على الإرادة لا يعرفها إلا الخاص من طلبةِ العلم ؛ فكيف تنكرون ما هو أجلى وتثبتون ما هو أخفى ؟ ! وهل هذا إلا تناقضٌ منكم ؟ ! ..

ما نستفيده من الناحية المسلكية في هذه الآيات :

الأمر المسلكي : هو أن الإنسان ما دام يعرف أن اللَّه تعالى رحيم ؛ فسوف يتعلق برحمة اللَّه ، ويكون منتظرًا لها ، فيحمله هذا الاعتقاد على فعل كل سبب يُوصل إلى الرحمة ؛ مثل : الإحسان ؛ قال اللَّه تعالى فيه : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف : ٥٦] ، والتقوى ؛ قال تعالى : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] ، والإيمان ؛ فإنه من أسباب رحمة اللَّه ؛ كما قال تعالى : ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب : ٤٣] ، وكلما كان الإيمان أقوى ؛ كانت الرحمة إلى صاحبه أقرب بإذن اللَّه ﷻ .

صفة الرضا : هذه من آيات الرضا ؛ فاللَّه سبحانه وتعالى موصوف بالرضا ، وهو يرضى عن العمل ، ويرضى عن العامل .

يعني : أن رضا اللَّه متعلق بالعمل وبالعامل .

أما بالعمل ؛ فمثل قوله تعالى : ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر : ٧] ؛ أي : يرضى الشكر لكم . وكما في قوله تعالى : ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة : ٣] . وكما في الحديث الصحيح : « إن اللَّه يرضى لكم ثلاثًا ، ويكره لكم ثلاثًا . . . »[1] .

فهذا الرضا متعلق بالعمل .

ويتعلق الرضى أيضًا بالعامل ؛ مثل هذه الآية التي ساقها المؤلف : ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة : ١١٩] .

---

(١) أخرجه مسلم (١٧١٥) .

فرضا الله صفة ثابتة لله ﷻ ، وهي في نفسه ، وليست شيئًا منفصلًا عنه ؛ كما يدعيه أهل التعطيل .

ولو قال لك قائل : فسر لي الرضا . لم تتمكن من تفسيره ؛ لأن الرضا صفة في الإنسان غريزية ، والغرائز لا يمكن للإنسان أن يفسرها بأجلى وأوضح من لفظها .

فنقول : الرضا صفة في الله ﷻ ، وهي صفة حقيقية ، متعلقة بمشيئته ؛ فهي من الصفات الفعلية ، يرضى عن المؤمنين وعن المتقين وعن المقسطين وعن الشاكرين ، ولا يرضى عن القوم الكافرين ، ولا يرضى عن القوم الفاسقين ، ولا يرضى عن المنافقين ؛ فهو سبحانه وتعالى يرضى عن أناس ولا يرضا عن أناس ، ويرضى أعمالًا ويكره أعمالًا .

ووصف الله تعالى بالرضى ثابت بالدليل السمعي ، كما سبق ، وبالدليل العقلي ، فإن كونه ﷻ يُثيب الطائعين ويجزيهم على أعمالهم وطاعاتهم يُدلُّ على الرضا .

فإن قلت : استدلالك بالمثوبة على رضا الله ﷻ قد يُنَازَعُ فيه ؛ لأن الله سبحانه قد يعطي الفاسق من النعم أكثر مما يعطي الشاكر . وهذا إيرادٌ قوي .

ولكن الجواب عنه أن يقال : إعطاؤه الفاسق المقيم على معصيته استدراج ، وليس عن رضًى : كما قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف : ١٨٢، ١٨٣] .

وقال النبي ﷺ : « إن الله ليملي للظالم ، حتى إذا أخذه ؛ لم يفلته » . وتلا قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾(1) [هود : ١٠٢] .

وقال تعالى : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام : ٤٤، ٤٥] .

أما إذا جاءت المثوبة والإنسان مقيم على طاعة الله ؛ فإننا نعرف أن ذلك صادر عن رضا الله عنه .

آيات صفات الغضب والسخط والكراهية والبغض :

ذكر المؤلف رحمه الله في هذه الصفات خمس آيات :

الآية الأولى : قوله : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ [النساء : ٩٣] .

﴿وَمَن﴾ : شرطية . و(مَن) الشرطية تفيد العموم .

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٦) ، ومسلم (٢٥٨٣) .

﴿مُؤْمِنًا﴾ : هو من آمن باللّه ورسوله ؛ فخرج به الكافر والمنافق .
لكن من قتل كافرًا له عهد أو ذمة أو أمان ؛ فهو آثم ، لكن لا يستحق الوعيد المذكور فى الآية .
وأما المنافق ؛ فهو معصوم الدم ظاهرًا ؛ ما لم يعلن بنفاقه .
وقوله : ﴿مُتَعَمِّدًا﴾ : يدل على إخراج الصغير وغير العاقل ؛ لأن هؤلاء ليس لهم قصد معتبر ولا عمد ، وعلى إخراج المخطئ ، وقد سبق بيانه فى الآية التى قبلها . فالذى يقتل مؤمنًا متعمدًا جزاؤه هذا الجزاء العظيم .
﴿جَهَنَّمُ﴾ : اسم من أسماء النار .
﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ ؛ أى : ماكثًا فيها .
﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ : الغضب صفة ثابتة للّه تعالى على الوجه اللائق به ، وهى من صفاته الفعلية .
﴿وَلَعَنَهُ﴾ : اللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة اللّه .
فهذه أربعة أنواع من العقوبة ، والخامس : قوله : ﴿وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ .
خمس عقوبات ، واحدة منها كافية فى الردع والزجر لمن كان له قلب .
ولكن يشكل على منهج أهل السنة ذكر الخلود فى النار ؛ حيث رُتِّبَ على القتل ، والقتل ليس بكفر ، ولا خلود فى النار عند أهل السنة إلا بالكفر .
وأجيب عن ذلك بعدة أوجه :
الوجه الأول : أن هذه فى الكافر إذا قتل المؤمن .
لكن هذا القول ليس بشىء ؛ لأن الكافر جزاؤه جهنم خالدًا فيها وإن لم يقتل المؤمن : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب : ٦٤، ٦٥] .
الوجه الثانى : أن هذا فيمن استحل القتل ؛ لأن الذى يستحل قتل المؤمن كافر .
وعجب الإمام أحمد من هذا الجواب ؛ قال : كيف هذا ؟ ! إذا استحل قتله ؛ فهو كافر وإن لم يقتله ، وهو مخلَّد فى النار وإن لم يقتله .
ولا يستقيم هذا الجواب أيضًا .
الوجه الثالث : أن هذه الجملة على تقدير شرط ؛ فجزاؤه جهنم خالدًا فيها إن جازاه .
وفى هذا نظرٌ ؛ أى فائدة فى قوله : ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ ؛ ما دام المعنى إن جازاه ؟ ! فنحن الآن نسأل : إذا جازاه ؛ فهل هذا جزاؤه ؟ فإذا قيل : نعم ؛ فمعناه أنه صار خالدًا فى النار ، فتعود المشكلة مرة أخرى ، ولا نتخلص .

فهذه ثلاثة أجوبة لا تسلم من الاعتراض .

الوجه الرابع : أن هذا سبب ، ولكن إذا وجد مانع ؛ لم ينفذ السبب ؛ كما نقول : القرابة سبب للإرث ؛ فإذا كان القريب رقيقًا ؛ لم يرث ؛ لوجود المانع وهو الرِّق .

ولكن يرد علينا الإشكال من وجه آخر ، وهو : ما الفائدة من هذا الوعيد ؟

فنقول : الفائدة أن الإنسان الذى يقتلَ مؤمنًا متعمدًا قد فعل السبب الذى يخلد به فى النار ، وحينئذ يكون وجود المانع محتملًا ؛ قد يوجد ، وقد لا يوجد ؛ فهو على خطر جدًا ، ولهذا قال النبى ﷺ : « لن يزال المؤمن فى فسحة من دينه ما لم يَصِب دمًا حرامًا »[1] . فإذا أصاب دمًا حرامًا والعياذ بالله ؛ فإنه قد يضيق بدينه حتى يخرج منه .

وعلى هذا ؛ فيكون الوعيد هنا باعتبار المآل ؛ لأنه يخشى أن يكون هذا القتل سببًا لكفره ، وحينئذ يموت على الكفر ، فيخلد .

فيكون فى هذه الآية على هذا التقدير ذكر سبب السبب ؛ فالقتل عمدًا سببٌ لِأن يموتَ الإنسان على الكفر ، والكفر سبب للتخليد فى النار .

وأظن هذا إذا تأمله الإنسان ؛ يجد أنه ليس فيه إشكال .

الوجه الخامس : أن المراد بالخلود المكث الطويل ، وليس المراد به المكث الدائم ؛ لأن اللغة العربية يطلق فيها الخلود على المكث الطويل كما يقال : فلان خالد فى الحبس . والحبس ليس بدائم . ويقولون : فلان خالد خلود الجبال . ومعلوم أن الجبال ينسفها ربى نسفًا فيذرها قاعًا صفصفًا .

وهذا أيضًا جواب سهل لا يحتاج إلى تعب ، فنقول : إن الله ﷻ لم يذكر التأبيد ؛ لم يقل : خالدًا فيها أبدًا بل قال : ﴿خَٰلِدٗا فِيهَا﴾ ، والمعنى : أنه ماكث مكثًا طويلًا .

الوجه السادس : أن يقال : إن هذا من باب الوعيد ، والوعيد يجوز إخلافه ؛ لأنه انتقال من العدل إلى الكرم ، والانتقال من العدل إلى الكرم كرم وثناء وأنشدوا عليه قول الشاعر :

وإنِّى وَإنْ أوْعَدْتُهُ أوْ وَعَدْتُه لَمُخْلِفُ إيعادى وَمُنْجِزُ مَوْعِدِي

أوعدته بالعقوبة ، ووعدته بالثواب ؛ لمخلف إيعادى ومنجز موعدى .

وأنت إذا قلت لابنك : والله ؛ إن ذهبت إلى السوق ؛ لأضربنك بهذه العصا . ثم ذهب إلى السوق ، فلما رجع ؛ ضربته بيدك ؛ فهذا العقاب أهون على ابنك ؛ فإذا توعد الله ﷻ القاتل بهذا الوعيد ، ثم عفا عنه ؛ فهذا كرم .

---

(١) أخرجه البخارى (٦٨٦٢) .

ولكن هذا في الحقيقة فيه شيء من النظر ؛ لأننا نقول : إن نفذ الوعيد ؛ فالإشكال باقٍ ، وإن لم ينفذ ؛ فلا فائدة منه .

هذه ستة أوجه في الجواب عن الآية ، وأقربها الخامس ؛ ثم الرابع .

مسألة : إذا تاب القاتل ؛ هل يستحق الوعيد ؟

الجواب : لا يستحق الوعيد بنص القرآن ؛ لقوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان : ٦٨- ٧٠] ، وهذا واضح ؛ أن من تاب - حتى من القتل - ؛ فإن اللَّه تعالى يبدل سيئاته حسنات .

والحديث الصحيح في قصة الرجل من بني إسرائيل ، الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا ، فألقى اللَّه في نفسه التوبة ، فجاء إلى عابد ، فقال له : إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا ؛ فهل له من توبة ؟ ! فالعابد استعظم الأمر ، وقال : ليس لك توبة ! فقتله ، فأتم به المائة . فدُلَّ على عالِم ، فقال : إنه قتل مائة نفس ؛ فهل له من توبة ؟ قال : نعم ؛ ومن يحول بينك وبين التوبة ؟ ! ولكن هذه القرية ظالم أهلها ؛ فاذهب إلى القرية الفلانية ، فيها أهل خير وصلاح ، فسافر الرجل ، وهاجر من بلده إلى بلد الخير والصلاح ، فوافته المنية في أثناء الطريق ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، حتى أنزل اللَّه بينهم حكمًا ، وقال : قيسوا ما بين القريتين ، فإلى أيتهما كان أقرب ؛ فهو من أهلها ؛ فكان أقرب إلى أهل القرية الصالحة فقبضته ملائكة الرحمة[1] .

فانظر كيف كان من بني إسرائيل فقبلت توبته ، مع أن اللَّه جعل عليهم آصارًا وأغلالًا ، وهذه الأمة رفع عنها الآصار والأغلال ؛ فالتوبة في حقها أسهل ؛ فإذا كان هذا من بني إسرائيل ؛ فكيف بهذه الأمة ؟ ! .

فإن قلت : ماذا تقول فيما صح عن ابن عباس ﵄ : أن القاتل ليس له توبة ؟ ! .

فالجواب من أحد الوجهين :

١ - إما أن ابن عباس ﵄ استبعد أن يكون للقاتل عمدًا توبة ، ورأى أنه لا يُوفَّق للتوبة ، وإذا لم يوفق للتوبة ؛ فإنه لا يسقط عنه الإثم ، بل يؤاخذ به .

٢ - وإما أن يقال : إن مراد ابن عباس ﵄ : أن لا توبة له فيما يتعلق بحق المقتول ؛ لأن القاتل

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٠) ، ومسلم (٢٧٦٦) .

عمدًا يتعلق به ثلاثة حقوق : حق اللَّه ، وحق المقتول ، والثالث لأولياء المقتول .

أ - أما حق اللَّه ؛ فلا شك أن التوبة ترفعه ؛ لقوله تعالى : ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر : ٥٣] ، وهذه فى التائبين .

ب - وأما حق أولياء المقتول ؛ فيسقط إذا سلم الإنسان نفسه لهم ، أتى إليهم وقال : أنا قتلت صاحبكم ، واصنعوا ما شئتم فهم إما أنْ يقتصوا ، أو يأخذوا الدِّية ، أو يعفوا ، والحقُّ لهم .

جـ - وأما حق المقتول ؛ فلا سبيل إلى التخلُّص منه فى الدنيا .

وعلى هذا يحمل قول ابن عباس أنه لا توبة له ؛ أى : بالنسبة لحق المقتول .

على أن الذى يظهر لى أنه إذا تاب توبة نصوحًا ؛ فإنه حتى حق المقتول يسقط ، لا إهدارًا لحقِّه ، ولكن اللَّه ﷻ بفضله يتحمل عن القاتل ويعطى المقتول رفعة درجات فى الجنة أو عفوًا عن السيئات ؛ لأن التوبة الخالصة لا تبقى شيئًا ، ويؤيد هذا عموم آية « الفرقان » : ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ ، إلى قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ [الفرقان : ٦٨- ٧٠] .

وفى هذه الآية من صفات اللَّه : الغضب ، واللعن وإعداد العذاب .

وفيها من الناحية المسلكية التحذير من قتل المؤمن عمدًا .

الآية الثانية : قوله : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ [محمد : ٢٨] .

﴿ذَٰلِكَ﴾ : المشار إليه ما سبق ، والذى سبق هو قوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد : ٢٧، ٢٨] . يعنى : فكيف تكون حالهم فى تلك اللحظات إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم عند الموت ؟ ! .

﴿ذَٰلِكَ﴾ ؛ أى : ضرب الوجوه والأدبار .

﴿بِأَنَّهُمْ﴾ ؛ أى : بسبب ؛ فالباء للسببية .

﴿ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ . أى : الذى أسخط اللَّه ، فصاروا يفعلون كل ما به سخط اللَّه ﷻ من عقيدة أو قول أو فعل .

أما ما فيه رضا اللَّه ؛ فحالهم فيه قوله : ﴿وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ . أى كرهوا ما فيه رضاه ، فصارت عاقبتهم تلك العاقبة الوخيمة ؛ أنهم عند الوفاة تضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم .

وفى هذه الآية من صفات اللَّه : إثبات السخط والرضى .

وسبق الكلام على صفة الرضى ، وأما السخط ؛ فمعناه قريب من معنى الغضب .

الآية الثالثة : قوله : ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف : ٥٥] .

﴿ءَاسَفُونَا﴾ . يعنى : أغضبونا وأسخطونا .

﴿فَلَمَّآ﴾ : هنا شرطية ، فعل الشرط فيها : ﴿ءَاسَفُونَا﴾ ، وجوابه : ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ .

ففيها رد على من فسروا السخط والغضب بالانتقام ؛ لأن أهل التعطيل من الأشعرية وغيرهم يقولون : إن المراد بالسخط والغضب الانتقام ، أو إرادة الانتقام ، ولا يفسرون السخط والغضب بصفة من صفات اللَّه يتصف بها هو نفسه ، فيقولون : غضبه ؛ أى انتقامه ، أو إرادة انتقامه ، فهم إما أن يفسروا الغضب بالمفعول المنفصل عن اللَّه وهو الانتقام أو بالإرادة لأنهم يقرون بها ، ولا يفسرونه بأنه صفة ثابتة للَّه على وجه الحقيقة تليق به .

ونحن نقول له : بل السخط والغضب غير الانتقام ، والانتقام نتيجة الغضب والسخط ؛ كما نقول : إن الثواب نتيجة الرضا ؛ فاللَّه سبحانه وتعالى يسخط على هؤلاء القوم ويغضب عليهم ثم ينتقم منهم .

وإذا قالوا : إن العقل يمنع ثبوت السخط والغضب للَّه ﷻ .

فإننا نجيبهم بما سبق فى صفة الرضا ؛ لأن الباب واحد .

ونقول : بل العقل يدل على السخط والغضب ؛ فإن الانتقام من المجرمين وتعذيب الكافرين دليل على السخط والغضب ، وليس دليلًا على الرضا ، ولا على انتفاء الغضب والسخط .

ونقول : هذه الآية : ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف : ٥٥] . ترد عليكم ؛ لأنه جعل الانتقام غير الغضب ؛ لأن الشرط غير المشروط .

مسألة :

بقى أن يقال : ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ . نحن نعرف أن الأسف : هو الحزن والندم على شىء مضى على النادم لا يستطيع رفعه ؛ فهل يوصف اللَّه بالحزن والندم ؟ .

الجواب : لا ، ونجيب عن الآية بأن الأسف فى اللغة له معنيان :

المعنى الأول : الأسف بمعنى الحزن ؛ مثل قول اللَّه تعالى عن يعقوب : ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ [يوسف : ٨٤] .

الثانى : الأسف بمعنى الغضب ؛ فيقال : أسف عليه يأسف ؛ بمعنى : غضب عليه .

والمعنى الأول : ممتنع بالنسبة للَّه ﷻ. والثانى : مثبت للَّه ؛ لأن اللَّه تعالى وصف به نفسه ، فقال : ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ .

وفى الآية من صفات اللَّه : الغضب ، والانتقام .

ومن الناحية المسلكية : التحذير مما يغضب الله تعالى .

الآية الرابعة : قوله : ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة : ٤٦] .

يعنى بذلك المنافقين الذين لم يخرجوا مع النبى ﷺ فى الغزوات ؛ لأن الله تعالى كره انبعاثهم ؛ لأن عملهم غير خالص له ، والله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك ، ولأنهم إذا خرجوا ، كانوا كما قال الله تعالى : ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ [التوبة : ٤٧] ، وإذا كانوا غير مخلصين ، وكانوا مفسدين ؛ فإن الله سبحانه وتعالى يكره الفساد ويكره الشركَ فـ : ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ . يعنى : جعل هِمَمَهم فاترة عن الخروج للجهاد .

﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة : ٤٦] . قيل : يحتمل أن الله قال ذلك كونًا . ويحتمل أن بعضهم يقول لبعض : اقعد مع القاعدين ؛ ففلان لم يخرج ، وفلان لم يخرج . ممن عذرهم الله ﷻ ؛ كالمريض والأعمى والأعرج ، ويقولون : إذا قدم النبى ﷺ اعتذرنا إليه واستغفر لنا وكفانا .

ويمكن أن نجمع بين القولين ؛ لأنه إذا قيل لهم ذلك ، وقعدوا ؛ فهم ما قعدوا إلا بقول الله ﷻ .

وفى الآية هنا إثبات أن الله ﷻ يكره ، وهذا أيضًا ثابت فى الكتاب والسنة :

قال الله تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ . إلى قوله : ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء : ٢٣- ٣٨] .

وكما فى هذه الآية التى ذكرها المؤلف : ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ .

وقال النبى ﷺ : « إن الله كره لكم قيل وقال »[(١)] .

فالكراهة ثابتة بالكتاب والسنة ؛ أن الله تعالى يكره .

وكراهة الله سبحانه وتعالى للشيء تكون للعمل ؛ كما فى قوله : ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ . وكما فى قوله : ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء : ٣٨] .

وتكون أيضًا للعامل ؛ كما جاء فى الحديث : « إن الله تعالى إذا أبغض عبدًا ؛ نادى جبريل ؛ إنى أبغض فلانًا ؛ فأبغضه »[(٢)] .

الآية الخامسة : قوله : ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف : ٣] .

﴿كَبُرَ﴾ ؛ بمعنى : عظم .

﴿مَقْتًا﴾ : تمييز محول عن الفاعل ، والمقت أشد البغض ، وفاعل ﴿كَبُرَ﴾ بعد أن حول الفاعل إلى تمييز : (أن) وما دخلت عليه فى قوله : ﴿أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ .

---

(١) أخرجه البخارى (١٤٧٧) ، ومسلم (٥٩٣) .

(٢) أخرجه البخارى (٣٢٠٩) ، ومسلم (٢٦٣٧) واللفظ له .

وهذه الآية تعليل للآية التى قبلها وبيان لعاقبتها : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف : ٢، ٣] ؛ فإن هذا من أكبر الأمور أن يقول الإنسان ما لا يفعل .

ووجه ذلك أن يقال : إذا كنت تقول الشيء ولا تفعله ؛ فأنت بين أمرين : إما كاذب فيما تقول ، ولكن تُخوِّف الناس ، فتقول لهم الشيء وليس بحقيقة . وإما أنك مستكبر عما تقول ؛ تأمر الناس به ولا تفعله ، وتنهى الناس عنه وتفعله .

وفى الآية من الصفات : المقت ، وأنه يتفاوت .

ومن الناحية المسلكية : التحذير من أن يقول الإنسان ما لا يفعل .

الآية الأولى : قوله : ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ﴾ [البقرة: ٢١٠] .

قوله : ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ : ﴿هَلۡ﴾ : استفهام بمعنى النفى ؛ يعنى : ما ينظرون ، وكلما وجدت (إلا) بعد الاستفهام ؛ فالاستفهام يكون للنفى . هذه قاعدة ؛ قال النبى عليه الصلاة والسلام : « هل أنت إلا إصبع دميت »[1] ؛ أى : ما أنت .

ومعنى : ﴿يَنظُرُونَ﴾ هنا : ينتظرون ؛ لأنها لم تتعد بـ : (إلى) ؛ فلو تعدت بـ : (إلى) لكان معناها النظر بالعين غالبًا ، أما إذا تعدت بنفسها ؛ فهى بمعنى : ينتظرون . أى : ما ينتظر هؤلاء المكذبون إلا أن يأتيهم اللَّه فى ظلل من الغمام ، وذلك يوم القيامة .

﴿يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ﴾ : و﴿فِي﴾ : هنا بمعنى (مع) ؛ فهى للمصاحبة ، وليست للظرفية قطعًا ؛ لأنها لو كانت للظرفية ؛ لكانت محيطة باللَّه ، [ومعلومٌ] أن اللَّه تعالى واسع عليم ، ولا يحيط به شيء من مخلوقاته .

فـ ﴿فِي ظُلَلٖ﴾ ؛ أى : مع الظلل ؛ فإن اللَّه عند نزوله جل وعلا للفصل بين عباده ﴿تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ : غمام أبيض ؛ ظلل عظيمة ؛ لمجيء اللَّه تبارك وتعالى .

وقوله : ﴿فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ : الغمام ؛ قال العلماء : إنه السحاب الأبيض ؛ كما قال تعالى مُمتنًا على بنى إسرائيل : ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ﴾ [البقرة: ٥٧] ، والسحاب الأبيض يُبقى الجو مستنيرًا ؛ بخلاف الأسود والأحمر ؛ فإنه تحصل به الظلمة ، وهو أجمل منظرًا .

وقوله : ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ : الملائكة بالرفع معطوف على لفظ الجلالة اللَّه ؛ يعنى : أو تأتيهم

(١) أخرجه البخارى (٢٨٠٢) ، ومسلم (١٧٩٦) .

الملائكة ، وسبق بيان اشتقاق هذه الكلمة ، ومن هم الملائكة .

والملائكة تأتى يوم القيامة ؛ لأنها تنزل فى الأرض ، ينزل أهل السماء الدنيا ، ثم الثانية ، ثم الثالثة ، ثم الرابعة وهكذا . . . . . إلى السابعة ؛ يحيطون بالناس .

وهذا تحذير من هذا اليوم الذى يأتى على هذا الوجه ؛ فهو مشهد عظيم من مشاهد يوم القيامة ، يحذر الله به هؤلاء المكذبين .

الآية الثانية : قوله : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] .

نقول فى ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ . ما قلناه فى الآية السابقة ؛ أى : ما ينتظر هؤلاء إلا واحدة من هذه الأحوال :

أولًا : ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ . أى : لقبض أرواحهم ؛ قال الله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال : ٥٠] .

ثانيا : ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ يوم القيامة للقضاء بينهم .

ثالثا : ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ﴾ : وهذه طلوع الشمس من مغربها ، فسرها بذلك النبى ﷺ[1] .

وأما ذكر الله هذه الأحوال الثلاث ؛ لأن الملائكة إذا نزلت لقبض أرواحهم ؛ لا تقبل منهم التوبة ؛ لقوله تعالى : ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [النساء : ١٨] .

وكذلك أيضًا إذا طلعت الشمس من مغربها ؛ فإن التوبة لا تقبل ، وحينئذ لا يستطيعون خلاصًا مما هم عليه .

وذكر الحالة الثالثة بين الحالين ؛ لأنه وقت الجزاء وثمرة العمل ؛ فلا يستطيعون التخلص فى تلك الحال مما عملوه .

والغرض من هذه الآية والتى قبلها تحذير هؤلاء المكذبين من أن يفوتهم الأوانُ ثم لا يستطيعون الخلاص من أعمالهم .

الآية الثالثة : قوله : ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر : ٢١، ٢٢] .

---

(١) أخرجه البخارى فى التفسير (٤٦٣٥) ، ومسلم (١٥٧) .

﴿كَلَّآ﴾ هنا للتنبيه ؛ مثلا (ألا) .

وقوله : ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ : هذا يوم القيامة .

وأكد هذا الدَّك لعظمته ؛ لأنها تدك الجبال والشعاب وكل شيء يدك ، حتى تكون الأرض كالأديم ، والأديم هو الجلد ؛ قال اللَّه تعالى : ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه : ١٠٦- ١٠٧] . ويحتمل أن يكون تكرار الدك تأسيسًا لا تأكيدًا ، ويكون المعنى : دكًّا بعد دكٍّ .

قال ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ ؛ يعنى : يوم القيامة ، بعد أن تدك الأرض وتُسَوَّى ويُحشرُ الناس يأتى اللَّه للقضاء بين عباده .

وقوله : ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ : (أل) هنا للعموم ؛ يعنى : وكل ملك ؛ يعنى : الملائكة ينزلون فى الأرض .

﴿صَفًّا صَفًّا﴾ ؛ أى صفًّا من وراء صف ؛ كما جاء فى الأثر : « تنزل ملائكة الدنيا فيصفون ، ومن ورائهم ملائكة السماء الثانية ، ومن ورائهم ملائكة السماء الثالثة » هكذا .

الآية الرابعة : قوله : ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان : ٢٥] .

يعنى : اذكر يوم تشقق السماء بالغمام .

و﴿تَشَقَّقُ﴾ : أبلغ من تنشق ؛ لأن ظاهرها تشقق شيئًا فشيئًا ، ويخرج هذا الغمام ، فيثور ثوران الدخان ، وينبعث شيئًا فشيئًا .

تشقق السماء بالغمام ؛ مثل ما يقال : تشقق الأرض بالنبات ؛ يعنى : يخرج الغمام من السماء ويثور متتابعًا ، وذلك لمجىء اللَّه ﷻ للفصل بين عباده ؛ فهو يوم رهيبٌ عظيم .

قوله : ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ : ينزلون من السماوات شيئًا فشيئًا ، تنزل ملائكة السماء الدنيا ، ثم الثانية ، ثم الثالثة . . . وهكذا .

وهذه الآية فى سياقها ليس فيها ذكر مجىء اللَّه ، لكن فيها الإشارة إلى ذلك ؛ لأن تشقق السماء بالغمام إنما يكون لمجىء اللَّه تعالى ؛ بدليل الآيات السابقة .

هذه أربع آيات ساقها المؤلف لإثبات صفة من صفات اللَّه ، وهى : المجىء والإتيان .

وأهل السنة والجماعة يثبتون أن اللَّه يأتى بنفسه هو ؛ لأن اللَّه تعالى ذكر ذلك عن نفسه ، وهو سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلًا من غيره وأحسن حديثًا ؛ فكلامه مشتمل على أكمل العلم والصدق والبيان والإرادة ؛ فاللَّه ﷻ يريد أن يبين لنا الحق وهو أعلم وأصدق وأحسن حديثًا .

لكن يبقى السؤال : هل نعلم كيفية هذا المجىء؟

الجواب : لا نعلمه ؛ لأن اللَّه سبحانه وتعالى أخبرنا أنه يجىء ، ولم يخبرنا كيف يجىء ، ولأن الكيفية لا تعلم إلا بالمشاهدة أو مشاهدة النظير أو الخبر الصادق عنها ، وكل هذا لا يوجد فى صفات

الله تعالى ، ولأنه إذا جهلت الذات ، جهلت الصفات ؛ أى : كيفيتها ؛ فالذات موجودة وحقيقية ونعرفها ونعرف ما معنى الذات وما معنى النفس ، وكذلك نعرف ما معنى المجيء ، لكن كيفية الذات أو النفس وكيفية المجيء غير معلوم لنا .

فنؤمن بأن الله يأتى حقيقة وعلى كيفية تليق به مجهولة لنا .

مخالفو أهل السنة والجماعة والرَد عليهم :

وخالف أهل السنة والجماعة فى هذه الصفة أهل التحريف والتعطيل ، فقالوا : إن الله لا يأتى ؛ لأنك إذا أثبت أن الله يأتى ؛ ثبت أنه جسم ؛ والأجسام متماثلة ! .

فنقول : هذه دعوى وقياس باطل ؛ لأنه فى مقابلة النص ، وكل شيء يعود إلى النص بالإبطال فهو باطل ؛ لقوله تعالى : ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ : ٢٤] .

فإذا قلت : إن هذا الذى عاد إلى النص بالإبطال هو الحق ؛ صار النص باطلًا ولابد ، وبطلان النص مستحيل . وإن قلت : إن النص هو الحق ؛ صار هذا باطلًا ولابد ! .

ثم نقول : ما المانع من أن يأتى الله تعالى بنفسه على الكيفية التى يريدها ؟ يقولون : المانع أنك إذا أثبت ذلك ؛ فأنت ممثل .

نقول : هذا خطأ ؛ فإننا نعلم أن المجيء والإتيان يختلف حتى بالنسبة للمخلوق ؛ فالإنسان النشيط الذى يأتى كأنما ينحدر من مرتفع من نشاطه ، لكنه لا يمشى مرحًا وإن شئت فقل : إنه يمشى مرحًا : هل هذا كالإنسان الذى يمشى على عصًا ولا ينقل رجلًا من مكانها إلا بعد تعب .

والإتيان يختلف من وجه آخر ؛ فإتيان إنسان مثلًا من كبراء البلد أو من ولاة الأمور ليس كإتيان شخص لا يحتفى به .

ماذا يقول المعطل فى قوله تعالى : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ . ونحوها ؟

الجواب : يقول : المعنى : جاء أمر ربك ، وأتى أمر ربك ؟ لأن الله تعالى قال : ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل : ١] ؛ فيجب أن نفسّرَ كل إتيان أضافه الله إلى نفسه بهذه الآية ، ونقول : المراد : أتى أمر الله .

فيقال : إن هذا الدليل الذى استدللتَ به هو دليلٌ عليك وليس لكَ ! لو كان الله تعالى يريد إتيان أمره فى الآيات الأخرى ؛ فما الذى يمنعه أن يقول : أمره ؟ ! فلما أراد الأمر ؛ عبَّر بالأمر ، ولما لم يرده ؛ لم يعبِّر به .

وهذا فى الواقع دليل عليك ؛ لأن الآيات الأخرى ليس فيها إجمال حتى نقول : إنها بينت بهذه الآية . فالآيات الأخرى واضحة ، وفى بعضها تقسيم يمنع إرداة مجيء الأمر : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن

﴿تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ؛ هل يستقيم لشخص أن يقول : ﴿يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ ؛ أى : أمره فى مثل هذا التقسيم ؟ !

فإذا قال قائل : ما تقولون فى قوله تعالى : ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [المائدة : ٥٢] .

فالجواب : أن المراد بذلك إتيان الفتح أو الأمر ، لكن أضاف اللَّه الإتيان به إلى نفسه ؛ لأنه من عنده ؛ وهذا أسلوب معروف فى اللغة العربية ؛ فالإتيان إذا قُيد بحرف جر مثلًا ؛ فالمراد به ذلك المجرور ، وإذا أطلق وأضيف إلى اللَّه بدون قيد ؛ فالمراد به إتيان اللَّه حقيقة .

الآداب المسلكية المستفادة من الإيمان بصفة المجيء والإتيان للَّه تعالى :

الثمرة هى الخوف من هذا المقام وهذا المشهد العظيم الذى يأتى فيه الرب ﷻ للفصل بين عباده وتنزل الملائكة ، ولا يبقى أمامك إلا الرب ﷻ والمخلوقات كلها ؛ فإن عملت خيرًا ؛ جوزيت به ، وإن عملت سوى ذلك ؛ فإنك ستجزى به ؛ كما قال النبى عليه الصلاة والسلام : « إن الإنسان يخلو به اللَّه ﷻ ، فينظر أيمن منه ؛ فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر أشأم منه ؛ فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر تلقاء وجهه ؛ فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه ؛ فاتقوا النار ، ولو بشق تمرة »[١] . فالإيمان بمثل هذه الأشياء العظيمة لا شك أنه يولد للإنسان رهبةً وخوفًا من اللَّه سبحانه وتعالى واستقامة على دينه .

صفة الوجه للَّه سبحانه :

ذكر المؤلف رحمه الله لإثبات صفة الوجه للَّه تعالى آيتين :

الآية الأولى : قوله : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن : ٢٧] .

وهذه معطوفة على قوله تعالى : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن : ٢٦، ٢٧] ، ولهذا قال بعض السلف : ينبغى إذا قرأت : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ . أن تصلها بقوله : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ ؛ حتى يتبين نقص المخلوق وكمال الخالق ، وذلك للتقابل ، فهذا فناء وهذا بقاء ، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ .

قوله تعالى : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ ؛ أى : لا يفنى .

والوجه : معناه معلوم ، لكن كيفيته مجهولة ، لا نعلم كيف وجه اللَّه ﷻ ؛ كسائر صفاته ، لكننا نؤمن بأن له وجهًا موصوفًا بالجلال والإكرام ، وموصوفًا بالبهاء والعظمة والنور العظيم ، حتى قال النبى عليه الصلاة والسلام : « حجابه النور ، لو كشفه ؛ لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه »[٢]

---

(١) أخرجه البخارى (٧٥١٢) .

(٢) أخرجه مسلم (١٧٩) .

(سبحات وجهه)؛ يعني: بهاؤه وعظمته وجلاله ونوره.

(ما انتهى إليه بصره من خلقه): وبصره ينتهي إلى كل شيء، وعليه؛ فلو كشف هذا الحجاب - حجاب النور عن وجهه؛ لاحترق كل شيء.

لهذا نقول: هذا الوجه وجه عظيم، لا يمكن أبدًا أن يماثل أوجه المخلوقات.

وبناء على هذا نقول: من عقيدتنا أننا نثبت أن لله وجهًا حقيقة، ونأخذه من قوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾. ونقول بأن هذا الوجه لا يماثل أوجه المخلوقين؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. ونجهل كيفية هذا الوجه لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

فإن حاول أحد أن يتصور هذه الكيفية بقلبه أو أن يتحدث عنها بلسانه؛ قلنا: إنك مبتدع ضال قائلٌ على الله ما لا تعلم، وقد حرم الله علينا أن نقول عليه ما لا نعلم؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وهنا قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾. أضاف الربوبية إلى محمد ﷺ، وهذه الربوبية أخص ما يكون من أنواع الربوبية؛ لأن الربوبية عامة وخاصة، والخاصة خاصة أخص، وخاصة فوق ذلك؛ كربوبية الله تعالى لرسله؛ فالربوبية الأخص أفضل بلا شك.

وقوله: ﴿ذُو﴾ صفة لوجه، والدليل الرفع، ولو كانت صفة للرب؛ لقال ذى الجلال كما قال فى نفس السورة: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]. فلما قال: ﴿ذُو الْجَلَالِ﴾. علمنا أنه وصف للوجه.

﴿الْجَلَالِ﴾: معناه العظمة والسلطان.

﴿وَالْإِكْرَامِ﴾: هى مصدر من أكرم، صالحة للمكرم والمكرَم، فالله سبحانه وتعالى مُكرَم، وإكرامه تعالى القيام بطاعته، ومُكرِم لمن يستحق الإكرام من خلقه بما أعد لهم من الثواب.

فهو لجلاله وكمال سلطانه وعظمته أهلٌ لأن يُكْرَمَ ويُثْنَى عليه سبحانه وتعالى وإكرام كل أحد بحسبه؛ فإكرام الله ﷻ أن تقدره حق قدره، وأن تعظمه حق تعظيمه، لا لاحتياجه إلى إكرامك، ولكن ليمُن عليك بالجزاء.

الآية الثانية: قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾: أى: فانٍ؛ كقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦].

وقوله : ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ : توازى قوله : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ .

فالمعنى : كل شىء فانٍ وزائل إلا وجه اللّه ﷻ ؛ فإنه باقٍ ، ولهذا قال : ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص : ٨٨] . فهو الحَكَم الباقى الذى يرجع إليه الناس ليحكم بينهم .

وقيل فى معنى الآية : ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ . أى : إلاَّ ما أريد به وجهه . قالوا : لأن سياق الآية يدل على ذلك : ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص : ٨٨] ؛ كأنه يقول : لا تدع مع اللّه إلهًا آخر فتشرك به ؛ لأن عملك وإشراكك هالك ؛ أى : ضائع سُدًى ؛ إلا ما أخلصته لوجه اللّه ؛ فإنه يبقى ؛ لأن العمل الصالح له ثواب باقٍ لا يفنى فى جنات النعيم .

ولكن المعنى الأول أسد وأقوى .

وعلى طريقة من يقول بجواز استعمال المشترك فى معنييه ؛ نقول :

يمكن أن نحمل الآية على المعنيين ؛ إذ لا منافاة بينهما ، فتحمل على هذا وهذا ، فيقال : كل شىء يفنى إلَّا وجه اللّه ﷻ ، وكل شىء من الأعمال يذهب هباءً ؛ إلاَّ ما أريد به وجه اللّه .

وعلى أى التقديرين ؛ ففى الآية دليل على ثبوت الوجه للّه ﷻ .

وهو من الصفات الذاتية الخبرية التى مسماها بالنسبة إلينا أبعاض وأجزاء ، ولا نقول : من الصفات الذاتية المعنوية ، ولو قلنا بذلك ؛ لكنا نوافق من تأوَّله تحريفًا ، ولا نقول : إنها بعض من اللّه . أو : جزء من اللّه . لأن ذلك يوهِم نقصًا للّه سبحانه وتعالى .

هذا وقد فسر أهل التحريف وجه اللّه بثوابه ؛ فقالوا : المراد بالوجه فى الآية : الثواب ؛ كل شىء يفنى ؛ إلا ثواب اللّه !

ففسروا الوجه الذى هو صفة كمال ؛ فسروه بشىء مخلوق بائن عن اللّه قابل للعدم والوجود ؛ فالثواب حادث بعد أن لم يكن ، وجائز أن يرتفع ، لولا وعد اللّه ببقائه ؛ لكان من حيث العقل جائزًا أن يرتفع ؛ أعنى : الثواب !

فهل تقولون الآن : إن وجه اللّه الذى وصف اللّه به نفسه مِن باب الممكن أو من باب الواجب ؟

إذا فسروه بالثواب ؛ صار من باب الممكن الذى يجوز وجوده وعدمه .

وقولهم مردود بما يلى :

أولًا : أنه مخالف لظاهر اللفظ ؛ فإن ظاهر اللفظ أن هذا وجه خاص ، وليس هو الثواب .

ثانيًا : أنه مخالف لإجماع السلف ؛ فما من السلف أحد قال : إن المراد بالوجه الثواب ! وهذه كتبهم بين أيدينا مزبورة محفوظة ، أخرجوا لنا نصًّا عن الصحابة أو عن أئمة التابعين ومن تبعهم

بإحسان أنهم فسروا هذا التفسير ! لن تجدوا إلى ذلك سبيلًا أبدًا .

ثالثًا : هل يمكن أن يوصف الثواب بهذه الصفات العظيمة : ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن : ٢٧] ؟ ! لا يمكن . لو قلنا مثلًا جزاء المتقين ذو جلالٍ وإكرامٍ ! فهذا لا يجوز أبدًا ، والله تعالى وصف هذا الوجه بأنه ذو الجلال والإكرام .

رابعًا : نقول : ما تقولون في قول الرسول ﷺ : « حجابه النور ، لو كشفه ؛ لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » . فهل الثواب له هذا النور الذى يحرق ما انتهى إليه بصر الله من الخلق ؟ ! أبدًا ، ولا يمكن .

وبهذا عرفنا بطلان قولهم ، وأن الواجب علينا أن نفسِّرِ هذا الوجه بما أراده الله به ، وهو وجه قائم به تبارك وتعالى موصوف بالجلال والإكرام .

فإن قلت : هل كل ما جاء من كلمة (الوجه) مضافًا إلى الله يراد به وجه الله الذى هو صفته ؟

فالجواب : هذا هو الأصل ؛ كما فى قوله تعالى : ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام : ٥٢] ، ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل : ١٩ - ٢١] . . . . وما أشبهها من الآيات .

فالأصل أن المراد بالوجه المضاف إلى الله وجه الله ﷻ الذى هو صفة من صفاته ، لكن هناك كلمة اختلف المفسّرون فيها ، وهى قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة : ١١٥] .

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟﴾ . يعنى : إلى أى مكان تولوا وجوهكم عند الصلاة . ﴿فَثَمَّ﴾ ؛ أى : فهناك وجهُ اللهِ .

فمنهم من قال : إن الوجه بمعنى الجهة ؛ لقوله تعالى : ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ﴾ [البقرة : ١٤٨] . فالمراد بالوجه الجهة ؛ أى : فثَمَّ جهة الله ؛ أى : فثم الجهة التى يقبل الله صلاتكم إليها .

قالوا : لأنها نزلت فى حال السفر ، إذا صلى الإنسان النافلة ؛ فإنه يصلى حيث كان وجهه ، أو إذا اشتبهت القبلة ؛ فإنه يتحرى ويصلى حيث كان وجهه .

ولكن الصحيح أن المراد بالوجه هنا وجه الله الحقيقى ؛ أى : إلى أى جهة تتوجهون ؛ فثم وجه الله سبحانه وتعالى ؛ لأن الله محيط بكل شىء ، ولأنه ثبت عن النبى ﷺ أن المصلى إذا قام يصلى ؛ فإن الله قبل وجهه[1] ، ولهذا نهى أن يبصق أمام وجهه ؛ لأن الله قِبل وجهه .

---

(١) أخرجه البخارى (٤٠٦) ، ومسلم (٥٤٧) .

فإذا صليت فى مكان لا تدرى أين القبلة ، واجتهدت وتحريت وصليت ، وصارت القبلة فى الواقع خلفك ؛ فاللَّه يكون قِبل وجهك ، حتى فى هذه الحال .

وهذا معنى صحيح موافق لظاهر الآية .

والمعنى الأول لا يخالفه فى الواقع .

إذا قلنا : فثم جهة اللَّه ، وكان هناك دليل ، سواء كان هذا الدليل تفسير الآية الثانية فى الوجه الثانى ، أو كان الدليل ما جاءت به السنة ؛ فإنك إذا توجهت إلى اللَّه فى صلاتك ؛ فهى جهة اللَّه التى يقبل اللَّه صلاتك إليها ؛ فثم أيضًا وجه اللَّه حقًّا . وحينئذ يكون المعنيان لا يتنافيان .

واعلم أن هذا الوجه العظيم الموصوف بالجلال والإكرام وجه لا يمكن الإحاطة به وصفًا ، ولا يمكن الإحاطة به تصورًا ، بل كل شىء تقدره ؛ فإن اللَّه تعالى فوق ذلك وأعظم ؛ كما قال تعالى : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه : ١١٠] .

فإن قيل : ما المراد بالوجه فى قوله : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص : ٨٨] ؟ إن قلت : المراد بالوجه الذات ؛ فيخشى أن تكون حرفت . وإن أردت بالوجه نفس الصفة أيضًا ؛ وقعت فى محظور - وهو ما ذهب إليه بعض من لا يقدرون اللَّه حق قدره ؛ حيث قالوا : إن اللَّه يفنى إلا وجهه - فماذا تصنع ؟ !

فالجواب : إن أردت بقولك : إلا ذاته . يعنى أن اللَّه تعالى يبقى هو نفسه مع إثبات الوجه للَّه ؛ فهذا صحيح ، ويكون هنا عبَّر بالوجه عن الذات لمن له وجه .

وإن أردت بقولك : الذات : أن الوجه عبارة عن الذات بدون إثبات الوجه ؛ فهذا تحريف وغير مقبول .

وعليه فنقول : ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ . أى : إلا ذاته المتصفة بالوجه ، وهذا ليس فيه شىء ؛ لأن الفرق بين هذا وبين قول أهل التحريف أن هؤلاء يقولون : إن المراد بالوجه الذات ، ولا وجه له . ونحن نقول : المراد بالوجه الذات ، لأن له وجهًا ، فعبر به عن الذات .

إثبات اليدين للَّه تعالى :

ذكر المؤلف رحمه الله لإثبات اليدين للَّه تعالى آيتين :

الآية الأولى : قوله : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص : ٧٥] .

﴿مَا مَنَعَكَ﴾ : الخطاب لإبليس .

و﴿مَا مَنَعَكَ﴾ : استفهام للتوبيخ ؛ يعنى أى شىء منعك أن تسجدَ .

وقوله : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ : ولم يقل : لمن خلقت ؛ لأن المراد هنا آدم ؛ باعتبار وصفه الذى لم

يشركه أحد فيه ، وهو خلق الله إياه بيده ، لا باعتبار شخصه .

ولهذا لما أراد إبليس النيل من آدم وحط قدره ؛ قال : ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء : ٦١] .

ونحن قد قررنا أنه إذا عُبِّر بـ : (ما) عما يعقل ؛ فإنه يلاحظ فيه معنى الصفة لا معنى العين والشخص ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء : ٣] ، لم يقل : (من) ؛ لأنه ليس المراد عين هذه المرأة ، ولكن المَراد الصفة .

فهنا قال : ﴿لِمَا خَلَقْتُ﴾ . أى : هذا الموصوف العظيم الذى أكرمته بأننى خلقته بيدى ، ولم يقصد : لمن خلقت ؛ أى : لهذا الآدمى بعينه .

وقوله : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ . هى كقول القائل : بريت بالقلم . والقلم آلة البرى . وتقول : صنعت هذا بيدى . فاليد هنا آلة الصنع .

﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ . يعنى أن الله ﷻ خلق آدم بيده ، وهنا قال : ﴿بِيَدَيَّ﴾ . وهى صيغة تثنية ، وحذفت النون من التثنية من أجل الإضافة ؛ كما يحذف التنوين ، فنحن عندما نعرب المثنى وجمع المذكر السالم ؛ نقول : النون عوض عن التنوين فى الاسم المفرد . والعوض له حكم المُعَوَّض ؛ فكما أن التنوين يحذف عند الإضافة ؛ فنون التثنية والجمع تحذف عند الإضافة .

فى هذه الآية توبيخ إبليس فى تركه السجود لما خلقه الله بيده ، وهو آدم عليه الصلاة والسلام .

وفيها : إثبات صفة الخلق : ﴿لِمَا خَلَقْتُ﴾ .

وفيها : إثبات اليدين لله سبحانه وتعالى : اليدين اللتين بهما يفعل ؛ كالخلق هنا . اليدين اللتين بهما يقبض : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر : ٦٧] ؛ وبهما يأخذ ، فإن الله تعالى يأخذ الصدقة فيربيها كما يربى الإنسان فُلوه[١] .

وقوله : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ . فيها أيضًا تشريف لآدم عليه الصلاة والسلام ؛ حيث خلقه الله تعالى بيده .

قال أهل العلم : وكتب الله التوراة بيده ، وغرس جنة عدن بيده .

فهذه ثلاثة أشياء ؛ كلها كانت بيد الله تعالى .

ولعلنا بالمناسبة لا ننسى ما مر من قول النبى عليه الصلاة والسلام : «إن الله خلق آدم على صورته»[٢] ، وذكرنا أن أحد الوجهين الصحيحين فى تأويلها أن الله خلق آدم على الصورة التى اختارها واعتنى بها ، ولهذا أضافها الله إلى نفسه إضافة تشريف وتكريم ؛ كإضافة الناقة والبيت إلى الله

---

(١) أخرجه البخارى (١٤١٠) ، ومسلم (١٠١٤) .

(٢) أخرجه البخارى (٦٢٢٧) ، ومسلم (٢٨٤١) .

والمساجد إلى اللَّه . والقول الثانى : أنه على صورته حقيقة ولا يلزم من ذلك التماثل .

الآية الثانية : قوله : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة : ٦٤] .

﴿ٱلْيَهُودُ﴾ : هم أتباع موسى عليه الصلاة والسلام .

سموا يهودًا ؛ قيل : لأنهم قالوا : ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف : ١٥٦] ، وبناء على هذا يكون الاسم عربيًّا ؛ لأن هادَ يهودُ - إذا رجع - عربى .

وقيل : إن أصله يهوذا ، اسم أحد أولاد يعقوب ، واليهود من نسبوا إليه ، لكن عند التعريب صارت الذال دالًا ، فقيل : يهود .

وأيًّا كان ؛ فلا يهمنا أن أصله هذا أو هذا .

ولكننا نعلم أن اليهود هم طائفة من بنى إسرائيل ، اتبعوا موسى عليه الصلاة والسلام .

وهؤلاء اليهود من أشد الناس عتوًّا ونفورًا ؛ لأن عتو فرعون وتسلطه عليهم جعل ذلك ينطبق فى نفوسهم ، وصار فيهم العتو على الناس ، بل وعلى الخالق ﷻ ؛ فهم يصفون اللَّه تعالى بأوصاف العيوب - قبحهم اللَّه - وهم أهلها .

يقولون : ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ ؛ أى : محبوسة عن الإنفاق ؛ كما قال اللَّه تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء : ٢٩] ؛ أى : محبوسة عن الإنفاق .

وقالوا : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران : ١٨١] .

أما قولهم : إن يد اللَّه مغلولة ؛ فقالوا : لولا أنها مغلولة ؛ لكان الناس كلهم أغنياء ؛ فكونه يجود على زيد ولا يجود على عمرو : هذا هو الغل وعدم الإنفاق ! !

وقالوا : إن اللَّه فقير ؛ لأن اللَّه قال : ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ [البقرة : ٢٤٥] ، فقالوا للرسول عليه الصلاة والسلام : يا محمد ! إن ربك افتقر ؛ صار يستقرض منا . قاتلهم اللَّه ! !

وقالت اليهود أيضًا : إن اللَّه عاجز ؛ لأنه حين خلق السماوات والأرض ؛ استراح يوم السبت ، وجعل العطلة محل عيد ؛ فصار عيدهم يوم السبت . قاتلهم اللَّه ! !

هنا يقول اللَّه ﷻ : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ : ﴿يَدُ﴾ : أفردوها ؛ لأن اليد الواحدة أقل عطاء من اليدين الثنتين ، ولهذا جاء الجواب بالتثنية والبسط ، فقال : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ .

ولما وصفوا اللَّه بهذا العيب ؛ عاقبهم اللَّه بما قالوا ، فقال : ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ؛ أى : منعت عن الإنفاق ، ولهذا كان اليهود أشد الناس جمعًا للمال ومنعًا للعطاء ؛ فهم أبخل عباد اللَّه ، وأشدهم شحًّا

في طلب المال ، ولا يمكن أن ينفقوا فلسًا ؛ إلا وهم يظنون أنهم سيكسبون بدله درهمًا ، ونرى نحن الآن لهم جمعيات كبيرة وعظيمة ، لكن هم يريدون من وراء هذه الجمعيات والتبرعات أكثر وأكثر ، يريدون أن يسيطروا على العالم .

فإذن ؛ لا تقل أيها الإنسان : كيف نجمع بين قوله تعالى : ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ، وبين الواقع اليوم بالنسبة لليهود ؟ ! لأن هؤلاء القوم يبذلون ليربحوا أكثر .

﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ ؛ أي : طردوا وأبعدوا عن رحمة الله ﷻ ؛ لأن البلاء موكَّل بالمنطق ؛ فهم لما وصفوا الله بالإمساك ؛ طردوا وأبعدوا عن رحمته ؛ قيل لهم : إذا كان الله ﷻ كما قلتم لا ينفق ؛ فليمنعكم رحمته حتى لا يعطيكم من جوده ؛ فعوقبوا بأمرين :

١ - بتحويل الوصف الذي عابوا به الله سبحانه إليهم بقوله : ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ .

٢ - وبإلزامهم بمقتضى قولهم ؛ بإبعادهم عن رحمة الله ، حتى لا يجدوا جود الله وكرمه وفضله .

﴿بِمَا قَالُوا﴾ : الباء هنا للسببية ، وعلامة الباء التي للسببية : أن يصح أن يليها كلمة (سبب) .

و(ما) هنا يصح أن تكون مصدرية ، ويصح أن تكون موصولة ؛ فإن كانت موصولة ؛ فالعائد محذوف ، وتقديره : بالذي قالوه . وإن كانت مصدرية ؛ فالفعل يحول إلى مصدر ؛ أي : بقولهم .

ثم أبطل الله سبحانه وتعالى دعواهم ، فقال : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ .

﴿بَلْ﴾ : هنا للإضراب الإبطالي .

وانظر كيف اختلف التعبير : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ ؛ لأن المقام مقام تمدح بالكرم ، والعطاء باليدين أكمل من العطاء باليد الواحدة .

و﴿مَبْسُوطَتَانِ﴾ : ضد قولهم : ﴿مَغْلُولَةٌ﴾ ؛ فيدا الله تعالى مبسوطتان واسعتا العطاء :

كما قال النبي ﷺ : « يد الله ملأى سحَّاء (كثير العطاء) الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق مذ خلق السماوات والأرض ؛ فإنه لم يغض ما في يمينه »[1] .

من يحصي ما أنفق الله منذ خلق السماوات والأرض ؟ ! لا يحصيه أحد ! ومع ذلك لم يغض ما في يمينه .

وهذا كقوله تعالى في الحديث القدسي : « يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنَّكم ؛ قاموا في صعيد واحد ، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ؛ ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا غمس في البحر »[2] .

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٤) ، ومسلم (٩٩٣) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) .

ولننظر إلى المخيط غمس في البحر ؛ فإذا نزعته ؛ لا ينقص البحر شيئًا أبدًا ؛ ومثل هذه الصيغة يؤتى بها للمبالغة في عدم النقص ؛ لأن عدم نقص البحر في مثل هذه الصورة أمر معلوم ، مستحيل أن البحر ينقص بهذا ؛ فمستحيل أيضًا أن اللّه ﷻ ينقص ملكه إذا قام كل إنسان من الإنس والجن ، فقاموا فسألوا اللّه تعالى ، فأعطى كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك من ملكه شيئًا .

لا تقل : « نعم ؛ لا ينقص من ملكه شيئًا ؛ لأنه انتقل من ملكه إلى ملكه » ؛ لأنه لا يمكن أن يكون هذا هو المراد ؛ لأنه لو كان هذا المراد ؛ لكان الكلام عبثًا ولغوًا :

لكن المعنى : لو فُرِض أن هذه العطايا العظيمة أعطيت على أنها خارجة عن ملك اللّه ؛ لم ينقص ذلك من ملكة شيئًا .

ولو كان المعنى هو الأول ؛ لم يكن فيه فائدة ؛ فمعروف أنه لو كان عندك عشرة ريالات ، أخرجتها من الدّرج الأيمن إلى الدّرج الأيسر ، وقال إنسان : إن مالك لم ينقص ؛ لقيل : هذا لغوٌ من القول !

المهم أن المعنى : لو أن هذا الذى أعطاه السائلين خارج عن ملكه ؛ فإنه لا ينقصه سبحانه وتعالى .

وليس إنفاق اللّه تعالى بما نحصل من الدراهم والمتاع ، بل كل ما بنا من نعمة فهو من اللّه تعالى ، سواء كانت من نعم الدين أم الدنيا ؛ فذرّات المطر من إنفاق اللّه علينا ، وحبات النبات من إنفاق اللّه .

أفبعد هذا يقال كما قالت اليهود عليهم لعائن اللّه : ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ ؟ !

لا واللّه ! بل يقال : إن يدى اللّه ﷻ مبسوطتان بالعطاء والنعم التى لا تعد ولا تحصى .

لكن إذا قالوا : لماذا أعطى زيدًا ولم يعط عمرًا ؟

قلنا : لأن اللّه تعالى له السلطان المطلق والحكمة البالغة ، ولهذا قال ردًّا على شبهتهم : ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ ؛ فمن الناس من يُعطيه كثيرًا ؛ ومنهم من يُعطيه قليلًا ، ومنهم من يُعطيه وسطًا ؛ تبعًا لما تقتضيه الحكمة ، على أن هذا الذى أعطى قليلًا ليس محرومًا من فضل اللّه وعطائه من جهة أخرى ؛ فاللّه أعطاه صحةً وسمعًا وبصرًا وعقلًا وغير ذلك من النعم التى لا تحصى ، ولكن لطغيان اليهود وعدوانهم وأنهم لم ينزهوا اللّه عن صفات العيب ، قالوا : ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ .

فالآيتان السابقتان فيهما إثبات صفة اليدين للّه ﷻ .

ولكن قد يقول قائل : إن للّه أكثر من يدين ؛ لقوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ [يس : ٧١] ؛ فأيدينا هنا جمع ؛ فلنأخذ بهذا الجمع ؛ لأننا إذا أخذنا بالجمع ؛ أخذنا بالمثنى وزيادة ؛ فما الجواب ؟

فالجواب أن يقال : جاءت اليد مفردة ومثناة وجمعًا .

أما اليد التي جاءت بالإفراد ؛ فإن المفرد المضاف يفيد العموم ، فيشمل كل ما ثبت لله من يد ، ودليل عموم المفرد المضاف قوله تعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم : ٣٤] ؛ فـ ﴿نِعْمَتَ﴾ : مفرد مضاف ؛ فهي تشمل كثيرًا لقوله : ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ ؛ إذن : فما هي واحدة ولا ألف ولا مليون ولا ملايين .

﴿يَدُ ٱللَّهِ﴾ : نقول : هذا المفرد لا يمنع التعدد إذا ثبت ؛ لأن المفرد المضاف يفيد العموم .

أما المثنى والجمع ؛ فنقول : إن الله ليس له إلا يدان اثنتان ؛ كما ثبت ذلك في الكتاب والسنة :

ففي الكتاب : في سورة « ص » قال [تعالى] : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص : ٧٥] ، والمقام مقام تشريف ، ولو كان الله خلقه بأكثر من يدين ؛ لذكره ؛ لأنه كلما ازدادت الصفة التي بها خلق الله هذا الشيء ؛ ازداد تعظيم هذا الشيء .

وأيضًا : في سورة « المائدة » قال [تعالى] : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة : ٦٤] ؛ في الرد على من قالوا : ﴿يَدُ ٱللَّهِ﴾ ؛ بالإفراد ، والمقام مقام يقتضي كثرة النعم ، وكلما كثرت وسيلة العطاء ؛ كثر العطاء ؛ فلو كان لله تعالى أكثر من اثنتين ؛ لذكرهما الله ؛ لأن العطاء باليد الواحدة عطاء ؛ فباليدين أكثر وأكمل من الواحدة ؛ وبالثلاث - لو قدر - كان أكثر ؛ فلو كان لله تعالى أكثر من اثنتين لذكرهما .

أما السنة فإن الرسول عليه الصلاة والسلام قال : « يطوى الله تعالى السماوات بيمينه والأرض بيده الأخرى »(١) .

قال ﷺ : « كلتا يديه يمين »(٢) .

ولم يذكر أكثر من اثنتين .

وأجمع السلف على أن لله يدين اثنتين فقط بدون زيادة .

فعندنا النص من القرآن والسنة والإجماع على أن لله تعالى يدين اثنتين ؛ فكيف نجمع بين هذا وبين الجمع : ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ [يس : ٧١] ؟!

فنقول : الجمع على أحد الوجهين :

فإما أن نقول بما ذهب إليه بعض العلماء ؛ من أن أقل الجمع اثنان ، وعليه ؛ فـ : ﴿أَيْدِينَا﴾ لا تدل على أكثر من اثنتين ؛ يعني : لا يلزم أن تدل على أكثر من اثنين ، وحينئذ تطابق التثنية : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ ، ولا إشكال فيه .

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٢) ، ومسلم (٢٧٨٧) .

(٢) أخرجه مسلم (٨٢٧

فإذا قلت : ما حجة هؤلاء على أن الجمع أقله اثنان ؟

فالجواب : احتجوا بقوله تعالى : ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم : ٤] ، وهما اثنتان ، والقلوب جمع ، والمراد به قلبان فقط ؛ لقوله تعالى : ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب : ٤] ، ولا لامرأة كذلك .

واحتجوا أيضًا بقول اللّه تعالى : ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ [النساء : ١١] ؛ فـ : ﴿إِخْوَةٌ﴾ جمع ، والمراد به اثنان .

واحتجوا أيضًا بأن جماعة الصلاة تحصل باثنين .

ولكن جمهور أهل اللغة يقولون : إن أقل لجمع ثلاثة ، وإن خروج الجمع إلى الاثنين فى هذه النصوص لسبب ، وإلا فإن أقل الجمع فى الأصل ثلاثة .

وإما أن نقول : إن المراد بهذا الجمع التعظيم ؛ تعظيم هذه اليد وليس المراد أن للّه تعالى أكثر من اثنتين .

ثم إن المراد باليد هنا نفس الذات التى لها يد ، وقد قال اللّه تعالى : ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم : ٤١] ؛ أى : بما كسبوا ؛ سواء كان من كسب اليد أو الرجل أو اللسان أو غيرها من أجزاء البدن ، لكن يعبر بمثل هذا التعبير عن الفاعل نفسه .

ولهذا نقول : إن الأنعام التى هى الإبل لم يخلقها اللّه تعالى بيده ، وفرق بين قوله : ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ ، وبين قوله : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ ؛ فـ : ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ ؛ كأنه قال : مما عملنا ؛ لأن المراد باليد ذات اللّه التى لها يد ، والمراد بـ : ﴿بِيَدَىَّ﴾ : اليدان دون الذات .

وبهذا يزول الإشكال فى صفة اليد التى وردت بالإفراد والتثنية والجمع .

فعُلمَ الآن أن الجمع بين المفرد والتثنية سهل ؛ وذلك لأن هذا مفرد مضاف فيعم كل ما ثبت للّه من يد .

وأما بين التثنية والجمع ؛ فمن وجهين :

أحدهما : أنه لا يراد بالجمع حقيقة معناه – وهو الثلاثة فأكثر – بل المراد به التعظيم ؛ كما قال اللّه تعالى : ﴿إِنَّآ﴾ و﴿نَحْنُ﴾ و﴿قُلْنَا﴾ . . . وما أشبه ذلك ، وهو واحد ، لكن يقول هذا للتعظيم .

أو يقال : إن أقل الجمع اثنان ؛ فلا يحصل هنا تعارض .

وأما قوله تعالى : ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ﴾ [الذاريات : ٤٧] ؛ فالأيد هنا بمعنى القوة ؛ فهى مصدر آد يئيد ؛ بمعنى : قوى ، وليس المراد بالأيد صفة للّه ، ولهذا لم يُضفْها اللّه إلى نفسه ، فلم يَقُلْ : بأيدينا ! بل قال : ﴿بِأَيْيدٍ﴾ ؛ أى : بقوة .

ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢] ؛ فإن لعلماء السلف فى قوله : ﴿عَن سَاقٍ﴾ : قولين :

القول الأول : أن المراد به الشدة .

والقول الثانى : أن المراد به ساق الله ﷻ .

فمن نظر إلى سياق الآية مع حديث أبى سعيد[1] ؛ قال : إن المراد بالساق هنا ساق الله . ومن نظر إلى الآية بمفردها ؛ قال : المراد بالساق الشدة .

فإذا قال قائل : أنتم تثبتون أن لله تعالى يدًا حقيقية ، ونحن لا نعلم من الأيدى إلى أيادى المخلوقين ؛ فيلزم من كلامكم تشبيه الخالق بالمخلوق .

فالجواب أن نقول : لا يلزم من إثبات اليد لله أن نمثل الخالق بالمخلوقين ؛ لأن إثبات اليد جاء فى القرآن والسنة وإجماع السلف ، ونفى مماثلة الخالق للمخلوقين يدل عليه الشرع والعقل والحس :

أما الشرع ؛ فقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] .

- وأما العقل ؛ فلا يمكن أن يماثل الخالق المخلوق فى صفاته ؛ لأن هذا يعد عيبًا فى الخالق .

- وأما الحس ؛ فكل إنسان يشاهد أيدى المخلوقات متفاوتة ومتباينة من كبير وصغير وضخم ودقيق .. إلخ ؛ فيلزم من تباين أيدى المخلوقين وتفاوتهم مباينة يد الله تعالى لأيدى المخلوقين وعدم مماثلته لهم سبحانه وتعالى من باب أولى .

هذا ؛ وقد خالف أهل السنة والجماعة فى إثبات اليد لله تعالى أهلَ التعطيل من المعتزلة والجهمية والأشعرية ونحوهم ، وقالوا : لا يمكن أن نثبت لله يدًا حقيقية ، بل المراد باليد أمر معنوى ، وهو القوة ! ! أو المراد باليد النعمة لأن اليد تطلق فى اللغة العربية على القوة وعلى النعمة .

ففى الحديث الصحيح [أعنى] حديث النواس بن سمعان الطويل : « أن الله يوحى إلى عيسى أنى أخرجت عبادًا لى لا يَدَان لأحد بقتالهم »[2] ، والمعنى : لا قوة لأحد بقتالهم ، وهم يأجوج ومأجوج .

وأما اليد بمعنى النعمة ؛ فكثير ، ومنه قول رسول قريش لأبى بكر : « لولا يدٌ لك عندى لم أجزك بها ؛ لأجبتك »[3] ؛ يعنى : نعمة .

وقول المتنبى :

وَكَمْ لِظَلَامِ اللَّيْلِ عِنْدَكَ مِنْ يَدٍ تُحَدِّثُ أَنَّ المانَوِيَّةَ تَكْذِبُ

(١) أخرجه البخارى (٤٩١٩) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٣٧) .

(٣) أخرجه البخارى (٢٧٣٤) .

والمانوية : فرقة من المجوس الذين يقولون : إن الظلمة تخلق الشر ، والنور يخلق الخير . فالمتنبى يقول : إنك تعطى فى الليل العطايا الكثيرة التى تدل على أن المانوية تكذب ؛ لأن ليلك يأتى بخير .

فالمراد بيد اللَّه : النعمة ، وليس المراد باليد اليد الحقيقية ؛ لأنك لو أثبت للَّه يدًا حقيقية ؛ لزم من ذلك التجسيم أن يكون اللَّه تعالى جسمًا ، والأجسام متماثلة ، وحينئذ تقع فيما نهى اللَّه عنه فى قوله : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل : ٧٤] .

ونحن أسعد بالدليل منك أيها المثبت للحقيقة ! ! نقول : سبحان من تنزه عن الأعراض والأبعاض والأغراض ! ! لا تجد مثل هذه السجعة لا فى الكتاب ولا فى السنة .

وجوابنا على هذا من عدة وجوه :

أولًا : أن تفسير اليد بالقوة أو النعمة مخالف لظاهر اللفظ ، وما كان مخالفًا لظاهر اللفظ ؛ فهو مردود ؛ إلا بدليل .

ثانيًا : إنه مخالف لإجماع السلف ؛ حيث إنهم كلهم مجمعون على أن المراد باليد اليد الحقيقية .

فإن قال لك قائل : أين إجماع السلف ؟ هات لى كلمة واحدة عن أبى بكر أو عمر أو عثمان أو على ؛ يقولون : إن المراد بيد اللَّه اليد الحقيقية !

أقول له : ائت لى بكلمة واحدة عن أبى بكر أو عمر أو عثمان أو على أو غيرهم من الصحابة والأئمة من بعدهم يقولون : إن المراد باليد القوة أو النعمة .

فلا يستطيع أن يأتى بذلك .

إذن ؛ فلو كان عندهم معنًى يخالف ظاهر اللفظ ؛ لكانوا يقولون به ، ولنقل عنهم ، فلما لم يقولوا به ؛ عُلم أنهم أخذوا بظاهر اللفظ وأجمعوا عليه .

وهذه فائدة عظيمة ، وهى أنه إذا لم ينقل عن الصحابة ما يخالف ظاهر الكتاب والسنة ؛ فإنهم لا يقولون بسواه ؛ لأنهم الذين نزل القرآن بلغتهم ، وخاطبهم النبى ﷺ بلغتهم ؛ فلابد أن يفهموا الكتاب والسنة على ظاهرهما ؛ فإذا لم ينقل عنهم ما يخالفه ؛ كان ذلك قولهم .

ثالثًا : أنه يمتنع غاية الامتناع أن يراد باليد النعمة أو القوة فى مثل قوله : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص : ٧٥] ؛ لأنه يستلزم أن تكون النعمة نعمتين فقط ، ونعم اللَّه لا تحصى ! ! ويستلزم أن القوة قوتان ، والقوة بمعنى واحد لا يتعدد فهذا التركيب يمنع غاية المنع أن يكون المراد باليد القوة أو النعمة .

هب أنه قد يمكن فى قوله : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة : ٦٤] : أن يراد بهما النعمة على تأويل ، لكن لا يمكن أن يراد بقوله : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ النعمة أبدًا .

أما القوة ؛ فيمتنع أن يكون المراد باليدين القوة فى الآيتين جميعًا ؛ فى قوله : ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾ وفى

قوله : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ ؛ لأن القوة لا تتعدد .

رابعًا : أنه لو كان المراد باليد القوة ؛ ما كان لآدم فضل على إبليس ، بل ولا على الحمير والكلاب ؛ لأنهم كلهم خلقوا بقوة اللَّه ، ولو كان المراد باليد القوة ؛ ما صح الاحتجاج على إبليس ؛ إذ إن إبليس سيقول : وأنا يا رب خلقتني بقوتك ؛ فما فضله عليَّ ؟ !

خامسًا : أن يقال : إن هذه اليد التي أثبتها اللَّه جاءت على وجوه متنوعة يمتنع أن يراد بها النعمة أو القوة ؛ فجاء فيها الأصابع والقبض والبسط والكف واليمين ، وكل هذا يمتنع أن يراد بها القوة ؛ لأن القوة لا توصف بهذه الأوصاف .

فتبين بهذا أن قول هؤلاء المحرِّفين الذين قالوا : المراد باليد القوة باطلٌ من عدة أوجه .

وقد سبق أن صفات اللَّه ﷻ من الأمور الخبرية الغيبية التي ليس للعقل فيها مجال ، وما كان هذا سبيله ؛ فإن الواجب علينا إبقاؤه على ظاهره ؛ من غير أن نتعرض له .

إثبات العينين للَّه تعالى :

ذكر المؤلف رحمه اللَّه تعالى لإثبات العينين للَّه تعالى ثلاث آيات :

الآية الأولى : ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور : ٤٨] .

الخطاب هنا للنبي عليه الصلاة والسلام .

والصبر : بمعنى الحبس ، ومنه قولهم : قُتِلَ صبرًا ؛ أي : قتل وقد حُبِسَ للقتل .

فالصبر في اللغة : بمعنى الحبس .

وفي الشرع : قالوا : هو الصبر لأحكام اللَّه ؛ يعني : حبس النفس لأحكام اللَّه .

وأحكام اللَّه ﷻ شرعية وكونية : والشرعية : أوامر ونواه ؛ فالصبر على طاعة اللَّه صبر على الأوامر ، والصبر عن معصيته صبر عن النواهي . والكونية : أقدار اللَّه تعالى ، فيُصْبَرُ على أقداره وقضائه .

وهذا معنى قول بعضهم الصبر ثلاثة أقسام : صبر على طاعة اللَّه ، وصبر عن معصية اللَّه ، وصبر على أقدار اللَّه المؤلمة .

فقوله تعالى : ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ . يتناول الأقسام الثلاثة :

١- الصبر على طاعة اللَّه .

٢- وعن معصية اللَّه .

٣- وعلى أقدار اللَّه .

أي : اصبر لحكم ربك الكوني والشرعي .

وبهذا نعرف أن التقسيم الذي ذكره العلماء ، وقالوا : إن الصبر ثلاثة أقسام : صبر على طاعة اللَّه ،

وصبر عن معصية اللَّه ، وصبر على أقدار اللَّه : داخل فى هذه الكلمة : ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ .

ووجه الدخول : أن الحكم إما كونى وإما شرعى ، والشرعى أوامر ونواهٍ ، والنبى عليه الصلاة والسلام أمره اللَّه ﷻ بأوامر ، ونهاه عن نواهٍ ، وقدر عليه مقدورات :

فالأوامر مثل : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة : ٦٧] ، ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل : ١٢٥] ، وهذه أوامر عظيمة ؛ يعنى : لو قيل لإنسان : اعبد ربك ؛ فإنه يتمكن من العبادة ، لكن الدعوة والتبليغ أمر صعب ؛ لأنه يتعب فى معاناة الآخرين وجهادهم ، فيكون صعبًا .

وأما النواهى ؛ فقد نهاه عن الشرك ؛ قال : ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام : ١٤] ، ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر : ٦٥] . . . وما أشبه ذلك .

وأما الأحكام القدرية : فقد حصل عليه أذى من قومه ؛ أذى قولى وأذى فعلى ، لا يصبر عليه إلا أمثال الرسول عليه الصلاة والسلام .

آذوه بالقول : بالسخرية ، والاستهزاء ، والتهجين ، وتنفير الناس عنه .

وآذوه بالفعل : كان ساجدًا تحت الكعبة فى آمن بقعة من الأرض ، ساجدًا لربه ، فذهبوا وأتوا بسلى الناقة ، ووضعوه على ظهره وهو ساجد[1] ! !

ليس هناك أبلغ من هذه الأذية مع العلم بأنه لو يدخل كافر مشرك إلى الحرم ؛ لكان عندهم آمنًا ، لا يؤذونه فيه ، بل يكرمونه ويطعمونه النبيذ ويسقونه ماء زمزم ! ! ومحمد عليه الصلاة والسلام ساجدًا للَّه يؤذونه هذا الأذى ! !

كانوا يأتون بالعَذرة والأنتان والأقذار يضعونه عند عتبة بابه ! !

وخرج إلى أهل الطائف ، وماذا صار ؟ ! صار الإيذاء العظيم ؛ صف سفهاؤهم وغلمانهم على جانبى الطريق ، وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبه ، فلم يفق إلا فى قرن الثعالب[2] .

فصبر على حكم اللَّه ، ولكنه صبر مؤمن يؤمن بأن العاقبة له ؛ لأن اللَّه قال له : ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ . . . . هذا الاعتناء والحفاوة . . . أكرم شىء يكون به الإنسان أن تقول له : أنت بعينى ، أنت بقلبى . . . وما أشبه ذلك .

أنت بعينى ؛ معناه : أنا ألاحظك بعينى . وهذا تعبير معروف عند الناس ، يكون تمام الحراسة والعناية والحفظ بمثل هذا التعبير : أنت بعينى .

إذن ؛ قوله : ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ ؛ يعنى : فإنك محروس غاية الحراسة ، محفوظ غاية الحفظ .

---

(١) أخرجه البخارى (٢٤٠) ، ومسلم (١٧٩٤) .

(٢) أخرجه البخارى (٣٢٣١) ، ومسلم (١٧٩٥) .

﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ : أعيننا معك ؛ نحفظك ، ونرعاك ، ونعتني بك .

في [هذه] الآية الكريمة إثبات العين لله ﷻ ، لكنها جاءت بصيغة الجمع ؛ لما سنذكر إن شاء الله تعالى .

العين من الصفات الذاتية الخبرية : الذاتية : لأنه لم يزل ولا يزال متصفًا بها ، والخبرية : لأن مسماها بالنسبة إلينا أجزاء وأبعاض .

فالعين منا بعض من الوجه ، والوجه بعض من الجسم ، لكنها بالنسبة لله لا يجوز أن نقول : إنها بعض من الله ، لأنه سبق أن هذا اللفظ لم يرد ، وأنه يقتضي التجزئة في الخالق ، وأن البعض أو الجزء هو الذي يجوز بقاء الكل بفقده ، ويجوز أن يفقد ، وصفات الله لا يجوز أن تفقد أبدًا ، بل هي باقية .

وقد دلّ الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أن لله عينين اثنتين فقط ؛ حين وصف الدجال وقال : « إنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور »[1] ، وفي لفظ : « أعور العين اليمنى » .

وقد قال بعض الناس معنى (أعور) ؛ أي : مَعِيب ، وليس من عَوَرِ العين ! !

وهذا لا شك أنه تحريف وتجاهل للفظ الصحيح الذي في « البخاري » وغيره : « أعور العين اليمنى ، كأن عينه عنبة طافية » . وهذا واضح .

ولا يقال أيضًا : (أعور) باللغة العربية ؛ إلا لعور العين ، أما إذا قيل : (عور) أو (عوار) ؛ فربما يراد به مطلق العيب .

وهذا الحديث يدل على أن لله تعالى عينين اثنتين فقط .

ووجه الدلالة أنه لو كان لله أكثر من اثنتين ؛ لكان البيان به أوضح من البيان بالعور ؛ لأنه لو كان لله أكثر من عينين ؛ لقال : إن ربكم له أعين . لأنه إذا كان له أعين أكثر من ثنتين ؛ صار وضوح أن الدجال ليس برب أبينَ .

وأيضًا : لو كان لله ﷻ أكثر من عينين ؛ لكان ذلك من كماله ، وكان تركُ ذكره تفويتًا للثناء على الله ؛ لأن الكثرة تدل على القوة والكمال والتمام ، فلو كان لله أكثر من عينين ؛ لبينها الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لئلا يفوتنا اعتقاد هذا الكمال ، وهو الزائد على العينين الثنتين .

وذكر ابن القيم رحمه الله في كتابه « الصواعق المرسلة » حديثًا ، لكنه ضعيف لانقطاعه ، وهو : « إن العبد إذا قام في الصلاة قام بين عيني الرحمن . . . »[2] : « عيني » : هذه تثنية ، لكن الحديث ضعيف ، واعتمادنا في عقيدتنا هذه على الحديث الصحيح ؛ حديث الدجال ؛ لأنه واضح لمن تأمّله .

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٠٣) .

(٢) « الضعيفة » للألباني (١٠٢٤) .

ولقد ذكر عثمان بن سعيد الدارمي ﷺ في « رده على بشر المريسي » ، وكذلك أيضًا ذكره ابن خزيمة في كتاب « التوحيد » ، وذكر أيضًا إجماع السلف على ذلك أبو الحسن الأشعري ﷺ وأبو بكر الباقلاني ، والأمر في هذا واضح .

فعقيدتنا التي ندين للَّهِ بها : أن للَّه تعالى عينين اثنتين ، لا زيادة .

فإن قيل : إن من السلف من فسّر قوله تعالى : ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ . بقوله : بمرأى منا . فسّره بذلك أئمة سلفيون معروفون ، وأنتم تقولون : إن التحريف محرم وممتنع ؟ فما الجواب ؟

فالجواب : أنهم فسروها باللازم ، مع إثبات الأصل ، وهي العين ، وأهل التحريف يقولون : بمرأى منا ؛ بدون إثبات العين ، وأهل السنة والجماعة يقولون : ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ . بمرأى منا ، مع إثبات العين .

لكن ذكر العين هنا أشد توكيدًا وعناية من ذكر مجرد الرؤية ، ولهذا قال : ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ .

قالت المعطلة : أجلبتم علينا بالخيل والرَّجل في إنكاركم علينا التأويل ، وأنتم أولتم فأخرجتم الآية عن ظاهرها ؛ فاللَّه يقول : ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ؛ فخذوا بالظاهر ، وإذا أخذتم بالظاهر ؛ كفرتم ، وإذا لم تأخذوا بالظاهر ؛ تناقضتم ؛ فمرّة تقولون : يجوز التأويل . ومرة تقولون : لا يجوز التأويل ، وتسمُّونه تحريفًا ، وهل هذا إلا تحكم بدين اللَّه ؟ !

قلنا : نأخذ بالظاهر ، وعلى العين والرأس ، وهو طريقتنا ، ولا نخالفه .

قالوا : الظاهر ، من الآية أن محمدًا ﷺ بعين اللَّه ، وسط العين ؛ كما تقول : زيد بالبيت ، زيد بالمسجد ؛ فالباء للظرفية ، فيكون زيد داخل البيت ، وداخل المسجد ، فيكون قوله : ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ ؛ أي : داخل أعيننا ! وإذا قلتم بهذا كفرتم ؛ لأنكم جعلتم اللَّه محلًا للخلائق ؛ فأنتم حلولية ، وإن لم تقولوا به ؛ تناقضتم ؟ !

قلنا لهم : معاذ اللَّه ! ثم معاذ اللَّه ! ثم معاذ اللَّه أن يكون ما ذكرتموه ظاهر القرآن ، وأنتم إن اعتقدتم أن هذا ظاهر القرآن ؛ كفرتم ؛ لأن من اعتقد أن ظاهر القرآن كفر وضلال ؛ فهو كافر ضال .

فأنتم توبوا إلى اللَّه من قولكم : إن هذا هو ظاهر اللفظ ! واسألوا جميع أهل اللغة من الشعراء والخطباء : هل يقصدون بمثل هذه العبارة أن الإنسان المنظورَ إليه بالعين حالٌّ في جفن العين ؟ ! اسألوا من شئتم من أهل اللغة أحياء وأمواتًا ! !

فأنت إذا رأيت أساليب اللغة العربية ؛ عرفت أن هذا المعنى الذي ذكروه وألزمونا به لا يرد في اللغة العربية ؛ فضلًا عن أن يكون مضافًا إلى الرب ﷻ ؛ فإضافته إلى الرب كفر منكر ، وهو منكر لغةً وشرعًا وعقلًا .

فإن قيل : بماذا تفسرون الباء في قوله : ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ ؟

قلنا : نفسرها بالمصاحبة ، إذا قلت : أنت بعيني . يعني : أن عيني تصحبك وتنظر إليك ، لا تنفك عنك ؛ فالمعنى : أن الله ﷻ يقول لنبيه : اصبر لحكم الله ؛ فإنك محوطٌ بعنايتنا وبرؤيتنا لك بالعين التي لا ينالك أحد بسوء [ما دامت تحفظك وتحوطك] .

ولا يمكن أن تكون الباء هنا للظرفية ؛ لأنه يقتضي أن يكون رسول الله ﷺ في عين الله ، وهذا محال .

وأيضًا ؛ فإن رسول الله ﷺ خوطب بذلك وهو في الأرض ؛ فإذا قلتم : إنه كان في عين الله ! كانت دلالة القرآن كذبًا .

وهذا وجه آخر في بطلان دعوى أن ظاهر القرآن أن الرسول ﷺ في عين الله تعالى .

الآية الثانية : قوله تعالى : ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر : ١٣، ١٤] .

﴿وَحَمَلْنَٰهُ﴾ : الضمير يعود على نوح عليه الصلاة والسلام .

وقوله : ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ . أي : على سفينة ذات ألواح ودُسُر ، وهذه السفينة كان عليه الصلاة والسلام يصنعها ، وكان يمر به قومه ، فيسخرون منه ، فيقول : ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود : ٣٨] .

صنعها بأمر الله ورعاية الله وعنايته ، وقال الله له : ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود : ٣٧] . فالله تعالى ينظر إليه وهو يصنع الفلك ، ويلهمه كيف يصنعها .

ووصفها الله هنا في قوله : ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ : ﴿ذَاتِ﴾ : بمعنى صاحبة . والألواح : الخشب . والدسر : ما يربط به الخشب كالمسامير والحبال وما أشبه ذلك ، وأكثر المفسرين على أن المراد بها المسامير التي تربط بها الأخشاب .

﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ : هذا الشاهد : ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ : أي ذات الألواح والدسر بأعين الله ﷻ . والمراد بالأعين هنا عينان فقط ؛ كما مرَّ . ومعنى تجري بها ؛ أي : مصحوبة بنظرنا بأعيننا ؛ فالباء هنا للمصاحبة ، تجري على الماء الذي نزل من السماء ونبع من الأرض ؛ لأن نوحًا عليه الصلاة والسلام دعا ربه ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر : ١٠] ؛ قال الله تعالى : ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر : ١١، ١٢] ؛ فكانت هذه السفينة تجري بعين الله ﷻ .

قد يقول قائل : لماذا لم يقل : وحملناه على السفينة ، أو : حملناه على فلك ، بل قال : ﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ ؟

والجواب على هذا أن نقول : عَدَلَ عن التعبير بالفلك والسفينة إلى التعبير بذات ألواح ودُسر ؛

لوجوه ثلاثة :

الوجه الأول : مرعاة للآيات وفواصلها ؛ فلو قال : حملناه على فلك ؛ لم تتناسب هذه الآية مع ما بعدها ولا ما قبلها . ولو قال : على سفينة ؛ كذلك ، لكن من أجل تناسب الآيات في فواصلها وفي كلماتها قال : ﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ ؟

الوجه الثاني : من أجل أن يتعلم الناس كيف يصنعون السفن ، وبيان أنها من الألواح والمسامير ، ولهذا قال اللَّه تعالى : ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر : ١٥] ؛ فأبقى اللَّه تعالى علمها آية للخلق يصنعون كما ألهم اللَّه تعالى نوحًا .

الوجه الثالث : الإشارة إلى قوتها ، حيث كانت من ألواح ودسر ، والتنكير هنا للتعظيم .

وروعي التركيز على مادتها ، ونظير ذلك في ذكر الوصف دون الموصوف قوله تعالى : ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ [سبأ : ١١] . ولم يقل : دُرُوعًا ، من أجل العناية بفائدة هذه الدروع ، وهي أن تكون سابغة تامَّة ؛ فهذه مثلها .

وقوله : ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ ؛ نقول فيها ما قلناه في قوله تعالى : ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور : ٤٨] .

الآية الثالثة : قوله : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه : ٣٩] .

الخطاب لموسى عليه الصلاة والسلام .

فقوله : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ : اختلف المفسرون في معناها .

فمنهم من قال : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ ؛ يعني : أني أحببتك .

ومنهم من قال : ألقيت عليك محبة من الناس ، والإلقاء من اللَّه ؛ أي أن : من رآك أحبك ، وشاهد هذا أن امرأة فرعون لما رأته أحبته وقالت : ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص : ٩] .

ولو قال قائل : أيمكنكم أن تحملوا الآية على المعنيين ؟ لقلنا : نعم ! بناءً على القاعدة ، وهو أن الآية إذا كانت تحتمل معنيين لا منافاة بينهما ؛ فإنها تُحمل عليهما جميعًا ؛ فموسى عليه الصلاة والسلام محبوب من اللَّه ﷻ ، ومحبوب من الناس ، إذا رآه الناس ؛ أحبوه ، والواقع أن المعنيين متلازمان ؛ لأن اللَّه تعالى إذا أحب عبدًا ؛ ألقى في قلوب العباد محبته .

ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : أحبه اللَّه وحببه إلى خلقه .

ثم قال : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ : الصنع : جعل الشيء على صفة معينة ؛ كصنع صفائح الحديد قدورًا ، وصنع الخشب أبوابًا ، وصنع كل شيء بحسبه ؛ فصناعة البيت : بناء البيت ، وصناعة الحديد : جعلها أواني مثلًا أو محركات ، وصنع الآدمي : معناه التربية البدنية والعقلية ، التربيته البدنية

بالغذاء ، والتربيته العقلية بالآداب والأخلاق وما أشبه ذلك .

وموسى عليه الصلاة والسلام حصل له ذلك ؛ فإنه ربى على عين الله .

لما التقطه آل فرعون ؛ حماه الله ﷻ من قتلهم ، مع أنهم كانوا يقتلون أبناء بنى إسرائيل ، فقضى الله تعالى أن هذا الذى تقتل الناس من أجله سيتربى فى أحضان آل فرعون ؛ فالناس يقتلون من أجله ، وهو يتربى آمنًا فى أحضانهم . وانظر إلى هذه القدرة العظيمة ! !

ومن تربية الله له عرض على المراضع - النساء اللاتى يرضعنه ؛ ولكنه [لم يرضع] من أى واحدة ، [قال تعالى] : ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص : ١٢] ؛ فما رضع من امرأة قط ، وكانت أخته قد انتدبت من قبل أمه ، فرأتهم ، وقالت : ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص : ١٢] . قالوا : نعم ؛ نحن نود هذا . فقالت : اتبعونى . فتبعوها ؛ قال تعالى : ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص : ١٣] ! ولم يرضع من امرأة قط ، مع أنه رضيع ! لكن هذا من كمال قدرة الله وصدق وعده ؛ لأن الله ﷻ قال لها : ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص : ٧] .

الأم شفقتها على ابنها لا أحد يتصورها ؛ قيل لها : اجعلى ابنك فى صندوق ، وألقيه فى البحر ، وسيأتى إليك .

لولا الإيمان الذى مع هذه المرأة ؛ ما فعلت هذا الشيء ! تُلقى ابنها فى البحر ! لو أن ابنها سقط فى تابوته فى البحر ؛ لجرّته فكيف وهى التى تلقيه ؟ ! لكن لثقتها بالرب ﷻ وبوعده ألقته فى اليمّ .

وقوله : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ ؛ بالإفراد ؛ هل يُنافى ما سبق من ذكرها بالجمع ؟ !

الجواب : لا تنافى ، وذلك لأن المفرد المضاف يُعم فيشمل كل ما ثَبت لله من عين ، وحينئذ لا منافاة بين المفرد وبين الجمع أو التثنية .

إذن ؛ يبقى النظر بين التثنية والجمع ؛ فكيف نجمع بينهما ؟ !

الجواب أن نقول : إن كان أقل الجمع اثنين ؛ فلا منافاة ؛ لأننا نقول : هذا الجمع دال على اثنتين ؛ فلا ينافيه . وإن كان أقل الجمع ثلاثة ؛ فإن هذا الجمع لا يُراد به الثلاثة ، وإنما يراد به التعظيم والتناسب بين ضمير الجمع وبين المضاف إليه .

وقد فسّر أهل التحريف والتعطيل العين بالرؤية بدون عين ، وقالوا : ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ : برؤية منا ، ولكن لا عين ، والعين لا يمكن أن تثبت لله ﷻ أبدًا ؛ لأن العين جزء من الجسم ؛ فإذا أثبتنا العين لله ؛ أثبتنا تجزئةً وجسمًا ، وهذا شيء ممتنع ؛ فلا يجوز ، ولكنه ذكر العين من باب تأكيد الرؤية ؛ يعنى : كأنما نراك ولنا عين ، والأمر ليس كذلك ! !

فنقول لهم : هذا القول خطأ من عدَّة أوجه :

الوجه الأول : أنه مخالف لظاهر اللفظ .

الثاني : أنه مخالف لإجماع السلف .

الثالث : أنه لا دليل عليه ؛ أي أن المراد بالعين مجرد الرؤية .

الرابع : أننا إذا قلنا بأنها الرؤية ، وأثبت اللَّه لنفسه عينًا ؛ فلازم ذلك أنه يرى بتلك العين ، وحينئذ يكون في الآية دليل على أنها عين حقيقية .

[إثبات] صفة السمع والبصر للَّه تعالى :

ذكر المؤلف رحمه الله في إثبات صفتي السمع والبصر سَبْعَ آيات :

الآية الأولى : قوله تعالى : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة : ١] .

﴿قَدْ﴾ : للتحقيق .

والمُجَادِلَة : هي التي جاءت إلى النبي ﷺ تشتكي زوجها حين ظاهر منها .

والظِّهار : أن يقول الرجل لزوجته : أنت عليَّ كظهر أمي . أو كلمة نحوها .

وكان الظهار في الجاهلية طلاقًا بائنًا ، فجاءت تشتكي إلى رسول اللَّه ﷺ ، وتبين له كيف يطلقها هذا الرجل ذلك الطلاق البائن وهي أم أولاده ، وكانت تحاور النبي ﷺ ، أي : تراجعه الكلام ، فأفتاها اللَّه ﷻ بما أفتاها به في الآيات المذكورة .

والشاهد من هذه الآيات قوله : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ﴾ . ففي هذا إثبات السمع للَّه سبحانه وتعالى ، وأنه يسمع الأصوات مهما بعدت ومهما خفيت .

قالت عائشة رضي الله عنها : « تبارك – أو قالت : الحمد للَّه – الذي وسِع سمعه الأصوات ، إني لفي ناحية البيت ، وإني ليخفى عليَّ بعض حديثها » . هذا معنى حديثها .

والسمع المضاف إلى اللَّه ﷻ ينقسم إلى قسمين :

١– سمع يتعلق بالمسموعات ؛ فيكون معناه إدراك الصوت .

٢– وسمع بمعنى الاستجابة ؛ فيكون معناه أن اللَّه يجيب من دعاه ؛ لأن الدعاء صوت ينطلق من الداعي ، وسَمِعَ اللَّه دعاءه ؛ يعني : استجاب دعاءه ، وليس المراد سمعه مجرد سماع فقط ؛ لأن هذا لا فائدة منه ، بل الفائدة أن يستجيب اللَّه الدعاء .

فالسمع الذي بمعنى إدراك الصوت ثلاثة أقسام :

أحدها : ما يقصد به التأييد .

والثاني : ما يقصد به التهديد .

والثالث : ما يقصد به بيان إحاطة الله سبحانه وتعالى .

١- أما ما يقصد به التهديد ؛ فكقوله تعالى : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ [الزخرف : ٨٠] ، وقوله : ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران : ١٨١] .

٢- وأما ما يقصد به التأييد ؛ فكقوله تعالى لموسى وهارون : ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه : ٤٦] ؛ أراد الله ﷻ أن يؤيد موسى وهارون بذكر كونه معهما يسمع ويرى ؛ أي : يسمع ما يقولان وما يقال لهما ويراهما ومن أرسلا إليه ، وما يفعلان ، وما يفعل بهما .

٣- وأما ما يقصد به بيان الإحاطة ، فمثل هذه الآية ، وهي : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة : ١] .

الآية الثانية : قوله : ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران : ١٨١] .

﴿لَقَدْ﴾ : جملة مؤكدة باللام ، و(قد) ، والقسم المقدر ؛ تقديره : والله ؛ فهي مؤكدة بثلاث مؤكدات .

والذين قالوا : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ : هم اليهود قاتلهم الله ؛ فهم وصفوا الله بالعيب ؛ قالوا : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ .

وسبب قولهم هذا : أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ [البقرة : ٢٤٥] ، قالوا للرسول ﷺ : يا محمد ، إن ربك افتقر ، يسأل القرض منا .

وقوله : ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ هم قوم من اليهود قالوا هذه المقالة لما أنزل الله : ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة : ٢٤٥] ، قالوا ذلك تمويهًا على ضعفائهم ، لا أنهم يعتقدون ذلك ؛ لأنهم أهل كتاب ، وإنما قالوا ذلك ليشككوا في دين الإسلام .

وأما الآية الثانية : فقد نزلت في فِنحاص اليهودي الخبيث حين قال لأبي بكر رضي الله عنه لما دعاه إلى الإسلام : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر وأنه إلينا لفقير ولو كان غنيًا ما استقرضنا .

الآية الثالثة : قوله : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف : ٨٠] .

﴿أَمْ﴾ في مثل هذا التركيب ؛ يقولون : إنها متضمنة معنى (بل) ، والهمزة ؛ يعني : بل أيحسبون ؛ ففيها إضراب وفيها استفهام ؛ أي : بل أيحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم .

والسر : ما يسره الإنسان إلى صاحبه .

والنجوى : ما يناجي به صاحبه ويخاطبه ؛ فهو أعلى من السر .

والنداء : ما يرفع به صوته لصاحبه .

فها هنا ثلاثة أشياء : سر ومناجاة ونداء .

فمثلًا ؛ إذا كان شخص إلى جانبك ، وساررته ؛ أي : كلمته بكلام لا يسمعه غيره ؛ نسمى هذا مُسارَّةً .

وإذا كان الحديث بين القوم يسمعونه كلهم ويتجاذبونه ، سُمّي مناجاة .

وأما المناداة ؛ فتكون من بعيد لبعيد .

فهؤلاء يسرون ما يقولونه من المعاصي ، ويتناجون بها ؛ فيقول اللَّه ﷻ مهددًا إياهم : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ﴾ .

و﴿بَلَىٰ﴾ : حرف إيجاب ؛ يعني : بلى نسمع ، وزيادة على ذلك : ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ ؛ أي : عندهم يكتبون ما يسرون وما به يتناجون ، والمراد بالرسل هنا الملائكة الموكلون بكتابة أعمال بني آدم ، ففي هذه الآيات إثبات أن اللَّه تعالى يسمع سرهم ونجواهم .

الآية الرابعة : قوله : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه : ٤٦] .

الخطاب لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام ؛ يقول اللَّه سبحانه وتعالى لهما : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ . أي : أسمع ما تقولولان ، وأسمع ما يقال لكما ؛ وأراكما ، وأرى من أرسلتما إليه ، وأرى ما تفعلان ، وأرى ما يُفعل بكما .

لأنه إما أن يساء إليهما بالقول أو بالفعل ؛ فإن كان بالقول ؛ فهو مسموع عند اللَّه ، وإن كان بالفعل ؛ فهو مرئي عند اللَّه .

الآية الخامسة : قوله : ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق : ١٤] .

الضمير في ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ﴾ يعود إلى من يسيء إلى النبي ﷺ لقوله : ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق : ٩ - ١٤] ، وقد ذكر المفسرون أن المراد به أبو جهل .

وفي هذه الآية : إثبات صفة الرؤية للَّه ﷻ .

والرؤية المضافة إلى اللَّه لها معنيان .

المعنى الأول : العلم .

المعنى الثاني : رؤية المبصرات ؛ يعني : إدراكها بالبصر .

فمن الأول : قوله تعالى عن القيامة : ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج : ٦، ٧] ؛ فالرؤية هنا

رؤية العلم ؛ لأن اليوم ليس جسمًا يرى ، وأيضًا هو لم يكن بعد ؛ فمعنى : ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ ؛ أى : نعلمه قريبًا .

وأما قوله : ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ . فهى صالحة لأن تكون بمعنى العلم وبمعنى الرؤية البصرية ، وإذا كانت صالحة لهما ، ولا منافاة بينهما وجب أن تُحمل عليهما جميعًا ، فيقال : إن اللَّه يرى ؛ أى : يعلم ما يفعله هذا الرجل وما يقوله ، ويراه أيضًا .

الآية السادسة : قوله : ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء : ٢١٨ - ٢٢٠] .

قبل هذه الآية قوله : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الشعراء : ٢١٧] .

والرؤية هنا رؤية البصر ؛ لأن قوله : ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ لا تصح أن تكون بمعنى العلم ؛ لأن اللَّه يعلم به حين يقوم وقبل أن يقوم ، وأيضًا لقوله : ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ، وهو يؤيد أن المراد بالرؤية هنا رؤية البصر .

ومعنى الآية : أن اللَّه تعالى يراه حين يقوم للصلاة وحده وحين يتقلب فى الصلاة مع الساجدين فى صلاة الجماعة .

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ : ﴿إِنَّهُۥ﴾ ؛ أى : اللَّه الذى يراك حين تقوم : ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ .

وفى الآية هنا ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ ؛ من فوائده الحصر ؛ فهل الحصر هنا حقيقى ؛ بمعنى : أنه حصر لا يوجد شىء من المحصور فى غير المحصور فيه ، أو هو إضافى ؟

الجواب : هو إضافى من وجه حقيقى من وجه ؛ لأن المراد بـ : ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ هنا : ذو السمع الكامل المدرك لكل مسموع ، وهذا هو الخاص باللَّه ﷻ ، والحصر بهذا الاعتبار حقيقى ، أما مطلق السمع ؛ فقد يكون من الإنسان ؛ كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان : ٢] ؛ فجعل اللَّه تعالى الإنسان سميعًا بصيرًا . وكذلك ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ ؛ فإن الإنسان عليم ؛ كما قال اللَّه تعالى : ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات : ٢٨] ، لكن العلم المطلق - أى : الكامل - خاص باللَّه سبحانه وتعالى ؛ فالحصر بهذا الاعتبار حقيقى .

وفى هذه الآية الجمع بين السمع والرؤية .

الآية السابعة : قوله : ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

والذى قبل هذه الآية : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة : ١٠٣، ١٠٤] .

في هذه الآية يقول : ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ .

قال ابن كثير وغيره : قال مجاهد : هذا وعيد - يعني من الله تعالى - للمخالفين أوامره ؛ بأن أعمالهم ستُعرض عليه وعلى الرسول والمؤمنين ، وهذا كائن لا محالة يوم القيامة ، وقد يظهر ذلك للناس في الدنيا . والرؤية هنا شاملة للعلمية والبصرية .

ففي الآية : إثبات الرؤية بمعنييها : الرؤية العلمية ، والرؤية البصرية .

وخلاصة ما سبق من صفتي السمع والرؤية :

أن السمع ينقسم إلى قسمين :

١- سمع بمعنى الاستجابة . ٢- وسمع بمعنى إدراك الصوت .

وأن إدراك الصوت ثلاثة أقسام .

وكذلك الرؤية تنقسم إلى قسمين :

١- رؤية بمعنى العلم . ٢- ورؤية بمعنى إدراك المبصرات .

وكل ذلك ثابت لله ﷻ .

والرؤية التي بمعنى إدراك المبصرات ثلاثة أقسام :

١- قسم يقصد به النصر والتأييد ؛ كقوله : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه : ٤٦] .

٢- وقسم يقصد به الإحاطة والعلم ؛ مثل قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء : ٥٨] .

٣- وقسم يقصد به التهديد ؛ مثل قوله : ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة : ٩٤] .

ما نستفيده من الناحية المسلكية في الإيمان بصفتي السمع والرؤية :

- أما الرؤية ؛ فنستفيد من الإيمان بها الخوف والرجاء : الخوف عند المعصية ؛ لأن الله يرانا . والرجاء عند الطاعة ؛ لأن الله يرانا . ولا شك أنه سيثيبنا على هذا ؛ فتتقوى عزائمنا بطاعة الله ، وتضعف إرادتنا لمعصيته .

- وأما السمع ؛ فالأمر فيه ظاهر ؛ لأن الإنسان إذا آمن بسمع الله ؛ استلزم إيمانه كمال مراقبة الله تعالى فيما يقول خوفًا ورجاءً : خوفًا ؛ فلا يقول ما يسمع الله تعالى منه من السوء ؛ ورجاءً ؛ فيقول الكلام الذي يرضى الله ﷻ .

[إثبات] صفة المكر والكيد والمحال لله تعالى :

ذكر المؤلف رحمه الله ثلاث صفات متقاربة في أربع آيات : المحال ، والمكر ، والكيد :

الآية الأولى : في المحال ، وهي قوله : ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد : ١٣] .

أى : شديد الأخذ بالعقوبة . وقيل : إن المحال بمعنى المكر ؛ أى : شديد المكر ، وكأنه على هذا التفسير مأخوذ من الحيلة ، وهى أن يتحيل بخصمه حتى يوقع به . وهذا المعنى ظاهر صنيع المؤلف رحمه الله ؛ لأنه ذكرها في سياق آيات المكر والكيد .

والمكر ؛ قال العلماء في تفسيره : إنه التوصل بالأسباب الخفية إلى الإيقاع بالخصم ؛ يعنى : أن تفعل أسبابًا خفية فتوقع بخصمك وهو لا يحس ولا يدرى ، ولكنها بالنسبة لك معلومة مدبرة .

والمكر يكون في موضع مدحًا ويكون في موضع ذمًّا : فإن كان في مقابلة من يمكر ؛ فهو مدح ؛ لأنه يقتضى أنك أنت أقوى منه . وإن كان في غير ذلك ؛ فهو ذمٌّ ويسمى خيانة .

ولهذا لم يصف الله نفسه به إلا على سبيل المقابلة والتقييد ؛ كما قال الله تعالى : ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل : ٥٠] ، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ [الأنفال : ٣٠] ، ولا يوصف الله سبحانه وتعالى به على الإطلاق ؛ فلا يقال : إن الله ماكر ! لا على سبيل الخبر ، ولا على سبيل التسمية ، ولا يقال : إنه كائد ! لا على سبيل الخبر ، ولا على سبيل التسمية ؛ ذلك لأن هذا المعنى يكون مدحًا في حال ويكون ذمًّا في حال ؛ فلا يمكن أن نصف الله به على سبيل الإطلاق .

فأما قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران : ٥٤] ؛ فهذا كمال ، ولهذا لم يقل : أمكر الماكرين بل قال : ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ . فلا يكون مكره إلا خيرًا ، ولهذا يصح أن نصفه بذلك ؛ فنقول : هو خير الماكرين . أو نصفه بصفة المكر في سبيل المقابلة ؛ أى : مقابلة من يمكر به ، فنقول : إن الله تعالى ماكر بالماكرين ؛ لقوله تعالى : ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ .

الآية الثانية : في المكر ، وهي قوله : ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران : ٥٤] .

هذه نزلت في عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ، مكر به اليهود ليقتلوه ، ولكن كان الله تعالى أعظم منهم مكرًا ، رفعه الله [إليه] ، وألقى شبهه على أحدهم ، على الذى تولى كبره وأراد أن يقتله ، فلما دخل عليه هذا الذى يريد القتل [لعيسى عليه السلام] ، وإذا عيسى قد رفع ، فدخل الناس ، فقالوا : أنت عيسى ! قال : لست عيسى ! فقالوا : أنت هو ! لأن الله تعالى ألقى عليه شبهه ، فقتل هذا الرجل الذى كان يريد أن يقتل عيسى ابن مريم ؛ فكان مكره عائدًا عليه ، ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ .

الآية الثالثة : في المكر أيضًا ، وهي قوله : ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل : ٥٠] .

هذا فى قوم صالح ، كان فى المدينة التى كان يدعو الناس فيها إلى اللَّه تسعة رهط - أى : أنفار - ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [النمل : ٤٩] . يعنى : لنقتلنه بالليل ، ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ . يعنى : أنهم قتلوه بالليل ؛ فما يشاهدونه . لكن مكروا ومكر اللَّه ! قيل : إنهم لما خرجوا ليقتلوه ، فلجئوا إلى غار ينتظرون الليل ؛ انطبق عليهم الغار ، فهلكوا ، وصالح وأهله لم يمسهم سوء ، فيقول اللَّه : ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ .

و﴿مَكْرًا﴾ : فى الموضعين منكرة للتعظيم ؛ أى : مكروا مكرًا عظيمًا ، ومكرنا مكرًا أعظم .

الآية الرابعة : فى الكيد ، وهى قوله : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق : ١٥، ١٦] .

﴿إِنَّهُمْ﴾ ؛ أى : كفار مكة ، ﴿يَكِيدُونَ﴾ للرسول ﷺ ﴿كَيْدًا﴾ لا نظير له فى التنفير منه ومن دعوته ، ولكن اللَّه تعالى يكيد كيدًا أعظم وأشد .

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ ؛ يعنى : كيدًا أعظم من كيدهم .

ومن كيدهم ومكرهم ما ذكره اللَّه فى سورة « الأنفال » : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال : ٣٠] : ثلاثة آراء :

١- ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ . يعنى : يحبسوك .
٢- ﴿يَقْتُلُوكَ﴾ . يعنى : يعدموك .
٣- ﴿يُخْرِجُوكَ﴾ . يعنى : يطردوك .

وكان رأى القتل أفضل الآراء عندهم بمشورة من إبليس ؛ لأن إبليس جاءهم بصورة شيخ نجدى ، وقال لهم : انتخبوا عشرة شبان من عشر قبائل من قريش ، وأعطوا كل واحد سيفًا ، ثم يعمدون إلى محمد ﷺ ، فيقتلونه قتلة رجل واحد ، فيضيع دمه فى القبائل ؛ فلا تستطيع بنو هاشم أن تقتل واحدًا من هؤلاء الشبان وحينئذ يلجئون إلى الدية ، فتسلمون منه . فقالوا : هذا الرأى ! ! وأجمعوا على ذلك . ولكنهم مكروا مكرًا واللَّه تعالى يمكر خيرًا منه ؛ قال اللَّه تعالى : ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال : ٣٠] ؛ فما حصل لهم الذى يريدون ! بل إن الرسول عليه الصلاة والسلام خرج من بيته ، يذر التراب على رءوس العشرة هؤلاء ، ويقرأ [قوله تعالى] : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس : ٩] ؛ فكانوا ينتظرون الرسول عليه الصلاة والسلام يخرج ، فخرج ، من بينهم ، ولم يشعروا به .

إذن ؛ صار مكر اللَّه ﷻ أعظم من مكرهم ؛ لأنه أنجى رسوله منهم وهاجر .

قال هنا : ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق : ١٥، ١٦] ، والتنكير فيها للتعظيم ، وكان كيد اللَّه ﷻ أعظم من كيدهم .

وهكذا يكيد اللَّه ﷻ لكل من انتصر لدينه ؛ فإنه يكيد له ويؤيده ؛ قال اللَّه تعالى : ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا

لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦]. يعني: عملنا عملًا حصل به مقصوده دون أن يشعر به أحد.

وهذا من فضل الله ﷻ على المرء: أن يقيه شر خَصمه على وجه الكيد والمكر على هذا الخصم الذي أراد الإيقاع به.

فإن قلت: ما تعريف المكر والكيد والمِحَال؟

فالجواب: تعريفها عند أهل العلم: التوصل بالأسباب الخفية إلى الإيقاع بالخصم؛ يعني: أن توقع بخصمك بأسباب خفية لا يدرى عنها.

وهي في محلها صفة كمال يحمد عليها، وفي غير محلها صفة نقص يذم عليها.

ويذكر أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما بارز عمرو بن وُدٍّ - والفائدة من المبارزة أنه إذا غلب أحدهما انكسرت قلوب خصومه، فلما خرج عمرو؛ صرخ علي: ما خرجت لأبارز رجلين. فالتفت عمرو، فلما التفت؛ ضربه علي رضي الله عنه على رقبته حتى أطاح برأسه!

هذا خداع، لكنه جائز، ويحمد عليه؛ لأنه في موضعه؛ فإن هذا الرجل ما خرج ليكرم علي بن أبي طالب ويهنئه، ولكنه خرج ليقتله؛ فكاد له عليٌّ بذلك.

والمكر والكيد والمحال من صفات الله الفعلية التي لا يوصف بها على سبيل الإطلاق؛ لأنها تكون مدحًا في حال، وذمًّا في حال؛ فيوصف بها حين تكون مدحًا، ولا يوصف بها إذا لم تكن مدحًا؛ فيقال: الله خير الماكرين، خير الكائدين، أو يقال: الله ماكر بالماكرين، خادع لمن يخادعه.

والاستهزاء من هذا الباب؛ فلا يصح أن نخبر عن الله بأنه مستهزئ على الإطلاق؛ لأن الاستهزاء نوع من اللعب، وهو منفي عن الله؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨]. لكن في مقابلة من يستهزئ به يكون كمالًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]؛ قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥].

فأهل السنة والجماعة يثبتون هذه المعاني لله ﷻ على سبيل الحقيقة.

لكن أهل التحريف يقولون: لا يمكن أن يوصف الله بها أبدًا، لكن ذكر مكر الله ومكرهم من باب المشاكلة اللفظية، والمعنى مختلف؛ مثل: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

ونحن نقول لهم: هذا خلاف ظاهر النص، وخلاف إجماع السلف.

وقد قلنا سابقًا: إذا قال قائل: ائت لنا بقول لأبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي يقولون فيه: إن المراد بالمكر والكيد والاستهزاء والخداع الحقيقة!

فنقول لهم: نعم؛ هم قرءوا القرآن وآمنوا به، وكونهم لم ينقلوا هذا المعنى المتبادر إلى معنى آخر؛

يدل على أنهم أقروا به ، وأن هذا إجماع ، ولهذا يكفينا أن نقول فى الإجماع : لم ينقل عن واحد منهم خلاف ظاهر الكلام ، وأنه فسر الرضا بالثواب ، أو الكيد بالعقوبة . .. ونحو ذلك .

وهذه الشبهة ربما يوردها علينا أحد من الناس ؛ فيقولون : أنتم تقولون : هذا إجماع السلف ؛ أين إجماعهم ؟ نقول : عدم نقل ما يخالف ظاهرها عنهم دليل الإجماع .

ما نستفيده من الناحية المسلكية فى إثبات صفة المكر والكيد والمحال :

المكر : يستفيد به الإنسان بالنسبة للأمر المسلكى مراقبة اللَّه سبحانه وتعالى ، وعدم التحيل على محارمه ، وما أكثر المتحيلين على المحارم ! فهؤلاء المتحيلون على المحارم ، إذا علموا أن اللَّه تعالى خير منهم مكرًا ، وأسرع منهم مكرًا ؛ فإن ذلك يستلزم أن ينتهوا عن المكر . ربما يفعل الإنسان شيئًا فيما يبدو للناس أنه جائز لا بأس به ، لكنه عند اللَّه ليس بجائز ، فيخاف ، ويحذر .

وهذا له أمثلة كثيرة جدًّا فى البيوع والأنكحة وغيرهما :

مثال ذلك فى البيوع : رجل جاء إلى آخر ؛ قال : أقرضنى عشرة آلاف درهم . قال : لا أقرضك إلا باثنى عشر ألفًا ! وهذا ربًا وحرام سيتجنبه لأنه يعرف أنه ربا صريح ! لكن باع عليه سلعة باثنى عشر ألفًا مؤجلة إلى سنة بيعًا تامًّا ، وكتبت الوثيقة بينهما ، ثم إن البائع أتى إلى المشترى ، وقال : بعنيه بعشرة آلاف نقدًا . فقال : بعتك إياه . وكتبوا بينهما وثيقة بالبيع !

فظاهر هذا البيع الصحة ، ولكن نقول : هذه حيلة ؛ فإن هذا لما عرف أنه لا يجوز أن يعطيه عشرة آلاف باثنى عشر ألفًا ؛ قال : أبيع السلعة عليه باثنى عشر ، وأشتريها نقدًا بعشرة .

ربما يستمر الإنسان فى هذه المعاملة لأنها أمام الناس معاملة ليس فيها شيء ، لكنها عند اللَّه تحيل على محارمه ، وقد يملى اللَّه تعالى لهذا الظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته ؛ يعنى : يتركه ينمو ماله ويزداد وينمو بهذا الربا ، لكن إذا أخذه لم يفلته ، وتكون هذه الأشياء خسارة عليه فيما بعد ، ومآله إلى الإفلاس ، ومن الكلمات المشهورة على ألسنة الناس : من عاش فى الحيلة مات فقيرًا .

مثال ذلك فى الأنكحة : امرأة طلقها زوجها ثلاثًا ؛ فلا تحل له إلا بعد زوج ، فجاء صديق له فتزوجها بشرط أنه متى حللها - يعنى : جامعها - طلقها، ففعل ؛ [و]تزوج بعقد وشهود ومهر ، ودخل عليها ، وجامعها ، ثم طلقها ، ولما طلقها ؛ أتت بالعدة ، وتزوجها الأول ؛ فإنها ظاهرًا تحل للزوج الأول ، لكنها باطنًا لا تحل ؛ لأن هذه حيلة .

فمتى علمنا أن اللَّه أسرع مكرًا ، وأن اللَّه خير الماكرين ؛ أوجب لنا ذلك أن نبتعد غاية البعد عن الحيل على محارم اللَّه .

❁ ❁ ❁

فهرس موضوعات الجزء الأول

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

من إصدارتنا

تحذير أولي الحجا بمفاسد

الربـــــا

تاليف

الدكتور علاء بكر

